يونيو الى دسمبر سنة ١٩٣٢

June—December 1932

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرُّوف والدكتور فارس نمر

المجلد الحادي والثمانين

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

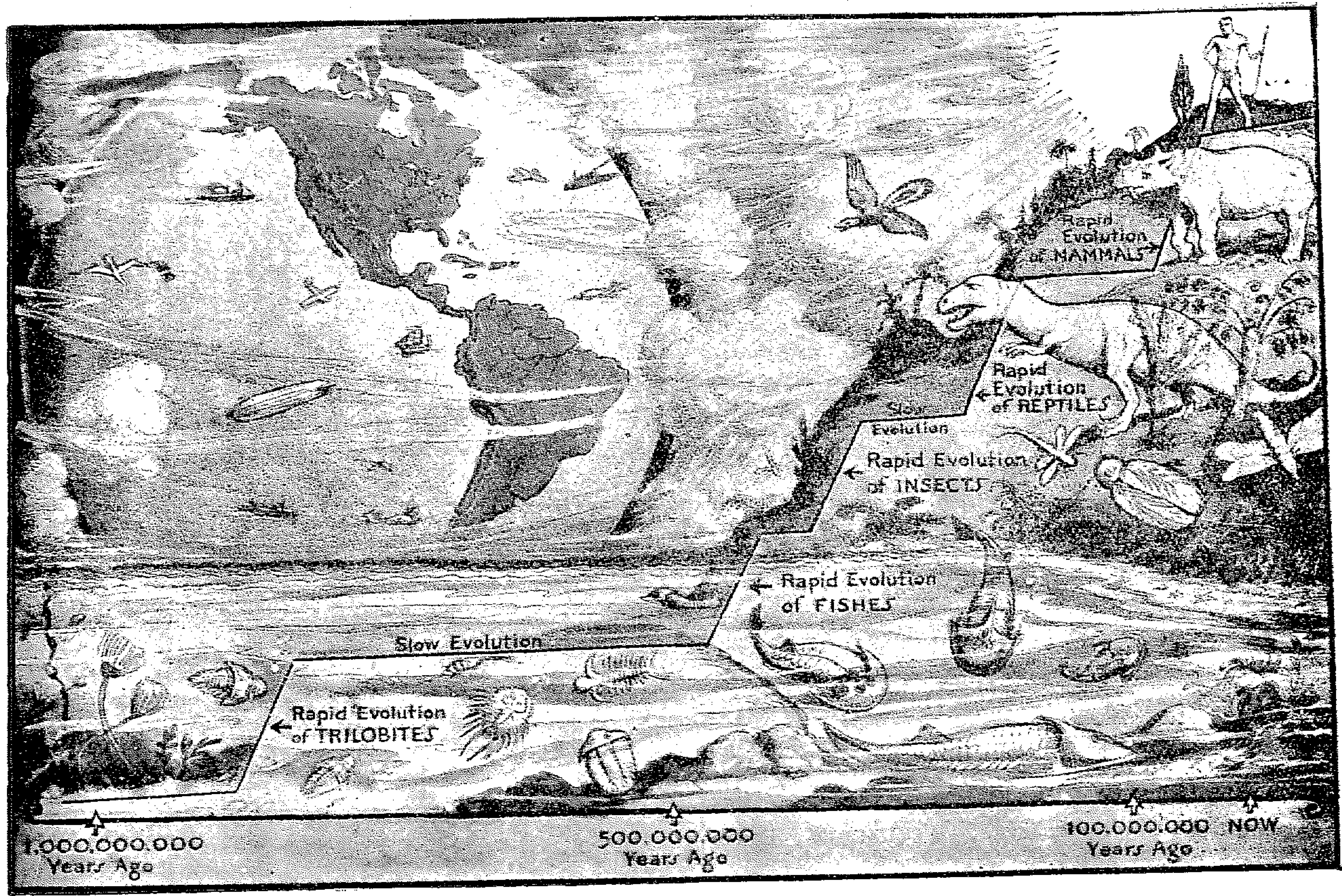
Edited by : FUAD SARRUF

VOL. LXXXI

FOUNDED 1876 BY DRS Y. SARRUF & F. NIMR

فهرس المجلد الحادي والثمانين

النجمة امام العنوان تشير الى ان المقالة مصورة



رسم يوضح « أثر الاشعة الكونية في نشوء الاحياء وتطورها » فانك ترى الكرة الارضية في نصف الصورة الايسر وزاويته العليا مغمورة بفيض من هذه الاشعة. وفي نصف الصورة الايمن وزاويته ترى رسما يوضح مراتب النشوء

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الاول من المجلد الحادي والثمانين
١ يونيو سنة ١٩٣٢ ٢٥ محرم سنة ١٣٥١

داروِن ومذهبه

بعد خمسين سنة

تحول المذهب واتجاهاته الحديثة

في ١٩ ابريل سنة ١٨٨٢ مات تشارلز داروِن ، الذي قال فيه الاستاذ وليم باتسن « ان داروِن لم يخلّف نظريةً بل علماً» والسر فرنسيس غلتن احد مؤسسي علم الوراثة الحديث وعلم اليوجنية : « ان كتاب اصل الانواع دستور (Magna Carta) الحريات الفكرية » . والاستاذ هنري فرفيلد اوزبورن « حلقات تحرير العقل من قيود الاوهام ثلاث : الاولى لكوبرنكس الفلكي . والثانية كتاب اصل الانواع لداروِن . والثالثة كتاب تسلسل الانسان لداروِن كذلك . فهو في تاريخ المعارف ثاني ارسطوطاليس» . فيجدر بنا ان نقف هنيهة عند ذكرى وفاتهِ سائلين : اين نحن الآن من آراء داروِن كما بسطها في اشهر كتبهِ «اصل الانواع» و «تسلسل الانسان» ؟

ان مقام «نظرية التطور العضوي» — وهي في رأي طائفة كبيرة من العلماء اعظم ما اضيف الى مجموعة الفكر الانساني في القرن التاسع عشر — لا يزال يحوطهُ كثير من الابهام في اذهان العامة ، لكثرة الحقائق التي كشف عنها الباحثون في ميدان علوم الاحياء بعد وفاة داروِن وتشعب مدلولاتها ، واضطراب ما يكتبه الكتاب المعارضون عن انهيار نظريته من دون ان يجشموا انفسهم مؤونة البحث العلمي في حقيقة ما يقال في تفسير الحقائق الجديدة ومعرفة صلتها بنظرية داروِن الاصلية

ما اضافه داروين

ان ما اضافهُ داروِن الى البحث في هذا الموضوع ذو ناحيتين .(فأولاً) جمع من الادلة المؤيدة لحدوث التطوُّر العضوي طائفة تفوق ما جمعه غيره من الباحثين . ويكفينا ان نعلم في هذه الناحية ان رحلتهُ على السفينة «بيغل» استغرقت خمس سنوات لم ينِ في خلالها عن جمع المشاهدات الطبيعية وتدوينها ، وانهُ قضى ثماني سنوات وهو يبحث في السريبديا (Cirripedia) وهي طائفة من الحيوانات الدنيا فكشف له البحث القناع عن ناموس الانتخاب الطبيعي . ثمَّ ان اعداد كتابهِ «اصل الانواع» وتمحيصه استغرق احدى وعشرين سنة ولو لم يتفق للعالم ولس Wallace ان اهتدى حينئذٍ الى تعليل تحوُّل الانواع بالانتخاب الطبيعي وعزم على نشر ذلك ، لما نشر داروِن كتابهُ سنة ١٨٥٩ كما فعل

و(ثانياً) انهُ اول من اخرج مذهباً علميًّا معقولاً لتعليل الطريقة التي تمَّ بها التطوُّر . كان بعض العلماء الفلاسفة قد تناولوا هذا الموضوع قبل داروِن ، ولكن احداً منهم لم يوفَّق الى نظرية توضح اسلوبه . فظل زعماء الفكر العلمي معرضين عن تأييد «حقيقة التطور» حتى اخرج داروِن اصل الانواع وكتبه الاخرى . ولا بدَّ من ان نقول هنا ان العالِم «الفرد رسل ولس» يحسب حقًّا قسيم داروِن في فخر اكتشاف مبدإ «الانتخاب الطبيعي» . ولكن كلاً منهما اكتشفه على حدة . فداروِن استخلصهُ من مشاهداته الواسعة النطاق لتغيُّر الاحياء . ثم قرأ كتاب ملثوس (الذي ذهب فيهِ الى ان عدد السكان اسرع زيادة من موارد الغذاءِ) فخطر على باله ان ثمة تنازع بين الاحياء وان التباينات الموافقة للبيئة تبقى وغير الموافقة تندثر فينجم عن ذلك نوع جديد من الاحياء. اما ولِس فاكتشف هذا المبدأ في ومضة وحي اذ كان يعاني سكرات الحمى سنة ١٨٥٧ ، وكان قد قرأ كتاب «رحلة البيغل» الذي وضعهُ داروِن فبعث بخلاصة فكرته في رسالة موجزة الى داروِن جاء فيها «واذا كان هذا الرأي على جانب كافٍ من الخطر فأرجو عرضه على السر تشارلز ليل» (الجيولوجي الكبير)

ماذا يفعل داروِن ؟ كان قد قضى عشرين سنة وهو يعالج هذا الاكتشاف محاولاً تأييده بألوف الادلة الطبيعية ، فهل يضرب ببحثهِ عرض الحائط مؤثراً نشر رسالة ولس على كتابهِ او يخفي رسالة ولس الى ان تظهر آراؤه ؟ ولو انهُ فعل هذا لقلنا استولى عليهِ ضعف الطبيعة البشرية واشفق على عشرين سنة من حياتهِ تذهب هباءً . ولكنهُ عزم في الحال ان ينشر رسالة ولس ، التي اؤتمن عليها. ولولا اصرار العالِمين هوكر (النباتي) وليل (الجيولوجي) — وكان قد تناقش معهما في مذهبهِ من قبل — على وجوب تلخيص آرائهِ في رسالة تتلى مع رسالة ولس في آنٍ واحد لما فعل

اما عن ثبوت وقوع التطور فأمر لا ريبة فيه . وما زال العلماء يجمعون الادلة حتى اصبح

التطور في نظر كل عالِم يؤبه له «حقيقة» لا جدال فيها. وأما عن طريقة التطور ففيه اختلاف. فقد كان الاتجاه من نحو ثلاثين سنة الى اهمال «نظرية الانتخاب الطبيعي» ورفض حسبانها كافية لتعليل التحوُّل المشهود في الاحياء. فاذ يطلع القارىء على قول احد الكتاب المبسطين للعلم بأن «المذهب الداروني قد قضى عليهِ» فالغالب ان الكاتب يشير الى هذا الاتجاه الخاص، اي عدم التسليم بكفاية «الانتخاب الطبيعي» لتعليل التطوُّر. «ولكن الاعتراض على «الانتخاب الطبيعي» قد ضعفت وطأتهُ الآن — على حد قول الاستاذ جوليان هكسلي — وفي الحقائق الجديدة التي كشفت في العقد الاخير، والآراء التي بنيت عليها ما يحمل علماء الاحياء على التسليم بأن الانتخاب الطبيعي — هو كما قال داروِن نفسهُ — اهم العوامل المحدثة للتباينات في الحيوان والنبات التي تجمعها لفظة تطور». فلنعمد الآن الى تلخيص ما اصاب «مذهب التطور» من التحول بعد وفاة داروِن

ادلة التطوُّر

نلتفت اولاً الى الادلة المثبتة لحقيقة النشوء. في هذا الميدان ارتقت علوم الاحياء ارتقاءً عظيماً، فكشف الباحثون عن تاريخ تطور الحياة كما يبدو في آثار الحيوانات والنباتات المتحجرة. فلما كتب داروِن كتابه «اصل الانواع» لم يعرف الباحثون سلسلة كاملة من الآثار المتحجرة تبين ارتقاء نوع واحد من انواع الحيوان. ونظرة واحدة الى ذلك الكتاب تبين ما كان يشعر بهِ داروِن من الغصة والحسرة لوجود هذه الهوة بين الرأي والواقع. ولكن الهوة قد ردمت الآن. وفي استطاعة الباحثين ان يتابعوا تطور الحياة كما يبدو في الآثار المتحجرة التي خلفتها طائفة كبيرة من الحيوانات والنباتات. والمثل الاشهر الذي يضرب في هذا الصدد هو «تطوُّر الفرس». ولكن ثمة مجموعات كاملة تبين تطوُّر الفيل والرتسا والببر وغيرها. والخلاصة انهُ حيث نجد مجموعة وافية من آثار متحجرة لحيوان معين او لنبات معين، نجد دليلاً قاطعاً على حدوث تطور متدرج من البسيط الى المختص المعقد وهو اساس النشوء

وقد كان الانسان البدائي والقردة يعيشون في احوال لا تؤاتي حفظ هيا كلهم آثاراً متحجرةً في بطن الارض. ومع ذلك لدى علماء الاحياء وعلماء تاريخ الانسان ادلة جلية على حدوث التطوُّر. فبين الطراز الذي يمثله قرد من القرود العليا ذو دماغ متوسط الحجم وفكين بارزين وذقن مرتدة، وبين الانسان الحديث ذي الدماغ الكبير والفكين الصغيرين والاسنان الدقيقة والذقن البارزة، نجد آثار ستة امثلة او سبعة من الاحياء متوسطة بينهما متدرجة في صفاتها كانت بمثابة مراحل قطعها الثاني في تطوُّرهِ من الطراز الاول. ولا يمرُّ عقد من السنين الا ويأتي بامثلة جديدة. ففي السنوات العشر الاخيرة كشفت جمجمة الجليل في كهف تبغا بفلسطين،

وجمجمة جنوب افريقية في توْنغز بالترنسفال، وجمجمة بكين بالصين

اما الادلة الاخرى فليس هنا مقام بسطها وانما نكتفي بالاشارة اليها اشارة موجزة. فدليل التفرُّق الجغرافي من اوضحها دلالةً واكثرها استرعاءً للعناية . واذا كانت الحال الحاضرة لم تنشأ بفعل التطوُّر ، فكيف نستطيع ان نعلّل ان حيوانات الجزائر المنثورة في المحيطات محصورة في نطاق يشمل الحيوانات التي تقطع البحار على اجنحة التيارات الهوائية او عالقة بارجل الطيور . اوخذ جزائر ارخبيل غالپاغوس ، التي يقال انها قمم براكين كانت قائمة على سطح شبهِ جزيرةٍ، فلما حدث لشبه الجزيرة ما اغرقها ظلّت قمم البراكين جزائر منثورة على سطح الماءِ . فمن الحيوانات الخاصة بهذه الجزائر «السلاحف الضخمة اوالجبارة ». ولهذا النوع من الحيوان عشرة اصناف مختلفة موزعة على جزائر الارخبيل العشر . والاصناف التي على الجزائر النائية اشدُّ تبايناً من الاصناف التي على الجزائر المتجاورة . ثم انك تجد خمسة اصناف مختلفة في نواحٍ مختلفة من جزيرة واحدة هي اكبر الجزائر مساحة وتعرف بجزيرة «البمرل» . فاذا نحن انعمنا النظر في هذه الحقائق لم نجد سبيلاً الى تعليلها الاّ اذا فرضنا ان هذه الاصناف المتباينة نشأت من اصل واحد كان يقطن شبه الجزيرة ، وانها تغيرت تغيراً طفيفاً متدرجاً بحسب احوال الجزيرة ، وان الحواجز المائية منعت التزاوج المفضي الى اشتراك الطائفة كلها في ما اصابهُ بعضها من التغاير —لا يخفى ان هذه السلاحف الجبارة لا تستطيع السباحة— اما اختلاف الاصناف على جزيرة واحدة فلعل سببهُ تكوينِ سطح الجزيرة نفسها وقيام حواجز بين البقاع التي تقطنها الطوائف المختلفة فتمنع اتصالها ، لانّ الجزيرة اصلها بركاني وسبل السير فيها وعرة . ويقال ان داروِن زار هذه الجزائر اذ جاءها في رحلة « البيغل » فلحظ ان لكل جزيرة منها صنفاً خاصًّا بها من هذه السلاحف فقال ان هذه المشاهدة « قربتهُ من عمل الخلق نفسهِ »

ثم هناك الادلة المستمدة من البناء التشريحي . فذراع الانسان، وجناح الخفاش، وزعنف الحوت ، وقائمة الحصان الامامية ، وجناح الطائر ، وذراع الزرافة كلها اعضاء مختلفة الشكل والمظهر . ولكنها مع ذلك تحتوي على نفس العظام الاساسية والعضلات والاوعية الدموية والاعصاب . ما اصعب تعليل هذا التشابه الكائن بين هذه الاعضاء بمذهب الخلق المستقل ! على ان فكرة النشوء تطلق الضوء في طريق فهم هذا التشابه العميق رغم الاختلاف السطحيّ . ثم هناك الدليل المستمد من علم الاجنة ، ومؤداه ان نموّ الفرد يلخص لنا تطور السلالة التي يمتُّ اليها، والدليل المبني على درس الاعضاء الأثرية وتعليلها بعدم الاستعمال فتضمر ولكنها لا تضمحلّ ، والدليل المستخرج من تجارب مؤصلي الحيوانات والنباتات، فالحمامة البيتية نشأت تحت رعاية الانسان من الحمامة الجبلية

اضف الى ذلك ما عثر عليهِ الباحثون في انحاء الأرض من الحقائق الجديدة عن تحوُّل

الانواع . فقد وجدوا مثلاً انهُ يندر ان تجد نوعاً واحداً من النبات او الحيوان وقد جمد من دون تحوُّل في بقاع واسعة . ومعظم الانواع يمكن تقسيمها الى اقسام اصغر تعرف « بارداف الانواع »(شرف) Sub - species وهي تعرف كذلك بالسلالات الجغرافية. والفروق بين ارداف الانواع هذه دقيقة جدًّا ، ولكن اذا قام بين ردفين نوع فاصل جغرافي يصعب عليهما اجتيازهُ انبتت الصلة بين الردفين واصبح كلٌّ منهما طرازاً جديداً Type . وهذا يبين لنا فعل التطور كما هو جارٍ الآن. فالنوع يتحوَّل الى سلالات جغرافية جديدة يشتدّ الاختلاف بينها باشتداد الفواصل . ثم ان بين كل الطوائف التي يتكون منها نوع معيّن فروقاً طفيفة جدًّا تجعل اسم « النوع » مجرَّد اصطلاح تصنيفي لان تيار الحياة لا يعرف الجمود فهو دائم التجزؤ الى جداول وسواقٍ ، ودرس هذه التحولات الجغرافية يرينا مراحل التجزؤ

هذا فيما يتعلق « بحقيقة » التطور . فان الادلة المتجمعة من ميادين البحث الحيوي تثبتها اثباتاً قاطعاً للشك وليس ثمة عالم يؤبه لهُ ينكر وقوعها

طريقة التطور

وليست الحال كذلك فيما يتعلق بالطريقة أو الاسلوب الذي جرى عليهِ التطوّر . فثمة بين العلماء تضارب في الاراء . ويمكننا تلخيص رأي داروِن بقولنا : — كل الحيوانات والنباتات تخلف من النسل اكثر مما يحتمل بلوغهُ مدى الحياة . واذاً نجد بينها نزاعاً على البقاء . ولما كان التغاير أو التباين (Variation) حقيقة شاملة لا ريبة فيها فلا بد ان تجد اختلافاً أو تغايراً — مهما يكن طفيفاً — بين افراد النسل . ففي النزاع على البقاء يكون بقاء الافراد الذين يتصفون بتغايرات موافقة تعدّهم للحياة الجديدة ، اكثر احتمالاً من بقاء الافراد الذين لم يتصفوا بهذه الصفات أو ما يشبهها ، فيعجزون عن مجاراة عوامل البيئة فيقضى عليهم قبل نموهم واخلافهم نسلاً . ثم ان طائفة ليست قليلة من هذه التغايرات تورَّث ، فينتقل بعض التحسين في النسل ، الذي تمَّ بهذا الانتقاء أو الانتخاب ، الى الجيل الثاني ، فيبدأ الحياة على مستوى اعلى قليلاً من الجيل السابق . فاذا تواتر هذا الفعل في اجيال متتابعة حدث ارتقاء مطرد. وقد دعاه داروِن بالانتخاب الطبيعي . ولتأييد هذا الرأي اشار الى ما يفعلهُ مربو الحيوانات الداجنة ، « بالانتخاب الصناعي » فيغيرون شكلها وطبائعها

والفرق الاساسي الوحيد بين رأي داروِن هذا وبين الرأي الحديث في الموضوع دائر حول « توريث التغايرات » التي تحدث في الاحياء . ففي القرن التاسع ، وعلوم الاحياء لا تزال ضيقة النطاق ، كان يتعذر على داروِن ان يفرق بين طائفتين من التغايرات — الاولى التغايرات التي تحدث بفعل البيئة وتغيُّر عادات الحيوانات وسلوكه وهي لا تورَّث . والثانية التغايرات

التي تنشأ من تحول في بناء الكائن الحي ذاتهِ ، وهذه تورَّث . ومن الواضح ان التغايرات التى من النوع الثاني — وتعرف الآن عادة بالتحولات الفجائية Mutations — هي التغايرات التي ينطبق عليها فعل الانتخاب الطبيعي فينتخب منها ما يصلح وينبذ منها ما لا يصلح

والعقبة الكبيرة التي حالت دون تسليم العلماء بعد وفاة داروِن بصلاح مبدإ الانتخاب الطبيعي لتعليل التطور ان التحولات الفجائية لم تسد مسدّ التغايرات التي تقتضيها النظرية . فمعظم التحولات الفجائية التي تناولها البحث اولاً ظهر انها اختلافات كبيرة في صفات الحي الذي تظهر فيهِ ، فقالوا اذا كانت هذه التحولات اساس التطور وجب القول بأنهُ يتم قفزاً ، بدلاً من ان يتم تدريجاً على نحو ما هو ثابت في سلاسل الآثار المتحجرة لحيوانات ونباتات مختلفة . ثم ظهر ان بعض هذه التحولات الفجائية قد لا يناسب الحي الذي يظهر فيهِ بدلاً من ان يناسبهُ ، وعليهِ فلا يصح حسبانها اساساً للنشوء عن طريق الملاءمة

على ان المضي في البحث اثبت ان الى جنب التحولات الفجائية الكبيرة ، تقع تحولات فجائية صغيرة . والواقع ان هذه التحولات هي الغالبة ، وانما يصعب اكتشافها . ثم ثبت ان التحولات الفجائية الكبيرة تُفقِد الحي الذي تظهر فيهِ التوازن ومن هنا ضررها . اما التحولات الصغيرة فأكثرها مفيد او غير ضار . ومعظم علماء الاحياء الآن متفقون على ان الانتخاب الطبيعي هو افعل عوامل التطور . وانهُ يتم بانتخاب ما يلائم البيئة الجديدة من التحولات الفجائية الصغيرة

فصل جديد

وقد فتح الاستاذ ملر الاميركي في العقد الاخير فصلاً جديداً من فصول « التطور » باكتشافهِ طريقة تصطنع هذه التحولات الضئيلة . ففي الاحوال الطبيعية السائدة نرى التحولات الفجائية نادرة الوقوع ، ولعلها لا تزيد على تحوُّلٍ واحد في ١٠ آلاف فرد من صنف ما . ولكن الاستاذ ملر اثبت ان تصويب اشعة اكس من امواج ذات طول معين الى ذبان الفاكهة مثلاً يسرع ظهور التحولات الفجائية فيهِ . وخطر اكتشافهِ من الوجهة النظرية افساد القول بأن حدوث التحولات الفجائية في الاحياء يقع من تلقاء نفسهِ ، واننا نعجز عن السيطرة عليهِ او التأثير فيهِ ، كما عجزنا عن التأثير في انحلال العناصر المشعة اسراعاً أو ابطاءً . ثم ان له خطراً عمليًّا ، لأنهُ قد يمكننا من استعمال هذه الطريقة ، بعد فهمها كلَّ الفهم ، في احداث التحولات في النباتات والحيوانات ، مما يمهد السبيل الى اسراع الانتخاب الصناعي ، بدلاً من انتظار التحولات الطبيعية ، وهي بطيئة كما قدمنا

وقد تلا الاستاذ ملر استاذ اميركي آخر يدعى الاستاذ جود سپيد (من اساتذة جامعة كاليفورنيا) فعالج صنفاً من نبات التبغ بأشعة اكس فاستحدث منهُ صنفاً جديداً . ثم تناول بابكك وكلنز (من جامعة كاليفورنيا) تجربة الاستاذ مُلر وحوَّلاها قليلاً . ذلك انهما وضعا

طائفة من ذبان الفاكهة في نفق محفور تحت مدينة سان فرنسسكو حيث اشعاع الصخور شديد جداً . فتعرضت لبعض الاشعة المنطلقة من الراديوم او الصخور المشعة التي تحتوي على مركباته فنشأت منها اصناف جديدة لها صفات لاعهد للطائفة الاولى بها قبل تعريضها لهذه الاشعة — كلون الاجنحة وطولها وقصرها ولون العيون وغير ذلك

ويرى الاستاذ جولي استاذ الجيولوجيا في جامعة دبلن — ويجاريه بعض الفلاسفة — ان الاشعة الكونية هي التي بعثت الحياة على سلّم النشوء . فالمعلوم في علوم الاحياء ان النشوء سار سيراً بطيئاً جداً بعد ظهور الحياة على الارض ثم اسرع قبيل العصر الكبري وفي اثنائهِ ظهرت الوف من الانواع الجديدة . وهذا يمكن تعليله بأن الاشعة الكونية لا تأتينا من كل انحاء الفضاء على السواء ، وان النظام الشمسي في سيره السريع في الفضاء يخترق آناً منطقة تكثر فيها الاشعة الكونية فتفعل في الاحياء فعل اشعة اكس في ذبان الفاكهة فتكثر فيها التحولات الفجائية فيسرع التطور وتكثر الانواع . ثم يخترق منطقة اخرى — بعد عصور طويلة — تضعف فيها الاشعة فيبطؤ النشوء وهكذا دواليك

مدى الحياة على الارض

من الاتجاهات التي جدت في هذا الميدان بعد داروِن ما يرتبط بطول الزمن الذي استغرقهُ تطور الاحياء . ففي القرن الماضي حسب لورد كلفن ان عمر الارض لا يزيد على ٤٠ مليوناً من السنين . فكان ذلك في نظر البيولوجيين قصيراً جداً لا يكفي لتطوّر الاحياء وبلوغها في تنوعها وتخصصها المرتبة التي بلغتها . فلما كشف عن الراديوم ، انقلبت المسألة ونقّح علماء الطبيعة رأيهم في عمر الارض ، فاذا هو اطول جداً مما ذهب اليهِ كلفن ، فاغتبط بذلك علماء الاحياء لان ذلك يفسح المجال لفعل التطوّر البطيء

فالعناصر المشعة تمكن علماء الطبيعة من تقدير عمر الصخور التي في قشرة الارض تقديراً لا يحتمل كثيراً من الخطإِ . فالراديوم يفقد قوتهُ فقداً بطيئاً بانحلال ذراتهِ ، فاذا مضى عليهِ ١٦٠٠ سنة اصبحت قوتهُ في نهايتها نصف ما كانت في بدايتها . والسبب ان الراديوم يتحوَّل الى شيء ليس راديوماً — سمهِ نفاية الراديوم — فجرام من الراديوم يتحول نصفهُ في اثناء ١٦٠٠ سنة من راديوم صاف الى نفاية الراديوم واذن فقوة الراديوم قد نقصت نصفها لان قدر الراديوم قد نقص نصفهُ . فاذا أعطينا مزيجاً من الراديوم ونفايتهِ كان في الامكان أن نعلم مدى تحوُّل الراديوم حتى أصبح لهُ هذا القدر من النفاية . وما يعلم عن الراديوم يعلم عن العناصر المشعة المختلفة . فقد قاس العلماء مدى انحلالها وتحولها من شكل الى آخر فعنصر الاورانيوم يستغرق نحو ٤٥٠٠ مليون سنة ليتم فيهِ هذا الفعل

وفي قشرة الارض يعثر الجيولوجيون على قدر من الاورانيوم ونفايتهِ في صخر من الصخور .

وقد ثبت ان مقدار النفاية في كل ما وجد اقل من مقدار الاورانيوم نفسهِ ، أي أنهُ لم يمضِ على الاورانيوم ٤٥٠٠ مليون سنة وهي المدة التي يستغرقها لتحول نصفهِ الى نفاية. على هذا الاساس يقدر العلماء عمر الارض بنحو ٣٠٠٠ مليون سنة وعمر الصخور الرسوبية بما لا يقل عن ١٥٠٠ مليون سنة

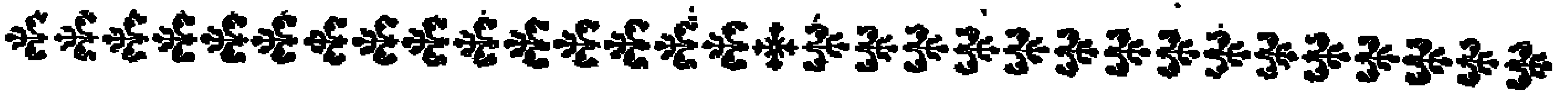
والمرجح ان الحياة ظهرت على الارض من نحو الف مليون سنة . ولما كانت الصخور الاولى قد تعرضت لضغط شديد وحرارة عالية في اثناء تكون القشرة الارضية فمعظم آثار الاحياء الاولى قد زالت ، أو هي لشدة الضغط والحرارة لا تمكن معرفتها الآن . واقدم الصخور الرسوبية التي توجد فيها آثار متحجرة للاحياء يرجع تكوينها الى نحو ٥٠٠ مليون سنة ، وكانت اشهر طوائف الحيوانات قد ظهرت حينئذ مثل الديدان ، والاحياء السرطانية ، والاسفنج

اما الحيوانات الفقارية فلم تظهر الا من نحو ٤٠٠ مليون سنة. ولم تستعمر الاحياء اليابسة الا من نحو ٣٠٠ مليون سنة وفي ذلك تقدمت النباتات على الحيوانات. اما الحيوانات الفقارية التي استعمرت اليابسة اولاً فهي الامفيبيات (مثل السلمندر) وظهرت الزحافات من نحو ٢٥٠ مليون سنة ثم الطيور ، واما الحيوانات الثديية فمن نحو ١٥٠ مليون سنة . على ان الطيور والحيوانات الثديية الاولى كانت تختلف كل الاختلاف عن مثيلاتها في هذا العصر . فالطيور والثدييات التي من الطراز الحديث ترتد الى فترة تتباين من ٥٠ الى ١٠٠ مليون سنة. وهذا يصح كذلك على النباتات الزهرية واعلى انواع الحشرات

ان زمن وجود الانسان على الارض ، ازاء هذه العصور المتطاولة يكاد يكون كطرفة عين. فاقدم آثار الانسان وادواتهِ ترجع الى مدة لا تزيد على مليون سنة . وليس ثمة شك في ان انفصال الانسان عن اصله المشترك مع القرد تمَّ من نحو خمسة ملايين سنة الى عشرة ملايين. وكان الانسان الاول اشد شبهاً بالقرود منا . فالانسان العصري من الوجهة البيولوجية حديث العهد لان معظم الآثار التي خلفها لا ترتدُّ الى ما قبل ١٠٠ الف سنة

بهذه الروح يجب ان ينظر الانسان الى مستقبله . فعلماء الطبيعة والفلك يقولون بان امامنا عصوراً متطاولة لا تقل عن العصور التي وراءنا ، وقد تنقضي ١٠٠٠ مليون سنة اخرى قبلما تبرد الارض حتى تصبح الحياة على سطحها متعذرة وهي طول المدة التي استغرقها نشوء الجنس البشري من النطفة الحية الاولى . فليس ثمة سبب يحملنا على الاعتقاد باننا القمة التي يمكن ان تبلغها الحياة . وباتساع نطاق المعارف يجب ان يتمكن الانسان من الاكباب على ترقية جنسهِ . فالزمن امامهُ ممتد الى ثنايا المستقبل البعيد ، وهو الكائن الوحيد ، على ما نعلم ، المتصف بصفة الشعور (Consciousness) بها يستطيع ان يتجرد عن نفسهِ هنيهة ليرى علاقتهُ بالكون الذي يحيط بهِ ومصير السيار الذي يقطنهُ . بها يستطيع ، اذا شاء ، ان يكون الامين على فعل التطور فيسير بهِ الى غاياتهِ المجيدة !

فؤاد صروف



مصير العالم الاقتصادي

الغيوم المتلبدة في الجو واشعة الامل الضئيلة



— ١ —

ان المشكلة التي يعانيها العالم الآن وتشتدُّ حاجتهُ الى حلّها تختلف عن المشكلة التي كان يعانيها من سنة. فمن سنةٍ كنا نسأل كيف نستطيع ان نخرج من الازمة الصناعية والتجارية بزيادة ما ينتج من البضائع حتى يعود الى مستواه الطبيعيّ. اما الآن فالمشكلة الاساسية هي «كيف نجتنب انهيار النظام المالي». فليس ثمة املٌ في اعادة الانتاج الى مستواهُ الطبيعي في المستقبل القريب. وجهودنا متجهة الآن الى تحقيق آمالٍ اضيق نطاقاً من ذلك تدور حول استطاعتنا ان نمنع انهيار البناء الذي يقوم عليهِ النظام الرأسماليّ؟ واذ نرى افلاس الزعامة المالية في بلدان العالم والاخطاء المستولية على اذهان اولي الامر من حيث اسباب الازمة وعلاجها، يأخذنا العجب ويستولي علينا الشك في امكان ذلك. على كل حال لا يختلف اثنان في ان اجتناب الانهيار المالي مشكلة اجدر بالعناية الآن من محاولة انعاش الصناعة وانتشالها من ركودها

ان الاسباب المباشرة للذعر المالي العالمي — والازمة الحاضرة ليست الاّ ذعراً — واضحة. فهي ترتدُّ الى هبوط القيمة النقدية للبضائع وغيرها من السندات المتباينة. فزالت بذلك الثقة التي يقوم عليها نظام المعاملة الحالي القائم على «الكريدي». وفي كثير من البلدان اصبحت ممتلكات البنوك، اذا قدرت قيمتها تقديراً محافظاً، لا تعادل ما عليها من الديون لاصحاب الودائع فيها. وامسى المدينون يرون ان ودائعهم لا توازي ديونهم. وقلّ بين الحكومات حكومة تجد في دخلها ما يكفي لسداد ديونها

ثم ان انهياراً كهذا يغتذي بنفسهِ. فنحن الآن في طور من اطوار الازمة يمتاز بان خطر الخسارة الذي يعرّضلهُ اصحاب الودائع يحملهم على الذعر فالتسابق الى تصفيتها. وكل من ينجح في تصفية ودائعهِ يخفض بعملهِ ثمن الودائع الاخرى التي في دور التصفية، فيشتدُّ الذعر وفقد الثقة والزحام على التصفية مهما تبلغ الخسارة. والزحام على التصفية قد تعدى الآن الافراد والشركات الى الامم والحكومات. فكل حكومة تحاول الآن ان توازن دخلها وخرجها بتحديد الواردات وبذل السعي لزيادة الصادرات. ونجاح اية حكومة منها في مسعاها معناهُ خيبة حكومةٍ اخرى تسعى السعيَ نفسهُ. ثم ان كل امة تثبط من همة اصحاب الاموال الاجانب

الذين يريدون تثمير اموالهم فيها خوفاً من زيادة جانب الدين في موازنتها العالمية . ومع ذلك فان مدى نجاحها يتوقف على بذّها لجاراتها في منع كلٍ منها الاموال الاجنبية من ان تثمر فيها

فلنا في هذا مثل بليغ على « التنافر » بين الافراد والامم . ان كلَّ امة في محاولتها تحسين حالتها بالنسبة الى حالة جاراتها ، تسلك سبلاً تضرُّ برخاءِ جاراتها . ولما كان عملها غير مقتصرٍ عليها ، فانها تخسر بما تفعلهُ جاراتها من هذا القبيل اكثر مما تجنيهِ بعملها هي . والواقع ان معظم العلاجات المقترحة الآن هي من هذا النوع الفتّاك . فالمسابقة الى نقص اجور العمال ، وتعلية الحواجز الجمركية ، وتصفية الممتلكات والودائع الخارجية ، وتخفيض قيمة العملة ، وحث الناس على التوفير ، كلها من هذا القبيل . ولا يخفى ان خرج الانسان الواحد دخل الآخر . فاذا امتنعنا عن الانفاق وفّرنا ولا ريب مبلغاً من المال ، ولكننا ننقص بعملنا هذا ثروة آخر . فاذا فعل كل الناس الفعل نفسهُ نقصت الثروة العامة . فقد يضطرُّ احد الناس ان ينقص نفقاتهِ اضطراراً فيفعل وليس ثمة من يلومهُ . ولكن عملهُ هذا ، يجب الاّ يحسب عملاً وطنيًّا نبيلاً اذا لم يفعلهُ مضطرًّا . فالمتمول العصري اشبهُ شيء بربان لا يحب السفر الاّ في البحر الرهو . فاذا هبّت العاصفة تخلّى عما يجب عليه من تبعة الملاحة ، بل هو ، في محاولتهُ تخليص نفسهِ باغراق جاره ، كأنه يحرق المركب الذي قد يعود بهِ سالماً الى البرّ

ومن نكد الدنيا ان الذهن العام قد ترّبى تربيةً بعيدة عن الحقيقة والمنطق السليم . فالانسان المتوسط قد تعلّم ، بما يكتب ويقال ، ان ما يقضي بهِ عقلهُ السليم ، من ان التبادل اساس الفلاح ، قول باطل . ولقد فقد الناس ثقتهم بالعلاجات الناجعة ، لأن تطبيقها كان يعوزه الجرأة والحزم . ولعل الاختبار القاسي علمنا فاصبحنا اميل الى الاخذ بنواصي الحكمة . ولكن زعماء الامم السياسيين كانت تعوزهم البصيرة والجرأة والحزم في تطبيق العلاجات الناجعة تطبيقاً حاسماً . فاستفحلت الازمة حتى لقد يفقد النظام الماليُّ العالمي مرونتهُ ومقدرتهُ على الانتعاش

وفي الوقت نفسه نرى مشكلة التعويضات وديون الحرب غيمة قاتمة يكفهرُّ بها الجو . ونحن نعلم ان ليس ثمة امل في تسديد مبالغ كبيرة منها . ومشكلتها ليست مشكلة مالية ، بل سياسية ونفسية معاً . فاذا اقترح الفرنسيون ، في المستقبل القريب ، اقتراحاً معتدلاً معقولاً ، لتصفية المسألة تصفيةً نهائية فالراجح ان الالمان يقبلون ، رغم اعتراضهم بعجزهم عن الدفع ، وعندي انهم يحسنون فعلاً بالقبول . ولكن الظواهر تدلُّ على ان الفرنسيين مصممون على رفض اي حلٍ من هذا القبيل مؤثرين خلق حالةٍ تحمل المانيا على اعلان عجزها رسميًّا عن التسديد . فرجال السياسة الفرنسيون (ومثلهم رجال السياسة الاميركيون اذ يعربون صراحة عن رأيهم) يفضّلون ، بسبب المناورات الحزبية في بلادهم ان يخسروا كلَّ شيء بعجز المانيا ، على التسليم بقبول مبلغ معتدل منها . ثم انهم يرون ان عدم التسليم بنقص التعويضات وتوقف المانيا عن الدفع ، حجج يمكن استعمالها

ضدّ المانيا في حلّ المسائل المعلقة بين البلدين التي خلقتها معاهدة فرساي. وعليهِ فلست ارى شعاعة امل في هذه الناحية من الاقتصاد الدولي

— ٢ —

لقد رسمت الصورة بأقتم الالوان . فهل للصورة وجهة اخرى ؟ وما هي عناصر الامل التي يمكن تبينها في هذا القتام؟ واي عمل مفيد نستطيع القيام بهِ لاجتناب الكارثة ؟

الباعث الاول على الامل ان النظام المالي ابدى حتى الآن قدرة غريبة على احتمال العبء الذي اناختهُ عليهِ الازمة الحالية. ولو ان احد تنبأ من سنة ان الحالة سوف تبلغ ما بلغت اليهِ الآن، لما كان احد يستطيع ان يتصور ان الامور تسير في اعنتها الطبيعية كما هي سائرة الآن . وإن مقدرة النظام الرأسمالي على تحمل تبعة اخطائهِ من دون ان ينهار اقوى بواعث الامل على امكان تألّب القوى المعمرة لانتزاع الفوز من انياب الفشل

ثم انني ارى ان خروج بريطانيا عن قاعدة الذهب حادث خطير لم يتح لنا بعد ان نقدر الفائدة العظيمة التي تجنى منهُ . فانا اعتقد انهُ ينطوي على مغزًى مفيد في دائرة واسعة النطاق.

ولو ان بريطانيا تمكنت من الاحتفاظ بالذهب اساساً لعملتها، لكانت حالة العالم ابعث على اليأس، والافلاس اوسع انتشاراً. ذلك ان عمل بريطانيا اسفر عن نتيجتين خطيرتين . الاولى انهُ وضع حدًّا لهبوط أثمان العروض بالعملات المحلية المختلفة، في بلدان مترامية فوق سطح الكرة. اذكر اسماء البلدان المرتبطة بالجنيه الاسترليني بدلاً من الذهب تجد بينها استراليا والجزائر التي حولها والهند وسيلان ومالايا وافريقية الشرقية والغربية، ومصر والبلدان السكندناوية — ثم هنالك جنوب اميركا وكندا واليابان فانها مرتبطة بالاسترليني فعلاً ان لم يكن اسماً . وانك لا تجد في خارج اوربا الاّ الولايات المتحدة وجنوب افريقية بلاداً لا تزال عملتها على اساس الذهب . وليس بين الامم الكبيرة الاّ فرنسا والولايات المتحدة الاميركية حيث العيار الذهبي اساسٌ حرٌّ للمعاملات

والخروج عن قاعدة الذهب افضى الى تخفيف الضغط الناشيء عن ارتفاع سعر العملة وانخفاض سعر البضائع . ففي بلدان مترامية يحصل المنتج الآن على اسعار لبضاعتهِ — بعملتهِ

لا نجد موضوعاً اجمع لعناية الناس في هذا العهد من موضوع «الازمة الاقتصادية العالمية» وبواعثها ووسائل علاجها. لذلك عنينا بنواحي هذا البحث فنشرنا «رواية الازمات الاقتصادية» «وقصة الجنيه الاسترليني» وبحثاً في «مال التعويض وديون الحرب» . وها نحن اليوم نلخص فصلاً لعالِم من اكبر علماءِ الاقتصاد المعاصرين «جون مينرد كينز» الذي كان الممثل الاول للخزينة البريطانية في مؤتمر فرساي ومؤلف «رسالة في الاحتمال» و«نظرية النقد: مجرّدة ومطبقة» و«النتائج الاقتصادية لمعاهدات السلام»

الخاصة ببلادهِ — اذا قيست بديونهِ ونفقات انتاجها لم تكن باعثة على السخط . وهذه الحوادث قريبة العهد لم تفز بالعناية الوافية بها بعدُ . وثمة بلدان كثيرة ، يصح ان نقول عنها ، انها من الوجهة المالية والاقتصادية قد اخذت ترتفع من الحضيض ، بعد خروج بريطانيا عن قاعدة الذهب . وهذا قول يصح على استراليا مثلاً . وعندي انهُ قد يصدق على الارجنتين والبرازيل . وقد تحسنت الحال في الهند تحسناً بادياً ، حيث خرج الذهب ، الذي كان مخبوءًا قبلاً بسبب غلاء الجنيه الاسترليني ، فساعد خروجه على حل المشكلة المالية فيها

اما بريطانيا نفسها فاننا ننسى غالباً التحول الكبير الذي تمّ فيها بعد سبتمبر الماضي . وهذا التحول ان لم يكن تحسناً مطلقاً فانه نسبيٌّ على الاقل . فعمالها العاطلون عن العمل يقلّون الآن ٢٠٠٠٠٠ عامل عما كانوا عليه في سبتمبر الماضي — وليس هذا مما يصدق على اي بلد صناعي آخر . وقد تمّ هذا رغماً من ارتفاع الاجور الفعلية وهو من بواعث التشجيع للمستقبل . فبريطانيا في الاعمال التي تمتاز بها اصبحت الآن ارخص منتج في العالم ، والقوى التي أُطلقت بخروج بريطانيا عن قاعدة الذهب جعلتها اكثر البلدان فلاحاً

ولكن ثمة نتيجة ثانية من انقسام امم الارض الى فريقين — الفريق الذي خرج عن قاعدة الذهب والآخر الذي لا يزال محتفظاً بها — فالفريق الثاني بما لهُ من الديون جعل يضغط على اسعار السندات فانخفضت فاتجه تيار الذهب اليه تسديداً لما لهُ من الديون . واما الفريق الاول فهو الذي كان متأثراً بهذا الضغط وكان الذهب يخرج منهُ متجهاً الى الاول . فخروج هذا الفريق عن قاعدة الذهب خطوة في سبيل اعادة التوازن الاقتصادي . وسوف يظهر أثره المباشر في فرنسا ، التي ينتظر ان تضعف مكانتها كأمةٍ دائنة قبل آخر سنة ١٩٣٢ . واهم البواعث عليهِ هو — توقف المانيا عن دفع مال التعويضات ، وخسارة فرنسا من اموال السياح الذين كانوا يؤمونها من اميركا وانكلترا وغيرها ، وضعف تجارة الصادرات فيها ازاء البلدان التي خرجت عن قاعدة الذهب (لان بقاء فرنسا على قاعدة الذهب يجعل ثمن بضائعها في بلدٍ ما اغلى من ثمن البضائع الانكليزية) وازدياد مقادير الذهب في خزائنها

وقد لا يتمّ الاثر نفسهُ في الولايات المتحدة الاميركية بمثل السرعة التي يتمّ بها في فرنسا ، لان اموال السياح الاميركيين التي تخسرها فرنسا هي وفر في حساب اميركا . ولكن الاتجاه واحدٌ ، تمّ عاجلاً او آجلاً . ولا بدّ ان يأتي يوم يعدل فيهِ الذهب الخارج من الهند والمستخرج من المناجم الذهب المخزون في فرنسا واميركا . وهكذا بدأت حركة قد تنتهي الى تعديل فعل « التقلص المالي » . والمسألة الآن « هل يتم ذلك قبل انهيار النظام المالي العالمي ؟ » فاذا تمّ فالراجح ان السبيل يمهَّد لعمل مشترك ، وارجح ان يكون بزعامة بريطانيا ، غرضهُ توسيع نطاق رؤوس الاموال ورفع اثمان العروض في بلدان العالم . واذا لم يتمّ فانني لا ارى الاّ زوال نظام

« الكريدي » القائم الآن فيتلوهُ نظام جديد يقوم على اسس جديدة

وما يلي هو في رأيي تسلسل الحوادث التي قد تفضي الى الخروج من المأزق الذي نحن فيهِ — اسوقها من دون ان ابدي رأيي في احتمال حدوثها . قد تتلاشى الازمة قبل حدوث الانهيار ولعلّ ذلك واقع الآن . ولعلنا اجتزنا اوعر الحوائل في بضعة الشهور التي انقضت . وفي الوقت نفسه يخفّ الضغط التقلصي الذي تحدثه فرنسا والولايات المتحدة الاميركية بفعل ما لهما من الديون الخارجية ، اذ تقلّ ديونهما بفعل القوى التي وصفتُ . وحينئذ ندخل طوراً تكون فيه النقود رخيصة . وهذه هي المرحلة التي كان يبدأ عندها الانتعاش في الازمات السابقة . على اني لست واثقاً من ان رخص النقود يكفي الآن ، لان صاحب المال ، وقد تبددت اوهامه في اثناء الازمة ، قد لا يرضى باقراضها الاّ اذا أُعطي فائدة كبيرة لا يرجو المقترض ان يجني ربحاً يوازيها . فاذا حدث هذا فلا مناص من ان تطول الازمة وقد لا تنتهي الاّ بتدخل الحكومات لتشجيع تثمير الاموال وتأييده

— ٣ —

ويجب ان نذكر أن الازمة التي نعانيها ليست ازمة « فقر » بل ازمة « كثرة وفيض » . ان ما نشكوه ليس سببهُ بخل الطبيعة وإنما كها بل هو ضعفنا وخطأنا في جني ثمار العلم والطبيعة التي تغدق علينا ثمارها . ان الاصوات التي تدعو الى ان سبيل الخلاص هو سبيل التوفير الدقيق والامتناع عن الانفاق لهي اصوات الحمق

ومن الواضح ان حلّ المشكلة الاقتصادية العالمية اليوم اصعب منهُ في السنة الماضية . ولكنني اعتقد اننا نستطيع الآن — كما كنت اعتقد حينئذٍ — الخروج من المأزق اذا اخذنا زمامنا بايدينا . فالحوائل دون الانتعاش ليست حوائل مادية . بل هي قائمة في معرفة اولي الحلّ والربط وأحكامهم ، ومن نكد الحياة ان معتقداتهم نشأت من خبرتهم في احوال ماضية لا تماثل قط احوالنا الآن . ففي فرنسا نجد اتجاه الشعب والحكومة مناقضاً لمنطق الآراء والحوادث الذي بسطتُ . وفي الولايات المتحدة يتحتم على المشتغل بالشؤون العامة ان يقول لغواً كثيراً للاحتفاظ بمكانتهِ العامة . اما في بريطانيا فعندي ان آراء رجال البنوك اسلم وانما الامر الذي نخافهُ في لندن هو الاحجام عن التصرُّف تصرُّفاً جريئاً

وليس اجدى على حسن المصير الاقتصادي من ان تتقدم الولايات المتحدة الاميركية صفوف الامم بحلّ مشكلاتها الخاصة فيكون ذلك باعثاً ومثلاً للامم الاخرى . ولكنني والحق يقال لست ارى في المستقبل القريب ما يجعل انتعاش الصناعة الاميركية محتملاً . بل ارى ان الولايات المتحدة سوف تقتفي اثر غيرها . ولذلك أجرؤ فآمل أن الانتعاش سوف يبدأ في بريطانيا والبلدان التي ترى في بريطانيا مركزاً للزعامة المالية . انهُ شعاع ضئيل من الامل . ولكن النور الذي أتبينهُ في النواحي الاخرى أضأل

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

مصير الاسرة الشرقية

﴿ الاسرة ﴾ : يطلق الغربيون كلمة (فاميليا) على الاسرة وهي كلمة رومانية انتقلت الى اللغات الاوربية الحاضرة بلفظها ، واصل اشتقاقها من كلمة (فامل) بمعنى الرقيق او المتلك الذليل الذي يمتلكه السيد، ويدل هذا الاشتقاق الوضيع على معناها في الازمنة الخالية ، ثم شملت فيما بعد غير ذلك من الممتلكات المنزلية في الاشياء والاشخاص ، ففي الشريعة الخامسة من شرائع الالواح الاثنى عشر الرومانية التي وضعت في القرن الخامس قبل المسيح ان الرجل اذا مات من غير وصية يوصي بها ولم يكن له وارث شرعي فان اقرب المتصلين به باواصر القرابة العصبية — من جهة الذكور فقط — يرث (الفاميليا) التي يخلفها من بعده وهي الثروة «العائلية» بانواعها في الاشخاص والاشياء

وقد لا تختلف هذه النظرة كثيراً عن نظرة العرب في الجاهلية اذ كان الميت يورّث من بعده الاشياء والاشخاص معاً حتى امرأته فيحل لابنائهِ من غيرها ان يتزوجوها كما اسلفنا

وان لهذه النظرة الابتدائية الى المرأة بانها سلعة اقتصادية اشباهاً ونظائر في الاقوام المتوحشة ، وعندنا ان المساومة على المهور في الشعوب التي قطعت شوطاً في المدنية بعيداً هي من بقايا هذه النظرة الابتدائية الحقيرة . ويمكننا ان نضع قاعدة عامة فحواها ان الوسط الذي يبنى فيهِ الزواج من الاساس على مقياس الفائدة الاقتصادية هو وسط ابتدائي في الروح المخيمة عليهِ ولو كان في حواضر البلدان الغربية في اوربا واميركا

ومما نورده في هذا الباب عن القبائل المتوحشة ونظرتها الى المرأة والزواج نظرةً اقتصادية بحتاً ما حدثنا بهِ صديقنا الفاضل الدكتور راجي خباز عن قبيلة (الدنكا) — وهي قبيلة منتشرة في الاصقاع من اعالي النيل الى بحر الغزال — فقد قال ان الزواج بين افرادها يجري من غير شيء من الشعائر سوى الرقص والغناء ويتم باتفاق اهل المخطوبة مع الخاطب على المهر وهو من البقر دائماً ، لان البقرة هي مقياس النقد عندهم . والاساس في الزواج هو استيلاد الاولاد لاستخدامهم في مصالح الزوج الاقتصادية . وكثيراً ما استولد الرجل العاقر امرأتهُ من رجل آخر على طريقة زواج الاستبضاع في الجاهلية فان لم تلد بهذه العارية حق له ان يعيدها

الى اهلها ويسترد مهرها من البقر ولو بعد عشرين سنة . والبقرة المؤداة مهراً تبقى في مثل هذه الحال وقفاً على الزوج ينتفع بها فما ولدته يكون لهُ وما مات يكون عليهِ . لكن هذا الحق الموقوف يسقط حالما تلد الزوجة ولداً ، كأن المولود الجديد يعادل البقرة في الاعتبار الاقتصادي

ومن عادة (الدنكا) ان الزوجة اذا ماتت في اثناء الولادة وهي بكرية تعد زانية زنى بها احد اهلها ، وتذكر وهي تلد جميع من اتصلوا بها فمن صادف اسمه نزول المولود يكون اباه حتماً ، ولكن مع ذلك لا يحق له ان يدعيه بل يبقى للزوج صاحب البقر فكأن الزوج والحالة هذه قد ادى قيمة البضاعة — (على بوليصة الشحن) — فصارت ملكه ولا عبرة بالذي صنعها. واذا كان لرجل ابنة غير متزوجة فولدت ولداً فان هذا المولود يكون ملكاً لهُ — لا لأنهُ جده لامه بل لانهُ امهر جدته بقراً حين تزوجها ، فالحفيد مملوك بحق البقر لا بحق القرابة ! واذا اشتكى زوج من زوجة انها زنت برجل حق له ان يقاضيه ويأخذ منهُ بقرة ثمن الزنا ، ويتكرر هذا الحق بتكرر العمل المنكر مرتين او ثلاثاً ثم يزول اذ تصبح المرأة مومساً . والدنكيون مقتيون — يتزوجون نساء آبائهم من بعدهم — ولكن مع كل هذه الاوضاع الاقتصادية الابتدائية فهناك من حين الى آخر زواج قائم على الحب المتبادل والهرب الى الاقطار البعيدة فراراً من ضريبة البقر

﴿ الانقلابات الاقتصادية الحديثة وتأثيرها في الاسرة ﴾ : ذكرنا بشيء من التفصيل العامل الاقتصادي في الشؤون الزوجية وعرضنا للمتوحشين لان مجتمعهم بسيط وذو فائدة في فهم المجتمع المدني المعقد ونزيد على ذلك ان الاسرة بقيت الى زمن قريب في جميع انحاء العالم وحدة اقتصادية من الطراز الاول ففيها كانت تصنع الغزول والانوال وانواع الحياكة والادوات الزراعية وغير ذلك من الآلات . هذا كان حال اوربا واميركا في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ولا يزال في كثير من انحاء الشرق . بل ان المصنوعات البيتية في يومنا هذا ربما بلغت ملايين الريالات في الولايات المتحدة، الا ان التطورات الخطيرة التي اصابت الغربيين في شؤونهم في السنين الخمسين الاخيرة احدثت انقلاباً عظيماً في حياتهم « العائلية » وتهدد هذه التطورات الوحدة البيتية من اساسها على الرغم من جميع المواعظ والخطب والعقائد التي استحكمت في نفوس البشر الوف السنين ، لان اشتراك المراة الغربية في الصناعة وسعيها لاكتساب المال بالاعمال ونزولها الى حلقة الصراع في المشروعات الخاصة والعامة وطرقها ابواب الحكومات والشركات للتوظف كل ذلك اعطاها من قوة الاستغناء ما جعل ارتباطها بالاسرة اختيارياً وتعلقها بالرجل « كيفياً » حتى اصبحت البيوت كما قال احد الاساتذة عبارة عن مساكن او (بنسيونات) يؤمها الناس فيؤدي كل واحد منهم قسطه من المصروف ويحيا حياة مستقلة . واذا كانت المرأة من الوجهة الحيوية مخلوقاً يحمل ويلد الاولاد ومن الوجهة النفسية والاجتماعية معلماً في روضة الاطفال ومعلماً في الدروس الابتدائية فمن ادعى دواعي الاسف

ان تصبح هذه الوظائف الكبيرة في اوربا وأمريكا مهددة من الاساس لان المنازل هناك لم تعد مساكن السواد من النساء بل مساكنهن المعامل والمصانع والمكاتب والحوانيت ودوائر الحكومات . فهل تبلغ الحاجة الاقتصادية في العالم العربي يا ترى مبلغاً تضطر معهُ المرأة الى هجر بيتها في طلب الرزق كما تفعل زميلتها الغربية ام يبقى لديها متسع تحافظ فيه على القيام بوظائفها الطبيعية التي خلقت في بدنها منذ ظهر هذا المخلوق الذي ندعوه بشراً على ظهر الارض ؟ هذا سؤال يتوقف الجواب عنهُ على سير المدنية في العالم العربي في المستقبل وهل يكون هذا السير طبق المدنية الغربية ام سيراً خاصاً له ميزاته القومية وتقاليده الوطنية . ولا مراء ان السيدة الشرقية ستبقى الى زمن بعيدٍ امرأة وان كثرت بيننا النساء المترجلات او المحترفات وصاحبات المهن ذلك لان نتيجة الصدام بين الحضارتين الشرقية والغربية هي مثل سائر انواع الصدام بين القديم والحديث حضارة معتدلة بين الاثنتين او تسوية وسط في الشؤون التي تتناول جواهر الحياة — اما اذا كانت هذه الشؤون جوهرية فالتقليد والمجاراة امر لا مفرَّ منهُ . يعني ان الانقلاب الاقتصادي الحاضر اذا كان من لوازمه الضرورية المبرمة نزول المرأة الى حلبة العمل الخارجية وهذا ما لا نؤمن بهِ — فلا مفرَّ لنسائنا من المجاراة وتكييف النفس والاَّ فالحكم قاس يتعلق بالبقاء او الانقراض ولا ثالث لهما

وقد دل الاحصاء في العالم الغربي على العمل العظيم الذي تضطلع بهِ المرأة في الاقتصاديات ففي الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٠ مثلاً كان اكثر من خمسة عشر في المائة ممن يتناولون الاجور في المصانع والاعمال الميكانيكية نساء فوق العاشرة من العمر . اما نحن وقد نشأنا في بلاد وسيعة لم تبلغ المزاحمة الاقتصادية فيها ما بلغته في ديار الغرب فنشك كثيراً في الربح الذي يجنيه المجتمع من خروج المرأة عما خلقت له ، واذا كنا من اكبر انصار تحرير المرأة — وقد حررناها في بيوتنا فعلاً في اعصب الاوقات وحاربنا استعبادها كما نحارب اقسى انواع الظلم والاستعمار — فهذا لا يمنع ان نكون من القائلين بأن الطبيعة حكمت على المرأة وعلى الرجل بتقسيم الاعمال ووسمت كل منهما بوسم خاص للدلالة على هذا التقسيم ، لذلك ترى في موقفنا الحاضر الميسور ان قطرة من اللبن تدرّ مع الحنان من ثدي المرأة في فم رضيعها خير من كومة من الابريز تجمعها لتثبت بها احتقارها للاسرة واستغناءها عن الرجل . وارجو الاَّ يستنتج القارىء من كلامي هذا انني عدو عمل النساء في جميع الاحوال بل ارى ان العمل الذي يقوم بأود البنت فيحول دون تهافتها على اول عريس تلقاه خير من بقائها كلاًّ على عاتق اهلها بحيث تعرض في سوق الزواج بأرخص الاسعار

اننا نريد ان يعمل النساء ولكن في الحدود المستبانة من روح كلامنا وفي المنطقة التي تعينها لهن الخلقة والطبيعة . والقاعدة التي يمكن الركون اليها في هذا الصدد هي ان يكون

عمل المرأة الخارجي هو لدفع الحاجة اكثر منهُ لجلب الثروة . ولا مراء في ان اشتراك النساء في كثيرٍ من الاعمال التي اختصت بالرجل قد خيّب آمال اشد الناس اندفاعاً في تأييد هذا الاشتراك والدعوة اليهِ ، فقد يخضن غمار السياسة ويمارسن حقوق الانتخاب مثلاً ولكن رأي معظمهن عند التصويت قد يبنى على مظاهر لا تهم الدولة ولا تروق الرجال المدربين . ومن افظع الكوارث التي تنصبُّ على رأس المجتمع البشري ان يتخنث الرجل وتترجل المرأة

﴿ تولد الميزات العقلية الاجتماعية في الاسرة ﴾ : من اعظم الحجج التي يدلي بها علماء الاجتماع على وجوب الاحتفاظ بالاسرة ونظامها هي الميزات العقلية الاجتماعية التي يكتسبها الابناء في حجر ابويهم وبين اخوتهم واخواتهم . فالبيت مدرسة نفسية من الطراز الاول يتعلم فيها النشء الحب والتعاون والايثار والصبر وكبح جماح النفس بالطرق العملية فتتولد في افراده الارادة ويرتقي الحزم وهذه كلها صفات عقلية يبنى عليها المجتمع وزوالها يذهب بجميع تلك الخصائص التي ميزت الجمعية البشرية عن قطيع من السائمة « وفن المعيشة المشتركة بالوئام والاستفادة هو فن اساسه الحب الناشيء عن الوحدة العائلية »

﴿ تحرير الافكار واثره في الروابط العائلية ﴾ : لقد انسابت عوامل تحرير الافكار الى جميع الطبقات ودخلت معظم البيوت حتى البيوت التي تنقاد للطريقة القديمة حيث يطبع الابناء بطابع الوالد المبجَّل عادة ويسيرون على سننهِ في كل شيء فغيرت هذه العوامل هذا الطابع العقلي او القالب الروحي ولم يعد الشذوذ عن سيرة الوالد في السياسة والافكار انشقاقاً يستحق صاحبه الجزاء والاضطهاد . ولا سلطة اليوم في ديار الغرب لوالد على ولده في النحلة والفكرة والمذهب السياسي الا ما كان بسبيل البرهان والاقناع والاتفاق

وغني عن البيان ان مثل هذا التحول يقوي الفردية الاجتماعية الغالية متى كان سلمياً ومبنيًّا على قواعد التربية الحرة ، ولا خوف منهُ على كيان الاسرة بل الواجب ان يشجع الى درجة معقولة ، ذلك لان الجمود مرض عضال والسير في الحياة اجيالاً متتابعة على نمط واحد يحول دون الارتقاء . وقد تغيرت نظرات الناس في السياسة والعقيدة والتهذيب منذ جيل الى اليوم تغيراً كليًّا حتى صارت الصدمات القاسية التي كان يلاقيها بعض زعماء الاصلاح امثال الشيخ طاهر الجزائري في سورية وشكري افندي الالوسي في العراق والشيخ محمد عبده او قاسم بك امين في مصر اشبه في نظرنا بمداعبات ومهاترات منها بمواقف جدية ذلك لان الرأي العام اخذ في الاختمار وصار الطعن في الرجال للعقائد التي يدينون بها عن اخلاص سمجاً تأنفه النفوس . بل لا نخطىء اذا قلنا ان القضية انعكست وصار الاستسلام الاعمى للعقائد والنظريات التي درج عليها الآباء والجدود من غير تمحيص علمي عيباً يتجنبهُ النابهون . ومن اهم التطورات الفكرية التي استجدت في ميدان العلم الاّ يقبل الباحث رأياً من غير ان يعرضه لمطارق الشك

واذا نام المتقدمون على راحة اليقين فقد صحونا نحن على تعب الشك لكن هذا الشك قد ادى الى ما نراه من الانقلاب الخطير في العلوم المادية والمعنوية

﴿هل نتبع الغرب في تصغير الاسرة﴾ : ان الضرورات الاقتصادية الحديثة حكمت على الغربيين بتصغير اسرتهم اذ عرفوا ان الاولاد الكثيرين الذين ينشأون في بيت معوز وينحشرون في غرف ضيقة ولا يحصلون على غير الكفاف من العيش والراحة والنزهة هم اضعف من ولد واحد او ولدين اثنين يترعرعان في رخاء ويتمتعان من عناية الابوين بالقسط الوافر مادة ومعنى . واذا نحن لم ننكر ان العادات الاجتماعية الطبيعية تُضمن الضمان الكافي في الاسرة الكبيرة حيث ينمو الاطفال في بيئة تتناسب مع مداركهم وتدرجهم في المشاعر والعواطف والاختيار وهم بعيدون عن الاختلاط الدائم بالمراهقين والبالغين الا ان الاضرار التي تصيبهم من العسر وقلة ذات اليد تربي كثيراً على هذه الفضائل الاجتماعية . وقد لاحظ اهل التتبع ان الميل الى تصغير الاسرة في ديار الغرب سار كتفاً الى كتف مع تناقص الاراضي الزراعية وضيق ميادين العمل . اما الناس في عالمنا العربي فلا تزال هذه الاراضي متسعة امامهم في كثير من الاقطار كبلاد العراق مثلاً حيث يوجد نحو ١٣ مليون فدان لاربعة ملايين من السكان والديار الشامية حيث عشر الارض فقط (او نحو ستة آلاف ميل مربع) يستثمر بالطرق الزراعية . اما مصر ففيها نحو سبعة ملايين فدان لخمسة عشر مليوناً من الاهلين وهذا يقضي بشيء من الاشراف على المواليد وضبطها وتحديدها في القريب العاجل هذا اذا شاء ابناء وادي النيل ان يحسنوا النسل في النوع لا في المقدار

وقد لوحظ ان هنالك عوامل متعددة هي السبب في صغر الاسرة في بلدان الغرب منها التأخر في سن الزواج وتحديد المواليد وانتشار الامراض المعقمة وغير ذلك من العوامل. ففي كتاب للدكتور (مورو) عنوانه « الامراض الاجتماعية والاسرة » ان خمساً وسبعين في المائة من العمليات الجراحية التي تعمل للنساء وثمانين في المائة من جميع الوفيات الناشئة عن الالتهابات الخاصة بهن هي مسببة عن العدوى التناسلية. وعنده ان خمسين في المائة من النساء المصابة بالامراض التناسلية تصبح عقيمة وان معظم الزواج العاقر ليس اختياراً بل اضطراراً بسبب الامراض . وعلاوة على ذلك فالمشروبات الروحية — عند كثير من علماء الطب — متى استحكمت في الآباء اضعفت النسل وانقصته، يدلنا على ذلك ما قام به الدكتور (هدج) من التجارب التي اجراها على الكلاب اذ وجد أن ثلاثة وعشرين جرواً نزلت من صلب كلبين ابوين اسقيا الخمر لم يعش منها غير سبعة عشر في المائة في حين عاش تسعون في المائة من خمسة واربعين جرواً من ابوين لم يذوقا طعم الراح

ثم اننا لا يهمنا عدد المواليد بقدر ما تهمنا الطاقة على تربيتهم والعناية بهم . وقد ثبت ان اشتغال المرأة المتزوجة في المعامل يقلل من هذه العناية ويدعو الى هلاك الكثير منهم .

وقد اجرى الدكتور (جورج ريد) وهو طبيب مقاطعة (ستفوردشير) في انكلترا احصاء في هذا الصدد فتبيّن لهُ ان الوفيات في الاطفال دون السنة الواحدة من العمر في ست مدن من مدن الخزافين هي ١٤٦ في كل الف من مواليد النساء اللاتي تلازمن بيوتهن في حين ان الوفيات تبلغ ٢٠٩ عند النساء المشتغلات في المعامل واللائي تغادرن دورهن في النهار . لكن الدكتور (جورج روبرتس) طبيب الصحة في (برمنجهام) وجد ان سوء الحال الناجم عن الفقر في الاسرة هو اشد فتكاً في الاطفال من اشتغال الامهات خارج الدور . واما في اميركا فقد دلّ الاحصاء في مقاطعة (فول ريفر) من ولاية (ماساشوستس) على ان وفيات الاطفال بسبب الاسهال والتهاب المعدة والامعاء في البيوت التي تشتغل نساؤها في المعامل تزيد ثمانين في المائة على الوفيات في البيوت التي تلازمها نساؤها ، اضف الى ذلك ان هذه البيوت هي اقوم نظاماً ورجالها اعدل مزاجاً وابناؤها اقوى بنية وعلائقها الزوجية احكم ارتباطاً

على ان واجب الاحاطة بالموضوع يقضي علينا بالاشارة الى ان انصار اشتراك المرأة في الاعمال يدّعون ان الضرر اللاحق بالاطفال ليس ناشئاً عن اشتغال المرأة بل عن سبب آخر هو الفقر وان المرأة لولا فقر زوجها ما اضطرت الى الخروج من بيتها في طلب الرزق ، وخلاصة مذهبهم « ان النساء يستطعن العمل في جميع الميادين الصناعية الحاضرة مع الاحتفاظ ليس بمقياس صحتهن فقط بل برفع هذا المقياس ايضاً ، غير ان الواجب يقضي بأن تكون العمارات التي يشتغلن فيها صحية ومبنية على الاصول الفنية وان يعلّمن هن ومن يستخدمهن في الاعمال قواعد الصحة العملية البسيطة »

ولامراء ان اهم الاسباب في نقص المواليد هي ارادة الآباء والامهات اما لعجزهم عن اعالة الاولاد او لانصراف الوالد الى المناصب والاعمال ورغبة الوالدة في تحقيق اللذائذ والمسرات بحيث يريان الاولاد عقبة في سبيلهما وان توفر المال لديهما وهذا الامر شائع في الغرب دون الشرق — حتى الآن

واما ما يقال عن ضعف بعض الاقوام وانحلال قوتهم الايلادية وسيرهم في طريق العقم كما هو حال الفرنسيين مثلاً فهو موضوع دقيق يتطلب بحثاً اخصائيّاً لا يتسع له هذا المقال ، ومما هو ثابت ان الوسائل الصحية الحاضرة والعناية بالمرضى والمتعبين واصحاب العاهات كل ذلك مكّن الملايين من البشر ان يعيشوا ويتزاوجوا ويتوالدوا مع انهم لو تركوا وشأنهم لقضى عليهم الموت من غير شفقة ولا رحمة . وهكذا نرى ان وسائل المجتمع العلمية قد حالت دون تنفيذ قانون الانتخاب الطبيعي وتطبيق بقاء الانسب . ومن يدرى ان بعض الاقوام قد صرفت من قواها الحيوية واستنزفت من مخزوناتها الاستنتاجية ورأس مالها القومي ما اوصلها الى درجة التوقف والانحلال شأن تلك الاجناس البيولوجية الأثرية الكبرى التي انقرضت ولم تترك من عظمتها الا هيا كلها العظيمة بين طبقات الغبراء وتحت سطح الماء

ميزة الحضارة الغربية

للاستاذ سامي الجريديني

ميزة المدنية الغربية النظام والحرية — النظام المستمد من القانون او من الشريعة ، والخضوع لهذا النظام او لهذه الشريعة باعتبار انها تمثل ارادة الهيئة الاجتماعية وضميرها وباعتبار ان فى الخضوع لها مصلحة الفرد والجمعية . ويفقد النظام مزيته وتفقد الشريعة قيمتها اذا كان الخضوع لها على اعتبار انها ارادة قوة لا تُرد ارضية كانت هذه القوة ام سماوية

فالشريعة وهو ما يعبرون عنهُ بكلمة (Loi أو Law) ليست مشيئة القويّ بل محاولة الوصول الى العدل ولذا كان من اركان بنيانها أن تنشأ وتنمو وتتكيف وتتغير حتى تبلغ اسمى مطامح الانسان الادبية

ولم تكن الحضارة الغربية قبل خضوعها المدنية اليونان والرومان واتخاذها هذه الحضارة طعاماً تمثلته ثم هذبته ورققته على هذا المبدأ فى تفهم الشريعة بل كانت مثل الحضارات الشرقية تقدس الشريعة على أنها ارادة واحد قهار لا على انها عدل وعلى انها لا تتغير الاّ بمشيئة السيد وما مشيئته الا حاجة فى نفسه إن كان ارضياً أو احجية لا تفسّر ان كان سماوياً

ومن صفات الشريعة أو النظام انها وليدة الخلق وليس الخلق ناشئاً عنها . فالقانون — أو الشريعة — أو النظام أو الناموس يجب أن يكون معبراً عما فى ضمير الجمعية من خلق رفيع . فالخطيئة ليست فى انتهاك القانون بل فى انتهاك المبدإ الادبي الذي نشأ القانون منهُ . ولذا وجب أن يكون الناموس متغيراً متبدلاً مترقياً ماشياً وراء رقي الاخلاق السامية . لأن اخلاق البشر ابتدأت سافلة وأخذت ترتقي مع الزمن والتكيف بالوسط

إذا نظرنا الى الشريعة بهذا المنظار تبين لنا السر فى ان الرجل الكريم هو الرجل الذي يخضع للقانون ويساعد على اطاعته ليس لأن تنفيذه منوط بالشرطة بل لأنه يرى فى تنفيذه كرامته فيملكه الشرط أو الوعد سواء أكان مكتوباً أم نطقت بهِ شفتاه . فالعهد الادبي يجب أن يسبق العهد المادي

ويترتب على هذا المبدإ مبدأ آخر هو النظر الى الشريعة كوسيلة للخير العام لا كأمر من ذي سلطان . ومن ثمّ يتعين على كل أحد أن يحوطها بعنايته ويحافظ على تنفيذها لا أن يتملص من قيودها وينظر اليها نظر عدو

فالمدنية الغربية في أرقى مظاهرها تفرض في شعب متمدين أن يعمّ كلّ أفراده شعورٌ لا باطاعة القانون فحسب بل بالرضا بهِ وبالمساعدة على تنفيذه واحترامه بحيث صار يُعَدّ الشعب متمديناً متى كانت افراده ينظرون الى القانون نظرهم الى أداة وضعوها هم لفائدتهم وان في احترامها وفي المساعدة على تنفيذها عائدة خير للفرد وللجمعية . فقياس المدنية الحقة في الفرد هو في تضامنه مع الحكومة في العمل بالقانون لا بالمساعدة على التملص من قيوده . فمن ساعد مجرماً على الافلات من حكم القانون ليس خليقاً بأن يكون عضواً في جمعية ذات حضارة حقيقية، وواجبهُ ازاء القانون واجب الشرطي حذوك النعل بالنعل. ولذا ترى في الشعوب التي لم تضرب بقسط وافر في الحضارة ميلاً الى الهروب من القانون وسروراً بل اعجاباً اذا رأوا المجرم يقاوم الحكومة ولا تجدهم يطيعون القانون الا رهبة من عقاب او طمعاً في ثواب

وهناك مبدأ آخر يستمَدّ من مركز النظام في الحضارة هو أن للجمعية التي يجب أن يكون النظام لفائدتها الحق في أن تضعهُ هي لنفسها

لأنه اذا كان الاصل في الناموس أن يتكيف حتى يطابق ضمير الجمعية وأن يكون لفائدة الجمعية فلقد صار لافراد هذه الجمعية أو لخيارهم الحق كل الحق في أن يتولوا أمره بأيديهم ، وها نحن نرى الآن كل أعضاء اسرة الحضارة الغربية يقدسون هذا الحق ويستعملونه على اختلاف فى الشكل افضى الى اختلاف في أنواع الحكومات

وقد يختلف رأي بعض الناس فى صحة هذه النظرية ويشكّون في هل كان من الاصلح والاجدر أن يتولى الشعب امر التقنين أو أن يتركه لسواه ولكن ما لا شك فيهِ هو ان الحضارة الغربية قد اقرّت المبدأ وأخذت بهِ إن خيراً أو شرّاً فصار ميزة من ميزاتها

* * *

فالنظام أو الشريعة أو القانون الذي جعلناه ركناً من أركان الحضارة الغربية جُعِل لفائدة المجموع لا لفائدة الفرد . وانه في أرقى درجاته محاولة تطبيق المبادىء الخلقية السامية فيكون نتيجة الاخلاق لا سببها . وانه آلة متغيرة متكيفة غرضها مطمح أدبي عال . وانه على كل أحد أن يطيع هذا النظام وأن يساعد على تنفيذه . وأن حقّ وضعهِ وتغييره من حقوق المجموع لا من حقوق الفرد مهما كانت سلطتهُ

هذا معنى النظام في عرف الحضارة الغربية وهو أول ميزات هذه الحضارة

* * *

أما الركن الثاني فهو الحرية وهو ثان فى الترتيب ولكنه أول فى خطورة الشأن

الايمان بالحرية فخر من مفاخر الحضارة الغربية لم تشاركها فيهِ الحضارات الاخرى ما تقدم منها وما تأخر

وما هي الحرية ؟ إنها تستعصى على التفسير وتكبر عن أن تحد فهي روح حية لا كلمة أو حرف ميتٌ ولذا استحال على الناس تعريفها ويستحيل علينا تحديدها فنكتفي بأن نذكرها ونقول إنها عقيدة ترسخ في نفس الفرد او الجماعة على أن لا تهتدى الا بهدى النور الداخلي المنبعث من وجدانها فتكيف عقلها وضميرها وكل طرق معايشها على هدى هذا النور

على إننا اذا بحثنا في تفسير هدى هذا النور فقد نستطيع القول بأن آثار الحرية تظهر في امور ثلاثة :

اول هذه المظاهر حرية الضمير او حرية العقيدة وهي هذا الحق الذي يجعلك تحكّم مبادئك الادبية السامية في أعمالك ضارباً صفحاً عما يفرضهُ القانون أو ينص عليهِ العرف او يقضي بهِ الرأي العام

هذه هي الحرية التي خلقت الانبياء فجعلتهم وهم بشرٌ يعيشون في وسطٍ يخالفهم، أن يقوموا على هذا الوسط فغيروا من عقيدته وبدلوا من افكاره وفكوا عنهُ ربط القديم. وهي هي التي جعلت من جاء بعدهم يشكون فيما وضع للعالم من تعليم ونظام فحادوا عما رسم وساروا طريقاً يختلف عما عبّده لهم هؤلاء الانبياء. ولكنهُ دليل على انهم يهتدون بهدى الانبياء نفسه هدى الحرية اذ يحكمون الضمير لا التعليم والروح لا الحرف

فلو اكتفى البشر بحرية رجل عظيم قام ووضع لهم نظاماً وظلّوا دهرهم عليه لما كانت للحرية معنى اذ تقف وتجمد ويصبح النظام الذي كان نافعاً في بدء وضعه عقيماً ميتاً اذا لم تتعهده حريات أخرى بتبديل وتغيير وتكييف . فعلى حرية الضمير قامت عبادة الاصنام وعبادة الحيوان . وعبادة أرباب متفرقين الى عبادة واحد قهار أو رحيم. وحرية الضمير هي التي تمكن بعض الناس ألا يعبدوا لا أولئك ولا هؤلاء وألا يرضوا أن يبيّن لهم غيرهم ما يعبدون وما لا يعبدون

لقد اطلقت المدنية الغربية هذه الحرية من عقالها بعد جهادٍ طويل ملأ التاريخ ناراً ودماً فصرنا الآن وهي ركن من اعظم اركانها

***

وثاني هذه المظاهر حرية الفكر وهي هذا الحق الذي يجعلك تحكم عقلك فيما يقع تحت حواسك أو فوق حواسك فلا تعبأ بما قررته التقاليد أو ما سار عليهِ الجمهور . فحرية الفكر خلقت العلم وما اوجده العلم من نور وما هيأهُ من سعادة عقلية ومادية. وحرية الفكر أطلقت العقل من عقاله فاستكشف اسرار الطبيعة وسخرها لخدمته ولهنائته . وحرية الفكر تسيّر ابن آدم في طريق جديد لا يعرف له اول ولا يدرك له آخر

ولا نستطيع أن نميز تمييزاً قاطعاً محدوداً بين حرية الفكر وحرية الضمير فإننا لا نعرف اين تنتهي الواحدة وتبتدىء الاخرى لاننا نراها متصلتين ابداً آخذة هذه برقبة تلك

* * *

وثالث هذه المظاهر الحرية السياسية وهي وليدة الظاهرتين السابقتين ولكنها اكثر منهما أثراً للعين لارتباطها بحياة الانسان الاجتماعية من كل وجوهها

فالحرية السياسية هي خلعُ نير السلطة المستبدة والحقُّ في التشريع . هذان الاساسان كوناها وعليهما قامت ونمت وظهرت بمظهرها الرائع في الحضارة الغربية في هذه الايام

أجِل الطرف في تاريخ الشرق واقرأ بإنعام فلسفة حضاراته تجدها بعيدة عن الحرية التي فسرناها لك بعداً شاسعاً . فكأن الروح الشرقية موحدة لا غير والتوحيد يفرض اجتماع كل الصفات في شيء واحد ومنها السلطة المدنية ومتى تم لكائن واحد ان يجمع السلطان في شخصه سار حتماً الى الاستبداد فالى انتزاع الحرية من الجمهور

وان الحضارة التي لا تقوم على الحرية لحضارةٌ مادية يابسة لا تلبث ان تموت عاقراً . فقد تزهو في وقت معلوم لغرض معلوم ثم تنتظر فاذا بها كأن لم تغن بالامس . فالحضارات في الشرق — دع عنك الحضارات الاسلامية في أرقى مظاهرها — تركت لنا الاهرام وتركت الابراج وخلفت الهياكل والمقابر وقد تكون قد وضعت مبادىء الهندسة أو الفلك ولكنها لم تترك لنا روحاً حية ميراثاً للابناء عن الآباء . انها ابقت آثاراً مادية قد تبقى على الدهور ولكنها تركت شعوباً يتلقفها الفاتحون غاز في أثر غاز . ذلك ان المادة شيء والروح شيء آخر

وان الحضارة التي لا تخلف في تركتها روحاً حية وتجمع كل ثروة العالم المادية لحضارة فقيرة جد الفقر

* * *

قد يرى القارىء تضارباً في وصفنا المدنية الغربية بالنظام والحرية وهما ركنان يتناقضان كثيراً اما نحن فنقول ان سر هذه الحضارة هو في اجتماع هذين النقيضين . فان الجهاد لنيل الحرية يجعل النظام حيًّا متغيراً متكيفاً كما ان حب النظام يحفظ هذه الحرية من التدهور الى الفوضى. على انهما ليسا بنقيضين بالمعنى الصحيح بل حالتي نفس متمدينة متمكنة من شعب اخذ امره بيده

وإننا نرى أن للمدنية الغربية ميزة أخرى قد تكون وليدة الركنين اللذين شرحنا ظاهراتهما ولكنها بارزة بروزاً جديرٌ بان يحلها محلاً منفصلاً عن ذينك الركنين ، تلك ميزة الاندماج والتكيف

فالمدنية الغربية لم تنتبذ لها مكاناً قصيًّا عن بقية المدنيات بل اخذت عن سواها وامتصت وتمثلت ما اخذته وهي لا تزال تتطور شأن كل مخلوق حي

والشعوب المتحضرة بالحضارة الغربية ليست إلاّ نسلاً خليطاً قوام نسبه الاندماج بسواه

والتطور مع هذا السوى . وانهُ ليجدر بنا أن نتفهم هذا الخلق تفهماً حقاً . فرحابة الصدر في الشعوب وحب الاختلاط وازالة ما يمنع الاندماج خير ما يتاح لشعب يرغب في حياة خليقة بهذا التمدن

هذه الروح خلقت الامة الانكليزية وخلقت امة اعظم هي الامة الاميركية بل هي ام القوميات الاوربية كلها

ولكننا لم نعبأ بها في الشرق . فالترك مثلاً حكموا دهوراً على غير هذه القاعدة وكم يكون ملكهم عظيماً لو أدمجوا الارمن أو العرب أو الروم واندمجوا بهم اذاً لكانت هناك قومية تركية ولكنهم كانوا إلى العصبية أميل : الدينية ساعة والجنسية ساعة أخرى

بل انظر الى تلاميذهم من سوريين ولبنانيين وفلسطينيين وعراقيين ومصريين تر روح الانزواء ظاهرة ظهوراً فاضحاً . فاللبناني يغضب اذا جاوره ارمني وأحب أن يدخل قوميته والفلسطيني تقوم قيامته اذ يرى الحضارة الحالية تنصف اليهود وتعدهم بشراً لهم ما لجميع البشر من حقوق في آمال ومطامح

كل هذه آيات تدلك على ان الشرقي بعيد عن الفكرة السخية في تكوين القوميات القائمة عليها الحضارة الحالية

ولهذا الخلق الذي نحن بهِ متخلقون اسباب شتى ليس في المقام متسع لبحثها ولكنها مهما تعددت الاسباب فالاشياء بنتائجها والنتيجة المتحصلة من تاريخ حياتنا السياسية والاجتماعية لا تتفق مع ما قدمنا من ميزات الحضارة الغربية

وليس معنى ذلك اننا اقوام لا نليق بشخصيات دولة مستقلة . لا ، وليس معنى ذلك اننا لن نكون اصحاب سطوة ونفوذ دولي او اصحاب حكومات توافق اخلاقنا فنعيش دنيانا عيشة راضية . لا ، بل معنى ذلك اننا بعيدون بعداً غير شاسع في بعض الاحيان وشاسعاً في بعضها عن الحضارة الغربية الحقيقية المتسلطة على العالم الآن

وقد يكون في هذا البعد السعادة عند بعضنا او الشقاء عند البعض الآخر فهذا ليس في بحثنا وليس الذي نقصد اليهِ . انما نقصد ان نبين اننا قد أخذنا كثيراً من اساليب الحضارة الغربية فنقلنا الكثير من قوانينها ومن طرق معايشها ومن دساتير حكوماتها فهل نقلنا مثل ذلك من الاسس التي قامت عليها عندهم هذه الدساتير والقوانين وطرق المعايش ، وأهمها أساس القومية كما شرحناه في كل ما تقدم ؟ هذه هي النكتة ، أو على رأي شكسبير هذا هو السؤال

إننا نخشى أن نكون قد شرعنا في البناء على غير أساس متين فأخذنا في هندسة البناء الظاهر وفي زخرفة الجدران والابواب وأهملنا الاساس . وليس ذلك تعمداً منا ولا جهلاً بل ميراثاً ورثناه عن آبائنا أو عن الارض التي أنبتتنا (عن كتاب « الرسائل الضائعة »)



الدمقراطية في الازمات

للدكتور وليم مونرو

استاذ التاريخ وعلم السياسة في معهد كاليفورنيا

ورئيس قسم التاريخ في مجمع تقدم العلوم الاميركي



ليس مثل الازمات كاشفاً لمواطن الضعف في النظام الدمقراطي . ان حسناته تبدو جلية بهية في ايام السلم والرخاء ، اذ يسهل حفظ الشعب مكتفياً بحكومتهِ راضياً عن حاله . ذلك ان الرخاء يفحم النقاد ، ويحمل المنتخبين على تأييد أية زعامة او القناعة بغير زعامة على الاطلاق . ولكن اذا وقفت امة وظهرها الى الجدار تدافع عن كيانها في حرب ، او اذا ارتجّ نظامها الصناعي فأصبح على شفا الانهيار ، بدت مواطن الضعف في النظام الدمقراطي كأساسٍ للحكم ، فتعصف بالشعب ريح القلق والانقلاب

وانت اذا وجهت النظر الى بلدان اوربا رأيت النظام الدمقراطي في السنوات العشر الاخيرة قد اخذ يفقد ما له من الثقة في نفوس الجماهير ، فزال جانب كبير من الحماسة له ، التي فاضت بها النفوس على اثر الحرب الكبرى . فمن ناحية اليسار تهاجمهُ الشيوعية ، ومن ناحية اليمين تطغى عليهِ الفاشستية . نعم ان اعداءه في غير روسيا وايطاليا ، لم يفوزوا بالنصر الكامل عليهِ ، ولكنهم يتقدمون الى النصر بقدم ثابتة . وليس ثمة مجال للدهشة ، أنْ نرى المانيا تنقلب فاشستية واسبانيا شيوعية ، اذا لم تداو الازمة الاقتصادية — وهي مصدر القلق فيهما — وتخفّف وطأتها . حتى في انكلترا ، لقد اصيب النظام التقليدي القائم على الحكومة الوزارية المستندة الى حزب معين ، بصدمة قوية اذ تألفت حكومة ائتلافية ، وسلّم بحق بعض الوزراء في معارضة زملائهم في الوزارة ، فأصبحت الحكومة الانكليزية وكأنها بيت منقسم على نفسهِ . ومن المتعذر ان نتصور كيف يتم لنظام التبعة الوزارية في انكلترا العمل في ظلّ النظام الجديد . ولسنا نرى النظام الدمقراطي قد سلم من التقهقر الا في فرنسا . على ان فرنسا جمهورية ذات روح امبراطورية والضائقة الاقتصادية كانت فيها اخفّ وطأة منها في البلدان الاخرى

***

ان النظام الدمقراطي هو احدث المراتب التي وصل اليها تطورنا السياسي . ولكنهُ ليس آخرها . وهو بوجهٍ عام نتيجة التطور السياسي في المائة — بل الخمسين — سنة الماضية .

حتى اشدّ انصاره ايماناً بهِ لم ينتظر منهُ ان يكون نظاماً دائماً للحكم . فتوماس جفرسن مثلاً — الرئيس الدمقراطي الاميركي — لم ينتظر منهُ ذلك . ولقد كان جفرسن انفذ بصيرة من سائر رجال السياسة في عصره ، الى مواطن القوة والضعف في نظام تسوده وتسيطر عليهِ رغبات شعب شتيت العناصر. لذلك ذهب الى ان ارتقاء الصناعة وتجمُّع الناس في المدن ، قد يحمّل الحكومة الشعبية، عبئاً تنوءُ بهِ

وقد كان جفرسن على صواب في تفسيره للتاريخ السياسي . فقد ادرك ان شكل الحكومة يجب ان يكون ذا صلةٍ بأحوال المعيشة ، وان هذه الاحوال قد تتبدل تبدلاً كبيراً في اثناء قرنٍ كامل . لذلك انذر ابناء قومه ، بوجوب استعدادهم لتعديل اوضاعهم السياسية ، عصراً عصراً ، لئلاَّ تنبتَّ الصلة بين الحكومة وآمال الشعب ، التي وجدت الحكومة لتخدمها . وقد كان جفرسن مؤمناً بالحكومة الدمقراطية لانهُ كان يعتقد انها افضل اشكال الحكومات التي تلبي حاجات عصره ، ذلك ان عصره كان عصر حياة بسيطة ، يخرج فيهِ الناس رزقهم من الارض، والصناعات قليلة ضيقة النطاق، والمدن صغيرة ، والمساواة الاقتصادية بين افراد الامة تكاد تكون في قربها الى الغاية ، ابعد ما وصل اليهِ الناس

ولكنهُ لم يكن يؤمن بأن نظاماً حكوميًّا قائماً على سيطرة العامة ، يفي بحاجات كل الامم في كل العصور . بل ان الرجوع الى كتاباتهِ يجلو لنا اصراره في حثّ الاجيال المقبلة على تقليب النظر في الانظمة القديمة ونبذ ما يتنافر منها مع حقائق الحياة في العصر الجديد . ومن اقواله البليغة « هذا العالم يجب ان يكون مُلك الجيل الحالي لا مُلك الاجيال السابقة »

***

حلّت الحكومات الشعبية الجديدة محل الحكومات الاستبدادية (الاوتقراطية) في الفترة الواقعة بين الثورة الفرنسية ومعاهدة فرسايل (١٩١٩) ولكن النظام الاوتقراطي لم يضعف ويهوِ لانهُ ينطوي على خلل اساسيّ فيهِ . ففي عصر الفدنية (الاقطاع) كان النظام الحكومي الوحيد الملائم لاحوال العصر . ومضت قرون لا عمل للحكومة اهم من عمل الدفاع عن سلامة البلاد وحفظ الامن والنظام فيها ، فاستغرق هذان العملان كل وقت الحكومة وقواها. فالملوك والامراء حكموا البلدان حينئذٍ لانهم كانوا الاشخاص الوحيدين الذين يستطيعون ان يجمعوا قوى البلاد تحت امرتهم في الازمات المتعاقبة تعاقباً سريعاً

ورويداً رويداً ضاقت رقعة العمل الدفاعي الذي تقوم بهِ الحكومة ، اذ زادت تبعاتها الايجابية . ثم قضت الحال بزيادة الدخل فاتسع نطاق الضرائب التي تجبى من الشعب ، فجعل دافعو الضرائب يطالبون بحق اشتراكهم في تقرير خطة الحكومة العامة . وهكذا حلّت « حكومة دافع الضرائب » محل « حكومة ملكٍ يملك بحق الهي » . على ان حكومة ملاّك

الارض ودافعي الضرائب لم تعن حكومة دمقراطية كما نفهمها الآن . فانها منعت حق الاقتراع عن طائفة كبيرة من ابناء الامة البالغين سنّ الرشد . اما المذهب القائل بان كل الرجال لهم حقٌ في الاشتراك في السيطرة على الحكومة ، بصرف النظر عما يملكون أو يدفعون من الضرائب ، فوليد الثورة العظيمة التي اكتسحت فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر ، فرددت اصداءها بلدان العالم الغربيّ

ان الدمقراطية بمعناها العصري جاءت بعد اعلان حقوق الانسان وشيوع فلسفة المساواة . ولما كانت قائمة على اساس المساواة بين الانسان ، كان لا بدّ لنجاحها ، من بيئة تحققت فيها المساواة الاجتماعية والاقتصادية بعض التحقيق . ثم هي تتطلب ان تكون مسائل الحكومة بسيطة يستطيع الذهن العام ان يدركها ويبتّ فيها . وقد تحققت هذه الاحوال الى حدٍّ ما ، في اوربا واميركا في الجانب الاكبر من القرن التاسع عشر . فقد كانت المشكلات الكبرى في ذلك العصر مشكلات سياسية . اما المشكلات الاقتصادية القليلة التي عرضت للحكومات حينئذ ، فكانت غير معقدة تعقيداً يخرج عن طوق الذهن العام

***

وكلُّ هذا قد تحوّل الآن . فالسياسة والاقتصاد متداخلان تداخلاً لا انفصام لعراه . فليس ثمة مشكلة سياسية لا تنطوي على اعتبارات اقتصادية . وليس ثمة مشكلة اقتصادية لا تراها مشتبكة بمسائل السياسة المعقدة . والعامة لا تدرك عادة ، الى ايّ مدى اتسع نطاق الاعمال الحكومية في الخمسين السنة الماضية ، وبوجه خاص في ربع القرن المنصرم . فيد الحكومة تصل اليوم الى كل صغيرة من صغائر الحياة الاقتصادية العالمية . ان اقامة الحواجز الجمركية يحوّل تيارات التجارة الدولية . ونظام الضرائب يبعث الحياة في النهضة الصناعية أو يخنقها في المهد . وسيطرة الحكومة على البنوك والعملة ونظام الاعتمادات المالية ، يمكنها من رفع مستوى الاسعار أو خفضه . ثم ان قوانينها المختلفة تمكنها من السيطرة على اسباب المواصلات والمخاطبات ، وقد تبلغ هذه السيطرة في بعض الاحيان حدًّا ، لا يختلف كثيراً عن مُلْك الحكومة لهذه الاسباب المختلفة . اضف الى ذلك ان انتشار التأمين الاجتماعي — وبوجه خاص التأمين ضدّ العطلة عن العمل — قد جلب في أثره طائفة من المشكلات الاقتصادية ، عجزت الحكومات الاوربية عن حلها حتى الساعة

لقد انقضى « عهد الفردية » وعصر « دع الامور تجري في اعنتها » (Liassez-Faire) والراجح ان لا رجعة لها . ان الدمقراطية جاءت مع الفلسفة الفردية ، واقترنت بالمذهب القائل ان افضل الحكومات اقلها تدخلاً في شؤون رعاياها . وقد زال هذا المذهب وحلّ محلهُ القول بان « الحكومة يجب الاّ تمتنع عن شيء اذا كانت تستطيع ان تتفوق في اجادته

على الافراد أو الشركات » .وليس ثمة مطعن في هذا القول اذا سُمح للحكومات ان تعتمد على احكام الخبراء في معالجة المشكلات التي تعرض لها . ولكن هذا لا يسمَح بهِ للحكومات المؤلفة بحسب اصول النظام الدمقراطي الحديث . اذاً لا بدَّ للحكومات الدمقراطية من ان تسير بحسب رغبات الشعب ، لانها تقوم على قول روسو بان « الاكثرية دائماً في جانب الصواب ، ولو ثبت بكل دليل عملي انها على خطاءٍ » . فعرض المسائل الاقتصادية المعقدة على الجماهير نصف الامية لا يعدو ان يكون عرضاً لها على محكمة الجهل العليا . واذن يصحُّ ان نتساءل ، تساؤلاً جديًّا ، كيف يرضى العالم ، وتعقد مسائلهِ ومشكلاتهِ آخذ في الازدياد ، ان تدار دفةُ سفينتهِ بهذه الطريقة ؟

انظر الى مشكلات العالم في هذا العصر ، فمعظمها ناشئ عن قصر باع رجال السياسة . فالمعاهدات التي وضعت بعد الحرب الكبرى ، مبنية على اساس « تقرير المصير » وقد رسمت فيها حدود البلدان المختلفة وفقاً لانتشار السلالات والاقوام المختلفة. فلم يعنَ احد من واضعي هذه المعاهدات بدرس الاضطراب الاقتصادي الذي قد يورثهُ هذا التخطيط السياسي الجديد . فقد انشأوا مَثلاً جمهورية النمسا الجديدة من دون ان يمنحوها المصادر الاقتصادية التي تعيش بها. فحملوا بذلك حكومة النمسا على عقد — او محاولة عقد — معاهدة جمركية مع المانيا ، فكانت تلك المحاولة حائلاً آخر دون التفاهم بين المانيا وفرنسا

ثم ان هذا التخطيط الجديد حمل البلدان المستقلة الجديدة على انشاء الحواجز الجمركية ، فاضطربت مسالك التجارة القديمة ، وانقطعت الصناعات المختلفة عن اسواقها الطبيعية ، وانشئت صناعات جديدة انشاءً مفتعلاً . وهذه الصناعات الجديدة « المحمية بالحواجز الجمركية » استدانت اموالاً بالقناطير ، واخذت على نفسها تعهدات مالية لا تسوغها حالتها المالية — وهكذا امتدت سلسلة الاخطاء ، حدود جديدة ، فحواجز جمركية جديدة ، فصناعات جديدة ، فتعهد فافلاس ، حلقات آخذة بعضها بعناق بعض

ثم ان انشاء الدساتير الدمقراطية الجديدة في بلدان اوربا على أثر الحرب الكبرى كان ذا صلة باشتداد الضائقة الاقتصادية . فالمانيا والنمسا والمجر وبولونيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا اسرعنَ جميعاً الى اقتباس النظام الدمقراطي في الحكم وجميع ملابساتهِ مثل الاقتراع العام ، والتمثيل النسبي ، والتبعة الوزارية ، والاستفتاء وما اليها . والنصُّ على التمثيل النسبيّ في هذه الدساتير كان خطاءً فاضحاً ، لانهُ مهّد السبيل الى انحلال الاحزاب الى طوائف صغيرة ثم استناد الحكومات المختلفة الى كتل متباينة من هذه الطوائف . وهذا بدورهِ افضى الى الجمود الحكومي لسهولة قيام معارضة قوية في وجه الحكومة المتقلدة زمام الاحكام. ان احوال اوربا في العشر السنوات الماضية كانت تقتضي زعامة قويةً وتأييداً لهذه الزعامة من المجالس النيابية . ولكن

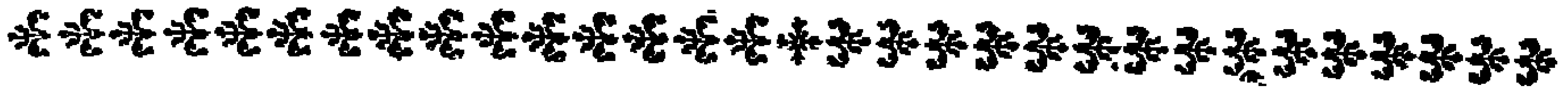
الدساتير الدمقراطية الحديثة في اوربا جعلت كلا الامرين مستحيلاً

ثم ان الدمقراطية الجديدة اتجهت في شؤون الاجتماع اتجاهاً طريفاً . فالسلطة السياسية انتقلت الى ايدي اولئك الذين يرغبون في تأييد الحكومة لمصالحهم الخاصة . لذلك ترى الحكومات الدمقراطية الحديثة وقد اقبلت على تحسين الحال الاجتماعية بمشروعاتها المختلفة كالتأمين ضدّ العطلة عن العمل والتأمين الصحي وتوسيع نطاق التعليم المجاني والمعالجة المجانية والانفاق على هذه المشروعات كان من وراء مقدرة تلك الحكومات من الناحية المالية المجرّدة. فلما تعذّر عليها جبي الضرائب اللازمة لسدّ هذه النفقات حدث في الميزانيات المختلفة عجز سدّت ثغرتهُ بطرق صدّعت اركان الثقة بالحكومة ، والمصارف والمنشآت المالية بوجهٍ عام . حتى في انكلترا ، سرى ذعر مالي عام لاربآء النفقات على الايرادات — وسببهُ في الغالب الاموال التي كانت تنفق عادة على العمال العاطلين تلبية لمطالب المقترعين الذين منحوا حكومة العمال اصواتهم في الانتخاب السابق

وهذا الذعر المالي افضى الى حشد الذهب وهروب رؤوس الاموال فنقصت الاموال المودعة في البنوك نقصاً سريعاً وسحبت الاموال الاجنبية من النمسا والمانيا وانكلترا . واضطر اكبر بنك في النمسا ان يقفل ابوابهُ . وطلبت المانيا موراتوريوم . وخرجت انكلترا عن قاعدة الذهب . ان سلسلة الحوادث التي افضت الى هذه الحوادث الخطيرة سلسلة معقدة . ولكن لا ريب في ان السبب الاساسيّ هو الخلل في تدبير اموال الحكومات والتبذير في انفاقهِ في المصالح العامة ، والاختلال في موازنة الدخل والخرج ، فافضى ذلك الى العجز واحتمال التضخيم المالي ، وكل هذا يجب ان نسنده الى الدمقراطية الجديدة

***

ان التبرم العام بالاوضاع الديمقراطية الذي يساور الجماعات الاوربية اشدّ الآن منهُ في اي عهدٍ سابقٍ . فاذا شئنا للدمقراطية النجاة من الزوال وجب على الولايات المتحدة الاميركية ان تفعل ذلك ، والسنتان المقبلتان يثبتان لنا مكاننا من المقدرة والعجز . اننا لا نستطيع ان ننجي الدمقراطية ، بالغاء ديون اوربا لنا ، ولا باقراضها ديوناً جديدة ، بل بتدبير شؤوننا اولاً ، بنقص النفقات العامة في حكومتنا ، وزيادة ابواب الدخل من دون ارهاق الصناعات ، ورفضنا المشروعات الاجتماعية المرهقة للخزينة والتي قد تنقلب فتضرّ الذين عملت لنفعهم ، واعادة الثقة العامة بمنشآتنا المالية. وبكلمة يمكن تنجية الدمقراطية باقامة البرهان على ان امةً دمقراطية واحدة تستطيع الاحتفاظ برباطة جأشها في عالمٍ قد جُنّ



العوامل الوراثية والغدد الصماء

للدكتور شريف عسيران



بيّنا في مقالاتنا السالفة ان تنوع الصفات يتوقف على تنوع العوامل وشرحنا كيفية التنوع ولكننا لم نبين في اي دور من ادوار الحياة يحصل هذا التنوع . وهو ما نتناولهُ الآن:

من المعلوم ان لتكوين الجنين ادواراً مختلفة والعوامل الوراثية لا تقوم بوظائفها دفعة واحدة بل توزعها على مختلف ادوار التكوين فمنها ما تعمل في الدور الاول ومنها في الدور الثاني وغيرها في الدور المتأخر وقد يكون ثمة نقص في بعض العوامل فمتى جاء دور تلك العوامل تتلاشى الصفة المختصة بها لانها ناقصة

ذكرنا في بحثنا عن الجنس انه يوجد نوع من العوامل المميتة تؤول الى موت الجنين وبينا كيف يزيد عدد وفيات الذكور عن الاناث قبل الولادة لان في الاولى اكساً واحداً وفي الثانية اكسين فاذا كان الاكس معيوباً في الذكر فمصيره الموت واما الانثى فتحمل اكسين فاذا اعتل احدهما فالآخر يسد مسده . فعوامل كهذه تقوم بوظيفتها في ادوار التكوين الاولى ولكن غيرها تقوم بوظيفتها في الدور الذي بعده وهذا ما اختبروه في الفئران الصفر . فقد احدثوا نقصاً في احد العوامل المختص به اخراج هذا اللون فاذا كان في الفرد عاملان عاديان او عامل عادي وعامل معيوب نشأ صحيحاً واذا كان العاملان معيوبين مات ذلك الجنين وقد وجدوا بالفعل بعض الاجنة الصفراء ميتة في بطن الام . والشيء نفسهُ ينطبق على النباتات فان المادة الخضراء (الكلوروفيل) ضرورية لحياتها فالنباتات التي فيها نقص هذا العامل تنمو نموًّا طبيعيًّا الى ان يأتي دور الكلوروفيل فلا تخضرّ بل تموت بسبب فقد هذه المادة فاذا لقحنا النبتة المفقود منها الكلوروفيل في هذا الدور بهذه المادة فانها تخضرّ وتعيش

وفي الكروموسوم الرابع من عوامل ذباب الفواكه عامل وظيفته تهيئة الالوان الاساسية لتكوين مادة العين فاذا نزعنا مادة هذا العامل فان الذبابة تنمو نموًّا طبيعيًّا الى ان يصل دور هذا العامل المعيوب فتنشأ الذبابة عمياء بسبب فقد اللون المذكور . والسبب نفسهُ يعزى الى ضعف العقل في البشر (Feeblemindedness) . يشترك في تكوين الدماغ عدة عوامل فاذا كان ثمة عيب في بعضها نشأ الدماغ ناقصاً ولا يقوم بوظيفته الطبيعية حق القيام وهذا النقص او الضعف يورَّث بطريقة مندل

ان لبعض العوامل تأثيراً خاصاً كالعوامل التي ذكرناها فتؤثر في العين او الدماغ او اعضاء التناسل الخ، ولغيرها تأثير عام وقد درس برل (Raymond Pearl) هذه الحقيقة في ذباب الفواكه فوجد بعضها يعيش عمراً طويلاً تام النشاط والقوة والبعض الآخر يحيي حياة قصيرة يعيش في خلالها نحيفاً ضعيفاً خاملاً ونسب طول الحياة وقصرها الى العوامل العامة التي لها سيطرة على كل الجسم وهذه الصفة ناشئة عن وجود عامل واحد له تأثير عام وهي تورث اما بقانون مندل او بالاتصال الجنسي. ومن رأي مورغن ان العوامل التي لها تأثير خاص تؤثر في عامة الجسم ايضاً . فيكون طول الحياة وقصرها وراثياً بحسب هذا التعليل

﴿ سبب اختلاف الصفات باختلاف العوامل ﴾ بينا قبلاً ان خلايا ذوات الثدي وغيرها تختلف في بدء تكونها اختلافاً بيّناً ففي خلايا الذكر مجموعة من الكروموسومات وا كس واحد وفي خلايا الانثى ا كسان ويختلف تطور البيضة التي فيها ا كس واحد عن التي فيها ا كسان . كذلك تختلف التفاعلات الكيماوية في الاثنتين ولكن في ادوار التكوين الاولى لا يمكن التمييز بين الجنسين في ذوات الثدي وقد وجدوا انه ينشأ في القسم الظهري من الجرذان او الارانب بقعة خاصة تتألف من عدة خلايا تتكوّن منها فيما بعد نطفة الذكر ونطفة الانثى وتسمى هذه البقعة الغدة الجرثومية (Germgland) فتكبر بعض خلاياها وينشق من هذا البعض نطفة الذكر ونطفة الانثى وتدعى تلك الخلايا حينئذ الخلايا التناسلية (Genital Cells) وتكون الغدة الجرثومية في بادىء الامر واحدة في الجنسين وبعد ذلك يظهر اول فرق بين خلايا الذكر وخلايا الانثى فالاولى تنقسم وتصغر وتتكون منها نطفة الذكر الاولى مع الصفات التي ترافقها اما خلايا الانثى فتظل كما هي في الوقت الذي تتنوع فيه خلايا الذكر التناسلية فهذه تتنوع قبل تنوع خلايا الانثى التناسلية وبعد مضي وقت من نشوء خلايا الذكر تأخذ خلايا الانثى بالتنوع وبدلاً من ان تنقسم وتصغر تكبر رويداً رويداً وتكوّن البيضة او نطفة الانثى

ان صفات الذكورة والانوثة نوعان الصفات الجنسية الاولية وهي الفروق بين اعضاء التناسل الرئيسية والصفات الجنسية الثانوية واهمها خشونة الصوت ونعومته ونمو الشعر او عدمه وشكل الجسم وتناسب اعضائهِ كعرض الكتفين وضيق الخصرين في الذكور وعكسهما في الاناث ونشوء قرن او عدم نشوئهِ الى غير ذلك من الفروق الثانوية بين الجنسين. ونذكر الآن بعض التجارب التي ترشدنا الى سر هذه الفروق الجنسية. فلو نزعنا من ذكر صغير جداً الغدة التناسلية او الخصيتين لم تظهر في هذا الذكر صفات الذكور الثانوية كخشونة الصوت وعرض الكتفين ونمو اللحية والشارب الى غير ذلك . والشيء نفسهُ يحدث في الانثى اذا استأصلنا المبيضين فلا تظهر فيها نعومة الصوت وضيق الكتفين وفقدان اللحية او القرن الى غير ذلك

ومن هنا نستدل ان للصفات الجنسية الثانوية علاقة بالغدد التناسلية لان هذه الصفات ليست ناشئة عن الكروموسومات. فخلايا الانثى فيها عدد الكروموسومات الكامل للنوع ولكن فقدان الخلايا التناسلية لا يفسح مجالاً لظهور الصفات الجنسية الثانوية فيها ونفس الشيء يصدق على خلايا الذكر. فكيف تحدث الغدد التناسلية هذه التغيرات. ان نقل هذه الغدد من جنس الى آخر يكشف لنا الستار عن مخبآت هذا التأثير وهذا ما فعله شتيناخ Steinach ومورز C. Moores وغيرهما فانهم نزعوا المبيضين من صغار الاناث ووضعوا الخصيتين مكانهما فنمت تلك الاناث دون ان تظهر فيها الصفات الجنسية الثانوية بل ظهرت فيها صفات الذكر وكذلك نزعوا خصيتي الذكر ولقحوا مكانهما مبيضي انثى فظهرت فيه صفات الانثى الثانوية عوضاً عن صفات الذكر فينبغي ان يكون في الخصيتين والمبيضين عامل خاص غير العوامل الوراثية يؤثر في نشوء الصفات الجنسية الثانوية لاننا اذا استأصلنا هذين العضوين فلا تظهر تلك الصفات مع ان عدد الكروموسومات المخصص للنوع موجود. فلا بد من وجود افراز داخلي في هذه الاعضاء يفعل الفعل المذكور. واذا صحت نظرية الافراز الداخلي لذَّ لنا ان نجعل دم الذكر يسري في الانثى فتظهر فيها صفات الذكورة وهذا ما فعلتهُ الطبيعة. فقد وجد للي F. R. Lillie ان الماشية كالبقر والغنم وما اشبه تلد احياناً توأمين احدهما ذكر والآخر خليط من ذكر وانثى ورأى هذا البحاثة ان الجهاز الدموي يكون متصلاً في حالات كهذه. وقد بينا ان مميزات الذكر الجنسية تظهر قبل مميزات الانثى ففي دور من ادوار النمو يسري دم الذكر وهو في بدء تكونهِ الى دم الانثى التي لم تتميز خلاياها التناسلية بعد فينشأ فيها مزيج من صفات الانثى وصفات الذكر فالصفات الجنسية الثانوية تتوقف على وجود الافراز الداخلي ولكنها تتوقف ايضاً على اكثرية الخلايا الموجودة فان كانت من نوع الانوثة تتغلب هذه الصفات والعكس بالعكس. فصفات الذكورة والانوثة تتوقف على الافرازات الداخلية التي تذهب رأساً الى الدم ويقال لها الهرمون (Hormone) وهي كلمة يونانية معناها «يهيج» ويسمونها ايضاً الافراز الداخلي. ففي الانثى نوع خاص من الافرازات الداخلية تولد صفات الانوثة وفي الذكر افرازات مثلها تولد صفات الذكورة، ولكن الانوثة والذكورة تتوقفان على الكروموسومات فالتي فيها اكس واحد تكون ذكراً والتي فيها اكسان انثى والكروموسومات تولد الصفات الجنسية بواسطة الافرازات الداخلية. فالصفات الجنسية تتوقف في ذوات الثدي على هذه الافرازات وتأثيرها الجنسي محدود في الطيور وفي الحشرات لا تتوقف الصفات الجنسية عليها

﴿ الغدد الصماء او العديمة الاقنية ﴾ — ان لافرازات هذه الغدد شأناً لا يقل عن العوامل الوراثية وقد عزوا اليها طول المرء وقصره واخلاقه وسلوكه وقالوا انها هي المسيطرة على شخصيته باجمعها فالشباب والشيخوخة منوطان بها والجبن والشجاعة اثر من آثارها وقد اثارت

ضجة في عالم الطب والعلم واستغلَّ النفعيون هذه الفكرة فبالغوا وحرَّفوا حبًّا بالكسب وخبط غيرهم خبط عشواء فنسبوا اليها المعجزات . ولهذا رأينا ان نبحث فيها باختصار متوخين الحقيقة ومقتصرين على ماهو ثابت علميًّا وطبيًّا ، ولكي لا نشوش ذهن القارىء الكريم نبحث عنها بانتظام . ففي الجسم ثلاثة انواع من الغدد الاولى التي لها اقنية خاصة تحمل افرازها الى الخارج كغدد اللعاب وغدد المعدة والامعاء والمرارة وغيرها والثانية الغدد التي ليس لها اقنية تحمل افرازها الى الخارج بل تفرزه الى الدم او السائل اللمفاوي رأساً وهي بيت القصيد من بحثنا . والثالثة الغدد المشتركة اي التي فيها نوعان من الافراز الاول تحمله اقنية خاصة والثاني يذهب الى الدم رأساً كافراز الغدد العديمة الاقنية ومثلها الخصيتان والمبيضان . فالغدد الصماء الرئيسية خمسة

(١) الغدة الدرقية والغدد المجاورة لها (The Thyroid and Parathyroid Glands)

(٢) الغدة الصعترية (Thymus Gland)

(٣) الغدتان اللتان فوق الكلية (Superarenal Glands)

(٤) الغدة النخمية (Pituitary glands)

(٥) الغدة الصنوبرية (Pineal body) ونبحث عن كل منها باختصار مبينين اهميتها الحقيقية

***

﴿ الغدة الدرقية ﴾ — تتألف هذه الغدة من فصَّين كل منهما على جانب من جانبي القصبة Trachea عند اتحاده بالحنجرة وطولها نحو ٥ — ٦ سنتيمترات . لقد درسوا هذه الغدة في الضفادع درساً مدققاً ففي جميع الحيوانات البرمائية (الامفيبية) ما عدا النزر اليسير يتولَّد فرخ صغير لهُ ذنب وخياشيم ولكنهُ خلو من الاطراف وهو يستطيع السباحة ويسمى هذا الفرخ Tadpole في دور من ادوار حياته تتلاشى الخياشيم والذنب وينشأ له ساقاً فيحدث فيهِ تبدلات داخلية وخارجية تصيره ضفدعاً . فما هو سبب هذا التطور Metamorphosis ؟

وجد جودرِنَاتش J. F. Gudernatch اننا لو اطعمنا فروخ ضفادع صغيرة جداً قطعاً من هذه الغدة فانها تتبدل الى ضفادع سريعاً اي تتلاشى خياشيمها وذنبها ويظهر لها ساقان ولكنها تكون صغيرة كالذبابة فيحصل التبدل بسبب اطعامها هذه الغدة وهي صغيرة بعد . وبالواسطة نفسها جعلوا فرخ الضفدع من النوع الضخم Bull - frog الذي لايتطور عادة قبل السنة الثانية أو الثالثة من عمره ان يتطور في السنة الاولى فبعد اسبوعين من اطعامه هذه الغدة يتطور ويصير ضفدعاً . ويحدث عكس ذلك اذا استأصلنا الغدة الدرقية من هذه الحيوانات فانها تنمو وتكبر ولكنها لا تتطور اي لا تتلاشى خياشيمها ويظهر لها ساقان .

وقد اكتشف Kendall سنة ١٩١٤ خلاصة هذه الغدة أو الافراز الداخلي الذي تفرزه واسمه ثيروكسين Thyroxin فالملغرام منه يزيد الاستحالات الغذائية Metabolism في الشخص ٢ بالمائة عن معدلها ولهذا الافراز تأثير فعال في نمو الجسم والعقل كما سنرى ويعزى فعله الى وجود معدن اليود Iodine فيه . واول من اكتشف هذه الحقيقة W. W. Swinge وقد قدروا انه يوجد ١ — ٢ ملغرام من معدن اليود في كل غرام من وزن الغدة.

تنمو الغدة الدرقية تدريجاً كسائر اجزاء الجسم ولا تفرز افرازها الا في دور معين من ادوار الحياة فمتى جاء ذلك الدور تفرز الافراز الداخلي وتحدث تأثيرها الخاص فيتطور فرخ الضفدع الى ضفدع. ومما يجب ملاحظته ان تأثير هذه الافرازات الداخلية يختلف باختلاف اجزاء الجسم وباختلاف الانواع والاصناف وقد درسوا هذه الحقيقة في الحيوانات البرمائية فوجدوا ان تأثير افراز هذه الغدة ناجم عن اسراعه استحالة الغذاء (ماتابولزم) فاذا افرطنا في إطعام فرخ الضفدع الغدة الدرقية خف وزنه كثيراً فتتلف انسجة جسمه ويموت واذا استمررنا على اطعامه تنشأ فيه علامات تشبه الموت جوعاً ونفس الشيء يحدث في الحالة الطبيعية في اثناء تطوره فان افراز الغدة الدرقية يتلف الخياشيم والذنب وبعض اجزاء الامعاء فيتلاشى مايتلف بالامتصاص ولا يبقى من الامعاء الا جزء قصير ولكن هذا الافراز لا يفعل بالاطراف ما فعله بغيرها بل على الضد يجعلها تنمو وتتنوع الى اصابع وعقد ومفاصل . واعضاء التناسل لا تتأثر به فلا تتلاشى ولا تزداد سرعة نموها بل تظل سائرة بحالتها الطبيعية كأن لم يكن ذلك الافراز . وقد عزوا تنوع فعله الى تنوع السيتوبلازم ولا تزال حقيقة امره مجهولة . وفي بعض انواع الحيوانات البرمائية تؤثر بالزعانف ولا تؤثر بالذنب فتأثيرها يختلف باختلاف نوع الحيوان فال Axolotl حرذون كبير ذو خياشيم خارجية حمراء بارزة وذنب صالح للسباحة وغيرها من الاوصاف التي تؤهله للعيش في الماء فاذا اطعمناه الغدة الدرقية تطور سريعاً كما تتطور فرخ الضفدع فتتلاشى خياشيمه ويتغير شكل جسمه ويعود غير صالح للعيش في الماء فيزحف على اليابسة ويصير Amblystoma اي نوع الحرذون الذي يعيش على اليابسة . وليس عدم تطوره في الماء ناشئاً عن فقدان خلاصة هذه الغدة بل الغدة موجودة بحالتها الطبيعية ولكن عدم تأثيرها في حالة كهذه لا يزال مجهولاً . وللغدة الدرقية تأثير كبير في نمو الانسان الجسدي والعقلي فالاشخاص الذين تكون هذه الغدة ضعيفة فيهم أو معدومة ينشؤن فداماً أو بلهاً ويدعى هذا المرض الفدم [1] Cretinism وهو يحدث في الاطفال والاولاد والبالغين ويقال له في الكبار مكسديما Myxoedema واهم علاماته ضعف شديد وتوقف نمو

(١) الفدم لغة العيي عن الكلام في رخاوة وقلة فهم

الجسم وهزال وفقر دم وخشونة الشعر وسقوطه احياناً وانحطاط في القوى العقلية الى غير ذلك مما لا حاجة الى الاطالة فيه لان البحث عنه من المواضيع الطبية . والاقزام هم الاقوام القصار القامة وهذا القصر ناشيء عن نقص في الغدة الدرقية والقصر ينتقل فيهم بالوراثة واشهر قزم في التاريخ جفري هدسن Jeffrey Hudson الذي ولد في انكلترا سنة ١٦١٩ من ابوين معتدلي القامة ولما كان عمره ثمان سنوات وطوله قدم ونصف قدمه والده هدية الى دوقة بوكنهامشير ودعت الدوقة يوماً ما الملك شارلس الاول الى قصرها احتفالاً به وقدمت له هذا القزم كقطعة حلوى فابتهج بهِ الملك وابقـاه في بلاطه ومنحهُ لقب « فارس » لاجل السخرية وبقي طوله ١٨ بوصة (انتش) من سن الثامنة حتى بلغ الثلاثين ولما مات كان عمره ٦٣ سنة وطوله ٣ اقدام وتسع بوصات . وكان له شأن في حياته فاختطفتهُ بحارة الدانمارك ثم باعه قرصان البرابرة عبداً فهرب ورجع الى انكلترا وصار زعيماً في الجيش الملـكي وقد قتل رجلاً صحيحاً لانهُ سخر منه وأخـيراً سجن لانهُ قام بحركة ضد رجال الدين

وتضخم هذه الغدة يسبب مرض الغوتر Exopthalmic Goiter وكثيراً ما نشاهد في القسم الامامي من عنق النساء على الاخص تضخماً ناشئاً عن تضخم الغدة المذكورة ومتى ازداد التضخم يسبب جحوظاً في العينين وخفقاناً في القلب وبطئاً في ضرباته ورعشة واضطراباً في العقل وضعف في القوى الى غير ذلك . وقد نسبوا هذا التضخم الى قلة الايودين في الغدة فالساكنون قرب البحر حيث يتوفر هذا المعدن لا يصيبهم هذا المرض اما الساكنون على شواطيء البحيرات فمعرضون له . والخلاصة ان لافراز هذه الغدة تأثيراً في نمو الجسم والعقل فضعفها او تلاشيها يعرض المرء للموت وتضخمها يسبب امراضاً فتاكة فاذا اعطي المصابين بمرض من امراضها خلاصة هذه الغدة فانهم يشفون من مرضهم

﴿ الغدد المجاورة للغدة الدرقية ﴾ — ان هذه غدد صغيرة طول الواحدة منها نحو ٦—٧ مليمترات وعددها اربعة وموقعها في الوجه الخلفي من فصي الغدة الدرقية حيث يوجد غدتان وراء كل فص . وقد وجدوا ان استئصالها في الحيوانات يؤدي الى الموت . ويرجح الباحثون ان وظيفتها تنظيم المواد الكلسية (الجيرية) والسيطرة عليها فافرازها الداخلي منوط به تمثيل المواد الكلسية فاذا كانت ضعيفة تقل المواد الـكلسية في الدم ويتعرض الفرد لحالات عصبية قتالة . وكثيراً ما يصاب الاطفال بتشنجات عصبية يرافقها هزات عنيفة يسميها الناس « هزة الخائف » ويعزون هذا المرض الى قلة المواد الكلسية الناشئة عن ضعف هذه الغـدة واعطاء المريض خلاصتها يزيل هذا المرض وقد نسبوا اليها مقاومة السموم التي تنشأ في الجسم وملاشاة تأثيرها . هذا ما هو معروف عنها حتى الآن

« لها تتمة »

مملكة الخيال

منى ان تكن حقاً تكن أحسن المنى   والا فقد عشنا بها زمناً رغدا

أهنيهةً قطع الضحى ام جيلا   يوم العفاة لقد خلقت طويلا
ما ضرّ فجرك لو تلألأ وانياً   فلعلها تغفي العيون قليلا
عاجلت أحلام الدجى فطويتها   والروح ترشف جامها المعسولا
ما كان اهنأها . يلوّن سحرُها   صورَ المنى ويرفها تدليلا
ويثير فيهن الحياة شهية   والحبِ أرعن والشباب منيلا
راض الشفاه الشامسات على الهوى   فضحكن يهمسن الحوار عليلا
وحنا على بؤس العفاة فما رأوا   من عثرة الآلاّ رأوه مقيلا
خلع النضارة والشباب عليهم   والحب والمُتع العذاب الاولى
نِعمٌ وان كانت تحول مع الضحى   ايُّ المباهج لم تكن لتحولا

***

كفروا بقدرته . واومن أنها   تحوي الوجود وتملك التحويلا
تحنو على القلب الجريح فينثني   ريانَ من رحماتها مطلولا
وترف إن حمي الهجير غمامةً   وندى وظلاً في الهجير ظليلا
وتحوّل البيد الظماء خمائلاً   سكرى وربعاً ضاحكاً مأهولا
فكأنها — فيما تزخرف من منى —   آس تحاول كفه التجميلا

***

ان الذي خلق « الحقيقة » علقماً   خلق « المنى » للواردين شمولا
تتصارعان — ولا ترى إحداهما   ظفراً — لتبسط حكمها وتطولا
تدعو (المنى) زمرَ القلوب (واختُها)   تدعو بصائر في الوغى وعقولا
والكون بين الضرتين مقسم   فاشهد قبيلاً يستبيح قبيلا
واعذر على البغي القلوب فطالما   قيدت وذلّل صعبها تذليلا
اما الدجى — والفجر من اعدائه —   فلقد بصرت به يجر سديلا

***

قل للحقيقة : ان قسوت فربما   فكّ الزمانُ أسيرك المكبولا
ان تملكي الدنيا وسر كنوزها   لم تملكي الاحلام والتأميلا

افق المنى احنى وأرحب عالماً … وأحنُّ افياءً وأزين سولا
صوني الكنوز عن العفاة فلا ترى … عين إلى تلك الكنوز سبيلا
وتخيريها للقويّ سلافة … وغنىً وطرفاً ناعساً مكحولا
واذا شكا العافي فسوطك واسمعي … نغم الالوهة زفرة وعويلا
وتنكري للنائمين على الطوى … الله قد خلق «المنى» لتذيلا
ماكان جودك للسعادة ضامناً … صدقاً وبخلك بالشقاء كفيلا

* * *

هذي الحياة عنت لبأسك رهبةً … فتسمعي لجباً بها وصهيلا
وزماجراً قامت على غمّائها … من حكمك العاتي القوي دليلا
ملكت يداك هواءها وبحارها … والكون اجمع عرضه والطولا
العلم يحكم وحده متعسفاً … لا قلب في سلطانها وميولا
والعلم ان ملك القلوب فسمّه … وحشيةً وادع الحضارة غيلا
والعلم ان ملك القلوب فسمها … حجراً تنوء بعبئه محمولا
لا نبض ما خفقت به لكنهُ … صوت الحديد غدا يصلُّ صليلا
اما الاكف فخيرها ذو جنة … حطم الرباب وحالج الازميلا
العلم سخرها وحسب العلم ان … تزنَ الامور جميعها وتكيلا
عفّى على حرم الخيال وقدسه … او ما ترى حرم الخيال أزيلا
ولقد وقفت به أناشد غائباً … قفل الخليط وما اطاق قفولا
وبكيت ـ أجزيه ـ وربَّ مدامع … خففنَ كرباً او شفينَ غليلا

* * *

عهدي به والشعر في ادواحه … يغشى القلوب اغانياً وهديلا
خضل المروج ترف انداء المنى … فيه السرائر بكرةً واصيلا
وجلا لك الدنيا — على ما تشتهي … منها — يملّقُ حسّك المختولا
وأعاد مطويَّ العصور — وآدماً … يحنو بأدمعه على هابيلا
مُنح الخلود ولاميول ولا هوًى … فأبى وآثر غربةً ورحيلا
غزل يحاور من احبَّ وسرُّه … ان فارق التكبير والتهليلا
تتغير الالوان . تغمر نفسه … بالحسن ، لا نزراً ولا مملولا

وتبدُّل الالوان . نعمــة خالد لم يدر في فردوســه التبديلا

* * *

وترى بأفياء الخمائل عزة تحنو لتحتضن النهود جميلا

فانعم برؤية عاشقين تلاقيا سحراً وقد هوت النجوم افولا

واعذر جميلاً حين جنَّ جنونه فسطا .... ولا غزلاً ولا تأهيلا

نشوان يجذبها إليهِ — ولا يرى إثماً — ويلهب عريها تقبيلا

يترشف الثغر الشهيَّ سلافةً ويرفه كالاقحوان بليلا

* * *

ودمى وردنَ على الغدير وما اتقت حسناءهن الشاعر الضلّيلا[1]

حتى اذا أخفى البرود وسامها أمراً رأتهُ من الحياء جليلا

عطفت تناشده العفاف وأتلعت جيداً — كلألاء الصباح — اسيلا

فأبى وتسرع نحـوه عريانة خجلى — لقد حبَّ الجمال خجولا

* * *

وتطالع المجنون في اسماله شلواً بأنياب السقام أكيلا

خذلته نعماء العيون وسخرت للعبقـرية ذلك المخـذولا

فهوى صريعاً : بالرمال مكفناً بمدامع الصبح البليل غسيلا

* * *

وفتى قريش[2] وهو يقتل طرفه ليرى الثريَّا والهـاً مخبولا

عبثت لتشهد منهُ أية لوعة تجزى وايُّ هوى ملحٍّ تولى

* * *

وسكينة[3] والشعرُ في ابوابها والحسن يبعث شجوه فيقولا

نشوى الدلال. تعب من خمر الهوى سكراً ويمنعها الحياء تميلا

---

(١) امرؤ القيس بن حجر ويشير الشاعر هنا الى حكايته مع ابنة عمه — وكانت هوى له — حين أخفى بردها وبرود رفيقات لها — وكن يسبحن في غدير — فلما انتهين من الماء لهواً وابتراداً . أبى عليهن البرود . الا ان يأخذنها منه واحدة فواحدة عاريات . وقد نزلن عند هواه الا ابنة عمه فقد تعللت وسوفت . ثم رضيت واذعنت

(٢) جاء في الاغاني إن عمر بن ابي ربيعة كان مدلهاً بالثريا وكانت عرضة ذلك جمالا وتماماً وكانت تصيف بالطائف وكان عمر يغدو عليها كل غداة اذا كانت بالطائف فيسئل الركبان من الطائف عن الاخبار قبلهم . فاتي يوماً بعضهم فسأله عن اخبارهم فقال ما استطرفنا خبراً الا انني سمعت عند رحيلنا صوتاً وصياحاً عالياً على امرأة من قريش اسمها اسم نجم في السماء فقال عمر الثريا قال نعم فوجه فرسه الطائف يركضه ملؤ فروجه وسلك طريق كدا وهي اخشن الطرق واقربها حتى انتهى الى الثريا وقد توقعته وهي تتشوف له وتشرف فوجدها سليمة عميمة فاخبرها الخبر فضحكت . وقالت والله أنا أمرتهم لاختبر مالي عندك . والى هذه القصة يشير الشاعر في ابياته هذه

(٣) سكينة بنت الحسين وهي من اظرف نساء التاريخ العربي القديم

ملؤ العيون مفاتناً لـكنها ملؤ القلوب . عُـلاً اعزُّ أثيلا
وقف العفاف يذود عن ذاك اللمى _ الاّ المنى _ شرس الذياد بخيلا
وتذيع جمتها عبيراً ربما اخذ الشذا القدسيُّ عن جبريلا

* * *

وأبا نواس في مجالس لهوه قسم الليالي سكرة وذهولا
حالي الدعاب هفا وعلل ذنبه للاعين فأحسن التعليلا
حسب الحياة سلافـة ومهفهفاً والباقيات من الحياة فضولا
لم يهوَ غير الحسن في خفراته وأحبه عند القيان ذليلا
من كل نافرة فان جمشتها ألفيت عقـد نطاقها محلولا

* * *

وترى ابن برد(١) وهو في نزواته كالليث مرهوب السطا معزولا
هتك الفضائح بعد صون وانتضى للمالـكين بيانه المصقـولا
فرموه بالاشراك ثم تلمسوا من حاسديه شاهداً مقبولا
حتى اذا عزَّ الشهود تمحلوا فرأوا شهوداً في القريض عدولا
زعمته أهواء السياسة كافراً تالله ما بالـكفر راح قتيلا

* * *

متجاورين . ترى بكل بليلة عند الغدير خليلةً وخليلا
متنادمين على الخمائل انشدوا غرر النسيب ورتلوا التنزيلا

* * *

سقيا لنعماء الخيال ولا رأت عيناي ربعاً من هواه محيلا
اثمت بزينته الحضارة واقتضت شر التقاضي دينها الممطـولا
شوهاء تحلم بالقبور ولا ترى الاّ الاسى والثـكل والترميلا
ويعبدُ منطقها الضجيجَ تناسقاً والحب علماً قد أُعدّ فصولا
فاذا اردت الحب . فابغ نعيمه عند الـكتاب وحاذر التأويلا
وتعلم الحرقات من صفحاته والدمع كيف تروضه فيسيلا
واحذق معاتبة النجوم ولومها متوجعـاً وتعمـد التطويلا

(١) بشار بن برد وقد قتلته السياسة باسم الدين

فمن الكياسة في كتابك ان ترى بين النجوم على هواك عذولا

***

حرم الخيال فدى رؤاك حضارةً قد مثلتك لتخطأ التمثيلا
هيهات حسنك من جمال خادع غشّ العيون وأحكم التضليلا

***

إني لألمح في الغيوب رسالةً وأرى وراء الغيب منك رسولا
وكتاب حق لا يبالي في الهدى ان خالف المعقول والمنقولا
انجيل عيسى في الحنان وان يكن في غير ذاك — يخالف الانجيلا
وبيان أحمد قوةً وعذوبةً ونهى ورأياً في الحياة جميلا
عفّى على مدنية صخّابة يذر الخليَّ ضجيجها مشغولا
جبارة لا عطف في أقدارها عجلى وما خلق الزمان عجولا
يمنى تعدُّ لك المتاع واختها تلد الشقاء وتخلق التنكيلا
تبني وتهدم كالحياة وربما غزلت لتنكث خيطها المغزولا
لا عطف يخفق في الصدور ولا هوى كذبتك عينك بل رأيت طلولا
والعلم . ويل العلم يوم حسابه . ان كان عن نزواتها مسؤولا

***

هذا كتاب الغيب فيه رحمةٌ تسع البرية مترفاً ومعيلا
غسل الوجود من الضغائن والهوى لتحل روح الله فيه حلولا
ودعا « الضمير » محاسباً متأنقاً فكأنه من آل اسرائيلا
وتلاقت الانساب . يغمر عطفه منها فروعاً سمحةً وأصولا
ساوت بساطتهُ الشعوب فما ترى فيها هجيناً او تعد أصيلا
وحنت على النفس الاثيم . فأبصرت إثم النفوس على النفوس دخيلا
ولدتهُ أخيلة الشرائع فكرةً فما بأحضان الحضارة غولا
خلقت له الاسماء وهو كنايةٌ وتخيلت ألوانهُ تخييلا
ورمت به الانسان في نعمائهِ فتصيدتهُ مكبلاً مغلولا
لم ترض تعذيب الحياة فسخرت بعد الردى لعقابه « المجهولا »
فكأنما تلك الشرائع تقتضي عند النفوس ضغائناً وذحولا

٢٢ مارس ١٩٣٢

بدوي الجبل

رسالة من رومية الى بغداد

في اوائل العصر العاشر

للاستاذ بارتولد عضو اكاديمية بطرسبرج

ظهرت سنة ١٩١٢ في مجلة المستشرقين الايطالية مقالة صغيرة في اللغة الفرنساوية لاستاذ جامعة بطرسبرج ق. انسترانتسف (C. Inostrancev) تحت عنوان « من علاقات رومية بالخلافة العباسية في اوائل العصر العاشر »[١] اتى فيها صاحبها على ذكر الهدايا التي بعثت بها سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٥ — ٩٠٦م) « ملكة الفرنك » الى الخليفة المكتفي (٩٠٢ — ٩٠٨) واشار الى ما قد يكون لهذا الحادث من الشأن التاريخي

ومما جاء في الرسالة قولها « واني اعلم ما بينك وبين ملك القسطنطينية من المحالفة على اني اقوى منهُ وعندي من معدات الحرب اكثر مما عنده وتحت سلطتي ٢٤ [٢] مملكة لا يشبه لسان احداها لسان الاخرى ورومية الكبرى باجمعها تخضع لي »

يظهر ان ادلّة الاستاذ التي اوردها ليدل بها على ان « ملكة الفرنك » هي تيودورا امرأة تيوفيلكت قنصل وسناطور (عضو في مجلس الشيوخ ب. ج) الرومانيين التي كانت يومئذٍ ترأس حكومة رومية فعلاً متينةً لا غبار عليها اذ من المعلوم ان تيوفيلكت وامرأته كانا حقيقة برأسان رومية في ايام البابا سرجيوس الثالث (٩٠٤ — ٩١١) ولقد اصاب ايضاً الاستاذ حين قال انهم بالغوا كثيراً في المكانة السياسية التي نسبوها الى تيودورا في الرسالة التي بعثوا بها باسمها

اخذ صاحب المقالة خبر الرسالة من مجموعة آداب عربية (مُلح ادبية) لكاتب من اصل بربري كان يقيم في دمشق ويدعى علاء الدين البهائي الغزولي[٣] الدمشقي (توفي سنة ٨١٥هـ)[٤] وهذا — على قدر ما نعلم — المصدر الوحيد الذي كان يومئذٍ معروفاً ولهذا لم يكن لصاحب المقالة الاّ ان يفترض أن الغزولي (وهو من الكتبة المقلّدين) استقى هذا الخبر من مصدر اقدم»

(١) C. Inostrancev, Note sur les rapports de Rome et du Califat Abbasside au commencement du X Siécle, Rivista degli Studi Orientali IV, 1911—1912, 81—86

(٢) راجع كلام ياقوت الحموي ٢ : ٦٨٩ عن ٢٤ كنيسة من اهم كنائس رومية وياقوت اخذ روايته هذه عن ابن الفقيه التي وقع فيها تحريف عند اختصارها (انظر Bibl. Geogr. Arab. V, 150, 10 والتنبيه g) (٣) راجع عنه كتاب Brockelmann « تاريخ الآداب العربية » ٢ : ٥٥ وعن الرواية التي اوردها الاستاذ تاريخ الغزولي المطبوع في القاهرة ج ٢ : ١٣٥

(٤) يظهر ان صاحب المقالة سهى حين قال ان الغزولي « كان من كتبة العصر الثالث والرابع عشر »

واني انا ايضاً كنت ذكرت في مقالتي عن «العلاقات بين الفرنك والمسلمين» التي نشرتها سنة ١٩١٥ في مجلة «الشرق المسيحي» الروسية ان خبر هذه الرسالة لم يرد الاَّ في مجموعة آداب عربية يرجع عهدها الى العصر الرابع عشر او الخامس عشر[١] وما ذلك الاَّ لاننا كلانا لم نتنبه الى ان الرسالة ذكرت لاول مرة في مصدر قديم — من العصر العاشر — يعرفهُ كل من يشتغل بالعلوم العربية وهو كتاب الفهرست لابن النديم (في باب حروف الهجاء)[٢] حيث قيل عن حروف الهجاء عند الفرنك اي عن الحروف اللاتينية ما نصهُ «وحروفهم تشبه حروف اليونان الاَّ انها احسن منها لانها اكثر استواء فقد رأيناها احياناً على سيوف الفرنك وكَتَبَتْ ملكة الفرنك كتاباً الى (الخليفة) المكتفي على حرير ابيض وارسلتهُ مع خادم (اي خصي) قَدِمَ الى املاكها من الغرب (من افريقية الشمالية) تطلب من المكتفي مهراً (صداقاً) وتعرب فيهِ عن رغبتها في زواجه.واسم هذا الخادم ألبا — (?) Alba وهو من خدام ابن الاغلب»[٣]

ظاهر من اول نظرة ان الغزولي لم يأخذ عبارته عن الفهرست بل — وهذا هو الارجح — عن مصدر آخر اقدم وأصح في ما يتعلق على الاقل بهذا الخبر لان تيودورا كانت — على قدر ما نعلم ونستطيع ان نحكم — في هذا الوقت امرأة السناطور تيوفيلكت وعليهِ يصعب ان نفرض انها عرضت نفسها على المكتفي كما يصعب ان يكون بلغها شيء اكيد عن الخليفة وانهُ كان شابًّا وجيل المنظر[٤] (توفي المكتفي سنة ٩٠٨ وله من العمر ٣١ او ٣٢ سنة)

يؤخذ من عبارات الغزولي ان في رسالة «ملكة الفرنك» مضادة بين بزنطية «ورومية الكبرى» القديمة وهذا محتمل لانهُ يتفق مع وجدان رجال ذلك العصر وميولهم السياسية والى ذلك اشار العالم غريغوروڤيوس في كلامه عن النقود التي صكّها البابا سرجيوس الثالث وكتب عليها salus patriae (سلامة الوطن) وانها هاجت ذكرى رومية القديمة[٥] وعزها السالف . اما ما جاء في الرسالة عن المحالفة (او «الصلة» كما في الرسالة) بين بزنطية والخليفة فهو غير صحيح ولا هو يتفق مع التاريخ في شيء . نعم ان المكتفي وملك الروم ليون السادس تراسلا وتهاديا سنة ٩٠٣ (٢٩١ هـ)[٦] الاَّ ان الحرب عادت فشبّت بينهما حتى ان فداء الاسرى الذي كانوا شرعوا فيهِ في ايلول من سنة ٩٠٥ (٢٩٣ هـ) لم يتم لان الروم انصرفوا بغتة بمن كان معهم من اسرى المسلمين فحسب ذلك المسلمون غدراً[٧] منهم ولم تتجدد المكاتبة بين

(١) مجلد ٣ ص ٢٦٤ (٢) كتاب الفهرست ص ٢٠ من طبعة اوربا (٣) المراد هنا زيادة الله الثالث آخر امراء الاغلبيين (٩٠٣—٩٠٩) (٤) الطبري ١١: ٤٠٤ «وكان ربعة جيلا رقيق السكون حسن الشعر وافر الجمة وافر اللحية» و (كتاب الصلة لعريب ص ١٢ ب . ج)

(٥) راجع كتابه Kleine Schriften ١: ١٦٢ (٦) طالع عن ذلك تأليف الاستاذ ا. فاسيليف «بزنطية والعرب» ٢ : ١٣٧ — (في الروسية) وهناك تجد المصادر

(٧) وقد ذكر ذلك الطبري (١١ : ٣٩٣) والمسعودي في مروجه بعبارات واحدة

الطرفين عن الصلح والفداء الاّ في سنة ٩٠٧ اما الفداء فلم يقع فعلاً الاّ في سنة ٩٠٨ وذلك في خلافة المقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢)

يصعب علينا ان نبتّ في هل كان الغرض من رسالة تيودورا الحصول على منافع سياسية معلومة اي انهـا ارادت كما يفترض الاستاذ صـاحب المقالة ان تفوز بمساعدة من الخليفـة ضد عرب افريقا الذين كانوا يسطون وقتئذٍ من مستعمرتهم على شاطىء نهر غاريليانو Gariliano[1] على مقاطعتها الرومانية وينهبون ويقتلون اهاليها وذلك في قبيل مساعدة تقدمها له ضد بزنطية. على انهُ يظهر من رواية الفهرست ان اصحاب رومية لم يكونوا يفكرون في ارسال شخص ذي منصب يتفق مع خطورة مهمته السياسية وانما انتهزت الملكة تيودورا فرصة سفر احد الخدم (الخصيان) الآتين من بلاد الاغلبيين[2] الى الشرق لترسل معهُ رسالة الى خليفة بغداد الاّ اننا لا نعلم هل كان هذا الخادم اسر في احدى المناوشات التي وقعت بين الرومانيين وعرب المستعمرة المذكورة او انهُ هجر اراضي الاغلبيين لما اصابه من ولاة الامر فيها كما اننا لا نعلم هل كان يومئذ في بغداد من كان يحسن قراءة وفهم رسالة كتبت باللاتينية او ان الخادم المذكور تولى هذا الامر بنفسه

يدخل في سنة ٢٩٣ الهجرية جميع الوقت الذي يبتدىء من نوفمبر (تشرين ثانٍ) من سنة ٩٠٥ م وينتهي في اكتوبر (تشرين اول) من سنة ٩٠٦ والذي نعلمهُ عن هذه السنة ان المكتفي قضاها كلها في بغداد ففي ٢١ ايار[3] (مايو) من سنة ٩٠٦ اخرجت مضاربه من بغداد وضربت في باب الشماسية وهو الباب الشمالي الواقع على الجانب الايسر في بغداد الشرقية ومن هذا الباب كانت تبتدىء الطريق الى العراق وسوريا وقد كان الداعي الى اخراج مضارب الخليفة ان المكتفي كان ينوي الخروج الى سوريا ليقمع الثورة التي ظهرت وقتئذ في مصر الاّ انهُ ورد في اليوم الثاني خبر انقماع الثورة وان قائد السلطان واصحابه ظفروا بالخليجي زعيم الخارجين على الدولة نهار الاثنين في ٥ ايار (مايو)[4] فعدل الخليفة عن الزحف وردّت المضارب الى مكانها ثم صدر الامر بارسال

(١) راجع عن بنائها سنة ٨٨٣ تأليف الاستاذ فاسيليف المذكور ٢ : ١٣١ وعن تدميرها من طرف الروم والايطاليين في سنه ٩١٦ الكتاب نفسه ص ٢٠٦

(٢) كان بين هدايا « ملكة الفرنك » التي بعثت بها الى الخليفة عشرون خصياً من اجمل خصيان صقلية (وفي الاصل استعملت كلمة خادم وهي الكلمة التي استعملها ايضاً صاحب الفهرست وقد كانت تستعمل في اغلب الاحيان بمعنى الخصي على انها وردت في العصر العاشر بمعناها الاصلي ايضاً (راجع قاموس بعض المفردات الواردة في تاريخ الطبري ص ٢١٥ اما الاستاذ Inostrancev فقد ترجمها بكلمة esclave) (وقد استعملت كلمة خصي بدلا لخادم كقول صاحب كتاب الفخري ص ٢٣٤ : « كان في داره (دار الخليفة المقتدر بالله) احد عشر الف خادم خصي من الروم والسودان » ب . ج)

(٣) « لسبع بقين من رجب » كما يقول الطبري ٢٩٨:١١ (٤) الكندي (طبع Guest) ص ٢٦٢

الخليجي الى مدينة السلام فأرسل . ولما وصل اليها ادخلوه من باب الشماسية للنصف من شهر رمضان (نهار الخميس في ١٠ تموز (يوليو) أما خروج الاسراء من مصر فقد كان نهار الاثنين في ٢ حزيران (يونيو) ومن هذا الباب دخل ولا شك رسول تيودورا كما كانت تدخل قبله وبعده رسل ملوك الروم

يحتمل ان يكون ورد ذكر رسالة «ملكة الفرنك» في كتاب الوزراء (تأليف ابي عبد الله محمد بن عبدوس — ب. ج.) الجهشياري (توفي في سنة ٣٣١ هـ ٩٤٢ — ٩٤٣ م) الذي وقف فيه — كما يستفاد من كتاب الوزراء لهلال الصابئ — عند سيرة العباس بن الحسن[١] (وزير المكتفي والمقتدر) من سنة ٩٠٤ [٢] الا ان المخطوطة الوحيدة التي وصلت الينا من كتاب الجهشياري والتي نشرت حديثاً[٣] تنتهي بذكر وزراء المأمون (٨١٣—٨٣٣) كما وقد ختمها صاحبها بهذه العبارة : « هذا آخر ما اردناه والله اعلم» مما ينتج عنه ان المخطوطة تحتوي على جميع الكتاب

نرجح ان سيكون لعبارة الفهرست « وقد كتبت الرسالة على حرير ابيض»[٤] اشأن خاص بمعرفة حالة الثقافة المادية في ذلك العصر

لم يذكر ابن النديم بصراحة ان كان رأى الرسالة بعينه ام لا ولكنه على كل حال لم يكن في وسعه ان يقرأها لان معرفة اللغة اللاتينية لم تكن شائعة في العالم الاسلامي ما عدا اسبانيا والقسم الجنوبي من ايطاليا حتى ان العرب كانوا — كما تفيدنا بعض الاخبار — يخلطون بين الحروف اللاتينية والحروف اليونانية [٥] الا في اسبانيا كما قلنا فانهُ كان بين العرب من كان يحسن قراءة الحروف اللاتينية نذكر منهم البكري احد جغرافيي الاندلس في العصر الحادي عشر فانهُ كان يقرأ اسماء « الجزائر السعيدة » (او الخالدة ب . ج .) Fortunatal [٦] — باللاتينية وقد شهد له الغزولي بأن كتابه خير التآليف العربية في الجغرافية [٧]

وليس ايضاً بواضح ان كان « تاريخ الفرنك » الذي قدمه غودمار (Godmar) اسقف مدينة جيرونا (في كاتالونيه هي Gerona في خارطات هذا اليوم و Gerunda القديمة) الى

(١) راجع The Historical Remains of Hilal Sabi, ed. Anedros, Leyden 1904, p 3
(٢) طالع عن وفاة سلفه الكتاب المذكور سابقاً ص ٣٦٠ من المتن . ولد العباس بن الحسن سنة ٢٥٠ هـ (٨٠٤ — ٨٠٥ م) ص ٣١٣ من الاصل
(٣) راجع Bibliothek arabischer Historiker und Geographen, ed von H. Mzik, Bd.I, 1926
(٤) لم اقف على اخبار اخرى عن رسائل كتبت في ذلك الوقت على حرير ابيض
(٥) راجع مجلة Der Islam م ١٦ ص ٨٥
(٦) راجع كتاب Abu-Obeid-el-Becri, Description de l'Afrique Septentrionale texte arabe par le Bon de Glanc, Alger, صفحة ١٠٩ من الاصل و ٢٤٩ من الترجمة
(٧) الغزولي ٢ : ١٧٧ من الطبعة المصرية سنة ١٢٩٩ ١٣٠٠ اما تاليف البكري فلم ينشر حتى اليوم

الحكم (٩٦١—٩٧٦) يوم كان ولي العهد ، مكتوباً بالعربية ام باللاتينية اذ لم يذكر هذا الكتاب الا المسعودي [١] وقد رآه في القاهرة سنة ٣٣٦ (٩٤٧—٩٤٨) في اللغة العربية على ما يظهر ان كان اللهم الاصل وضع في اللاتينية وقد نبّه Reinaud [٢] الى ان كاتالونيه كانت من عهد شارل الكبير داخلة في حكم الفرنك وعليه يكون غودمار الذي ترأس البعثة الى الخليفة المذكور من تبعة الملك لويس (ليودڤيك) الرابع المعروف بلويس « ما وراء البحر » (d,outre - mer — ٩٣٦ — ٩٥٤)

ثم لا شك في ان للرسالة شأناً لمعرفة تاريخ رومية في ذلك الوقت اذ نستطيع ان نستنتج منها ان تيودورا كانت سيدة « المدينة الخالدة » بلا نزاع وصاحبة السلطة فيها ليس فقط في نظر معاصريها بل وفي نظر الجيل التالي . زد الى ذلك ان هذه الرسالة التي بعثتها « ملكة الفرنك » الى بغداد في اوائل العهد المعروف بعهد « حكم العهارة » Pornocratie — (العبارة لبارونيوس من اهل العصر السادس عشر) في رومية تؤكد مرة اخرى رأي بعض المؤرخين في ان النساء اللواتي كنّ يحكمن وقتئذٍ في رومية ويُخاللن بلا احياء ولا خجل مما تقتضيه الآداب المسيحية لم يكنّ من النساء اللاتي لا قيمة ولا شأن لهن كما يصورهن المؤرخون الكنائسيون الذين لم يكونوا يرون فيهن الا بؤرة عُهر ودعارة

***

ولا بأس ان ننبه اخيراً الى ان كتاب تيودورا أُرسل من رومية الى بغداد في زمن لم يكن ظهر فيه بعد نمو مدينة أمالفي [٣] او ان العرب لم ينتبهوا الى ذلك وهذا الزمن يُعَدُّ احدى الصفحات الاولى من تاريخ علاقات اوربا الغربية مع العالم الاسلامي مباشرةً اي بدون وساطة الدولة البزنطية تلك العلاقات التي مهّدت للبلاد الغربية في اوربا اسباب التفوق على غيرها في ميدان الثقافة والاقتصاد

باكو — نقلها عن الروسية بامانة

پ . ج

(١) مروج الذهب ٣ : ٦٩ (من الطبعة الاوروبية)

(٢) راجع كتابه Invasions des Sarrazins en France Paris 1856, XV, 39 p.

(٣) لم يرد ذكر امالفي في كتب العرب قبل النصف الثاني من العصر العاشر (طالع Bibl. Geogr. Arab. II, 135) وراجع عن مستعمرة امالفي التجارية في القاهرة تاليف الاستاذ بارون روزن « فاسيليوس قتال البلغار » (بالروسية) بطرسبرج ١٨٨٣ ص ٢٩٥

القبة والطير

او

مثال من رسوم المُلك وآلاته في دولة المماليك

بمصر كما وردت في صورة فارسية

بقلم مدام ر . ل . ديفونشير : تعريب محمود عكوش

لقد زاد الاهتمام في العهد الاخير زيادة لم تعهد من قبل بالصور التي تتحلى بها المخطوطات الفارسية وظهرت عنها مطبوعات لطيفة كالتي اصدرها السير توماس ارنولد والدكتور مارتن والمستر لورنس بينيون والمسيو بلوشيه والدكتور كويهنل وغيرهم فاصبح السبيل ممهداً امام الجمهور للاستفادة من هذه الطرف المصوَّرة

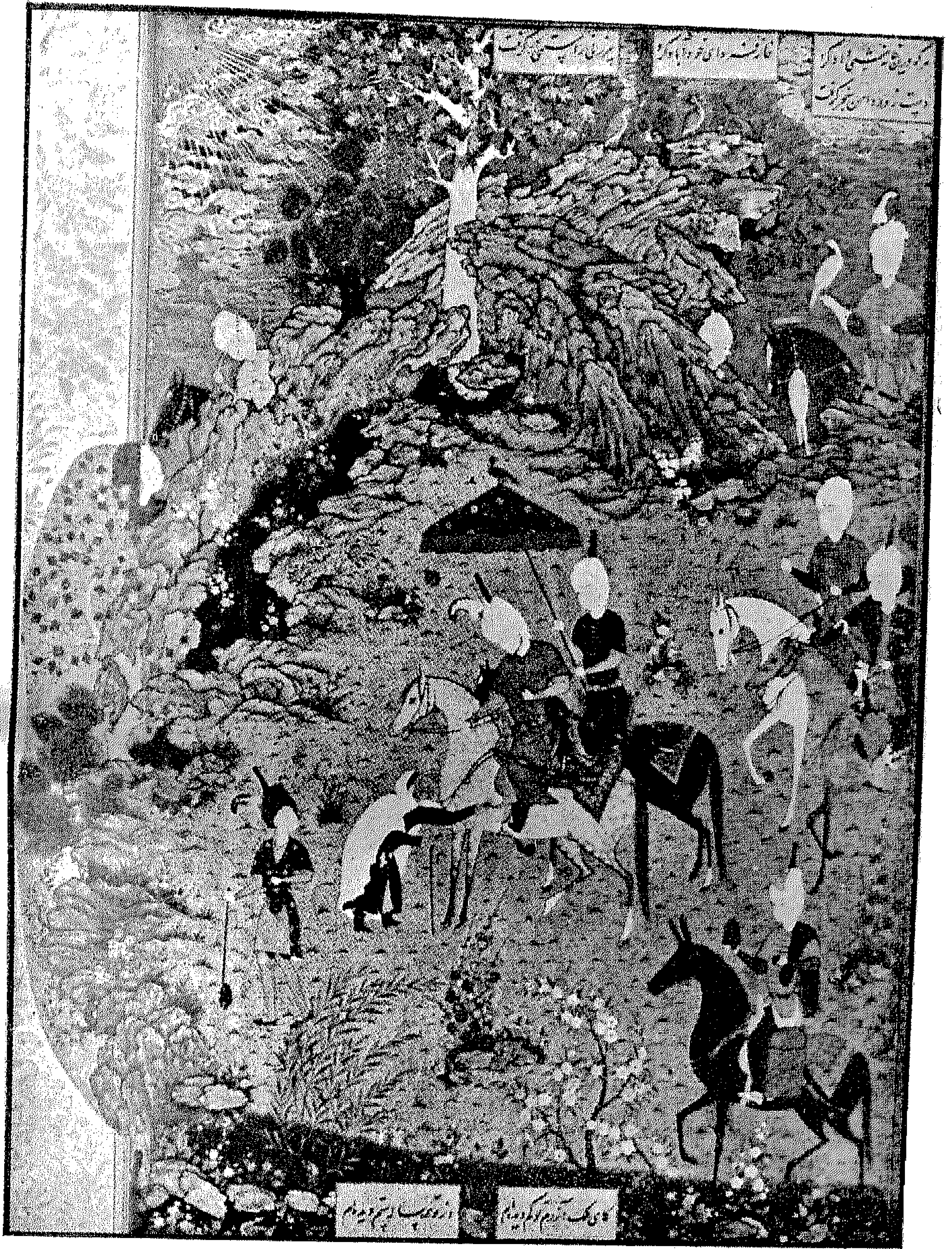
وعادت هذه التسهيلات على المشتغلين بدراسة التاريخ الاسلامي بالنفع الجزيل لكثرة المعلومات التي اصبح من الممكن الحصول عليها بامعان النظر في هذه الطرف . وليس الامر في ذلك قاصراً على الصور النادرة التي تمثل بعض المسلمين بهيئاتهم وملامحهم بل لان هذه الطرف تجمع ايضاً كثيراً من التفاصيل النفيسة من زخرفة البيوت وادواتها وزينتها والازياء وغير ذلك

وقد تملكني الفرح بينما كنت اقلب بعض الصور الجميلة التي طبعت في مجلة «ذي ستوديو» من ديوان النظامي المحفوظة اصولها في المتحف البريطاني وعني المستر لورنس بالكلام عليها اذ عثرت بينها على صورة تمثل احد ملوك فارس من القرن الثاني عشر الميلادي فيها بعض رسوم المُلك التي كان يتخذها بعض سلاطين المماليك وكنت اتلهف للاطلاع عليها من زمن طويل وهي صورة « القبة والطير » المتعدد ذكرها في وصف مواكبهم الملوكية اثناء حكمهم على مصر والشام

وفي الشكل رقم ١ صورة سمح لي بنقلها من الاصل المحفوظ بالمتحف البريطاني يرى فيها السلطان سَنجر وهو على فرسه يستمع لامرأة عجوز وقفت تحتج عليه بسبب اطلاقه عنان الحرية لجنوده وعلى رأس السلطان المظلة الملوكية وفوقها الطير الذهبي يحملها أحد الفرسان وهو في زيه الجميل

---

(١) نشرت هذه المقالة في مجلة « ابولو » الانكليزية في الجزء الرابع عشر في العدد رقم ٨٣ شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ بعنوان An Egyptian Mameluke Feature in a Persian Miniature, by Mrs. R. L. Devonshire.



(ش ١) السلطان سنجر على فرسهِ يستمع لعجوز (المتحف البريطاني)

ونشر مسيو بلوشيه في كتابه « صور المخطوطات الفارسية والتركية بالمكتبة الاهلية » طبع باريس سنة ١٩١١ صورة اخرى تمثل هذه الواقعة نفسها وهي من عمل محمود المزوق المشهور في سنة ٩٥٢ هجرية الا ان المظلة المرفوعة على رأس السلطان كانت تعلوها « كرة » بدلاً من الطير . وهناك صور اخرى فيها مظلات محمولة على رأس السلطان ولكني لم اعثر بينها على مظلة واحدة عليها الطير

ويوجد في المناظر الموضوعة عن بلاد الشرق وافريقية وفي بعض المؤلفات امثلة عديدة من المظلات التي كانت تعد من شعار المُلْك[1]

ومن أقدم هذه الامثلة صورة من النقوش البارزة في مدينة پيرسيپوليس (تشهيل منار) بالقصر الاخيميني تمثل الملك اكزرسيس ماشياً وبعض حجّابه يحمل المظلة على رأسهِ (لوحة ١٥ من كتاب « الفن ببلاد فارس القديمة تأليف سار ») . وقد ارشدني مسيو بلوشيه الذي تلطف وساعدني مساعدة قيمة في هذا البحث الموجز الى ان المظلات الصينية والانامية كانت حمراء اللون ولها حاشية يختلف لونها عن اللونين الاصفر والذهبي المستعملين في مصر

واورد كاترمير عدة نصوص عن المظلات الملوكية في بلاد الاسلام في ترجمة السلوك للمقريزي المسماة « سلاطين المماليك » وفي ترجمة « سلاطين المغل » لرشيد الدين

وذكر ابن بطوطه عن بعض حكام القسطنطينية — ممن لم تعرف شخصيتهم للآن — انه اكرمه برفع « الجتر » على رأسهِ . وقد اطلعت في كتاب مختصر التاريخ للمفضل بن ابي الفضائل (پاترولوجيا اورينتالي) طبع بلوشيه ص ٥٢٦ على قصة لاحد الامراء وكان معجباً بحمل الجتر على رأسهِ . ونقل كاترمير من « كتاب تاريخ دولة آل سلجوق » للفتح بن علي ابن محمد البنداري الاصفهاني ان السلطان سنجر في حربه مع الخطا بقي في عدد قليل فقال له الامير ابو الفضل صاحب سجستان « قد احدقت بنا العساكر ودارت علينا الدوائر فانج بنفسك لاقف مكانك تحت الجتر » . وقال الكولونيل ز . ب . جنتيل في كتابه «مختصر تاريخ ملوك هندستان أو مملكة المغل » على ما رواه عنه بلوشيه انَّ محمد شاه . . . توفي في ٢٢ ربيع الثاني . . . واخفت زوجته المعروفة باسم « ملك زماني » موته خشية من حصول اضطراب وكتبت الى كبير الوزراء تخبره بذلك وتطلب اليه الحضور بابن السلطان وكان صغيراً الى دهلي على جناح السرعة فاعد له الوزير جتراً وفي اليوم التالي حُمِل الجتر على رأس الامير في مقدمة الجيش اعلاناً بارتقائهِ عرش السلطنة

وما ورد في هذه النصوص وسواها لا يعدو الكلام فيه الجتر او المظلة التي على هيئة قبة

---

(١) قال ابن خلكان في كلامه عن فتح الاندلس : وحمل لزريق (رودريك) على سريره وقد رفع على رأسه ... ديباج يظله (ج ٢ ص ١٧٨) المعرب

ولاذكر فيها للطير . وفي سيرة صلاح الدين ومن خلفه من الملوك من بني ايوب في مصر والشام لم يرد ذكر شيء من آلات المُلك . وربما كان السبب في ذلك تنحيهم عن هذه المظاهر لخليفة بغداد . اما الخلفاء الفاطميون في مصر فانهم اتخذوا المظلة في مواكبهم الرسمية وقد ذكرها المؤرخون بلفظها العربي « المظلة » ومعناه الشيء الذي يستظل به . وقد وصف ناصر خسرو موكب الخليفة المستنصر وكان قد شاهده وعلى رأسه المظلة وذكر المقريزي عن المسيحي المظلة المذهبة التي كانت للخليفة العزيز والظاهر انهُ لم يكن عليها طير بدليل ان القلقشندي ايضاً لم يذكره ضمن وصف الآلات الملوكية في « المواكب العظام » على ايام الفاطميين . وكذلك ذكر المقريزي المظلات والقضب من الفضة والذهب في تعداد ما كان في خزائن المستنصر من الذخائر . ولم يذكر طيوراً من الذهب ولو كانت موجودة وقتئذ لما اغفل ذكرها

***

ويظهر ان احد ارباب الوظائف في العهد الفاطمي كان مكلفاً حمل المظلة لان زيدان الذي قُتِل برجوان الوزير على يده بأمر الحاكم في سنة ٩٩٩ ميلادية كان يلقب « بصاحب المظلة » وفي عهد المماليك كان الذي يقوم بهذه الخدمة امير لهُ المقام الاول بين الامراء ويلي السلطان في المرتبة ويكون في اغلب الاحيان « اتابك العسكر » وكثيراً ما كان السلطان يقتل ويخلفه في الحكم من كان يقوم له بهذه الخدمة[1] . وفي عهد المماليك اصبح الطير ملازماً للقبة لان جميع المؤرخين المعاصرين لهم كانوا اذا وصفوا موكباً من المواكب المصرية ذكروا « القبة والطير » (شكل رقم ٢) وقد اتى ابن اياس على ذكر ما لا يقل عن اثنين وعشرين سلطاناً اتخذوا القبة والطير لهم شعاراً واكثر هؤلاء السلاطين من الدولة الثانية للمماليك الجراكسة ويكادون يكونون معاصرين له . ومما يحسن بنا الاشارة اليه ان مَن لم يذكر ابن اياس في كلامه عنهم القبة والطير ذكره غيره من المؤرخين فنراه مثلاً لم يذكرها في كلامه عن لاجين سنة ١٢٩٦م ولكن المقريزي على ما ذكره عنه لين پول في تاريخ مصر ص ٢٩١ يقول ان الامير بيسري حمل له القبة الملوكية فوق رأسه . وقال المفضل (طبع بلوشيه ص ٤٧٧) ان « بيسري » حمل القبة ايضاً على رأس بركة ابن بيبرس الكبير وقد فات ابن اياس ان يذكر ذلك في كلامه عن هذا الاخير ، وفيما بعد نرى ابا المحاسن يستوفي ما اغفله ابن اياس كما فعل في كلامه عن الملك الظاهر ططر سنة ١٤٢١م

ولقد بحث المؤرخون في امر « القبة والطير » فقال لين پول انها مظلة تعمل من حرير

(١) جاء في كلام المقريزي عما كان يعمل بعد صلاة العيدين (ج ٢ ص ٢٢٩) على عهد الملك الناصر محمد بن قلاون قوله : ويخلع على حامل القبه والطير وعلى حامل السلاح والاستادار والجاشنكير وكثير من ارباب الوظائف . ويؤخذ من ذكر صاحب هذه الوظيفة قبل غيره من الامراء انه كان مقدماً عليهم



(شكل ٢) القبة والطير



 (شكل ٤) جنكيز خان

اصفر يطرز بالذهب وتتوج بطير من ذهب جاثم على قبة من ذهب وهو وصف لم اعثر على ما يؤيده وقد يكون مصدره خطأ في ترجمة قول القلقشندي ان المظلة على هيئة قبة . وقد شرح المقريزي وابن خلدون وغيرهما كيف اهملت كلمة مظلة العربية واستعمل بدلاً منها اللفظ الهندي القديم « چتر » الذي له المعنى نفسه[1] . وجاء في رحلة ابن بطوطه وهي رحلة مسلية رغم ما يتخللها من اللغو النص الآتي وهو على جانب من الاهمية : « والسلطان هناك (دهلي سنة ١٣٢٠ م) يعرف بالشطر (چتر) الذي يرفع فوق رأسه وهو الذي يسمى بديار مصر القبة والطير ويرفع بها في الاعياد واما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر »

***

وقد اطلق ابن بطوطه على المظلة اسم القبة والطير وذلك في كلامه عن مصر خاصة ولكنه سماها چتراً في الكلام عن غيرها فقال عن « منسي سليمان » سلطان « مالي » الواقعة على النيجر سنة ١٣٥٣م : و «يرفع له (فوق مجلس السلطان بالمشوَر) الشطر وهو يشبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي». ويؤيد هذا الخبر مؤلف آخر وهو العُمَري الذي ترجم كتابه اخيراً بمعرفة مسيو جود فروا دومومبين احد مشاهير المشتغلين بدراسة ذلك العهد من التاريخ الاسلامي فقال في بعض تعليقاته انه يظن ان هذه العادة نشأت في مصر. وفي الواقع نجد في قول العُمَري وفي كلام المقريزي ان موسى بن ابي بكر الذي كان متولياً الحكم قبل منسي بن سليمان سافر الى مصر والحجاز في سنة ١٣٢٣ م اثناء حكم الملك الناصر محمد بن قلاون. وقد تجددت الآن الفكرة القائلة بان اتخاذ الطير او الباز كشعار يرجع في الاصل الى المغل بدلالة ما يرى في الصور الفارسية. وفي المكتبة الاهلية صورة على جانب عظيم من الاهمية ضمن ما نشره مسيو بلوشيه بعنوان « الصور والكتب الخطية الشرقية الموجودة في المكتبة الاهلية» وقد نشرتها الجمعية الفرنسية لنقل الكتب الخطية والصور (سنة ١٩١٤ — ٢٠، لوحة ١٩) وهي تحتوي على صورة محفة للسلطان محمود غازان ملك المغل بفارس (١٣٠٤ م) . وهي اذا وقع النظر عليها بدت قريبة الشبه بالمظلة وقد علاها طير من الذهب او المعدن المموه بالذهب . ويظهر انهُ باز او صقر وفي الصورة مظلتان لا طير عليهما مطويتان ومربوطتان من اعلاها اشارة الى وقت الصباح وفيها ايضاً ذيل فرس . وكان المغل والترك يتخذانهِ علَماً وفي صورة اخرى (شكل رقم ٣) ذيول من هذا القبيل ولكنها بيضاء لا سوداء . وقد نقلت في كتاب

(١) وقد ذكر المقريزي الجتر مراراً في كلامه عن السلطان محمد بن طغلق شاه (ج ٢ ص ١٧٤) وقال في كلامه عنه ايضاً : واذا خرج في قصره من موضع الى آخر يمر راكباً وعلى رأسه الجتر والسلاح دارية وراءه بايديهم السلاح وحوله نحو اثني عشر الف مملوك مشاة لا يركب منهم الا حامل الجتر (ج٢ ص١٧٥)

« الصور » لمسيو بلوشيه المتقدم ذكره . ويشاهد في هذه الصورة تيمورتكين (الذي صار فيما بعد جنكيز خان) جالساً على عرش صيني وفوقه الطير الذهبي جاثماً على ظهر العرش لا على مظلة كشعار الملك . وهذه الصورة والتي قبلها منقولتان من المكتبة الاهلية عن نسخة من تاريخ المغل لرشيد الدين كتبت في تبريز في اوائل القرن الرابع عشر . ولم تنفرد هذه الصورة بوجود طير من ذهب جاثم فيها على ظهر عرش الملك بل هناك صورة ثانية في الصفحة ٩١ من النسخة الخطية تمثل ايضاً جنكيزخان (شكل رقم ٤) وصورة ثالثة تمثل ارغون خان (سنة ١٢٨٤ — ٩١) — وكل من هؤلاء جالس على العرش بتلك الهيئة . والصورة الاخيرة (شكل رقم ٥) على غاية من الحسن وهي من المستندات القيمة التي تمثل الملابس وغيرها وقد ظهر الطير فيها بشكل واضح . واذا اعتبرنا الباز من شعار الملك عند المغل فيكون وضعه على المظلة من عمل المماليك التركمان الذين يرجع الى عهدهم دخول كثير من التقاليد المغلية في مصر وذلك بالمصاهرة بين ملوك البلدين والتجاء كثير من المهاجرين الى مصر قبل الاغارة على بلادهم . وقد عرفني مسيو جان دِني من كبار العلماء المشتغلين بتاريخ قدماء الترك ان طائفة كبيرة من مؤرخي الترك في العهد الحاضر ممن وقفوا على مصادر كثيرة مجهولة يذهبون الى ان الباز كان من شعار خاقان قبائل أويغور الكبرى المتحالفة وهم اجداد السلجوقيين والعثمانيين . وقد كان هذا التحالف يجمع اربع طوائف من ست قبائل على رأس كل طائفة منهم خان شعاره طائر اي باز (طغرل طغان طغرى وغير ذلك) . ولهذا الطائر على ما يظهر اساطير عديدة ومع ان مسيو جود فروا دوموميين لم يسلم بتلك الاقوال فقد نقل عن مسيو مينورسكي انهُ يجد في هذا الطائر « توتم » قدماء السلجوقيين فهل يكون هذا الطائر من تقاليد عصر الحيثيين القديم ؟

* * *

وكانت القبة والطير في مصر تحفظان في الزردخانة الملوكية ويستحضران منها كلما قضت بذلك شؤون المملكة فلما حاول المستعين بالله الخليفة العباسي ان ينادى به كسلطان على دمشق في سنة ١٤١٢ م لم يذكر ابن اياس القبة والطير في وصف الموكب الذي عمل له ولكن لما وصل الى مقر الحكم بالقاهرة الاتابك شيخو الذي تولى السلطنة بعد بضعة شهور عوضاً عنه باسم الملك المؤيد حملت المظلة الملوكية فوق رأسه وربما كانت قد استحضرت خصيصاً لهذه الغاية

واذا انتهينا الى آخر سلطان من المماليك بمصر وهو السيء الحظ طومان باي سنة ١٥١٦ م نجد ابن اياس يقول انهم لم يجدوا له في الزردخانات قبة ولا طيراً بل ولا سرجاً من ذهب لفرسه

والظاهر ان القبة والطير لم يكونا موجودين عند مبايعة قايتباي بالسلطنة لان ابن اياس لما روى خبر الباسه شعار الملك غصباً وهو يتمنع قال ان هذا السلطان الذي كان ممتنعاً اذن



(ش ٣) تيمورتكين (الذي دعي فيما بعد جنكيز خان) على عرش صيني

مقتطف يونيو ١٩٣٢

امام صفحة ٥٠



(ش ٥) ارغون خان على عرشهِ

للامير جاني بك قلقسير امير سلاح بأن يفرد السنجق السلطاني على رأسه لعدم حضور القبة والطير من الزردخانة

***

وفي اثناء تعريب هذه النبذة طلبت مني حضرة السيدة ديفونشير ان الحقها بالكلمة الآتية:

قالت : بعد مضي عدة شهور من كتابة هذا البحث اتفق لي كما يقع كثيراً أن عثرت على مثال آخر ذي شأن في فقرة اوردها ابن اياس الذي تصفحت كتابه مراراً جاء فيها : ان القبة والطير حملا على رأس امرأة وهي خوند زينب زوجة السلطان اينال في طلوعها الى قلعة القاهرة بعد عودتها من الحج في سنة ٨٦١

وفي الوقت الذي عثرت فيه على هذا الخبر وجدت صورة اخرى للقبة السلطانية وفوقها الطير في كتاب تاريخ المغل لرشيد الدين الذي نشره جناب مسيو بلوشيه

وقد ظهر الآن الجزء الرابع من تاريخ ابن اياس الذي عني بطبعهِ مسيو پول كاهل ومحمد مصطفى بالاستانة ، مشتملاً على حوادث المدة من سنة ٩٠٦ الى سنة ٩٢١ اي خلال حكم الغوري والفتح العثماني بقلم هذا المؤرخ الذي كان معاصراً لهذه الحوادث وشاهد اكثرها ودوّن عنها معلوماته

وقد تفضل جناب الدكتور مكس ميرهوف وكلٌّ يعرف ميله لمساعدة المشتغلين بمثل هذه المباحث فاستخرج من هذا الجزء تكملة لهذا البحث ويسرني جدًّا ان اقدمها للقراء وهي :

« جمادي الاولى سنة ٩١٧ »

« وفي يوم السبت نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قبة الامير يشبك التي « بالمطرية . . . . . وكان السلطان قصد ان تحمل على رأسهِ القبة والطير فنهوهُ الامراء عن « ذلك وقالوا لهُ ما هي عادة ان السلطان اذا خرج الى المطرية تحمل على رأسهِ القبة والطير « فرجع عن ذلك »

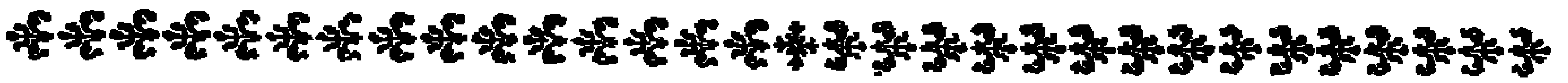
شوال سنة ٩٢٠

« ثم طلع الى الدهيشة[1] وعرض الصناجق السلطانية والقبة والطير وقد غير الطير الذهب « الذي كان فوق القبة وجعل مكانه هلال ذهب »

وفي ذي الحجة سنة ٩٢٠ وقع الهلال وانكسر : وقد ذكر المؤلف بعد ذلك ان الطير كان قد حصل لهُ مثل ذلك في عهد السلطان قايتباي

ر . ل . ديفونشير

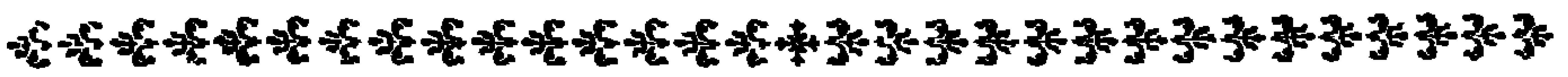
(١) من القاعات السلطانية التي كانت بالقلعة عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل في سنة ٧٤٥ هجرية



الميكروكسمس

اي العالم الصغير

العناصر والمواد التي يتركب منها جسد الانسان



قسم العلماء منذ قديم الايام كل الاشياء الموجودة فينا والخارجة عنا قسمين : دعوا القسم الاول « العالم الكبير » وهو يشمل كل الاجرام الفلكية السائرة في القبة الزرقاء وكرتنا هذه الارضية بما عليها من جماد ونبات وحيوان ناطق وغير ناطق. ودعوا القسم الثاني «العالم الصغير» Microcosmos وهو كل فرد منا نحن بني البشر ، بما فينا من القوى الميكانيكية والكيماوية والحاسة والمدركة والمريدة . وجعلوا مدار بحثهم معرفة كنه هذا العالم الصغير واستقصاء العلل المسببة لما نشاهده فيهِ من الظواهر الطبيعية والافعال والانفعالات الحسية والعقلية والادبية ، وتتبع النواميس الضابطة لهذه الظواهر والافعال والانفعالات ، وتقدير الحقائق التي يمكننا الوصول اليها ، بالاستدلال على ما لا يقع تحت الحواس بما يقع تحتها

وقد ذهب العلماء في تعريف الانسان الى مذهبين . فقال الماديون ان كل ما نراه في هذا الكون من الاجسام الجامدة والنامية والحساسة متكوّن من المادة ومتحوّل عنها . وأنهُ لا يوجد فينا ، نحن البشر غير المادة التي نلمسها بايدينا وننظرها باعيننا . وقال الروحيون : ان في الانسان روحاً او نفساً ممتازةً عن الجسد. وان مبدأ الحياة في العناصر الهيولية التي تكوّن جسد الانسان هي النفس صاحبة الادراك والارادة . فالجسد يتحول تحولاً مستمرًّا بعوامل التحليل والتركيب فيتجدد بين حين وآخر . اما النفس فهي الثابتة في الجسد ، تأبى التحليل والتركيب . وكلمة « انا » التي يطلقها الانسان على شخصه انما تعني النفس التي تحيي الجسد . وهي هي ، من حيث الجوهر ، في كل ادوار الحياة ، لا الجسد الذي يتجدد في كل دور من من ادوار الحياة . وقد قال الشاعر :

اقبل على النفس فاستكمل فضائلها   فانت بالنفس لا بالجسم انسان (١)

ولما كان البحث عن النفس بحثاً نظريًّا مداره الاستدلال بقوة الحواس على ما لا يقع تحت الحواس ، كما سبق القول ، وكان البحث عن الجسد بحثاً عمليًّا ، يقوم بتحليل العناصر الهيولية التي يتكوّن هو منها تحليلاً كيماويًّا لا يقبل المماحكة والمغالطة . رأى عالم انكليزي

(١) من النوادر التي ينقلها التاريخ عن افلاطون الفيلسوف انه سئل يوماً عن تعريف الانسان فقال انه «حيوان ذو رجلين» (Animal Bipses) ولما لم يرق هذا التعريف واحداً من اتباعه جاءه يوماً في المدرسة بديك فالقى به الى الارض في حلبة الطلبة وقال «هوذا انسان افلاطون» (Ecce Homo Platonis)

ان يحلل جسد الانسان تحليلاً كيماويًّا دقيقاً ، ويصف هذا التحليل في مقالة ممتعة . ذكر في خاتمتها النتيجة التي توصل اليها فيما يختص بوجود النفس في الجسد فعجبت كيف اني درست العلوم الفلسفية في اعظم جامعة من الجامعات الدينية الاوربية ، ووضعت مقالات عديدة في البحث عن المادة والروح . نقلتها عني مجلة « الاجيال » المصورة المصرية سنة ١٨٩٧ وجريدة « الاحوال » المصرية سنة ١٩٢٠ . فلم انظر الى هذا البحث من الوجهة التي نظر اليها العالم الانكليزي

ولا يخفى ما لهذا البحث من الشأن العظيم . فكل منا يميل بدافع الفطرة الى معرفة ما يحيط به من الاشياء . حتى الطفل الصغير يحاول كسر اللعب المتحركة التي بين يديه ، ليكشف ما في باطنها ، ويطلع على سر حركتها . وقد جاء في المثل ان من جهل شيئاً عاداه . فماذا ياترى تفيدنا معرفة الاشياء المحيطة بنا . ونحن نجهل احوال الجسد الذي نعيش فيه . ولا نعلم هل هو كل شيء فينا . أو هل فينا شيء يمتاز عنه ولا يفنى بفنائهِ . كانت هذه الخواطر تشغل بالي . وانا الخص مقالة العالم الانكليزي رغبةً في افادة الذين تهمهم معرفة ما هو اقرب اليهم والصق بهم . وهو الجسد الذي نحيا فيه ولا نموت بموته وهذا ملخص ما جاء في مقالة العالم الانكليزي :

لم يخطىء العالم الفسيولوجي الذي قال ان الانسان بيضة كبيرة دبت فيها نسمة الحياة . ذلك لان ١٢٠٠ بيضة تكفي بما فيها من العناصر المتنوعة . لتكوين رجل يزن ١٥٠ رطلاً

يتركب جسد الانسان من اربعة عشر عنصراً بسيطاً . خمسة منها غازات وهي : الاوكسجين والايدروجين والازوت والكلور (١) والفلور (٢) . والمقدار الموجود منها في انسان يزن ١٥٠ رطلاً تكفي لملء حوض يسع ١٦٠ متراً مكعباً من الغاز . وتسعة منها من الجوامد وهي : الكربون والكلسيوم والجير والفصفور والحديد والكبريت والصوديوم والبوتاسيوم والسيليسيوم والمغنيزيوم . وهذه الجوامد موجودة في كل حفنة من تراب الارض التي نطأها . ويوجد ايضاً في جسد اكثر الناس عناصر اخرى تدخل الجسم لعارض من العوارض الطارئة عليه مثل النحاس والرصاص والالومينيوم والمغنيزيا والزيبق والزرنيخ

واهم العناصر المكوّنة لجسد رجل يزن ١٥٠ رطلاً الاوكسجين المضغوط . ويبلغ ثقله نحو ١٠٦ ارطال . وهذه الكمية من الاوكسجين اذا زال ضغطها واخذت حجمها الطبيعي ساوت قدماً مربعاً من الواح الخشب طوله ٣٩٧ متراً . اي ما يزيد مرات كثيرة على حجم الانسان

اما مقدار الايدروجين وهو اخف الغازات فيبلغ حجمه في رجل يزن ١٥٠ رطلاً ١١٠ امتار مكعبة (اي ما يساوي منزلاً ارتفاعه ٣½ متر ومسطحه ٣٠ متراً) وثقله لا يقل عن ١٣½ رطل . وهذا المقدار من الايدروجين كافٍ لنفخ منطاد تفريغه ١١٠ امتار مكعبة فيطير في الجو بالحبال المربوطة به . ويدخل الازوت في جسد هذا الانسان بنسبة ١٥ جراماً للرطل

(١) الكلور (Chlorine) عنصر غازي ذو لون اصفر ضارب الى الخضرة ورائحة شديدة خانقة

(٢) الفلور (Fluorine) عنصر غازي لا لون له وهو من عوامل رد الفعل الكيماوي

الواحد . اي نحو ٤$\frac{1}{2}$ رطل . وحجم هذا المقدار يساوي عشرين مرة حجم الجسد . والحيز الذي يشغله الازوت في الجسم لا يزيد على بضعة سنتمترات . وبه يقوم عمل الدماغ وقوة العضلات

في جسد الانسان مقدار من الكربون يقدر بواحد وعشرين رطلاً ونصف رطل وهو كاف لصنع ٧٨٠ قلماً من اقلام الرصاص . وهذا العنصر يقوم مقام الوقود للجسم يولد فيه الحرارة وقوة الحركة

والعناصر التي ذكرناها هي مصدر النشاط الحيواني وقوام الحرارة والحركة اللتين تتحولان في الانسان الى قوة النظر في العينين . والهضم في المعدة . والتنفس في الرئتين . واللمس في الفم والاصابع . ومع ان هذه العناصر يبلغ مجموعها ١٤٥—١٤٦ رطلاً من ثقل الانسان الذي يزن ١٥٠ رطلاً . فالعناصر الاخرى السابق ذكرها مما لا غنى عنهُ لقوام الحياة . فلو لم يكن في الجسد رطلان من الكلسيوم ورطل ونصف من الفصفور لفقد الانسان ذراعيه وساقيه وجمجمته واسنانه . وعجز عن صنع الآلات وبناء المنازل . واضطر الى الزحف على الارض وأكل التراب . والامر الغريب هو وجود هذا المقدار القليل من الفصفور في الجسم وهو سم قتال يكفي لهلاك قرية بسكانها ولصنع ٨٠٦٤ علبة من الكبريت تحوي كل علبة ٦٠ عوداً

اما المقادير الموجودة في جسد الانسان من العناصر الاخرى فهي : ١٢٠ جراماً من الكلور و٩٠ جراماً من الصوديوم و٧٥ جراماً من الكبريت و ٦٠ جراماً من الفلور و٣٠ جراماً من البوتاسيوم ونحو جرام من المغنيزيوم ونحو عشر الجرام من السيليسيوم . على ان هذه المقادير تختلف باختلاف الاشخاص وتختلف في الشخص الواحد باختلاف الزمان ثم انهُ يدخل في الجسد مقدار من الحديد يبلغ ثلاثة جرامات. وهذا المقدار يكفي لصنع اربعة او خمسة مسامير ضرورية لجعل الجسم كالبناء المرصوص ولو أزيلت هذه المسامير لسقط البناء وهلك الانسان

وجميع هذه العناصر ما عدا بعض آثار عرضية من الاوكسجين وبعض دقائق من الكربون تصل الى الرئتين بالتنفس . لا تستقر منفردة ، بل يمتزج بعضها ببعض امتزاج السوائل لتكوّن مركبات متنوعة . ولكل مركب منها عمل معين يقوم بهِ ثم يتحول الى آخر ابسط منه ، ليقوم هو ايضاً بعمل مخصوص لحفظ هذا المجموع الغريب الذي نسميه جسماً او جسداً . وهكذا تتحول هذه العناصر دواليك حتى يدركها التلاشي والفناء عند الموت

***

واهم هذه المركبات واغزرها في الجسد هو الماء المركب من جزئين من الايدروجين وجزء من الاوكسيجين . والمقدار الموجود منهُ في رجل يزن ١٥٠ رطلاً تبلغ ٩٠ — ٩٦ رطلاً ويملأ برميلاً يسع ٤٥ لتراً . ولولا الماء الموجود في الجسم لوقفت حركته . وعجزت اعضاؤه عن القيام بوظائفها . وهو الذي يحلل الطعام . ويرطب اغشية الفم والانف وباطن الجسم ويبردهُ بتبخر العرق المندفع من مسام الجسد ويحيط بالقلب والرئتين واعضاء البطن . فيقوم

مقام وسائد نتوسدها ونسكن اليها . ثم ان البروتوبلزما وهي مادة الحياة . موجودة بشكل ملايين من كريات موزعة تقريباً في كل الجسم ومتصل بعضها ببعض. فهذه الكريات لا تستطيع العيش خارج الماء وتقضي حياتها في الماء الجاري

ومن هذه المركبات الملح . وله شأن يذكر في تكوين الجسم . ومع ان المقدار الموجود منه في الجسم لا يزيد على ١٨٠ — ٢٠٠ جرام فهو ضروري لحياة جميع الاعضاء . فنراه في الدم والعضلات والعناصر الاخرى السائلة والجامدة. يساعد السائلة منها على نفوذ الاغشية الدقيقة وامتصاص الطعام الذي يتحول من الامعاء والمعدة الى دوران الدم. وعلى اختراق الدم الشرياني للانسجة

ثم ان للصودا وهو مزيج من الصوديوم والكربون والاوكسجين — شأناً مهمًّا في الجسم وهو تناول كل ذرة من ذرات الحامض الكربوني اينما وجدت . وتوصيلها الى الشعب وطردها الى الخارج. ولا يخفى ان كل عمل يقدم عليهِ الانسان يولّد قدراً من الحامض الكربوني. فكلما خفق القلب او اغمضت العين او تحركت الاصابع تولّد هذا الحامض الذي هو سم قتال فلولا طرد هذا الحامض من الجسم طرداً مستمرًّا بفعل الصودا لوقفت هذه الآلة البشرية وقوفاً هو الموت

ويوجد في الانسان ، ما عدا هذه المركبات غير العضوية ، مركبات عضوية منها الحوامض العضوية وهي قليلة . ولولا قلتها لذاب الجسم ذوبان السكر في الماء. ويتولد من مزيج الاملاح والحوامض والعناصر الاخرى مادة زلالية اشبه شيء ببياض البيض . تتكوّن منها الاجزاء الجامدة من العضلات والقلب والرئتين والدماغ والاعصاب والدم . وهي موجودة ايضاً في جميع اجزاء الجسم السائلة والجامدة . والذي يميزها عن المواد الاخرى وجود الازوت فيها

ويكوّن النشاء والشحم وقوداً يبقي الجسم منهُ جانباً لوقت الحاجة. ويستعمل الجانب الآخر استعمالاً مستمرًّا . ويتولد هذا الوقود من الاوكسيجين والايدروجين والكربون بنسب لا تختلف كثيراً عن نسب السكر. ثم ان مقداراً كبيراً من الشحم الذي نزدرده يتحول الى صابون بفعل شيء من القلي ويوجد في الامعاء خصوصاً لتأدية هذا العمل الذي يولّد في الوقت نفسه مقداراً من الجلسرين ويجعل المعدة كأنها معمل لصنع الصابون . اما النشاء فيتحول في الامعاء الى سكر ، متى امتزج بالماء . لان السكر انما هو مزيج من الماء والنشاء. وهو في الجسد بمقام النقود في جيب الانسان. لا يستقر فيه مدة طويلة وقلما يجتمع منه ما يملأ قدحاً. واذا احتاج الجسم الى ادخار شيء منهُ حوّله الى مادة لا تذوب في الماء اسمها « اينوزيت »[1] تستطيع البقاء مدة طويلة في الكبد والطحال والرئتين والعضلات وهي غزيرة في عضلات الكثيرين . ثم اننا نكتشف في الجسد بواسطة التحليل ، مركبات اخرى غير التي ذكرناها وهي: الكؤول أو الكحول Alcool في الدم والصفراء والعضلات والدماغ. والسمغ في الغدد اللعابية . والبيبسين (الهضمين)

(١) الاينوزيت (Inosite) سكر الاعصاب

الذي يسهل الهضم في المعدة . ونوع أو نوعان من الخميرة تشبه رغوة الجعة . ومادة تلون الشعر والعينين تسمى «بيجمنت Pigment » من اللفظة اللاتينية Pigmentum اي ملون

ان الطعام الذي يقتات به الانسان لا يتراكم في المعدة بعضه فوق بعض بل يتناوله عامل التحليل فيحوّل عناصره الى عناصر أبسط منها ليكوّن من هذه العناصر بعامل التركيب ، مادة الجسد . فأنواع المأكولات مثلاً التي يعدها الطاهي من اللحوم والطحال والكبد والقلب واللسان والمخ ومن اعضاء اخرى من الحيوان — يسهل على كل منا تمييزها لاختلاف مركباتها الظاهرة — يصنعها الجسم من تلقاء نفسه . فيختار المواد الاولى منها ومن الدم بالنسب الضرورية لكل نسيج من الانسجة ويحولها الى اعضاء الجسم . فيأخذ شيئاً من المركبات التي تحوي الكلسيوم والفصفور والاوكسجين والايدروجين والكربون ليكوّن هيكله الذي هو دعامة كل اعضائه . ويبلغ ثقل هيكل الرجل الذي يزن ١٥٠ رطلاً ٢١ رطلاً في حالته الاعتيادية . ويأخذ ايضاً من الدم مقادير محدودة من العناصر ليكون المجموع العضلي الذي يبلغ ثقله ٦٣ —٦٤ رطلاً في رجل يزن ١٥٠ رطلاً . ويأخذ من الدم الشحم جاهزاً فيبقيهِ منفرداً كمؤونة احتياطية للتغذية . وليس في الجسم من نسيج يماثل الشحم في اختلاف مقدارهِ . فهو يختلف باختلاف احوال الصحة ونوع المعيشة والهواء وجهد العمل وكل ما يطرأ على الانسان من التغيرات الكبيرة . ويبلغ متوسط الثقل الموجود منهُ في رجل يزن ١٥٠ رطلاً ٣ ٣/٤ — ٧ ١/٢ رطل . وهذا المقدار يكفي لصنع دستات عديدة من الشمع . والدم نفسه يتكوّن في جسد الانسان نصفه من بعض الاعضاء ونصفهُ من البعض الآخر . ولم يدرك العلماء لهذا اليوم كيفية تركيبه ادراكاً وافياً . على ان كلاً منا يعرف هل الدم فيهِ كثير او قليل . واذا فقد الجسد لتراً من الدم اسرعت الاوعية الى تعويضهِ بلتر من الماء تأخذه من الانسجة وتمزجهُ بالعناصر الضرورية لحفظ نشاط الانسان وحياته . ومقدار الدم يختلف قليلاً في الشخص الواحد مع اختلافهِ بين الاشخاص . وهو بنسبة ١/١٢ ١ — ١/١٤ ١ من ثقل الانسان اي ١٠ ٣/٤ — ١٢ ١/٢ رطل . ويتكون ثقل بقية جسد الانسان من الكبد والرئتين والقلب والطحال والكرش والكلوتين والدماغ والاعصاب والجلد والشعر والاظفار ويوزن مجموعها ٤٥ — ٥٠ رطلاً

هذا هو ملخص ما جاء في مقالة العالم الانكليزي من ذكر العناصر التي تكوّن جسد الانسان ووصف عوامل التحليل والتركيب التي تفعل دواليك في هذه العناصر لتحويلها الى مركبات او مجموعات لكل منها وظيفة معينة يقوم بها لحفظ حياة هذا الكائن الغريب او العالم الصغير الذي نسميه « انساناً » . والنتيجة التي استخلصها من هذا الوصف هي ان الكيماوي لم يرَ ولن يرى القوة الكامنة في الجسد والممتازة عنه في عمق الانبوب الذي يحلل فيه عناصر المادة ليطلع على سر تكوينها . ذلك لان تلك القوة لا تلمسها يد ولا تنظرها عين . وهي النفس التي خلقها الله سبحانه لتستقر في الجسد وتحيي موات المادة التي تكوّنه يوسف شلحت

نيقولاي لنين

وضع غمالائيل برادفورد — تلخيص اسماعيل مظهر

— ١ —

اسمهُ الحقيقي ڤلاديمير الياڤتش اوليانوف. ولد في سمبرسك بجنوبي روسيا سنة ١٨٧٠ من اسرة معتدلة الثروة، بل تعد في الوف من الاسر ذوات اليسار. شقت طريقها الى طبقة الاشراف الوسطى من فئة الزراع. ولقد حامت احلامه خلال شبابه ثم تكوّنت مطامعه في فتوتهِ، من حادث مؤلم هزّ اعماق نفسه، هو قتل اخيه الاكبر سنة ١٨٨٧ لانه حاول اغتيال القيصر. ويقال أن هذا الحادث كان سبباً فيما رؤي بعد ذلك من حدة مزاجه وصلابته وسعيهِ الدائم المستمر في سبيل ان يقتلع من الارض اصول الاستبداد والمستبدين، وان يقضي على الطغاة ويدك عروشهم الى الحضيض، وان يولي المستضعفين والمنبوذين ملكوت الارض



نيقولاي لنين

كان هذا بالضرورة سبباً في ان يصبح من الدّ اعداء القيصر وحكومته، كما كانت دعوته الى التحطيم والهدم في اصول الملكية الفردية والطغيان، عاملاً على اضطهاده اينما حل وحيثما كان وفي أية بقعة من بقاع القيصرية فروقب واسر وحبس ونفي الى سبيريا ثلاث سنوات ثم ظل يتسكع في نواحي اوربا كلها. على انهُ كان خلال كل هذه الاطوار دئباً على القول والعمل، يجمع من حوله الرجال ويهيء الافكار لدعوتهِ القوية الجريئة. ولقد اخذ بضلع وافر من ثورة روسيا سنة ١٩٠٥. ولا نبالغ اذا قلنا ان لنين كان لهُ في تلك الثورة الأثر الاوفى والشأن الاول. وفي النهاية هيأت لهُ الحرب العظمى

الفرصة الذهبية . فلما قام في روسيا نظام كرنسكي سنة ١٩١٧ عاد اليها ، وبقليل من المهارة مع كثير من حسن الحظ وسعد الطالع وجد نفسه يوماً على رأس الحكومة الروسية ، يسود سطانهُ من ملايين البشر ما لم يسد نابوليون ولا القيصر ولا موسوليني . اما انتقاله بين يوم وليلة من حاله الاولى الى الثانية ، والفارق العظيم بينهما ، فلا يعبر عن مثل كلماته التي قالها لتروتسكي « ان الانتقال من حالة التشرد ومطاردة القوانين الى السلطة المطلقة ، امر فيهِ من الخشونة ما يجعلني اشعر بالاضطراب والدوار » . ثم رسم علامة الصليب امام وجهه !

ما هي العوامل التي دفعت لنين الى ان يسلك في الحياة هذه الطريق ؟ سؤال اختلف الناس في الاجابة عنهُ . فالمعجبون به يقولون انه لم تحركه شهوة نفسية ولا مطامع شخصية وانه نسي نفسه وانكرها في سبيل تحقيق غرض اسمى ومثل اعلى ، وانهُ لم يطلب المجد الدنيوي ولم ينشد القوة والسلطان كأن التاريخ لم يثبت مرة بعد اخرى ان الامعان في حب القوة والتهالك عليها ، قد يظهر ملابساً صورة الاستنكار لكل مظاهرها الخارجية . وليس في العالم من مطمع اوسع من ان تهدم الدنيا ثم تبنيها

***

قضى لنين اربعين عاماً من عمره يعد نفسه لسنوات ست ، من سنة ١٩١٨ الى يوم مصرعه . تلك التي كان فيها سيد روسيا . قضى الاربعين سنة الاولى في احلام وآمال — « ولا بد للانسان من اشياء يحلم بها » كما قال . قضاها يقرأ على الدوام ، وقد ينفق خمسة عشرة ساعة وعينه لا تفارق الكتاب ، وعقله لا يفتأ في تفكير ليقيم الفروض ويرسم الخطط لكل ما يحتمل ان يصادف طريقه من صعاب او عقبات او طوارىء . كانت حياة مليئة بالجهد المستمر . حياة تركزت بكل قواها حول غرض واحد وامل بعينه

واتصل بكتابات مركس . اما ماذا كان يحتمل ان يكون لنين بغير مركس ، فذلك ما لا يمكن التكهن بهِ . ولكن المحقق ان مركس هو الذي كوّن لنين من الناحية العقلية . لقد قضى ساعات طويلة مكبًّا بامعانٍ على مؤلفات مركس ، يدرسها ويستوعبها ليهضمها ، ثم يكتبها مرة اخرى بقلمه ، ولكن ليعدّل فيها بعض الشيء . ولا شك في ان المبدأ الذي تدور من حوله نظريات مركس ينحصر في الجلاد الدائم المستمر العنيف المجرد من كل معنى من معاني الشفقة والرحمة او محاسبة الضمير ، بين العامة واصحاب رؤوس الاموال . جلاد يجب ان يشهر وان تكون وسائله كل الوسائل الممكنة مشروعة وغير مشروعة ، حتى يتم النصر الاخير للايدي العاملة فيصبحوا السادة بعد ان كانوا العبيد . على ان في نظريات مركس الاجتماعية من ريح الغيبيات الالمانية قدراً يجعل من الممكن تفسيرها على وجوه عديدة ، حتى ان كثيراً من اتباعه يرون في نظرياته وجوهاً لا يراها لنين . ولكن الداعية الروسي كان يحب البساطة ، ونظريات

مركس مجردة عن الغيبيات وافقت مزاجه وتمشت مع مراميه في تكوين فلسفة جديدة للحياة وقواعد مثمرة في نظام الحكومة والادارة . فعلّم مركس وبشر بمركس وعاش في مركس ، وبأسرع مما يتصور الخيال وُهبَ الفرصة ، فمثّل دور مركس على مسرح الحياة الصحيحة ، لابساً من صوره صورة مسمومة ، كانت ولا شبهة تدهش استاذه اذا هو رآها رأي العين ، ان لم تربكه ، بل وترعبه

مما لا يمكن انكاره ان الهدم والتحطيم والتمزيق واقتلاع اصول ما ثبتت اصوله من الصفات الاصيلة في طبيعة لنين . ولما امتلك السلطة واصبح صاحب الامر ، انفرد بكل شيء واحتكم وطغى وتجبر ، بلا اي احساس بشفقة او رحمة . ولكنه لم يكن في هذا بعيداً عن اشباهه من الناس فانه كان كأمثاله يكره ان يقهر ، فأمّر نفسه بنفسه ، ولسان حاله يقول نفس عصام سوّدت عصاماً

لقد آمن كأستاذه بالثورة ، فاتخذها مبدأه وغرضه . ومن قبل لنين بمائة عام تخيل « توماس پين » Th. Paine شيئاً من تلك الثورة الخيالية المثالية ، ولكن لنين حاول ان يجعل من ذلك الخيال حقيقة واقعة . فبعد ان قلب روسيا رأساً على عقب ، حاول ان يقلب نظام اوربا واميركا وآسيا . وليس من المستحيل حتى الآن ان تثمر احلامه وتتحقق آماله

غير اننا لا ننصفهُ اذا لم نقل بان الرجل فكّر في البناء كما فكر في الهدم . فانك بعد ان تهدم الدنيا وتمزق شمل النظام الرأسمالي العتيق وسياسة « البورجوى » ، عليك ان تفكر فيما يقوم مقامها ويحل محلها من النظم . وفي هذا فكّر لنين . فوضع القواعد المفصلة ، وكتب الوفاً من الصفحات ليشرح فيها ذلك النظام الذي تخيله ليكون اساساً لدكتاتورية « الصعاليك » كما سماهم على ورق النقد البلشفي ، بل واخذ يبين الاعاجيب التي يمكن ان تترتب على نظامهِ ذاك وما يجلب من خير على الانسان والانسانية . على انه لم يسلم من غيبيات ماركس وخيالاته . قال :—

« اننا اذ ندعو الى الاشتراكية ، انما ندعو اليها معتقدين انها لا بد من ان تنقلب الى صورة من صور الشيوعية ، التي يجب ان تنبذ كل حاجة الى استعمال القوة واخضاع الناس بعضهم لبعض ، وتسلط طائفة من طوائف المجتمع على سواها ، مادام الناس سوف يعتادون ان يروا النظام الاجتماعي قائماً من غير حاجة الى استعمال القوة أو وسائل القمع » — غير انه استدرك فقال ان الهدم له وسائله التي لا بدّ منها ، وان الهدم يجب ان يسبق البناء على اي حال

على هذا مضى لنين خلال الاربعين عاماً التي انفقها ليتكوّن ويستعدّ . وفي سنة ١٩١٨ تسنم الرجل عاتق القوة ، وما لبث بعد تسنمها حتى بان للعالم ان منظماً عظيماً ظهر على مسرح التاريخ الانساني . ولقد أبدى كثير من الكتّاب اقصى العجب في مقدار الفرق الذي ظهر بين لنين الخيالي الحالم في فجر حياته ، وبين لنين العامل المنفذ في كهولتهِ . والمرجح ان لنين العامل المنفذ كان الرجل الحقيقي الكامن في لنين الخيالي الحالم ، وانه كان ينتظر سنوح الفرصة .

فلما فتح الباب عبره لنين الثاني ، تاركاً وراءه لنين الاول . فظهر لنين السياسي المحنك المجلوُ في ثوبه الصحيح. ظهر في ثوب الرجل المجرب الذي يحبُّ ان يحتنك الرجال فيفرزهم ثم يغربلهم ثم ينتقيهم ليخرج منهم مجموعة متلائمة تخدم اغراضه . وان من العجب حقّاً ان يبدو لنين وهو في حدود الخمسين من عمره في ذلك الثوب القشيب ، من غير ان يعالج الحكم أو يجرب السلطان من قبل ذلك . ولكن يجب الا ننسى ان تجاريب يوليوس قيصر وكرومويل في الحياة كانت مثل تجاريب داهية العصر الحديث . غير انك لا تنسى ان في لنين اجتمعت عدة صفات اهّلتهُ لان يكون ما كان . كان شديد الثقة بنفسه . فيحاول ان يضع اخطر ما يقرر السياسيون موضع التنفيذ بنفسه ، ولكن لمبدئه لا لها . واذا فرض انه لم يكن ليضع كل ما يقرر عمله في نصاب الحق ، افكان في مقدور غيره ان يضع احسن مما وضع ، أو يحكم التدبير اكثر مما أحكم ؟ احب السلطة وعشق القوة لينفع بها اناساً وليضر بها آخرين . وهذا امرٌ تأباه النفوس الكريمة الهادئة ، ولا تجيزه . غير انهُ بجانب هذا كان متحققاً من انه ارتكب خطأ ، ولم يتوان مرة في ان يعترف باخطائه . كان يعرف انه عظيم وانه قوي وانه ذو سلطان بحيث استطاع ان يقف امام اتباعهِ ليقول لهم « ان الذي رأى انهُ سائر في طريق الغواية يجب ان يعود اعقابه . وان الذي بدأ عملاً ثم اتضح له انه مخطىء في وسيلة يجب ان يبدأ العمل من جديد مرة اخرى . وعملنا الذي نعمل الآن يجب ان يدرس عمليّاً . وحتى ندرسه على نور التجربة ، لا يحق لنا ان نؤمل اننا سوف نجتاز التجربة سالمين ، أو نؤمل اننا فزنا بحق في قيادة امتنا » — ولم يكد يفوه بهذه الكلمات حتى اخذ يهدم ما بنى ويحطم ما شيد ، واخذ ينفذ بلا تردد سياستهُ الاقتصادية الجديدة ، كما سماها ، والتي اعترف فيها بضرورة المزج بين النظام الرأسمالي المبغوض وبين الشيوعية الى حد ما والى زمان ما . وكان اخلاصه ، كما كان نشاطه واستغوائه لاتباعهِ ، صفات كفلت له ان يسير وراءه الناس حيثما سار

***

لا يبعد أن يكون اوفق محس لقياس العظمة هي قدرة المرء على ان يكافئ بين نفسه وبين الظروف القائمة من حوله . ولا شك في ان هذه القدرة كانت من اخص صفات لنين. قال مرة: « ان فن الحكم لا يمكن ان يستوعب من الكتب . جرب وارتكب اخطاء وادرس كيف تحكم » . وكان يقول بان الانسان يجب ان يحتك بالحياة ليبلو الحياة . قال — « ان مثل هذه الاشياء ، لا يمكن ان يجاب عنها جواباً شافياً الا من الحياة ذاتها »

من اجل هذه الاقوال رماهُ البعض بانهُ « انتهازي » — Opportunist — غير انهُ ابعد الناس عن ان يكون هذا . على ان يكون الانتهازي ذلك الرجل الذي يلقي بسمعهِ دائماً

الى الارض ليسترق منها الاسرار ويماشي الناس ابتغاء النفع ويرقب دائماً من اين سوف تهب الرياح ليفرد فيها اشرعتهُ ويسير ولكن لا يعلم إلى أين ؟ على الضد من هذا تجد لنين. تجد فيهِ «الحيوية» التي رأيناها في قيصر ونابليون ولنكن ، تلك الحيوية التي تتحرك في ذاتها ولذاتها بعيدة عن التأثر بالفرص السانحة كيفما كانت ، وتمضي حادة البصر والبصيرة ، وتغير دائماً مجرى الحوادث في سبيل الوصول الى غرض اسمى يتخذ في الحياة هدفاً يسعى اليهِ

— ٢ —

مهما يكن من امر تلك الاحتمالات التي يلوكها بعض الكتاب والتي يوازنون فيها بين نجاح لنين واخفاقهِ ، فلا شك في ان الرجل قد رمى في كل حياتهِ الى غرض واحد انحصر في ان يقيم الحياة الانسانية على طراز مثاليّ جديد . ولا بد من ان يكون لرجل اراد ان يتم ما اتم لنين في معركة حامية الوطيس ، وسائله وسواعده من رجال ونساء . ولاجرم انهُ درس الرجال كما درس النساء . فان حياتهُ البوهيمية وتسكعهُ في انحاء اوربا مكّناهُ من ان يدرس كل الاوساط الاجتماعية ، وعوداهُ على ان لا يستوحش في اية طبقة من طبقات المجتمع . على ان كل هذا الدرس الواسع الذي استوعبهُ لنين من الحياة كان لغرض معين — لم يكن مجرد درس اكاديمي لاستيضاح الطرق التي تتمشى فيها القلوب وتخفق في شعابها الافئدة ، بل كان تصنيفاً كاملاً للرجال على قاعدة الاستفادة من مواهبهم بقدر ما يصل اليهِ مستطاع كل منهم ، وتسخيرهم جميعاً لخدمة الغرض الاسمى

ولقد كانت نتيجة هذا الدرس العميق ان لا تفوز الانسانية من هذا الداهية الاّ بالاحتقار. قال « برترند رسل » وهو على بعد نظره عميق الفكرة كيّس « لقد ثبت في نفسي أنهُ يحتقر كثيراً من الناس ، وانهُ ارستوقراطي الرأي ». على انهُ لم يستثن من الناس اهل روسيا ، شأن البعض ممن يحتقرون العالم ويمجدون امهم زوراً . وقد يكون هنالك بعض المبالغة في قولهِ المأثور — « في مقابل كل بلشفي صادق تجد تسعة وثلاثين افاكاً وستين مغفلاً » . غير ان هذا الحكم ان عبّر عن شيء فانهُ انما يعبر عن مرارة التجربة في ظروف عديدة

والطُرفة العجيبة في هذا تنحصر في التناقض الواقع بين احتقاره للانسانية عامة ولاهل روسيا خاصة ، وبين ان نظريته في الحكومة قد قامت على قدرة الجماهير في الحكم وذكائهم ومقدار ما يمكن ان تنتفع الانسانية بجهدهم . فمحور سياسته يقوم على ان الطبقات العاملة والجماهير عامة ، يجب ان يحكموا ، ليثبتوا في مواجهة الخاصة أن في مستطاعهم ان يحكموا وان حكمهم لا ينقصه الذكاء ، ولا تعوزه الامانة والمقدرة. كان يقول «زودوهم بالتجربة وعلموهم وعودوهم فضائل الاعتماد على النفس والنظام وهم يستطيعون ان يحلوا العقدة بأنفسهم . فاذا لم يستطيعوا حلها فلن يستطيع احد »

ومع هذا فان « بعضهم » يجب ان يرشدهم الى حل العقدة. وانهُ لمن الممتع حقاً ان تنعم النظر في الطريق التي رسمها « بعضهم » هذا ، فاذا بها تلك الآلة السياسية الهائلة التي حاول لنين ان يقيم قواعدها على ارض روسيا القيصرية. بدأت بأن تكون دكتاتورية «الصعاليك» وانت اذ تسمع اقواله او تقرأ ما خطت يراعته ، لا تشك في ان جمهور الذين يشغلون المصانع ويجوبون الحقول الواسعة هم الذين يحكمون ، وهم الذين يحركون دولاب الادارة من طريق جمعياتهم المنظمة على الشريعة الشيوعية ، وانهم يوجهونها الى خيرهم العام . ثم لا تلبث غير قليل اذا امعنت في النظر حتى ترى ان القوة المحركة انما تنحصر في يد الحزب الشيوعي، وهو حزب اقلية اذا قيس بعدد النسمات في روسيا وجلهم لا يفقه من الامر شيئاً . وقد لا تعجب ان تعلم ان هذا الحزب لا يتجاوز عدد اعضائه نصف مليون من مائة مليون روسي . ثم لا يغرب عن بالك ان الوحي الذي يوحى بهِ الى هذا الحزب يلقى الى اعضائه من سماء عليا لا يتربع على عرشها الا بضعة ارواح موهوبة ، ويقف على هاماتهم نيقولاي لنين مشرفاً بهامة الجبار ذي البطش على ما يتراءى تحت قدميه من بسطة القوة والغلبة والاستعلاء ، فيصبح هو « دكتاتورية الصعاليك » ولا احد ، بل ولا شيء ، غيره

غير ان الجماهير انما تتكوَّن من رجال ، ولذا يجب ان يعالجوا باعتبارهم افراداً اولاً . وهذه حقيقة لم يدركها احد بقدر ما ادركها لنين . فمنذ اول ساعة خرج منها الى ميدان الحياة العامة طفق يدرس الرجال والنساء وبواعثهم النفسية وشهواتهم وكفاياتهم . ولكن بفكرة ما يمكن ان يؤدوا من خدمة للغرض الاسمى الذي احتكم في كل اطراف حياته . وان كثيراً من مذكراته وتعليقاته لتظهرنا على مقدار ما بلغ اليه حكمه على الناس وعلى الطبقة البشرية من بعد النظر وصدق الحدس

ولقد فرق بين الطرق التي عالج بها الناس ، بقدر ما اختلفت طباعهم . فهذا يكفي لقياده نظرة رضى ، وذاك يحتاج الى الاقناع وقوة البرهان ، لتقوده بالزمام . وغير هذا وذاك صنف عرف لنين انهُ لن يقاد الا بالامر الصارم . كان الالمانيون في عداء مع روسيا ، ولكنه اذا استطاع ان يستخدم نفوذهم لانقاذ روسيا ، فانهُ لا يتلكأ في الانتفاع بها. والبوليس القيصري على ما كان في افراده من فساد، استخدمهُ لنين واغراه بالمال ليؤيد قضية السوفيت ويعمل على انجاحها . ولكن قدرة لنين من هذه الوجهة لم تتجل بقدر ما تجلت في نجاحه بأن يوفق بين طبيعتين متناقضتين كطبيعة ستالين وتروتسكي ويصرفهما الى العمل معاً كما رام، زمامُهما في يده . ولقد اختلفا وتناقضا بمجرد ان افلت العنان من يد السائس الماهر

اما اعداؤه فقد كانوا موضع عنايتهِ اكثر مما كان اصدقاؤه . فقد حوطه منهم سياج اخذه ذات اليمين وذات الشمال . ولقد شطب لنين من قاموس سياسته كلمة « التسامح ». فانت

اذا لم تكن معهُ ، كنت ضده ، ولذا فهو ضدك وحرب عليك بكل ما اوتي من قوة فان تنازع البقاء بين الكافة والعامة، مبدأ اخذ بخناقه منذ نشأتهِ الاولى ، ولم يتركه ساعة واحدة. فالدنيا منقسمة في نظره الى معسكرين، وعلى معسكر الكافة تساقط غضبهُ واحتقاره كسفاً متراكمة . غير ان نقمته لم تبلغ من الشدة في اعدائهِ بقدر ما بلغت في معاملة من كانوا له اصدقاء يوماً ما. لقد خانوا القضية واختلفوا مع نيقولاي لنين . وكان هذا كافٍ لان يعتقد لنين ان افتراسهم عاجلاً خير من معالجتهم ومحاولة اصلاحهم مرة اخرى

انهُ لم يكره فقط . بل احتَرَّ في الغضب والنقمة. فاعتبر الذين يخالفونهُ في الرأي اكثر من خونة . لم تخدعهُ الكلمات ولا النظريات . ولذا تراه استعمل السلطة بمجرد أن اخذها في يده ، من غير ان يفكر في الرحمة ولا في الغفران ، لاعتقاده ، ان الملاينة والاغراء والاقناع ليست من الوسائل التي يمكن ان تنجح بها الثورة . لقد درس لنين نظريات « سورل » — Sorel — في استخدام العنف ، فكان لهذا نتاجه واثره في حياته . قال مرة « هنالك ثوريون يعتقدون انهُ في مستطاعنا ان تنجح الثورة باستعمال الشفقة والحب . نعم ؟ في اية مدرسة تعلم هؤلاء ؟ وعلى اية وجهة يفهمون معنى الدكتاتورية ؟ وماذا يصيب الدكتاتورية اذا كان القائم على رأسها ضعيفاً مهزول الارادة » ؟ — فرمى بالرصاص وشنق وعذب وأثار حكم الارهاب بكل معانيهِ وفي اشنع صوره . كل هذا باسم المثل الاسمى !

ومما لا يبعد عن الواقع ان تكون هذه الدنيا في حاجة الى انقلاب يدك نظامها رأساً على عقب . والله يعلم ان الاجتماع الانساني في حاجة الى هذا . ولكن هل من الضروري ليكمل هذا ان تقوم وسائله على الكراهية والبغض والتعصب والانتقام ؟ على اية حال لم تكن هذه وسيلة عيسى . ولكن من المحتمل ان فكرة عيسى في الانسانية كانت اسمى من فكرة لنين

— ٣ —

هذا ما كان من امر الوسائل الانسانية التي استخدمها لنين وموقفه ازاءها في العمل على انجاح غرضه الاسمى . ولكن ماذا كان موقف الانسانية ازاء لنين ؟

لم يثبت التاريخ من نظرية أكثر مما اثبت نظرية « ان البغض يولد البغض » عرّف الجماهير بانك تبغضهم وتحتقرهم وتكرههم ، وهم لا يلبثون ان يردوا لك الصاع صاعين والكيل كيلين ، في نفس ما كِلت لهم . يكيلون لك البغض بغضاً والاحتقار احتقاراً ، ولكن في صورة ابلغ ووحشية اشد . وها نحن نجد ان ما كتب ضده قد تجسم فيهِ من البغض والاحتقار اضعاف ما كالَ لنين لاعدائهِ من هذه التجارة

فانحداره من سلالة تترية كانت سبباً في حملة شعواء اظهر فيها الكتاب انهُ ممن لا يعنون

بالوسائل في سبيل الوصول الى الغرض ، مادامت الوسائل مؤدية اليهِ .حتى لقد رماه بعض النقاد بما رمى بهِ هو الشعب الروسي فقالوا — « ان ما حدث في روسيا لم يكن سوى انتقال من عنف وحشي الى امتهان شديد»

وانك لتعجب اذ توازن بين ما يقول اصدقاؤه ومحبوه ، وبين ما يقول اعداؤه . يقول الاصدقاء بأنهُ رجل لين العريكة هادىء الطبع وانهُ نظر الى الغرض الذي رمى اليهِ من وجهة انسانية صرفة ، وانهُ لما كان مقيماً في سيبريا اختلط بالشعب ودرس احواله وتعرَّف متاعبه واسباب شقائه وحاجاته وضروراته ، وانهُ لما اصبح الحاكم بأمره لم يتوان لحظة واحدة في ان يضع هذه الاشياء موضع النظر والاعتبار . ويقول اعداؤهُ انهُ لم ينظر في الحياة الاَّ باعتبارها كمية حسابية او معادلة جبرية ، وان الشهوات الانسانية وما تقاسيه الجماهير من متاعب الحياة لا قيمة لها عنده في قياس الانسانية وانك لترى ان لنين لم يزن الحياة الفردية بأي ميزان ولم يدرك لها من قيمة

على انهُ مهما اختلف الاصدقاء والاعداء في كل ما تعلق بحياة هذا الرجل،فقد اتفقوا على امر واحد ، هو ان لنين كان ذا قدرة فائقة على التأثير في الاشخاص . وسواء كان هذا التأثير للخير ام للشر ، فذلك امر يمكن ان يختلف فيهِ . ولقد بلغ من سحره ان كثيراً من الذين كانوا يختلفون معهُ في الرأي والوسيلة . كثيراً ما كانوا يخدعون عن عقيدتهم بسحره فينفذون ما يلقي بهِ لنين في روعهم ، من غير ان يعرفوا ماذا يعملون . قال كاتب «ان من لم يحتك بلنين ولم يقرأ ما كتب ، لا يستطيع بحال من الاحوال ان يدرك اي اثر لهذا الرجل واية قوة تفرضها ارادته الحديدية على الناس ، والى اي حد بلغت سلطته العقلية على الذين يدرسونه . لقد اخذ لنين ، على عاتقه ان يقلب روسيا الاوربية حتى يصبح سافلها عاليها ، وماشاه الناس والرجال المعدودون وساعدوه في عمله بكل ما اوتوا من قوة الذكاء والكفاءة، كما يساعد اطفال صغار اباهم في عمل ما »

***

هذه صورة مقتضبة للرجل الذي اختفى وراء الحرب العالمية ليجني اول ثمراتها . ولئن لم يكن لتلك الحرب الضروس من اثر الاَّ تهيئة لنين لان يبرز الى الصفوف الاولى من جيش الانسانية اللجب ، لكفى بها ان تكون ذات اثر بالغ في تحويل مجرى الحياة الانسانية الى وجهة جديدة . اما الحكم على مقدار ما سوف ينتج عن هذا الاتجاه من خير أو ضرر ، فذلك امر مرهون على حكم الاقدار

كيف خلق الله المرأة

لتوفيق مفرج (1)

جاء في الاساطير القديمة ، حديث بديع ، جميل ، عن كيف خلق الله المرأة وهذا الحديث يفوق ببلاغته ، ومعانيه ، قصة الخليقة بحسب نصوص التوراة

* * *

في البدء خلق الله العالم والسموات والارض، ومافيها، وماعليها ، ثم خلق الرجل

ولما جاء ليصنع المرأة وجد انهُ قد استنفد في صنع العالم والرجل جميع المواد والعناصر التي كانت لديه

فحزن الخالق واخذهُ سبات عميق

ولما استفاق عمد الى هذا العالم واستخلص منهُ المرأة كما يأتي

* * *

اخذ من القمر استدارتهُ، ومن البحر عمقهُ، ومن الامواج مدّها وجزرها، ومن النجوم لمعانها ، ومن شعاع الشمس حرارتهُ ، ومن الندى قطراتهِ ، ومن الريح تقلبها وعدم ثباتها، ومن النبات ارتجافهُ وارتعاشهُ، ومن الورد لونهُ وعطرهُ، ومن الازهار تحملها ، ومن الاوراق خفتها ، ومن الاغصان تمايلها ، ومن حفيف الاشجار حنينها وانينها ، ومن النسيم لطفهُ ورقتهُ ، ومن الراح نشوتهُ ، ومن العسل طعمهُ ، ومن الذهب توهجهُ ، ومن الماس قساوتهُ ، ومن الحية حكمتها ، ومن الحرباء تلونها ، ومن الغزال شرودهُ ، ومن المهى عيونها ، ومن الارنب نفاره وحياءهُ ، ومن الطاووس خيلاءهُ وزهوه ، ومن الاسد شراستهُ وقوتهُ ، ومن الزمن خيانتهُ وغدرهُ ، ومن الثعلب مكره وروغانهُ ، ومن العقرب لدغتهُ، ومن اليمامة نغمتها ، ومن الببغاء هذيانها وكثرة كلامها

ثم جمع جميع هذه المواد وسكبها في بوتقة وصنع منها المرأة

واخذ الله المرأة واعطاها للرجل

* * *

وبعد اسبوع جاء الرجل الى الخالق قائلا

يا رب — ان المرأة التي اعطيتني قد سممت حياتي ووجودي

انها تتكلم بلا انقطاع

انها تبكي بلا سبب

(1) راجع باب مكتبة المقتطف

أنها مستضعفة نحيفة ومطالبها لا حدّ لها
أنها تشكو من اقل شيء
وتتألم من كل شيء
خذها وأرحني منها يا ربّ

* * *

وأخذ الله المرأة

* * *

وبعد اسبوع عاد الرجل الى الخالق قائلاً
يا رب — ان حياتي من دون المرأة اشبه بالوحدة والانفراد
كل العالم الذي اعطيتني اشبه بمنفى لي
انا تاعس من دون المرأة
اني اتذكر كيف كانت تغني لي وترقص امامي
كيف كانت تنظر اليّ بانعطاف من طرف مقلتها
كيف كانت تبتسم فتجدد نشاطي . وتضحك فتبدد همومي
كيف كانت تلاعبني
كيف كانت ترتمي بين ذراعي
كيف كانت تحبب اليّ الحياة
كيف كانت تخفف آلامي ، وتمنح لذةً لاحلامي
ارجعها اليّ يا رب

* * *

وأعاد الله المرأة الى الرجل

* * *

وبعد ثلاثة ايام رجع الرجل الى الخالق باكياً شاكياً
يا رب — انني لا افهم نفسي — لكنني متأكد ان المرأة تزعجني اكثر مما تريحني وتسرني
فغضب الخالق وقال — خذ المرأة ايها الرجل واذهب ولا تعد اليّ
وصاح الرجل — انني لا استطيع ان اعيش معها
فأجاب الرب — ولا تستطيع ان تعيش من دونها

* * *

وأخذ الرجل المرأة وهو يندب سوء حظه ويقول : — يا لشقائي انا لا استطيع ان اعيش مع المرأة . ولا استطيع ان اعيش من دونها !



بحث في «الدبلوماسية»

العلاقات الدولية عامة — المعاهدات والاتفاقات — التمثيل السياسي والقنصلي



(١) العلاقات الدولية عامة

عرّف السر إرنست ساتو، وهو من كبار الثقاة في العلاقات الدولية والدبلوماسية، ما يسمى بالدبلوماسية Diplomacy[1] بقوله: انها «استعمال الذكاء والكياسة في ادارة العلاقات الرسمية بين الدول المستقلة متعدياً ذلك احياناً الى علاقاتها بالدول المستعمرة»، وعلى ذلك فان بحثنا هذا ينطوي على دراسة هذه العلاقات متمثلة بالمعاهدات والاتفاقات والتمثيل السياسي والقنصلي

من المعلوم ان العلاقات بين الجمعيات البشرية التي كانت نواة الدول الحديثة قديمة جداً، فان القبائل البسيطة الساذجة كانت — ولا تزال — تحدث بينها علاقات سلمية ومفاوضات بسيطة لحل الامور المشتركة بينها . . . وكثيراً ما كانت القبائل هذه تندب لذلك الاشخاص اللائقين من ذوي المقدرة والدهاء لقضاء هذه المهمات. ولقد كانت للعرب في جاهليتها بعض العلاقات من هذا القبيل فكثيراً ما كان ينتدب من صناديد العرب للمفاوضة بين قبيلتين لحل النزاع وحقن الدماء. والتاريخ العربي يذكر لنا ان «عمر بن الخطاب العدوي» الخليفة الثاني كان يدعى بـ «سفير قريش» في الجاهلية، لان هذه القبيلة العربية كانت ترسله الى القبائل الاخرى للمفاوضة وحل المشكلات. . والتاريخ من جهة اخرى يؤكد لنا انهُ كان لقدماء المصريين واليونان سفراء يرسلون الى الامم الاخرى في مهمات دبلوماسية

الا ان هذه العلاقات ازدادت ونمت نمواً سريعاً على أثر تقدم البشر وتطور نظام عمرانهم واجتماعهم فنشأ ما نسميه اليوم بـ «القانون الدولي» و «الدبلوماسية الحديثة»

إن الدبلوماسية الحديثة ترجع الى التاريخ الذي نشأت فيه بعثات دائمة في القرن الخامس عشر الميلادي في إيطاليا للقيام بادارة العلاقات الدولية، اذ ان القرون الوسطى لم تكن تخلو من وفودٍ، تقتصر مهمتها على زمن محدود وغاية معينة واحدة، يقوم بها بعض رجال الدين او الاشراف، وليس كذلك احد من المعتمدين الدبلوماسيين الذين ينتخبون من طبقة

(١) استعملت هذه الكلمة لاول مرة في انكلترا متأخرةً حوالي سنة ١٧٩٦ من قبل «برك» السياسي الكاتب الانكليزي المشهور — فالكلمة حديثة العهد، لكن الاصول الدبلوماسية قديمة ...

ديلوماسية محترفة تقوم بتوثيق الروابط والعلاقات بين الدول بصورة فنية منتظمة . اما في العصر الحاضر فان العلاقات نمت نمواً سريعاً جداً فالسفراء والقناصل منتشرون في انحاء الكرة الارضية والمعاهدات تعقد بصورة سريعة والمؤتمرات الدولية تقرر مواثيق خطيرة . زد على كل ذلك « عصبة الامم » التي اصبح لها مقام ممتاز في العلاقات الدولية ، فهي نواة الدولة العالمية المتحدة التي يحلم بها بعض الكتاب[١] . نعم ، انا لا انكر ما يدعيه بعض المفكرين من ان هذه العصبة انما هي في الوقت الحاضر « عصبة حكومات » وليست « عصبة امم » الا انني اعتقد ، برغم ذلك ، ان هذه المؤسسة خطوة خطيرة جداً في سبيل توثيق العلاقات بين امم الارض قاطبة . وهل يعجب القارىء الكريم اذا قلت له ان كثيراً من الروس النازحين عن بلادهم يحملون اليوم جوازات سفر عالمية اصدرتها لهم « عصبة الامم » هذه ، وهي فوق ذلك مؤتمر دولي دائم لمحاولة حل جميع المشكلات والقضايا التي تحدث بين الدول المنتمية اليها والمنتظمة في عضويتها

إما العوامل ذات الاثر في توثيق عرى العلاقات بين الدول فكثيرة بعضها رسمي وبعضها غير رسمي . واليك اهم هذه العوامل مضافاً اليها «عصبة الامم» المارة الذكر :

(١) محكمة العدل الدولية (٢) مؤسسة العمال الدولية (٣) اتحاد الطلبة الدولي في جنيف (٤) الالعاب الاولمبية (التي اعيدت عام ١٨٩٦) (٥) مؤسسة الشؤون الخارجية الملكية في لندن التي انشئت سنة ١٩٢٠ وغيرها ... ان هذه العلاقات تتخذ صبغة رسمية دائمة وتشتد وتقوى بالمعاهدات والاتفاقات والتمثيل السياسي والقنصلي ، فلنبحث في ذلك الآن :

(٢) المعاهدات والاتفاقات

ان المعاهدات والاتفاقات عقود بين دولتين او اكثر . والفرق الوحيد بين العقود الفردية والعقود الدولية هذه ينحصر في ان ليس ثمة قوة عدلية تسيطر على هذه الاخيرة الا عند وجود نص فيها . اما عقود الافراد فالمحاكم في الدول المختلفة هي التي تسيطر على سيرها في مجرى العدل والانصاف . وان كلمة « Treaty » المترجمة الى العربية بـ « معاهدة » كانت تستعمل قديماً للدلالة على معنى « المفاوضة » ولكنها اخذت تدل اخيراً على معنى « خاتمة المفاوضة » التي هي المعاهدة في الغالب . وفي الاصطلاح الدبلوماسي الحديث تستعمل كلمة « معاهدة » للدلالة على عقد دولي مهم فقط ؛ اما العقود التي تكون دونها خطراً ودرجة فتدعى الواحدة منها بـ « الاتفاق Convention »

---

(١) او على الاقل نواة الدولة الاوربية المتحدة التي دعا اليها السياسي الفرنسي المشهور (ارستيد بريان) ووصفها زميله هريو في كتابه The United of States Europe

اما المعاهدات فقديمة ومتاحف الغرب تحوي نصوص معاهدات مكتوبة على الحجارة من عصر التوراة والاغريق والرومان . وللعالم الاثري المشهور « برستد » مجموعة نفيسة لصور نصوص معاهدات قديمة جداً . والتاريخ الاسلامي حافل بالمعاهدات كما ان مؤرخي الاسلام لم يبخلوا في بحث قواعد المعاهدات لديهم واصولها . والقلقشندي صاحب كتاب «صبح الاعشى» يفرد لنا ثلاثة ابواب من كتابه لبحث «الهدن[١]» و«عقود الصلح والفسوخ الواردة عليهما[٢]» وهو فوق ذلك يذكر لنا امثلة عديدة منها ، وما يلزم الكاتب في تحرير اوضاعها وترتيب قوانينها واحكام عقدها ، فهو يبين لنا كيف تكون الهدن بين اهل الاسلام واهل الاديان الاخرى ، وكيف تكون عقود الصلح بين ملكين مسلمين وان كل متعاقد يأخذ نسخة ويضع التاريخ الهجري عليها كما ان المفاسخة تكون من جانب واحد ومن الجانبين . والذي يتأمل هذه القواعد الموضوعة للهدن وعقود الصلح والفسوخ يجد تشابهاً عظيماً بينها وبين ما يسير عليهِ واضعو المعاهدات في وقتنا الحاضر . وفي الامثلة التي يذكرها « القلقشندي » يجد المتأمل تفصيلاً دقيقاً لكل شيء يجوز حدوثهُ بين المتعاقدين ورعاياهما مما يخص الشرائع الخاصة والشرائع العامة . وفي غالب هذه المعاهدات تذكر اسماء المتعاقدين والمندوبين ثم يشهد الله على ما كتب ويضاف في بعض الاحيان ان المتعاقدين صافحوا بعضهم بعضاً عنواناً للسلام بينهم وانهم تبادلوا النسخ المسجلة ، كما ان العرف جرى على تعيين المكان الذي تعقد بهِ المعاهدة وتم فيهِ المفاوضات . . . وفي الغالب ايضاً تكتب النسخة الاصلية باللغة العربية . والمعاهدة الحجازية — اليمنية الاخيرة هي على طراز المعاهدات الاسلامية هذه تماماً . .

والمعاهدات والاتفاقات انواع عديدة منها :

(١) المعاهدات السياسية : ومن هذا النوع معاهدات التحالف والسلام والصداقة وحسن الجوار Bon Voisinage (٢) المعاهدات التجارية : كمعاهدات تجارة الرقيق والملاحة وما الى ذلك . . . (٣) المعاهدات الاجتماعية : كمعاهدات اتحاد البريد المعقودة سنة ١٨٧٤ م وغيرها (٤) معاهدات العدل المدنية : كمعاهدة حماية العلامات الفارقة المعقودة في باريس سنة ١٨٨٣ (٥) معاهدات الزواج : وهذه تعقد عند زواج فردين من اسرتين مالكتين

وتوضع المعاهدات في قالب يكاد يكون عاماً فالمواد الرئيسية في كل معاهدة تقريباً هي :—

(١) المقدمة (٢) اسماء والقاب المتعاقدين الساميين (٣) ملخص غاية المعاهدة (٤) اسماء والقاب المفوضين بالعقد نيابة عن المتعاقدين الساميين (٥) فقرة تتضمن ان المفوضين بعد ان تبادلا اوراق اعتمادهما فوجداها صحيحة وموافقة للاصول اتفقا على هذه المعاهدة (٦) المواد بالتفصيل ويبدأ بالاعم منها (٧) مادة تخصص وتعين زمن ومحل تبادل النسخ المصادق عليها

(١) ج ١٤ ص ٢ — ص ١٠٩ (٢) ج ١٣ ص ٣٢١ — ص ٣٦٦

فيما بعد ومحل نشرها ووقته (٨) التاريخ والتواقيع والاختام

وتوضع نصوص المعاهدات التي تعقد بين دولتين اما بلغة الدولة التي لها المقام الاسمى او بلغة احدهما والثانية باللغة الفرنسية واما باللغة الفرنسية للنصين . ولقد كانت اللغة اللاتينية لغة رسمية للمعاهدات حتى القرن السادس عشر خلّت محلها اللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر. ولكلٍ من الفريقين المتعاقدين ان يحضر نصوص المعاهدة بلغتهِ على ان تكون كلمات النص مستعملة بمعناها الطبيعي الواضح وله ان يضع اسم حكومته في الاول وله ان يمضي اولاً في محل الشرف : وهو الجهة اليسرى من الصفحة . ولقد جرت العادة ان تكتب الصفحة الاولى من كل معاهدة باليد وكذلك الصفحة الاخيرة ، ويجوز كتابة سائر الصفحات باليد ويجوز كذلك كتابتها على الآلة الكاتبة

وهناك معاهدات غير مكتوبة يقول عنها پُطَر Potter[1] « انها ليست الاّ تناقض في التعبير » فان من شروط المعاهدات ان تكون مكتوبة ومدونة ومسجلة في دائرة رسمية معترف بها كسكرتارية عصبة الامم مثلا وهي التي تقرّر ان تقوم بعمل « كاتب عدل » Notary Public لتسجيل عقود الدول او معاهداتها كما نصت على ذلك المادة ١٨ من ميثاق عصبة الامم وهي: « ان كل معاهدة او اتفاقية تعقد بعد تصديق معاهدة « فرسايل » من قبل اية دولة من الدول المنتظمة في سلك عصبة الامم يجب ان تسجل في السكرتارية وعلى هذه ان تنشرها في اقرب وقت ... » وعلى ذلك فان سكرتارية عصبة الامم تنشر اكبر واهم مجموعة للمعاهدات في العالم لاطلاع الناس عليها[2]

ويلحق عادة بالمعاهدات ما نسميه بالپروتوكول Protocole وهو عادة جزء لا يتجزأ من المعاهدة ، وقد تلحق بالمعاهدات مذكرات يتبادلها المفوضون بالعقد لتوضيح بعض مواد المعاهدة وما الى ذلك

ويجب ان نقرر ان المعاهدة لا تتخذ صبغتها القانونية ولا يمكن تنفيذ بند من بنودها الاّ بعد تبادل نسخها وابرامها ولقد علمت ان المعاهدة التي شذت عن تلك القاعدة ، وهي الوحيدة في بابها ، هي معاهدة تعديل الحدود بين مصر وطرابلس حيث انهُ قد نفذت بنودها قبل ان يبرمها البرلمان المصري . وعلى ذكر ابرام المعاهدات من قبل البارلمانات نقول ان من نتائج الحرب العظمى ان تقرر عدم اعتبار المعاهدة نافذة قبل ابرامها من قبل الهيئات التشريعية للدول التي تعقدها

والمعاهدات اصبح لها شأن واسع النطاق في هذا القرن ، فانها تعقد لتأسيس مؤسسات

(١) This World of Nations page : 129,

(٢) ان هذه النشرات عن المعاهدات تصدر تحت عنوان Treaty Series of the League of Nations

دولية خطيرة كالمحاكم الدولية والمؤتمرات الدولية ومواثيق السلام وغير ذلك مما يزيد في توثيق عرى التقريب بين دول العالم فليس ميثاق عصبة الامم وهو معاهدة خطيرة ، في حد ذاته ، الا دستوراً عالمياً خطيراً ... وميثاق كيلوغ نوع آخر من المعاهدات التي كان لها شأن خطير في هذا القرن . زد على ذلك ان المعاهدات اخذت تتكاثر بسرعة هائلة تفوق اضعاف سرعتها في السنين الماضية . كما ان تغيراً خطيراً حدث في طبيعة المعاهدات فلم يبق « في كل معاهدة فارس وفرس » كما يقول « تليران » السياسي الفرنسي المشهور ، فان اطلاقه هذا يجوز تطبيقه على المعاهدات التي سبقت معاهدة « فرسايل » ، اما على المعاهدات التي تلتها فلا اظن ذلك ، فليس في اتفاقات « لوكارنو » الموقع عليها سنة ١٩٢٥ مثلاً — على ما اعتقد — فارس أو فرسان وفرس أو افراس !

وتفسير منطوق المعاهدات امر صعب وعسير جداً في الغالب ، ولقد فكر المشرعون في القانون الدولي وبعض رجال فلسفة السياسة مثل كنت Kent وويتن Wheaton وجروتيوس Grotius وڤاتل Vattel وغيرهم في الموضوع ، وافرد « ڤاتل » فصلاً كاملاً في كتاب له(١) لهذا الموضوع وهو يتفق مع « شيشرون Cicero » في « ان الوعد يجب ان يؤخذ على الشيء الواضح منه وليس على الشيء الذي يقصد به » ، وهو يعتقد كذلك انهُ « لا يجوز تفسير ما لا يحتاج الى تفسير» في المعاهدات . ولم يتمخض بحث الذين ذكرتهم الا عن طريقين مهمين فقط لضمان عدم الانحراف في تفسير منطوق المعاهدات وهما : (١) ان المعاهدات يجب ان تكتب بلغة واضحة طبيعية و (٢) ان ينص في المعاهدة على احالة الاختلاف في تفسير منطوق بعض موادها الى سلطة عدلية دولية كمحكمة العدل الدولية في لاهاي مثلاً ،وذكر النص المعول عليه في المعاهدات

اما سلطة عقد المعاهدات لدولة ما فينص عليها عادة في قانونها الاساسي (الدستور) ففي الحكومة الملكية مثلاً لصاحب التاج ان يبرم المعاهدة بقانون يقرره البرلمان بعد مناقشة المعاهدة وابرامها منه وقد جرت على ذلك الدولة المصرية والدولة العراقية وغيرها من الدول الملكية الدستورية. ورئيس السلطة التنفيذية في الجمهوريات يصدق على المعاهدات بعد ابرامها من قبل البرلمان ايضاً

وتدير شؤون المعاهدات من تحضير وتبادل نسخ وما الى ذلك في الوزارات الخارجية دوائر خاصة تدعى بدوائر البروتوكول ، فالحكومة الفرنسية مثلاً لديها دائرة تدعى بـ «دائرة البروتوكول » Le Bureau du Protocole وهذه الدوائر تدير علاوة على شؤون المعاهدات مكاتبات اوراق الاعتماد وبراءات القناصل مما سوف يأتي ذكره في بحثنا عن الممثلين السياسيين والقناصل ، وكذلك الكتب التي يتبادلها رؤساء الحكومات . وفي انكلترا دائرة تقوم بمثل هذه الاعمال وتدعى Treaty Dep't of the Foreign Office .

(١) « Le Droit des genson principes » وهو في ٣ مجلدات

(٣) التمثيل السياسي والقنصلي

إن الممثلين السياسيين رسُلُ الدول يقومون بادارة الشؤون والمصالح السياسية لدولهم لدى الدول الاخرى . كان الممثلون السياسيون قديماً على درجة واحدة وهي درجة « سفير » Ambassador لكن ذلك تغير في الوقت الحاضر فانقسم هؤلاء الى اربع درجات هي :

(١) السفراء (٢) الوزراء المفوضون والمندوبون فوق العادة (٣) الوزراء المقيمون (٤) القائمون باعمال السفارة أو المفوضية Chargés dé Affaires

ولقد تم تقسيم الممثلين السياسيين على هذه الصورة في النظام الذي وضع في مؤتمر ڤينا (١٠ مارس سنة ١٨١٥ م) . ثم تقرر هذا النظام نهائيًّا بعد تغييرات طفيفة فيه في مؤتمر اكس لاشابل Aix - la - Chapelle في ٢١ نوفمبر سنة ١٨١٨ م . ولقد كان الممثلون السياسيون قديماً ينتخبون من قبل رؤساء الحكومات على اساس مقدرتهم في المفاوضات فقط بصرف النظر عن منزلتهم ودرجتهم في الهيئة الاجتماعية ، فقد كان من بين السفراء قديماً من كان كاتباً بسيطاً أو جنديًّا أو تاجراً ويقال ان لويس الحادي عشر ارسل حلاقه الخاص في مهمة دبلوماسية !

ولكن مهمة انتخاب الممثلين في الوقت الحاضر من اصعب المهمات وادقها فان الممثل يجب ان يكون لائقاً لمنصبه كلَّ اللياقة مستجمعاً لكافة الصفات اللازمة للقيام بتمثيل حكومته في الطبع الهادىء والرزانة والصحة الجيدة والطلعة الوسيمة والذكاء الوقاد مع الدهاء والعفة والنزاهة. اما من جهة المعارف فعليه ان يكون واسع الاطلاع على القانون الدولي والاقتصاد السياسي والاحوال السياسية للمملكة التي سوف يمثل دولته فيها. والحكومات تميل غالباً الى ابقاء ممثليها السياسيين في الدول التي يمثلونها فيها لكي يزدادوا خبرة واطلاعاً ولما يقتضي للممثل من المدة الطويلة للاطلاع التام على احوال تلك الدولة ... كما ان كثيراً من الدول الكبرى كبريطانيا مثلاً قد وضعت قانوناً خاصًّا لاحالة الممثلين السياسيين على المعاش ، وبموجبه لا يحال الممثل قبل بلوغه الـ ٧٠ من عمره وفي حالات كثيرة يبقى فيها الممثل الى اكثر من ذلك

وبريطانيا العظمى من الجهة الثانية لديها وزارة للخارجية تعتبر من ادق وزارات الدول الخارجية ادارة وانتظاماً . وهي تعتني اعتناء فائقاً بانتخاب رجال السلك الدبلوماسي فالذين يتقدمون الى دخول هذا السلك يشترط عليهم اجتياز امتحان تحريري خاص — بصرف النظر عما يحملونه من الشهادات العالية — وهذا الفحص تضع اسئلته وتنظر في اجوبته لجنة عليا مؤلفة من كبار اساتذة الجامعات الانكليزية ، ومن ثم تفحصهم فحصاً شفهيًّا لجنة اخرى مؤلفة من كبار الموظفين واعضاء مجلس النواب البريطاني وآخرين ممن لهم علاقة واختصاص بالموضوع

للدول ان ترسل ممثلين سياسيين يمثلونها لدى الدول الاخرى وفقاً للاصول المرعية . الاّ ان لدولة لها حق رفض قبول ممثل دولة اخرى لاي سبب كان . ولذلك فقد جرت العادة ان سأل الدولة التي تريد تعيين ممثل ما الدولة الاخرى عن رأيها فيهِ قبل تعيينه . وعند قبول لممثل ووصوله المحل المعين حاملاً اوراق اعتماده تجري تقاليد واحتفالات تتفق ودرجته لا مجال لذكرها الآن . كما انه على اثر مباشرتهِ مهام منصبه يكسب الحقوق والامتيازات الممنوحة لممثلين السياسيين . ومن هذه الامتيازات عدم امكان القبض عليهم او حبسهم حتى في حالة وقوع حرب بين الدولتين ، ولا اذكر الا حادثة واحدة تشذ عن هذه القاعدة واعني بها موقف الحكومة التركية القديمة ازاء سفراء الدول التي تحاربت معها عند ما حبستهم في « الابراج السبعة » المشهورة . وكذلك تعتبر مسكن الممثل واثاثهُ وأموالهُ داخل منطقته ملكاً لدولة الممثل نفسه . وعلى ذلك فلا يمكن القبض على هذه الاموال وحجزها او المطالبة باداء الضرائب عنها

ويلحق عادة بالممثلين السياسيين ملحقون Attachés يقومون ببعض الامور الخاصة كالملحق العسكري والملحق البحري والملحق التجاري وغيرهم وهم يؤلفون مع السكرتارية والممثل نفسه مايسمى بالهيئة الدبلوماسية Diplomatic Corp ويرأس الهيئات الدبلوماسية للدول في دولة ما « عميد » هو عادة اقدمهم عهداً في تلك الدولة وهو الذي يتكلم باسم الممثلين السياسيين في المناسبات الرسمية

ومن المعلوم ان وزير الخارجية هو حلقة الاتصال بين حكومة وأخرى ومرجع جميع السفراء او القناصل

القناصل موظفون معينون غالباً لحماية المصالح التجارية والاقتصادية لدولتهم في الدول الاخرى وتسهيل سبلها وتوسيع نطاقها

إن كلمة قنصل Consul تعني درجة واحدة من درجات التمثيل القنصلي ولكنها تستعمل احياناً للدلالة على الخدمة القنصلية بصورة عامة . والقناصل على درجات : (١) قنصل عام Consul-General (٢) قنصل Consul (٣) نائب قنصل Vice-Consul (٤) معتمد تجاري Commercial Agent وغير ذلك من الدرجات الفرعية الخاصة

إن اقدم القناصل عهداً هم الذين عيّنتهم كل من مدن جنوى وبيزا والبندقية وفلورنسة بين سنة ١٠٩٨ — سنة ١١٩٦ بعد الحروب الصليبية في موانئ ساحل الليڤانت والقسطنطينية وفلسطين وسوريا ومصر . ومهمة انتخاب القناصل لا تقل صعوبة ودقة عن مهمة انتخاب الممثلين السياسيين ، والشروط التي يجب ان تتوافر في الممثل القنصلي يجب ان لا تقلّ عن الشروط التي تتوافر في الممثل السياسي . وان اهم اعمال القنصل تقريرهُ الذي يرفعهُ الى وزارة

خارجية دولته باحثاً في الحالة الاقتصادية للدولة التي يمثل دولته فيها مقترحاً الطرق اللازمة لتوثيق العلاقات الاقتصادية بين الدولتين

والنمسا من الحكومات التي اعتنت اعتناء فائقاً منذ القدم بتدريب القناصل فلقد اسست الامبراطورة «ماريا تريزا» عاهلة امبراطورية النمسا والمجر المنقرضة ، في سنة ١٧٥٤ «اكادمية» لاعداد الموظفين للسلك الدبلوماسي وسميت بـ «الاكاديمية الشرقية» لشدة اهتمامها باعداد الموظفين في الدرجة الاولى للخدمة في الشرق . وكانت هذه الاكاديمية تعنى اعتناء فائقاً في تدريس اللغات الشرقية والتاريخ الشرقي

***

ان التطور الاقتصادي والتجاري والصناعي في القرن التاسع عشر اثر تأثيراً خطيراً في هذه المؤسسة فلقد تبدل اسمها في سنة ١٨٩٨ م فأصبح «الاكاديمية القنصلية» وأصبحت الغاية منها بوجهٍ خاص اعداد موظفي السلك القنصلي في امبراطورية النمسا والمجر

ولقد اعادت الجمهورية النمساوية الحديثة هذه المؤسسة على ان تقبل فيها (٥٠) طالباً فقط من اي جنسية كانت (ومن كلا الجنسين) وأصبحت تدار من قبل دائرة الشؤون الخارجية في الجمهورية النمساوية رأساً . وهي تقبل تدريس بعض العلوم بعدة لغات حيّة

والدروس التي تدرس في الاكاديمية كثيرة اهمها الاقتصاد السياسي والجغرافية التجارية والتاريخ الدبلوماسي والقانون الدولي وعلم المالية والخدمة القنصلية وعلم الاجتماع وفن الدعاية الصحفية والصحافة واللغتان الالمانية والفرنسية وبعض اللغات الاخرى

ولا يجوز للقناصل ان يمارسوا اعمالهم قبل حصولهم على ما يسمى بالبراءة Exequatur اللازمة من قبل رئيس الدولة التي يمارسون اعمالهم فيها . وكثيراً ما تعين الحكومات قناصل فخريين لدى الحكومات الاخرى وتمنحهم لذلك رتباً واوسمة

فؤاد جميل
عضو البعثة العلمية العراقية
بيروت (الجامعة الاميركية)

رجعنا الى الكتب الآتية في هذا البحث : —

(1) Treaties, their Making and Enforcement — Crandall.
(2) A Guide to Diplomatic Practice — Rt. Hon. Sir E. Satow.
(3) Diplomacy Old and New — George Young.
(4) This World of Nations — Potter.
(5) Diplomacy & the Study of International Relations—Heatley.

بحث تاريخي اجتماعي

تأثير انتشار الاوبئة في نفسية المجتمع

تعمل الكوارث الاجتماعية في نفسية الجماعات ما تعمله في نفسية الافراد . فهي تستثير اهواء الناس وتستفز هامن مكامنها ، وتظهر ما بطن من اخلاقهم وشعورهم بجلاء ووضوح ، فيصبح بعضهم مثالاً يحتذى في الاخلاص أو الوطنية ، ويخضع معظمهم للأهواء السيئة والصفات الرديئة . وهذه الصفات نفسها تبقى في الاوقات العادية خافية في مستقر النفس البشرية تخفيها عوامل التربية والوسط وروح المجاملة والعشرة

ففي وقت انتشار الطاعون على الخصوص ، سجّل المؤرخون في كتاباتهم التغيرات التي تطرأ على النفس البشرية ، والتي هي نتيجة طبيعية لاطلاق الافراد عنان اهوائهم امام الخطر الداهم . وهذه التغيرات كانت تعظم أو تقلّ وفقاً لكثرة انتشار الوباء أو قلته. فعندما يكون الوباء في اول انتشاره وضحاياه قلائل ، لا يهتم معظم السكان بالحالة . ولا يقلقون لها . بل ينكر حتى الاطباء انفسهم خطورتها ، ويتعامون عنه ويتحاشون ذكره أو الاشارة اليه . وعندما يشتد المرض نوعاً ما وينذر بالشر ، يصرّ بعض المكابرين ، على انه لم يصبح وباء . لانه لو كان كذلك ، لاهلك كل السكان ولم يبق على احد منهم . وهذا النحو من التفكير تمّ فعلاً أبان انتشار الطاعون في مرسيليا عام ١٧٢٠م. حيث كانوا يعللون المرض بمختلف العلل الغريبة وينسبونه الى قوم مخصوصين يدعونهم (ناشري الطاعون) Les sémeurs de peste. ومثال ذلك ما نقله الينا المؤرخ ثوسيديدس Thucydide ان الاعتقاد الذي كان سائداً هو ان (اعداء الشعب) كانوا يسممون الآبار التي يستقي منها الناس

ومما نقله المؤرخ ديون كاسيوس Deon Cassius الذي عاش في عهد الامبراطور (كومود) ان (ناشري الطاعون) كانوا يغرزون في اجسام المارة في الطرق العامة ابراً مسمومة ، تنشأ عنها الاصابة بالداء فالوفاة السريعة . وفي القرون الوسطى كان اليهود ومرضى الجذام Lépreux يتهمون علانية بتسميم الآبار ، وكانوا لذلك يحرقون احياء. ومن ذلك انهُ لما انتشر الطاعون عام ١٣٢١ لم يستثن من هؤلاء سوى النساء الحوامل و(اطفالهن) ومع ذلك كان يزج بهن في السجون وتوشم اجسادهن بالحديد المحمى . وظل التخوف من (ناشري الطاعون) على اشده عدة قرون ، وكانت ضحايا هذا التخوف عظيمة من اليهود ومرضى الجذام الذين كان ينسب اليهم ضمناً تركهم في منحنيات الشوارع لفافات من الورق بها صديد يحمل جراثيم الوباء وفي القرن السابع عشر تحوّل الاضطهاد عن هؤلاء الى الاجانب النازحين الى البلاد بدعوى

نشر المرض عمداً ، فكان يفتك بهم ويمثّل بأجسامهم شر تمثيل . ووصف « مزوني » Manzoni في قصته المسماة (Les fiancés) طرفاً من ذلك . ومما ذكره ابان انتشار الطاعون بمدينة ميلان عام ١٦٣٠م ان الخوف من الوباء بلغ من الاهالي حداً جنونيًّا حتى انهم كانوا يشكّون في ذوي قرباهم لان الاعتقاد كان سائداً ان بعضهم يريد الفتك بالبعض الآخر ليستولي على ثروته . فكانوا يهجرون بيوتهم هائمين على وجوههم واصبح هذا من اقوى الاسباب في انحلال الاسرة في ذلك العهد . ولم يسلم الاطباء انفسهم من شكّ المرضى فيهم فكانوا اذا دعوا لعيادة مريض يهانون واحياناً يرجمون بالحجارة . وكان من المعتاد ايضاً اذا حل الوباء ببلد أن يطلب القوم من الآلهة ان يجمع الداء كله في شخص فيُعدّ لذلك في احتفال كبير ثم يفتك به تطهيراً للبلد من الداء على زعمهم

اما رجال الدين فكانوا يرون في الطاعون مظهراً لغضب السماء فلكي يخففوا من وقعه كانوا يؤلفون مواكب دينية يسيرون فيها عراة الاقدام ، فكان ذلك يزيد في انتشار الداء بشكل ملموس عقب هذه المواكب مباشرة !! ومن هوس بعض الطوائف في ذلك الزمن سيرهم جموعاً في الشوارع العامة وهم يلطمون خدودهم ويضربون اجسادهم بسياط جلدية ، فتسيل منها الدماء غزيرة ، وكان ذلك على الخصوص ابان انتشار الطاعون الاسود في القرن الرابع عشر

وتسبب عن كثرة الموتى ، بساطة في اجراءات الدفن . ومما قاله ثوسيديوس Thucydide في هذا ان الناس كانوا لا يعنون بدفن موتاهم . فكانت الجثث تحرق اختصاراً للاجراءات .. وكثيراً ما كان الناس يهربون من البيوت تاركين الجثث فيها حتى تنتن وتتصاعد منها روائح كريهة . وندرَ وجود من يحملون الموتى ، فعهد باجراءات الدفن حينئذٍ الى طبقة من طغام الناس يدخلون البيوت التي عليها شارة الموت لنهبها وسلبها واغتصاب من وجد فيها من النساء

وكان الناس لا يقدمون على السير في الطرقات الا لقضاء حاجة ماسة وكان يغلب سيرهم وسط الطريق ليتحاشوا ملامسة احد ، حاملين معهم عصاة طويلة يسمونها عصى القديس روش Saint Roch لابعاد الكلاب وغيرها من طريقهم . وكان القوم ينشدون في مختلف اللذات ماينسيهم الموت الذي يهدّدهم ووصف Thucydide تلك الحالة النفسية قال : —

(وافرط كل فرد في طلب اللذة بدون حساب وهمه الوحيد التمتع بها في كل فرصة وباي ثمن حيث قد أثر في اعصابهم رؤيتهم الاغنياء بينهم يموتون فجأة تاركين الثروات الطائلة . والفقراء المعوزون وقد اصابوا الغنى الفاحش بدون مجهود وعن طريق الميراث كانوا ينظرون الى الثروة والمتاع ومختلف اللذات كشيء لن يتسنى لهم التمتع بهِ طويلاً لان الموت يتهددهم بين دقيقة واخرى فسعوا الى اللذات الجسمانية سعياً ليتمتعوا باوفر قسط منها . وقلما فكر واحد منهم في السعي لتحقيق غاية شريفة لانهُ لم يكن يدري ان كان الاجل سيمتد بهِ الى وقت يتمتع فيهِ بنتائج مسعاه . واصبح الجمع بين اللذة والمصلحة ديدن الجميع . فلا يأبهون

لغضب الآلهة ولا لصرامة القوانين. ومنذ ان رأوا الموت يحصدهم حصداً انعدمت في قلوبهم صفة الرحمة والمؤاساة والاخلاق الفاضلة على انهم كانوا يشكون في امتداد ايامهم الى ان تقتص السلطات منهم لما اقترفوا من ذنوب واتوا من آثام . وبات كل فرد على بينة من مصيره القريب فكان في شاغل عن كل شيء منصرفاً الى قضاء شهواته حيث كانت ومهما كانت)

وفي عصر النهضة أملت هذه النفسية نفسها — وهي التي كانت سائدة وقتئذ — على بعض الكتاب قصص بوكاتشو Boccacos المشهورة في التاريخ وما يماثلها من القصص المبتذلة لما حوته من المناظر الشائنة التي يندى لها جبين الادب حياء

ومما قاله المؤرخان دورنتي وجفارل Duranty & Gaffarel يصفان تلك الحالة النفسية التي طغت على عقول سكان مرسليا في طاعون سنة ١٧٢٠ ما يأتي : —

(استولى الرعب وحب الاستمتاع السريع على الاهالي من كلا الجنسين مما دفعهم الى اتمام عقد الزواج بكل معداته في مدى اربع وعشرين ساعة على الاكثر . فكانت الارملة التي لم تمضي على وفاة قرينها ايام قلائل ، تعقد زواجاً ثانياً ، ولما تجف دموعها بعد . وكثيراً ما كان ينزع الموت من احضانها زوجها الثاني ، فلا تحجم عن اختيار شريك آخر لحياتها . وكانت هذه الظاهرة الاباحية اكثر وضوحاً وابلغ اثراً في الطبقة الدنية من السكان ، ممن آلت اليهم الثروة عفواً بطريق الميراث بعد فقر مدقع . ونسي سكان مرسليا كل شيء في العالم وذهلوا عن كل شيء الا عن الزواج والافراط في اللهو والتمادي في الشراب بشكل منقطع النظير . واستمر التزاوج على هذا النحو — بدون تمازج بين الطرفين — حتى انه في مدى خمس سنوات من تاريخ الطاعون ، بلغ عدد المواليد حداً اصبح تعداد السكان بعده معادلاً لما كان عليه قبل انتشار الطاعون . وأصبحت مرسليا ، في فترة قصيرة ، مدينة للجمال والفن والاستمتاع ، وبلغت مبانيها مبلغاً عظيماً من الاتساع وتفنن سكانها في ارتداء الملابس الفاخرة واقتناء الكماليات ، فكنت ترى المحال التجارية غاصة بهم ينفقون فيها عن سعة ، وكنت تشهد المراقص تقام في المنازل والطرق العامة والابتهاج شاملاً عاماً ، كأن الناس قد نسوا ما حل بهم من النكبات وعوامل الفناء . ويمكن القول اجمالاً أن هذه النفسية هي بعينها التي شوهدت عقب انتشار الكوليرا في مرسليا عام ١٨٨٥ م واغرق الناس بعدها في اللهو والمجون

وهذه الظاهرة تغلب عند حلول الكوارث الاجتماعية الخطيرة ، فأن حرب سنة ١٩١٤ أوجدت في نفوس الملايين من الجنود تعطشاً غريباً لجميع وسائل الاستمتاع . واستهتاراً فاحشاً بالشرائع والقوانين حتى بعد وقف القتال . كما حصل بعد حكم الارهاب في فرنسا وقيام حكومة الادارة على انقاض الاشلاء والدماء

ابراهيم مراد ديان
ليسانس في الحقوق من جامعة باريس



كيف تصل لندن باكبر
مدن العالم اتصالا تلفونياً

المشهد الاول

في مكتب تحرير التيمس بلندن في يوم الجمعة ٧ يناير ١٩٢٧

جلس محرر التيمس في مكتبهِ بلندن واذا جرس التلفون يقرع في نحو الساعة الاولى والدقيقة الخمسين بعد الظهر . فرفع السمّاعة فسمع صوتاً يقول : انا ادولف اوكس صاحب جريدة التيمس النيويوركية . وكان المستر اوكس جالساً في مكتبهِ بنيويورك على نحو ثلاثة آلاف من الاميال وامامهُ صورة محرّر التيمس اللندنية لكي يرى الشخص الذي يخاطبهُ . وبعد ما تبادلا عبارات التحية والمجاملة المألوفة وصف صاحب التيمس النيويوركية ما في الولايات المتحدة الاميركية من ميل في الرأي العام الى اعادة النظر في مسألة ديون الحلفاء لاميركا . ثم وصف استنباطاً جديداً دعي بالصور المتحركة الناطقة فكانت هذه الرسالة وعدد كلماتها الانكليزية ٢٣٠ كلمة احدى الرسائل الصحافية الاولى التي ارسلت بالتلفون اللاسلكي بين لندن ونيويورك . وقد ردَّ عليها محرر التيمس اللندنية بكلمة تناسب المقام

وكانت ادارة التيمس اللندنية قد ابرقت الى مكاتبها النيويوركي لكي يعدّ رسالة تحتوي على نحو ٦٠٠ كلمة يمليها على احدى الكاتبات بالتلفون اللاسلكي لتنشر في الجريدة وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والاربعين قرع جرس التلفون في ادارة التيمس اللندنية فاذا مراسلها في نيويورك يخاطبها فاملى على احدى كاتباتها رسالتين مجموع كلماتهما ٥٦٧ كلمة في ست دقائق وهو الوقت المحدّد للمخاطبة . وبعد ما اتمّ املاء الرسالتين سأل رؤساءهُ في لندن هل سمعوا كل كلمة فاه بها ودوّنوها او يلزم ان يرسل الرسالتين بالتلغراف حتى تصحح فقالوا « سمعنا كل كلمة على ما يرام » وانتهت المخاطبة . وفي اليوم نفسهِ جرت محادثة تلفونية بين صاحب جريدة « الورلد » النيويوركية ومحرر « الديلي اكسبرس » الانكليزية . وبين مدير شركة التلغرافات والتلفونات الاميركية ومدير مصلحة البريد الانكليزية




لندن والعالم

ارتقاء المخاطبات اللاسلكية
بين عواصم الدنيا وغرائبها

المشهد الثاني

في مرسى ليكهرست بالولايات المتحدة في ١٥ اكتوبر ١٩٢٨

البالون غراف زبلن محوّم فوق مرسى ليكهرست بعد ما اجتاز المسافة بين المانيا والولايات المتحدة في احوال تسترعي الانظار والاسماع وبعد ما لقي في طريقهِ من العواصف والمخاطر ما بعث في النفوس القلق والروع وبعد ما ابدى ربّانهُ وابن ربانهِ وملاحوهُ من البراعة والجرأة ما ينزل من تاريخ الطيران في صفحة المجد . وعلى الارض جمهور من المتفرجين يحصى بعشرات الالوف انقضى عليهم ساعات وهم ينتظرون قدوم ملك الفضاء وقد عيل صبرهم فجعلوا يتدافعون حتى تخطوا الحدود التي عيّنها البوليس الاميركي . ولما اقترب البالون من الارض اندفع الجمهور كالتيار الجارف حتى كاد رجال الحفظ يعجزون عن صدّهِ عن اذية البالون . واذ الجمهور كذلك انسلّ منهُ شابٌ وعدا الى دكان قريب من المطير . لان الثانية في نظرهِ كانت بمثابة دهر وهو مكاتب صحافي ديدنهُ السبق في نقل الانباء . ودخل الى غرفة من غرف التلفون العمومي يشرف من كوّتها على المطير . وطلب باللغة الانكليزية شاكراً لربهِ المامهُ بها ، ان يتصل في الحال بمكتب المخاطبات الطويلة المدى . فلما اتّصل بهِ طلب ان يخاطب رقم S.N. ٦٨ برلين . وما انقضت عليهِ دقائق ست حتى سمع صوت زميل قديم لهُ يخاطبهُ من مكتب جرائد اولشتاين في برلين فهزّهُ الدهش والاعجاب حتى كاد ينسى غرض المحادثة . ولما افاق من حيرتهِ ودهشهِ املى على زميله وصفاً مسهباً لوصول الغراف زبلين الى ليكهرست ونزولهِ فيها سالماً والاستقبال العظيم الذي كان معدًّا لهُ . ومن مكتب شركة اولشتاين في برلين وزعت هذه الانباء على اشهر مدن المانيا ولم تلبث ان ظهرت طبعات خاصة من صحفها تصف باسهاب حادثاً تمّ في اميركا قبل ربع ساعة وصفاً نُقلت كل كلمة من كلماتهِ شفاهاً وكان الحديث ينقل والبالون لا يزال آخذاً في النزول الى الارض

المشهد الثالث

القاهرة تخاطب لندن في يوم الثلاثاء ٢٤ مايو ١٩٣٢

تحدث وزير المواصلات في الحكومة المصرية من داره بالزمالك مع المدير العام لمصلحة البريد بلندن في الساعة السادسة من مساء الثلاثاء ٢٤ مايو الماضي وتلاه صاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا رئيس مجلس الوزراء فحدث حافظ عفيفي باشا وزير مصر المفوض بلندن فكان الصوت واضحاً كلّ الوضوح بل كان اكثر وضوحاً منهُ بين متكلمين في مصر

وسوف يتاح لنا بعد ١٥ يونيو الجاري ان نجلس في مكتبنا بدار المقتطف ونمسك سماعة التلفون فنطلب من نشاء في لندن او منشستر او ادنبره ونتحدث اليهِ كأننا نخاطب صديقاً في القدس او الاسكندرية او الزيتون . هذا هو سحر العلم والاستنباط !

بين اميركا واوربا

افتتح الخط التلفوني اللاسلكي بين لندن ونيويورك في ٧ يناير سنة ١٩٢٧ وكان الناس لا يزالون في ريبة من صدق ما يدعيه المستنبطون حاسبين ان المخاطبات التلفونية اللاسلكية سحر الهي لا يكشف عن سره لابناء الارض . اما القائمون بالامر من رؤساء شركة التلغراف والتلفون الاميركية ومديري مصلحة البريد الانكليزي فكانوا يثقون كل الثقة بالنتائج التي اسفرت عنها مباحث العلماء والمهندسين وحسبوا ان غرابة الامر لا بدّ ان تبعث الناس على الدهش اولاً ثم على الاقبال على استعمال هذه الوسيلة الجديدة من وسائل المخاطبات

وقد صح فألهم . فان ٢٩٠٠ شخص في اميركا استعملوا هذا التلفون في السنة الاولى من انشائهِ . ثم اخذ العدد يزداد ازدياداً مطرداً حمل القائمين بأمره على تخفيض الاجور . فقد كان اجرة المخاطبة التي تستغرق ثلاث دقائق ١٥ جنيهاً مصريًّا في البدء فخفضت الى تسعة جنيهات . كذلك كان النجاح الذي صادفوه في هذا الضرب من التخاطب باعثاً لهم على توسيع نطاقهِ . فبعد ما كانت المخاطبات تجري بين نيويورك ولندن فقط اتسع نطاقها حتى صارت تشمل كل مدن الولايات المتحدة الاميركية وكندا والمكسيك وكوبا من جهة وكل مدن انكلترا الكبيرة وعواصم اوربا من جهة اخرى . وصار التخاطب بين شيكاغو وبرلين أو كوبنهاغن أو فينا او باريس امراً مألوفاً . وقراء المقتطف يذكرون ان الطيار لندبرغ تخاطب مع امهِ بعيد وصوله الى باريس طائراً من نيويورك وكانت هي في دترويت مدينة تبعد عن نيويورك نحو الف ميل . وقد وصف مدير التلفون في شركة التلفون والتلغراف الاميركية هذا الاتساع

معجم الحيوان

للفريق امين معلوف باشا

كان العلاّمة الدكتور امين معلوف باشا في طليعة العلماء العرب المعاصرين ، الذين عنوا بوضع معجم للحيوان ، يتوخى فيه ايراد الاسماء العربية مستخرجة من مظانها . مع ما يقابلها من الاسماء العلمية والاسماء السائرة في اللغتين الانكليزية والفرنسية

* * *

ونشر فصولاً كثيرة في هذا الموضوع في المقتطف في سنة ١٩٠٨ و ١٩٠٩ و١٩١٠ بعنوان « معجم الحيوان »

وقد قضى معلوف باشا العشرين السنة الاخيرة يدوّن في اوراقه كل شاردة وواردة يقع عليها في اثناء مطالعته ، ثم يحققها من الناحيتين العلمية واللغوية ويضيفها الى مجموعته . وقد صحت عزيمته الآن على اخراج كتاب جامع لاسماء الحيوان يشتمل على الاسم العلمي والاسم الانكليزي وما يقابلهما بالعربية وتحلية اشهر الحيوانات وصورها فيكون مرجعاً يليق بنهضة اللغة العربية في القرن العشرين

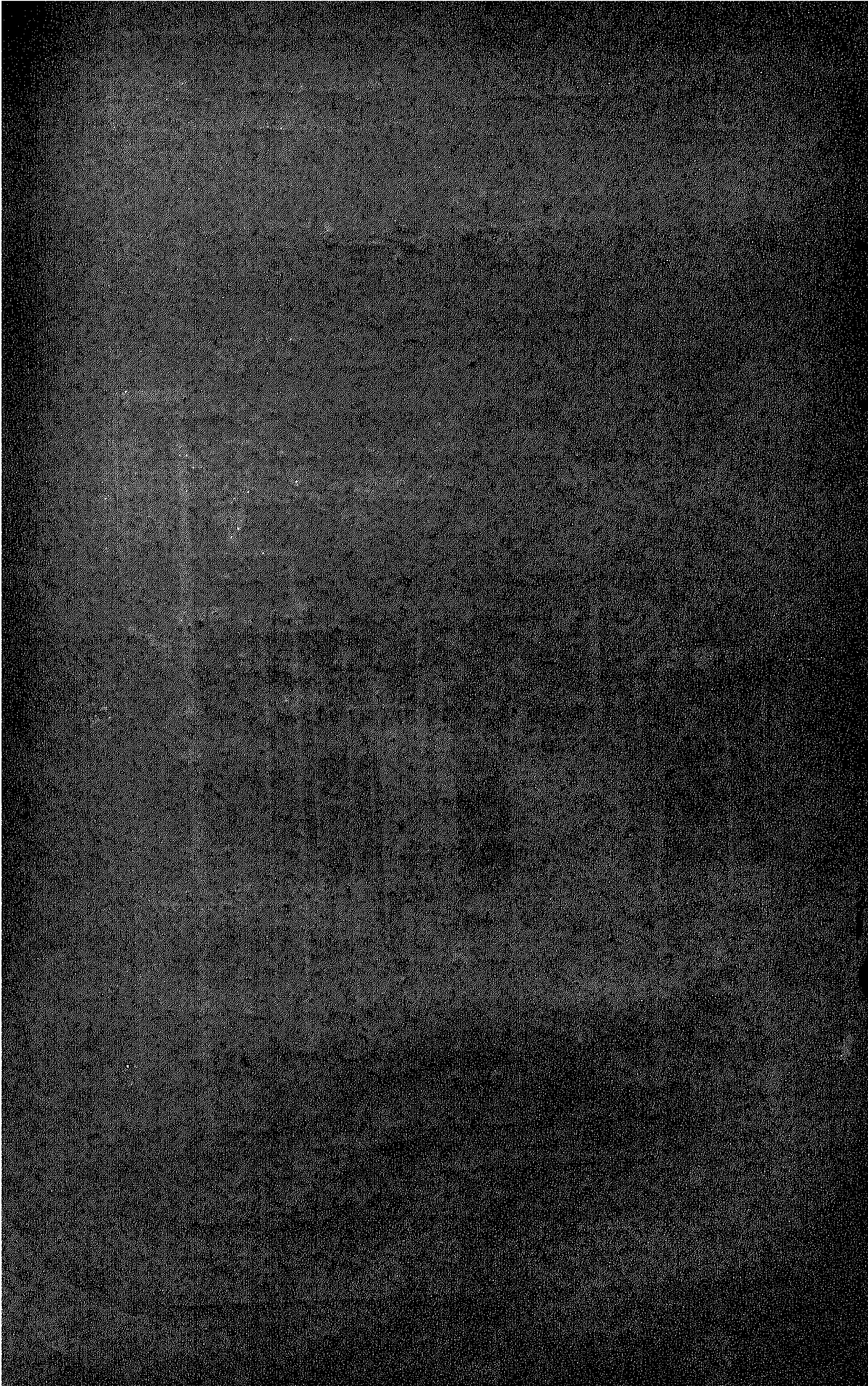
* * *

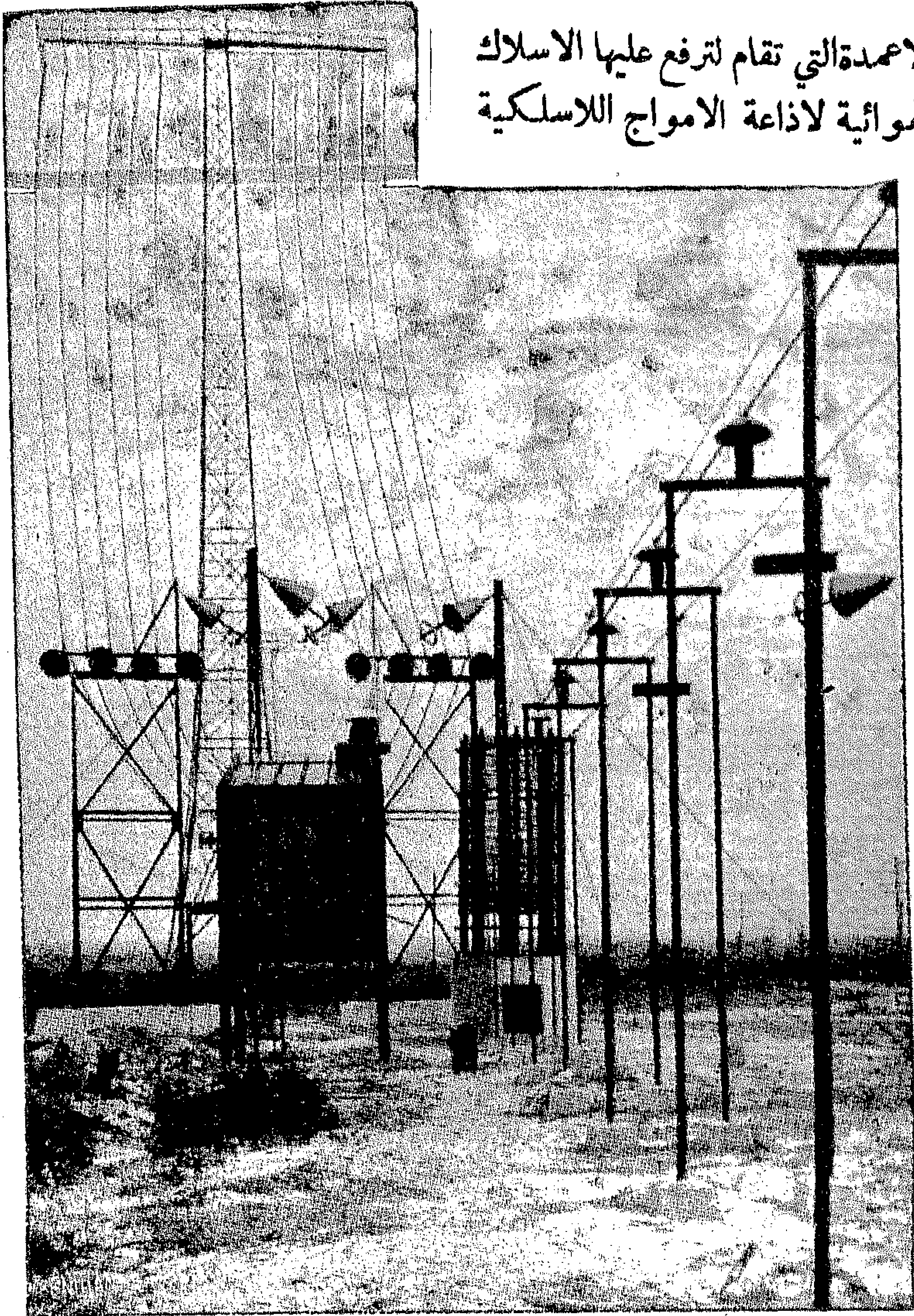
ويسرنا ان العلاّمة معلوف باشا قد عهد الى المقتطف في اخراج هذا السفر النفيس ، فرأينا ان نجعله هدية لمشتركي المقتطف عن سنة ١٩٣٢ — ولكنهُ لا يرسل الاّ الى كل مشترك يسدد حسابهُ

* * *

ولسنا نبالغ اذا قلنا ان هذا الكتاب سوف يكون علماً في طريق ارتقاء اللغة العربية العلمية . وثمنهُ بعد توزيعهِ على المشتركين المسدّدين خمسون غرشاً صاغاً . ولا يبعد ان يصبح من الكتب النادرة في خلال سنتين ، لان العدد المطبوع منهُ محدود

Al-Muktataf



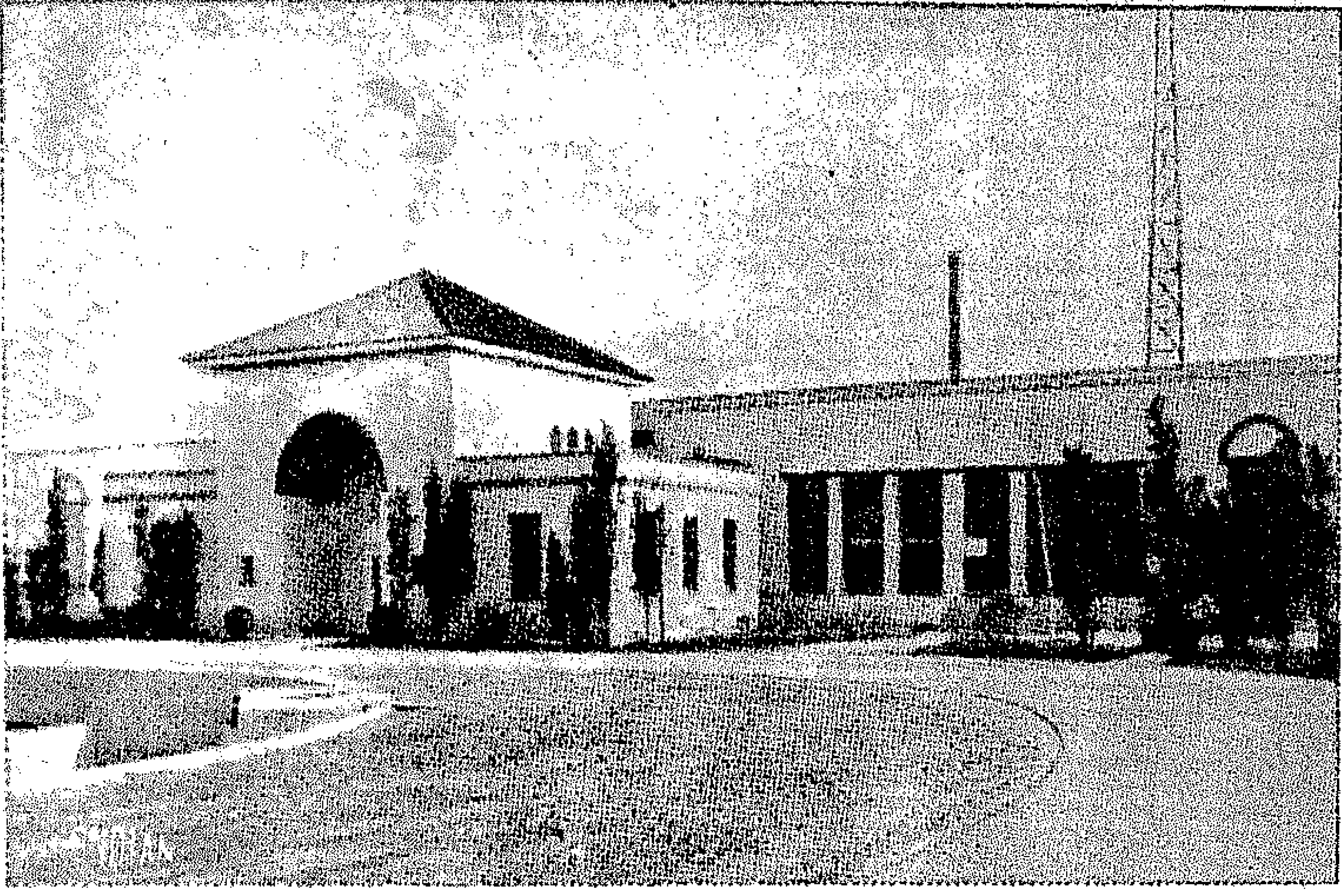


الاعمدة التي تقام لترفع عليها الاسلاك
الهوائية لاذاعة الامواج اللاسلكية

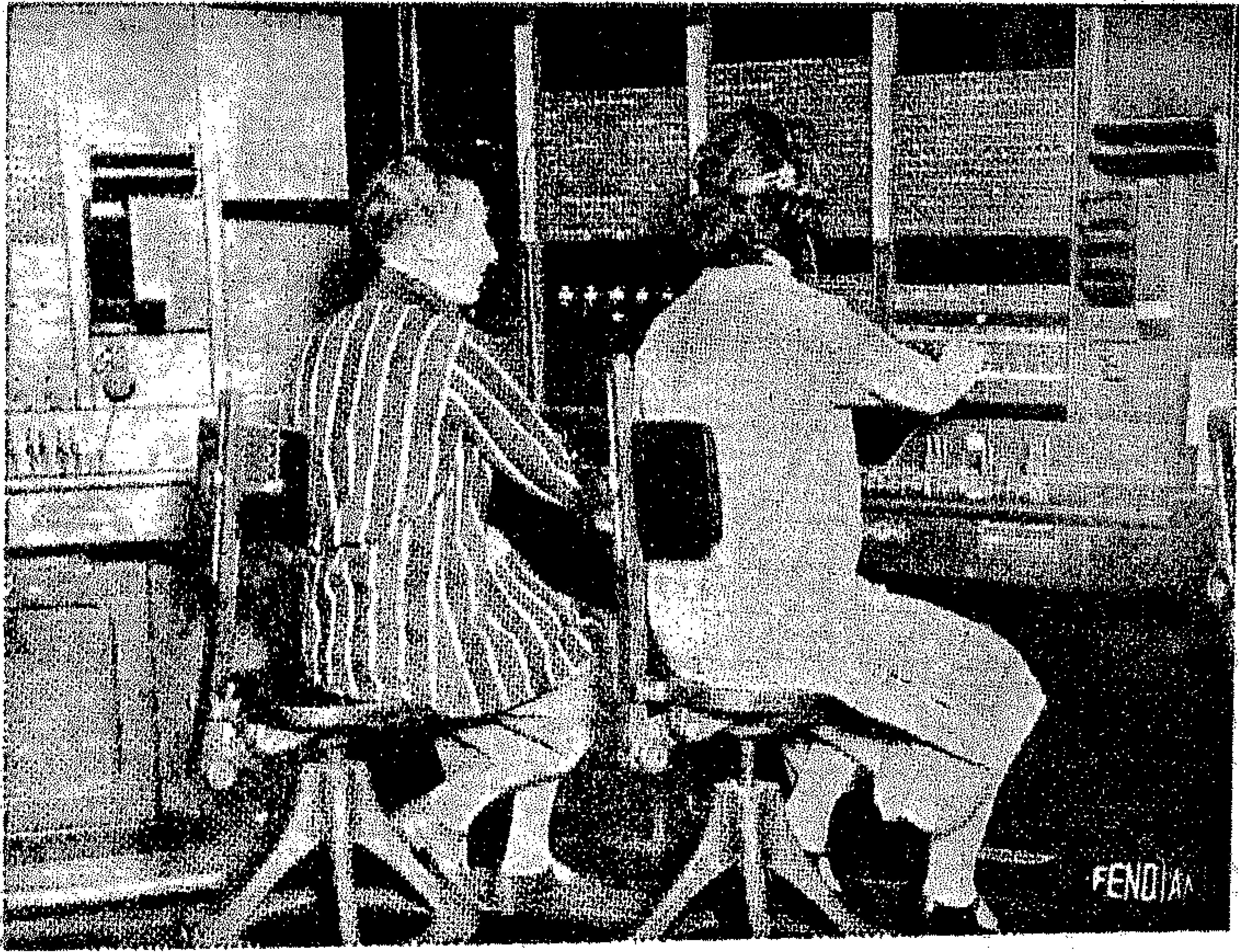
المحطة اللاسلكية المرسلة رُكي بوينت قرب نيويورك

مقتطف يونيو ١٩٣٢

امام الصفحة ٨٠



محطة ارسال المحادثات التليفونية اللاسلكية قرب نيويورك



مركز (سنترال) التليفون اللاسلكي في مكتب المحادثات البعيدة بلندن

مقتطف يونيو ١٩٣٢

امام الصفحة ٨١

فقال: ان في الولايات المتحدة الاميركية نحو تسعة عشر مليوناً من التلفونات وكل واحد صار يستطيع ان يتصل بأي تلفون من تلفونات العالم القديم وعددها نحو ثمانية وعشرين مليوناً!

وقد اتسع هذا النطاق حديثاً حتى شمل القسم الغربي من شمال افريقية — وقريباً يشمل مصر — ومدن اميركا الجنوبية كما عم منذ عهد قريب مدن استراليا

***

ايدري القارىء ما يعني كل هذا التقدم؟ انك تستطيع ان تتخاطب وانت جالس في مكتبك أو دارك او ناديك مع من شئت سواء كان في لندن بانكلترا او بونس ايرس بالارجنتين او فينا بالنمسا او استوكهلم باسوج او سدني باستراليا او تونس بالجزائر. وكل هذه المخاطبات على جانب عظيم من الكتمان لان التلفونين اللاسلكي والسلكي يشتركان في ارسالها واذاعتها واستقبالها. فاذا التقطت الامواج الاثيرية سارت على سلك خاص يوصل الكلام الى سماعتك الخاصة وللكتمان جهاز خاص لا يزال امره سرًّا مكتوماً

كيف تجرى المخاطبات

هبك في شيكاغو وتريد ان تخاطب صديقاً او عميلاً لك في فندق سافوي بلندن. فتتناول سماعة تلفونك العادي وتطلب من عاملة التلفون التي تجيبك ان تصلك بالمكتب الخاص بالمخاطبات البعيدة فتقول للعاملة في هذا المكتب اريد ان اخاطب فلاناً في فندق سافوي بلندن. فتفتح الطريق التلفوني امامك الى نيويورك كما تفتح الطريق امامك عاملة التلفون بمصر حين تخاطب الاسكندرية او بيت المقدس. وحالما تعلم عاملة التلفون في نيويورك انك تود ان تخاطب لندن تحول صوتك الى القسم المختص بذلك في مكتب نيويورك ومنهُ ينتقل صوتك على اسلاك التلفون السلكي مسافة ٧٢ ميلاً الى المحطة اللاسلكية القائمة في مكان يدعى « رُكي بوينت » على مقربة من مدينة نيويورك. في هذه المحطة يقوَّى الصوت ويتحول الى امواج لاسلكية قوية بواسطة انابيب مفرغة معدة لذلك. ثم يبعث في الاسلاك الهوائية التي يبلغ طولها ميلان ومنها يذاع في الجو امواجاً لاسلكية تجتاز الفضاء بسرعة النور. اي بسرعة ١٨٦ الف ميل في الساعة. على ان هذه الامواج تضعف كثيراً في اجتيازها الفضاء بين اميركا وانكلترا ولكن ما يبقى منها تلتقطهُ الاسلاك الهوائية في محطة الاستقبال الانكليزية القائمة في بلدة كوبار بشمال اسكتلندا وهناك تقوَّى وتحول الامواج اللاسلكية الى تيار تلفوني سلكي عادي وترسل على الاسلاك العادية الى لندن. ومثل كل محادثة تلفونية عادية ينتقل الصوت الى صديقك في فندق سافوي

ولكن حين يردُّ عليك صديقك لايتبع صوتهُ الطريق التي جاء عليها صوتك . ذلك انهُ متى رد عليك ينتقل صوتهُ الى السنترال اللندني ومنه لا يرجع الى كوبار حيث التُقِط صوتك بل يذهب الى سلك تلفوني عادي الى محطة قريبة من لندن تدعى محطة «رجبي» ومنها يذاع امواجاً لاسلكية كما اذيع صوت صديقك من محطة « ركي بوينت » وحين يصل صوتك الى اميركا تلتقطهُ محطة اخرى في بلدة هولتن بولاية ماين وهناك تقوى امواجهُ وتبعث الى نيويورك على سلك تلفوني طوله نحو ٦٠٠ ميل ومن نيويورك تنقل الى شيكاغو مثل كل محادثة تلفونية بعيدة المدى

فلدينا اذاً اربع محطات لاسلكية الاولى محطة ركي بوينت ومنها يرسل كلام الاميركي ومحطة كوبار باسكتلندا التي تلتقط هذا الكلام . ثم هناك محطة رجبي قرب لندن التي ترسل كلام المحدث من فندق سافوي الى اميركا فتلتقطه المحطة الاميركية التي في هولتن بماين

والغريب العجيب في امر هذه المحطات كلها انها بلغت من الدقة والانتظام والسرعة في اذاعة الكلام واستقباله حتى لتشعر وأنت تحدث شخصاً يبعد عنك الوف الاميال وتفصله عنك بحار وقارات كأنهُ على مقربة منك يحدثك من غرفة مجاورة

غرائب المحادثات

كان عدد الذين استعملوا التلفون اللاسلكي بين لندن ونيويورك يوم افتتاحه الاول ٣٥ شخصاً . ولكن هذا العدد قد تضاعف الآن منذ اتسع نطاق المخاطبات حتى صار يشمل اشهر مدن اوربا واميركا ومنذ خفضت اجورها واستنبطت طريقة لكتمانها . فمتوسط عدد الذين يستعملون هذه الطريقة من طرق المخاطبات كل يوم سبعون شخصاً ، ستون في المائة منهم يستعملونها لاغراض تجارية ومالية واربعون في المائة لاغراض اجتماعية . وأول صفقة تجارية عقدت بالتلفون اللاسلكي كانت بين شركة انكليزية وشركة اميركية فاشترت الاولى من الثانية مقداراً كبيراً من الخشب

ولما ثبت ان هذه الوسيلة الجديدة من الوسائل التي يصح الاعتماد عليها اقبل الناس عليها اقبالاً عظيماً . فعقد مجلس الادارة في احدى الشركات البريطانية جلسة اصغي فيها الى خطبة خطبها رئيسهُ وهو جالس بمكتب في نيويورك . وعقدت احدى شركات البترول قرضاً قدره خمسة ملايين ريال لاحد فروعها وكانت الرسائل قد عجزت عن ازالة سوء التفاهم الذي نشأ فازالهُ حديث استغرق بضع دقائق . وعرف رجل بنيويورك ان صديقة لهُ عملت لها عملية في لندن فتكلم مع احد بائعي الازهار وطلب اليهِ ان يرسل اليها طاقة من الورد . واشترك المستر روزنباخ

الاميركي المشهور بجمع الكتب النادرة بواسطة احد عملائهِ في مزاد للكتب اقيم في لندن فكان هو يكلم عميلهُ من سريره بنيويورك وعميلهُ يزيد على المعروض ثمناً لكتاب قديم واخيراً دفع ثلاثة آلاف جنيه وفاز بهِ . وتكلم احد ناظمي الاغاني الذائعة مع مغنٍّ فاملى عليهِ اغنية جديدة نظمها ولحّنها فدفع اجرة المحادثة مائة وخمسين من الجنيهات . ولما شاع ان المس هلن ولز لاعبة التنس المشهورة قد عقدت خطبتها حادثها احد مكاتبي الجرائد الانكليزية من لندن وكانت هي في سان فرنسسكو فأيدت الخبر

واطول محادثة تلفونية بين لندن ونيويورك استغرقت خمساً وتسعين دقيقة بلغت أجرتها ٢٨٥ جنيهاً ويقال ان المستر دورانت أحد كبار المثرين الاميركيين ومن اكبر المساهمين في شركة جنرال موترز دفع في اسبوع واحد وهو مصطاف بانكلترا خمسة آلاف من الجنيهات اجرة لمحادثاته التلفونية مع نيويورك . وقد كان الغرض من هذه المحادثات الوقوف على حال السوق المالية في وول ستريت . وفي احد الايام ابتاع وهو جالس بسريره في فندق بلندن ما قيمته مليون ومائتي الف جنيه من الاسهم

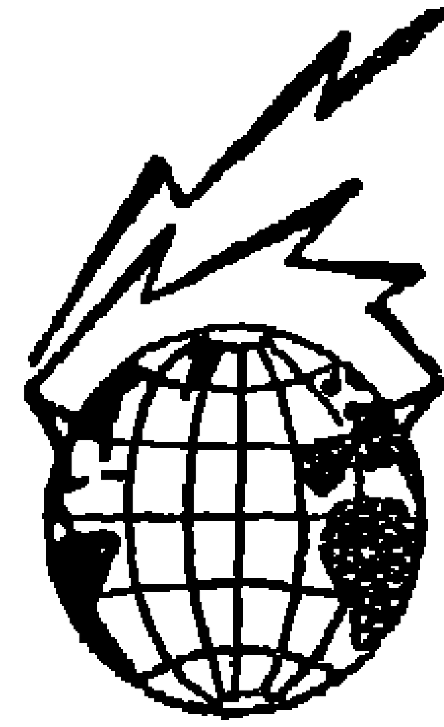
***

وتدبير هذه المحادثات عمل شاق . هب ان رجلاً في نيويورك يريد ان يحدث سيدة في لندن في الساعة السادسة مساء بحسب وقت لندن . فعاملة التلفون في نيويورك تحادث عاملة لندن اولاً وتطلب اليها ان تتثبت ان هذه السيدة مستعدة لمخاطبة هذا الرجل في الساعة المعينة فتكلم العاملة السيدة بالتلفون وتخبرها بذلك . فاذا قبلت فبهِ . واذا تعذر عليها ذلك طلبت اليها ان تعين ميعاداً آخر وتخبر به عاملة نيويورك لترى هل هذا الميعاد يوافق المتكلم من نيويورك وهكذا . اذ لا يخفى ان نجاح هذه المحادثات لا يتم الا اذا خاطب الانسان من يريد مخاطبتهُ . فيقع على مكتبي التلفون عناء الجمع بين المتخاطبين على بعد الدار واختلاف الساعة بسبب اختلاف خطوط الطول

وكثيراً ما تضطر عاملات التلفون ان تتعقب الشخص المطلوب تعقب رجال البوليس السري وفي ذلك تحتاج الى أوفر نصيب من طول الاناة وسرعة الخاطر

فقد حدث مرة أن طلبت سيدة امريكية في لندن للتحدث مع سيدة اخرى من نيويورك فبحثت عاملة التلفون في الفندق الذي تقيم فيهِ هذه السيدة فقيل لها انها ذهبت تبتاع ما يلزم لها من شارع ريجنت . فاتصلت بكل مخزن من مخازن ريجنت ستريت المشهورة تسأل عنها حتى عثرت عليها وكانت تهم بدفع النقود ثمناً لما ابتاعتهُ فانتزعتها من مكانها وجعلتها تكلم نيويورك من غرفة تلفون في المحل عينهِ

وتعقبت عاملة أخرى رجلاً من باريس الى انڤرس الى مونت كارلو الى برلين. ولما عثرت على الفندق الذي قيل لها انه يقيم فيهِ في برلين طلبت ان تحدثهُ فقيل لها انهُ ذهب الى مطعم كذا لتناول العشاء فعثرت عليهِ هناك ودعتهُ الى التحدث مع رجل طلبهُ من فيلادلفيا. وطلب مرة اخرى رجل ظهر لدى البحث عنهُ في داره انهُ ذهب الى دار الاوبرا بكوفنت جاردن بلندن فبحثت عاملة التلفون عن رقم كرسيهِ ودعتهُ الى غرفة التلفون في دار الاوبرا نفسها فتكلم مع شيكاغو. وطلب مرة رجل آخر فبحث عنهُ في داره فلم يعثر عليهِ وبعد البحث عنهُ تعقبتهُ عاملة التلفون الى فوكستون وهو على وشك الابحار منها الى فرنسا فتكلم مع نيويورك وما كاد ينتهي حتى كانت السفينة قد اخذت تقلع من المرفإ فعدا حتى بلغها



***

منذ نحو سبعين سنة نقل سلك التلغراف الذي مدَّ في الاقيانوس الاتلنتيكي اول رسالة تلغرافية ارسلت من اوربا الى امريكا. وكانت من الملكة فكتوريا الى الرئيس بوكنان الاميركي وكانت كلماتها تسعين كلمة استغرق ارسالها نحو ساعة ونصف ساعة فصرَّح برايط احد زعماء الاحرار البريطانيين في ذلك العهد « ان السلك التلغرافي قد قرَّب العالم الجديد الى العالم القديم ». وانقضى على تلك الرسالة ١٨ سنة فاقيم معرض فلادلفيا سنة ١٨٧٨ فعرض فيهِ الكسندر غراهام بل تلفونهُ الاول وتكلم بهِ مع السر وليم طمسن (لورد كلفن بعدئذٍ) على مسافة قصيرة فدهش السر وليم لهذا الاستنباط العجيب بعد ما مرَّ بهِ اولاً مرَّ الكرام. ولكن السلك التلغرافي والتلفون العادي اجسام ترى وتلمس فما اعظم الدهشة التي تتولى الناس الآن وهم يتخاطبون على مسافة آلاف من الاميال من غير اسلاك في البحر أو على اعمدة في الهواء. بل وفي الامكان الآن ان يتحدث الرجل المسافر على باخرة في عرض البحر أو المتطي منطاداً محلقاً في الفضاء الى رجل آخر جالس في مكتبهِ في احدى المدن

وادهى من ذلك ان الكومندر برد الرائد القطبي تمكن من أن يحلق بطيارتهِ فوق الاصقاع القطبية وفيما هو محلق بها تمكن من مخاطبة نيويورك مخاطبة تليفونية وهي على نحو ١٠ آلاف ميل منهُ. كل ذلك والاصوات تسمع واضحة ونبراتها جلية كل الجلاء. لقد اصبح انتقال الصوت سريعاً كانتقال النور وتفوقت الحقيقة على بنات الخيال. كنا بالامس نستعمل الاشارات للتفاهم وها نحن اليوم نتخاطب وغداً ننظر بعضنا بعضاً وجهاً لوجه. فماذا يفصل بين الناس بعدئذٍ وعجائب المواصلات والمخاطبات قد جعلتهم امة واحدة!

انطاكية ومشاهدها الفاتنة

... ولما استقرّ بنا النوى ، والقينا عصا التسيار في مدينة انطاكية عاصمة سوريا القديمة، نظم شملنا في تلك الديار ، خرجنا ذات يوم الى شلالات « دفنه » لنستمتع بمشاهدها لُمعة عند طلوع الفجر

وغدونا مع الطير فاذا جوٌ بارد يلفح الوجه وينسيك انك في اواسط يوليو ، ومضت سيارة بنا حتى بلغنا الشلالات فاذا ضاحية كأحسن ما نعرف من المصايف موقعاً ، يشرف بها الجبل وتجري من تحتها الانهار ،ويتردد فيها هواء خفيف ولكنهُ ممتلىء حياة ونشاطاً، ذا انت اقدر ما تكون على الحركة ، واذا انت اقدر ما تكون على التفكير واشوق ماتكون اليهِ

حيث الضحى متساكب كطلى بكف مشعشع
والجو عــلاه نسا لات البروق اللمع
والريح تحضن آخر النغـماتِ حضن المرضع
وتقصف الاغصان شبه تقصف في اضلعي

وشلالات دفنه نزهة من النزه عند من يشوقهُ جمال الطبيعة ، فالمياه هنالك تنحدر من نم الجبال مارة بين الصخور الدهرية ، والهيا كل الحجرية التي لم تستطع عناصر السماء ان تمحو نتأة من رؤوسها في جيل من الاجيال

ومضت ردحة من الزمن وانا مستلق على العشب المنضد المبسوط انظر في ذهول الى تلك الآكام الصخرية الراقدة في سفح جبل متشامخ نهض متفرعاً متسلسلاً . ولكني لم البث ان استيقظت على اغاني الطير فوق الاغصان البعيدة ، فاستويت جالساً وعند ذلك بصرت بنفسي بين مياه تنساب من هنا وهنالك بين الصخور ، تحيط بي آكام شاهقة تطاول الفضاء ، وانا في وادٍ يجري شرقاً وغرباً ، ممتلئاً نوراً ، نور الصباح الزاهر ومشرق الشمس الضاحية ، ثم لاحت لي وديان اخرى عظيمة كاختها ، وراء المياه المنسابة المتدفقة ،وفي منحدر هنالك وجدت طريقاً ضيقاً تتساقط عنده رشاشات الماء ، فعدلت اليهِ ومضيت فيهِ وبلغت بعده الى آكام اخرى معتزلة صغيرة ، فتسلقتها واذا بي في سفح منحدر فرعت عنده الاشجار، وطالت الدوح ، وأينعت الاغصان، فهبطت مولياً وجهي شطر الوادي ، اذ رأيتهُ قد تفتح على مراعٍ ناضرة ، وقد وقفت الشمس المشرقة عن مواجهة الوادي ، وتبددت في جوف الفضاء اغنيات

الطير . يا لله ما أروع وما أبدع هذه المشاهد ! فالآكام والوديان مرعى النضر ازهر ، ريان منتعش ، تشرق فيهِ ازهار حلوة تدل على مهارة في الزرع ، وحذق غريب في الحرث والحصد، وحول هذه الاودية اسوار عالية من الصخور ، وغدير تنساب مياههُ في قطع المرعى واجزاء الحقل ، وفي الربى العالية تمرح الماشية وترعى على مقربة من اعطان لها ومرابط

وكنت كيفما سرت وانّى اتجهت ارى جماعة من النساء والرجال وجلّهم من سكان حلب وغيرها قصدوا الى هنا للاصطياف جلوساً وجثوماً على اكداس من العشب كانهم يتقيلون في ابعد حدود المرعى وعلى مقربة منهم طائفة من اطفال الفلاحين وقوفاً متكاسلين ينتظرون البقشيش. ويمشون بعضهم في إثر بعض مشية رفيقة بطيئة وفي كل خطوة يتثاءبون كقوم اقاموا الليل سهراً وسمراً

وقد قضيت وصحبي النهار كله جرياً ووثباً في احضان تلك الطبيعة المشرقة الضاحكة ادور في جلال الربى والجبال ، وانقل عيني بين محاسن الكون ومباهيه ، واتأمل حمرة الشفق المترامية فوق الربى البعيدة، والمراعي النضراء مرخياً العنان لخواطري ، مسترسلاً في تفكيري حتى اخذ الهواء يبرد والظلام يعم الكون. وعدنا بعد ذلك الى المدينة وكانت اشعة القمر الحلوة قد بدأت متلألئة في جلال ووقار وضياؤهُ المزهر الباهر قد غمر الربى والوديان

وبعد ان صرفت اسبوعاً كاملاً في انطاكية قمت برحلة الى « بتياس » فركبت سيارة أقلتني اليها بعد ان اجتازت في طريقها سهولاً منبسطة لا ينحط النظر على مشهد أروع منها ولا أبدع وبعد ان تسلقت جبالاً خضراء مزهرة ، يداعبها النسيم المعطر بشذي الرياحين ، تمتد على جانبيها سهول مترامية تتخللها جداول بهية المنظر

وتقوم بتياس على مرتفع الف وخمسمائة متر من البحر ، وترقد في ظل خمائل فاتنة على خرير الجداول المنسابة بين الربى والبساتين ، تكتنفها جبال لا تكاد العين تتبين قممها لشموخها ، وأمامها واد ممتد تقوم على اكتافهِ من الناحية المقابلة قرية « حاجي جبلي » مترامية بين غدران منسابة من هنا وهناك ، وقد استغرقت الطريق من انطاكية الى بتياس ساعة من الزمن

وفي بتياس فندق جميل الموقع . وقد رأيتهُ غاصاً بالمصطافين وجلّهم من اهالي حلب الشهباء ، وفيها مقاه بديعة تشرف على الوديان والسهول ، وترقد في ظل اشجار ساجية ملتفة . وكان بين اصدقائي نفر من الادباء الظرفاء يميلون الى الغناء ويتعشقون قصائد شوقي التي ترنم بها الاستاذ عبد الوهاب ، فطلبنا الى صاحب المقهى — وهو ارمني — ان يسمعنا شيئاً من اغاني عبد الوهاب ففعل، وكذلك طربنا في رؤوس الجبال وفي القرى الارمنية النائية بشعر شوقي، وسمعنا عبد الوهاب ينشد على لسان المجنون « تلفتت ظبية الوادي . . » وسمعناه ينشد كذلك على لسان انطونيو « الحياة الحب والحب الحياة » وهكذا قضينا يومنا على خير ما يكون

وقد انسللنا الى ينبوع في اعلى الاكمة المقابلة يتفجر من شق صخرة عظيمة ، وشاهدنا

في مكان معتزل قصي الى يمين هذا الينبوع حيث النرجس البهي ، والزنبق المفراح ، بقايا كنيسة قديمة يرجع بناؤها الى عهد الرومانيين ، ولما اخذت الشمس تهوي في اعماق المغرب غادرنا بتياس الى انطاكية

ولما كان الغد قمنا الى قرية « خدرباك » وكان الصباح الزاهي ينشر في السكون، ويبسط كالملائكة اجنحته الهفهافة ، فبلغناها في ساعة ونصف ، وهي قرية جميلة قائمة على هضبة تمتد امتداداً مستطيلاً حتى تعترضها هضبة ثانية تقوم على اكتافها قرية « يوغون اولوق » وقد نزلنا عند ينبوع مياه غزيرة في منخفض من الارض عند مدخل خدرباك ، وهناك توسدنا العشب الاخضر المزهر الذي يحف بجوانب الينبوع ، وأخذنا نرتشف المياه العذبة الباردة ثم اكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً ، وعند الاصيل غادرنا خدرباك في ركب حافل الى السويدية فبلغناها في مدى عشرين دقيقة . والسويدية قرية كبيرة تحتوي على مزارع واسعة فيها الذ انواع الفاكهة ، وهي ممتازة بتربية دود القز وفيها معامل كبرى للحرير ، وبعد ان اقمنا فيها برهة قصيرة انحدرنا الى شاطىء البحر وجلسنا في مقهى صغير الى جانب مزار « الخضر » وهو مزار قديم يحج اليهِ طوائف الناس من القرى النائية وينذرون له النذور ويقدمون القرابين . واستطعنا هناك ان نشهد الشمس تسحب ذيولها الشفافة وراء الافق الارجواني منصتين الى هدير الامواج المتلاطمة الصخابة الداوية ، وهي تغسل اقدام « الجبل الاقرع » المشرف على سلسلة منتظمة من الاكمات الرمادية اللون

وفي المساء عدنا الى انطاكية مجتازين تلك المزارع الواسعة والخمائل الجميلة التي يتأرج منها عرف طيب كعرف اللبان

وبعد هدنة قصيرة الامد قمت في نفر من الاهل الى « اليايلا » وهي مزرعة بديعة تنهض على هضبات عالية تشرف على بسيط من الارض مكسو بالاعشاب السندسية ، وفيها ينبوع ماء عذب ينبجس من الصخر ، وقد استقبلنا في خمائل تلك المزرعة نفر من المعارف ، وبعد ان استرحنا طفنا بين المزارع النضرة وفي بهرة الحقول الصامتة الساكنة ، ثم عدنا نلتهم صنوف الطعام اللذيذ ، ونحن جلوس الى مائدة مستطيلة تحت الاشجار الساجية

وعند الاصيل غادرنا « اليايلا » الى « الاوردو » فاجتزنا في طريقنا الصخرية غابات الصنوبر، واحراج السرو والشربين يفوح منها شذى طيب يمتزج برائحة الصخور والتراب منصتين الى زقزقة العصافير ورجع اسراب القمري والحجال وهي تأوي الى اعشاشها وراء مكسر الصخور

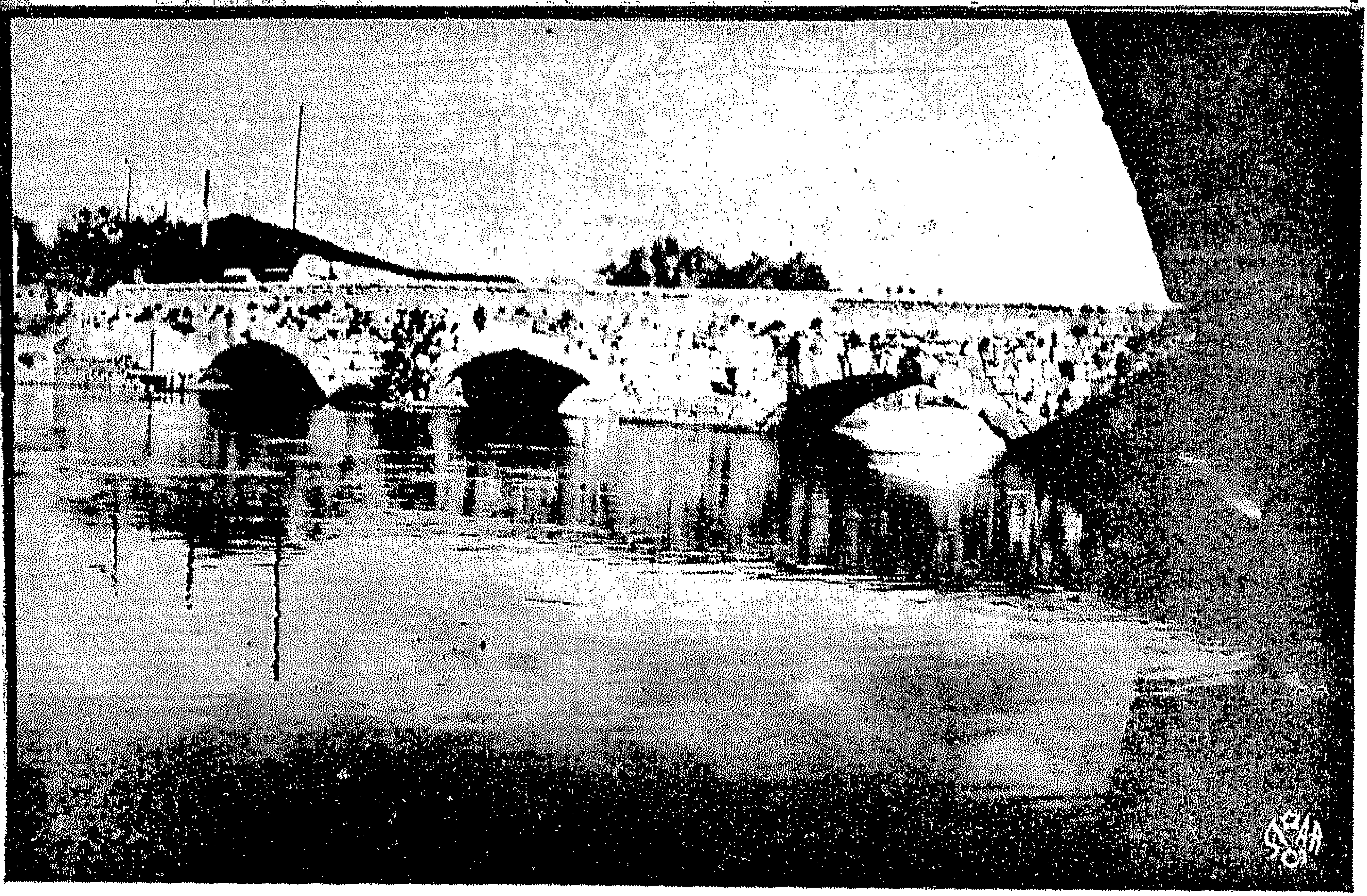
وقد قضينا ليلتنا في « الاوردو » فوق سطح منزل من المنازل الممتازة لقوم كرام ، وشهدنا القمر بازغاً من وراء الجبال مشرقاً متهللاً ، هذا ونسمات الليل الفاترة العليلة تهب حاملة من مجامير الحقول والاودية رائحة عطرية زكية ، وشاهدنا في الصباح مراعي « الاوردو »

الخصيبة تنساب اليها الماشية وقد اخذ الراعي يترنم بزماره الشجي ويرتل اناشيد قروية مطربة. على ان السيد « نوري » أبى الاّ ان نواصل السير في الطريق الجبلية المؤدية الى اللاذقية ففعلت على مضض ؛ وما كادت السيارة تبتعد بنا قليلاً حتى رأيت ان الحق في جانبهِ ، وان جولتنا في هذه الطريق الجبلية جولة رائعة ، فقد شاهدنا محاسن فاتنة ، لا تقع العين على اروع منها ولا أفتن ، فهذه مناظر الربى والآكام المزهرة ، والوديان السحيقة المخضرة ، وغابات الصنوبر وكروم الزيتون ، وحقول التوت ، وزرقة البحر الصافية التي تتراءى من بعيد ، والمغاور الصغيرة المنبثقة من اصلاب الصخور ، كل هذه المفاتن والمباهج كانت تبدو لنا في لمحة عين فلنتفت يمنة ويسرة مذهولين مأخوذين كاننا في حلم رائع جميل . على اننا ما عتمنا ان عدنا الى الاوردو لنجتمع بافراد عائلتنا الذين صحبونا في رحلتنا ونتناول معهم طعام الغذاء

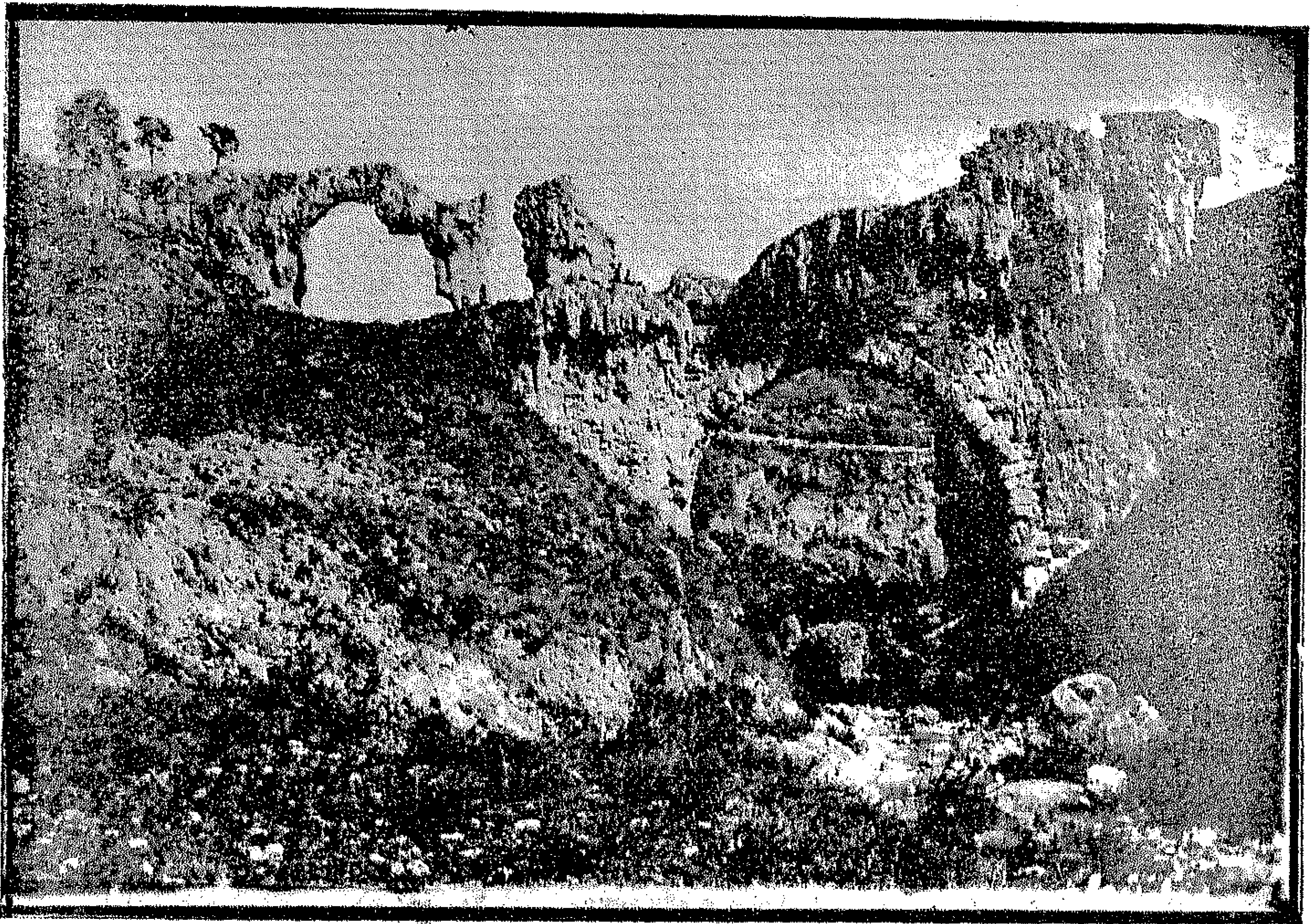
وعند الاصيل اخذنا نتسنم الروابي النضرة القائمة قبالة الاوردو ونستمتع بجمال الطبيعة الفاتنة ، ثم ركبنا سيارة اقلتنا الى « كسب » بعد ان اجتزنا طريقاً وعرة تكتنفها من الجانبين آكام صخرية ، وقد لبثت السيارة نحو اربعين دقيقة تارة تنحدر وطوراً ترتفع نافذة من بين الربى والجبال ، منزلجة مع المنحدرات هاوية ، وتقوم قرية كسب على مرتفع الفي متر من البحر وهي ابدع قرى تلك الضاحية وأفخم مصايفها بلا منازع

وعند وصولنا الى كسب ترجلنا واخذنا نمشي في طرق ضيقة بين المزارع ، حتى وصلنا الى مرتفع يشرف على القمرية با كلها ، تنهض حوله كنيسة أثرية جميلة لاخوة القبر المقدس ، وقد طفنا ارجاء هذه الكنيسة صحبة قسٍّ اصبنا فيهِ رجلاً حديثاً ظريف المحاضرة له مشاركة في كثير من العلوم والآداب ، وشهدنا ونحن نطوف بناء جميلاً لمدرسة توشك ان تتم ، واهل كسب كلهم من الارمن وهم اقوياء متعلمون . ولهم بعثات علمية يوفدونها كل عام الى بيروت وعينتاب ، وفلاحوها مهرة نشيطون ، وهم يعيشون كسائر اهل القرى المجاورة عيشةً سهلة دئبة ، لهم كل احوال السعادة والفضيلة كما نفهم نحن من هاتين الكلمتين ، فهم يعملون ولكنهم لا يحملون في العمل على انفسهم ولا يتعسفون ، عندهم طعامهم ولباسهم على قدر الحاجة وجهد الطاقة ، لهم ايام وفصول فيها يستريحون وفيها يتعبون

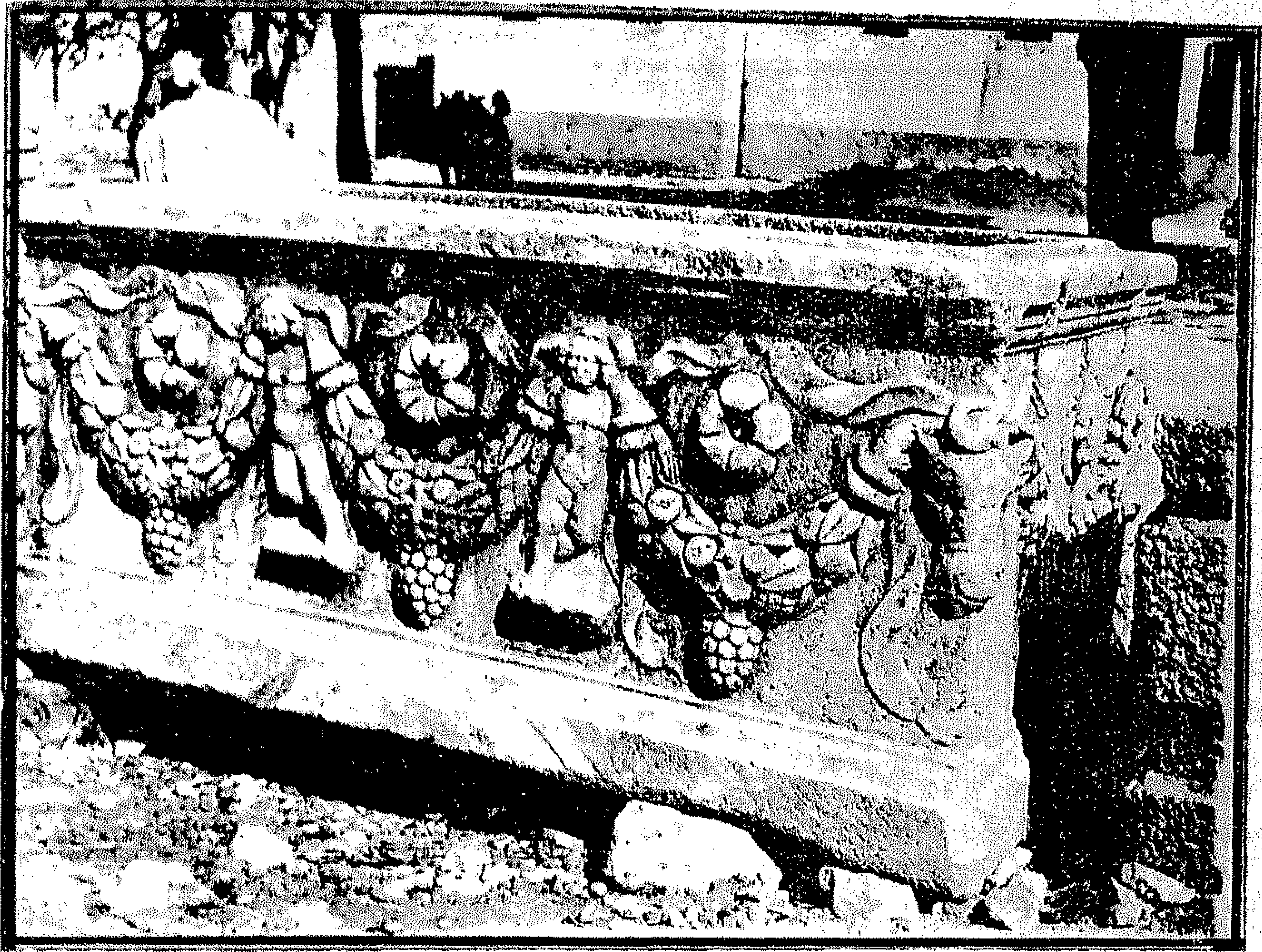
وقد دار بيني وبين قس الكنيسة حديث ابديت فيهِ دهشتي من اعتزال هذه الطائفة الكبيرة من الناس في هذا المعتزل القصي البعيد عن العالم المصطخب فقال : هذه المحاسن الفاتنة ، والمباهي الساحرة ، هذه الازاهر الجميلة ، هذه النرجسات ، وتلك الزنبقات ، والسماء وسحائبها الوطفاء ، ومغارب الشمس ومطالع الغزالة ، ومتألق النجوم ، ودري الكواكب ، لما يسحر ويفتن . فهل بالله رأيت عيشاً اطيب من هذا العيش ؟ ماذا في المدن الكبرى التي منها اتيت



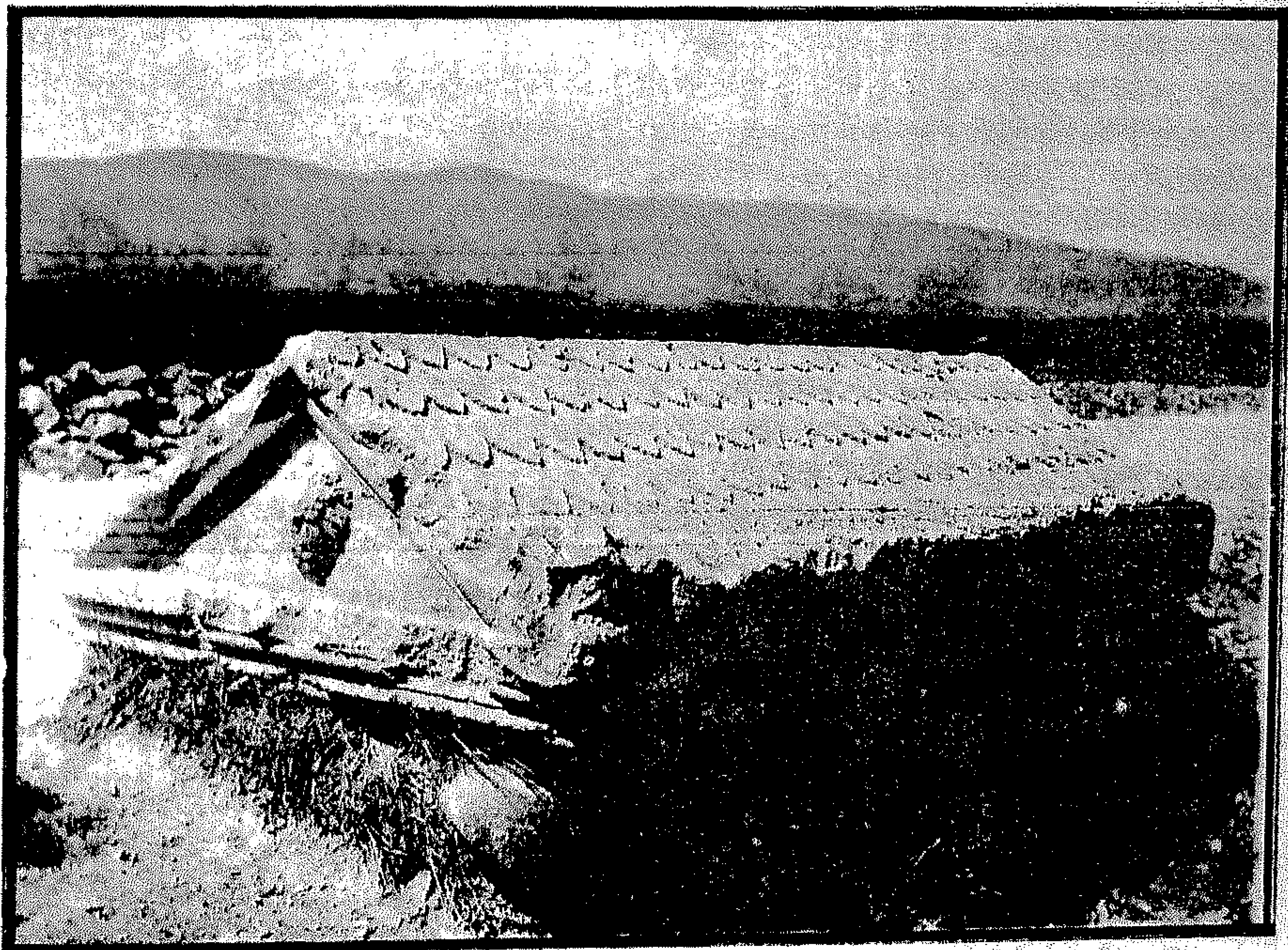
جسر روماني على نهر العاصي عند مدخل انطاكية



بقايا من قناة الامبراطور الروماني تراجان وكانت تجري عليها مياه دفنه الى انطاكية



ناووس روماني محفوظ في دار الحكومة بأنطاكية



غطاء الناووس قبل نقلهِ الى دار الحكومة

غير الضجيج والجلبة والزحام والتناحر من اجل الحياة ومطالب العيش . ان الناس هنا يرون ان قريتهم هذه الهادئة الجميلة هي العالم بأسره ، أما الانسانية التي تعيش وراء هذه الجبال فهي عندهم خرافة !

لقد صدق والله هذا الشيخ ، هنا في بهرة الحقول الصامتة ، وفي وسط الخمائل النضرة ، وفي احضان الطبيعة المشرقة الضاحكة يحلو للمرء ان يعيش

عدت اسأل الشيخ : وكيف تقضي نهارك ؟

اجاب : « في رحلات هنا وهناك ، وسط الطبيعة الضاحكة ، حتى اذا عدت ادراجي عند المغيب منحدراً مقالصي المتجافية النائية اروح اقصُّ على زميلي القس . . . حديث يومي وخبري ويتلو علي هو وقائع نهاره ونبأه ، ويحدثني كيف ان يماماتنا نقفت البيض تحت اجنحتها ، وكم أعطت العنزة من لبانها ، وكم من السمكات اصطادت حبائلهُ ، ثم يأخذني فيريني ما جمع من اوراق الطحلبات واغصانها ، وما ركم من غثاء الاشجار ولحائها ، يختزنهُ قبل وفدة الشتاء وقرسة الزمهرير ، وما اقتطف من اب الغابة وفاكهتها ، وما شاك اصابعهُ الدامية من ابرها واشواكها ، وما مد ولوى من دوالي الكروم وعواسج اللبلاب ، فوق جوانب المغارة وجدرانها ، وما امسك من العصافير بمخادعتها بالحبوب ومداعبتها ، والظباء الجائعة يلقطها الحب بيده ويؤاكلها ، لان كل شركائنا في عزلتنا ظباء الجبل وابلها ، وعصافير الغابة واطيارها ، تتسابق عند رؤيتنا ، وتجتمع لمطلعنا ، وتطير على صوتنا ومشيئتنا ، ونحن نأكل ما نصيبه في نهارنا ، تحلو لنا الألبان وتوافه الطعام وتطيب ، ونلتهم بعدها غرائب الفاكهة ونوادر الثمر ، وحيناً نشرب ماءها ، ونوثر عليها عصيرها ، ونختزن للفصل المحتضر ما تجفف الشمس ويحفظ الزمن ، وينوه احدنا بفكرة اخيه ويصفق لمبتكره ، ويطفر لاملوحته، نقتل المساء المتطاول في النادرة، والضحكة الحلوة في اعقاب الضحكة ، وحيناً نشهد القمر في صميم الليل بازغاً متهللاً ، ساطعاً على صفحة الارض منبسطاً ، فنسجد فوق الصخر الأصم خاشعين ضارعين ، نستقبل مطلع ذلك النور ، ونتألق من ذلك الضياء ، نشكر لله اليوم الذي اعطانا ، ونحمد له الليلة التي وهبنا ، ونسأله الشمس تطلع علينا بالغد الهنيء والايام الحلوة الرغيدة

« كذلك نختم يومنا ، نمضي في سلام لنهجع في رفق ، حتى يصدح صوت الذي يصحو قبل رفيقه مع نشائد القنبرة، ويمتزج باغاني البلبل، فيطرب اذن صاحبه ، ويوقظه من هجعته»

مددت يدي للقس الشيخ وهزت يده بحرارة واعجاب ، وعدت مع اهلي واصدقائي الى انطاكية مارين بين المزارع الخضراء موقنين ان عشاق الاصطياف سيكتشفون بعد قليل من الزمن في هذا الفردوس الارضي خير مصطاف . . .

نقولا شكري

بريان

تتمة مقالة اميل لدوغ

اخذت شهرة بريان العالمية في خدمة السلام تذيع من نحو خمس سنوات او ستّ فقط ، مع انهُ كان قد انقضى عليهِ خمسون سنة وهو يدعو الناس الى السلام والتساهل ونبذ التعصب القومي. ومع ذلك فليس هو مبدع ميثاق لوكارنو ولا خالق فكرة الاتحاد الاوربي. وانما كان في السياسة العالمية مثل اديصن في ميدان الاستنباط ، يتناول المسائل كما هي ويعالجها بحماسة نادرةٍ وكثير من بعد النظر وسعة الخيال حتى اصبح اسمه مرادفاً « للسلام» . ذلك انهُ لما حذفت الضمانة الانكليزية الاميركية لسلامة فرنسا من معاهدة فرساي ، لشدة معارضة مجلس الامة الاميركي، اخذ رجال السياسة في فرنسا ، وبريان في طليعتهم ، يسعون سعياً حثيثاً لابداع بدلٍ لها . فلما التأم مؤتمر «كان» سنة ١٩٢٢ حاول بريان ان يستميل بريطانيا لضمانة سلامة فرنسا لقاء تساهلٍ في موضوع التعويضات الحربية المطلوبة من المانيا، فعارضهُ في ذلك پوانكاره معارضة شديدة، فعاد الى باريس والقى خطبة في مجلس النواب محاولاً ان يسوّغ بها عملهُ ، وكان الصق اصدقائهِ بهِ لا يدرون هل يستقيل او لا يستقيل . وكان في اثناء القاءِ الخطبة يراقب النواب في روحاتهم وغدواتهم ، ويتبيّن نياتهم في ملامحهم ، ويصغي الى تصفيقهم الفاتر فانهى خطبتهُ بهذه العبارة المفاجئة : « كلّ هذا كان برنامجي . واذ ارى انهُ لم ينل موافقتكم فانني مستقيل »

ولما عاد فتقلّد زمام الحكم في سنة ١٩٢٥ وجد بين اوراق سلفهِ «هريو» وثيقة المانية كان قد مضى عليها شهور وفيها مشروع ميثاق بين المانيا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا تضمن بموجبهِ سلامة فرنسا والمانيا من اي هجوم على احداها . وكان الميثاق تامّاً من جميع وجوههِ ، فاخذه الى لوكارنو واقنع الدول بقبولهِ . والطريقة التي جرى عليها في لوكارنو حديثاً وسلوكاً كسبت لهُ من جماهير الناس اسم « الفرنسي المسالم العظيم » . ولم يكن سبب فوزه الشعورُ الانساني الذي يساور المفاوضَ اذ يسمعهُ يقول « انا » في حين ان السر اوستن تشمبرلين لا يستطيع الاّ ان يقول « حكومة جلالة الملك » بل كان عطفهُ وانطلاقهُ الصحيح من القيود التي تكبل العقل وتضيق افق النظر . ففي بلدة اسكونا التي اقطنها قال بريان مرة لمستشار الماني « انت الماني وانا فرنسي . وعلى ذلك فلا بد من اختلافنا . ولكنني استطيع اناْ اكون فرنسيّاً واوربيّاً محبّاً لصالح اوربا في آنٍ واحد . وانت تستطيع ان تكون المانيّاً واوربيّاً محبّاً لصالح اوربا في آنٍ واحد . ولا يصعب على اوربيين يحبان صالح اوربا ان يتفقا»

لقد انقضى علينا نحن الكتّاب والشعراء الحمقى على ضفتي نهر الرين احدى عشرة سنة ونحن نقول الكلام نفسهُ فلم يجرؤ رجل من رجال السياسة على الاعراب عن شعورنا حتى فعل ذلك بريان . من ذلك اليوم ، اتسعت آفاق عطفهِ فلما عقد اتفاق لوكارنو ، اكتشف لغة جديدة اذ قال: « لقد تكلمنا لغة اوربية ، وهي لغة جديدة يجب ان نتعلمها » ولما عاد الى باريز حاملاً غصن السلام في يديهِ ، وخرجت باريس تستقبله قال لمن حوله على المحطة « لقد استعدتُ صباي » !

ألا يتّضح كيف اقبل بريان ، وهو شيخ عدا الستين ، على فكرة السلام ، يكافح في سبيلها كفاح الاحداث المتحمسين لها المتعصبين في سبيلها ، كفاحاً لم يرَ اصدقاءهُ ما يماثله في اي دور من ادوار حياتهِ السياسية ؟ انهُ بعد تنقّلهِ السياسي بين الحكومات الفرنسية ، وبعد ما قضى ساعات وحيداً يقذف زورقهُ الصغير ويصيد الاسماك من الانهار والجداول ، ويبحث في قرارات ضميرهِ متأملاً ما صارت اليهِ احلام شبابهِ ، اكتشف اخيراً العبارة التي تتسق وحياتهُ ، وعزم ان يدافع عن الفكرة التي تحتويها بكل ما لهُ من المكانة ، في فرنسا ووراء حدودها ، عازماً ان يحقق ما كان يدعو اليهِ في صباه . اصغ اليهِ وقد ارتقى المنبر في مجلس الشيوخ يدافع عن سياستهِ في لوكارنو قال : ـ «ما هذا ؟ اخالدة هذه الحال ؟ اخالدة ! ايجب علينا ان نخاف دوماً نشوب حرب بين فرنسا والمانيا ؟ ايجب على هاتين الامتين ان تفكرا دوماً في السلاح والتسلّح ، سرّاً او جهاراً ؟ حروب جديدة ـ اهذا ما تدعونه مستقبلاً ؟ اذهبوا الى مدنكم ، وسيروا في شوارعها ، وزوروا الناس في بيوتهم ، وتحدثوا الى الفلاحين ، فكل انسان في كل مسلك من مسالك الحياة يطلب السلام »

ولما أُمضي اتفاق لوكارنو في لندن قرأ بريان ، والانفعال بادٍ في اساريره ، رسالةً وردتهُ من والدة جاء فيها « اسمح لوالدة ان تتمنى لك خيراً . لانني الآن استطيع ان انظر الى اولادي من دون ان يعروني الهلع . واخيراً استطيع ان احبهم حبّاً يكملهُ التأكد من سلامتهم » . وتلا ذلك مناقشات في مجلس الشيوخ ولجانه فاضطر بريان الكسول المتراخي ان يقضي ٣٦ ساعة من دون انقطاع تقريباً ، يدافع عن نفسه . وفي صباح احد الايام ، اذ علم ان ثمة محاولة لقلب وزارتهِ اعتلى المنبر ، وقال : «لم انظر في حياتي نظرة الجزع الى ذلك الباب . اما اليوم فاني اتمسك بالسلطة بكل قواي . فاذا خذلتموني اليوم انزلتم بالبلاد كارثةً » . فكان في صوتهِ رنة رسولٍ . وابرم المجلسان الاتفاق

فلما آن الاوان لانتظام المانيا في سلك جمعية الامم سنة ١٩٢٦ ظهرت في الصحف الوطنية الفرنسية مقالات كلها تهديد ووعيد لبريان . واذ كان نائماً في عربة القطار الذي اقلّهُ الى جنيف ، حدث اصطدام فتكسر زجاج نافذة ، فظن الناس ان مجرماً يحاول اغتيال الرئيس ، ولكن القطار لم يقف ، وفي الصباح التالي ثبت ان بعض قضبان الحديد الناتئة من عربة شحن صدمت القطار وكسرت الزجاج . كل راكبي القطار خرجوا في ملابس نومهم مذعورين يسألون

ما الخبر الا" بريان ، فانه لما وصل الى جنيف سأل عما حدث بالامس . ذلك انهُ كان ذاهباً لتأدية رسالة خيرٍ لايخشى فيها خوفاً ولا لوماً . وبعد بضعة ايام ، وقف على منبر جمعية الامم في جنيف وخطب قائلاً : « لقد قضينا على الحرب بيننا ونزعنا الوشاحات السود وازلنا بواعث الالم . ولن نسمح بعد اليوم بان يكون سفك الدماء حاكماً فاصلا في ما نختلف عليهِ .لنا الآن قاضٍ يحكم بالعدل . ابعدوا المدافع . افسحوا المجال للتفاهم والتحكيم والسلام »

وبعد بضعة أيام تناول بريان وشترزمان طعام الافطار في بلدة« توارى »على مقربة من جنيف فكانت كلمات بريان الساذجة وأخلاصهُ الجم" لقضية السلام سبباً لنزول هذا الاجتماع البسيط بين الاجتماعات السياسية الخطيرة في تاريخ اوربا بعد الحرب . هنا اجتمع رجلان سياسيان من امتين متعاديتين ، فجعلا يتحدثان كأنهما شاعران ملهمان محلقان فوق الغيوم ، يحاولان ان يقتنعا بان حسن النية وصفاءها يذللان كل العقبات . ومن الغريب ان ترى رجلين كبريان وشترزمان يختلفان نشأة وطبعاً اختلافهما مظهراً ووطناً ، يستطيعان ان يصلا الى تفاهم ما — وهو ما كان يحسب مستحيلاً . ولكن خيالهما حو"ل كلاً منهما من سياسي" عادي" ورفعهما الى مستوى رجال السياسة البناة . فسرت ، على أثر اجتماعهما ، هزة في شعوب ، اوربا ، اذ تبينت شعاعة من النور يبعثها في نفوس الناس ، خيال رجل فرد

بعيد ذلك عقد مؤتمر لمشو"هي رجال الحرب فاجتمع مندوبون من كل الامم في جنيف وقاموا بمظاهرة سلمية دعايةً للسلام ، فاقترب رجل اعمى واكتتع من بريان وخاطبهُ قائلاً . «ياسيدي . لا تقف عند حدٍ في عملك . ان اربعة ملايين من الرجال بكمٌ لا يستطيعون الكلام . وانا هنا واقف اتكلم باسمهم . امضِ في عملك يا سيدي » . ولما سمعتُ بريان يروي هذه القصة ، رأيت الذكرى تبسط القتام على وجههِ ثم تلألأت عيناه بشراً وطفح وجههُ بالنور

وليس هنا مجال البحث في «عهد كيلوغ بريان» ومشروع «الولايات المتحدة الاوربية» وانما نريد ان نقول ان بريان كان السياسي" الاوربي الاول في المائة سنة الماضية الذي تجرأ وهو في منصب رسمي" ان يقول مافاه بهِ من منبر جمعية الامم في خريف سنة ١٩٣٠ «ما زلت احمل تبعة شؤون بلادي ففرنسا لن تشهر حرباً » . فقامت عليه قيامة الصحف الوطنية المتطرفة تحاول خذله في مجلس النواب ولكن قوله هذا في نظري اشبه شيء بدرة من درر « مرقص اوريليوس » الامبراطور الفيلسوف

هل اراد بريان ان يكون رئيساً للجمهورية ؟ لما اشار عليهِ بعض اصدقائهِ بترشيح نفسهِ لا نتخاب الرآسة ، اعترضت ، طائفة كبيرة من احرار الفرنسيين لان فرنسا لم تنتخب للرآسة في خلال الستين سنة السابقة رجلاً سياسيًّا من الطبقة الاولى. اما الرئيس بريبه — وهو من اقدر الرؤساء الذين تولوا المنصب في تلك الفترة — فتخلى عن المنصب قبل انتهاءِ المدة . واما بوانكاره فقال لدى خروجهِ من الاليزه « لقد اضعت سبع سنوات» . لذلك لم يشأ الفرنسيون

ان يروا بريان السياسي العامل منزوياً في الاليزه معتزلاً السياسة السلمية المقترنة باسمهِ

ولكنهُ بعد ما رفض ان يتقدم لانتخاب الرآسة ، مال الى الاخذ بما سمعهُ من اصدقائهِ ، لما رأوا ما اعترى نفوذه من الضعف في مجلس النواب فظنوا ان سبع سنوات في مرفإِ الرآسة الامين تحفظهُ من مخاطر العاصفة التي ينذر بها الجوّ السياسي

ولم يخطر لاحد حينئذٍ ان يشك في امكان فوزه . الم يكن اشهرَ الفرنسيين واحبَّهم الى الناس . الم يشعر في مساعيهِ السلمية بأن الامة تؤيده من اقصاها الى اقصاها ؟ ماذا يستطيع محترفو السياسة ان يفعلوا في وجه تأييد كهذا التأييد ؟ لذلك اقتنع بريان بقول المريدين ولم تأخذه ريبة ما في انتخابهِ . ومع شدة معرفتهِ بالطبيعة البشرية ، وفهمهِ للتيارات السياسية في المجلس الفرنسي ، لم يدرك ان الغيرة منهُ كانت الباعث على ما وُجّه اليهِ من الطعن والثلب في الصحف. ولا تنسَ ان الشعب الفرنسي لا ينتخب الرئيس، بل النواب والشيوخ . وفي هذا يذكرنا بريان بيسمارك ، فان بسمارك لم يكن يعتقد قط ان امبراطوراً من اسرة هوهنزلورن كائناً من كان يبعدهُ عن كرسي الحكم وقد قضى ثلاثين سنة في خدمة بلاده وامبراطوره

فلما انتخب دومر بدا للناس الذين يرقبون فرنسا كأن فرصة سانحة لخدمة قضية السلم قد ضاعت . وكأن فرنسا قد خذلت « رسل السلام » فيها

على ان بريان لم يستقِلْ من منصبهِ كوزير للخارجية على اثر ظهور نتيجة الانتخاب ، لانه كان ينوي ان يذهب الى جنيف ليقرّع الالمان ، اخذاً بالثأر . لانه لو لم تعلن المانيا معاهدتها الجمركية مع النمسا قبيل انتخابات الرآسة الفرنسية لما تألب عليهِ اعداؤه هذا التألب . فاعلان هذه المعاهدة جاء خذلاناً لسياسة السلام التي جرى عليها ودعا اليها . فذهب الى جنيف وقضى على تلك المعاهدة وعاد الى باريس عود الظافر لكي يستقيل من منصبهِ ، ثم يتقدم في الانتخابات التالية ويخرج منها لابساً اكليل النصر . كانت الامة الفرنسية تتوقع منهُ هذا ، فاتفق زعماء احزاب اليسار على الدائرة التي يتقدم فيها للانتخاب . ولكنهُ غير رأيه فجأة ، وبين مساء الجمعة ومساء الاحد قرر ان يبقى في وزارة الخارجية فما حدث ؟

ذلك انهُ قبل الانتخاب لرآسة الجمهورية جاء الشيخ دومر — وكان احد المرشحين للمنصب — الى صديقهِ القديم بريان ، وسألهُ صراحة ان ينبئهُ عن موقفهِ في الانتخاب ، فاذا عزم بريان ان يتقدم للانتخاب تنحَّ عنهُ دومر . فأنبأهُ بريان بالحقيقة — وكان حينئذ مصمماً على رفض التقدم للانتخاب . فلما غيـر رأيهُ وضع صديقهُ في موقف حرج ، لم يلبث ان ازداد حراجةً بعد فوز دومر وخذل بريان . على ان الرئيس الجديد ، استدعى وزير خارجيتهِ ، ومن دون ان يشير الى حديثهما السابق قال لهُ « والآن يجب ألاّ تتخلى عني » . فقبل بريان ذلك مرغماً لان قبولهُ هذا عنى الاشتراك مع ألدّ خصومهِ في وزارة يرأسها لافال وكيل وزارتهِ سابقاً

النقد الادبي — ١

الاخطل الصغير

او بشاره الخوري صاحب « البرق » البيروتية

لمحمود ابو الوفا

كانوا يطلقون على ابن هانئ الاندلسي أنهُ متنبيء الغرب . فهل يؤذن لي الآن أن اطلق على الأخطل الصغير أنهُ شوقي لبنان. قال بعضهم لولده أي عظيم تريد أن تكونه يا بنيّ . فقال الولد اريد أن أكون مثلك . قال الوالد لقد كنت في مثل سنك هذه يا بني أطلب أن اكون مثل علي بن ابي طالب . وها هو الفرق بيني وبين ابن ابي طالب على ما تراه . فهل تحبُّ أن يكون الفرق بينك وبيني بمقدار ما بيني وبين ابن ابي طالب

وعلى هذا القياس فماذا عسى ان يكون المثل الأعلى للاخطل الصغير .لاشك انهُ كان عظيماً جدًّا ولكني ارجو ان لا اجانف الصواب اذا قلت ان المثل الأعلى للأخطل الصغير لم يكن سوى الأخطل الكبير فان هذا هو الرجل الذي يقال فيهِ بحقٍّ « هو الشاعر من فرعه الى قدمه » وحسبك بشاعر نصراني ، يدعونهُ شاعر بني امية في زمن معاوية اعني في صدر الاسلام ثم حسبك منهُ بشاعر يشير لنا ابو العلاء المعري الى مكانته في الشعر وانت تعرف من هو ابو العلاء في نقد الشعر والبصر به فيقول المعري (ان السادات كانت تطرب على قوله)

أناخوا فجرّوا شاصيات[1] كأنها رجال من السودان لم يتسربلو
فصبّوا عُقاراً في الاناء كأنها اذا لمحوها جذوة تتأكل
تدبُّ دبيباً في العظام كأنهُ دبيب نمال في نقا يتهيل

أزعم واثقاً أنني أدنى الى الحق ان المثل الأعلى للأخطل الصغير لم يكن الا هذا الروح الشعري العالي الذي أعجب بهِ السادات من امية حتى طربوا له وشربوا عليهِ واؤكد أنهُ لو لم يكن للاخطل الصغير هذا المثل الاعلى لما استقرَّ شعره على هذا الاسلوب النادر في هذا العصر الذي اذا شكى منه الادب فلن تكون شكاته الاّ ضعف الاساليب فيهِ . . . ان للاستاذ الخوري اسلوباً شعريًّا متفرداً بين اساليب الشعراء اللبنانيين تفرُّد اسلوب شوقي بين الشعراء

(١) زقاق الخمر كبيرة مثل القرب

المصريين فكلا الشاعرين في بيئتهِ نسيج وحده كما يقولون . وكلاهما في جيله يمثل طبقة قائمة بذاتها فأنت حين تنظر الى شعره تراه كأنهُ يتهادى الى الاسماع في موكب من الأبهة والرونق والجمال فلا تملك نفسك دون التشبع منه والتوجه اليهِ ، وان كنت رأيت مثل هذا الموكب كثيراً ، وكثيراً جداً . ولا اظن الاستدلال على قرب هذين الشاعرين احدهما من الآخر يكلفك اكثر من الاطلاع على هذين النموذجين

قال شوقي بك في رثاء الزعيم زغلول باشا

كفنوا الشمس ومالوا بضحاها وانثنى الصبح عليها فبكاها

وقال الاخطل الصغير في رثاء الزعيم فوزي الغزي

كفنوا الشمس بريحان وورس يا لشمس آذنت من عبد شمس

فأنت ترى كيف يتواطأ استهلال الشاعرين في رثاء الزعيمين السياسيين فيستعملان الفاظاً واحدة ويذهبان في افق واحد تقريباً . كذلك يقول الاخطل الصغير في رثائهِ المؤثر البليغ لغبطة البطريرك الكبير ماري الياس الحويك

جبريل عند رتاجه متواضع ويسوع حول سريره يتهادى

ويقول شوقي بك في بعض مطالعه — جبريل هلل في السماء وكبر —

ويقول ايضاً في موكب استقبال ام المحسنين

واتركي فضل زماميه لنا نتناوب نحن والروح الامين

وهكذا تجد الكثير من شعر هذين الشاعرين متفقاً في الفاظه واستعاراته وتشبيهاته توافقاً خليقاً ان يعقد له فصل قائم بذاته . صحيح ان بعض المتقدمين من النقاد كانوا يسمون هذا النوع من التوافق بين الشعراء (اخذاً) ويقصدون ان اللاحق اخذه من السابق وكانوا يرونهُ نوعاً من المحاكاة والتقليد وربما غالى بعضهم فسماه سرقة ولكن التحقيق انهُ ليس كذلك فان الشاعر الذي يأخذ من غيره تقليداً او محاكاة ، لا يكون معتداً (بفنه) يعني ان ثقته بفنه ان لم تكن معدومة البتة فانها تكون ضعيفة . ولكن هذا الاخطل الصغير يرينا انهُ يثق بفنهِ ثقة لا حدّ لها فهو يقول في رثائهِ للبطريرك

اوحيد امتهِ تقىً وهدايةً هلا سمعت وحيدها انشادا

خلعت قصائدهُ عليك عيونها وحبتك من ورق الخلود وسادا

بل ان الاخطل هنا في هذا المعنى اكثر من شوقي ذهاباً بنفسهِ واعتداداً بفنهِ فقد اكتفى شوقي حين قرر هذا المعنى ان يجعل شعره درجات للخالدين فقط فقال لام المحسنين

لا ترومي غير شعري موكباً ان شعري درجات الخالدين

اما صاحبنا الاخطل الصغير فقد ابى الاّ ان يجعل شعره هو المتصرف في هذا الخلود يحبو

بهِ من يشاء . ولعله يمنعهُ من يشاء ايضاً . ولا شك ان شاعراً يعتدّ بشعره كل هذا الاعتداد ويزهو بنفسه هذا الزهو لا يعقل ان يكون آخذاً من غيره ولا مقلداً له لان المقلد من اضعف الناس امام نفسه ولولا ذلك ما استعار قوة غيره. وبرهان آخر يجب الآن ان يذكر هو ان المقلد الذي يأخذ معاني غيره محاكاةً لا يمكن ان يكون اكثر من ناظم ويستحيل ان يكون شاعراً بالمعنى الصحيح لكلمة شاعر . لان من المستحيل على مقلد ان يفهم الشعر الاّ على انهُ هو الكلام المنظوم المقفى كما هو تعريفه في الكتب المدرسية الى الآن . ولكن الاخطل الصغير يعرفنا الشعر اعظم تعريف يطمئن اليه الشعراء الصادقون فهو يقول في قصيدته (عمر ونعم)

والشعر روح الله في شاعره ذلك يوحيه وهذا ينشر
الحكمة الغراء من اسمائه وعدن من اوطانه وعبقر
له على الآفاق فتح زاهر وفي عباب الماء فتح ازهر
يعضيهما منــه خيال مارد ابو الفتوحات الذي لا يقهر

***

تعلق العلم على اسبابه فخلق الطود وفاق الحجر

واذن فوقوع شاعر مثل الاخطل الصغير على الفاظ ومعاني شاعر سائر الشعر جوَّال القافية مثل شوقي بك لا يصح ولا يعقل ان يدخل في باب (الآخذ والمأخوذ) كما انهُ لا يصح ان يسمى ذلك تقليداً ومحاكاة . وانما هذه مسألة راجعة فيما اعتقد انا الى توافق الشاعرية في هذين الشاعرين . لكن الذي يجب ان يفهم على وجهه الصحيح ايضاً هو ان هاتين الشاعريتين المتوافقتين لا يلزم ان تكونا متساويتين الا في الاسلوب وما يتعلق بالاسلوب من الاستعارات والالفاظ . اما الانتاج الشعري وما يتعلق بهِ من الصور الشعرية والمذاهب الفنية وما الى ذلك من جميع مواهب الشاعر فلا يلزم ان تتفقا لأن الشاعرية شيء والشعر شيء آخر

وكثيراً ما نجد الاراضي الزراعية تكون متفقة مع اختها في المعدن تمام الاتفاق ولكن محصول هذه غير محصول تلك لذلك قد يكون الشاعر متفقاً مع الآخر في المزاج الشعري — الشاعرية — ولكن لكل منهما فنه في الشعر بل قد يكون لكل منهما في الشعر والحياة مذهب يخالف مذهب صاحبه . فهذا ابو الطيب المتنبي قد اشتهر بالحكمة حتى كان النقاد المتقدمون يخصونه بالحكمة ويخصون البحتري بالشعر فيقولون الحكيم هو المتنبي والشاعر هو البحتري . وكان ابن هانىء الاندلسي لم يشتهر الاّ بالاغراق ومع ذلك فان هذين الاثنين كانا متفقين في الشاعرية باجماع النقاد المتقدمين تقريباً . ولهذا التوافق في الشاعرية لا لغيره كان هؤلاء النقاد يطلقون على ابن هانىء لقب متنبي الغرب. فالمسألة ليست هي الشاعرية وحسب وليس فخر الشاعر ان يكون متفقاً في سمو الشاعرية مع اعظم شاعر ظهر على وجه الارض

فان الشاعرية لا تزيد في نظر الناقد عن كونها احدى الملكات الموهوبة التي قد يحسن صاحبها في استعمالها وقد يسيء . وانما فخر الشاعر الحقيقي هو فيما يكشفه للناس من الجوانب الخافية في الحياة . والناقد المنصف البصير هو الذي لا يطلُّ على الشاعر الاّ من جهة مذهبه الشعري الاصلاحي ليعرف الى اي جهة يريد ان يسوق الحياة بحدائه أو غنائه وفي اي جهة يريد ان يتجه بها فان لم يكن للشاعر مذهب يدعو له ولا مثل اعلى يرمي اليه فان شعره لا يكون جديراً بالنقد بل هو في مذهبي لا يكون جديراً بان يعد في الشعراء الخالدين

***

والآن فنحن اذا سلطنا هذا المنظار الدقيق على شعر الاخطل الصغير فكيف نجده — انني هنا افضل ان اعطي الكلمة للاستاذ ميشال ذكور قال :

« الاخطل الصغير او بشاره الخوري مسميان لشخص واحد هو صاحب البرق الذي لا يجاريه شاعر عربي آخر في لبنان وسوريا بخياله وعذوبة الفاظه ورقة معانيهِ لانهُ لا ينظم الا مذيباً شيئاً من روحه الحساسة . . . » والحق ان كلام صاحب المعرض الغراء كله حق فانك تقرأ شعر الاخطل فتجد فيه ديباجة هي اشبه بديباجة شعر شوقي كما اسلفت القول كما تجد فيه روحاً وجدانية تترقرق كما تترقرق المياه الصافية بين الاعشاب والصخور فاذا انت من هذا المزيج الشعري امام شاعر لا هو في الشعراء الصناعيين ولا هو من الشعراء الوجدانيين ولكنه يرضي الوجدانيين والنفسيين واصحاب العواطف والاحساسات المشبوبة بمقدار كما يستطيع ان يرضي الديباجيين من اصحاب الصناعة والفن . وبعبارة اكثر صراحة تقرر ان الاخطل الصغير لم يضرب على قيثارة فوزي المعلوف ولا على مزهر القروي ولا على الحان جبران ولكنه سبح في مسابح مطران وايليا وامثال هؤلاء من الشعراء اللبنانيين المتمصرين ولا شك انه وفق في مذهبه الفني كل التوفيق وان التاريخ عندما يظهر كلمته النهائية في هؤلاء الشعراء الذين حملوا الوية تجديد الشعر العربي لسوف يضع اسمه في طليعتهم اما مذهبهُ الاصلاحي وصوره الشعرية فليس ادل عليه من هذه المناحي التي قصد اليها في قصائده الثلاث الريال المزيف التي يقول فيها : —

ويح الفقير فما تراه يلاقي سدت عليه منافذ الارزاق
عَلَقُ المجاعة مص بعض دمائه وتعسف الحكام مص الباقي

وقصيدته التي جعل عنوانها «من مآسي الحرب الكبري» وهي التي يلخص لك من موضوعها في قوله يدعو الله عساه أن يستجيب له

واخلق الانسان خلقاً راقياً واقتل البغض به والكبرياء
واجعل الحب الهاً ثانياً واسجن المال ولا تنس الرياء
وليكن كل امتياز لاغياً يخرج الناس على حد سواء

ويقول منها ايضاً

مَنْ ترى يشرح لي ذنب الفقير او ترى يظهر لي فضل الغنى

. . . . .

افهذي حكمة الله القدير لا . وجل الله عن ذا الغبن

. . . . .

انما هذان مثل البذرتين بذرا في الارض حتى انبثقا
فكسا المقدور تين النبتتين هذه قبحاً وهذي رونقا

وايضاً قصيدة عروة وعفراء ، التي نلخص لك موضوع مأساتها في قوله

بينا الفتى في الشام يكدح للغنى كانت حبيبته تزف لثان
فتنت محاسنها «اثالة» وهو من «هُصَر» له سببان ملتزمان
نسب الدماء وفوقه نسب الغنى نسبان محبوبان محترمان
فأناله عفراء صفقة تاجر حسب البنات ملابساً وأواني

فانت ترى ان الشاعر في هذه القصائد الثلاث لا يحارب الا عدواً واحداً هو الفقر وهو في سبيل اجتذاب قرائه الى الوقوف في صفهِ والانتصار له على عدوهِ لايفتأ يستعرض أمامهم مناظر الفقر في ابشع صوره وأفظع مآسيه فمرة يعرض الفقر في صورة شاب عذري الهوى حرم من حبيبته وحرمت منه حبيبته لا لشيء الا أنه فقير فتكون النتيجة موت الحبيبين معاً (عروة وعفراء) ومرة اخرى يعرض لك هذا الفقير والغني يغالبه حتى يغلبه في صورة آلام الام الطاهرة العفيفة التي ذهبت هي وبنتها الطفلة البريئة ضحية «الريال المزيف» . ومرة ثالثة يريك كيف يستطيع الغني الفاسق الغشوم ان يعبث بدماء العذارى الفقيرات . وهكذا لا يزال بك حتى تؤمن معه ان الفقر هو عنصر القبح هو الظلام . هو الشر . هو العدو الوحيد الذي يجب أن يقاتل في هذه الحياة . ولا ريب أن هذه هي فطرة الشاعر الذي ينظر الى جواهر الاشياء لا الى الاشياء وحسب . نظرة الشاعر الذي يرجع شعره الى ما وراء الحواس . ولا ريب ان هذا هو الشاعر العظيم

النقد الأدبي — ٢

صور جديدة من الأدب العربي

بقلم الدكتور طه حسين

يذكر القراء المقالات التي نشرت في « المقتطف » بهذا العنوان في سنتي ١٩٢٩ و١٩٣٠ و١٩٣١ وقد عني صاحبها كامل كيلاني بجمعها وطبعها على حدة ونحن يسرنا أن نقدمها الى القراء بكلمة الدكتور طه حسين البليغة فيها : —

جميلة خصبة هذه الفكرة التي خطرت لصديقنا كامل كيلاني فأوحت إليه أن يتحدث — إلى الناس — فيما كان من تنافس وخصومة بين جماعة من العلماء والأدباء إبان العصر العباسي ، وفي مظهر بعينه من مظاهر هذا التنافس ، هو ما يسميه الناس « مناظرة » بين هؤلاء العلماء والأدباء

جميلة خصبة هذه الفكرة لأنها تعرض — على جمهرة المستنيرين — ألواناً من الحياة العقلية العربية ، ما كانوا ليلتفتوا اليها أو يفكروا فيها ، لأنها مطوية عنهم في ثنايا الكتب وبطون الاسفار

وهي — على ذلك — زاهية جميلة قيمة ، فيها متعة للعقول وغذاء للقلوب وتقويم للاخلاق ، وفيها — بعد هذا كله — إحياء لتاريخ الحركة العقلية عند المسلمين في عصر من اجمل عصورهم وأزهاها ، وفيها — بعد هذا وذاك — جلاء لهذه المرآة الناصعة الصقيلة — مرآة التاريخ — التي تبين للمعاصرين أنهم ما يزالون يشبهون الذين سبقوهم في أنحاء كثيرة — من سيرتهم — يتصل بعضها بالتفكير ، ويتصل بعضها بالخلق ، ويتصل بعضها بطريقة الملاءمة بين التفكير والخلق

فالذين يقرأون ما عرضه المؤلف — من مظاهر الخصومة — بين الهمذاني والخوارزمي ، وبين الكسائي وسيبويه ، وبين المتنبي وأبي فراس وابن خالويه والحاتمي ، وبين أبي العلاء وداعي الدعاة — لا يرون هؤلاء الناس وحدهم يختصمون ويتنافسون ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويظلم بعضهم بعضاً ، ثم ينتصف التاريخ للمظلوم من الظالم ، ويثأر للبريء ممن اعتدى عليه ، ولكنهم يرون أنفسهم في حياتهم هذه التي يحيونها ، والتي يأتمر فيها بعضهم ببعض ، ويجني فيها بعضهم على بعض ، يتخذون إلى ذلك — من الوسائل والاسباب — ما كان يتخذه القدماء ويفكرون فيه على نحو ما كان يفكر القدماء ، ثم يظهرونه على نحو ما كان يظهره القدماء

فما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — همذاني يكيد للخوارزمي ويحكم الكيد ، وناس يخدعهم تملق المتملقين ولباقة اللبقين

وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — كسائي يستظهر على سيبويه بجاه أولي السلطان والبأس ، ويعتز عليه بالمأجورين والمسترزقين

وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم يتساقطون على قصور الملوك والامراء كما يتساقط الذباب ، فيكيدون فيها للعلماء والادباء والساسة وأهل الرأي ، ويبلغون — من ذلك — ما يريدون : كله أو بعضه

ثم ما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم زعموا انهم يدعون إلى الخير ، ويصدون عن الشر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وهم — مع ذلك — يلقون الشباك ، ويمدّون الاشراك ، يصيدون بها المفكرين والباحثين كيداً لهم ، ونكايةً بهم ، وعدواناً عليهم

* * *

كل أولئك احياء بيننا ، نراهم — في كل يوم — ويشقى بهم كرام الناس — في كل يوم — وينقدهم الناقدون ، ويمقتهم الماقتون

ولكنا نراهم — في صورتهم الصحيحة المرذولة — حين نقرأ كتاب كامل كيلاني ، لانا نراهم — على بعد الزمن وانقطاع الاسباب — وقد ذهبت الاحقاد ، وماتت الضغائن فيهم . فهم — كما يراهم التاريخ — لا يثيرون هذه الحفيظة التي يثيرها المعاصرون ، وقد وصلت — بيننا وبينهم — صلات المنافع والمضار ، فكان بيننا وبينهم — التعاون والتنافس

نعم ، ونحن نرى — في هذا الكتاب — ما لا نستطيع ان نراه الآن ، وما لم يستطع القدماء أن يروه ، وسيراه أبناؤنا من بعدنا ، وهو حكم التاريخ للمحسن ، وقضاءه على المسيء

* * *

قدمت — منذ أعوام — إلى الناس ، طبعة كامل كيلاني لرسالة الغفران ، بعد ان يسّرها وقرّبها إلى المستنيرين الذين يريدون ان يتأدبوا — دون ان يقفوا أنفسهم على العلم الخالص العسير

وكنت سعيداً شديد الاغتباط ، لأني رأيت هذه العناية _ بأوساط المثقفين _ تعجب الناس ، وتبلغ منهم ما أراد صاحبها ، فتعلم الجاهل ، وتنبه الغافل ، وتثير نشاط الفاتر

وقد راجت رسالة الغفران هذه _ في مصر والشرق العربي _ بل رأيت من المستشرقين في أوربا مَن يرضى عنها . ويعجب بها ، لأن صاحبها كان متواضعاً ، لا يدعي لنفسه أكثر من أنه يبذل جهداً صادقاً لتقريب العلم الى الذين قد لا يستطيعون أن يصلوا إليه وحدهم

وعلى هذا النحو ، يسرني أن أقدم — إلى القراء — هذا الكتاب اليسير القصير القيم الخصب الممتع في وقت واحد

* * *

كان من الحق على كامل — حين عرض لهذه الناحية من البحث — أن يصطنع خصلتين لابدّ منهما : الأولى ، أن يكون سهلاً سمحاً ، ويسيراً قريباً ، لا يكلّف قارئه بحثاً ولكن يغريه بالبحث ، ولا يضطره إلى المراجعة ولكن يحبب إليه المراجعة

الثانية، أن يحرص على الانصاف ، ويأخذ به نفسه أخذاً شديداً، فلا يظلم العلماء والأدباء، ولا يظلم القراء المحدثين فيفسد آراءهم في العلم والعلماء، والأدب والأدباء، لأن لهم علينا حق الأمانة والصدق

وإني لسعيد بأن أهديَ — الى كامل — أصدق التهنئة ، لأنه وفق إلى الخصلة الأولى كل التوفيق . فلقد قرأت كتابه — حين كان ينشر فصولاً في المقتطف — ثم قرأته أمس ، فلما بدأت القراءة لم أدعه حتى أتممته ، لم ينلني سأم ولا ملل ولا فتور، لأن ما في الكتاب — من الحياة — والحركة وخفة الروح — خليق أن يستبقي نشاطك موفوراً ، منذ تبدأ الكتاب إلى أن تتمه

أما الخصلة الثانية ، فقد تعوّدت مع أصدقائي جميعاً — ومع كامل خاصة — أن أكون صريحاً شديد الصراحة ، ولست أشك في ان الانصاف ظاهر في الكتاب ، يحسه القراء ، مهما تختلفْ طبقاتهم وتتفاوت حظوظهم من العلم ، ولكنّ في الكتاب شيئاً لا أدري ما هو — يشعرنا بأن شخصية المؤلف لم تستطع أن تستتر كل الاستتار ، بل أظهرت كثيراً من عواطفها وميولها ، وكأنها تريد — ولو في استحياء — أن تفرض علينا هذه العواطف والميول

* * *

أظنني عرفت هذا الشيء ، ففي كامل شباب شديد النشاط لا يخلو من حدة وعنف ، فهو — اذا اقتنع — لم يقتنع بعقله وحده ، وإنما اقتنع بعقله وقلبه وشعوره ، وفيه كرم يتجاوز به الانصاف إلى الإسراف في الإنصاف ، فهو لا يكتفي بأن ينصف المظلوم — بالحكم له — بل يريد أن يعاقب الظالم بالالحاح عليه وتشديد النكير

وما أرى أن الكسائي يستحق منه هذه الشدة المسرفة في القسوة ، فكان الكسائي — من الرواية والقراءة والنحو — يفرض علينا أن نكبره ونعرف له فضله

ومهما يجمع المجمعون على ان القول ما قال سيبويه ، فاني أحب ألاّ ننسى ان مذهب سيبويه واصحابه — في النحو — كان مذهب قياس وتعليل وان مذهب الكسائي واصحابه كان مذهب سماع وتقليد للعرب ، وأن لكل من المذهبين خطره وقيمته

كذلك كنت احب أن يرفق كامل بالحاتمي — كما رفق بابن خالويه — فكلاهما أسرف على المتنبي ، ولكنّ كاملاً ابتسم للنحوي وسخر من الاديب ، ومع ذلك فهذا الاديب خليق ان نبتسم له ، لأنهُ صور لنا — في سذاجة تشبه الغفلة — نوعاً من حياة الادباء في القرن الرابع تستحق ان نقف عنده ونفكر فيه

* * *

أثارت قراءة هذا الكتاب في نفسي هذه الخواطر، وخواطر اخرى لا أجد — من الوقت — ما يسمح باثباتها ، وأحب الكتب — إليّ — ما يثير في نفسي الخواطر ، وينشطني للتفكير

فليكن موقع هذا الكتاب — من نفوس القراء جميعاً — كموقعه من نفسي . إذن يكون كامل قد ظفر — من التوفيق — بما اراد ، وبما هو اهل لان يظفر به

باب الزراعة والاقتصاد

تقدير ايجار الاطيان

اضطربت علاقة الملاك والمستأجرين بعضهم ببعض منذ رخصت أثمان الحاصلات الزراعية خصوصاً القطن — ولما كان تقدير ما يساويه الفدان من الايجار مثار الخلاف والاضطراب رأيت ان اعرض خلاصة اختباراتي في هذا الموضوع رجاء ان يكون فيها ما ينير السبيل لتقدير ايجار الاطيان تقديراً عادلاً مرتكزاً على قواعد معينة .

(١) ـ التقدير على اساس الضريبة وظروف تقديرها والظروف الحالية

في سنة ١٨٩٥ شكلت الحكومة لجاناً من اعيان الزراع والموظفين تحت رآسة السير وليم ولكوكس لتقدير ايجارات الاطيان توطئة لتعديل الضرائب على مقتضاها فأتمت هذه اللجان عملها سنة ١٨٩٦ وكانت أعلى قيمة قدَّرتها لاخصب فدان ٥٧٥ قرشاً واقصى ضريبة ضربتها عليهِ ١٦٤ قرشاً تساوي ٢٨،٦٤ ٪ من الايجار المقدر ثم يقل تقدير الايجار والضريبة تبعاً لدرجات الاطيان نزولاً بمقدار ٢٥ قرشاً من الايجار و٧ قروش من الضريبة في كل درجة الى ان تصير أدنى قيمة لادنى درجة ٥٠ قرشاً ايجاراً و١٤ قرشاً ضريبة

في ذلك الحين كان متوسط ثمن القنطار من القطن ٢٢٤ قرشاً في سنة ١٨٩٥ و ٢٠٢ في سنة ١٨٩٦ وكان يعتبر عند رجال الاقتصاد الزراعي ان ثمن الفدان يساوي قيمة ضريبتهِ ٥٠ ضعفاً او قيمة صافي ايجاره اي بعد خصم الضريبة ٢٠ ضعفاً وان ربح ٥ ٪ منهُ ربح حسن — ولكن بعد ان تحسنت وسائل الري والصرف والمواصلات والامن وتوزيع الضرائب وما اشبه مع ترقي الاحوال الاقتصادية عامة ـ زاد اليسر والرخاء وخصب الارض ومنتجاتها زيادة كبيرة فصار ثمن الفدان يقدر بقيمة ضريبتهِ ٧٠ ضعفاً فاكثر وبصافي الربح من ١٥ ضعفاً وصار هذا الربح لا يقل عن ٦ ٪ الى ٧ ٪ من ثمنهِ الزائد ـ واستمر التحسين في اثمان الحاصلات خصوصاً القطن ولا سيما في اثناء الحرب العالمية فاستمر ريع الارض وقيمتها في الارتفاع الى ان طفر ثمن القطن حتى بلغ ثمن القنطار بضعة واربعين جنيهاً وبيعت بعض الاطيان الزراعية بـ ٥٠٠

جنيه الفدان وبلغ ايجاره ٣٠ — ٤٠ جنيهاً ثم عادت الاثمان الى اقل مما كانت عليهِ اثناء الحرب وصار متوسط الايجار للارض الخصبة بمصلحة الاملاك الاميرية ١٦ جنيهاً ونصف جنيه الفدان في سنتي ١٩٢٧ و١٩٢٨ حيث كان متوسط ثمن قنطار القطن ٥٥٠ قرشاً بعد ان كان الايجار ٩ جنيهات ونصف ومتوسط ثمن القنطار ٣٧٢ قرشاً في سنتي ١٩١٢ و١٩١٣ جاء في مذكرة وكيل وزارة المالية عن سياسة الحكومة القطنية انهُ اذا كانت الايجارات في مصلحة الاملاك (قد زادت الى هذا الحد مع ما هنالك من انظمة كفيلة بتلافي ارهاق المستأجرين فانها في الدوائر «الزراعية» الخاصة قد بلغت حدًّا ناء تحت عبئهِ المستأجرون — الى ان يقول — وقد ارتفعت الفئات في بعض الاحيان الى ضعف ما كانت عليهِ قبل الحرب واصبحت في البعض الآخر تزيد عن ٦٠ ٪ الى ٨٠ ٪ ولما كانت اسعار القطن اليوم (اكتوبر سنة ١٩٣٠) قد اصبحت في مستوى اسعار قبل الحرب بالنسبة للسكالاريدس ودون تلك الاسعار بالنسبة للاشموني فقد أصبح من المتعين علاج مسألة الايجارات علاجاً يخفف تكاليف الانتاج ويرفع عن كاهل الفلاَّحين عبئاً اصبحت الاسعار الحالية لا تبرر إحتماله) اهـ. اما الآن ونحن نكتب هذه السطور فان ثمن القطن اقل بكثير عما كان عليهِ قبل الحرب اذ هو يتراوح بين ٩ — ١٠ ريالات او نحو جنيهين اي اقل مما كان عليهِ في اثناء تقدير الايجارات المشار اليهِ في فاتحة البحث

ان القطن كان (ولا يزال الى حد محدود) في مناطقه هو المعوَّل عليهِ في تسديد الايجار او معظمه اما اثمان الحبوب فانها الآن — والعبرة بما يبيعها بهِ الفلاح بيع المضطر لسداد جانب من الايجار في موسم انتاجها — اقل مما كانت عليهِ قبل الحرب واكثر قليلاً مما كانت عليهِ اثناء تعديل الضرائب. ولكن يقابل هذا ان اثمان الحاجيات الضرورية لمعيشة الفلاح وفلاحته قد زادت زيادة اكثر بكثير من زيادة ثمن الحبوب وهذه حقيقة يعرفها ويعانيها الملاَّك والمستأجرون معاً

ان التحسين الذي طرأ على خصب الارض ومنتجاتها بسبب الاصلاحات الآنفة الذكر وقدره مؤلف كتاب الاطيان والضرائب سنة ١٩٠٤ بـ ٥٠ ٪ قال (تم تقدير الايجارات قبل ان تشرع الحكومة في تعميم اصلاحات الري العظيمة بانشاء الترع والمصارف والسكك الزراعية وغيرها وقبل ان تؤسس الشركات المالية والزراعية والتجارية في طول البلاد وعرضها ولم تكن قد انبعثت في القطر روح النهضة الزراعية العظيمة المشاهدة الآن مما كان سبباً لزيادة ايجارات الاطيان بما لا ينقص الى الآن عن ٥٠ ٪ مما كان عليه منذ عشر سنوات» اهـ في ذلك الوقت كان ثمن قنطار القطن من ٢٨٠ — ٣٠٠ قرش وكانت سياسة الحكومة أو بالاحرى سياسة اللورد كرومر المالية متجهة نحو تخفيض الضرائب وانقاص عددها وتخفيض الرسوم الاخرى كالتسجيل واجرة السكة الحديد ووفرة النقود والثقة المالية فكان اليسر والرخاء وتناسق اثمان ما نبيعه ونشتريه معاً بخلاف ما صارت اليه وما لا تزال متجهة نحوه الحالة الآن — ولكن خصب

الارض وانتاجها ـ بصرف النظر عن الاثمان ـ يمكن ان تقدر زيادته الى الآن بـ ٤٠٪ في الارض المتوسطة و ٨٠ ٪ في الارض البحرية . فالارض المتوسطة التي تقدر ايجارها بـ ٣٥٠ قرشاً وضريبتها بـ ١٠٠ قرشاً يساوي ايجارها الآن (بفرض ان يكون ثمن القطن كما كان وقت التقدير ٢٢٤ قرشاً) ٥٠٠ قرش والارض البحرية التي قدر ايجارها بـ ٢٢٥ قرشاً وضريبتها بـ ٦٥ قرشاً يساوي ايجارها الآن ٤٠٠ قرش وهذا وذاك اذا لم تكن هناك ظروف خاصة ضد هذا التقدير كما سيجيء . اما الارض الجنوبية فسبيلها سبيل الارض المتوسطة أو اقل خصوصاً في الجهات التي أثر فيها ارتفاع مستوى النز ـ الماء الارضي ـ عما كان عليه قبلاً لقصور مشروعات الصرف عن بلوغ شأو مشروعات الري حتى ان بعضها قد اصابه ضرر ـ فمشروعات الري والصرف تكافأت في غير الجهات الجنوبية . وقصرت وسائل الصرف فيها عما اقتضتهُ زيادة مياه الري ولذلك (فان الارض الضعيفة جادت والارض الجيدة طَبَّلتْ) كما يقول المستر ولككس في كتاب الري المصري

ومما يلاحظ ايضاً ان هناك جهات زاد خصبها وعمرانها عن المستوى العام لامتياز ملاّكها وفلاحيها بالعناية بها وبحسن التدبير والاستفادة بالظروف الحسنة كما ان هناك جهات اخرى على ضدّ ذلك من كل وجه فليس بقليل ان نشاهد مزرعتين متجاورتين واحداهما استوفت شروط الخصب والنماء ريّاً وصرفاً وعمراناً وفلاحةً وحسن تدبير والاخرى دونها في كل ذلك ولهذا وذاك أثره في قيمة الارض وريعها

هذا وقد عادت البنوك العقارية الآن في تقدير قيمة الاطيان الى ما كان عليه الحال قبل بضع وثلاثين سنة فهذا بنك التسليف الزراعي قرر في قانونه ان ثمن الفدان لا يزيد عن مقدار ضريبته ٥٠ ضعفاً وان قيمة ما يسلف عليه لا يزيد عن ٦٠ ٪ من الثمن وذلك بسبب رخص الحاصلات الزراعية وارتفاع اثمان المنتجات الصناعية التي يحتاج اليها الفلاح لمعيشته وفلاحته وحتى لا تسهل الاستدانة بمبالغ كبيرة تعود عاقبتها مريرة وهذه المرارة يتجرعها الملاك الآن من عواقب الاستدانة السابقة ولولاها لكانت الازمة بينهم وبين مستأجري ارضهم وبين البنوك ايضاً اخف مما هي الآن كثيراً . ورحم الله الدكتور صروف فقد قال منذ بضعة عشر سنة في بحث لهُ بعنوان الرخاء عام لولا الدين (ان الدين الذي سهلت البنوك سبيله للفلاحين سيكون سبباً لخرابهم) م ٣٧ ج ٧ من المقتطف

(٢) ـ التقدير على اساس ما تنتجه الارض ونصيب زارعها منه

جرى العرف الزراعي في الارض الرواتب الخصيبة كأرض الجهات الجنوبية ان لا يقل نصيب الزارع عن ٤٠ ٪ من محصولها نظير فلاحته إياه من بدء تجهيز الارض للزراعة الى تخزين المحصول وقد اشرنا آنفاً الى ان البنوك العقارية تسلف على الاطيان بما لا يزيد عن ٦٠ ٪

من ثمنها كانها تراعي ان يكون ريع ان ٤٠ ٪ الباقية لمصاريف فلاحتها فاذا كان ثمن ماينتجه الفدان من الزروع ١٠ جنيهات فلكلفة هذا الانتاج ٤ والباقي صافيه أو غلة الارض — اما في الارض الاقل خصباً كارض الجهات البحرية فان نصيب الفلاح ٥٠ ٪ من محصولها ويعبر عن هذا في العرف بـ (فدان يخدم فدان) فاذا كان ثمن زروع فدانين مثلاً ١٢ جنيهاً فلفلاحتهما ٦ والباقي ٦ صافي ريعهما واذاً يكون ايجار الفدان ٣ جنيهات وانما زيد نصيب الزارع من هذه لقلة محصولها عن الارض الجنوبية قلةً أكثر من فرق كلفة الفلاحة بين الارضين لان الارض البحرية اسهل ريًّا وأقل قبولاً لكثرة التسميد والحرث والعزق وأكثر مرافق من الارض الجنوبية في مجاري الري والصرف والسكك ولذلك فان الفلاح الذي يمكنهُ فلاحة فدانين في هذه الجنوبية يمكنه فلاحة ثلاثة افدنة من تلك البحرية

ان الفلاّح يستغنى عن كل محصول القطن ولذلك فانهُ حينما كان يزرع في نصف الارض كان يعتبر ان قيمة قطن الفدان الواحد يوفي ايجاره وايجار الفدان الثاني الذي يزرع حبوباً وعلفاً للفلاح وماشيته انما كان ذلك مع ما اسلفنا انهُ في الجهات الجنوبية يكون نصيب الفلاح ٤٠ ٪ لان ثمن القطن كان اغلى نسبيًّا من الحبوب فكان ريع الفدان منهُ اكثر من ريع الفدان منها وقد كان الفلاح المجتهد يستغل من فدان القطن خصوصاً في المواسم الحسنة ما يزيد عن الايجار زيادة يختص بها بينما الفلاح المهمل في المواسم الرديئة تعجز غلة فدان القطن عن سداد الايجار فيضطر المالك لاخذ مايمكنهُ اخذه من فدان الحبوب على ما في ذلك من الصعوبة — اما حينما كانت تحدد زراعة القطن بأقل من النصف كما هو حاصل الآن فلا بد لاستيفاء الايجار من اخذ جانب من الحبوب وقد كثرت عن قبل

(٣) — التقدير وأثمان الحاصلات

لكثرة تقلبات اثمان الحاصلات فانهُ عند الاتفاق على التأجير — اذا كانت الاسعار مرتفعة يخشى ان ترخص بعد فلا يستطيع المستأجر سداد الايجار واذا كانت رخيصة فمن المحتمل ان تزيد فيستفيد المستأجر وحده من الزيادة بينما في حالة الرخص وعجزه عن السداد تقع بعض الخسارة والتعب على المالك — ولما كان القطن هو المعول عليهِ في سداد الايجار او معظمه كما ابنا قبلاً وثمنهُ هو الاكثر عرضة للتقلب فيلاحظ في تقدير الايجار ان يكون على اساس السعر الرخيص فاذا غلا زاد الايجار ولذلك صورتان (الاولى) انهُ كلما غلا السعر ريالاً واحداً يزيد الايجار ٢ ٪ وبعبارة اخرى كلما زاد سعر قنطار القطن جنيهاً زاد الايجار ١٠ ٪ فاذا كان الاتفاق على ايجار الفدان ٥ جنيهات وثمن القنطار ٢٥٠ قرشاً وزاد الثمن الى ٣٠٠ قرش زيد الايجار ٥ ٪ وهكذا. (الثانية) انهُ اذا زاد ثمن القطن يكون نصف الزيادة للمالك بحساب ان

المزروع قطناً يعطي مقداراً من القناطير يقدر بحسب درجة خصبه فاذا جاءت الزيادة في الثمن عن المتفق عليه ٥٠ قرشاً وكان المقرر ان محصول الفدان اربعة قناطير فجملة ثمنها جنيهان جنيه للمستأجر وجنيه للمالك علاوة على الايجار

وفي المزارع الواسعة التي يؤجر بعضها ويزرع البعض الآخر لحساب مالكها يفضل المالك الخبير لمناسبة تحديد زراعة القطن في ٢٥ ٪ و ٣٠ ٪ حسب المناطق ان يزيد المستأجرون زراعة القطن الى الثلث او النصف ويقللها هو فيستفيد فائدتين الاولى سهولة الحصول على الايجار (وقد ذكرنا قبل ميزة القطن في ذلك) والثاني الاقلال من زراعة القطن الكثيرة الكلفة الآن عليه كثرة لا تبررها اثمانه . اما عند الفلاح الصغير فتقل الكلفة الى ادنى حد ممكن كما يعرف الخبيرون بطبيعة العمل في المزارع الكبيرة والمزارع الصغيرة وذكرنا ذلك في مقالاتنا استغلال الارض المنشورة في المقتطف منذ بضعة عشرة سنة

وهناك من يحسب للمحاصيل كلها اثماناً معينة يربط الايجار بحسبها وعلى المستأجر ان يورد للمالك مقداراً منها يوازي الايجار وعلى المالك ان يقبل

(٤) — مناطق الارض وانواع زروعها واسعارها

يراعى في الارض العالية الفائقة الخصب كأرض الجهات الجنوبية ان افضل ما يجود فيها الحبوب ثم القطن فتأثير رخصه فيها اقل منه في غيرها لا سيما وان الضرائب الجمركية التي ضربتها الحكومة على واردات الحبوب الاجنبية وحالت دون كثرة ورودها — حفظت اثمان الحبوب في مستوى صار الآن اعلى نسبيًّا من ثمن القطن

وفي الجهات المتوسطة وهي الجهات التي تلي الجهات الجنوبية مثلاً ان افضل ما يجود فيها القطن ثم الحبوب ولذلك حينما كان ثمن القطن اعلى نسبة من ثمن الحبوب كان ريعها اعلى نسبيًّا من غيرها وليست كذلك الحال الآن

وفي الجهات الشمالية ان افضل ما يجود فيها القطن خصوصاً السكلاريدس وزروع المرعى واخيراً الحبوب وقد كانت خصوصاً اثناء الحرب العالمية لغلاء السكلاريدس الناتج منها حسنة الريع للغاية ويحسن الآن تربية مواشي اللبن والذبيح على زروع المرعى فيها واهمها البرسيم . والمناطق التي يصرح لها فيها بزراعة الارز يتحسن ريعها كثيراً بزراعته لا سيما وانها تصير اصلح للزروع التي تليه

هذا وقد سبق ان بحثنا مسألة التأجير من نواحيها الاخرى منذ بضعة عشر سنة في المقتطف

احمد الالفي

زراعي عملي

التعاون والاقتصاد الزراعي

لما رأينا ما للحركة التعاونية من الشأن الخطير في مصر وما ينتظر لها من عظيم الاثر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية العامة افردنا هذا الباب لنشر مقالات ورسائل عن كل ما يهم الجمعيات التعاونية واعضاءها ويساعد على نشر التعاون وتقدمه . وقلم التحرير ينتهز هذه الفرصة ليعرب عن ترحيبه بنشر ما يرسله اليه اعضاء الجمعيات التعاونية من رسائل واخبار . وخير الكلام ما قل ودل

التعريفة الجمركية او طلاسم الرخاء المزيف

بقلم و ل. كليتون — عن Cotton Trade Journal, International Edition, 1932

المقدمة والنقل الى العربية بقلم السيد احمد مراد البكري

انحصرت تركة الحرب العظمى في مقادير من الخامات والمنتجات لا قبل للعالم بتصريفها بدون احداث هزات عنيفة تداعت بسببها في كثير من الاحيان صروح اقتصادية في جميع بلاد العالم وكانت نواة لتلك الازمة العالمية التي لا نزال نعاني شدائدها ونقاسي من انواع عذابها ألواناً كثيرة — ففي كل بلد من بلاد العالم خيم ظلام الازمة وظهرت فيه اشباح العطلة وهبط مستوى المعيشة وفقدت الثقة في كل شيء حتى في المستقبل فالتجأ أولو الامر في معظم بلاد العالم الى نهج سياسة حماية الانتاج الاهلي برفع التعريفة الجمركية لمنع تدفق المنتجات الاجنبية الى داخل البلاد ومنافسة المنتجين الوطنيين في اسواقهم فقامت الحوائط الاقتصادية بين بلاد العالم ومنعت القوانين الاقتصادية من ان تفعل فعلها الطبيعي فتسبب عن ذلك رد فعل أشبه شيء بثورة بركانية لا تزال كل بلد من بلاد العالم هدفاً لقذائفها الملتهبة. وفي امريكا الآن كما هو الحال في البلدان الاخرى حزبان اقتصاديان أحدهما للتعريفة والآخر ضدها . ولما كانت مصر من بين البلاد التي تأثرت تجارة بعض منتجاتها كالقطن والبصل والبيض بما فرض عليها في امريكا من تعاريف باهظة ، فانهُ من البديهي ان يهمنا متابعة النضال القائم في تلك البلاد بين حزبي التعريفة . والمستر كليتون كاتب المقال الآتي من الحزب المضاد للتعريفة وهو شخصيًّا من كبار رجال المال والاعمال في تجارة القطن ، ولذلك فان آراءه واقتراحاته لها قيمتها العظيمة في بلاده

دأب دعاة سياسة الحماية الاميركيون خلال سنين طويلة على التبشير بأنجيلهم على اساس ان تلك السياسة تؤدي الى رفع كل من الاجور ومستوى المعيشة فاصبح العالم أجمع يصدّق ما يبشرون به. وقد كانت النتيجة اننا اصدرنا تعريفة جمركية في ربيع سنة ١٩٣٠ تعد أعلى تعريفة عرفها العالم في اوقات السلم ولم نخجل من فرض رسوم بلغت في بعض الاصناف ٩٠ ٪ حتى ان جملة الرسوم القيمية والعينية بلغت في بعض الاصناف ١٥٠ ٪ !! وفي اتباع هذه السياسة لم يؤبه لأي انتقاد يوجه الى حكمة هؤلاء الدعاة ولا لتحذيرات ما يربي على الالف من كبار علماء

الاقتصاد الاميركيين ، . ألم تكن تلك السياسة هي مصدر رخاء امريكا خلال سنوات عديدة ؟

اما أقوال اصحاب المصارف الدولية بان سياسة تخفيض مستورداتنا لا بدَّ وان ينشأ عنها صعوبات في تحصيل ديوننا الاوربية فضلاً عن انها لا بد وان تقضي على تجارتنا الخارجية فكان رد دعاة الحماية عليها ينحصر في ان تجارتنا الخارجية لا توازي الا ١٠ ٪ من جملة تجارتنا وعلى اننا لابد ان نحافظ على ال ٩٠ ٪ ونترك ال ١٠ ٪ تحافظ على نفسها كيفما شاءت. وان هؤلاء الماليين لايدرون ما يقولون اذ ان باقي العالم في حاجة شديدة الى قطننا وقمحنا ومصنوعاتنا من سيارات وآلات الراديو وماكنات الخياطة والكتابة فهل هناك احد آخر يحسن صنع هذه الاشياء اكثر منا ؟ كما أن كلنا يعرف أن اوربا في حاجة الى شرائها منا وعليها ان تجد الطريقة التي تدفع بها ثمنها وعلى كل حال فاننا مصممون على ان لا نضيّع حق العامل الامريكي بتشجيع العامل الاجنبي الاقل اجرة منهُ لتمكين بعض اصحاب المصارف الدولية من تحصيل ديونهم الاجنبية فضلاً عن ان العامل الامريكي لا يعنيه من أمر هذه الديون شيء . وهنا ينتهي كلامهم

أما ما حدث بعد ذلك فلا حاجة الى ايراد تفصيلاته فان الحكاية المؤلمة معلومة لدى الجميع ولا تحتاج الى تكرار. فقد نقصت تجارتنا الخارجية المحتقرة بمقدار ٥٠ ٪ خلال التسعة الاشهر الاولى وذلك عما كانت عليهِ في المدة المقابلة من سنة ١٩٢٩ ، ونقصت صادراتنا وحدها بمقدار بليوني دولار (من غرائب الصدف أن هذا المقدار هو نفس العجز الذي ظهر في ميزانية الحكومة عن السنة المالية الحالية) وهذا القدر يساوي القيمة الكلية على أساس الاسعار الحالية للقطن والقمح والذرة والشعير والشوفان التي تنتجها امريكا مضافاً اليها بعض المحصولات التي تقل عنها شأناً. وهنا لا نعجب اذا رأينا موظفي الحكومة يعملون على تخفيف وقع هذه النتيجة أمام الجمهور. وقد قيل لنا مراراً وتكراراً ان مستوى اجورنا العالي ليس الاّ نتيجة تعريفتنا وفي نظري أن حقيقة ذلك أن تعريفتنا هي نتيجة اجورنا العالية فقد كانت الاجور في الولايات المتحدة مرتفعة بكثير عنها في اوربا بمدة طويلة قبل ان يفكر في اول قانون للتعريفة اذ أن هذا القانون أصدر بصفة مؤقتة لتشجيع انشاء الصناعات في بلاد جديدة فلما دخل ضمن نظامنا السياسي أصبح عسيراً علينا إنتزاعه

اما فكرة النظر الى تجارة وارداتنا كتشجيع — لاينطوي على شيء من الوطنية — للعامل الاجنبي مقابل العامل الامريكي ففكرة غريبة حقاً اذ ان الطريقة الوحيدة المجدية لدفع أثمان بضائعنا المصدرة هي استيراد بضائع بدلاً عنها فكان من باب المنطق اعتبار هذه الاخيرة ثمناً للبضائع الاميركية التي يصنعها العامل الامريكي ويصرّفها في الخارج وهذا هو حقيقة الواقع .. وقد قال مستر « البرت وجنس » رئيس مجلس ادارة بنك تشيس الوطني الآتي في صدد ذلك: — أنهُ مع صغر مقدار تجارتنا الخارجية المقدرة بـ١٠ ٪ من جملة تجارتنا فانها لم تزل عظيمة حتى انهُ يتوقف عليها الفرق بين الرخاء والكساد، فان كان من الممكن أن نمنع بواسطة التعريفة كل المستوردات

ما عدا تلك التي لا يمكننا انتاجها مثل البن والشاي والمطاط والحرير الخ . فانهُ لا مشاحة في أن قيمة صادراتنا يجب ان تساوي قيمة المستوردات فاذا زادت عنها واجهنا السؤال عن الطريقة التي سنحصل بها على فائدة الديون التي لنا — دع عنك أصول هذه الديون »

هذا وانهُ من الصعب التوحيد بين نظرية التعريفة الحالية ونشاط الشعب الامريكي وعبقريتهِ واستقلاله ولابد أن يكون المسئول عن بعث تلك السياسة الى الحياة هي الخرافة التي تقول بأهميتها الغير العادية لحياتنا الاقتصادية، تلك الخرافة التي لا تزال تُلَقَّنُ لنا من المهد الى اللحد

واذا كانت تعريفتنا قد نجحت في شيء فانها نجحت في تركنا بدون أصدقاء بين أمم العالم وفي وضع كل محصول امريكي يراد تصريفه في الخارج تحت أشد الصعوبات والعراقيل، وكانت سبباً في ايجاد صناعات طفيلية وجعلتنا ندفع ثمنين لكثير من الحاجات الضرورية، تلك الحاجات التي كان يمكن لغيرنا انتاجها أحسن وأرخص منا وبذلك كان يمكننا اطلاق رؤوس أموالنا وعمالنا وبراعتنا في الادارة والتنظيم للعمل في تلك النواحي التي لا يضارعنا فيها أحد

وقد دعت هذه السياسة كثيراً من الامم الى رفع تعاريفها على البضائع الاميركية، وربما انتظمت انجلترا عن قريب في صفوف اصحاب التعاريف العالية تدفعها الى ذلك رغبتها في الدفاع عن نفسها بعد انضمام كل الدول العظمى الى سياسة الحماية تلك السياسة التي لا بد وأن تؤدي الى تصدير رؤوس الاموال للخارج فيزداد الانتاج في الخارج ويقل في امريكا فتدعو الحاجة الى قفل وترك مصانع كثيرة فيها . وان كل امريكي مهما كانت طبقته ليشعر بتأثير تلك السياسة الذي يتطرق الى جميع مرافق البلاد فيرفع تكاليف المواد الاولية ويجعلنا ندفع هذا الفرق في شكل مستوى عال لأجور السكة الحديد والضرائب وأجور المساكن وكل ذلك له تأثيره في الزراع والزراعة، فكان الاحرى بالحكومة أن تعمل على انقاص أسعار تلك الحاصلات التي يستهلكها الزراع بدلاً من أن تعمل على رفع أسعار تلك الأشياء التي يبيعونها والتي برهنت التجارب على أنها أخفقت فيها

وأخيراً لما كان الكل يعلم أن أمريكا يمكنها ان تغلب العالم في الانتاج الواسع النطاق ولما كانت هنالك أسواق عظيمة — جارٍ فتحها في افريقيا وجنوب امريكا وفي الهند والصين حيث يوجد الملايين من الناس الذين بدأوا يعرفون شيئاً عن معالم المدنية كالطرق الممهدة والسيارة والراديو الخ. — فان هناك ميدانٌ واسعٌ تفتحهُ لنا مخيلتنا لتصريف ادوات السكك الحديدية ولاستعمال براعتنا الهندسية ورؤوس اموالنا الا أنه ليكن معلوماً أن مقدار حظنا في هذه الاسواق يوازي القيمة التي نقبل دفعها في شكل بضائع فعلى ذلك يتعيَّن علينا من الآن الاختيار بين تبوئنا مركزنا الطبيعي في مقدمة التجارة العالمية أو الانصراف الى تقوية الحائط الاقتصادي حول بلادنا هذا الحائط الذي تنزلق عليهِ تجارتنا الخارجية فتزيد تكاليف المعيشة ويهبط مستواها وتضعف حياتنا الاقتصادية في جميع نواحيها

مكتبة المقتطف

الرسائل الضائعة ورسائل اخرى

بقلم سامي الجريديني

طبع بمطبعة الهلال — صفحاته ١٠٨ قطع المقتطف — ثمنهُ ١٠ قروش

ليس باليسير على الكاتب الاوربي ان ينطق عن اهواء الاشخاص الشرقيين . وانه لصعب عسير على كاتب شرقي ان يرى من خلال النفس الغربية وان يستطيع الترجمة لأشخاص غربيين . تلك الصعوبة وذلك المرمى العسير المنال قد تحققا على يد الاستاذ سامي الجريديني . فقد وضع هذه الرسائل الضائعة على لسان فتاتين فرنسيتين احداهما تسكن باريس والأخرى تعيش في لندن . واستطاع ان يعرب عن افكارها. وأن يصور بعض شؤونهما وما يعرض لهما من التجارب والآراء في فهم وعطف كبير

استطاع المؤلف أن يرى وجهة نظر كل فتاة من هاتين الفتاتين . وان يستكتبهما رسائل وآراء شائعة المنحى ، دقيقة الاسلوب ، فيها من البصر بالنفسيات ومعرفة الطبيعة البشرية ما يشهد للأستاذ الجريديني بالبراعة والمقدرة

ولو ان الأشخاص في هذه الرسائل ليس مما يقنع القارىء او يعطيه وهم الحقيقة الصائب فأن الآراء والنظريات والملاحظات العميقة التي اجراها على السنتهم ، صادقة شديدة الصدق عميقة الغور . ولا احسب ان المؤلف قصد الى غير ذلك ولم يكن غرضه القصصي المعهود

نجرمين — سواء التي في لندن او في باريس — نموذج طيب للفتاة الفرنسية المهذبة وما يهجس في ضميرها من أماني أو يجول في خاطرها من شتيت الآراء ومختلف الافكار والنظريات

وخصلة اخرى في كتابة الاستاذ الجريديني لاحظناها أيضاً في كتابه خمسة في سيارة . هي أنه بارع الفكاهة ، شديد الأسر لا يكتب جملة ولا يخط سطراً الا كان دقيقاً فيما يقصد، ينحت اسلوبهُ نحتاً فيخرج من تحت يديهِ اشبه بعمل البنّاء الماهر . فكلماتهُ لا تزيد على معانيهِ بل ان معانيه ومقاصده تزدان بذلك القصد في التعبير الذي يكسب اسلوبهُ صرامة في جمال، وليناً في شدة . والمؤلف من هذه الناحية « يعرف كيف يكتب » كما يقول « ارنولد بنيت » عن بعض الكتّاب الذين ينقدهم

يزعم البعض ان مهنة المحاماة قد دفعت ببعض كبار كتابنا الى « المطّ » في التعبير وتراكم

الجمل الاعتراضية والشروح الاستدراكية وعدم التناسب ، وانتفاء صفات الاحكام والايجاز. وما على أولئك القائلين الا ان يقرأوا الاستاذ الجريديني حين يكتب في الأدب مع انهُ يحترف المحاماة . فانهُ اقام الحجة على ان المحامي الاديب يستطيع ان يكون فنّاناً « كلاسيكي » النهج، ناصع التعبير، واضح الذهن ، متئد القلم ، متين القالب !

« وكتاب الرسائل الضائعة » . يقرب في موضوعه من كتاب المؤلف الاول « خمسة في سيارة » . فهنا كهنالك : تحليل دقيق للنفسيات . وملاحظات صائبة عن الأمم . ووصف جيد رائع وكتابة بادية الفكاهة والاحكام معاوية نور

سيد قريش

رواية تاريخية اجتماعية في ثلاثة اجزاء تبحث في حياة العرب السياسية والاجتماعية في العصر الجاهلي الى ظهور سيد قريش محمد عليه الصلاة والسلام — في ٩٦٧ صفحة حسنة الطبع والورق

عقد الاستاذ رينهارت دوزى في كتابه « اسبانيا الاسلامية » عدة فصول ممتعة عن الخلافات التي قامت بين العصبيات العربية بعد الاسلام واظهر باجلى بيان ان هذه الخلافات موروثة عن الجاهلية حملها العرب معهم اينما كانوا وحيثما حلوا ، بل لقد تدرك بطريق لاشعوري أن هذه المشادات كانت سبباً في تكوين احزاب سياسية او مدارس فقهية بعد الاسلام .ولقد قضى الاستاذ دوزى يجمع مواد كتابه هذا نيفاً وعشرين عاماً حتى دعمه على اوثق المصادر التي استطاع باحث مثله ان يقف عليها في مختلف دور الكتب الأوربية . فلا شك مطلقاً في أن ما كتب دوزى ان لم يكن كاملاً ، فهو اقرب ما يمكن من الكمال

عقد هذا المؤلف فصله السادس في ذلك الكتاب في اليمنيين والمعدّيين وعدَّد بعد ذلك الاسباب التي كانت مثاراً للخلاف بين القبائل والافخاذ والبطون في كليهما ، وعقب على ذلك بالكلام في الخوارج والشيعة واثبت ان الخلاف بينهما يرجع الى مشادات موروثة ثم تكلم في الكلبيين والقيسيين في اسبانيا واثبت ان الخلاف بينهما كان سبباً في سقوط الاسلام في الاندلس

ولقد جرتني هذه الذكريات الى ما كتب السير وليم ميوَر في تاريخ محمد (صلعم) وعلى الاخص ما اشار اليهِ من الخلاف بين الهاشميين والامويين في الجاهلية والاسلام . ولا ريبة في ان الخلاف بينهما كان محوراً دار عليهِ تاريخ الاسلام قروناً عديدة

على انك اذا قرأت « سيد قريش » للاستاذ معروف الارناؤوط عضو المجمع العلمي العربي في دمشق لا تلبث ان تقع على تاريخ صحيح أسبغ عليه الاستاذ ثوب القصص ، بقدر ما يحتاج اليهِ التاريخ ليكون قصة تستهويك الى متابعة القراءة، من غير ان تخلي ذهنك من الوقائع التاريخية. غير ان ابين ما تستبينه عن هذا التاريخ القصصي البديع ، تلك الخلافات التي قامت بين المناذرة احلاف الفرس في العراق ، وبين الغساسنة احلاف الروم في سوريا . لان هذا الخلاف ليس الاَّ

حلقة من حلقات كثيرة ظلت طوال ايام العرب تتواصل غير متدابرة ولا مفصومة على ان هذا كلهُ لم يكن الاّ مقدمة لظهور محمد بن عبدالله ليربط بين كلمة العرب فتتحد وتلتقي بكل قواها على امبراطوريتين مزّقت احداها المطامع وهي امبراطورية كسرى، وافسدت الثانية الروح اللاهوتية واحتكامها في سياسة الامم وتقرير مصائر الشعوب وهي امبراطورية بيزنطية . بيد ان العجب العجاب ليس في هذا . بل العجب في ان العرب بعد ان يدوخوا العالم كله ويفتحوا المعمور من الارض ، لا يلهيهم هذا النصر المبين عن خلافاتهم الموروثة ولا تؤثر فيهم معجزة القرآن الاّ الى حين ، فيعودون دراكاً الى منافساتهم القديمة ،فتأكلهم وما حصدوا نيرانها المتلظية

ولم ينسَ الاستاذ مؤلف الرواية انيذكرنابورقة بن نوفل وسطيح وبحيرا الراهب وعلاقة هؤلاء الثلاثة بتاريخ نشأة النبي العربي العظيم . اما سطيح فليس لهُ من الاثر الاّ اثر التنبؤ بظهور نبي جديد بين العرب يجمع كلمتهم ويثأر للعرب من جيرانهم الفرس والروم. اما الاثر الذي تركه ورقة بن نوفل حكيم قريش وبحيرا راهب الشام ، فلا اظن انهُ ضئيل . والدليل على هذا مادي ثابت : فان كل الروايات التي ذكرت في القرآن عن عيسى او قل اهمّها قد اخذت من الكتب التي اعتبرتها الكنيسة الرومانية من الكتب المحذوفة فالمعجزة التي رواها القرآن مثلا وفيها يتكلم عيسى عن نفسهِ بقوله « واني اصنع من الطين كهيأة الطير فأنفخ فيه فيكونَ طيراً بأمر الله »ورواية النخلة عندما وضعت مريم عيسى فقال لها «وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّا» — الى غير ذلك كلهامسطورة في الكتب المحذوفة.فالرواية الاولى تجدها في اول انجيل توما ، والثانية في اول انجيل متّى المحذوف. وكلاها اعتبر في الكنيسة الرومانية من الكتب المحذوفة . ولكن الواقع ان لهذه الكتب مدارس ايدتها في الشرق وعلى الاخص بعد انفصال اليعاقبة والنساطرة عن الكنيسة وانتشارهم في غرب آسيا وشمال جزيرة العرب وبثهم التعاليم التي خرجوا من اجلها على الكنيسة النصرانية . ولا يبعد مطلقاً ان يكون ورقة بن نوفل وبحيرا الراهب من رواة هذه الاحاديث.على ان الثابت تاريخيّا ان ورقة بن نوفل كان من حكماء العرب ومن اعرفهم بتاريخ الاديان ومبادئها وانهُ من اقارب خديجة بنت خويلد اول زوجات النبي العربي وانهُ كان يساكنها ، وانهُ كان موضع سرها وموئلها عند طلب النصح والارشاد . بل كان ممن يسمع لهم في عكاظ وانهُ كان احد رجال الندوة المعروفين لا في قريش وحدها بل في جزيرة العرب من شمالها الى جنوبها

وأنت ان تصفحت تاريخ العرب يبادر الى ذهنك معنى الصحراء والجفوة والغلظة . فاذا قرأت سيد قريش وقفت على ما كان للعرب من ضلع في المدنية وعلى الاخص في العراق وفي الشام ، واستروحت شيئاً جديداً يوقفك على ان العرب لم يكونوا بعيدين عن المدنية



توفيق مفرج

مؤلف كتاب « آلام وأحلام »

الاّ بنشأتهم الاولى فى جوف تلك الصحراء المترامية الاطراف وانهم كانوا على علم بما تأتي به المدنية من النظريات التي طمعوا فيها واستغلوها اوسع استغلال بعد ان جمعت كلمتهم على القرآن
والرواية من اولها الى آخرها عبارة عن قصة منسجمة مؤتلفة، ان نقصها من شيء فاضطراب فى الاسلوب يكفر عنه جمال الوضع وتآلف العناصر التي تكوّن هيكلها

ولقد مر بذاكرتي عند ما بدأت اقرأ هذه الرواية الممتعة كنلورث وايفانهو وعروس لمرمور للسير وولتر سكوت . فهذا احيا من تاريخ الايقوس في اشخاص فرسانهم ومؤلفنا العربي احيا من تاريخ العرب فى اشخاص النعمان بن المنذر والحارث بن جبلة وابن الايهم وعنترة العبسي والمنذر بن الحارث وقابوس بن النعمان . ونحن لدى الواقع احوج ما نكون الى القصص التاريخي . فان مفاتن اوربا كادت تخدعنا عن ميراثنا النبيل . ولا شك مطلقاً فى ان هذا الميراث الخالد اول ما يحرك في النفوس النخوة القديمة ، وان فينا منها لبقية ، وان شئت فقل حشاشة تسوق بنفسها . فاذا فرخت هذه المجاجة مرة اخرى فلا اظن ان الغرب الاّ مطأطىء لها الرأس احتراماً

اسماعيل مظهر

آلام وأحلام

آلام وأحلام ... لفظتان شعريتان ، هما بحران من عالم الحياة تتقاذف فوق لجتيهما قلوب ويحويان من اسرار ذلك المعنى الكبير (الحياة) ما هو عميق لا يدرك فنظل واقفين امامهُ فى شوق الى ادراكه لا نحول عنه رغم المحاولات الضائعة ، وما هو بسيط العمق يدرك لكنهُ ساحرٌ يأخذنا فى محيطه فنصبح اسراراً والغازاً

وآلام وأحلام ... هو كتاب ، او هو صورة مصغرة لهذه الحياة . هو كتاب الفن الذي اتحف بهِ الادب العربي الاستاذ توفيق مفرّج فإذاهُ فى جبين العربية درة تتألق ، درة لامعة فى معانيه وألفاظه ، درة لامعة في اتقان طبعه وحسنه ، ولم ارَ في تاريخ الطباعة العربية سحراً يلمس الاّ في كتاب (شاعر في طيارة) لفقيد الادب المرحوم فوزي معلوف ، وكتاب « آلام وأحلام » الذي نتكلم عنهُ

هو مجموعة قصائد ومقالات من الشعر المنثور . او هو مجموعة من النغم السامي التقطها الاستاذ توفيق من سماء الالهام فأسمعها اهل الارض الذين يصك مسامعهم دويُّ الآلات ورنين الذهب ، وعويل المنازعات المختلفة ... نشرها في المقتطف والهلال وبعض المجلات العربية والانكليزية في موضوعات مختلفة مثل : مصر . الحب حتى الموت . عواطف ام . راسم . يحيا ثعد . المثل الاعلى . على الارض السلام . على ضريح من احب . الى التي احب .... الخ

فقطعته « مصر » التي اقترحت مجلة الجرافيك ، التي تصدر في لندن عليه ان ينظمها هي احرى بأن تلقن فى مدارسنا لاطفالنا يحفظونها ككلمة عمرو بن العاص التي كتبها عن مصر فهي نشيد كلما

قرأتهُ شعرت بعظمة تحملني على اجنحتها الى عوالم السمو التي عاش فيها اجدادنا وسنعيش فيها باذن الله

كذلك تلك القطعة التي تحمل الفاظها روحَ الحنان الخالص الذي لا تشوبهُ شائبة ، والتي وسمها بعنوان « الحب حتى الموت » فصوَّر فيها حنان الأم اجمل تصوير حتى لم اكد اتم قراءة هذه الجملة التي تخاطب بها الام خيال الموت وهي تتبعهُ فداءً عن ولدها « سرْ ايها الخيال وأسرع فحياة الطفل رهينة الموت ، عجل لنصل الى ابواب الابدية قبل ان تُطلب حياة الطفل من ملاك سواك ، اسرع لكي تتمكن الأم من التضحية بنفسها فداء عن ابنها » لم اكد اتم قراءتها وأنا الى جانب امي حتى اخذت يدها فغمرتها بقبلات بارة انحدرت بعدها دمعتان من عينيَّ تجلت لي من خلالها تلك العظمة المقدسة التي جعلت المؤلف يهدي كتابه الى التي أحبها كثيراً ، الى امه . . . . .

وظللت ألتهم بقية موضوعات الكتاب فكنت أشعر بلذة تغمرني وتحملني معها على اجنحة سحرية وأنا مأخوذ بسحرها ورقتها حتى اذا انهيت أخذني سحر آخر ،وفتنةٌ أُخرى هي جمال الكتاب

وما ازال اذكر تلك الوقفات الجميلة التي كنت اقفها عند ما أتمُّ موضوعاً كأني أمام جدول ماسيٍّ بديع يجري في وسط مروج خضراء تحت ظل الشفق الاحمر الفتان

فأشكر الاستاذ مفرّج على إتحافهِ عشاق الادب بهذه الباقة الجميلة ، واستحلفهُ بتلك التي يحبها كثيراً ان لا يدع المشاغل المالية تحرمنا من تحفهِ ، وان لا تنسيهُ قراءهُ الذين سينتهون من قراءة هذا الكتاب لينتظروا منهُ غيرهُ وغيره

حسن كامل الصيرفي

وادي نطرون ورهبانه واديرته

Etude sur le Wadi Natroun, ses Moines et ses Couvents
Alexandrie 1931

لصاحب السمو الامير عمر طوسن ولع بالدراسات والابحاث التاريخية والاجتماعية وخصوصاً ما يتعلق منها بتاريخ مصر فتراه لا ينفك عن معالجة المخطوطات والمؤلفات من قديمة وحديثة ليستوضح منها ما غمض من تاريخ البلاد أو ليوجّه الانظار الى حقائق جديرة بالاعتبار . فبالامس اصدر كتابه عن مالية مصر من عهد الفراعنة الى الآن وهو ترجمة الكتاب الذي الفه سموه عن ذلك الموضوع باللغة الفرنسية وامامنا الآن بحث في « وادي نطرون » كتبه سموه بالفرنسية ايضاً

ترى اذا ما قلبت صفحات هذه الرسالة ان البحث يقسم الى ثلاثة اقسام فالاول يتعلق بجغرافية وادي النطرون الواقع على بعد ثمانين كيلومتراً عن القاهرة من طرفه الجنوبي الشرقي وعلى بعد خمسةٍ وثمانين كيلومتراً عن الاسكندرية من طرفه الشمالي الغربي . والقسم الثاني يتناول رهبان وادي نطرون قبل الفتح الاسلامي العربي وبعده . والثالث يبحث في اديرة وادي نطرون فيتناول الاديرة المختلفة ويروي اخبار مؤسسيها ويذكر التغيرات التي

طرأت عليها في مختلف العصور فيبين لنا انه هنالك اربعة اديرة في ذلك الوادي في الوقت الحاضر وهي عامرة ومأهولة وحولها انقاض ثلاثين من الاديرة التي كانت عامرة في مختلف العصور المسيحية السالفة

وانه ليعجبك في ابحاث سمو الامير الجليل تلك الدقة التي يجب ان ترافق كل بحث . فما تجده في كتاب مالية مصر من الرجوع الى المصادر الاصلية والاستناد الى اهم الثقات تراه في هذا البحث ايضاً . ولا يكتفي سموه بذلك بل تراه تارةً ينتقد ما ورد في بعض تلك الاصول والمراجع واخرى يستعملها للاستدلال على حقائق جديدة وحسبك ان تقرأ صفحة ٣١ من رسالته هذه عن كيفية اكتشافهِ لدير الانبا زخريا بين انقاض تلك الاديرة لتحقيق ذلك او ان تقرأ عن انتقاده لما ورد في المقريزي بان عدد الرهبان كان سبعين الفاً في ايام عمرو بن العاص ورجوعه الى ما رواهُ الذين عاشوا في القرن السادس واستنتاجه ان عدد الرهبان لم يكن اكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة بل اقل من ذلك

والرسالة محلاة بالصور الجلية الواضحة التي اخذها الدكتور بوي هوبير في اثناء الرحلتين التي قام بهما بصحبة سمو الامير والاستاذ ريتشيا في ربيع عامي ١٩٣٠ و١٩٣١ . ونحن اذا ابدينا اعجابنا بمؤلفات صاحب السمو الامير عمر طوسن وبالابحاث التي يحمل نفسه مشقة القيام بها فاننا نفعل ذلك باسم البحث والعلم والحقيقة

رام الله (فلسطين) جورج حداد

كتاب الصحة والحياة

هذا كتاب مفيد . يجب ان يكون في كل بيت يتكلم اهله العربية ويقرأونها . وفائدتهُ آتية من ناحية جمعهِ لاهم الحقائق عن بناء الجسم ، ووظيفة كل عضو من اعضائهِ ، وتضمنهِ للارشادات اللازمة التي يجب على كل انسان ان يجري عليها للمحافظة على سلامة الاعضاء . وهذه المباحث تستغرق من فصولهِ خمسة عشر فصلاً تملأ ١٠٦ صفحات . اما فصولهُ الباقية وهي ٢٣ فصلاً تملأ ١٧٤ صفحة فقد خصصت لوصف الامراض التي يكثر تفشيها ، واماطة اللثام عن اساليب المعيشة الصحية ، وما يلزم من العلاجات الضرورية التي تدفع بها غوائل هذه الامراض

مؤلف هذا الكتاب يدعى الدكتور سلمون (Selmon) ولا ندري من هو ، وباية لغة الف كتابهُ اولاً ولكن ناشري الترجمة العربية يقولون انهُ صدر من نحو عشر سنوات فترجم الى عشرين لغة ولهجة مختلفة وذاع في الصين والهند واليابان وغيرها عدا ظهور خمس طبعات منهُ بالانكليزية . وانما الامر الذي يهمنا انهُ كتاب مفيد وان ترجمتهُ متينة العبارة، قريبة التناول ، وطبعهُ بالغ حدًّا بعيداً من الاتقان . فنسدي الشكر الى مترجمته « الزهرة » (اوليفيا عويضه) ولناشريهِ اعضاء « جمعية المطبوعات العربية ببيروت » ولطابعيه اصحاب مطبعة دار الايتام السورية في القدس الشريف

رسالة باريس — لبشر فارس

تآليف المستشرقين

تهافت التهافت لابن رشد

(المطبعة الكاثوليكية ببيروت)

Tahafot at tahafot — Beyrouth (Imprimerie Catholique)

ليس حديثي هنا عن مذهب ابن رشد فكلنا يعلم ان الرجل الف كتابه ليردَّ على الغزالي ويدفع اقواله في « تهافت الفلاسفة » . وكلنا يعلم انه نهج في ذلك منهجاً سديداً اذ جعل يقلّب مصنف الغزالي ظهراً لبطن فتارةً يسلّم بصحّة فقرة من فقره وطوراً يطعن في أُخرى معتمداً في ذلك على شدة عارضته راجعاً الى منطقه القويم . وكتاب ابن رشد من اركان الحكمة العربية والدليل على ذلك ان الفرنجة أقبلوا عليه فنقلوه الى اللاتينية والعبرية منذ القرن الثاني عشر

على أن حديثي هنا عن كيفية ابراز هذا الكتاب . فاعلم ان الاب اليسوعي (بُويِج) عُني بنشره وذهب في التثبت والاستقصاء الى الغاية . ذلك بأنهُ اعتمد على عشر نسخ مخطوطة بعضها عربي وبعضها عبري وبعضها لاتيني فعارض بينها جميعاً ليستخلص منها الصحيح وينبذ الفاسد والموضوع . فجاءت طبعته خيراً من طبعة مصر

ثم ان الناشر عمد الى الاسلوب الحديث الذي يعمد اليه رجال دار الكتب في مصر فأشار الى النسخ في كل صفحة من صفحات الكتاب ليتدبّر القارىء عمله . ثم انه ترك الكتاب على شكلهِ ابتغاء المحافظة على الاصل فأبى أن يقسّمهُ الى اقسام يجعل لكل منها عنواناً يهتدي بهِ القارىء . غير انه جعل لكل فقرة رقماً ثم اثبت الرقم في أعلى الصفحة واضاف اليه مجمل الفقرة باللاتينية وكان جديراً بهِ ان يردفه بترجمة له عربية ثم انهُ جعل في نهاية الكتاب فهارس تقرّب منال فوائده : ففهرست للاسئلة وآخر لنصوص الغزالي التي يتدبرها ابن رشد وآخر لاسماء الاعلام وآخر لعناوين التصانيف وآخر لفقه اللغة ثم فهرست للاصطلاحات الفلسفية. وكان حقيقاً بالاستاذ ان يثبت في هذا الفهرست ما يرادف تلك الاصطلاحات باللغة الفرنسية وليس ذلك بالمتعذّر عليهِ

وختاماً اني اخبرك وملء جوانحي الفرح أن الاستاذ بويج ما كف على ابراز اركان الحكمة العربية وهمه في ذلك الاستقصاء والتثبت . وعسى ان ينقلها الى الفرنسية فيطلع عليها طلاب

الفلسفة في الغرب ويفسحوا في تآليفهم وابحاثهم مكاناً لحكمة العرب تلك الحكمة التي عول عليها فحول المتكلمين الغربيين ايام العصور الوسطى مثل (دانس سكوت) Duns Scot ومار توما St. Thomas d'Aquin وغيرهم

الشام في العصور الخوالي والعصور المتوسطة

La Syrie Antique et Médiévale Editions Geuthner, Paris.

ان الشام ظفرت بمظاهر المدنيات التي ما انفكت تقوم بالتتابع حواليها . والسبب في ذلك ان اهل تلك المدنيات غلبوها على امرها تارةً وانصرفوا اليها اخرى لطيب صعيدها وصلاح اقليمها فحلوا بها واقاموا . وان ننس لا ننس انها كانت طريق القوافل بين مصر وفارس وان سواحلها كانت تجمع جمّاً غفيراً من الاسيويين والافريقيين واوروبي الجنوب

ولم يكن الشاميون ليعرضوا عن الفن فانهم اقبلوا عليه وزادوا فيما انتهى الى ايديهم وحلّوه ثم انصرفوا الى البناء، بالحجر وافتنوا فيه واختصوا به . ثم ان ورعهم وولعهم بالدين صرفا هممهم الى مظاهر من الفن جديدة

ومما لا يخفى على الناس ان الفرنسيين لا يدخرون جهداً في التنقيب عن جمع تلك الآثار. وقد وفقوا الى عدة مكتشفات وهاهم اليوم يذيعون بين الخلق كتاباً ضخماً يدرجون في اطوائه صوراً فوتوغرافية لبنايات أثرية وبعض تماثيل وادوات فنية يقف عهدها عند الحروب الصليبية . الا ان الرهط الذين عنوا بابراز الكتاب اضافوا اليها قصرين احدهما بيت العظم في دمشق والآخر قصر بيت الدين بلبنان وقد رموا في ذلك الى ان يشيروا الى تأثير الفن اللبناني في هذا والفن التركي في ذاك

وفي هذا الكتاب آثار لفنون السومريين (الشمريين) والمصريين والحثيين والاشوريين والبابليين المتأخرين والفرس واليونان والرومان والروم والمسلمين والفرنجه . وعندي ان فن التزيين ملموس في التماثيل والادوات التي بعث بها المصريون الى الشاميين قديماً فحذا الشاميون حذوهم فيها . واما الابهة فمبسوطة على بنايات اليونان والرومان واما الدقة ففي الرسوم التي تعلو الجدران البيزنطية واما الجلال فستو على جنبات الجوامع واما العزة فمقيمة في القلاع والمرابط التي شيدها الصليبيون

فمثل هذا الكتاب يعرض عليك من الوان الفن ما يسحر عينيك . الا اني كنت اود لواسهب مبرزوه في التعليق على الصور فيبسطون لنا فوق ما بسطوا من شرح ونقد لان الصور ليست بشيء اذا لم يكتنفها احاديث واخبار لاتقف عند الايماء

امثال مطوية لعجائز مراكش

Proverbes inédits des vieilles femmes marocaines

Edition Geuthner Paris

هذه مجموعة امثال يضربها اهل مراكش ولا سيما عجائزهم في دورهن . وترمي العجائز في ضربها الى تأديب بناتهن وكنائنهن وإمائهن وكثيراً ما تنم هذه الامثال على اختبار حق . وفيها حكم على شاكلة حكم اهل الجاهلية . على ان طائفة منها قريبة المنال لبساطة عبارتها على حين ان غيرها بعيدة المعنى بل مقفلة لغموض فيها أو لاشارتها الى حادث غاب بين طيات الزمان

وقد نقل هذه الامثال الى الفرنسية احد المترجمين الجزائريين المعهود اليهم في التراجم الرسمية . وقد فطن ان يعلق على كل مثل فيشرحه وربما عارضه بآية أو حديث أو بيت شعر أو حكمة بل ربما قابله بمثل فرنسي . ولكنه لم يوفق الاّ قليلاً في المقابلة

ولأسق اليك بعض هذه الامثال :

« جا من برّا وحاد ما طرّا » والمعنى : غريب يحدثنا عن بلدنا

« خلى همو باللساس ومشا يحفر على دا الناس . أي خلف همه علانية وانطلق ينقب عن هموم الناس»

«فلس في الجيب احسن من ميا بالغيب» ويقابله عندنا : عصفور في اليد ولاعشرة عالشجره

« كل خنفوس عند مـّو غزال » . ويقابله عندنا : الإِرد في عين أُمه غزال

« نشم يدى ونشبع » . يقوله من أُرى ثم افتقر

«صنعه فعمى المؤذن اذا ما اذن يحنحن » . والمعنى أن عمي المؤذن لا ينفك يتنحنح اذا لم يؤذن . ويقابله في امثال المولدين : العادة توأم الطبيعة (راجع الميداني ج ١ ص ٤٥٨ طبعة مصر)

* * *

هذا وليس اثبات هذه الامثال الدارجة لوناً من الوان اللهو بل ضرب من ضروب العلم الذي يسميه الفرنجة Folk-lore (معرفة الامم) . وهو فن يبحث عن احوال العامة اواغانيهم وآدابهم . وبودي لو ينهض أحد من المصريين فيجمع امثالنا الحلوة الخفيفة الظل المملوءة سخراً ورشاقةً في آن . واني اذكر ان الاديب نجيب نجم كرم عرض لهذا العمل فألف كتاباً لسنة مضت عارض فيه بعض امثال مصرية بامثال سورية ولكن مؤلفه غير واف وان كان نفيساً

باب الاخبار العلمية

السكر ومكروب النزلة الصدرية

تلا الدكتور أُوزولد ايڤري (Avery) احد اطباء المستشفى التابع لمعهد ركفلر الطبي في مجمع كلية الجراحين الاميركي رسالة قد تكون فاتحة عهد جديد في مكافحة النزلة الصدرية وما اليها من الامراض التي يحدثها المكروب المعروف بالنوموكوك Pneumococcus . قال ان للنوموكوك غلافاً لايستطيع المكروب ان يغزو الجسم ويحدث فيهِ المرض مجرداً عنهُ ، اذ يسهل حينئذ على البلعمات Phagocytes ان تفتك بهِ . والراجح ان هذا الغلاف مكوَّن من صنف خاص من السكر يركبه المكروب نفسهُ . ولكل صنف من « النوموكوك » صنف خاص من السكر . وهذا الغلاف السكري ليس سامًّا — في الراجح — على مثال الغلاف السكري الذي يحيط بمكروب الدفتيريا ولكنه يعيق الشفاء او يمنعهُ لانه يحول دون وصول المواد المكافحة للمكروب في الدم الى البقع المصابة فيتعذر عليها مكافحة المكروب في موطنهِ

وقد وجد الدكتور ايڤري واعوانهُ ان الجسم لا يولد « انزيماً » يحلُّ هذا السكر المعقد التركيب وانما يوجد في بعض انواع التربة التي تكثر فيها المواد النباتية المنحلة كائنات دقيقة تولد « انزيماً » له هذا الفعل . وقد تناولوا فعلاً هذا الانزيم وحقنوا بهِ فئراناً مصابة بالنزلة الصدرية فشفيت . ووجدوا كذلك ان حقن الفئران بهذا الانزيم يقيها من فعل مكروبات النزلة الصدرية القاتلة مع ان هذه المكروبات تميت في الحال فئراناً اخرى لم تحقن بهذا الانزيم . وفعل الانزيم حلُّ السكر الذي يتكون منهُ غلاف المكروب فيسهل على حماة الجسم مهاجمتهُ والفتك بهِ . فالشفاء اذاً رهن وجود هذا الانزيم ومقدرة الجسم الدفاع عن نفسهِ

سرعة الافاعي

الشائع ان الافاعي تمرُّ امام الناظر مرور البرق الخاطف . على ان الدكتور ولتر موزور (Mosauer) العالم بالحيوان والاستاذ بجامعة كاليفورنيا الاميركية استعمل ادق الوسائل في قياس سرعة الافاعي المختلفة فوجد ان اسرعها لايقطع اكثر من ميلين ونصف ميل في الساعة . وان ذيوع الاعتقاد بسرعتها العظيمة وهمٌ ذهنيٌّ سببهُ خوف المشاهد والافعى معاً وتلوي الافعى في اثناء زحفها

قياس عوامل الوراثة

استعمل الاستاذ اوزولد بلاكوود الاستاذ في جامعة بتسبرج الاميركية اشعة اكس لقياس عوامل الوراثة فوجد ان طول العامل الواحد نحو ٨٠ انجستروماً (او ٣٢ جزءاً من الف مليون جزء من البوصة)

أفعل مبيد للحشرات

« الروتنون » مادة فعالة في مكافحة الحشرات وابادتها تستخرج من جذور بعض النباتات الاستوائية في جزائر الهند الشرقية وجنوب اميركا . وقد جاء في انباء اميركا العلمية ان ثلاثة كيماويين من وزارة الزراعة الاميركية فازوا بمعرفة تركيبها الكيماوي ، فاذا هي مركبة من ثلاثة عناصر : — الكربون والايدروجين والاكسجين بنسبة ٢٣ للاول و ٢٢ للثاني و ٦ للثالث . أما بناء ذرات هذه العناصر في الجزيء الواحد فمعقدٌ كل التعقيد . والغرض من عناية الكيمائيين بمعرفة البناء الكيماوي لاية مادة طبيعية هو استعمال هذه المعرفة في صنع المادة بالتركيب بنفقة اقل من نفقة استخراجها من مصادرها الطبيعية . والعلماء الذين كشفوا عن تركيب «الروتنون» الكيماوي معنيُّون الآن بدرس بعض مركبات يرجح انها تفضي الى مادة جديدة مماثلة للمادة الطبيعية وانما تفوقها في شدة فعلها

وقد تعلم البيض استعمال « الروتنون» من سكان جزائر الهند الشرقية وجنوب اميركا الأصليين، اذ رأوهم يسمّون الاسماك بالنباتات التي تحتوي على هذه المادة ، ثم يأكلونها من دون ان يصابوا بفعل السم . فجرَّب بعضهم فعل النبات في الانسان مباشرة فوجد انهُ لا يسمُّ الانسان قط ، فلما جرب فعلهُ بالحشرات وجد انهُ يفتك بها فتكاً ذريعاً

نظير جديد للنحاس

الرصاص الذي ينشأ من انحلال الراديوم يشبه الرصاص العادي في كل خواصهِ الطبيعية والكيمائية وانما يختلف عنهُ في وزنهِ الذري. وهذا هو « الايسوتوب » او « النظير ». وقد استنبطت طريقة في جامعة الاباما الاميركية اسمها الطريقة « المغناطيسية البصرية » Magneto - optic للبحث عن العناصر المجهولة ونظائر العناصر المختلفة . فاكتشف بها العنصران اللذان يقابلهما رقم ٨٥ و ٨٧ في جدول موزلي و دعيا «فرجينيوم» « والابامين » . وقد استعملت هذه الطريقة نفسها للبحث في نظائر النحاس فاكتشِفَ بها نظير جديد له . والنحاس عنصر معدني وزنهُ الذري ٦٣٫٥٧ ولكن بحث الاستاذ استُن الانكليزي المعروف « بابي النظائر » اثبت ان للنحاس نظيرين كلاًّ منهما يشبهُ النحاس في خواصهِ الطبيعية والكيمائية وانما يختلف عنهُ في الوزن الذري فاحدها وزنهُ الذري ٦٥ والآخر ٦٣ . اما النظير الجديد وهو الثالث فلا يعلم عنهُ حتى كتابة هذه السطور اكثر من ان وزنهُ الذري اقل من ٦٣ ولعلّهُ يكون ٦١ تحقيقاً لما تنبأ بهِ الاستاذ يوري Urey احد اساتذة جامعة كولومبيا

احوج ما يحتاج اليه العالم

يرى المستر اورڤيل ريط احدمستنبطي الطيارة ان رخاء الانسانية يزيد بزيادة القوة المحركة ورخصها وعليهِ فاعظم المستنبطات التي يحتاج اليها الناس هو محرِّك يحوّل الطاقة الكامنة في المادة الى قوة محركة او محرِّك يستطيع ان يتناول القوة مباشرة من اشعة الشمس

ويظن الدكتور لي ده فرست مستنبط الانبوب المفرغ المستعمَل في المخاطبات اللاسلكية ، ان الاستنباط العظيم التالي هو التلفزة (الرؤية عن بعد) العملية الواسعة النطاق . ولكنهُ مع هذا يرى ان احوج ما نحتاج اليهِ مصادر لا تفنى من القوة الرخيصة الثمن فنستطيع ان نقلب بها احوال العمل والمعيشة واساليبهما

وعنده ان مصادر هذه القوة كائنة تحت قشرة الارض على عمق بضعة اميال من سطحها. وابناء الجيل القادم لن يحفروا المناجم في الارض لاستخراج الفحم والمعادن بل لاستخراج الحرارة بطريقة تمكننا مثلاً من انزال الماء الى الاعماق واخراجه بخاراً وبهذا البخار نولد القوة الكهربائية فنستعملها في تدفئة بيوتنا وتبريدها، وتنقية الهواء، وتسيير المركبات بل في كل شؤون المصانع والبيوت

ويرى الدكتور إليهو طمسن احد كبار المهندسين الكهربائيين في اميركا ان اعظم المستنبطات التي يحتاج اليها العمران هو طريقة لتحويل طاقة اشعاع الشمس الى تيار كهربائي عالي الضغط ، تحويلاً مباشراً

سرعة الضوء

اصدر المسيوغوري ده براي Gheury de Bray رسالة موضوعها سرعة الضوء سرد فيها كلّ التجارب التي جرّبت لقياسها من دومر (العالم الدنماركي الذي قاس سرعة الضوء برصد خسوف اقمار المشتري سنة ١٦٧٥) الى ميكلصن (العلامة الاميركي الذي توفي في العام الماضي) وقد اورد في رسالتهِ نتائج ٢١ تجربة جربت لهذا الغرض اولها تجربة فيزو Fizeau سنة ١٨٤٩ وآخرها تجربة ميكلصن التي اتمها قبيل وفاتهِ. وبعد البحث الدقيق قال ان التجارب التي يصح الاعتماد على نتائجها سبعٌ قسمها الى قسمين الاول التجارب التي جرِّبت لقياس سرعة الضوء على مسافة لا تتجاوز اربعة كيلو مترات وهي

العالم	الشهر	السنة	السرعة بالكيلومترات
ميكلصن	٥	١٨٧٩	٢٩٩٫٩١٠
نيوكم	٧	١٨٨٢	٢٩٩٫٨٦٠
ميكلصن	٨	١٨٨٢	٢٩٩٫٨٥٣

ثم التجارب التي جربت لقياس سرعة الضوء على مسافة ٢٣ كيلو متراً او اكثر وهي

العالم	الشهر	السنة	السرعة بالكيلومترات
كورني هلمير	٨	١٨٧٤	٢٩٩٫٩٩٠
پروتان	٤	١٩٠٢	٢٩٩٫٩٠٦
ميكلصن	٦	١٩٢٤	٢٩٩٫٨٠٢
»	٠	١٩٢٦	٢٩٩٫٧٩٦

طريقة عجيبة لقتل المكروبات

الصوت امواج . وكلما ارتفع الصوت قصرت الامواج واسرع تواليها ولكن اذا قصرت الامواج عن حد معين عادت الاذن البشرية لا تحسها . على ان هذه الامواج نفسها لها فعل غريب في الاحياء. فالدكتور لسلي تشمبرس والدكتور نيوتن جاينز من اساتذة جامعة تكساس المسيحية قد اثبتا ان تعريض اللبن الى آلة خاصة تخرج امواجاً صوتية متناهية في القصر افضى الى قتل ٨٠ في المائة من البكتيريا التي في اللبن

وقد كان الاستاذ ود الاميركي من اوائل الذين عنوا بهذه المباحث. وقد لخصنا تجاربه في مقال اخاذ بغرابتهِ في مطلع مقتطف مايو سنة ١٩٢٧ ومن اهم الحقائق التي اثبتها انه كان يبحث في طريقة لتوليد امواج صوتية قصيرة سريعة لا تسمعها اذن الانسان فيستعملها لاكتشاف غواصات الاعداء وهي غائصة في الماء . واذ هو يجرب التجارب بهذه الامواج في حوض اتفق انهُ شاهد سمكة في الماء تتجه نحو المنطقة التي تخترقها الامواج ثم لم تلبث ان انتفضت وعامت على وجه الماء فاقدة الحياة . فمد يده الى الماء ليعلم سبب ذلك فسحبها حالاً لانهُ لم يستطع ان يتحمل ما شعر بهِ من الالم الذي اخترق لحمه الى العظم وشعر كأن يده تنحل انحلالاً

ووالى ود تجاربهُ بعد الحرب فأثبت ان صغار السمك وزرعاً من الحيوان المكرسكوبي المعروف بالبراميسيوم تموت كلها اذا سلطت عليها هذه الاشعة . ثم اثبت انهُ اذا عرض دم الانسان اليها نقص عدد كرياتهِ الحمراء ولما جرب تجاربهُ في نبات السبيروجيرا وهو مائي يكثر في المادة الخضراء التي تغطي برك الماء الراكد قتلت خلايا النبات قتلاً . ولما بقيت الخلايا نحو خمس دقائق ونصف دقيقة معرضة لهذه الامواج باد منها العين والاثر ولما امتحن الماء بالمكرسكوب لم يجد من آثار الخلايا النباتية الا خيوطاً دقيقة

علاج بسيط لتصلب الشرايين

يرى الدكتور پلش J. Plesch استاذ الطب الداخلي في جامعة برلين ان تصلب الشرايين ليس مرضاً بل وسيلة الطبيعة للدفاع عن الشرايين ومنع انفجارها وانهُ ليس حالة خاصة بالمتقدمين بالسن وانهُ قابل للشفاء . والطريقة التي وصفها لعلاجهِ في مجلة اللانست الطبية ، تقوم اولاً على ازالة اسباب ضغط الدم العالي ولا يكون ذلك بتناول العقاقير التي ترخي الاوعية الدموية بل بالجري على نظام غذائي معين . وهذا النظام الغذائي اساسهُ الامتناع يوماً كل أسبوع وثلاثة اسابيع متوالية كل سنة عن المآكل التي تحتوي على النتروجين (البروتينات) والملح (كلوريد الصوديوم) . يضاف الى ذلك وجوب المعيشة في الهواء الطلق والبعد عن كل هم فكري

وتصلُّب الشرايين نفسهُ مظهر من مظهر مرض يصيب بنية الانسان اذ تضعف العضلات

الناعمة وغيرها من الانسجة المرنة في جدران الاوعية الدموية عن مقاومة سير الدم فتعمد الطبيعة الى ترسيب الجير في جدران الشرايين حيث يشتدُّ ضغط الدم لتقوية هذه الجدران ومنع الانفجار الدموي . ويؤكد پلش ان تصلب الشرايين ليس خاصًّا بالمتقدمين في السن بل يصيب الاحداث كثيراً وينكر انهُ اذا ظهر لا بد من اطراد تقدمهِ وان شفاءه متعذر

آخر العناصر المجهولة

في رسالة بعث بها الاستاذ أليسُن احد علماء المعهد البوليتكنيك في ولاية الاباما الاميركية ، الى الجمعية الكيمائية الاميركية اعلن انهُ اكتشف آخر العناصر المجهولة وهما العنصران اللذان يقابلهما في جدول موزلي الرقمان ٨٥ و٨٧ فدعا الاول « الابامين » نسبة الى الولاية الاباما التي يشتغل فيها ودعا الثاني «فرجينيوم» نسبة الى الولاية فرجينيا التي ولد فيها . ولا يخفى على قراء المقتطف ان العالم الروسي مندليف تنبأ ان العناصر المادية التي تتركب منها كل المواد المعروفة اثنان وتسعون عنصراً رتب المعروف منها في جدول يعرف في علم الكيمياء بالجدول الدوري Periodic Table وترك فيهِ مواقع العناصر المجهولة وتنبأ بصفاتها من موقعها وعلاقتها بالعناصر المجاورة لها . وقد اكتشف معظم هذه العناصر في اثناء حياة مندليف وبعد وفاتهِ ، وخصوصاً بعد ما اخرج موزلي جدولاً رتب فيهِ العناصر من ١ — ٩٢ بحسب اوزانها الذرية فاكتشف هفسي وكوستر عنصر الهفنيوم (رقم ٧٢) في كوبنهاغن عاصمة الدنمارك سنة ١٩٢٣ واكتشف نودك Noddack وتاك عنصري المزوريوم (٤٣) والرينيوم (٧٥) في برلين سنة ١٩٢٥ واكتشف هبكنز الاميركي عنصر الالينيوم (٦١) سنة ١٩٢٦ في جامعة الينوي الاميركية وكلهم جروا على طريقة موزلي في اكتشاف هذه العناصر (راجع مقالة موزلي كشاف خريطة العناصر مقتطف يونيو ويوليو ١٩٣١) . اما الدكتور أليسُن فقد اكتشف العنصرين الجديدين بطريقة ابدعها حديثاً ودعاها الطريقة المغنطيسية البصرية وهي اشدُّ احساساً من طريقة موزلي المبنية على اشعة اكس

القبة والطير

بعد نشر مقال القبة والطير جاءتنا من مدام دفونشير الكلمة الآتية :

جاءني ايضاً من جناب مسيو رابينو عن هذا الموضوع ان كتاب «كلستان» لسعدى بهِ فقرة تشير الى هذا الطير وقد عثر عليها في ترجمة هذا الكتاب للسر اردوين ارنولد ص ١٠ وهي بالمعنى الآتي « واذ لم يكن هناك الطائر « الحامي الذي يقوم على حراسة الملوك

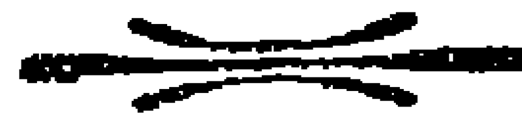
« اتظن ان يكون هذا سبباً لتلمس « الناس السلامة تحت «اجنحة البوم »

وقد رأيت ان الحق مقالي بهذه التكملة فيما يتعلق بالبحث عن الاصل في اتخاذ هذا الطير من شعار الملك

وقد ورد في سياق الكلام عن الملك المؤيد في ذلك المقال ان اسمه « شيخو » والصواب «شيخ» كما لا يخفى على فطنة القارىء

الجزء الاول من المجلد الحادي والثمانين

صفحة



السدم اللولبية (وهي عوالم من قبيل المجرّة) خارج المجرّة والغرض من الصورة تمثيل ما وراء المجرّة فالابعاد بين اجزائها ليست صحيحة

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الثاني من المجلد الحادي والثمانين
١ يوليو سنة ١٩٣٢ — ٢٧ صفر سنة ١٣٥١

الفضاء بين النجوم

هل هو فراغ تام او فيه بقايا سديم كوني

تقدم علماء الفلك في العصر الحديث، تقدماً عظيماً في قياس ابعاد النجوم، ولكنهم لم يحصروا عنايتهم في قياسها بطريقة « زاوية الاختلاف » بل اعتمدوا على وسائل حديثة سپكترسكوبية واحصائية، ثبتت صحة نتائجها باتفاقها والآراء الفلكية المسلَّم بها. فأسفر هذا البحث الشاق عن صورة جديدة للكون النجمي فاذا هو مجموعة من الوف ملايين النجوم منثورة في فضاء رحب شدَّ ما يسترعي انتباهك فيه فراغهُ العظيم. فانك اذا فرضت وجود اربعة من صغار الاسماك في المحيط الاتلنتي رسمت لنفسك صورة تبين رحابة الفضاء الكائن بين النجوم

ولقد كان من الراسخ في روع الباحثين، من عهد غير قريب، ان الفضاء الكائن بين النجوم ليس فراغاً تامًّا. فقد شاهد الراصدون، ان اشعة الضوء الذي تمرُّ في رحاب الفضاء تتشتت، وهذا التشتت لا يمكن ان يتمَّ اذا كان الفضاء مفرغاً فراغاً تامًّا من المادة، ولا بدَّ ان يحتوي هنا وهنالك على ذرة تائهة او الكترون شارد. والواقع ان الصور الفوتوغرافية التي صوِّرت لمناطق مختلفة من الفضاء، وخصوصاً مناطق المجرَّة، تثبت وجود نواحٍ تملأُها مادة غازية كثيفة تحجب ضوء النجوم التي وراءها فتمنع وصولهُ الينا بامتصاصهِ. وبعض هذه اللطخ الغازية ذو معالم وحدود واضحة، وبعضها لا حدود لهُ ولكن كثافتهُ تقلُّ رويداً رويداً الى ان يندمج في ما نحسبهُ مادة الجلد الصافي الاديم

هذه المشاهدات تشير اشارة لا لبسَ فيها ولا ابهام الى احتمال وجود مادة منتشرة انتشاراً دقيقاً في رحاب الفضاء الذي بين النجوم

بسط ادنجتن Eddington اولاً هذا الرأي في خطبتهِ الباكرية (Bakerian) من نحو خمس سنوات واثبت بالادلة الراجحة ان الفضاء بين النجوم ليس مفرغاً بل هو «ممتلئ» مادةً . وليس المراد بلفظ « ممتلئ » هنا احتشاد المادة فيهِ حتى لا يسع شيئاً علاوة على ما فيهِ ، وانما يقصد معناها النسبي اي اننا لا نجد ناحية معينة في رحاب الفضاء مفرغة فراغاً تاماً من المادة ولو في ألطف حالاتها . بل ان في الفضاءِ من الذرات المنتشرة فيهِ ما يكفي لوجود ذرة واحدة في كل سنتمتر مكعب منهُ

هذا كان رأي ادنجتن وادلتهُ النظرية . وقد انقضت الآن خمس سنوات، اثبت الراصدون في اثنائها ، بالمشاهدة صحة هذا الرأي ، بل ان حديث التقدم في هذه الناحية من الطبيعيات الفلكية من افتن الاحاديث العلمية للب . والغريب ان هذا الاكتشاف نشأ — كطائفة كبيرة من المكتشفات — من مشاهدة شذوذ أو انحراف عن القاعدة العامة في اثناء بحث مسألة علمية أخرى

***

في علم الطبيعة مبدأ يعرف بمبدإِ دبلر (Doppler) مؤداهُ ان اقترابَ جسم يحدث صوتاً اليك في اثناء احداثهِ للصوت ، من شأنهِ ان يقصّر امواج الصوت ، وان ابتعاده من شأنهِ ان يطيلها . وعليه فاذا كنت واقفاً وكان قطار صافر متجهاً اليك قصرت امواج التصفير وارتفع صوتها . واذا كان مبتعداً عنك طالت امواج التصفير وخفت صوتها . وكان السر وليم هجنز (Huggins) الفلكي البريطاني ، يبحث في هذا الموضوع من نحو خمسين سنة، فخطر لهُ ان يطبق هذا المبدإ على امواج الضوءِ ويستعملهُ في قياس سرعة النجوم . فاذا كان نجم من النجوم مقترباً منا كان طول كل موجة من امواج الضوء الذي يشعهُ اقصر من طول امواج الضوء المماثل لهُ على الارض. فاذا حللنا ضوء النجم المقترب بالسبكترسكوب حادت الخطوط المظلمة الخاصة بالنجم الى جهة اللون البنفسجي . واما اذا كان النجم مبتعداً عنا فان الحيود يكون الى جهة اللون الاحمر . فمن معرفة جهة الحيود تعرف جهة سير النجم اقتراباً منا أو ابتعاداً عنا. ومن معرفة مقدار الحيود تعرف سرعتهُ . وقد طبقت هذه الطريقة في طائفة كبيرة من اشهر المراصد فقيست بها سرعة الوف من النجوم . واستعملت اخيراً في قياس سرعة السدم اللولبية التي خارج المجرَّة فثبت ان بعضها يبتعد عنا بسرعة نحو ١٥ الف ميل في الثانية . وهذا مما حدا بالعلماء الى القول بان الكون آخذ في الاتساع كأَنه فقاعة صابون ينفخ فيها

ولا بد هنا من كلمة عن الحل الطيفي قبل ان نبين كيف استعملت هذه الطريقة لاثبات رأي ادنجتن السابق الذكر

وضع كرشوف من نحو سبعين سنة اصول الحلّ الطيفي — السبكترسكوبي — وقدكان للآلة المعروفة بالسبكترسكوب اكبر أثرٍ في توسيع معارفنا الفلكية في نصف القرن الأخير. وهذا لا ينفي وجوب استعمالها دائماً مع التلسكوب الذي يجمع الأشعة التي تحلّ بها. والمبدأ الذي تقوم عليهِ هذه الآلة هو ان النور اذا مرَّ في موشور انكسر انكساراً يختلف باختلاف طول موجتهِ . اي ان امواج اللون الأحمر اقلّ انكساراً من امواج اللون الأصفر وامواج اللون الأصفر اقلّ انكساراً من امواج اللون البنفسجي . وهكذا نستطيع ان نحلَّ نور الشمس الابيض الى الالوان التي يتألف منها بامرارهِ في موشور مثلّث او قطعة زجاج مخطّطة طولاً وعرضاً بخطوط قريبة جدًّا بعضها الى بعض (grating)

وقد اثبت كرشوف ان للاجسام المنيرة طيوفاً مختلفة يستطاع تبويبها ثلاثاً : (الأول) يعرَف بالطيف المستمرّ : وهو الحاصل من حلّ نور منبعثٍ من اجسام صلدة متوهّجة او سوائل او غازات مضغوطة ضغطاً عظيماً : (الثاني) يعرف بطيف الخطوط اللامعة او طيف الغازات وهو طيف النور المنبعث من غازات او ابخرة متوهّجة مضغوطة ضغطاً متوسطاً او واطئاً : (الثالث) يعرف بطيف الخطوط المظلمة وهو طيف نور منبعث من مادة تستطيع ان تمتصّ جانباً من النور المنبعث منها . وبالثالث من هذه الطيوف فسّر كرشوف خطوط فرونهوفر في طيف نور الشمس التي كانت لا تزال سرًّا مغلقاً [1]. وباستعمال السبكترسكوب تمكن العلماء من معرفة حالة النجوم والسدم الطبيعية . فعرفوا مثلاً ان السديم الكبير الذي يظهر في الفضاء قرب كوكبة الجبّار غازيّ وان السديم قرب المرأة المسلسلة غير غازي

ولما كان معروفاً لدى العلماء ان كل عنصر من العناصر الكيماوية التي تتركب منها قشرة الأرض اذا توهج وحُلَّ نورهُ ظهر في الطيف خط واحد — او اكثر — يتميز بهِ عن غيره، استعملوا هذه الطريقة للكشف عن العناصر في الكواكب والسدم . وبتطبيقها على الشمس ثبت ان فيها تسعاً واربعين عنصراً من عناصر الارض الاثنين والتسعين . والواقع ان عنصر

---

(١) خطوط فرنهوفر . اذا حللنا نور الشمس بسبكترسكوب الى الوانه السبعة المرئية وجدنا في مناطق الالوان المختلفة خطوطاً سوداء دقيقة . هذه الخطوط راقبها اولا ولستن الانجليزي سنة ١٨٠٢ ثم عني بها فرونهوفر الالماني سنة ١٨١٤ واحصى نحو ٧٠ خط منها فنسبت اليه . وتعليلها ان كل غاز او بخار يمتص الامواج التي يطلقها اذا توهج فاذا حللنا طيف النور المنطلق من قطعة صوديوم محترقة وجدنا مثلا خطاً اسود في مكان معين في منطقة اللون الاصفر . هذا الخط يتميز به عنصر الصوديوم فاذا وجدنا في طيف الشمس خطاً في منطقة اللون الاصفر يتفق من كل الوجوه مع خط الصوديوم حكمنا ان في جو الشمس صوديوماً هكذا

الهليوم كشف عنهُ في الشمس قبل الكشف عنهُ بين عناصر الارض . فقد كشف عنهُ سنة ١٨٦٨ في لهب اخضر اللون من لُهُب الالسنة المندلعة من الشمس في اثناء الكسوف . ودعي «هليوم» نسبة الى اسم الشمس اليوناني « هليوس » وظل مجهولاً بين العناصر الارضية الى ان كشف عنهُ السر وليم رمزي سنة ١٨٩٥ وما يستخرج منهُ الآن يستعمل في الغالب لملء البلونات المسيَّرة لانهُ لا يلتهب كالايدروجين

وقد استعملت خطوط فرنهوفر حديثاً لمعرفة نسبة العناصر التي في الشمس بعضها الى بعض . وذلك بدرس عرض الخطوط التي تظهر في الطيف ونسبة عرض الواحد منها الى الآخر . ثم استعملت هذه الخطوط ايضاً لمعرفة شيء عن حركة الاجرام السموية فقد ثبت انهُ اذا كان الجرم السموي متجهاً نحونا فان حركة الخطوط في طيفهِ تتجهُ من الأحمر الى البنفسجي . واذا كان مبتعداً عنا فان حركة هذه الخطوط في طيفهِ تتجهُ من البنفسجي الى الاحمر . لأن عدد الأمواج التي تصلنا منهُ في الحالة الأولى آخذة في التزايد والقصر وفي الحالة الثانية آخذة في التناقص والطول . فاتجاه حركة هذه الخطوط وسرعتها تمكن العلماء من معرفة اتجاه الاجرام السماوية بالنسبة الى الارض وسرعتها . وبالجري على المبدإ ذاتهِ يستطاع الكشف عن النجوم المزدوجة واثبات دوران الارض حول محورها

* * *

ومن اول الذين وجّهوا عنايتهم الى هذا الموضوع الدكتور هارتمان احد علماء مرصد بوتسدام الالماني فلم يلبث ان صرّح انهُ في اثناء درسهِ لخطي الكلسيوم في طيوف بعض النجوم وجد ظاهرة غريبة لا تتفق ومقتضيات مبدأ دبلر المذكور ذلك انهُ لاحظ ان خطي الكلسيوم لا يحيدان الى جهة اللون البنفسجي ولا الى جهة اللون الاحمر كما تحيد بقية خطوط الطيف ، وهذا من المفارقات ! فاذا كان نجم من النجوم يسير سيراً سريعاً نحونا فلا بدَّ من ان تحيد الخطوط في طيفهِ نحو اللون البنفسجي . واذا كان مبتعداً عنا فلا بدَّ من ان تحيد الى جهة اللون الاحمر . ومن الغريب ان هارتمان وجد ان كل خطوط الطيف تحيد الى احدى الجهتين الاّ خطّا الكلسيوم واحياناً خط الصوديوم

وما صرّح هارتمان تصريحه المتقدم حتى عني الراصدون بتحقيق مشاهدتهِ فأيّدوها بمشاهداتهم . ومن ثم اخذوا يقترحون النظريات لتعليلها

ولا يخفى ان الارض في اثناء سيرها في الفضاء تنقل معها غلافها الغازي المكون من غازات باردة وكذلك النجم ينقل معهُ في اثناء سيرهِ غلافاً من الغازات التي تحيط بكتلتهِ الغازية الشديدة الحموّ . فاذا انبثقت من داخل النجم اشعة ومرّت في جوهِ الغازيّ الخارجيّ — البارد اذا قيست حرارتهُ بحرارة قلب النجم — واذا كان في هذا الجوّ الخارجي ذرات عنصر الكلسيوم

الموجبة الكهربائية ، ظهر خط الكلسيوم في طيف ضوء النجم مع خطوط العناصر الاخرى، وهو خط مظلم من خطوط فرونهوفر لانهُ حدث بالامتصاص . ولكنَّ الغريب ان خطوط الطيف الاخرى تحيد الى جهة الاحمر او جهة البنفسجي بحسب ابتعاد النجم او اقترابهُ ، واما خطا الكلسيوم لا يحيدان ولذلك عُرِفا هما وما ماثلهما «بالخطوط المستقرة» Stationary

ألا يجوز ان تكون ذرات الكلسيوم منتشرة في الفضاء بين النجوم وبهذا يعلّل استقرار خطي الكلسيوم في طيوف النجوم ؟

وما منشأ هذا الكلسيوم الذي في الفضاء النجمي ؟

هل هو مادة منبعثة من النجوم الجبارة في اثناء سيرها في الفضاء ؟

او هو بقايا سديم كوني نشأت منهُ النجوم بالتجمع الجاذبيّ ؟

* * *

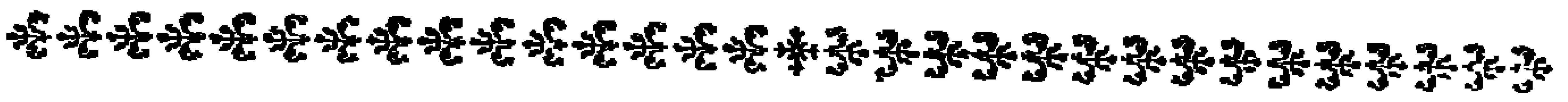
ولما تناول الدكتور ستروف Struve احد علماء مرصد يركيز Yerkes الاميركي هذا البحث اثبت انهُ كلما زاد بعد النجم عن النظام الشمسي زاد ظهور الخطوط « المستقرة » في طيفه . وهذا يعلّل بان الضوء مرَّ في مسافات شاسعة من السحاب الكوني المالئ للفضاء بين النجوم فزاد امتصاص هذا السحاب لضوء الكلسيوم فزاد ظهور خطيه في الطيف

ولم يلبث العلماء ان وجدوا انَّ هذه الخطوط تحيد الى احد طرفي الطيف ولكنَّ حيودها ضئيل جدًّا اذا قيس بحيود الخيوط الاخرى . لذلك عدلوا عن تسميتها بالخطوط المستقرّة وقالوا انها خطوط ما بين النجوم interstellar

وجاء الاكتشاف المتوّج لهذه المباحث لما ثبت ان هذا الحيود الضئيل في خطي الكلسيوم وما يماثلهما يمكن تعليله تعليلاً دقيقاً بافتراض ان المجرة تدور حول مركزها وهو ما اثبتتهُ المباحث الفلكية الاخرى (راجع مقالة « ما وراء المجرّة » في مقتطف يناير ١٩٣٢)

ويرى الاستاذ ادنجتُن ان « بقايا السديم الكوني » المالئة رحاب الفضاء النجمي ليست كلسيوماً فقط او كلسيوماً وصوديوماً . ولكن احوال الرصد مكنتنا من مشاهدة خطوط هذين العنصرين قبل غيرهما . بل هو يذهب الى ان هذا السديم الكوني يحتوي على كل العناصر التي على الارض

اما كثافة بقايا « السديم الكوني » فواطئة جدًّا لا تزيد عن كثافة نفخة مدخّن وقد مُددت حتى ملأت فضاء سعتهُ الف ميل مكعب ! على ان رحاب الفضاء تفوق التصور في سعتها. وعليه فهذا الغاز المتناهي في اللطافة الذي يملأها تبلغ كتلتهُ نصف كتلة النجوم . فاذا سلمنا بهذا الرأي الجديد قلنا ان المادة الاصلية التي تكونت منها النجوم ، تحوّل ثلثاها نجوماً وبقي الثلث الآخر مادة لطيفة منتشرة في رحاب الفضاء



حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا

وكيل الداخلية للشؤون الصحية



لمحة تاريخية

من اراد البحث في حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر وجب عليهِ ان يستعرض الحالة التي كانت عليها البلاد في العصور الغابرة حتى يمكنهُ ان يزن الحالة الحاضرة بالمقابلة بين العهدين ويقدر النشاط الصحي الحالي التقدير الصحيح مع مراعاة العادات القومية والامراض المحلية ودرجة المدنية في العصور المختلفة كما لا يغيب عن البال ان تقدم الصحة العامة لا يقاس بالنتائج التي أفضى اليها هذا التقدم فحسب بل بمقدار الاعمال التي كان من شأنها الوصول الى هذا القدر من التقدم

ان تقدم الصحة العامة يمشي جنباً الى جنب مع تقدم الطب ومع انتشار التعليم بين افراد الامة وفيها في نواحي حياتها المختلفة لان ارتفاع مستوى العناية بالحالة الصحية العامة لم يأت في الواقع الا من طريق تطبيق ما بلغته فروع الطب من النماء في الازمنة المختلفة ولهذا السبب استنسب رجال الصحة ان يطلقوا على فرع الطب الذي يعنى بالصحة العامة اسم « علم الطب الوقائي » لانه لا يقتصر على العناية بالملابسات التي تحيط بالانسان فقط كما يتبادر للفهم من تعريف مداه بعبارة (الصحة العامة) ، ولا المظاهر الاكلينيكية للمرض ووسائل الوقاية منه بل يشمل سبر غور التطورات التي تحدثها الاصابة بالمرض في جسم الانسان ومعرفة مدى قوة دفاع خلايا الجسم وسوائله ضد الامراض أي معرفة القوة الحقيقية للجيش المدافع عن الانسان. فهذا الفرع يجمع كل جهود فروع الطب التي عرفت منذ خلق الانسان حتى الآن ويوجهها لغاية واحدة في دائرة مداه الواسعة اما الغايات التي يرمي اليها دائماً مهما اختلفت الوسائل وتنوعت الطرائق فهي:

١ — تقوية بنية الفرد وبذلك تزداد قوة مقاومته للامراض وتعلو تبعاً لها كطريقة للعمل المنتج وهي بيت القصيد

٢ — الوقاية من الامراض باستئصال شأفة أسبابها أو قمعها ومنع انتشارها بامتلاك ناصيتها

٣ — اطالة العمر وتقليل الوفيات

وكل من تتبع تاريخ الطب الوقائي أو تاريخ الطب بصفة عامة رأى ان كل الابحاث والمشاهدات لا تتجه الى غير هذه الغايات سواء أكان السير اليها بطيئاً كما حصل في العصور السالفة أم سريعاً كما شاهدنا في القرنين الاخيرين ، وسواء أكان البحث متجهاً الى الوصول الى غاية واحدة

من هذه الغايات الثلاث أم الى اثنتين أم اليها كلها كما هو الحاصل في عصرنا الحاضر. ولقد قامت كل أمة من الامم القديمة والحديثة بنصيب في تقدم الصحة العامة وكان كل نصر جديد في تفهم طبيعة الامراض يعبّد السبيل لنصر آخر يليه بل ولفتح جديد حتى بلغنا الى التقدم الحالي وستستمر الفتوح بعون الله فتزداد المعرفة لاسرار الكون بالكشف عن حقائقها وفتح مغاليقها حتى انني لا اغالي لو قلت انه لو بحث احدنا بعد جيل أو اثنين لادهشه ، ما تكون عليه الحالة الصحية العامة من التقدم واذا أعاد الى مخيلته صورة ما كان يظنه المثل الاعلى لما يجب ان تكون عليه هذه الحالة في عصرنا الحاضر لرآها — بالمقابلة بما سيكون عليه العالم — رسماً فجاً من البساطة بمكان. ولكن أحفادنا لا يستطيعون على اي حال ان ينكروا انهُ لولا ما جادت به قرائح اجدادهم في عهدنا الحاضر بل وفي عهد اجدادنا لما تقدم العالم قيد خطوة بل لفنيت الدنيا ومن عليها بما انتابها من الشرور الاجتماعية وجوائح الامراض القتالة لانهُ لم يخل عصر من العصور من وباء فتاك أو غضبة تكشر فيها الطبيعة عن نابها ويبدو أثرها باحد مظاهر التدمير والتخريب كفيضان الانهار وثوران البراكين او زلزلة الارض ولا عاصم يومئذ للناس الا بمقاومة طغيان الطبيعة بيد العلم والعرفان

ومصر كانت اولى الامم التي عملت على رفع مستوى الطب والصحة العامة فهي اقدم امم الارض حضارة وعلماً ومنبت اول انتصار ناله الانسان على الامراض. ومن ناحية الصحة العامة كان قدماء المصريون يباهون بانهم اصح بني آدم وكان دأبهم الاخذ بكل حيطة ليتمتعوا بالصحة الجيدة ولذلك كانوا أمة تعنى باسباب البأس والالعاب الرياضية وشعارها « درهم وقاية خير من قنطار علاج » وكانوا يدرسون الطب في جامعات عين شمس ومنف وطيبة والاسكندرية حيث كانت مهبط العلم وقبلة طلابه وقد كرع موسى عليه السلام كؤوس العلم مترعة في جامعة عين شمس وتهذب بكل حكمة المصريين — وقد نقل اليونان علوم مصر الى بلادهم وقت ان كان المصريون يعرفون الكثير عن القبالة وعملية الختان وعلم الصحة والجذام والامراض الجلدية ويكفيهم فخراً ان أبقراط الملقب بأبي الطب من تلاميذهم وهو صاحب القول الحكيم «على الطبيب اذا اراد ان لا يخدع نفسه أو يخدع غيره ان يلم بما كان يعرفه من سبقوه » لان خير وساطة للتجديد في مختلف العلوم هي البناء على الاسس الصالحة من القديم

ان المقياس الاول لتقدم الصحة العامة هو النظافة العامة وقد كان قدماء المصريين كثيري الرعاية لذلك خصوصاً في اشخاصهم وهذا مما ادى الى ترقية عاداتهم وقد ذكر هيرودوتوس في كتابه الثاني ابان زيارته لمصر في القرن الخامس قبل الميلاد قوله «لا نزاع في ان المصريين هم اكثر تديناً من اي أمة اخرى ومن عاداتهم انهم يشربون في كؤوس من البرونز يغسلونها يومياً وهذا لا يقوم به البعض فقط بل الكل على السواء وهم جد حريصين على ارتداء الملابس البيضاء المغسولة حديثاً وهم يختتنون مراعاة للنظافة التي هي شعارهم وهم يفضلونها على الظهور بالمظهر الحسن وكهنتهم

يحلقون جسمهم كله مرة كل ثلاثة ايام حتى لا يعلق بأجسامهم القمل أو غير ذلك من الحشرات النجسة اثناء قيامهم بخدمة الآلهة وكذلك يغتسلون بالماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل»

وقد لاحظ هيرودوتوس ايضاً وجود البعوض بكثرة وكان المصريون يتقون شره بالصعود الى الابراج التي تعلو المناقع ليناموا بعيدين عن متناول البعوض الذي كانت تحول الرياح دون وصوله اليهم واما الذين كانوا يعيشون بقرب المناقع فانهم كانوا ينصبون اثناء الليل شبكات صيد الاسماك على فراشهم وكانوا يرحلون من تحتها للوصول الى الفراش منعاً لتسرب البعوض الى داخلها فالمصريون والحالة هذه هم اول من انتبهوا لمضار البعوض ولاتقاء ضرره بأبسط الوسائل

ومن الذين درسوا الطب بمصر وكان له القدح المعلى في وضع أسس الطب الوقائي جالينوس الذائع الصيت الذي كان تلميذاً للمصريين اذ رضع لبان العلم بجامعة الاسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد واحاط بكل ما عرف عن الطب في وقتهِ ومما هو جدير بالذكر في هذا الموطن انهُ وان كان الفضل يرجع الى ابقراط في تقسيم اسباب الامراض الى انواعها تبعاً للفصول او المناخ او العوامل الخارجية او العوامل الشخصية كنوع الغذاء او العادات او ممارسة التمرينات الرياضية وهو صاحب المبدأ القائل بان فعل المرض يكون بالهجوم من جانبهِ ويقابله الدفاع من جانب الجسم اي انهُ الكاشف الاول لكفاية الطبيعة على الشفاء وان الطبيب الماهر هو الذي يدرس وسائل مقدرتنا هذه ثم يقلدها — وان كان ما تقدم كلهُ ينسب فضله الى ابقراط الا ان جالينوس كان اول من اعلن ملأ الاطباء ان علم وظائف الاعضاء هو دعامة الطب وقد جعله علماً قائماً بذاتهِ وجمع كل ما عرف عن الطب في زمنهِ وصقلهُ اسوة بابقراط واستمرت مؤلفاتهِ المرجع الاعلى للعلوم الطبية غرباً وشرقاً زهاء اربعة عشر قرناً وكان ينصح تلاميذه بزيارة جامعة الاسكندرية التي انشأها بطليموس الاول اذ هي موطن الدراسة الصحيحة لعظام الانسان.

وقد ظلت هذه الجامعة شمس العالم التي يستضيء الكل بنورها ومنبع العلم والعرفان الذي يرتوي منهُ كل طالب للحقيقة وذلك حتى سنة ٢٠٠ بعد الميلاد ثم بدأت في الانحطاط الى أن ذهبت ريحها واندثرت في سنة ٦٤٠ ميلادية عندما فتح العرب مدينة الاسكندرية وكانت العلوم الطبية قد اضمحلت بمصر قبل انتقالها الى اليونان بزمن وكان التشريح قد منع من سنة ٥٠٠ ميلادية فتفرق رجال العلم ايدي سبا وهاجروا الى بلاد الشام وفارس وليس من شك في ان الحالة الصحية قد اضمحلت في البلاد كذلك تبعاً لاضمحلال معاهد الطب الذي عدت على علومهِ فنون الشعوذة والدجل واصبح أثراً مشوهاً بعد ان كان جنة قطوفها دانية وفيها من كل فاكهة زوجان

ثم سطع على مصر نور الطب العربي في زمن ازدهاره في الفترة من سنة ٧٥٠ الى ١٢٥٠ ميلادية وقد ظهر بمصر في اوائل هذا العهد كتاب في الطب القبطي جمع بين دفتيهِ مائتي «وصفة» لامراض العيون والمعدة والرحم والبواسير والحبوب وامراض جلدية اخرى



حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا
وكيل الداخلية للصحة وطبيب الاسرة المالكة الخاص

وقد استفادت مصر كثيراً من الطب العربي وآوى الى ظلها الظليل واشتغل بالتأليف والتصنيف في اثناء هذه الفترة من تاريخها طائفة كبيرة من مشهوري الاطباء العرب كميمون الموسوي وابن العيني وابن الفارس والنباتي الشهير بابن البيطار الذي شغل بمصر وظيفة الصيدلي الاول التي تعادل الآن وظيفة مدير قسم الصيدليات وقد انشأ ابن طولون في سنة ٨٧٥ ميلادية اول مستشفى في ذلك العصر وعززه الملك كافور الاخشيدي بمستشفى غيره في سنة ٩٥٧ وكانت توجد دار اخرى للعلاج في مصر القديمة وفي سنة ١٠٠٥ اسس الحاكم دار الحكمة بالقاهرة وهي اشبهُ بجامعة منها بدار طب وكان الفاطميون قد بدأوا في تأسيس جامعة بالاسكندرية احياء لجامعتها القديمة كما اسس صلاح الدين مستشفى الناصري والنوري وقد اشتغل ابو صبيعة في المستشفى الاخير وكان الطب يدرس في هذه المستشفيات ثم القى عبد اللطيف البغدادي دروساً في الطب بالازهر في سنة ١١٩٣

ولا يمكن انكار ما قام بهِ الطب العربي في خدمة الصحة العامة لا في مصر وحدها بل وفي العالم اجمع فالعرب وان كان اغلب طبهم منقولاً عن طب جالينوس غير انهم ابتكروا الكثير ايضاً مما يخرج تعداده عن موضوع هذا البحث . ومن ابرز ابتكاراتهم تفريق الرازي بين الحصبة والجدري وتأسيسهم المستشفيات وابتداعهم الامتحانات والاجازات الطبية وتنظيمهم فن الصيدلة والكيمياء ومحافظتهم على ما ورثوه من العلوم الطبية عن اليونان. وخلاصة القول ان العرب هم واسطة الاتصال بين مدنية الاغريق ومدنية اوربا الحديثة وفضلهم على عصرنا الحاضر لا ينكر

ولقد كان من الطبيعي ان يرث المصريون عن العرب علومهم الطبية ولكن ارادت العناية الالهية ان يفتح العرب الاندلس وينتشر العلم العربي من هناك الى اوربا فيزدهر وينمو حتى يصل الى اوجه — كما اتى على مصر حين من الدهر لم تكن فيهِ شيئاً مذكوراً اظلمت فيهِ شمس العلم وافل نجم الطب وسادت الفوضى ألا وهو عصر المماليك ولقد شذَّ عنهم احدهم وهو السلطان قلاوون الذي انشأ البيمارستان الكبير في سنة ١٢٨٦ وحبس وقفاً للانفاق عليهِ وهو باقٍ حتى الآن وان كان قد خصص للعيون بعد ان كانت تعالج بهِ في اول انشائهِ كل الامراض ثم خصص للمجاذيب واستمرَّ هكذا حتى سنة ١٨٥٦ ميلادية . ولا ننسى مستشفى المؤيد الذي كان موجوداً حوالي ١٤٢٠ ميلادية . ولما استولى العثمانيون على مصر في سنة ١٥١٧ لم تكن حالة الطب او الصحة العامة باحسن منها في عهد المماليك وقد اجتاحت البلاد في العهدين جائحات من الاوبئة لا يتسع المجال لوصفها وكانت تترك تأكل في العباد كما تأكل النار الهشيم. وقد وصف المؤرخ المشهور الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ما شاهده اثناء انتشار وباء الطاعون الذي ابتدأ في اواخر شهر جمادى الاولى سنة ١٢٠٥ هجرية وذكر اهواله التي تشيب ناصية الوليد وقال ما يدل على انه لم يتحرك احد من اولي الامر لمكافحته وقد مات به ما لا يحصى

من الاطفال والشبان والجواري والعبيد والمماليك والاجناد والكشاف والامراء وامراء الالوف وتوفي من الصناجق نحو اثني عشر صنجقاً . وكان يخرج من بيت الامير في المشهد الواحد الخمسة والستة والعشرة ولم يبق للناس شغل الاّ الموت واسبابهُ فلا تجد الاّ مريضاً او ميتاً او عائداً او معزيًّا او مشيعاً او راجعاً من صلاة جنازة او دفن ميت اومشغولاً في تجهيز متوفى او باكياً على نفسه وهي تكاد تطير شعاعاً فرقاً من الموت وندر جدًّا من يشكو المرض ولا يموت . وندر ايضاً ظهور الطعن باجسام المرضى ولم يكن يشعر المريض بالحمى بل يكون جالساً فتأخذه رعدة من البرد فيتدثر ولا يفيق الاّ مخلطاً او يموت من نهاره او ثاني يوم وربما زادت فترة مرضه او نقصت عن ذلك وقد استمر فعل الطاعون الى اوائل رمضان ثم اضمحل شأنه ولم يقع بعد ذلك الاّ قليلاً نادراً ومات الاغا والوالي اثناء ذلك فولوا خلافهما فماتا بعد ثلاثة ايام فولوا خلافهما فماتا ايضاً واتفق ان الميراث انتقل ثلاث مرات في جمعة واحدة

ثم اتى بعد ذلك عصر الفرنسيس بقيام نابليون الاول في سنة ١٧٩٨ بحملته على مصر . ويمكن اعتبار هذا الفتح مبدأً لتاريخ الصحة العامة بالبلاد كما يعتبر مبدأً تاريخها الحديث وقد اصطحب نابليون مائة من اعظم علماء فرنسا المجهزين بالكتب والآلات العلمية كما استحضر معهُ مطبعة عربية وقد ادخل الكثير من الاصلاحات الصحية العامة ككنس الشوارع ورشها في اوقات معينة ووضع مصباح على كل منزل وقام علماؤه ببحوث علمية قيمة وآثار مجمعهم العلمي لا زالت تذكر لهم بالفخر العظيم . وليس من شك في ان هذه الحملة كانت من الحوافز الهامة لادخال أسباب المدنية الغربية بمصر وكانت الخطوة الاولى في حكم المصريين لأنفسهم وذلك بما انشأه نابليون بالبلاد من مجالس ولجان اسوة بما عمله في غيرها من الممالك مما كان السبب في غرس بذور الشعور بالكرامة الوطنية والاهلية وقد مهد عملهُ هذا السبيل لبزوغ نجم محمد علي الكبير منشىء مصر الحديثة الذي رفعتهُ مصر فرفعها واحبتهُ فاحبها

وقد قام اطباء الجيش الفرنسيين بابحاث قيمة حيث اصدر ديجنيت الطبيب الاول للجيش امراً الى اطبائه ان يقوموا بابحاث طبية وطبوغرافية لجميع الجهات التي يحلون بها . وانشأ نابليون ادارة تقوم بتنفيذ الاجراءات الصحية المتبعة في موانئ كثيرة بالبحر الابيض المتوسط

وقد وجه الاطباء عنايتهم الى الصحة العامة محافظة على جيشهم وقد داهمهم وباء طاعون شديد الوطأة علاوة على التهاب العيون الذي اصاب الكثيرين من رجال الجيش وقد اتخذ الاطباء احتياطات شديدة لقمع الوباء كحرق الامتعة وغيرها وقد كانت توجد في طول مدة وجود الحملة تقريباً ادارة صحية وان كان جل همها العناية بصحة الجيش وقد انشأ عدة مستشفيات عسكرية بالازبكية والجيزة وقصر العيني ودمياط ورشيد وغيرها كما قامت تلك الادارة بنشر الدعوة الصحية وخصوصاً ضد الجدري حيث طبعت نشرة عنهُ باللغة العربية ووزعت على كبار

الاعيان بواسطة الديوان الكبير وحتى على السيدات بواسطة السيدة نفيسة هانم زوجة مراد بك الكبير . وقد مات من رجال الحملة من يوم خروجها من فرنسا حتى نهاية السنة الثامنة (بالتوقيت الفرنسي الجديد المتبع وقتئذٍ) ٨٩١٥ توفي منهم بالطاعون ١٦٨٩

ومن المذكرات الطبية القيمة التي دونها الاطباء مذكرة للدكتور بروانت عن الرمد واخرى عن الدوسنتارية ومذكرة عن الرمد لسفارسي وعدة مذكرات عن الطاعون

وقد جاء في هذه المذكرات ان الامراض التي كانت منتشرة بمصر وقتئذٍ — علاوة على الطاعون والدوسنتاريا والحمى المتقطعة وامراض العيون والكساح والعمى والفتق — الحصوات البولية والقيلة المائية والصرع والحمى المعوية والجدري والاستسقاء. وقد قام رجال الحملة بعمل جداول عن الحالة الجوية بالقاهرة والاسكندرية . وقد يكون اول احصاء منظم لمتوفي القاهرة هو الذي عمل تحت اشراف ديجنيت حيث اجرى هذا الاحصاء من ٢٩ برومير من السنة السابعة حتى فندمير من السنة الثامنة بالتوقيت الفرنسي الجديد — واستنتج منهُ ما يأتي :

ان عدد النساء اكثر من عدد الرجال

ان وفيات الاطفال تحدث في الستة اسابيع الاولى من حياتهم وعلى العموم تكثر وفياتهم قبل بلوغهم سن تسعة اشهر

ان الجدري هو اكثر الامراض حصداً للاطفال . ويستخلص من احصاءات الطبيب المشار اليهِ التي عملها عن السنة الكاملة وهي السنة الثامنة (بحسب التوقيت الفرنسي الجديد المتبع وقتئذٍ) ان عدد الوفيات قد بلغ اثناءها بالقاهرة ٥٨٩٥ منهم ٣٥١٦ طفلاً و١٣٧٦ امرأة و١٠٠٣ رجال . وقد حول قصر العيني الى مستشفى كما ان نابليون امر بافتتاح مستشفى مدني بالازبكية يسع ٣٠٠ مريض وقد جلا الفرنسيون عن مصر في سنة ١٨٠١ وقدر جومار عدد سكان القطر في سنة ١٨٠٠ بـ ٢٤٦٠٢٠٠ نسمة ولكن حسب تقدير كلوت بك لا يتجاوز السكان المليونين

وجلاء الفرنسيين وعودة حكم العثمانيين لمصر وتسلط المماليك ثانية سنحت الفرصة لجلوس محمد علي على عرش مصر وتم بذلك خلاص البلاد على يديه من عصور الفوضى والمظالم وسار بها في سبيل الرقي الى ابعد شوط ونهض ضمن ما نهض بهِ بالشؤون الطبية والصحية

تولى محمد علي باشا الحكم وممارسة مهنة الطب في ايدي قوم جهلة يتناقل بعضهم عن بعض المعلومات الطبية المشوهة وكان بعضهم يلقب بالحكماء وهم يقومون بمعالجة الامراض الباطنية والبعض الآخر يمارس الجراحة ويلقب بالجراحين وكان على رأسهم جراحباشا — كما يوجد بجانب هؤلاء المجبرون والدايات. وكان جل اعتمادهم على بقايا الطب العربي وقال كلوت بك انه لما حضر الى مصر كان يرأس المستشفيات حلاقون وقد أُبعدوا بصعوبة حتى يحل مكانهم كلوت بك وزملاؤه

فلما أُوجد محمد علي جيشاً نظامياً بمصر استدعى كلوت بك في سنة ١٨٢٥ ليكون طبيباً

أول لهذا الجيش ويرجع اليه الفضل في اعادة تأليف مجلس الصحة وقد شكل من خمسة أعضاء من اطباء وجراحين وصيادلة برآسة كلوت بك وكان هذا المجلس يقدم المشورة لوزير الحربية في كل المسائل ذات العلاقة بالصحة وغيرها حيث لم تكن توجد وقتئذٍ ادارة صحية ثم انشئت فيما بعد ادارة طبية يرأسها مفتش عام وهذه الادارة تدير شؤون مستشفيات الجيش وصيدلياته حيث أُلحق بهذه الادارة قسم للادوية وتبسيطاً لصرف الدواء وضعت فارما كوبيا بها بعض « الوصفات » واقرها مجلس الصحة واسست صيدلية مركزية بالقاهرة ومستودعات للادوية بالاسكندرية للقطر المصري وحلب وعكا للشام وجدة لبلاد العرب والخرطوم لسنار وكندية لكريت. وقد انشىء للبحرية المصرية مجلس صحة بالاسكندرية

وقد نشأ عن اتخاذ الوسائط المتقدمة انخفاض نسبة الوفيات بين رجال الجيش والبحرية وكان مستشفى ابي زعبل هو المثال الذي تحتذيه كل المستشفيات وقد اسست بهِ في سنة ١٨٢٧ مدرسة الطب وفرع للصيدلة فدرس للمرة الاولى في تاريخ مصر الحديث علم الصحة ثم انشئت مدرسة للولادة بهذا المستشفى ايضاً وتخرج في مدرسة الطب بعد خمس سنوات أربعون طبيباً ارسل منهم لباريس اثنا عشر طالباً حيث حصلوا على شهادة الدكتوراه من كلية باريس

ثم انتقلت مدرسة الطب والمستشفى الملحق بها الى سراي ابراهيم بك (وهو قصر العيني الحالي) حيث هما الآن وقد اصبح المستشفى يسع من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ مريض وبالمدرسة ثلاثمائة تلميذ — وقد رخص ولي النعم بقبول مرضى من غير العسكريين كما ان مستشفى ابي زعبل خصص للنساء ومستشفى الازبكية لكل الامراض وكان ملحقاً بكل المدارس بالاقاليم جراحين مرخص لهم بمعالجة الاهالي ثم انشئت مدرسة للولادة بمستشفى قصر العيني

وقبل زمن محمد علي باشا كان الذين يقومون بمعالجة الحيوانات هم البيطارة فانشأ المسيو هامو بناء على رغبة محمد علي باشا مدرسة للطب البيطري برشيد ثم نقلت الى ابي زعبل حيث الحق بها مائة طالب وبعدئذٍ وجد انها بعيدة عن الحرس بشبرا فنقلت الى هناك لتكون على مقربة من الجيش الراكب واصبح فيها مائة وعشرون طالباً. ومما يجب ذكره ان كلوت بك هو الذي اشار باستعمال التطعيم ضد الجدري لمقاومة انتشار هذا المرض بالقطر المصري بعد ان كان يودي بحياة ستين الفاً من الاطفال كل عام او ثلث المواليد على رأي كلوت بك وقد قام هو وتلاميذه بمكافحة الكوليرا التي وفدت على مصر سنة ١٨٣٠ وبذلوا جهوداً طائلة في مقاومة طاعون سنة ١٨٣٥

فما تقدم نرى ان مصر الحديثة عرفت ما هي الصحة بعد ان وضع دعائمها محمد علي باشا وان كان الفرنسيون قد مارسوها قبله محافظة على جيوشهم ومن عهده استمرت في تقدم حتى عصرنا الحاضر. وقد بلغ عدد سكان مصر في نهاية عهد محمد علي باشا نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون وتعداد سكان القاهرة نحو ثلاثمائة الف نسمة

[لها تتمة]

آراء وحقائق جديدة

في علوم الاحياء

للمستر مكوِسْتُنْ استاذ البيولوجيا في جامعة القاهرة الاميركية

لسنا نحاول هنا ان نستوفي البحث في الآراء الجديدة والحقائق التي كشفت حديثاً في علوم الاحياء . ففي سنة ١٩٣٠ اخرجت المطابع والمجلات نحواً من اربعين الف كتاب ومقال في الموضوع . وانما جلُّ ما نستطيعهُ ان نختار بعض الموضوعات ونعالجها — وهي بحكم الطبع اجمع ما تكون لعناية كاتب هذه السطور

ما هي الحياة

لقد جريت على توجيه هذا السؤال الى تلاميذي في علم الحيوان في مفتتح كل سنة . وفي كل فرقة اجد تلميذاً او تلميذين على الاقل يظنان انهما يملكان للحياة تحديداً وافياً . لان الامر سهلٌ في الظاهر ، ولكن الواقع انني اشك في امكان العثور على عالِمٍ بيولوجي يؤبه لهُ ، يحاول ان يضع تعريفاً « للحياة » لاننا لا نعرف ما هي ، رغم ما نعلمهُ من الحقائق الكثيرة عن الاحياء وتصرّفها . ولو كنا نملك الوقت ، للذَّ لنا ان نفحص هذه المادة الفاتنة للبّ التي يدعوها بروتوبلازم (او المادة الحياة ومعناها الاصلي المادة الاولية) مع عالِمٍ طبيعي بيولوجي مثل الدكتور هِلْ A. V. Hil او فسيولوجي كالاستاذ بايلسْ W. W. Baylis وان نتصوّر ، كما يتصوّران ، الافعال الطبيعية والكيمائية التي تقع فتحدث بوقوعها ظاهرات الحياة . وانما جلُّ ما نستطيع ان نقوله هو اننا جادون في توسيع نطاق ما نعلمهُ عن الظاهرات السطحية التي ينطوي عليها تحوُّل الطاقة الكامنة في الطعام الى طاقة حركة . وفي الوقت نفسه نرى الكيمائيّ جادًّا في درس جزيء البروتين المعقد التركيب وقد اسفر درسهُ عن ادلة قوية على ان شدّة التعقيد في بنائهِ ذات صلة متينة بفقد الاستقرار في المادة الحية وهذا—أي فقد الاستقرار — متصلٌ بتغيرات كيمائية عديدة يسهل استحداثها في المادة الحية . واكثر الفسيولوجيين الآن يرون ان الحياة نوع من التوازن بين هذه الافعال الكيمائية والطبيعية المعقدة . وكل حافز Stimulus يُفقدُ البروتوبلازم هذا التوازن فيتصرف او يتغير لاعادتهِ وقد يحدث ان الحافز يكون قويًّا ، وفقد التوازن كبيراً ، فلا تستطاع استعادتهُ ، فنقول ، « ان الكائن قد مات » . واذن فانتم توافقون على اننا لا نزال بعيدين عن تعريف واف للحياة

ومن وجوه التقدم الجديرة بالعناية في هذا الميدان زيادة التدقيق في القياس . فقد استنبطت اداة خاصة تدعى « ثرموبيل » لقياس الحرارة التي تطلقها العضلة في اثناء انقباضها الى اربعة اجزاء من مليون جزء من الدرجة بمقياس سنتغراد .وقد استحدثت كواشف كيمائية اثبتت ان سبب انقباض العضلة المباشر ليس تأكسد السكر في الخلايا كما كان يقال قبلاً ، وانما تتكوّن اولاً مادة تدعى « فوصفجين » ثم يحلُّ محلّها توًّا الحامض اللبنيك اذ يتحوَّل الفوصفجين الى المواد التي تركّب منها . ويلي ذلك تحوُّل الحامض اللبنيك بالتأكسد الى ثاني اكسيد الكربون والماء.فاذا انت لهثت تعباً بعد عدوٍ مائة متر فانت تحوّل في جسمك الحامض اللبنيك الى ثاني اكسيد الكربون والماء

التطور

ونريد ان نتحدث عن التطوّر من ناحيتين « حقيقة التطور »و « نظرية التطور »

لما بدأ الناس يظنون ،على أثر درسهم للآثار المتحجرة ، أن في نشوء الحيوانات والنباتات فعلَ تطوُّرٍ تدريجيٍّ قالوا ان النباتات والحيوانات نشأت بفعل التطور من احياء بسيطة ذات خلية واحدة . وهذا ما يعرف عند طائفة كبيرة من الناس « بنظرية التطوّر »الآن .ولكنهُ في عرف السواد من علماء الاحياء « حقيقة التطوّر » وهم لا يحسبونها « نظرية »فقط لان الادلة التي تؤيدها كثيرة مستمدّة من الجيولوجيا (طبقات الارض) والمورفولوجيا (شكل الاحياء) وعلم تفرق النباتات والحيوانات وعلم الاجنة ومن التجارب العملية في استحداث اصناف جديدة من النباتات والحيوانات الداجنة

اما ما يقصد الآن « بنظرية التطور » فهو في الواقع النظرية او النظريات المقترحة لتعليل بواعث التطور . وهذا هو المقصود اذ نذكر « نظرية داروِن » او « نظرية لامارك » .وفي هذا الميدان لا يزال المجال لاختلاف الرأي متسعاً

القى الاستاذ پولتن Poulton خطبة الرآسة في قسم الحيوان في مجمع تقدم العلوم البريطاني في السنة الماضية — ولعلّها اهم خطبة في علم الحيوان تليت في انكلترا حديثاً — فقال فيها ان علماء الحيوان في رأيهِ قد اخذوا يرتدون الآن ، بعد تحوُّل كبير في آرائهم مدى ٤٠ سنة ، الى نفس الموقف الذي وقفهُ داروِن في الموضوع عند وفاته .ولعل الاستاذ پولتن لم يبعد كثيراً عن محجة الصواب في تقريرهِ ولكن من الثابت اننا اشدُّ تبيناً من داروِن لبعض المصاعب التي تعتور سبيل الباحث ، وقد اضيفت الى خلاصة البحث امور جديدة الآن.وقد لخص داروِنُ القوى التي تفعل في تطوّر الاحياء كما يأتي : —

١ — اخلاف الاحياء لنسل كثير ، فلا يتسنى لطائفة كبيرة من النباتات والحيوانات التي

تولد من الغذاء والمكان ما يلزم لها لبلوغها مدى الحياة

٢ — هذا يفضي الى تنازع البقاء . وهذا بدورهِ يفضي الى

٣ — زوال الضعيف وبقاء القوي

٤ — وفي الوقت نفسهِ تظهر صفات جديدة . تساعد اصحابها على الفوز في معترك البقاء فيبقى صاحب الصفة — التباين variation — الجديدة وتورّث الصفة نفسها للاجيال التي تليه

وثمة مدرسة من علماء الاحياء ، ومعظم رجالها من علماء الآثار المتحجرة ، يذهبون الى ان درسهم للآثار المتحجرة اسفر عن ان بعض التباينات التي ظهرت في بعض الحيوانات لم تفِدْها شيئاً بل على الضدّ كانت شديدة الضرر ، وهذه الصفات كافية بحسب رأي داروِن للقضاء على الاحياء التي تتصف بها . ورأي هؤلاء العلماء ان باعث التطور باعث داخلي في الكائن الحيّ نفسهِ يدفعهُ في خطٍ مستقيمٍ الى التحول والنشوء ، بصرف النظر عن بيئتهِ . ولعلَّ اشهر رجال هذه المدرسة الاستاذ ازبورن الاميركي . ولكن قلَّ من علماء النبات والحيوان من يسلّم بها

والمسألة الخطيرة التي نواجهها اليوم تدر حول البواعث على ظهور التباينات التي تورّث . ولقد كان لداروِن رأيٌ في الموضوع ، ولكنهُ لم يقنعه كل الاقناع . ولا هو يقنع علماء اليوم . فلنمرَّ به صارفين النظر عنهُ . فلما اكتشف مندل مكتشفاته الخطيرة في الوراثة بدا كأنه وضع بأيدينا مفتاحاً للسر ، ولكن ما زال علماء التناسل عاجزين عن فهم الموضوع فهماً وافياً

وقد كان المرحوم الاستاذ لوتسي الهولندي — الذي كان استاذاً لعلم التناسل genetics في كلية العلوم بمصر سنة ١٩٣١ — من زعماء القائلين بأن التحولات الفجائية mutation نتيجة التنغيل hybridation فتظهر الصفات الكامنة recessive . ورأيه هذا مبنيٌّ على تجارب خاصة قام فيها بتضريب اصناف مختلفة من النبات ، نقل مبدأها عن بوْر (Baur) الالماني الذي ضرب نوعين من نبات Antirrihinium فحصل على عشرات من الصفات الجديدة التي لم تشاهد في الاصلين قط . ولكن رأيه لا يفسر ظهور التحول الفجائي في صفة متغلبة اي انهُ لا يفسر كيف تظهر عوامل وراثية genes جديدة

والمقصود بالعوامل الوراثية تلك الوحدات الدقيقة التي تتألف منها الكروموسومات واشهر الباحثين في هذه الناحية هو الدكتور مورغن الاميركي واعوانه فانهم ربوا ملايين من ذباب الفاكهة (دروسوفيلا) وجاراهم الباحثون في مختلف بلدان العالم فعينوا نحو ٤٠٠ عامل وراثي في كروموسومات هذا النوع من الذباب . ولكن حتى مباحث هؤلاء عجزت عن اقامة الدليل على البواعث التي تبعث العوامل الوراثية الجديدة على الظهور

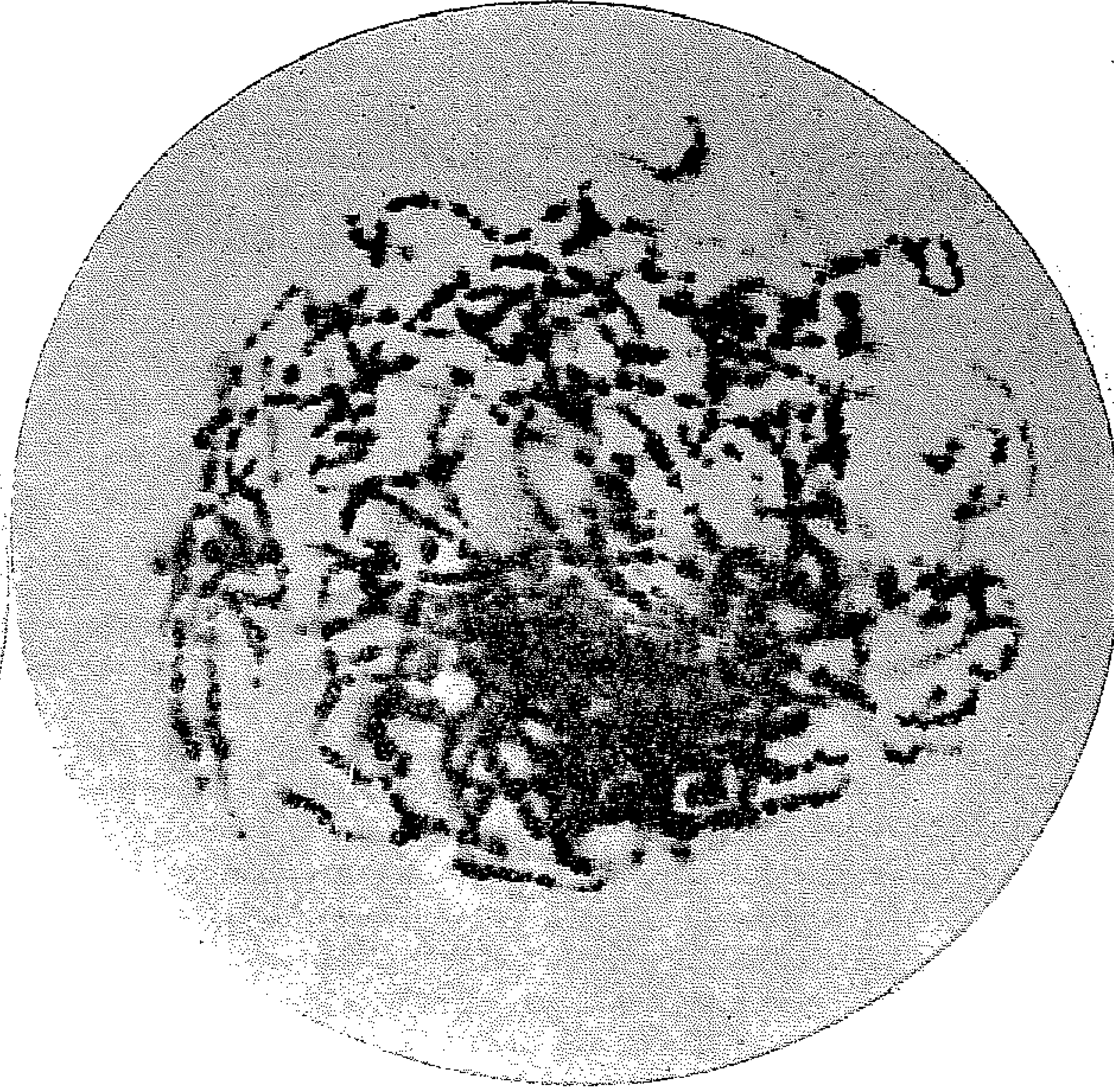
على ان الاستاذ مُلَر (Muller) احد اساتذة جامعة تكساس واحد تلاميذ مورغن

قد فتح باباً جديداً في هذا البحث باستحداث التحولات الفجائية في ذباب الفاكهة وغيرها باستعمال الاشعة السينية (اكس) فانه يوجه اشعةً سينية من قوة معينة الى الخلايا التناسلية وهي في دور خاص من ادوار انقسامها . فيزداد عدد التحولات الفجائية . ولكن كيف نعلم ان ظهور هذه التحولات ليس ناشئاً عن تلف او ضعف اصاب بعض العوامل في الكروموسومات بتصويب الاشعة اليها لا عن ظهور عوامل وراثية جديدة . واذن فلا يزال ميدان البحث والاكتشاف في موضوع التباين الوراثي واسع الجنبات

اليوجنية

لقد اشرنا الى ان الوف الالوف من ذباب الفاكهة ربيت لتستعمل في مباحث الوراثة وتزيد على ذلك ان مئات الالوف من الجنيهات انفقت في هذا السبيل ، فاذا سألنا ما قيمة هذه الحشرة من الناحية الاقتصادية وجدنا ان لا قيمة لها على الاطلاق . والواقع ان الانسان في نظرنا هو اهم الحيوانات التي على الارض ، واذن يهمنا ان نعرف ما كشف من اسرار الوراثة فيه . واذا قلبنا النظر في الحياة المصرية بدت لنا قلة العناية بموضوع الوراثة البشرية . ذلك انهُ اذا ذهب والدٌ يبحث عن عروسٍ لابنه فما هو السؤال الاول الذي يوجههُ عن الفتاة التي ينتظر ان تصبح والدة لاحفاده . هل يسأل عن ذكائها او صحة بنيتها او عن كمال قدها وجمال صورتها ؟ يقال ان الفتى نفسه يسأل هل عيناها نجلاوان . وهذا سؤال معقول . ولكن ألا يغلب ان يعنى الوالد اولاً بثروة والد الفتاة دون الفتاة نفسها . وهو في هذا لا يختلف عن امثاله من الوالدين في مختلف انحاء الارض . فليس ثمة بلاد تعنى العناية الكافية بالزواج من ناحية اثره في تحسين السلالة او من ناحية أثر الاختيار الملائم في هناءة الاسرة ، التي لا ندحة عنها في تنشئة الصغار وتربيتهم

ولاريب في ان اهم البواعث على هذا الاهمال معرفتنا النزرة بشؤون الوراثة البشرية . ولكن لماذا نعنى بدرس الوراثة في ذباب الفاكهة هذا الدرس المسهب المدقق ونهمل درس الوراثة البشرية ؟ والجواب عن ذلك سهل . فعلم التناسل لم يولد الاّ في مطلع القرن العشرين والقسم الخاص منه المعروف باسم اليوجنية Eugenics لم يعنَ به الاّ من نحو جيل واحد فلم يتسنَّ للباحثين فيه ان تتناول مباحثهم الاّ جيلاً واحداً من البشر في حين ان هذه المدة كانت كافية لتربية مئات الاجيال من ذباب الفاكهة ودرس آثار الوراثة فيها . . وثمة صعوبة اخرى . فالعالِم يستطيع ان يزاوج ذباب الفاكهة كما يشاء ولكن بماذا تجيب اذا جاءك عالمٌ يوجنيٌ وقال لك « اريد ان تتزوج هذه المرأة المعتوهة العوراء وضعيفة البصر في عينها الاخرى لانني اريد ان ابحث في توريث هاتين الصفتين » !



عقود العوامل الوراثية قبل انفصال
الكروموسومات في النواة



عقود العوامل الوراثية بعد
انفصال الكروموسومات توطئة لانقسام الخلية

في اثناء ترجمتنا لمقال المستر مكوستن جاءت المجلات الاميركية منبئة بان الدكتور بلنغ اثبت وجود العوامل الوراثية (Genes) بالتصوير الفوتغرافي .راجع الاخبار العلمية

فمن الواضح انهُ لا بد من انقضاء زمن طويل قبل ما يبلغ علمنا بالوراثة البشرية مبلغ علمنا بالوراثة في ذباب الفاكهة . ولكن لا تظنوا اننا لا نعلم شيئاً عن الوراثة البشرية ، او ان العلماء متقاعسون عن حلّ هذا المشكل . فلدينا منشآت مثل معامل دلتن بلندن التي يرأسها كارل بيرصن ومعهد كولدسبرنغز هاربر باميركا الذي يرأسهُ الدكتور دافنبورت ، ينفق العلماء فيهما كل وقتهم في درس هذا الموضوع . وفي موضوع الوراثة نكشف كثيراً من الحقائق بدرس الحيوانات الدنيا — ومنها ذباب الفاكهة — فتطلق هذه الحقائق الضوء على اسرار الوراثة البشرية . وكل الادلة تشير الى ان الوراثة البشرية تخضع للنواميس التي تخضع لها الوراثة في سائر الحيوانات

ومن نكد العالم ، ان الصفات البشرية التي تهمنا بوجهٍ خاص مثل الذكاء والصحة وغيرهما تسيطر عليها عوامل عديدة تجعل درس الوراثة معقداً كل التعقيد . ففي الجهاز العصبي نعلم مثلاً ان بعض النقائص مثل بعض انواع العته وضعف العقل والصرع صفات كامنة تورَّث بحسب ناموس مندل . ولكن يظهر ان لهذه الصفات انواعاً خاصة لا تورث قط . اضرب لكم مثلاً بطفل كان جاراً لنا سقط من سطح البيت فرجّ رأسهُ واسفرت الرجّة عن ضعف في عقلهِ . فالوراثة لا علاقة لها بهذا ، والامراض تسفر عادة عن مثل هذه النتيجة

* * *

يسأل الناس هل يمكن تحسين الجنس البشري باختيار اذكى الناس ومزاوجتهم . وقد تناول الباحثون هذا الموضوع تناولاً احصائيًّا فظهر ان الناس المتفوقين يغلب ان يكون لهم اولاد متفوقون . ولكن يستحيل علينا الآن ان نقرر اي جانب من هذا التفوق عائد الى الوراثة واي جانب منهُ عائد الى البيئة . اذ لا يخفى ان الطفل الذي ينشأ ويترعرع في بيت جاهٍ وعلمٍ فهو طفل بيئة متفوقة اذا قيست ببيئة طفل ينشأ في الاحياء الفقيرة

ونستطيع ان نمثّل على ذلك بتاريخ الكلب . فالكلب متسلسل من الذئب ولكن الجهاز العصبي في الكلب تحول بالتأصيل فبعضها يختص بصيد الثعالب وبعضها يستعمل لسوق القطعان وبعضها للجري وراء الطيور وبعضها يستعملهُ البوليس في الكشف عن الجرائم

فاذا كان الجهاز العصبي في الكلب قد تحول هذا التحول الكبير ، فمعقول ان نفرض ان مثل هذا التحول ممكن في جهاز الانسان العصبي . ولا نزال بعيدين كل البعد عن اجراء تجارب من هذا القبيل في الناس لاننا لا نتفق على اهم الصفات التي يرغب فيها في الانسان ، ولا بدّ من ان نتعمق في درس الموضوع قبل ما نصبح على استعداد لترقية الجنس بالاختيار . ولكننا على كل حال متفقون على وجود نقائص في الجسم البشري نود ازالتها . فقد ازف الوقت مثلاً لمنع المعتوهين من التزاوج والتناسل

عدد النسل

الى هنا حصرنا الكلام في نوع النسل البشري،وعليهِ اريد الآن ان انتقل الى موضوع يهمني بوجهٍ خاص وهو « عدد النسل » او « مشكلة السكان ».انكم تذكرون ان احد الاركان التي تقوم عليها نظرية داروِنْ هو ميل الاحياء الى التكاثر تكاثراً سريعاً فيتعذر على نسلها وجود الغذاء الكافي اللازم لبلوغها ، وفي بعض الاحيان يتعذر وجود المكان الكافي لكل النسل ، فيندثر جانب من النسل في كلا الحالين

وهذه الزيادة في النسل اظهر ما تكون في الحيوانات الدنيا . ولعلكم تعلمون الارقام الكبيرة التي نبلغها اذا حسبنا عدد البكتيريا الذي يخلفهُ واحد منها في مدى ٢٤ ساعة من العيش في احوال ملائمة للنمو. ففي هذه الاحوال الملائمة ينقسم واحد بعض البكتيريا الى اثنين مرة كل نصف ساعة . فاذا مضى البكتيريوم الواحد ونسلهُ في الانقسام على هذا المنوال مدة ٢٤ ساعة بلغ نسلهُ بحسب تقدير ترانسو (Transceau) ٢٨١ مليون مليون ومع ذلك فان هذا النسل لا يملأ أكثر من زجاجة تسع نصف متر من الماء لشدة صغر هذه الاحياء. فاذا بدأنا اليوم التالي بنصف لتر منها اخلفت في آخر اليوم نسلاً يملأ ١٤٠ مليون مليون لتر او نحو ٣٢ ميلاً مكعباً . وفي آخر اليوم الثالث يصبح نسل البكتيريوم الواحد ـ اذا عاش كلهُ ـ ٣٣ الف ضعف حجم الكرة الارضية

ويقال ان انكليس النيل يضع ٥ ملايين بيضة دفعة واحدة . وهذا البيض يلقحهُ الذكر وعليهِ نقسم عدد البيض على اثنين لنعلم عدد النسل من الوالد الواحد . واذاً فكل انكليس يخلف ½٢ مليون انكليس . فاذا بلغت كلها سن البلوغ واخلف كل منها نسلاً بدورهِ ، فلا تمضي سنوات قلائل حتى يمتلىء البحر والنيل بحيوان الانكليس

او خذوا دودة القطن القرنفلية .يظن ان بضع حشرات من هذا الصنف افلتت من الاسكندرية سنة ١٩١٠ وتسرَّبت الى مزارع القطن . ولعلها كانت عشر حشرات او مائة .فلم يمضِ بضع سنوات حتى اكتسحت ملايين الملايين من هذه الدودة مزارع القطن في الوجهِ البحري

ولما كان الانسان اعلى الحيوانات ارتقاءً ، تراه يخلف النسل اخلافاً بطيئاً ، ولكن اذا لاءمتهُ احوال المعيشة يستطيع ان يزيد نسلهُ بمتوسط ١٦٠٠ في المائة في مدى قرن واحد . ففي الولايات المتحدة مناطق كثيرة بلغت فيها زيادة السكان هذا المتوسط بالتناسل لا بالهجرة . والزيادة في سكان مصر الحديثة كانت كبيرة جدًّا ففي اول عهد محمد علي كان سكان مصر نحو ثلاثة ملايين وهم الآن ١٥ مليوناً اي ان الزيادة ٥٠٠ في المائة في نحو قرن وربع قرن من الزمان . واذكروا ان متوسط سكان مصر في اثناء اربعة آلاف او خمسة آلاف سنة سبقت عهد محمد علي كان ثلاثة ملايين نسمة تنقص او تزيد قليلاً

مسألة السكان في مصر

فماذا يحدث اذا مضى سكان مصر يزيدون على مقتضى هذا المتوسط؟ يحدث ان يصبح سكان القطر بعد قرن وربع قرن (اي نحو سنة ٢٠٥٧) ٧٥ مليوناً وفي سنة ٢٢٥٧ يصبح سكانهُ مثل سكان العالم اليوم (اي نحو ٢٠٠٠ مليون). واذا فرضنا ان العرب، لما فتحوا مصر قتلوا كلَّ مَن فيها وتركوا من اتباعهم رجلاً وامرأةً وان الرجل والمرأة، ونسلهما زادوا بمتوسط ٥٠٠ في المائة في اثناء قرن وربع قرن بعد محمد علي، لبلغ سكان مصر الآن نحو ٤٥ مليوناً او ثلاثة اضعاف سكانها اليوم. قد يبدو ان الامر مستحيلا. ولكن خذ قلماً وورقاً واعمل حسابك

وغنيٌّ عن البيان ان الأحياء المذكورة في الامثلة المتقدمة لا يمكن ان تمضي متزايدة بأقصى سرعتها مدة طويلة. فثمة عوامل عديدة تبطىء الزيادة منها قلة الطعام، والازدحام، ووجود اعداء لها تغتذي بها. فنحن اذا ربينا مكروبات في عصيدة غذائية وجدنا انها تقف عن الزيادة قبل نفاد الغذاء، والبطء في تكاثرها سببهُ ازدحامها في الانبوب الذي يحتوي على العصيدة. كذلك دودة القطن القرنفلية لا تتكاثر تكاثراً مريعاً الآن مع ان كثيراً من لوز القطن يبقى سليماً، فبطء تكاثرها ليس سببهُ نفاد اللوز الذي تغتذي بهِ وانما احد اسبابهِ وجود حشرات تفتك بها

امامن حيث سكان مصر، فغنيٌّ عن البيان انهم لا يبلغون ٧٥ مليوناً في اواسط القرن المقبل (حوالي سنة ٢٠٥٧) فالقطر المصري لا يستطيع ان ينتج طعاماً لتغذيتهم، ثم اننا نعلم انهُ اذا قل الغذاء سهل تفشي الاوبئة. فمتوسط عمر الهولنديين في هولاندا مضاعف متوسط عمر الهنود لهذا السبب. والراجح ان كثرة وفيات الاطفال في مصر ناشئة عن الفقر. قد تقول ان الجهل افعل في كثرة وفيات الاطفال من الفقر، ولكن كيف نعلل قلة انتشار التعليم — قبل العصر الاخير — الاَّ بشدة الفقر

وما سبب الفقر في مصر؟ لماذا نرى الامة الاميركية اغنى من الامة المصرية؟ قيل ان السبب هو الفرق بين سلالة الاميركيين وسلالة المصريين. حقًّا انهُ لا يعقل ان نرمي المصريين بقول لا اساس لهُ من الحقيقة. وقيل انهُ فرق في الدين. ولكن هل المصري المسيحي اغنى من المصري المسلم. وقيل ان سببهُ اقليم القطر المصري. ولكن هل حال اقليم القطر المصري بين قدماء المصريين وانشاء اولى الحضارات؟ الفرق الواضح بين البلادين انك تجد في مصر ثلاثة اشخاص يتناولون رزقهم من فدان من الارض المزروعة في حين ان نصيب الواحد في امريكا من الارض المزروعة يبلغ نحو ثلاثة افدنة وثلث فدان، اما نصيبهُ من المراعي والغابات والمناجم والمصانع فأعظم من ذلك كثيراً

ولا ريب في ان تكاثر سكان مصر سوف يبطىءُ ولكن ماذا يبطئهُ؟ لعلنا نجد الجواب عن هذا السؤال في النظر الى الصين اكثر من النظر الى اي بلاد اخرى. فالظاهر ان الزيادة في سكان الصين ليست بكبيرة ان كان ثمة زيادة ما. ادرسوا تاريخها في القرون الحديثة تجدوا المجاعة

في اثر المجاعة. وهي الآن في نهاية مجاعة حصدت منها نحو عشرين مليوناً وفي بدء اخرى نتجت عن فيضان نهر اليانغ تسي. وسبب الفيضان ازدحام الناس على ضفاف النهر وتعديهم على ما هو في الواقع من ارض مجراه، فيحدث احياناً ان ارض المجرى الباقية لا تكفي لماء النهر فتطغى مياههُ على الناس

على ان مصر في خطر من الوقوع فيما نسميهِ نصف مجاعة . وهذه حالة عادية في بلاد الهند فقد قيل ان ستين مليوناً من الهنود ينامون على الطوى كلَّ ليلةٍ . وهذا هو احد الاسباب التي تجعل متوسط العمر في الهند ٢٥ سنة بدلاً من ٦٠ سنة . وحيث يكون الناس في مثل هذه الحال من قلة الغذاء تفتك بهم الامراض فتحصد منهم اكثر مما يحصد الجوع . فاية زيادة في سكان مصر تقترب بها من حالةٍ شبيهةٍ بهذه الحالة . لا ريب انهُ اتى عليها حين من الدهر كانت في مثل هذه الحالة، والا فلماذا كان سكان البلاد ثلاثة ملايين في بدء تاريخها الحديث؟

يقال ان المشكلة تحلُّ بزيادة الارض التي تروى وببناء المصانع . ولا ريب في ان البلاد تحتاج الى ذلك اشدَّ الحاجة ، ولكننا نرتاب في ان زيادة الارض الزراعية والمصانع تحلُّ المشكلة حلاً نهائيًّا ، لان ماء النيل محدود ولا بدَّ ان يقف التوسع الزراعي عن طريق الريّ بماء النيل عند حدٍّ محدود . ثم ان للتوسع الصناعي حدوداً دقيقة

واذا اعاد التاريخ نفسهُ ، فاخشى ان لا يكون زيادة الاراضي المزرعة سبيلاً الى تحسين حالة الفلاح المصري . قابل صديق لي من بضعة اشهر السر وليم وِلككس فقال له انهُ لا يظن ان عملهُ في انشاء خزان اصوان كان نعمة على الفلاح المصري . فلم يغضب السر وليم ولم يتجهم وجههُ بل قال : « كلاَّ . لم اكن نعمة بل لعنة » !

كيف نفسر هذا القول الغريب . اننا نجد بعض التعليل في مراقبة الفلاح في حياتهِ اليومية . فانهُ لا يزال يسكن في خصٍّ من الطوب النيء الذي كان يسكنهُ في ايام محمد علي ولا يزال يزرع ويحصد كما كان يفعل حينئذ ولا يزال الى حد بعيد يأكل نفس الطعام ، مع اني اعتقد ان تحسيناً قد تم في هذه الناحية . اذن نجد ان احوال معيشتهِ لم تتقدم . ولكن لماذا نقول ان الحالة الآن اسوأ مما كانت من نحو قرن من الزمان ؟

اليكم الجواب . من نحو اسبوع كنت احدث الدكتور بارلو Barlow احد اطباء معهد ركفلر المعني الآن ببحث مرض البلهارسيا في مصر من نواحيه المختلفة . كان قبيل حديثنا قد عاد من الوجه القبلي وهناك شاهد امراً إدًّا . ذلك ان مرض البلهارسيا كان منتشراً على احد ضفتي النهر دون الاخرى . فليس ثمة بلهارسيا — او هي قليلة الانتشار جدًّا — على الضفة التي لا يزال اهلها يستعملون طريقة ري الحياض . ولكنها كثيرة على الضفة الاخرى . فخزان اسوان الذي جعل الري على احدى الضفتين على مدار السنة ساعد على نشر البلهارسيا وما يلازمها من الالم ، ومع ذلك فان بناءه لم يسفر عنه تحسين معيشة الفلاح

والراجح ان الزيادة في ارض مصر المزرعة ومصانعها يقابلهُ من زيادة السكان ما يترك الحالة على ما هي. ففي مصر اليوم ١٤٠ الف نسمة علاوة على ما كان فيها في السنة الماضية وهذه تحتاج الى مأكل وملبس (كان متوسط الزيادة السنوية في العشر السنوات الماضية ١ في المائة)

ومن الممتع ان نتصور ما تكون حالة مصر الآن لو خلف محمد عليًّا حاكمٌ راجح العقل كسلفه نافذ البصيرة فقال «اذا بلغ سكان مصر خمسة ملايين فيجب ان يقفوا عن الزيادة. وحينئذٍ نمضي في بناء الخزانات والسدود وحفر الترع والمصارف.. ولكن سكان مصر يجب الاّ يزيدوا عن خمسة ملايين». ترى لو قال ذلك ونفذه ماذا تكون حالة مصر الآن ؟ في المقام الاول يكون متوسط نصيب كل فرد من افراد الامة المصرية من الارض ثلاثة اضعاف نصيبهِ الآن. ولا نغلو اذا قلنا ان الثروة العامة تكون ثلاثة اضعاف ما هي الآن. ففي هذه الحال يملك المصري ما يكفيهِ لبناء منزل صحيٍّ، ويصبح التعليم العام امراً ميسوراً، وتغدو عامة الشعب قادرة على شراء اشياء نتمناها لها اليوم. حينئذٍ يساوقون في رقيهم اسوج وسويسرا او البلجيك أو يفوقونها وهي بلدان سكان كل منها خمسة ملايين تقريباً

وقد تقولون ما فائدة الكلام في الموضوع ؟ كيف نستطيع ان نسيطر على متوسط زيادة المواليد في شعب ما ؟ هو الله مدبر الامور ! . لقد وهبنا الله عقلاً نغير بهِ البيئة التي نعيش فيها احوال الاجتماع الانساني. هل ولدت ببيت على ظهرك كصدفة البزّاقة او انت تبني بيتك بيديك ! هل ولدت ببدلة تكسو عريك او انت استأجرت خيَّاطاً ففصَّل لك بدلة بحسب ذوقك ؟ انظر الى مئات النواحي التي ادخلت فيها تعديلاً على بيئتك — وهي هي الفروق بينك وبين المتوحش

لا ريب في ان بعض الملاك يقولون بان كثرة الفلاحين تجعل اجورهم ارخص، ولكن لا بدَّ من حلول يوم يصبح فيهِ العامل الرخيص عاجزاً عن القيام بعمل يساوق اجرتهُ القليلة. ثم انهم سوف يرون ان خطر الثورة يزداد بتفشي الجوع. ومن الطبيعي ان يرغب الفلاحون في النسل — وفي الذكور منهم خاصة — لانهم يرغبون ان يعتزلوا العمل ويروا ابناءهم يحلّون محلّهم. ولكن ثمة كثيرون يقفون من المسألة موقف بستانيّ فقد سألتهُ من مدة كم ولد يرغب ان يكون له فقال « ولمَ تسأل. عا الله » فقلت ولكن افرض ان الله سألك كم ولد ترغب ان يكون لك فماذا تقول. فاجاب، وجوابهُ حملني على الدهشة اذ قال : « ولدين وبنت » وهذه الرغبة ينطوي عليها المثل السائر « خير الذرية ولدين وابنيَّة »

ان هذه المشكلة، من الناحية البيولوجية، ليست مشكلة عسيرة. وانما الحائل الكبير الذي يقوم في سبيل حلها هو « المحافظة » الشديدة » ولكن « المحافظة » اليوم اقل من قبل. ثم ان موالاة هذا الموضوع بالدرس والبحث، وتثقيف العامة باصول الصحة، لا بد ان يتغلبا على كل الحوائل في عصرنا. وما نحتاج اليهِ الآن هو ان نستوضح المشكلة كما هي، وان نسعى سعياً جديًّا لتوضيحها للغير. فاذا شاءت مصر ان توالي سيرها على طريق التقدم، وجب على سكان البلاد الاّ يزيدوا عما تحتمله مصادر الثروة الطبيعية في البلاد

توت عنخ امون[1]

مصر واصول الحضارة

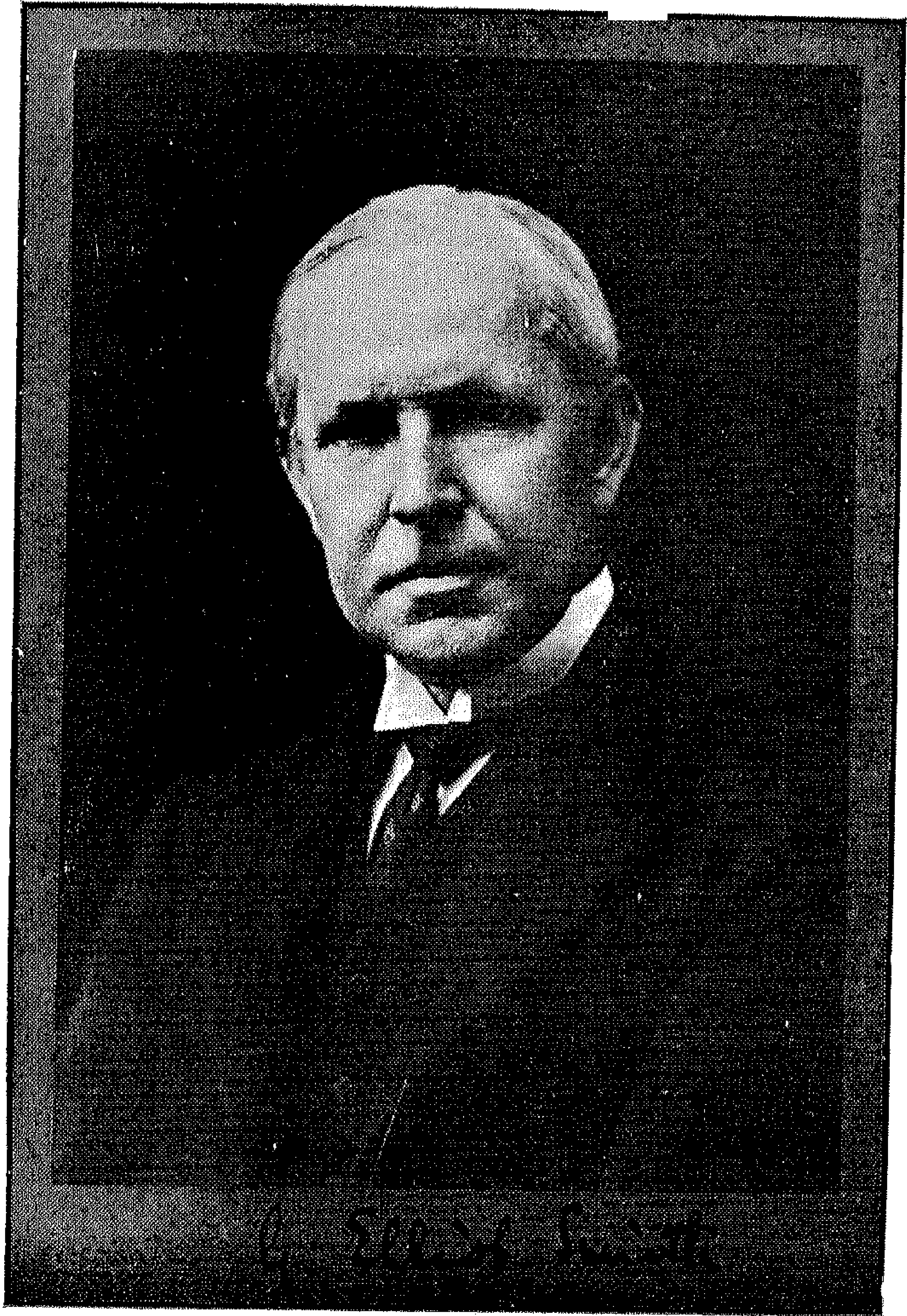
للأستاذ الدكتور إليوث سمث

وجه اكتشاف اللورد كنارفن والمستر هوارد كارتر لمقبرة توت عنخ آمون انتباه العالم كلهِ نحو مصر لأن هذا الاكتشاف يظهر ما قام بهِ رجال الفن والصناعة من المصريين قروناً عديدة قبل ان يحاول الاغريق اي شيء مماثل في اي اتجاه . فيستحسن والحالة هذه ان نوجه التفات الناس الى شأن مصر في خلق العناصر التي تقوم عليها حضارة العالم ، ذلك لأنها تقدم بهذا الاكتشاف دليلاً جديداً على القانون الذي نشرحهُ في هذا الكتاب[1] وهو ان مصر اصل حضارة العالم وانها ظلّت الملهم الاكبر لهذه الحضارة ثلاثين قرناً او تزيد

ولقد برهن هذا الاكتشاف الجديد للناس على اختلاف الوانهم ومشاربهم بل لأولئك الذين لم تكن تعنيهم مثل هذه الاشياء على ان مصر كانت في اواسط القرن الرابع عشر قبل الميلاد موطن حضارة عالية تمتاز الى جانب ما تمتاز بهِ ، بالفن السامي والأثاث الدقيق واللباس الفاخر والترف التام في ادوات المنزل والطعام والزينة . وليس لأحد ان يظن انمظاهر الثقافة المادية والمعنوية ترتقي في مدخل اوروبا الساذجة من دون ان تستمدّ من تلك الحضارة بعض التأثير بالذات او بالواسطة.ولما كان احد اغراض هذا الكتاب ان يسرد نصيب مصر واثرها في العصور الأولى في تلقيح اوروبا وآسيا بعناصر ثقافتها فان اكتشافات وادي الملوك ذات خطر لأنها تعرض علينا تطور صناعة الأثاث وعمل المنسوجات بل وماية عنصر وعنصر منعناصر الثقافة التي ظهرت في اوروبا بعد ذلك بقرون ، هبةً جديدة من مصر للحضارة العامة

وفي الزمن الذي عاش فيهِ الفرعون توت عنخ آمون ومات كانت كل من كريت وسوريا قد بلغت حضارة عالية ، ومصر هي التي نبهتهما قبل ذلك بقرون حتى استطاعا نشر ثقافتهما الخاصة . وليس من شك في ان مصر كانت تتصل اتصالاً وثيقاً بكل من القطرين وليس من شك كذلك في انها كانت تستفيد من نتائج هذا الاتصال ، ولكن هذا لايدل على ان الصناعة العظيمة الظاهرة في الأثاث والحلي، وفي النحت والمنسوجات كانت اجنبية عن مصدر الالهام لأن كل هذه الفنون والصناعات اخترعت في مصر وكانت تمارس فيها آلافاً من السنين ، ولكن الصلات الأجنبية التي اشير اليها كانت بلا ريب الباعث لدخول عناصر جديدة مثال ذلك المركبة التي دخلت وقتذاك من سوريا كاحدى نتائج ذلك الاتصال

(١) فصل من كتاب (المصريون القدماء وأصول المدنية) الذي اخذنا المؤلف في نقله الى العربية



الدكتور اليوث سمث صاحب الكتاب الذي نقل عنهُ هذا الفصل

هذه الأمثال تساعدنا على توضيح طريقة الاتصال الثقافي وتفاعل الأخذ والعطاء الحادث من وقت ان بدأت الانسانية في خلق الحضارة لانهُ لا يوجد قوم ذوو ثقافة استطاعوا ان يتطوروا في عزلة تامة. والامم لا تتقدم في بيوت مائية مغلقة ، ونشر الثقافة من مكان الى مكان حدث خلال التاريخ العام للحضارة، والاخذ والعطاء للمواد والافكار هما عاملا الحياة المؤثران في التقدم والرقي

واذا كانت مقبرة توت عنخ أمون خدمتنا لانها اضطرت الناس لتقدير الاعمال المصرية فيجب ان تساعدنا في اعداد عقولهم لادراك مقدار الدين الذي على الحضارة لمصر التي ولدتها وألهمتها في طفولتها وصباها . والاعمال الفنية التي اصطنعها البناؤون والحفارون والنجارون والنساجون وصناع الحلى والاحجار الكريمة والتي ظهرت في الادوات التي اكتشفت في مقبرة توت عنخ أمون لدليل جديد على ما ذهبنا اليهِ من ان مصر ام حضارة العالم لاننا نشاهد فيها صناعة الناس الذين ابتكروا الحضارة ونشروها. ولاريب في ان اعداد مومياء فرعون وترتيب ذلك الجهاز المتقن لحاجاته جميعاً يدلان في صراحة تشبه صراحة الاطفال على اصول العقائد المتأصلة وبعض الطقوس التي اقترضها العالم من مصر في احوال كثيرة دون ان يفهم أصولها أو معانيها لان الاقوام الذين أخذوا هذه العادات المصرية لم يكلفوا انفسهم مشقة البحث عن اسبابها ، وهكذا تظهر قيمة دراسة الآثار المصرية في انها تقدم الايضاح الصادق لآلاف الاشياء التي نعملها تحت تأثير التقاليد كل يوم بل كل ساعة من دون أن نعرف لماذا نعملها

في عهد توت عنخ أمون وفي عهد اسلافه وخلفائه الادنين كان هناك اتصال وثيق بين مصر وسوريا وكان هناك مصاهرة دائمة بين افراد الامرتين المالكتين . وتوضح الاسانيد المكتوبة للاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة احدى طرائق الاختلاط الجنسي بين القطرين، وغرض هذا الكتاب بيان نتائج هذا الاختلاط في الفي سنة حتى ذلك العهد.

واول سكان مصر — على قدر اكتشافنا — هم القوم الذين ادخلوا زراعة الشعير وابتكروا فن الري وصياغة الذهب وطريقة استخراج النحاس من خاماته ، ومن المحتمل ان يكونوا اول قوم استعملوا لبن الابقار كطعام انساني

على ان أثرهم في ابتكار القيمة الباقية للمعدن الذي لا قيمة له في الواقع ، ونعني بهِ الذهب لمن الاحداث الجسام في تاريخ العالم لانهُ ما ان اعطيت القيمة السحرية — كاكسير الحياة — لهذا المعدن الاصفر اللين السهل التناول وما ان صنعت منهُ التمائم البراقة الصافية حتى بعث شعور الناس بالجمال وحتى بحثوا عنهُ في كل مكان . . . ونتج عن ذلك ان اصبحت له قيمة عظيمة كانت المؤثر الاكبر في العالم من ذلك الحين

وقبل ان يصبح معدن الذهب واسطة التعامل بقرون أخذ الناس في البحث عنهُ واستخراجه حتى وصلوا الى ارلنده وساحل الذهب في الغرب وزمبابوى ومدغشقر في

الجنوب ، واليابان والفيليبين ومالانيزيا واميركا في الشرق ، فليس غريباً ان يصبح الذهب الباعث في نشر الحضارة في العالم كله لان كل مَحَلَّة مُعَدِّن اضحت مركز ثقافة اجنبية نبتت في قطر بعيد ، وليس غريباً ايضاً ان يصبح غوايةَ الناس يدفعهم الى الجشع ويوقد بينهم نار المنازعات والحروب . وان مقابر توت عنخ آمون وغيره من الفراعنة تقدم درساً موضوعياً لنتائج مثل هذا الجشع الذي كان من القوة بحيث ان رعية أولئك الفراعنة الذين كانوا يعتبرون كالآلهة كانت تعتقد ان قبورهم تدنس اذا خلت من الذهب . وبهذا كان المصريون مسؤولين عن خلق تلك القيمة المفتعلة لهذا المعدن . كان الذهب في عهد توت عنخ آمون يغري اللصوص ، ومع انه لم يكن قد استعمل للتداول الاً انه كان المادة التي تدفعها الامة جزية للاخرى ، تصنع منه الحلي كما كان يقدر لمزاياه السحرية كواهب الحياة وكرمز للام الكبرى « هاتور » و « هاتور » هي منتجة النسل وصاحبة الحياة ومعيدة الشباب للناس ، وهي الى جانب هذا (البقرة الالهية) واهبة اللبن متصلة بالقمر الذي كان يظن انه المسيطر على قوى اعطاء الحياة عند النساء ؟ وكانت تمثل بصورة أخرى هي حبة الشعير

ولما ابتكر المصريون وسائل زراعة الشعير اصبح للشعير شأن كبير جداً لا باعتباره مادة رئيسية من مواد الطعام ولا باعتباره المادة التي تصنع منها الجعة الالهية « واهبة الحياة » ولكن لان الحبة كانت كالاصداف التي كانت تعتبر رمزاً للقوى المعطية للحياة عند النساء ولهذا كانت تعتبر حبة الشعير كواهبة الحياة لا بالمعنى الضيق للتغذية ولكن بالمعنى السحري الواسع كرمز للام الكبرى

وذاع صيت الذهب من ناحية السحر اولاً لانه كان يستعمل في صياغة التمائم المكونة من الاصداف ، وانا اعود لامثال هذه المسائل هنا لأوجه الالتفات لهذه الحقيقة وهي ان جميع المواد التي استعملت في التبادل كالاصداف وحبات الشعير والماشية والذهب كانت كلها رموزاً للام الكبرى ، وبالطبع عظمت قيمة هذه الاشياء المختلفة عندما نسبت لتلك الام وهكذا اصبحت لها صولة سحرية — وبهذا أمكن استعمالها في التعامل

وفي ايام توت عنخ آمون كان الشعير مستعملاً في مصر كلها وكانت حبات هذا النبات تعتبر مستودع المواد الحية التي على صورة « ام الحنطة » أو بعبارة اصح « ام الشعير » وكان يصور « اوزيريس » في مقابر اسلافه وخلفائه الادنين بحبات الشعير النابتة التي كانت توضع في غرفة الدفن لتعيد بالسحر الى الفرعون الميت قوى الام الكبرى المعطية للحياة كما اعطيت لحبات الشعير النابتة . وفي الفصل الثالث من هذا الكتاب عدت الى الاشكال المسماة « Steatopygons » في القبور القديمة بمصر والتي كان الغرض منها ان تعبر بحق عن فكرة تقديس الاصداف

« البقية في باب الاخبار العلمية »



تابوت توت عنخ آمون الذهبي وهو محفوظ في متحف القاهرة امام صفحة ١٤٨

فلسفة الادب

مصطفى صادق الرافعي

اذا اعتبرتَ الخيالَ في الذكاء الانساني وأوَّليتَهُ دقةَ النظر وحسنَ التمييز لم تجده في الحقيقة الا تقليداً من النفس للألوهية بوسائل عاجزةٍ منقطعةٍ ، قادرةٍ على التصوُّر والوهم بمقدار عجزها عن الايجاد والتحقيق

وهذه النفس البشرية الآتيةُ من المجهول في اول حياتها، والراجعةُ اليهِ آخرَ حياتها، والمسدَّدةُ في طريقه مدة حياتها ، لا يمكن أن يتقرر في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده فليس من حدوده مَنفَذٌ ولا عنها مَحيص ، ولا ترضى طبيعتُها بما ينتهي فهي لا تتعاطى الموجودَ فيما بينها وبين خيالها على أنهُ قد فُرغ منهُ فما يُبتدأُ ، وتمَّ فما يُزاد ، وخلَدَ فما يتحوَّل ، ولا تزال تضربُ ظنَّها وتصرِّف وهمها في كل ما تراهُ أو يتلجلجُ في خاطرها ، فلا تبرح تتلمَّسُ في كل وجودٍ غيباً وتكشف من الغامض وتزيد في غموضهِ وتجري دأباً على مجاريها الخيالية التي توثِّق صلتَها بالمجهول . فمن ثمَّ لا بد في امرها مع الموجود مما لا وجود له تتعلق بهِ وتسكن اليهِ ، وعلى ذلك لا بد في كل شيء مع المعاني التي له في الحق من المعاني التي له في الخيال ، وههنا موضع الادب والبيان في طبيعة النفس الانسانية فكلاهما طبيعيٌّ فيها كما ترى

واذا قيل الأدب فاعلم أنهُ لابدَّ معهُ من البيان لان النفس تخلق فتصوِّر فتحسنُ الصورة، وانما يكونُ تمام التركيب في مَعرِضهِ وجمال صورتهِ ورقة لمحاتهِ وفتنة اشارتهِ، بل ينزل البيان من المعنى الذي يلبسهُ منزلةَ النضج من الثمرة الحلوة اذا هي كانت وحدها قبل النضج شيئاً مسمَّى او متميِّزاً فلن تكون بدونهِ شيئاً تامًّا ولا صحيحاً ،وما بُدٌّ من أن تستوفي كمال عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها

وهذه مسئلة كيفما تناولتها فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيت في الثمرة ونضجها فان البيان صناعةُ الجمال في شيءٍ جمالـه هو من فائدته وفائدته من جماله، فاذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره وعاد باباً من الاستعمال بعد ان كان باباً من التأثير وصار الفرق بين حاليـهِ كالفرق بين الفاكهة اذ هي باب من النبات وبين الفاكهة اذ هي باب من الخمر، ولهذا كان الاصل في الادب البيان والاسلوب في جميع لغات الفكر الانساني لانهُ كذلك في طبيعة النفس الانسانية

فالغرض الاول للادب المُبينِ ان يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها الى المجهول والى مجاز الحقيقة ، وأن يأتي الأسرار في الامور المكشوفة بما يتخيل فيها ، ويردَّ

القليل من الحياة كثيراً وافياً بما يضاعف من معانيه ، ويترك الماضيَ منها ثابتاً قارّاً بما يخلّد من وصفهِ ، ويجعل المؤلم منها لذّاً خفيفاً بما يبثُّ فيهِ من العاطفة ، والمملول ممتعاً حلواً بما يكشف فيهِ من الجمال والحكمة . ومدار ذلك كله على إيتاء النفس لذةَ المجهول التي هي في نفسها لذةٌ مجهولة ايضاً ، فان هذه النفس طُلَعةٌ متقلبة لا تبتغي مجهولاً صرفاً ولا معلوماً صرفاً كأنها مدركة بفطرتها أن ليس في الكون صريح مطلق ولا خفي مطلق وانما تبتغي حالةً ملائمة بين هذين يثور فيها قلق او يسكن منها قلق

وأشواقُ النفس هذه هي مادة الادب . فليس يكون أدباً الا اذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى ، او كان متصلاً بسر هذه الحياة فيكشف عنهُ او يومئ اليهِ من قريب ، أو غيَّر لها هذه الحياة تغييراً يجيء طِباقاً لغرضها وأشواقها فانهُ كما يرحل الانسان من جوّ الى جوّ غيره ينقله الادب من حياتهِ التي لا تختلف الى حياة أخرى فيها شعورها ولذتها وإن لم يكن لها مكان ولا زمان ، حياة كملت فيها أشواق النفس لأن فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكاليف . ولَعَمري ما جاءت الجنة والنار في الأديان عبثاً فان خالق النفس بما ركبه فيها من العجائب ، لا يحكم العقل أنهُ قد أتمَّ خَلقَها الا بخلق الجنة والنار معها إذ هما الصورتان الدائمتان المكافئتان لاشواقها وآلامها الخالدة إن هي استقامت مسدَّدة أو انعكست حائلة

وقد صحَّ عندي أن النفس لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتَها الخالدة فتُحسُّ وحدةَ الشعور ووحدة الكمال الأسمى الا في ساعات وفتَرات تنسلُّ فيها من زمنها وعيشها وتقالُضها واضطرابها الى « منطقة حياد » خارجة وراء الزمان والمكان ، فاذا هبطتها النفس فكأنما انتقلت الى الجنة واستَروَحت الخلد . وهذه المنطقة السحرية لا تكون الاَّ في أربعة: حبيبٌ فانه معشوق أُعطي قوة سحر النفس فهي تَنسى بهِ ، وصديق محبوب وفيّ أُوتي قوة جذب النفس فهي تنسى عنده ، وقطعة أدبية آخذة فهي ساحرة كالحبيب أو جاذبة كالصديق ، ومنظر فنيّ رائع ففيهِ من كل شيء شيء

وهذه كلها تُنسي المرء زمنَه مدة تطول وتقصر ، وذلك فيها دليل على ان النفس الانسانية تُصيب منها أساليب روحية لاتصالها هنيهةً بالروح الأزلي في لحظات من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية . ومن ثم نستطيع أن نقرر أن أساس الفن على الاطلاق هو ثورة الخالد في الانسان على الفاني فيهِ ، وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير هو معنى الأدب وأسلوبهُ

ثم أن الاتّساق والخير والحق والجمال — وهي التي تجعل للحياة الانسانية إسرارها — أمور غير طبيعية في عالم يقوم على الاضطراب والأَثرة والنزاع والشهوات . فمن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة الحياة للحياة ، فيبدعون لتلك الصفات الانسانية الجميلة

عالمها الذي تكون طبيعية فيه وهو عالم اركانهُ الاتساق في المعاني التي يجري فيها ، والجمال في التعبير الذي يتأدى بهِ ، والحق في الفكر الذي يقوم عليهِ، والخير في الغرض الذي يُساق له . ويكون في الأدب من النقص أو الكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة ولا معيار أدق منها اذ هي تعتبره بالنظر والرأي . ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافاً اليها الفن، ويجيء التعبير مزيداً فيه الجمال، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حيّة، ويظهر الكلام وفيهِ رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها وانتظامها ودقها الموسيقي، وتلبس الشهوات الانسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى الذي هو السر في ثورة الخالد من الانسان على الفاني والذي هو الغاية الاخيرة من الأدب والفن معاً ، وبهذا يهبك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارّة من خلال نفسك وتحس الأشياء كأنها انتقلت الى ذاتك من ذواتها . وذلك سر الاديب العبقري فانهُ لا يرى الرأي بالاعتقاب والاجتهاد كما يراه الناس وانما هو يحسّ بهِ فلا يقع له رأيه بالفكر بل يلهمهُ إلهاماً. وليس يؤاتيه الإلهام الاّ من كون الاشياء تمرّ فيه بمعانيها وتعبره كما تعبر السفن النهر فيحسّ أثرها فيلهَم ما يلهم . ويحسبهُ الناس نافذاً بفكره من خلال الكون على حين ان حقائق الكون هي النافذة من خلاله

ولو أردت ان تعرّف الاديب من هو لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من ان تسميه الانسان الكوني وغيره هو الانسان فقط . ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الاشياء ومعانيها ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وافراحها إذ كانت فيه مع خاصية الانسان خاصية الكون الشامل . فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع انه منها ، وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والاسرار انه كذلك منها ، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه انه هو منها ، وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لا حد له والاتساع الذي كل آخر فيه لشيء أولٌ فيه لشيء

وهو انسان يدله الجمال على نفسه ليدلّ غيره عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى وأضيف اليه في إحساسه قوة انشاء الاحساس في غيره ، فأساس عمله دائماً ان يزيد على كل فكرة صورةً لها ويزيد على كل صورة فكرةً فيها ، فهو يبدع المعاني للاشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها ويبدع الاشكال للمعاني المجردة فيوجدها هي في الحياة، فكأنهُ خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها الناس ويزيدهم فيها الشعورَ بجمالها الفني . وبالادباء والعلماء تنمو معاني الحياة كأنما اوجدتهم الحكمة لتنتقل بهم الدنيا من حالة الى حالة . وكأن هذا الكون العظيم يمرّ في أدمغتهم ليحقق نفسه

ومشاركة العلماء للادباء توجب ان يتميز الاديب بالاسلوب البياني اذ هو كالطابع على العمل الفني وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الانسان الموهوب الذي جاءت من طريقهِ [1] ثم

(١) سنبسط الكلام على الاسلوب وفلسفته في كتابنا الجديد (اسرار الاعجاز) الذي تم به كتاب اعجاز القرآن

لان الاسلوب هو تخصيص لنوع من الذوق وطريقة من الادراك كأن الجمال يقول بالاسلوب : ان هذا هو عمل فلان

وفصلُ ما بين العالم والاديب ان العالم فكرة ولكن الاديب فكرةٌ وأسلوبُها . فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة يشار اليهم جملة واحدة على حين يقال في كل اديب عبقريّ هذا هو هذا وحده. وعلم الاديب هو النفس الانسانية بأسرارها المتجهة الى الطبيعة ، والطبيعةُ بأسرارها المتجهة الى النفس . ولذلك فوضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الاسرار

واذا رأى الناس هذه الانسانية تركيباً تامًّا قائماً بحقائقهِ واوصافهِ ، فالاديب العبقري لا يراها الا أجزاءً كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها وكأنما أمرُها في (معمله) أو كأنّ الله سبحانه دعاه ليرى فيها رأيه.... وبذلك يجيء النابغُ من أدب العباقرة وبعضه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الانسانية ، وبعضه كالمراجعة للنفس والطبيعة ، وبعضه كالموافقة واقرار الحكمة ، وأساسه على كل هذه الاحوال النقد ثم النقد ولا شيء غير النقد، كأن القوة الازلية تقول لهذا المُلْهم : انت كلمتي فقل كلمتك

***

وترى الجمال حيث اصبته شيئاً واحداً لا يكبر ولا يصغر ولكن الحس به يكبر في أناس ويصغر في أناس ، وههنا يتألّه الادب فهو خالق الجمال في الذهن والممكّن للاسباب المعينة على ادراكه وتَبَيُّن صفاته ومعانيه ، وهو الذي يقدّر لهذا العالم قيمته الانسانية باضافة الصور الفكرية الجميلة اليهِ ومحاولته إظهارَ النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة وصولة الغريزة وغرارة الطبع الحيواني

واذا كان الامر في الادب على ذلك فباضطرارٍ أن تتهذب فيهِ الحياة وتتأدب ، وأن يكون تسلطهُ على بواعث النفس دُرْبَةً لاصلاحها وإقامتها لا لإفسادها والانحراف بها الى الزيغ والضلالة ، وباضطرارٍ أن يكون الاديب مكلّفاً تصحيح النفس الانسانية ونفيَ التزوير عنها وإخلاصَها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ، ثم تصحيح الفكرة الانسانية في الوجود ونفي الوثنية عن هذه الفكرة والسموّ بها الى فوق ثم الى فوق ودائماً الى فوق

وانما يكلّف الاديب ذلك لانهُ مستبصرٌ من خصائصهِ التّميز وتقدُّمُ النظر وتسقُّطُ الإلهام، ولان الاصل في عمله الفنيّ أن لا يبحث في الشيء نفسه ولكن في البديع منهُ ، وأن لا ينظر الى وجوده بل الى سره ، ولا يعنى بتركيبهِ بل بالجمال في تركيبه ، ولان مادة عمله أحوالُ الناس واخلاقهم وألوانُ معايشهم واحلامُهم ومذاهب أخيلتهم وافكارهم في معنى الفن وتفاوتُ إحساسهم بهِ وأسبابُ مغاويهم ومَراشِدِهم، يسدّدُ على كل ذلك رأيه ويجيل فيهِ نظره ويخلطه في نفسه وينقذه من حواسه كأنما له في السرائر القبضُ والبسط وكأنهُ ولي الحكم على الجزء

الخفيّ في الانسان يقوم على سياسته وتدبيره ويهديه الى المثل الاعلى . وهل يخلق العبقري إلاّ كالبرهان من الله لعباده على ان فيهم من يقدر على الذي هو اكمل والذي هو ابدع ، حتى لا ييأس العقل الانساني ولا ينخذل فيستمرّ دائباً في طلب الكمال والابداع اللذين لا نهاية لهما؟

فالاديب يشرف على هذه الدنيا من بصيرته فاذا وقائع الحياة في حذوٍ واحد من النزاع والتناقض واذا هي دائبة في محق الشخصية الانسانية تاركةً كلَّ حيٍ من الناس كأنهُ شخص قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ، فاذا تلجلج ذلك في نفسه اتجهت هذه النفس العالية الى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والانسانية والايمان والفضيلة وقامت حارسة على ما ضيّع الناس وسخّرت في ذلك تسخيراً لا تملك معهُ أن تأبى منهُ ولا يستوي لها أن تُغمض فيه ، ونُقلت الانسانية كلها ووضعت على مجاز طريقها أين توجهت فتأكد الامر فيها ووُصِلَ بها وعلمت أنها من خالصة الله وأن رسالتها للعالم هي تقرير الحب للمتعادين ، وبسط الرحمة للمتنازعين وأن تجمع الكل على الجمال وهو لا يختلف في لذته وتصل بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرق في موعظتها وتشعرهم الحكمة وهي لا تتنازع في مناحيها. فالادب من هذه الناحية يشبه الدين كلاهما يعين الانسانية على الاستمرار في عملها وكلاهما قريبٌ من قريب ، غير ان الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهى والادب يعرض لها ليجمع ويقابل ، والدين يوجه الانسان الى ربه والادب يوجههُ الى نفسه ، وذلك وحي الله الى الملك الى نبي مختار وهذا وحي الله الى البصيرة الى انسان مختار

فان لم يكن للاديب مثلٌ أعلى يجهد في تحقيقه ويعمل في سبيله فهو اديب حالة من الحالات لا أديب عصر ولا اديب جيل . وبذلك وحده كان اهل المثل الاعلى في كل عصر هم الارقام الانسانية التي يلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته

ولا يخدعنك عن هذا ان ترى بعض العبقريين لا يؤتّى في ادبه او اكثره الاّ الى الرذائل يتغلغل فيها ويتملأ بها ويكون منها على ما ليس عليه احد الاّ السّفلةَ والحِشوةَ من طغام الناس ورعاعهم ، فان هذا واضرابه مسخّرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة ما فيها من النهي ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة ، وكثيراً ما تكون الموعظة برذائلهم اقوى وأشد تأثيراً مما هي في الفضائل . بل هم عندي كبعض الاحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهي اقوى مما يأمر الامر على نحو ما يكون من قراءتك موعظةَ الفضيلة الادبية التي تأمرك ان تكون عفيفاً طاهراً ثم ما يكون من رؤيتك الفاجرَ المبتلى المشوّه المتحطم الذي ينهاك بصورته ان تكون مثله . ولهذه الحقيقة القوية في اثرها — حقيقة الامر بالنهي — يعمد النوابغ في بعض ادبهم الى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه او الاحالة في الحادثة التي يصفونها فينتهي الراهب التقي في القصة ملحداً فاجراً وترتد المرأة البغيّ قديسة ويرجع الابن البر قاتلاً مجنوناً جنون الدم، الى كثير مما يجري في هذا النسق كما

تراه لاناتول فرانس وشكسبير وغيرها . وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر ولكنهُ اسلوب من الفن يقابله اسلوب من الخلق ليبدع اسلوباً من التأثير . وكل ذلك شاذ معدود ينبغي ان ينحصر ولا يتعدى لانهُ وصف لاحوال دقيقة طارئة على النفس لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرة فيها

والشرط في العبقري الذي تلك صفته وذلك ادبه ان يعلو بالرذيلة ... في اسلوبه ومعانيه آخذاً بغاية الصفة متناهياً في حسن العبارة حتى يصبح وكأن الرذائل هي اختارت منهُ مفسّرها العبقري الشاذ الذي يكون في سمو فنه البياني هو وحده الطرفَ المقابل لسمو العبارة عن الفضيلة ، فيصنع الالهام في هذا وفي هذا صنعه الفنيّ بطريقة بديعة التأثير اصلها في اديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ، وفي اديب الرذيلة مايقوده ويندفع اليه ، كأن منهما انساناً صار ملكاً يكتب وانساناً عاد حيواناً يكتب ....

واذا انت ميَّلتَ بين رذيلة الاديب العبقري في فنه ورذيلة الاديب الفسْل الذي يتشبه به في التأليف والرأي والمتابعة والمذهب ، رأيت الواحدة من الاخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف : هذا دموعه الله وذاك دموعه الله وشعره . وفي كتابة هذه الطبقة من العبقريين خاصة يتحقق لك ان الاسلوب هو اساس الفن الادبي وان اللذة به هي علامة الحياة فيه اذ لا ترى غير قطعة ادبية فنية شاهدُها من نفسها على انها باسلوبها ليست في الحقيقة الا نكتة نفسية لاهتياج البواعث في نفوس قرائها ، وانها على ذلك هي ايضاً مسئلة من مسائل الانسانية مطروحة للنظر والحل بما فيها من جمال الفن ودقائق التحليل

* * *

واللذة بالادب غير التلهي به واتخاذه للعبث والبطالة فيجيء موضوعاً على ذلك فيخرج الى ان يكون ملهاةً وسخفاً ومضيَعةً . فان اللذة به آتية من جمال اسلوبه وبلاغة معانيه وتناوله الكون والحياة بالاساليب الشعرية التي في النفس وهي الاصل في جمال الاسلوب ، ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كله كسائر ما ركب في طبيعة الحي إذ يحسُّ الذوقُ لذة الطعام مثلاً على ان يكون من فعلها الطبيعي استمرار التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها . اما التلهي فيجيء من سخف الادب وفراغ معانيه ومؤاتاته الشهوات الخسيسة والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة وذلك حين لا يكون أدبَ الشعب ولا الانسانية بل أدب فئة بعينها واحوالها . فان أديب صناعته أو اديب جماعته غير أديب قومه وأديب عصره . احدهما الى حد محدود من الحياة والآخر عمل جامع مستمر متفنن لان عمله الادبي هو وجوده وكل شيء في قومه لا يبرح يقول له اكتب

ومن الاصول الاجتماعية التي لا تتخلف انه اذا كانت الدولة للشعب كان الادب ادب الشعب

في حياته وافكاره ومطامحه والوان عيشه ، وزخر الادب بذلك وتنوع وافتن وبنى على الحياة الاجتماعية . فان كانت الدولة لغير الشعب كان الادب أدب الحاكمين وبني على النفاق والمداهنة والمبالغات الصناعية والكذب والتلبيس ، ونضب الادب من ذلك وقلّ وتكرر من صورة واحدة . وفي الاولى يتسع الاديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كل من حوله الى الاحساس بالكون ومجاليه واسراره في كل ما حوله . اما الثانية فلا يحسُّ فيها الا احوال نفسه وخليطه فيصبح ادبه اشبه بمسافة محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيء حتى يملّ بنفسه ذهابه ومجيئه

والعجب الذي لم يتنبه له احد الى اليوم من كل من درسوا الادب العربي قديماً وحديثاً انك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للادب في اسمى معانيه الا في اللغة العربية وحدها ولم يغفل عنه مع ذلك الا اهل هذه اللغة وحدهم

فاذا أردت الادب الذي يقرر الاسلوب شرطاً فيه ويأتي بقوة اللغة صورةً لقوة الطباع وبعظمة الإداء صورة لعظمة الاخلاق ، وبرقة البيان صورة لرقة النفس ، وبدقة التركيب المتناهية في العمق صورة لدقة النظرة الى الحياة ، ويريك ان الكلام أمة من الالفاظ عاملة في حياة امة من الناس ضابطة لها المقاييس التاريخية محكِمة لها الاوضاع الانسانية مشترطة فيها المثلَ الاعلى حاملة لها النور الالهي على الارض

واذا اردت الادب الذي ينشيء الامة انشاءً سامياً ويدفعها الى المعالي دفعاً ويردها عن سفاسف الحياة ويوجهها بدقة الابرة المغناطيسية الى الآفاق الواسعة من الحياة ويسددها في اغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرر المحكم ؟ ويملأ سرائرها يقيناً ونفوسها حزماً وابصارها نظراً وعقولها حكمة وينفذ بها من مظاهر الكون الى اسرار الالوهية

اذا أردت الادب على كل هذه الوجوه من الاعتبار وجدت القرآن الحكيم قد وضع الاصل الحي في ذلك كله . وأعجب ما فيه انه جعل هذا الاصل مقدّساً .وفرض هذا التقديس عقيدة واعتبر هذه العقيدة ثابتة لن تتغير ، ومع ذلك كله لم يتنبه له الادباء ولم يحذوا بالادب حذوه وحسبوه ديناً فقط وذهبوا بادبهم الى العبث والمجون والنفاق كأنه ليس منهم الا بقايا تاريخ محتضَر بالعلل القاتلة ذاهبٍ الى الفناء الحتم

والقرآن بأسلوبه ومعانيه واغراضه لا يستخرج منه للادب الاّ تعريف واحد: ان الادب هو السموُّ بضمير الامة

ولا يستخرج منه للاديب الا تعريف واحد : ان الاديب هو مَن كان لامته وللغتها في مواهب قلمه لقبٌ من القاب التاريخ

العلم والفلسفة والاخيلة الشعرية (1)

للامير مصطفى الشهابي

أشرتُ في المقالة التي عنوانها «هواجس في الانسان وحياتهِ» وهي المنشورة في مقتطف نيسان «ابريل» من السنة الحاضرة الى ان العلماء (أو اصحاب الفلسفة اليقينية) لا يؤمنون بغير ما يمكن اثباتهُ بالطرائق العلمية من مختلف العلوم التي تقع تحت الحس او تدرك بدلائل عقلية راهنة. وهم يقدحون في اصحاب فلسفة ما وراء الطبيعة ويتهمونهم بأنهم اناس يرجمون بالغيب ويتيهون في بيداء من الاوهام ويتخبطون في خضم من التخيلات الفارغة عند ما يجزمون العلةَ والمعلول وقدم العالم أو حدوثه والأزل والأبد وكنه القضاء وشكلهُ وأسباب الوجود وغير ذلك من التصورات التي لا تُحس ولا يمكن للعقل السليم ان يبتها على الطرائق اليقينية. ويغالي بعضهم فيتّهم الفلاسفة المذكورين بأن كل ابحاثهم اخيلة شعرية لا تتعدى اذهانهم ولا يقوم دليل علمي على وجود مدلول هذه الأخيلة خارج اذهان هؤلاء الفلاسفة. ويستنتج العلماء المشار اليهم انهُ ما دام الأمر على ما ذكرنا فالأجدر ترك الابحاث الفلسفية واطراحها جانباً وعدم التعرض لها البتة

ويهب الفلاسفة في وجهِ العلماء قائلين: لقد آمنا بشرائعكم العلمية التي تريدوننا على الأكتفاء بها ولكن هذه الشرائع ليست كل شيء في هذا العالم ولا يمكنكم منع دماغنا عن تأمل هذا الكون واستقصاء احاجيهِ وعلاقتهِ بذلك الأنسان الذي لا يفتأ يجالد في الحياة ويكافح وهو كثيراً ما يتألم وقليلاً ما يفرح وربما كُتب له النصر أحياناً لكنهُ من المتحتم عليهِ ان يهلك في النهاية مقهوراً مدحوراً. ثم ذلك العقل البشري اليس له حاجات طبيعية يجب لحصها، وذلك الفكر الجيّاش بالخواطر والأخيلة اليس من الضروري ان ننفذ الى اعماقهِ حيث نرى منتجاته فنفرز فيها السمين من الغث وارادتنا التي نتباهى بها اليس لها مطالب يجب إثباتها وتقديرها حق قدرها. وهذه الطبيعة التي نراها هل تسير بذاتها ام لها علة تسيّرها، واذا كان هنالك علة فهل هي مادة أو عقل أو شيء لا يمكن إدراكه؟ وهل للكون حدود في الفضاء أم لا، وهل له بداية ام هو ازلي اذ لا بد من أن يكون أحد الأمرين صحيحاً. وما هي ماهية الأنسان ومن أين اتى والى أين يذهب وهل العالم مخيّر ام مسيّر بجبريةٍ لا

(1) كتبت بعد تلاوة تهافت الفلاسفة للغزالي وتهافت التهافت لابن رشد ومستقبل فلسفة ما وراء الطبيعة لفويه Alfred Fouillée الفيلسوف الفرنسي والحركة الفكرية ضد العلوم اليقينية المعنوية لفويه أيضاً والفرق بين الفرق للبغدادي

تتزحزح. وهل أمام العالم رقي ام هو يدور ابديًّا على حاله ، وما الحركة العامة للكائنات وما الحكمة فيها . وهل القواعد الاخلاقية شريعة بشرية واجتماعية فحسب أم لها اساس في الطبيعة كلها

ويضيف الفلاسفة الى ذلك أن تأثير الفلسفة في حياة الناس الاخلاقية والاجتماعية أمر لا يمكن للرجل المستنير أن ينكره . ولا تكون سيرة الانسان واحدة اذا ما اعتقد بأن عالم المادة والحواس هو كل شيء أو اذا ما اعتقد بأن وراء ذلك حياة اعلى واتم واقرب من الحقيقة. ولا يكفي ان يلقي الانسان الحبل على غاربهِ ويقول « لا أدري » فاللاأدرية غير واردة لانها تحكم بأن العقل البشري عاجز عن ادراك هذه الامور دون أن تناقش وتتوخى اثبات صحة هذا العجز أو عدم صحته . هذا ولكل عالم فلسفته حتى اينشتين نفسهُ فان العلم اليقيني لم يمنعهُ عن البحث في الفضاء — الزمن وهو من ابحاث الفلسفة لا من ابحاث العلوم اليقينية. والخلاصة ان الفلسفة تدوم ما دام للانسان دماغ يفكر في هذا العالم وفي غوامضهِ

عند ما يصل الفلاسفة في تبجحهم الى هذا الحد ينفد صبر العلماء فيقولون :

لو قصر الفلاسفة بحثهم على المدركات خاصةً وعلى ارتباط ذهننا بما لا يمكن ادراكه لسكتنا على مضض ولتركناهم يتناولون هذه الموضوعات التي قد تكون صحيحة او غير صحيحة . اما ان يعمدوا الى ما لا يمكن ادراكهُ كالعلة او الله مثلاً فيبتّوا بتًّا انهُ موجود او قابل الوجود او غير قابل الوجود او يمكن ان يكون على شكل ما أو لا يمكن ان يكون على شكل ما أو له صلة بالكائنات او لا صلة له بها او ان الكائنات صورة منهُ او انها ليست صورة منهُ فهذه امور لا يستطيع العقل البشري ان يجزمها والاجدر بالانسان اذا ما سئل اسئلة كهذه ان يسكت ويقول لا ادري او ان يجيب بلفظة «ربما» دون غيرها . وجزم الفلاسفة لما لا يمكن ادراكه يجعل العلماء يسخرون بهم لاننا نرى كل فيلسوف يقطع امراً مخالفاً لما قطعه رفيقه فأين هي الحقيقة يا ترى ؟ هذا يقول بقدم العالم وبكونه موجوداً مع الله ومساوقاً له وبأنَّ خلق العالم من القدم في دائرة الزمن اعتقاداً من الحماقة بمكان . فالعالم ازلي لا بدء له وهو لم توجده علة وذاك يقول بعكس ذلك اي بأن العالم مكوَّن ومحدث وعلى ذلك اصحاب الاديان . ومع هذا لو سألتهم الصحيح ان العالم خلق منذ نحو ٨٠٠٠ سنة اجابوك ان ذلك مخالف لقواعد العلم والفكر الاساسية لان الفكر لا يتصور ماهية العدم ولا كيفية خلق الكائن منهُ ولا السبب الذي حمل الاله على اتيان هذه الاعجوبة منذ ٨٠٠٠ سنة او اكثر او اقل . اما العلة التي كوَّنت هذا العالم فقد ذهبوا فيها كل مذهب فاليونان خاصة والرومان بعدهم جعلوا لكل شيء الهاً او اكثر وجعلوا لهذه الآلهة كل ما يمكن ان نتصوره من صفات بشرية فالآلهة لديهم تتحارب وتتخاتل وتتشاتم وتسمر للطرب وللالعاب وترتاد اماكن الريبة ومجالس الفساق فتسكر وتعربد وتتنازع الجميلات الحسان من إناث الآلهة الى آخر ما يمكن للناس ان يعملوه حتى السفلة منهم

وهذا جوبيتر (المشتري) اب الآلهة ورئيسها ورب السماء والارض أتدري بأي اعجوبة جاء الى هذا العالم؟ لقد خرج من فم ابيه ساتورن وعدٌ او نذر بأنهُ سيلتهم اولاده عقب ولادتهم ومنهم جوبيتر. فحزنت امرأته حزناً شديداً وفتقت لها قريحتها بعد لأي أن تضع حجراً مكان ابنها جوبيتر حتى اذا ما جاء الأب ليوفي بوعده التهمَ الحجر بدل الطفل. وكذا كان. لذلك نجا رئيس الآلهة جوبيتر من الموت الزؤام وادرك اباه فهوى به عن العرش ثم اخذ يفرق الكائنات على الآلهة لكنهُ لم يغفل عن حقوقه الشخصية فاحتفظ لنفسه بالسماء والارض معاً. ونظر الى ذوي القربى فبرَّ بصلة الرحم وجعل اخاه نبتون إله البحر واخته سِرِس إلهة الزراعة وابنته ديانا إلهة الصيد وابنته مينرفا إلهة الحكمة والفنون. اما بناته التسع الملهمات الشعر للشعراء فقد جعلهن ربات الفنون والاعلاق النفيسة. فأعجب لهذا الاله القادر وسل نفسك ماذا كان يحل بالعالم لو ان والدة جوبيتر لم تضع حجراً مكانه بل تركت اباه يبتلعه وهو طفل في حجرها ...

ثم انظر الى فينوس الزهرة إلهة الجمال المولودة من زبد البحر ما اجملها وهي تخرج من بين الامواج ويدها تعقص شعرها فكم تمنت غادات اليونان ان يحاكينها بجمالها الساحر الفتان ولا تنس ذكر سِرِس إلهة الزراعة ولكن اذا كنت مثلي ذا صلة بالزراعة والنبات فلا تتردد واعبد من شئت ممن انعموا عليك من ارباب الزراعة الخالدين مثل اوزيريس المصريين ونينيب الكلدانيين وغيرهما.

ولكن أليس من الغريب ان هذا الجيش من الآلهة لم يرض احدٌ منهم حتى اليوم بأن يتجلى امام احد من سكان هذه الارض الحيارى البائسين واين الجن والابالسة الذين طالما تغنى بوصفهم الشعراء وأُخيف بذكرهم الاطفال ولله در فيلسوف المعرة القائل:

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت بهِ حساً يحسُّ لجنّيٍ ولا ملك

واذا نبا عقلك عن عبادة آلهة اليونان والرومان فعليك بآلهة المصريين الاقدمين فقد كانوا ايضاً عظماء لدى الناس مثل رع وايزيس واوزيريس وسائر الفراعنة وهم كثر. ويمكنك ان تعبد النيل وتجزم مثلهم ان ماءه ينزل من السماء ومع هذا لا تنس ان رواد ايامنا هذه قد كشفوا الغطاء عن منبعه وتبعوه حتى مصبه فاذا بهِ لا صلة له بالسماء البتة

وربما جال في خلدك أن تتخذ لك صنماً تعبده. لكنني أخشى أن يكون من عجين أو حلوى فتضطر الى أكله في مضطرب هذه الأزمة الاقتصادية كما فعل بعض العرب قبل الأسلام. واخشى أيضاً أن يصيبه ما أصاب صنم بني سليم وكان سادنه يسمى غاوي بن ظالم فبينما هو ذات يوم جالس بعيداً عنهُ اذا بثعلبانِ اقبلا وهما يشتدان فشغر كل منهما رجله وبال على الصنم فنظر اليهِ غاوي متأملاً وقال

اربب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب

وتمجّسْ إن شئت واعبد النار والنور أو عليك بالأله برهما واوجههِ الثلاثة أو آمن بأقانيم النصارى أو بالــه المسلمين الواحد الأحد أفتظن انك وصلت الى حيث تبتغي أي بلغت سدرة المنتهى فارتاح فكرك وخلا من هواجسهِ . انك ياصاح ما برحت امام مذاهب عدة في كل من هذه الديانات . وأنت تحار أيها اصدق . فاذا كنت مسلماً مثلاً اتكون من القدرية او المعتزلة او الجهمية او المشبّهة الى عشرات من الفرق التي يكذب دعاة كل منها اتباع الفرق السائرة. او كنت من المسيحيين فربما ضعت في معترك الفرق النصرانية. وبعد مهما يكن نوع اعتقادك بالعلة الاولى فاياك ان تجعل منها في حياتك سبباً للكره والنزاع والقسوة والاّ عدنا الى مثل مذابح « سان برتلمي » الوحشية ايام شارل التاسع في فرنسا او الى مثل فظائع الأزارقة من الخوارج في الأسلام الذين ظل القائد الكبير المهلب ابن ابي صفرة يحاربهم مع ابنائهِ تسع عشرة سنة

* * *

ومتى بلغ العلماء هذا الحد من التعرض لمذاهب الفلاسفة واللاهوتيين الذين يتناولون بابحاثهم ما لا يمكن ادراكه كالعلة الأولى مثلاً فيفصلونها على قدر عقولهم اوعلى قدر ما تبلغهُ اوهامهم يغضب الفلاسفة على العلماء ويقولون : متى كانت علومكم هي الحقيقة اليقينية بعينها. اليست العلوم مجموع شرائع ذهنية لحوادث الطبيعة نتصورها نحن كما نتصور الأبحاث الفلسفية. لا شك ان هذه الشرائع ترتكز على الحس والعقل وهي مضبوطة ضبطاً رياضيًّا في الغالب وتدعمها التجارب والوقائع الراهنة لكنها هي شيء والطبيعة نفسها شيء آخر . فالغاز مثلاً لا يتمدد بقانون ماريوط بل يتمدد بمؤثرات خفية لا يطلعنا القانون المذكور الاّ على نتائج عملها والاّ على حساباتنا الرياضية لهذه النتائج . ولذلك نرى ان الطبيعة والحقيقة الواقعية تجهل شرائعنا وارقامنا وطرائق تصوّرنا للطبيعة وتمثيلنا لها . وليست القوانين العلمية في النهاية سوى افكار تجول في خاطرنا كالافكار الفلسفية . وهذه الافكار شيء وعالم الطبيعة كما قلنا شيء آخر . ثم لنفرض اننا اتينا الى هذا العالم بعد ملايين من السنين واننا حللنا كل حوادث الطبيعة بقوانين لا تقبل الاخذ والرد أوضبطنا كل هذه القوانين بقانون أعلى يشملها جميعاً افتظنون ان دماغنا يكتفي بذلك ام هو يتساءل هل هذه الحوادث وقوانينها العلمية والقانون الاعلى لقوانينها هي كل شيء في هذا الكون وهلاّ يوجد شيء داخلها أو خارجها ؟

وبعد هذا كيف يطعن العلماء بالفلسفة متمثلين بمذاهب فلاسفة القرون الاولى والوسطى مع ان فلاسفة اليوم قد ارتقت مداركهم وتصوراتهم عن قبل كما ارتقت العلوم نفسها فصارت تؤخذ بوسائل يقينية غير الوسائل القديمة

وبعد ان يسكت الفلاسفة ويشفوا غليلهم من العلماء يقوم الشعراء الخياليون متبرمين متضجرين من القيود الحسية والعقلية التي يتقيد بها الفريقان فيقولون . اما نحن ياسادتي فلنا الاخيلة الواسعة والتصورات التي لاحدَّ لها سواء اكان لها ظلٌ من الحقيقة املا . فنحن اذا شئنا ضربنا الآلهة بعضهم ببعض واوقفنا الافلاك عن الدوران ووحّدنا الاضداد واعدمنا الموجودات وخلقنا ما اردنا من العدم . فان قلتم هذه اوهام سينمية لا تتعدى اذهاننا قلنا اثبتوا لنا ان العالم لا يصح ان يطلق عليهِ اسم السينما الاكبر . . . واثبتوا انهُ لا يوجد وراء حواسنا الخمس اشياء يجب لادراكها ان يكون لنا غير هذه الحواس . . .

* * *

ومتى وصلت المهاترة الى هذا الحد يقوم رجل حكيم منصف وزن الامور بميزان العقل فيقول : لكل من العلوم والفلسفة والاوهام الشعرية حدود يجب ان تقف عندها . فالعلم اليقيني اليوم يتناول صلة الموجودات الثابتة بعضها ببعض بصرف النظر عن صلتها بالشخص الذي يحس ويفكر او صلتها بمجموع العالم . ولا يهتم في العلوم اليقينية الا لمعرفة ماهية الصلات التي تربط الاشياء الثابتة بعضها ببعض ولذلك يمكن في العلم ان يتطلع الانسان لمعرفة النتائج من المقدمات اي معرفة الحوادث التالية من التي سبقتها وادت الى حدوثها دونما حاجة الى معرفة الاسباب التي اوصلت الى ذلك اي الى حصول الحادث اللاحق من الحادث السابق . وتكون العلوم اليقينية ثابتة لانها تفرض بادئ بدء صحة شيء ما دون الابتعاد عنهُ وتقف عند النتيجة الحاصلة دون ان تتعداها . والعلم اليقيني كما ترون صحيح بذاتهِ لكنهُ لا يتناول سوى جزء من الاشياء الحقيقية عدا ان كل علم لا يتعدى الحدود التي رسمت له . فالميكانيكي مثلاً لا يهتم لغير الحركة والرياضي لغير الارقام والمسافات وهكذا . والعالم في نظر العلوم اليقينية كالمرآة المكسورة يتناول كل علم قطعة منها

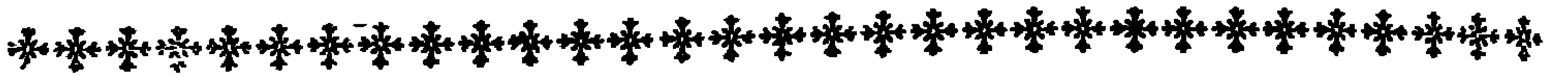
اما الفلسفة فانها تجمع قطع هذه المرآة وتسعى لرؤية صورة الكون بها . فالفلسفة اذن هي التطلع لمعرفة الكون بمجموعه ومعرفة النفس التي تدركه . وهي ايضاً انتقاد العلوم وتحديدها واتمامها بافكار يتوخى بها تصوير وحدة الكون الحقيقية . والسؤالان العظيمان اللذان تتناولهما الفلسفة هما كيف يمكن معرفة الاشياء وكيف تكون هذه الاشياء . ويجب ان لا تتناول الفلسفة سوى المدركات وسوى علاقة ذهننا بما لا يمكن ادراكه ولا ينبغي لها ان تجزم الامور في كل ما لا يمكن ادراكه ما دام العقل البشري غير قادر على بته

ويتضح من ذلك ان الفلسفة ترتكز منطقياً على الاستقراء وانها تتوخى جعل الحقائق ضمن المعقولات اما الاخيلة الشعرية فاوهام لا نحسها ولا نعقلها



قبيلة عربية

من اصل ايطالي



شغفت من عهد بعيد بمطالعة مؤلفات السائحين الذين وفدوا منذ القرون الوسطى حتى القرن الماضي على مصر وبلاد الشرق الادنى فقرأت منها الشيء الكثير ولا سيما ما كتبه السائحون الايطاليون امثال شريا كو دي أنكونا — وليوناردو فرسكو بالدي — وبيترو ديلا ڤاله — وجيوڤاني باتستا بلسوني دي پادوفا — وايبودينو روزوليني دي پيزا وغيرهم الذين قصوا في مؤلفاتهم كثيراً من الاخبار الطريفة عن مصر وآثارها وأهلها من حضر وبدو وذكروا الكثير من عاداتهم وصناعاتهم وطبائعهم. وقد لفت نظري بنوع خاص ما كتبوه عن القبائل العربية الضاربة في صحراء ليبيا ولكن بعد كل ما اطلعت عليهِ من اخبار هذه القبائل لم يكن ليخطر ببالي ان احدى هذه القبائل الشهيرة بقوتها ومنعة جانبها وهي قبيلة «السناجرة» يجري في عروق ابنائها الدم الايطالي حتى كان الاسبوع الماضي عند ما ذهبت لزيارة صديقي العالم الكبير الاستاذ الدكتور جوڤاني كاپوڤيلا المدرس بالجامعة المصرية — في منزله ووجدت في يده مجلداً ضخماً هو مذكرات احدهؤلاء السائحين الايطاليين الذين زاروا مصر في القرن الماضي وهو العالم المهندس روبتي بريكتي Robecchi-Brichetti الذي وصل الى مصر في سنة ١٨٨٥ ميلادية وبقي فيها مدة وكان هو اول من قام من الاوربيين برحلة في واحة سيوه والجهات المجاورة لها وكانت رحلته بحجة الاستقصاء وجمع الاعشاب الطبية المفيدة في معالجة المرضى ولكن يظهر انهُ كان له غرض آخر لم يكن ليبوح به لاحد وهو البحث عن موميات الفراعنة المدفونة بالواحة لانهُ خاطر بحياته بالنزول في احدى مقابرها القديمة ونجح في استخراج عدد كبير من الموميات من بطونها وهي احسن ما وجد من هذا النوع وارسلها كلها الى ايطاليا حيث لا تزال موضع اعجاب السائحين والمتفرجين في متحف فلورنسا. وقد اعجب بها وشاد بذكرها الكاتب الايطالي الذائع الصيت پاولو مونتجازا Paolo Montegazza ، ومات بريكيتي من عهد قريب بعد ان طبع مذكراته في سنة ١٩٠١ م عن رحلته «الى معبد آمون »

وبعد ان استقر بي المقام بمنزل الدكتور كاپوڤيلا بادرني بسؤالي عما عساي ان اكون سمعت عن قبيلة السناجرة وعن منشئها ومؤسسها فقلت له لقد سمعت بها واظن انني سبق ان قرأت شيئاً عنها وكل ما اذكره انها من القبائل العظيمة الشأن التي تقيم في صحراء ليبيا في منطقة واسعة ممتدة على الحدود المصرية الطرابلسية عند ساحل البحر الابيض المتوسط من شرق مدينة طبرق حتى واحتي جغبوب وسيوه جنوباً وعندئذ قال لي الا تعلم ان هذه القبيلة من اصل ايطالي وانها تنتسب الى رجل من مدينة شا كا Sciacca في جزيرة صقلية اسمه سينكييري ترينا كريزي Sinchieri الذي سماه العرب « سنجر » عند ما اسلم وأقام بينهم ولاسلام هذا الرجل قصة طريفة تقرأها في هذا الفصل وفتح لي المجلد وأشار لي الى فصل عنوانه « قبيلة عربية من اصل ايطالي » فلما قرأته آثرت نشره لطرافته وها هو بالحرف الواحد

« ٩ اغسطس

انتشر بسرعة البرق ذلك النبأ القائل بان نصرانيًّا أو اوروبيًّا حضر مع القافلة من مدينة الاسكندرية وذلك لانني عقب الفجر في الصباح الباكر ألفيت نفسي يحيط بي عدد كبير من النـاس الذين حضروا لمشاهدتي ولقد كانت هذه أول ليلة انام فيها تحت خيمة حقيقية منذ ان بارحت مدينة الاسكندرية ونمت نوماً هادئاً لذيذاً لاني لم اعد افكر في السهر على امتعتي وأمنت من سطو اي انسان عليّ وذلك لانني نزلت ضيفاً على اسرة بدوية من كرام أُسَر قبيلة السناجرة ولست أدري هل كان سروري بشعوري بالراحة والطمأنينة أو هو الهواء الطلق النقي أو نسيم البحر القريب هو الذي قوّى عندي الشهية لتناول الطعام لانني بمجرد ان استيقظت من نومي وتناولت قهوتي شعرت بحاجة شديدة الى الاكل والتهمت صحناً كبيراً من الارز وبعض القوقع البحري الذي كنا جمعناه في اثناء الطريق في اليوم السابق

***

ويخيل اليّ انني حصلت على معلومات صحيحة طريفة عن قبيلة السناجرة وكل ما عرفته في هذا الشأن وصلني عن طريق شاب بدوي غاية في الادب واللطف اسمه حسن عبد المولى ذكي الفؤاد عذب الحديث يبلغ السابعة والعشرين من عمره تزوج من زمن ليس بالبعيد ولـكنه سرعان ما افترق عن زوجته لعدم تلاؤم طباعهما . وقد تعلم هذا الشاب القراءة والـكتابة منذ الحداثة في احدى مدارس السنوسيين في زاوية « رحم الغرب » وكان رفيقي في رحلتي من الاسكندرية الى هنا وقد جذبني طول الحديث بلطفه وادبه الجم حتى صرنا صديقين حميمين وبالامس لم يكد ينزل عن ظهر بعيره حتى دعاني الى خيمته وقدم لي ماء عذباً طيباً احضره من بئر قريبة

ذهبت بعد الظهر الى خيام البدو المتقدمين في السن من الرؤساء ذوي النفوذ والمكانة للتسليم عليهم ولكي اقدم لهم بعض لفافات التبغ ولكي استقي منهم بعض المعلومات الا كيدة عن قبيلتهم وقد أجمع كلهم على ان السناجرة يكونون شعبة كبيرة من البدو يزيد افرادها على العشرين الف نسمة وكل هؤلاء يرتبطون برابطة القرابة والمصاهرة بالقبائل الاخرى . وتمتاز قبيلة السناجرة باستقلالها المطلق فان رجالها يعيشون مغتبطين وسعداء في جبالهم ذات الطرق الملتوية المتشعبة التي لا يمكن ان يعرف منافذها سواهم ولم يعترفوا باية حكومة ولا باية سلطة حكومية عليهم ولم يخضعوا للتجنيد ولا يدفعون ضريبة ايّاً كانت ولا يتسامحون في اي قانون يخالف عقيدتهم وايمانهم الثابت كالصخور التي يعيشون بينها

* * *

والسناجرة مزارعون مهرة ورعاة اغنام لا مثيل لهم في تربية الماشية ولكنهم يعيشون مستقلين بعيدين عن اية مضايقة من اي نوع كانت ولذلك فليست لهم اية علاقات باحد قانعين برعاية اغنامهم ومواشيهم هنا وهناك ولا يزرعون من الاراضي الاّ بقدر ما هو ضروري لهم ولحاجاتهم وما اسعد الرجل الذي لا يعرف الحاجة لانه لا يعرف ما هو الحرمان مادام بطنه ممتلئاً مهما كان نوع الطعام الذي اكله !

واني لاستطيع ان افهم سر الجفاء القائم بينهم وبين اولاد علي الذين هم اعظم القبائل في الصحراء الليبية والذين يبلغ عددهم نحو المائة الف نفس دون مبالغه وكلهم شجعان اقوياء محبون للقتال ولكنهم مع هذا خضعوا لسلطان الحكومة المصرية في عهد المغفور له محمد علي باشا عزيز مصر وكانوا يقدمون للجيش المصري حتى عهد المرحوم سعيد باشا عدداً كبيراً من الجنود البواسل وهذا الجفاء الموجود بين القبيلتين الصديقتين يرجع الى علاقات اولاد علي بالحكومة

واذا كانت لاولاد علي السلطة والهيمنة على قلب الصحراء فان السناجرة يسيطرون على البحر وسواحله ولذلك فانهم يقدسون المثل السائر بينهم الذي يقول « طلعنا من البحر ودائماً في البحر »

وهم قبل ابتداء فصل الامطار يسرعون في حرث الارض وبذر الاذرة والفول والعدس والبصل والبطيخ والخيار وعلى الاخص الارز ثم بمجرد سقوط الامطار الاولى يهرعون جميعاً وتذهب كل اسرة من اسرهم للاقامة شهرين او ثلاثة اشهر في الجهة التي يرونها اخصب واكثر ملاءمة لهم من غيرها ثم يعودون فيما بعد الى نصب خيامهم في اماكنها الاولى لكي يتمتعوا بالمحصول الوافر الناتج من الارض المزرعة

ومنهم من يفضل البقاء او يختار جبالاً او سهولاً او اودية اخرى ولكن كلها على مقربة من البحر الذي هو اصل مبيتهم

ولقد استطعت ان اصل الى معلومات هامة عن قبيلة السناجرة استقيتها من اوثق المصادر واصدقها فان تاريخ هذه القبيلة يرجع الى ثلاثة قرون مضت عند ما خرج رجل من اهالي شاكا في جزيرة صقلية اسمهُ سينكيري ترينا كريزي Sinchieri Trinacrese كان يشتغل بصيد الاسماك في سفينة شراعية مع جماعة من رفاقهِ الى الساحل الأفريقي لصيد الاسفنج والمرجان ولكن السفينة غرقت بكل من فيها ولم ينج منها سوى هذا الرجل الذي القت بهِ الامواج بالقرب من الشاطئ فالتقطهُ العرب وكان في حالة يرثى لها وأنقذوه من الغرق والهلاك

***

ولقد كان خوفه وهلعه منهم شديداً ولذلك فانهُ بقي عدة ايام دون ان يتفوه بكلمة واحدة بينما كان البدو يكرمون مثواه ويعاملونهُ احسن معاملة ويعتنون بهِ العناية كلها ولذلك فقد أسرتهُ هذه المعاملة الحسنة التي عامله بها العرب وذلك الاستقبال الودي الذي قابلوه بهِ فلم يُرِدْ مفارقتهم ولم يشأ العودة الى وطنه وآثر ان يقضي بقية عمره بين اولئك البدو الذين ردوا اليهِ حياته

ولكي يظهر لهم امتنانه واخلاصه ويؤكد لهم اعترافه بجميلهم ترك عقيدته الاصلية واعتنق دين الاسلام ثم تزوج فيما بعد من احدى بناتهم الجميلات وربما كان بقاؤه بين العرب واختياره هذه الحياة الجديدة وهذه العقيدة الجديدة راجعاً الى تعلقه وهيامه بتلك الفتاة الحسناء التي تزوج منها والتي كانت بدوية رائعة الجمال

ولا يزال العرب من ابناء هذه القبيلة يذكرون اسم سينكييري (سنجر) مؤسس قبيلتهم هذا بكثير من الاحترام والتبجيل وابناء هذه القبيلة اقوياء الابدان حسان الوجوه يكرمون الضيف وشجعان غيورون »

* * *

الى هنا انتهى ما كتبهُ بريكيتي ولعل عند سمو الامير الجليل عمر طوسون علم هذه القبيلة ولعلهُ عرف شيئاً عن تاريخها من اثر بحثه وتنقيبه في صحراء ليبيا ذلك البحث الذي ابان عنهُ في محاضرته النفيسة الاخيرة

طه فوزي

فوضى العالم ومسؤولية العلم

WORLD CHAOS : The Responsiblity of Science
by William McDougall

تلخيص وتعليق

الاستاذ وليم مكدوجال كاتب انجليزي نابه الذكر وباحث في الشؤون الاجتماعية ولي منصب استاذ علم النفس في اكبر الجامعات الانكليزية والاميركية . وله مذهبه الخاص في السيكولوجيا عامة وفي السيكولوجيا الاجتماعية خاصة فاذا تكلم أو كتب عن مسائل المجتمع ومعضلة الحضارة الاوربية فقد حق لنا ان نسمع لهُ وان نعرف رأيه ومكانه من الصدق ، وحظه من العمق والصواب

ولقد تناولت الصحف الادبية هذا الكتاب حين ظهوره بشيء كثير من الاهتمام والعناية. وكتب عنه النقدة هناك بغير قليل من الجدل والمناقشة . لان المؤلف تناول فيه مسألة المسائل في الوقت الحاضر . وعرض لهذه الفوضى العالمية بذلك البحث اللامع فتغلغل الى لب الموضوع وجوهره ، وعرض كل ذلك بأسلوب واضح ، وحماسة بينة !

فليس شك ان العالم الآن يجتاز اعصب فترة في تاريخهِ . وان الحضارة الاوربية تهددها الاخطار من كل حدب وصوب . وان رجال الفكر يتوجسون شرًّا ان تكون هذه الازمة نهاية الحضارة الراهنة وارتداد العالم مئات الاعوام

فكل بحث يتناول هذه المشكلة ، وكل كتاب يعنى بهذه الفوضى ، هو بحث جدير بالنظر وكتاب يشعر العالم بانه في شديد الحاجة اليه !

فهذه الفوضى البادية في كل ميادين النشاط الانساني ، وهذا الخلل الظاهر في معظم النظم الاجتماعية ، وهذه الاخطار التي تحيق بالمدنية وتكاد تودي بالحضارة ، مما يهيب بكل كاتب وبكل باحث ان يدلي برأيهِ وان يقترح سبل الخلاص والنجاة

وقد رسم المؤلف صورة حالكة لحالة العالم اليوم ثم عزا هذا الحلك وتلك الفوضى التي نشهد ، والتي تهدد الحضارة بوشيك الدمار، الى طغيان العلوم الطبيعية على كل مرافق الحياة العامة ، وصور النشاط البشري ، طغيانًا اصبحت معهُ هذه العلوم ووسائلها ونتائجها الآلية هي الكل في الكل . وعاد كل ما عداها صدى لها ، او تفاية لا يعتد بها ولا يحسب حسابها

وليس مكدوجال هو الباحث الوحيد الذي ينظر الى الحضارة الراهنة بعين التشاؤم والخوف ولاهو بالرجل الوحيد الذي يلاحظ مظاهر الدمار وبوادرهُ قوية الاندفاع ، غير بعيدة النتائج . بل هو واحد من رهط كتاب اجلاء ، يشاطرونهُ الرأي ، ويشايعونهُ النظر ولا يبتسمون لدى رؤية المظاهر الكاذبة والتقدم الزائف !

غير ان الجديد الجدير بالعناية في هذا البحث ان المؤلف عزى هذه الفوضى — في قوة وبصورة واضحة — الى تقدم العلوم الطبيعية Physical Sciences تقدماً ليس في ميدان العلوم الاجتماعية ودراسة النفسيات ما يقابلهُ أو يقرب منه . فقرر — في غير تلكؤ أو شك او استثناء — ان العلوم الطبيعية ، وما يتبعها من النتائج العملية والمكتشفات الآلية ، هي المسؤولة اولاً ومباشرة عن هذا الاختلال في النظام العالمي ، الذي ابتدأت مظاهرهُ تبدو في النظم الاجتماعية والمصاعب السياسية والازمة الاقتصادية الحاضرة . فليس شك في ان العالم يشهد اليوم ازمة اقتصادية عنيفة لعله لم يشهد مثيلها من قبل ، وان مسائل السياسة العامة قد بلغت حداً من الخلل واختلاف الرأي وتعدد المذاهب لعلها لم تبلغهُ في يوم من الأيام مثل ما هي عليهِ اليوم من القوة والعنف

فضعف نظام الأسرة ، وانتشار الجريمة ، وتفشي الرشوة وما ماثلها من مظاهر النقص والخلل الاجتماعي في الحضارة الراهنة ، ما كل ذلك الا النتائج المباشرة لتقدم البحث العلمي ، واستفحال أمر الآلة الميكانيكية ، مما اصبحت معهُ الحياة الهادئة المطمئنة متعسرة صعبة ، أو هي بالفعل وفي واقع الامر ، معدومة !

يقول المؤلف ان الحضارة الراهنة ليست وليدة العلم الحديث كما يخيل الى البعض ، وانما هي ترجع الى ما هو ابعد من العلم الحديث واكثر أيغالاً في التاريخ من «كوبيرنيكوس» Copernicus فهي ترجع الى الفلسفة الاغريقية ، والى القانون الروماني ، والى غير ذلك من المخلفات الماضية والتراث الأدبي القديم

والعالم لا يضطرب الآن ، ولا تختل نظمهُ لو انهُ لم ينسَ او يتناسى تلك الدعائم وذلك الاساس القديم . ونتج من ذلك أن أصبح البناء اثقل من ان يحتمله الأساس الذي أهمل أمره. وفي الوقت الذي نجد فيهِ أن احد جوانب هذا البناء قد تضخم و«استكرش» نجد الجانب الآخر ما زال هزيلاً نحيلاً . واذا تصور القارىء شكل بنيان أهمل أساسهُ ، وثقل سقفهُ ، وتضخم جانبٌ من جوانبهِ كملت عنده صورة الحضارة الراهنة كما تبدو لمكدوجال ، وكملت لمخيلتهِ صورة الأنهيار الذي لا بد أن يحصل !

فقد صرح الاستاذ رمزي ميور — وهو من الاحرار المجددين — في حديث له مع احدى الصحف « أن الحضارة الراهنة مهددة بالخراب ، اذا لم تتمخض الاعوام المقبلة عن

حرية واسعة للتجارة العالمية ، واذا لم تعمل انجلترا ضد هذا التيار الجنوني » !

وصرح « الديوك أوف نورثمبرلاند » — وهو الرجل المحافظ — بقوله « اننا على وشك أزمة كبرى في الشؤون العالمية . وان ليس في الدلائل الحاضرة ما يشير الى التقدم المضطرد ؟ وان الأمل في السلام العالمي لم يعد الا حلماً جميلاً . وكذلك الحال في شؤون الاجتماع والسياسة فقد دلّت النظم الحاضرة على افلاسها وانها لم تعد صالحة للوقت الحاضر . وهذه الظاهرة التي نلمحها في التاريخ الأدبي الحديث سيستفحل أمرها الى ان تقضي على البقية الباقية من النظم القائمة . والسبب في كل ذلك ان اي حضارة انما تقوم على أساس الدين والوطنية — وقد فقدت هذه الأشياء مكانها وسلطانها في العصر الحديث » !

ويتضح من هذا ان معظم الكتّاب ورجال العلم — على اختلاف مشاربهم وأحزابهم — يرون هذه الفوضى ويتوجسون شرّاً من دوام هذا الروح الخطر

يقول مكدوجال في تعزيز رأيه ان الأنسان العصري قد اهتم بالعلوم الطبيعية ، فنالت هذه العلوم كل الحظوة عند الباحثين والعلماء ، وكل التشجيع من جانب الجمهور والرأي العام لأن فوائدها نفعية مادية فالآلة البخارية ، والطيارة والاتوموبيل ، ووسائل المواصلات الأخرى التي قربت المسافات وجعلت السفر من مكان الى آخر لذة ومتعة ، هي في واقع الامر النتيجة المباشرة لتقدم العلوم الطبيعية وازدهارها

والسينما والراديو ، والنور الكهربائي ، والفنوغراف واشباهها من آلات الترف ، ومعدات النعيم هي الاخرى من ذخر العلوم الطبيعية وفيضها ومتاعها . فلماذا لا يقبل عليها الناس ويولونها العناية ويساعدون من يعمل في حقلها ويقوم بالتجارب والمباحث في ميدانها ، اذ جعلت لهم الحياة جنة تجري من تحتها الانهار !

فنحن نحترم العلوم الطبيعية هذا الاحترام الذي يقرب من العبادة في مظاهره ، ولا يختلف عن الايمان الديني في شيء لانها قد أذلّت لنا الطبيعة ، ومكنتنا من خيراتها وجعلتنا السادة الحاكمين بامرنا ، تقول « كن فيكون » !

غير ان كل ذلك الترف ، وكل تلك الملذات ، قد ابتدأ ظلها يتقلص . واتضح — ولكن اخيراً — أن الصناعة وحدها ، وان الانتاج الفائض ، وان الآلة وسهولة المواصلات وما اليها ليست هي كل شيء في نظام العالم ليثبت العالم ، ويرفل الناس في حلل الرخاء والسلام والنعيم . لان هنالك عناصر وعوامل اجتماعية وانسانية لا يمكن ان تقوم حضارة ، او يعم رخاء ، أو تزدهر ثقافة ، او يستتب أمن ، أو يستقر نظام وتطمئن حياة ، من غير معرفتها والتوفر على درسها ، والعمل بمقتضى تلك المعرفة وذلك الدرس !

في هذا العصر الذي نرى فيه كل شيء يغري بالتبحر في العلوم الطبيعية ، نرى من عوامل

التثبيط ، وانصراف رجال البحث والذكاء عن ميدان العلوم الاجتماعية ، ما وقف معهُ كل بحث نزيه في حقيقة الانسان ، وعلوم المجتمع والحياة عامة

فالكنيسة مثلاً قد وقفت حجر عثرة امام اي بحث في التقاليد والمعتقدات ودرسها درساً حرّاً . ولم تسلم الجامعات ، وهي المعاهد الحرة ،من هذه العراقيل الرجعية.وحكم بذلك على علوم الاجتماع ان تبقى راكدة آسنة،واصبح درس الكواكب والالكترونات أهم عندنا بكثير واحق بعنايتنا من درس الانسان ، وهو«الدرس الحق» كما قال پوپ في قصيدته المعروفة

يقول مكدوجال ما معناه : « اننا نعيش في عصر بلغت فيهِ الفوضى الاجتماعية اشدها . ومرجع هذه الفوضى ولا شك هو العلوم الطبيعية .فما علاج ذلك ؟ ! ...العلاج من داء العلم هو زيادة العلم ! ولكن اي علم ؟ ! ... عندنا الكفاية من العلوم الطبيعية وهي التي تحمل تبعة هذا الخراب . ولنفرض بأننا ازددنا بهذه العلوم عرفاناً ، وبها بصراً وتبحراً ، واكتشفنا المدهش الرائع في ميدانها . وجاءنا «اينشتين » آخر فبرهن على ان هذا الفضاء الذي نرى لا وجود له ، ولا حقيقة فيهِ .فهل ذلك العلم يا ترى يحل مشكلتنا الاجتماعية الحاضرة ، او يجعلنا ابصر بنظام الحكم ، واعلم بطبيعة الانسان ؟ ! »

فعالم السياسة يضطرب الآن وتتجاذبهُ قوى مختلفة ، وتتنازعه دوافع متباينة . ورجال السياسة يزعمون لنظمهم التي يقترحونها من الصدق والحق ما يجعلنا اشد ريبة واكثر شكاً في حقيقة اي نظام وصدق اية نظرية . وقيام النظم السياسية المختلفة من فاشيّة ودكتاتورية وديمقراطية وشيوعية الى آخر النظم السياسية الحاضرة هي الدلائل المادية على اننا لا نفهم شيئاً صحيحاً عن حقيقة النظام الاصلح . واننا نجهل هذا الانسان الذي نود ان نشرع له ، ونسن له القوانين ، ونفرض عليه الحقوق والواجبات جهلاً اقل ما يقال فيه انه لا يمكننا من الاضطلاع بهذه المهمة الخطرة

هل يستطيع الرجل السياسي الآن ان يطمئن الى نتائج بعينها من اسباب محدودة . وهل نحن نعرف الدوافع الانسانية واختلافها ، والظروف الخارجية وتشعُّبها مما يجعل نظاماً من الحكم ، أو اسلوباً من النظام ينجح في مكان وبين قبيل ، ولا يكون نصيبه مثل ذلك النجاح في مكان ثان ، وبين قبيل آخر ؟ !

وهل نحن نعرف حقيقة التباين ومداه بين الاجناس والافراد . وهل التشابه بين الاجناس البشرية اكثر ، أم ان وجوه الاختلاف اكثر وأظهر وابعد ؟ وهل اصلاح الفروق مستطاع عن طريق التربية والتثقيف ، ام ان لا اصلاح للنفوس ولا تدريب للطباع . وهل البشر يتفاوتون من حيث انتاج الحضارات والابقاء عليها ، ام ان كلهم في هذا الصدد قريب من قريب . وهل حصة التربية وانتشار سبل الصحة هي الآن كما يجب ان تكون ؟ !

وبالاختصار ما طبيعة علم الحياة ، وحقيقة « الانسان » وصحة النظم الاجتماعية ! ؟

اننا لانعلم من كل ذلك شيئاً يصح الركون اليهِ والاعتماد عليه . وهذا العلم — لو علمنا — هو وحده القدير على انتشالنا من هذه الوهدة التي تتردى فيها الانسانية اليوم !

وعلم الاقتصاد ، هل هو علم حقاً ؟ ايمكن عرفان النتائج المحتمة من المقدمات المقررة ؟ يكفي رداً على هذا السؤال وامثاله ان يطالع القارىء اي صحيفة عصرية تتناول الشؤون الاقتصادية فيجد من الاختلاف في الرأي ، والتبلبل في وجوه النظر ما يجيب عن سؤاله أشفى جواب !

ونحن لو كنا اعلم قليلاً بشؤون الاقتصاد والمعاملة لما وقعنا في هذه الازمة الطاحنة التي اختلفت الآراء وتعددت في أسبابها ، حتى أصبح كل شيء سبباً لها ، الاَّ جهلنا بها !

بل ان هنالك مسائل اقتصادية أولية ، مثل الاساس الذهبي للعملة ، وقانون الطلب والعرض يختلف في شأنها هؤلاء (العلماء) الاجلاء ولا يعرفون وجه الصواب فيها

ومع كثرة احاديث الاقتصاديين هذه الايام عن « الدوافع والقوى » المجهولة ، وعن « الثقة » فالعالم ما زال ينفق ملايين الجنيهات في البحث عن الغازات السامة ومعدات الحروب ولا ينفق ربع ذلك المبلغ للتوفر على دراسة هذه « الثقة » مثلاً

وليس يبعد في ظننا ان بعضهم ينتظر من علماء الكيمياء ان يكتشفوا لنا محلولاً كيمائياً تصبح « الثقة » بعد تناوله بين الافراد والجماعات مستوفاة مزدهرة . ثم ما هي طبيعة هذه « الدوافع والقوى » النفسانية التي كثر الحديث عنها في كتابات الاقتصاديين . اننا بلا شك في حاجة الى نور يضيء ظلماتها . ولن يكون ذلك على كل حال بدراسة المريخ والبحث عن معادلة الحامض الفنيك !

والسيكولوجيا : هذا العلم الحيوي الذي لا يمكن ان تقوم علوم الحياة والمجتمع على غير اساسه. ما حقيقته ؟ . . ان هذا العلم — ونسميه علماً من باب التجوز — ما زال مرتعاً خصباً لمختلف الآراء المتنافرة ، و متباين الاحكام والنظريات . وفي السيكولوجيا الحديثة من النظريات والفروض والمدارس الفكرية مما يخيل للقارىء معه ان هذا « الشيء » الذي نسميه انساناً قد يكون الهاً ، أو قد يكون آلةً . أو قد لا يكون شيئاً من الاشياء على وجه الاطلاق ! ؟

هذه هي مجمل آراء المؤلف. وقد حاولنا تصويرها بأسلوب يقرب من أسلوبه ونسبغ عليها شيئاً من مرارة تهكمه وشدة حماسته ونكون امناء في نقل آرائه بعد كل ذلك . والرأي الذي يخرج به الانسان من كتابهِ هذا هو ان علوم الاقتصاد والتشريع والتاريخ والنفس والسياسة وخلافها من العلوم يجب ان تكون قبلة الباحثين والنبهاء اذا رغبنا في الابقاء على حضارتنا هذه وحفظ التوازن الضروري بين معلومات الانسان . ذلك لأن هذه العلوم هي الأسس التي لا يمكن ان يقوم الرقي الآلي والصناعي الاَّ عليها

غير اننا نلاحظ — ولو اننا نوافق المؤلف في النتائج التي توصل اليها والدعوة التي ينادي بها — ان الاستاذ مكدوجال في اعتقادنا قد فاته أن يشير الى اكثر الاسباب قوة ووضوحاً وصدقاً في تقدم العلوم الطبيعية ، وتخلف علوم الاجتماع . ويبدو لنا أن المنفعة المادية التي ذكرت ليست بأميز خواص العلوم الطبيعية ، وان كانت نتيجة من نتائجها . غير انها لم تكن الحافز الأول والمهم لدى العالم في معمله او الرياضي في مكتبه . بل ان هنالك من العلوم الطبيعية ، المزدهرة ما ليس فيها اي فوائد مادية مباشرة تنجم عنها أو يقبل عليها الجمهور لفائدتها ، كأبحاث اينشتين مثلاً ودراسة الفلك وطبقات الارض الخ !

وعندنا ان السبب الأول والمهم في تقدم العلوم الطبيعية انما هو سبب طبيعي لا سبيل الى نكرانه او تخطيه وهو ان العلوم الطبيعية اسهل من العلوم الاجتماعية اذ ان البحث في العلم الطبيعي يرجع الى ملكات الانسان الأولية المشاعة . وان اسلوب البحث العلمي أسهل ووسائل التثبت والفحص فيه قريبة التناول . والباحث في العلوم الطبيعية لا يحتاج الى اكثر من الذكاء العادي الى جانب الملاحظة والفحص والتجربة والمثابرة — الأشياء التي يعتمد فيها على الحواس — والعلم الطبيعي في هذا المعنى لا يعنى الا بعالم المحسوسات ولا يهتم بالقيم الغامضة والدوافع المجهولة ، والسبح وراء التأملات والتخيلات وعالمهُ انما هو عالم المادة والمحسوسات وادواتهُ موجودة في « حيز الفضاء والزمن » . على خلاف علوم الاجتماع ودراسة الأنسان فأن حظ الحس فيها أقل وعالم القيم والفكر فيها اكثر ، ونصيب التخيل والذكاء أوسع . فنحن قد نتفق عموماً على وجود هذه الحروف والكلمات التي تكوّن هذا المقال . ثم نحلل هذه الصحيفة ومحتوياتها وعناصرها الكيمائية والطبيعية فنردُّ الورق والحبر الى اصلها والحروف والرسوم الى طبعها . ولكننا قل أن نتفق على قيمة هذا المقال او نفسية كاتبه او الدوافع التي دفعت به الى تسطيره ، لأن مرد هذه الأشياء الى غير الحس والى غير المنطق الذي يسهل الاتفاق عليه بين معظم الناس

فارتقاء العلوم الطبيعية اذاً شيء طبيعي لم يتعدَّ قانون البساطة والسهولة . وليس الغريب ان ترتقي العلوم الطبيعية اكثر من علوم الاجتماع . بل الغريب ان تنعكس المسألة . والعلوم الطبيعية مهما ارتقت تكاد تكون أولية — من هذه الوجهة — اذا قيست بالدين والفلسفة وعلم النفس مثلاً

فاذا نجم عن العلوم الطبيعية بعض الفوائد النفعية فليست هذه الفوائد بواعث تقدمها والاقبال عليها . وان كانت مما يشجع على البحث فيها والمضي في درسها .

ولطالما ظننت ، أن العلم الطبيعي — مهما طنطن الناس بعظمته — أوليٌّ في وسائله وفهمه اذا قيس بالدين في صميمه ولبابه .

معاوية نور

المعنى التائه

أنتِ معنىً تائهٌ في ذات نفسي يا حياتي
كلما دققتُ فيهِ طوّحت بي خطراتي

***

كان قبل الحبِّ، قلبي، يتغنّى هائماً
في رياض طلع البدرُ عليها باسماً
وليالٍ رقدَ الكونُ عليها حالماً
تتراءى بسمةُ الثغر عليها دائماً
ثم طار القلبُ حيناً في وسيع الخلواتِ
وصداهُ لم يزلْ يُسمعُ حلوَ النغماتِ...

***

لستُ أدري أين ولّى، حين ولى ومضى ؟!
هو في الافقِ توارى، وتلاشى في الفضا
مثل لحظٍ بعثتْهُ الغيدُ في ساعِ الرضا
أو كبرقٍ خطف الأبصارَ لمّا ومضا
واختفى عن مقلتي، قلبي، سريعَ النبضاتِ
وتلاشى الصوتُ في الآفاقِ الاّ الهمساتِ

***

همساتٌ كُنَّ كالوحي سريعات التخفي
لم تكد تهبط حتى اسرعت في مثل خوف

وتلاشتْ ، وأنا ابحثُ عنها مثل طيفِ
غير ان الزهر افشى سرّها في طيب عرف
فذكا . واستشعرتْ رُوحي حديثَ الزهراتِ
فنشقتُ العِطرَ حتى اسكرتني نشقاتي

***

ثملتْ رُوحي قليلاً ، وغفت عيناي حينا
فتعرّت ذكرياتي عن جلابيب السنينا
ومضت ترقصُ أحلاماً تهزُّ الحالمينا
وترامتْ فوق صدري فترفقتُ حنونا
في احتضاني جِسمها الرطْبَ ، وكانت قبلاتي
تسترُ الجسمَ المعرّى ، عن دنايا نظراتي . . .

***

مَن هي الحسناء؟ . . . ذكرى حبّ روحي
نزلتْ من أوجها العالي لمعشوقٍ جريحِ
من هو المعشوقُ؟ . . . يا أحلامُ بوحي!
لم تَبُحْ احلامُ نومي ، ورنتْ للذكرياتِ
فأفاقت ومضتْ عني ، وحلّت يقظاتي

***

واذا بالحُلم معنى تائهٌ في ذات نفسي
استمدُّ الوحيَ منهُ في خيالاتي وحسي
وإذا في راحة النفس ،وكونُ الله ممسى
هتفتْ رُوحي بقلبي فاذا بالقلب آتِ
واذا بالحُلمِ يبدو مُحْيياً لي ذكرياتي

حسن كامل الصيرفي

نوابغ العرب في العلوم الرياضية

مع الاسف الشديد لم يكن لبعض علماء العرب حظ في البحث عن آثارهم والتنقيب عن منتجات قرائحهم ومعظم ذلك يرجع الى اهمالنا الاهمال الذي جعل البعض ينكر على العرب ملكة الابتكار والذي جعل ايضاً فئة من علماء الفرنجة يأخذون بعض النظريات التي وضعها العرب ويدعونها لانفسهم. وقد كنا ذكرنا امثلة على ذلك في مقالات لنا سابقة في هذه المجلة. ومما لاشك فيهِ ان اهمالنا ايضاً كان عاملاً من العوامل التي جعلت تاريخ العلوم عند العرب غامضاً ومن ذلك نتج ان طائفة من اصحاب العقول الممتازة لم تَنَلْ نصيبها من التحليل وأُصبح البحث عنها عسيراً ويحتاج الى جهد كبير لاسيما بعد ضياع بعض المخطوطات وتفرق الآخر في اوربا ولكن كل ذلك يجب ان لا يحول دون ذكر من نستطيع ان نكتب عنهُ ولو اسطراً قليلة، وأملنا ان يأتي اليوم الذي نتمكن فيهِ من ان نفي هذه الشخصيات حقها. ومن هؤلاء ابي كامل شجاع بن اسلم الحاسب المصري الذي ظهر في اوائل القرن الثالث عشر الهجري بين سنتي ٨٥٠ و ٩٣٠ م [١] وتاريخ حياتهِ غامض « وكان فاضل وقته وعالم زمانهِ وحاسب اوانهِ وله تلاميذ تخرجوا بعلمهِ » [٢] وله عدة تآليف منها :

كتاب الجمع والتفريق [٣] وهو كتاب يبحث في قواعد الأعمال الأربعة ولا سيما فيما يتعلق بالجمع والطرح. وكتاب الخطأين [٤] الذي يبحث في اصول حل المسائل الحسابية بطريق الخطأين [٥] ويقول كشف الظنون انهُ كتاب مفيد. وكتاب — كمال الجبر وتمامهُ والزيادة في اصوله — وكان يُعرف بكتاب الكامل ويقول كتاب آثار باقية « ان هذا الكتاب اول اثر لأبي كامل في الجبر وان المؤلف ادعى انهُ الف هذا الكتاب لا كمال نقصان كتاب محمد بن موسى الخوارزمي » وقد بيّن فيهِ ان للخوارزمي فضلاً في تقدم علم الجبر والمقابلة. وكتاب الوصايا بالجبر والمقابلة الذي يقول عنهُ كتاب كشف الظنون في الجزء الثاني ص ٢٧١ ما يلي « . . . . قال ابو كامل شجاع بن اسلم في كتاب الوصايا بالجبر والمقابلة الفت كتاباً معروفاً بكمال الجبر وتمامهِ والزيادة في اصوله والقيت الحجة في كتابي الثاني بالتقدمة والسبق في الجبر والمقابلة لمحمد بن موسى والرد على المحترف المعروف بابي بردة ينسب الى عبد الحميد الذي ذكر انهُ جده ولما بينت تقصيره وقلة معرفتهِ بما ينسب الى جده رأيت ان اؤلف كتاباً في الوصايا بالجبر والمقابلة»

(١) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٧ (٢) ابن القفطي — كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١٤٣ (٣) ابن النديم — الفهرست — ٣٩٢ (٤) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٩٢
(٥) صالح زكي آثار باقية — ج ٢ ص ٢٥٤

وكتاب الجبر والمقابلة [١] ويقول عنهُ كشف الظنون في الجزء الثاني في ص ٢٧١ ما يلي « ولأبي كامل المذكور كتاب الجبر والمقابلة مجلد اوله . . . . ذكر انهُ كان كثير النظر في كتب العلماء بالحساب فرأى ان كتاب محمد بن موسى الخوارزمي المعروف بالجبر والمقابلة اصحها اصلاً واصدقها قياساً وكان مما يجب علينا من التقدمة والاقرار له بالمعرفة والفضل اذ كان السابق الى كتاب الجبر والمقابلة والمبتدي له والمخترع لما فيهِ من الاصول التي فتح الله لنا بها ما كان منغلقاً وقرّب بها ما كان متباعداً وسهل بها ما كان معسراً ورأيت فيها مسائل ترك شرحها وايضاحها ففرعت منها مسائل كثيرة يخرج اكثرها الى غير الضروب الستة التي ذكرها الخوارزمي في كتابهِ فدعاني الى كشف ذلك وتبيينهِ فالفت كتاباً في الجبر والمقابلة ورسمت فيهِ بعض ما ذكره محمد بن موسى في كتابهِ وبينت شرحهُ واوضحت ما ترك الخوارزمي في ايضاحهِ وشرحهِ الخ » . وكتاب الوصايا بالجذور [٢] وكتاب الشامل الذي يبحث في الجبر « وهو من احسن الكتب فيه ومن احسن شروحهِ فيهِ شرح القرشي » [٣] وقد يكون هذا الكتاب هو بعينهِ كتاب الجبر والمقابلة . وعلى كلٍّ فابو كامل قد اعتمد كثيراً على كتب الخوارزمي واوضح بعض القضايا التي لم يبحث فيها وكذلك اوضح في مؤلفاتهِ مسائل كثيرة حلها بطريقة مبتكرة لم يُسبق اليها . وله كتب اخرى ككتاب الكفاية وكتاب المساحة والهندسة وكتاب الطير وكتاب مفتاح الفلاح [٤] واشتهر ايضاً برسالتهِ في المخمس والمعشر وكذلك بكتبهِ في الجبر والحساب [٥] وهو وحيد عصره في حل المعادلات الجبرية وفي كيفية استعمالها لحل المسائل الهندسية [٦] ، ولقد كان ابو كامل المرجع لبعض علماء القرن الثالث عشر للميلاد وبرهن على ذلك كاربنسكي [٧]

ومنهم محمد بن حسن ابي جعفر الخازن الذي ظهر في اواخر القرن الرابع الهجري [٨] ومع الأسف لا يمكننا ان نكتب عنهُ كغيره من السابقين اذ ان المصادر التي بين ايدينا لا تفيه حقه ولا تكتب عن حياتهِ شيئاً يشفي الغليل فلا نجد مثلاً في كتاب الفهرست لابن النديم الاَّ ما يلي « واسمه . . . . . وله من الكتب زيج الصفائح وكتاب المسائل العددية » . ويقال انهُ من الذين حلوا المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط [٩] اما كاجوري فيقول ان ابا جعفر اول عربي حل المعادلات التكعيبية هندسيًّا بواسطة قطوع المخروط . وبحث ابو جعفر في المثلثات وقد عرفت ذلك من كتاب شكل القطاع لنصير الدين الطوسي ففي ص ١١٥ من هذا الكتاب عند الكلام عن الشكل المغنى نجد ما يلي « برهان آخر — استعمله ابو الفضل التبريزي في شرح المجسطي وابو جعفر الخازن ايضاً

(١) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٩٢ (٢) كاتب جلبي — كشف الظنون — ج ٢ ص ٣٠٦ (٣) كاتب جلبي — كشف الظنون — ج ١ ص ٣٨٩ (٤) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٩٢ (٥) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٧ (٦) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٧ (٧) كاجورى — تاريخ الرياضيات — ص ١٢١ (٨) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٦٥ (٩) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٦

في مطالب جزؤية ميل الميول الجزؤية والمطالع في الكرة المستقيمة قبل ان اقامه هؤلاء الفضلاء مقام الشكل القطاع وتقريره على ما اورداه هكذا .... » وكذلك عند الكلام فى فروع المغنى ولواحقها نجد فيه ما يلي « ... وبوجه آخر قد اورده ابو الفضل التبريزي وابو جعفر الخازن كل واحدمنهما في تفسيره للمجسطي شكلاً لمعرفة المطالع يتبين هذا البرهان منهُ وتقريره بان نعيد الشكل الذي اوردناه رواية عنهما للبرهان على المغنى........» [1]

ومن مؤلفاته عدا زيج الصفائح وكتاب المسائل العددية رسالة في الحساب وشرح للمقالة العاشرة من كتاب الاصول لاقليدس وهذا الشرح محفوظ في احدى مكاتب الاستانة

ومن الذين ظهروا في عصر المأمون احمد بن عبد الله حبش الحاسب المروزي وما يعرف عن حياته نادر [2] فيقول كتاب الفهرست انه جاوز سن المائة

وقد قضى معظم اوقاته في المطالعة والبحث في كتب الاقدمين في مختلف الفروع ، وهو من الذين كتبوا كثيراً في الفلك وآلات الرصد [3] .ويقال انه عمل اول جدول للظل وللظل تمام [4] وهذا الجدول في احدى المخطوطات الموجودة الآن في برلين ويظهر ان حبش الحاسب استعمل القاطع ايضاً . وله عدة تآليف منها: ثلاثة ازياج ، اولها المؤلف على مذهب السند هند خالف فيه الغزاري والخوارزمي في عامة الاعمال واستعماله لحركة اقبال البروج وادباره على رأي (ثاون) الاسكندراني واتضح له بها مواضع الكواكب في الطول [5] وثانيها الزيج الممتحن « وهو اشهر ما له ، الفه بعد ان رجع الى معاناة الرصد وضمنه حركات الكواكب على ما يوجبه الامتحان في زمانه [6] » ومما يدل على خطر هذا الزيج وفضل مؤلفه كون ابي الريحان البيروني في كتابين له دافع عن الزيج الممتحن [7] ولقب حبش الحاسب بالحكيم حبش في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية [8] .وثالثها : الزيج الصغير المعروف بالشاه [9] . ولهُ ايضاً كتاب الابعاد والاجرام وكتاب عمل الاسطرلاب ، وكتاب الرخائم والمقاييس وكتاب الدوائر الثلاث المماسة وكيفية الاوصال ، وكتاب عمل السطوح المبسوطة والقائمة والمائلة والمنحرفة [10] . ولقد لحظت ان للحبش ايضاً زيجين آخرين غير الثلاثة المذكورة — الزيج الدمشقي والزيج المأموني —وهذان الزيجان مذكوران فى كتابي تاريخ الحكماء والفهرست ويقول كتاب — آثار باقية —ان هذين الزيجين قد يكونان كناية عن الزيج الممتحن [11]

نابلس — فلسطين قدري حافظ طوقان

(١) نصير الدين الطوسي— شكل القطاع ص ١٢٣ (٢) صالح ذكي - آثار باقية—ج ١ص ١٥٦
(٣) سمث — تاريخ الرياضيات —ج ١ ص ١٧٤ (٤) سمث— تاريخ الرياضيات—ج ٢ ص ٦٢٠
(٥) صاعد الاندلسي— طبقات الامم — ص ٨٦ (٦) صاعد الاندلسي— طبقات الامم —ص ٨٦
(٧) صالح ذكي — آثار باقية —ج ١ ص ١٥٧ (٨) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٥٧
(٩) صاعد الاندلسي — طبقات الامم — ص ٨٦ (١٠) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٨٤
(١١) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٥٧

العلم يكشف خفايا الجرائم

المكرسكوب

قُتلَ « داوود ونتر » من اهالي ولاية نيوجرزي الاميركية في ليلة من ليالي الشتاء . فكان مقتله سبباً للتذرع بالمجهر المكرسكوب الى فضح اسرار الجناية

وكان في الدار حينما قتل ربها،شاب في العشرين من عمره وهو ابن اخي القتيل ، ومديرة شؤون الدار ، وسائق سيارة ، قضى عدة سنوات في خدمة ذلك الغني الارمل . وما بلغ الخبر اسماع الشرط حتى خفوا الى مكان الحادثة قصد تحقيقها فسألوا اهل الدار ، الذين تقدم ذكرهم ، عما يعرفونه بشأن الجريمة ، فقرروا جميعاً انهم قصدوا ليلتئذ الى مخادع نومهم مبكرين مغادرين ذلك الشيخ بجانب الموقد حيث كان يصطلي ويراجع حسابات دخله وخرجه وانهم لم يسمعوا في تلك الليلة اصواتاً خارقة للعادة . وقالت مديرة شؤون الدار انها شاهدت في صباح ذلك اليوم سيدها صريعاً على مقعده ذي المسندين المغشى بقماش الكريتون [١] وقد حطم رأسه بمطرقة وجدت ملقاة بجانبه مضرجة بالدم

ثم نيط تحقيق الجناية بمخبر سريٍ من الفنيين ففحص مقبض المطرقة فعثر فيه على قطرة دم جسيد [٢] وذلك في الموضع الذي مسته ابهام كف الشخص الذي قبض على المطرقة. ودرس المخبر الفني مقبض المطرقة درساً مدققاً بالمجهر فلم يجد فيه آثار لاصابع السفاك لانه كان متقفزاً حينما اقترف الجريمة . وعندئذ طلب المخبر رؤية كل ما كان في الدار من القفافيز فأجاب سائق السيارة بأن قفازه كان قد اتلف بالامس من حامض اريق عليه من احدى بطاريات السيارة فنبذه قصيًّا فأصرَّ المخبر الفني على معاينته فلم يسع السائق الاّ ارشاده الى الموضع الذي القاه فيه وهو ركام من رثيث الثياب كان مركوماً في مستودع السيارة ، فشرع المخبر الفني يفتش ذلك الركام حتى عثر فيه على القفاز المنشود . ثم اخذه معه وعرضه للضياء متفرساً فيه فوضح له ان انملة ابهام القفاز اضحت كلها هريئة من تأثير الحامض فيها

وخشي ان تجوز عليه تلك الخدعة المحبوكة فهرول الى معمله العلمي حاملاً بيديه القفاز والمطرقة حيث عرضهما لمجهر مزدوج قويٍ فأتيح له في ثلاث دقائق الاهتداء الى شيء غريب اذ استطاع في اقل من ساعة الحصول على شريطين محتويين على صورتين فوتوغرافيتين

(١) القماش القطني المنقوش الذي يستعمل للستائر والمفروشات (٢) الجسيد — جسد الدم به لصق فهو جسد وجسيد وجاسد

ميكروسكوبيتين حلتا لغز الجريمة . اذ احتوى احد ذينك الشريطين على صورة مكبرة لبقعة دقيقة بيضية الشكل حيث يظهر منخفض خشبي على مقبض المطرقة . وظهر له ان الخراط لما خرط الخشب الذي اتخذمنهُ مقبض المطرقة كان قد مرَّ على المنخفض من دون صقله . وبان في الشريط الآخر بقعة بيضية الشكل تماثل التي في الشريط الاول بيد انها ملأى بخطوط موجية الشكل تمثل صورة مكبرة لبصمة بُصمت في كف القفاز عند ما قبض القاتل على الاداة التي ارتكب بها الجناية . والواقع ان المطر كان قد نزل في ذلك الحين فبلل قفاز القاتل . وهذا سبب ظهور البصمة جيداً تحت المجهر . فجاء بالصورتين ووضع طرف احداها فوق طرف الاخرى فظهرتا كأنهما مطبوعتان من شريط واحد فلم يجد السائق بدّاً من الاعتراف وهو أن سيده كان قد علم بالسرقات التي كان يسرقها منذ عدة سنوات فهدده بابلاغ امره الى البوليس الاّ اذا ردَّ كل المسروقات التي سرقها ، فاستاء جدَّ الاستياء وجعل يفكّر في الانتقام . فتسلل خلف مقعدهِ بينما كانت العاصفة تعصف حول الدار ثم قتله بضربة واحدة . وكان السائق المجرم وقتئذٍ متقفزاً لكيلا تظهر بصمات أصابعه على مقبض المطرقة . ولكن من سوء حظهِ أن سقطت قطرة من دماءِ القتيل على أصبع قفازه فعمد الى ازالتها فغمسها في احد الاحماض متوخياً طمس معالم الجريمة ، فتمَّ لهُ ما اراده وانما الى حين . لان الادلة الخفية التي اظهرها المجهر أوقعت ذلك المجرم في أحبولة العدل فاعترف

قال الكاتب الامريكي : — والذي ابلغني تفاصيل الحادث المدهش المتقدم ذكره هو مخبر فنيٌّ من صفوة المخبرين السرّيين الذين يعملون تحت إمرة معمل التحليل الكيماوي الخاص بالبحث عن الجرائم بالوسائل العلمية في مدينة شيكاغو بامريكا . ولقد سمعت بعشرات من النوادر التي استخدمت فيها المجاهر لاظهار خفاياها بفحص أشياء دقيقة جدّاً تتعذر رؤيتها بالعين المجردة

ومنها وقائع كانت البينة فيها على الأئمة الطغاة ، ذرات من الغبار والفلزات ، وحوادث لكبار مزوري الوثائق كان الدليل فيها عليهم تضاريس دقيقة جدّاً تظهر في المداد الجاف الذي استعمل في الكتابات القديمة وغيرها من وقائع شطّار الجناة الذين استدل عليهم المخبرون الفنيون من خدش دقيق وُجد على سطح معدني لا تزيد سعته على جزء من ١٠٠٠٠ جزء من العقدة واخرى ضد القتلة حملة المسدسات كانت الادلة فيها شهادات صامتة شهدت بها نسالة ضئيلة !! فسجنوا ونالوا القصاص الحق

وبناءً على ما تقدم ترى المخبر الفني العصري اذا ما تحفز لعمله ونظف عدسة مجهره ليفحص بها دقائق الاشياء للبحث عن المجرمين خلتَ ذلك المصباح وهو بين يديهِ مصباح علاء الدين (١) في كتاب الف ليلة وليلة العربي المشهور . وللمجاهر المزدوجة اعظم شأن في عالم الجرائم ودوائر

(١) مصباح في الاساطير : اذا ظفر به امرؤ ورغب في صقله فسه بيديه ظهر له الجان قائلا « لبيك سيدي : ماذا تبغي »

التنقيب عن المجرمين في هذا العصر فيتمكن بها العلماء من فحص الغبار والشعر والوبر وفرز الجواهر الكاذبة ونقد النقود المزيفة . ويتيسر بالمجاهر دراسة انواع الكتابة خطية كانت او طباعةً او مكتوبة بالآلة الكاتبة ، درساً فنيّاً . ويُعتَمدُ على المجاهر ايضاً في استقراء بصمات الاصابع . وعليها كذلك المعوَّل في فن دراسة الآثار التي توجد على الرصاص المطلق

ومما يجدر ذكره أن العلماء لا ينون في استنباط الاجهزة العلمية التي تساعد المخبرين الفنيين الذين يعولون في اعمالهم على المجاهر . ومن هذا القبيل ان متجراً من متاجر ديترويت في الولايات المتحدة الامريكية عرض في السوق مجهراً مجهزاً ببطارية كهربائية تشعل مصباحاً ينير المجهر ليلاً كي يستعمل في التحقيقات الليلية . وان صانعاً من صناع مدينة نيويورك ايضاً قد اخترع مجهراً محتوياً على عدة مصابيح كهربائية صغيرة الحجم . وثمت ايضاً مجاهر قوية من الصنف الممكن طيه ونشره لتستعمل في الميادين . وآلات لمعارضة الاشياء بعضها ببعض ذات عدسات مزدوجة تظهر للدرس شيئين في آن واحد ، وهذه تصنع على احجام مختلفة . وهناك آلات اخرى مزدوجة تكبر الاشياء الدقيقة الى ١٢٠٠ ضعف اخترعت مندمجة بعضها في بعض لكي تستعمل بمثابة أدوات وقتية في المعامل العلمية عند اشتداد الحاجة اليها . فأصبحت اجهزة ذلك الفن تتراوح في الحجم بين آلات صغيرة يتسنى عملها في الجيب ولا يزيد جرمها على ربع الريال ، الى اجهزة ضخمة تبلغ هامة الانسان طولاً ويصل وزنها الى نصف طن

والذي اخترع هذا المجهر الضخم (الذي يسمى مجناسكوب) المستعمل في المعامل العلمية هو (لوقا . س . ماي) المشهور بكشف اسرار الجرائم بالوسائل العلمية . وهذا المجهر يكبر الجسم الى ٥٠٠٠ ضعف . فاذا اتفق لك زيارة مختبره العلمي في مدينة سيتل بولاية واشنطون استطعت رؤية عدسة ذلك المجهر الصقيلة وابصرت شعرة الانسان المكبرة تخلتها عمود تليفون ، وذرة الغبار كأنها صخرة ضخمة . واصغر شُرَط الكتابة التي تخطها بيراعة فولاذية ، ممتدة كأنها شريط أسود عريض على سطح ابيض

هذا المجناسكوب هو الذي ذاعت شهرته منذ سنتين في الكشف عن جناية غامضة بالوسائل العلمية . وتفصيلها كما يلي : —

اضطر موظف من موظفي احد مناجم ولاية ايداهو الى الغياب عن داره ذات ليلة لانشغاله في عمل يتعلق بادارة المنجم وترك قرينته في الدار وحدها . وكانت تلك الليلة حالكة الظلام فأوجست الزوجة خيفة وباتت ساهرة حتى بُعيد الساعة الاولى بعد منتصف الليل فسمعت صريف أحد ابواب مخدعها يطرقه طارق فارتعدت فرائصها ثم سمعت هيمة المعتدي وهو يتلمس طريقهُ في غرفة خارج الغرفة التي كانت نائمة فيها حيث كان يُعَيِّثُ (١) في خزانة الملابس

(١) يعيث — يطلب شيئاً باليد من غير ان يبصره

وكانت تحتوي على ٦٠٠ ريال كان زوجها مزمعاً ايداعها في البنك صباح اليوم التالي . وما أيقنت من وجود اللص في الدار حتى اخذت تصرخ بأعلى صوتها مستغيثة بحفظة الامن والجيران

وحينئذ استحوذ الذعر على اللص وشرع في الهرب حاملاً غنيمته في احدى يديه فاتجه نحو النافذة وهو يظنها باباً مفتوحاً فخاب ظنه فاشعل ثقاباً لينير طريقه ، فما تبينهُ حتى لاذ بالفرار تحت جنح الليل قبل قدوم الجيران . ولما كانت تلك السيدة لم تلمح وجه اللص فلم يجد المحقق أي دليل يستدل به على الجاني فحفظ القضية لافتقاره الى البينة الكافية فرأى ولاة الامور الاستعانة بالمستر لوقا . س . ماي فلبي الطلب وتولى التحقيق

وكان اول سؤال وجهه الى ربة الدار المجني عليها « اين أشعل اللص ثقابه ؟ » فاجابته قائلة « بجوار النافذة» . وكانت ربة الدار بناءً على ارشاد الشرطة قد تركت كلَّ شيء من الامتعة التي كانت في الغرفة التي وقعت فيها السرقة في تلك الليلة على حاله حتى يفحصه المخبر الفني . فلما دخل ذلك المخبر المشهور ، الحجرة رأى فيها كرسيين مائلين نحو الحائط بجوار النافذة ثم شاهد بجانب ذينك الكرسيين على أرض الغرفة ثلاثة عشر عود ثقاب لا عوداً واحداً كما كانت تزعم ربة الدار ! ! !

وجعل مخبرنا هذا ينقب عن الجاني فعلم انه في المساء السابق لحدوث السرقة كان ذلك الموظف رب الدار هو وصديق لهُ جاءهُ زائراً ، يدخنان بجانب النافذة ساعات طويلة حيث اشعلا في اثناء التدخين كثيراً من عيدان الثقاب . وكانا يرميا المستعمل منها تحت اقدامهم فسر المستر ماي بتلك العيدان الثلاثة عشر الصغيرة الحجم فالتقطها من ارض الغرفة وعني بجمعها في يده. وكان عند حسن ظنه فانه لما فحصها وجد اثنى عشر عوداً منها محتوية على خطوط مستطيلة اما العود الثالث عشر فكان مستديراً مثني الطرف . فأشار المخبر الى ذلك العود وقال « هذا هو ضالتي المنشودة » . وادار وجهه نحو مجهر قوي كان يحمله واخذ يدرس عود الثقاب الصغير الآنف الذكر فوجده ملوثاً بدقيقة من الشحم وذرة من تراب الفحم الحجري وذرة من خليط معدني مؤلف من برادة الحديد والنحاس الاصفر مما يستعمل في اللحم بالنحاس. ثم دقيقة من خيط طريف لا مثيل له في مجموعة المستر ماي الوافرة . فكانت هاتيك البينات العشر التي عثر عليها في ذلك العود الصغير كافية لارشاده الى المجرم — ذلك انه قصد الى المناجم السبعة المجاورة لمكان وقوع الحادثة ودخل غرفة الآلات البخارية في كل منها وفتشها فعلم ان احدى تلك الآلات كانت قد نسفت منها احدى رؤوس أساطينها وذلك في نهار اليوم الذي حدثت فيه السرقة فسأل قائلاً « أين البراد الذي برد ذلك الرأس الطائر من الاسطوانة بعيد لحمه بالنحاس ؟ » فجيء به في الحال فتفرس في اظفاره واخذ يخرج من تحتها ذرات تراب فحم حجري واخرى من برادة خليط الحديد والنحاس الاصفر . ثم جرد المخبر ذلك الصانع من ثياب العمل

التي كان يرتديها وقتئذ فابصر تحتها حلّة اخرى (بذلة) مصنوعة من نسيج غريب ذي شكل شاذ . ففتش جيوب تلك الحلة فوجد فيها بعضاً من الثقاب مستديرة الشكل مثنية الاطراف. ثم اخرج المخبر ذرات من وبر بطانة جيوب تلك الحلة فاذا هي مطابقة من كل الوجوه لقطعة الخيط الدقيقة التي وجدت عالقة بعود الثقاب الثالث عشر . وبناءً على تلك النتيجة القى المخبر الفني القبض على الصانع المشار اليه وقاده الى مكتب عمدة البلدة فلم يرَ السارق مفرّاً من اقراره بوزره وهو سائر في الطريق قبل وصولهما الى مقر العمدة . وكان القبض على ذلك الجاني من المدهشات إذ اتيح للمخبر الفني اخراجه من وسط ٧٠٠ صانع من زملائه الذين يعملون في مناجم تلك البلدة بولاية ايداهو

ولما كانت ذرات التراب وغبار المعادن ذات فوائد جليلة في حل معضلات الجرائم لذلك ترى المعامل العلمية الخاصة بتحقيق الجنايات في اوروبا وامريكا تخص دراستها بفائق عنايتها . وهذا مما حمل الدكتور سيڤرين ايكار الفرنسي المشهور بالتخصص في تحقيق الجنايات بالجهر ، على اعلان نجاحه الباهر في طريقة الاستدلال على صناعة أي شخص من ذرات الغبار التي توجد في جوف ساعته

ومثال ذلك ان ذرات الكربون توجد دائماً في بواطن ساعات الصناع، الذين يستخدمون في مستودعات السيارات ، وعمال الفحم الحجري كما توجد ذرات المعادن في ساعات المهندسين الميكانيكيين وذرات الطين الخزفي في ساعات البنائين . وتوجد ايضاً في بواطن ساعات الحلاقين دقائق من الشعر . وفي ساعات العازفين على الكمنجات ذرات من الراتينج (القلفونية)

وقد حذا حذوهم في تلك الدراسة المخبرون الفنيون في مدينة برلين عاصمة المانيا فتراهم يحللون أنواع الغبار الذي يتطاير من الصناعات المختلفة على ثياب الصناع فيعلق بها . وفي فرنسا مخبر فني قضى عدة أشهر يحلل ذرات الغبار التي توجد في حواجب عيون المجرمين . ومخبر آخر يدرس نماذج الغبار التي توجد لاصقة بصملاخ آذانهم . فلا غرو اذا اصبحت مجموعة انواع الغبار من معدات المعامل العلمية التي يستعين بها المخبرون الفنيون على مقابلة الاصناف بعضها ببعض. ولا مندوحة للقضاة عن التعويل على الشهادة البليغة التي تشهد بها تلك الذرات !!

قال الكاتب الاميركي : — دخلت احدى الحجر المودع فيها مجهر من مجاهر تحقيق الجنايات فقضيت ساعات عديدة في مشاهدة أولئك المخبرين الفنيين قائمين باعمالهم حيث رأيت طبقات من غبار نفض من حذاء مجرم وحلل ابتغاء الاستدلال على تنقلاته قبيل اعترافه بالجناية ، فوجدت فيها ذرات من الطين الخزفي واخرى من تراب زيتي ودقائق من الهشيم وهنامات من الحصى ملتصق بها نزر من التبن والبرسيم . فكانت تلك البينات بمثابة سجل لحركات المجرم مكن الخبير الفني من رسم الطريق التي سلكها محتذياً حذاءه آنف الذكر إذ ايقن الخبير ان

الجاني قد مشى على طريق مغشاة بالزيت فاجتاز حقلاً ذا طين خزفي ثم اخترق غابة ومن ثم سار على ضفة نهر حتى التقى عصا الترحال في هري من اهراء الغلال . وثبت ان هاتيك المعلومات ومثيلاتها في عشرات من القضايا كانت معواناً صادقاً لدحض مزاعم المجرمين بانهم لم يكونوا في أماكن الجرائم عند اقترافها وكافية لاثبات التهم عليهم

واليك واقعة خطيرة من وقائع مناهضة المجرمين وهي دراسة الخدوش والآثار التي تتركها السكاكين في الاشياء المختلفة فيتوسل المخبرون الفنيون الى ادراك كنهها بالمجاهر القوية

حدث من عهد ليس بعيداً أن ورد على احد اهالي اقاليم الغرب في الولايات المتحدة كتاب تهديد فباشر احد المخبرين الفنيين اقتفاء آثار مرسله فاستدل عليه بشيء تافه وهو آثار دقيقة جداً لمبراة « مطواة » وجدت على براية قلم رصاص . ذلك ان ذرة من البراية الخشبية كانت قد سقطت عرضاً في الظرف الذي غلفت به الرسالة قبيل ارسالها بالبريد الى ذلك الوجيه

فتناول الخبير الفني الصور المكبَّرة بالمجهر الخاصة بالخطوط الغائرة والبارزة التي وجدت في البُراية فاذا هي مطابقة جداً المطابقة للآثار التي تركتها مطواة عُثِر عليها في جيب أحد المتهمين

أما اذا أُريدَ تسجيل الآثار التي تتركها السكاكين الكبيرة والفؤوس والبلط والقدُم فيتناول الخبير الفني أيّة آلة حادة منها ويضربها في قالَب من شَمع النحل فتؤثر شفرتها فيه التأثير المرغوب اذ تترك في القالب قطاعاً عرضيًّا تظهر فيهِ صورة كاملة للخطوط الغائرة والبارزة التي تميز أية آلة قاطعة من سواها

ولكن الخدوش التي تحدث من الآلات القاطعة للخشب ليست هي وحدها الشواهد التي يستنير بها المخبر الفني في سبيلهِ بل هناك بيِّنات أخرى جوهرية وهي التي توجد على سطوح المعادن . وفي هذا الصدد يقول الكاتب الاميركي : —

كنت ذات يوم أُناقش الاميرالاي كلفن جودرد رئيس المعمل العلمي الخاص بالكشف عن الجنايات في مدينة شيكاغو في تلك الحالة من أحوال أعمالهم فقال : « لو كان لديك مبرد فبردت بهِ شيئاً مرتين لوجدت الأثر الذي يحدث من البردة الأولى مختلفاً عنهُ في البردة الثانية » وهذا لامراء فيهِ . وجميع ذلك تراه عدسات المجهر الثاقبة حيث يظهر كل شيء مهما كان دقيقاً سواء في السرعة او الزاوية او الضغط . وكذلك كل آلة قاطعة ومدية تحدث الأثر الذي ينم عليها تماماً وتأييداً لما سبق نورد الحادثة الآتية التي وقعت في كاليفورنيا من عهد قريب

سطا لصان شاطران على الصناديق التي تودع فيها أجور المحادثات التليفونية الأوتوماتيكية في شوارع المدن الساحلية بكاليفورنيا فأخذا يكسران أقفالها ويسلبان ما فيها من الدراهم والدنانير فغنما من ذلك ثروة جزيلة . واستمرا في عملهما ستة اسابيع وكانا يفتحان الصناديق عنوةً بمقاطع ومفكات خاصة ثم يهربان قبل أن يتمكّن الشرطة من ادراكهما . ثم قبض الشرطة

ذات ليلة على شابين في فندق من فنادق مدينة سيتل بولاية واشنطون ففتشا حجرة نومهما فعثرا تحت حشيّة السرير على مقاطع وآلات أخرى . فكانت تلك الأدوات هي الدليل الوحيد على اتهامهما . ولكنهُ دليل غير كافٍ لتأييد التهمة تأييداً تامّاً. فاستعان ولاة الامور بخبير فنيّ فأخذ يفحص الآلات السابقة الذكر فعرض لمجهره الثاقب الخدوش التي وجدت على آخر صندوق نقود وقعت فيهِ السرقة والخدوش التي أُحدثت بالآلات المضبوطة فثبت أنها تشبهُ بعضها بعضاً كل الشبهِ اذ بينت عدسات المجهر مائة أثر كبير الحجم في مساحة لا تزيد على ثمن بوصة. وكان بعضها قبل التكبير لا يزيد على جزء من ١٠٠٠٠ من البوصة المربعة فتأيدت التهمة عليهما فسجنا

واليك نادرة أخرى من نوادر الانتفاع بالمجاهر أبلغنيها الدكتور هرمان بنديسن وكان وقتئذٍ موظفاً منوطاً بهِ فحص اسباب الوفيات الفجائية ومناهضة الجرائم وهي كما يأتي : —

اشتهر منذ بضع سنين اخوان من افظع السفاحين إذ بلغ عدد الذين قتلاهم بمسدساتهما اثنى عشر رجلاً فأخذ الشرطة في البحث عنهما حتى قبضوا عليهما راكبين سيارة مأجورة في شارع متشيغان وطفقوا يفتشونهما فتجهّم لهم القاتلان ولكنهما لم يسعهما الاّ الاذعان للتفتيش . فلم يجدوا معهما شيئاً ولكنهم عثروا في السيارة على مسدسين من النوع الأُوتوماتيكي محشوّين مخبوءين خلف كرسي السيارة فاعتقلوهما متهمين بتهريب الاسلحة . فاصرَّ المتهمان على القول إنهما لا علاقة لهما مطلقاً بذينك المسدسين . ثم دافع عنهما محاميهما بأن طلب أمام المحكمة سجل عدّاد السيارة من الشركة التي تديرها . فاتضح بفحصهِ أن أحد عشر راكباً ركبوا السيارة نفسها في ذلك اليوم وعندئذٍ قال المحامي لا بدَّ أن أحد أولئك الركاب قد دسَّ المسدسين المشار اليهما في المركبة

وسألني الدكتور بنديسن قائلاً : « ليتَ شعري ماذا ترى في الوسيلة التي توسّلنا بها الى الصاق التهمة بذينك المجرمين رئيسي العصابة ؟؟ » فأجبتهُ من فوري قائلاً «لعلها بصمات الأصابع » فقال « كلاَّ لم تكن البصمات واضحة وضوحاً يساعدنا على ذلك بيد أننا عثرنا في أثناء التفتيش على نسالة لاصقة بأنبوبي المسدسين من بطانتي جيبي الحلّة التي حُملا فيهما فاحضرنا في الحال بنطلوني المتهمين وفتشنا جيوبهما حتى حصلنا منها على ندافة فقابلناها تحت المجهر بالنسالة التي وجدناها عالقة بالمسدسين فاتضح انهما من نوع واحد فاستنتجنا من ذلك ان المسدسين لذينك السفاكين بل عرفنا سلاح كل منهما بالذات »

ويوجد لدى المستر فرنك جومبرت الموظف في ادارة الأحكام المدنية في مدينة لوس انجيلس بكاليفورنيا مجموعة نماذج طريفة من الأوبار جمعها من أقطار العالم كافة وذلك توخياً لاطلاع المخبرين الفنيين عليها لكي تعاونهم على الاضطلاع بأعمالهم .ويقال ان تلك المجموعة مؤلفة مما يزيد على مائتي الف نوع من الوبر

وقد علمت أن العلماء كثيراً ما يلجؤون الى المجهر كي يمتحنوا بهِ نسالة الأقمشة في القضايا الغريبة . ومن هذا القبيل ما حدث في مدينة من مدن الأقاليم الشرقية بالولايات المتحدة من عهد قريب حيث كان مندوب لشركة من شركات صنع الملابس، كلف عرض نماذج من مصنوعات الشركة على الجمهور ترويجاً لها ، وهي صدارات لا يؤثر فيها الرصاص اذا أُطلق على لابسها ؛ أقام هذا الرجل دعوى على زوجتهِ قصد تطليقها ومن سوء طالعهِ أنهُ هو نفسهُ لم يكُ لابساً صداراً من ذلك النوع حين وجوده في المحكمة فحدث أن دعاه القاضي للشهادة فنهض من بين النظارة في المحكمة . وما لبث أن نطق بالشهادة المطلوبة حتى وثبت زوجتهُ من مكانها وانتزعت من مثبنتها[1] مسدساً كان مخبأ فيها وأطلقت منهُ طلقين ناريين فطاش أولهما واخترق الثاني الجزء العلوي من رئة زوجها اليسرى فمزّقهُ . ونقل المصاب الى المستشفى ليعالج حيث قضى أسبوعاً وكان يرجح شفاؤه ولكنهُ أصيب فجأة بالتهاب رئوي فتوفى مأسوفاً عليهِ

وجعل ذوو الشأن يتساءلون : هل حدث الالتهاب الرئوي من الطلق الناري؟؟ وعرضت القضية على المحكمة لتفصل فيها فندبت للتحقيق الخبراء الموثوق بعلمهم فقام هؤلاء بكشط باطن الجرح الذي اخترقتهُ الرصاصة ثم عرضوا الكشاط[2] وفحصوه بالمجهر فرأوا نسالات من ثياب القتيل الخارجية قد نفذت الى صدره حاملة اليهِ الجراثيم التي سمّمت الجرح فكانت منشأ الوفاة . فحكمت المحكمة بتأييد تهمة القتل عمداً على القاتلة

وقصارى القول ان المجهر الدوار قد أصبح ذا شأن عظيم في حل معضلات الجنايات وذلك بامتحان الأوبار والخيوط والألياف حينما ينشق القماش أو يتمزّق . لأن شقة القماش مهما بدت للعين المجردة منتظمة الحواشي فلا تحسبنّها كذلك لأن عدسة المجهر تظهرها مضرسة . وقد يثبت ذلك جليّاً حينما يُلَمّ شعثها فتتعاشق كما كانت

وفي كثير من القضايا يظهر المجهر التزوير على الوثائق ونحوها ويوضح ايضاً الغش الذي يرتكب في تقليد الاختام الشرعية وفي تزييف النقود . ومن النوادر التي كان للمجهر القدح المعلّى في فضح أسرارها ما يأتي :—

حدث في صباح يوم من أيام الخريف الماضي بعيد الساعة التاسعة أن لمح رهط من الناس رجلين وهما كيماوي مشهور ومعاون له ، كان حديث الخدمة عنده، يلجان معملاً صغيراً للتحليل الكيماوي حيث كان ذلك العالم يقوم بتجارب في السوائل الطيّارة . وما انقضت ساعتان حتى سمع الجيران صوت انفجار هائل فتغلغلوا في الشارع مستطلعين الخبر فوجدوا النار مشتعلة في ذلك المعمل الكيماوي وألسنة اللهيب تندلع من نوافذه مشبعةً بالمواد الكيماوية . ودمّر الحريق المعمل برمتهِ قبل وصول وسائل الاسعاف . فلما أدركتهُ فرقة المطافىء أخذ رجالها

(١) المثبنة — كيس تضع فيه المرأة مرآتها وغيرها وجمعها مثابن (٢) الجلد المكشوط

يشقون طريقهم في اطلال المعمل المتصاعد منها الدخان فعثروا في خلالها على جثة متفحمة فاستدلوا من آثار الثياب التي وجدوها تحتها ومن خاتم وجدوه في أصبع من أصابع اليد اليمنى أن المحترق هو العالم نفسهُ وأما معاونهُ فلم يوقف له على أثر

وشرع المحققون في التحقيق فتبيّن لهم ان العالم السابق الذكر كان قد أمّن حياته حديثاً في غير شركة على مبالغ كبيرة ثم عهدوا الى الدكتور شنيدر استطلاع مكنونات الكارثة فاستنتج مما قام به من المباحث التي اجراها في شعر القتيل ، اذ جاءه معاونه الفني بثلاث نثارات من شعر قذال[1] الكيماوي المحروق (حيث صين قذاله صيانة جزئية بحزام مبلل) ووافاه معاون آخر بسباطة[2] من شعر العالم الكيماوي نزعها من فرجون شعر كان يستعمله في بيته قبيل الحادث ثم عورضت الشعور بعضها ببعض وهي تحت عدسات المجهر فظهر الاختلاف توًّا ظهور الشمس في رائعة النهار وعند ذلك ثبت للدكتور شنيدر أن شعر العالم الكيماوي كان دقيقاً سبطاً مستديراً بينما السبد[3] الذي نتف من رأس الرجل الذي وجد محترقاً كان قطر الشعرة فيهِ اكبر منهُ في شعر العالم الكيماوي وشكله بيضي مما يدل على ان شعر القتيل كان جعداً . وهذا مما يبين بلاشك لعيني الخبير الفني ان القتيل لم يكن هو العالم الكيماوي

وأعلنت الجرائد تلك الخفايا المهيجة للعواطف فاخذ القراء يتهافتون على قراءتها ولكنهم ما لبثوا ان بوغتوا بنبأ آخر لاسلكي من مدينة بورتلند في ولاية أوريجون وهو انتحار رجل غريب كان نزيلاً في فندق قريب من صميم المدينة وانه هو الكيماوي المفقود. وقد تحققت شخصيته باعترافهِ الذي كتبه بخط يده قبل اقدامه على الانتحار . وكان يقصد بتلك الجريمة الشيطانية التدليس على شركات التأمين وابتزاز أموالها

وتفصيل الحادثة ان الكيماوي احرق ليمسّه المعاون عمداً وانه لم يستخدمه في العمل الاّ لسبب واحد وهو مشابهته التامة له ليظفر بغايتهِ ثم انه البس الجثة ثيابه وخاتمه تمويهاً على الناس لكي تجوز عليهم الحيلة . وقد ارتكب تلك الجناية عقب اهراقهِ الايثروثاني كبريتور الكربون على فريسته ثم هرب دون ان يراه احد تاركاً تلك المواد الكيماوية المتصعدة تشتعل وتتفاعل بمضي الوقت . وما تجلّت تلك الحقائق الباهرة في الحوادث التي اوردناها وغيرها حتى ثبت ثبوتاً قاطعاً بان المجهر خير معوان للخبير الفني في اظهار خفايا الاوزار وسلاح ماضٍ لمقاتلة اللصوص الفجار والمجرمين العتاة بالوسائل العلمية . فليتنا نستفيد من هذه المباحث القويمة المدهشة (نقلاً عن مجلة العلم العام الاميركية) عوض جندي

---

(١) القذال ما بين الاذنين من مؤخر الرأس (٢) السباطة ما سقط من الشعر اذا سرح
(٣) السبد القليل من الشعر

فلسفة التاريخ الاسلامي

في القرن السابع للهجرة

كان التاريخ الاسلامي من التواريخ المصابة بالجمود والتعصب ، فلم يتمحص من الاكاذيب والتوليدات والخرافات ، ولم يتخلص من قيود الرواية الشعوبية والاسناد التعصبي ، ولم يتملص من سلطة دجاجلة الدين الا في عهود هي في تاريخ الاسلام كالشبابيك المنيرة لقرارات السجون الحالكة ، ولقصر هذه العهود المنيرة والمواترة بينها ، نظر المحققون الى تاريخنا الاسلامي نظرهم الى الآثار المهملة والابنية العتيقة المتداعية التي طالما استرمّت فلم يرمها أحد واستهدمت فلم تجدّد ، والحق في ناحيتهم لانهُ — على كونه تاريخنا — نرى فيه من الاضطراب والتناقض والاختلاق والمبالغات مالا يسكت عليه الاّ جاهل ولا يؤمن به الاّ دجال مخادع ، وحسبك دليلاً على ما ذكرنا ان بعض المنافقين كانوا يكذبون على رسول الله — ص — في حياته فيسمع باكاذيبهم ويصعد المنبر ويعلن الناس بانها مكذوبة ، والاسلام حينئذٍ غض فتيّ والايمان شمس مشرقة والفرائض ثابتة الاعلام راسخة الصوى . ان كل تاريخ لامندوحة لاهله عن تفهم فلسفته ، ولابد لهم من فتنه في مصهار التمحيص كفتن الذهب المخلوط بغيره في البوتقة ، وان الفلسفة تساير حرية الدين وإباحة المعتقدات وعهد ترقي العقل ، وتخمد في عصور دجاجلة المتسلطين والسلاطين الجاهلين والشعوب المبتلاة بالتعصب الاعمى

إن قلة فلسفة التاريخ الاسلامي ناشئة من ان اسلافنا — على رأي جماعة — ناس كاملون كمالاً بشريًّا فافعالهم كاملة صالحة بعد افعال انبيائهم — ان لم تكنها — فمن تعرض لها بتمحيص او نقد او تحليل كان ملحداً زنديقاً فيلسوفاً ، والفلسفة كانت عندهم ترادف الزندقة ، مع ان هؤلاء الجاهلين لو تتبعوا الاخبار تتبع ناقل عاقل لا جاهل لوجدوا ان اولئك الاسلاف الآدميين كثيراً ماغلطوا فاستدركوا غلطهم وطالما وهموا فوقفوا على اوهامهم وربما تاهوا فارشدوا الى لقم الطريق

ومما نستحسن ذكره ههنا انهُ قد جاء في الاخبار ان الامام عليًّا — ع — كان يتكلم مع جماعة فمرّ به يهودي فقال لهُ « لو انك تعلمت الفلسفة — يا ابن ابي طالب — لكان يكون لك شأن من الشؤون » فقال له الامام علي « وما تعني بالفلسفة ؟ اليس من اعتدل طباعه صفا مزاجه ومن صفا مزاجه قوي أثر النفس فيه ومن قوي أثر النفس فيه سما إلى ما يرتقبه ومن سما الى ما يرتقبه فقد تخلق بالاخلاق النفسانية ومن تخلق بالاخلاق النفسانية فقد صار موجوداً بما هو انسان دون ان يكون موجوداً بما هو حيوان وقد دخل في الباب الملكي الصوري وليس له عن هذه

الغاية مصير » فقال اليهودي : « نطقت بالفلسفة جميعها في هذه الكلمات يا ابن ابي طالب[1] » فهذه الحكاية سواء أكانت صحيحة ام مولدة تثبت عليهم جواز تعلم الفلسفة لان الذي يبتدع حديثاً لاستحسان شيء هو راض به مجيز له بداهةً

ولو تتبع منصف عاقل ضحايا الفلسفة والزندقة في تاريخ الاسلام لذابت نفسهُ أسفاً من اتخاذهم الدين وسيلة للتشفي والثأر وستر عيوب السياسة واشباع الطمع ومماشاة الجشع وطلب الدنيا والجاه ، ولا اترك القارىء وفي نفسه شيء مما قلت بل اذكر له بعض الحوادث الدالة على صحة الدعوى ، فقد نقل الجاحظ عن عبد الله بن ياسين : ان المهدي بن المنصور كان فيه غزل وشدة حب للخلوة بالنساء فبلغهُ جمال عن ابنةٍ لكاتبه ابي عبيدالله فقال للخيزران : «استزيريها» فاستزارتها وجاءت اليها ، فقالت لها الخيزران : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلت الحمام وافاها المهدي فبرزت له ولم تستتر عنهُ فقال لها : انا وليك فزوجيني نفسك ، فقالت انا أمتُك ، فتزوجها ونال منها ، فلما انصرفت أخبرت إخوتها بما كان فقالوا : أمسكي عنهُ ، فلما كان بعد مدة قالوا لها : استزيري الخيزران ، فاستزارتها ، فلما صارت اليها قالت : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلتا معاً ما شعرت الخيزران الا بنبي ابي عبيد الله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم ، فقالوا لها . لو اردنا ان نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا ولكنا لا نستحل فقالت: والله لو رمتم ذلك لأمرت الخدم بقتلكم ، فانصرفوا ، فلما رجعت الخيزران اخبرت المهدي بذلك فكان السبب في قتل المهدي لمحمد بن أبي عبيد الله على الزندقة

ولما استولى البويهيون على العراق وما اليه ازدهرت الفلسفة ازدهاراً عجيباً فنشأت رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء وغيرها وسبب ذلك المسامحة الدينية وتحرير العقول بل تجاوزت الفلسفة الى الشعراء كالمعري أبي العلاء الفيلسوف

والقرن الذي نريد الابانة عن فلسفة التاريخ الاسلامي فيه كان فاتحة عصور الحرية الدينية في الشرق فقد كثر فيه الفلاسفة على اختلاف تفلسفهم وبلغ أولو الامر فيه الى درجة رفيعة من العلم كأبي العباس أمير المؤمنين احمد الناصر لدين الله العباسي أعظم ساسة الخلفاء العباسيين ومجدد الدولة العباسية وخلافته من سنة « ٥٧٥ الى ٦٢٢ » هـ كان العلم فيها سامي المكانة عظيم الحفاوة وافر الاقبال واشتهر من الفلاسفة في هذا القرن السابع « ٦٠٠ — ٧٠٠ » محمد بن سليمان بن قتلمش حاجب الناصر لدين الله الاكبر ،وسيف الدين ابو الحسن علي الآمدي ومعين الدين سالم بن بدران المعتزلي وجعفر القطاع الملقب بالسديد البغدادي والموفق عبد اللطيف البغدادي وفخر الدين محمد بن عمر الرازي وركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلي ، والحسن بن الامير أبي علي بن نظام الملك الوزير ومحمد بن مبشر

(١) صحيفة الابرار « ج ١ ص ١٢٨ »

البغدادي والحسن بن محمد الاربلي الضرير الملقب عز الدين وعبد الحميد بن أبي الحديد المدائني وعلي بن يوسف القفطي وموسى بن ميمون اليهودي الاندلسي ونجم الدين النخجواني ونصير الدين محمد الطوسي شيخ الفلاسفة وموسى بن يونس العقيلي الموصلي وعز الدولة بن كمونة اليهودي صاحب الابحاث عن الملل الثلاث وكمال الدين حسن بن يحيي ، اما ابو جعفر يحيي بن محمد بن زيد العلوي نقيب البصرة فقد كان فريداً في فلسفة التاريخ ويليه في ذلك محمد بن سليمان بن قتلمش . والآن ننقل للقارىء شيئاً من فلسفته في التاريخ الاسلامي وكانت وفاته سنة « ٦٢٠ » هـ (١) « اعني وفاة محمد بن سليمان »

قال عبد الحميد بن ابي الحديد المدائني « حدثني جعفر بن مكي الحاجب — رحمه الله (٢) — قال : سألت محمد بن سليمان حاجب الحجاب (وقد رأيت أنا محمد هذا وكانت لي به معرفة غير مستحكمة وكان ظريفاً اديباً وقد اشتغل بالرياضيات والفلسفة ولم يكن يتعصب لمذهب بعينهِ) قال جعفر : سألته عما عنده في امر عليٍ وعثمان ، فقال : هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم وقد كان حرب بن أُمية نافَرَ عبد المطلب بن هاشم وكان ابو سفيان يحسد محمداً — ص — وحاربه ولم تزل الثنتان متباغضتين وان جمعتها المنافِيَّة ، ثم ان رسول الله — ص — زوَّج عليًّا بابنته وزوَّج عثمان بابنته الاخرى ، وكان اختصاص رسول الله لفاطمة اكثر من اختصاصه للبنت الاخرى وللثانية التي تزوَّجها عثمان بعد وفاة الاولى ، واختصاصه ايضاً لعلي وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه ايَّاه لنفسه اكثر واعظم من اختصاصه لعثمان، فنَفِس عثمان ذلك عليهِ فتباعد ما بين قلبيهما ، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الاختين من مباغضة أو مشاجرة أو كلام ينقل عن احداها الى الاخرى فيتكدر قلبها على أختها ويكون ذلك التكدير سبباً لتكدير ما بين البعلين ايضاً — كما نشاهده في عصرنا وفي غيره من الاعصار — وقد قيل : ما قطع بين الاخوين كالزوجتين ، ثم اتفق ان عليًّا قتل جماعة كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله — ص — فتأكد الشنآن، واذا استوحش الانسان من صاحبه استوحش صاحبه منه ، ثم مات رسول الله — ص — فصبا الى علي جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ولا حضر في دار فاطمة مع من حضر من المتخلفين عن البيعة وكانت في نفس علي امور عن الخلافة لم يمكنه اظهارها في ايام ابي بكر وعمر لقوة عمر وشدته وانبساط يده ولسانه ، فلما قتل عمر وجعل الامر شورى بين الستة وعدل عبد الرحمن بها عن علي الى عثمان ، لم يملك نفسه علي ، فأظهر ما كان كامناً وأبدى ما كان مستوراً ولم يزل الامر يتزايد حتى اشرِيَ ما بينهما وتفاقم ، ومع ذلك فلم يكن علي لينكر من امره الا

(١) كتابنا « السنون الضائعة من الحوادث الجامعة » (٢) توفي سنة « ٦٣٩ » هـ كما في ص ١٤٨ من الحوادث الجامعة لعبد الرزاق بن الفوطي الذي قمنا بطبعه حديثاً وكما في « ٥ : ٤٦ » من طبقات الشافعية الكبرى للسبكي وراجع شرح ابن ابي الحديد « ٢ : ٢٢٠ ، ٤٠١ » و « ٣ : ٣٨٢ »

منكراً ولا ينهاه الاَّ عما تقتضي الشريعة نهيه عنه وكان عثمان مستضعفاً في نفسه رخواً قليل الحزم واهي العقدة وسلم عنانه الى مروان يصرفه كيف شاء فالخلافة له في المعنى ولعثمان في الاسم فلما انتقض على عثمان امره استصرخ عليًّا ولاذ بهِ والقى زمام امره اليه فدافع عنه حيث لا ينفع الدفاع وذب عنه حين لا يغني الذب فقد كان الامر فسد فساداً لا يرجى صلاحه »

قال جعفر « فقلت له : أتقول ان عليًّا وَجدَ من خلافة عثمان أعظم مما وجد من خلافة ابي بكر وعمر ؟ فقال . كيف يكون ذلك وهو فرع لهما ولولاهما لم يصل الى الخلافة ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل ولا تخطر له ببال ، ولكن ههنا امر يقتضي في عثمان زيادة المنافسة وهو اجتماعهما في النسب وكونهما من بني عبد مناف والانسان ينافس ابن عمه الادنى أكثر من منافسته الأبعد ويهون عليه من الابعد ما لا يهون عليه من الاقرب »

قال جعفر « فقلت له : فما تقول في هذا الاختلاف الواقع في امر الامامة من مبدأ الحال وما الذي تظنه اصله ومنبعه ؟ فقال : لا اعلم لهذا اصلاً الاَّ امرين احدهما ان رسول الله — ص — اهمل امر الامامة فلم يصرح فيه بأحد بعينه وانما كان هناك رمز وايماء وكناية وتعريض لو اراد صاحبه ان يحتجَّ به وقت الاختلاف وحال المنازعة لم يقم منه صورة حجة تغني ولا دلالة تحسب وتكفي ولذلك لم يحتج علي يوم السقيفة بما ورد فيه لانه لم يكن نصًّا جليًّا يقطع العذر ويوجب الحجة وعادة الملوك اذا تمهد ملكهم وارادوا العقد لولد من اولادهم او ثقة من ثقاتهم : ان يصرحوا بذكره ويخطبوا باسمه على اعناق المنابر وبين فواصل الخطب ويكتبوا بذلك الى الآفاق البعيدة عنهم والاقطار النائية منهم ومن كان ذا سرير وحصن ومدن كثيرة ضرب اسمه على صفحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك بحيث تزول الشبهة في امره ويسقط الارتياب بحاله فليس امر الخلافة بهين ولا صغير ليترك حتى يصير في مظنة الاشتباه واللبس ولعلَّهُ كان لرسول الله — ص — عذر في ذلك لا نعلمهُ نحن إما خشية من فساد الأمر وارجاف المنافقين وقولهم : إنها ليست بنبوة وانما هي ملك أوصى بهِ من بعده لذريتهِ وسلالتهِ ولما لم يكن أحد من تلك الذرية في تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصغر السن جعله لأبيهم ليكون في الحقيقة لزوجته التي هي ابنتهُ ولأولاده منها من بعده ، وأما ما تقوله المعتزلة وغيرهم من أهل العدل : أن الله — تعالى — علم أن المكلفين يكونون على ترك الامر مهملاً غير معين أقرب الى فعل الواجب وتجنب القبيح ، ولعل رسول الله — ص — لم يكن يعلم في مرضهِ انه يموت في ذلك المرض وكان يرجو البقاء فيمهد للامامة قاعدة واضحة ومما يدل على ذلك : انهُ لما نوزع في احضار الدواة والكتف ليكتب لهم ما لا يضلون بعده غضب وقال : اخرجوا عني ، لم يجمعهم بعد الغضب ثانيةً ويعرفهم رشدهم ويهديهم الى مصالحهم ، بل ارجأ الأمر إرجاء من يرتقب الأفاقة وينتظر

العافية ، فبتلك الأقوال المجمجمة والكنايات المحتملة والرموز المشتبهة مثل حديث خصف النعل ومنزلة هرون من موسى ومن كنت مولاه وهذا يعسوب الدين ولا فتى الاّ عليّ وأحب خلقك إليك وما جرى هذا المجرى مما لا يفصل الأمر ولا يقطع العذر ولا يسكت الخصم ولا يفحم المنازع وثبت الأنصار فادعتها ووثب بنو هاشم فادعوها وقال ابو بكر : بايعوا عمر او أبا عبيدة وقال العباس لعلي : امدد يدك لأبايعك ، وقال قوم ممن رعف به الدهر في ما بعد ولم يكن موجوداً حينئذ . إن الأمر كان للعباس لأنهُ العم الوارث وإن أبا بكر وعمر ظلماه وغصباه حقهُ، فهذا أحدها . واما السبب الثاني للاختلاف فهو جعل عمر الأمر شورى في الستة ولم ينصّ على واحد بعينهِ إما منهم وإما من غيرهم فبقي في نفس كل واحد منهم أنهُ قد رشح للخلافة وأهّل للملك والسلطنة فلم يزل ذلك في نفوسهم واذهانهم مصوراً بين اعينهم مرتسماً في خيالاتهم منازعةً اليهِ نفوسهم طامحةً نحوه عيونهم حتى كان من الشقاق بين علي وعثمان ما كان وحتى أفضى الأمر الى قتل عثمان وكان اعظم الأسباب في قتله طلحة وكان لا يشك ان الأمر له من بعده لوجوه منها : سابقتهُ ومنها : انهُ ابن عم لأبي بكر ، وكان لأبي بكر في نفوس اهل ذلك العصر منزلة عظيمة اعظم منها الآن ومنها : انهُ كان سمحاً جواداً ، وقد كان نازع عمر في حياة ابي بكر وأحب ان يفوض ابو بكر الأمر اليهِ من بعده ، فما زال يفتل في الذروة والغارب في أمر عثمان وينكّر له القلوب ويكدّر عليهِ النفوس ويغري أهل المدينة والأعراب واهل الأمصار بهِ وساعده الزبير ، وكان ايضاً يرجو الأمر لنفسهِ ، ولم يكن رجاؤها هذا الأمر دون رجاء عليّ بل رجاؤها كان اقوى لأن عليّاً دحضهُ الأولان واسقطاه وكسرا ناموسهُ بين الناس فصار نسياً منسيّاً ومات الأكثر ممن يعرف خصائصهُ التي كانت في ايام النبوة وفضله ونشأ قوم لا يعرفونهُ ولا يرونهُ إلاّ رجلاً من عرض المسلمين ولم يبق له مما يمت بهِ الا انهُ ابن عم الرسول وزوج ابنتهِ وأبو سبطيه ونُسي ما وراء ذلك كلهِ واتفق له من بغض قريش وانحرافها ما لم يتفق لأحد وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحب طلحة والزبير لان الأسباب الموجبة لبغضهم له لم تكن موجودة فيهما وكانا يتألفان قريشاً في اواخر ايام عثمان ويعدانهم بالعطاء والأفضال وهما عند انفسهما وعند الناس خليفتان بالقوّة بالفعل لأن عمر نص عليهما وارتضاهما للخلافة وعمر متبع القول مرضي الفعال موفق مؤيد مطاع نافذ الحكم في حياتهِ وبعد وفاتهِ ، فلما قتل عثمان ارادها طلحة وحرص عليها فلولا الأشتر وقوم معهُ من شجعان العرب جعلوها في علي لم تصل اليه ابداً ، فلما فاتت طلحة والزبير فتقا ذلك الفتق العظيم على علي واخرجا «أم المؤمنين» معهما وقصدا العراق وأثارا الفتنة وكان من حرب الجمل ما قد علم وعرف ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيداً لحرب صفين فان معاوية لم يكن ليفعل ما فعل لولا طمعه بما جرى في البصرة ثم اوهم اهل الشام ان عليّاً فسق بمحاربة ام المؤمنين ومحاربة المسلمين وانه قتل طلحة والزبير وهما من اهل الجنة

ومن يقتل مؤمناً من اهل الجنة فهو من اهل النار ، فهل كان الفساد المتولد في صفين الا فرعاً للفساد الكائن يوم الجمل ، ثم نشأ من فساد صفين وضلال معاوية كل ماجرى من الفساد والقبيح في ايام بني امية ونشأت فتنة ابن الزبير فرعاً من فروع يوم الدار لان عبد الله كان يقول : ان عثمان لما ايقن بالقتل نص عليّ بالخلافة ولي بذلك شهود منهم مروان بن الحكم ، افلا ترى كيف تسلسلت هذه الامور فرعاً على اصل وغصناً من شجرة وجذوة من ضرام هكذا يدور بعضه على بعض وكله من الشورى في الستة واعجب من ذلك قول عمر — وقد قيل له : انك استعملت يزيد بن ابي سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلاناً وفلاناً وفلاناً من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وابناء الطلقاء وتركت ان تستعمل علياً والعباس والزبير وطلحة — فقال : اما علي فأنبه من ذلك وأما هؤلاء النفر من قريش فاني اخاف ان ينتشروا في البلاد فيكثروا فيها الفساد ، فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا في الملك ويدعيه كل واحد منهم لنفسه كيف لم يخف من جعلهم ستة متساوين في الشورى مرشحين للخلافة ؟ وقد روي ان الرشيد رأى يوماً محمداً وعبد الله ابنيه يلعبان ويضحكان فسرّ بذلك فلما غابا عن عينه بكى فقال له الفضل بن الربيع : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين وهذا مقام جذل لا مقام حزن ؟ » فقال : « اما رأيت لعبهما ومودة بينهما اما والله ليتبدلنّ ذلك بغضاً وسيفاً وليختلس كل واحد منهما نفس صاحبه عن قريب فان الملك عقيم » وكان الرشيد قد عقد لهما الامر على ترتيب هذا بعد هذا فكيف من لم يرتبوا في الخلافة بل جعلوا فيها كأسنان المشط ؟ « قال عبد الحميد بن ابي الحديد : فقلت انا لجعفر هذا كله تحكيه عن محمد بن سليمان فما تقول انت فقال :

اذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام [(١)] »

ونحن لم ننقل هذا ونحن مؤمنون بما جاء فيه وانما لنبين للقارىء كيف كانت فلسفة التاريخ الاسلامي في ذلك القرن السابع والى أي غاية بلغت من تحري الحقائق ورجع الحوادث الى اسبابها وكان في هذا العصر خروج التتر على الشرق الادنى فاستحوذوا عليه بحروب دونها الحروب العظمى ولكن الحرية الدينية زادت زيادة عظيمة مع حرية التمذهب والمذاهب فترقت الفلسفة في الشرق الادنى ، فالقاآن (الخاقان) قوبلاي مثلاً ، وهو سلطان المغول ، كان يحب الحكماء والفلاسفة والعلماء والمتدينين من سائر المذاهب والامم [(٢)] وفي ذلك العصر ألف كتاب « الآداب السلطانية » المعروف بالفخري وهو مبني على فلسفة التاريخ والاصول العلمية ومنهُ اقتبس المرحوم جرجي زيدان قواعد التأليف في التاريخ كما يظهر لكل عارف بأساليب التأليف التاريخي ، هذا ولا نرى في انفسنا حاجة الى ذكر مثال آخر لفلسفة التاريخ الاسلامي في هذا العصر لانّ في ما قدمنا احساباً وكفاية بالنسبة الى مواضع النشر بغداد مصطفى جواد

(١) السنون الضائعة في حوادث سنة « ٦٢٠ » (٢) مختصر الدول ص ٤٩١

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

الاسرة الشيوعية

﴿الاسرة عند الشيوعيين﴾ تبتدىء فكرة التشيع في العلائق بين الذكر والانثى منذ ايام افلاطون ، ففي جمهوريته — وهي المدينة الفاضلة التي ذكرها الفارابي — ان السلع والنساء مشاعة في الامة ، وان المرأة يجب ان تشاطر الذكر العمل كما تشاطر الكلبة في القطيع الكلب حراسة الغنم . والمثل الاعلى الذي كان ينشده للمدينة الفاضلة السعيدة هو ان تكون جميع العلائق الشقية خاضعة لسلطة الدولة ومحصورة في اناس يتحلون ببعض الصفات من حيث اعمارهم واهليتهم في الابدان والاخلاق والعقول وهو ما يؤدي الى علم له مقام رفيع بين العلوم الاجتماعية الحاضرة وهو علم « اليوجنيكس » أو اصلاح النسل

وعسى الاّ يستغرب القراء موقف افلاطون شيخ حكماء اليونان في شيوعية النساء ولا موقف من تابعه من متطرفي الاشتراكيين في العصر الحاضر . فان رواد الاصلاح في الشؤون الشقية كما قال (سبارجو) و (ارنر)[1] قد سلكوا في معالجة قضية المرأة والرجل واحداً من سبيلين متناقضين كلّ التناقض الواحد تحريم الاتصال بين الجنسين بتاتاً والثاني التشيع في النساء، ففي صدر النصرانية امتهنت المرأة وعدّ الزواج شرّاً مستطيراً ووصف بانهُ استسلام للطبيعة البهيمية وانهماك في الشؤون الحيوانية وان المثل الاعلى والكمال المنشود هو التبتل والرهبانية . على حين نرى طائفة (الشاكر) و (الودنسي) مثل (الانابابتست) و (الكماليين) وغيرهم من الطوائف المسيحية ينحون نحو التشيع في النساء كأن تعقد موضوع الزواج والعيوب العالقة بجميع طرائقه المنتشرة ارغمت الباحثين على هذا التناقض في الاجتهاد ، وكان من شأن الاشتراكية المتطرفة انها حينما عالجت هذا الموضوع ايدت فكرة التشيع لاسباب بديهية تتعلق برأس المال ، فالاسرة في نظر الاشتراكية متصلة اتصالاً وثيقاً بالتملك الخاص والميراث الاهلي بحيث يصعب الفصل بينها جميعاً ، فلا غرو ان يحسب الاشتراكيون المتطرفون كل زواج فردي او كل نظام عائلي مدعاة الى الانحلال والرجوع بالبشر الى سلطة الراسمالية التي هي في نظرهم علة العلل . والحرص على

---

(١) Elements of Socialism p. 241.

تخصيص الخلف بميراث السلف ظاهر في يومنا هذا حتى بين القبائل التي لا تعنى بالعرض كثيراً فقد كتب اليَّ السيد نصوح الخرسا من (الساحل الذهبي) في افريقيا الغربية عن بعض القبائل يقول « اما العرض فغير معروف عندهم واذا احب العبد احداً من البيض قدَّم له اخته او غيرها من اهله وذوي قرابته الاَّ امراتهُ فانهُ يهتم لها لكن اذا تعدى عليها احد فانهُ يشكوه الى الحكومة ليحصل منهُ على صداقها ثم يتنازل عنها ، وبسبب هذا الاسترخاء الشقي اذا مات العبد خلَّف جميع ثروته لابن اخته لانهُ ليس واثقاً ان الولد الذي ولدتهُ امرأتهُ هو من صلبهِ ، اما ابن اختهِ فلا شك في نسبهِ مطلقاً ولهذا فهو الوارث الوحيد بين الاقارب »

واضاف الاشتراكيون الى حقدهم على التملك والميراث كرههم ان يروا الحكومة تاركة للافراد الحبل على الغارب يتزاوجون ويتوالدون من غير اشراف ولا قيد مما يعرّض الجنس البشري للانحطاط بسبب تزاوج المرضى والمعتوهين، وللحروب والاوبئة والمجاعات بسبب تزايد النسل على وسائل المعيشة ومقوّمات الحياة

على ان اعلام الاشتراكية لم يحجموا عن الكيل للراسمالية الصاع بالصاع واتهامها بانها هي تنسخ الزواج وتهدم الاسرة . فالطلاق كما قال (سبارجو) و (ارنز) قد انتشر في النصرانية انتشاراً مريعاً حتى « لم يعد الزواج وضعاً امتن مما كان على عهد رومية في القرن الخامس . ونحن اذا اضفنا الى كثرة الطلاق انتشار البغاء اضطررنا الى القول ان الزواج الموحد لا يكاد يحسب الصفة البارزة التي تتصف بها علائقنا الشقية »(١)

ودلت الاحصاءات الرسمية التي ضبطت في الولايات المتحدة على ان عدد اذونات الطلاق بلغت في تلك البلاد في خلال عشرين سنة نهايتها سنة ١٩٠٦ زهاء ٩٤٥٦٢٥ يعني على معدل مائة وثلاثين طلاقاً في اليوم وقد وجد ان كل اربع عقود يتم الزواج فيها يفسخ واحد منها بالطلاق في كثير من الولايات ، ويمنح نحو الثلثين من اذون الطلاق للنساء بحجة الهجر والقسوة غالباً لكن هذه اعذار مصطنعة يتمحلها طلاب الطلاق من الجنسين ستراً للفضيحة والعار وليس في هذه الاحصاآت ما يدل على ان الغاية من الطلاق استبدال شريك بشريك آخر غالباً ، ومما يستوقف الانظار ويتطلب عناية الشرق كثيراً ان المقاضاة للحصول على الطلاق متى كانت نفقتها باهظة قلت من عزيمة طلابهِ وقللت من وقوعهِ . وهذا لعمر الحق يستحق انتباه المسؤولين في العالم العربي لانهُ اذا زيدت نفقات الطلاق في محاكمنا زيادة معقولة بحيث لا يجعل الطلاق ميزة يتمتع بها الاغنياء فقط فالروابط الزوجية تكون امتن واسس البيت تكون اقوى على مقاومة الزعازع العائلية والعواصف الشقية

---

(١) Elements of Socialism, p. 244

﴿ البغاء ﴾ : هو الخطر الآخر على الزواج والاسرة وان كان بعض اهل البحث قد ذهبوا الى ان البغاء الرسمي هو حصن لاهل العفاف او « صمام الامن » يفرج بهِ الضغط الناشيء عن القوى البشرية الاندفاعية . وفي الاحصاءات التي اجريت في الولايات المتحدة في اوائل القرن العشرين ان عدد المومسات في تلك البلاد يناهز ثلاثمائة الف فيكون عدد الرجال الذين يحموهن لا يقل عن ثلاثة ملايين ومما لا شك فيهِ ابداً ان الاحوال بعد الحرب ساءت في هذا الموضوع اضعافاً مضاعفة وان هذا العدد العديد من النساء البغايا هو ضئيل جداً بالنسبة الى الوقت الحاضر وقد سمعت خطيباً مشهوراً في نيويورك في سنة ١٩٢٤ ينحو باللائمة على الحرب ويقول ان زيادة الفحش اتت الاميركيين من نزول جيوشهم في فرنسا وتعودهم عادات اهلها . ولم يحجم الاشتراكيون عن اتهام الرأسمالية بانها علة العلل في هذا المرض الاجتماعي الخبيث . ففي كتاب « الاصول الاشتراكية »[١] انه لا مفر لنا من الاعتراف بأن الفقر هو من اهم البواعث على بيع الاعراض ، وان نسبة النساء من اهل الاجور الزهيدة اللاء يصرن فواحش هي نسبة عظيمة جداً ، وكلما اصيبت الاسواق التجارية بالغرار بعد الدرّة أو بالكساد بعد الرواج ازداد عدد البغايا ، والمحنة قوية جداً كما قال (برناردشو) على البنت الجميلة التي ترى انها اذا باعت قواها العقلية للخدمة في المكتب أو المصنع لا تربح عشر ما تربحهُ اذا هي باعت جمالها ففي تلك الحالة لا تحصل على غير الكفاف من العيش غالباً واما في هذه الحالة فقد تكون القصور والسيارات والبواخر والمصارف طوع بنانها

اضف الى ذلك ما تسببهُ الفاقة واكتظاظ السكان في الامكنة القذرة واختلاط البنات والصبيان في المعامل مع الاحداث والبالغين من الاسترخاء في الاخلاق والانحطاط في البنية

﴿ حملة الاشتراكية المتطرفة على الاسرة ﴾ : يقول الاشتراكيون ان حملتهم الشعواء ليست موجهة الى الزواج والاسرة بل الى سوء الاستعمال فيهما في عصر الرأسمالية فكل زواج لا يقوم على الحب بل يعقد لاجل المال او المكانة والجاه هو في نظرهم سفاح مستور مشروع يجب ابطاله مع سائر انواع الفحش . وفي البيان الشيوعي الذي اصدره (ماركس) و (انجلس) ان البغاء بانواعه ، البغاء الخاص والبغاء العام ، البغاء المشروع وبيوت الخنا كل ذلك يتلاشى في عصر الاشتراكية وزوال سلطة الرأسمالية ، حينئذٍ ينشأ في العالم جيل جديد بالغ راشد مؤلف كما يقول (انجلس)[٢] من رجال لم تسنح لهم فرصة في العمر يشترون فيها بالمال او بغيره من الوسائل الاقتصادية استسلام المرأة لشهواتهم وجيل من النساء لم تسنح لهن فرصة في العمر

(١) Elements of Socialism, p. 246.

(٢) The Family Private Property & the State, Chap. III.

يستسلمن فيها لاي رجل لسبب من الاسباب غير الحب او يرفضن هذا الاستسلام لمن يحبهن خوفاً من العواقب الاقتصادية

وقصارى القول ان الاشتراكيين الاقحاح يصرّون على القول انهم ليسوا اعداء الزواج ولا خصوم الاسرة بل هم اضداد ما تولده الرأسمالية فيهما من سوء الاستعمال

***

لكن الخطة التي سارت عليها حكومة السوفيت الروسية لا تدع مجالاً للشك في مذهب الشيوعية في القضية الشقية . ففي بلاد الروسيا اليوم لا يوجد — امام القانون — زواج او اسرة بالمعنى المفهوم ، وان وجدا فبقوة العادة والاستمرار ، لان المرأة التي تسجل اسمها في الحكومة انها زوجة زيد من الناس اليوم يحق لها بعد مدة معينة اذا شاءت ان تذهب الى دائرة الحكومة فتسجل اسمها انها زوجة بكر او خالد وما ينطبق على المرأة ينطبق على الرجل طبعاً ، والوجه الجديد في هذه الطريقة — وهو ما يختلف عن الطريقة القديمة المألوفة — هي المساواة التامة في الحرية والاختيار بين الرجل والمرأة

وعلاوة على ذلك لحكومة السوفيت قد فتحت مستوصفات عمومية في الحواضر الكبرى يؤمها الحوامل للاجهاض ، واعتبرت الاطفال بعد بلوغهم السنة الثانية من العمر ملكاً للدولة

ومما هو حري بالتدوين ان هذا الانقلاب المتطرف في الافكار لم يخل من تأثير في القضاء ولو كان في بلاد محافظة كالبلاد الانكليزية . فمنذ اشهر قرأنا في البرقيات العمومية حديث الاجهاض وتجاوز القاضي عن المجهض وجاء في قضية الجندي (جون بلاس) وزوجته (جندلين رسل) وحبيبها الدكتور (شارل فردريك سيرل) وهي قضية طلاق بسبب هذا الحب ظهرت في المحاكم الانكليزية في شهر مارس الماضي ان قال الماضي المستر (ماكاردي) في الرد على المحامي عن الزوج ان السيدة (بلاس) حرّة يبيح القانون الانكليزي لها الخروج من المنزل متى شاءت وان المرأة المتزوجة لها اليوم مطلق الحرية في ترك زوجها متى شاءت . فلما اعترض المحامي بقوله ان القانون الانكليزي يبيح للرجل المتزوج ان يقول لزوجته « عليك ان تمكثي معي » اجابه القاضي مستنكراً « وهل تقصد ان تقول ان للزوج في الوقت الحاضر ان يغلق على زوجته باب غرفتها ويقول لها انه سيبقيها فيها ؟. . . . انك تسعى لتعزيز الرأي القائل اذا خرجت الزوجة لمأدبة عشاء او سافرت لتمضية نهاية الاسبوع مع صديقة لها رغم ارادة زوجها فان الضرر — بالمعنى القانوني — يقع لانها لم تحصل على موافقته ورضاه ، ولكن هذا يجعل المرأة المتزوجة اسيرة . . . . واذا كان هذا رأيك فانني لا ارى ما هي الحقوق التي تتمتع بها المرأة المتزوجة اليوم . . . . واذا كان البيت ملكاً للزوجة كما هو الحال في قضية السيدة

(بلاس) فلها ان تخرج منه لا الغرباء فقط بل زوجها ايضاً »

﴿ استقلال المرأة عند الاشتراكيين ﴾ : يراد باستقلال المرأة ان تحصل على رزقها بعرق جبينها خارج حلقة الاسرة الا في وقت حملها ووضعها وهو سنة كاملة يسلم الطفل في نهايتها الى روضة الاطفال ، حيث يهيأ الطعام في مطبخ عام ويتم التنظيف على ايدي اخصائيين وتعتني الممرضات والمعلمات بالاطفال منذ الشهر السادس من أعمارهم الى ان يذهبوا اما الى المدارس الكلية او الى دور العمل والصنعة ، والمطلوب ان يكون اليوم المدرسي مطابقاً لليوم العملي فيخرج الآباء والابناء من بيوتهم ويرجعون اليها في وقت واحد . والمطلوب بحسب هذا المنهاج تحرير المرأة من اتعاب الاسرة وتحقيق استقلالها عن الزوج باشتغالها للحصول على الكسب وهذا كله يؤدي في آخر الامر الى الحيلولة دون اجتماع افراد الاسرة الاجتماع الكافي الذي يقوي اواصر المحبة والعطف بينهم ثم الى ابطال البيوت الخاصة والمعيشة الاجتماعية العائلية

ويحتج انصار هذا المذهب لمذهبهم ببرهانين اثنين الواحد اقتصادي والآخر بيولوجي حيوي . اما الاقتصادي فما يزعمونه من التوفير الذي يتم بالمطابخ العمومية والخدمات المشتركة واما البيولوجي فما يظنونه من ان تعليق المرأة على الرجل في حياتها وشؤون معيشتها اكسبها هذا الضعف وجعلها شبيهة بالطفيليات مما لا نجد له شبيهاً في عالم الحيوان حيث الانثى مثل الذكر تحصل على رزقها بكدها وتقوم بأود اولادها بسعيها

***

بيد ان الخطأ في البرهان الاقتصادي هو ان التوفير الذي طنطن به الاشتراكيون امر مشكوك فيه كثيراً واما البرهان البيولوجي فجوابه ان المرأة لا تشبه الاناث في الحيوانات فهي لا تلد الاولاد وتتركهم وشأنهم بل تستمر في تربيتهم الى ان يعتمدوا على النفس وهذا ما يحتم عليها الالتجاء الى الرجل وطلب معونته

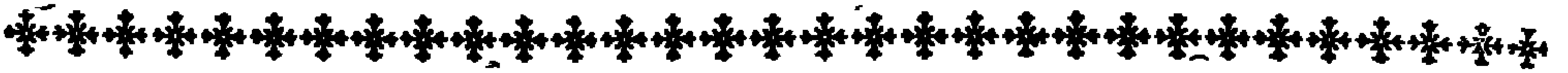
واذا كانت ثمة امرأة لم تخلق للزوجية والامومة فليس من الضروري كما قال الاستاذ (باينندر) ان تنزل الى ميدان الصراع العملي بل هنالك بعض صفات في مثل هذه المرأة يعزها المجتمع ويحتاج اليها وهي صفات لا تثمن بالمال . واذا ارادت سيدة من اهل المواهب ان تجرب مواهبها فلا بأس ان تطرق انواع الابواب التي فتحت امامها في العصر الحاضر ، فالآنسة (هرشل) والسيدة (سمرفيل) و (كونستانس) و (نادن) و (صوفيا كوالفسكي) هن في الرياضيات مثل (مدام كوري) في الطبيعيات وغيرها وغيرها في التاريخ والادب والفن والتعليم آيات محكمات

على ان مسألة النساء اللاء خلقن للزوجية والامومة وهن الاكثرية العظمى يجب ان تسوّى(١) (اولاً) بتقدير الامومة قدرها وطبع كلام الاستاذ (بايندر) في الاذهان وهو اذا كان المطلوب حفظ القوم وان يتمتعوا باسباب التقدم ، واذا كانت تنمية الشخصية هي الغاية الكبرى في الحياة ، واذا كانت هذه الغاية لا تتحقق الاّ في الاسرة فالام هي الفرد اللازم في المجتمع وذلك لانها تحلى العالم بمنحة نادرة وعطية سنية مؤلفة من العناصر العامة على هيئة خاصة من الجمال النادر . (ثانياً) باهمال ذلك البحث السخيف عن أيهما اعظم شأناً المرأة ام الرجل وما يجر هذا البحث المبني على النظريات البالية من استياء فضليات النساء ، فالمرأة والرجل عنصران يتمم الواحد منهما الآخر في تكوين المجتمع كما يتمم الهيدروجين الاوكسيجين في تأليف الماء ولا يوجد كيماوي مهما كان سخيفاً يصرف قواه العقلية في المفاضلة بين هذين العنصرين . واذا كان الرجل رأس البيت فالمرأة قلبه ومن المحال ان يعيش مخلوق من غير هذين العضوين الجوهريين (ثالثاً) بتنظيم الموارد المالية تنظيماً يسمح للزوجة ان تنال قسطاً من ارباح زوجها كافياً . وغير نكيرانها في بعض الاحيان تستولى على جميع موارده او انها لا تنال شيئاً الاّ اذا هو تفضل عليها وتكرم بما يعده منحة ،وهاتان طريقتان فاسدتان لان الرجل الذي يعيش (بخرجية)من زوجته لا يكتسب احترامها كثيراً والمرأة التي تعيش بالمنحة من زوجها ولا تستأمن على شيء هي كالطفل في نظره (رابعاً) بتزويد المرأة بالتربية العلمية التي تؤهلها للاستقلال الاقتصادي قبل زواجها حتى لا تكون عبئاً على اهلها ولا تتواقع بسبب الحاجة على كل خطيب صادفتهُ ، وللامومة بعد الزواج حتى تؤدي الامانة التي خلقت لها في الدرجة الاولى

***

ويسرني ان انهي هذا المقال عن قضية المرأة والرجل بما ذهبت اليهِ السيدة (الن كي) وهي من اشهر من كتب في هذا الموضوع ، فقد ذهبت الى وجوب حصر الاعمال النسوية في منطقة معينة تنطبق كثيراً على روح كلامنا فهي تريد المرأة ان تنصرف بكليتها الى خدمة الحياة العائلية ولا تكتفي فقط بالرضى بقلة الخدم والحشم بل ان تطردهم من عندها لتوقف نفسها على خدمة ابنائها واقرب الناس اليها وان تكون الامومة قطب الدائرة في حياتها وان ينحصر عملها فيما ينمي ابناءها ويكسبهم قابلية وهكذا تصبح شخصية سامية ذات قوة ونفوذ باحترافها اهم حرفة اجتماعية تمارسها بالفهم والنباهة ،وتكون قد زوّدت العالم باهم ما يحتاج اليهِ — زودتهُ بالرجال والنساء الاصحاء النافذين الذين لا يعتمدون على شيء سوى انفسهم

(١) Major Social Problems p. 96.



العوامل الوراثية والغدد الصماء

للدكتور شريف عسيران



— ٢ —

﴿ الغدة الصعترية ﴾ — مركزها في الصدر وراء عظم القص وتمتد الى الرقبة طولها مقدار خمس سنتمترات وعرضها مقدار ٣،٧٥ سنتمتر وهي لا تبقى بعد السنة الثانية من العمر ثم تضمر وتضمحل ووظيفتها الحقيقية غير معلومة وقد نسبوا اليها تأثيراً في نمو الجسم بوجهٍ خاص في نموّ العظام ولكن ذلك لم يتحقق بعد

﴿ الغدتان اللتان فوق الكليتين ﴾ — مركزهما امام القسم الاعلى من الكلية لونهما اصفر وطول الواحدة منهما مقدار ٤—٥ سنتمترات ووزنها مقدار ست غرامات وهما مؤلفتان من طبقتين الطبقة النخاعية والطبقة القشرية ولكل طبقة افراز خاص ووظيفة خاصة ولهما تأثير عظيم في حياة الشخص واستئصالهما يؤدي الى الموت. فالطبقة النخاعية تفرز مادة تسمى الادرنالين اوابينفرين ذات خواص مهمة في تنظيم حركة الجسم فالادرنالين يقوي ضربات القلب ويقلّص الاوعية الدموية ولهذا يستعملونهُ كثيراً في نزف الدم وحين هبوط القلب أثر البنج اوخلافه وقدعزوا اليهِ تأثيراًفعّالاً في عواطفنا فحينما يغضب المرء او يخاف يكثر افرازه فتشتدُّ ضربات القلب ويزداد ارسال الدم الذي هو القوة المسعفة فيستعد المرء ان يحارب او ينهزم ويستمد قوة من زيادة الدم والادرنالين يدفع الكبد في حالات كهذه الى إمداد الجسم بالكليكوجين المخزون فيهِ ليجهز القوة اللازمة وحينما يتعب الانسان يزداد افراز الادرنالين وازدياده يحمل الكبد على زيادة تجهيز الكليكوجين الذي هو مصدر القوة . ولم تتحقق العلاقة بين افرازه والعواطف كالغضب والخوف والحرارة والبرودة فان الانسان حين يخجل يحمرُّ وجههُ بسبب ازدياد الدم وقد نسبوا هذا التأثير الى الادرنالين والادرنالين يستعمل كثيراً في الطب لنزف الدم ومع البنج الموضعي وفي احوال كثيرة لا مجال لذكرها

وقد نسبوا الى الافراز القشري تأثيراً كبيراً في صفات الجنس الثانوية كنمو الشعر ونوع الصوت ويزعم بعض العلماء ان خلل هذا الافراز يؤدي الى تغيير الجنس فيقلب الذكر انثى والانثى ذكراً وينسبون نمو الشعر والشوارب واللحية في بعض النساء الى نقص هذا الافراز ويقولون ان خللهُ يؤدي ايضاً الى سرعة نضوج اعضاء التناسل فيجعل اعضاء تناسل الاولاد

الذين هم بين سن ٤—٦ من العمر يكتمل نموها. واغرب من ذكر من هذا القبيل توماس هول Thomas Hall الذي ولد بولنهام قرب كمبردج بانكلترا سنة ١٧٤١ ومات وعليه امارات الشيخوخة سنة ١٧٤٧ مع انهُ لم يكد يبلغ السادسة من عمره اصلع الرأس مجعد الوجه وقد كتب على قبره الكتابة الآتية « قف ايها السائح وتعجب واعلم ان هنا مدفون رفات توماس ابن توماس ومرغريت هول الذي بلغ الرجولة قبل السنة الاولى من العمر وكان طوله اربع اقدام قبل ان يصير عمره ثلاث سنوات وقد خص بقوة خارقة وتناسب باعضائهِ وصوت رنان ومات بسن السادسة كانهُ شيخ هرم » ويعزون هذا النضوج قبل الاوان الى الغدة الصنوبرية ايضاً

﴿ الغدة النخمية ﴾ —مركزها في قاعدة الدماغ وطولها بضعة ملمترات ووزنها مقدار ستين سنتغراماً وهي مؤلفة من فصين الفص الامامي والفص الخلفي ورغماً عن صغر حجمها ووزنها فان لها سيطرة عظيمة على الجسم ولكل من فصيها تأثير خاص فافراز الفص الخلفي يدعى البتوترين Pituitrin ولهذا الافراز خواص مهمة منها رفع الضغط الدموي وزيادة قوة عضلات الجسم خاصة اعضاء الهضم والتناسل وهو يستعمل بسبب هذه الخواص لتوقيف نزف الدم من الرحم ولاسراع الولادة لانه محرك لعضلات الرحم فيزيد تقلصها وقوتها ويستعمل ايضاً حين شلل الامعاء. والخواص التي ذكرناها تجعله مدرًّا للحليب وللبول وهو يستعمل كثيراً في الطب حقناً تحت الجلد أو بشكل حب. اما افراز الفص الامامي فلم يستحضر بعد ولكن تأثيرهُ في الجسم عظيمٌ وقد وجدوا ان هنالك علاقة بين انواع الغدد الصماء خاصة الغدة الدرقية والتي فوق الكلية وغدد التناسل ولم يتوصلوا بعد الى معرفة كنه تلك العلاقة فكما ان الغدة الدرقية والغدتان اللتان فوق الكلية تؤثران في نمو الجسم هكذا يفعل افراز الفص الامامي من هذه الغدة . فهذا الافراز يؤثر تأثيراً بيناً في نمو الجسم والتحولات الغذائية فاذا كان ناقصاً فان الجسم لا ينمو خاصة اعضاء التناسل وينشأ ما يسمونه الطفالة Infantilism اي بقاء الجسم في حالة الطفولة الى ما بعد البلوغ ويتأخر نمو الفرد جسداً وعقلاً ويرافق هذا النقص تراكم المواد الدهنية الذي يؤول الى السمن وكثيراً ما نرى اناساً قصار القامة ضعيفي النمو متضخمين سمناً وسبب هذه العلة نقص في خلاصة هذه الغدة . وقد جاء في عدد نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٢ من مجلة العلم العام أنهم اجروا تجارب على الصلع في كلية الطب بجامعة الينوي باميركا فوجدوا ان كثيراً من حوادث الصلع ناشئة عن نقص هذه الغدة وقد حقنوا رجلاً مصاباً بهذه العلة من سنة ١٩١٤ فنما شعره في اربعة اسابيع وقد ذكرت عدة حوادث لهذا الداء شفيت باستعمال حقن خلاصة هذه الغدة يوميًّا لعدة ايام وقد ذكر كاتب المقال المذكور شفاء عدة اشخاص مصابين بداء الصلع شفوا باستعمال خلاصة افراز الغدة النخمية

وزيادة افراز الفص الامامي من هذه الغدة يؤول الى المرض المعروف بالضخامة فاذا

حدث الافراط بالافراز قبل تعظُّم العظام اي في سن الحداثة يدعى Gigantism وحصوله بعد ذلك يدعى Acromegaly فتتضخم العظام خاصة عظام الاطراف تضخماً هائلاً وتطول القامة طولاً كثيراً واشهر ابطال هذا النوع من التضخم الناشيء عن هذه العلة تشارلس بيرن Charles Byrne الإرلندي فان هيكلهُ العظمي معروض في معرض كلية الجراحين الملكية بلندن وقد ذكر السر ارثر كيث العالم الانكليزي المشهور ان طوله ٧ اقدام و ٨،٤ البوصة وكان طوله في حياته ثماني اقدام وبوصتين . وقد حقنوا الجرذان بخلاصة هذه الغدة فنمت ضعف حجمها الاعتيادي

﴿ الغدة الصنوبرية ﴾ — ومركزها في قاعدة الدماغ ووظيفتها غير معلومة ويقولون انها كانت فيما مضى عيناً ثالثة في الحيوانات البرمائية (الامفيبية) ويوجد في زيلاندا الجديدة حرذون لا يزال حيًّا وله عين ثالثة في أعلى رأسه وقد نسبوا اليها تأثيراً في السيطرة على نمو اعضاء التناسل ففقدانها يجعل اعضاء التناسل تنمو بسرعة هائلة فتبلغ في الطفل الصغير حجم البالغ او ما يزيد عن ذلك ولم تحقق الاختبارات هذه النظرية

﴿ الغدد المشتركة ﴾ — الغدد المشتركة هي التي تفرز نوعين من الافراز خارجيًّا وداخليًّا فالخصيتان والمبيضان يفرزان الحيوانات المنوية والبيضات وقد بحثنا عنها مفصلاً ويفرزان علاوة عن ذلك افرازاً داخليًّا يذهب الى الدم رأساً ويؤثر تأثيراً محسوساً في نشوء صفات الجنس الثانوية وقدمرَّ ذكرها. فلو نزعنا من ذكر صغير اعضاءه التناسلية لم تظهر فيهِ صفات الذكورة الثانوية وكذلك اذا استئصلنا اعضاء الانثى التناسلية لم تظهر صفات الانوثة الثانوية وقد وجدوا في الحيوانات امراً غريباً وهو اننا اذا استأصلنا من انثى صغيرة جدًّا اعضاءها التناسلية لم تظهر فيها صفات الانوثة الثانوية بل تظهر فيما بعد صفات الذكورة والعكس بالعكس. وقد استنتجوا من ذلك انهُ لا يوجد حد فاصل بين الذكورة والانوثة كما يوجد فاصل بين الابيض والاسود وسنة ١٤٧٤ حاكموا ديكاً في بلدة بال بسويسرا لانهُ باض بيضة فنسبوا اليهِ السحر وحرقوه في الساحة العامة وقد تمكن الدكتور Dr. Michael F. Guyee استاذ علم الحيوان بجامعة وسكنسن من ان يجعل الديك يبيض بيضة باستعمال طرق اصطناعية وكذلك جعل اسكار ردل من معهد كارنيجي ذكر حمام يبيض بيضة . وقد استندا في عملهما الى الحقيقة الآتية ان جانباً صغيراً من الغدة التناسلية في ذكر العصافير انثى اي فيهِ خاصة من خواص الانثى ويكون عادة موجوداً بصورة غير فعالة فاذا استئصلنا معظم غدة الذكر التناسلية تلاشت صفات الذكورة ثم ينمو هذا الجزء اليسير من الانوثة ويجعل الذكر انثى والعكس بالعكس وبهذه الطريقة تمكن العلماء ان يجعلوا الديك يبيض بيضة وقد يحصل هذا المظهر بصورة طبيعية اي يضمر معظم غدة الذكر او الانثى التناسلية وينمو الجزء اليسير

المعاكس لتلك الصفة فينقلب الذكر انثى والانثى ذكراً ويسمى ذلك الانقلاب الجنسي الكامل ويقولون ان صفات الانوثة والذكورة درجات مختلفة تتراوح بين الزيادة والنقصان فتكون في بعض الافراد اكثر من مائة في المائة وفي آخرين اقل ولهذا نرى بعض الاشخاص متناهين في الانوثة اوالذكورة ونشاهد عكس ذلك في غيرهم فكم من اناث يشبهن الرجال بصوتهن ونمو شعرهن الى غير ذلك وكم ذكور يشبهون الاناث ويعزى ذلك الى زيادة او نقص صفات الانوثة او الذكورة في اشخاص كهؤلاء

ان افرازات اعضاء التناسل الداخلية تؤثر في نمو الجسم والعقل فاستئصالها في الصغر يؤول الى تأخرها وقد عزوا اليها قوة الانسان ونشاطهُ وبلوغهُ الشيخوخة وعلى هذا المبدأ جروا في تجديد الشباب فادعوا ان تلقيح الشيخ بغدة شاب يعيد اليهِ شبابه وقواه العقلية ويطيل حياتهُ واستعملوا لذلك غدد الشمبانزي وهناك طريقتان الاولى عملية شتيناخ النمساوي وهي ان يربط القناة المنوية فينقطع الافراز الخارجي ويتقوى الافراز الداخلي فيعيد الى المرء قواه ونشاطهُ . والدكتور فرونوف الروسي يلقح القرد بغدة حيوان آخر بعد ان يستأصل الغدة الهرمة واكثر غدد الحيوانات استعمالاً غدد الشمبانزي. فعمليات كهذه تعيد الى المرء بعض قواه الحيوية وتجدد نشاطهُ بعض التجديد ولقد بالغوا في تأثيرها مبالغة جعلتنا نحلم بالشباب الدائم بواسطة هذه العمليات ونعتقد اننا صرنا بمأمن من غائلة الشيخوخة ومما لا شك فيهِ ان لهذه الغدد تأثيراً كبيراً في شخصية الفرد وقد اثبتنا ما هو محقق علميًّا ولم نفسح مجالاً للمبالغات المبنية على الدعاية والغايات التجارية ولا تزال الاسرار تحيط بهذه الغدد ولا بد ان يكشفها العلم غداً او بعد غد وعلينا ان لا نعول الا على الحقائق العملية المدعمة بالتجارب وقد نسبوا اختلاف اصناف البشر الى اختلاف افرازات هذه الغدد كما نسبوا اليها الشيء الكثير مما لا حاجة الى ذكره

بقي علينا غدة واحدة لم نذكرها وهي ان البنكرياس ومركزها خلف المعدة وهي التي تفرز العصارات الهضمية الى الامعاء الدقيقة وتفرز افرازاً داخليًّا اسمهُ الانسولين اكتشفهُ الكنديّان بانتنغ ومكليود سنة ١٩٢٧ ويعالجون بهِ البول السكري وهو لا يشفيهِ الشفاء التام بل يكون المريض في مأمن منهُ طالما هو يستعمل الانسولين

ان العوامل الوراثية هي الاصل في منشأ هذه الغدد فاختلافها يختلف باختلاف العوامل ولكن العوامل تؤثر تأثيرها بواسطة افرازات هذه الغدد والفرق بين العوامل والافرازات الداخلية ان الاولى تحدث تأثيرها في ادوار الحياة الاولى والثانية في ادوار الحياة المتأخرة وهي الوسيط بين العوامل الوراثية وكثير من الصفات الناشئة عنها

الكوميديا الالهية

نشأتها وتطورها — الموازنة بين رؤيا يوحنا — ورحلة رع

الكوميديا الالهية عَلَمٌ على القصة الشعرية الخالدة التي نظمها دانتي عن رحلة تخيل انه رحلها في العالم الثاني وقد اخترت هذا الاسم عنواناً لهذا المقال لطرافته ومطابقته لموضوعه

لست أريد البحث في القصص التي تناول فيها كتّابها وصف العالم الثاني من حيث ما فيها من ابداع في الوصف وقوة في التخيّل ومتانة في الاسلوب وانما لي وجهة أخرى هي التحري عن أصل فكرة العروج الى العالم الثاني ووصفه والبحث عن منشأ هذا الخيال

سبق دانتي كثيرون من مواطنيه الى الموضوع ويظن انه أخذ عنهم الفكرة لكن يزعم بعض كتاب العرب ويشايعهم على ذلك فئة من المستشرقين ان مبدع هذا الخيال هو ابو العلاء بما جاء في رسالته الغفران من ذكر احوال العالم الثاني ووصف الجنة والنار ثم انتقلت الفكرة الى اوربا بعد ما احتكّ الافرنج بالمسلمين في الحروب الصليبية وترجموا علومهم وفلسفتهم الى لغاتهم حيث تأثر بها دانتي وغيره من كتّاب الافرنج . لكن هذا الرأي ضعيف فانك لا تجد بين رؤيا دانتي ورسالة الغفران وجهاً للشبهِ الاّ في الموضوع اما في السياق فهما جد مختلفين فأبو العلاء يصف العالم الثاني على لسان صاحب له ويذكر مباحثتهُ لأهل هذا العالم من الكتّاب والشعراء المتقدمين في الأدب ونحوه وجل قصده من ذلك السخرية بهم ولم يعرض لأحوالهم من حيث ماهم فيهِ من شقاء او نعيم الاّ بالقدر الذي ينسجم مع هذا القصد. انظر حديثهُ مع الخنساء كيف يقول أنها أحبت ان تنظر الى اخيها صخر فاذا هو في الجحيم كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسهِ فيقول لها اخوها اذ يراها لقد صح مزعمك فيّ مشيراً الى قولها من قصيدة في رثائهِ :

وان صخراً لتأتم الهداة بهِ   كأنهُ عَلَمٌ في رأسهِ نار

وغاية ابو العلاء ان يوكس من شاعرية الخنساء بهذا البيت فصور لها أخاها بالهيئة التي تصفها كيف يكون

اما دانتي فيصف في سياق رؤيا تخيل انهُ رآها رحلة له في العالم الثاني واسهب في ذكر احوال اهله وما هم فيهِ من عذاب او نعيم وتناول في احاديثه معهم شتى المسائل من دينية وفلسفية واجتماعية التي كانت تشغل اهل زمانهِ وكشف في كل مسألة عن رأيهِ وكان هو من دعاة الاصلاح يدين بآراء حرة نفي بسببها من وطنهِ فلورنسا

وثم خلاف آخر بين رسالة الغفران ورؤيا دانتي ذلك ان رسالة الغفران تتناول الماضي اما رؤيا دانتي فهي تستغرق من الزمن أسبوعاً ابتداؤه اليوم الثامن من ابريل سنة ١٣٠٠ فما

وقع قبل هذا التاريخ فهو من الماضي وما وقع بعده فهو من الغيب وهو يرويه كنبوءة عن المستقبل

وعلى هذا يكون القول بان دانتي أخذ فكرة الكوميديا الالهية عن ابي العلاء غير قائم على سند قوي. وفي ظني ان دانتي انما اخذ الفكرة لرؤياه عن سفر الرؤيا وهو الكتاب المنسوب الى الرسول يوحنا صاحب الانجيل المسمّى باسمهِ . ووجوه الشبه بينهما التي تؤيد ذلك كثيرة فاولاً ان كليهما رؤيا وثانياً ان لكل من الكاتبين دليلين في رحلته يقودانه ويفسران له مايراه واحد للعالم السفلي والآخر للعالم العلوي فليوحنا قبل عروجه الى السماء دليل يصفهُ بانهُ شبه ابن انسان ولدانتي فرجيل وليوحنا دليل في السماء من الملائكة ولدانتي بياتريس وهي فتاة كان الشاعر يحبها ثم ماتت قبل ان يتزوجها فحزن عليها وخلدها في قصائده وجعل مقرها السماء . وثالثاً ان رؤيا يوحنا تتناول زمنين الماضي والمستقبل فما قاله شبه ابن الانسان يتعلق بالماضي وما سمعه من الملك في السماء يتناول المستقبل وقد تقدم ان رؤيا دانتي هي كذلك تتناول زمنين

هذه هي الاوجه التي تجعلني اظن ان دانتي قد نسج رؤياه على منوال رؤيا يوحنا ثم اني أحسب ايضاً ان غير دانتي من كتاب الافرنج الذين نحوا هذا النحو وابا العلاء وسواه من كتّاب العرب الذين عرضوا لوصف الجنة والنار فيما حاكوا من قصص حول حديث المعراج قد تأثروا بهذا السفر كذلك على ان المجال لايتسع الآن لعمل موازنة تثبت ذلك

لكن سفر الرؤيا ليس اقدم كتاب في موضوعه ولا ما يتضمنهُ من خيال اول خيال من نوعه فقد كان عند اسلافنا الاقدمين قبل يوحنا بآلاف السنين رحلة لرع اله الشمس كانوا يعرفونها باسم (آم دوات) اي ما يرى في العالم الثاني اذ كانت عقيدتهم ان السماء مرتكزة على جبلين احدهما غربي اسمهُ مانو والآخر شرقي اسمهُ باخو وان بها نهراً يخترقها من المغرب الى المشرق خلق صنواً لنهر النيل يوم خلقت الدنيا أُعد لتجري عليهِ سفينة رع اله الشمس في رحلتها اليومية في عالم الظلمات . وهذا العالم ينقسم الى اثنى عشر منطقة بعدد ساعات الليل من وقت غروب الشمس الى شروقها . لكل منطقة باب عليهِ حارس لا يأذن لاحد باجتيازه الا لمن يعرف اسمه . واخبار هذه الرحلة وما يتعلق بها من مناظر وأسماء سدنة الابواب منقوشة على جدران مقبرة سيتي الاول مساعدة للميت على اجتياز هذه المفازة الوعرة

ومما هو جدير بالملاحظة وهو مثار للدهشة ان سفر الرؤيا يشتمل على كثير من مشاهد هذه الرحلة كما ستتبين ذلك بعد من الموازنة بينهما .

رؤيا يوحنا ورحلة رع

يقول صاحب الرؤيا في الاصحاح الرابع «وللوقت صرت في الروح واذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد» . والعرش بهذا الوصف كثير الشبه بسفينة رع فكلاها عليه جالس وكلاها له زينة

حوله من خطوط مختلفة الوانها فقد جاء في وصف السفينة انها مزينة من الخارج في خطوط افقية بألوان الجمشت وهو حجر كريم لونه بنفسجي والزمرد ولونه اخضر مائل الى الزرقة واليشب ولونه اخضر لامع واللازورد وهو ازرق والذهب وهو اصفر ويتألف من مجموع هذه الالوان مايشبه قوس قزح . والسفينة رمز لقرص الشمس والالوان حولها تمثل الشفق وكان الاقدمون يضعونها في معابد أمون رع في قدس الاقداس ويتوجهون اليها بالعبادة . واغلب الظن ان عادة وضع الزوارق في المساجد واضرحة الاولياء هي بقية من عقائد الجدود ولم يمحها كر السنين ولا تغير الدين لاسيما وان احدها وهو الموجود في مسجد ابي الحجاج الاقصري القائم على اطلال معبد أمون له سمة سفينة رع بما يغشاه من الوان

ويقول صاحب الرؤيا بعد ذلك في الاصحاح نفسه « وامام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هي سبعة ارواح الله وقدام العرش بحر زجاج شبه البلور وفي وسط العرش وحول العرش اربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدام ومن وراء والحيوان الاول شبه أسد والحيوان الثاني شبه عجل والحيوان الثالث له وجه مثل وجه انسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر

وفي الاسطورة شيء يقرب من هذا كثيراً وذلك في سياق وصف المنطقة السادسة المسماة منطقة المياه التي لا قرار لها حيث جاء فيه « وهناك اي على شاطىء النهر ثلاثة عروش تحرسها ثلاث حيات يندلع من افواهها لهيب نار وعلى العروش صور غريبة لن يصل الناس الى ادراك كنهها : على احدها رأس انسان وعلى الثاني جناح طائر وعلى الثالث كفل سبع

وفي الاصحاح الثالث عشر يقول صاحب الرؤيا « ثم وقفت على رمل البحر فرأيت وحشاً طالعاً من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تجديف » وفي الفقرة العاشرة من هذا الأصحاح « واعطى اي الوحش ان يعطي روحاً لصورة الوحش» في المنطقة السادسة الآنفة الذكر نظير لهذا الوحش واليك ما جاء في الاسطورة عنهُ : «هنا تعيش الحية العظيمة ذات الخمسة رؤوس وبين مطاويها يقف خابي رع الله البعث وعلى رأسه التاج وتحت قوائمه علامة الحياة التي تخول له ان يبعث الموتى وهو سوف يبعث رع ويرد اليه الحياة»

لا خلاف بين الروايتين الا في الأسماء فما يسميه يوحنا اسم تجديف وهذا اللفظ يكنى به عند المسيحيين عما يعبد من دون الله هو في الأسطورة خابي رع وما يسميه صورة الوحش هو رع

ويقول صاحب الرؤيا في الأصحاح الحادي والعشرين « واما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الاوثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت » . وفي المنطقة الخامسة من الدوات المسماة الخبيئة بحيرة كهذه ماؤها حميم دائمة الغليان أعدت لاعداء رع والخازن عليها صل مجنح له ثلاثة رؤوس وبين اجنحته يقف سقر Sokar وهو في هيئة رجل له رأس صقر وهو الذي يتولى تعذيب الخطاة . واني أرى بهذه المناسبة من مشابهة لفظة سقر العربية وهي علم على جهنم لاسم خازن النار في اعتقاد

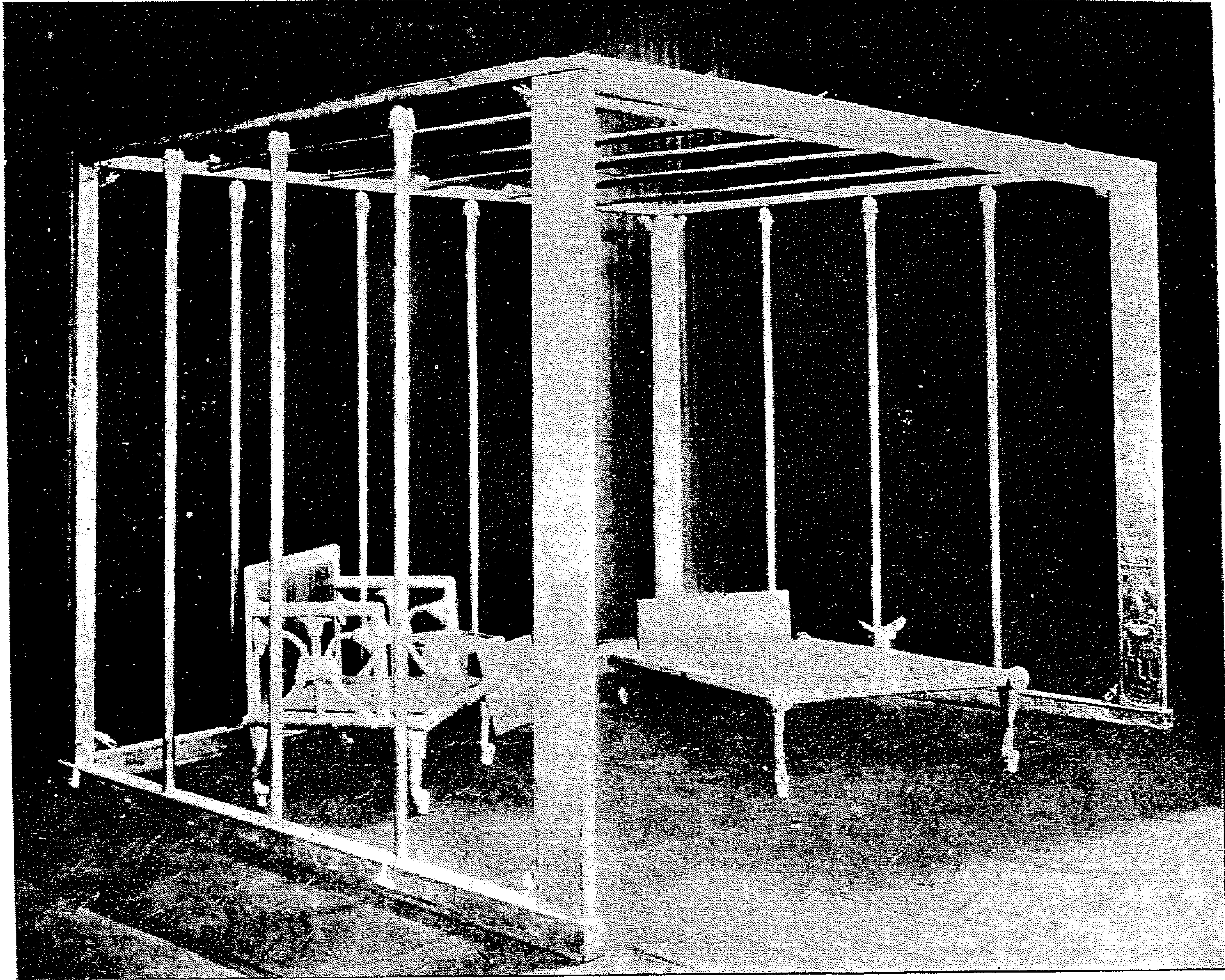
الاقدمين على ما بينهما من علاقة معنوية ما يحدو الى الظن بان اصل اللفظ العربي هو ذلك الاسم المصري

ويقول صاحب الرؤيا في الاصحاح العشرين « ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معهُ مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو ابليس . والشيطان وقيدهُ الف سنة وطرحهُ في الهاوية واغلق عليهِ وختم عليه لكي لا يضل الامم في ما بعد حتى تتم الالف السنة وبعد ذلك لا بد ان يحل زماناً يسيراً »

وفي الاسطورة حديث كهذا في سياق الكلام عن المنطقة السابعة المسماة الحفرة السرية حيث تقول : «يعيش في هذه المنطقة أپيب يلقي فيها الرعب ويملأُها بالمخاوف. وهو تنين عظيم هائل فاغر فاه ليشرب ماء النهر حتى تتحطم السفينة ويهلك رع فتسود من ثمَّ على الارض قوات الظلام ويتقلص ظل الآلهة امام شوكة الخطية. على انه لا خوف على السفينة فان ايزيس الربة العظيمة محيية الموتى التي يدين لها الناس بالحب والعبادة واقفة في مقدمها باسطة ذراعيها تتمتم بكلمات القدرة يعيش أپيب على شاطىء رملي في وسط النهر يزمجر فيرتج الدوات بصوته الا ان ايزيس التي لا يعرف الرعب الى قلبها سبيلاً تظل رابطة الجأش تعزّم وتشير بيديها اشاراتها السحرية فيجمد التنين في مكانه ويعجز عن الحركة. عندئذٍ يهبط عليهِ من السفينة سلك وحردسيف فيوثقانه بالحبال ويثخنانه بالمدى وفي هذه الفترة بينما هو يتلوّى على الرمال في قيوده تتابع السفينة سيرها في أمان حتى اذا جاوزت السفينة هذه المنطقة عاد أپيب الى سابق شأنه ووقف لها بالمرصاد ليهاجمها كدأبه فيفعل به سلك وحردسيف ما فعلاهُ من قبل لان أپيب خالد لا يهلك بالمدى او يضار »

لا خلاف بين الروايتين الاّ ما يقتضيه اختلاف العقائد من اختلاف الاسماء والسياق اما الجوهر فواحد فكلاهما يحدث عن حية قديمة والمراد هنا بالقدم الخلود يخشى منها على العالم ان تضله فتعتقل فترة من الزمن ثم تحل بعد ذلك. وفي الاصحاح الثاني عشر يقول صاحب الرؤيا «وظهرت آية اخرى في السماء هو ذا تنين عظيم احمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى رؤوسه سبعة تيجان وذنبه يجر ثلث نجوم السماء». لهذا التنين نظير في المنطقة الحادية عشر المسماة فوهة الكهف وتحدث الاسطورة عنه فتقول: «هناك على الجانب الاقصى من النهر النجوم و«شيدو» بينها وهو في هيئة افعى قرمزية ارجوانية يتألف بدنها من عشرة نجوم »

ويقول صاحب الرؤيا في الاصحاح الحادي والعشرين « وذهب بي — اي الملك — الى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة اورشليم المقدسة نازلةً من عند الله ولمعانها شبه أكرم حجر كحجر يشب بللوري» ثم يزيدنا عنها بياناً بقوله « وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم الاساس الاول يشب الثاني ياقوت ازرق الثالث عقيق ابيض الرابع زمرد ذبابي الخامس جزع عقيقي السادس عقيق احمر السابع زبرجد الثامن زمرد سلقي التاسع ياقوت اصفر العاشر عقيق اخضر الحادي عشر اسمانجوني الثاني عشر جمشت »



اثاث غرفة نوم للملكة هتب هرس والدة خوفو باني الهرم الكبير اهداها اليها الملك سنفرو وذلك من
نحو خمسة آلاف سنة اكتشف هذه الآثار ورممها الاستاذ ريسنر الاميركي

تشبه هذه المدينة في زينتها وفي كونها تنزل من السماء عند جبل عال سفينة رع لدى مطلعها في الافق من المشرق عند جبل باخو وهي مزدانة بأبهى الالوان تتلألأ بالانوار

ثم يقول الرسول بعد ذلك « والمدينة لا تحتاج الى الشمس ولا الى القمر ليضيئا فيها لان مجد الله قد انارها » ويقول ايضاً « وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً « هوذا مسكن الله مع الناس وهو يسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الهاً لهم »

هذا الوصف لا ينطبق على شيء انطباقه على سفينة رع فانها بحسب اعتقاد الاقدمين مسكن آله الشمس وهو الذي ينيرها ومتى تظهر في الافق يصبح الاله مع الناس فترتفع من الارض الاصوات بتحيته وتلهج السن الخلق بتمجيده

يخلص لنا مما تقدم ان رحلة رع هي اقدم ما كتب في وصف العالم الثاني في سياق رحلة. وقد رأينا من وجوه الشبه بينها وبين رؤيا يوحنا ما يحمل على الظن بأن يوحنا كان يعرفها وتأثر بها. ولكي تتم الفائدة سأجتزىء من سيرة الرسول يوحنا بنبذة تبين كيف تهيأ له ان يعرف اساطير الاولين

يوحنا احد الحواريين اتخذ افسس مقراً له وهي بلدة بآسيا الصغرى وانشأ يبشر بالدين الجديد في تلك البلاد وكانت تابعة لرومية فلما نما خبره الى الامبراطور وهو اذ ذاك دوميتيانوس وكان وثنياً ينطوي على اشد العداء للدين الجديد امر بنفيه في سنة ٩٥ للميلاد الى رومية ثم الى جزيرة بطمس حيث كتب الرؤيا. وقد قضى في النفي نحو سنتين لان دوميتيانوس قتل في سنة ٩٦ فعاد يوحنا في السنة التالية الى افسس حين كتب انجيله ورسائله. ومما هو جدير بالنظر انه في زمن هذا الامبراطور شيدت في العاصمة الرومانية المعابد لاوزيريس وكان يعرفه الرومان باسم سيرابيس والالهة ايزيس وهما من آلهة المصريين اذ يحدو ذلك الى الظن بأن الديانة المصرية كانت راسخة البنيان في تلك البلاد ويكون من المحتمل اذن ان يوحنا وهو في منفاه في ديار الوثنية قد الم بطرف من اساطير الاولين ووقف على آرائهم في العالم الثاني فكتب رؤياه وهو متأثر بخيالهم وافكارهم فخالطها شيء من ذلك كما رأينا

ولما انتشرت المسيحية وبلغت الكنيسة الذروة من السلطان في القرون الوسطى تأثرت الفنون والآداب بالدين واصطبغت بصبغته اذ أنشأ الكتاب ورجال الفن منقادين بعاطفتهم الدينية او متزلفين لرجال الدين يستوحون القصص الدينية ويلتمسون منها مادة لهم. ومن المواضيع التي استرعت انتباه الادباء وحفزت خيالهم وصف العالم الثاني الذي جاء به سفر الرؤيا فاخذوا يحاكونه وينسجون على منواله. ومن ثم اصبحت الكتابة في هذا الموضوع عملاً فنياً لا يمت الى الدين بسبب

وبعد فهل ينصف الادباء حين يعرضون لدانتي أو غيره من كتّاب الكوميديا الالهية فيذكرون مصر وقد ثبت انها هي التي ابتدعت هذا الخيال ويعرفون لها فضل المتقدم ؟ انا لنرجو ذلك وما هو بعزيز عليهم متى تجردوا من الغرض وكانوا كراماً.

ناشد سيفين

قصة مصرية

مدينة الاحلام

للدكتور ناجي

— ١ —

في صباح يوم من ايام الشتاء كانت حارة علام بقرب شارع محمد علي قذرة مترا كمة الاوحال وكان البقال عبد الدايم يفتح حانوته وبائعة اللبن تقرع باب المنزل المجاور . ومرت بضع عربات كارّو . واخذ صاحب القهوة البلدي المواجهة للمنزل يصفّ كراسيه وموائده ويسعل سعالاً جافاً. وتبادل البقال عبد الدايم والمعلم سلام صاحب القهوة التحيات المعتادة وظلت بائعة اللبن تقرع الباب على غير فائدة . فصاح بها البقال «الجماعة عزّلوا» فتحركت ورقة «للايجار» المعلقة بالشرفة كأنما تثبت وجودها وتؤكد كلام عبد الدايم

ثم زادت الحركة بالحارة ونزل الصبية يجعلون من الوحل ميداناً ومن البرك ملاعب يسبحون فيها وجاء الباعة ينادون على بضاعتهم وجلس بعض النسوة على جانبي الطريق يبعنَ طعامهن القذر . ويجمعن الذباب وينشرن الاوبئة . واخيراً تمت صورة كاملة من صور تلك الحواري البائسة المنسية وكانت الشمس لم تبدد تماماً الضباب المخيم على ذلك الحي فكان الجو صافياً من ناحية وغائماً من ناحية اخرى ومهدداً بمطر جديد تعلو بهِ الاوحال وتتسع البرك

وماذا يهم ذلك اوحال او برك وغيم اوصفاء وضنك مخيم او عدل شامل اذا طلع الصباح فتح عبد الدائم حانوته والمعلم سلام قهوته وجلست ام آمنه بائعة البرتقال بعشتها فاذا انصرم النهار آبوا جميعاً الى مساكنهم المريعة ليعودوا في اليوم التالي وتجري الحياة مجراها في الرزق الضيق والبلاء الواسع

كان المعلم سلام يصيح بصبيه غاضباً ويلعن اليوم الذي جاء فيهِ الى القهوة ثم يتبع ذلك بسعاله الجاف والبقال عبد الدايم يزن رطلاً من الصابون ويحلف انهُ لا يوجد ادق من ميزانه ولا احسن من ذمته وكان الذباب يحتفل على مشنة ام آمنه فاذا دفعته قائلة «هش» جمع جموعه وعاد يغطي البرتقال الصغير الجاف المنقوط . كان يحدث هذا في حارة علام لما اقبلت عربة كارو تحمل امتعة ووقفت امام المنزل الخالي . فترك البقال الميزان وترك المعلم سلام صبيه وترك الذباب مشنة ام آمنه وانضم اليهِ بعض الصبية ومضوا في موكب ليروا من الساكن الجديد ولينظروا نظرة تقديرية الى الامتعة من صحاحير وحلل وكنبات وكراسي ودواليب

وفي الحق لم تكن تلك الامتعة دالة على الفاقة بل دالة بشكلها وصبغتها الحائلة على عز قديم وفقر جديد

وكان يرافق العربة شاب على دراجة وكنت ترى على بذلته وحذائه طابع الفقر ولكنك كنت تلمح في الياقة النظيفة والقميص الابيض وفي وضع الطربوش ورباط الرقبة رمز الاصل السليم وتؤمن بذلك وهو ينزل عن دراجته ويمضي الى الباب ليفتحه

لقد كان يمشي مشية الامير المخلوع وينظر الى الحي الفقير نظرة طويلة مستسلمة

صعد امين سليم سلم الدرج الخشبي في المنزل المكون من طابقين كلاهما خالٍ ولكنهُ اختار اعلاهما ونادى على الحوذي ان يحل الامتعة ويضعها في ردهة الطابق الارضي فاستعان الرجل بزميله واخذوا يراكمونها . فلما انتهوا من عملهم اخذ امين يبحث في جيوبه عن الاجر — والرجل ينظر اليهِ نظرة النسر يريد ان ينقضّ ويعد نفسه للعراك ويتحفز لهُ

لقد كان الرجل متفقاً على اجر معلوم . ومع ذلك فهو من تلك الفئة السافلة المجرمة التي تضطرها الفاقة ان لا تحافظ على قول ولا تبقي على ميثاق. ومع ذلك فهي فئة تأسرها الضحكة الطيبة والكلمة الرقيقة وفيها كثير من الخلال الكريمة والنخوة والاريحية. وكان امين ذكيّا يفهم ذلك اتم الفهم . فبسط اليه ضاحكاً ضحكته الوديعة ، كل « الفكّه » التي في جيبه قائلاً « اللي انت عاوزه خده » فخجل الرجل النسر وتدلى منقاره في دلة وتوارت شراسته واكتفى بأجر يزيد زيادة معقولة واخذه وانصرف. وبعد قليل جاءت عربة تحمل سيداً وسيدةً وخادماً . وكان السيد شيخاً قارب السبعين ، يحمل وقار مجد سالف فوق وقار السنين ، فوق وقار الصبر الذي ارتسم في تجاعيد وجهه ، وكانت السيدة اقل منه سنّا ، لا تزال تحتفظ بالبرقع الابيض، وبمسحة من جمال ذاهب وبقية من كبرياء اناخت عليها السنون

اسرع الخادم وقرع الباب لهم ووقف امين على عتبته مرحّباً . وساعد الوالد والوالدة على النزول من العربة . فلما دخلوا المنزل ، وصعدوا الدرجة الخشبية اوشكت الشفاه ان تحتج، ووقفت الدموع المكظومة على طرف المحاجر ذاهلة ، ثلاث غرف صغيرة واخرى في السطح، ونوافذ بالية قديمة تطل على نوافذ مجاورة منغمسة في الذل والظلمة ، وتموج سطوحها بالنسوة هذه تنشر غسيلها ، وتلك تخاصم جارتها وتنشر لها ماضيها القذر

ولكن القلوب النبيلة، شبيهة بأشعة الشمس فهي تنزل بالروضة الجميلة ، كما تحل بالارض الموحلة لا تتغير ولا تكون غير اشعة الشمس . ولكن الغمامة التي مرت على تلك القلوب الكريمة لم تلبث ان تبددت وعادت الاشعة الى الاشراق ، واخذ الجميع يتعاونون على تنظيف المنزل وترتيب الاثاث واختص امين نفسه بغرفة السطح فنقل اليها كتبه وسريره وادواته القليلة

* * *

بعد اسبوع جاء مستأجرون للطابق الارضي ، فوقفت عربة كارو تحمل امتعتهم ، وتلتها

عربة تحمل افراد العائلة ، وهم سيدة كهلة وفتاة رائعة الجمال وخادمة

كانت الساعة الخامسة مساء حين عاد امين متعباً يحمل كتبه ويحمل فوق منكبيه عبء رجولة مبكرة ولم يكن قد علم بعد بالجيران الجدد فلم يكد يصعد الدرج حتى خرجت الفتاة لترى القادم فصاحا في وقت واحد

— سنيه — امين

ولولا ان اطلت رؤوس الوالدين وهي تنظر بعيون مذهولة الى هذا التعارف الفجائي لرأينا عناق الشوق المكظوم واللهفة المستترة اعواماً لا تعد

— ٢ —

منذ عشرين سنة كانت شبرا الجميلة كالزمردة الصافية ، تزهو باليانع الاخضر ،والبساط الرائع الذي هو سحر مصر ، وفتنتها العتيدة التي جرت اليها الغزاة والابطال متنوعين اجناساً ونحلاً . نعم شبرا الجميلة ، التي اكتظت اليوم بالمساكن المتلاصقة وافسدتها المدنية الجديدة ، ونزح اليها خلق كثيرون اشتروا تلك المروج البديعة وابتنوا بها مساكنهم الصغيرة المتقاربة ،كانت بساطاً واحداً قامت في وسطه هنا وهناك منازل اهلينا ، كحمامات بيضاء بسطت اجنحتها ، وهمت ان تطير الى ساقية او قناة او غدير،وكنا نعود من مدارسنا في غروب الشمس ، فنترك كراساتنا وكتبنا في بيوتنا ثم نسرع الى تلك المهاد حيث ربا صبانا ونما مع الغصون النامية ، وحيث تنسمنا الريح الرقيقة ، تجرى الشعر في دمنا ، والحب في ارواحنا ، والصفاء في طبائعنا ، ايام كنا نثب فراشات مع الفراشات الهاربةواشعة مع الاشعة الغاربة ، وما نزال كذلك حتى تخور قوانا فنرجع لنذاكر او ندعي اننا نذاكر ، فاذا كانت ليالي القمر تسللنا خاسة لنرى القمر يطلع على الحقول الساكنة والسواقي الحالمة . فنجلس عند الشجرة فاذا الشجرة تصغي والليل الجميل يرهف اذنهُ الى حديث اطفال يتبدد موجات في بحر ذلك السحر الرهيب سحر القمر والطفولة والمروج

في ليلة من ليالي رمضان التقى صديقنا امين سليم برفقائهِ تحت شجرة الجميز الكبيرة القريبة من الساقية وجلسوا يتنادرون وحديث الصبية لا يعدو المدرسة والمدرسين والامتحان فاذا خرج عن هاتهِ الدائرة فبعض المبالغة والادعاء والفخر والتشبه بالرجال واحياناً يكون سكون الليل وجمال القمر مغرياً باعترافات يتبادلونها همساً شأن الكبار. ففي الليلة التي نحن بصددها كان اكبرهم سنّاً يسخر من امين ويقول « بالكم امين ده اللي انتو شايفينه ساكت ده كل يوم وهو راجع من المدرسة يشتغل خدام لسنيه بنت شكري بك ويشيل لها الكتب بتاعتها » فضحكوا كلهم وصاحوا «حقيقي» فخجل ولم يجب وكان صمتهُ اعترافاً على ان الصبي كان في هذا القمر الناضر جاداً غير عابث وقد حزن لذيوع سره وجعلهِ موضوع دعابةٍ ولبثوا جماً حتى انصرفوا كل الى منزلهِ

قبل هذه الليلة بشهرين وقفت الصبية الجميلة سنية امام باب المدرسة تنتظر الخادم . وكان يبدو في وجهها الناحل سحر وخيال وابهام كل ذلك في سمرة كسمرة الفجر وحمرة على الخدين كحمرة الشفق حمرة تزداد وضوحاً كلما لحظتها أعين الصبية الواقفين عمداً او عن غير عمد ويزيدها حلاوة وغرابة مريلة المدرسة الزرقاء والقبعة النظيفة السليمة الذوق ينساب من خلفها ضفيرتان من الشعر الاسود الحالك . وفي نفس الوقت خرج امين سليم من مدرسته في نفس الشارع ووقف امام باب المدرسة ينتظر الخادم . طال انتظارها لخادمها وطال انتظاره لخادمه فلم يأت هذا ولا ذاك فضجرت وضجر واعتزمت ان تعود وحدها على غير عادة واعتزم كذلك

ومشت الفتاة لا تلتفت يمنة ولا يسرة وتعمل بنصيحة امها « ما تكلميش حد »

وترك الفتى باب مدرسته مهرولاً وكان يرتدي بدلة جميلة غالية الثمن ولكنه كان يبدو عليه الاهمال في ملبسه والتفكير في وجهه العصبي النحيل وكان الطريق الى المنزل يعترضه «مزلقان» وطالما راح القطار وجاء في «مناورة» ثقيلة وربما كنت مسرعاً الى موعد أو مدرسة فوجدت سلم « المزلقان » ينزل في سرعة ويحول دون مرورك ويبدأ القطار الثقيل في الغدو والرواح

ففي هذا اليوم كان الشارع مزدحماً بالباعة والعربات الكبيرة التي تحمل الحجارة والمزلقان قد نزل سلمه والقطار العجيب يروح ويغدو

وفي الساعة التي اختارها القدر وقفت سنيه امام المزلقان ووقف امين وجاء غلام يدفع عربة يد فمست يد سنيه فسقطت كتبها فتناولها امين ولم يعطها اياها بل وضعها الخبيث ساكناً في محفظته فعلت خدها حمرة الشفق وطغت على الحدود المألوفة واطرقت لا تدري ماذا تصنع بعد ذلك رفع سلم المزلقان واخذ الناس يتدفقون ويتزاحمون بالمناكب فاتأد الصبي والصبية ثم جمعهما القدر في سبيل واحد وسارا صامتين زمناً لا حساب له حتى وقفت فجأة فادرك انه قد آن ان يفترقا فاخرج لها كتبها ثم عز عليه ان تمضي بدون ان يتعارفا فسأل

— اسمك ايه — سنيه شكري

— وانا امين سليم — في سنة ايه

— سنة رابعه — وانا كمان

— ساكنه فين — في شبرا شارع . . . .

قريب منا ياريتك تجي مرة في القمر نقعد تحت شجرة الجميز قرب الساقية . . . .

ولاح خيال خادمه من ناحية وخادمها من الناحية المقابلة فصمتا وابتعد وابتعدت......

وصار يراها كل يوم فيتبادلان التحية بالنظر ويتمنيان لو ان الخادمين مرضا او غابا او اصابهما حادث

ثم انقطعت عن المجيء وصار الطريق مقفراً لا يطاق ومضى في ضوء القمر الى الشجرة التي تمنى ان يراها عندها مضى مراراً والحنين اليها يتسع في قلبه حتى صار ناراً آكلة ......

وذات ليلة ذهب في سرب من رفقائهِ الى حيث يتلاقون فمرَّ بسرب من الفتيات يتحادثن عند باب منزل فطرق اذنهُ صوت يعرفهُ فتخلف عن اصحابهِ ووقف في ناحية يسترق السمع فسمع سنيه تقول (وكانت هي) همساً لصاحبة لها :—نعم التقط كتبي ووضعها في محفظتهِ وتمنى ان يلاقيني في ضوء القمر تحت شجرة الجميز عند الساقية . انهُ غير جميل ولكنهُ رقيق ومن عائلة كبيرة . . . . على انهُ قد نسيني بالطبع . . . . . .

تخفق قلبهُ وانكمش في الظلمة الكثيفة . . واجابت دمعة حارة ان هذا غير صحيح

ثم سمع خطاها تبتعد وهو في الظلمة جامد في مكانهِ ثم ابتعدت خطاها عنهُ في الحياة .

واقبل الفقر يطحنهما متفرقين حتى التقيا في المنزل الحقير بحارة علام

—٣—

كان الليل هادئاً والقمر في السحب الصافية يلوح جليلاً في غربتهِ رائعاً في حيرتهِ يبدو من خلال سحابةٍ ثم يستتر وراء اخرى وكان ينظر الى الدنيا بعين ملولة ويرى ان اهلها لا يستحقون ما يغدق عليهم من النور القدسي الجميل اذ بينما يشعّهُ عليهم من وجدانهِ وقلبهِ يغط بعضهم في النوم وبعضهم لا يفهمون انهُ يعلمهم السمو والنبل فيمضون الى اتيان لذة محرمة او منكر لايليق . نعم كان القمر في تلك الليلة يعتزم ان لايطلع على الدنيا واستتر وطال استتاره لولا ان اليد الخفية الجبارة دفعتهُ من وراء السحاب فطلع كارهاً وغمر نوره القاهرة وفاض على اعالي القصور كما فاض على السطوح الفقيرة في حارة علام—في تلك اللحظة فتح امين سليم النافذة وتنفس تنفساً طويلاً ونظر الى القمر نظرة مبهمة ثم عاد الى النافذة فاغلقها في ضجر وملال

واستوى امام مائدتهِ وجعل مصباحهُ قريباً من يسارهِ وفتح كتاباً ثم اغلقهُ واجال بصرهُ في الغرفة الفقيرة الاثاث . فهذا سريره الذي ينام عليهِ منذ عشر سنوات . تفككت اعمدتهُ وطالما اصلحها فعادت كما هي فملَّ اصلاحها ورضي بصريرها المزعج كلما حدثتهُ نفسهُ ان يستريح على فراشهِ وهذا هو الكرسي الطويل بجانب السرير وطالما اكتفى بالنوم عليهِ وتلك هي السجادة الوحيدة الباقية من فرش القصر الكبير وهذا هو رف الكتب قطعه عادية من الخشب مفروشة بالورق الملون المقصوص وذلك هو مصباحهُ الباهت النور مصباحه الثقيل الذي ينخفض نوره من نفسهِ ويحتاج الى يد تعليهِ كل آونة فاذا علا اندفع لسان من اللهب يهدد الزجاجة بالكسر والسقف « بالهباب »

في تلك الليلة كان امين يرتدي جلباباً خفيفاً ابيض وكان وجههُ شاحباً قلقاً وكان يفتح كتاباً ثم يغلقهُ ويضع نظارتهُ على عينهِ ثم يخلعها ويجلس على كرسيهِ قبل المائدة ثم يتركه ليجلس على حافة السرير ثم يترك حافة السرير ليجلس على الكرسي الطويل . واذ هو في ذلك القلق الغريب دق الباب دقّاً خفيفاً فوثب مرتجفاً واسرع اليهِ وما لبث ان صاح هامساً

— سنيه — (بهمس وخوف) ايوه. واقفل الباب عليهما في حرص وسرعة

وكان المصباح الملعون قد عاد نوره الى الانخفاض واصبحت الغرفة في شيء من الظلمة وترامت ظلال كثيرة على الحائط جعلت الغرفة كالمعبد المرهوب،وفي وسطه عابدان لا يتكلمان وانما تقول الظلمة ، وشعاع القمر الداخل من النافذة كاللص ، انهما لبثا متعانقين ، كالموجتين وجلبابإهما في البياض كرغوة الزبد. تخلصت سنية بلطف ، ووقفت بعيداً،وكان قوامها المشوق ينتفض وشعرها المتهدل الجميل قد قارب وجهها فأزاحته بيدها البضة الناعمة ، ومضت الى الكرسي الطويل متهالكة وجلس امين على السجادة مسنداً رأسه الى ركبتيها، وصار يتكلمان همساً

— كم سنة ياسنيه والله ما نسيتك لحظة . شوفي افتقرنا وجينا في حارة في شارع محمد علي فسحت سنيه دمعة حارة ولم تجب ، فمضى قائلاً

— ودخلت التعليم العالي مجاناً بواسطة، وعلى ان اشتغل وانجح بسرعة، والا ماذا يصنع ابي المسكين ؟ فلم تجب سنيه، وامسكت برأسه ، وجعلت وجهه اليها تطيل التحديق فيه ثم قالت حزينة

— حالكم احسن من حالنا بكثير ، ابي مات ولم يترك لنا شيئاً تقريباً وصارت الحال تمشي من سيء الى اسوأ حتى جئنا ايضاً الى الحارة نفسها في شارع محمد علي . فذرف بدوره دمعة ولم يجب واستمر الصمت واخذت الذبالة في المصباح الملعون تنذر بظلمة كاملة واذا بمواء قطتين ذكروانثى بالطبع يتحابان في ضوء القمر ويسران الطبيعة بتحقيق احلامها فضحكت سنية وامين معاً . همست « دي قطنا وقطتكم » ثم زمت شفتيها في خفة معبودة وقالت الا تذكر يا امين احلامك في شبرا وامانيك ان تتحاب في ضوء القمر ، لقد انعمت الدنيا بأمانيك على قطتينا، اجاب ! معلهش ياسنيه ادي احنا اتقابلنا ، وما دمت اراك فسأشتغل وأنجح ، ولا يلبث هذا الضنك ان يزول ، فصاحت فجأة كأنما رأت الضنك قد زال حقيقة

— وبعد ان يزول الضنك

— نتزوج

— وبعد ذلك

— يكون لنا اولاد

— وبعد ذلك

— نكون قد اقتصدنا مالا كافياً فنبني منزلاً خاصاً

— وامي وابوك وامك

— يكونون قد تقدموا في العمر فنسعد مشيبهم ونجعله كله رخاء

— وحبنا

— يزيد على السنين و ينميه من ناحيتينا اخلاصي واخلاصك وتسامحك وتسامحي

ثم همت ان تلقي سؤالاً جديداً ولكن غمامة عبرت فكرها فجأة ولاحت لها صورة لا تحبها فادرك ذلك امين فسألها فامتنعت عن الاجابة فألح فقالت

« واذا تعرض لنا زكي ابن خالتي »

فانتفض امين وتغيرت ملامحه وتركت رأسه ركبتيها ودار بعينه في الظلمة يبحث عن زكي ابن خالة سنيه زكي الثقيل بجسمهِ الضخم وسوالفه الكريهة وعينه الزجاجية وغناه الفاحش واللبانة التي يمضغها دائماً .... دائماً

تغير الفتى الوديع عند مرور تلك الصورة البشعة ، وقال اقتلهُ والويل لك اذا فكرت في ان تميلي اليهِ قالت « اميل اليه ! انت تهينني واذا ذكرت هذا ثانياً اخرج ولا اعود ابداً »

فاستعطفها وعاد يسند رأسه الى ركبتها

وطردا تلك الصورة الكريهة ، وعادا يكملان مدينة الاحلام ،واوشك الفجر ان يطلع على تلك المدينة التي جلسا يبنيانها معاً فوقف امين فجأة ، قائلاً

— سنيه

— نعم

— شايفه الفجر اللي قرّب يطلع

— ايوه شايفاه

— احلفي انك لي وحدي

— احلف

— هاتي فمك

— فمدت اليهِ شفة سحرية رطبة كالشليك الندي ثم انسلت الى غرفتها ، وهي تنزل السلم في بطء وحذر

* * *

وعاد ذلك اللقاء يتكرر ومدينة الاحلام تبنى مع الليل وتتبخر مع الفجر ، وامين يدأب ويرى امانيه تدنو ، حتى كان ذات صباح خارجاً بكتبه الى مدرسته فرأى زكي ابن خالة سنيه جالساً الى مائدة في قهوة المعلم سلام فعجب من تلك الجلسة المبكرة ، وكان شجاعاً ، يفضل مواجهة الامور ، فمضى الى غريمه توّاً

صباح الخير يا سي زكي ايه اللي جابك الصبح بدري كده

— فاعتدل سي زكي في كرسيه ، بكبرياء وقحة وادار اللبانة في فمه القبيح ، وقال بلهجة ساخرة ، علشان ازور قرايبنا جيرانكم ، وصفق على الصبي ثم مد يده الى جيبه يرن النقود ويؤكد لامين من جديد انهُ غني وانهُ بهذا الغنى سيملك ابنة جيرانه . قال امين

— ولكن الزيارة تبقى بدري كده

— ده مش شغلك

— فثار الدم في وجه امين ، ولم يدر بالضبط ماذا حدث ، غير انه وجد القهوة ممتلئة بالناس ، ووجد سي زكي في وسطها والدم يسيل من انفه ، وهو يسب ويلعن ، ورأسه عار وسوالفه القبيحة ملوثة بالدم . والحقيقة ان امين من دون ان يدري ما هو صانع ، تناول كرسيًا فهرب سي زكي الى داخل القهوة فطار الكرسي وراءه ، وتبعهُ آخر بنفس السرعة ، فأصابتهُ رجله في انفهِ ، فلما رأى الدم هاجهُ ذلك كثيران الصراع في اسبانيا ،ووثب بجسمهِ الضخم على غريمهِ ، ولكن المعلم سلام كان قد جاء ، وجاء ناس آخرون فحالوا بينهما. وتهدد زكي وتوعد ، وقال « بكره تشوف » وجمع امين كتبه في كبرياء وانفة ، وانصرف بدون ان يردّ

* * *

قالت سنيه لامين في غرفته بعد ايام — اما علقه اللي أكلها زكي . تعرف انه دخل عندنا بعدها ، وامي أكرمته وطيبت خاطره ومسحت له جرحه ووضعت له صبغة يود . امي المسكينة تراه غنيًا ، وتلاطفه لعله يتزوجني ، وهو يدخل بيتنا ويتقرب الينا لهذا الغرض ،امس جاء عندنا وقال لامي ان الحكيم قال له ان عظمة انفه من فوق انكسرت وستترك عاهة مستديمة ، لان انفه تنخسف من اعلى وسيرفع قضية فضحك امين وقال لتزيد شكله قبحاً ، اما القضية فليرفعها عليّ في اوربا . فسألت مدهوشةً اوربا كيف !

قال اني نجحت في الامتحان الاخير كما تعلمين وسأسافر في بعثة ان شاء الله بعد اسبوع فضربت صدرها بيدها قائلة اتتركنا قال نعم — لكي اختبر القسم الذي اقسمته والفجر موشك الطلوع قالت وهي تجهش بالبكاء كن مطمئناً . واعتنقا وطال عناقهما ثم انسلت الى غرفتها وهي تنزل السلم في بطء وحذر

— ٤ —

لندن في ٧ ابريل سنة ١٩٢٨

حبيبتي سنيه — جلست وحدي في غرفتي قرب المدفأة اقرأ خطاباتك الجميلة خطاباتك التي ملأت حياتي املاً وأنستني غربتي وجعلت مني رجلاً . لقد كان خيالك الجميل واقسامنا كل ما اوشك الفجر ان يطلع ومدينة الاحلام التي شيدناها معاً كل تلك الصور كانت لا تبارح ناظري . نعم مرت سنون جهاد عنيف ولكني لم اكن اعبأ بها ولا ابالي بمتاعبها ما دمت في انتظاري وما دام امك وابي وامي بخير

آه يا سنيه ان لندن بحالها ، لندن العظيمة الضخمة لا تساوي ركناً من مدينة الاحلام وعلى

ذكر هاته المدينة السحرية اني اراك الآن في ركن منها يغمرهُ القمر وتنام الزهور آمنةً نعم اراك الى جانبي وامضي في تقبيلك بلا حساب حبيبك امين

القاهرة في ٢٥ مايو سنة ١٩٢٨

حبيبي امين : تسلمت خطابك وسرني أن اسمع انك في صحة جيدة اما نحن فقد ضاقت بنا الحال . شكراً للنقود التي ترسلها الينا مما تقتصده وانا نعلم ما يكلفك هذا من التقتير على نفسك وانت في بلاد غريبة . نعم ضاقت بنا الحال يا امين وتركنا جيرتكم الهنيئة ورحلنا الى منزل اقل ايجاراً وقبل ان ننتقل اليهِ صعدت في الليل الى معبدنا المقدس ووقفت عند باب غرفتك استعيد الماضي الجميل ومدينة الاحلام فمتى تعود لنتم بناءها — متى . .

حبيبتك سنيه

ملحوظة — اكتب اليَّ على شباك بوستة الفجالة

لندن في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٨

حبيبتي سنية : اكتب اليك والفرح يملك عليَّ مشاعري واني لواثق ان الخبر الذي سأقصهُ عليك سيجعلك ترقصين من السرور . لقد نجحت واقبل عليَّ عميد الكلية يهنئني فقد جاء اسمي في قائمة الشرف

انا عائد يا سنية عائد بعد مضي اربع سنوات لا اعلم كيف صبرت على قضائها بعيداً عنكم اطوي البر والبحر بالفكر اليك واقبلك طويلاً حبيبك امين

٢ اكتوبر سنة ١٩٢٨

حبيبي امين — تسلمت خطابك الاخير من بوستة الفجالة وقرأته كثيراً وقبلته مراراً دامعة العين شديدة الشوق اليك . الدنيا فراغ شنيع بغيرك والايام لا معنى لها

عد للتي تحبك وتنتظرك سنيه

ملحوظة — اعذر اختصاري هذه المرة فاني لشدة الفرح بك لا ادري ماذا اكتب

***

في يوم ممطر كانت باخرة تقترب الى الشاطئ في ميناء الاسكندرية ووقف المنتظرون يترقبون العائدين ويلوحون بمناديلهم واقتربت الباخرة ببطء ثم وضع السلم وصعد ضابط الميناء ورجاله ثم سمح للركاب بالنزول فاسرع من بينهم شاب نعرفه يلبس قبعة ويحمل نظارة نزل السلم بسرعة وتلفت هنا وهناك فناداه الشخص الوحيد الذي ينتظره

— امين

— ابي

وكان عناق رائع حار ودموع

وبعد ان تم تفتيش الحقائب اقلتهما عربة الى القطار المسافر الى القاهرة وفي القطار علم امين ان امهُ مريضة بالروماتزم :

— مش قادره يابني وانا كمان الربو تاعبني قوي ومنذ اسبوعين كان عندي ورم في الرجلين والحكيم امر لي بالراحة ومنعني عن اللحوم والملح وكان جيراننا عائلة شكري بك يواسوننا ولكن الحالة ضاقت بهم فعزلوا الى منزل اقل ايجاراً

تخفق قلب امين واحس به يثقل وينحدر في صدره

— وزارونا مرتين بعدها والشقة والله فاضية لغاية دلوقتي

وانتقل الحديث الى اشياء اخرى وبلغا القاهرة ثم المنزل ووجد امين الدور الارضي خالياً فأحس بفراغ كفراغ المقابر وكانت والدتهُ في فراشها وقد اقعدها المرض وشحب لونها ولكن الأمل في لقاء ابنها جعل لعينيها بريقاً غريباً من الحياة وكأن قوة غير عادية وثبت فيها وهي تنتظره ثم وهي تضمهُ ثم وهي تبكي . . . .

واما غرفتهُ في السطح فلم يجد عليها شيء ولكنهُ حين فتحها هب منها عبق الذكرى والقسم الغابر والمدينة السحرية

في صباح اليوم التالي اخذ يبحث ويسأل عن منزل شكري بك الجديد فلم يهتد وذهب الى بوستة الفجالة وكان قد ارسل اليها خطاباً كعادته قديماً فلم يأت احد لتسلمهِ ولم يعلم من امرهم غير ان الفاقة الحت عليهم وهنا انقطع خيط البحث

ذات صباح كان بمديرية الجيزة لامر يخصهُ فمر بحديقة الحيوانات وخطر له ان يدخل .

جلس على مقعد تجاه القرود خلف شجرة تواريهِ بعض الشيء

فمرت سيدة بادنة « بملاءة لف » ومعها طفلان وخلفهما رجل وكان الرجل ضخماً طويلاً وله سوالف كريهة وفي فمهِ لبانة

فذعر واحس بيد تقبض على حلقهِ وتنشب اظافرها فيهِ وهمّ ان يصيح فلم يستطع وان يقوم فلم يقدر. سنية الجميلة الرشيقة تلبس ملايه لف وتصبح بادنة ويصير وجهها عادياً خشناً وتتزوج بمن؟ بالشخص البغيض الكريه الذي خسف انفهُ بالكرسي من اجلها. همّ ان يقوم ثانياً وان يحتج فوقف بينهُ وبينهم شبح يصرخ في وجههِ قف فانا الذي اذللت هذه المرأة ومازلت اطحنها وامشي بها من حاجة الى حاجة حتى تزوجت غريمك . . . . والخطابات... انها خدعتك لصالحك . . . . الا تعرفني فصاح امين اجل اعرفك ايها الفقر وهذه آثار اظافرك في عنقي

وطأطأ رأسهُ وقد غفر للحبيبة المسكينة بينما الموكب العائلي يسير . ثم ثارت عاصفة من الغبار حجبت عن عينهِ الى الأبد مدينة الاحلام

الراهبة

[بعث الينا احد المعجبين بشعر الشاعر اللبناني البرازيلي الياس فرحات بقصيدته هذه وبمقطوعات اخرى من شعره على ذكر تمثيل ديوانه للطبع فاكتفينا بنشر القصيدة شاكرين ، موجهين الانظار الى هذا الشاعر الممتاز الذي عرفهُ قراء المقتطف من قبل في رباعياته راجع مقتطف ابريل ١٩٢٦ صفحة ٤٣٦]

اطلّت من الدير عند الضحى — وفي ناظريها بريق الأسى
فتاة كأنَّ الالَـهَ براها — ليجعلَها فتنـة للنهى
ولكنها في صباح الحياة — على وجنتيها شحوب المسا
رماها الزمان بهجر الحبيب — فداوت ضلالَ الهوى بالهدى
تصلّي فتحسبها دميـةً — من العاجِ ساجدةً للدمى
وتلثم تلك الدمى بخشوعٍ — فيوشكن يلثمنها من جوى
تحاول نسيان محبوبها — وزهوَ الشباب وعزَّ الغنى
وأقسى من الحب كتمانهُ — وانكى من الهجر فقدُ الرجا

* * *

ولما بدت شمس ذاك النهار — بدت خارج الدير ذات التقى
تجمع من حوله ضمةً — من الزهر تُهدى لفادي الورى
وبينا تسير على مهلها . وتجمعها من هنا وهنا
وقد عانق الورد في كفها — عناق الشقيق عناق الهوى

رأت زهرة في اعالي الجدار تداعبها نسمات الصبا
فأعجبها شكلُها المستطيل ولونٌ كقوس السحاب زها
وقد زاد في قدرها انها تعزُّ على من يريد الجنى
فحرك منظرُها نفسها وقالت بملء الحنان لها

***

اخية ! يهنيك هذا السموُّ وهذا البهاء وهذا الرضى
ولكن أما كان اشهى لديك جوار الازاهير بين الربى ؟
تحوم عليك بنات القفير وتسعى اليك صبايا القرى
وتسمعك الطير انشادها فنه الحجاز ومنه الصبا
فأنت تعيشين في عزلةٍ فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذى ؟ ؟

***

وفي الليل سارت الى خدرها وفي قلبها مثل نار الغضا
ولما نضت ثوبها لتنام تبين من حسنها ما اختفى
فمدت الى صدرها كفها وقد فتّح الورد تحت الندى
وقال لها قائل صامت وكان الذي قيل رجع الصدى

***

وانت تعيشين في عزلةٍ فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذى ؟

على ذكر مؤتمر لوزان

الازمة الاقتصادية العالمية

اسبابها وعلاجها

يقاسي العالم منذ بضع سنوات خلت ازمة اقتصادية لم يسبق ان وقع نظيرها في تاريخ الحضارة من حيث شدتها ونتائجها وبعد مداها. وقد بلغت اشدها في السنة الحالية اذ اجتاحت العالم بأجمعه فلم يبق بلدٌ الاّ وتداعت اركانه الاقتصادية وحل فيه من الفواجع المالية الشيء الكثير مما خبرناه بأنفسنا وقرأنا عنه وحملت الاسلاك البرقية اخباره الينا

واتخذت كل امة تجاه هذا الخراب الداهم ما استطاعت من الاجراءات الاستثنائية كالحواجز الجمركية مثلاً وتدخل الحكومات مباشرة في شؤون الانتاج والتصريف ظنّاً منها انها بهذه الوسائل المستنبطة تحتفظ بمقامها المالي والاقتصادي فأحدثت هذه السياسة الافرادية شللاً في العلاقات التجارية بين مجموع الامم اذ اختلت من جرائها قاعدة العرض والطلب وفُقد التناسب بين الانتاج والاستهلاك . اجل ان هذه الوسائل عوضاً عن ان تخفف وطأة الازمة الاقتصادية زادتها تحرجاً فتفاقم الخطب وازداد البؤس بين الناس واصبح عدد العاطلين يعد بالملايين في كل بلاد حتى ان المدنية الحاضرة اصبحت اليوم مهددة بثورة اجتماعية لايعلم نتائجها الاّ الله

انتبه الرأسماليون الى خطورة الحالة فقاموا في الآونة الاخيرة يسعون وراء التفاهم في ما بين الدول ويحثون حكوماتهم لايجاد علاج شاف يضع حدّاً لهذه الازمة العمومية بالتضافر والتعاون معاً بدلاً من ان تسعى كل دولة منفردة عن غيرها اذ ادركوا ان حياة الفرد في حياة المجموع وان كيان الهيئة الاجتماعية الحاضرة متوقف على حفظ كيان كل امة اقتصاديًّا وماليًّا . ولذلك رأينا الولايات المتحدة وهي التي اصرّت كل الاصرار منذ بضع سنوات على تنفيذ برنامج « يونغ » بحذافيره — رأيناها من تلقاء نفسها تمنح مدينيها مهلة سنة لاستيفاء الديون بشرط ان يمهلوا هم بدورهم المانيا سنة لدفع التعويضات الحربية . فالولايات المتحدة لم تخطُ هذه الخطوة الخطيرة — في الوقت الذي فيه تعاني هي نفسها اشد ازمة مالية عرفتها في تاريخها — كرامة للانكليز والافرنسيين ، بل لانها تيقنت من ان المانيا على شفير هوة الافلاس والفوضى فاذا لم تمهل زمناً تتنفس فيه الصعداء افلست حتماً ووقعت في احضان البولشفية وهذا اشد ما تخشاه الامم الديموقراطية اليوم

ولنفس السبب ايضاً نشطت فرنسا لنجدة المانيا فأقرضتها المال وسعت للتفاهم معها على

وضع معاهدة تجارية جديدة وهي التي ما فتئت تجاهر بانها لن تتنازل عن سنتيم واحد من الغرامة الحربية والتعويضات بموجب ما اقره برنامج « يونغ ». وقد رضيت انكلترا وفرنسا فوراً بالمهلة التي اقترحها الرئيس هوفر فانتعشت المانيا نوعاً وصدت عنها شبح الافلاس والفوضى الى حدٍّ ما

ووافتنا الاخبار عن الاجتماعات المتتالية التي حصلت بين الوزراء الالمان والفرنسيين في باريس وبرلين ووشنطن . وهاهو ذا مؤتمر لوزان على الابواب . كل هذا مما يدل على شدة اهتمام الدول الاوروبية بمعالجة شؤون العالم الحالية . ولكنها — حتى الآن — كانت معالجة من قبيل « الترقيع » لا تنطوي على علاج ناجع لاستئصال الداء . فالعالم اليوم أشبه بعليل يقاسي الآلام المبرحة واطباؤه عاجزون عن معرفة حقيقة الداء ووصف الدواء اللازم لاستئصال العلة فاكتفوا باعطائه المخدرات لتسكين اوجاعه وقتيًّا بينما العلة تشتد حتى كاد المريض يدخل في طور النزع . وازاء هذه الحالة الخطرة قام علماء الاقتصاد في مختلف البلدان كل يدلي برأيهِ في اسباب الازمة الاقتصادية العالمية وعلاجها . فجاءت هذه الآراء متضاربة متباعدة كتبلبل الالسن في برج بابل

وفي ما يلي بعض هذه الآراء أثبتها بصورة مقتضبة ثم اعود الى بحث الموضوع من اساسه وللقارىء ان يرى مدى التباعد وشدة التناقض بين هذه الآراء

(١) الافراط في الانتاج (٢) النقص في الاستهلاك (٣) الاسعار العالية (٤) الضرائب الباهظة (٥) ديون الحرب (٦) تهريب الاموال من بعض البلدان (٧) احجام الرأسماليين عن تثمير اموالهم في مشاريع جديدة (٨) التوسع في منح الكريدتو لحد المبالغة (٩) تضييق دائرة الكريدتو (١٠) السخاء العظيم في الاسعاف العام (١١) نبذ المبادىء الاقتصادية القديمة الحرة (١٢) الاهمال التام في ادارة الشؤون الاقتصادية الحرة

واما العلاجات فهي ايضاً متعددة ومتضاربة اذ كل صاحب رأي يصف العلاج المطابق لرأيهِ واليك بعضها : (١) الرجوع الى المبادىء الاقتصادية الحرة (٢) خفض الاسعار (٣) خفض اسعار المصنوعات بالنسبة الى اسعار المواد الاولية (٤) رفع الاسعار (٥) زيادة المقدرة على الشراء (٦) توسيع نطاق الكريدتو والعمل على زيادة المقدرة على الشراء (٧) تخفيض الاجور (٨) اعادة الثقة المتبادلة بين الدول (٩) الاقلال من الانتاج على ان يكون بموجب خطة مرسومة راهنة (١٠) العمل على عدم هبوط الاسعار (١١) توزيع الذهب في العالم على اساس معقول وبطريقة حكيمة (١٢) ايجاد تفاهم بين المنتجين لضبط الانتاج على قدر المستهلك (١٣) الرجوع الى الفضة والذهب معاً كأساس للنقد عوضاً عن ان يبقى الذهب وحده اساساً للنقد كما هي الحال الآن . وهكذا الى ما لانهاية له . على ان بعض هذه العلاجات خطِرٌ جدًّا وربما اودى بحياة المريض . ومهما يكن من الامر فمن المؤكد ان حسن هذه العلاجات لا يمكن ان يكفي وحده لحل الازمة الاقتصادية العالمية

المخترعات والازمة

وقام في الآونة الاخيرة العالم الفرنسي الشهير المسيو برجريو — وهو من العلماء الذين ينزل عند رأيهم في الشؤون الاقتصادية — يقول ان السبب الاساسي لهذه الازمة العالمية هو استعمال المخترعات الحديثة في الصناعة دون ضابط ولا قيد مما يجبر اصحاب المصانع على تجديد الآلات ومعدّات مصانعهم تجديداً مستمرًّا . وعند ما يضطر صاحب المصنع الى ابدال آلات مصنعه التي لم يكن قد استهلك قيمتها بعد بآلات حديثة مجاراة للتقدم الصناعي الذي اوجدتهُ المخترعات الحديثة العديدة فنتيجة ذلك خسارة من رأسماله لا تعوَّض. واذا لحقت الخسارة بمجموع رؤوس الاموال في العالم كما هي الحال الآن فانها تقلل بما يعادلها من مقدرة اصحاب الرأسمال على المشترى وكذلك الاستغناء عن الايدي العاملة والاقتصاد في المواد الاولية الناتجان عن استعمال تلك المخترعات الحديثة يسببان البطالة بين طبقات العمال فتقل المقطوعية وتتراكم البضائع فتزول الثقة ومنها الكريدتو فيكثر الافلاس وتستحكم الازمة

ومن هذا يستخلص الاستاذ برجريو القاعدة الاقتصادية الآتية : « لا يجوز ادخال المخترعات الحديثة على الصناعة الاَّ اذا كانت الفائدة الناتجة عنها اكبر من الخسارة التي تسببها »

على ان هذه القاعدة التي يقول عنها الاستاذ برجريو انها المفتاح الوحيد لحل الازمة الاقتصادية العالمية ليست بالشيء المبتكر اذ انها القاعدة الاساسية التي مشت عليها الصناعة منذ نشأتها وهي حقيقة ثابتة لا يختلف فيها اثنان ويجدر بارباب الصناعة ان يتذكروها في وقت تعددت فيهِ المخترعات والمستحدثات تعدداً سريعاً يبعث على الدهشة . ومن رأي الاستاذ المذكور ان يؤلف ارباب الصناعة اي الرأسماليون نقابة من بينهم تمتلك كل مخترعٍ جديد وتشرف على طريقة استعماله بحيث لا يكون تطبيقه مغايراً للقاعدة المشار اليها آنفاً اي بعبارة اخرى يكون من شأن النقابة هذه ان تمنع الانقلابات والتطورات في الصناعة الناتجة عن المخترعات الحديثة الاَّ اذا كانت الحالة تستدعي ذلك حتى لا يسيء الناس استعمالها في غير اوانها فتأتي بالشر والنكبات بدل الخير المرجو منها

هذا ما ادلى بهِ الاستاذ برجريو ولكننا امام الحقيقة الراهنة لا يمكننا ان نسلم برأيه ونراه آخذاً بالنتائج دون الاسباب ورأيهُ هذا مع ما فيهِ من منطق وحقيقة لا يختلف عن غيرهِ مما ذكر آنفاً اي انهُ لم يصب كبد الحقيقة من حيث الاسباب الاساسية للازمة العالمية بل اكتفى بمعالجة الاعراض الظاهرة بمخدر وقتي ومن وجهة واحدة لان معالجتهُ تنحصر فقط في وجوب الاقتصاد في كلفة الانتاج الصناعي. على ان ازمة الصناعة ليست سوى نقطة في بحر الازمة الاقتصادية العمومية والارتباكات المالية فهي نتيجة امرٍ واقع وليست من مسبباته فتزول متى تحسنت احوال العالم العمومية . وعلى سبيل المثال لدحض رأي الاستاذ المذكور نذكر صناعة

السينما التي لم تؤثر فيها الازمة العالمية لاقبال الناس على دور السينما فزهت وتقدمت تقدماً سريعاً مطرداً وما كانت المستنبطات الحديثة التي ادخلت عليها والاموال الكثيرة التي تنفق في سبيل اتقانها واشادة دورها الانيقة الرحبة لتؤخر سير تقدمها او تورطها في الازمة الآخذة الآن بخناق الصناعات الاخرى . هل يا ترى اذا توقف الجمهور عن ارتياد دور السينما يحجم اصحابها عن موالاة التحسين فيها حتى تتقي الازمة ؟ وهكذا قل عن كل صناعة أخرى بل عن كل تجارة بل عن الزراعة نفسها فانهُ متى احجمَ الجمهور عن الاستهلاك وقعت الازمة بلا محالة

ولكنَّ احجام الجمهور عن الاستهلاك او بعبارة اخرى قلة المشترى او ضعف المقدرة على المشترى ليس بحد ذاتهِ سبباً يصح السكوت عليهِ بل هو نتيجة مسببات اخرى نتناولها في ما يلي وهي التي اودت بالعالم الى هذه الازمة العمومية التي نكدت عيش الناس في جميع البلدان

ان الذين كانوا اطفالاً في سنة ١٩١٤ لا يمكنهم الآن ان يدركوا كنه الحالة بل هم ينظرون الى الازمة نظرهم الى لغز تعذَّر عليهم حلُّه وذلك لانهم عاشوا في زمن انقلب فيهِ كل شيء رأساً على عقب واصبح فيهِ الشواذ قاعدة يعملُ بها والقاعدة الاساسية شواذاً . اما الذين كانوا في سن الرشد والادراك عام ١٩١٤ — الذين عرفوا العالم اذ كان كل شيء في موضعه الطبيعي — هؤلاءِ لا يصعب عليهم ان يدركوا كنه الحالة ويحلّوا هذا اللغز الذي هو ليس بالحقيقة لغزاً

زيادة الضرائب

ان وراء هذه الازمات والمصائب اسباباً اساسية ظاهرة لمن يقابل الحاضر بالماضي اولها الزيادة الفادحة في النفقات العمومية والخصوصية زيادة لم يعرفها العالم في الماضي . ففي اثناء الخمس عشرة سنة الاخيرة بلغت الضرائب والنفقات العمومية في فرنسا وايطاليا والمانيا اربعة اضعاف ما كانت عليه سابقاً وفي سويسرا ثلاثة اضعافهِ وفي انكلترا واميركا نحو خمسة اضعافهِ . ومن غريب الامور ان المدنية الحاضرة تكاد لا تعير هذا المرض الاجتماعي القتال اقل اهتمام . كان من اصعب الصعاب فيما مضى على اية حكومة كانت حتى الاوتوقراطية منها فرض ضريبة جديدة ولو صغيرة على شعبها حتى ان معظم الثورات التي سجلها التاريخ ترجع اسبابها الاساسية الى زيادة الضرائب بل كانت بالحقيقة حرباً عليها . فكيف يمكننا ان نفسر الآن هذه الضرائب الفادحة التي فرضتها الحكومات على شعوبها في مدة الخمس عشرة سنة الاخيرة دون اقل مقاومة او تذمر ؟ لماذا سلّمت الشعوب بهذا الاستبداد المالي عن طيبة خاطر حتى ان معظم الناس كان لايعرف تماماً مدى فداحته وهو يدفع الضرائب الاميرية غير مبال بالارقام الهائلة التي وصلت اليها ؟

اننا نجد بعض التعليل لهذا اللغز الغامض في حالة التقدم واليسر التي وصل اليها العالم .

وما اليسر سوى كثرة المال . ولما كانت الضرائب تدفع بالمال فكلما كثر المال قلت وطأة الضرائب على دافعيها والعكس بالعكس اذ من الاسباب الاساسية التي كانت تهيب بالناس في سالف العصور الى الثورة والامتناع عن قبول الضرائب قلة النقد المتداول بين الايدي . بدأ عصر الذهب في سنة ١٨٤٨ لما اكتشفت معادن كاليفورنيا واوستراليا واخذ انتاج الذهب يزداد تدريجاً سنة بعد سنة حتى اصبح المال موفوراً وبعبارة اخرى اصبح العالم غنيًّا . وهكذا اخذت الحكومات تنفق من دون حساب وميزانيات نفقاتها تتزايد مع مرور السنين واعتاد الناس القيام بهذه النفقات عن طريق الضرائب دون ان يشعروا بتزايدها . الاّ ان ازدياد المال بين الايدي كان اسرع من ازدياد الضرائب . وهكذا قد اعتادت امم الغرب في اثناء خمسين سنة تقريباً دفع ضرائب الحكومات ومواجهة زيادة النفقات عن رضى وقبول . وهذا امر طبيعي اذ من البديهي ان أسلّم بدفع ضريبة عشرين غرشاً عند ما يكون دخلي مائة غرش بينما استصعب جدًّا وربما تعذر عليَّ دفع ضريبة عشرة غروش اذا كان دخلي فقط ثلاثين غرشاً

وزيادة النفقات والضرائب التي شهدناها منذ خمس عشرة سنة والتي بلغت اربعة وخمسة اضعاف ما كانت عليه قبل الحرب العالمية ليست الاّ نتيجة طبيعية لزيادة النقد في العالم تلك الزيادة الفاحشة . ان الحرب العالمية قد كدست الذهب عند امم وحرمت امماً اخرى منهُ ولكن الامم التي اضطرتها الحرب الى انفاق ما كان لديها من الذهب او جانباً منه لم تشعر بضيق مالي في السنين القلائل التي تلت الحرب اذ ان تضخم النقد الورق قد اوجد اليسر والبحبوحة حتى في البلدان التي نكبت شرّ النكبات في الحرب . تلك ظاهرة غريبة تبعث على الدهشة ولكن حقيقة الامر ان ذاك اليسر لم يكن الاّ وهميًّا لا اساس له . والاغرب من ذلك ان هذا اليسر الوهمي الذي تمتعت به الامم التي بليت بنكبات الحرب قد زاد في يسر الامم الاخرى التي تجمّع الذهب عندها وكان غناها حقيقيًّا . وكأنّ العالم قد اصابه شيء من الخبل من حالة اليسر ووفرة المال — هذا اليسر الذي كان نصفه حقيقيًّا ونصفه وهميًّا — حتى اخذت الحكومات تنفق دون ما حساب وتزيد في الضرائب اضعاف الاضعاف والناس كالسكارى لا يعرفون للمال قيمة يدفعونه ويصرفونه ذات اليمين وذات الشمال غير حاسبين للغد حساباً

ولكن دوام الحال من المحال فما انقضت بضع سنوات حتى تبدّل ذاك اليسر عسراً . قلت الارباح بل تضاءلت وخفضت المعاشات وعمّ الكساد الزراعة والصناعة والتجارة وعجزت جميع الدول عن سد العجز في ميزانياتها . وجيش البطالة الذي بلغ الملايين اصبح عالة على المجموع . فكيف يمكن والحالة هذه ان يستمر الناس على دفع الضرائب الفادحة التي كما بينا سابقاً قد بلغت حدًّا قصيًّا . انها اليوم تثقل كاهلهم وكانوا بالامس لا يشعرون بعبأها . ومن اهم المشاكل التي تواجهها الشعوب اليوم هي مشكلة الضرائب وكيف يحمَل هذا الحمل الثقيل دون ان نرزح تحته

التجارة مبادلة

لماذا لم تدرك اوربا في سنة ١٩١٩ انه بعد حرب لم تبق ولم تذر دامت اربع سنوات كان يجب عليها الاقتصاد الكلي مدة لا تقل عن عشر سنوات وانهُ كان يجب على الحكومات ان تكون قدوة للافراد في ذلك ؟ لماذا ونحن في عصر النور قد تعامينا عن هذه الحقيقة وناقضناها بكل ما اوتينا من قوة ؟ على انهُ يظهر ان التعامي عن الحقائق الجوهرية اصبح من امراضنا الاجتماعية في عصرنا الحاضر. وها هي معضلة التعويضات والديون الدولية التي تزداد تعقيداً سنة بعد سنة مثالٌ بليغ على هذا المرض القتال. نعم انه مرض قتال لان التعويضات الحربية والديون الدولية بحالتها الراهنة هي سبب آخر بلا شك لهذه الازمة الطاحنة والعجز عن حل معضلتها راجع لهذا التعامي بل لهذا الجهل . عجب عجاب كيف ان اوربا واميركا في هذا العصر الذي توصل فيه العلم الى نزع الحقيقة من قلب الزمان بل الى سبر غور المادة حتى اخضعها لمشيئته تجاهلتا قاعدة اساسية في علم الاقتصاد درستها انا عند ما كنت تلميذاً ودرسها قبلي ويدرسها بعدي ملايين التلاميذ في المدارس . تلك القاعدة الاساسية التي بني عليها علم الاقتصاد والتي لا يمكن تحويلها او الزيادة عليها او النقصان منها هي ثابتة بجوهرها كالقاعدة الحسابية التي تعطينا ٤ من جمع ٢ مع ٢ بلا مزيد ولا نقصان وهي ان التجارة مبادلة أو مقايضة بين متاع ومتاع أو خدمة وخدمة وان العملة ليست سوى رمز للاشياء المتبادلة . واما اذا كانت العملة ذهباً فانها هي ايضاً تصبح متاعاً خاصًّا أو « بضاعة » تصح المقايضة بها مع بضاعة أخرى . واساس العملة هو الذهب وليس ورق النقد الاَّ رمزاً للعملة الذهبية ومقياس قيمته ما يدعمه من الذهب. فاذا كان الورق النقدي لا يرتكز الى مبلغ من الذهب بنسبة ٤٠ بالماية على الاقل تعرض للهبوط بل كلما نقص مقدار الذهب الاحتياطي نقصت قيمة الورق النقدي وهذا ما وقع للمارك الالماني وللفرنك الفرنسي والفرنك الايطالي والليرة الانكليزية . ونحن اذا قلنا مبادلة وجب علينا الاَّ ننسى ان المبادلة هي بالحقيقة بين بضاعة وبضاعة باعتبار ان الذهب اي النقد الذهبي هو ايضاً بضاعة من نوع خاص

فالبلاد التي لا تستخرج الذهب يتحتم عليها مشتراه من غيرها من البلدان التي تقتنيه وحيث ان البيع والمشترى هما بالحقيقة مقايضة يتحتم عليها دفع ثمنه بضاعة اي بعبارة تجارية معروفة عليها ان تصدر الى البلاد الاخرى بضاعة من انتاجها كي تستورد بقيمتها ذهباً

متى فهمنا هذه الحقيقة الراهنة تجلت امامنا معضلة التعويضات الحربية والديون الدولية التي يئن منها العالم اليوم والتي تعتبر من المسببات الاساسية لهذه الازمة الطاحنة ووقفنا مذهولين متسائلين لماذا تغاضت الامم عن هذه الحقيقة فزاد تغاضيها تعقيداً للازمة. لماذا لا تقر بصحة هذه القاعدة الاساسية فتعمل بموجبها عوضاً عن ان تناقضها هذه المناقضة العمياء ؟

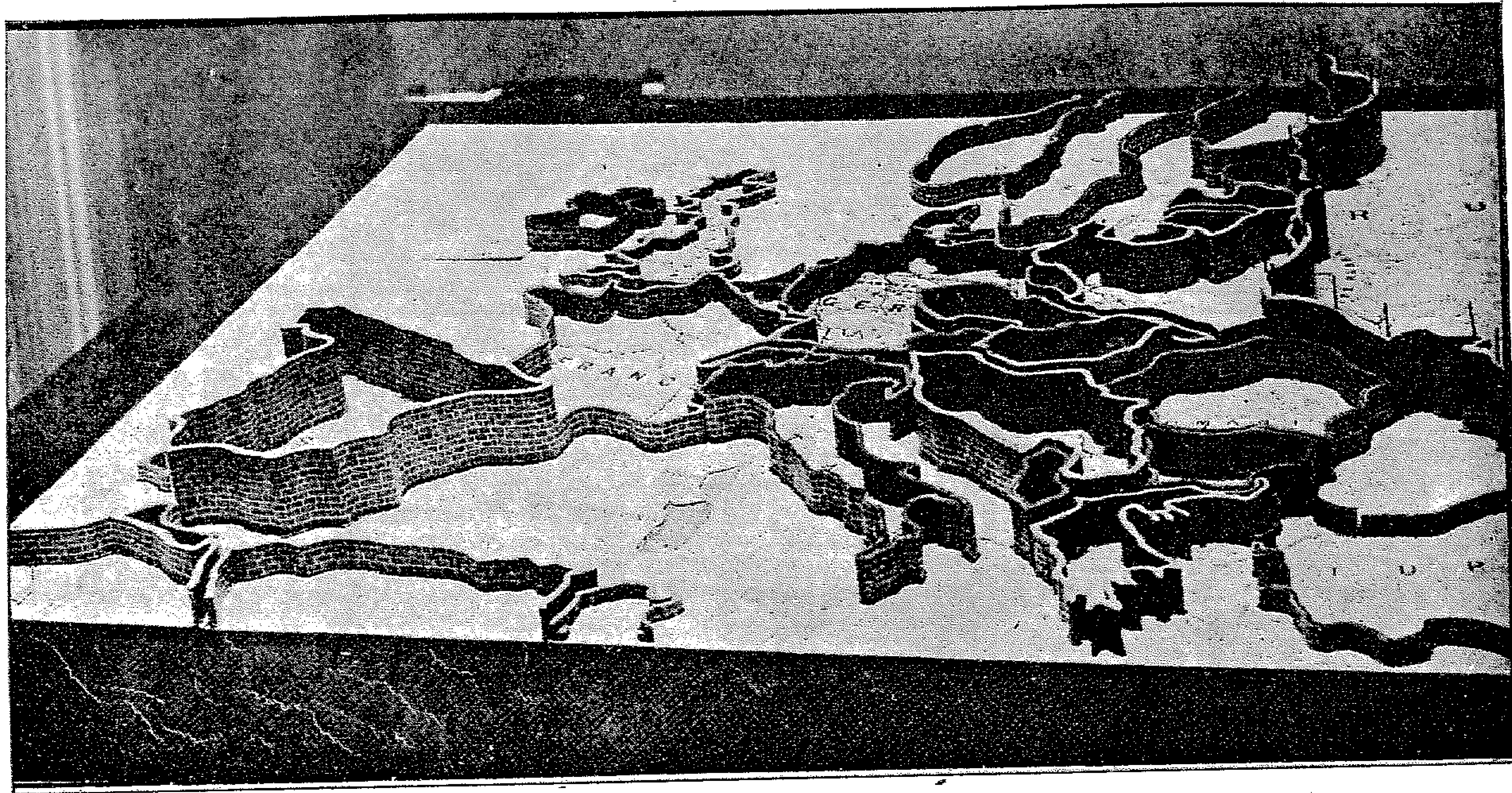
فشلُها مثل الرجل الذي امسك بالحية من ذيلها فلدغتهُ عوضاً عن ان يمسكها من عنقها ويهشم رأسها . وهنا لا بد لي من شرح هذه النقطة ولو بايجاز :

عند انتهاء الحرب فرض الحلفاء المنتصرون على المانيا المغلوبة غرامة حربية كبيرة سموها تعويضات عن الخراب الذي سببته الحرب لهم بصفتها معتدية عليهم. وتفرق الحلفاء بعد الصلح وكل منهم مدين للآخر والجميع مدينون لاميركا بمبالغ فاحشة . واذا كانت هذه التعويضات والديون الدولية لتستوفى تماماً وفي مواعيد استحقاقها استغرق ذلك مدة لا تقل عن خمسين سنة ووجب في خلالها على دول اوربا ان يدفع بعضها للبعض الآخر مبالغ كبيرة سنويًّا وان تبعث بقسم كبير من هذه المبالغ عبر الاطلانتيكي الى الولايات المتحدة . زد على ذلك ان الامم التي خرجت من الحرب وخزائنها طافحة بالمال كالولايات المتحدة والدول المحايدة اقرضت باقي الدول الاوربية والاميركية واوستراليا مبالغ كبيرة من المال على ان تتقاضاها اياها دفعات سنوية فأصبح العالم باسره مديناً بعضه لبعض على وجهٍ لم يسبق لهُ مثيل من قبل . فاذا اخذنا بعين الاعتبار القاعدة الاقتصادية القائلة ان التجارة مقايضة وانه لا يمكن الحصول على المال الاَّ لقاء بضاعة كان من الضروري ازالة الحواجز حتى تصبح هذه المقايضة سهلة لا يعترض سبيلها معترض وحتى تصبح المقايضة اي التجارة حرة طليقة من كل القيود بين الامم . فهل هذا ما فعلته الدول ؟ كلاَّ انها عملت ما يناقضه على خط مستقيم

الحواجز الجمركية

هذه اميركا تتطلب من دول اوروبا استيفاء مالها بذمتها من الديون وفي الوقت نفسه تمنع بضائع اوروبا من دخول بلادها فكيف يستطيع المدين ان يفي دينه اذا حرمه الدائن من الوسيلة الوحيدة التي بها يمكنه وفاء الدين . ومن اغرب الامور ان اميركا ما زالت منذ الحرب تمد الحلفاء بالمال وهؤلاء من القروض الجديدة يسدّدون الديون القديمة. ومعنى ذلك ان اميركا تفي نفسها بنفسها . وهذه دول الحلفاء تتطلب من المانيا دفع التعويضات الحربية ولكنها بالوقت نفسهِ قد اقتفت اثر اميركا واقامت الحواجز الجمركية العالية على البضائع الالمانية في بلادها وفي مستعمراتها فحرمت المانيا الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من الحصول على المال لوفاء ديونها والقيام بتعهداتها . ثم ان الحلفاء اقتدوا ايضاً باميركا فقدموا الى المانيا قروضاً مالية كانت تساعدها على دفع اقساط التعويضات باوقاتها . فكان الحلفاء يدفعون باليمنى ويقبضون باليسرى . ان هذه لعمري مهزلة يجب ان يندى منها خجلاً جبين القرن العشرين

ولقد شعر العالم بعاقبة هذه المتناقضات وما الازمة الآخذة بخناقهِ اليوم وفقدان الثقة ووقوف دولاب الاشغال سوى نتيجة طبيعية لها . لقد فقدت الثقة تماماً فاصحاب الاموال يتمنعون عن تشغيل اموالهم بل هم يدفنونها خوفاً عليها من الضياع والمصارف قبضت يدها



صورة تمثل الحواجز الجمركية في اوروبا وذلك قبل ان رفعت انكلترا حواجزها من عهد قريب

مقتطف يوليو ١٩٣٢ — امام صفحة ٢٢٥

بتاتاً عن التسليف والقطع وامست التجارة والصناعة والزراعة في جمود تام . ويعتبر الثقات الماليون ان الديون الدولية اصبحت جميعها متزعزعة غير ثابتة وان نصف العالم اليوم مهدد بالافلاس . لقد تجمّع الذهب في بلدان معلومة وحرمت باقي البلدان منهُ ولكن ليس من الانصاف ان نلوم فرنسا واميركا مثلاً على ادخار الذهب وامتناعهما عن اخراجهِ بصفة قروض للغير اذ لا توجد دولة الآن يكون الدين مأموناً لديها . والواقع ان اميركا وفرنسا يرغبان جدًّا في تصريف الذهب المتراكم عندهما — اذ لا فائدة لهما من وفرته — لو وجدتا ضماناً كافياً لقروض جديدة. ان العوامل أو المسببات التي سقناها آنفاً كافيةً وحدها لان تنزل بالعالم شر النكبات والازمات المالية والاقتصادية فكيف بنا اذا اضفنا اليها عاملاً آخراً بعيد التأثير شديد الوطأة ، عاملاً مباشراً أجمع معظم الثقات الماليين والاقتصاديين على أنهُ اهم جميع العوامل التي اودت بالعالم الى هذه الازمة الطاحنة ألا وهو هبوط قيمة النقد الفضي

الذهب والفضة

ولقد تنبأ المستر مونتاجو نورمن حاكم بنك انكلترا في سنة ١٩٢٦ عن مستقبل الحالة التجارية والاقتصادية وتأثير هبوط قيمة الفضة فيها فجاءت الحوادث منذ ذلك الوقت مصداقاً لنبوءتهِ وهذا ما جاهر به وقتئذ قال : — ان التقلبات الفجائية صعوداً كبيراً او هبوطاً شديداً في قيمة النقد الفضي تؤثر مباشرة في قيمة الأشياء التي اساسها النقد الذهبي . وهذه التقلبات من شأنها بث الفوضى في المعاملات المالية والتجارية لأنها تفقد الثقة المعوَّل عليها في هذه المعاملات خصوصاً في الهند والصين حيث الفضة من سالف العصور الى يومنا هذا هي عملتهم الوحيدة التي درجوا عليها. فبنسبة هبوط قيمة النقد الفضي تنقص مقدرة ستمائة مليون من البشر على المشترى وهذا مما يؤدي حتماً الى هبوط قيمة البضائع والمصنوعات الاوربية والاميركية المعبَّر عنها بالذهب »

هذا ما قاله حاكم بنك انكلترا في سنة ١٩٢٦ اي نحو سنة بعد ما اقرَّت انكلترا رسميًّا اتخاذ الذهب وحده دون الفضة اساساً لنقدها وبذلك فقدت الفضة قيمتها النقدية كعملة ثابتة واصبحت عرضة للتقلبات اذ بفقدان تلك الميزة ميزة النقد الثابت فقدت الفضة قيمتها المعنوية واصبحت متاعاً كباقي الامتعة خاضعاً لقاعدة العرض والطلب . وكانت النتيجة ان تدهور الروبي الهندي الى حد لم يسبق له مثيل فقد كانت الليرة الانكليزية قبل ١٩٢٥ تعادل ١٦ روبيًّا فاصبحت بعد ذلك بمبلغ ٣٣ روبيًّا . وهكذا وبالنسبة نفسها سقطت قيمة النقد في الصين وايران وباقي بلدان آسيا التي يرتكز نقدها على الفضة . ومتى تذكرنا ان معظم صادرات اوربا واميركا الصناعية تستهلك في بلدان آسيا وعلى الاخص في الصين والهند لقاء المواد الاولية والغذائية التي تستوردها اوربا من هذه البلدان تبيَّن لنا جليًّا مقدار الاذى الذي حلَّ بتجارة الصادرات الاوربية والاميركية من جراء توقف الهند والصين وايران الخ

عن استيراد هذه البضائع الا الشيء القليل منها . فتكدست البضائع في اميركا واوربا وتدهورت اسعارها ولم يعد لها من مخرج للتصريف فخلت الازمة التي يقاسي العالم منها الامرّين. والى القارىء ما قررتهُ لجنة ما كلان الدولية في هذا الشأن

« ان السبب الاساسي للازمة العالمية هو تدهور الاسعار تدهوراً هائلاً قاتلاً للتجارة والصناعة والزراعة كأنما كل ما على الارض من عقارات ومنقولات اصبح بخس الثمن لدرجة غير معقولة .وبناء عليه لا بد لحل هذه الازمة من ايجاد الوسائل الناجعة التي تؤول (اولاً) الى ارتفاع الاسعار الى مستوى اعلى جداً مما هي عليهِ الآن (وثانياً) الى تثبيتها على هذا المستوى ما امكن . ولا يكون ذلك ممكناً الا اذا تفهّم العالم الحقائق الآتية وعمل بموجبها

ان نزول الاسعار او هبوط قيم الاشياء هو بالحقيقة صعود في قيمة المعدن الذي تتقايض بهِ هذه الاشياء اي النقد الذهبي واذا قلنا هبطت الاسعار فكأننا بعبارة اخرى نعني ان قيمة الذهب قد ارتفعت .اذا عزّ الشيء ارتفعت قيمتهُ وعلى الضدّ اذا توفر سقطت قيمتهُ . وحيث ان مقدار الذهب في العالم قد نقص كثيراً اذا قيس بالحاجة اليهِ فان قيمته قد ارتفعت هذا الارتفاع الهائل المعبّر عنهُ الآن بسقوط اثمان الاشياء وان لجنة ما كلان تعتبر انهُ في سنة ١٩٤٠ يصبح الذهب نادراً بالرغم من جميع الوسائل لتوزيعهِ في العالم حتى انهُ لا يعود كافياً للقيام بالغرض المطلوب منهُ كعملة يتداول الناس بها .فمن الضروري والحالة هذه ايجاد طريقة اخرى تقوم بحاجة التجارة او المقايضة الدولية

ان الصين والهند والمكسيك وايران تستعمل الفضة اساساً لنقدها فمن المحقق اذاً انهُ اذا ثبّت النقد الفضي على اساس نسبة ثابتة بينهُ وبين النقد الذهبي تصبح المعاملات التجارية مع هذه البلدان سهلة جداً وتزول جميع العراقيل . واذا صار من الممكن استيفاء الديون التجارية سواء بالنقد الذهبي او بالنقد الفضي على اساس نسبة ثابتة بينهما نشطت ولا شك التجارة بين الشرق والغرب وانعتقت من قيودها وعادت الى مجراها الطبيعي

ان الاعتراض الوحيد على هذه النظرية هو امكان الافراط في انتاج الفضة فيما لو عاد العالم واتخذه اساساً للنقد فيصبح عرضة للتقلبات والمضاربات فلا يعود يصلح عندئذٍ ان يكون نقداً ثابتاً . ولكن هذا الاعتراض فاسد من اساسه لان النسبة بين ما يستخرج من الفضة وما يستخرج من الذهب لم تتغير منذ اربعمائة سنة بل في اثناء الخمسين سنة الاخيرة كانت نسبة الفضة المستخرجة الى الذهب اقل من المعتاد . زد على ذلك انهُ عند ما ارتفعت قيمة الفضة الى اقصى حد ممكن لم تحصل زيادة في المقدار المستخرج منهُ بل بقي على النسبة نفسها — والمقادير التي تستخرج اليوم من المعادن اقل من المقادير المستهلكة سنويًّا . انما السبب الوحيد في سقوط قيمة الفضة في السنوات الاخيرة هو المبيع من جانب الحكومات لمقادير هائلة

من العملة الفضية التي فقدت قيمتها النقدية بعد تثبيت النقد الانكليزي على أساس الذهب سنة ١٩٢٥ . وهذا ما يحل بالذهب نفسه فيما لو فقد قيمته النقدية اي قيمته كعملة دارجة ثابتة

هنا وصلنا الى نتيجة حاسمة لا جدال فيها اذا عاد العالم واستعمل الفضة مع الذهب اساساً للنقد وهي سقوط قيمة النقد اجمالاً لوفرته وهذا معناه كما بينا آنفاً ارتفاع في اسعار الاشياء التي تشترى بهذا النقد وبعبارة اخرى تسقط قيمة النقد الذهبي بنسبة ارتفاع قيمة النقد الفضي وبنفس النسبة ترتفع قيم الاشياء التي اساسها النقد الذهبي. عندئذ يستطيع الهندي مثلاً ان يشتري الكمبيو الانجليزي كما كان في الماضي بسعر ١٦ روبية لليرة الانجليزية عوضاً عن ٣٣ روبية كما هي الحال اليوم فتزداد قوتهُ على المشترى وتعود اوربا واميركا الى تصدير بضائعها باسعار رابحة الى بلدان آسيا فتنتعش الصناعة ويقل عدد العاطلين وتعود التجارة بين الشرق والغرب الى مجراها الطبيعي. أفليس من الغباوة ان تتغاضى اليوم اوروبا عما يستهلكهُ ستماية مليون من البشر ؟

اما النسبة الاساسية بين الفضة والذهب التي يجب تثبيت قيمة النقد الفضي عليها فان الطبيعة نفسها قد اوجدتها فما من ضرورة للتفتيش عنها. ان الطبيعة قد اوجدت لنا هذين المعدنين اللذين استعملهما الناس معاً كنقد للتعامل منذ سالف العصور والطبيعة نفسها قد دلتنا على نسبة قيمة الواحد للآخر لانها تخرج لنا من الارض على معدل ١٦ اوقية فضة لكل اوقية ذهب . منذ الوف السنين من عهد الفينيقيين والمصريين والاشوريين حتى سنة ١٨٧٣ بعد المسيح عند ما تركت المانيا اساس النقد الفضي واعتمدت الذهب وحده اساساً لنقدها ثم تبعتها في ذلك امم اخرى — حتى تلك السنة كان مثقال الذهب يساوي ١٤ او ١٦ مثقالاً من الفضة — اما الآن فمثقال واحد من الذهب يساوي ٧٧ مثقالاً من الفضة . ناقض الناس الشرائع الطبيعية فانتقمت هذه الشرائع منهم . لعل خطورة الحالة والخطر الذي يهدد كيان المجتمع الآن والخوف من وقوع اوربا واميركا في براثن الشيوعية — لعل هذه الامور تهيب بالدول الكبرى الى التضامن معاً على قمع هذا الشر الداهم من جذوره وذلك

(اولاً) — بتخفيض الضرائب وتخفيفها عن كاهل الناس — وهذا ممكن اذا اقتصدت الحكومات في نفقاتها وعسى ان يكون مؤتمر نزع السلاح خطوة في هذا السبيل

(ثانياً) الغاء التعويضات الحربية والديون الدولية او اذا كان هذا مستحيلاً فالغاء الحواجز الكمركية بين البلدان عموماً وجميع العراقيل الموجودة الآن في طريق التجارة حتى تصبح التجارة حرة طليقة فيسهل وفاء الديون اذ يصبح التبادل في الاشياء محرراً من القيود الحالية

(ثالثاً) — الرجوع الى النقد الفضي ليدعم النقد الذهبي فتنتعش التجارة بين الشرق والغرب وبانتعاشها تنتعش الصناعة في اوروبا واميركا ويعود العمال الى المصانع والزراع الى الحقول ولا يعود اصحاب الرأسمال يخافون من ضياع اموالهم واتعابهم فتعود الثقة بين الناس كما كانت في الماضي

بيروت فؤاد نصار

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف باغلاطه اعظم (٣)خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستختار على المطولة

الحضارة الغربية وانصاف اليهود

قرأت في مقتطف يونيو الاغر مقالاً ممتعاً لحضرة الاستاذ سامي الجريديني يحث فيه «ميزة الحضارة الغربية» بحثاً مستفيضاً معززاً بنظريات فقهية وادلة علمية يلمع بين قرائنها ضياء المنطق والصواب . وما زلت استلهم روح هذا البحث الجليل استلهام طالب يجتهد في ان يستفيد من اطروحة جمعت في سطورها القليلة خلاصة ما وصل اليهِ التطور الانساني للحضارة الغربية مستمتعاً بما اورد الكاتب الفاضل من امثلة ناهضة لا تقل عن كونها عنصراً حيًّا من عناصر الموضوع القيمة الى ان صدمت بدليل واحد بين تلك الادلة كان اشبه بصاعقة تطايرت شظاياها حمماً فوق رأس البحث السلس فشوّه روحه . وقد خيم في افقه دخان فاحم يرمز الى غضب الحقيقة وثورتها على ما في هذا الدليل من شوائب تكاد تصفعها صفعاً !

اما هذا الدليل فهو حيث يقول (... يغضب اللبناني اذا جاوره ارمني واحب ان يدخل قوميته والفلسطيني تقوم قيامته اذ يرى الحضارة الحالية تنصف اليهود وتعدهم بشراً لهم ما لجميع البشر من حقوق وآمال ومطامح) !

المعروف والواقع ان مجلة المقتطف هي سجل للحقائق العلمية والتاريخية على تشعبها والثابت ان هذه المجلة هي المصباح الاول الذي انبثق منهُ نور حرية الفكر في ربوع هذا الشرق . وان ما يكتب فيها له من القيمة والخطر في ذاكرة التاريخ ما يحتل قنة الحقائق الراهنة الامر الذي يجعل المرور بهذا الدليل غير الموفق وصمة سوداء في جبين نهضة العرب القومية الكبرى لذلك استأذن اصحابها ان يسمحوا لي بمناقشة هذا الدليل المعوجّ نقاشاً هادئاً انصافاً للحقيقة والتاريخ

ليس بالمجهول ان العرب ثاروا على دولة الخلافة تخلصاً من العبودية وتحقيقاً لحريتهم واستقلالهم عملاً بالسنّة الطبيعية التي تفرض على كل شعب يفهم معاني الحياة ان يساهم بقسطهِ في توطيد دعائم الرخاء الانساني . وغني عن البيان ان شعباً ما لا يستطيع ان يقوم بهذه الفريضة الانسانية الاّ اذا حطم قيود الاسر ودك اركان الرجعية وكوّن له شخصية عالمية

دعامتها السيادة والحرية . ومما لا شك فيه ان العرب لم يرتكبوا اثماً في جنوحهم الى هذا المطمح الانساني الشريف الا اذا عدّ المنافح عن كرامة الانسانية اثماً مجرماً !

ومن المهم ان يعرف العالم باسره ان العرب لا يضمرون لليهود عداء لمجرد كونهم يهوداً وان العرب لا يقاومون غارة اليهود على بلادهم سحقاً لاماني اليهود في حريتهم وخلاصهم الا ان الشر مهما تأدب الانسان في تعريفه يبقى شراً لذاته اذ ليس هنالك شر حسن وشر قبيح . ولسنا ندري اذا كانت معاني الحضارة الغربية تجيز لامة ان تسلب حقوقاً سياسية لامة اخرى بل لسنا ندري اذا كان يصح ان يسمى اغراء اليهود بقطر من الاقطار العربية لمطامع سياسية مغلوطة انصافاً لهم تتبرع به الحضارة الحالية . الا اننا نعلم علم اليقين ان تنازل شعب ما عن وطنه لشعب آخر ليس الا اعترافاً بافلاس مبادىء الحضارة وانهيار دعائم الحق والسلم ! ولعله من المفيد ان يسأل عن ميزة هذه الحضارة يوم قام كرمويل واترابه في بريطانيا وفرنسا واسبانيا وايطاليا يطاردون اليهود ويشنون عليهم الغارات بسيوف كانت تقطر دماً وتسطر شرائع تجعل من اليهود شعباً احط مرتبة من ان يستمتع بحقوق الانسان ائتاراً من خصائصه الشاذة وتخلصاً من اخطاره الجامحة !!

اننا نؤكد لحضرة الكاتب المحترم ان اليهود لو كانوا يأتون الى فلسطين ليدخلوا القومية العربية لفتح لهم العرب الاذرع وضموهم الى صدورهم كما يضم المحب حبيبه ولكنهم آتون الينا ليفرضوا علينا جنسيتهم وآدابهم ومدنيتهم وسيادتهم ! انهم يعملون على استفكاك الاراضي من ايدي العرب وقد استطاعوا بطريقة (الباس الظلم ثياب القانون) ان ينتزعوا من ايدي العرب اخصب الاراضي مما نشأ عنه وجود ٢٨ الف عائلة بدون ارض وهذا ما قاله السر هوب سيمسون في تقريره الرسمي منذ عام واحد يوم انتدب رسمياً لدرس مشكلة الاراضي في فلسطين !

ان السر هوب سيمسون يقول بوجوب اقطاع هؤلاء العرب ارضاً من تلك التي اغتصبها اليهود والا فانهُ يتوقع محذوراً كبيراً اذ يعلن بصراحة احتمال تكرار الفتن والاضطرابات ! لان شذاذ الآفاق من اليهود قد اغتصبوا اللقمة من فم العرب كما اغتصبوا الارض والعمل . فماذا يكون مصير شعب لا ارض له يقتات منها ولا عمل له يدر عليه قوته اليومي ؟ أيسبح افراده الله بكرة وعشية على ما هم عليه من نعمة أم يستوحون ذهنية الفاقة والمجاعة ؟

ان فلسطين لن تكون للعرب واليهود معاً فاما ان تبقى عربية واما ان تتهوَّد وهذا نزاع يكون الفصل فيه لانظمة لا قدرة لميزات الحضارة الغربية على الوقوف امامها او العمل على تغيير سير تياراتها . على ان نهاية هذا النزاع ستأتي وسط جلبة داوية تقع تبعتها على من يقامر بمقدرات الشعوب والامم من ابناء الحضارة الغربية هذه الحضارة التي نجد فيها ماهو جدير باحناء الرؤوس احتراماً كما نجد فيها ما يستعذب معهُ المرء فدى حياتهِ تخلصاً من شرورها وويلاتها !

فلسطين عيسى بندك صاحب جريدة صوت الشعب

الرد

قرأت رسالة الفاضل الفلسطيني العربي فرأيتهُ يفر من المبدأ السامي الذي وصفتهُ في رسالتي الى بحث سياسي ذي نزعة حزبية لا تليق بمن يود ان يتجرد من سياسة اليوم المادية القائمة على الانانية ويسمو الى سياسة الغد التي سيكون اهم اركانها ازالة الفوارق الجنسية بل الدينية

ولو عاد حضرتهُ الى قراءة رسالتي بامعان لرأى فيها الرد على روح ما يكتبهُ

فلا يولّد التعصب الاّ التعصب ولا يزيد في الحقد الاّ الاضطهاد . وانهُ لحريٌّ بمن يذهب مذهب حضرته في تأييد القوة والاستعانة على مذهبهِ بحق الفتح ان يكون القويّ القويّ . واما والحالة كما نرى فما اجدرنا بالمسالمة ان لم يكن حبًّا بمبدإ فاخفاء للضعف

سامي الجريديني

المادة والنور وآراء الاستاذ مشرفة

ان محاضرة رئيس التحرير عن رواية الالكترون وابطالها (مقتطف يناير ١٩٣٢) ،قد بعثت في نفسي اهتماماً دفعني الى ان اتحدث الى القراء عن المادة وعلاقتها بالنور . ولقد كفاني رئيس التحرير مئونة البحث وراء المادة ،اذ انتهى في محاضرته الى انها مؤلفة من ذرات ،وكل ذرة تحوي نواة ذات شحنة كهربائية موجبة تحيط بها الالكترونات ذات الشحن الكهربائية السالبة .

وانهُ لجدير بي ان انير الموضوع اولاً حتى يتسنى للقارىء ان يراه ثم اعود الى مادته فأتم نسجها

اني وان بدأت بالنور فواجب ان اقول انه كان في المعتقد — وكان زعيم هذا المعتقد نيوتن — ان الضوء وهو يسير في خطوط مستقيمة ، لابد ان يفعل ذلك في ذرات نورية يبعثها الجسم المضيء الى شبكة العين فتحس الابصار . ولكن هذه النظرية لم تصمد طويلاً امام وابل الظواهر الطبيعية التي عجزت عن تفسيرها . فتحملت مسئولية التفسير نظرية اخرى هي نظرية الامواج التي تحدثنا ان الجسم المضيء يتذبذب في مكانه ويرسل امواجاً يحملها الاثير الى العين فتبصر

رغم ان نظرية الامواج كانت اكثر توفيقاً في تعليل المظاهر الطبيعية فانها لم تخل من عيوب الجأت العلماء الى اظهار النظرية الكمية لسد بعض النقص ، فذهبوا الى ان الضوء ينبعث متقطعاً في وحدات تدعى «كونتم» او «فوتون» ،ومثل الضوء في ذلك كمثل السيل المنهمر يرسل في قطرات ماء

اخشى ان يدور بخلد القارىء ان الضوء في هذا الحال يفقد طبيعته التموجية — فانه لا يفقدها — ولا اخالني مغالياً اذا قلت ان علماء القرن السابع عشر ، وقد اعتبروا الضوء جسيمات ، وان علماء القرن التاسع عشر وقد اعتبروهُ امواجاً ، كلاهما خاطىء او ان شئت كلاهما مصيب ، تفادياً للنزاع ، فتارة يظهر لنا بمظهر الذرات وطوراً يتصرف تصرف الامواج

لي ان اقف والقارىء هنيهة ، وقد ثبت ان النور جسيمات مضيئة متحركة مع احتفاظها بحالتها التموجية ،اقف وأتساءل ،وقد قاسم النور الالكترون حالته : أليس من العدل ان يقاسم الالكترون

النور حاله فيصبح موجاً رغم احتفاظه بكيانه الجسيمي... نعم لقد دلت التجارب العملية الحديثة على ان هذا هو الواقع العملي. حتى من الوجهة النظرية البحتة نرى ان الحزمة من الأمواج لا ينقصها شيء من الكفاءة في ان تخضع للقوانين الطبيعية بما لا يميزها عن الالكترون باعتبار انهُ جسيم. إذن يصل بنا البحث الحديث الى ان العالم امواج متلاطمة في امواج، فالنور امواج والمادة امواج

جميل ان يكون النور من امواج والمادة من امواج، ولكن اجمل من هذا ان تكون امواج النور هي عين امواج المادة، وهذا المنحى من البحث هو لب حديثي الى القراء، وإن كان اصعب ما في الموضوع من حديث. اذ يتناوبني عند الكتابة عنهُ جملة عواطف متنازعة فبينا قلبي ينقاد تيهاً وإعجاباً ان يكون صاحب هذا البحث استاذاً مصريًّا ووكيلاً لكلية العلوم، بلغ من انتصاره ان تواضعنا في تسميتهِ استاذ المادة والنور، اذا بهِ يشمس انفة وألماً اذ يرى الغرب دون الشرق — وان قلت الغرب فأقصد علماءه — يتحدثون عن هذا البحث ويحمدونهُ في كتبهم ومجلاتهم. ولم اذهب بعيداً وبين يدي كتاب The Mytserious Universe لجينز وكتاب « Beyond Physics » لأليفر لودج اجد في كل تلخيصاً ممتعاً جعلني في حيرة ايهما افضل حتى عزمت ان ارجع الى اصل البحث وهو منشور في اعمال الجمعية الملكية بلندن في ديسمبر ١٩٢٩ تحت عنوان « المظهر المزدوج لكل من المادة والنور » وهو للاستاذ مشرفه واخرج تلخيصاً مستقلاً وان كنت اعتقد اعتقاداً جازماً انهُ سيكون اقل روعة من تلخيص هذين العالمين الكبيرين

بدأ بحثهُ بأن لعب بريشتهِ الرياضية الحاذقة في معادلة الحركة المنتظمة لسطح الالكترون وشكلها في صورة اخرى، ونظر الى هذه الصورة وهو منطلق بسرعة الضوء فرآها وقد تحولت الى صورة موجة ضوئية، واستنتج انهُ لا بد وهو بسرعتهِ هذه ان يرى الضوء مادة كما رأى المادة ضوءًا، اعني كأنهُ يقول ان لا فرق بين المادة والنور غير السرعة، فما المادة الاّ نور بطيء وما النور الاّ مادة سريعة

هذا هو البحث الاول وقد اهتزت له الدوائر العلمية ايما اهتزاز. اما البحث الثاني فهو لا يقل خطراً عن الاول، وقد قرئ في نفس الجمعية ونشر في مجلتها في مايو سنة ١٩٣١ فرض فيه وجود مجهولين غامضين لا يعرف كنههما، واثبت انهما لو ساعد احدهما الآخر لحكمنا انهما بروتون ذو شحنة موجبة، وان عاكس احدهما الآخر لذهبنا الى انهما الالكترون ذو الشحنة السالبة، ولكن ان تعامدا — اعني ان مشى كل في سبيله، لا يعاكس ولا يساعد لرأيناهما نوراً

اذن نخرج من هذا البحث وذاك، ونحن على يقين من ان النور من نوع المادة أو المادة من نوع النور، لا يفرق بينهما غير اختلاف في السرعة والاتجاه. وهذان البحثان محاولة موفقة ناجحة في اظهار ما بين النور والمادة من علاقة نأمل ان يدعمها بحث ثالث في القريب العاجل

محمود احمد الشربيني بكالوريوس في العلوم

باب الزراعة والاقتصاد

ترقية الزراعة ومنتجاتها

كتبتُ هذا البحث لمناسبة المناقشات البرلمانية حول وزارة الزراعة وأثرها في ترقية الانتاج الزراعي في اواخر مايو واوائل يونيو

الاسلوب العرفي والاسلوب العلمي في الزراعة المصرية

(١) للبلاد فلاحة اهتدى اليها الفلاحون بالاختبار جيلاً بعد جيل وتناولوها بالتهذيب والزيادة خلفاً عن سلف واستقر في عرفهم ما انتخلوه منها وتميز وعرف بالعرف الزراعي وبقواعده يستثمرون ملايين من الفدانين قبل ان توجد مدارس الزراعة ووزارتها وقد اعترف بصحته افاضل المهندسين والاداريين والزراعيين من الاجانب بعد ان حاولوا العدول عن بعض حقائقه او تعديلها فأرجعهم الاختبار العملي اليها — راجع اقوالهم في مقتطف سبتمبر سنة ١٩١٦ ص ٢٧٦ ضمن مقالنا استغلال الارض

هذا العرف او الاسلوب العرفي لم يُدَوَّن منهُ الاَّ قليل من كثير ولذلك كنتُ ولا ازال اقول انه — لابدَّ لترقية الفلاحة من البدء من الاساس وهو عمل الفلاح فنجمعه ونهذبه — كذلك صنعت فرنسا في بدء نهضتها الزراعية

(٢) اما الاسلوب العلمي وهو ما يفيدنا اياه البحث على مناهج الاصول الحديثة فانه لا يزال « نَبْتاً لم يبرض بعدُ — بأرض النبت اول ما يظهر منه » ففي سنة ١٩١٠ كان يعتبر الزراعيون الاجانب انه لا وجود له — راجع تقرير لجنة القطن في كتابي زراعة القطن الطبعة العربية بمطبعة المقطم سنة ١٩١١ — وقد ارتقت بعد ذلك مدرسة الزراعة بالجيزة الى مدرسة عليا وانشئت وزارة الزراعة ولكن تغلب الصبغة النظرية في الاولى والادارية في الثانية على المباحث الفنية عرفية كانت او علمية قصَّر بهما عن العمل المجدي لترقية الفلاحة ومنتجاتها واضاع مجهودات بعض الفنيين ضياعاً ما كان يكون لو ان معرفتهم بشؤون الفلاحة والفلاحين العملية كانت غير قاصرة — راجع مقتطف يوليو سنة ١٩١٨ انتقادنا لتجارب المستر كارترايت والمستر دوجن في ري القطن . وراجع بتقارير مجلس مباحث القطن تخطئة هذه التجارب

(٣) وفي مقطم ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٥ علقنا على النشرة الفنية لمجلس مباحث القطن عن تشريق الارض وبعد ان حبذنا ما يستحق التحبيذ فيها وراجعنا ما يستحق المراجعة منها قلنا من غير جمع العرف الزراعي يطول ويلتوي الطريق على الباحثين العلميين فتصدر عنهم مزاعم يعرف الفلاح بطلانها فيقل ايمانه بأبحاثهم الاخرى . ولا تكون لهذه الابحاث قيمتها العملية الاّ اذا تناولها العارفون بالفلاحة العملية ودرسوها وهذبوها واستخلصوا منها ما يفيد الفلاح العملي فائدة حقيقية. اما النشرات الزراعية التي يكتبها علماء غير مشتغلين بالفلاحة العملية وغير عارفين بالعرف الزراعي معرفة كافية فان الفلاح لا يستفيد منها فيهملها لانها غريبة عنه وهذا هو السر في عدم استفادة كثيرين منها »

(٤) ولذلك كان مما اقترحت على لجنة اصلاح التعليم الزراعي منذ سنين ان يوجه التعليم في المدارس الزراعية وجهة عملية وان يتوقف اعطاء الدبلوم لمتخرجيها على قيامهم ببحث احد الموضوعات الزراعية العملية بحثاً وافياً . هذا ما اقترحته وبالاولى ان يكون اساتذتها ممن تكونوا تكويناً عملياً او كما قال مؤلف تطور الزراعة وارتقاؤها بألمانيا « نطلب ان كل استاذ يدرس علم الزراعة يجب عليه ان يثبت في الشغل العملي حسن ادارته الخ » ص ٨٤ من الترجمة العربية للاستاذ عصام ناصف

غيطان النماذج

(٥) الزروع المصرية وصناعاتها قسمان — قسم عام يشترك في معرفة فلاحته جمهور الفلاحين في كل المناطق كل منطقة وما يوافقها كزروع القطن والقمح والبرسيم والذرة وقسم خاص تنحصر معرفته في مناطق او جهات خاصة كبعض زروع الخضروات والفاكهة وتربية الطيور وصناعة الالبان الخ وفي كلا القسمين يتفاضل الفلاحون بعضهم عن بعض في معرفة حقائق كل زرع او كل صفة واتقان العمل بها تبعاً لتفاضلهم في الخبرة والاجتهاد والقدرة والذكاء وقد انشأت الوزارة غيطان نماذج للزروع الاولى الاكثر شيوعاً ولا حاجة بالفلاحين اليها خصوصاً انهُ يوجد في كل قرية غيطان ممتازة باتقان الفلاحة وذكاء الانتاج وهذه الغيطان اكثر عدداً وأقرب مسافة لسائر الفلاحين من غيطان الوزارة المحدودة . لذلك كان الاجدر بالوزارة ان تقوم بانشاء محطات تجارب ونماذج لزروع القسم الثاني وصناعاته لاذاعتها بين جمهور الفلاحين فيتيسر لهم الانتفاع بها واحلالها بدل ما قل من زراعة القطن بدون بطء ولا تخبط وصعوبة كما هو حاصل الآن — لذلك اقترح العدول عن غيطان النماذج للزروع الشائعة وانشاء محطات تجارب ونماذج لسائر الزروع والصناعات الزراعية التي يحسن نشرها بين الفلاحين الآن لكل مديرية محطة على الاقل يختار لها ما هو اوفق لاقليمها من هذه الزروع والصناعات

الري

(٦) الاصل ان يكون الري تابعاً للزراعة لا ان تكون الزراعة تابعة للري ولكن الحال في مصر بالعكس لتقدم علم الري عن علم الزراعة كما يقول مؤلفا النشرة الفنية الآنفة الذكر ولعله لذلك كانت الاخطاء التي أضرَّتْ بخصب الارض وانتاجها ونذكر منها

(ا) قصور الصرف عن بلوغ شأو الري وقد تواترت المشاهدات والاقوال فيه من رجال الري والزراعة معاً . من ذلك رسالتان لشفيق باشا وزير الاشغال والزراعة السابق نُشرَت احداها بمجلة الفلاحة والاخرى بمقطم ١٨ دسمبر سنة ١٩٢٦

(ب) عمل مشروعات لاحياء ارض موات وإهمال ارض زراعية رواتب عامرة وانما ينقصها العناية باتمام وسائل ريها وصرفها . قلت في احدى مذكراتي الزراعية ان من العبث ان نرى كثيراً من الارض الزراعية مهملة او قليلة الريع لقصور ريها او صرفها ثم نعمل على إضافة ارض جديدة — ليست العبرة بكثرة الفدادين بل العبرة بما يمكن عمرانه واستغلاله كما ينبغي ولذلك فان الافضل الآن تدبير ما يلزم لاتقان ري وصرف الاطيان الزراعية الحالية وهي كثيرة لاسيما وان الكلفة فيها اقل والفائدة اقرب واكثر — راجع الجزء الثاني من كتاب علم الري لحسين سرّي بك ففيه احصائيات مفيدة في هذا الموضوع وقد نشرتها في المقتطف السنة الماضية ضمن ملخص عن مشروعات الري الكبرى

(ج) وجوب التبكير بالجفاف الشتوي عن اوانه المعتاد خصوصاً انهُ يتوفر معهُ الماء المخزون بخزان اصوان كما شرحنا ذلك بمقطم ٧ مايو سنة ١٩٢٢ ومقطم ١٣ اكتوبر سنة ١٩٢٩

(د) تمكين المزارعين من الانتفاع بمياه الفيضان الحمراء حتى لا تحرم منها الارض بينما هي تضيع هدراً في البحر الابيض المتوسط كما شرحت ذلك بمقطم ١٩ اغسطس ١٩٢٢

(هـ) تمييز الجهات البحرية بالتبكير في طفي الشراقي كما شرحت ذلك بمقطم ٢٨ مايو سنة ١٩١٧ الخ الخ الخ

(٧) — ان المثل الاعلى الذي نبتغيه في الري أن يتيسر وجود المياه حسب حاجة الارض والزرع فلا مناوبات طويلة يظمأ معها النبات ولا تحاريق — منسوب واطي للمياه — يكلفنا الروافع ولا حظر او تقييد يحول دون زراعة الارز زراعة بكيرة او تحرمنهُ منطقة تحتاج اليهِ او يتأخر طفي الشراقي للذرة عن موعده المناسب او يحول دون تنييل الارض في فصل الفيضان وأن تكون المصارف كافية لتجفيف التربة وتخفيض مستوى النز «الماء الارضي» وان يكون صرف الفيضان فيها بالراحة الخ الخ الخ

حالة الفلاح

(٨) يزعم البعض ان الفلاح كسول عن فلاحة ارضه كما ينبغي . كلاَّ إنهُ مريض تضعفهُ البلهارسيا والانكلستوما والملاريا والانيميا وسوء التغذية والمسكن والملبس والمكيفات واشدُّها فتكاً بهِ الهروين وفصيلته الجهنمية ولا اكاد اذكر هذا الاَّ واذكر معهُ إعتراضي على حظر زراعة الخشخاش (الافيون) الذي اقره البرلمان منذ بضع سنين فقد نشرتُ حينذاك رسالة بالمقطم قلت فيها انهُ لم توجد امة من الامم في كل زمان ومكان إلاَّ ولها مكيِّفات واقل هذه المكيفات شرًّا ما تعوَّدتهُ فاذا حظرنا زراعة الافيون وهو زراعة وطنية حل محله الهروين وما اشبه وفضلاً عن انهُ اشد ضرراً فانهُ بضاعة اجنبية يذهب ثمنها من جيوبنا الى جيوب الاجانب وقد صح ما توقعته حتى ان رسل باشا حكمدار القاهرة راعهُ انتشار الهروين وشدة فتكه بالجمهور فاقترح اباحة تدخين الحشيش في مستعمرات خاصة فينصرف الجمهور عن الهروين اليهِ ولو عرف الحكمدار ما نعرف من احوال الفلاحين الاجتماعية والصحية وتقاليدهم العرفية لطلب اعادة زراعة الخشخاش — وبعض الشر اهون من بعض — والقارىء الذي يعرف أن باعالي الصعيد منطقةً لزراعة الخشخاش يرى انا لم نخرج بهذا الاستطراد عن موضوعنا — ترقية الانتاج الزراعي ! ! ! ونعود لتحسين حالة الفلاح الصحية فنقول انهُ تجب العناية بالاستكثار من المستشفيات الثابتة والمتنقلة لعلاجه وإيجاد دعاية صحية شاملة واذاً يتعافى الفلاح فيقوى وينشط ويزيد إنتاجه

(٩) يزعمون ان الفلاح جاهل بفلاحته . كلاَّ . إنهُ خُلْوٌ من المعارف الاولية التي تنير ذهنهُ وتصيِّره خيراً مما هو فهماً وتمييزاً وإذاً يمكنهُ أن يرفع مستوى عمله في فلاحتهِ ومعيشته — فلْنُعلِّمْهُ القراءة والكتابة ومبادئ الصحة والحساب وقواعد الدين والآداب ولْنُحَبِّبْ اليهِ الفلاحة ونَقُصَّ عليهِ ما بلغهُ فلاحو البلاد المستنيرة في ترقيتها والاستفادة منها لا ان نَلْمِزَهُ بلفظ فلاح كانهُ من ألفاظ التحقير ! ! !

(١٠) ان ازدياد ريع الارض لا يتوقف الآن على شيء بقدر ما يتوقف على اصلاح حال الفلاح صحيًّا وادبيًّا كما اسلفنا وماليًّا ايضاً فَلْنُعاونْهُ على الحصول على افضل البزور والاسمدة والآلات والمواشي ايضاً وعلى بيع محصوله بالثمن المناسب في الوقت المناسب وعلى اتقان العمل بما يعرف ومعرفة ما يجهل من شؤون الفلاحة وصناعاتها حتى يزيد كسبهُ ومهارتهُ لا سيما وانهُ يشتغل هو وزوجتهُ واولاده فاذا تعدَّدت نواحي العمل استطاع كلٌّ منهم ان يأخذ بناحيةٍ من نواحيهِ — راجع مجلدات المقتطف سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٧ مقالاتنا « استغلال الارض — اركانهُ وكيفياتهُ » ففيها ابحاث مسهبة عن الفلاحين ومواضع القوة والضعف فيهم وما يحتاجون اليهِ لاصلاح احوالهم الادبية والزراعية — وفيها ايضاً ابحاث عن موضوع الفصل التالي

الملاك

(١١) اهمل كبار الملاك الوطنيين العناية بالفلاحة سواء كان بجهلهم أو عدم تعليم ابنائهم اياها او تفضيل الاقامة بالقاهرة او خدمة الحكومة على الاستقرار في مزارعهم او الاشراف على ادارتها والمثل الزراعي القديم يقول « الضيعة لصاحبها او في ظلك أعمر » او بسوء تقديرهم لموظفيها وكان لا يزال كثير منهم يحسب ان ادارة المزارع لا تستدعي ما تستدعيه الادارات الاخرى من ضروب الكفاآت الفنية والادبية على تفاوت بينهم في ذلك ففريق منهم على ان معرفة الفلاحة ليست شرطاً ضرورياً في مدير الزراعة كانه يمكن ان يحسن انسان ادارة شيء يجهله وفريق آخر على انه في معرفة الفلاحة وحدها الكفاية لادارة شؤونها بلا تقدير يؤبه به للكفاءات الادبية والاخلاقية التي يجب توفرها في كل من تعهد اليه مهام اي عمل كأن القواعد الفنية يصدر تدبيرها عن نفس عارفها مجرّداً عن العوامل الاخرى كجودة النظر في تكييفها حسب المناسبات وتمييز متشابهاتها وتقدير ملابساتها والهمة والنزاهة في تطبيقها الخ الخ وكل ذلك من اسباب ضعف الانتاج الزراعي ومعلوم ان الاطيان المملوكة لكبار الملاك تبلغ نسبتها اكثر من ٤٠ ٪ من اطيان الاهالي

المعارف الزراعية

(١٣) هناك اهمال فاضح في نشر المعارف الزراعية ومخلفاتها ووضعها وضعاً يسهل استفادة الجمهور منها — ترى ذلك في اسلوب كثير من ابحاث وزارة الزراعة وغلاء اثمانها وفي عدم عناية الجرائد والمجلات بالابحاث الزراعية فانها تفضل عن نشر ابحاثها نشر كلمة من شوارد اللغة او حفلة وداع موظف او خلاف زوج وزوجة والادهى من ذلك نشر ما لا يفهم حتى لتكاد تكون قراءته طرداً كقراءته عكساً

***

وبعد فان ترقية فن الزراعة واذاعته وتكثير الانتاج الزراعي وتجويده لا يتوقف على مجهود وزارة الزراعة وحدها فانها وان كان يجب ان تكون زعيمته الا انه لا بد من أن تتعاون معها مصلحتا الري والصحة ووزارتا المعارف والمالية وكبار الملاك وجمهور الفلاحين والصحافة. ولقد التزمت في مقالي هذا الاختصار التام فان مواضيعه وان وجهتها نحو غرض واحد هو الانتاج الزراعي فان كل واحد منها مستقل بذاته يقتضي ابحاثاً خاصة مسهبة

احمد الالفي

مكتبة المقتطف

امراء الشعر العربي

في العصر العباسي

دراسات تحليلية لادب سبعة من اشهر شعراء العرب والجو الذي نشأوا فيهِ

تأليف انيس المقدسي — استاذ الادب العربي — في جامعة بيروت الاميركية

نحسب — ولا نغالي في حسباننا — هذا الكتاب من افضل الكتب الادبية التي اخرجتها المطابع العربية في بضع السنوات الاخيرة . فلشعراء العصر العباسي مكانة فريدة في تاريخ الادب العربي ويكفي ان نذكر الشعراء الذين اختارهم الاستاذ المقدسي موضوعاً لدراستهِ — ابو نواس وابو العتاهية وابو تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعرّي — ليكون ذلك مغرياً للباحثين والقراء بالعناية بهِ عناية خاصة . فاذا تصفحنا فصوله ورأينا سعة الاطلاع في ايراد الروايات المختلفة عن ائمة الناقدين والباحثين ، وصفاء الذهن في تحليلها وضرب الامثلة عليها، واتزان الحكم في ترجيح رأي على رأي او استنباط رأي جديد، عرفنا اننا لسنا امام كتاب عاديّ مما تقذفنا بهِ المطابع كل يوم . انهُ كتاب استاذ !

***

ولم يشأ الاستاذ المقدسي ان يفاجئ القارئ مفاجأة بدراسة الشعراء الذي امّرهم على الشعر في العصر العباسي . بل عمد — وحسناً فعل — الى وصف العصر العباسي وصفاً مجملاً في نحو ٨٠ صفحة من الكتاب فتناول التنافس بين العناصر الجنسية ولاسيما تنافس العنصرين العربي والفارسي وضعف الخلافة وتجزؤها الى امارات مستقلة واثر ذلك في شعر ذلك العصر

قال:— «وكان من نشوءِ هذه الدول في العالم الاسلامي ان الادب تحوّل عن بغداد الى مراكز اخرى فكان الخليفة الراضي الذي بويع سنة ٣٢٢ هـ آخر خليفة دوِّن لهُ شعر وآخر خليفة كانت مراتبهُ وجوائزه وخدمهُ وحجّابه تجري على قواعد الخلفاءِ المتقدمين (الفخري ٢٠٦) ومعنى ذلك ان العرش العباسي لم يعد الموئل الاكبر للادب والادباء وانه نشأ في الامارات المستقلة حواضر زاحمت بغداد في الشعر والعلم منها بلاط سيف الدولة في حلب وتلك الحلقة الادبية التي كانت تحيط بهِ مثل ابن خالويه وابن نباته وابي فراس والمتنبئ والفارابي . . . وبلاط آل بويه ومن اتصل بهم كابن العميد والصابي والصاحب بن عباد . . . الخ وهذا التنافس على الادب

(بين امراء الامارات المختلفة) يفسّر لنا تلك الظاهرة التاريخية الغريبة — استمرار الادب العربي مع ضعف العرب وذهاب السيادة من ايديهم » —ومن اشهر رجال الادب والفكر في ذلك العصر ابن سينا الطبيب الفيلسوف والبيروني الفلكي والجوهري صاحب الصحاح وابن فارس اللغوي وابن دريد صاحب الجمهرة والمسعودي المؤرخ وابن مسكويه المؤرخ والفيلسوف وابن البيطار النباتي . اما المدن التي شاركت بغداد وزاحمتها فنها مصر وحلب ودمشق وقرطبة واشبيلية والقيروان وخوارزم ونيسابور وبخارى

* * *

ثم فصّل تطور الحياة الاجتماعية العربية الذي بلغ اوجهُ في العصر العباسي بنشوء قومية عربية جديدة على اثر دخول شعوب البلدان التي فتحها المسلمون في حظيرة الدعوة الاسلامية ، وازدهار عمران بغداد وسواها من الحواضر ، واتساع الثروة وازدياد الترف ، وترعرع النهضة الفكرية العامة . ولكل من هذه الظاهرات الاجتماعية اثر بليغ في الشعر العربي

فنشوء القومية الجديدة مثلاً بالامتزاج والاختلاط والانضمام ادخل على اللغة العربية الفاظاً جديدة . ففي الشام كان الروم والسريان واليهود . وفي العراق الاراميون والفرس . وفي مصر الاقباط وسواهم في سوى ذلك —.... واكثر الالفاظ المقتبسة اما يونانية او فارسية. اما اليونانية فراجعة الى حياة اليونان العلمية والفلسفية — واما الالفاظ الفارسية فمعظمها اجتماعي—قال: «وقد تحرينا اكثر من مائة لفظة عربية فارسية الاصل فوجدنا اكثرها من باب المأكل والمشرب والملبس والفرش والملهى بين الادوات المنزلية والصناعية » وكلا الطائفتين من الالفاظ دليل على الناحية التي اختلط فيها العرب باليونان من جهة وبالفرس من جهة اخرى

وعلى هذا النحو يمضي المؤلف في درس الحياة الاجتماعية من ناحية اثرها في الادب والشعر ، ثم يتحول الى «مجاري الحركة الفكرية» مبيّناً ان المصادر الرئيسية هي اليونان وفارس والهند : قال : «ليس للحركة الفكرية في امة من الامم منبثق خاص تتدفق منه تدفق الينابيع من جوانب التلال . بل هي كسيول الاودية تمدها المياه القليلة المنحدرة من هنا وهناك فلا يلبث ان تصير عجاجة شديدة الشكيمة . كذلك حياة العرب الفكرية ، كثيرة الاصول متشعبة الروافد ، وهيهات ان نحاول الآن البحث عن كل اصل وكل رافد منها فانها متصلة بظلمات يتيه فيها الاستقراء العلمي والقياس المنطقي»

وحبذا لو عني في هذا الباب في اثناء الكلام عن المصدر اليوناني بايضاح ان حركة الترجمة من اليونانية الى العربية لم تتم مباشرة ، وان معظم المؤلفات العربية التي تسند الى اصل يوناني انما نقلت عن ترجمات سريانية في الغالب . نعم انهُ اشار صفحة ٦٣ سطر ٦ الى ذلك ولكن الاشارة مجملة مبهمة لا تغني عن الايضاح

ما تقدم يرسم للقارىء صورة مجملة شديدة الايجاز للقسم الاول من الكتاب . اما القسم الثاني فيبدأ بفصل في خصائص الشعر العباسي تليه الفصول السبعة الخاصة بالشعراء الذي اختارهم موضوعاً لبحثه وقد مرَّ ذكرهم

في رأس الصفحة الثانية من هذا الفصل حكم للمؤلف يصحُّ ان يعتبر اساساً لبحثهِ . فبعد ان بيَّن ان الشعر نوعان رئيسيان وجداني وموضوعي — فالوجداني يدور على نفس الشاعر والموضوعي على شيء خارج من نفسهِ يقول : « وانت اذا رجعت الى معظم دواوين الشعر في العصر العباسي ثم دققت في المقاييس الأدبية التي وضعها علماء البلاغة ونقدة الشعر امثال الجرجاني والعسكري والامدي والثعالبي وقدامه والاصفهاني وابن الاثير واضرابهم رأيت ان التجدد في العصر العباسي لم يتعدَّ في الاغلب صناعة الشعر وانهُ منحصر في الوجداني منهُ وهو يظهر في ثلاثة مظاهر — رقة العبارة والتفنن في المعاني والتوفر على البديع اللفظي وقد يضاف اليهِ التوسع في المصطلحات اللفظية » . ثم يستثني من ذلك الناحية الروحية فيقول « على انهُ من الانصاف ان نقول ان الشعر المولَّد يمثل لنا ايضاً تجدداً في الناحية الروحية من الشعر ناحية الزهد والورع والاصلاح » وقد عني بهذه الظاهرة عناية خاصة لدى البحث في شعر ابي العتاهية

ويلي ذلك شرح كلٍّ من هذه الظاهرات وضرب الامثال الكثيرة عليها من شعر ذلك العصر

* * *

الى هنا وقفنا الكلام على ثلث الكتاب الاول . اما طريقة دراستهِ لكلٍّ من الشعراء الذين اختارهم للامارة في العصر العباسي فقد تبيَّنها قراء المقتطف في الفصل المسهب الذي نشرناه في مقتطفي ابريل ومايو هذه السنة عن « ابو تمام » وقد خرج فيها على المألوف في ايراد سيرة الشاعر ونوادره الى تبين أثر حياته في شعرهِ وفكره واستخراج الحقائق العامة التي يمتاز بها انتاجهُ الشعري

وقد يسأل البعض لمَ اختار المؤلف هؤلاء الشعراء دون غيرهم ؟ والجواب قولهُ . « يختلف الباحثون في من المقدَّم من شعراء العصر العباسي . ولا سبيل الآن الى البحث في اختلافاتهم والنظر في اسبابها فلكلٍّ نظره الخاص ولكل آراء يدعمها بحجج مقبولة . على اننا قد اخترنا لدراستنا سبعة هم بلا جدال اشهر المولدين . وقد يجدر بنا ان نضيف اليهم ابن الفارض ولكننا تركناه لرسالة خاصة تتناول عهده واسلوبهُ . وخصصنا هذا الكتاب بهؤلاء الشعراء الذين يمثلون في انفسهم وشعرهم حضارة العصر العباسي افضل تمثيل »

وقد عني المؤلف بذكر المصادر التي اعتمد عليها في دراسة كل شاعر في صفحة على حدة

في صدر كل رسالة ، وهي تشمل اهم المراجع التاريخية والادبية قديمة وحديثة . ولكنهُ لم يفرد هذه الصفحة — كما يفعل بعض المؤلفين — ليفرغ من تبعة الاسناد اليها استناداً دقيقاً في المتن . فانت ترى اذ تقلب صفحات الكتاب ، هوامشها مشحونة بالاسناد الى المصادر التي اعتمد عليها. ثم انهُ الحق بكل فصل مختارات من شعر الشاعر

فالكتاب في الواقع ثلاثة — رسالة موجزة في العصر العباسي وسبعة فصول في سبعة من امراء الشعر فيهِ وديوان مختار من شعرهم

اشعة وظلال — الصناعات الزراعية

— ديوان — — مجلة —

قد يستغرب القارئ اذا قلنا لهُ ان صاحب المجموعة الشعرية الموسومة «اشعة وظلال» هو صاحب المجلة العلمية التي اسمها « الصناعات الزراعية » ولكن الدكتور ابو شادي قد عودنا مثل هذه الغرائب فقد اصدر في خلال بضع سنوات كتاباً طبياً ضخماً دعاه « الطبيب والمعمل » وديواناً ضخماً سمَّاه « الشفق الباكي » وكتاباً في « مبادئ النحالة » ومجلتين احداهما « مملكة النحل » والثانية « الدجاج » . وهو الى ذلك بكتيريولوجي يقع على عاتقهِ عبء جانب كبير من البحث البكتريولوجي في مستشفى الامراض العفنة بالقاهرة

فنحن نرفع قبعتنا — على حدّ التعبير الانكليزي — او ننحني باحترام لصاحب هذا الذهن الفيَّاض يدعمهُ دأب يصحُّ ان يكون مضرب الامثال

* * *

اما «اشعة وظلال» فمجموعة من قصائد ابي شادي الحديثة في مطالب منوّعة. فمنها طائفة كان ينشر بعضها تحت عنوان « شعر التصوير » . وطريقتهُ فيها اختيار صورة رسَّام مشهور ووصف اغراضها في قصيدة عربية . وفي هذه القصائد كثير من المعاني الجديدة والصور الشعرية الفاتنة . ولكن القصائد في الغالب فاترة لا تثير النفس ، ولعلّ ذلك سببهُ ان معظم الصور غربيٌّ يمثل نواحي من الحياة الغربية لا تسترعي عنايتنا ، ولعلّ الشاعر في وضعها يستوحي عقلهُ اكثر مما يستوحي شعورهُ المتوهّج اعجاباً بها . وافضل من ذلك لو تصوّر الشاعر صوراً ووصفها شعراً اذن لجاءت وليدة خيالهِ وشعوره وعقلهِ معاً ، فتمّ لهُ بذلك عناصر الشعر السامي

ثم طائفة — وهي قليلة — من الشعر المترجم عن الانكليزية أو الفرنسية . وفي الحالين نفضل الترجمة النثرية على الشعرية . فللدكتور ابو شادي مذهب في الترجمة الادبية يقوم على

الترجمة الحرفية وهو واجب في النثر الادبي. ولكن اذا جئت تقيد الترجمة الحرفية بقيود الشعر العربي افضى الى ذلك الغموض ، وهو المسحة الغالبة على القصائد القليلة المترجمة

اما الطائفة الثالثة فتلمس فيها نفس الشاعر وقد ارسلت على سجيتها فيرتفع على اجنحتها الى مستوى الاجادة العالي. خذ مثلاً قصيدتهُ التي ردَّ بها على الاستاذ النشار (صفحة ١٨ — ٢٢) فانها من عيون الشعر ، ويجب ان تقرأ كاملةً . والمقطوعة « دنياي » صفحة ٤٦

يا وجهها ان فيك الحسن مشتعلاً والطف ممتثلاً والحب مجتمعا
يا ثغرها ان فيك النور مؤتلقاً والعشق محترقاً والسحر مطلعا
يا شَعرها ان فيك الموج مضطرباً والليل محتجباً والصبح ممتنعا
يا صدرها ان فيك الوعد منتهياً والعطف مزدهياً والبر متسعا
يا صوتها ان فيك الوحي منبثقاً والشعر مندفقاً والفن مبتدعا
روائع هي لي الدنيا با كملها ولن اقيس بها خلداً وما جمعا

وقوله في قصيدة الوعود صفحة ٨٩

لتعبث بي الاقدار ما شاء حكمها فانّي لصبّار وان انا عانيتُ
وما خوفي الاعصار بعد هبوبهِ اذا انطفأ المصباح واندلق الزيت
واي جحيم بُعد اخشى لهيبهُ اذا احترقت نفسي كما احترق البيت

وقوله في رثاء فوزي المعلوف

فالعبقرية لا محلٌ لكنها ابداً وليس جلالها لفناء
كل الجمال مطوّع لجمالها كل الوجود يخصّها بدعاء
تحيا وتفنى ، والحياة وضدها سيان في ملكوتها المتنائي

اما مجلة « الصناعات الزراعية » فاسمها دليل عليها وهي من المجلات التي تحتاج اليها مصر كل الحاجة . فمصر « ليست جديرة باستقلالها الاقتصادي فقط ، بل بتفوقها في الصناعات الزراعية تفوقاً يسمح لها بالتصدير والسيطرة على جانب غير قليل من الاسواق الخارجية . ولكن هذا لن يتحقق بغير الهمة الفعّالة والسعي المتواصل ونشدان الكمال في الانتاج والتصريف — وهذه هي رسالة المجلة . . . » نقلاً عن افتتاحية العدد الاول صفحة ٢

فنرحب بهذه المجلة المفيدة ونتمنى لها النجاح في خدمة البلاد

صور جديدة من الادب العربي

اطلع قرّاء المقتطف على فصول هذا الكتاب لما نشرت تباعاً في المقتطف ، وعلى مقدمة الدكتور طه حسين له ، التي نشرناها في مقتطف يونيو الماضي . فنشكر للمؤلف — كامل كيلاني — عنايته بجمعها في كتاب يجب ان يكون في خزانة كل اديب عربي

الخطرات (١)

كتاب أدب وأخلاق واجتماع بقلم الآنسة وداد سكاكيني

من يقرأ هذا الكتاب يرَ ان الآنسة وداد نموذج صالح من فتيات العرب الصالحات ، فهي تدعو الى التهذيب العام ، والى تهذيب الفتاة بوجه خاص ، على وجه يتفق مع مصلحة الامة والبلاد وآداب ارثنا الصالح . وقد جرت في ميادين من الادب والحكمة والاخلاق والتربية كانت فيها مجلية . وها انذا اعرض على القارىء الكريم نماذج قليلة من هذه المقالات :

ترى الآنسة الفاضلة — في مقال العظمة — ان العظمة الحق لا يجوز ان تقال الاَّ لنابغة له اثره الطيب في الحياة من رجال الاختراع والفن والفلسفة والادب وغيرهم ممن يترك في الناس اثراً له قيمته وله خطره ، وللناس جناه وفائدته

وترى — في مقال الادب العربي — انهُ لا يجحد فضل الآداب القديمة الاَّ كل جاهل بها، اومتذوق منها ما لا يروي غلة. ولكنها تريد من ادباء اليوم ان لا يكونوا نسخة عمن تقدمهم من السلف، بل يجب عليهم ان يكوّنوا ادباً يمثل اخلاقنا وحياتنا، كما مثل من قبلهم اخلاقهم وحياتهم

وترى — في مقال الانانية — ان الانانية من الطبائع الانسانية، فهي لا يمكن استئصالها لكن في الامكان تهذيبها حتى تكون معتدلة وحينئذٍ لا تكون بغيضاً ولا ممقوتة ، لانها والحالة هذه — من مقوّمات الحضارة والعمران والارتقاء

وترى — في مقال تطور المرأة — ان المرأة العربية كان لها مقامها الرفيع عند العرب في الجاهلية . واعتذرت للعربي الجاهلي عن قسوتهِ احياناً ، وحملت ذلك منهُ على الحب الشديد لهذا الجنس . وما نرى هذا مما يغفر له سيئاته . وقد تناست الآنسة كثيراً من العادات السيئة التي كانت تحط من مقام المرأة في ذلك العصر ، حتى جاء الاسلام فضرب بكل تلك العادات الممقوتة وجوه اهلها ، ورفع المرأة على عرش الحرية الصحيحة، واعطاها من الحقوق المشروعة ما تقصر عن بعضه امرأة اوروبة اليوم

وترى — في المقال نفسه — ان العرب ، بعد ان اختلطوا بغيرهم من الامم تسربت اليهم من اخلاقها ما لا يتفق والكرامة العربية ، وسرى من ذلك شيء الى المرأة العربية ،فتبدلت اخلاقها وانحطّ مقامها فكل ما نراه بعد ذلك ، الى يومنا هذا من تأخر المرأة العربية ، لم يكن ارثاً عربيًّا ولا اسلاميًّا ، وانما هو آتٍ عن طريق غير عربية ولا اسلامية

ورأيها في المقال معتدل ، فهي تنقم على المرأة هذا الارث البالي ، وتريد منها ان تتجدد تجدداً يلائم روح العصر والبيئة بلا افراط ولا تفريط . وتنقم على من كسروا وكسرن قيود الحياء والشرائع ، اولئك الذين يريدون ان تنغمس المرأة في هذه المدنية الاوربية بلا قيود ولا

(١) من مقال للاستاذ الشيخ مصطفى الغلاييني

شرط . وترى ايها القارىء . الكريم ، هذا واضحاً ايضاً في مقال « اصلاح المرأة »

وترى الآنسة الفاضلة — في مقال الجرأة الادبية — ان هذه الجرأة ضرورية لكل مجتمع اذ لولاها لظل المجتمع في خموله وضلاله ، ولولا المصلحون في كل امة ، الذين يجأرون بالحق ويصدعون بالصدق ، لم تقم لامة قائمة وضربت على ذلك مثلاً شيخنا الامام المرحوم « الشيخ محمداً عبده » ووصفت ما قام به من الاصلاح والدعوة الى النهوض والتجدد في سبيل الحق وصفاً صادقاً

واذا قرأت مقالها « ذكرى النبي » رأيت ما تحمله هذه الفتاة في قلبها من الشعور الديني الصادق الخالص من شوائب البدع والخرافات التي ألصقت بالاسلام وهو منها بريء .. ورأيت ما في نفسها من الاكبار والاجلال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . فقد وصفت ما قام به الرسول من جلائل الاعمال ، وكيف صبر في سبيل الدعوة الى الحق صبر الجبال على النوازل ، حتى بلغ ما يريد من هداية قومه

واني اجتزىء بما كشفت عنهُ من المقالات التي ذكرتها عن اظهار ما في المقالات الاخرى من روائع المعاني الجليلة ، حبًّا للاختصار ، لان ذلك يقتضي صفحات كثيرة لا يتسع لها صدر هذه الكلمة . وما على القارىء الكريم الاّ ان ينعم النظر في هذا الكتاب كله ، فيرى فيه من الموضوعات الجليلة المفيدة ما يدعوه الى نشره واذاعة فضل مؤلفته التي تستحق كل اكبار واجلال

الفرق الاسلامية

للاستاذ البشبيشي المدرس بدار العلوم

لعل ديناً من الأديان السماوية لم يرزق كثرة الفرق فيه كما رزق الدين الاسلامي ولقد كانت هذه الفرق المتعددة موضع سخط الجمهور من المسلمين ومحل المقاومة من الخلافة الأسلامية . الا انها بالرغم من ذلك استطاعت ان تكوّن حلقة من حلقات التفكير الاسلامي واستطاعت — على الرغم من اضطهاد الرؤساء — ان تكوّن لها انصاراً واتباعاً

ومن المحقق ان هذه الحركات الفكرية في الاسلام هي اثر من آثار اتصال المدنية الاسلامية بالفلسفة الاغريقية عن طريق السريان . والحكمة الهندية والديانة الفارسية

وحبذا لو تكلم مؤلف الفرق الاسلامية عن هذا الاتصال ورد هذه الآراء الى النبع الذي استقت منه فان بحثه يكون بذلك اتم وأوفى

وكنا نود لو ان الاستاذ البشبيشي تكلم عن هذه الفرق من غير تعرض للرد عليها فمثل هذه الآراء لا يكفي للرد عليها بضعة سطور كما فعل المؤلف . الاّ اذا احب ان يثبت لنا انه من اهل السنّة . ويقول الاستاذ عن وحدة الوجود انه مذهب احدثه متأخرو الصوفية . والواقع انه مما قال به اوائلهم . واول من قال به ابو يزيد البسطامي المتوفي سنة ٢٦١ هـ . الاّ ان كلام البسطامي في الحلول وهو الخطوة الاولى من وحدة الوجود . بهذه المناسبة نذكر ان جوته

شاعر المانيا العظيم كان حلوليًّا وله قصيدة يقول فيها

الله لا يرضيه هيمنةٌ فوق الطبيعة من اعاليها
الله يرضى ان يكون بها في ظاهر منها وخافيها
ان الطبيعة فيه ماثلة وكذا نراه ماثلاً فيها

وللشاعر « شلي » ابيات في مثل هذا المعنى

ان جمع هذه الفرق المتعددة في كتيب واحد لهو عمل يشكر عليه الاستاذ البشبيشي وهو يفيد كل مشتغل بتاريخ التفكير الاسلامي

محمد عبد الغني حسن

تفسير الالفاظ الدخيلة

وضع القس طوبيا العنيسي الحلبي اللبناني كتاباً مفيداً لعلماء اللغة جمع فيه ما عثر عليهِ من الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية وذكر اصلها بحروفه . بدأ سنة ١٩٠٩ بجمع شمل الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية والالفاظ الغريبة المنتشرة في الايطالية واخواتها من لغات اوربا ثم نشر ما اجتمع لديه . وفي سنة ١٩٢٢ نشر باللسان الايطالي الالفاظ العربية الفاشية في اللغة الايطالية وحدها.وفي اثناء بحثه عثر على الفاظ يسميها صاحب المعجم فارسية مع كونها يونانية واخرى يزعمها يونانية الاصل وفارسيتهُ ظاهرة . فحمله هذا على جمع نحو الف لفظ انسابت الى اللغة العربية قديماً وحديثاً من لغات مختلفة . ورغبةً في الضبط والوضوح رسم الالفاظ الفارسية والتركية والارامية والعبرانية بحروف عربية ووضعها بين قوسين . اما الكلمات اليونانية والاوربية فكتبها بأحرف لاتينية.ومن الالفاظ التي استرعت نظرنا

اثيل — يوناني esthlos معناه نزه الخلق وشريف

اقة — في اليونانية ogkos معناه وزن وثقل

بارجة — ايطالي fregata وهو اسم طائر مائي سميت تلك السفينة باسمه وقد بطل استعمالها الآن

باقة — فرنسي bouquet معناه ضمة زهر مرادفة طاقة من ريحان وزهر

بَبر — فارسي (ببر) يراد به نمر هندي

برج — يوناني Pyrgos معناه حصن

بنادورة (وهو الاسم العامي اللبناني لطماطم) ايطالي Pomodoro اي تفاح ذهبي مركب من Pomo تفاح و d'oro من ذهب واسمه في الاسبانية tomate و (منه طماطم)

تابوت عبراني (تِبَه) وهو صندوق خشب

جادة — فارسي (جاده) معناه الطريق العظيمة اي المفتوحة

جوخ — تركي (جوخه) وفي الفارسية (چوخا) وهو نسيج من صوف صفيق

وهكذا — وقد عني بنشره الشيخ يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب بالفجالة

﴿ طريقة منسي ﴾ نشرة نصف شهرية يصدرها احمد افندي ابو الخضر منسي للطلبة المصريين وجميع الراغبين في تعلم اللغة الفرنسية. وشعارها من عرف لغة قوم فقد صار منهم. وعماده فيها تصوير الالفاظ الفرنسية للمبتدئين بحروف عربية رسماً دقيقاً طبقاً لقواعد وضعها وجرى عليها . وكل عدد منها يشتمل على صحيفة العبارات السهلة مع تصويرها وترجمتها. وصحيفة الحكايات القصيرة مع تصويرها وترجمتها كذلك. ثم صحيفة الاجرومية. وصحيفة المحادثات وصحيفة المطالعات وفيها مختارات طيبة من الصحف الفرنسية وكتب الادب الفرنسي . وجني الفائدة من هذه النشرة موقوف على اتقان الطريقة التي تصور بها الالفاظ الفرنسية بحروف عربية . فحبذا لو عني المؤلف بتنظيم فرق لتعليم الراغبين هذه الطريقة لكي يسهل عليهم الاستفادة من اعداد نشرته المتوالية

﴿ سلم اللسان ﴾ سلسلة كتب يتدرج فيها الطالب في درس قواعد اللغة العربية صرفها ونحوها وبيانها ، منتقلاً من المبادىء الى ما هو ارقى حتى يأتي على كل ما يحتاج اليه منها وهو سائر على اسلوب واحد وطريقة واحدة ولا يخفى ما في ذلك من توفير المشقة عنه وتسهيل الاستفادة عليه. وضعها العالم اللغوي جرجي شاهين عطيه في خمسة اجزاء :

الاربعة الاولى منها في الصرف والنحو والخامس في البيان . وقد بناها على خبرته الطويلة في التدريس مودعاً اياها كل ما دلته تلك الخبرة على شدة الحاجة اليه ، مراعياً حالة العصر ومقتضياته ، فلم يثبت فيها الا ما لا يمكن الاستغناء عنه من الآراء والتفاصيل ، ومتبعاً في ايراد القواعد احدث الاساليب وايسرها متناولاً ، ومعولاً فيها على الاكثار من التمرينات التي يتمكن بها الطلاب من تطبيق ما يدرسونه من القواعد في الاستعمال

﴿ كتاب الاغاني ﴾ اخرج القسم الادبي في دار الكتب المصرية الجزء الخامس من كتاب الاغاني تأليف ابي الفرج الاصبهاني في ٤٣٤ صفحة كبيرة ومائة صفحة من الفهارس للاعلام والقوافي والامم والقبائل والكتب والموضوعات. وغنيٌّ عن البيان ان هذا الجزء ككل ما تخرجه دار الكتب بالغ الغاية من اتقان الطبع وجودة الورق . وفي هامش كل صفحة تحقيقات ادبية ولغوية تجعل هذه الطبعة تحفة ادبية نفيسة

﴿ ذكرى الامير فؤاد ارسلان ﴾ كان الامير فؤاد من اعلام لبنان محتداً وعلماً ووطنية ففقدت الامة اللبنانية بفقده قطباً من اقطاب الوطنية الصحيحة والحرية السياسية في عهد الجمهورية اللبنانية . وهذا الكتاب يجمع ما قيل فيهِ — في مأتمهِ واحتفال ازاحة الستار عن تمثاله — من قصائد وخطب ومقالات آيتها كلها رسالة لابن عمه الامير شكيب ارسلان فانه صور فيها نفس الفقيد ومناقبه ابلغ تصوير

باب الأخبار العلمية

تحطيم الذرَّة واطلاق قوتها

حمل الينا البرق نبأ تحطيم الذرة في معمل كافندش بانكلترا ثم اطلعنا في ناتشر على وصف التجارب التي قام بها الدكتور كوكروفت Cockroft والدكتور ولطُن Walton فاذا نتائجها اضافات جديدة لمباحث اللورد رذرفورد التي وصفنا اهمها في مقالنا «رواية الالكترون وابطالها» في مطلع هذه السنة . ذلك ان الدكتور كوكروفت وولطُن وجدا انهُ اذا اطلق على ذرات الليثيوم (ووزنهُ الذري ٧) بروتونات وقد زيدت سرعتها بفعل ضغط كهربائي قدرهُ ٦٠٠ ڤولط حدث نوع جديد من تحطيم الذرة يصحبهُ انطلاق طاقة داخلية من رتبة ١٦ مليون ڤولط . والظاهر ان ذرة الليثيوم تجتذب اليها بروتوناً ثم تنحلّ الى دقيقتين من دقائق الفا، طاقة اندفاع كلٍّ منهما ثمانية ملايين ڤولط

ولما كان البروتون هو الدقيقة الموجبة الكهربائية في ذرة الايدروجين ، ودقيقة الفا هي نواة ذرة الهليوم (وهي مؤلفة من اربعة بروتونات وكهربين) صحَّ ان نقول اذن، ان الليثيوم وهو اخف الفلزات (Metals) اطلق عليها الايدروجين فاتحدا ثم انحلاَّ الى غاز الهليوم واذاً فالمادة تحولت من شكل الى شكل آخر. وثمة ماهو اهم من تحوُّلها ، وهو ان الطاقة الكامنة في ذرة الليثيوم انطلقت مع دقيقتي الفا . والواقع ان طاقة انطلاق ذرتي الفا تعدل ١٦ مليون ڤولط ، مع ان الطاقة التي اطلقت بها البروتونات على ذرات الليثيوم لا تزيد على ٦٠٠ ڤولط . والسبب الذي يحول دون استعمال هذه الطريقة لتوليد الطاقة بتحويل المادة ان البروتون المنطلق لا يصيب ذرة الليثيوم ويحوّلها كما تقدم الا بنسبة ١ الى بضعة ملايين

* * *

لقد حطمت الذرة من قبل . حطمها رذرفورد سنة ١٩١٩ اذ اطلق على ذرات النتروجين دقائق الفا المنبعثة من مواد مشعة فحصل على ذرات الايدروجين (راجع مقتطف يناير ١٩٣٢ ص ٩ و ١٠) وقبله كان الدكتور بكرل العالم الفرنسي قد راقب انحلال الاورانيوم الذاتي فاكتشف ظاهرة الاشعاع التي فتحت عهداً جديداً في درس بناء المادة . وقد ثبت بعد اكتشاف بكرل وبعد تجربة رذرفورد ان عناصر كثيرة اما تنحلُّ انحلالاً ذاتياً

كالاورانيوم — واشهرها الراديوم والبولونيوم وغيرها — او تنحل انحلالاً اصطناعيًا على طريقة حل رذرفورد لذرات النتروجين

***

اما تجربة كوكروفت وولطن فلها وجهٌ آخر . وهو ان هذا التحول في الذرة يصحبهُ انطلاق قدر كبير من الطاقة

ومع ذلك فان العالم بوث Bothe الالماني سبقهما الى هذا ايضاً . فلا يخفى على قراء المقتطف (يناير ١٩٣٢ صفحة ١١٨) انه اطلق دقائق الفا من عنصر مشع — البولونيوم — على ذرات البريليوم فتحولت بعض ذرات الى كربون وصحب تحولها انطلاق نوع جديد من الاشعاع متوسط في قوته وشدة نفوذه بين اشعة غمّا والاشعة الكونية . اي ان الطاقة التي صحبت تحول ذرة البريليوم الى كربون كانت اعظم قدراً من الطاقة التي انفقت في اطلاق دقائق الفا على ذرات البريليوم

ولقد حفزت هذه المباحث خيال الكتّاب الى تصوُّر حلول عهد قريب يتم لنا فيهِ خلق قدر كبير من الطاقة من قدر صغير جدًّا ، وتحويل الرصاص الى ذهب . والواقع ان هذا قد يتحقق في المعامل العلمية تحقيقاً ضيق النطاق لان نسبة دقائق الفا التي تصيب ذرات البريليوم في تجربة بوث الى الدقائق تطلق بنسبة واحد الى ٥٠ اما هذه النسبة في تجارب كوكروفت وولطن فواحد الى بضعة ملايين . ومع ذلك لا بدَّ ان تسفر هذه التجارب عن شيءٍ اكيد وهو زيادة معرفتنا ببناء قلب الذرَّة

تصوير مواقع الحضارات القديمة من الجوّ

اتيح للمستر تشارلز برستد نجل المستشرق العلامة الدكتور جيمس برستد ان يطير فوق المواقع الأثرية التي يشتغل بنقبها علماءُ من قبل معهد الآثار الشرقية بجامعة شيكاغو ، فصوَّر بآلة سينمية مشاهد هذه المواقع في شريط طولهُ ١٢ الف قدم . ومما قالهُ في وصف رحلتهِ هذه انهُ طار من الرطبة الى بغداد في عاصفة رملية هوجاء حجبت عن انظار الطيار سطح الارض فكان يطير مهتدياً بالانباء اللاسلكية مستعيناً بها على تعيين موقع الطيارة فوق الصحراء خوف الضلال . ومع ان الكابتن اولي Olley سائق الطيارة لم يطر قبلاً فوق هذه البلاد تمكن من النزول في مطير بغداد كأنهُ يعرف المطير مغمض العينين . وفي الصباح التالي طارا فوق المنطقة العراقية التي تنقب فيها بعثة المعهد المذكور وهي على نحو خمسين ميلاً من بغداد ثم تقدما الى شيراز في بلاد فارس ولكن الغبار الكثيف اضطرَّهما الى الارتفاع بالطيارة الى علوّ ١٢ الف قدم قبل النزول في شيراز . هناك تركا طيارتهما وذهبا بالسيارة الى پرسوپوليس عاصمة الامبراطورية الفارسية التي بناها داريوس العظيم حوالي سنة ٥٠٠ ق . م . ثم غلبها الاسكندر ذو القرنين على امرها . وقد وصف المستر برستد آثار پرسپوليس بقولهِ « انها اروع بقعة أثرية في العالم القديم عدا الاكروبليس في اثينا »

تصوير الكبد بأشعة اكس

استنبط الدكتور ولس يايتر Yater احد اساتذة مدرسة الطب في جامعة جورجتون الاميركية طريقة تمكنهُ من تصوير الكبد والطحال بأشعة اكس لتشخيص امراضهما. ذلك انهُ يستعمل محلولاً خاصًّا من اكسيد الثوريوم الثاني ويحقنه في الشرايين ثلاث مرات في ثلاثة ايام متوالية فيظهرا الكبد والطحال واضحين في صور اشعة اكس للاعضاء الداخلية ، مع انهما لا يظهران فيها عادةً . وهذه الصور تمكن الاطباء من اكتشاف اي تضخم فيها او وجود اي سائل في التجويف البطني او آثار السرطان او الزهري في الكبد وهل اي تضخم في جانب الجسم الايسر سببه تضخم الطحال او تضخم او قرحة في اي عضو آخر

والمادة المستعملة في هذه الحقن مركبة من الثوريوم وهو عنصر فلزي ثقيل الوزن مشع كالراديوم . الاّ ان مركّبه المعروف باكسيد الثوريوم الثاني — وهو المستعمل حقناً في هذه الحالات — ليس مشعًّا ولا ينجم عنه اي ضررٍ من هذا القبيل . وكان الدكتور رادت Radt الالماني اول من بحث فيه بغية استعماله في تصوير الكبد والطحال وذلك سنة ١٩٢٨ ولما كان الحقن بهِ يدخل الى الجسم شيئاً غريباً عنه تمتصهُ بعض مواد الدم التي من شأنها تكتيل الاجسام الغريبة التي تدخل الجسم ؛ ولما كانت هذه المواد كثيرة في الكبد والطحال فتجمّع هذا المركب الكثيف فيهما يجعل ظهورهما في صور اشعة اكس واضحاً

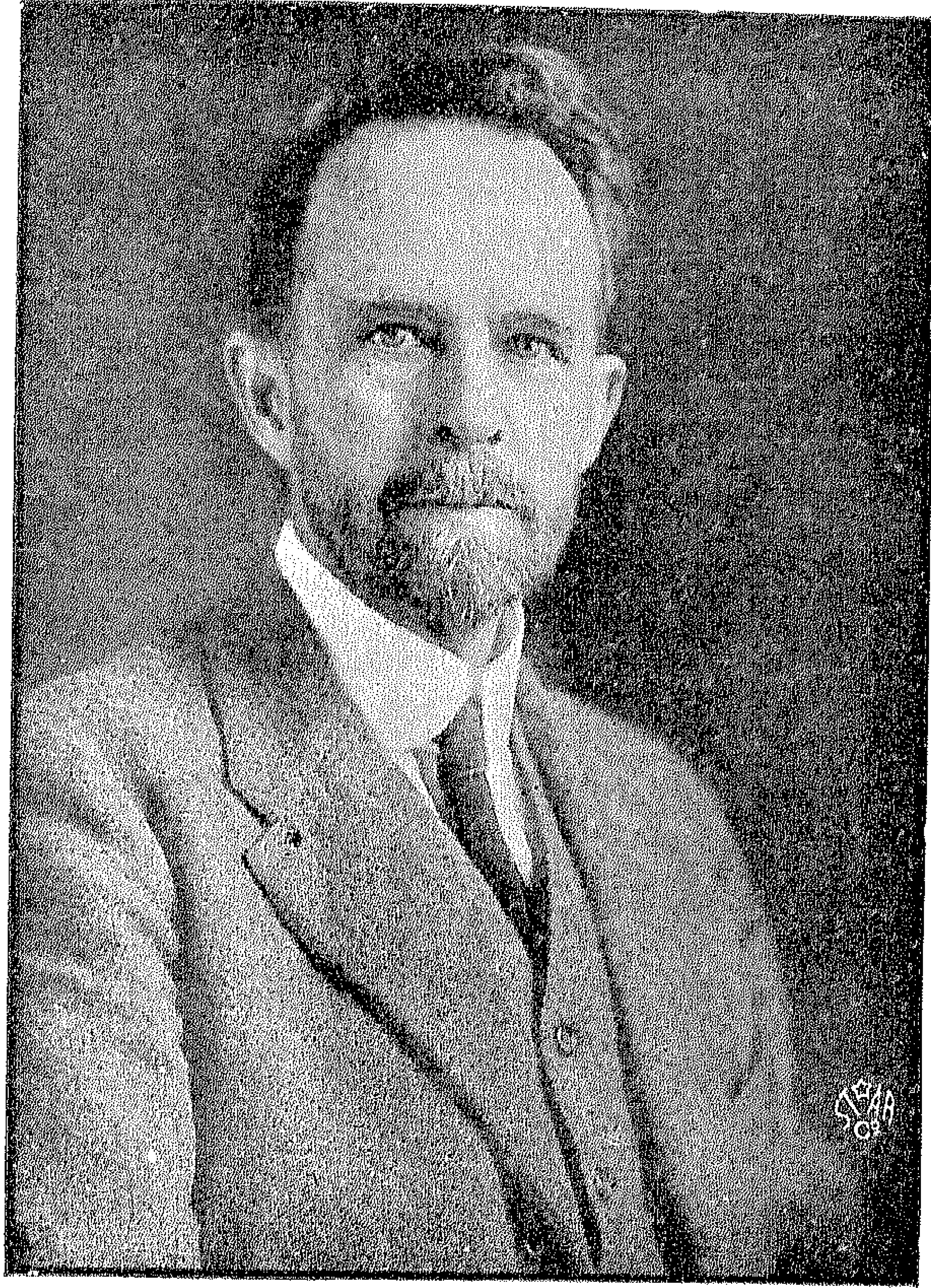
ولما كانت هذه المواد كثيرة كذلك في نخاع العظام فيمكن استعمال هذا المركب لتصوير عظام الجمجمة وتشخيص امراضها

الحمى المصطنعة تشفي من الربو

قرر جماعة من اطباء شيكاغو انهم عالجوا ٤٣ مصاباً بالازما (الربو) — وهو داء يصحبهُ ضيق النفس — بحمى اصطنعوها في اجسامهم بالتيار الكهربائي فخفّت وطأة الداء عليهم . وظل ١٩ من ٤٣ مصاباً مدة طويلة بعد العلاج لا يصابون بنوبات الداء

وقد بنى اطباء شيكاغو هذا العلاج على الملاحظة الآتية : ذلك انهم وجدوا ان الحمى التي تحدثها في الجسم الاصابة بالحمى القرمزية أو النزلة الصدرية أو خرّاج تسفر عن تحسين موقت في حالة الربو اذا كان المصاب بالحمى مصاباً بهِ . لذلك استنبطوا كيساً يضعون فيهِ العليل بعد مسح جسمهِ بالزيت ولفه بالملايات ثم ترفع الحرارة داخل الكيس بالكهربائية الى درجة ١٠٤ فارنهيت وتحفظ على هذا المستوى ٨ ساعات تحت مراقبة الطبيب الدقيقة

ولا يخفى على قرّاء المقتطف ان الشلل العام الناشيء عن اصابة زهرية عولج بادخال الملاريا الى الجسم فشفت حرارتها العليل من الشلل ثم استعملت الكينا فشفي المريض من الملاريا ، وان الباحثين في معامل الشركة الكهربائية العامة تناولوا هذا الموضوع بقصد احداث الحمى بالتيار الكهربائي لان السيطرة عليه اتم من السيطرة على داء الملاريا وكان بحثهم يبشر بالنجاح



الاستاذ توماس هنت مورغن
صاحب نظرية العوامل الوراثية (Genes) في الوراثة

تصوير عوامل الوراثة

الوراثة مستقرة في نواة الخلية بل في اجسام دقيقة فيها تدعى الكروموسومات وبعد البحث في اسرار الوراثة وعلاقة الكروموسومات بها اخرج العلاَّمة الاميركي توماس هنت مورغن نظرية العوامل الوراثية (Genes) وملخصها ان كلَّ كروموسوم مؤلف من عدة عوامل وراثية وان كل عامل فيها يختص بصفة من صفات الكائن الحي وان العوامل في الكروموسوم تصطف ازواجاً احدها اصلهُ من الام والمقابل لهُ اصلهُ من الاب

وكان علماء الاحياء يحسبون « العوامل الوراثية » وحدات نظرية كما حسبت الذرَّات والكهارب اولاً . ولكنهم لم يتغاضوا عنها لانهم لم يجدوا تعليلاً لحقائق الوراثة المعروفة افضل من التعليل بها . ولكن الدكتور بلنغ (Belling) يعتقد انهُ اظهر العوامل الوراثية للعيان بالتصوير الفوتغرافي

والظاهر ان حجم الكروموسومات في نوى الخلايا يختلف باختلاف الخلايا . فبعضها كروموسوماته صغيرة جدًّا لا تصلح للتصوير بطريقة بلنغ الآن . وبعضها كروموسوماته كبيرة واشهر هذه الطائفة الثانية نباتات الفصيلة الزنبقية فاختار بلنغ احداها وصور نواتها بطريقته الفوتغرافية الخاصة فكانت النتيجة الصورتين (امام صفحة الصورة التي في مقالة آراء وحقائق جديدة من هذا الجزء) وفيها ترى عقود الكروموسوم وفيها حباتها التي تمثل العوامل الوراثية وهي كالرسوم التي كانت ترسم قبل تصويرها

مصل ضد الروماتزم المستعصي

القى الدكتور بربنك احد مشهوري اطباء نيويورك بحثاً طريفاً امام الجمعية الطبية الاميركية قال فيهِ ان بحثهُ وبحث اعوانهِ عن اسباب الداء المؤلم المعروف بداء المفاصل اسفرا عن العثور على مواد في الدم تقي من بعض اصناف مكروبات الستربتوكوكس فقالوا ان هذه المواد لا يمكن ان تتكوَّن في الدم الاَّ بفعل المكروب المحدث للداء . وعليهِ قرروا ان يبحثوا عن هذا المكروب في الدم . فاستخرجوا من الدم بطرق بكتيرلوجية خاصة بعض مكروبات الستربتوكوكس فوجدوا انها ليست من الصنف الفائع الفعال بل هي اليفة لطيفة كأنها اكتسبت المقدرة على المعيشة في الدم من دون استفزاز الجسم لمقاومتها مقاومة شديدة

فاستنبتوا هذه المكروبات المستخرجة من الدم وحقنوا بها ارانب فاصيبت بنفس اعراض داء المفاصل المستعصي التي يصاب بها الانسان . ثم امتحنوا ما اصاب انسجة جسمها من التغيير فوجدوه مطابقاً للتغيير الذي وقع في انسجة الجسم الانساني المصاب بهذا الداء. وسبب ذلك المكروبات التي ينقلها الدم من مركز عدوى كالاسنان أو اللوزتين الى المفاصل . ويرى الدكتور بربنك ان افعل وسيلة لمكافحة الداء هو اصطناع مصل والحقن بهِ لان ازالة الاسنان او اللوزتين لا تكفي في حالة الروماتزم المستعصي . فاذا كانت المكروبات مستقرة في المفصل — وهو الغالب — فازالة مركز العدوى لا تفيد الفائدة المطلوبة. ثم لا بدَّ

المصاب من العناية بغذائهِ ورياضتهِ وتناول بعض المقويات وحفظ الامعاءِ — وهي مركز لانبثاث العدوى منهُ يلي الاسنان واللوزتين — في حالة طبيعية

جار جديد للارض

اكتشف الدكتور كارل رينموث Reinmuth الالماني في ٢٧ ابريل الماضي جرماً فلكياً صغيراً أثار عناية العلماء بهِ لانهُ من اغرب الاجرام التي في النظام الشمسي . فمدة دورانهِ حول الشمس سنتان وهي اقصر من مدة دوران اي مذنب معروف . يليهِ في ذلك مذنب انكي Encke اذ مدة دورانهِ ثلاث سنوات واربعة اشهر . ثم ان جرم رينموث قريب جدًّا من الارض يبعد عنها نحو ثمانية ملايين ميل وقد رصد منذ اكتشافهِ في مراصد هيدلبرج وهارفرد ويركيز فثبت انهُ مرَّ في فلك الارض في ١٦ مايو على ثمانية ملايين ميل منها . والظاهر انهُ متوسط في شكلهِ بين النجيمات والمذنبات . وقطرهُ نحو ثلاثة اميال . فاذا صار على اقرب قربهِ الى الارض اصبح من القدر الثاني عشر ولا تستطاع رؤيتهُ حينئذٍ بالعين المجرَّدة . ولا يخفى ان النجيمة اروس اصبحت على ١٤ مليون ميل من الارض لما صارت على اقرب قربها اليها من نحو سنتين

فاذا كان نجيمة فهو اول نجيمة دخلت فلك الارض في اثناءِ سيرها حول الشمس . والحسابات الفلكية تدل على انهُ سوف يمرُّ في فلك الزهرة اذ تصبح على اقرب قربها الشمس والعلماءُ مختلفون في طبيعتهِ . فهم يدعونهُ جرم رينموث الآن فاذا ثبت انهُ نجيمة او سيَّار صغير حق لمكتشفهِ ان يطلق عليهِ الاسم الذي يشاءُ . واذا ثبت انهُ مذنب دعي مذنب رينموث ١٩٣٢

اما الاستاذ جورج ڤان بيزبرويك Biesberoeck احد علماء مرصد يركيز الاميركي فيجزم انهُ نجيمة وان اكتشافهُ من اهم الاكتشافات الفلكية في العهد الاخير لا يفوقهُ الاَّ اكتشاف السيار التاسع بلوطو

الاشعة فوق البنفسجي والكساح

بحث الدكتور نودسُنْ (Knudson) احد اساتذة كلية الطب بجامعة الاتحاد في ألْبَني في مقدار ما يحتاج اليهِ الجسم من الاشعة التي فوق اللون البنفسجي لكي يشفى من الكساح وجرَّب تجاربهُ في الفيران فوجد ان الجسم يحتاج الى قدرٍ اقل كثيراً من القدر الذي كان يُظَنُّ لازماً لذلك

فقد وجد مثلاً في تجاربهِ ان القدر اللازم من هذه الاشعة لشفاء كساح فأرٍ يختلف باختلاف المساحة المعرضة من جسمهِ للضوءِ . فتعريض ما مساحتهُ ربع بوصة مربعة عشرين دقيقة كلَّ يوم في اثناء ثلاثة اسابيع يكفي . ويمكن الحصول على النتيجة نفسها من تعريض ما مساحتهُ بوصة مربعة مدة خمس دقائق كل يوم في اثناء ثلاثة اسابيع او ما مساحتهُ بوصتان مربعتان مدة دقيقتين ونصف دقيقة او ما مساحتهُ ثمن بوصة مربعة مدة اربعين دقيقة

توت عنخ امون

مصر واصول الحضارة

(تابع المنشور على الصفحة ١٤٦)

او حبات الشعير ونسبتها للام الكبرى وهي بالطبع تمثل المحاولات الاولى لتشخيص هذه الاشياء الطبيعية وتحويلها الى الشكل الانساني نرى في هذه الاشكال دور الانتقال في تحويل التميمة الى الاهة ، وهي المحاولات الاولى لتشخيص التميمة في شكل مادي

واذا كان الكنز الرائع الذي وجد في مقبرة توت عنخ آمون قد جعل العالم يقدر اثر المصريين الاقدمين في تاريخ الحضارة في سهولة اكثر مما لو كنا قضينا السنين في الدعاوي الجدية فان هناك حوادث اخرى تحدث الآن تؤيد التفسير العام لهذا الدليل

يكشف الاستاذ « جورج ريزنر » تاريخ « اتيوبيا » ويظهرنا للمرة الاولى على مقدار تسلط المصريين الاقدمين على السودان، وعلى الحضارة العالية التي نشرها المصريون حتى الجنوب الاقصى لوادي النيل ، ولهذه المكتشفات خطر خاص لقراء هذا الكتاب (المؤسس على عمل ذلك الاستاذ في مصر) لانها تقدم الايضاح النوعي لطرائق نشر الحضارة وبواعثها . وفي هذا الامتداد للتأثير المصري مارس المصريون هناك بعض العادات (مثل صناعة بناء الاهرام وبيع الضحية الانسانية) بعد ان كانت تمارس في مصر نفسها قبل ذلك بقرون

وكانت بواعث ذلك التسلط في الحقيقة ان المصريين كانوا يحصلون من السودان على الراتنج والبخور والعاج والابنوس وجلود النمور وريش النعام والعبيد الزنوج الى غير هذا مما كانوا يعتبرونه اساسيًّا لهم ، ولكن مناجم الذهب المنتشرة في الصحراء الشرقية من خط عرض مدينة طيبة حتى الحبشة جنوباً كانت اهم الاسباب لاحتلال السودان وبلاد النوبة

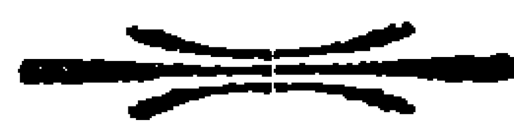
واصبح المصري الذي يشترك في استغلال الصحراء الشرقية حلقة من الحلقات الثقافية بين وادي النيل وحوض البحر الاحمر او قل في المكان الذي كان له اكبر شأن في تاريخ العالم القديم

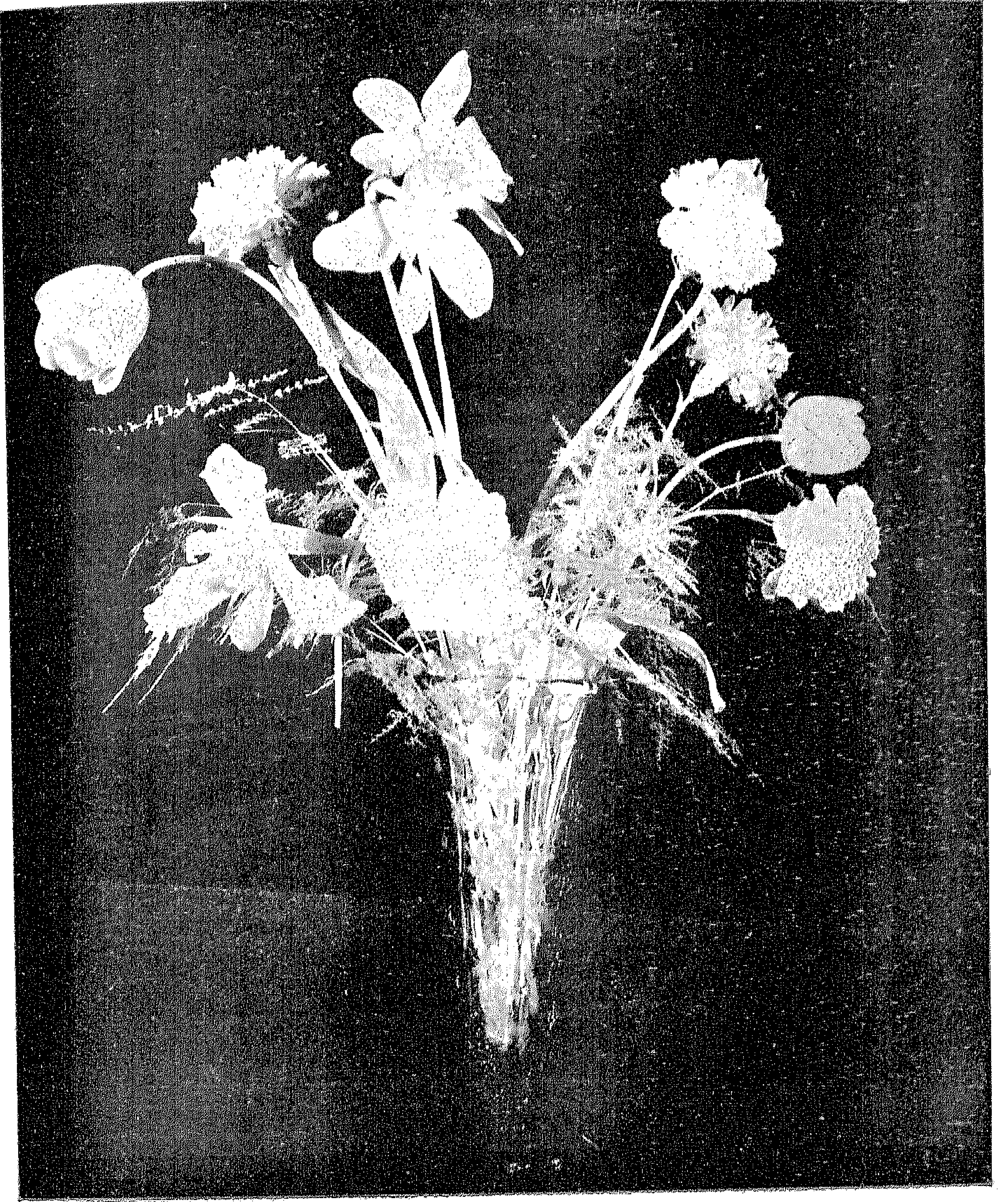
وهناك دليل آخر على ان المصريين وضعوا اسس المعرفة العلمية والتجربة العلمية فالاستاذ « جيمس ه . برستد » الاستاذ في جامعة « شيكاغو » نشر حديثاً مقدمة ورقة بردي طبية يرجع تاريخها الى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وهي تسكب ضوءاً جديداً على المعرفة العلمية في مصر القديمة . وكان الجميع يعرفون قدرة المصريين التجريبية ومهارتهم في تأليف التعاويذ السحرية ولكن الكثيرين كانوا يجهلون ان من احد عشر قرناً قبل طاليس « Thales » والمدرسة اليونانية كان في مصر رجال يقتفون طرائق علمية في المشاهدة والاستدلال العقلي كانت كالوحي أو التنزيل ، وعلى كل فالاكتشاف يتفق مع ما درسناه في مناحي البحث المختلفة

وكل هذا يدل على ان المصريين خلقوا الحضارة وابتكروا فنونها الاساسية واوجدوا عقائدها وقوانينها العلمية التي كانت التعبير المادي والعقلي لهم

عبد الحميد يونس

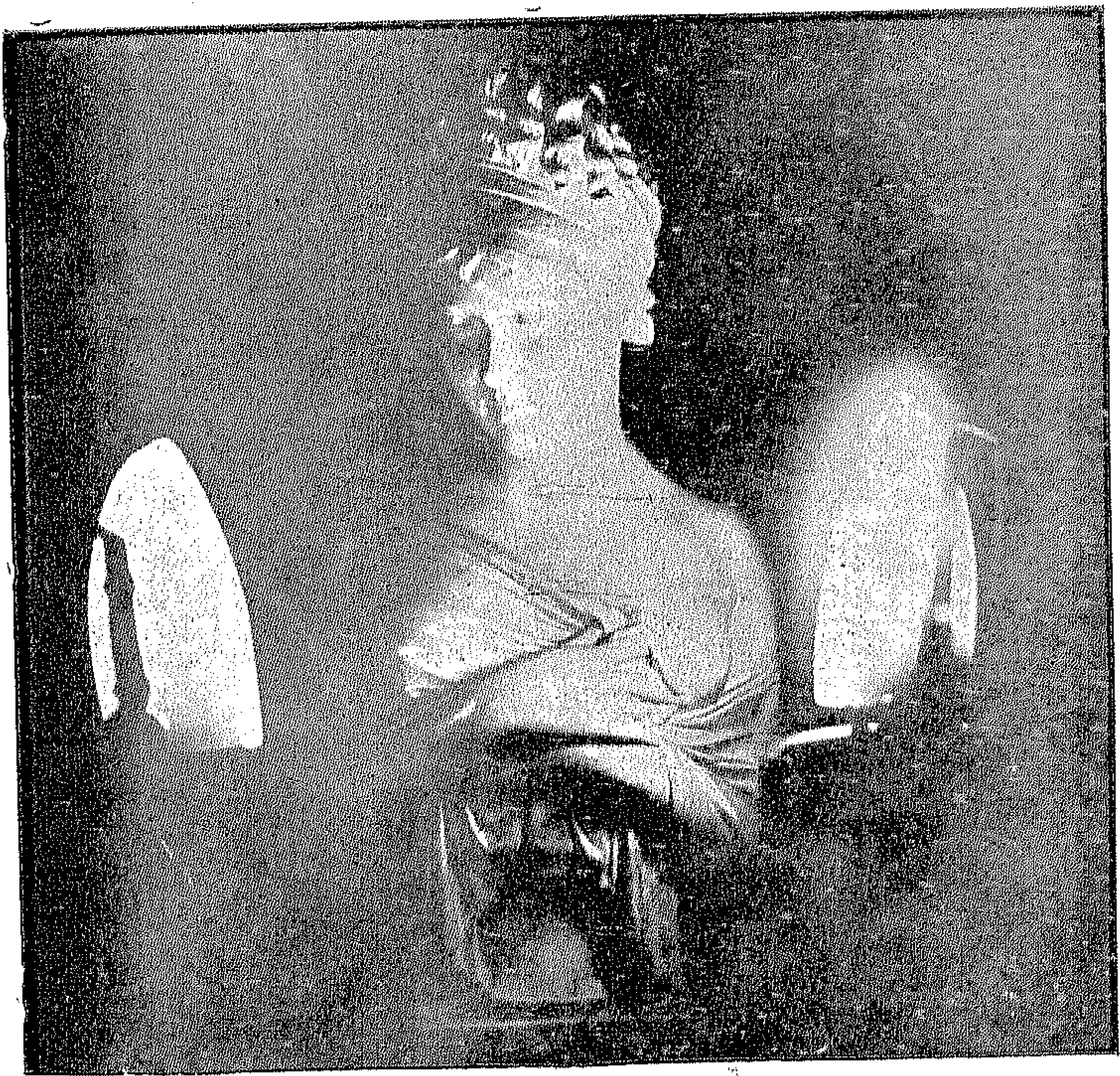
الجزء الثاني من المجلد الحادي والثمانين





ضمة ازهار وضعت في غرفة مظلمة ووجهت اليها امواج الاشعة التي تحت الاحمر ، فلم تتبينها العين البشرية وانما تبينتها عين الآلة المصورة الخاصة بذلك وصورتها





التصوير بالاشعة التي تحت الاحمر

تمثل الصورة العليا تمثال نصفياً وعلى جانبه مكواتان وقد صور تصويراً عاديا بضوء الشمس او بضوء المغنيزيوم. اما الصورة الثانية فالتمثال نفسه في غرفة مظلمة وانما أحميت المكواتان فانبعثت منها اشعة حرارة وهي الاشعة التي تحت الاحمر فأثرت في جهاز تصويري استنبط حديثا

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثالث من المجلد الحادي والثمانين

١ اكتوبر سنة ١٩٣٢ ١ جمادى الثانية سنة ١٣٥١

القوى الكامنة في الذرة

الايدروجين وأصل العناصر

وزن الايدروجين الذرّي في اصطلاح الكيمياء واحدٌ وعند التدقيق واحد وسبعة وسبعون جزءًا من عشرة آلاف جزءٍ (١٫٠٠٧٧) وفي هذه الزيادة على الواحد اعظم مصدر للقوة اذا عرفنا كيف نطلقها ونستخدمها فنستعملها حينئذٍ لخير الناس او لضيرهم

ولتعليل هذه الزيادة يجب ان نلتفت الى مبادىء المذهب الذري . فاذا قلنا ان وزن الايدروجين واحد لم نفهم شيئاً عن حقيقة الواحد الاَّ اذا فهمنا ما هو القياس الذي بني عليهِ لان المقاييس نسبية

نشر دلتن الكيماوي مذهبهُ الذرّي سنة ١٨٠٣ وبعد ما مضى على نشرهِ نحو عشر سنوات لاحظ العالم الانكليزي پروت ان الاوزان الذرية للعناصر قريبة جدًّا من الاعداد الصحيحة حتى يصح القول بانها لم تحدث كذلك اتفاقاً وظن ان العناصر المختلفة مركبة من مقادير متباينة من الايدروجين بحسب اعدادها . وان الكسر الذي يظهر في اعداد بعضها يمكن تعليلهُ

فاهتمَّ العلماءُ بهذا القول اولاً ثم اهملوهُ زمناً طويلاً لانهُ ظهر ان بين اوزان العناصر الذرية ما لا يستطاع جعلهُ عدداً صحيحاً بطريقة من الطرق العلمية المعروفة . واشهر هذه العناصر عنصر الكلور الذي وزنهُ الذري ٣٥ ½ فما من وسيلة علمية الاَّ واستخدمها العلماءُ لجعل وزنهِ الذري ٣٦ او ٣٥ تأييداً لقول پروت فلم يستطيعوا . ولو كان الكلور كالبوتاسيوم

الذي وزنهُ الذري ٣٩٫١ او كاليود الذي وزنهُ الذري ٢٦٫٩ لقالوا ان الفرق بين الوزن الذري والعدد الصحيح قليل وقد يكون سببهُ خللٌ في الموازين . والكاور اشباهامها السلكون ووزنهُ الذري ٢٨٫٣ والمغنيسيوم ووزنهُ الذري ٢٤٫٣ لذلك اهمل مذهب بروت مع ما في اوزان سائر العناصر من الدلالة على صحته

لكن الاهمال لم يقض عليهِ فصرّح السر وليم كروكس في مجمع تقدم العلوم البريطاني الذي التأم في برمنغهام سنة ١٨٨٦ ان العناصر ليست موادّ بسيطة كما يظنّ وان الاوزان الذرية ليست اعداداً محدودة فما اسمهُ مغنيسيوم قد لا تكون ذراتهُ من وزن واحد بل قد يكون مزيجاً من ذرات وزن بعضها الذري ٢٤ ووزن البعض الآخر ٢٥ او ٢٦ فيتكوَّن من اجتماعها عنصر وزنهُ الذري ٢٤٫٣ او نحو ذلك . وهذا يعني ان الاوزان الذرية كما تظهر بالامتحان ليست سوى ارقام تقريبية تدل على متوسط وزن الذرات في عنصرٍ ما مع ان الوسائل الكيمائية المستخدمة لذلك كانت غاية في الدقة

ولا بدَّ من اقتباس العبارة التي ذكرها كروكس في هذا الصدد ونشرت قبل ان يتحقق قولهُ بسنوات كثيرة . قال :

«ارى انهُ اذا قلنا ان وزن الكلسيوم الذري ٤٠ عنينا ان اكثر ذرات الكلسيوم وزنها الذري ٤٠ ولكن قد يكون بينها جواهر اخرى كثيرة وزنها الذري ٤١ و٣٩ او ٤٢ و٣٨»

كان هذا القول حينئذٍ مجرد ظن او تكهن على انهُ ككثير من آراءِ السر وليم كروكس كان مبنيًّا على المعية وزكانة فيهِ يجب احترامهما . وكان هذا الرأي حقيقاً بان يمتحن حين الادلاء بهِ لكن وسائل امتحانهِ لم تكن مستطاعة حينئذٍ والبحث عما تتركب منهُ العناصر اذا صحَّ القول بانها مركبة لا بسيطة لم يكن مما تتيسر معرفتهُ بالوسائل الكيمائية لان الاجزاءَ التي يتركب منها العنصر ذات خواصّ كيمائية متماثلة فلا تختلف الاَّ وزناً ذريًّا ، فلا يمكن تمييز بعضها عن بعض . ولولم تكن كذلك لفرّق بينها الكيمائيون وحسبوها من عناصر مختلفة

وكان الاستاذ صُدي يبحث في الاشعاع نخطر لهُ انهُ توجد عناصر تتألف من ذرات تختلف وزناً ولكنها تتماثل في ما عدا ذلك اي ان خواصها الكيمائية واحدة وطيف نورها واحد فسمَّاها بالعناصر المتماكنة isotope —وترجمها المقتطف قبلاً بالنظائر— اي انها توجد في مكان واحد من جدول مندليف الدوري ولكنها تختلف وزناً ذريًّا . كان ذلك سنة ١٩١٠ .

ثم استنبط الاستاذ طمسن (السر جوزف طمسن) اسلوباً في سنتي ١٩١٢ و١٩١٣ لتحليل المواد باسلوب طبيعي في انبوب مفرغ يعرف باسلوب الاشعة الايجابية فاخذه الاستاذ أستُن واتقنهُ واستعملهُ فاثبت قول كروكس واستنتاج صُدي . واعلنت هذه النتائج في مجمع تقدم العلوم البريطاني في برمنغهام سنة ١٩١٣ مع اثباتٍ جديد للقول بأن الاوزان الذرية

اعداد صحيحة وان ما يظهر في بعضها من الكسر سببهُ امتزاج ذرات العنصر المتماكنة (النظائر) اي التي تختلف اوزانها وتتماثل خواصها وطيوفها

واثبت استن ايضاً ان الكلور الذي وزنهُ الجوهري ٣٥٫٥ وعند التدقيق ٣٥٫٤٦ هو في الحقيقة مزيج من عنصرين مختلفين وزناً اي ان هذين العنصرين يشغلان مكاناً واحداً في جدول مندليف الدوري هو مكان الكلور ولكن وزن احدهما الذري ٣٥ والآخر ٣٧ وفي مزيجهما ٣ اجزاءٍ من الاول وواحد من الثاني. كذلك أبان ان ذرّة السلكون الذي وزنهُ الذري ٢٨٫٣ مزيج من ثلاث ذرات: ذرتين وزن كل منهما ٢٨ وذرّة وزنها ٢٩

وليست كل العناصر امزجة كهذين العنصرين فوزن الكربون الذري ١٢ تماماً ووزن النتروجين ١٤ تماماً. اما جوهر المنغنيس فمزيج من ثلاثة ذرات اوزانها ٢٤ و٢٥ و٢٦ والارغون مزيج من ذرات كثيرة وزن كل منها ٤٠ وذرات قليلة وزن كل منها ٣٦

* * *

ولكن الاساس الذي بنيت عليهِ هذه الارقام عددٌ صحيح وقد وضع تحكماً لعنصر بسيط التركيب هو الاكسجين فجعل ١٦ ومن ثم قيست بهِ سائر العناصر فجاءَ الكربون ١٢ تماماً والهليوم ٤ تماماً والغريب ان وزن الايدروجين الذريّ على هذا القياس ليس واحداً بل واحد وسبعة وسبعون جزءًا من عشرة آلاف جزءٍ كما تقدم في صدر هذا الكلام

فكيف يصحُّ القول ان مذهب بروت قد تحقق او ان صحة المذهب القائل ببناء جميع العناصر من الايدروجين محتملَة

كل ما نستطيع ان نقوله الآن ان العناصر مؤلفة من دقائق نستطيع احصاءَها واما مسألة بنائها من الايدروجين فما يجب البحث فيهِ

والبحث فيهِ يكون من وجهين الاول الوجهُ العملي والثاني الوجه النظري فلنبدأْ بالاول لانهُ اسهلهما

من المقرر ان الذرة مؤلفة من نواة كثيفة تحيط بها كهارب خفيفة ومعظم الوزن الذري هو وزن النواة. حتى في الايدروجين الذي نواتهُ اخف النوى فان وزنها يزيد ١٨٥٠ ضعفاً على وزن الكهرب الذي يحيط بها. اما الاورانيوم وهو من اثقل العناصر فوزن نواته اكبر من وزن كل كهرب حول نواته ١٧٠٢٠٠ ضعف. ولذلك حينما يذكر الوزن الذري يقصد بهِ وزن النواة فاذا قلنا ان الذرة الواحدة من ذرات احد العناصر مؤلفة من الايدروجين فعلينا ان نثبت ان نواتهُ مؤلفة من الايدروجين

ان ذرة الايدروجين مؤلفة من نواة كهربائيتها ايجابية وفي المنطقة التي حولها كهرب سلبي. فاذا كانت نوى ذرات العناصر الاخرى مؤلفة من ايدروجين فيجب ان تكون

مركبة من نوى ذرات الايدروجين محشوكة حشكاً حتى تتكوَّن النوى الثقيلة في العناصر الثقيلة

وقد كان علماء الطبيعة يعرفون ان النواة هنة صغيرة محشوكة مشحونة بالكهربائية الايجابية ولم يعرَف عدا ذلك شيء عن صفاتها قبل ان استنبط السر ارنست رذرفرد اسلوباً لحلها ودرس بنائها . لم يستطع ان يحلها بالحرارة العالية ولا بالبرد الشديد ولا بالضغط لان هذه العوامل الطبيعية على قوتها لا تؤثر فيها بالغة شدتها ما بلغت. فاستنبط وسيلة استطاع بها ان يجعل نواة تصطدم باخرى فتمزقها . عرف بثاقب نظره ان الدقائق التي تنطلق من الراديوم بسرعة آلاف الاميال في الثانية يمكن استخدامها لهذا الغرض لكن النواة صغيرة جداً يندر ان تصاب. على ان الدقائق المنطلقة كثيرة والذرات التي صوبت الدقائق اليها كثيرة كذلك فكانت لا بد ان يصطدم بعضها ببعض او واحدة منها بأخرى وكانت النتيجة انهُ حينما مُزّقت النواة بهذه الوسيلة خرج منها ايدروجين . والادلة على ذلك متوافرة فيما كتبهُ رذرفرد

فلدينا هنا دليل عملي يثبت وجود الايدروجين في النواة كالدليل على وجوده في الماءِ ولا يخفى ان الايدروجين يستطاع اخراجهُ من الماءِ بامرار تيار كهربائي فيهِ . على ان مقدار الايدروجين الخارج من الماءِ كبير جداً اذا قيس بالمقدار الذي يخرج من النواة كما في تجارب رذرفرد . لكن العلماء اعتادوا البحث في الذرات على صغرها والادلة التي اقامها رذرفرد على صحة مذهبهِ صحيحة في نظرهم وهي تثبت ان في النواة ايدروجيناً كما ذكرنا ولكنها لا تثبت ولا تنفي هل تتألف النواة من ايدروجين ممتزج بمادة اخرى او من ايدروجين صرف .

ولا بد من ان يسأل سائل: ماذا خرج من النواة عند تمزيقها غير الايدروجين. فنجيب ان ذرات الهليوم تنطلق من النواة ايضاً . ولكننا نعلم ان ذرات الهليوم موجودة ان لم يكن في كل العناصر ففي كثير منها هناك لانها تنطلق من نفسها في حالة الاشعاع من العناصر المشعة، فيظهر كأنَّ كلَّ شيءٍ مؤلف من ايدروجين وهليوم

ننتقل الآن الى البحث فيما تتألف منهُ ذرات الهليوم . فوزن الهليوم الذري اربعة تماماً . فاذا كان وزن الايدروجين الذري واحداً لم يخامرنا شك — بناء على القول بان كل العناصر مؤلفة من الايدروجين — في ان ذرة الهليوم مؤلفة من اربع ذرات ايدروجين محشوكة معاً . لكن وزن الذرة الواحد من الايدروجين ليس واحداً تماماً بل هو واحد وسبعة وسبعون جزءًا من عشرة آلاف جزءٍ! فكيف يصح القول بان اربع ذرّات منهُ تؤلف ذرة واحدة من الهليوم

هنا يصل الكلام بنا الى الوجه النظري في هذا البحث ولا بدَّ من ذكر شيء عن المذهب الكهربائي في بناءِ المادة . فالعلماء اقرّوا الآن ان المادة مركبة تركيباً كهربائيًّا وان ما يسمَّى «قوة استمرار» سببهُ شحنات كهربائية متحركة في حقل ممغنط وبالتالي «ان قوة الاستمرار

امر كهربائي او صفة من صفات الاثير وان هذه القوة او الوزن ليست ناتجة عن شيء في المادة نفسها بل ناتجة عن شيء يحيط بها . ووزن الشحنة الكهربائية سببهُ الاثير الذي تحركهُ معها في حركتها »

ذلك كلهُ كلام مبهم — وهو للسر اولفر الذي لا يزال الاثير في نظره اساس كل فهم للكون ومظاهره — لا نستطيع ان نبني عليهِ امراً عمليًّا والافضل ان نقول بان هذه القوة او هذا الوزن يعلَّل بالقوى الكهربائية المغنطيسية وان كل شحنة كهربائية لها وزن مرتبط بها وانهُ حين اجتماع الشحنات الكهربائية تجتمع اوزانها ايضاً

* * *

ولكن متى حشكت الشحنات الكهربائية معاً عدَّل بعضها بعضاً الى درجة ما ، فيعدل الايجابيُّ منها السلبيَّ واذا استطعنا ان نحشكها معاً حتى يزول كل فارق مكاني بينها لاشتقوة الواحد منها قوة الآخر . وهذا محال على ما نعلم ولكننا نستطيع ان نقرب هذه الشحنات بعضها من بعض فيكاد يعدل بعضها بعضاً ويقل وزنها . فاذا فصِل بين شحنتين كهربائيتين مسافة معيَّنة كان وزنهما مضاعف وزن احداها . اما اذا حشكتهما تلاشى بعض وزنهما فيصير وزنهما اقل من مضاعف وزن احداها . فيظهر كأنَّ شيئاً من وزنهما قد تلاشى

قلنا انهُ اذا كانت نواة الهليوم مؤلفة من اربع ذرات ايدروجين فهذه الذرات يجب ان تكون محشوكة حشكاً . والحشك كما قدمنا يقلل الوزن فمجموع الذرات الاربع وهي محشوكة لا يزن اربعة اضعاف الشحنة الواحدة بل اقل من ذلك قليلاً اي ان المجموع لا يزن اربعة اضعاف ١٫٠٠٧٧ وهو الوزن الذري للايدروجين بل اربعة اضعاف واحد وهذا ما ينتظر حدوثه . وبهِ نستطيع ان نعلل ازالة الفرق بين وزن الايدروجين الذري لما يكون صرفاً وبين وزنهِ وهو داخل في بناء ذرات العناصر الأخرى فهو في الاولى ١٫٠٠٧٧ وفي الثانية واحد فقط . ولذلك فالهليوم قد يكون مؤلفاً من ذرات ايدروجين محشوكة حشكاً فيكون الايدروجين في هذه الحال وزنهُ الذري واحد لا ١٫٠٠٧٧

* * *

فيظهر مما تقدم كأن المادة قابلة للفناء والاَّ فأين ذهبت الأجزاء السبعة والسبعون من عشرة آلاف جزء من وزن الايدروجين الذري ؟ لكن المادة اذا فنيت او ظهر انها فنيت تترك اثراً وهذا ما يجب ان ننظر فيهِ الآن فاذا اختفت المادة فأي اثر تترك وراءها

هنا يدخل مذهب النسبية القائل ان القوة والمادة تتبادلان بطريقة من الطرق فاذا زالت المادة تولدت قوة واذا زالت القوة تولدت المادة . « وهذا امر لم نستطع ان نفعلهُ في معاملنا

العلمية بعد. وما من عالم استطاع ان يحوّل المادة الى طاقة او الطاقة الى مادة . وسيكون ذلك اليوم يوماً مشهوداً اذا تمَّ لنا ذلك وأملنا معقود بأنهُ سيتم»

هنا نقف لنرى كيف نستطيع ان نفهم ذلك ونبحث عن رأي طبيعي نقدر ان نبنيه على هذا التحول او التبادل بين المادة والقوة . اما لدج فيرى ان هذا التبادل لا يتم الاَّ بواسطة الاثير . فلقد ثبت ان الاثير مرتبط بسرعة عظيمة محدودة وهي سرعة انتقال الامواج او ايضاً سرعة النور. ويجب ان تتطلع الى الاثير المتحرك حركة زوبعية او رحوية بالسرعة المتقدم ذكرها كأساس لتعليل تركيب المادة . فحركة زوبعية في سائل تقارب الجماد في بنائها ويصير لها وجود خاص كما اثبت هلملتز ولورد كلفن . فاذا حدث ما اعاق هذه الحركة ضعفت قوتها فينتهي كونها مادة وتصير قوة

لكن القوة التي تتولد من شيء يدور او يتحرك بسرعة الضوء كبيرة جدًّا لأن القوة ترتبط بمربع السرعة فاذا تحركت ذرة غبار صغيرة بتلك السرعة ولدت قوة تنقل ما وزنهُ طنًّا آلافاً من الاقدام. والقوة المتولدة من عشر الملغرام المتحرك بسرعة النور تساوي قوة ستمائة طن هابطةٍ من علو ميل

فاذا اختفى مقدار صغير من المادة المنظورة تولدت قوة كبيرة من ذلك الاختفاء كذلك حينما يحشك الايدروجين حتى يصير من حشكهِ هليوم لا يتعرض كل الايدروجين للفناء بل يفنى من كل جوهر منهُ ٠٠٧٧ر وهذا المقدار صغير جدًّا لكن ما يختفي حينما يصنع مقدار كبير من الهليوم كبير جدًّا حتى ليصبح مصدر قوة تخجل امامها بما عندنا من مصادر القوة الهائلة

لكن العلماء لم يستنبطوا حتى الآن اسلوباً يحشكون بهِ ذرات الايدروجين حتى تتألف من جواهر هليوم . ولا شك في ان ذلك حدث في مكان من الامكنة وعصر من العصور الخالية ولعلهُ حدث في داخل الكواكب على أساليب لا نفهمها الآن . فاذا صح ذلك فهذا تعليل يفسّر لنا ارتباط المادة بالقوة . ولعل هذا الارتباط سبب الحرارة العظيمة في النجوم . ولعلَّ انطلاق قليل من هذه القوة سبب حركة النجوم السريعة .فهذه الاجرام الفلكية كلها تدور وكل جرم كبير منها حامٍ . ولا نستطيع تعليل هذه القوة العظيمة باحدى القوى المعروفة لدينا انما نستطيع تعليلها بما تقدم

فلذلك نرى ان مقدار القوة في الفضاء عظيم . وليس ثمة صعوبة في تعليلهِ بحسب ما تقدم . ومتى تسنى للبشر ان يطلقوا بعض القوة الكامنة في الجواهر على هذا السيار الصغير توصلوا الى قوة نتائجها تضر او تنفع وفقاً لاحوال العمران ونوازع النفس حينئذٍ

السرعة

بين الحيوان والانسان

يروي الاستاذ اندروز العالم والرحالة الاميركي انه كان سائراً بسيارته في صحراء جوبي فرأى امامهُ ظبياً فاغذَّ في السير للحاق بهِ فلما كانت سيارتهُ تقطع خمسين ميلاً في الساعة كان الظبي يعدو بسرعة ستين ميلاً ولم يلبث حتى اختفى عن بصرهِ

وقد قيست سرعة ارنب (خرنق) فاذا هي خمسة وثلاثون ميلاً في الساعة . اما كلاب صيد الثعالب فتسير بسرعة اربعين ميلاً في الساعة ولكن الثعالب في اثناء الطراد تسبقها مسافة اميالٍ قبل ان تخور. وقد ذكر بعض الرحالين ان الرنة (جنس من الايايل) يقطع خمسين ميلاً في الساعة اذا طاردهُ مطارد

اما الطيور فاسرع من ذلك. فقد جاء حديثاً في انباء اميركا ان حمامة من حمام اميركا قطعت مسافة ٣٠٠ ميل بسرعة ٧١ ميلاً في الساعة. وفي اوربا نسرٌ يعرف بكاسر العظام. قيل ان احد ضباط سلاح الطيران البريطاني رأى وهو محلق بطيارتهِ احد هذه النسور فلحق بهِ فظلَّ النسر سابقاً الطيارة حتى بلغت سرعتها ١١٠ في الساعة ، وحينئذٍ كفَّ عن السباق ونكس رأسهِ وهوى

وأُخذت سنونوة من عشها في انفرس الى بلدة تبعد ١٤٨ ميلاً عن انفرس واُطلق سراحها فكانت في عشها بعد انقضاء ساعة وثماني دقائق اي انها قطعت المسافة بمتوسط ١٣٤ ميلاً في الساعة . وانها لمن اسرار الخلق ان تجد طائراً صغيراً ضعيفاً كهذه السنونوة يستطيع ان يطير بقوتهِ العضلية الضئيلة هذا الطيران السريع !

واذا قيست عضلات الانسان بعضلات الحيوانات المتقدمة واشباهها بدا لنا ضعفنا. فنورمي المحضار الفنلندي المشهور عدا ميلاً واحداً في اربع دقائق وعشر ثوانٍ فكأنَّ سرعتهُ لا تعدو ١٤ ميلا في الساعة. ولكن اذا اعتلى الانسان سنام الجمل قطع ١٦ ميلاً في الساعة واذا امتطى صهوة فرس قطع ٤٠ ميلاً في الساعة . اما سرعة الانسان في الماء فلا تعدو ميلين ونصف ميلٍ في الساعة مع ان الحوت الضخم الجثة يسير بسرعة عشرة اميال في الساعة والسلمون الفضي سمك يستطيع ان يفري الماءِ في فترات معينة بسرعة ١٧ ميلاً في الساعة . اما اذا تزحلق الانسان على سطح جليدي فقد تفوق سرعتهُ عشرين ميلاً في الساعة

على ان سرعة الانسان المستمدة من قوتهِ العضلية تكاد تكون زحفاً ازاء سرعتهِ التي تعتمد على عضلات ميكانيكية. فالماجر سيجريف بلغت سرعة سيّارتهِ ٢٣١ ميلاً على ساحل فلوريدا وتلاهُ الكابتن كمبل فبلغت سرعة سيّارته ٢٤٣ ميلاً. اما سرعة الطيارات في الهواءِ فاقصاها ٥١٤ ميلاً في الساعة بلغها الطيّار ستينفورث باحدى الطيارات المائية الانكليزية التي صنعت لمسابقة كاس شنيدر

ان هذه السرعات العظيمة تبين ما يستطيعهُ الانسان لمحو المسافات وتنبيء بما قد تكون عليهِ سرعة المواصلات في المستقبل القريب!

تاريخ السرعة

كان تحقيق الانسان للسرعة الميكانيكية العظيمة تحقيقاً بطيئاً. فان الآلة البخارية استعملت مدة قرن كامل تقريباً في نزح المياه من المناجم قبلما خطر لاحدهم ان يستعملها في عربة فتسير العربة تدفعها قوة الآلة. وكانت السكك الحديدية اولاً تجرُّها الخيل ومضى عليها نحو قرنين قبلما استبدلت الخيل بالآلة البخارية. واول قطار صنع على هذا الطراز كان في ويلز سنة ١٨٠٤ فبلغت سرعتهُ خمسة اميال في الساعة. ثم انقضت خمس سنوات قبلما عنيت شركة من شركات سكك الحديد باستعمال الاسلوب الميكانيكي الجديد في دفع عرباتها

وكان الناس يوجسون خيفة من السرعة. فقد كتب احد الكتاب الانكليز مقالة في المجلة الربعية « Quarterly » قال فيها: « انهُ من المحال ان نزين للناس صنع قطارات سرعتها مضاعف سرعة العربات العمومية. والخيرُ لاهل ولتش ان يسلموا بالانطلاق في صاروخ من الاستسلام الى آلة تسير بهذه السرعة »

وكانت مسألة السرعة من المسائل الخطيرة التي اثيرت لما طلبت شركة انكليزية من البرلمان اذناً في مد خطٍ سكة حديدية بين لفربول ومنشستر. وكان المهندس جورج ستيفنصن قد جرّب القاطرة البخارية واسفرت تجاربهُ عن اقتناعهِ بتفوقها على العربات التي تجرها الخيل. ولكن رجال الفن في انكلترا حينئذٍ لم يقرّوه على ذلك الرأي فكتب تروجولد Tredgold في سنة ١٨٢٥ رسالة انكر فيها احتمال استنباط طريقة لنقل الناس تزيد سرعتها على عشرة اميال في الساعة. والقى لاردنر Lardner خطبة في لندن قال فيها « ان عربات هذه القطارات لا تستطيع ان تسير بالسرعة المذكورة فاذا حاولت ذلك وقفت جامدة في مكانها لان عجلاتها تدور حينئذٍ على محاورها وتظل حيث هي »

اما وقد قال رجال العلم كلمتهم فلا ريب فيما يقولهُ رجال الادارة! فانهم ترددوا طويلاً في الترخيص بمدّ سكة حديدية يقودها ويرشدها «حَمَق» ستيفنصن. وقبلما مثل ستيفنصن امام لجنة البرلمان اشار عليهِ محامي الشركة بالاَّ يذكر سرعة لا تصدَّق كسرعة ٢٠ ميلاً في

الساعة لانهُ اذا فعل حكم المجلس عليهِ وحسبوه مجنوناً افلت من المستشفى . فلجم ستيفنصن خيالهُ ولسانهُ ولم يذكر الآ سرعة ١٢ ميلاً في الساعة ، ومع ذلك ظل اعضاء اللجنة البرلمانية يشكّون في صحة عقلهِ واقترعوا ضدّهُ . ولكن الشركة فازت برسوم تأسيسها بطريقة من الطرق . فاقنع ستيفنصن رجالها ان يسمحوا بتجربة القطار الحديدي — قاطرة فيها آلة بخارية تجر عربات وتسير على خط حديدي مزدوج — فعينت جائزة مالية قدرها ٥٠٠ جنيه تمنح لاي مخترع يستطيع قطارهُ ان يسير مسافة ٣٠ ميلاً بسرعة عشرة اميال في الساعة

وفي اكتوبر سنة ١٨٢٩ تمت هذه المباراة حضرها عشرة آلاف متفرج وتبارت فيها قاطرات خمسة مخترعين احداها قاطرة ستيفنصن

وكانت قاطرة ستيفنصن تدعى « الروكت » اي الصاروخ وكانت تجرُّ وراءها قطاراً من العربات المحملة فبلغ متوسط سرعتها ١٥ ميلاً في الساعة . ثم فصل ستيفنصن القاطرة عن سائر القطار ليبين للجمهور ما تستطيعهُ وحدها . فسارت اولاً بسرعة عشرة اميال ثم بسرعة خمسة عشر ميلاً ثم زادت سرعتها رويداً رويداً الى عشرين فخمسة وعشرين فثلاثين فخمسة وثلاثين ميلاً فوقف الناس دهشين ثم انطلقت اكفهم بالتصفيق اذ رأوا القاطرة ولم تتبدد هباءً منثوراً كما قيل ولم تدرُ عجلاتها حيث هي وها هو ذا المهندس يقفز منها معافى لم تضرَّ بهِ السرعة

وللسكة الحديدية في الولايات المتحدة الاميركية تاريخ شبيه بتاريخها في انكلترا

السيارة والطيارة

ومن ثم اخذت سرعة القطارات تزداد رويداً رويداً بزيادة علم المهندسين وخبرتهم الى ان بلغت في احد القطارات الاميركية سنة ١٩٠١ مائة وعشرين ميلاً في الساعة فوق خط مستوٍ مستقيم . اما قصب السرعة قبل الحرب مدى مسافة تزيد على خمسمائة ميل في طريق غير مستقيم او مستوٍ فلقطار اميركي كذلك اذ قطع سنة ١٩٠٥ مسافة ٥٢٥ ميلاً في ٧ ساعات وخمسين دقيقة فكان متوسط سرعتهِ ٦٧ ميلاً في الساعة . وسرعة بعض القطارات الانكليزية الآن تفوق ذلك

ولما كانت الشركات تعنى بسلامة الركاب ورفاهتهم وتوفير النفقات عنايتها بالسرعة او اكثر عدلت عن السباق لزيادة سرعة قطاراتها من دون النظر الى ايّ اعتبار آخر . وقد كانت بعض الشركات الاميركية في مطلع هذا القرن تسيّر قطاراتها بين نيويورك وشيكاغو في ١٨ ساعة اما اليوم فانها لا تتعدى عشرين ساعة على الاقل

وكانت السيارة في مهدها اذ بلغ القطار اوجه — من ناحية السرعة — ففي سنة ١٩٠١ ربح هنري فورد سباقهُ الاول بسيارته المشهورة فكانت سرعته اقل قليلاً من ٤٥ ميلاً في الساعة . اما في اوربا فكانت سرعة السيارات تفوق سرعة فورد قليلاً . ولكن اصحاب السكك

الحديدية لم يروا في « عربة البنزين » ما يثير مخاوفهم . وفي سنة ١٩٠٣ نزل اسم فورد في صفحات الجرائد الاولى اذ بلغت سرعة سيارتهِ تسعين ميلاً في الساعة. ومضى اصحاب المصانع في اتقان سياراتهم وزيادة سرعتها ففي سنة ١٩١٠ بلغت اقصى سرعة سيارة ١٤١ ميلاً في الساعة وفي ١٩٢٠ بلغت ١٥٦ ميلاً في الساعة وفي سنة ١٩٢٦ بلغت ١٧٠ ميلاً في الساعة وفي سنة ١٩٢٧ انطلق الماجر سيجريف بسيارتهِ بسرعة ٢٠٠ ميل في الساعة وفي ١٩٢٨ بلغت سرعة كاي دُن ٢٠٧ اميال في الساعة وفي ١٩٢٩ اعاد سيجريف الكرة فبلغت سرعته ٢٣١ في الساعة وبعد وفاته تفوَّق عليهِ الكبتن مَلْكَمْ كمبل اذ بلغت سرعته ٢٤٣ ميلاً في الساعة وهي اقصى سرعة مركبة تسير على سطح الارض — حتى الآن

على ان الانسان لم يكتف بالسير على سطح الارض او سطح الماء بل غزا مملكة النسر والعقاب وجاراها فيها بل وتفوَّق عليها

ففي ١٧ دسمبر ١٩٠٣ طار اورڤيل ريط — لاول مرة في التاريخ — بطائرة اثقل من الهواء فقطع مسافة ١٢٠ قدماً في ١٢ ثانية اي ان متوسط سرعتهِ بلغ ستة اميال في الساعة او اكثر قليلاً . ولا ريب في ان اية عربة من عربات السفر التي كانت شائعة في القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع تستطيع ان تباري طيارة هذا متوسط سرعتها

ولكن افسح المجال للانسان وقد اخذ اجنحة الطير حتى يتعلم استعمالها ! ففي سنة ١٩٠٥ طار اورڤيل ريط مسافة ١١ ميلاً بسرعة ٣٦ ميلاً في الساعة وفي ١٩٠٨ بسرعة ٤٠ ميلاً في الساعة

ثم قدم الصحافي الاميركي بنت — J. G. Bennett — كأساً للفائز في مباراة دولية للطيران فجرت المباراة في ريمز بفرنسا في شهر اغسطس سنة ١٩٠٩ ففاز فيها كرتس الاميركي وبلغ متوسط سرعته ٤٧ ميلاً في الساعة . ومن ثم اخذ متوسط سرعة الطيران يزداد زيادة تفوق ما يتوقع . ففي ١٩١٢ فاز فدرين الفرنسي بكأس بنت الدولية وبلغت سرعتهُ ١١٢ ميلاً في الساعة. ولما وضعت الحرب اوزارها واستؤنفت المباراة في الطيران فازت فرنسا بكأس بنت وكانت سرعة الفائز ١٧٠ ميلاً في الساعة

***

اما كأس شنيدر فاشهر من كأس بنت لدى قراء المقتطف . وجاك شنيدر من رجال الطيران والالعاب الرياضية عند الفرنسيين . صنع سنة ١٩١٢ كأساً من الذهب والفضة والبرونز قيمتها نحو الف جنيه وجعلها جائزة دولية يفوز بها المجلّي في سباق للطيارات المائية يقام كلَّ سنةٍ او سنتين . ومن غرائب القدر ان شنيدر هذا مات فقيراً معدماً سنة ١٩٢٨ اذ كان المتنافسون ينفقون مئات الالوف من الجنيهات استعداداً لمحاولة الفوز بكأسهِ

والى القارئ بياناً مفصلاً باسماء الفائزين وسرعتهم

السنة	الاسم	الجنسية	السرعة بالاميال	السنة	الاسم	الجنسية	السرعة بالاميال
١٩١٣	بروفو	فرنسي	٧٥ر٤٥	١٩٢٥	دولتل	اميركي	٥٧ ر ٢٣٢
١٩١٤	بكستن	انكليزي	٧٥ر٧٦	١٩٢٦	ده برناردي	ايطالي	٤٩ ر ٢٤٦
١٩٢٠	بولونا	ايطالي	١٢ر١٠٧	١٩٢٧	وبستر	انكليزي	٦٥ ر ٢٨١
١٩٢١	ده بريغانتي	ايطالي	٨٤ر١١٥	١٩٢٩	اتشرلي	انكليزي	٦٣ ر ٣٢٨
١٩٢١	بيارد	انكليزي	٦٢ر١٤٥	١٩٣١	بوثمن	انكليزي	٠٨ ر ٣٤٠
١٩٢٣	رتهوس	اميركي	٣٨ر١٧٧				

ولما كان شروط هذه المباراة ان الدولة التي تفوز بها ثلاثاً متوالية تحرزها نهائيًّا فالكأس الآن ملك انكلترا. وبعد المباراة الاخيرة حاول الطيار الانكليزي ستينفورث ان يبلغ بطيارته البحرية اقصى سرعة بلغها الطيارون فطار اربع مرات فوق مسافة طولها ثلاثة كيلو مترات فبلغ متوسط سرعته ٤٠٨ اميال وبلغت سرعته في احد الاشواط ٤١٥ ميلاً في الساعة. وهذا اقصى ما استطاعه الانسان حتى الآن في ميدان « السرعة »

مستقبل السرعة

ما مستقبل السرعة ؟ هل بلغنا الحدّ الاقصى او لها حدود ابعد مما ذكر يستطيع الانسان بلوغها بالادوات الميكانيكية التي في متناوله وتحت سيطرته ؟

يرى السر ألان كوبهم الطيار البريطاني المشهور ان بلوغ سرعة ٣٠٠ ميل للطيارات التجارية امر سوف يتم في جيلنا . ويقول الاستاذ لو العالم والمستنبط الانكليزي ان سرعة المستقبل لا تنقص عن خمسمائة ميل . ويذهب بلريو اول من عبر بحر المانش بالطيّارة ان سرعة طيارات السباق سوف تبلغ « في عشر سنوات ٧٠٠ ميل في الساعة » . ويتناهى غيرهم فيذكر سرعة الف ميل في الساعة . فالمستر هُلَنْد (Holland) المهندس الذي بنى الطيارات المائية البريطانية التي فازت بكأس شنيدر يقول « ولست ارى ما يمنع ان تكون سرعة الطيّارة الفائزة سنة ١٩٥٠ الف ميل في الساعة» .

***

والراجح ان مقاومة الهواء والفرك (او الاحتكاك) والقوة الطاردة من المركز هي الحوائل التي تحول عند تحقيق المهندسين ما يرونهُ حقيقة بعين خيالهم . والعالم او المستنبط الذي يقترب من اخضاع هذه الحوائل او تخطيها هو اول من يصل الى تحقيق سرعة الف ميل في الساعة

ان القوة الطاردة من المركز يمكنها ان تدمر السيّارة او الطيارة . فقد حسب احد علماء الطبيعة انهُ لما كانت سرعة سيارة سيجريف ٢٠٠ ميل في الساعة كانت عجلاتها تدور ثلاثين دورة في الثانية الواحدة وكانت القوة الطاردة لدقائق العجلة من المركز تعدل ضغط اربعة اطنان. وزيادة سرعة السيارة تقتضي زيادة دوران العجلات وبالتالي زيادة القوة الطاردة حتى اذا بلغت السيارة سرعة معينة لم تستطع عندها جزيئات المادة ان تبقى متماسكة فتتطاير . وما يقال عن العجلات يقال عن محرك الطيارة ومراوحها

اما الفرك (او الاحتكاك) فظاهر فيما تنفقهُ السيارة من الزيت . ولكن المهندس العالم فقط يستطيع ان يقدّر ما تفقدهُ المحركات من قوتها لمقاومة الاحتكاك . فقوة المحركات في سيارة سيجريف كانت الف حصان تنفق قوة ١٠٠ حصان منها لمقاومة الفرك بين اجزائها فاذا زادت السرعة اصبح تزييت الآلة اكثر تعقيداً بما يصيب الزيت من التحول الكيمائي. وهذا يقتضي اضافة اسلوب جديد للتبريد لئلا تزداد حرارة الآلة فينحلّ الزيت ويغدو لا يزيّتها . واداة التبريد تزيد ثقل الطيارة وتنقص القوة المستعملة في تسييرها

اما عدو السرعة الاكبر فهو مقاومة الهواء . فسيارة سيجريف كانت تنفق مائة حصان من قوتها لمقاومة الاحتكاك و ٥٠٠ للتغلب على مقاومة الهواءِ فلم يبق من القوة الاصلية الاَّ ٤٠٠ حصان لتسيير السيارة

ان مقاومة الهواءِ غول القوة المسيّرة . فلنفترض ان امامك سيارة قوة آلتها عشرة احصنة تستطيع ان تسير بك سرعة ٣٠ ميلاً في الساعة . وانت تريد ان تسير بسرعة ٦٠ ميلاً فهل يكفي ان تجعل قوة آلة السيارة عشرين حصاناً ، اي هل يكفيك ان تضاعف القوة لتضاعف السرعة ؟ كلاَّ إذ قد وجد الباحثون ان القوة تختلف كمكعب السرعة. فلكي تضاعف السرعة في طيارة يجب ان تزيد قوتها المحركة ثمانية اضعاف . فاذا كانت السيارة التي قوتها ١٠ احصنة تسير بسرعة ٣٠ ميلاً وجب ان تكون قوة السيارة التي تسير بسرعة ٦٠ ميلاً ٨٠٠ حصان — هذا اذا تساوت السيارتان في كل امر آخر عدا القوة

ولكن السيارت قلما تتساوى في كل امر . وهنا مجال الابداع لبناة السيارات والطيارات. فقد اجريت مباحث كثيرة لمعرفة اي شكل من الاشكال المادية يلقى اقلّ مقاومة من الهواءِ في اثنا سيره فيهِ. فوجد ايفل — المهندس الفرنسي باني برج ايفل بباريس — ان جسماً اسطوانيَّ الشكل مقدمهُ نصف كرة هو هذا الشكل . وقد قام المهندسون الحدثون بتجارب من هذا القبيل فبني على نتيجة مباحثهم علم stream-lining الحديث ويقصد بهِ بناءُ جسم السيارة — او الطيارة — وكل جزء ظاهر منها حتى يقاوم الهواء اقلّ مقاومة ممكنة

ولعلّ الطريقة المثلى للتغلب على مقاومة الهواء هي التحليق الى طبقات الهواء اللطيف .

فكثافة الهواء على ارتفاع عشرة اميال هي عشر كثافته على سطح البحر وكثافتهُ على ارتفاع عشرين ميلاً جزءٌ من مائة جزءٍ من كثافته على سطح البحر . فالقوة التي تسير طيارة بسرعة ١٠٠ ميل او ١٢٥ ميلاً على ارتفاع الف قدم تستطيع ان تضاعف هذه السرعة على ارتفاع عشرة اميال مثلاً . ولكن طياراتنا تحتاج الى الهواء الكثيف . فهو كالماء للسفينة . واذاً فالطيران بسرعة ١٠٠٠ ميل في الساعة في طبقات الجوّ العليا يحتاج الى استعمال مبدإٍ آخر في الطيران — غير مبدإ مقاومة الهواء بسطح منحنٍ — كمبدأ الصاروخ او السفن السهمية (١)

السرعة وجسم الانسان

هل يستطيع جسم الانسان ان يحتمل سرعة اعظم من سرعة كامبل بسيارتهِ وستينفورث بطيارته ؟ انها لمسألة قديمة وجهت في ايام ستيفنصن وفي كل سنة اذ تقام مباريات السرعة توجَّهُ من جديد . ولعلّ افضل جواب عنها اننا كسكّان السيّار المعروف بالارض نسير الآن في الفضاء معها بسرعة تفوق اقصى ما يتخيلهُ المهندسون . قال ادنجتن : الحركة لا تتعب احداً . فنحن الآن نسير مع الارض حول الشمس بسرعة ٢٠ ميلاً في الثانية . ونحن نسير مع النظام الشمسي بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية في خلال النظام المجرّي ومع النظام المجرّي بسرعة ٢٥ ميلاً في الثانية بين السدم اللولبية . فلو كانت الحركة تتعب لكنا متنا تعباً

ان جسم الانسان ودمهُ لا يستطيعان ان يحتملا حرارة تحت الصفر في طبقات الجوّ العليا ولا هو يستطيع ان يتنفس في هواءٍ لطيف جدًّا . وعليهِ فكل طائرة سائرة في اعالي الجوّ لا بدَّ لها من ان تقل ركابها في حجرات محكمة الاقفال ضغط الجوّ فيها مثل ضغطهِ على سطح الارض وحرارتها مماثلة للحرارة الطبيعية التي اعتادوها

ولكن هل نرغب في زيادة السرعة ؟ ان نجاح البريد الجوي في كل البلدان يدل على رغبة الناس في سرعة النقل وخصوصاً نقل الاشياء الضرورية مثل الرسائل والعقاقير والامصال والجنود في ساعة الحاجة القصوى وغير ذلك . فطيارة تسير بسرعة الف ميل في الساعة تستطيع ان تقطع المسافة بين هليوبوليس وبغداد في نحو ساعة بدلاً من ان تستغرق نحو نهار

ثم هنالك الحلم الجريء الذي اعرب عنهُ العالم البريطاني هولدين (J.B.S.) وغيره وهو الخروج من منطقة جذب الارض الى الاجرام السماوية الاخرى

ما هي السرعة اللازمة للتغلب على قوة جذب الارض ؟ سبعة اميال في الثانية قرب سطح الارض ثم اقل من ذلك متى حلقت الطائرة في الفضاء . والقائمون على درس السفن السهمية يقولون ان توليد هذه السرعة مستطاع . . . ! !

(١) راجع مقالاتنا في المقتطف نوفمبر ١٩٢٨ ص ٢٤٩ ابريل ١٩٢٩ ص ٣٨١ مارس ١٩٣١ ص ٣٠٧

حافظ ابراهيم

لمصطفى صادق الرافعي

فرغتُ الآنَ من قراءة شعر حافظ بعد ان لم يَعُدْ حافظ بيننا الاَّ شعرَهُ ونثرَهُ ، فبالله أحلفُ ما نظرتُ في صفحة مما بين يديَّ الاَّ وأحسستُ ان ذلك الشاعر العظيم يقول في بيانهِ الرائع وصناعته البديعة : انا هُنا

ولغةُ هذا الشعر المتَدفِّقة بالحياة كأن كلماتها القويةَ عروقٌ في جسمٍ حيّ متوثب — لم تخرج عن ان تكون هي العربية المُبينَة في جزالتها ونصاعتها ودقة تركيبها البياني ، ومع ذلك فليس في هذا العصر كلّه من يكابر او يماري في انها هي لغة حافظ وحده كأنهُ ارغم التاريخ ان يحتفظ بهِ في أجمل آثاره

وأنا اعرف في شعره مواضع من الاضطراب والضعف والنقص سأشير الى بعضها ، ولكني على ما اعرفهُ اجد هذا الشعر كالتيَّار يعُبُّ عُبابهُ لا يبالي ما تناثر منهُ وما ركد وما وقع في غير موقعه ، اذ كانت عظمته في اجتماع مادته لا في اجزاء منها وفي السرّ الذي يدفعها في كل موضع لا في المظهر الذي تكون بهِ في موضع دون موضع فهو ابداً يقول لمن يتصفح عليهِ او ينتقدهُ : انظر لما بقي

***

ترجع صداقتي لحافظ رحمهُ الله الى سنة ١٩٠٠ اول عهدي بالادب وطلبه وقد شهدتُ من يومئذ بناءه الادبي عالياً فعالياً الى الذروة التي انتهى اليها ، وأخلص لي ثقته وأصفاني مودته وكان كما كَ من اخ كريم وله في نفسي مكان لم ينكره مذ عرفته ولم يضق بصحبته منذ اتسع لها وكنت واياه يرى احدنا الآخر من هذه اللغة كالجانبين لصورة واحدة لا يتهيأ في الطبيعة ان يختلفا والصورة بعدُ قائمة ولا ان يضطرب ما بينهما والصورة منهما على وزن وتقدير

ولكن هذا لا يمنعني ان اقرر انهُ كان عندي اكبر من شعره — ولعله كذلك عند كل من خلطوه بأنفسهم — فانهُ يتعاظمك بنفسهِ القوية وبالمعنى الذي تحسُّهُ في العبقري ولا تدري ما هو . وذلك من سحر العبقريين وأثرهم في نفس من يتصل بهم فيتسقُ لهم امران من امر واحد وحظان بحظ ونصيبان بنصيب لان مع الاعجاب بآثارهم إعجاباً آخر بالقوة التي ابدعت هذه الآثار . ففي ذواتهم المحبوبة يستمر الاعجاب كالسائر على طريق لا موقف عليهِ

وفي آثارهم يكون الاعجاب في موقف قد انتهت الطريق بهِ فوقف على حد إن بَعُد وان قرب

لاجرم كان شاعرنا عبقريًّا عجيب الصنعة قوي الالهام بليغ الأثر في عصره يشبه تحولًا وقع في صورة من صور التاريخ ، ولكنهُ كذلك في مذاهب من الشعر دون غيرها فلم يكن معهُ من التمام في فنون الشعر ما يكون بهِ الشاعرَ التام او الاديب الكامل الأداة . وكم من مرة كلمتهُ في ذلك ونبهتهُ الى انهُ كالنمط الواحد وانهُ يجب ان يترسَّل شعرُهُ بين النفس الانسانية وأغراضها الكثيرة المختلفة ، فاذا كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هي السياسة ولا ينبغي ان يكون شعره كلّه كشمس الصيف فان للربيع شمساً اجمل منها وأحَبّ كأنها مجتمعة من ازهاره وعطره ونسيمه

ولقد كان يفخر بأنهُ (الشاعر الاجتماعي) وهذا لقب ميزهُ بهِ صديقنا الاستاذ محمد كرد علي ايام كان في مصر قديماً فتعلّق بهِ حافظ ورآه تعبيراً صحيحاً لما في نفسهِ وللملكة التي اختصَّ بها قال لي يوماً في سنة ١٩٠٣ : انا لا اعد شاعراً الاّ من كان ينظم في الاجتماعيات . فقلت لهُ ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة إنك لا تعد الشاعر الاّ من ينظم مقالات الجرائد . . . .

ولا بدَّ لي ان ابسط هذا المعنى في هذا الفصل فانهُ كان يخيَّل اليَّ دائماً ان شاعرنا (حافظ) خلق للتاريخ في اصل طبيعتهِ ثم زيدت فيهِ موهبة الشعر ليكون مؤرخاً حيّ الوصف بليغ التأثير قوي التصرُّف ، ومن ثم جاء اكثر ما نظمهُ وأساسه التاريخ والسياسة وصحّ له بهذا الاعتبار ان يقول انهُ الشاعر الاجتماعي ، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر فاذا كان في المادة اجتماعي وسياسي فليس في الروح الاّ الشاعر على اطلاقه . والاجتماعيات ليست كلَّ حقائق الحياة وهي بعد ذلك معانٍ خاصة محصورة في زمنها ومكانها . على ان الحقائق ليست هي الشعر وانما الشعر تصويرها والاحساس بها في شكل حيّ تلبسهُ الحقيقة من النفس . فالشاعر الاجتماعي شاعر في حيّز محدود من وجوه الشعر ومذاهبه واذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى شعره فنًّا اذ كان الفن انسانيًّا وكان شاملاً عامًّا . والمقاييس التي يطّرد عليها الفن الادبي لا تكون في الزمن ولا في الموضع بل في النفس الانسانية التي لا تخص بوقت ولا مكان . فاذا لم يكن الشعر انسانيًّا عامًّا يولد كل جيل من الناس فيجدهُ كأنما وضع لهُ وارتهن بأغراضهِ وحقائقهِ فهو شعر (كالاخبار المحلية) وهذا وجهُ الشبه بينه وبين ما اشرت اليهِ آنفاً من نظم مقالات الجرائد

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالاشياء التي نحن منها في الانسانية والطبيعة والجمال وحقائق الحياة والموت ، بل التي يكون منها يومنا المرقوم بأنهُ يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . . . فاذا مات اليوم ماتت الجريدة ثم تولد ثم تموت . وقد ادرك المتنبي سرّ الشعر وانهُ قائم على تحويل الشعور الانساني الى معرفة انسانية فخلد شعره فلا يمكن ان يمحى من

العربية ما بقيت وهذا على ما يقدح من وجوه الاعتراض والنقص وعلى ان المتنبي كان ضعيفاً في ناحية الجمال والحب ضعفاً ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ في هذا المعنى ، ولكن حكمته الانسانية ودقة اوصافه واقامته الفضائل والرذائل في كمالها الفني مقام تماثيل بارعة من الجمال، كل ذلك ترك شعره مستمراً باستمرار الحياة وباستمرار الانسانية وباستمرار الذوق

ان هذا الكون مبني في نفسه مما يعلم العلم تركيبه ولا يعلم سر تركيبه الاّ الله وحده ، ولكنهُ مبني في انفسنا من عمل الحواس ثم من التعليل والتفسير ، أما الحواس ففي كل حيّ لا تخلق بصناعة ولا عمل ، وأما التعليل والتفسير فهما من صناعة الشاعر والاديب فكلاهما يُخلق لاتمام الخلق في الحقيقة وهي منزلة لا ادري كيف يمكن ان تمسخ حتى تقتصر على معنى الشاعر الاجتماعي او السياسي فترجع بهِ نمطاً واحداً مع ان الآثار الادبية وفي جملتها الشعر ان هي الاّ قوى الفكر والهام النفس وبصيرة الروح مسجلةً كلها في بواعثها واسبابها من نفس عالية ممتازة ، وهذه القوى كثيرة التحول فيجب ضرورة ان تكون آثارها كثيرة التنوع . وتنوع الصور الفكرية في آثار الشاعر او الاديب ومجيئها متوافرةً متتابعةً هو معيار أدبه وقياس نبوغه عالياً او نازلاً ومتّبعاً او مبتكراً وفيما يضيء من نواحيهِ وما ينطفيء

على ان شاعرنا الاجتماعي (كما كان يحب ان يوصف رحمهُ الله) وان كان قد نفخ في روح الشعب أنفاساً الهية واحسن في وصف حوادثه وآلامهِ وعيوبه وأبلغ البيانَ في كل ذلك — فانهُ نزل في هذه المرتبة عن وضعه الصحيح فكان في منزلته بمكان الشرطي في الطريق يقف للجرائم والحوادث على حين ان مقامه الاجتماعي من الشعب مقام المعلم في مدرسته يجلس للطباع والاخلاق . ليس الشأن أن توجد في شعر الشاعر حوادث عصره اكثرها او أقلها فان فوق هذه منزلة اعلى منها وهي ان توجد حوادث النهضة بشعر الشاعر وأن يكون في شعره العنصر الناريُّ من اللغة الشعبية

على ان (حافظ) رحمه الله أدرك كل هذا في آخر عهده فكان يريد ان يميت ديوانه ويستخرج منه جزءًا صغيراً يختار فيهِ الف بيت ويسقط ما عداها وإن . . وإن كان فيهِ شعر اجتماعي . . . . ومع هذا النقص الذي بعثت عليه طبيعة الزمن وطبيعة الشاعر معاً فان تمام حافظ في مذهبهِ الاجتماعي الذي نبغ فيه جاء من وراء القوة وفوق الطاقة لا يجاريه فيهِ شاعر آخر بحيث دلَّ على ان النابغة قَدَر إلهي لا ينقص من عظمتهِ ان يكون حادثة واحدة تدوي دويّها في الدنيا . فهو مُيَسَّرٌ منذ نشأتهِ لما خُلق لهُ من ذلك فأحكمتهُ المدرسة الحربية ثم قيّدهُ الجيش ثم تقاذفهُ السودان ثم قذف به الظلم ثم تولاه امام عصره الشيخ محمد عبده وهو كذلك في غاياتهِ الوعرة ومقاصده العمرانية ومعاناته للاصلاح — مدرسة حربية وجيش وفلاة. فلم يكن حافظ الاّ الصوت الانساني الذي أُعِدَّ بخصائصهِ للتعبير عن حوادث امتهِ وخصائصها،



حافظ ابراهيم

مقتطف اكتوبر ١٩٣٢ امام صفحة ٢٦٩

وكأنه في نقلته من السودان الى مصر قد انتقل من جيش يحارب الاقوام الاعداء لأمته الى جيش آخر يحارب المعاني الأعداء لامته

* * *

ولد حافظ ابراهيم سنة ١٨٧١ وكان الكتاب الاول الذي هداه الى سر الادب العربي وأرهف ذوقه وأحكم طبيعته هو كتاب الوسيلة الادبية للشيخ حسين المرصفي المطبوع في مصر لخمس وخمسين سنة ، ففي هذا الكتاب قرأ حافظ خلاصة مختارة محققة من فنون الادب العربي في عصوره المختلفة ودرس ذوق البلاغة في اسمى ما يبلغ بها الذوق ووقف على أسرار تركيبها وعرف منه الطريقة التي نبغ بها البارودي وهي قراءته دواوين فحول الشعراء من العرب ومن بعدهم وحفظه الكثير منها ، فبنى شاعرنا من يومئذٍ قريحته على الحفظ ولم يزل يحفظ الى آخر عمره اذ كانت قريحته كآلة التصوير لا تُنبِّه لشيء الاّ علقتهُ وهذا سبب من اسباب ضعف خياله ولكنه ردٌّ عليهِ من القوة في اللغة ما تناهى فيهِ الى الغاية . واتفق لذلك العهد ان طبعت لزوميات المعري في مصر فتناولها حافظ واستظهر اكثرها فكانت باعث ميله ونزعته الى الشعر الاجتماعي . والفرق بين حافظ وبين المعري في الموهبة الفلسفية هو الذي نفذ بالمعري الى اسرار كثيرة ووقف بحافظ عند الظاهر وما حوله يطير هناك ويقع

فقد كان صاحبنا ضعيفاً من هذه الناحية فاستصعبت عليهِ اسرار واستغلقت أخرى من أسرار الخير والشر في الحياة، والجمال والحسن في الخليقة، والجلال والابداع في الكون والاقرار والشك في كل ذلك ، وقد بلغ المعري من هذا مبلغاً لا بأس بهِ الاّ انه لم يُصفَّ كما تصفي الاشياء في عين مبصرة تخبط وخلط ووضع من اغراض نفسهِ المريضة على الصحيح والمريض جميعاً . وتابعهُ حافظ في طريقة أخرى سنشير اليها بعد

وفتن شاعرنا بما قرأ في «الوسيلة» من شعر البارودي فاصبح من يومئذٍ تلميذه وسار على نهجه في قوة اللفظ وجزالة السبك ومتانة الصنعة وجودة التأليف على نغم الالفاظ وأجراس الحروف ولكنه لم يدرك شأو البارودي في ذلك لان هذا جمع من دواوين الشعراء وكتب الادب ما لم يتفق لغيره في عصره وأدخل في شعره أحسن ما صنعت الدنيا في الف سنة من تاريخ البلاغة العربية ولذا انتقل عنه حافظ الى طريقة مسلم بن الوليد في التصنيع ولزمها الى آخر مدته

وابتدأ يعالج الشعر في السودان وينظم في جنس ما هو بسبيله من وصف الهم المستولي عليهِ من جميع جهاته اذ كان يتيماً فقيراً مشرَّداً ويرى نفسه شاعراً تصده الحياة عن منزلة الشاعر وعن أمكنة الشعر كالذي غُصِبَ ميراثه من عرش وملك ونُفي الى غير أرضه ووضعت روحه بازاء روح الفقر وقيل لها عدوٌّ ما من صداقته بُدٌّ

ثم جاء الى مصر واتصل بالامام الشيخ محمد عبده واستقال من الجيش وفرغ للادب

فبدأ من ثمَّ تكوينه الادبي المندمج المحكم . اما قبل ذلك الى سنة ١٩٠١ التي طبع فيها الجزء الاول من ديوانه فكان شعره قليلاً ظاهر التكلف واكثره يدل على طريقة مضطربة لم تستحكم وفكر لم ينضج وموهبة في التوليد الشعري بينها وبين الاستقلال أمد قريب

ودرس في مدرسة الشيخ محمد عبده من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٠٥ وهذا الامام رحمه الله كان من كل نواحيهِ رجلاً فذًّا وكأنه نبي تأخر عن زمنه فأعطي الشريعة ولكن في عزيمته ووُهب الوحي ولكن في عقلهِ واتصل بالسر القدسي ولكن من قلبهِ .ولولا هو ولولا انه بهذه الخصائص لكان حافظ شاعراً من الطبقة الثانية فانه من الشيخ وحده كانت له هذه القوة التي جعلته يصيب الالهام من كل عظيم يعرفه وكان له من اثرها هذا الشعر المتين في وصف العظماء والعظائم وهو أحسن شعره

ولم يجد حافظ من قومهِ ما يجعله لسانهم حتى تنطقه بالوحي نفسيتهم التاريخية الكبرى، ولا تولاه ملك او امير يرغب في أدبه رغبة اديب ملك او اديب امير ليظهر منه عبقرية جديدة في التاريخ ، ولا عرف الحب الذي يجعل للشاعر من سحر الحبيب ما يجمع النفسية التاريخية والملكية معاً ويزيد عليهما . وهذه الثلاثة التي لم تتفق لحافظ هي التي لا ينبغ الشاعر نبوغاً يفرده ويميزه الا بواحد منها او باثنين او بها كلها .غير ان حافظ وجد في الامام ما هو اسمى من كل هؤلاء في النفس والجاذبية وعرف فيهِ من ذوق الادب والبلاغة ما لم يعرف شاعر في ملك ولا أمير . وقد حضر دروسه في المنطق واسرار البلاغة ودلائل الاعجاز وخرج منها بذوقه الدقيق واسلوبه المتمكن ، وحضر مجالسه وخرج منها بمواضيعه الاجتماعية واغراضه الوثابة ، وحضر نظرات عينيه وخرج منها بروحانية قوية هي التي تتضرم في شعره الى الأبد . فحافظ احدى حسنات الشيخ على العالم العربي وهو خطة من خططهِ في عملهِ للاصلاح الشرقي الاسلامي والنهضة المصرية الوطنية واحياء العربية وآدابها، واذا ذكرت حسنات الشيخ أو عُدَّت للتاريخ وجب ان يقال اصلح وفعل وفعل وفسَّر القرآن وأنشأ حافظ ابراهيم

ومضى شاعرنا موجَّهاً بفكرة الامام وروحه واستمرَّ في ذلك بعد موت الشيخ كما يستمر النهر اذا احتفر مجراه لا يستطيع أن يخرج عنه ما دام يجري الى مَقَارِّهِ

* * *

وكان حافظ في بديعه وصناعته على مذهب مسلم بن الوليد كما قلنا وهو مثله ابطاءً في عمل الشعر وتلوُّماً على حوكهِ وانفراداً بكل لفظة منه وتقليباً للنظر فيما بين الكلمة والكلمة واعتبار كل بيت كالعروس لها معرض وحلية وزينة .فاذا عمل شعراً انبثت خواطره في كل وجه وذهب وراء الالفاظ والمعاني وترك هاجسه (العقل الباطن) يعمل عمله فيما التوى عليه او استصعب وهو واثق انه سينقاد ويتسهَّل بقوة ان لم تكن فيه الآن فستكون فيه . ثم

ينظم ما يتسمَّح إن جاء في موضعه من القصيدة او في غير موضعه فلا يتبع فيها نسقاً بعينه وانما القصيدة عنده كلٌّ سيجتمع من بعد ، تتهيأ اجزاؤه متسقة ومبعثرة كما يجيء بها الالهام واسباب الاتفاق . فالقصيدة أولاً في أبياتها ثم تكون أبياتُها فيها اي ثم ترتب الابيات وتنزَّل في منازلها ، ولا ينظم الاَّ متغنياً يَرُوض الشعر بذلك لان النفس تتفتح للموسيقى فتسمح وتنقاد . وهو يتبع في ذلك طريقة معروفة ذكرها ابن حجة الحموي في كتابه خزانة الادب وهي من وصية ابي تمام البحتري وكان المتنبي يعمل عليها . وبالجملة فان حافظ يرتهن فكره بالقصيدة التي ينظمها ويتوفر عليها وعلى اسبابها لا كما يفرغ الشاعر للشعر ولكن كما يتوفر المؤلف العظيم على كتاب يؤلفه . وهو كذلك يبطيء في نثره اكثر مما يبطيء في الشعر، دلني بنفسه رحمهُ الله على صفحة في الجزء الثاني من ترجمة البؤساء وقال انه ترجمها في خمسة عشر يوماً[1]

وحضرتهُ مرة يترجم اسطراً من الجزء الاول (في قهوة الشيشة) يخطها في دفتر صغير دون حجم الكف فاجتمعت له ثلاثة اسطر في ثلاث ساعات وهذا لا يعيبهُ ما دام يريد قسط الفن وما دام يحاول أن يخرج الكلمات من عالمها الى عالمه هو المتموّج من الالفاظ والعبارات بمثل الكواكب في الاستواء والجاذبية والشعاع والرونق والجمال

ويرى مع الصناعة ان يكون سبك شعره سبك البدوي المطبوع جزلاً سهلاً مشرقاً ممتلئاً متعادل الاجزاء والتقاسيم يرنّ رنيناً كأنما قذفت بهِ سليقة أعرابي فصيح تحت ضوء كواكب البادية على بَرد الرمل في نسمات الليل حين تمتلىء تلك النفس البدوية بحنين الحب او شوق الجمال او عظمة القوة . وهذا هو الاصل الذي اتبعهُ وقفني عليه هو بنفسه في سنة ١٩٠٢ وقرظني به في الجزء الاول من ديواني فقال

أنت والله كاتبٌ حضريٌّ إن عددناك شاعراً بدويَّا

ولو أنك أجريت شعر حافظ في أبلغ ما قاله المطبوعون من الأعراب وشعراء القرن الاول لالتأم بهِ وزاد عليه في الصناعة وبعض المعنى . وقلَّ ان تجد في شعره كلمة ينبو بها مكانُها الاَّ الفاظاً قليلة كان يستكرهها يحسب انه يستطرف منها ويرى في غرابتها شيئاً جديداً وهذا من خطأ رأيه في الاسلوب لانهُ مع بلاغته كان ينقصهُ ان يكون فيلسوفاً في البلاغة. وانا أرى انه لو تمت لهُ الموهبة الفلسفية لما جاراه شاعر آخر ولكن الكمال عزيز في البشرية وقد عرفت رأيه في الاسلوب في سنة ١٩٠٦ اذ نشرت له مجلة الاقلام التي كان يصدرها صاحبنا الاديب جورج طنوس كلمات كان يريد ان يضمّنها كتابه (ليالي سطيح) اظهر فيها رأيه في الشعراء فقال في اسماعيل صبري : يقول الشعر لنفسه لا للناس . وفي شوقي : ارق الشعراء طبعاً

---

(١) لما اهدى الي هذا الجزء كنا قبل الظهر فلم يدعني حتى قرأته كله معه الى العصر وكتبت عنه في المقطم بعد ذلك

وأسماهم خيالاً . وفي مطران أسرعهم بديهةً واقدرهم ابتكاراً . وقال فيَّ ولم يكن مضى عليَّ الاَّ ست سنين في طلب الادب : مكثار راقي الخيال بعيد الشوط في ميادين الأدب غير ناضج الاسلوب . فلما اجتمعت بهِ فاتحتهُ في ذلك وسألتهُ رأيه في الاسلوب الناضج فلم أر عنده طائلاً وكل ما قاله في ذلك ان الشيخ عبد القاهر الجرجاني قرر ان البلاغة ليست في اللفظ ولا في المعنى ولكنها في الاسلوب . وعبد القاهر لم يقل هذا ولا قالهغيرهفان الاسلوب عنده « طريقة مخصوصة في نسق الالفاظ بعضها على بعض لترتيب المعاني في النفس وتنزيلها» « وان المنزلة من حيّز المعاني دون الالفاظ وانها ليست لك حيث تسمع باذنك بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك »

وقد قررت له ان للالفاظ ما يشبه الألوان. فليست كلها زرقاء ولا صفراء ولاحمراء . وربَّ لفظة رقيقة تقع ضعيفة في موضع فيكون ضعفها في موضعها ذاك هو كل بلاغتها وقوتها كفترة السكوت بين انغام الموسيقى هي في نفسها صمت لا قيمة لهولكنهافيموضعها بين الانغام نغم آخر ذو تأثير بسكونه لا برنينه وهذا من روح الفن في الاسلوب

وأدرك شاعرنا منيومئذ ما سميته قوة الضعف ولعلَّ هذا هو السبب في ان طبعهُ رجع يعدل به الى التسهيل حتى انه لتقع في شعره ابيات متهافتة فيأتي بها ولا ينكرها . ولقيني مرة فانشدني قول الشاعر :

أنا لم أرزق محبتَها انما للعبد ما رُزقا

وجعل يُعَجِّبني من بلاغة قوله (لم أرزق) وانها مع ذلك ضعيفة مُبْتَذَلة تجري في منطق كل عامي قلت ولكن (محبتها) جعلتها كمحبتها . . . .

***

وضعف الموهبة الفلسفية في حافظ عوَّضه ناحيةً أخرى مناقوى القوة في الشعر وهي اهتداؤه الى حقيقة الغرض الذي ينظم فيهِ وتركه الحواشي والزيادات وانصراف قواه الى دقة الوصف حين يصف وتعويله على احساسهِ اكثر من تعويله على فكرهِ ، فزاد ذلك في رونق شعره ومائهِ ونحا به منحى المطبوعين فخرج يتدفَّق سلاسةً وحلاوةً ممتلئاً من صواب المعنى وبلاغة الاداء وقوة التأثير . وبهذا نبغ في الرثاء ووصف الفجائع نبوغاً انفرد بهِ حتى لأحسب أن هناك رُوحاً يمُده في هذه المواقف وأن الحقيقة تتبرَّج لهُ في هذه المظالم خاصة ليرى منها ما لا يراه غيره . وهو يتحد بالعظيم الذي يرثيه فيجيد فيمن يعرفهُ اجادة منقطعة النظير تتبينالفرق بينها وبين شعره فيمن لا يعرفه تلك المعرفة .وأحسبهُ يسأل روح العظيم الذييمدحهُ او يرثيه:أين المعنى الذي فيهِ حقيقتك وأين الحقيقة التي فيها معناك

والفلسفة الشعرية كلها أن يحل في الشاعر الملهمَ ذلك السرُّ الجميل الجاذبُ والمنجذبُ

معاً المستقر والمتحول جميعاً الباطن والظاهر في وقت ، فيكتنه الشاعر ما لا يدركه غيره فيقف على الجمال والحسن والرقة ويلهم الحكمة والبصيرة ويتناول الأغراض بالتحليل والتركيب ويؤتى التعبير عن كل ذلك في طريقة خاصة بهِ هي أسلوبه وهذا لم يتفق على أتمّهِ وأحسنه في حافظ فقصَّر بهِ في توليد المعاني المبتكرة ونزل بهِ في الغزل ووصف الجمال . بيد أنهُ اتفق لهُ مثل هذا الجلال بعينه في (الجانب المتألم من شعره) اي الرثاء والشكوى ووصف الفجيعة ، ولو ذهبت تستعرض المراثي في الشعر العربي ومثّلت بينها وبين رثاء حافظ للعظماء الذين خالطهم كالاستاذ الامام والبارودي ومصطفى كامل وثروت ، لراعك انك واجدٌ للشعراء ما هو اسمى من معانيهِ واقوى من خياله ولكنك لا تجد البتة ما هو انخم وادق مما جاءَ بهِ في هذا الباب كأنهُ منفرد في العربية بهذه الخاصَّة

وهذا المعري يقول :

ولولا قولك الخلاَّق ربي لكان لنا بطلعتك افتتان

ويقول في شعر آخر

أسهب في وصفه علاك لنا حتى خشينا النفوس تعبدها

وهذان البيتان تراهما صعلوكين اذا قستهما بقول حافظ في رثاء الشيخ عبده :

فلا تنصبوا للناس تمثال (عبده) وان كان ذكرى حكمةٍ وثباتِ
فاني لأخشى ان يضلُّوا فيُومئوا الى نور هذا الوجه بالسَّجَداتِ

مع ان معنى حافظ مأخوذ منهما ولكن انظر كيف جاءَ بهِ . ويقول المعري في رثاء ابيهِ

ولو حفروا في درَّة ما رضيتُها لجسمك ابقاءً عليك من الدفنِ

ويقول في رثاء غيره :

واحبُوا‌ه الاكفانَ من ورَق المصـ ـحف كبراً عن أنفس الابرار

وهذان ايضاً كالصعاليك عند قول حافظ في البارودي :

لو أنصفوا اودعوه جوف لؤلؤة من كنز حكمتهِ لاجوفَ اخدودِ
وكفَّنوه بدَرْج من صحيفته او واضح من قميص الصبح ممدودِ

مع ان حافظ ألمَّ بقول المعري . ومن بديع ما اتفق لهُ في قصيدة (الامتان تتصافان) قوله يصف السوريين :

رادوا المناهلَ في الدنيا ولو وجدوا الى المجرَّة ركْباً صاعداً ركبوا
او قيل في الشمس للراجين منتجعٌ مدُّوا لها سبباً في الجوّ وانتدَبوا

فاقرأ هذين واقرأ بعدهما قول المتنبي في سيف الدولة

وَصولٌ الى المُستَصْعَبات بخيلهِ فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا

فانك تجد بيت المتني صعلوكاً على بيتي حافظ مع انهُ المبتدع السابق

وأعجب ما عجبت له هذا البيت من شعر صاحبنا في مقطوعة يخاطب بها الامريكان نشرها في المقطم من ثلاث سنوات او نحوها. قال :

وتخذتم موج الاثير بريدا حين خلتم أن البروق كسالى

واتفق يومئذٍ أن كنت جالساً في زيارة الصديق الأستاذ فؤاد صرُّوف محرر المقتطف فجاءَ حافظ فلم يكد يصافحني حتى قال كيف ترى هذا البيت وتخذتم موج الاثير بريداً الخ فاثنيت عليهِ الذي يهوى وهنأتهُ بهذا المعنى واظهرت له ما شاءَ من الاعجاب ولكني أضمرت عجبي من حسن ما اتفق له، فان الجمال الشعري في البيت انما هو في استعارة الكسل للبروق وهذا بعينه من قول ابن نباتة السعدي في سيف الدولة :

وما تمهّل يوماً في ندًى وردًى الاَّ قضيتُ للمح البرق بالكسل

غير ان حافظ نقل المعنى الى حقهِ ومكّن له أحسن تمكين في صدر كلامهِ واتمَّ جماله في قوله (حين خلتم) فاقتطع المعنى وانفرد بهِ وعاد معنى السعدي كالصعلوك على باب بيتهِ . وكانت هذه المقابلة في المقتطف آخر عهدي بحافظ فلم ارهُ من بعدها رحمهُ الله

وما مرَّ بك انما كان من صناعة الشاعر في غير الجزء الاول من ديوانه بعد ان استفحل وتخرَّج في مدرسة الامام ، اما في الجزء الاول فلهُ هو صعاليك . . . . كقوله في الخمر

خمرة قيل انهم عصروها من خدود الملاح في يوم عُرْسِ

فهذا البيت صعلوك عند قول ابن الجهم :

مُشَعشَعَةٌ من كف ظبيٍ كأنما تناولها من خده فأدارها

وقول حافظ (عصروها من خدود الملاح) كلام من لم ينضج في البيان ولا الذوق لا يكاد يُتوهّم معهُ الاَّ ان في خدود الملاح (خراجات) عصرت . . . . وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناولها من خدهِ) فهي كلمة اكثر نعومة من ذلك الخد واجمل نضرة

وقول حافظ في مدح الخديوي :

يا من تنافسُ في اوصافه كلمي تنافسَ العربِ الامجاد في النسب

فهو صعلوك على بيت ابي تمام

تغايرَ الشعر فيهِ إذ سهرتُ لهُ حتى ظننتُ قوافيهِ ستقتتلُ

ولا نطيل الاستقصاء فانما نريد التمثيل حسبُ

وكان الشاعر اول نشأته يأخذ في طريقة المعري الذي عمي عن الطبيعة فجعل يخلقها من فكره ومحفوظه بمبالغات كاذبة يُغرق فيها يحسب انهُ بذلك يعظم الحقائق فتخرج له الاخيلة الكبيرة وما يدري انهُ بهذا الغلوّ لا يجيء الاَّ بالاباطيل الكبيرة. . . . ولكن حافظ في

مزاجهِ وتركيبهِ ونشأتهِ كان رجلاً مبنيّاً على الوضوح والقصد فلم يفلح في طريقة المعري ووضوحه كذلك باعدهُ من الفلسفة وابهامها ومن الطبيعة والغازها ومن الغزل ووساوسه ، وهو الذي اداه الى الشغف بالحقيقة واستخلاصها في كل اغراضه التي أجاد فيها . ومن ثم خلا شعره او كأنهُ خلا . . . . . من أوصاف الطبيعة في جمالها بلغة الفكر المتأمل ومن اوصاف الجمال في سحره بلغة القلب العاشق

* * *

وانت فلا تحسبنَّ الشاعر يجيد في الغزل والنسيب من انهُ شاعر يحسن الصنعة ويجيد الاسلوب فيكون غرضٌ من الشعر سبيلاً الى غرض وفن عوناً على فن وتكون رقة الالفاظ وهلهلة النسج وقلبي وكبدي ويا ليلةً ويا قمراً ويا غزالاً .... واشباه ذلك غزلاً ونسيباً . كلاَّ ثم كلاَّ والثالثة . كلاَّ ايضاً . . .

ان الغزل واوصاف الجمال موهبة في الشاعر او الكاتب تُسخَّر لها قوًى هي اشبه في معجزاتها بما سخّر لسليمان من قوى الجن والريح غير انها قوى آلام ولذات ووساوس . تلك عظمة في بعض النفوس الشاعرة كعظمة الملوك والابطال غير انها لا تكمل الا خائبة او مغلوبة فاذا انتصرت سقطت. فلا بد لها من تاريخ وحوادث ومزاج عصبي يُهيِّأ لها بروحانية شديدة الحس شديدة الفورة ثائرة أبداً لا تهدأ الاّ على توليد معنى بديع في جمال من تحبهُ او كماله . ثم اذا هدأت بذلك آثارها انها هدأت فتعود الى التوليد فلا تزال تبتدع وتصف كأنها آلة تعبير تدور بقلب وعصب . هناك قوتان احداها تؤتي الحب كما يصلح غراماً وعشقاً والاخرى فوق هذه تؤتي الحب كما يصلح فكراً وتعبيراً . والاولى تجعل صاحبها عاشقاً يحب ويدرك ليس غير ، والثانية تجعله محبّاً اعمله ان ينقل من لغة ما في نفسه الى ما حوله ومن لغة ما حوله الى ما في نفسه فهو مترجم النفس الى الطبيعة ومترجم الطبيعة الى النفس . والذي اعرفهُ ان حافظ لم يرزق لا هذه ولا تلك فلا طبيعة فيهِ للغزل وفلسفة الجمال . ثم ان التاريخ حصره في (الشاعر الاجتماعي) الذي اختار ان يمتاز به فهو في اكثر شعره كان ليس فيه شخص بل فيهِ شعب مأسور غفل عن الجمال وعن الطبيعة وعن النشوة بهما ، اذ يعيش في معاناة الحرية لا في التأمل الجميل وفي اسباب القوة لا في اسباب الرقة ويريد ان يعمل ليوجد حقيقته قبل ان يعمل ليُبدع خيالهُ

ومع ذلك فقد جاء في ديوان حافظ غزل قليل كان كله متابعة وتقليداً في فن يحسن التقليد الاّ فيهِ خاصة . عمل صدراً لقصيدة مدح بها الخديوي مطلعها :

كم تحت أذيال الظلام متيمٌ   دامي الفؤاد وليله لا يعلمُ . . . .

وقلد ابن ابي ربيعة في حكاية حب لفقها تلفيقاً ظاهراً ثم زعم ان الحبيبة قالت له في آخرها:

فاذهب بسحرك قد عرفتك واقتصد ... فيما تزيّن للحسان وتوهمُ

وكلمة صاحبة إبن ابي ربيعة :

اهذا سحرك النسوان ؟ قد عرّفتني الخبرا

اهذا سحرك النسوان ؟ هذه كلمة لا تخرج الاّ من فم حبيبته آية في الظرف وفيها تجاهلها وعرفانها وابتسامها واشراق وجنتيها وأكاد واللهاری فیها تلك الجميلة وهي تدق بيدها على صدرها دقة الاستفهام المتدلل المتظاهر بالدهشة لينهد فيهِ الكلام والمتكلم معاً، اما قول حبيبة حافظ الخشبية او الحجرية . . . . . . اذهب . . قد .عرفتك واقتصد ....فهذا خليق ان يكون من فم قاض وهو ينصح المتهم بعد الامر بالافراج عنهُ. . . . أو مأمور قسم عند ضبط الحادثة

اكبر ظني ان روح حافظ نفسه هي التي اوحت اليَّ الآن هذه (النكتة) فانهُ رحمهُ الله كان آية في هذا الباب ولهُ من النوادر محفوظة ومخترعة ما لا يلحق فيهِ . ولو كان كاتباً على قدر ما كان شاعراً وزاول النقد واستظهر للكتابة فيه بتلك الملكة المبدعة في التندُّر والتهكم مع ما أوتي من القوة في اللغة والبيان — لكانت النعمة قد تمت به على الادب العربي ولقلنا في شعره وكتابته وأدبهِ ما قال هو في الاستاذ الامام : فأطلعت نوراً من ثلاث جهات

وما دمنا قد ذكرنا النقد فمن الوفاء للتاريخ الادبي ان نذكر مذهب شاعرنا فيهِ . فلم يكن عنده منهُ الاَّ ذوق الكلام وادراك النفرة والنبوة في الحرف والغلظ والجسأة في اللفظ والضعف والتهافت في التركيب ، ثم ما يجيش في الخاطر او يتلجلج في الفكر من ذوق المعنى وادراك كنهه والنفاذ الى آثار النفس الحية فيهِ . فكأن النقد هو الحسُّ بالكلام كما تلمس الحار والبارد وما بينهما . ووصف لي مرة اسماعيل صبري باشا وأراد ان يبالغ في دقة تمييزه وحسن بصره بالشعر وادراكه دقائق المعاني فقال :

« ذوّاق يا مصطفى » ولم يزد

ومذهب الحس بالكلام هذا وان صلح ان يكون من بعض معاني النقد فلا يتهيأ ان يكون هو النقد بمعناه الفلسفي او الادبي وهو في جملة امره كقولك حسن حسن ورديء رديء.اما كيف كان حسناً او رديئاً وبماذا ولماذا فذلك ما لا سبيل اليهِ من مذهب(ذوّاق). . . . ولا وسيلة له الاَّ العلم المستفيض والاطلاع الواسع والحسُّ المرهف والقدرة المتمكنة مضافة كلها الى الادب البارع وفلسفته الدقيقة . ولا نعرف لحافظ كتابة في النقد البتة وقد كان حاول شيئاً من هذا في مقدمة كتابه (ليالي سطيح) فتناول بعض خصومه بكلمات رأى هو ان يمحوها بعد ان طبعت الكراسة الاولى فأسقطها وأعاد كتابة المقدمة وطبعها مرة ثانية وكانت عندي النسخة التي محاها وهذا ما لا اظنّ احداً يعرفهُ الآن . رحم الله شاعراً كان اصفى من الغمام وكان شعره كأنهُ البرق والرعد . . . .



حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر

لحضرة صاحب السعادة الدكتور شاهين باشا

وكيل الداخلية للشؤون الصحية



— ٢ —

سار ابناء واحفاد محمد علي الذين تولوا الحكم بعده على منواله وقطع كل منهم في هذا السبيل شوطاً يختلف عن الآخر تبعاً للموارد التي كانت لديه ووفقاً لمشورة الرجال الذين كانوا يعملون معه حتى أتى الخديوي اسماعيل باشا الذي امتاز عصره بالتجديد في كل النواحي الاجتماعية والمادية وقد تقدمت وفقاً لخططه الاصلاحية الشؤون الصحية تقدماً عظيماً لا سيما وان علم الصحة كان قد خطا خطوات واسعة في عصره مما كان خير معوان له على هذ التقدم

وما حلّ القرن العشرون حتى اصبح علم الصحة غير قاصر على مكافحة الاوبئة ومراقبة زيادة الوفيات وقيد المواليد بل تعدى ذلك الى الناحية الوقائية وابتدأت النهضة الصحية في مصر بالازدهار على ضوء التقدم الحديث للعلوم والفنون الطبيـة الذي انبثق فجره في اواخر القرن التاسع عشر لما اكتشفت جراثيم الامراض في الانسجة. وان ننس لا ننسى ما قام به باستور من العمل الخالد في اكتشافه اسباب التخمر في سنة ١٨٥٧ وابحاثه في الجراثيم في سنة ١٨٧٧ وفي الطعوم في السنتين من سنة ١٨٨٠ حتى ١٨٨٢ التي هي اساس الطب الحديث. هذا مع ما استنبطه كوخ من المزارع الصلبة والطرق المتقنة لتمييز الجراثيم وقد كان ذلك فتحاً عظيماً في الطب فتتابعت الاكتشافات الباهرة التي امتاز بها عصرنا من سنة ١٩٠٥ وفيها اكتشاف هتسن لباشلس الجذام ونيسر لميكروب السيلان وابرت وجانكي لباشلس الحمى التيفودية واجستن لبزور التقيح وكوخ لباشلس التدرن وباشلس الكوليرا بالقطر المصري وكلبس ولوفلر لباشلس الدفتريا وكتساتو ورسن لباشلس الطاعون ونيكولاير لباشلس التيتانوس واكتشف لافران في سنة ١٨٨٠ طفيلي الملاريا وهلمّ جرّاً حتى اتت سنة ١٩٠٥ فاكتشف شودن حلزونيّ الزهري ثم اكتشف ان لهذه الجراثيم سموماً تفعل في الجسم وعقب ذلك تحضير بهرنج وكتساتو مصلاً مضاداً للدفتريا وبهذه الاكتشافات الموفقة وصلنا الى معرفة حقيقة هامة وهي ان الجسم السليم اذا هاجمه مكروب قد يتأثر بفعل سمومه غير انه يمكن لخلاياه وسوائله ان تقوم بالدفاع عن الجسم باتلاف الميكروب وهضمه وهذا الدفاع يحصل بواسطة مواد مضادة بفعلها لفعل سم الميكروب. وقد سبق ذلك بسنتين كشف متشنكوف لفعل الكريات البيضاء في اتلاف الجراثيم وتلا ذلك اكتشافات عديدة كالتلبد

وغيره . ثم في سنة ١٩١٠ اعلن ارلخ اكتشافه لمركب ٦٠٦ الذي يقضي على طفيلي الزهري في جسم الانسان . فما تقدم بيانه نرى ان اول فعل باهر رفع من شأن علوم الطب وفروعها على اقوى الدعائم يرجع الفضل فيه الى باستور الكيماوي وكان ذلك في سنة ١٨٥٧ وكان الفضل في اتمام هذا العمل الباهر لكيماوي آخر وهو ارلخ . ولن تنسى الانسانية مهما كرت الدهور وتعاقبت العصور فضل هذين النابغين عليها

وقد اخذت مصر بنصيبها في تطبيق نتائج هذه المكتشفات لتحسين الحالة الصحية العامة بها لانه متى اكتشفت الجرثومة المسببة للمرض امكن مكافحته بالتغلب على هذه الجرثومة . وقد كان الدافع الى هذا التطبيق بمصر آتياً عن طريقين الاول رغبة اولي الامر في تمدين مصر والاخذ بالاساليب الاوروبية النافعة. والثاني تكرر حدوث الاوبئة بها بسبب وقوعها على حافة البركان كما يقول المثل الاوربي اشارة الى موقعها الجغرافي الذي جعلها على الدوام صلة الاتصال بين ممالك العالم. ومما يذكر في هذا الموطن مع الاغتباط أنهُ في اثناء نهضة مصر الصحية الحالية وفق بلهارس لاكتشاف ديدان البلهارسيا ولوس لطريق العدوى بها وبديدان الانكلستوما وانتهى الامر بالبحث في جميع النواحي الصحية والعمل على تحسينها وبالتالي لرفع مستوى الحياة الصحية لكل فرد من الافراد وللمجتمع المصري كله على اختلاف طبقاته مما كان له اكبر الاثر في تمدين مصر. ولو كانت موارد البلاد المالية سمحت بتمشي مستوى الثقافة العامة مع رقي الصحة العامة خطوة خطوة لبلغت مصر من المدنية شأواً عظيماً ولاستفادت البلاد من الجهود الصحية أضعاف ما تستفيدهُ الآن اذ من البديهي انهُ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

فالحالة الصحية بالقطر المصري الآن مرضية فقد كانت نسبة الوفيات في سنة ١٨٨٨ تبلغ ٥٠٫٢ في الالف وفي سنة ١٨٨١ تبلغ ٥١٫٦ في الالف وكان عدد السكان ٦٨٢٩٦٠٠ بينما انخفضت نسبة الوفيات بالقطر في سنة ١٩٣٠ الى ٢٤٫٤ في الالف وهي اقل نسبة في الخمس والعشرين السنة الاخيرة وعدد سكان القطر الآن نحو الخمسة عشر مليوناً من الانفس

ثم ان زيادة نسبة المواليد عن نسبة الوفيات كانت قليلة بينما هي الآن عالية جداً ففي سنة ١٨٨٩ كانت نسبة المواليد في القاهرة مثلاً ٥٨٫٨ ونسبة الوفيات ٥١٫٦ لكل الف ساكن بينما في سنة ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد في القطر المصري ٤٤٫٤ ولم تتعد نسبة الوفيات ٢٥٫٤ والبون شاسع بين النسبتين وهذا دليل من اهم الادلة على تقدم الصحة العامة بلا نزاع. اما اذا لوحظ وجود قلة في نسبة المواليد فهذه القلة احد مظاهر المدنية التي تدعو الى الاقلال من تعدد الزوجات ومن الزواج المبكر لكثرة تكاليف الحياة الآن والرغبة في التقليل من النسل لتوفير العناية بالقليل منهُ ليشب الابناء اصحاء ويصيروا اعضاء نافعين في الهيئة الاجتماعية. ومع ذلك فيقابل قلة النسل قلة الوفيات بين المواليد فبعد ان كان يتوفى في السنوات من ١٩٠١ الى ١٩٠٥ : ٢٨٢ في كل الف مولود انخفض هذا العدد في سنه ١٩٣٠ الى ١٥١ وفاة لكل الف

مولود . . . واذا نظرنا الى هذه النسبة وجدناها عالية لو قرنت بما يقابلها ببعض الممالك الاخرى كانجلترا او فرنسا ولكن يخفف وطأتها ان نسبة المواليد بمصر اعلى كثيراً مما هي في هذه الممالك حتى ان عدد سكان مصر دائماً في ازدياد فعدد سكان مصر الآن خمسة امثاله في اول عهد نهضتها الحديثة أي في اول عصر محمد علي باشا

ومع ذلك فمسألة زيادة وفيات الاطفال بالقطر المصري هي من المسائل التي بحثت بحثاً مستفيضاً وقد بدىء بالعمل على مكافحتها بافعل الوسائل العملية اذ انشىء في كل عاصمة مديرية مركز لرعاية الطفل وحماية الامومة كما انشئت عدة مراكز بالقاهرة والاسكندرية وانشئت فروع بالمستشفيات العامة لمعالجة الاطفال ومراكز ومستشفيات متنقلة كما ألحقت دور للولادة بهذه المراكز ونظمت زيارات صحية بواسطة زائرات خصيصات لارشاد الحوامل والامهات في طرق العناية وتربية الطفل وغير ذلك من الوسائل الفعالة لمعالجة الامراض الوراثية وتحسين النسل. وقد ألمعنا الى اثر هذه الجهود في نقص نسبة الوفيات. ولا شك ان انتشار التعليم الالزامي بين طبقات الشعب سيكون خير معوان على الوصول الى تقليل وفيات الاطفال الى الحد الادنى

ولم يكن أثر الاهتمام بالطفل قاصراً على تقليل نسبة الوفيات بين الاطفال فقط بل المقصود به ايضاً انشاء جيل قوي البنية ذي كفاية للعمل المنتج يعيش الى اقصى مدى مستطاع ولقد ظهرت طلائع هذا الجيل وشواهد ذلك جلية في فتيان اليوم وفتياته . فأين شباب اليوم من شباب خمسين سنة مضت وخصوصاً شابات ذاك العهد اذ كن صفراوات هزيلات أو سمينات مترهلات . واما شبان اليوم وشاباته فممتلئون صحة وعافية اذ يعنى بصحتهم من يوم ولادتهم حتى يخرجوا الى معترك الحياة — واذا ازدادت عناية المصريين بممارسة الالعاب الرياضية رجوعاً منهم الى سنة اجدادهم من قبل أصبح مجيء هذا الجيل قريباً ولا شك فيه

ولا ازيد القارىء بياناً بما اتخذ ويتخذ الآن في مقاومة الاوبئة بل ومنعها فقد اصبحت بعض الامراض اثراً بعد عين كالجدري كما اصبح البعض الآخر يتقى بالحقن كالدفتريا والحميات المعوية او يقاوم بسهولة كالطاعون الذي كان الشبح المخيف بمصر كما سبق لنا بيانه في هذا المقال

هذا وقد نثرت معاهد العلاج في كل ناحية من نواحي القطر فلا يخلو الآن مركز من مستشفى ولا عاصمة مديرية من مستشفى عمومي كبير ولا قرية كبيرة من عيادة خارجية مع تيسير وسائل التشخيص بانشاء المعامل بكل انواعها وتزويدها بالاجهزة المختلفة وتوفير كل طرق المعالجة الحديثة بمعاهد العلاج حتى اصبح بالقطر المصرى الآن ٨١ مستشفى عمومياً

ولما كانت مصر منذ القدم موطناً لامراض كالبلهارسيا والانكلستوما وبعض امراض العيون كالرمد الحبيبي وهذه الامراض — علاوة على الملاريا التي فشت في بعض جهات القطر بسبب وجود المستنقعات التي نشأت على الاخص بسبب حفر حفر لاخذ التراب منها لصنع الآجر المستعمل في بناء المخازن بالقرى وعداء عن الزهري والامراض الدرنية — تقلل من كفاية السكان

وتضعف قوة انتاجهم وتهد من كيان الامة بصفة عامة ، فقد وجهت اليها العناية بنوع خاص وانشئت المستشفيات والمستوصفات لمعالجتها وكذلك لمعالجة الجذام كما بذلت الجهود في عمل الابحاث الخاصة بمنشئها وطرق معالجتها المعالجة الناجعة وخصوصاً الانكلستوما والبلهارسيا اللذان انشيء معهد خاص لعمل التجارب المتعلقة بمقاومتهما فضلاً عن نشر الدعوة ضد هذه الامراض نشراً مستمراً بكل طرق الاذاعة المعروفة الآن

ولا يوجد برهان على تقدم المدنية وزيادة الرفاهية في بلد من البلاد اقطع في الدلالة من توفير المياه النقية الكافية للشرب وللاستعمال المنزلي ومنع تلوث المياه وتصريف الفضلات والعناية بالشوارع والطرق وصحة المساكن والتفتيش على المأكولات وتنظيم الاسواق والاضاءة والنظافة العامة

وقد قطعت مصر شوطاً كبيراً في هذه السبل اذ ان عدد المدن التي توجد بها اجهزة لترشيح المياه اصبح خمساً وثلاثين وعدد البلاد التي بها آبار ارتوازية قد بلغ حتى الآن واحداً وثلاثين وعدد سكان هذه المدن الذين ينتفعون الآن بالمياه النقية هم حوالي ربع سكان القطر المصري . اما امهات المدن الموجود بها مجارٍ عامة فهي حتى الآن ثمان وادارة هذه الاجهزة علاوة على العناية بالنظافة العامة موكولة للمجالس البلدية والمحلية والقروية المنظمة في معظم المدن والبلاد والقرى الكبيرة . وليس من شك في ان المساكن الآن احسن حالاً من التي وصفها المؤرخون وزائرو القطر المصري في القرنين الاخيرين وقد مهدت شوارع المدن الكبيرة وعبدت طرق عديدة وعمت الاضاءة بالكهرباء المدن والكثير من البلاد ونظمت اسواق كثيرة للمأكولات وعني الآن بغذاء الانسان بما يلقن للأم وهي حامل وهي والدة وبما يلقن للتلميذ بالمدارس عن التغذية الصحية وبما ينشر على الجمهور وما اتجهت اليه عناية ولاة الامور من المحافظة على نقاوة الطعام بالتشريع الخاص بذلك وبالتفتيش على اماكن تخزينه وبيعه وتحضيره فلا يمكن الآن فتح محل لبيع المأكولات الا بترخيص بعد تنفيذ مواصفات صحية خاصة . وبعد الترخيص يفتش الاطباء ومعاونوهم المتخرجون في معهد خاص على هذه الاماكن تفتيشاً دورياً منتظماً لضمان سيرها على النظم الصحية

وبسبب نشوء عدة صناعات بالقطر المصري نبتت فكرة العناية بصحة العمال فابتديء بسن تشريع لذلك وان كانت المصانع خاضعة للتفتيش الصحي منذ عهد النهضة الحديثة بالشئون الصحية العامة . وقد ابتديء ايضاً في اقامة مساكن صحية للعمال بالاسكندرية والقاهرة ولا شك في ان البلاد سائرة في سبيل نهضة موفقة في الشئون الصناعية تستدعي عناية خاصة بالشئون الصحية للعمال والمصانع

نتائج الجهود الصحية والطبية

ان التقدم المطرد للطب والتقدم الاجتماعي للجنس البشري مهدا السبيل لعدد جم من بني

الانسان لان يحيا حياة طيبة ومثمرة وكانت نتيجة الجهود السابق ايضاحها ان ازداد متوسط العمر وان الكثير من الامراض زال تقريباً من القطر المصري كالجدري والبعض قلَّ كالعور والعمى والملاريا ومضاعفات بعض الامراض كالبلهارسيا . فالبلهارسيا الجراحية صارت الآن أقل ثماني مرات مما كانت عليه في سنة ١٩٢٤ والحصوات البولية ثلاث مرات ونصف مرة والبواسير البولية انخفضت الى الثلث مما كانت عليه في سنة ١٩٢٥

وبالاختصار قد تيسر بوضع بزور أسس الحياة الصحية رفع مستوى صحة الافراد رفعاً يبدو للعيان وقد هبطت نسبة الوفيات الى عدد السكان نحو اربعين في المائة عما كانت عليه من من خمسين سنة مضت . وقد أصبح في متناول كل انسان من وقت طفولته التحصن ضد الكثير من الامراض كالجدري والدفتريا كما أبعد عنه خطر العدوى من امراض عديدة اخرى

ولكن بالرغم من هذه الجهود فانه لا يزال هناك معضلات صحية مصرية في حاجة الى الحل حتى يمكن مع التقدم الاجتماعي والصناعي المنتظر وتعميم التعليم الاجباري ان تصل المدنية الى ارقى مستواها في القطر المصري . وهذه المسائل هي موضع العناية الآن والبعض قد درس فعلاً والبعض الآخر لا يزال في طريق الدرس والمنتظر ان تحل جميع هذه المعضلات وقد أتينا على ذكر أهمها فيما يأتي : —

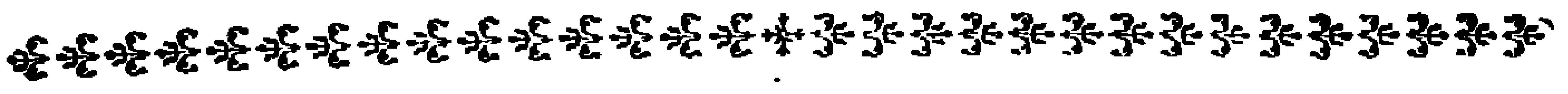
١ — معالجة نقص التغذية في بعض جهات القطر ٢ — معالجة مسألة ادمان المخدرات ٣ — العناية بالنسل باستئصال شأفة السموم وغيرها من العوامل التي تؤثر فيه بالوراثة وبذلك يقل عدد الاشخاص الذين لا فائدة منهم للبلد كضعاف العقول وغيرهم ٤ — العمل على تقليل عدد ذوي العاهات وعلى توفير وسائل التعليم ووسائل كسب العيش للموجودين منهم ٥ — توفير المياه النقية لكل سكان القطر على السواء من حضر وريف ٦ — تحسين حالة المساكن في المدن والقرى — وبحل هذه المعضلة يرتفع مستوى الصحة العامة الى درجة عالية جداً لان المسكن غير الصحي يدعو الى ضعف بنية السكان واضعاف قوة مقاومتهم للامراض فيكثر المرضى وذوو العاهات وترتفع نسبة الوفيات . والمسكن الرديء يدعو بطبيعته الى قذارة المساكن وقذارة ما يحيط بها وما يتبع ذلك من مرض ونقص في الكفاية ٧ — مقاومة البلهارسيا والانكلستوما لا بالمعالجة والوسائل الصحية العامة فقط بل بابادة الديدان المسببة لها في مواطنها والهمة مبذولة الى اقصى حد للوصول الى هذا الغرض الهام ٨ — القضاء على الرمد الحبيبي باكتشاف جرثومته . والبحث قائم بكل همة ونشاط لحل المعضلة التي استعصت على الحل منذ آلاف السنين وليس من شك في أن رفع مستوى الثقافة العامة بين الاهلين يساعد كثيراً على الوصول الى هذا الغرض ٩ — التصرف في الفضلات بتعميم المجاري في المدن وحل هذه المعضلة الهامة بالنسبة للقرى

ومتى وفقنا الى حل هذه المعضلات الصحية وقطعت البلاد شوطاً بعيداً في مضمار التقدم في مختلف نواحي المدنية تزدهر المدنية في مصر وتبلغ مثلها الاعلى فتعود البلاد سيرتها الأولى



الاحياء المشعة

بحث طريف في العلوم الحيوية الطبيعية



في سنة ١٩٢٣ اعلن العالم الروسي غورفتش Gurvich انهُ وفق الى كشفٍ غريب. قال : اذا اخذ جذر بصلٍ (لا يزال متصلاً بالاصل) ووُجّه الى جانب جذرٍ آخر اثر في نمو هذا الجذر تأثيراً غريباً . فان خلايا الجذر الثاني في الناحية المواجهة لجذر البصل الاول تصبح اسرع نمواً من الخلايا التي في الناحية المقابلة

فلقيت هذه الانباء في بادئ الامر أعراضاً وريباً في صحتها . فلما اعلن غورفتش ان هذه التجارب تثبت لهُ وجود « قوة حيوية » تشعّ من نسيج الجذر زاد الاعراض واشتدّ الريب. ثم وجد بعد سنةٍ ان ما ينطلق من الجذر يخترق الكوارتز ولا يخترق الزجاج العادي — مما حملهُ على الظن بانها اشعة من قبيل الاشعة التي فوق البنفسجي التي تنفذ الكوارتز ولا تنفذ الزجاج . فنبذ قولهُ السابق بان ما يخرج من الجذر هو « قوة حيوية » . ولكن لما استعملت الالواح الفوتغرافية، الشديدة الاحساس بالاشعة التي فوق البنفسجي ، لامتحان قوله لم تتأثر هذه الالواح على الاطلاق بما يخرج من جذر البصل . فتمادى المرتابون في ارتيابهم

على ان هذا الاخفاق لم يقعد غورفتش وتلاميذهُ عن المضي في تجاربهم . فوجدوا ان اشياء اخرى غير جذر البصل تفعل هذا الفعل منها العضلات وادمغة الشراغيف Tad-poles ثم وجدوا ان مستنبتات الخميرة او البكتيريا افعل في الكشف عن هذه الاشعة من غيرها من الكائنات الحية فيسرع تكاثر الخلايا فيها اذا صوّبت اليها هذه الاشعة الخفية . ومن ثم اخذت الرسائل العلمية تنهال من معمل غورفتش وتلاميذه فلما مضى على ذلك خمس سنوات جمعت النتائج التي اسفر عنها البحث وبوّبت ونشرت في كتاب . ودعيت هذه الاشعة بما معناه « الاشعة الباعثة على انقسام الخلايا Mitogenetic نسبة الى Mitosis وهو مرتبة من مراتب انقسام الخلايا. ولكن ارتياب الدوائر العلمية لم يتبدّد لان الباحثين الذين جرّبوا تجارب غورفتش اخفقوا في الحصول على نتائج مماثلة لنتائجه

ثم اخذ تيار المقاومة في الارتداد. وجاءت الانباء من المانيا اولاً ثمَّ من اميركا ان تجارب فريقٍ من الباحثين ، كلٌّ منهم قام ببحثه على حدة ، اسفرت عن تأييد اهم النتائج التي وصل اليها غورفتش وتلاميذهُ . انهم وجدوا ان لا ريب في وجود هذه الاشعة ، وان لها اثراً في استثارة نموّ الخلايا ، وانها تعكس وتكسر كاشعة الضوء ، وانها من طائفة الاشعة التي منها الاشعة فوق البنفسجية . ووجدوا كذلك ان الاشعة التي فوق البنفسجية المولّدة بطرق

طبيعية — كالمصابيح المستعملة في معالجة الكساح مثلاً — ليس لها دائماً أثر في زيادة نمو الخلايا . واذا كان لها هذا الأثر فهي اشعة غير قوية وان الاشعة فوق البنفسجية التي لها أثر بيولوجي لا تفعل قط بلوحٍ من الواح التصوير الضوئي (الفوتغرافي)

وهكذا حلت المسألة فيما يتعلق باركانها بتعاون علوم الاحياء وعلوم الطبيعة . اما علوم الاحياء فكانت ممثلة في شخص غورفتش نفسهِ وأما علوم الطبيعة ففي شخص جوفه Goffé مدير معهد الطبيعة المجردة والمطبقة في لننغراد

فمثلاً استنبطت طريقة كهربائية شديدة الاحساس ، تتبين وجود قدر ضئيل جداً من اشعة الضوء او الاشعة فوق البنفسجية . وبهذه الآلة استطاع الباحثون ان يبينوا ان الأثر البيولوجي المنطلق من جذير البصل او العضلة ، سببهُ اشعة من قبيل الاشعة فوق البنفسجية — ولكنها اقصر منها امواجاً — تنبعث في مقادير يعجز عن تبينها لوح التصوير الضوئي . فاذا حسبنا ان اقل قدر من هذه الاشعة يؤثر في لوح فوتغرافي (د) كان المقدار المنبعث من جذير او عضلة مما لهُ أثر في نمو الخلايا جزءًا من مليون جزء من (د)

ثم ظهر ان هذه الاشعة لها مكان في طيف الاشعة يتباين طول امواجهِ من ٢٠٠٠ الى ٢٣٠٠ انجسترم [١] . ولبيان ذلك نقول ان الاشعة المنظورة وغير المنظورة سلسلة متصلة الحلقات من الاشعة اللاسلكية اطولها ، الى الاشعة التي تحت الاحمر الى اشعة الضوء الى الاشعة التي تحت البنفسجي الى اشعة اكس واشعة غما والاشعة الكونية . فاذا كان عرض المنطقة التي تشغلها اشعة الضوء م فعرض المنطقة التي تشغلها هذه الاشعة البيولوجية ١/٧ م وأمواجها اقصر من امواج الاشعة التي فوق البنفسجي واطول من اشعة اكس

هاتان الحقيقتان مهدتا السبيل الى فهم جانب آخر من سرّ هذه الاشعة يدور حول السؤال التالي : لماذا لا تؤثر الاشعة التي فوق البنفسجي المنبعثة من الشمس او من مصدر صناعي — كمصباح القوس الكهربائي — في زيادة نماء الخلايا تأثير هذه الاشعة البيولوجية ؟

قلنا ان الاشعة البيولوجية تشغل نطاقاً ضيقاً في منطقة الاشعة فوق البنفسجية ولدى البحث ثبت ان الاشعة التي خارج هذا النطاق الضيق — وان تكن من قبيلها — لا تفعل فعلها في استثارة نمو الخلايا ، بل تفعل احياناً فعلاً مضاداً له اي انها توقف النمو او تؤخره . ولكن اذا فرضنا اننا حصلنا في الضوء الذي تبعثهُ الشمس او مصباح قوسي على امواج موافقة في طول امواجها لطول الاشعة البيولوجية لم يكن لها نفس الأثر البيولوجي . لان هذه الاشعة لا تفعل هذا الفعل الاَّ اذا كان مصدرها غير شديد التوهج . فاذا كانت الامواج ذات الطول المعين صادرة من مصدر غير متوهجٍ كعضلة او جذير كان فعلها الانمائي شديداً

(١) الانجسترم جزء من عشرة ملايين جزء من المليمتر

وقد توصل الباحثون الى هذه النتائج بالجمع بين اساليب البحث الطبيعي البيولوجي . فبدلاً من الاكتفاء بقطعة من جذير بصلة لقياس اثر هذه الاشعة في انماء الخلايا عمد جوفه Joffé الروسي الى مستنبتٍ بكتيريٍّ واستعملهُ بدل جذير البصل . ذلك ان قياس نمو الخلايا في المستنبت اسهل منهُ في الجذير . ففي الجذير يجب ان نأخذ شرائح من الجهة المقابلة للاشعة والجهة البعيدة عنها ودرسها بالمكرسكوب لتعيين سرعة نمو الخلايا في الجهة المقابلة للاشعة بالنسبة الى سرعة نموها في الجهة الاخرى . اما في المستنبت البكتيري فتحقيق ذلك سهل المنال . فاذا صوبت شعاعة ضوء الى المستنبت فرقتها الكائنات البكتيرية يميناً ويساراً . ومقدار الضوء المتفرق يزداد بزيادة البكتيريا في المستنبت ويقل بقلتها . وهكذا استعمل جوفه قوة الضوء المتفرق مقياساً لفعل الاشعة الحيوية في انماءِ البكتيريا . وقد وجد غورفتش حديثاً ان الخلايا في دور معيَّن من حياتها تستطيع ان تتناول الاشعة الحيوية التي تطلقها جذور البصل مثلاً ثم تطلقها اقوى مما تناولتها فكأنها جهاز التلفون الذي يضعّف امواجه في حديث بين بلدين بعيدين (Relay) والظاهر ان هذه الاشعة لا تنطلق الاَّ من طبقة رقيقة سطحية من الخلايا في كائن ما . واذاً فليس لحيوان ذي بشرةٍ ان يطلقها لان بشرتهُ تمنع خروجها

ولهذه الاشعة احياناً آثار غريبة . فالاشعة المنطلقة من قلب سمكةٍ اذا صوّبت الى بيض قنفذ بحري (توتياء او رتسا) غير ملقَّح ، خطا هذا البيض الخطوة الاولى نحو التناسل العذري (اي التناسل من دون تزاوج Parthenogenesis) اما الاشعة الحيوية المنبثقة من البكتيريا فتجعل بيض البعوض المستكنّ ينقف قبل ميعاده واذا صوّبت الى بيض القنفذ البحري احدثت في بناءِ دعاميصه شذوذاً غريباً . وقد وجدت طائفة من الباحثين في العلوم البيولوجية ان الكائنات ذات الخلية الواحدة اسرع تكاثراً اذا كانت طوائف في قطرةٍ من السوائل المغذية منها اذا كان كلٌّ منها منفرداً في القطرة حتى ولو وضع في اكثر الاحوال مؤاتاة لنموه . ولعلنا نجد تعليل هذه الظاهرة في ان الاشعة الحيوية تنطلق من افراد الطائفة الواحدة فيحفز بعضها بعضاً الى النمو . ولعل الاثر نفسهُ يتمُّ في المراتب الاولى من نمو خلية ملقحة

ثم اثبت جوفه واعوانهُ ان اشعة مثل هذه الاشعة — نوعاً وقوة — تنطلق من مواد غير عضوية خارج الجسم في اثناءِ تفاعلها الكيمائي . وعليه فانطلاقها من جذور البصل وخلايا الخميرة او عضلات الفقاريات ليس صفة حيوية خاصة بل مصدرهُ افعال كيمائية معينة لامندوحة عنها للجسم الحيّ . فكأن هذه الاشعة نفاية من نفايات الحياة . ولكن الطبيعة لا تغفل عن استعمالها كما حدث في السمك الكهربائي والاحياء المضيئة . فان الكهربائية والضوء فيها نتيجة تفاعل في اجسام هذه الحيوانات فاستعملتها الطبيعة في ميدان التطور . ولعل الطبيعة تستعمل كذلك هذه الاشعة في اسراع انقسام الخلايا وتنسيق النماء

قلب راقصة

— ١ —

امسيت اشكو الضيق والأينا مستغرقاً في الفكر والسأم
فمضيت لا ادري الى اينا ومشيت حيث تجرني قدمي

فرأيت فيما ابصرت عيني ملهى أعدّ ليبهج الناسا
يجلون فيه فرائد الحسن ويباع فيه اللهو أجناسا

بغرائب الألوان مزدهر وتراه بالاضواء مغمورا
فقصدته عجلاً ، ولي بصر شبه الفراشة يعشق النورا

ودخلته اجتاز مزدحماً بالناس افواجاً وأفواجا
وأخوض بحراً بات ملتطماً بالخلق امواجاً وأمواجا

فقدوا حجاهم حينما طربوا ودووا دويّ البحر صخّابا
فاذا استقروا لحظةً صخبوا لا يملكون النفس اعجابا

متوثبين يميل صفهم متطلع الأعناق يتقد
ومصفقين علت أكفهم فوارة فكأنها الزبد

لِمَ لا اصيح كمثل صيحتهم لِمَ لا أجرب ما يجبونا
لِمَ لا أثور كمثل ثورتهم لِمَ لا أضجُّ كما يضجونا

لِمَ لا تذوق كؤوسهم شفتي ان الحجى سمي وتدميري
في ذمة الشيطان فلسفتي ورزانتي ووقار تفكيري

يا قلب ضقت وها هنا سعة ومجال مختبل بأغلال
أتقول اعمار مضيعة ماذا صنعت بعمرك الغالي

أنظر ترى السيقان عارية وترى الخصور ضوامراً تغري
وترى عيون اللهو جارية فهنا الحياة وأنت لا تدري

من هاته الحسناء يا عيني السحر ظلّلها وكلّلها
كالطير من غصن الى غصن وثابة وثب الفؤاد لها

فاذا تثنت فهي زئبقة رجراجة العطفين والكفل
واذا تأنت فهي زنبقة ضحّاكة للعارض الهطل

وتراه حسناً غير كذاب لا ما يزيّفهُ لك الضوء
ويزيد فتنتها باغراب حزن وراء الحسن مخبوء

ثم اختفت والجمع يرقبها ويلحّ «عودي» ليس يرحمها
هي متعة للحس يطلبها وأنا بروحي بت افهمها

ورأيتها في آخر الليل في فتية نصبوا لها شركا
يعلو سناها الحزن كالظل مسكينة تتكلف الضحكا

فمضيت توّا قلت «سيدتي» زنت المسارح أيما زين
هل تأذنين الآن ساحرتي تأكيد اعجابي بكأسين

فتمنعت وأنا ألحّ سدّى بالقول أغريها وأنتظر
واستدركت قالت اراك غداً ان شئت اني اليوم اعتذر

وتحولت عني لرفقتها ما بين منتظر ومرتقب
فتانة تغري بيسمتها وتحدّد الميعاد في ادب

— ٢ —

حان اللقاء بغادتي وأنا اخشى سراباً خادعاً منها
متلهفاً استبطىء الزمنا وأظلّ اسأل ساعتي عنها

وأجيل عين الريب ملتفتا متطلعاً للناس حيرانا
وأقول ما يدريك اي فتى هي في ذراعيْ حبه الآنا

وهممت بعد اليأس ان امضي فاذا بها تختال عن بعدِ
ميّزتها بشبابها الغضّ وبقدّها افديه من قدِّ

يا للقلوب لملتقى اثنين لا يدريان لأيما سبب
جمعتهما الدنيا غريبين فتآلفا في خلوة عجب

عجباً لقلب كان مطمعهُ طرباً فكان الامر بالعكس
وأشد ما في الكون اجمعهُ بين القلوب أواصر البؤس

من أنت يا من روحها اقتربت مني وخاطب دمعها روحي
صبَّته في كأسي وما سكبت فيه سوى أنّات مذبوح

عجباً لنا في لحظة صرنا متفاهمين بغير ما أمد
يا من لقيتك امس هل كنا روحين ممتزجين في الأبد

هاتي حديث السقم والوصب وصفي حقارة هذه الدنيا
اني رأيت أساك عن كثب ولمست كربك نابضاً حيّا

تجدين فكرك جد مبتعد والقوم نحو سناك دانونا
وترين حالك حال منفرد والناس كثر لا يُعَدّونا

وترين انك حيثما كنت ترضين خوّانين انذالا
يبغونهُ جسداً فان بعت بذلوا النضار، وأجزلوا المالا

يا حرّها من دمعة سالت من فاتك الالحاظ مكحول
وعذابها من وحشة طالت وحنين مجهول لمجهول

افنيت عيشك في تطلّبه ويكاد يأكل روحك الملل
فاذا بدا من تعجبين بهِ وتصيح روحك انه الامل

اضنيت قلبك في تقربهِ ويروح يرخص دونه دمهُ
فاذا ظننت بأن ظفرت بهِ فازت بهِ من ليس تفهمهُ

سكتت وقد عجبت لخلوتنا طالت كإنا جدُّ عشاق
وأقول يا طرباً لنشوتنا صرعى المدامة والاسى الساقي

افديك باكية وجازعة قد لفّها في ثوبه الغسق
ودّعتها شمساً مودعة ذهبت وعندي الجرح والشفق

تمضي وتجهل كيف اكبرها اذ تختفي في حالك الظلم
روحاً اذا أثمت يطهرها ناران : نار البؤس والالم

الدكتور ابراهيم ناجي

الحياة الاجتماعية فى الحيرة

مقال مستل من كتاب « الحيرة : المدينة والمملكة العربية »

تأليف يوسف رزق الله غنيمة

وزير مالية العراق سابقاً

ليس من السهل الهين ان يقدم المؤرخ على وصف الحياة الاجتماعية ويصوّر بقلمه مناظر العيشة اليومية في بلد انطوت اخبارها منذ مئات من السنين ودالت دولتها قبل اربعة عشر قرناً وعبرت الايام بجحافل الخطوب على آثارها فعفت عمرانها ودرست معالم عزّها ولم يرو لنا الرواة من انباء اجيالها الغابرة الاّ نتفاً مبعثرة بين مطاوي الشعر وثنايا النثر ولهذا تأتي ولا جرم هذه الصورة ناقصة مبتورة ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله

شؤون اجتماعية متنوعة

كانت تحية الملوك عندهم عم صباحاً وانعم صباحاً وابيت اللعن . وقد وردت هذه التحية في كثير من اخبارهم سواء كانت مجملة كما قال الحرث بن ظالم للنعمان بن المنذر لما دخل عليه في قصر ابن مقاتل [1] او منفردة انعم صباحاً لوحدها وابيت اللعن لوحدها والعبارة الاخيرة اخصّ بالملوك وقد جاءت في كثير من اشعارهم قال الذبياني يعتذر الى النعمان ويمدحه [2]

أتاني ابيت اللعن انك لمتني وتلك التي اهتمُّ منها وانصَبُ

ولما جاء الاسلام عوض هذه التحيات بين المسلمين بغيرها واكتفوا بقولهم « السلام عليكم »

وكان من عادة ملوك العرب ان تزاد خرزة في تاج الملك كلما مضت سنة من سني ملكه . وكان يقال لتلك الخرزات خرزات الملك ولما بلغت خرزات النعمان بن المنذر اربعين اشخصهُ كسرى ابرويز الى حضرته لهنات نقمها عليه ثم امر بقتله واياه عنى لبيد بن ربيعة بقوله:

رعى خرزات الملك عشرين حجةً وعشرين حتى قيد والشيب شامل [3]

وكان ملوك الحيرة يهدون الى فرسان العرب الرماح كما يهدي اليوم الملوك الى القواد سيوفاً .

(١) الاغاني ١٠:٢٨ (٢) شعراء النصرانية ٦٥٥ (٣) الثعالبي: ثمار القلوب ١٤٤



يوسف رزق الله غنيمة

وزير مالية العراق سابقاً وصاحب كتاب « الحيرة: المدينة والمملكة العربية »
الذي نشرنا منه هذا الفصل

فبعث النعمان بن المنذر باربعة رماح فاخذ ابو براء عامر بن مالك رمحاً وسلمة بن طارقة اللحام رمحاً (وهو جد الاخطل) وانس بن مدركة رمحاً وعمرو بن معديكرب رمحاً [1] . وكان المناذرة يقابلون الناس من وراء ستور تحجز بين الزائر والملك فكلما كان الوافد على الملك وضيعاً زاد عدد الستور حتى يبلغ سبعةً وكلما زادت مكانته قلّ عددها حتى ان رفيعي المنزلة كانوا يقابلون الملك بلا ستر وربما حجزت هذه الستور الوافدين المصابين بالجذام فقط

وكانت الوفود تفد من قبائل العرب على المناذرة وكانوا يتخذون لهم عند انصرافهم مجلساً يطعمون فيهِ ويشربون وكان اذا وضع الشراب سُقي الملك فمن بدىء به على اثره فهو افضل الوفد . وكانت القينة تقوم بالسقاية وتفضل من الوفد اشدهم فمن ذلك ما نقله ابو عبيدة عن النعمان بن المنذر فقال قدم عليه وفود ربيعة ومضر بن نذار وكان فيمن قدم عليهِ من وفود ربيعة بسطام بن قيس والحوفزان بن شريك البكريان وفيمن قدم عليهِ من وفد مضر من قيس ابن عيلان عامر بن مالك وعامر ابن الطفيل ومن تميم قيس بن عاصم والاقرع بن حابس فلما انتهوا الى النعمان اكرمهم وحباهم . واقام لهم مجلساً عند انصرافهم على عادته . فبعد ان سُقي الشراب قامت القينة تنظر الى النعمان من الذي يأمرها ان تسقيه اولاً وتفضله من الوفد فنظر في وجهها ساعة ثم اطرق ثم رفع رأسهُ وهو يقول :

سقي وفودكِ مما انت ساقيتي ... فابدي بكأس ابن ذي الجدين بسطام
اغرّ ينميه من شيبان ذو انف ... حامي الذمار وعن اعراضها رامي
قد كان قيس بن مسعود ووالده ... تبدا الملوك بهم ايام ايامي
فارضوا بما فعل النعمان في مضرٍ ... وفي ربيعة في تعظيم اقوام
هم الجماجم والاذناب غيرهم ... فارضوا بذلك او بوؤا بارغام [2]

وكانوا اذا ارادوا ان يقيموا عهداً يضعون اليد باليد قال الملك عمرو بن هند لعوف بن مُحَلّم لا اعفو عن مروان القرظ بن زنباع حتى يضع يده في يدي قال عوف يضع يده في يدك على ان تكون يدي بينهما . فاجابه عمرو بن هند على ذلك وهذه اليد الثالثة بمثابة وساطة وحكم عند وقوع الخلاف او كما نقول اليوم الاتفاق المثلث [3] ومن عاداتهم اذا توسط الملك بين قبيلتين او اكثر لعقد صلح او ازالة ضغائن اخذ من كل قبيلة رهائن فمتى التوى احد منهم بحق صاحبه اقاد من الرهن [4]

(١) الاغاني ٧ : ١٦١ (٢) العمدة ٢ : ١٧١ ولا بد من التنبيه هنا ان كثيراً من اشعار المفاخرة وضعها اناس من القبيلة على السنة الملوك او على السنة خصومهم لرفع شأن قبيلتهم بهذه الصورة . وتظهر مسحة الوضع والتلفيق على هذه الابيات ايضاً (٣) الميداني : في شرح مثل «اوفى من عوف بن محلم» . ٢ : ٢٢٣ (٤) الاغاني ٩ : ١٧٢

الحرب

يجدر بنا هنا ان نبعث بنظرة الى حروبهم فقد كانوا يقسمون جيشهم ميمنةً وميسرةً وقلباً كما يقسم الجيش اليوم في تعبئته[١] وكان للنعمان بن المنذر خمس كتائب وهي :

١ : الرهائن فانهم كانوا خمسمائة رجل رهائن قبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة ثم يجيء بدلهم خمسمائة اخرى وينصرف اولئك الى احيائهم فكان الملك يغزو بهم ويوجههم في اموره ويحق لنا ان نسميهم نظراً الى هذا الوصف العسكر الخاص اما تبديلهم فكان يأتي للملك عند رأس كل سنة وذلك ايام الربيع وجوه العرب واصحاب الرهائن وقد سير لهما كلاً عنده وهم ذوو الآكال فيقيمون عنده شهراً ويأخذون آكالهم ويبدلون الرهائن وينصرفون الى حيائهم

٢ : الصنائع وهم بنو قيس وبنو تيم[٢] اللات ابني ثعلبة وكانوا خواصّ الملك لا يبرحون بابه ويسوغ لنا ان نسميهم حرس الشرف

٣ : الوضائع فانهم كانوا الف رجل من الفرس يضعهم ملك الملوك (اي الملك الساساني) بالحيرة نجدة لملك العرب وكانوا يقيمون سنة ثم يأتي بدلهم الف وينصرف اولئك

٤ : الاشاهب[٣] فهم اخوة ملك العرب وبنو عمه ومن يتبعهم من اعوانهم وسموا الاشاهب لانهم كانوا بيض الوجوه

٥ : دوسر فانها كانت اخشن كتائبه واشدها بطشاً ونكاية وكانوا من كل قبائل العرب واكثرهم من ربيعة سميت دوسراً اشتقاقاً من الدسر وهو الطعن بالثقل لثقل وطأتها .[٤]

وقد اتخذ الحيريون كل سلاح في الجاهلية من سيوف ورماح ونصال واقواسٍ وسهامٍ ودروعٍ وخوذٍ وادراق مما جاء وصفه في كتب اللغة والاشعار واخبار حروبهم[٥] .

وفي ابان الفتح الاسلامي استعمل الحيريون الخزازيف ورموا بها المسلمين من القصر الابيض . وكان رأس القصر ممتلئاً رجالاً متعلقي المخالي يرمون بهذه الخزازيف وهي المداحي من الخزف[٦]

---

(١) الطبري ٢:٤ ١٠٥ (٢) اخذنا وصف كتائب النعمان من مجمع الامثال للميداني ١:٧٨ في مثل « ابطش من دوسر » ولكن ابن الاثير في كامله ١:٢٦٨ يقول ان الوضائع كانوا شبه المشائخ من العرب ونظنه الاصح (٣) نرى الاشاهب مشتقة من الشهبا وهي الكتيبة التي بعثها ملك الفرس الى النعمان الاول اما تعليل العرب اسم الشهبا كما جاء في المتن فلا نظنه صحيحاً بل نذهب الى ان الكلمة فارسية مؤلفة من لفظين فارسيين وهما « شاه » بمعنى « الملك » و «باي» بمعنى القدم ومفادهما «موطأ الملك» (٤) وكذلك نقول في معنى « دوسر » فانها مؤلفة من « دو » ومعناها « اثنان » « وسر » ومعناها « رأس » (٥) راجع المخصص لابن سيده ٦:١٦ — ٩١ (٦) الطبري ٤:١٢

ويظهر ان فرسانهم كانوا مسلحين بالسلاح الخفيف في محاربتهم الروم الى جنب الفرس (١) ومعظم وقائعهم كان اما انتصاراً للفرس او للغزو والسلب وعلى كل حال فانهُ ليس للفتح والتدويخ وتثبيت سيادتهم ومدّ ملكهم . وكانوا يرفعون شمعةً امام الملك في الحرب (٢) وكانت فدية الملك اذا اسر الف بعير ومثلها ديّة ابنه اذا قتل . وقد دفع سيار بن عمرو بن جابر الفزاري او اخوه الحارث للملك الاسود دية ابنه شرجيل الف بعير (٣) وكانوا يرهنون القوس بالدية حتى يتم دفعها وفي ذلك قال شاعرهم :

ونحن رهنا القوس ثمة فوديت   بألف على ظهر الفزاري اقرعا
بعشر مئين للملوك وفى بها   ليحمد سيار بن عمرو فاسرعا (٤)

آن لنا بعد ان اثقلنا السمعَ بالحرب والضرب وقبضنا النفس بالكراع والسلاح والغزو ان نطرق موضوعاً يزيل الكربة ويسري الغمّة . واي موضوع احق بهذه المزية من البحث في

المرأة

تظهر لنا هذه المرأة معتزلة اجتماعات الرجال تتخمر وتأكل وحدها وقد توصلنا الى هذه الاستنتاجات من مرويات الشعراء والمؤرخين . قال النابغة الذّبياني لما رأى المتجرّدة امرأة النعمان وقد سقط نصيفها وهو الخمار فاستترت بيدها وذراعها فكادت تستر وجهها لعبالتها

سقط النّصيف ولم تُرِد اسقاطَه   فتناولتهُ واتّقتْنا باليد (٥)

ولمّا استزار عمرو بن هند ملك الحيرة عمرو بن كلثوم وامه دخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ودخلت امه ليلى على هند في قبة من جانب الرواق فاكل الرجال وحدهم واكلت النساء في قبتهنّ (٩)

ومن البراهين على صحة قولنا في تستر المرأة الحيرية ما جاء في ابياتٍ لعدي ابن زيد : (٧)

بنات كرامٍ لم يربن بضرةٍ   دُمى شرقات بالعبير روادعا
يسارقن من الأستار طرفاً مفتراً   ويبرزن من فتق الخدور الاصابعا

وكانت الحيرية تميل الى الخضاب والطيب والكحل والتجمل والتزين وما اكثر حججنا على هذه الاقوال ومنها قول النابغة في المتجرّدة (٨)

بمخضبٍ رَخْص كأنّ بنانه   عَنَمٌ يكادُ من اللطافة يُعقَدُ

(١) سايكس : تاريخ فارس بالانكليزية ١ : ٥٠٣ (٢) ابن الاثير ١ : ٢٢٥ (٣) الاغاني ١٠ : ٢٤ (٤) الاغاني ٣ : ٣١١ — ٣١٢ (٥) الاغاني ٩ : ١٧٥ (٦) الاغاني ٩ : ١٧٥ (٧) الاغاني ٢ : ٣٨ (٨) الاغاني ٩ : ١٥٧

ومن ذلك ما جاء في ابيات لعدي بن زيد [(١)]

ينفح من اردانك المسك والهنـدي والغار ولُبنى قفوص

وقال عمرو بن معدي كرب في الكحل الحاري [(٢)]

كأن الاثمد الحاري منها يَسِف بحيث تبتدر الدموع

وأما تجملهن وزينتهن فقد جاء عنهما الشيء الكثير في الاشعار ومنها :

وحرّ الزبرجد في نظمه على واضح الليث زان العقودا

يفصل ياقوته درّه وكالجمر ابصرت فيه الفريدا [(٣)]

وقال عدي بن زيد [(٤)]

واحورَ العين مربوب له غُسَنٌ مُقلَّد من نظام الدُّرّ تِقصارا

وقوله في قصيدة أخرى [(٥)]

زانهنّ الشفوف ينضحنَ بالمسك وعيش مُغانق وحرير

وكقول النابغة في المتجرّدة [(٦)]

والنظم في سلك يزّين نَحرَها ذهبٌ توقّدُ كالشهاب الموقَدِ

وكقول النابغة ايضاً [(٧)]

ترائبٌ يستضيء الحليُ فيها كجمر النارِ بُذّر بالظلامَ

كأن الشذرَ والياقوت منها على جَيداء فاترة البغام

ومما يدلّ على تزينهنّ بمختلف الحجارة الكريمة قول المرقش الاصغر في جَيبة فاطمة بنت المنذر :

تحلين ياقوتاً وشذراً وصيغةً وجزعاً ظفاريّاً ودرّاً توائما [(٨)]

وقول لقيط بن ذرارة :[(٩)]

فيهنّ اترجة نضح العبير بها تكسي ترائبها شذراً ومرجانا

وقد استعملت الحيريات الوذيلة وهي مرآة الفضة وقال المرقش الأصغر مشبهاً بها نعومة خدّ حبيته فاطمة بنت المنذر :

أرتك بذات الضال منها معاصماً وخدّاً اسيلاً كالوذيلة ناعما [(١٠)]

وقد عرف العرب هذه المرايا ومن اسمائها عندهم السجنجل قال امرؤ القيس في معلقته [(١١)]

(١) شعراء النصرانية ٤٧٠ (٢) معجم البلدان مادة « حيرة » (٣) الاغاني ٢ : ١١٨
(٤) شعراء النصرانية ٤٦٩ (٥) كذلك ٤٤٥ (٦) كذلك ٦٤٣ (٧) كذلك ٧١٣
(٨) الاغاني ٥ : ١٨٥ (٩) الاغاني ١٩ : ١٣١ (١٠) كذلك ٥ : ١٨٤
(١١) شرح المعلقات ص ٢٢ الترائب ج تريبة وهي موضع القلادة للصدر

مهفهفة بيضاء غير مُفَاضةٍ ترائبها مصقولة كالسَّجَنْجَل

وكانت البنات يتزوجنَّ وهنَّ حديثات السنّ . فزفّت هند بنت النعمان بن المنذر ابن امرىء القيس الى عدي بن زيد ولها حينئذ احدي عشرة سنة [1] وكان عرب الحيرة شديدي التمسك بالنعرة القومية لا يريدون زواج بناتهم من الاعاجم حتى ان النعمان ملك الحيرة رفض كسرى لما طلب من بناته واخواته وبنات عمه واهله زوجات لأمراء البيت المالك من الساسانيين لأن العرب كانوا يتكرمون عن العجم [2] وكانت بعض المؤسرات يتزوجنَ من شئنَ من الرجال [3] وكان يقصد من المصاهرة بين رؤساء القبائل والملوك انقطاع الحرب وازالة الضغائن من بينهم ولهذه الغاية خطب الحرث بن ابي شمر جبله بن الحرث الاعرج الغساني الى المنذر بن المنذر اللخمي ابنتهُ هنداً على ما رواه ابن الاثير [4]

وكان تعدد الزوجات معروفاً بين اهل الحيرة ليس بين المجوس او من كان على دين الجاهلية بل حتى بين المسيحيين منهم. قال المطران ادى شير [5] عن اصلاح الجاثليق مار آبا [6] ان الشقاق بطل من الكنائس بهمة هذا الجاثليق غير ان الشرور المتولدة منه كانت باقية فان كثيراً من المسيحيين تراخت سيرتهم وضعف ايمانهم فاقتدوا بالمجوس واليهود والوثنيين وتزوجوا نظيرهم بأمرأتين او بأمرأة الاب او بعمتهم او بخالتهم او كنتهم او بأمرأة اخيهم وهلمَّ جرًّا فأصدر مار آبا منشوراً عنوانه «تدبير الافعال الصالحة» حرَّم فيه هذه الافعال [7]

مآكل الحيريين

أما حياة الرجال في الحيرة فقد تطرقنا الى مهنهم وحرفهم في البحث في الصناعات وآلات الطرب والعزف والأغاني ولكن هناك مناحي أخرى من حياتهم نود معالجتها هنا . فانهم كانوا يقيمون الافراح في اعراسهم وينشدون الاغاني ويغنون الأصوات وكانوا يقولون عن مغنيهم حنين انهُ بطة اعراسهم [8] وكانوا يقيمون الولائم والمآدب ويضعون طعاماً من السمك وما صيد من وحشها من ظباء وانعام وأرانب وحباري وغيرها [9] وكانوا يخبزون خبز الرقاق قال عدي بن زيد وهو بالشام يتشوق الى الحيرة [10] :

(١) الاغاني ٢ : ٣٠ (٢) شعراء النصرانية ٤٦٩ (٣) الاغاني ١٦ : ٩٩ (٤) الكامل ١ : ٢٢٤ (٥) تاريخ كلدو اثور ٢ : ١٧٩ (٦) جاثليق المدائن من سنة ٥٤٠ — ٥٥٢ (٧) شابو : كتاب السنهدوسات ٨٠ — ٨٥ (٨) الاغاني ٢ : ١٢٠ (٩) الاغاني ٢ : ١٢١ (١٠) الاغاني ٢ : ١١٩

ليت شعري متى تخب بي النا قة بين السدير والصنين
محقباً ركوة وخبز رقاق وبقولاً وقطعة من نون

وجاء في اخبار وقعة اليس على الفرات ان خالد بن الوليد وقف على الطعام وقال للمسلمين قد نفلتكموه فتعشى به المسلمون وجعل من لم ير الرقاق يقول ما هذه الرقاع البيض ...[(١)]

ومن مآكلهم المضيرة وهي اكلة تطبخ باللحم وقد أعدَّها حنظلة الطائي وقدمها الى المنذر ابن ماء السماء عند ما اضافه في يوم كان يصيد فيه[(٢)]. ومنها الهلام بضم الهاء او فتحها[(٣)] طعام من لحم عجلة بجلدها او من لحم مهر وقيل من مرق السكباج المبرَّد المصفَّى من الدهن[(٤)] ومنها ايضاً الأقط وهو الجبن المتخذ من اللبن الحامض. جاء في الاخبار كان لزيد بن عدي من العرب وظيفة موظفة في كل سنة مهران اشقران يجعلان له هلاماً والكمأة الرطبة في حينها واليابسة والأقط والأدم وسائر تجارات العرب[(٥)]

وعلى ذكر الكمأة نقول ان الحيريين كانوا ولعين بأكلها فيخرج الرجال والنساء والاولاد الى البرية لاجتنائها ويتهادونها رطبةً ويابسةً وقد جاء عن عمرو بن عدي انهُ خرج مع الصبيان لاجتناء الكمأةِ وكان الغلمان اذا اصابوا الكمأة الطيبة اكلوها واذا اصابها عمرو جناها ثم اقبلوا الى منازلهم يتعاودون وهو معهم يقدمهم ويقول مخاطباً خاله جذيمة الابرش:

هذا جنايَ وخيارُهُ فيهِ إذ كل جان يده الى فيهِ[(٦)]

وجاء في اخبارهم[(٧)] ان امرأة كانت تجني الكمأة بأدنى مياه بني دارم فذهبت وأخبرت سيدهم درارة بن عدس باقبال بني عامر وعسكر النعمان في تلك الحرب المعروفة عند العرب بيوم رحرحان

والتمر من طيب مآكل الحيريين لا بل العراقيين طرًّا وقال شريح ابن اوس يهجو ابا المهوس الاسدي:[(٨)]

وعيرتنا تمر العراق وبره وزادك . . . . .

وعرفوا اكل الخبيص قال الفرزدق[(٩)]

تفيهق بالعراق ابو المثنى وعلم قومه أكل الخبيص

هذه نبذة موجزة في بعض مآكل الحيريين اتينا على بيانها وهناك طائفة كبيرة من المآكل كاللحوم المشوية لا سيما لحم الناقة والابل ومنها السويق والكوامخ وأنواع الحلواء كالفالوذق واللوزينج والزلابية والقطائف وغيرها فغيرها مما عرفه العرب عامة او مما أخذه

(١) الكامل لابن الاثير ٢: ١٦٣ (٢) شعراء النصرانية ٨٩ (٣) اللسان والمحكم والتهذيب والتكملة (٤) تاج العروس (٥) الاغاني ٢: ٢٧ (٦) الطبري ٢: ٣٠ (٧) ابن الاثير ١: ٢٣٢ (٨) كتاب الحيوان للجاحظ ١: ١٢٩ (٩) كذلك ٥: ٦٤

فريق منهم من الفرس او من غيرهم مما جاء ذكره في كتب اللغة او الاشعار [١]

ونزع الحيريون الى الترف والفروسة في آنٍ واحدٍ وأمر فتيان الحيرة مشهور قال الاصبهاني [٢] كان حنين غلاماً يحمل الفاكهة بالحيرة وكان لطيفاً في عمل التحيات فكان اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان والمياسير واصحاب القيان والمطربين في الحيرة ورأوا رشاقته وحسن قده وحلاوته وخفة روحه استحلوه وأقام عندهم وخفَّ لهم فكان يسمع الغناء ويشتهيه ويصغي اليهِ ويستمعه ويطيل الاصغاء اليهِ حتى شدا منهُ اصوات فأسمعها الناس. وكان مياسير اهل الحيرة يتفننون في اتخاذ الاثاث النفيس والرياش الثمين فكانوا يتخذون بالرقم من الفرش اشياء ظريفة [٣] ويتخذون اواني الذهب والفضة للاكل [٤] والقلالي للماء والاواني للخمر من صنع الحيرة نفسها ويخدمهم في مآدبهم الاحرار والعبيد ويحييون بالرياحين [٥]

ونام ذلك القوم على فرش الحرير فوق الاسرة المجللة بالكامل قال عدي بن زيد [٦]

ثانياتٌ قطائف الخزّ والديــــباج فوق الخدود والإنماط

وقال ايضاً [٧] :

بينما هم على الأسرّة والانمــــاط افضت الى التراب الجلود

وقال النابغة الذبياني [٨]

قامَت تَتراءى بين سَجْفَيْ كِلَّةٍ كالشمس يوم طلوعها بالاسعُدِ

وكان من عاداتهم اتخاذ المجامر للبخور قبل النوم [٩] ويبخرون أجسادهم وشعور رؤوسهم ولحاهم [١٠] واستعملوا المسك والعنبر قال شاعرهم [١١]

تنفح بالمسك ذفاريهم وعنبر يقطبهُ القاطب

ويتباهون بتقديم الخمر الى الضيوف قال الشاعر في مدح المناذرة [١٢] وقهوة ناجودها ساكب

« للفصل تتمة »

---

(١) راجع المخصص ٤: ١٢٥ — ١٢٩ و ٥ : ١٠ و ١٤ و ٢٥ والعقد الفريد ٤ : ٢٩٢ وكتاب الحيوان للجاحظ والساق على الساق لفارس الشدياق ٩٢

(٢) الاغاني ٢: ١١٨

(٣) الاغاني ٢: ١٢١

(٤) الاغاني ٩: ١٦٥

(٥) الاغاني ٢: ١٢١

(٦) معجم البلدان مادة «ملطاط»

(٧) شعراء النصرانية ٤٧١

(٨) كذلك ص ٦٤٣

(٩) الاغاني ١٦ : ٩٩

(١٠) كذلك ١٩ : ١٣١

(١١) معجم البلدان مادة « ديرهند الكبرى » (١٢) كذلك

أثر الاساطير

في قصة خروج بني اسرائيل

لناشر سيفين

لم يكشف الى الآن في الآثار شيء عن بني اسرائيل الا لوحة عليها اسم منفتاح ذكر فيها بعد الاشادة بانتصاراته على الليبيين انه استأصل شأفة بني اسرائيل . وقد استنبط بعض علماء الآثار من ذلك ان هذا الفرعون هو الذي طردهم لكن يذهب آخرون الى ان هذه العبارة انما يقصد بها حرب انتصر فيها هذا الفرعون عليهم في بلادهم اي فلسطين ويخلصون من ذلك الى القول بان خروجهم كان قبل منفتاح بزمن طويل . ومن هؤلاء الاستاذ توماس روبنسون مدرس اللغات السامية بجامعة جنوب ويلز ومحرر الفصل الخاص بالخروج في دائرة المعارف البريطانية . فمن رأيه ويشاركه فيه على قوله كثير من العلماء ان بني اسرائيل هم اما قوم «خابيرو» احد الشعوب الاسيوية التي جاء ذكرها في اللوحات التي عثر عليها في اطلال المدينة التي شيدها خوناتون (اخناتون) من ملوك الاسرة الثامنة عشرة المعروفة الآن باسم تل العمارنة واما القوم الرحّل الذين هاجموا فلسطين ابان اضمحلال هذه الاسرة . وبناء على هذا يكون الخروج حصل في اواسط حكمها اي في زمن تحوتمس الثالث او قريباً منه . بيد انا اذا رجعنا الى سفر الخروج وهو أهم المراجع التي لدينا واوفاها عن هذا الحادث وجدنا ما يرجح خروجهم في زمن منفتاح فقد جاء في الاصحاح الثاني عشر « فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس » وفي الاصحاح الاول ما يدل على ان بني اسرائيل قد سخّروا في بناء هذه المدينة حيث قيل « فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم باثقالهم فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم [1] ورعمسيس » وتسمية احدى المدينتين باسم رعمسيس شاهد على انها بنيت في زمن احد فراعنة الاسرة التاسعة عشرة الذين تسمّوا بهذا الاسم . والذي يؤخذ من الآثار ان الفرعون الذي كان يسخّر سكان الدلتا حيث كانت اقامة بني اسرائيل في بناء مدن مخازن هو رعمسيس الثاني وقد

---

(١) مكانها الآن الاطلال المعروفة باسم تل المسخوطة (التمثال) بمديرية الشرقية كما اثبته البروفسور نافيل بعد التنقيب فيها . سميت كذلك من وجود تمثال من حجر واحد لملك جالس بين الهين وتدل الكتابة التي في خلفه على ان هذا الملك هو رعمسيس الثاني . وهذه المدن كانت تعد لامداد الحاميات التي على الحدود بالقرن

اشار الى ذلك الاستاذ بدج في كتابه النيل . ويستفاد مما جاء في آخر الاصحاح الثاني انه مات قبل الخروج حيث قيل « وحدث في تلك الايام ان ملك مصر مات » ويدل السياق بعد ذلك على انهم اخرجوا في زمن خلفه . ونحن نعلم من سلسلة ملوك مصر ان خلف رعمسيس الثاني هو منفتاح

وتاريخ الاسرة التاسعة عشرة يؤيد هذا الاستنتاج فقد خلفت اسرة كان للساميين سكان غرب آسيا في زمنها نفوذ عظيم في مصر ، فجعلت سياستها على ما يقول الاستاذ بدج « مصر للمصريين » واخذت على عاتقها تطهير البلاد من الاجانب الذين يمتون الى هذا الجنس لانهم كانوا ينحازون اليهم في كل حرب بين مصر وبينهم فكان بقاؤهم خطراً على البلاد لهذا السبب . ويفهم مما جاء في الاصحاح الاول من سفر الخروج ان هؤلاء الاجانب هم بنو اسرائيل حيث قيل « ثم قام ملك جديد على مصر فقال لشعبه هو ذا بنو اسرائيل شعب اعظم واكثر منا هلمّ نحتال لهم لئلاً ينموا فيكون اذا حدثت حرب انهم ينضمون الى اعدائنا»

والراجح ان بني اسرائيل وفدوا على مصر ابان حكم الهكسوس (الرعاة) ابتغاء الرزق في هذا البلد الطيب في ظل حكومة من ابناء جلدتهم فلما انتزعت الاسرة الثامنة عشرة الحكم من الهكسوس توجّس بنو اسرائيل شرًّا من الملوك الوطنيين فاضمروا لهم العداء ومالئوا عليهم الاعداء . فلما آل الامر الى منفتاح من ملوك الاسرة التاسعة عشرة وكان في حروب متواصلة مع الليبيين والاسيويين لم ير بدًّا من طردهم اتقاء لغدرهم وليأمن على سلطانه من دسائسهم . ولما لم يكن لهم وطن ييممون شطره ولا امة شقيقة توسع لهم من اكنافها حطوا رحالهم في برية سيناء وسرعان ما حنوا الى مصر وتاقوا الى خيراتها وتهافتت نفوسهم على معبوداتها واعيادها فانهم بعد شهر ونصف من طردهم على ما جاء في الاصحاح السادس والعشرين قالوا «ليتنا متنا في ارض مصر اذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع» وبعد ثلاثة شهور صنعوا تمثالاً وعيّدوا له . وكان ذلك نذيراً للزعماء بان الشعب اذا لم تحسن سياسته فسوف يتساقط على الامم المجاورة ويغرق في غمراتها ويتبدّد . فأطمعوهم في ملك فلسطين بان ذكروا لهم انها وطن آبائهم الاولين وان الههم اخرجهم من مصر ليسكنهم تلك الارض التي تفيض عسلاً ولبناً تنشيطاً لقواهم المعنوية لعلّهم يستنيمون الى الامل فيصبرون على ما هم فيه من شظف العيش . وسفر الخروج يصف باسهاب كيف ان الههم اخرجهم ليلاً بعد ما اهلك الابكار من الناس والبهائم

ومن عجيب ما يذكر في هذا المقام ان حادثة اهلاك الابكار التي يزعمون انها حدثت ليلة خروجهم تتفق مع احدى اساطير الاولين في موضوعها والآثار التي ترتبت عليها للذكرى وستتضح هذه المطابقة من الموازنة بينهما

خلاصة قصة اهلاك الابكار ان اله الاسرائيليين غضب على المصريين لانهم اضطهدوهم وساموهم سوء العذاب فاهلك أبكارهم دون شعبه وطريقة ذلك على ما جاء في الاصحاح الحادي عشر من سفر الخروج «هكذا يقول الرب: اني نحو نصف الليل اخرج في وسط مصر فيموت كل بكر» ويوصيهم لكي ينجوا من الهلاك بان يتخذ كل بيت شاة فيذبحوه في العشية ويأخذوا من الدم ويجعلوه على القائمتين والعتبة العليا من البيوت التي يأكلونه فيها ليكون الدم علامة على بيوتهم فيراها الرب حين يضرب ارض مصر ويعبر عنها . ويؤخذ من الآية الثالثة والعشرين من الاصحاح الثاني عشر ان الهلاك منوط بمهلك يتبع الرب وهذا نصها «فان الرب يجتاز ليضرب المصريين فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب» وفي آخر الاصحاح «وكان في ذلك اليوم عينه ان الرب اخرج بني اسرائيل من ارض مصر»

اوصى بنو اسرائيل بعدة وصايا تذكاراً لهذا الحادث فاولاً : ان يجعلوا اليوم الذي نجوا فيه من الهلاك واخرجوا من مصر عيداً واليك ما جاء في الأصحاح الثاني عشر في هذا الصدد «ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعيدونه عيداً للرب» . وثانياً . ان يجعلوا الشهر الذي يقع فيه هذا اليوم اول شهور السنة وهذا الشهر على ما جاء في الاصحاح الثالث عشر هو ابيب بحسب التقويم المصري القديم حيث قيل «اليوم انتم خارجون في شهر ابيب» اما الوصية بجعله رأس الشهور فواردة في الاصحاح الثاني عشر وهي «هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور هو لكم اول شهور السنة» . ثالثاً : ان يعتبروا الذبيحة التي ذبحت ليلة اهلاك الابكار ليجعلوا من دمها علامة لخلاصهم فريضة تمارس في مثل تلك الليلة من كل سنة وتسمى الفصح . وهذه اللفظة محرفة عن بصاح العبرية ومعناها اجتاز وعبر من قولهم ان المهلك اجتاز ارض مصر وعبر عن بيوتهم

اما الأسطورة المصرية وهي منقوشة على جدران احدى الغرف الجانبية بمقبرة سيتي الأول فتتلخص في ان المصريين تمرَّدوا على الههم رع وخرجوا عن طاعته واهانوا اسمه فغضب عليهم وارسل هاتور لتهلكهم جزاءً لهم بما كفروا فاجتازت أرض مصر وأثخنت في اهلها تقتيلاً واذا رأى رع من السماء ما حلَّ بالناس استعظم النكبة واخذته بهم رحمة فأراد ان يخلصهم لكن كان يحول دون ذلك ان هاتور طبعت على حب الدماء حتى ليصعب ايقافها عند حد متى استثيرت لسفكها . فلجأ رع الى الحيلة لانفاذ رحمته وذلك بأنه دعا رسلاً وخاطبهم بقوله اذهبوا الى جزيرة الفيلة واجلبوا من هناك الثمار الجالبة للنوم ولتكن أوبتكم قبل الفجر فذهب الرسل كما أمروا بسرعة العاصفة الى الجزيرة حيث الجنادل الصخرية تعترض مجرى النهر العظيم وحملوا الى هليوبوليس مدينة رع الثمار المطلوبة من ذات اللون القرمزي

وذات اللون الأرجواني وهي التي تعطى عصيراً احمر بلون الدم

وفي الوقت نفسه امر رع نساء هليوبوليس فطحنّ الشعير وصنعنهُ جعة ثم مزجنها بعصير الثمار الجالبة للنوم فكان من ذلك شراب احمر كالدم . وقد بلغ ما صنعنهُ بعجلة في تلك الليلة قبل الفجر سبعة آلاف مكيال . ثم ذهب رع في بطانة كبيرة من الآلهة الى هليوبوليس لفحص الشراب ولما الفاه شبيهاً جداً بالدم قال « سيكون هذا الشراب مخلص الانسان » ثم امر فأهريق الشراب عند الفجر قبل شروق الشمس في الحقول حيث وقعت المذبحة الى ارتفاع اربعة اشبار

وفي الصباح جاءت هاتور لاستئناف المذبحة ولما لم تجد خلقاً من اعداء رع لتبيدهم تلفتت يمنة ويسرة فاذا الأرض مترعة بما شبّهته انه دم الأعداء الذي اهدرت فضحكت ابتهاجاً برؤيته ثم انحنت وولغت فيه بشراهة حتى ثقل رأسها بفعل المسكر ونامت واصبحت عاجزة عن استئناف المذبحة فنجت البقية الباقية من الناس من الهلاك

عندئذ ناداها رع وخاطبها بقوله « ستعمل لأجلك من الثمار الجالبة للنوم كلما جاء العيد الكبير عيد رأس السنة اشربة عدد الكاهنات اللاتي يخدمنني » والى هذا اليوم كلما جاء عيد هاتور تجهز اشربة من الثمار الجالبة للنوم تذكاراً لخلاص جنس الانسان من غضب الآلهة

والمفهوم من السياق ان المراد بالثمار الجالبة للنوم التي يصنع منها شراب شبيه بالدم هو العنب وعلى هذا يكون اسلافنا اول من اتخذوا الخمر رمزاً للدم وشربوه لذكرى الخلاص

وانت ترى ان القصتين في جوهرها متطابقتان ففي كليهما عصاة واله منتقم ينفذ من لدنه مهلكاً ليجري في الناس قضاءه وهو ذو رحمة يهلك فريقاً من الناس ويستحيي فريقاً بحيلة يوصي لنجاحها ان تتم بعجلة قبل الفجر . وفي كليهما اعتبر الشهر الذي حصل فيه الخلاص رأس الشهور واوصى ان يعمل فيه العيد كما اعتبرت الوسيلة التي حصل بها الخلاص فريضة تمارس في ذلك اليوم للذكرى

ومما يؤكد الموافقة بين القصتين علاوة على الأوجه التي ذكرت الحادثة الآتية وهي واردة في كل من الاسطورة وسفر الخروج في سياق وصف الضربات التي حاقت بالمصريين بسبب غضب الآله . فقد جاء في الأسطورة « ان النهر صار احمر وقد ظل يجري كذلك عدة ايام تباعاً . وكانت الارض مترعة بدم الناس وهاتور تخوض فيه وهي تجوب ارض مصر وتوغل فيها الى هينن سيتن فاصطبغت قدماها باللون الاحمر » وهينن سيتن بلدة مكانها الآن اهناسيا بمديرية بني سويف

وجاء في الأصحاح السابع من الخروج في الكلام عن احدى الضربات التي سبقت اهلاك الأبكار « فتحول الماء الذي في النهر دماً . . . . وكان الدم في كل ارض مصر »

ان ثبوت محاكاة قصة اهلاك الابكار لأسطورة انتقام رع يجردها من قيمتها التاريخية ويقضي من ثمَّ على مزاعم بني اسرائيل عن الخروج التي يعلقونها عليها . وفي رأيي ان هذه القصة انما وضعت لتحويل عيد هاتور الى عيد قومي لبني اسرائيل بعد الذي ظهر من تعلقهم بهذا العيد وصاحبته . فقد قيل في الاصحاح التاسع عشر انهم في الشهر الثالث بعد طردهم نزلوا في برية سيناء وهناك بينما كان موسى يناجي ربه طلب الشعب من هرون ان يصنع تمثالاً فلما اتمه وقد قيل انه صنعه على صورة عجل بنى مذبحاً وقال غداً عيد للرب فبكروا من الغد واصعدوا محرقات وقدَّموا ذبائح سلامة وجلسوا للأكل والشرب ثم قاموا للعب . اذ يلوح لي ان ذلك العيد الذي عيدوه كان عيد هاتور والذي يرجح عندي هذا الظن ان الشهر الذي صنع فيهِ التمثال وعيدوا وهو الثالث بعد أبيب الذي خرجوا فيهِ يوافق توت رأس الشهور المصرية الذي يقع فيهِ عيد هاتور . فان صح حدسي فيكون التمثال الذي صنعهُ هرون تمثال بقرة لاتمثال عجل لان البقرة هي رمز هاتور وكان يكنى بها عن العناية الربانية

وقد كان جديراً ببنى اسرائيل احتفالهم بهذا العيد ليس فقط لانهم ألفوه في مصر وقد كان اكبر اعيادها حتى انهُ ما تزال منهُ بقية في مصر الى ايامنا هي عيد شم النسيم (وسأفرد مقالاً لاثبات ذلك) بل لانهم كانوا في اشد الحاجة الى الزلفى الى رمز العناية الربانية بما مسهم في الصحراء من الضرّ وتملكهم من اليأس . بيد ان هذا العمل قد اسخط زعماءهم فعملوا منذ ذلك الحين على قطع كل صلة لهم بمصر اولاً : بابعادهم عن آلهة المصريين لكنهم فطنوا الى ان الطفرة في هذه الحالة ليست من الحكمة وان اصالة الرأي تقضي بمصانعة الشعب في دور الانتقال فاقتبسوا هذا العيد وادخلوه ضمن تقاليدهم وذلك بأنهم استبقوا المظاهر التي يتعلق بها الشعب ثم جعلوا للعيد مناسبة من تاريخهم لصبغه بصبغتهم القومية : وثانياً . بتنفيرهم من مصر وذلك بما ألقوا في روعهم انها كانت بيت عبوديتهم وان فراعنتها قد أذلوهم وساموهم سوء العذاب وقد بالغوا في ذلك اشد المبالغة وجاوزوا الحدّ في الهجاء حتى اصبح لفظ فرعون وهو لقب ملوك مصر الاقدمين عنواناً على الطغيان والجبروت

* * *

والآن وقد ارتفع الغطاء عن هذا الحادث واسفر وجه الحقيقة فيهِ واتضح ان بني اسرائيل كانوا البادئين بالعدوان بحيث لم يكن لمصر مندوحة عن طردهم حرصاً على سلامتها فاني اطمع ان يقرّ الحق في نصابه تبرئة لمصر من وصمة الظلم التي وصمت بها في صدد هذا الحادث ، وانصافاً لتلك البلاد القديمة التي وضعت للعالم اسس الحضارة واعلت منار الحكمة وفتحت ابواباً للمعرفة كانت من قبل موصدة .

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

الدولة والحكومة والرعية

الدولة والاسرة : مما يسهل على القارىء الاحاطة بمعنى الدولة ان يشبهها باقرب الاوضاع اليهِ واعز الاوساط المتصلة بهِ — ان يشبهها بالبيت الذي بما فيهِ والاسرة التي ترعرع في احضانها. فالوالدان هما الحكومة والاولاد هم الرعية والعادات والتقاليد المتوارثة هي الدستور والبيت هو الوطن ومن مجموعهم تتألف الدولة الصغرى وهي الاسرة . وكما ان هنالك انواعاً من الادارة « العائلية » كذلك هنالك انواع من الادارة الحكومية : هنالك ابوان شديدا الوطأة ظالمان يأخذان ابناءهما اما القوة وربما سخراهم لمنفعتهما الخاصة فقط وهنالك حكومة ظالمة غاشمة تستثمر الرعية وتسخرها لاغراضها كما يسخر الفلاح الثيران لحراثة الارض . وفي مقابل ذلك نجد سلطة ابوية حكيمة تستخدم نفوذها لهداية الابناء والحصول على السعادة المنزلية كما نجد حكومة صالحة تتخذ من سلطانها ذريعة لاصلاح الدولة . وهنالك ايضاً اسرة متفككة الاوصال يتأكلها الحسد ويهدم كيانها البغض المتأصل في الاعضاء كما ان هنالك دولة مؤلفة من عناصر متنافرة لم تجمع بينها تربية صحيحة ، يدس بعضها لبعض ويتجسس بعضها على بعض ولم يتفق افرادها على شيء الا على السعي لهدمها والخلاص منها . وفي وسعنا ان نزيد في هذه الامثال حتى لا يبقى نوع من الانواع الاسرة او الدولة — النوع القديم او النوع الحديث ، الحر او المحافظ ، المقيد او الطليق ، الجاهل او العاقل — الا تناولناه بالمقابلة

الاقتصاد العام والتدبير المنزلي : وليس الشبه فيما تقدم من الكلام قاصراً على الوجهة الادارية السياسية فقط بل هنالك شبه عظيم في الشؤون الاقتصادية ايضاً بحيث يجوز لنا ان نقول ان ادارة الامور الاقتصادية في الدولة تماثل الادارة المنزلية فالتبذير والتقتير وبسط اليد وقبضها واضاعة الاموال سدًى وسوء الاستعمال قصداً والجهل بالحصول على الموارد وطريقة

توزيعها هي في الاسرة كما هي في الدولة لكن العيار مختلف طبعاً لان الاسرة دولة صغرى والدولة اسرة كبرى

ومما يسترعي الانتباه ان هذا الاتصال الوثيق بين الاسرة والدولة لم يكن قائماً على الشبه فقط بل هو اتصال تدرجي نشوئي كما سيتبينهُ القارىء من كلامنا ، ويزيد في إحكام هذا الاتصال ان الفرد وهو طفل يتعلم في المجتمع العائلي معنى المعيشة والتآلف مع غيره وتكون القواعد التي مشّاه عليها والداه اوّل الدروس العملية التي تلقاها في الانقياد والطاعة الى الشريعة، اما ولعه باهله « الاكارم » وفخره بامرته «الشريفة» وبالتقاليد « المقدسة » التي ورثها « كابراً عن كابر » وتعلقه بالبيت « الرفيع » الذي سكنهُ وباولاد الجيران « النبلاء » الذين لعب معهم فكل ذلك يولد في نفسه شعور الاخلاص ، وقد عرف فوائد التعاون مع غيره معرفة عملية منذ ما سار مع افراد اسرتهِ في طلب الافراح والحصول على المسرات(١)

اصلاح الاسرة في العالم العربي : لا جرم ان اصلاح الاسرة في البلدان العربية الناشئة هو اهم توطئة للحصول على الحكومة الصالحة واقوى ضمان لامكان الاحتفاظ بالمجتمع على بنائهِ الحاضر من غير انقلاب خطير في اوضاعه والاّ سقط حق الاسرة الجاهلة في الاستمرار على استبدادها بالابناءِ واستقلالها بادارتهم والاشراف عليهم، وتكون الاشتراكية المتطرفة حينئذٍ على صواب في اصرارها على وجوب انقاذ الاطفال من براثن الآباء والامهات لان الدولة تكون صالحة على قدر الصلاح في ابنائها العاملين

﴿ اصل الدولة ﴾ : كثير من الناس لا يفرقون بين الدولة والحكومة ، فالدولة هي جمع من الناس انتظموا بالفطرة لتحقيق مصلحة سياسية عامّة ينشدونها لمجتمعهم مباشرة ولافرادهم بالواسطة . ولكي يكون هذا الجمع دولة ذات سلطة بالمعنى المتعاوف لا بدّ له (اولاً) من اداة سياسية تدعى حكومة قوامها هيئة من الموظفين يدعون حكاماً (ثانياً) من مجموعة شرائع او قواعد مدوّنة او مستظهرة تعين حدود هذه السلطة العامة وطريقة تنفيذها

فالحكومة اذن هي القوة المتسلطة في المجتمع السياسي او هي الاداة التي تنفذ رغائب الدولة وسواء أكان شكلها ملكيّـا ام جمهوريّـا ، نيابيّـا ام استبداديّـا فهي الاداة التي تمثل قوة الدولة، ولا تتغير هذه الحقائق ما لم تكن الحكومة مطية لتنفيذ رغائب اهل المصلحة من الجماعات الاخرى المعتدية ، وحينئذٍ تدعى حكومة الاجنبي القاهر ولو كانت في شكلها على احدث طراز في الديمقراطية، وقد رأينا دولة من هذا النوع لم ينفعها لا دستورها الضخم ولا مجلس نوابها الفخم ولا رئيس جمهوريتها لمّـا محاها من الوجود بجرة قلم رشيقة مندوب

(1) Government & People, 282,

اجنبي ! ومن الزيادة في النكاية ان هذا المندوب نفسه فرض على مكلفيها منذ سنتين ديوناً اجنبية تبلغ الملايين من الجنيهات من غير ان يستشير واحداً من نوابها مما يخالف ابسط قواعد الاستقلال — يعني قاعدة « لا ضرائب من غير تمثيل » — ومع ذلك فالباحث يعرض نفسه للتهم اذا هو لم يقل عن هذا المال ما قاله رئيس هؤلاء النواب من انه ثمن الاستقلال الذي نالته بلاده على ايدي الفاتحين المنقذين !

وقد بدرت بوادر الانتظام السياسي من حدوث اشراف سياسي عام وخضوع المنتظمين لقواعده منذ تألفت العترة الاولى وتكاثرت بالتوالد والتبني حتى صارت قبيلة ومنذ اخذ بعض الافراد فيها يخرجون مجتمعين بشكل سرايا تجوب الاطراف للصيد والقنص ، وهذا الاشراف السياسي والخضوع له امر لا بد منهُ لكل جماعة من الناس دخلوا في دور من التعاون والاشتراك ، واما الطريقة التي يتم بها فهي حدوث سلطان او هيئة معينة محدودة تدير شؤونه ويخضع الافراد للاوامر التي تصدرها

ويؤيد هذا الرأي من جعل لحمة النسب اساساً للانتظام الدولي الرئيس (ودرو ولسن) فقد جاء في كتابه (الدولة) قوله « يجب ان يكون تاريخ الحكومة في فجره واحداً عند جميع الشعوب الراقية ، وان تتجلى بوادره في النظام العائلي » واستدلّ من الاحوال التي كانت عليها تلك الامم التاريخية المركزية على ان التنظيم الاجتماعي وما تولد منه من تأسيس الحكومات هو وليد القرابة وان الروابط الاولى التي بني عليها الاجتماع والدواعي الاصلية التي سمحت باحداث السلطة الحكومية هي في الاصل واحدة — هي لحمة النسب سواء أكان هذا النسب صحيحاً ام ملفقاً (١)

﴿ نشوء الاوضاع الحكومية ﴾ : ولكي يحيط القارىء بالتدرج الحقوقي الشرعي الذي لازم الالتحام والتكاثر في الاقوام بطريق الاتحاد والتوالد والغزو والفتح نفرض له مثلا من قبيلة كقبيلة (الرولا) النازلة باطراف سورية فهب ان هذه القبيلة البسيطة التي تمثل الاوضاع الحقوقية البدوية التي كانت في الاعصر الخالية تكاثرت بالتوالد والتبني والفتوحات الموضعية فنمت نمواً عظيماً حتى الجأها العوز وقلة الكلأ الى اكتساح المعمور فاستولت على (حوران) واستملكت الاملاك واستأسرت الاسرى ووضعت يدها على السائمة وسائر انواع الماشية ففي تلك الساعة تتغير الوضعة الشرعية التي عليها هذه القبيلة لان جميع الطوارىء التي طرأت تتطلب سنناً جديدة في معاملة المغلوبين وادارة شؤونهم وممتلكاتهم التي سلمت من النهب وحفظ الامن بينهم وتوزيع الكسب المسلوب منهم وتعيين العلاقات بين الغالب والمغلوب وغير ذلك من

(1) W. Wilson, The State, p. p. 2, 3, 13.

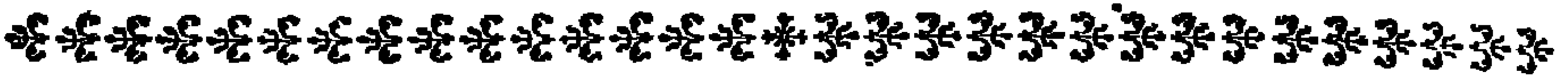
الضرورات الشرعية المستجدة التي عبر عنها المشترعون المتأخرون بقولهم « تتغير الاحكام بتغيير الازمان » لا جرم ان شيخها (النوري بن شعلان) وهو السيد المطلق المطاع في القبيلة يضطرُّ الى اتخاذ الاجراآت الادارية التي توافق هذه الطوارىء مع محافظته على عادات سلفه وتنفيذ التقاليد التي درجت عليها القبيلة فيصبح والحالة هذه كما قال « الموجز في علم الاجتماع[1] » عن زملائه الشيوخ مشترعاً يقضي في الشؤون لفض الخلافات وهذا يعني انه صار (القاضي الاكبر) في الجماعة . وعلاوة على ذلك فقد كان للشيخ الزعيم في الاقوام الابتدائية عمل اقتصادي بالاضافة الى منصب الحاكم الذي كان يشغله فلم يكن ممثل الآلهة وخليفتها على الارض فقط بل السيد المالك لرقاب النساء والاولاد والمستأمن على ممتلكات الجماعة وهكذا اجتمعت في قبضة يده في تلك الاعصر السحيقة الوظيفة الثلاثية الآتية : القضاء والتشريع والاجراء وهو السلطة التنفيذية

* * *

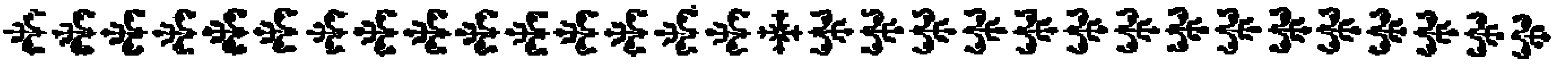
لا جرم اننا نرى في هذه النظم الاهلية الخالية التي قامت على صحة النسب تلك الوحدات المؤتلفة او الجماعات الاصلية التي تتألف منها اسس الدولة واركانها وذلك عند ما يسكن افراد هذه الجماعات المدر ويتخذون الطين مقرًّا ثابتاً لهم ويصبحون غزاة فاتحين يملون ارادتهم على المغلوبين كما املى الغطغط ارادتهم على الحجازيين ولا نبالغ اذا نحن قلنا ان هذه العناصر الاجتماعية الجديدة الناشئة عن الهجرة والغلبة والكسب هي عناصرها المقام الاول في تنظيم الدولة . بل ان بعض العلماء امثال الاستاذ (كومونس) ذهبوا الى ان التملك الخاص هو الباعث الاول على تأسيس الدولة وان التطاحن بين الطبقات للحصول على ادارة الممتلكات المنقولة وغير المنقولة واستثمارها افضى بالضرورة الى التسوية والخضوع للنظام، فالدولة بهذا المعنى تكون قد اشرقت عند ما مدّ اول رجل يده الى المنافع العامة التي كانت مشاعة للجميع وادّعى انها أصبحت ملكه الخاص واخذ يضارب ويحارب من اجلها

لكن القبائل متى استقرت ونمت وتكاثرت تأخذ قاعدة تنازع البقاء تعمل عملها فيها فتتلاشى قبائل وتتحد قبائل شأن كل صراع جدي بين الاحياء . ويجري الاتحاد غالباً على قاعدة استعباد الغالب للمغلوب واتخاذه خولاً وربما جرى على اساس الامتزاج السلمي الاختياري . وبديهي ان تنشأ من مثل هذه الاحوال والملابسات الشرائع التي تبين سلطة الفريق الواحد على الآخر وتدل على المطالب التي تقتضيها الطوارىء التي طرأت بعد الاتحاد بنوعيه السلمي والحربي

(1) Outline of Sociology, P. 165.



ايليا أبو ماضي الشاعر



لبثت أسبوعاً أطالع ديوان الجداول للشاعر ايليا ابو ماضي ، وإذ فرغت من درسي قصائده هممتُ بكتابة مقالة فيها تلبيةً لطلب مجلة « المقتطف » ، إلاّ اني بحثت عن « الجداول » فلم أجده . وأغرقت في بحثي عنهُ من غير جدوى

وكنت إذ ذاك في أقصى الحاجة الى مراجعته وإعادة النظر في الملاحظات التي دوّنتها على هوامشه في اثناءِ المطالعة

وفي أحد الايام اذ انا منصرف الى كتابة مقالة جافّة سمعت خطيبتي تنشد في خدرها هذه الابيات ، وقد لحنتها على هوى نفسها تلحيناً جميلاً ساحراً :

أراد الله أن نعشق   لما أوجد الحُسنا
وألقى الحبَّ في قلبك   إذ ألقاه في قلبي
مشيئتهُ ... وما كانت   مشيئتهُ بلا معنى
فإن أحببتِ ما ذنبكِ   أو أحببتُ ما ذنبي ؟

* * *

يريد الحبّ ان نضحك ، فلنضحك مع الفجر
وان نركض ، فلنركض مع الجدول والنهر
وان نهتف ، فلنهتف مع البلبل والقمري
فمن يعلم بعد اليوم ما يحدث أو يجري ؟

فافلتَ القلمَ من يدي وهرولت الى خطيبتي فألفيتها مستغرقة في تطريز قماشة ، وإذ وقع نظرها عليَّ ابتدرتني بقولها : هل أنهيت مقالك الجافّ ؟

فقلت : لا ، ولكني سمعتك تهتفين مع البلبل فأسرعت اليك ... من اين جئت بهذه الابيات ؟

فأجابتني بلهجة رصينة : من ديوان الجداول لأبي ماضي

ثم ابتسمت ابتسامة عفريتة وأردفت قائلة : ألا يروقك ان انشد غير صادراتك ؟

فقلت : لا تزالين تخطئين في فهمي . . . واين الجداول ؟

فأشارت بيدها الى سريرها وقالت : تحت المخدة

فضحكت بدلَ ان اغضب ، وضحكتُ في كثير من الغبطة إذ وجدت في هذه الصدفة خير ما استهلّ به الكلام على الشاعر ايليا ابو ماضي

* * *

قال الكاتب الفرنسي غاستون راجو : « إن الشاعر هو الذي يستطيع ان يخاطب الاشجار لدى هبوب النسيم عليها او البشر في ساعة حزنهم وآلامهم وهو الذي يفهم ما لا يفهمه الغير ويحزر جميع اللغات الرمزية المبهمة ، وهو الى ذلك الرجل الذي يحاول الصعود الى الله ، وما يزال يجدّ في محاولتهِ هذه حتى يوشك الامتزاج بالذات العلياء أو يخيَّل اليه انه امتزج بها وصار رسولاً . »

كم خفضنا الجناح للجاهلينا وعذرناهمُ فما عذرونا
خبروهم يا أيها العاقلونا

إنما نحن معشر الشعراءِ يتجلّى سرّ النبوءة فينا

وايليا ابو ماضي هو في معظم قصائده ذلك الشاعر الممتزج بالطبيعة ، المتصرّف بأسرارها وغوامضها الشاخص من وراء ذلك الى الخيال الاسمى ، الى الذات العلياء ، الى الله ! على أن في شخوصه الى ذلك الخيال شيئاً من التشكك قد نستطيع معه ان ندرج الشاعر في عداد السفسطائيين ، أو ندرج ناحية من نواحيه فقط . لان للشاعر نواحي متعددّة كما لمعظم الشعراء ، فهو تارة مؤمن وطوراً متشكك ، على انه لا ينحدر من هاتين الناحيتين الى الالحاد

جئتُ ، لا أعلم من اين ، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدّامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى سائراً ان شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئت ؟ كيف أبصرتُ طريقي . . . .
لست أدري

ولقد تجلّت الناحية السفسطائية من روح الشاعر في « طلاسمه » أو في « لاأدرياته » التي عمد فيها الى الشك في كل شيء ، على أنه جاوز في شكوكه الحدّ الذي وقف عنده الفلاسفة حتى أوشك أن ينكر ذاته او أنكرها . وليس في « طلاسم » الاستاذ ابو ماضي نظريات تستطيع أن تكتشف فيها مذهباً فلسفيًّا فطلاسمه مزيج من أسئلة ما برحت منذ القديم الى اليوم تخرج على السنة الفلاسفة والمفكرين ، على انه عرف ان يذرّ عليها رشاشاً من الشاعرية الرائعة :

أتراني كنتُ يوماً نَغَماً في وَتَرِ

وأقصى رغبة صاحب «الجداول» في طلاسمه أن يكون شاعراً لا فيلسوفاً

***

والشاعر ايليا ابو ماضي طريقة هو معها نسيج وحده ، فهو لا يلتزم الخيال المجرّد من الذهن كالعدد الكبير من شعرائنا في المهجر ، ولا يحجّر فكره بالافراط في الوضعيّات الذهنيّة كما هو شأن البعض من شعراء سوريا ولبنان ، بل هو في شعره بعيدُ مابين هؤلاء واولئك ، في الندر ما تجده لا يلتزم وحياً يتمسّك بالاحتكاك بالحقيقة ، فهو في كل ما يكتب — اذا استثنينا بعضَ قصائده وبعضُ الطلاسم منها — يصل ياقوتةَ الشاعرية بلؤلؤة الحقيقة السوداء ، على أنه يطلي شعره بقليل من الالوان ويمهره بكثير من الموسيقى

ولا يجمل بنا أن ننكر ان الشاعر أبا ماضي يرمي في شعره الى هدف فهو في المجتمع الانساني مصلح صارم ، وقد يمت من هذه الناحية الى الشاعر لافونتين الذي أنطق الاشجار والبهائم ليسمع الرجل ، ومن يطالع قصائده « الضفادع والنجوم » و«الطين» و «ابن الليل» وغيرها يتّضح له بأية نظرة ينظر الشاعر الى المجتمع ولا يبقَ مجال للشك في أن الثعلب والليث والبدر والضفادع والنجوم إنما هي نحن ، فمجتمعنا هذا ليس سوى كهفٍ للبهائم الشرسة أو المحتالة ، والويل لكلّ بهيمة ضعيفة أو مسالمة

واذا قرأت قصيدة « الطين » وهي أبلغ قصائد الشاعر المتمرّدة ، وقعت على فكرة اشتراكية وربما كانت شيوعية أيضاً ترمي الى الوقوف في وجهِ القوّة والاقوياء والأغنياء والمتسلطين وكل ما ادّعاه ويدّعيه المجتمع المتكبّر ، المجتمع الذاهب في مذاهب العجرفة المكتسبة من جهل الانسان ذاته الحقيقية :

نسي الطينُ ساعةً أنه طينٌ حقيرٌ فصال تيهاً وعربَدْ
وكسى الخزُّ جسمَهُ فتباهى وحوى المالَ كيسُهُ فتمرّدْ

وإنك لتقع في هذه الطرفة الشعرية على كبرياء الشاعر ، تلك الكبرياء الجميلة ، وقداً وتيت قوّة التعبير الساحر القاهر فتجسّدت في كل بيتٍ من أبيات القصيدة وراحت تُعمِل في المتكبرين من أبناء الطين مبضعها الجارح ، وما زالت تُعمِل فيهم هذا المبضع حتى استوى لها ما أرادت فأنزلت الجبّار عن عرشه المزعوم وقالت له إنك من جنس غيرك وإن تكن متقلداً السيف وملتحفاً بالبردة الموشّاة :

يا أخي لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمةٌ ولا أنت فرقَد
أنتَ لم تصنع الحرير الذي تلـبس واللؤلؤ الذي تتقلّدْ

... أنت في البردة الموشّاةمثلي في كسائي الرديم تشقى وتسعدْ
... ايهاالمزدهي،اذامسّك السقمُ ألا تشتكي ؟ ألا تتنهّدْ ؟

أجل ، والاسكندر الذي دوّخ الأرض وافتتح الهند وفارس وقهر الفينيقيين في أعز أيامهم والذي شرب « خمرة الآلهة » ووزع كؤوسها على قوّاده مات كما يموت الدهماء ، لقد مات على أثر استحمامه في البحر وهو سكران . . .

* * *

عند ما انتهت الحرب العالمية سمعنا أصواتاًساحرة تنحدر الينا من العالم الجديد ، ولم يكن لنا عهد بمثلها قبل ذلك الحين ، فشخص الشباب بأرواحهِ الى مصادر تلك النغمات وما لبث ان أُخذ بجمالها الجديد وروعتها النادرة واذا بتلك النغمات تمتزج بأرواحه وتملك عليها مذاهبها واذا بأدبٍ صادق ينشأ على شواطيء بحر الروم كان من ثماره هذا التطور الذي نلمسه اليوم في أدب الشباب

أما تلك الأصوات الساحرة فكانت صادرة من قلوب جبران، ونعيمه ، وعريضه ،وأيوب، وابو ماضي وغيرهم ..على ان نغمات شاعر « الجداول » تختلف عن نغمات إخوانه أدباء لبنان في المهجر التي توشك أن تكون على وتيرة واحدة على ما هي عليه من الصدق في العاطفة والاخلاص في الشعور . ففي شعر ايليا ابو ماضي وحدة في الندر ما تجدها في شعر غيره ، وبهذه الوحدة يمتاز شعر صاحب الجداول الذي يُعَدُّ بحقٍ في طليعة شعراءِ هذا العصر

قلت إن ايليا ابو ماضي يرمي في شعره الى هدف ، فهو في كل قصيدة من قصائده يحوم حول فكرة يتخطّفها بما اوتيهِ من قوّة المنطق وصدق التصوّر حتى يقسر على الاقتناع بها كما يريد ، من غير أن يلهيك بكثرة الألوان والأصباغ كما هو شأن العدد الكبير من شعراء المهجر الذين يتعشقون جمال الكلمة الملوّنة فيأتونك بالصورة والموسيقي ويبهرونك بسحرها حتى لتكاد تنسى أنك أمام مفكّر ، وفي هذا جمالٌ رائع على أنهُ فيهِ نقصاً يُحدرهُ عن مستوى الشاعرية الحقة . وعندي أن الشاعر العبقري هو من تجسّم في قلمه الثالوث الأكمل :الموسيقى والصورة والفكرة

وقد لا تجد بين الشعراء من قدّر لهُ أن يبرز لك صورة صادقة عن عصره كايليا ابو ماضي فهذا الشاعر يغمس ريشته بدم زمنه ويصوّر ،ولهذا تجده يعمد في كل ما يكتب الى استشعار الحقائق الواقعة فيرسم لك احزان الحياة وأشجانها وأفراحها وملذّاتها ثم يذهّبها بنور من انوار الخيال ، ولهذا ايضاً لا تجده يعمد الى التكلف في شواعره، وقد يكون عاش بنفسهِ كلّ ما عبّر عنهُ بقلمه ، ولن يستطيع أن يطلق هذه الصرخات :

قد يصير الشوكُ إكليلاً لملكٍ أو نبيٍّ
ويصير الوردُ في عـُرْ وةِ لصٍّ أو بغيٍّ
أيغار الشوكُ في الحقل من الزهر الجنيِّ
أم ترى يحسبهُ أحقرَ منهُ ؟ . . .

أجل ، لن يستطيع أن يطلق هذه الصرخات إلاَّ من مهرت الحياة جبينهُ باكليل من الشوك وإلاَّ من ارتهُ بلاهة الاقدار زهر الحياة على صدور اللصوص والعاهرات !

لا مشاحة في أن الشاعر عرف مصائب الحياة ،ولهذه المصائب اثر في شعره، على أن روحهُ الجبارة تأبى عليهِ البكاء ، ولكنهُ كثيراً ما يعمد الى الانتقام من تلك المصائب فيظهر بمظهر العابث بالحياة الواقف على قمتها البيضاء ...فبينا نراه وقد سئم الحياة مع البشر وملَّ حتى أحبابه وخلاّنه، وبينا نراه متضجراً من المراوغين والذرّافين

ومن القبح في نقابٍ جميلٍ ومن الحسن تحت الف نقابِ
ومن العابدين كل إلهٍ ومن الكافرين بالاربابِ

إذا بنا نسمعهُ يرجع الى كبريائهِ الجبّارة فيقول :

قد سقتنا الحياةُ كأساً دهاقا حسنت نكهةً وطابت مذاقا
وسقينا مما شربنا الرفاقا

ثم يتزيَّد في كبريائهِ فيستطرد قائلاً :

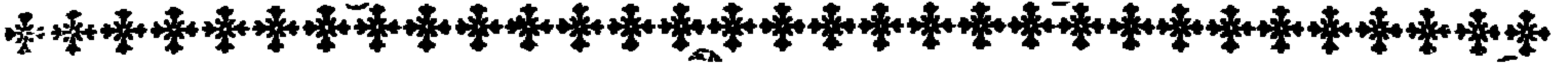
لوسكنتم قصورنا بعض ساعه لنسيتم شهوركم والسنينا

ثم يتكلف ، انتقاماً من الحياة ، رؤية الناحية الجميلة منها فيقول :

والذي نفسه بغير جمالٍ لا يرى في الوجود شيئاً جميلا

وربما أراد بذلك أن يقول للبشر :« إنكم تدنّسون في نفوسكم صورة الانسانية النبيلة!» على أن هذه النظرية صارمة قاسية وإلاَّ لكانت نفس بيرون وبودلير في أبعد ما يكون من البشاعة ! وإلاَّ لكان الشطر الكبير من نفس ابي ماضي بشعاً ايضاً ، وذلك ما لا نريد أن نسلّم بهِ فالشاعرية السامية تبسط اليهِ يدها الالهية وترفعهُ الى فردوس الكواكب الأزليّ فهو بدعة من بدع القلب والروح

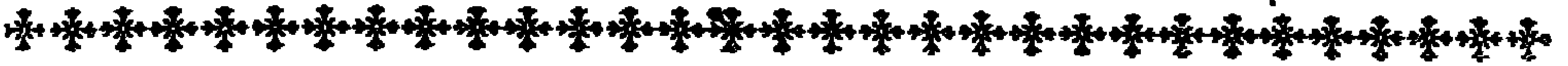
بيروت الياس ابو شبكة



سر ناموس النور

فيما هو اعمق من الكهرب

لنقولا الحدّاد
صاحب مجلة السيدات والرجال



في احد اجزاء المقتطف الماضية مقالة ضافية عن عملية «ميكلصن — مورلي» التي اريد بها اعتبار سرعة الارض بالنسبة الى الاثير[1]. ولكن كانت نتيجة العملية بعد تجربتها مراراً في اوقات مختلفة خيبة وفشلاً . اي لم تكتشف بها سرعة الارض بالنسبة الى الاثير (ان كان ثمة اثير) بل اكتشف بها ناموس طبيعي لم يكن معروفاً من قبل وهو ان الاجسام (والاجرام ومن الجملة الارض وكل ما عليها) تتقلص في اتجاه مسيرها بنسبة ثابتة بين سرعتها وسرعة النور .ولتفسير هذا القول لابد من ايضاح كيفية خيبة العملية المذكورة

خطر لميكلصن ، وقد كان احد كبار علماء الطبيعة في اميركا وله اكتشافات عن اسرار النور، ومباحث دقيقة في قياس سرعته—خطر له خاطر وجيه جدًّا وهو ان شعاعة النور التي تسير باتجاه حركة الارض معها وضدها تكتسب مع سرعتها سرعة الارض اذا كانت سائرة ضدها . وتخسر من سرعتها سرعة الارض اذا كانت مجارية لها . واما الشعاعة التي تسير معامدة لخط سير الارض (او سير سطحها في دورانها) فلا تخسر ولا تكسب بقدر تلك . ولذلك اذا صدرت شعاعتان من مصدر ارضي واحد وانطلقتا الواحدة الى الشرق والاخرى الى الشمال في مسافتين متساويتين ثم انعكستا عن مرآتين وعادتا الى بؤرة واحدة فلا بد ان تعود الشعاعة الشمالية قبل الشعاعة الشرقية . واعدّ ميكلصن جهازاً دقيقاً مضبوطاً وكافلاً للحصول على هذه النتيجة التي يستطيع بها ان يعلم مقدار سرعة الارض بالنسبة الى الاثير الذي يظن انهُ ساكن . ولكن نتيجة تجربته جاءت مخالفة للمنتظر . فان الشعاعتين عادتا في وقت واحد كما لو كانت الارض ساكنة. ولكن الارض تدور حول الشمس بسرعة ٣٠ كيلو متراً في الثانية وهي سرعة كافية لان تجعل ميعاد عودة الشعاعتين مختلفاً ولا سيما لان الجهاز كان دقيقاً جدًّا يضبط ما هو ادق من هذا

تحير ميكلصن وسائر اهل العلم في عدم حدوث هذا الاختلاف المنتظر . وحاولوا ان يجدوا له تعليلاً . فما توفقوا الى تعليل مقنع ، الى ان قام فتزجرلد وزعم ان الارض (وكل

(١) وقد ورد الاثير في كتاب ابي الريحان البيروني الخوارزمي من خيوى منذ القرن الرابع للهجرة بلفظ الايثر (بتقديم الياء على الثاء) بمعنى الجلد او الفضاء . وهي معرب اللفظة اليونانية التي اوردها علماء اليونان القدماء بالمعنى نفسه

جسم عليها وجهاز ميكلصن نفسه) تتقلص في اتجاه سرعتها بقدر الفرق بين رحلتي الشعاعتين بحيث تعود الشعاعتان في وقت واحد . ثم قام لورنتز واستخرج بعملية رياضية مقدار هذا التقلص فكان هكذا :

$$م = \frac{مَ}{\sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}}}$$

وهنا (م) ترمز الى مسافة رحلة الشعاعة الشرقية و (مَ) الى مسافة رحلة الشعاعة الشمالية و (ن) الى سرعة النور و (س) الى سرعة الارض . ومعنى ذلك ان الارض تتقلص الى ان تصير بقدر هذه العبارة

$$\frac{١}{\sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}}}$$

واعتبر اينشتين هذا التقلص سنّة طبيعية وجعله قاعدة لمبدإ النسبية فبنى عليهِ كل مباحثه فيها. وقد قرأت عن عملية ميكلصن هذه في بضعة مؤلفات عن النسبية ، لأنهُ ما من مؤلف خلا منها . ولكني لم اجد في واحد منها تفسيراً لسبب هذا التقلص . ولذلك كان يلوح في ضميري هذا السؤال : ما هي علاقة سرعة النور بسرعة الاجسام حتى توجد بين الفريقين هذه النسبة. ولما قرأت كتاب ادنجتن «طبيعة العالم المادي» The Nature of the Physical World عثرت في الصفحة الرابعة منهُ على تفسير سبب التقلّص واليك محصله : —

« ان بين الذرات (Atoms) مسافات بعيدة جدًّا (بالنسبة الى احجامها) ولكنها متساوية البعد . والذريرات تحافظ على هذا التباعد المحدود فيما بينها ، وعلى الحيز الذي تتحرك فيهِ . تحافظ على ذلك بتفاعل كهربائي فيما بينها ، منهُ قوات جاذبة ، ومنهُ حركات (قوات) اخرى مختلفة تحاول ان تبعد الذريرات بعضها عن بعض . وكلتا الطائفتين من القوات متوازنتان بحيث يبقى حيز الذريرة في سعة محدودة ويبقى بعده عن غيره في مسافة محدودة ايضاً . ذلك على افتراض ان الذريرة ساكنة . ولكن متى كانت متحركة (او متى شرعت تتسارع بحركتها ، اي تعجل) تتغير القوات الكهربائية التي كانت تقيدها بالمسافات المحدودة فيما بينها لان تسارعها ينشيء امواجاً كهربائية مغنطيسية Electro-magnetic waves وهي نوع من القوات يختلف عن النوع الاول ، فيختل توازنها السابق وينشأ لها توازن جديد — اه

فترى من فحوى كلام ادنجتن ان سر المسأله في التيار الكهربائي المغنطيسي الذي انشأتهُ سرعة الذريرة او تسارعها . وهو مطابق للرأي العلمي الذي جرى عليهِ اينشتين وزملاؤه. وهو ان الذريرة المسرعة تنشيء حولها جوًّا كهربائيًّا مغنطيسيًّا Electro-magnetic field وفي هذا الجو تتخذ الكهارب (Electrons) افلاكاً (Orbits) تدور فيها حول نواة

الذرية كما تدور السيارات حول الشمس في جوّ جاذبي Gravitational field — تدور بتأثير هذا الجو الذي يمنعها ان تشرد عن فلكها حول النواة . (انظر مطلع فصل الجاذبية في كتاب مبدأ النسبية لاينشتين) ولكن ادنجتن لم يفسر لنا سبب محافظة الذريات على تباعد محدود فيما بينها وعلى الحيز الذي تتحرك فيهِ بحيث لا يقتحم بعضها على حيز البعض الآخر

وفي ظن هذا العاجز ان السبب هو ان الكهارب تتدافع لانها ذات كهربائية من جنس واحد (سلبية) فكهارب الذرية الواحدة تصدّ كهارب الذرية الاخرى فلا تدعها تتجاوز حدود جوها. وهكذا تبقى الذريات Atoms على مسافات محدودة فيما بينها

اذاً ، التقلص الذي هو بيت القصيد في بحثنا هذا يحدث في نفس الجو الكهربائي المغنطيسي في كل ذرية . اي ان هذا الجو نفسه يتقلص في اتجاه سير النواة ولا يتقلص في الاتجاه المعامد لهُ . وقد تبحَّر كاتب هذه السطور طويلا في هذه المسألة الى ان حلّ لغزها حلاً طبيعيًّا وبرهنهُ رياضيًّا. فجاء البرهان مطابقاً تمام المطابقة لمعادلة لورنتز الآنف ذكرها . وبهذا الحل تفسَّر السؤال الذي سبق نصهُ : وهو : ما علاقة سرعة النور بسرعة الاجسام ؟

وقبل بسط البرهان الرياضي لا بد من شرح الحل الطبيعي فنقول : —

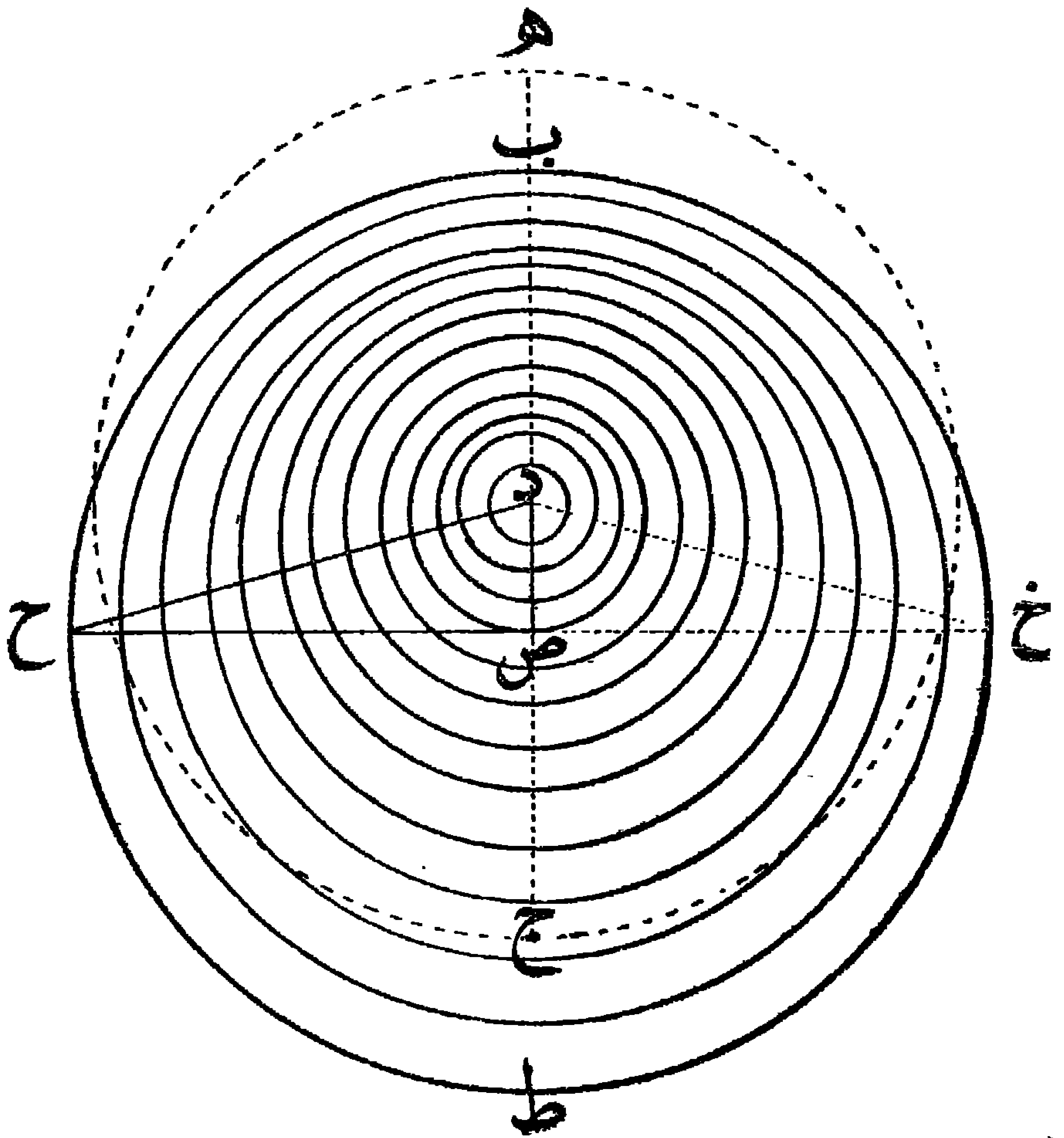
للنور سرعة ثابتة لا تتغير في زمان ولا في مكان وهي ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية . وكذلك لامواج الجو الكهربائي المغنطيسي سرعة ثابتة لا تتغير وهي ٣×(١٠)^١٠ سنتيمتر في الثانية اي عشرة مضروبة بنفسها عشر مرات ثم بثلاثة. والحاصل يساوي ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ سنتيمتر = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر، وهي نفس سرعة النور

(ليس هذا التساوي بين سرعة النور وسرعة الموجات الكهربائية المغنطيسية امراً بالمصادفة بل هو امر طبيعي . لانه ثبت ان النور ليس الاَّ امواجاً كهربائية مغنطيسية)

ولما كانت سرعة امواج هذا الجو مساوية لسرعة النور فبالنتيجة المنطقية تكون النسبة بين سرعة النور وسرعة النواة كنفس النسبة بين سرعة امواج الجو الكهربائي المغنطيسي وسرعة النواة. فلندع النور ونبحث عن النسبة بين سرعة النواة وسرعة امواج جوها المذكور ولننظر كيف يظهر هذا الجو متقلّصاً بسبب سير النواة فيه

لا يخفى ان اي نوع من الامواج (نور او كهرباء مغنطيسية او صوت او موجة ماء الخ) متى صدر لا تبقى لمصدره سلطة عليهِ البتة، فتصبح الموجة مستقلة تمام الاستقلال عن مصدرها. فشعاعة النور متى صدرت عن اي مصدر (الشمس او المصباح) تستقل عن الجسم المنير ولا تبقى له سلطة عليها . كذلك الموجة الكهربائية المغنطيسية الخ

تصوَّر نواة الذرية سائرة بسرعة كسرعة الارض مثلاً فتصدر حولها امواجاً كهربائية مغنطيسية تسير بسرعة مساوية لسرعة النور (٣٠٠٠٠٠ كيلومتر بالثانية) وتصبح النواة على


هـ
ب
د
ح
خ
ص
ج
ط

الأثر سابحةفي هذه الامواج ويصبح الكهرب الذي يدور في فلكهِ (دائرته) حولها سابحاً مثلها كما يسبح القمر حول الارض في اثناء سيرها في الفضاء (حول الشمس)

تصوَّر النواة سائرة وهي تصدر حولها موجة اثر موجةٍ . فكلما خطت خطوة الى الامام كانت اقرب الى قوس الموجة التي امامها وابعد عن قوسها التي وراءها . ولهذا السبب عينه تكون اقواس الامواج الامامية متقاربة واقواسها الخلفية متباعدة ، كما ترى في الشكل . يمكن القارئ ان يمتحن صحة هذا الامر بعملية بسيطة . قف عند حافة بركة صغيرة ساكنة ولا ريح تحرك سطحها . وخذ قصبة وضع في جوف طرفها ماء وسدها بقطنة سداً يؤذن للماء ان يقطر منها كل هنيهة قطرة على التوالي . ثم ابسط القصبة على مداها فوق البركة . فترى انه كلما سقطت قطرة منها الى الماء احدثت موجة مستديرة تتسع رويداً . وترى الامواج متوالية بعضها ضمن بعض . وترى ان السعة بين دوائرها متماثلة . ولكن حرك القصبة ببطء الى يمينك فترى ان دوائر الامواج الى يمينك اقرب بعضها الى بعض منها الى شمالك

ولا يخفى عليك ان الجو الكهربائي المغنطيسي الذي نحن بصدده انما هو هذه الامواج بعينها . وهو مشابه من كل قبيل للجو الجاذبي Gravitational field كما زعم فرادي وجاراه اينشتين وسائر علماء هذا العصر ولذلك تضعف قوة (جذب) هذا الجو بنسبة مربع البعد فيه عن النواة

اذاً ، لا نهاية لهذا الجو من الوجهة النظرية وانما فلك (Orbit) الكهرب الذي يرتسم فيهِ يعتبر حداً لحجم الذرة . فاذا قلنا « الذرة » (Atom) عنينا النواة والجو الكهربائي المغنطيسي الذي تصدره والمحيط الذي يدور فيهِ الكهرب . وبُعْد هذا المحيط عن النواة يكون بقدر فعل الجو على الكهرب (يضاف اليه فعل قوى اخرى خارجية قد تطرأ على الذرة — وللسير جايمس جينز بحثٌ ضافٍ بهذا الموضوع في كتابه « الكون حولنا »)

بعد هذا البيان نتخذ ذرة الهيدروجين مثلاً تسهيلاً للشرح لانها تحتوي على كهرب واحد، فهي ابسط الذرات

الرسم يمثل تمثيلاً خيالياً دوائر الامواج الكهربائية المغنطيسية (واذا تصورتهُ كروياً امكنك تصور الامواج كروية ايضاً) منذ صدرت الموجة الاولى حين كانت النواة عند (ص) الى ان وصلت الى (ل) . ويمثل النسبة بين سرعة الامواج المذكورة وسرعة النواة قليلة جداً . وهي بالحقيقة اضعاف ذلك الوف المرات . فهي في النواة الارضية كنسبة ٣٠ الى ٣٠٠ الف . ولا يمكن تمثيل الحقيقة بالرسم بسبب هذا التباين العظيم بين السرعتين

كانت النواة عند (ص) . ففي مدة معينة (قل مثلاً جزء من الف من الثانية) سارت الى (د) وفي خلال ذلك صدرت منها عدة امواج . ولما كانت النواة عند (ص) صدرت الموجة الاولى منها

وفي مدة انتقالها الى (د) وصلت قوس الموجة الاولى الى (ب) امامها والقوس المقابلة لها الى (ط) وراءها

ولا يخفى ان كل موجة تتبعها موجة اخرى كلما خطت النواة خطوة. فامام النواة ووراءها صفوف موجات تكاد تكون غير متناهية. ولنفرض ان فلك الكهرب يحيط بقدر من الجو الكهربائي متوازن القوى حول النواة. فنود ان نعرف هل طول قطره الموازي لخط اتجاه النواة مساوٍ لطول قطره المعامد له؟ هل ب ج = ح حَ والاَّ فأيهما اطول

وهذه قضيتنا التي نحلها فيما يلي حلاً رياضياً

اذا رمزنا عن سرعة النواة بحرف (س)، وعن سرعة الامواج الكهربائية المغنطيسية بحرف (ن)، وعن المدة بحرف (ق)، وعن المسافة بحرف (م)، امكننا ان نستخرج طول القطر (الشعاعين 2 Radii) الموازي لخط اتجاه النواة. ولا يخفى انهُ لما كانت الموجة الاولى سائرة الى الامام كانت النواة سائرة وراءها فتقصّر المسافة بينهما. ولذلك تطرح سرعة هذه من سرعة تلك في قياس الشعاع Radius الإمامي (نصف القطر). وكذلك لما كانت الموجة الخلفية منطلقة الى الوراء كانت النواة تبتعد عنها فتطيل المسافة بينهما. ولذلك لا بد من اضافة سرعة هذه الى تلك في قياس الشعاع (نصف القطر) الخلفي. اذاً طول القطر الموازي لاتجاه سرعة النواة يُعبَّر عنهُ بهذه المعادلة

$$\text{ق} = \frac{\text{م}}{\text{ن} - \text{س}} + \frac{\text{م}}{\text{ن} + \text{س}} \;\text{بالجمع}\; = \frac{\text{م ن} + \text{م س} + \text{م ن} - \text{م س}}{(\text{ن} - \text{س}) \times (\text{ن} + \text{س})} =$$

$$\text{اذن} - \text{ن ق} = \frac{2\,\text{م ن}}{\text{ن}^2 - \text{س}^2} \;\text{طول القطر الطولي كله}$$

$$\text{ونصفها: طول الشعاع فقط} = \frac{\text{م ن}}{\text{ن}^2 - \text{س}^2} \qquad \text{معادلة اولى}$$

علينا الآن ان نبين نسبة هذا القطر الطولي الجاري لاتجاه سير النواة الى القطر العرضي المعامد له ح حَ

لما شرعت النواة تسير من (ص) الى (د) صدرت الموجة الاولى منها متجهة الى (ح) و(الى (حَ) ايضاً) وكلما انتقلت (ص) خطوة الى الامام تصدر منها موجة الى جهة ح (وحَ) وهكذا على التوالي الى ان وصلت الى (د) فكانت الموجة الاولى قد وصلت الى ح (وحَ) والموجة الاخيرة لا تزال حول (د) والامواج التي توالت بينهما متتابعة بينهما كما يمثلها الرسم كلها في مدة الرحلة. فاذا رسمت خطاً من الموجة الاخيرة عند (د) الى حيث صارت الموجة الاولى عند (ح) كان لك الخط (دح) او (دحَ) يمر في عدد من الامواج اكثر من عدد الامواج التي يمر بها الشعاع (صع) او (ص عَ). وترى اذاً ان الخط (دح) هو وتر لمثلث قائم الزاوية مربعهُ يساوي مجموع مربعي

الضلعين (ص د) و(ص خ) حسب هندسة اقليدس

ولا يخفى ان مسافة الخط (ص د) = سرعة النواة مضروبة بالوقت[1] (المدة) = (س قَ)

ومسافة وتر المثلث (دح) تساوي سرعة الامواج المتتابعة مضروبة بالوقت = (ن قَ)

و (ص ح) هي طول نصف القطر المجهولة قيمته فنعبّر عنها بحرف مَ

فلنا اذاً من هذا المثلث هذه المعادلة

(ن قَ)^2 = (س قَ)^2 + مَ^{2} او (ن قَ)^2 — (س قَ)^2 = مَ^{2}

اي قَ^{2} (ن^2 — س^2) = مَ^{2}

فاذاً قَ^{2} = $\frac{مَ^2}{ن^2 - س^2}$ وبالتجذير ق = $\sqrt{\frac{مَ}{ن^2 - س^2}}$ معادلة ثانية

في كلتا المعادلتين (ق = قَ) اي ان انتشار الامواج الى الامام والوراء والى الجانبين كان في مدة واحدة. اذاً المعادلة الاولى تساوي المعادلة الثانية هكذا: —

$\frac{م ن}{(ن^2 - س^2)} = \sqrt{\frac{مَ}{ن^2 - س^2}}$ نضرب المعادلة بقيمة $\sqrt{ن^2 - س^2}$

فلنا: مَ = $\frac{م ن}{\sqrt{ن^2 - س^2}}$

تقسم الصورة والمخرج (وبالاصطلاح المصري البسط والمقام) على (ن) فلا تختل المعادلة

فلنا مَ = $\frac{م}{\frac{\sqrt{ن^2 - س^2}}{ن}}$ او = $\frac{م}{\sqrt{\frac{ن^2 - س^2}{ن^2}}}$ او = $\frac{م}{\sqrt{1 - \frac{س^2}{ن^2}}}$

وهي عبارة لورنتز بعينها

يستفاد مما تقدّم انهُ في اثناء سير الذرية الى الامام يكون محيط الجو الكهربائي المغنطيسي غير تام الاستدارة بل يكون قطره (ب ج) الموازي لاتجاه سير الذرية اقصر من قطره ح حَ المعامد له فهو في الدائرة ب ح ج حَ وليس في ب ع ط ح ولا في هـ ح ج حَ

واذا كانت الذرية تتقلص في اتجاه خط سيرها على هذا النحو والذريات تحافظ على ابعاد مقررة فيما بينها فلا بد ان يعم هذا التقلّص الجسم كله في اتجاه خط مسيره. ومقدار تقلصه يساوي مجموع تقلص صنفٍ من الذريات مواز لاتجاه مسيرهِ

بقيت حكاية الاثير وماذا جرى له بعد تجربة ميكلصن فلها فصل آخر

شبرا نقولا الحداد

(١) حسب قاعدة الطبيعيات المسافة = معدل السرعة مضروباً بالوقت م = س ق

حرقة

لا تَرُعْ قلبيَ العميدَ إذا ضجَّ او قلِقْ

لا تَسَلْ عن شكاته دَعْهُ بالله وانطلِقْ

لا تظننَّ ما به أثر اللَهْوِ والحُمُقْ

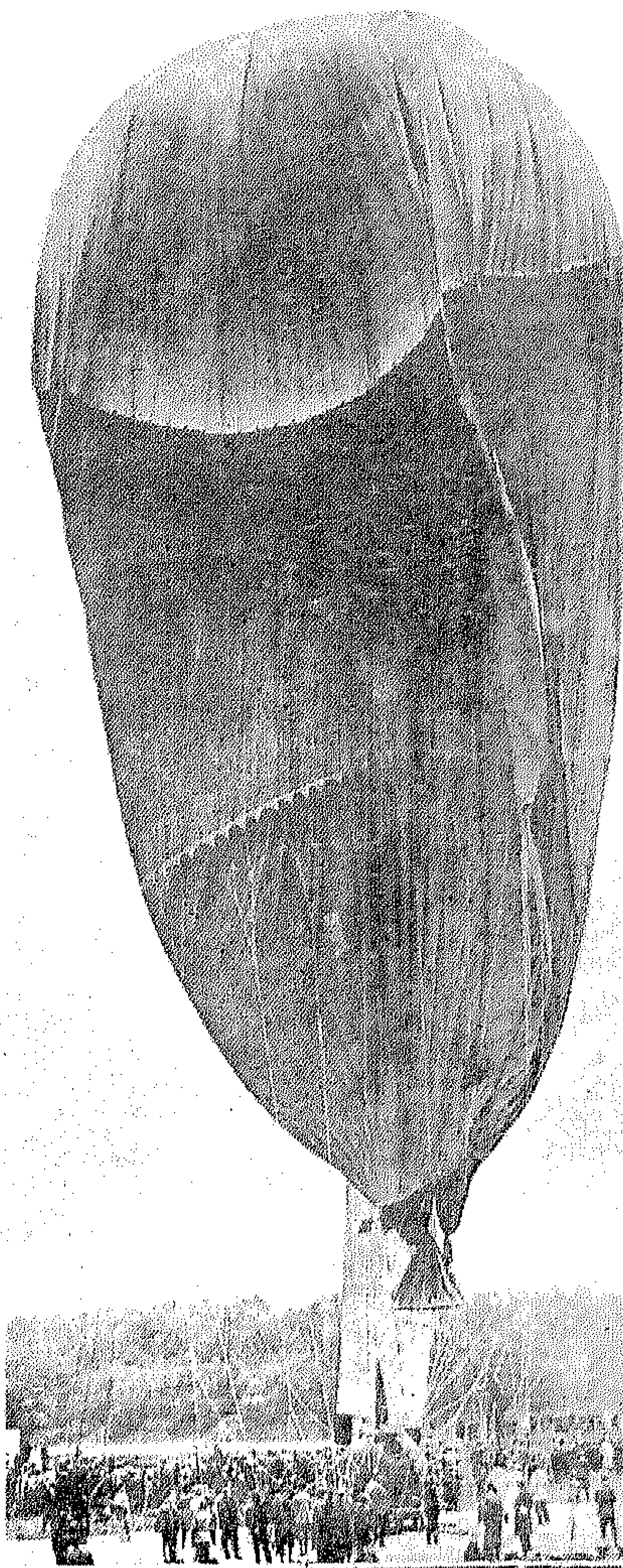
أيّ قلبٍ كمثل قلبي الفتى فاته النزَقْ

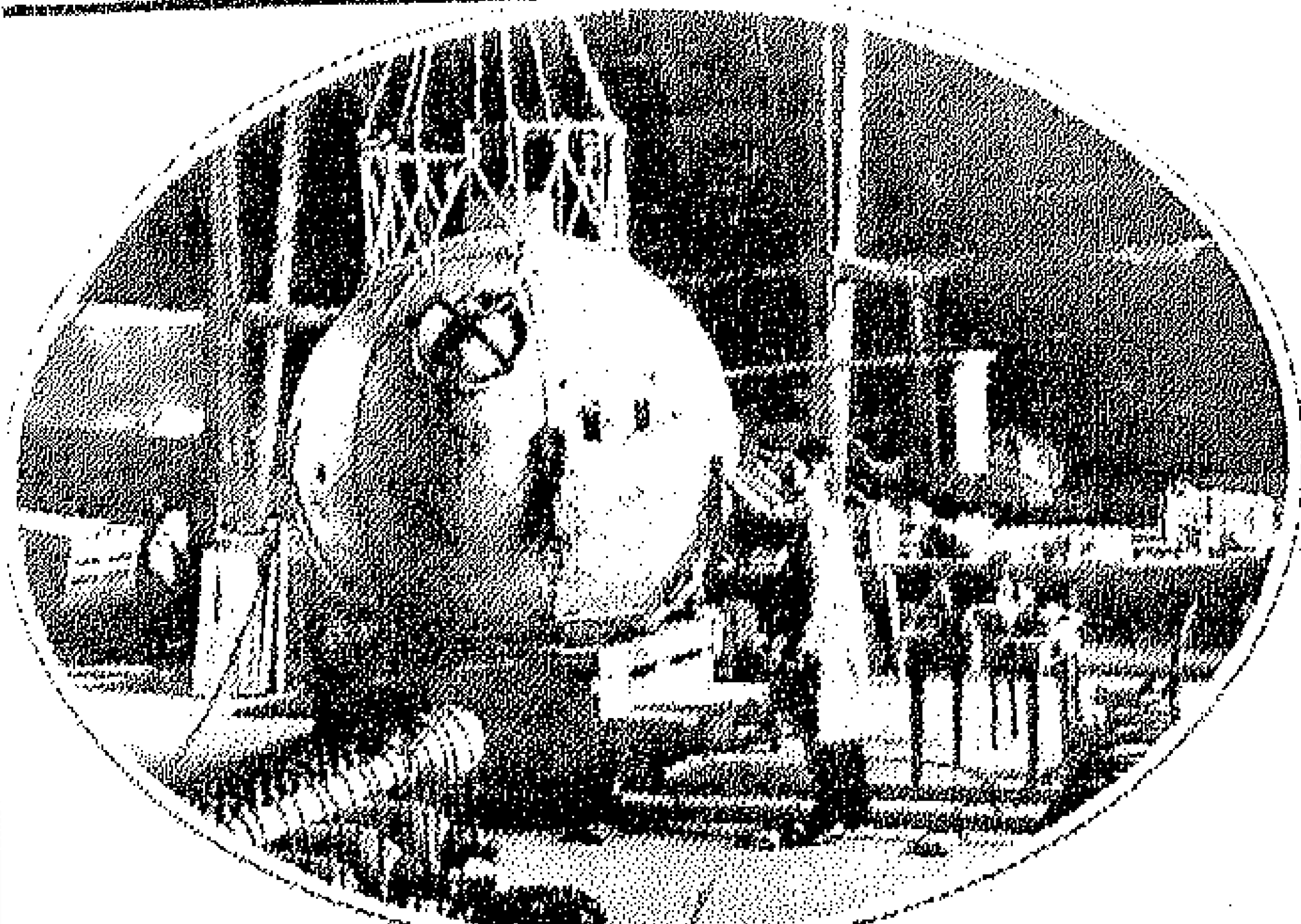
أدْبَتْهُ الحياةُ طاغيةَ فظَّةَ الخُلُقْ

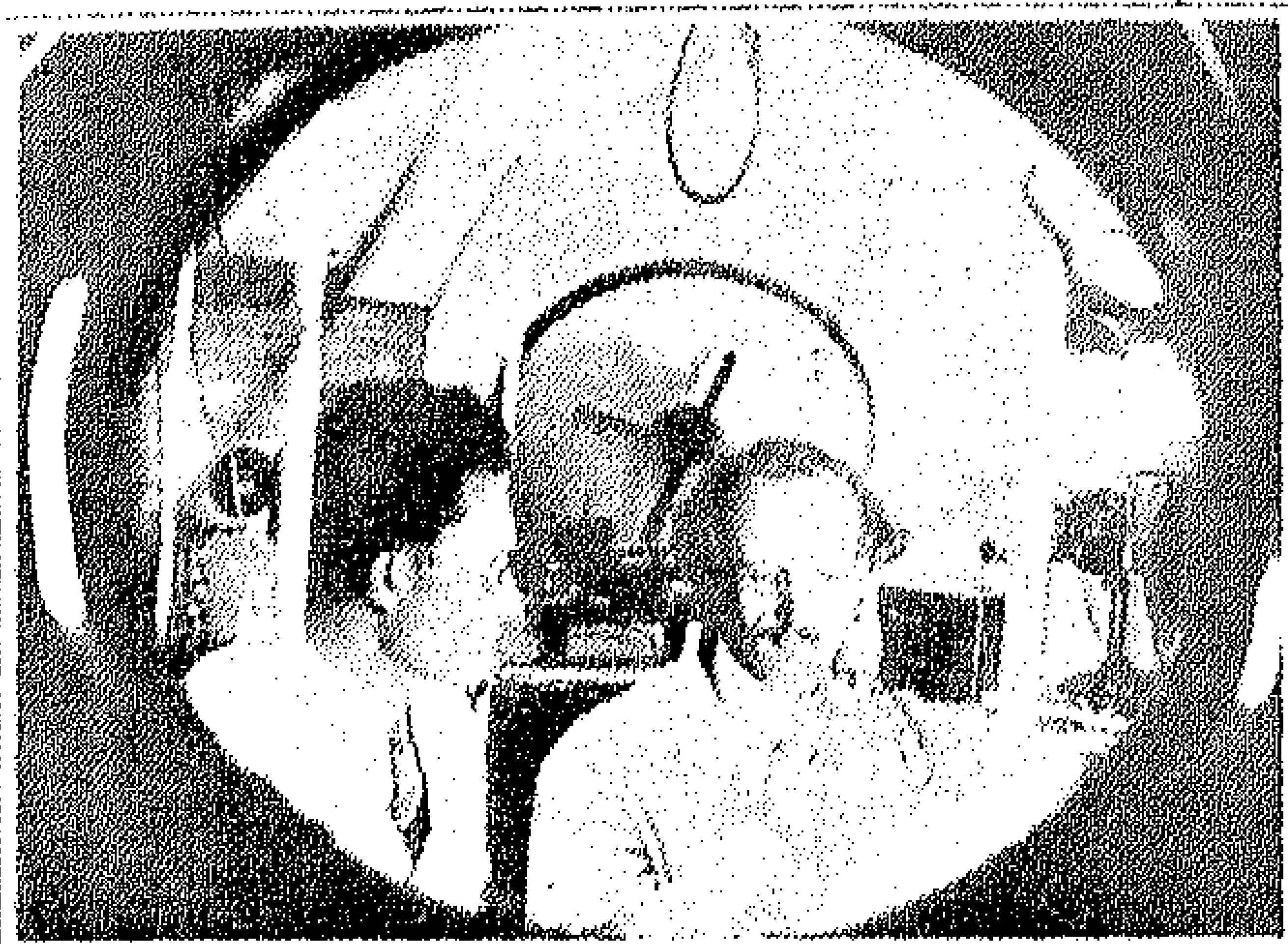
وقديماً أتَتْهُ تفترُّ عن ثغرِ ائتلَقْ

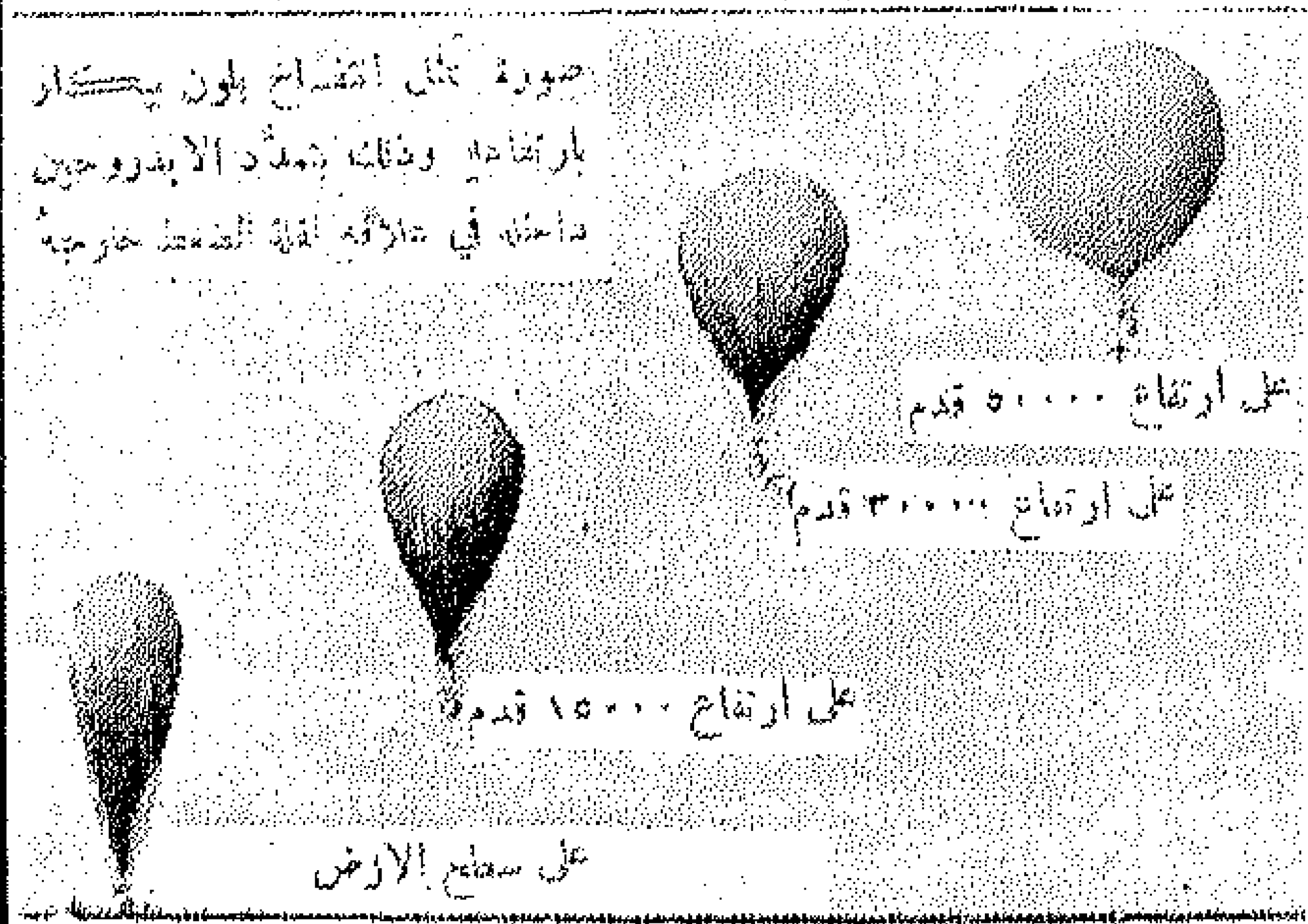
أضحكتهُ الضحى لِتُحْسِنَ إبكاءَهُ الغَسَقْ

باريس بشر فارس


بلون بيكار كما كان قبل ارتفاعه في اوغسبرج


صورة الكرة المعلقة ببلون بيكار وهي من معدن خليط من القصدير والالومنيوم قطرها ٧ اقدام و ١٠ بوصات ولها نوافذ زجاجية وفيها جلس بيكار ومساعده


صورة بيكار ومساعده كيفر داخل الكرة كما يشاهدان من النافذة الزجاجية



صورة تمثل انتفاخ بلون بيكار بارتفاعه وذلك بتمدد الايدروجين داخله في علوه لقلة الضغط خارجه

حقائق مصورة تمثل نواحي من تحليق الاستاذ بيكار Piccard الى ارتفاع عشرة اميال فوق سطح البحر في ١٧ مايو سنة ١٩٣١

ارتياد طبقات الهواء

رحلة بيكار الثانية — بلون رجنر المحلّق

الهواء في نظر اهل العلم طبقات اقربها الى الارض طبقة تعرف بالتربوسفير اي المحيطة بالارض واقصى ارتفاعها نحو عشرة كيلو مترات (او ٦¼ ميل) وتليها طبقة (الستراتوسفير في هذه الطبقة تتكون الغيوم Cirrus وقد دعاها العرب الطخارير جمع طخرور فرأينا ان نطلق على طبقة الستراتوسفير اسم الطبقة الطخرورية من قبيل تسمية الشيء باسم جزءٍ منهُ) واقصى علوها نحو ٣٠ كيلو متراً (او ١٨¾ الميل) ثم على ارتفاع خمسين كيلو متراً توجد (نهاراً) طبقة كنلي هيفيسيد وهي التي يفسر بها العلماء انتقال الامواج اللاسلكية حول الارض بانعكاسها بين سطح الارض وباطن هذه الطبقة . والمرجّح ان الجوّ وراء هذا الحدّ فراغ تقريباً كما يستدلُّ من ظهور اضواء الشفق . ولكن هنالك من يذهب الى ان نيازك شوهدت على هذا الارتفاع مما يدل على ان كثافة الهواء كافية لاحداث احتكاك يشعل هذه الرجم المنطلقة في الفضاء ويرى السر جيمز جينز ان آثار الهواء تمتدّ الى ابعد من ذلك فوق سطح الارض . وقد قيست درجة الحرارة في الطبقتين المحيطة والطخرورية فهي واطئة جدًّا ثم ترتفع . واما حرارة الطبقات العليا فلا يعرف عنها شيءٌ مؤكد

اما رفع جسمٍ وزنهُ ثلث طن الى علو ١٦ الف متر او اكثر بواسطة بلون فليس امراً متعذراً لان من شاءَ ان ينفق في سبيل غرضهِ كل ما يجب انفاقهُ يفوز ببغيتهِ . أما إعداد بلون للارتفاع برجلين اثنين وادواتهما العلمية الى هذا العلو ، ثم تمهيد سبيل التنفس لهما والدفء والبحث العلمي والرجوع الى سطح الارض، فأمر آخر. والاستاذ بيكار جدير بكل ثناءٍ واعجاب لتحقيق ذلك كما اثبت في رحلتيهِ .

فالبلون كيس يحتوي على ٢٨٠٠ متر مكعب من غاز الايدروجين على سطح الارض وهو خمس حجمهِ اذا بلغ اقصى انتفاخهِ. فاذا صار على ارتفاع ٥٦٠٠ متر قلّ ضغط الهواءِ على خارج غلافهُ فيتمدد الغاز داخلهُ ويزيد حجمهُ الى ٥٦٠٠ متر مكعب وهو خمسا حجمهِ الصحيح فاذا بلغ ارتفاع ١٠ آلاف متر قلّ ضغط الهواء كذلك فيتمدد الغاز ويصبح حجم البلون ١٠٠٠٠ متر مكعب ثم اذا صار على ارتفاع ١٥ الف متر بلغ البلون اقصى انتفاخهِ وصار حجم الغاز فيهِ ١٤ الف متر مكعب . ويكون البلون وهو على سطح الارض كمثريَّ الشكل ثم يزداد كرويةً رويداً رويداً الى ان يصير كرة كاملة على ارتفاع نحو ١٥ الف متر

اما الكرة التي جلس فيها بيكار مع معاونهِ فمصنوعة من خليط من الالومنيوم والقصدير قطرها

متران ومعلقة بالبلون بحبال متينة . والهواءُ داخلها يجدد بواسطة اكسجين نقي يخرج خروجاً منتظماً من اسطوانتين خاصتين تحتويان عليهِ وكل منهما تحتوي على مقدار منهُ يكفي لحفظ هواء الغرفة طبيعيًّا مدى ثماني ساعات . وقد عمدا الى ذلك لان الكرة مقفلة اقفالاً محكماً . فالهواء على الارتفاع الذي كان الاستاذ بيكار يبغي ان يصل اليهِ لطيف جدًّا لا يستطيع الانسان ان يتنفس فيهِ . والحرارة واطئة لا يحتملها الجسم البشري . واذاً فيجب ان نحيط العالِم المحلّق بجو كالجوّ الذي اعتاده . وكانت الكرة تحوي كذلك ادوات علمية كثيرة لقياس قوة الاشعة الكونية والحرارة والضوء وبخار الماءِ في الطبقة الطخرورية وغاز الحامض الكربونيك وغير ذلك من المسائل التي يتوق العلماء الى معرفتها . ويظهر انهُ في رحلتهِ الثانية وجّه جلّ عنايتهِ الى قياس قوة الاشعة الكونية

غرض الرحلة العلمي

مضى الآن بضع سنوات وعلماء الطبيعة معنيّون بدرس نوع جديد من الاشعة تعرف آناً باشعة مِلِكن وآناً باشعة هس وآناً بالاشعة التي وراء اشعة غما وآناً بالاشعة الكونية وهو اشهر اسمائها نسبة الى مصدرها في فضاءِ الكون الرحيب . وليس هذا مجال البحث في هذه الاشعة (١) فنكتفي بان ننقل عن الاستاذ بيكار نفسهِ الباعث الذي يجعل قياس هذه الاشعة على مرتفعات عظيمة امراً جديراً بعناية العلماءِ

فالمشهور ان الغازات في حالتها الطبيعية لا توصل الكهربائية كما توصلها الاسلاك المعدنية اي انهُ لا يسهل على الكهربائية اجتياز مقدار من الغاز كما يسهل عليها اجتياز قطعة من النحاس. ولكن اذا صوبت بعض الاشعة الى الغاز الذي لا يوصل الكهربائية اصبح موصلاً كهربائيًّا ضعيفاً . ومن هذه الاشعة الاشعة التي وراء البنفسجي ،والاشعة السينية (اشعة رنتجن) ، والاشعة السالبة (الالكترونات) والاشعة المنطلقة من العناصر المشعة. ويعلّل ذلك بان الاشعة تفصل من ذرات الغاز بعض كهاربها (الكتروناتها) فيصبح الجزء الباقي من الذرة وشحنتهُ الكهربائية شحنة موجبة (كانت الشحنة الكهربائية الموجبة والشحنة السالبة متعادلتين فلما نقص كهرب من الذرة اصبحت شحنة الجزء الباقي منها موجبة) وهو يعرف « بالأيون » والفعل «أيَّن وتأيَّن تعريباً» . اما الكهارب المنفصلة فتصطدم بذرات كاملة وتلتصق ببعضها فتصبح الذرة التي التصق بها كهرب شاردٌ وشحنتها الكهربائية شحنة سالبة (لزيادة الكهرب ذي الشحنة السالبة) فهي « أيون » كذلك . وهذا يجعل الغاز موصلاً للكهربائية لشدة حركة الدقائق المكهربة التي فيهِ . ومع ذلك فالغازات « المؤينة » اضعف جدًّا من الفلزات في ايصال الكهربائية

ولدى البحث وجد اننا اذا ازلنا من المنطقة المحيطة بغاز من الغازات كل مصدر من

(١) راجع المقتطف ج ٦٨ ص ١٦٢ وج ٧٢ ص٣١٦ و٧١٣ وج٧٣ ص٢٠

مصادر الاشعة التي « تؤيّنهُ » ظلّ موصلاً ضعيفاً للكهربائية فيتولد فيهِ في السنتمتر المكعب « ايون » واحد او « ايونان » في الثانية . ولكن اذا انزل الوعاء المحتوي على هذا الغاز الى عمق مائة متر من الماء النقي من شوائب المواد المشعة (وهي التجارب التي قام بها هس في المانيا وملكن في اميركا) اصبح الغاز لا يوصل الكهربائية على الاطلاق . اي انقطع تولد الايونات فيهِ وعلى الضدّ من ذلك اذا رفع الوعاء المحتوي على الغاز الى علو ٩٠ آلاف قدم فوق سطح البحر زادت قوتهُ على ايصال الكهربائية اي زاد تولد « الايونات » فيهِ

واذاً فثمة اشعة تصل الى سطح الارض من مصدر مجهول تفعل في هذا الغاز « فتؤيّنهُ » وتجعلهُ صالحاً لايصال الكهربائية بعض الايصال . هذه الاشعة اطلق عليها اسم « الاشعة الكونية » ونحن لا يصلنا الا جانب ضئيل منها لان الهواء يمتص الجانب الآخر

وقد دلت المباحث على ان هذه الاشعة اشدُّ نفوذاً من اشعة الراديوم . فلوح من الرصاص ثخانتهُ سنتمتر ونصف سنتمتر يضعف اشعة غمَّا — اذا نفذتهُ — الى نصف قوتها . واما الاشعة الكونية فتحتاج الى لوح من الرصاص ثخانتهُ ١٥ سنتمتراً ليضعفها الى نصف قوتها واقوى هذه الاشعة يحتاج الى لوح رصاصي ثخانته متر ونصف متر ليفعل فيهِ الفعل نفسهُ

ثم هنالك الناحية النظرية الفلسفية . كيف تتولد هذه الاشعة . ومن اين تجيء . هل هي كما يقول ملكن انباءٌ من رحاب الكون بأن العناصر الثقيلة تتكون في الفضاء من ذرَّات الايدروجين وانهُ في اثناء تكونها يفنى جانب ضئيل من الايدروجين (راجع المقال الاول في هذا الجزء من المقتطف) فيتحول الى اشعاع شديد النفوذ ؟ او هي كما يقول معارضوه — الفلكي جينز وغيره — نتيجة لفناء المادة بتحوُّلها الى اشعاعٍ ؟

ولما كان الهواء يمتصُّ جانباً كبيراً من هذه الاشعة فلا يصل الى الارض الاَّ اليسير منها جعل الاستاذ بيكار غرضهُ قياس قوتها على مرتفع قريب من سطح الغلاف الهوائي . وعند العلوّ الذي بلغهُ في رحلته الثانية (١٦٥٠٠ متر فوق سطح البحر) يبلغ ضغط الهواء على الزئبق $\frac{1}{10}$ من ضغطهِ على سطح الارض اي ان مقدار الهواء تحتهُ كان تسعة اعشار الهواء وفوقهُ عشر فقط

وقد توسل الاستاذ رجنر Erich Regener الالماني الى تحقيق الغرض نفسهِ بارسال بلون لا يحتوي الاَّ على آلات تدوّن من تلقاء نفسها قوة الاشعة الكونية في فترات منتظمة فبلغ بلونهُ هذا — في ١٣ اغسطس الماضي [1] الى ارتفاع نحو ٢٦ كيلو متراً او $\frac{1}{2}$ ١٧ الميل (في حين ان اعلى ما بلغ اليهِ الاستاذ بيكار عشرة اميال ونصف ميل) . وبعد ما ظل البلون محلقاً بضع ساعات نزل الى الارض في حراج فلزهيم قرب مدينة ستتغرات . ومن اغرب النتائج التي اسفر عنها البحث في الواحهِ الفوتغرافية المدونة ان قوة الاشعة الكونية تزيد زيادة مطردة الى نحو علو ١٣ كيلو متراً ثم تنقص . ولكن هذه النتيجة تحتاج الى تأييد

(١) كانت رحلة بيكار الاولى في ٢٧ مايو ١٩٣١ والثانية في ١٨ اغسطس ١٩٣٢

نشأة المسرح الاغريقي

او العناصر التمثيلية الاولى عند الاغريق قبل القرن الخامس ق. م.

بقلم الدكتور علي عبد الواحد وافي (١)

لم يصل التمثيل عند الاغريق الى درجة النضوج والكمال التي بلغها في العصر الاتيكي (٥٠٠—٣٠٠ ق. م.) الا بعد ان قضى عهد طفولته الاولى في العصور السابقة وفي حضانة الدين اليوناني الذي تمخض عنه ، وتعهده حتى نما وترعرع ، وأبى الا ان يلازمه ملازمة الام الرءوم في كل اطوار حياته. فقد جرت عادة الاغريق ، منذ اقدم عصورهم ، ان يقيموا حفلات دينية لآلهتهم يحرصون فيها كل الحرص على اظهار تأثرهم بما ملأ حياة هذه الآلهة من خطوب ، فيفرحون بما نالهم من نعيم ويحزنون لما اصابهم من شقاء . وأمثل طريق تخيلوها لاظهار مايسرهم او يحزنهم من حياة هذه الآلهة وما عرض لهم فيها انما هي محاكاتهم اياهم محاكاة مصحوبة بأغنيات تروي قصصهم وتفصّل جليل اعمالهم وحقيرها . وبذلك تحقق قبل العصر الاتيكي ، بفضل هذه الاعياد الدينية عنصران كبيران من عناصر التمثيل : المحاكاة وإثارة العاطفة

اشرب اليونان في قلوبهم حب هذه الاعياد ووُجّه نحوها أكبر قسط من عنايتهم ، وخاصة في المدن المقدسة حيث مقر كبار الآلهة وشهيري المعابد كقريط وديلوس ودلف وما اليها من الاماكن التي حبتها الاساطير بضياء ديني رفع من مكانتها وميزها بين سائر بلاد الاغريق

فحفلات دلف مثلاً ، كما وصفها لنا فلوطرخس ، كانت تشتمل على حلقات تمثيلية طويلة متعددة الفصول قريبة الشبه بالتمثيل التراجيدي(٢) ، لولا ما كان يعوز فصولها من التناسق وإحكام ربطها بعضها ببعض . كانت الاساطير تحدث اليونان مثلاً بأن « أپلّون » (إلـه الوحي ، والطب ، والموسيقى ، والماشية ، والنهار والشمس) لما وصل الى دلف قتل تنيناً بريّاً(٣) رمياً بالسهام ، وبعد ان تلوثت يداه بهذه الجريمة ذهب الى وادي « تمبي » ليتطهر من خطيئته ، ثم رجع الى دلف . . . . الى آخر ماجاء في هذه الخرافة . فكانوا ينتهزون فرصة حلول عيد « السبتريون » الذي كانوا يقيمونه لأپلون فيمثلون معركته مع الحية والحوادث التي نجمت عنها . وفي العيد المسمى « الهرواس » الذي كانوا يقيمونه «لسيميلية»

---

(١) ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة باريس ، استاذ التربية بدار العلوم العليا ، والاخلاق بقسم التخصص بالازهر ، وتاريخ الادب المسرحي بقاعة المحاضرات التمثيلية (٢) الرواية الفاجعة ، المحزنة ، المأساة (٣) Python وتعرف هذه الحية في السودان بالاصلة عن معجم الحيوان

محبوبة المشتري (الإله جوبيتر او زفس، ابو الآلهة ورئيسهم ، إله الارض والسماء والفصول والصواعق والسحاب والرعد . . .) وأم الإله « باخوس » ، كانوا يمثلون ما تقصه عليهم الخرافات من الامور المتعلقة بهيام المشتري بسيميلية وبموتها مصعوقة وبنشوء جنينها باخوس . وكان ثمة ، غير هذين العيدين ، أعياد كثيرة يضيق بنا المقام عن حصرها بعضها محلي قاصر على اهل مدينة خاصة ، وبعضها عمومي تشترك فيه مقاطعة أو اكثر من المقاطعات الاغريقية

وقد شاطر الآلهة في هذا التقديس كثير من ابطال اليونان الاول الذين جاء ذكرهم في قصائد هوميروس والذين اكتسبوا على تقادم الزمن صفات قربتهم من الآلهة دون ان تفصلهم فصلاً تاماً عن البشر . فكانت كل مدينة ينتسب اليها بطل من هؤلاء الابطال تقيم له أعياداً شبيهة بالحفلات التي كانت تقام للآلهة انفسهم ، تمثل فيها حياته ويتغنى فيها بأقاصيص حروبه وانتصاراته واعماله الجليلة وما كان له من فضل على المقاطعة المحتفلة بذكراه . وقد كان لهذه الاعياد الوطنية في نشأة التمثيل أثر لا يقلُّ عن أثر الاعياد الدينية

غير ان إلـهين اثنين قد اثرت اعيادها في نشأة المسرح الاغريقي تأثيراً خاصاً لما كانت تشتمل عليه هذه الاعياد من محاكاتهما في حياتهما الحافلة بكثير من الحوادث المحزنة والسارة ولما كانت تثيره هذه المحاكاة في نفس الشعب من مختلف الانفعالات والعواطف من هيام ورعب وحزن وسرور وقسوة وحنان وابتهاج الظفر ومرارة الاخفاق .... وما الى ذلك من حركات الوجدان التي تعتبر إثارتها كما اشرنا الى ذلك فيما سبق ، عنصراً كبيراً من عناصر التمثيل ، وهذان الآلـهان هما : « ديميتير » Démeter و « ديونيزوس » Dionysos

١ — أما « ديميتير » فهي إلـهة الارض وقوى الطبيعة المنتجة ، تروى الاساطير أن « هاديس » (ملك جهنم وإله الموت) ، قد خطف بنتها « كورتى » فأثار ذلك شجونها ، وآلت ألاَّ يهدأ لها مضجع أو تعثر عليها ، فطفقت تبحث عنها مبلبلة الخاطر ، فارغة الفؤاد ، تتقاذفها الطرق ، وتتبادلها الاصقاع ، كأنها موكلة بفضاء الارض تذرعهُ ، حتى ألقت عصاها بمدينة « اليزيس » الواقعة في الشمال الغربي من أثينا ، حيث استقبلها ملكها « تريبتوليم » استقبالاً باهراً ، حفظتهُ له ، وكافأته عليهِ بأن علمتهُ فن الزراعة . . . إلى آخر ما جاءَ في هذه الاسطورة . فكانت تمثل في أعيادها كل هذه الحلقات الاليمة التي تألفت منها سلسلة حياتها ، وتسرد قصصها في أشعار غنائية لا يسع سامعيها إلاَّ مشاطرة هذه الامّ البائسة آلامها ، ومقاسمتها قلقها وبلبلة خاطرها في أثناء بحثها الهائج العميق ، والحقد على ذلك الإله القاسي الذي حرمها فلذة كبدها وصيَّرها إلى تلك الحال ، والسرور عندما يظهر في ظلمات حياتها وميض أمنية أو بارقة أمل . هذا إلى أن من ذلك التمثيل ومن هذه الأغنيات كانت تظهر صور مختلفة للطبيعة وما ينالها في فصول السنة على اختلافها من نضرة وبهجة حيناً ومن ذوى

وذبول حيناً آخر . وبذلك كانت تمتزج في نفوس الرائين والسامعين عاطفة الاجلال لنواميس الطبيعة ونظمها والاذعان لماتشاؤه مع انفعالات الاضطراب والاسى ، — والهدوء والسرور... التي تثيرها قصة ديميتير نفسها . ومن خلال هذا كله تنبثق معان فلسفية وتعاليم دينية تتعلق بالانسان ومصيره وضعفه أمام قوة القضاء

٢ — ولكن هذه العبادة ، على ما فيها من جلال وجمال وفضل على التمثيل ، لم تبلغ الشأو الذي بلغتهُ في هذه النواحي عبادة ديونيزوس

تروى الاساطير أن ديونيزوس (إله الخمر) ، قد ماتت امه سيميلية ولما تتم مدة حمله ، بصاعقة أرسلها عليها حبيبها المشتري (جوپيتر او زفس) حين طلبت إليه أن يريها كل مظاهر قدرته ، وحينئذٍ انتقل الجنين ديونيزوس إلى فخذ والده حيث قضى بقية مدة الحمل ، فوضع بجبل « نيزا » حيث تولتهُ الآلهة المسماة العذارى (Nymphs) ، ثم تعلّم فنّ زراعة الكرم من الإله «سيلين» وينسب اليهِ ، فضلاً عن هذا ، عدة امور لاتقل صفاتها التمثيلية عن حوادث حمله وولادته وتربيته الاولى ، منها انهُ شخص الى الهند على رأس كتيبة حربية كللت أعمالها بالظفر ، ومنها انهُ اشترك مع والده في الحروب التي أعلنتها آلهة المجمع الاولمبي على الشياطين وانه قد ابدى في هذه الحروب شجاعة نادرة جعلت رئيس المجمع الاولمبي يعجب به ويهنئه ويعتمد عليه ، ومنها انه قد اختطفه يوماً القرصان (لصوص البحر) ولكنه انتقم لنفسه منهم شر انتقام ، ومنها انه أحب « أريادن» بنت « مينوس » (أحد ملوك قريط الخرافيين) وأشربت حبه في قلبها ، ومنها انه كان لا يسير إلا مع رفاق فرحين يتألفون غالباً من «الساتير» (وهم في الطبقة الدنيا من طبقات الآلهة لهم قرنان صغيران وسوق كسوق المعز ووجه كوجه الانسان وقامة كقامته، ويحملون بأيديهم غالباً مزماراً وتارة كأساً وآونة عصا «السيليين») ومنها ان الملك «ليكورغوس» قد طرده هو ورفاقه احتقاراً لهم وظنًّا منه انهم لا حول لهم ولا قوة ، ولكنه قد طاش سهمه فقد اذاقه ديونيزوس كؤوس العذاب جزاءً له على فعلته الشنيعة .(وهذه الاسطورة الاخيرة كانت منتشرة على الاخص بين اهل تراقية) ... وغير ذلك من الامور التي يضيق المقام عن حصرها . فاذا كان لأعياد ديميتر ما رأيت من الاثر في نشأة المسرح الاغريقي ، مع ان القصة التي كانت يتغنى بها في هذه الاعياد لاتشتمل إلاَّ على عنصر واحد أو عنصرين : حزن الام على فقد بنتها وبلبلة خاطرها اثناء بحثها عنها ، فماذا عسى ان يكون اثر اعياد ديونيزوس وقد اشتملت قصته على هذه المفاجآت العديدة التي تقدم ذكر بعضها والتي من شأنها ألاَّ تدع قوة من القوى العاقلة حتى تستحثها ولا مظهر من مظاهر الوجدان حتى تثيره ؟ !

يذهب اليوناني يوم عيد ديونيزوس ، يوم عيد الهـه الذي يضمر له الحب كله ويعرف له ياديه البيضاء على خصب حقله ونتاج كرمه ، يذهب الى المكان المعدّ لاقامة الاحتفال وقد

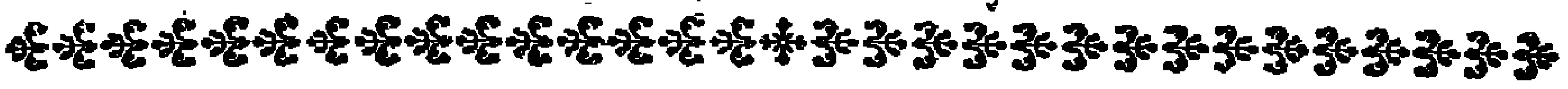
ملكت عليه عاطفته الدينية كل مشاعره وجعلته قابلاً لان يتأثر بأدنى مؤثر ويثور لاقل الاشياء إثارة ويطير لبه لاضعف صوت موسيقيّ ؛ فيسمع الجوقة تغني قصة الآله المحتفل به ، بادئة بحوادث حمله وما أصاب والدته المسكينة التي راحت ضحية حمقها وشكّها في قدرة المشتري ، فيتملكه حزن عميق لا ينقذه منه إلاّ عاطفة اشد وطأ : عاطفة القلق على مصير ذلك الجنين الذي صعقت أمه ولما تتم مدة حمله . وبينا هو في ذلك الاضطراب النفسيّ إذ يقرع آذانه خبر انتقال ديونيزوس من بطن امه الى فخذ ابيه فتهدأ ثائرته ويشمله فرح مؤقت لا يلبث ان يختفي ليحل محله انزعاج آخر عند ما يصل المغنون في قصصهم الى حادثة خروجه ، بعد ان تمت مدة حمله ، من هذا الفخذ الوثير ، الى قمة ذلك الجبل الموحش ، حيث لا أم تتعهده ، ولا حاضنة تقوم بشئونه ، ولا غذاء يقيم أوده ، ثم تبرق اسارير وجهه فرحاً عند ما يعلم ان الله قد قيض له « العذارى » واستبدله امهات بأم واحدة . وهكذا دواليك يظل قلبه ميداناً لشتى العواطف حتى يؤذن مؤذن ان قد انقضى العيد

هذا الى ان تلك الاغنيات كانت تتعرض لقوانين الطبيعة الخاضعة لها الكائنات الحية ، ولا سيما ما يتعلق منها باعمال الاله ديونيزوس ، فتصف تتابع الفصول وآثارها على اشجار الكرم التي يميتها الشتاء ، فتيبس جذوعها وتذوى ثمرتها وتتساقط اوراقها ، ثم يبعثها الربيع فتسري فيها عناصر الحياة قليلاً قليلاً حتى تعود اليها نضرتها الاولى كاملة غير منقوصة . وبذلك كان يمتزج في نفوس السامعين والرائين نوعان من العواطف : عواطف الحزن والسرور ، والاضطراب والهدوء ، والخوف والطمأنينة . . . . وعواطف الاجلال لسنن الطبيعة وإكبار أعمالها والاعتراف لها بالجميل

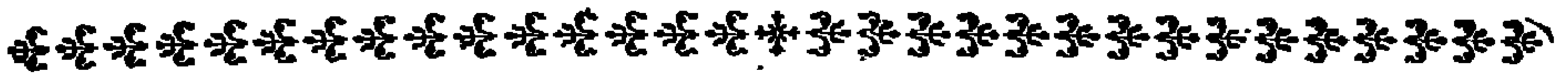
ومن هذه الاغنيات أيضاً كانت تظهر معان فلسفية دقيقة تمثل عمل الانسان وجهله اذ يحسب احياناً شقوة ما يكفل لهُ الهناءة ، ويسعى تارة الى حتفهِ بظلفهِ فيجلب على نفسهِ الوبال بالوسائل التي يخال انها تحقق له السعادة . فلم يكن اثر هذه الاعياد قاصراً على الوجدان والعاطفة بل كان يتعداها الى كثير من مظاهر التفكير

وكان يساعد على إظهار كل هذه العواطف والمعاني في نفوس المغنين وسامعيهم ما كانوا يلتجئون إليه من وسائل الاثارة الصناعية مستفيدين مما كان يبيحه الدين الاغريقي في اعياد ديونيزوس خاصة من الاغراق في المأكل والمشرب والاستمتاع بلذة الحياة المادية وكانوا يأكلون حتى التخمة ويشربون حتى الثمل وتميد بهم النشوة فيرقصون

وقصارى القول : إن عبادة ديونيزوس كانت اضخم العبادات ثروة في العناصر التمثيلية ، فلا غرو ان ينسب اليها أكبر قسط من الفضل في تمهيد الطريق أمام المسرح الاغريقي وإعداد النفوس لتذوّقه ، وأن تعتبر أجلّ فاتحة لتراجيديات العصر الاتيكي



الله في الحياة



تتباين العلوم بمادتها ومقدماتها وبالمعاني التي تنتهي اليها رغم الاسلوب العلمي الذي يوحد بينها ورغم نزعتها الحادة الى الحقيقة الصرفة . فجلاء فكرة الله ليس وقفاً على علم دون آخر ولكل علمٍ رسالتهُ الخاصة في الله ووصفهُ الخاص لتلك الناحية من الله التي يتصل بها . فلا بد من العرض لجميع العلوم سعياً وراء تكوين فكرة نزيهة غير مشوهة عن رسالة العلم الحديث في الله وطبيعتهِ

وقد تناولنا في مقالين سابقين الوجهة الرئيسية من رسالة العلم الطبيعي في الله . وهي تتلخص في اثبات الحرية والابداع في اقصى تركيب الكون ، اي في تصرف الكتروناته ، كما انها تعزو الى الله التفكير الرياضي الخالص لانها تدهش اذ تلمح الرياضيات متغلغلة في جميع ما طرقه العلم بعد من جوانب هذا الكون . واذا وقرنا ان الرياضيات ترمز الى منتهى القدرية والضبط اتضح لنا ان الطبيعيات الحديثة تنتهي فيما يختص بالله الى اسناد صفتين في الظاهر متناقضتين اليهِ ، اعني صفة الحرية وصفة القدرية . اما كيف السبيل الى التوفيق بين هاتين الصفتين في نفس الرسالة الواحدة فلا اخال احداً يستطيع الآن التكهن بهِ . لكننا نعتقد ان هذا التناقض ظاهري اكثر منهُ حقيقي ، وزائل اكثر منهُ دائم ، ولنا من حالة العلم الحالية غير الكاملة ، ومن حداثة هذا الضرب من التفكير عن الله ، ومن يقيننا بان الفكرة الكاملة لله لا تستخرج من جانب واحد من جوانب النشاط البشري بل تبزغ في انسجام رسالات الحياة جميعاً — لنا من كل هذا ما يجعلنا نؤمل ونعتقد اننا انما نحن الآن في طور فطري الحركة لن تلبث ان ترقى مع الزمن الى درجات الكمال

إن الكمال النظري لا يهبط بغتة من عليين بل يرتسم بحروف تختلف وضوحاً وغموضاً في افق النشاط البشري المتواصل . ومن الجهل الفاضح ان ننتظر كمالاً جاهزاً من حركة ذهنية هي بعدُ في الطور الاول الشديد المرونة . ولا تطلبُ الحقيقةُ التاريخيةُ منا في هذه الحال الا ان ننفذ ببصيرتنا الى ما تنطوي عليهِ هذه الحركة وقد تنكشف عنهُ . من اجل هذا لا يقلقنا كثيراً ان نرى في رسالة العلوم الطبيعية في الله شيئاً من التناقض والاثرة والعيب ، بل نحن نحوط هذه الرسالة صبراً واطمئناناً حتى تتكامل وتتفتح عن جميع متضمناتها . ويقيننا ان هذا التكامل قريب الحدوث

وهناك جانب ثانٍ من النشاط الذهني الحديث غير جانب العلوم الطبيعية يحاول اصحابهُ بطريقتهم الفذة ان يستثنوا معنىً من معانيه يستطيعون اسناده الى الله . هذا هو جانب العلوم

الحيوية . فهذه العلوم لها رسالة خاصة في الله، وفي هذا المقال نحاول عرض هذه الرسالة ونقدها

عند ما نشأت الروح الحديثة في علوم الاحياء الفت نفسها تجاه تراث ضخم من العقيدة والنظرية ، وسرعان ما ايقنت انها تتعارض اسلوباً ونظرة مع هذا التراث الهائل ، فاخذت على عاتقها بادئ ذي بدءٍ نقد هذه الكتلة النظرية من اساساتها . وحركة النقد هذه بلغت اشدّها في القرن التاسع عشر ولا تزال نشطةً الى يومنا هذا

اما العيب الكبير الذي رأتهُ الحركة العلمية الحديثة في علوم الاحياء العتيقة فهو أن هذه ترتكز في عقائدها وتصريحاتها على ثلاثة فروض يكفيها جميعاً قليل من النقد الحديث حتى تنكشف عن اسسس جدّ واهنة . اولاً إن جلّ ما يُطلب الى العالِم في دراستهِ الاحياءَ ان يصنفها جميعاً فيضع كل حيٍ في بابهِ الخاص بهِ. ثانياً ان الاحياءَ موجودات ثابتة ثبوت عناصر الكيمياء لا سبيل لايٍ تغيير اليها . ثالثاً ان الشرط الأوحد لصحة نظرية حيوية ان يقتنع التفكير الخالص بأنها نظرية معقولة فيجب لذلك ان يؤيدها الواقع

اذا قابلنا هذه الفروض الثلاثة بالروح العلمية السائدة في علوم الاحياء الحالية الفيناها اشد ما تكون مناقضة لهذه الروح . فالتصنيف لم تعد له القيمة التي تخيلها العلم العتيق وهو الآن على اية حال يستمدُّ الهامه من مبادىء غير تلك التي تحكمت في التبويب السالف . فمثلاً كان التصنيف السابق يبني معظم نتائجه على التشابه في التركيب دون اعتبار وافرٍ لوظائف الاعضاء اما الآن فالوظيفة هي اهم ما يسترشد بهِ في التصنيف الحديث . كذلك البيئة الخارجية لم يعرها التصنيف القديم انتباهاً يذكر بينا هي الآن بتفاعلها مع الكائن الحيّ الفكرة الاساسية لمعنى كلمة «حيّ» . هكذا الامر فيما يختص بقيمة التصنيف العامة لأن العلم عاد لا يرى كما كان يرى فيما مضى قيمة كبرى لمجرّد تبويب حيٍ ما في صفرٍ او جنسٍ خاص لانهُ شغل عن كل هذا باستيعاب تصرُّف هذا الحيّ وتفاعله مع محيطه وطريقة نموّه والتعاون البديع بين اعضائهِ ومجموعة العوامل التي تؤثر في حياته . وما لم تفهم جميع هذه الاوجه حق الفهم سقط ما توخاه العلم من قيمة التصنيف لأنَّ هذا يصبح اذ ذاك تصنيفاً تعسفيًّا لا يستند الاّ على الوجهة التركيبية الجامدة من الحيّ ، وهذه الوجهة مهما ظهرت هامة بحد ذاتها لا تعدو في الواقع عن ان تكون احدى اوجه الحيّ الكثيرة. فالنظرة الجديدة للحيّ ترى في تركيبه وسيلة لا غير، ترمي الى ابعد منها ، اي الى استكمال ذاك التوازن العضوي بينهُ وبين بيئته الذي لا يتكشف معناه كاملاً الاّ باعتبار الحي كاملاً متواصلاً منذ تكوينهِ الى نهايتهِ ، مندمجاً كذلك في تاريخ سلالتهِ ، موحداً في النهاية في تاريخ الحياة العام

والدعامة الثانية للتفكير العضوي العتيق هي ان الاحياء مخلوقات ثابتة لم يطرأ عليها تحوُّل في التركيب والوظيفة منذ خلقها . ويكفي بصدد هذا المبدأ ان نقول ان النظرة الحديثة ترمي

الى عكسه تماماً اي الى الايمان الوثيق بان الاحياء كسواها من الموجودات قابلة للتطور في تركيبها وتصرفها وانها قد تطوَّرت فعلاً خلال تاريخها تبعاً لمقتضيات تفاعلها ببيئتها . هذه نظرية التطور العضوي، والعالِمُ الذي يرى من الشجاعة المنطقية بعد دراسته الاحياء ألاَّ يؤمن بها غيرُ معروف لحسن الحظ . ولا اعرف وسيلة لتعريف القارىء مقام هذه النظرية الحاليّ افضل من احالته الى المقالة النفيسة في صدر مقتطف يونيو الماضي عن « دارون ومذهبه »

والمبدأُ الثالث الذي تضمنتهُ النظرة الحيوية العتيقة هو مصيبة مصائب التفكير القديم على اطلاقه وهو لا يزال الى يومنا هذا متحكماً في تفكير فريق غير قليل من علماء الاجتماع. هذا المبدأُ هو الخلط بين الحقيقة الواقعية والكمال النظري . فكان يكفي لبرهان وقوع حقيقة ان تتمكن من اظهار هذه الحقيقة وهي جزء صحيح في تركيب منطقي . فمثلاً نود ان نعلل ظاهرة ما يسمونه بالتنويم المغنطيسي . هذه الظاهرة تُحسب معللة تمام التعليل اذا قلتَ مثلاً ان التفكير تموُّج اثيري ينبعث من دماغ مفكر في الوسط المحيط به ، فاذا وجد في هذا الوسط دماغٌ آخر موافق لدماغ الاول من حيث خصائصه الاشعاعية التقط هذه التموجات وفهمها . ولذلك فالمنوّم المغنطيسي يبعث بموجات تفكيره في الأثير المحيط به والوسيط ينفعل بهذا التموج ويفهمه كما تفهم ذاك التموج الهوائي الذي تنفعل به اذناك اعني الصوت . هذه كلها نظرية جدُّ معقولة لا ينقصها شيءٌ من حيث البناء المنطقي . ولكن هل هي حقيقة واقعية؟ هل ثمة تفكير على الاطلاق ؟ واذا كان ثمة تفكير فهل هو في الواقع تموجات اثيرية ؟ وماذا نعني بالأثير هنا ؟ وهل يلتقط دماغٌ ما تفكيرَ دماغ آخر بحيث ينفذ الى معناه ؟ هذه كلها لم تعنِ النظرة العلمية العتيقة لانها خلطت بين المعقول والواقع . وقد بلغ هذا الخلطُ اوجَهُ في علوم الأحياء ، فما نظريات ارسطو وبوفون ولامارك وفيزمان وغيرهم الاَّ شواهد على هذا الخلط . وقد وقع دارون نفسه ، على شدَّة حذره ودقته ، في نفس هذا العيب فيما يتعلق بآرائه في الوراثة وسننها

يمتاز التفكير العلمي الحديث بانه فصل نهائيًا بين الواقع والمعقول وحدَّد لكلٍّ نطاقاً خاصًا به من الحقيقة القصوى . فالمعقول بحث امكان الوجود والواقع بحث حقيقته . وقد يلوح الواقع في بادىء الأمر غير معقول لكن في الحقيقة كل واقع لا بدَّ وان يكون معقولاً كذلك . اما المعقول على اطلاقه فكثيراً ما لا صلة له بالواقع . والعلم بتصويره الحديث انما هو بحث الحقيقة الواقعية ، في حين ان المعقول تتناوله الفلسفة والرياضيات . وشروط غير شروط الواقع لكن الاثنين ينسجان في الخبرة البشرية العامة

هذه الاركان الثلاثة للنظرة العضوية القديمة كانت اول ما شغل العلم الحديث بنقدها . وعملية النقد هذه ليست غاية لذاتها بل الغرض منها تعبيد الطريق للبحث الحديث .

ولذلك فما ان استقر في ذهن العالِم العلمي ان هذه الاركان فاسدة تتطلب نقداً واصلاحاً حتى وقع النقد والاصلاح بالفعل ونشأت الطريقة العضوية الحديثة باسلوبها التجريبي ونزعتها الجامعة ونشدانها الحقيقة الواقعية . ولكل اسلوب ونزعة ونشدان فلسفة خاصة اي مجموعة من الفروض والمعاني تنطوي عليها جميعاً . فما هي الفروض والمعاني التي تنطوي عليها النظرة الحديثة للحياة والأحياء ؟

تنطوي اولاً على هذا الذي اشرنا اليه عن الواقع والمعقول . إنَّ الامر الواقع فيما يختص بالحياة أنها ناحية واحدة من الكون قد كان بمقدور ذلك النطاق الأوسع ، اعني نطاق المعقول ، ان يجعلها غير ما هي عليه الآن . فما نشاهده من سنن الحياة الاساسية ، كضرورة تركيب البروتوبلازم وسنن الوراثة وسنن النشوء والتنسيق العضوي ، كلٌّ هذه امورٌ واقعيَّة يجب تبيانُها وتعرُّفُها بما هي عليهِ بالضبط . لكن ليس ثمة ، من الوجهة السابقية ، اي اطلاق او ضرورة فلسفية لوقوع هذه الامور . فقد كان بالامكان وضمن حيِّز المعقول ان تقوم في صلب هذا الوجود حياة غير هذه الحياة لها نفس المسوّغ الفلسفي الذي لهذه الحياة . واذن نستنتج من كل هذا ان ممكنات الوجود اكثر مما نستطيع التعبير عنهُ من واقعياته

هذا من حيث الممكنات المطلقة للوجوْد . وللوجود كذلك ممكنات نسبية لها روعتها وجلالها . ذلك ان هذا النظام الذي تتعرفهُ في الطبيعة الحالية لم يحقق بعد جميع ما يضمره هو من ممكنات وقيمَ ، وكل ما نشاهده في هذا الكون من نجوم وذرات وبشر ينزع الى ضروب من الوجود لا يمكننا التهكن بها الآن . ففي قدس هذا الوجود ترتع انظمة وعلاقات وتراكيب من الابداع والغنى بحيث تلوح وهي وجود جديد مستقلٌّ عن هذا الوجود الذي يضمرُها

خذ هذه الحياة مثلاً لذلك ، فتاريخها منذ ظهورها على هذا السيار حافل بما نحن بصدده من ممكنات هذا الكون . فالصفات التي بزغت في الحياة خلالَ تفتحها التاريخي ابلغ شاهد على ما يكنُّه النظام الكوني الحاليّ من وفرة وغنىً . فالتفاعل الحيويّ ، والذاكرة ، والاستفادة من الخبرة ، والغريزة ، والاغتباط بالصحة والقوة ، والعاطفة ، والشعور ، والتعليل ، والمعرفة ، والوعي ، والجودة الادبية ، والحبُّ — جميع هذه تمثل وفرة ما كان مضمَراً في نطفة الحياة الاولى وفي سنن هذا الكون . ولا اقصد بهذا ان بين هذه النطفة الاولى وهذه الصفات علاقةً سببيةً كاملة ، بمعنى السببية المألوف ، بل اعني ان تفاعل الحياة منذ نشأتها مع ذلك النظام الذي يحتضنها احتضاناً ، اي الطبيعة وسننها وحركاتها ، هذا التفاعل الحيوي المستمرّ انتهى الى هذه الصفات . فالحياة توازن دقيق مع الكون ، وصفات الحياة أثر هذا التوازن الدقيق

وعند النقد والتأمل الدقيقين نستطيع ان نلمح في تتابع الصفات الحيوية الذي وقع بالفعل في التاريخ نظاماً عامًّا يطبع هذا التتابع بطابع مميّز له عن اي تتابع آخر . هذا النظام هو ما نعبّر عنه عادة بلفظة « رقيّ » او « تقدُّم » . وقاعدة هذا الرقي هي الانتقال العام من البسيط الى المركَّب ومن العام الى الخاص ومن الوحدة والانفراد الى الاتّحاد والائتلاف . اي ان الكون ، بسننه وتركيبه ، سمح لبزوغ سلسلة من الصفات الحيوية تتسق جميعاً في قاعدة عامة هي هذه القاعدة التقدمية التي وصفنا . فعند ما بزغ وعي الانسان او حبه او عاطفته او اجتماعيته لم تبزغ هذه جميعاً في عالمٍ معاكسٍ معادٍ لها لقيامها بل نشأت في محيط شديد العطف عليها متين الصداقة لها . او بالاحرى انها نشأت لان الكون اراد لها النشوء ، اذا صحّ اسناد صفة الارادة البشرية الى الكون

نخلص من هذا الى تصريحين هامين ، اولاً ان الحياة وليدة الكون ، ثانياً ان الرقي في الحياة وليد الكون كذلك

والله في هذا التصوير يصبح ذاك التركيب في صلب الكون الذي سمح بالحياة وبالرقي فيها . ان الحياة حقيقة واقعية والرقي فيها حقيقة واقعية كذلك . من اجل هذا وجب وجود تركيب خاص للكون يسمح بوقوع هاتين الحقيقتين . هذا التركيب هو الله . والله اذن حقيقة واقعية لا سبيل البتة الى التشكيك في وجودها

الستَ تشاهد الحياة في نفسك وفي سواك ؟ اليست تلوح لك وهي منتظمة في سلسلة تقدُّمية متواصلة ، من نقيق الضفدع الى موسيقى بيتهوفن ؟ كيف امكن حدوث هاتين الظاهرتين ، الحياة ورقيها ؟ لا بدَّ وان توفّر في الكون تركيب خاص شدَّ ازرها ولم يكتف بأن جعل من وقوعها امراً ممكناً بل احدث هذا الوقوع فعلاً . هذا التركيب ، هذه الخاصة الكونية ، هذا الجانب من اجزاء الكون وحركاته ، هو الله

هكذا تستوي فكرة الله في فلسفة الحياة . وعلى هذا المنوال يبني الكسندر ومورغن وهُوبْنهَوس وويمان فلسفتهم المشتركة في الله . فالله في نظر هؤلاء حقيقة واقعية كهذا القلم او كانف كليوبطرا لان الحياة والرقيَّ فيها حقيقتان واقعيتان . وما لم نطعن بالحياة وبرقيها ونؤمن بانهما وهمٌ وسرابٌ تعذر علينا نكران وجود الله

اذا اضطررنا الى اطلاق لفظة تصف هذه النظرة الى الله فإنَّا نميل الى استعمال عبارة « النظرة الزمنية » لله ، لانها تستمد فكرة الله من تفتُّح معاني الحياة مع الزمن ، فهي ترى يد الله وتستشف أثره من البزوغ العضوي المستمرّ لان هذا البزوغ لا بد وان يقع في كون ذي تركيب خاص يسمح بحدوثه . والله ليس سوى هذا التركيب الذي يكفل بزوغ الحياة ورقيها

ونحن ننتهي الى النتيجة نفسها اذا تناولنا الماماً النزعة الجامعة الحديثة في دراسة الحياة

والاحياء .زعيم هذه النزعة العلامة الانجليزي الاستاذ هولداين . هذا العالم لا يرى اي معنى لفكرة الحيّ مجرّدة عن فكرة البيئة التي يتفاعل معها . فالانسان مثلاً ليس هيكلاً عظمياً محشوًّا اعضاء وانسجة مربوطاً بعضلات وبشرة وكفى ، وليس هذه بوظائفها وعملياتها ، بل هو جميع هذه موحّدة بيئتها . فالاكسجين وخصائصه جزء من فكرة « الانسان » ، كذلك الغذاء والحرارة والماء والسنن الكيماوية وقشرة هذه الارض والجاذبية وكل ما يمس الانسان مسًّا جوهريًّا . لانّ لا كيان للانسان البتة الاّ بتآزر هذه الجوانب من الطبيعة وتعاونها بعضها مع بعض . وعلى حدّ قول الاستاذ هولداين ان القول بان الرئتين تتنفسان الهواء لا يفوق صواباً القول بان الهواء يتنفس الرئتين .لان بين هذين الموجودين — الرئتين والهواء — صلة من الوثوق والدقة بحيث يستحيل الفصل بينهما . فالانسان تركيب طبيعي لا ينحصر في جسمه فحسب بل يمتد الى جميع عوامل بيئته لان من هذه جميعاً يبزغ الانسان حقيقة واقعية يغتبط لها الكون ويمكنها من الوجود والاستمرار

هذان المنوالان — المنوال الزمني والمنوال الجامعي — يستمدّ ان اسلوبهما في التفكير من علاقة الموجودات بعضها ببعض ومن تساندها بعضها الى بعض ، اي انهما يريان الوجود بكليته وهو جسمٌ واحدٌ محكم التنسيق مستدقُّ التأثر والاحساس يرنُّ بجوانبه الاربعة لايّ تغير يقع فيه ويعين نوع هذا التغيُّر وقيمتهُ .المنوال الواحد يرسم هذه الصورة من دراسته تاريخ الحياة ،والمنوال الآخر يرسمها من اعتباره حقيقتها الحالية .والعبارة الواحدة التي توحّد بين هاتين النظرتين هي عبارة « النظرة العضوية » فالكون بموجبها كلٌّ ذو اعضاء ينفعل بها ويفعل فيها ويتسق اتساقاً يختلف كمالاً ونقصاً باختلاف انسجام هذه الاعضاء بعضها مع بعض

وسواء انظرنا الى الحياة وهي حقيقة حالية ام حقيقة تطورية نشأت وتكاملت مع الزمن ، فانّا امام نفس النتيجة وهي ان الحياة وليدة الكون لا قيام لها بدون « ارادته » . فالله هو تلك الحقيقة الكونية التي جعلت من الحياة امراً ممكناً والتي لم تكتف بمجرد هذا الامكان بل احالتهُ الى حقيقته الواقعية

***

ونحن نقرُّ ان هذا النحو من تشييد فكرة الله متين ليس باليسير نقدهُ او تبيان عيوبه . ذلك لانه يرتكن على حقيقة الحياة ووفرتها . وما قد يلوح لاول وهلة ضعفاً في هذه الفلسفة يبدو بعد النقد والتأمل قوة ومناعة . واعرف عدداً من الانتقادات يلجأ اليها التفكير التقليدي ويحسبها كفيلة بهدّ هذه الفلسفة ، لكنها جميعاً قائمة بالفعل على خطاءٍ في تفهم ما ترمي اليهِ ونحن لن نحاول هنا بحث هذه الانتقادات وتبيان اوجه الضعف فيها لكننا بدورنا نود ان نشرح بايجاز نقصاً لهذه الفلسفة نحسبهُ نقصاً حقيقيًّا

لئن ظهرت هذه الفلسفة وطيدة البنيان فهي برغم ذلك لا تعدو ان تكون تركيباً ذهنيًّا مجرَّداً قوامها التفكير الخالص بشأن الله . والله قبل ان يكون تفكيراً خالصاً يجب ان يكون خبرة داخلية تهتز بها جوارح النفس من اعماقها . في هذه الحال يعرف الله مباشرة وتقاس قيمة اية فلسفة بشأنه على ضوء هذه المعرفة المباشرة . فأما ان تقبع في ركنة وتحصر فكرك في امر وتستخرج منه فلسفة عامة فشيء واحدٌ ، واما ان تتناول هذا الامر بالخبرة الغنية المباشرة شيء آخر . ومتى امتزج امر من الامور امتزاجاً وافياً في خبرة الانسان سهل تفهم اسراره الذهنية . لان الذهن عندئذٍ يستضيء بالخبرة الداخلية وينتفع بها ويتخذها محكاً لموضوعاته وتصريحاته

الخبرة الواقعية تُقدّم مادة غزيرة للتفكير ، والذهن يرتبها وينظمها ، فالذهن تنظيم الخبرة وتنسيقها واذا حصرت ذهنك في دائرة حركته شحُبت نفسك وظهر تفكيرك باهتاً لا لون فيه ولا غنىً واقعيّ . كذلك اذا جعلت من حياتك انتقالاً مستمرًّا من خبرة الى خبرة دون ان تفتحي بنفسك هنيهةً للتأمل في هذا الغنى الاختباري ولتنسيقه واستشفاف معناه تكون قد جنيت على كمال نفسك بتضحيتك جانبها الذهني الهام في سبيل جانبها الاختباري الهام ايضاً . هذان الجانبان يجب ان ينسجما ويتعاونا في الحياة الكاملة لان عمل الواحد خلق مادة التفكير وعمل الآخر تنسيق هذه المادة المعروضة . وفي نظرنا ان اهم ما ينقص فلسفة الله العضوية التشديدُ اللازمُ على الخبرة البشرية بشتىّ الوانها . فالله حقيقة يجب ان يخفق القلب لها قبل ان يتناولها العقل بالنقد والتحليل . ومحالٌ ان يتعرّف العقل المجرّد جميع اسرار الله لان العقل المجرّد ليس بكل ما في الوجود . لكن لكل خبرةٍ دينية يجب ان ينتظم تفسير ذهني ينيرُها ويستخلص جميع معانيها وافتراضاتها

***

الدين اليوم في كل الارض بحاجة ماسة الى ثورة فكرية تتناول اسس التفكير فيهِ . واهم هذه الاسس حقيقة الله . فالبحث الجديد يجب ان يعرض لفكرة الله بالنقد الصريح والتحليل النزيه حتى يستقيم التفكير عن الله مع نزعات الحياة الجديدة ومراميها . ويقيننا ان ضرر اهمال الله لا يقل عن ضرر اساءة التفكير فيه ، لان فكرة الله تضمر اعظم ما عرفت البشرية من نعمٍ وخيراتٍ وقيم ، ولان في تصويرها الصحيح خلاص البشرية الوحيد من عبودياتها واضطراباتها وشرورها . وويل دائم للبشرية ان هي اخطأت التفكير في الله . اما اذا عرفت السبيل الى التفكير العلمي الحديث بشأن الله وقيمته فابواب الخير والنعيم مفتوحة امامها . وشرطا هذا السبيل ان يؤخذ القلب بخبرة الله المباشرة والعقل بالتفكير المجرّد فيهِ . عندئذٍ تنفتح امام العقل والقلب ابواب لم تسمع بها اذنٌ ولم يحلم بها شاعر ، وعندئذ يعرف الانسان حقيقة معناه في الوجود

شارل مالك

موت عزرائيل

في الزمان المجهول، في كَنَف الغيـ ب وحيث الرُّجْعَى ،وحيث المقرُّ
حيث تبدو الدنيا كأول عهدٍ أُنشئت فيهِ : بَلْقَعاً لا يَسُرُّ
قد توارى سكانها وتَخلَّوْا فتساوى كوخٌ لديها وقصرُ
لا خرابٌ فيها فينعق بُومٌ أو غصونٌ فيها فينشد طيرُ
لا رياضٌ فيها فترتاح نفسٌ لا زهور فيها فينشُرُ عطرُ
قد توارت أنهارُها ، وتلاشي كلُّ حُسْنٍ منها ، وغيّب سحرُ
ليس َفيها إنس يعيث وجِنٌّ ليس فيها وَحشٌ يجوب ونَسْر
ساحةٌ يخطر السكون عليها لا دبيبٌ ، لا همسةٌ تُستَسَرُّ
لا زمانٌ ساعاتهُ تتوالى فتواري عصراً ، ليعقب عصرُ
أو نهارٌ يمضي ، ليعقب ليلٌ أو ظلامٌ يخفى ، ليطلُعَ فجرُ
سكنت ريحها فليست تدوّي . . . عالَمٌ مائتُ الطبيعةِ صِفْرُ

* * *

نظرُ اللهُ للدُّنى فرآها قد تلاشت آثارها فهي قَفْرُ
مثل رأسٍ في القبر ، كانت قديماً مَهْدَ فكرٍ يغزو الدُّنَى وهي سِرُّ
نام عنها شرٌّ تولّد فيها واختفى غيُّها وكان يغرُّ
وتولّى منها بنوها حيارى لم يفِدْهم جمعٌ هنالك وَفرُ
أسلمَتْهم للجهد والكدِّ حتى أسلمتهم لراحةٍ هي أسرُ
أخرجتهم من ظلمةٍ فإذا هم بعد حينٍ في ظلمةٍ هي شرُّ
أخرجتهم من ضيّقٍ فإذا هم بعد حينٍ في عالَمٍ هو قبر . . .
نظر اللهُ للدُّنى فـرآها ليس فيها إلاّ خيالٌ يمرُّ

«إيهِ ..عزريلَ : هل توارَوْا جميعاً وتلاشَوْا عن هذه...واستقروا؟
واستردّت افلاذها من رَمَتهم ؟. . . » « قد تلاشوا مولاي ، واقض دهرا!»

* * *

« إيه.. عزريلَ! حينُك الآن دانٍ فامضِ واجرعْ ما لستَ منهُ تفرُّ»

* * *

فمضى خاشعاً وفي يده المنجـ ل يهتزُّ اهتزازةً هي ذُعْرُ
حائرَ الطرف في القفار كئيباً أتراهُ من موتِه يقشعرُّ ...!؟
قد أذاق الموتَ الخلائقَ طرًّا فليذقْهُ !...فالموت حلوٌ ومُرٌّ
وترامى تفكيرهُ في نَواحٍ كان يسعى فيها فيُحتَمُ أمرُ
خادعاً يهبط الثرى فإذا في قبضتيهِ : عُمْرٌ ،وعمرٌ ، وعمرُ
محزناً يبعث الأسى حيث حلّتْ قدماهُ فيختفي منهُ بِشْرُ
قد ترامى تفكيرهُ فإذاهُ مبصراً مسرحاً مرائيهِ كُثْرُ . . .
تلك أمٌّ ضمّتْ حشاشةَ قلبٍ بين صدرٍ يخفي الأسى ويُسِرُّ
قد تعالت أنفاسها دعَواتٍ فإذا الموت بالحياة يمرُّ . . .
وكبيرٌ قد عاجلتْهُ المنايا في فتاةٍ بالشيخ كانت تبرُّ
يرتجيها في آخر العمر ذخراً تتولى إغماضَهُ فيقَرُّ . . .
وفتاةٌ غال الردى بذويها فإذاها الى الشقاء تُجَرُّ
وحبيبٌ يشتاق رؤيةَ وجهٍ فإذا الوجه في الثرى مستقرُّ
وأزاهير في الكمائم راحت دون رَيْشٍ ، وفي الأزاهير عطرُ
وبلادٌ اصابها في زعيمٍ كان ترنو اليهِ إن هبَّ شرٌّ . . .
وتوالت رُؤًى ضحاياهُ تبدي صُوَرَ الهول وهو أسوَدُ نُكْرُ
كلُّ هذي الاشباح كانت سراعاً في خيال الموت الكئيب تمرُّ

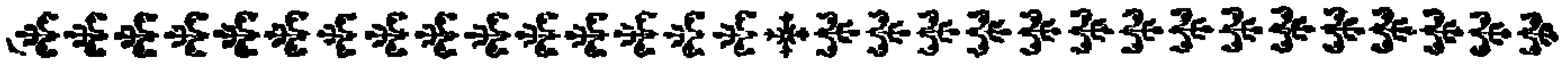
* * *

ثم حان الوقتُ الذي ليس منهُ في محيط الاقدار يوماً مَفَرُّ
فدوّتْ صرخةٌ فمادت لها الأر ضُ وطافت اصداؤها لا تقرُّ
ودوّتْ صرخةٌ فأسلم فيها ملك الموتِ رُوحَه تستقرُّ

حسن كامل الصيرفي



القاهرة تستولي على بغداد



محاولاتها وآثارها

كانت بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري معركة دول مختلفة وأجناس متباينة ومذاهب متعددة متعادية وسياسات متناقضة ، فالعباسيون وخليفتهم عبد الله القائم في سبيل إحياء عزّهم ، والبويهيون وملكهم ابو نصر الرحيم في امر مريج وسياسة مضطربة ، والعرب وامراؤهم الكبار دبيس الاسدي ومهارش العقيلي وأمير خفاجه وغيرهم اولو سلطة ومرّة عظيمتين في العراق ، والسلاجقة وملكهم طغرلبك في قصده الى بغداد والجند من اتراك وفرس وعرب في شغب مستطير مستمر ، والفتن المذهبيّة السنية والشيعية بين اهل بغداد حاملة اوزارها عظيم اوارها ، والناس من هذه البلايا والرزايا في ويل عظيم وعلى شفا هلاك متوقع وغلاء متكرر

وصلت الموجة السلجوقية الى بغداد واستحوذ عليها طغرلبك وتمهدت الطريقة السنية ببغداد وتضاءلت الشيعية وهي مذهب البويهيين المطرودين من بغداد، واستقر الخليفة عبد الله القائم بعد اضطرابه

كان من امراء الاتراك في زمن الملك الرحيم « ابو الحارث ارسلان عبد الله البساسيري » مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة وكان الخليفة القائم يقدّمه على جميع الاتراك وقلده الامور بأسرها وخطب له على منابر العراق وخوزستان فعظم امره وهابته الملوك، وكان وزير القائم رئيس الرؤساء علي بن الحسين المعروف بابن المسلمة فوقع بينه وبين البساسيري شرّ فهرب البساسيري من بغداد وظهر للخليفة القائم تشيّعه وانهُ عازم على قصد بغداد ونهب دار الخلافة بالجانب الشرقي منها والقبض عليه ، فاستنهض الخليفة ابا طالب محمد بن ميكائيل طغرلبك وكان بالري من ايران واستعانه على البساسيري ورغبهُ في المجيء الى بغداد ، وهذا سبب استيلاء طغرلبك على بغداد سنة ٤٤٧ هـ [٢] وقد قدمنا ذكره والاشارة اليهِ

لما سمع البساسيري بانتحاء طغرلبك هرب الى الرحبة [٣] وكاتب صاحب مصر المستنصر بالله معد بن الظاهر لاعزاز دين الله العلوي الفاطمي « ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ » فأمده بالاموال

---

(١) الوفيات « ١ : ٦٥ » وتاريخ السيوطي ص ٤٢٨ (٢) الفخري ص ٢١٥ والسيوطي ص ٤٢٨

(٣) هي رحبة مالك بن طوق وهي بين الرقة وعانة على الفرات انشئت في عهد المأمون

والعدد وحينئذ نهد الى بغداد بجيش من الاتراك وغيرهم ، اما طغرلبك فانه ثار عليه اخوه ابراهيم حاكم بلاد الجبل المعروفة بالعراق العجمي وخطب لخليفة مصر في همذان واصفهان وغيرها وقطع خطبة القائم العباسي وليّ اخيه طغرلبك، وكان ارسلان البساسيري هو الذي كاتب اخا طغرل المذكور وحسن له الخلاف عليه واطمعه في الانتصاب منصبه اذا قهره ودحره، وبانصراف طغرلبك لحرب اخيه بقيت بغداد في يد وزيره عميد الملك [١] ابي نصر محمد بن منصور ، وكانت هذه الحال فرصة للبساسيري ، فانتهى بجيشه الى الانبار وزحف منها الى بغداد تحت الرايات البيض الفاطمية وملك الجانب الغربي منها ، ثم عقد جسراً وعبر الى الجانب الشرقي ونزل بالزاهر وهو بستان جميل عظيم [٢] وحارب جيش الخليفة ودخل بغداد، وبدخوله ابتدأ استيلاء القاهرة على بغداد وانفتح باب في السياسة لم يكن احد يجرأ على فتحه قبل البساسيري [٣]، وكان ذلك سنة ٤٥٠ هـ قال ابن الطقطقي في البساسيري وعن بغداد « تغلب البساسيري على بغداد ونهبها وقتل من بها وأخرج الخليفة فحبسه بقلعة الحديثة وكانت فتنة البساسيري فتنة عظيمة » ثم قال « ثم ظفر بابن المسلمة رئيس الرؤساء فمثل به ، فمن جملة ما فعل بهِ انهُ حبسه ثم اخرجه مقيداً وعليه جبة صوف وطرطور من لبد احمر وفي رقبته مخنقة فيها جلود مقطعة شبيهة بالتعاويذ واركب حماراً وطيف به في المحال ووراءه من يضربه بجلد وينادي عليه ، ورئيس الرؤساء يقرأ « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » وشهره في بغداد ، فلما اجتاز بالكرخ نثر عليه اهل الكرخ المداسات الخلق وبصقوا في وجههِ ووقف به بازاء دار الخلافة من الجانب الغربي ثم أُعيد وقد نصبت له خشبة في باب خراسان (من ابواب مدينة المنصور) فانزل عن الحمار وخيط عليه جلد ثور سلخ في الحال وجعلت قرونه على رأسهِ ، وعلق بكلاب في حلقه واستبقى في الخشبة حيًّا الى ان مات من يومهِ [٤] » اهـ . وقال ابن خلكان «واجتمع قريش (بن بدران العقيلي) مع ارسلان البساسيري المقدم ذكره على نهب دار الخلافة ثم ان الامام القائم بامر الله جرى على سجيته في الحلم وكتب الى السلطان طغرلبك المقدم ذكره في المحمدين ليرضى عنه . . . » وكان ارسلان هذا يعذب بالقنارة ويقتل بها [٥] وهي معروفة عندنا اليوم بالعراق يستعملها القصابون فيعلقون بها الذبائح لها أسنة مربعة محددة معقوفة . وقوله « وعلق بكلاب في حلقه » يوضح صورة التعذيب بها . كان دخول البساسيري فرجة للشيعة ومحرراً لهم من ذلّ الاضطهاد والامتهان ومنهم اهل الكرخ وهم الذين نثروا التاسومات (الاحذية) على رئيس الرؤساء — كما تقدم —

(١) ترجمته في الوفيات « ٢ : ١٨٤ » (٢) ارض هـذا البستان تشمل البلاط الفيصلي الحالي ببغداد وما حوله الى حد واسع (٣) خلاصة الذهب المسبوك ص١٩٥ والفخري ص ٢١٧ والسيوطي ٤٢٨ والوفيات «١:٦٥» و « ٢ : ٢٢٣ » (٤) الفخري (ص ٢١٥ — ٧) (٥) الحوادث الجامعة في المائة السابعة ص ١٢٧ و١٥٠ من نسختنا الخطية

الخطبة للفاطميين ببغداد

ابتدأت الخطبة للمستنصر الفاطمي في مساجد بغداد من سنة «٤٥٠» الى سنة «٤٥١» والجوامع المشهورة إذ ذاك : جامع المنصور بالجانب الغربي ببغداد ويسمى « جامع المدينة » ايضاً اي مدينة المنصور المدورة ، وجامع الخليفة المكتفي ويدعى «جامع القصر» قصر التاج ويعرف اليوم بجامع سوق الغزل ، وجامع المهدي بن المنصور ويسمى «جامع الرصافة» ايضاً بالجانب الشرقي من بغداد ولا أثر له اليوم ولا للرصافة فانها اصبحت بساتين ومزارع وبنى فيها على العهد الفيصلي « جامعة آل البيت » ثم عطلت، وزيد في الأذان « حي على خير العمل »(١) على حسب مقتضى المذهب الجعفري ، وقد أجبرت القاهرة بغداد على تحمل هذه التتمة في الاذان كما أجبر المغرب البلاد المصرية عليها عند استواء جوهر الصقلي فيها (٢) ، وامر ارسلان ببناء مشهد الامامين علي الهادي والحسن العسكري في بلدة سامرا ، قال كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي الشافعي في حوادث سنة « ٦٤٠ » من كتابه « وفيها وقع حريق في مشهد سر من رأى فأتى على ضريحي علي الهادي والحسن العسكري —٤— فتقدم الخليفة المستنصر(٣) بالله بعمارة المشهد المقدس والضريحين الشريفين واعادتهما الى اجمل حالاتهما، وكان الضريحان مما امر بعمله ارسلان البساسيري فجعل النار سبباً لأزالة اسمه ! ! ! (٤) »

ظفر طغرل بك بأخيه ابراهيم فقتله ثم كاتب متولي «عانة» مهارش بن المجلي في رد الخليفة الى بغداد ورجع هو اليها ليخرج البساسيري منها فلما قرب عسكره منها هرب البساسيري الى واسط فلحقه الجيش وحاربوه فأسروه ثم قتلوه وبعثوا برأسه الى بغداد فطيف به في اسواقها وشوارعها ثم علق قبالة « باب النوبي » (٥) وهو الباب الكبير من ابواب دار الخلافة بالجانب الشرقي وعنده يجلس الحاجب الاكبر للخليفة العباسي ، وكان مقتل البساسيري سنة «٤٥١»هـ فكانت مدة استيلاء القاهرة على بغداد والخطبة فيها للمستنصر الفاطمي سنة واحدة كما مر ثم عاد الخليفة القائم الى بغداد وانتعشت الخلافة العباسية بعد تلك الكبوة الشديدة (٦) واخذ الخليفة يتتبع مخالفيه في المذهب فيضطهدهم ويشردهم

كتاب القائم لمحو سنة الفاطميين وغيرهم

كتب القائم الى نقيب الطالبيين بالبصرة السيد يحيى كتاباً صورته « شرف الله مقام الجانب الكريم السيد النقيب الشريف النسيب الحسيني ، بقية البيت النبوي ، محب خليفة الامة ، عضده

---

(١) تاريخ السيوطي ص ٤٢٨ (٢) الوفيات « ١ : ١٢٩ » (٣) هذا المستنصر العباسي لا الفاطمي والفاطمي اقدم منه بكثير (٤) الحوادث ص ٤٩ من النسخة المخطوطة (٥) بضم النون قال ابو عبيدة «اللوبة والنوبة بوزن الكوفة فيهما الحرة وهي حجارة سود ومنه قيل للاسود لوبي ونوبي » (٦) الوفيات « ١ : ٦٥ » والسيوطي ٤٢٨ — ٩

بنصرة السنّة،صالح الاولياء ، علم هُداة العلماء،لا زال عرفانهُ منيعاًوهداه متبعاً ، ما داخل الكلام كيت وكيت وتليت(إنمّا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) نحن نجلك عن الوصايا إلاّ ما يتبرك بذكره ، ويسرّك إذا اشتملت على سرّه ،فأهلك أهلك،راقب الله ورسوله جدّك —ص— في ما أنت عنهُ من أمورهم مسؤول وارفق بهم فهم أولاد أمك وأبيك حيدرة والبتول ، وكف يد من علمت أنهُ استطال بشرفه فمدّ الى العناد يداً واعلم بان الشريف والمشروف سواء في الاسلام إلاّ من اعتدى ، وأن الاعمال محفوظة ثم معروضة بين يدي الله، فقدم في اليوم ما تفرح بهِ غداً ،وأزل البدع التي ينسب اليها أهل الغلو في ولائهم والعلو في ما يوجب الطعن على آبائهم لانهُ يعلم أن السلف الصالح — رض — كانوا منزهين عما يدعيه خلف السوء من افتراق ذات بينهم ويتعرض منهم اقوام لما يجرهم الى مصارع حينهم،فللشيعة عثرات لا تقال من اقوال لا تقال ، فسدّ هذا الباب سدّ لبيب واعمل في حسم موادهم عمل أريب ، وقم بنهيهم والسيف في يدك قيام خطيب ، وخوفهم من قوارعك مواقع كل سهم مصيب ، فما دعا « بحيّ على خير العمل » خير من الكتاب والسنة والاجماع فانظم في نادي قومك عليها عقود الاجماع ،ومن اعتزى الى اعتزال أو مال الى الزيدية في زيادة مقال وادعى في الأئمة الماضين ما لم يدعوه أو اقتفى في طرق الامامية بعض ما ابتدعوه ، او كذب في قول على صادقهم أو تكلم بما أراد على لسان ناطقهم ، وقال : إنه يلقى عنهم سرّا حسُنُوّا على الامة بلاغهُ، وذادهم عن لذّة مساغهُ ، أو روى عن يوم السقيفة والجمل غير ما ورد اخبارا ، أو تمثل بقول عبد شمس : قد أوقدت لبني هاشم نارا ،أو تمسك من عقائد الباطن بظاهر أوقال: إن الذات القائمة بالمعنى تختلف في مظاهر ، أو تعلق له بأئمة الستر رجاء (١) ، أو انتظر مقيماً برضوى عنده عسل وماء(٢) ،أو ربط على السرداب فرسه لمن يقود الخيل يقدمها اللواء ، وتلفت بوجهه يظن عليّا — ك — في الغمام،أو تفلّت من عقال العقل في اشتراط العصمة في الامام، فعرفهم جميعاً أن هذا من فساد أذهانهم وسوء عقائد أديانهم ، فانهم عدلوا في التقرّب بأهل هذا البيت الشريف عن مطلوبهم ،وان قال قائل : إنهم طلبوا ، فقل لهم(كلاّ بل ران على قلوبهم ما كسبوا) وانظر في امور أنسابهم نظراً لا يدع مجالاً للريب ، ولا يستطيع معهُ أحد أن يدخل فيهم بغير نسب ،ولا يخرج منهم بغير سبب، وساوِ المتصرفين في اموالهم في كل حساب واحفظ لهم كل حسب وأنت أولى من أحسن لمن طعن في أسانيد الحديث الشريف او تأوّل فيهِ على غير مراد قائله —ص— تأديباً (٣) ، وأرهم ما يوصلهم الى الله والى رسوله طريقاً قريباً،

(١) نوه بالخليفة هنا وعرض بالامامية الاثني عشرية الذين يقولون : غاب الامام الثاني عشر محمد بن الحسن وسيظهر ويملأ الارض عدلا وهداية (٢) اشار الى الشيعة الكيسانية المختارية التي قيل إنها ادعت غياب محمد ابن علي بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية في رضوى وانه سيعود (٣) اراد: أنك أحق بتأديب هؤلاء المبتدعين تأديباً حسناً كاملا

وخلّ من علمت أنهُ قد مال عن الحق وأمال الى طريق الباطل فرقاً وطوى صدره على الغل وغلب من أجله على ما سبق من علم الله من تقديم من يقدم حنقاً ، وجاروا — وقد اوضحت لهم طريقته المثلى طرقا ، واردعهم إن تعرضوا في القدح لنضال نصال وامنعهم فان فرقهم كلها — وان كثرت — خابطة في ظلام ضلال ، وقدّم تقوى الله في كل عقد وحل ، واعمل بالشريعة الشريفة فانها السبب الموصول الجبل ، والله يرفعك في الزلفى الى اشرف محل ويمدّ لك رواق عز اذا ابرز له البرق خدّه خجل ، أو مدّ الغمام معهُ سرادقاته اضمحل (١)

وبعد دخول هولاكو بغداد سنة « ٦٥٦ هـ واستيلائه على العراق صارت القاهرة ملجأ الاسلام الأعظم وملاذ العلماء والأمراء المضطهدين ومأمن الخائفين الهاربين فكان لها ومن صريح حقوقها أن تستولي على بغداد التي استئصلت منها الخلافة العباسيّة تلك الخلافة الدينيّة الرسميّة ، وأصبحت تراثاً لأبناء العبابسة ولا سيّما من التجأ منهم الى مصر التي كان يحكمها الأتراك مماليك الأيوبيّة وكان ذلك العهد عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس « ٦٥٩ — ٦٧٦ » هـ وكان على شيء هائل عظيم من القوة والسيطرة والعظمة واعداد الجنود والعتاد ، فالتجأ اليه « أبو القاسم أحمد بن محمد الظاهر بأمر الله العباسي » هرباً من سيوف التتر وكان معتقلاً ببغداد — على عادة الخلفاء في أقاربهم — فركب الظاهر للقائه ومعه القضاة وبقية أرباب الدولة فاشتق بسيره القاهرة ثم أثبت نسبه على يد قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ثم بويع بالخلافة وذلك سنة « ٦٥٩ » هـ ونقش اسمه على السكّة (٢) وخطب له ولقب بلقب اخيه المنصور بن الظاهر وهو « المستنصر بالله » وتم امره وتثبت استخلافه الصُوري

ازداد طمع القاهرة في بغداد بهذا الخليفة العباسي وارث الخلافة العباسيّة وعزم الخليفة او اعزموه على التوجه الى العراق واتفق مع عزمه عزم صاحب الموصل الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ وأخيه علاء الدين بن بدر الدين صاحب سنجار والمغول اللائذين بالملك الظاهر من غدر التتار ، فجهز السلطان الخليفة وابني صاحب الموصل وغرم عليهِ وعليهم « مليون دينار » و « ٦٦ » الف درهم فنهد الخليفة بعسكره الى العراق ففتح الحديثة وهيت منه وكادت القاهرة تستولي على بغداد ولكن عسكر التتار أدركهم فصافّهم فقتل من جيش القاهرة جماعة كبيرة وذُهِبَ بالخليفة المستنصر بين سمع الأرض وبصرها ، قيل قُتِل وهو الظاهر ، وقيل : أضمرته البلاد ، وذلك في ثالث المحرم من سنة « ٦٦٠ » هـ وكان المقاتل له من

(١) صحاح الاخبار (ص ٧١ — ٢ — ٣) والتبث المصان

(٢) وجد أحد العمال في ٥ مارس سنة ١٩٣٢ بارض دار من دور القاهرة قدرين مملوءتين من هذه النقود منها « ١٥٧ » نقدة ذهبية ، وقد قرأنا قطعة منها فوجدنا ما صورته « لا اله الا الله محمد رسول الله الذي ارسله بالهدى » وعلى الوجه التالي السلطان الملك الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس قسيم أمير المؤمنين» فهي مسكوكة بعد سنة « ٦٥٩ هـ »

التتار « قرابغا » نائب هولاكو ببغداد [١] ولم تهيء الاتفاقات للقاهرة الاستيلاء على بغداد هذه المرّة

كان العراقيون قد سمعوا بتجديد الخلافة العباسيّة ومنهم من علم بمهاجمة الخليفة لعسكر التتار ، فهوت أفئدتهم الى القاهرة وركنت ثقتهم اليها ولا سيّما الناقمين على التتار ، وانفتح للقاهرة طريق شرعي وسبب ثأري للاستيلاء على بغداد ورجعها الى خلفاء العباسيين ظاهراً وسلطنة المماليك حقيقة ، وأحسّ التتار بهذا الشعور في العراقيين وذلك العزم والطوية من المصريين فطفقوا يؤاخذون الناس على الظنة ويعاقبون بالفتنة ويقتلون بالشبهة ويسرفون في العقوبة باضعف الأدلة ، ففي سنة « ٦٧٧ » هـ أرسل السلطان « أباقا بن هولاكو » إزعاج والي العراق «علاء الدين عطا ملك الجويني» الى الأردو (المعسكر) مقر سلطنته لاستنطاقه عمّا نسب اليهِ من مكاتبة سلطان مصر الملك المنصور قلاوون الألفي في اطماعهِ في العراق والانتقاض على التتر وقبض على شرف الدين علي بن أميراك كاتب الانشاء ببغداد وطوّق بطوق من حديد وأشخص مع الوالي وقبض على حمزة التكريتي التاجر وطوّق وازعج معهما إلى الأردو ، وكان سبب هذه التهمة أن رجلاً من أهل بغداد يعرف بنجم الدين بن حسين ويلقب بالكيباية اتصل بخدمة شحنة بغداد « تتارقيا » التتري واتخذه لنفسه هو وابن بغا الشرابدار جاسوسين على والي العراق علاء الدين الجويني، فاتفق احمد بن بغا الشرابدار ونجم الدين الكيباية على ان نسبا أكابر اهل بغداد الى مكاتبة سلطان مصر قلاوون المذكور باتفاق علاء الدين معهم وتحدث الكيباية بذلك عند الامراء والحكام فأحضروا والي العراق وصاحب الديوان علاء الدين المذكور وجماعة من الاكابر الذين نسبهم الى المكاتبة — وقد ذكرنا منهم شرف الدين علي بن أميراك والتاجر حمزه التكريتي — واستعاد الامراء كلام الكيباية ، فقال اشياء كثيرة ، فطولب بالبرهان على صحتها ، فلم يقدر على ذلك ، فلما شدّد عليهِ وضويق قال: إني كاذب في كل ما قلته والذي بعثني على الكلام نصرة الدين بن ارغش واخوه وولده ، فأحضروا وسئلوا عن ذلك ، فاعترفوا بهِ وقالوا : إن تتارقيا الشحنة وضع القائل على ما قاله فأمروا بحبس الجميع ، وأُحضر أحمد بن بغا الشرابدار ، وسئل عن الحال فاعترف بها ، فسلم الى صاحب الديوان علاء الدين فأمر بحبسه فحبس اياماً ثم عملت له حجلة وسمّر عليها وجعل على رأسهِ مسخرة كان ببغداد يعرف بالموصلي يصفعهُ بنعل ويروّحهُ بها ثم يبول عليهِ والناس يجرّون الحجلة بالحبال في الاسواق والدروب في جانبي بغداد ،وكانوا يحبون صاحب الديوان،

(١) مختصر ابن الساعي لرجل من اهل القرن الثامن للهجرة ص ١٣٩ ومثله ما في ص ٤٨٩ من السيوطي وص ٤٩٢ من مختصر الدول وص ٨٥ من الاعلام باعلام بيت الله الحرام وص ١٨٣ من القرماني وص ١٢٧ ج ٢ من دول الاسلام

فأخذ يسب الصاحب ويبسط لسانه فيه ، فنفذ اليهِ من قال له : إن الصاحب قد عفا عنك وامر بتخليصك من الحديد على ان يقطع لسانك فان آثرت ذلك فاخرج لسانك لنقطعهُ ، فأخرجهُ فوضعوا فيهِ مسلـه فنعهُ من الكلام هذا الشكل ، وما زالوا يعذبونهُ بجر الحجلة واضطرابها الى آخر النهار ، ثم قطع رأسهُ ووضع مكانه رأس معز بلحيته وطيف بهِ في بغداد واحرق العوام جثته ورفع رأسه على خشبة وطيف ايضاً بهِ ، ثم ان نصرة الدين بن أرغش المذكور احضر بدويّا واعطاه كتباً ملصقة وأشار اليهِ ان يقول. هذه سلمها اليّ صاحب الديوان علاء الدين ، فلما قال ذلك أخذ وحبس، أما الكيباية فقال : إن الامير فخر الدين مفدي بن قشتمر كان ايضاً ، من جملة الجماعة الذين كاتبوا سلطان مصر فأحضر وسئل عن ذلك فأنكر، فوكّل بهِ ، ثم قال الكيباية : ان العدل جمال الدين احمد بن عصية هو كان يكتب عن مفدي ، فاحضر وسئل فأنكر فوكل بهِ ، ثم إن الصاحب عرف صدق العدل جمال الدين وبراءة ساحته فافرج عنهُ وخلع عليهِ وقدم له مالاً ولم يزل الكيباية والبدوي في السجن الى ان اشخص علاء الدين الى أردو السلطان اباقا بن هولاكو فاخذهما صحبته ، وهناك استنطقوا الجميع عن هذه التهمة فظهر كذب المدعين وبراءة ساحة الصاحب ، فأمر أباقا خان بقتل الكيباية وأنفاذ يديهِ الى بغداد ورأسه الى بلاد الاناضول ونادوا في الاسواق «هذا جزاء من يقدم على عبيدنا المخلصين بالزور والالتباس ، «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» وسلم أصحاب الوالي علاء الدين معهُ وعزل تتارقيا مدير الشرطة ببغداد. وفي سنة «٦٩٢» هـ عزم الملك الاشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون الالفي سلطان مصر على المسير الى العراق وتجهز وعمل السلاسل ومروساً من القنب لأجل الجسر ثم برز من القاهرة الى الصالحية في آخر هذه السنة فافسد الامير بيدر بن كتبغا عليهِ الامراء منهم حسام الدين لاجين وكتبغا ، فقتلوه يوماً وهو يتصيّد وشرقت القاهرة بهذه الشربة التي ذهبت لذتها بحسد هؤلاء الامراء ، ويظهر لنا ان الملك الاشرف قد استعد لهذه النهدة استعداداً عظيماً ، ففي سنة « ٦٩٢ » المذكورة وثب رجل على نقاچو امير المسلحة التتري بالعراق ، على رأس الجسر العضدي ببغداد وضربهُ بحجر عدة ضربات فقتله بها واشتدَّ يعدو هارباً، فدَّ له رجل اصبهاني رجله على الجسر فسقط، وقبض عليهِ فجعل يقول « فداء الملك الاشرف ، فداء الملك الاشرف» فسلم الى ابن نقاچو التتري فنكّل به وقطع أطرافه وهو حي ثم كسر ظهره فلم يستغث ولا تأوّه ثم قال لقاتله : يامخنث إنّك لم تصنع شيئاً إلا وهو دون ما كان في نفسي فاصنع ما شئت فقتله وألقاه في المكان الذي قتل فيه أباه ، فقول هذا الرجل « فداء الملك الأشرف » يدل على أن الملك الأشرف صلاح الدين خليلاً أرسله الى العراق قبل جيشه ليغتال أمير المسلحة فيضطرب الأمن ويهتبل هو الفرصة للاستيلاء على بغداد

ومن ضحايا محاولات القاهرة للاستيلاء على بغداد « العدل نجم الدين يحيى بن عبد العزيز الناسخ » فقد نسب اليه في سنة « ٦٦٩ » هـ مراسلة الملك الظاهر بيبرس في الاستيلاء على بغداد ، فحُبِس وقُرِّر فاعترف بذلك فأمر بقتله وكان على ما قيل فاضلاً ورعاً تقيًّا (١)

وفي آخر القرن الثامن للهجرة تهيأ للقاهرة أن تبسط سلطتها في بغداد وأن تضرب سكتها باسم سلطانها « برقوق بن أنص الجركسي » وتخطب له على منابرها وتعترف بسيادته، وجليّة ذلك ان سلطان العراق « أحمد بن أويس بن الشيخ حسن » التتري الجلايري من سلاطين « الشيخ حسنية » وسلطنته حدثت بين « سنة ٧٨٤ » هـ وسنة « ٨١٣ » هـ كان قد غزاه « تيمورلنك » سنة « ٧٩٥ » هـ وهو في بغداد فهرب على طريق مشهد الحسين بن علي — ع — بكربلا ثم وصل الى رحبة مالك بن طوق ثم تحوّل الى حلب ونزل الميدان فأكرمه نائبها وطالع السلطان « برقوق » بخبره فأذن له في دخول القاهرة في سنة «٧٩٦» هـ ووصل السلطان أحمد الى القاهرة في شهر ربيع الاول من السنة فتلقاه الأمراء وخرج اليه السلطان برقوق مسافة الى موضع كان فيه مصطبته ، فترجل له السلطان أحمد على بعد مئة سهم فأمر برقوق الامراء بالترجل ثم لما قرب منه قام له ونزل من المصطبة ومشى اليه فالتقاه، وأراد احمد ان يقبل يده فامتنع ، وطيب خاطره وأجلسه معهُ على دسته ثم خلع عليهِ وأركبهُ صحبته الى القلعة فأنزله في بيت (طغاغر) على بركة الفيل ونزل جميع الامراء في خدمته ثم ارسل اليه السلطان برقوق مالاً كثيراً وقماشاً ومماليك لخدمته ، قيل : ان قيمة ذلك نحو عشرة آلاف دينار ذهباً ثم حضر الموكب السلطاني فاذن له في الجلوس ثم أركبه معه الى الجيزة للصيد وانتهى الامر به الى ان تزوج السلطان برقوق بنت اخيهِ «دوندي سلطان» وبنى عليها قريب السفر ثم تجهز برقوق للغزو وبقي احمد في القاهرة وبعد مدة طلب إجازة التوجه الى بغداد لخلوّها من تيمورلنك وكان فيها « الخواجه مسعود الخراساني » نائباً عنهُ ، فاستعد بجيش وقصد بغداد فهرب منها الخواجه مسعود المذكور ودخل السلطان احمد بغداد وضرب السكة باسم السلطان برقوق وخطب له — كما تقدم آنفاً — وبقيت بغداد في حماية القاهرة ورعايتها الى سنة «٨٠٣» هـ اذ رجع تيمور اليها وهرب السلطان احمد منها وترك فيها نائباً اسمهُ «فرج» فاستولى عليها تيمور (٢) وانقطت سلطة القاهرة بدخوله

فما بسطناه للقارئ يظهر له استيلاءات القاهرة على بغداد ومحاولاتها لتلك وآثار هذه المحاولة ، وللطافة هذا البحث أفردنا له هذا الفصل الذي يعد مستقلاً مستوجباً للعناية والالتفات والتحبير والاثبات

بغداد — مصطفى جواد

(١) هذه الاخبار الاخيرة من الحوادث الجامعة في المائة السابعة (٢) التاريخ الغياثي المخطوط لعبد الله ابن فتح الله البغدادي

علاقة جوته بشلر

١٧٩٤ — ١٨٠٥

بعد ما تقابل الشاعران الكبيران لاول مرة سنة ١٧٧٩ في مدينة كارل شوله Karlschule عادا فتقابلا ثانية سنة ١٧٨٨ بمدينة رودلفشتادت Rudolfstadt. ولكن بعد ما بينهما فان جوته كان قد نأى عن طريقته المعروفة بطريقة العواصف والاندفاع (Sturm & Drang) عقب سياحته في ايطاليا بينما كان شلر لا يزال عالقاً بها. لهذا لم يمل جوته لمؤلفات شلر في شبابه التي من هذا القبيل حتى ان كانت سنة ١٧٩٤ اذ تقابل الشاعران وتقرب احدهما الى الآخر وسرعان ما تمكنت عرى الصداقة بينهما تمكناً قل ان تجد لهُ مثيلاً في تاريخ الادب الالماني . وقد لبثا يتراسلان بكتب بينهما لا ينقطع ورودها ثم انهما كانا يتقابلان كل يوم تقريباً لما انتقل شلر الى فيمار سنة ١٧٩٩ وكانا يتبادلان الآراء بينهما ويشتركان في التفكير والتدبير لبعض آثارهما الشعرية كما كانا صريحين في انتقادهما وأحكامهما وكانا يتنافسان منافسة كلها النبل والشرف. وقد كانت طرق تفكيرهما متباينة فقد كان جوته من انصار مذهب الحقيقة وكان يبدأ بالخاص من الاشياء وينتهي الى العام منها بينما كنت ترى شلر من عشاق المثل الاعلى وكان يذهب في كتاباتهِ الى اقصى ذرى افكاره وكان ينزل من العام الى الخاص . وكانت طبيعة روحيهما اللينة تتكامل في النهاية على احسن ما يكون. وقد قال جوته معبراً عن ذلك تعبيراً خاصًا : انهما اتحدا اتحاد التكملة (اعني ان احدهما يكمل الآخر اي يتممه). وقد كان من بواكر تلك الصداقة ان اصدر شلر مجلة (die Horen) (أي آلهات فصول السنة) سنة ١٧٩٤ ودعا صديقه جوته للاشتراك معه في تحريرها فاخذ ينشر فيها ما كان قد انشده من قبل من (المراثي الرومانية) . ثم انضمت مجلة اخرى اليها واتحدت فيها وكان الغرض من اتحادهما ان يهذبا من ذوق الجمهور وان يرفعا من شأنهِ ولو ان النتيجة لم تحقق ذلك الغرض الذي قصدوا اليه .فقد صادفت الاشياء المبتذلة والساقطة استحساناً وقبولاً فاتفق الشاعران على ان يؤلفا محكمة لعقاب كل من اعتدى على الآداب (آداب اللغة) في عصرهما وكان جوته هو اول من فكر في ذلك وكان اول من نشر في المجلة ما نشر. وجدًّا الشاعران في عملهما ونشرا في ذلك القصائد العديدة والقطع الكثيرة وفي نقدهما لكل تافه او قليل القيمة في الادب

وقد اثار عملهما هذا عاصفة هوجاء وعظم امر ذلك على خصومهما وكثرت الردود ولم تهدأ تلك العاصفة الاَّ بعد زمن طويل. وبعدئذ اخذا في نشر أغانٍ جميلة وقصص شعرية بديعة نذكر منها(صبي الساحر) و(الحافر على الكنز) و (الزوجة من كورنت) و(الله)و(القاهرة) وكلها لجوته

وتباين مذهب الاثنين وعاد جوته لشعر المآسي وقصص الابطال والملاحم النظمية . فاتمَّ في سنة ١٧٩٦ (ايام تعليم فلهلم مايستر) وهو عنوان رواية كان الشاعر قد بدأها قبل سياحته

في ايطاليا .على ان اشتغالهُ بكتابة القصص الروائية سنين متوالية الحق الضرر بالوحدة الفنية لمجموعها . وتراه يأتي على وصف النبيل ورقيق الحال كما يصف اصحاب كل الحرف المتباينة وصفاً يطابق الحقيقة والواقع . وتلحظ من قصصه ما كان عليهِ من معرفة كبيرة بشؤون الحياة وتجاريبها وتعمقه في فهم الفنون وتقصيها كما تلمح فيها كل قوانين فن المآسي التي راعاها شكسبير في (هاملت) . وكذلك عالج بعض اسس التربية والمسائل الدينية ثمَّ ان الجمعيات والفرق السرية التي كانت منتشرة في المانيا في ذلك الحين لم تسلم من تهكمهِ وسخريته وكذا تراه يعرض امامنا صورة واضحة كل الوضوح زاهية الالوان للحياة فترى في القصص الروائية سلسلة من صور الاخلاق والشخصيات التي قد اجاد رسمها وبيانها ايما اجادة

وفي سنة ١٧٩٧ اظهر مؤلفاً من خيرة ما كتب في دائرة الملاحم وقصص الابطال الحماسيين ونعني بذلك : Das liebtätige Gera gegen die Salzlbrugischen Emigranten ومعناها « احسان مدينة جيرا لمهاجري سلزبورج »

وهي قصة حدثت بين ابن اسرة ثرية سرية واحدى المهاجرات الافاقات . ومن تلك القصة اخذ مادته لملحمته الشعرية (هرمان ودوروتيا Hermann & Dorothea) وقد وصف فيها الشاعر حياة اسرة من صميم الالمان . ولكي يجعل لقصيدتهِ هذه مرجعاً هاماً جعل حوادثها الماضية كأنها حدثت في عصر الثورة الفرنسية وارجع اصول المهاجرين المطرودين من متبعي مذهب لوثر من سكان سالزبورج كأنهم من سكان الحدود الفرنسية . ويرفرف على كل القصة الروح الوطنية فيريك الطبيعة الالمانية والفضائل الالمانية والعادات الالمانية ويصورها لك تصويراً حسناً . ويسود القصيدة من اولها الى آخرها الوضوح التام وحب الحرية من كل المطاردين والمضطرين ثم اننا نرى فيها ما نرى في الحياة الصحيحة من وصف للمعيشة الالمانية وما يحدث فيها بين الابناء ووالديهم وكما نراها في المدن وبين اوساط الناس

ولما اتم تلك القصيدة الحماسية المذكورة ساح الشاعر سياحتهُ الثالثة في السنة عينها في سويسرا وكتب هناك قصيدة اويوفروزيني « Euphrosyne » وقد كتبها رثاءً وذكرى لاحدى ممثلات ڤيمار المعدودات وكانت قد توفيت في سن العشرين واسمها كريستيان نويمان Christiane Neumann وفي اثناءِ تلك السياحة بدأ يفكر في انشاد ملحمة جديدة يسميها « فيلهلم تل » ولكنه سرعان ما عدل عن فكرته وبينا كان شلر يخرج للناس كل يوم شيئاً جديداً من مؤلفاته في المآسي العظيمة في اواخر القرن الثامن عشر ومستهل القرن التالي كان جوته قليل الثمر نادر النشر والاذاعة عن مبتكرات فهمه وعصير ذهنه ولكنه كان قد اتم الجزء الاول من (فوست) وترجم من مؤلفات ڤولتير تمثيلية (محمد) وتنكرد (Tancred) لمسرح ڤيمار واتم الجزء الاول من (البنت الطبيعية Diee natürlich Tochter)

علي مظهر

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

علاقة فينيقية بمصر

— ١ —

اثباتها بحوادث التاريخ الى عهد الفتح العربي

اصل الرعاة

الرعاة (هيكسوس) اول حلقة من سلسلة العلاقات الوثيقة التي ربطت فينيقية بمصر من اقدم عصور التاريخ الى اليوم. وهم قوم ينتسبون الى السلالات الفينيقية الاولى وبعبارة اخرى هم اخلاط من البدو المتنقلين بين سورية وبلاد العرب ومعظمهم من الكنعانيين وهو مذهب ماريت باشا . والرأي الراجح فيهم انهم من قبائل سامية وكنعانية جاءوا من ارض كنعان وسورية وبلاد العربية واجتازوا فلسطين الى مصر . والامة الحثية هي التي جمعتهم في عهدة واحدة فانضووا تحت رايتها وتولت قيادتهم . وقد وجدوا في هيكل سمنه «تاميس» صحيفة قديمة ترمز الى هذه العهدة . ووجدوا في منطقة قرنه من اعمال مصر صحيفة اخرى استدلوا من رسومها على ان الحثيين هم الذين قادوا الرعاة في غزوتهم لمصر السفلى . وهذا ما يجلو لنا السر في حصر الفراعنة لاعمالهم الحربية في ما يلي من الزمن في شمال سورية موطن الحثيين اذلالاً لهم وانتقاماً منهم

عصر الرعاة في مصر

اجتاح الرعاة مصر السفلى بين القرنين الحادي والعشرين والعشرين وانشأوا فيها دولة قوية حكمت ٥١١ سنة على قول يوسيفوس و٥١٨ على قول غيره من المؤرخين

وغزوة الرعاة لمصر كانت نتيجة طبيعية للانقلاب الذي احدثته في العالم القديم فتوحات الشعوب الاسيوية ولا سيما العيلاميين الذين ضايقوا الكنعانيين وسدوا عليهم منافذ الرزق ففرّت بعض قبائل منهم من وجه الغزاة وما زالت تتنقل من مرحلة الى اخرى في طلب الاستعمار حتى وصلت الى مصر واوغلت في ارض الدلتا وبسطت سلطانها عليها

وقد اتهم بعض المؤرخين هؤلاء الرعاة بانهم ارتكبوا في غزوتهم هذه لمصر كثيراً من المظالم كسبي النساء والاطفال ودك الهيا كل وحرق المدن غير ان هنالك من الادلة التاريخية ما يثبت انهم ابقوا على الهيا كل والآثار ولم يدكوا او يحرقوا الاَّ ما قضت عليهم ضرورة الفتح بدكه او حرقه من المدن والحصون بدليل انهم عثروا في «تانيس» المناوحة لدمياط وفي تل البسطة «بوبست» قرب الزقازيق بتماثيل وآثار للملوك تقدموا عصر الرعاة ولم يعبث هؤلاء بها

والرعاة انشأوا في مصر السفلى كثيراً من المدن نظير آفارى «مدينة المهاجرين او الهاربين» شرق السويس وكانت حصينة جداً ومدينتي تانيس وبوبست وكانتا عاصمتي ملكهم . واقاموا ابنية فخمة لا تزال آثارها شاخصة الى اليوم ونقشوا اخبارهم واسماءهم على هذه الابنية وعلى الآثار المصرية الاولى

* * *

وفي عصر الرعاة انشأ الفينيقيون في مصر السفلى كثيراً من المستعمرات التجارية كانوا يأتون اليها بسلعهم ومصنوعاتهم ويحملون تجارة مصر على سفنهم الى الاقطار الاسيوية . وامتدت متاجرهم على طول السواحل الافريقية المقابلة للساحل الاوربي من اطراف مصر شرقاً الى جبل طارق غرباً . واقتبس المصريون شيئاً كثيراً من اخلاقهم وعلومهم واخذوا عنهم صناعات كثيرة كانت ذائعة عندهم . وباتصال الفينيقيين بالمصريين في عصر الرعاة اتصل نفوذ فينيقية الى مصر قبل ان يتصل نفوذ مصر الى فينيقية ولاسيما فيما يتعلق بالصناعات والدين والآداب

وفي عهد الرعاة هجر يعقوب حفيد ابراهيم الخليل حبرون في ارض الخليل مع عشيرته الى مصر حيث انضم الى ابنه يوسف كبير وزراء ابابي آخر ملوك الرعاة واشهرهم وكان اباً للشعب الاسرائيلي الذي اقام في مصر اربعة قرون

على ان اكتساح الرعاة لمصر السفلى وانصرافهم الى تعزيز دولتهم فيها ايقظ ملوك الصعيد الوطنيين من غفلتهم وما برحوا منذ ما رسخت قدم الغزاة في ارضهم يجاهدون في تعزيز مقامهم الى ان آنسوا من انفسهم القوة فهبوا لمناهضة الرعاة ووقعت الحرب بين الدولتين وطال اجلها ولا سيما الحرب الاخيرة التي ترجع الى اسباب دينية وقد ظلت سجالاً بين الدولتين اكثر من مائة عام حتى قام احمس الاول مؤسس الدولة الثامنة عشرة من دول الفراعنة فحاصر آفارى عاصمة الرعاة باربعمائة وثمانين الف مقاتل ولكنه عجز دونها فصالحهم على ان يجلوا عن مصر آمنين فخرجوا منها في مطلع القرن السابع عشر قبل الميلاد الى اليهودية ولم يستطيعوا تخطيها لان الاشوريين كانوا قد بسطوا سلطانهم على الديار الشامية وظل قوم من الرعاة في مصر الشرقية يحرثون الارض ولا سيما في القرى الواقعة حول بحيرة المنزلة . وبخروج الرعاة من مصر رسخت سلطة الفراعنة في سائر البلاد المصرية

عصر الفراعنة في فينيقية وسورية

لما اشتدَّ ساعد المصريين واستتب لهم الامر في بلادهم تطالت اعناقهم الى التوسع في الملك واخذوا يترصدون الرعاة غزاتهم في الامس ليثأروا لانفسهم منهم باكتساح بلادهم والانتفاع بثمار الفتح . وكانت سورية في ذلك الحين ميداناً يتبارى فيه ملوك الجزيرة الفراتية احرازاً لسيادة ممالكها الآمنة فكانت هذه المباراة باعثاً للفراعنة على التحفز لمنافسة الممالك الشرقية والقضاء على بابل والتسلط على هاتيك الاصقاع متوسلين بما شهدوا من التنافس بين ممالك سورية الصغيرة المتخاذلة وتهافتها على استنجادهم والتماس عونهم الى التعرض لشئونها تظاهراً منهم بالتوفيق فيما بينها او بردّ غزاة المشرق عنها على نحو ما فعل الرومان وسواهم من طلاب الاستعمار بعد ذلك بحقبة من الدهر اذلالاً للامم الشرقية والتسلط عليها . وهكذا شهرت الدولة المصرية على آسيا حرباً عواناً وثبتت على مناوأة سورية ومنازعة الممالك الشرقية السيادة فيها خمسة قرون كاملة اي من القرن السابع عشر الى اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد حيث ابتدأ عصر الاستقلال الوطني في سورية

على ان الفاتحين المصريين قاسوا الشدائد في اخضاع ملوك سورية لما كان هؤلاء عليه من النزوع الفطري الى الاستقلال ومن اولئك الفاتحين من افنى سني ملكه في مقاتلة العصاة في سورية ورد الممالك الكنعانية الى طاعة مصر نظير طوطمس (تحوتمس) الثالث وساتي الاول ورعمسيس الثاني ورعمسيس الثالث . وقد تتبع الفاتحون في غزواتهم طريقاً واحداً فكانوا يجتازون بلاد كنعان الاصلية الى مدينة مجدّو الحصينة ومن هناك يجتازون الوهاد فوق بحيرة طبرية في جوار قدس « بحيرة الحولة » ومنابع الاردن عند مدينة لاييش ثم يسيرون في المضايق عند سفح حرمون الغربي ولبنان الشرقي ثم يمرون على وادي الليطاني الذي كان وقتئذ بحيرة كبيرة ثم على بعلبك فوادي العاصي الى ان يصلوا الى قدس الكبيرة وهي حمص وحماة ثم يدخلون في البادية سائرين الى قرقيسياء وهناك يعبرون الفرات الى الجزيرة الفراتية

اما مملكة صيدون فقد والتهم وحالفتهم واقتفت اثرها مملكتا بيروت وجبيل فحفظوا لها استقلالها الداخلي ولذلك فان معظم الضرر الذي نشأ عن غزوة مصر لسورية وما بين النهرين لحق البلاد الكنعانية والآرامية الواقعة بين مصر وآسية . ولم ينل فينيقية والمدن الساحلية منه في بادىء الامر الاّ القليل لان الفينيقيين والوا اولئك الفاتحين فتجنبوهم وسلكوا في غزواتهم طريق الشرق على نحو ما بيّنا في ما تقدم

وكان الفراعنة في غزواتهم يكتفون ببسط سيادتهم العليا على البلاد التي يفتتحونها في النياز السورية والاسيوية لعجزهم عن اخضاعها تماماً ولعدم وثوقهم من ثباتها على ولائهم

وقتاً طويلاً فيفرضون عليها خراجاً سنويًّا ويجندون جماعة من اهلها ويربّون في مصر خلفاء ملوكها ويأخذون منها رهائن ويقيمون حاميات عسكرية في مدنها لئلا تخلع نيرهم وتمالىء عداتهم عليهم . وكانت حكومة البلاد الخاضعة لمصر مماثلة لحكومة الاقطاعات تتمتع باستقلالها الداخلي التام ويتولاها حاكم من اهلها يلقب بملك . وكان الفراعنة يحافظون على شرائعها الوطنية ويحترمون عادات اهلها وتقاليدهم ودياناتهم ويطلقون لها الحرية في مسالمتهم او ابرام معاهدة معهم يتبادل الفريقان بمقتضاها المنافع السياسية والتجارية والاقتصادية

محالفة فينيقية ومصر

وقد اثبت المؤرخون انهُ كان بين فينيقية ومصر معاهدة تقضي على الفريقين بالتآزر والتعاون في الخطوب والملمات . فكانت صيدون عاصمة فينيقية لا تتعرض قط للفراعنة في غزواتهم للاقطار الاسيوية . وكان اسطول صيدون رهن اشارتهم لينجدهم في غزواتهم ويسير بجندهم لجباية الجزية من الجزر والاقاليم الساحلية ولها في مقابل ذلك تعزيز الاسطول بالجند المصري ومعدات الحرب . وقد اقام الصيدونيون على مسالمة الفراعنة حقبة طويلة من الدهر فسالموا الدولة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين ولا سيما في عهد طوطمس الثالث الذي انشأ عمارة بحرية عهد اليهم في قيادتها وتعهدها بالعناية اللازمة وهكذا في ولاية رعمسيس الاول مؤسس الدولة التاسعة عشرة وابنه ساتي الاول ورعمسيس الثاني . واستمرت الصلات مستحكمة الحلقات بين مصر وعاصمة فينيقية الى عهد الدولة السادسة والعشرين فان هذه الدولة استخدمت الصيدونيين في عماراتها البحرية لانها وجدتهم ابرع اهل زمانهم في فن الملاحة ولذلك لم يتعرض اولئك الغزاة بسوء لصيدون وهكذا لجبيل وبيروت اللتين حذتا حذوها في مسالمتهم خلافاً للممالك الكنعانية الاخرى فانها شايعت اعداء مصر من كلدان واشوريين ونصرتهم عليها

والنتيجة ان خضوع فينيقية لمصر لم يكن الا لتبادل المنافع السياسية والاقتصادية على ان يكون ملوك فينيقية سائدين في قومهم مستقلين في شؤونهم بمقتضى شرائعهم الخصوصية ولكنهم يعترفون بسيادة مصر ويؤدون للفراعنة الجزية وينجدونهم باساطيلهم . وهذا التحالف بين مصر وفينيقية من اكبر الادلة على ان الممالك الفينيقية كانت على ضيق مساحتها عزيزة الجانب وكان شأنها مع مصر من وجوه كثيرة شأن النظير مع نظيره

حروب الفراعنة في سورية

واهم الحروب التي اصلى الفراعنة نارها في سورية كانت مع الروتن وهم مزيج من اللوديين

والآراميين ومع الحثيين الشماليين وهم الذين قادوا عشائر الرعاة في غزوتهم لمصر . واول من حاربهم من الفاتحين المصريين طوطمس الاول الذي اقام على الفرات نصباً نقش عليهِ خبر فتحه لبلاد الحثيين . وطوطمس الثالث الذي افتتح من الممالك السورية ١١٩ مدينة نقشت اسماؤها على احد جدران الكرنك في الاقصر . وطوطمس الرابع وقد نقش خبر حملته عليهم على حجر وجدوه في هيكل امون في طيبة عاصمة الفراعنة . ثم قام رعمسيس الاول وهمّ باخضاعهم ففشل ومع انه كان يترفع عن محالفة ملوك سورية عملاً بخطة سلفائهِ اضطره ما شهد من بطش الحثيين وقوتهم الى محالفتهم محالفة الند لنده كما جرى للذين تقدموه من الفراعنة مع الصيدونيين. ولما افضى تاج مصر الى ساتي الاول عاد الحثيون الى مناوأة مصر فزحف عليهم وفتح قادش « قدس » عاصمتهم ثم حالف ملكهم موتنار . غير ان هذه الحلقة لم يطل اجلها فخان موتنار العهد وقطع على المصريين طريق حلب والفرات بحيث باتت املاكهم محصورة في فلسطين وما جاورها من بلاد الاراميين والفينيقيين . وقد نقش اخبار غزواته لبلاد الشام في هيكل امون في الكرنك . وفي جملة آثار هذه الغزوات صورة تمثل اهل لامنون « اعالي لبنان » يقطعون خشب الارز والسرو لابنية الظافر وصورة اخرى تمثل مدينة قادش يحاصرها المصريون

* * *

ثم قام رعمسيس الثاني « سيزوستريس » بين اواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر فثارت فلسطين عليهِ باغراء الحثيين فزحف عليها وأخضعها ووصل الى بيروت فنقش صورتهُ على صخر عند مصب نهر الكلب تذكاراً لانتصاره هذا وفي ايامه كان الحثيون في ابان صولتهم واتسع نطاق املا كهم حتى تناول جميع الاقاليم الواقعة بين قادش واطراف آسية الصغرى جنوباً ولبنان والفرات شمالاً ووالتهم اقاليم سورية برمتها ما عدا صيداء وجبيل فانهما انحازتا الى جانب مصر . وقد كسروا رعمسيس ثم استظهر عليهم عند العاصي في معركة هائلة نقش خبرها في هيكل الكرنك واستمرت الحرب بينه وبينهم اربعة عشر عاماً ولم تخمد جذوتها الاّ بمقتل ملكهم موتنار غيلة في احدى المعارك فخلفه اخوه كيتاسار وابرم مع المصريين عهدة نقشت على جدار في هيكل الكرنك وقد تعاهد فيها الملكان على التضافر والتعاون واعتبار الشعبين المصري والحثي متساويين في جميع الحقوق والمرافق . وحافظ المصريون والحثيون على هذه العهدة قرناً كاملاً . وبمقتضاها جعلت مدينة جبيل حدّاً فاصلاً بين املاك الدولتين فجعلت املاك مصر في الغرب والجنوب واملاك الحثيين في الشرق والشمال. وتزوج رعمسيس بنت كيتاسار الحثي وزاره هذا في مصر واقيم في مدينة طيبة عاصمة مصر حيث التقى المتحالفان نصب نقشت عليه صورتهما تتوسطهما صورة رعمسيس الحثية. ومن ذلك الحين توطدت العلاقات بين الشعبين المصري والحثي واخذ المصريون يستعملون في لغتهم

الفاظاً من فروع اللغة السريانية وانتقلت عبادة كثير من الآلهة السورية الفينيقية الى مصر ولا سيما عبادة بعل وعشتروت « الزهرة »

الفتح الاسرائيلي

تلا عصر الفراعنة في سورية وآسية فتح الاسرائيليين لارض الميعاد وطن آبائهم . خرجوا من مصر منهزمين بقيادة موسى من وجه رعمسيس الثاني الى برية سيناء وأوغلوا في الصحراء فتاهوا هناك اربعين سنة كانت في اثنائها قوى المصريين والحثيين قد خارت وملوا القتال فعقد الصلح في ما بينهم . ثم مات رعمسيس وخلفه ابنه منفتاح وفي عهده تم خروج بني اسرائيل من ارض مصر الى ارض الميعاد بعد ان اقاموا في ارض الفراعنة نيفاً واربعة قرون وافتتحوا ممالك الكنعانيين واستقروا في فلسطين واحجمت مصر عن انجاد هذه الممالك لاشفاقها ان ينالها اذًى في تعرضها لهم وهم لم يخرجوا منها الاّ بعد ان انزلوا بها البلاء الاعظم فرأى الفراعنة انهم في غنى عن تجشم المصاعب في الذود عن ارض كنعان ولا سيما ان الفاتحين لم يتخطوا حدود مملكة صيدون حليفة مصر ولم يجاوزوا الاردن الى المدائن الفينيقية التي امتنعت عليهم بغير ان تفتقر الى عون مصر حليفتها

توتر العلاقات بين مصر وفينيقية

وما انفكت المودة مستحكمة الحلقات بين مصر وفينيقية الى ان سقطت صيدون وافضت السيادة السياسية الى صور في مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد . فهاج مجد صور مطامع الفراعنة ووقفوا لها بالمرصاد الى ان جلس على عرشها عبد عشتاروت في القرن العاشر فأغرى فرعون شيشق ابناء مرضعه الاربعة بقتله اضعافاً لشأن الفينيقيين بالانقسام الداخلي الذي يعقب عادة مثل هذا الانقلاب السياسي . واتخذ فرعون من جهة اخرى فرار يربعام الافرائيمي من وجه سليمان والتجائه اليه لايقاع الشقاق بين الاسرائيليين . وقد نجحت حيلته في الامرين وغزا فلسطين وافتتح اورشليم وانشقت مملكة اسرائيل الى شطرين مملكة يهوذا ومملكة اسرائيل وكانت بين المملكتين حروب طاحنة أثارت كوامن الطمع في نفوس الفاتحين من ملوك دمشق وفراعنة مصر وملوك اشور وبابل وفتحت عيونهم على ما يستطاع من الغنم في مثل هذا الانقسام وافضى الامر اخيراً الى وقوع مملكة اسرائيل تحت نير الاشوريين ومملكة يهوذا تحت نير الكلدان

وأما صور فبعد مقتل عشتاروت وجلوس ابن مرضعه على العرش نشبت فيها نار الفتن الاهلية فأوهنت قواها وشلّ اعصابها تنازع الزعماء السيادة فيها ولم تسترد ما كان لها من

المجد الطريف الا في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حيث جلس بيكماليون على العرش وفرّت اخته ديدون الى افريقية بطائفة من اشراف المملكة وشيدت هناك مدينة قرطاجنة. وبفرار ديدون هذه توطد النظام الجديد في صور وأصبحت الكلمة النافذة للشعب بعد ان كانت للخاصة

العصر الاشوري

وتوالت على سورية وفلسطين حوادث كثيرة وقف المصريون بازائها وقفة الرقيب المحاذر لأن اشور كانت تسلطت على هاتيك البلاد ودانت لها مصر. وقد ارعبت اشور العالم القديم بالمظالم التي ارتكبتها في تغلبها على الشعوب الاسيوية ونسج ملوكها على منوال واحد في الاستمتاع بشقاء هذه الشعوب. على ان مصر ما برحت منذ رسوخ قدم اشور في الديار الشامية تكيد لها المكايد حتى اذا نجحت حيلتها في اثارة السوريين عليها هبّت لمقاسمتهم الغنيمة والا اخلدت الى السكون وتلاهت بشؤونها الداخلية وحمت من التجأ اليها من ملوك فلسطين اثر غزوات الاشوريين لبلادهم

وكان الفينيقيون يضطرون احياناً الى ممالأة اشور على المصريين اشفاقاً من بطشها فانجدوا آسرحدون ثالث ابناء سنحاريب في حملته على مصر واخضاعه لها وانهزم ملكها ترهاقة احد ملوك الدولة الحبشية من وجهه وهكذا ابنه اشور بانيبال فانه لما غزا مصر وطرد الاحباش منها في منتصف القرن السابع اكره ملوك فينيقية وسورية على انجاده برجالهم

عصر الكلدان

ولما انقرضت دولة اشور قامت على انقاضها دولتا مادي وبابل واقتسمتا ممالكها فكانت سورية ومصر من نصيب نبوبلاصر البابلي. غير ان هذا الفاتح تشاغل عن الديار الشامية والمصرية بمعارضة الماديين حتى انس السوريون بضعفه فدانوا للمصريين وقام فرعون نيخو فاستقل ببلاده وحمل على سورية وفتح اشدود. وخلفه نيخو الثاني — وهو الذي ارسل بعثة فينيقية دارت حول القارة الافريقية — فزحف على الديار الشامية وبعد ان كسر ملك يهوذا وفتك بهِ عند مجدّو عقاباً له على ولائهِ لاشور استأنف الزحف الى فينيقية حليفة مصر في الامس فرحب بهِ الفينيقيون وأنجدوه برجالهم ووصل في غزوته هذه الى الفرات. غير انهُ ما كاد يستتب الامر لمصر في ديار الشام حتى زحف عليها نبوخذ نصر « بختنصر » وهزم المصريين وأجلاهم عنها ووطد سلطانه فيها. على ان هؤلاء عادوا الى دس الدسائس فيها

وحرضوا اليهود على خلع نير بابل فزحف بختنصر عليهم وكسرهم ثم اعاد الكرة على فلسطين وسبى من اهلها عدداً عظيماً الى بابل

ولما وقع النفور بين مادي وبابل واضطربت المملكتان تحين حفرع خليفة نيخو فرعون مصر الفرصة وعاد ينازع بابل سيادة سورية وتعاهد مع بعض ملوك فينيقية ويهوذا وعمون وموآب على خلع نيرها وزحف على صيداء وافتتحها واستخدم اسطول صور لافتتاح قبرس وسائر المدن الفينيقية فدهمهُ الفاتح البابلي وكسره تحت اسوار اورشليم وافتتحها وجلا ملكها صدقيا الى بابل . ثم حاصر صور ثلاث عشرة سنة فعجز دونها . ثم اعاد الكرة عليها في اواخر القرن السادس فتم له فتحها ودمرها . اما فرعون فكان قد تأهب لانجاد صور ولكن قبل ان يستكمل معدات النجدة وقعت في ايدي الكلدان . وخيل الى صور ان مصر احجمت عن مساعدتها عمداً خوفاً من الفاتح البابلي فاستاء اهلها ولذلك لما همت عمارة مصر باثارة الفينيقيين على الكلدان لم تتردد صور في نصرة البابليين على مصر . وعندنا ان الفينيقيين كانوا لا يزالون على ولاء مصر ولكنهم لم يتجرأوا على ممالأتها ضد بختنصر خوفاً من ان يحلَّ بهم ما حل باخوانهم الصوريين فانقلبوا على المصريين . ولكن اسطول مصر استظهر على اسطولهم وافتتح صيداء وارواد وغيرها من مدن فينيقية . غير ان ولاية مصر على سورية لم تستمر اكثر من اربع سنين فعاد بختنصر وافتتح سورية ومصر واخضعهما لبابل

عصر الفرس

وفي ولاية الفرس على سورية ظلَّ شأن المصريين في علاقتهم بملوكها وشعوبها كما كان لعهد الاشوريين والبابليين . وكان الفرس يستنجدون السوريين على المصريين فلا هم يجرؤون على معارضة فارس ومناصبتها العداء ولا يسعهم نبذ تقاليدهم الموروثة القاضية عليهم بموالاة المصريين ومناصرتهم فكان موقفهم بازاء تنازع مصر وفارس محفوفاً بالمخاطر

ذلك انه لما استحوذ قورش الفارسي على بابل دانت له فينيقية فصادقها واستعان بها على المصريين فجهزت له اسطولاً ضخماً لمحاربة مصر . وخلفه على اخضاعها ابنه قمبيز مستنجداً العمارة الفينيقية . وباتت السفن الفينيقية من اعظم قوى الدولة الفارسية تجري عليها المرتبات الضخمة وقد فازت بفتوحات كثيرة استعادت فيها مجد فينيقية وعظمتها

وفي ايام ارتحشستا الاول كان الاسطول اليوناني يغزو السواحل الفينيقية حيناً بعد حين انجاداً للمصريين على الفرس ولكن العامل الفارسي كسرهُ . ثم همت مصر باسترجاع سورية فتأهب الاسطول الفينيقي لصدّ غارة اسطولها فكفت عن التطاول . وفي ايام ارتحشستا الثالث ثارت العمالات الفارسية فاختلس فرعون نكتانيبو فرصة الاضطراب وزحف على فلسطين وكسر الفرس .

وشاع نبأ انكسار الفرس في حرب المصريين فثار ملوك قبرس وفينيقية وثبتت فينيقية على المقاومة وانجدتها مصر بجيش من جندها بقيادة منتور الرودسي فزحف ملك الفرس على صيداء وافتتحها غرةً بمساعدة زعيم جند مصر وبسقوط صيداء عادت فينيقية الى طاعة الفرس . ثم زحف ارتحششتا على مصر لمعاقبتها وافتتحها وضمها الى مملكته . وما زالت كذلك الى ان انتصر الاسكندر المقدوني على داريوس سنة ٣٣٤ ق.م وقضى على سيادة الفرس في الديار الشامية والمصرية وضم سورية الى فينيقية وجعلهما ايالة واحدة

عصر البطالسة والسلوقيين

وفي عصر البطالسة والسلوقيين خلفاء الاسكندر لم ينفك المصريون عن التعرض لشؤون سورية فتابعوا الخطة التي جروا عليها في عهد سلفأهم. وكانت فلسطين من نصيب بطليموس صاحب مصر وتعاقب البطالسة عليها الى بدء القرن الثالث. واما فينيقية فظلت تتنازعها ايدي الفاتحين من هؤلاء الملوك الى اجل طويل فكانت تارة تقع في ايدي السلوقيين واخرى في ايدي البطالسة اصحاب مصر الى ان تسنى للرومان التدخل في شئون سورية لالتجاء هنيبال بطل قرطاجنة اليها وهو الد عدو لهم . ولم يطل الزمن حتى وقعت الحرب بين الرومان والسوريين وانجلت عن فوز الرومان وفرضهم الجزية على ملك سورية . وبعد حين عادت رومية الى التحرش بسورية واستفزتها الى مناصبتها العداء — وفي اثناء ذلك كانت مصر تدس الدسائس في الديار الشامية اضعافاً لها ليتسنى لها الاستيلاء عليها. فاوعزت الى الاسكندر بالا ان يدعي العرش السلوقي ففعل وظفر به . ثم قام عليه ديمتريوس نيقانور وخلعه عن العرش بمساعدة مصر . واساء التصرف مع الشعب فنشبت ثورة في البلاد وبرز المكابيون بقيادة سمعان المكابي فصالوا واتوا اعمالاً عظيمة واستقلوا بالملك . وتلا ذلك قيام تريفون على انطيوخس الثامن وفتكه به واستبداده بالدولة وحدوث اضطراب عظيم ادى الى انقسام المملكة وتخاذل امرائها وزعماء اقوامها والسياسة الرومانية جارية في مجراها بكل دقة واحكام

ولما دخلت الدولة السلوقية في دور الاحتضار كان الضعف بلغ اشده من المملكة السورية فتحين الرومان الفرصة وجاء بومبايس سنة ٦٣ ق . م وافتتحها وجعلها ولاية رومانية . ثم اكتسح القطر المصري والحقهُ بالممالك الرومانية . فكانت مصر وسورية في عصر الرومان شقيقتين تتقاسمان البلوى وتشكوان عبر الزمان على السواء ولو ان هذا العصر كان في كلتيهما عصر رخاء واقبال من الوجهتين الاقتصادية والعلمية

بولس مسعد

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف . ويراعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

الشاهنامه وترجمتها العربية

حضرة رئيس تحرير المقتطف المحترم

اطلعت على ترجمة الشاهنامه للفتح بن علي البنداري التي نشرها وعلّق عليها الحواشي الدكتور عبد الوهاب عزّام المدرس بالجامعة المصرية وصدّرها بمقدمة ثمينة مما دل على اطلاعه الواسع وادبهِ الجم . فلا شك ان العلماء والادباء يقدرون همتهُ القعساء ويشكرون لهُ مساعيهِ العظيمة في سدّ ثلمة في الآداب العربية وايقاف ابناءها على كنز من كنوز الآداب الفارسية طالما اشتاقوا الى زلاله

مررت على هذا الأثر النفيس فبدت لي بعض ملاحظات وتصويبات لهنات هيّنات لا يكاد يخلو منها كتاب من الكتب الكبيرة كالشهنامه فاستأذن الدكتور عزام نشرها تلمساً للحقيقة التي هي رائد كل نفس كبيرة فأقول

جاء في المدخل ص ٢٠ : « موسى القوريني » وصوابهُ « الخوريني » كما يلفظهُ الارمن. وكتبهُ الفرنسيون Moise de Chorène دوفال الآداب السريانية ص ٢٤٢ وكتبهُ الانكليز Moses of Chorene سايكس ١ : ٤٦٧

وفي ص ٨٠ من المدخل : الدولة الميدية: ترجمة Media الانكليزية او La Médie الفرنسية والمشهور الدولة المادية او الماذية

وفي الصحيفة عينها « الآثار الاسورية وكأني بالناشر الكريم يريد بالاسورية ترجمة Assyrian فقالت العرب في هذا المعنى الأثورية او الاشورية ولم ترد في كلامهم اسورية . وورد في ١ : ٧٨ : تعريب Malcolm ملكولم والحال يتبع في نقل الاسماء اللفظ وليس الحروف فوجب عليهِ القول استناداً الى هذه القاعدة « ملكم» كما قال في Moh! مول في الصحيفة عينها.

وفي ٢ : ٧٤ : ذكر «مروثا اسقف العراق» جاء رسولاً يخبر ملك الفرس بولاية ثيودسيوس وأسند الرواية الى سايكس ١ ولم يذكر الصحيفة والصحيفة هي ٤٦٤ فنقول مروثا او ماروثا لم يكن اسقف العراق بل كان اسقف ميافارقين ولم تكن ميافارقين في يوم من الايام من العراق بل كانت من مدن بين النهرين Mesopotamia وعرفها العرب بالجزيرة والاصح «جزيرة اقور» كما جاء في معجم البلدان ومن امهات مدنها حرّان والرُّها والرقة ورأس عين ونصيبين وماردين وآمد وميافارقين والخابور الخ . والذي حَدَا بالدكتور الى قوله « مروثا اسقف العراق » عبارة سايكس Mârutha, a Mesopotamian bishop فترجمة هذا النص هكذا : مروثا احد اساقفة بين النهرين (اوالجزيرة) او ماروثا اسقف من الجزيرة او اسقف من بين النهرين

وفي حاشية ٢ : ١٠٥ اسماء جيل من الناس يدعون في مصر الغجر ويسمون في بلاد فارس اللورية وفي بلاد العرب الزط والعشرية . وقد غفل الناشر انهم يدعون ايضاً النوَر ويقال لهم في العراق القرج والكاولية

وفي حاشية ٢: ١٠٦ قال : وقد ذُبح في كركا ؟ (كركوك) آلاف من المسيحيين يحتفل بذكرى شهادتهم حتى اليوم في كركوك (اسندها الى سايكس ١ : ٤٥٣) سهواً والصحيح ص ٤٧١ . وقد عرّب الدكتور عزّام اللفظ Karka طبقاً للحروف اللاتينية ولو لم يردف اسم هذه المدينة بكركوك لعسر على المطالع معرفتها لأن المؤرخين عرفوها باسم كرخا او كرخاد بيت سلوخ . وكذلك نقلها المؤرخون العرب . ويسرنا ان نذكر ان اللفظ « الكرخ » او « كرخ » اسم لمواضع عرفها العرب . وهو من هذا الاصل السرياني . ومنها جانب الكرخ في بغداد . وفي صفحة ٢ : ١٩٨ نقرأ هذه العبارة : « وقد اخطر في اوائل عهده البطريق الهرم سبراء شو (؟) الى مصاحبة جيشه ليباركه : قلنا الافصح ان يقول البطريك او البطريرك بمعنى Patriarche تمييزاً عن البطريق ترجمة Patricien . ومع هذا فاننا لا ننكر ان فريقاً من الكتاب عرّب اللفظ الاول بالصورة التي عرّبها الناشر . غير ان المهم في هذا الموقف ان نضبط اسم هذا البطريرك الذي يدعوه ناشر الشاهنامه « سبراِشو » فهو سبر يشوع وقد تولّى كرسي بطريركية المدائن ٥٩٦ — ٦٠٤ م وقد نتج هذا السهو من نقل الحروف اللاتينية Sabr Isho . وفي ٢ : ٢٣٥ = ثم استرده هرقل (اي عود الصليب الحقيقي) بعد وفاة ابرويز سنة ٥٢٨ كما يأتي (آه) قلنا جاء التاريخ ٥٢٨ مغلوطاً هنا وربما اراد الناشر سنة ٦٢٨ فشط به القلم . وعلى ذكر عود الصليب نقول ان الدكتور عزام رجع اليهِ في ص ٢٥١ و٢٥٩ وقال احتفل هرقل برده في ١٤ سبتمبر ٦٢٩ فان صحّ هذا التاريخ فاسترجاع الصليب انما كان في عهد اردشير (اه)

يسرنا ان ننقل هنا عبارةً عن استرداد الصليب وردت في كتاب لابور الفرنسي النصرانية

في المملكة الفارسية» ص ٢٤٢ وهي: — ان فرائين Farrukhan الذي خلف شيرويه على عرش الاكاسرة رد الى هرقل الصليب الحقيقي مع هدايا نفيسة وذلك شكراً لهُ عن مساعدته او عن عطفه عليهِ في سبيل تبوئهِ العرش.

وفي ٢ : ٢٣٦ كلام عن مريم وشيرين زوجتي كسرى برويز وعن اصلهما وتوحيدهما : فالارجح انهُ كان لكسرى برويز امرأتان مسيحيتان الواحدة مريم الروحية بنت الملك موريقي والاخرى شيرين الارامية من ميشان فبنى لكل منهما كنائس وبيعاً (راجع شير : تاريخ كلدو واثور ٢ : ٢١٤ق) وفي ٢ : ٢٣٧ :كان فرهاد المهندس الذي بنى لخسرو برويز طاق خسرو في تخت البستان (؟) رب كرمنشاه والقصر الذي في مشيطة (؟) على خمسة وعشرين ميلاً الى الشرق من المنتهى الشمالي للبحر الميت (اه)

قلنا في هذه العبارة غلطان اولهما ان البناء قرب كرمنشاه لا يسمّى « تخت البستان » بل طاق بستان وقد صوّر احدمشاهده سايكس ١ : ٥١٣ وكتاب تحت الصورة TAK-I-Bustan or Arch of the Garden وقد زرته سنة ١٩٢١ ووصفته وبحثت في تاريخه وصوّرته في المقتطف (نوفمبر ١٩٢١) والغلط الثاني قصر مشيطة ؟ لا يهتدي المدقق الى ما يريده الدكتور عزام الأ بالحدس والتخمين . فلا شك انهُ اراد بقصر المشيطة قصر المشتّى في بلاد موآب غربي وادي سرحان وقد وقع الناشر في هذا الغلط من نقل الحروف اللاتينية Mashita راجع عن هذا القصر مجلة المشرق ١ : ٤٨١ و٦٣١ ثم ٤ :٧٦٥ و٥ :٦٦٩ و٧ :٣٩١ وسايكس ١ :٥١١ ؟ و٥١٥ و٥٢٣ و ٢ : ٢٤٦ : وقد عرّب الناشر اسم الامبراطور « Phocas » فوكاس والامبراطور «Maurice» « موريس » وكان جديراً بهِ ان يتبع في التعريب احد المؤرخين العرب كحمزة الاصفهاني او الطبري لئلاً يحدث صوراً جديدة لمثل هذه الاسماء الغريبة . الاصفهاني والطبري قالا في « Maurice »موريقس او مريقيس وفي Phocas فوقاس وفوقا

هناك غير هذه الملاحظات ضربت صفحاً عن ذكرها . ولكن كل ذلك ليس بشيءٍ تجاه فضل الدكتور عزام بابراز هذه الترجمة بثوبها القشيب وحواشيها ومقدمتها الفيّاضة بالمعلومات النفيسة

(بغداد) ي . غنيمة

ثعلبان . . . مفرد او مثنى

قرأت في مقتطف يوليو سنة ١٩٣٢ مقالا نفيساً للاستاذ العالم الامير مصطفى الشهابي عنوانهُ « العلم والفلسفة والأخيلة الشعرية » ولي ملاحظة بسيطة على نقطة في ذلك المقال، هي:

قال « . . . . وربما جال في خلدك ان تتخذ لك صنماً تعبده ، ولكني اخشى ان يكون من عجين او حلوى فتضطر الى اكلهِ في مضطرب هذه الازمة الاقتصادية كما فعل العرب قبل الأسلام وأخشى ان يصيبهُ ما أصاب صنم بني سليم ، وكان سادنه يسمى غاوي بن ظالم فبينما

هو ذات يوم جالس بعيداً عنهُ اذا بثعلبان اقبلا وهما يشتدان فشغر كل منهما رجله وبال على الصنم فنظر اليهِ غاوي وقال

أربٌّ يبول الثعلبان برأسهِ لقد ذلَّ من بالت عليهِ الثعالب »

فالاستاذ الشهابي يقول انهما كانا ثعلبين اثنين اقبلا ..... وهذا قول يخالفه ما وردعن كبار ائمة اللغة فالذي روي عنهم وسمعناه من اساتذتنا في مجالس الادب انه ثُعلبان وبضم الثاء وهو مذكر الثعالب لا تثنية ثعلب . ويظهر ان الاستاذ قد اعتمد على ما ذكره الفيروزابادي صاحب القاموس ولكن صاحب القاموس اخطأ لانهُ ذهب الى انه مثنى وتخطئتهُ للجوهري — كعادته على رأي الاستاذ الجليل استاذنا احمد امين — غير صحيحة ، والصواب ما ذهب اليهِ الجوهري لان عدداً ليس بالقليل من ائمة اللغة ذهبوا الى ما قاله الجوهري منهم الكسائي وشارح القاموس ، وابن منظور ، والبغوي في معجمهِ ، وابن شاهين ، والاصفهاني صاحب دلائل النبوة ، والجاحظ ، والحافظ شرف الدين الدمياطي وغيرهم [1] من المحدثين كالاستاذ فريد وجدي ، والمعلم بطرس البستاني ولانعرف احداً ذهب الى ما يقوله الاستاذ الشهابي اللهمَّ الاّ الهروي وصاحب القاموس وقد رد على الهروي ابو عثمان الجاحظ كما في دائرة معارف القرن العشرين ، وقد رد على الهروي ايضاً الحافظ ابن ناصر فقد ورد في تاج العروس ما نصهُ « وقال الحافظ ابن ناصر اخطأ الهروي في تفسيره ، وصحف في روايتهِ وانما الحديث ثعلبان بالضم مذكر الثعالب مفرد لا مثنى واهل اللغة يستشهدون بالبيت ارب يبول الخ . . . . . للفرق بين الذكر والانثى كما قالوا في الافعوان والعقربان وحكى الزمخشري عن الجاحظ ان الرواية هي بضم الثاء . . . . »

وقد رد شارح القاموس رداً مطولاً قال فيه ان قول الفيروزابادي غيرصحيح والصواب ما قاله الجوهري نقلاً عن الكسائي والكسائي عمدة في هذا وثقة

اذن فما ذهب اليه القائلون بالتثنية غير صحيح منشأه الغفلة

وتتميماً للفائدة اقول ، ان الرواة مختلفون في صاحب هذا البيت فبعضهم يقول هو العباس بن مرداس وبعضهم يقول هو ابو ذر الغفاري وبعضهم يقول انه غاوي بن ظالم. ولهذا البيت رفيقان هما :

لقد خاب قوم املوك لشدة ارادوا نزالاً ان تكون تحارب
فلا انت تغني عن امور تواترت ولا انت دفاع اذا حل نائب
اربٌّ . . . الخ

م . اسعد طلس
حلب (سورية) بكلية الآداب — الجامعة المصرية

(١) راجع شرح القاموس، ودائرة معارف القرن العشرين

مساعدات تاريخية

جاء في « ٤٣ : ٨١ » من المقتطف « كما اننا لا نعلم هل كان يومئذٍ في بغداد من كان يحسن قراءة وفهم رسالة كتبت باللاتينية او ان الخادم المذكور تولى هذا الامر بنفسه » .

نقول : ورد في وفيات الاعيان لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ « ١ : ٣٧٧ » ما صورته « وجميع كتابات الامم من سكان الشرق والغرب اثنتا عشرة كتابة وهي : العربية والحميرية واليونانية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية والقبطية والبربرية والاندلسية والهندية والصينية ، فخمس منها اضمحلت وبطل استعمالها وذهب من يعرفها وهي الحميرية واليونانية والقبطية والبربرية والاندلسية ، وثلاث قد بقي استعمالها في بلادها وعدم من يعرفها في بلاد الاسلام وهي الرومية والهندية والصينية ، وحصلت اربع هي مستعملات في بلاد الاسلام وهي العربية والفارسية والسريانية [1] والعبرانية» فقد اراد بالرومية «اللاطينية» ولكون وفاة الخليفة المكتفي المبحوث عن معرفة اللاطينية على عهده ،حدثت في آخر القرن الثالث للهجرة ووفاة ابن خلكان في آخر القرن السابع للهجرة ،يترجح انهُ كان في بلاد الاسلام في القرن الثالث للهجرة من يعرف الرومية فالمدة بين العهدين قراب أربعة قرون ويؤيد هذا الرأي الرجيح قول ابن خلكان « وعدم من يعرفها في بلاد الاسلام » لانه اشارة الى عرفانها قبل عصره ، بل يحشر هذا الرأي محشر الحقائق ما ورد من اخبار رسالة الروم الى الخليفة المقتدر في الصلح والفداء سنة «٣٠٥» هـ وكان هو التالي في الخلافة للمكتفي ، قال ابو علي أحمد ابن محمد المعروف بمسكويه في «٥ : ٥٤ » من تجارب الامم عن رسولي ملك الروم « وكان معهما ابو عمر (عدي) بن عبد الباقي يترجم عنهما ولهما »وجاء في « ١ : ١٠٤ » من تاريخ ابي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي ما أصله « ومثل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر فكفر له وقال الرسول لمؤنس الخادم ولنصر القشوري— وكانا يترجمان عن المقتدر — : لولا اني لا آمن ان يطالب صاحبكم بتقبيل البساط لقبلتهُ . . . » والظاهر ان الرسالة كانت باليونانية لا باللاتينية وكذلك الترجمة لان ملك القسطنطينية واهلها اذ ذاك من اليونان ، لكن حياة اللغة اليونانية في بلاد الاسلام— وقد ذكر موتها ابن خلكان— يدل على حياة اللغة اللاتينية التي عدم العارف لها في بلاد الاسلام على عهده وكانت معروفة قبله ، ونحن لا نشك في ان

(١) قال الدكتور « اسرائيل ولفنسون » في ص ١٤٧ من تاريخ اللغات السامية « وفي القرن الرابع عشر أخذت السريانية تفنى بسرعة بسبب تغلب الفتوح التترية بشكل لم يحفظ مثله التاريخ » وابن خلكان قد ذكر استعمال هذه اللغة في بلاد الاسلام على عهده وكان التتر اذ ذاك قد استولوا على ايران والعراق وآسية الصغرى واكبر سورية حتى وصلوا الى عين الجالوت — كما في مراصد الاطلاع — وكتبت السريانية على الجدران ببغداد في اول دخول التتر اياها

اللغة اليونانية في عهد المكتفي كانت أشيع من اللاتينية لان كثيراً من المسيحيين النساطرة أتقنوا اليونانية وترجموا جماعة من كتبها الى العربية — كما هو مشهور في تاريخ الثقافة الاسلامية — وكانت بعضها متداولة في زمن المكتفي

القبة والطير والمظلة

وورد في ص ٤٦ بحث قيم لذيذ في القبة والطير والمظلة فنقول: ذكر القبة ايضاً قطب الدين الحنفي في ص ٨٧ من الاعلام بإعلام بيت الله الحرام قال في ذكره الجراكسة « وكانت تقع فتن وقتال ... الى ان يستقر الامر على واحدٍ منهم فيركب في شعار السلطنة واصطلحوا على هيئة خاصة أخذوها عن الملوك الايوبية الاكراد وزادوا فيها ونقصوا وكان ذلك الوضع مقبولاً عندهم فان العرف يحسن ويقبح وان كان صورة مضحكة عند من لم يألفها ... فكان من شعار سلاطين الجراكسة عمامة ملفوفة بصبائغ مكلفة يجعلون في مقدمها ويمينها ويسارها شكل ستة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة في نفس الشاش يلبسها السلطان في مواكبه وديوانه ويلبس قفطاناً من فاخر الثياب يكون على كتفه اليمين طراز مزركش بالذهب وكذلك على كتفه اليسار ... ويحمل على رأس السلطان قبة لطيفة وفي وسط ذلك صورة طير صغير، يظل السلطان بتلك القبة التي يحملها على رأس السلطان أمير كبير وظيفته ان يصير سلطاناً بعد ذلك » . وذكر المظلة المعروفة عند الترك بالجتر ابن خلكان ايضاً قال في ترجمة المستنصر بالله الفاطمي « وكان المستنصر يستعير من ابن هبة الله صاحب ديوان الانشاء بغلته ليركبها صاحب مظلته » وقال في موضع آخر بترجمة يعقوب بن كلس الوزير « وخرج العزيز وعليه حزن ظاهر وركب بغلته بغير مظلة وكانت عادته انه لا يركب الا بها وصلى عليه وبكى » [(١)]

وذكر الجتر ايضاً ابو الفضل كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي المؤرخ البغدادي قال في أخبار سنة «٦٩٤» هـ ما نصه «واما لاجين فانه دخل مصر ورفع البيسري الجتر على رأسهِ ولقب الملك المنصور [(٢)] »

وورد في ص ٤٦ ايضاً « السلطان سنجر » ولم تشر السيدة المحققة مدام ديفونشير الى تاريخ هذا السلطان ولا ميزته عن اسميائه ، أهو سنجر الذي قال فيهِ أبو القاسم هبة الله بن الفضل المتوفي سنة « ٥٥٨ » :

تكريت تعجزنا ونحن بجهلنا نمضي لنأخذ ترمذاً من سنجر [(٣)]

ام هو سنجر بن ملكشاه بن داود السلجوقي المتوفي سنة «٥٥٢» هـ [(٤)] وذلك أوفق للحال ام هو سنجر آخر ؟

بغداد — مصطفى جواد

(١) الوفيات « ٢ : ٢٢٣ ، ٥٠٤ » (٢) الحوادث الجامعة (٣) الوفيات « ٢ : ٣٢١ — ٣ » وابن الاثير « ١١ : ٧٧ » والفخري (ص ٢١) (٤) الوفيات « ١ : ٢٣٤ »

باب الزراعة والاقتصاد

المغفور له الامير كمال الدين حسين

في الجمعية الزراعية الملكية

لما فوجئت الجمعية الزراعية الملكية بنعي المغفور له رئيسها العظيم الامير كمال الدين حسين بادر اعضاء مجلس ادارتها ومديرها وموظفوها وعلى رأسهم جميعاً حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون نائب رئيس الجمعية برفع التعازي الى القصر الملكي والى صاحبة السمو السلطاني الاميرة كمال الدين والى اعضاء الاسرة العلوية الكريمة خارج القطر المصري وداخله واقفلت الجمعية مكاتبها ونكست اعلامها حداداً على فقيدها وفقيد الامة المصرية واجلت اجتماع لجنتها الادارية

ذلك ان الجمعية الزراعية الملكية قد فقدت بوفاته ركناً متين الدعائم كانت تستند اليهِ في جلائل شئونها منذ ولي امرها بعد ابيه مؤسسها ساكن الجنة المرحوم السلطان حسين كامل عند ما تبوأ عرش مصر في سنة ١٩١٥ فأقتفى الشبل النجيب أثر والده العظيم وسار على منواله في العمل على تحسين الاحوال الزراعية بالقطر المصري

اما اعمال الفقيد في الجمعية الزراعية فلا يكاد يحيط بها الحصر . فهو الذي انشأ متحف القطن بسراي الجمعية بالجزيرة ويعدُّ هذا المتحف فخراً للجمعية وللبلاد لا ينافس ولا يقوَّم من الوجهة العلمية اذ هو منقطع النظير في العالم اجمع وهو مدرسة جامعة لكل ما يهم الوقوف عليه من احوال القطن وتاريخه وزراعته وتجارته وصناعته . وقد بدىء به في سنة ١٩٢٣ فنسقت فيهِ المعروضات المختلفة ارقى تنسيق من حيث روعة الوضع وسلامة الذوق وكان في اقبال الجماهير من كل طبقات الزراع والصناع والتجار وغيرهم على مشاهدته والاستفادة منه في المعرض الاخير ما دلَّ على ان مصر كانت في اشد الحاجة الى مثل هذا المتحف الفريد في بابهِ

وكان رحمهُ الله كلفاً بالمباحث العلمية البحتة يعنى بها كل العناية وفي عهد رآسته انتجت الجمعية قطن (المعرض) الذي اصبح الآن في مقدمة الاقطان الطويلة الشعرة التي يقبل عليها الغزالون ايما اقبال فازداد انتشاره بين الزراع في الوجه البحري ازدياداً مطرداً

وكان رحمهُ الله فوق ذلك يعمل على تقوية روح التنافس بين الزراع فخصص في كل سنة مداليتين ذهبيتين احداهما لاحدى مديريات الوجه البحري والاخرى لاحدى مديريات الوجه القبلي ليتبارى في نيلهما كبار الزراع الذين يتقدمون للمباراة تحت اشراف الجمعية الزراعية والغرض منهما التشجيع على تحسين الاحوال الزراعية بالقطر المصري ووضع سموه السلطاني شروط المباريات بنفسه وكان يشرف على اجراءات التحكيم واهداء المداليات لمستحقيها من كبار الزراع والدوائر منذ سنة ١٩٢٤ الى قبيل وفاته

وفي المعرض الزراعي الصناعي الاخير الذي اقيم في سنة ١٩٣١ اهدى سموه السلطاني اربع مداليات ذهبية الى الفائزين الذين عرضوا احسن انواع قطن المعرض والسكلاريدس واكرم الماشية للنتاج

وكان سموه قبل رآسته للجمعية رئيساً لقسم تربية الحيوانات بها منذ عهد الى الجمعية في سنة ١٩٠٨ في ادارة ذلك القسم بعد ان كان تحت اشراف لجنة تابعة لوزارة الداخلية وذلك لتحسين انواع الخيول والمواشي فعمد رحمهُ الله لشغفهِ وشدة عنايتهِ بتربية الماشية وعلى الاخص الخيول الاصيلة العربية الى اعادة الخيول الاصيلة التي اوجدها في مصر بعض أمراء الاسرة المالكة والمرحوم علي شريف باشا بعد ان كانت قد تسرَّبت الى خارج القطر وكادت تنقرض باذلاً في سبيل ذلك ما وسعهُ من خبرة ونفوذ

وبعد الحصول عليها انشأ في الجمعية قسماً خاصًّا لانتاج الخيول العربية واستكثارها وجمع بنفسهِ انساب الخيول العربية الاصيلة واعدَّ لها سجلاً خاصًّا فاصبحت مجموعة الخيول في قسم تربية الحيوانات بالجمعية الزراعية اجود مجموعة للخيول العربية في العالم

وقد جعل سموه السلطاني مزارعه خير مثال للمقتدين بقدوته الحسنة فكان يعنى بجودة النوع في حاصلاته ويحصل على اثمان لاقطانه تكون في بعض الاحوال اعلى ما يتسنى الحصول عليه وله في تفتيش صفط خالد مجموعة ثمينة من الخيول والاغنام التي كان يوجه النظر الى تربيتها

ومن مآثر سموه السلطاني على الزراع ايام الحرب العالمية عند ما ساءت الاحوال المالية وارتفعت اثمان الاسمدة الكيماوية ارتفاعاً عظيماً بسبب الحاجة اليها وانقطاع الواردات منها ان الجمعية بأمره واشارته جارت الحالة المالية في ذلك الوقت العصيب بتخفيض اثمان الاسمدة وتحمُّل فرق السعر كواجب عليها تؤديه خدمةً للمزارعين

وكان رحمهُ الله ينفق من جيبهِ الخاص آلاف الجنيهات على البعثات العلمية التي توفدها الجمعية للتخصص في الخارج وعلى طبع المؤلفات الفنية التي لا تسمح ابواب الاعتمادات في ميزانية الجمعية بتدبير الاموال لها ولا غرو فانه كان نصير العلم والمباحث واكبر مشجع للقائمين بها

اما المعارض الزراعية والصناعية فكان شديد الاهتمام بها ويرجع اليه الفضل في وضع

البرنامج لتنسيق ارض المعرض بالجزيرة وانسجام ابنيته وتناسب الاذواق في اوضاعها يشرف بنفسه على التنظيم بجملته ويضحي بوقته في الاطلاع على التفاصيل فكان النجاح الباهر حليف المعرضين اللذين اقيما في عهد رآسته للجمعية بالجزيرة سنة ١٩٢٦ و ١٩٣١ وبالنظر الى ما لقيا من الرعاية العليا التي تفضل بها عليهما حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك كان أثرهما عظيماً في ترقية الاحوال الزراعية والصناعية في القطر المصري

وكان الفقيد رحمهُ الله في كل ما يقوم به من امثال هذه الخدم الجليلة التي لا يحصرها العد يراعي ان لا يشهر له فضل او يذاع له اسم او تذكر له منقبة لا يطلب جزاء ولا يبتغي شكوراً

فلا شك في ان الجمعية الزراعية الملكية اول من يشعر بعظم الرزء وفداحة الخسارة في فقده تغمده الله برحمتهِ واسكنهُ فسيح جناتهِ

خطر اسود يهدد الفلاحين

أثر الشاي الاسود في صحة الفلاحين وقواهم

عن المقطم لكريم ثابت

لما زار المسيو موريس ديكوبرا الكاتب الروائي الفرنسوي الشهير هذا القطر سألتهُ في حديث دار معهُ ونشر في المقطم يومئذ عن اهم ما استوقف نظره في مصر فقال «اجتهاد الفلاح ونشاطه وتجلده على العمل» ثم استطرد الى ذكر أمور أخرى قال انها وقعت وقعاً عظيماً في نفسهِ

وقد أجمع العارفون على ان الفلاح المصري في طليعة فلاحي العالم لثلاثة اسباب جوهرية. الاول انه يقنع من الاجر بيسيره والثاني انه يكتفي من القوت بقليله والثالث ان عدد الساعات التي يمضيها في أرضه ليست محدودة . وكان أولئك العارفون يعزون نشاطه هذا الى تمتعهِ بصحة جيدة وباقليم ملائم لها بالرغم من رداءة مسكنهِ وربما كان لبساطة مأكله نصيب من تمتعه بتلك الصحة فانه يأكل الخبز والجبن واللبن والخضر في معظم الاحيان ولا يذوق اللحم الا نادراً

غير ان بعض الكتّاب المشتغلين بالشؤون الزراعية يكتبون من مدة عن تفشي عادة شرب الشاي بين الفلاحين وينبهون على ضررها وعواقبها لتأثيرها السيء في صحتهم وقواهم وقد نشر بعض هذا في المقطم ولكن ظهر الآن ان الحالة بلغت من الخطورة ما يقضي بمعالجتها بعلاج سريع فعال لتلافي ضررها وتدارك عواقبها فان العارفين اكدوا لنا في هذين اليومين ان الحالة لاتبعث على الاطمئنان فعلاً وان شرها سيتفاقم اذا دأبنا على مواجهتها بالتردد والتراخي اللذين واجهناها بهما حتى الآن.

* * *

اجتمعت امس بحضرة صاحب العزة جلال فهيم بك وكيل وزارة الزراعة فحدثني عن هذا

الموضوع حديثاً مستفيضاً اسأخصهُ للقراء هنا لما حواه من معلومات وبيانات جديرة بالبحث والتمحيص قال حضرته : لا يخفى عليكم انه لما نشبت الحرب العظمى اخذت السلطة عدداً كبيراً من الفلاحين عمالاً فكان لهم القدح المعلى في المهام التي نيطت بهم فلما عادوا الى بلادهم كانوا قد الفوا شرب الشاي فاستمرّوا في شربهِ ونشروا هذه العادة بين اخوانهم فلم ينقض على ذلك زمان طويل حتى انتشر انتشاراً مريعاً وعم جميع طبقات الفلاحين فتراهم الآن يحملون معهم الى الحقل لوازم اعداد الشاي الى جانب آلاتهم ومعداتهم الزراعية . وغني عن البيان انهم يضيعون وقتاً طويلاً في اعداده وشربهِ ولو اقتصر الامر على ذلك لهان ولكنهم يشربون من الشاي اردأه ويغلونهُ الى ان يصبح لونه اسود تقريباً وهم يشربونه بهذه الكيفية عدة مرات في اليوم وقد يستغنون عن الطعام ولكنهم لا يستغنون عن الشاي وقد لا تجد عند الفلاح غلة لمأكلهِ ولكن لا بد ان تجد عنده الشاي والسكر

***

قال جلال بك : ومنذ ان انتشر الشاي بين الفلاحين على هذا المنوال بدأت قوى الفلاح تنحط فتضاءلت جهوده في الحقل وساءت صحته وكان لذلك تأثير وبيل في تناسلهِ واصبح لا يعمل في اليوم كله سوى جانب مما كان يعملهُ قبلاً بسبب ما اعتراه من وهن في قواه البدنية ونقص في ساعات العمل التي يعملها . وامامي هنا احصاء يستدل منه على مقدار الشاي الذي كان يستهلك في القطر من عشرين سنة والزيادة التي زادتها بعد الحرب العظمى فقد استهلكت مصر من الشاي في سنة ١٩١١ نحو ٨٩٥٧١٥ كيلو غراماً واستهلكت في سنة ١٩٢٠ نحو ١٦٢٣٠٩٢ كيلو غراماً واستهلكت في سنة ١٩٣١ نحو ٦٩٩١١٥٤ كيلو غراماً ومتوسط الزيادة في السنوات الاربع الاخيرة كان ٥٩١ في المائة عن مقطوعية ما قبل الحرب

***

وقد وضع قسم الطب البيطري بوزارة الزراعة مذكرة عن الشاي الاسود والمواد التي يتألف منها وتأثيرها في المرء وجاء في هذه المذكرة ان اهم تلك المواد الكافيين والتنين

« والكافيين جوهر سام شبه قلوي ينبه المجموع العصبي والعضلات ويزيل شعور التعب والميل الى النوم ويطيل في ضربات القلب ويرفع ضغط الدم ويعجل التنفس واذا اعطي بمقادير كبيرة يسبب اضطراباً في الاعصاب ويخفق القلب بشدة ثم يقف ويهبط ضغط الدم بعد ارتفاعهِ وتبطيء حركة التنفس بعد اسراعها»

« والتنين مادة سامة كاكثر الحوامض وهو يجفف الريق ويسبب العطش ويضعف حاسة

الذوق ويقلل من قوة العصارة المعدية مقداراً ونوعاً وينتج عسر الهضم ويقلل افراز الامعاء»

* * *

قال جلال بك : ويتضح مما تقدم ان للشاي مزايا ومضار من حيث تأثيره في صحة الانسان فاذا امكن شربه بمقادير معتدلة تفصل بينها فترات طويلة رجحت فوائده عيوبه غير ان الاعتدال في شربه غير مكفول والمشاهد انه يصبح عادة يتغلب فيها الافراط فتنتج اضراره وهي خفقان القلب وتصلب الشرايين وعسر الهضم والامساك المزمن . نعم انه ينبه الاعصاب ويزيل الشعور بالتعب ويزيد الرغبة في العمل ولكن هذا كله لا يدوم الا فترة قصيرة يعقبها ضعف في الاعصاب وفتور في العمل

* * *

ويرى جلال بك ان خير ما تصنع الحكومة لمعالجة هذه الحالة ان لا تسمح الآ باستيراد الانواع الجيدة من الشاي وان تفرض ضريبة عالية عليهِ حتى يتعذر على الفلاح شربه

وعند وكيل وزارة الزراعة ان خطر الشاي اصبح اعظم من خطر الحشيش والكوكايين لان عدد الذين يدخنون الحشيش ويشمون الكوكايين محدود في حين ان شرب الشاي يكاد يشمل جميع الفلاحين

* * *

هذا موجز الحديث الذي افضى بهِ جلال فهيم بك في هذا الموضوع الخطير رأيت ان اردده هنا عسى ان يلقى العناية التي يستحقها من الجهات المختصة فتتضافر على تدبير العلاج الناجع بلا تردد ولا توان فان الذي يرفع المصباح الاحمر هذه المرة هو وكيل وزارة الزراعة وهو بحكم منصبه وخبرته وبما له من صلة بالفلاحين من اعرف الناس بأحوالهم فاذا قال اليوم ان هنالك خطراً يهدد الفلاح وان هذا الخطر هو الشاي الاسود الذي يشربه وجب علينا ان نصدقه وتعين على الحكومة ان تعير انذاره ما هو جدير به من عناية واهتمام

اننا نردد صباحاً ومساءً ان الزراعة عماد ثروة مصر . والعارفون يقولون ان لصون هذه الثروة ثلاثة اركان اساسية اولها سلامة الفلاح من الامراض وثانيها المحافظة على خصب الاراضي وثالثها اتقان الري والصرف

ولكن ماذا تنفع المحافظة على خصب الاراضي وماذا ينفع اتقان الري والصرف اذا اضمحلت قوى الفلاح اي اذا انهار الركن الاساسي لصرح ثروة البلاد

فهل ننقذ الفلاح ام ندعه يذهب ضحية هذا الخطر الجديد — هذا الخطر القاتم — خطر الشاي الاسود

مكتبة المقتطف

ديوان ابن زيدون

رسائله ، اخباره ،شعر الملكين — شرح وضبط وتصنيف كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة — طبع مصطفى البابا الحلبي واولاده بمصر في ٥٢٠ صفحة تقريباً من الحجم الكبير

للادب الاندلسي — وخاصة الشعر — صلة قوية بالحركة التجديدية التي نلمسها الآن في الشعر العربي ، ولا أخال أديباً مجدّداً لم يتذوق تلك الحلاوة التي يتميز بها هذا الادب ، أولم ينهل من نبعهِ الصافي ، كما لا احسب أن أديباً من أنصار القديم لم تستهوهِ تلك الحلاوة ، أولم يرتوِ ايضاً من ذلك النبع . وفي الحق أننا في أشد الحاجة الى دراسة الادب الاندلسي دراسة وافية نتعرف بها الوسائل التي سما بها ونهض ، وحَلا بها ورَقّ

ولقد ظهر في ذلك الفردوس العربي المفقود أدباء نفحوا جوّ الأدب طيباً ، وسموْا الى مراتب الخلود . وابن زيدون يعتبر من هؤلاءِ في الطليعة ، فهو متفوق عليهم بعاطفتهِ القوية ، وقد ظل ديوانه محبوساً عنا لم يصلنا منهُ الاّ اليسير يفيض رقة وعذوبة حتى تقدم كامل كيلاني وزميله فأخرجا لنا تلك التحفة النادرة من مكمنها ، والدرة الساحرة من صدفها ، وجلَواها فتنة على فتنة

وان نظرة واحدة الى التهذيبات التي قاما بها في تصحيح ما لحق آثار هذا الشاعر النابغة من تحريف الناسخين لتبين عظم ذلك المجهود الذي بذل في سبيل إخراج الديوان على حقيقة ما كان . . . فقد ظللنا زماناً نردد عن اساتذتنا هذا البيت من نونيته المشهورة هكذا :

وبيت ملكٍ كأن الله أنشأهُ مسكاً ، وقد انشأ الله الورى طينا

حتى طلع علينا الديوان مصححاً فاذا البيت هكذا :

ربيب ملك كأن الله انشأه مسكاً ، وقدّر إنشاءَ الورى طينا

فظهرت الصورة جميلة ، والاسلوب متسقاً . وقد ذكر امثلة كثيرة من هذا التحريف

وكتب مقدمة طويلة عن ابن زيدون — حياته وشاعريته — وعقد منها فصلاً عن ملوك الطوائف ، وذيّل الديوان برسائل ابن زيدون وشعر الملكين — المعتضد والمعتمد — لصلتهما بالشاعر ، وأتى ببعض معارضات الشعراء لقصائده ، كما ذيّلهُ بأهم الدراسات التي كتبت في العصر الحديث عن ابن زيدون . . . .

وابن زيدون في اعتقادي — بالرغم من الزمن البعيد الفاصل بيننا وبينهُ — شاعر أحس عند قراءته انه يعيش بيننا الآن ، تظهر الجدة على شعره ، وتظل الوانه التي رسم بها تلك البدائع محتفظة بروائها

شاعر عاطفي يشبه من وجوه كثيرة الشاعرين الانجليزيين: شلي وبيرون، والشاعرين الفرنسيين: لامرتين وموسيه ... وإني لاحس بحرارة تلفحني كلما قرأت له مقطوعاته التي كتبها الى ولادة، وأجد تقارباً شديداً بين قصيدة «البحيرة» للامرتين وقصيدة ابن زيدون النونية التي مطلعها :

اضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا

وابن زيدون شاعر فنان ، . . الوانه الاخاذة وشعوره المتقد يغطيان في شعره العاطفي على صناعته اللفظية التي كان مغرماً بها فلا تظهر فيه ، وتصبح سحراً في السمع كما في مقطوعته الآتية:—

بيني وبينك ما لو شئتَ لم يضعِ سرٌّ إذا ذاعت الاسرارُ لم يذعِ
يا بائعاً حظَّهُ مني ، ولو بُذِلَتْ لي الحيـاة ، بحظ منهُ ، لم أبعِ
يكفيك أنك إن حمَّلتَ قلبيَ ما لم تستطعهُ قلوب الناس، يستطعِ
تِهْ أحتملْ ، واستطل أصبرْ ، وعزَّ أهُنْ وولِّ أُقبلْ ، وقُلْ أسمعْ ، ومُرْ أطعِ

وما خلد ابن زيدون إلاّ عاطفتهُ ، وما قلّده تلك الزعامة الاّ انهُ كان يستمد من قلبه شعره ، ويصوغه من وجدانه . وإني لأهتف البيت من شعره فأظل أسمع صداه زمناً يتردد، ويخيّل اليَّ أن صدى صوت ابن زيدون ما يزال يرنُّ في جوف الليل هاتفاً :

يا ليل طُلْ لا اشتهي —الا بوصلٍ— قِصَرَكْ
لو بات عندي قمرى ما بتُّ أرعى قمرَكْ

أو وداعه لولادة إذ يقول : —

ودّعَ الصبرَ محبٌّ ودّعَكْ ذائعٌ من سرّهِ ما استودعكْ

أو قصيدة الذكرى التي يقول فيها :

إني ذكرتكِ بالزهراءِ مشتاقا والأفْقُ طلْقٌ ،ومرأى الارض قد راقا

وارتفع واياهُ في عالم السموّ عند ما يقول :

سأقنع منكِ بلحظِ البصرْ وارضى بتسليمك المختصرْ
ولا أتخطى التماسَ المنى ولا أتعدى اختلاسَ النظرْ
أصونكِ من لحظات الظنو نِ واُعْليك عن خطرات الفكرْ
وأحذر من لحظات الرقيـ ـب،وقد يستدام الهوى بالحذرْ

أما قصيدتهُ التي كتبها وهو في السجن، وبعث بها الى صديقهِ الوزير الكاتب والتي يقول منها:

ما على ظـني باسُ يجرح الدهر ويأسو
ربمـا أشرف بالمر ءِ على الآمال ياسُ
ولقد ينجيك إغفا ل ، ويرديك احتراسُ

فهي لوعة خالدة اللهب ، وأنّةٌ أبدية الصدى

على ان طلاوة ابن زيدون ورقتهُ لا تدفعان بشعره في المدح والرثاء الى الذروة التي تسمو بشعره اليها عاطفته ، فتظهر صناعته اللفظية وعليها من التكلف ما عليها . ولكن لحسن الحظ ان معظم شعر ابن زيدون آمال وآلام ، وتغريدات وتأوُّهات ، ستظل ثروة في الادب العربي سامية القدر . وانها لخدمة عظيمة قدمها الاديبان الفاضلان الى الادب العربي باخراجهما هذا الديوان في الحلة القشيبة التي يستحقها ، ونشكرلهما الاهتمام بالادب الاندلسي والعزم على إظهار تحفه وطرائفه

الصيرفي

حول ديوان الرصافي

لعلَّ ديوان الرصافي الذي طبع في بيروت اخيراً (مطبعة المعرض) يعد من اكبر الدواوين الشعرية الحديثة حجماً ان لم يكن هو اكبرها على الاطلاق، ولا شك اننا نظلم هذا الديوان ظلماً قاتلاً اذا نظرناهُ على انهُ شعر كله ولكننا ننصفهُ الانصاف كلهُ اذا نظرناه على انهُ ديوانُ أدب وفلسفة ولغة وتاريخ وسياسة واجتماع . أما الشعر فلعلهُ أقل مواد هذا الديوان العظيم

ولعلك لو سألت الرصافي نفسهُ هل نظمت ديوانك بهذا الحجم الكبير على انه شعر خالص لاجاب : كلاَّ . ولكني أردته ان يكون صورة كاملة للعصر الذي أعيش فيهِ

ولا جدال في ان الرصافي قد وفق فيما اراده من ديوانه كل التوفيق ، فديوانه يعطيك اقرب صورة للحياة العربية في مدة الثلاثين سنة الماضية ،وهو يريك بوضوح في هذه الحقبة من السنين كيف كان الشرق العربي يعلو ويهبط بين قوتين متجاذبتين كلتاهما أقوى من الاخرى ونعني بهما قوتي المجددين والمحافظين سواء أكانت هذه المشادة في الآراء السياسية او الدينية او العلمية على حد سواء ، فديوان الرصافي يعطيك اوضح صورة للشرق العربي في هذه الحقبة التي تعد بحق اهم فترة من عصر النهضة والتجدد والانتقال

ولكن من الحق ان نقرر ان في نظم الرصافي جاذبية موسيقية وانه على ما فيه من صنعة فانهُ يبدو غير متكلف .فاذا كان هذا الديوان ليس مثالاً لتجديد الشعر فانه بدون شك مثال لتجديد النظم . وهو اذا لم يكن جميعه شعراً مطبوعاً فان جميعه نظم مطبوع . بل هو اذا لم يكن اكثره شعراً فنيًّا صرفاً فان اكثره حقائق وافكار وآراء اصلاحية من احسن ما وصل اليهِ علماء الاجتماع والعمران . انك في هذا الديوان تقرأ قصائد برمتها قد تبلغ القصيدة منها نحو السبعين بيتاً فلا تجد بيتاً واحداً من الشعر ولكنك لاتجد بيتاً واحداً خالياً من حقيقة علمية، أو فكرة فلسفية او رأي اجتماعي ، ذلك الى رنين موسيقي يجذبك جذباً الى اتمام قراءة القصيدة من قبل ان يلحقك شيء من السأم او من الملال . واليك مثال لما نقول من هذه الابيات وهي مطلع القصيدة الاولى للديوان . قال تحت عنوان مشهد الكائنات

جمالك يا وجه الفضاء عجيب وصدرك يأبى الانتهاء رحيب
وعينك في ام النجوم كبيرة تضيء على ان الضياء لهيب
ومازلت تغضيها فنخطيء قصدنا وتفتحها براقة فنصيب
فيحمر منها في الغديّة مطلع ويصفرّ منها في العشيّ مغيب

فأنت ترى ان هذا النظم رائع حقًّا وانه ذو موسيقى تجتذب الاسماع وقد تسترق او تستهوى بعض الطباع ولكنك الى جانب ذلك اذا بحثت في هذه الابيات عن الشعر فانك لن تجده ، قل بربك اي انسان فوق هذه الارض لا يعرف ان جمال وجه الفضاء عجيب وان صدره رحيب وهل هذا الكلام الاّ كمثل قولهم السماء فوقنا والارض تحتنا واذا كان هذا الكلام قد وصل من التبذل الى هذا الحد فأي معنى شعري نجده فيه واي فضل للشاعر اذا نظمهُ ، وليت شعري اي فضل للشاعر اذا لم يسبق احساسه احساسات الناس جميعاً ليكشف لهم اسمى المعاني التي يزخر بها هذا الوجود. ثم ومثال آخر من النظم الرائع الذي تجده في ديوان الرصافي فتشعر في قراءته بشيء كثير من الموسيقية والروعة والجلال ولكنك مع كل هذا لا تجد فيه شيئاً اصلاً من الشعر يقول

الاّ يا قبوراً زرتها غير عارف بها ساكن الصحراء من ساكن القصر
لقد حار فكري في ذويك وانهُ ليحتار في مثوى ذويك اولو الفكر
فقلت وللاجداث كفي مشيرةٌ ألاَ ان هذا الشعر من الجع الشعر

لا شك ان هذا النظم بديع حقًّا ولكني أسألك هل تحس فيهِ بشيء من الحياة بل اسألك هل تحس فيهِ بشيءٍ من الموت . اؤكد انك لن تحس فيهِ بشيء مطلقاً لانه لم يوجد فيهِ النبض مطلقاً لم يوجد فيهِ الشعر اصلاً على رغم ان الرصافي يثبت ان فيهِ شعراً وانه من الجع الشعر او كما قال ان هذا النوع من النظم الرائع الذي لا يحتوي الاّ على الرنين الموسيقي والسلاسة اللفظية قد ضخم دواوين الشعر العربي تضخيماً يجعلنا نترحم على المتنبي يوم عوّذ سيف الدولة فقال

اعيذُها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ولست ادري اي حظ عظيم كان يبلغه الشعر العربي لو أن سادتنا اصحاب هذه الدواوين الضخام قد وفقوا بين شاعرياتهم وبين مقدرتهم العجيبة على هذا النوع من هذا النظم العالي البديع

تكلم بشار ذات يوم في مجلسهِ فقال انا اشعر العرب فقيل له بماذا فقال لاني نظمت احدى عشر الف قصيدة فلو لم يكن لي في كل قصيدة الاَّ بيت واحد لكنت اشعر العرب ويظهر ان شعراءنا لا يريد احد منهم ان يكون اقل من اشعر العرب ولكن لا بطريقة جديدة يبتدعها ولا بمعان غوال يفترعها ولكن بنفس الطريقة القديمة التي جرى عليها صاحبنا اشعر العرب القديم بنظم آلاف القصائد ليبني منها آلاف او مئات ابيات

ومع اني لا اشك في ان الاستاذ الرصافي قد سبق الكثيرين من جيله الى فهم حقيقة الشعر الاّ انهُ لم يستطع ان يتحرر تماماً من سطان هذه الطريقة التي تسود شعراء العرب حتى اصبح الجمهور وفي طليعتهِ كثير من الادباء لا يعدون من كبار الشعراء الاّ المكثرين من النظامين

ولا اتردد في القول بأن الرصافي لو استطاع ان يقلل من النظم نوعاً ما لكان احد شعرائنا الذين نعد اسماءهم على اصابع اليدين

وليس ادلّ على صدق ما اذهب اليهِ من ان ادعو القارىء الى قراءة مقطوعاتهِ والمقارنة بينها وبين ما له من القصائد المطولات

واني اختم هذه الكلمة بما ذكره لي رئيس تحرير هذه المجلة، قبيل كتابة هذه السطور قال: «كنت اقرأ نقداً لاحدى روايات المؤلف الاميركي المشهور سنكلر لوس نائل جائزة نوبل بقلم كبير النقّاد الاميركيين المستر سيدل كانبي فأخذ على المستر لوس ان روايتهُ ليست بمكتملة العناصر من ناحية الفن ولكن ليس من ينكر انها مثل معظم روايات لوس تاريخ اجتماعي للاميركيين في العصر الحديث. وليس من ينكر ان لسنكلر لوس المؤرخ الاجتماعي في رواياتهِ مقام ادبي قريب من الذروة!»

وبعد فاذا لم يكن ديوان الرصافي مكتمل العناصر الشعرية فانهُ ولا ريب تاريخ اجتماعي للشرق الادنى في العصر الحديث. وليس هذا بالاثر اليسير   محمود ابو الوفا

الجاحظ معلم العقل والادب

بقلم شفيق جبري عضو المجمع العلمي العربي. عدد صفحات الكتاب ٢٥٠ صفحة من القطع المتوسط

« فاذا ظهرت الى هذه المحاضرات آثار الانفراد بالفكر وبالشعور دون الانسحاب على ذيل أحد، فقد بلغت الغاية التي أتوخاها، وسواء علي بعد هذا أكنت مصيباً في فكري وشعوري أم كنت مخطئاً فيهما »   شفيق جبري

بهذه الكلمات الواضحة الحكيمة يصدّر الاستاذ شفيق جبري كتابه النفيس أو على الأصح محاضراته الجديدة التي ألقاها على طلبة كلية الآداب في دمشق، وفي هذا التصدير القصير يرى القارىء صورة واضحة المعالم دقيقة التفاصيل لمؤلف كتاب الجاحظ، ولو أن كاتباً منصفاً يتوخى النزاهة والدقة والانصاف قرأ هذه المحاضرات من غير أن يقرأ هذا التصدير لكان اول ما يلاحظ على كاتبها ميله إلى الانفراد بالفكر وبعده الشديد عن التقليد الاعمى والجري على اساليب التعبير التي ألفها أكثر المؤلفين في هذا العصر حتى كادت تصبح (كليشيهات) محفوظة. ولو أن هذه هي كل ما في الكتاب من مزايا لألحقنا الاستاذ الفاضل مؤلف الكتاب بطائفة من غلاة المجددين لا يسر الاستاذ أن يحشر في زمرتها، فان كثيراً من المجددين في هذا العصر يكرهون التقليد اكثر مما يكرههُ مؤلف الكتاب وينفرون منهُ أكثر من نفوره.

ماذا ، بل منهم من آلى على نفسه ان يعارض كل رأي قديم وينقض كل ما أجمع عليهِ القدماء بالحق وبالباطل رغبةً في اقناع الناس بأنهُ مبتكر غير مقلد ، حر غير مقيد ، لا ينسحب على ذيل أحد — على حد تعبير المؤلف — ولا يعبأ بعد ذلك أكان مصيباً في فكره ، وفي شعوره ، أم كان مخطئاً فيهما ، كما يقول الاستاذ شفيق ، ولكن شتان بين المذهبين ، وان كان اسلوب التعبير عنهما واحداً ، فان اولئك يتنكبون الجادة ، ولا يعبأون بالحقيقة ، ولا يُعَنّون أنفسهم بالبحث عن المصادر وتمحيص المقدمات والوصول الى نتائج صحيحة يقرها العقل والمنطق . وليس يعنيهم ان يجيدوا البحث ويمحصوه بقدر ما يعنيهم ان يشتهروا بالطرافة والابتكار والبعد عن التقليد

اما الاستاذ شفيق فله مذهب آخر يخالف مذهب اولئك المسرفين كل المخالفة ،فهو يكره التقليد كل الكره ، ولكنه — الى ذلك — يحرص على الحقيقة كل الحرص ، وهو لا يندفع وراء رأي مشهور وعبارة مقررة محفوظة ، ولكنهُ — مع ذلك — يحرص على النصوص والاسانيد ويعتز بها كل الاعتزاز بعد أن يقرها عقله ويرضاها منطقه ، وبعد ان يضعها في بوتقة البحث ، وثمة يستشهد بها الاستاذ ليحق حقًّا او يزهق بها باطلاً ، فهو يستعمل كل أدوات البحث المشروعة ويدقق ويمحص ما شاءت له دقته وتمحيصه ، فاذا اصاب فقد أرضى نفسه ، وأرضى الحقيقة معه ، واذا أخطأ فقد بذل ما في وسعهِ ، ولم يأل جهداً في الوصول الى الصواب ، ثم هو لا يعنيه بعد ذلك أن يكون مصيباً في فكره وفي شعوره ، او مخطئاً فيهما كما يقول

هذه كلمة موجزة سريعة نكتبها للقارىء انصافاً لمؤلف الكتاب وهي — كما رأى القارىء — نقيصة في غيره ، ولكنها فضيلة فيه ، فقد كاد ينقسم الباحثون عندنا الى قسمين مغالين في الجمود ومغالين في التجديد أولئك لا يجرؤون على مخالفة القدماء والبعد عن آرائهم قيد شعرة ، وهؤلاء لا يطيقون صبراً على موافقة القدماء في اي شيء مهما أيدته النصوص التي لا سبيل الى المكابرة فيها رغبةً في الجدة والطرافة أو جرياً وراء نظريات خاطئة تلقفوها بلا روية ولا تمحيص عن الفرنجة

وقد تكاتفت فئة من افاضل الباحثين في السنين الاخيرة على درس الجاحظ والعناية بآثاره ، واذاعة فضائله ومزاياه الباهرة على الناس ، وهي جهود مشكورة ستعود بأحمد النتائج على الأدب العربي والبيان العربي ، وقد وفق الاستاذ شفيق في كثير من فصول الكتاب توفيقاً عجيباً جديراً بالاغتباط والثناء والاعجاب ، وليست تتسع هذه الكلمة الموجزة السريعة الى عرض آرائهِ المبثوثة في كتابه ومناقشتها وهو يقع في مائتين وخمسين صفحة ، فلنجتزىء بقوله في الفصل الذي كتبه عن تحقيق الجاحظ اذ يقول :

« فالجاحظ لم يفته فضل العيان والتجربة ، وان فاته في بعض الاحيان روح الترتيب في الذي عاينه ، او جرب فيه ، او فاتهُ خيال العالم ، وأعني بهذا الخيال قدرة العالم على التصميم ، وعلى الحزر والحدس لاستنباط القوانين العامة ، أو فاته التمكن من انشاء المقاييس العلمية، فقد نجد كثيراً من معارفه مبعثرة لا يجمعها نظام واحد

وكما جرب وعاين فقد سمع : وكان في معرفة السماع شديد التثبت والتوثق ، ولقد ضم إلى هذه المذاهب كلها ، الى التجربة والعيان والسماع ، مذهباً آخر وهو العقل ، فقد جعل العقل دليلاً في مجامع أموره ، فما كان يصدق الاَّ ما تثبته الادلة ، ويحققه الامتحان ، فالعقل في نظره انما هو الحجة في حكم الامور . وقوله :

« ولم يقتصر الجاحظ على مؤاخذة ارسطاطاليس بأنهُ لم يعتمد في تحقيقهِ على العيان والسماع والامتحان وانما عاب عليهِ في بعض الاحوال انهُ اذا تكلم على حيوان فانهُ لا يستوفي عجائب هذا الحيوان ، من هذا كلامه على الفيل :

« وما أعجب ما قرأت لصاحب الحيوان في كتاب المنطق ، وجدته وقد ذكر قصر عنقه ولم يذكر انقلاب لسانه ، وذلك أعجب ما فيهِ ، ولم ينظر في كم يضع ، ولا مقدار مدة حمله ، وكيف يخرج من بطن أمهِ نابت الاسنان . » الخ الخ

وقد عرض الاستاذ شفيق جبري الى كثير من النواحي الرائعة للجاحظ وأدبه وثقافته، فذكر لنا كيف كان النقد قديماً في لغة العرب ثم تدرج في سبيلهِ الى الكمال ، وذكر لنا أول عهده بالجاحظ ، ونواحي الجاحظ ، ووطن الجاحظ ، وحياته ، وثقافته ، وحرية الفكر في عصره، والزندقة في عهده ، وأثر الانقلاب الفكري في نفسهِ ،وأصوله في التحقيق ،واعتماده على التجربة والعيان ، واستعانته بالعقل ، ونقده العلمي ، وطريقته في الشك والتعليل ،ومذهب المعتزلة الجاحظية، وشعور الجاحظ الديني ، ومذهبه في التفسير والتأويل ،وضحكه ، وتهكمه، واسلوبهُ في النقد ، ورأيه في التوليد والشعر ،واهتمامه بالصنعة ،وطريقة تفكيره ،وروعة فنه

وبعد ، فقد أحسن الاستاذ شفيق جبري في كتابه « المتنبي » الذي عرضنا له بالنقد والتحليل في مقتطف العام الماضي كما احسن في كتابهِ الجاحظ ، وانا لجهوده الموفقة المحمودة القادمة لمنتظرون ، اكثر الله من امثاله ، وبارك الله في جهوده المثمرة الخصبة ، ولقد صدق الاستاذ الامام محمد عبده حين قال : « كل طعام يتناوله الصحيح ينقلب الى صحة، وكل طعام يتناوله المريض ينقلب الى مرض » فقد انتج الاستاذ شفيق جبري في محاضراته اشهى الثمار وخلف لنا في بحوثه اروع الآثار

***

فتح الاندلس : رواية تمثيلية شعرية

تأليف فؤاد الخطيب

طالعت هذه الرواية التمثيلية ، وعنيت بها خاصة لانها من قلم الاستاذ الخطيب ، ولشعر الخطيب عندي منزلة ممتازة . فقلت لعله يجيد في الرواية التمثيلية ، كما يجيد في الشعر . فهل حقاً اجاد فن الرواية ؟ وهل تثبت روايته اذا وازناها بغيرها من صنع اقطاب الفن ؟ وأين يكون مكانها بجانب روايات شوقي مثلاً وهي شبيهة بها كل الشبه ؟ الرواية تاريخية ملخصها ان القوط الذين حكموا الاندلس اساءوا الحكم وعاثوا في البلاد فساداً ، فاستغاث الشعب المظلوم بالعرب ، فأغاثوه ، وجاء طارق بن زياد البطل المشهور ، صاحب الخطبة التاريخية الفذة ، ارسله الامير البطل موسى بن نصير ، واخيراً تم للعرب الفتح ، وامتد سلطانهم حتى عمّ الاندلس بأجمعها: هذه هي الرواية يعرضها الاستاذ الخطيب في فصول ثلاثةٍ ، هي اشبهُ بالعرض من اي شيء آخر ، ففي الفصل الاول ترى امراء العرب واحداً بعد واحد . وفي الفصل الثاني يعرض عليك المتآمرين بملك القوط ، وفي الثالث يعرض عليك لذريق في مجده وخلاعتهِ ، ثم يختم القصة بانتصار العرب ، وبقتل لذريق

يعرض عليك كل هذا في شعر رائع بليغ يصل الى القمة احياناً ، فعند ما يتكلم عن مجد العرب تسمع صليل السيوف ، وترى بعينيك نار المعمعة ، او عند ما يسمعك سعداً يشكو غرامهُ يرق الشعر حتى يصير جدولاً يسيل ! وسأورد امثلة من ذلك الشعر الرصين

اما الحبكة المسرحية ، اما العقدة ، والمفاجآت التي تبنى عليها الرواية فغير موجودة ، لم يعرها المؤلف اهتماماً ، لانهُ عني بالشعر ، وبالعرض التاريخي ، وبالمجد القديم يبعثهُ حيًّا ، فيروح يتخير المواقف له ويخلقها خلقاً ، ولقد يغرق في ذلك فيأتي بلا شيء . خذ مثلاً مؤامرة اليهود في الفصل الثاني ، فانهم يجتمعون ويتكلمون كثيراً ، يريدون ان يساعدوا العرب ، فيفكرون في السيوف عند العرب ، السيوف البتارة ، يفكرون في المال ، لانهم يهود ، العرب اغنياء ، اذن تنتهي المؤامرة بالدعوات ! والحق انك لتضحك ملء شدقيك حين تنتهي مؤامرة الاسرائيليين عند ذلك . ولكن الجميل في الرواية ، انهُ حين يريك لذريق في فجورهِ وفسقهِ ، لا يزال يحتفظ ببطولتهِ ، فتؤمن ان النفوس القوية مهما تطرق اليها الفساد ، تبقى فيها جوانب كثيرة من العظمة ، يتجنبها الفساد ويتهيبها !

ولنورد امثلة من الشعر البليغ الذي يروق ترديده السمع ويعذب

ما الذي كان على الظبي الأغنّ بعد برح الهجر لو رفّه عني
انا لا ارجع عن عهد الهوى ولئن كان الهوى صفقة غبن
صدق الباكي على احبابهِ ايها الدمع على الشوق اعني !

ومن خطبة طارق :

اماكم الاعداء والبحر خلفكم وليس لكم الاّ العزيمة والصبر
وانتم من الايتام اضيع موقفاً بمأدبة القوم اللئام وهم كثر
كذلك يتم في الجزيرة انها لمنزلكم بالعز او انها القبر !

ومن حوار بين الشيخ المتقاعد والشباب المتحمس ! :

تالله ما الموت الاّ العيش في ضعة من يرض بالثوب نجعل ثوبهُ الكفنا
ان يعوز العرب في بنيان دولتهم هدم الحياة بذلنا الروح والبدنا
وليجعلوا من بقايانا ومن دمنا طيناً وماءً فيبنوا الملك والوطنا
يا سيدي الشيخ ان طأطأت ممتهناً فهل يطأطيء كل الشعب ممتهنا

والشعر كلهُ من هذا الطراز العالي المشرق :

وبالجملة للمؤلف كل التهنئة ، فاذا كان هذا هو استهلاله فهي براعة كبيرة ! وانا لما تنتجهُ عبقريته في المستقبل لمنتظرون !

الدكتور ابراهيم ناجي

المطبوعات الجديدة

رأينا بعد اطالة النظر في موضوع المطبوعات العربية الجديدة ونقدها ان نختار كل شهر بضعة كتب ونعنى بالكتابة عنها كتابة وافية ينصف بها الكاتب والموضوع والقارىء معاً. وهذا ما تفعله المجلات الكبيرة في بلدان اوربا واميركا . فنحن نطالع مجلة نايتشر العلمية الاسبوعية فنطالع فيها مراجعات وافية لكتابين او ثلاثة كتب كل اسبوع ثم اشارة الى الكتب الاخرى او نبذ موجزة عنها

وقد حالت عنايتنا — في هذا العدد — بأربعة من اهم الكتب العربية التي ظهرت حديثاً دون العناية بكل الكتب العربية الجديدة التي ظهرت في خلال فصل الصيف واهديت الينا فنكتفي بذكرها الآن على ان نعود الى العناية ببعضها في اعداد تالية وهي :

اهدت الينا المطبعة العصرية بمصر — جريمة سلفستر بونار تأليف اناتول فرانس وترجمة نعمة طازار ولها مقدمة بقلم محمود ابو الوفا — ومريم المجدلية تأليف موريس مترلنك ترجمة الارشمندريت انطونيوس بشير — ومراقي النجاح بقلم الارشمندريت انطونيوس كذلك ✻ ومطبعة التعاون بمصر العدد الاول من مجلة « ابولو » لصاحبها الدكتور ابو شادي وهي مجلة فنية لخدمة الشعر الحي ✻ وعبد اللطيف الطيباوي بحثاً تاريخياً في جماعة اخوان الصفا ✻ وادوار مرقص كتاب فن التعريب عن اللغة الفرنسية ✻ ومجلة الحارس البيروتية كتاب اسماء البنات ومعانيها وعلاقاتها التاريخية واشهر نساء دعين بها ✻ وعبد اللطيف النشار مجموعتين من قصص رابندرانات طاغور ✻ والدكتور فدمر بحثاً المانياً في ادب محمود تيمور ✻ ومجلة المشرق درس الرسالة الحاتمية بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الادب العربي في كلية القديس يوسف ببيروت ✻ وادارة الهلال كتاب المسرح الجديد وهو مجموعة ملخصات لاشهر القصص المسرحية بقلم الاستاذ محمود كامل ✻ مكتبة صادر ببيروت ترجمة رواية المثري النبيل لموليير بقلم الياس ابو شبكة — وقصتي عيد سيدة صيدنايا وفاجعة حب تأليف انطون سعاده وكتاب المذهب الطبي الجديد بقلم اسكندر زخور والدرة اليتيمة لابن المقفع ضبطها وعلق حواشيها جرجي شاهين عطية ✻ والمكتبة العربية بدمشق رسالة الاحنف بن قيس ملخصة عن تاريخ ابن عساكر ✻ ومطبعة دار الايتام بالقدس ترجمة رواية ناثان الحكيم تأليف الشاعر الالماني لسنغ وترجمة الياس نصر الله الحداد ✻ ومطبعة الطلبة بمصر كتاب تاريخ اللغات السامية بقلم محمود الطحلاوي ✻ والاديب محمد قاييل قصة له موضوعها العزلة ✻ ومطبعة العلوم بمصر ترجمة علي ابن أبي طالب بقلم الاستاذ احمد زكي صفوت ✻ ومطبعة العرب بالقدس كتاب العراق تأليف السر نيجل دافدسون وترجمة عجاج نويهض وله مقدمة بقلم اسعد داغر ✻ والمحامي انور شاؤل ببغداد ترجمة تمثيلية شريدان في ولبم تل ✻ ومطبعة بابيل بدمشق رواية لقيط الصحراء تأليف احمد تقي الدين

باب الاخبار العلمية

بناء المادة الكهربائي

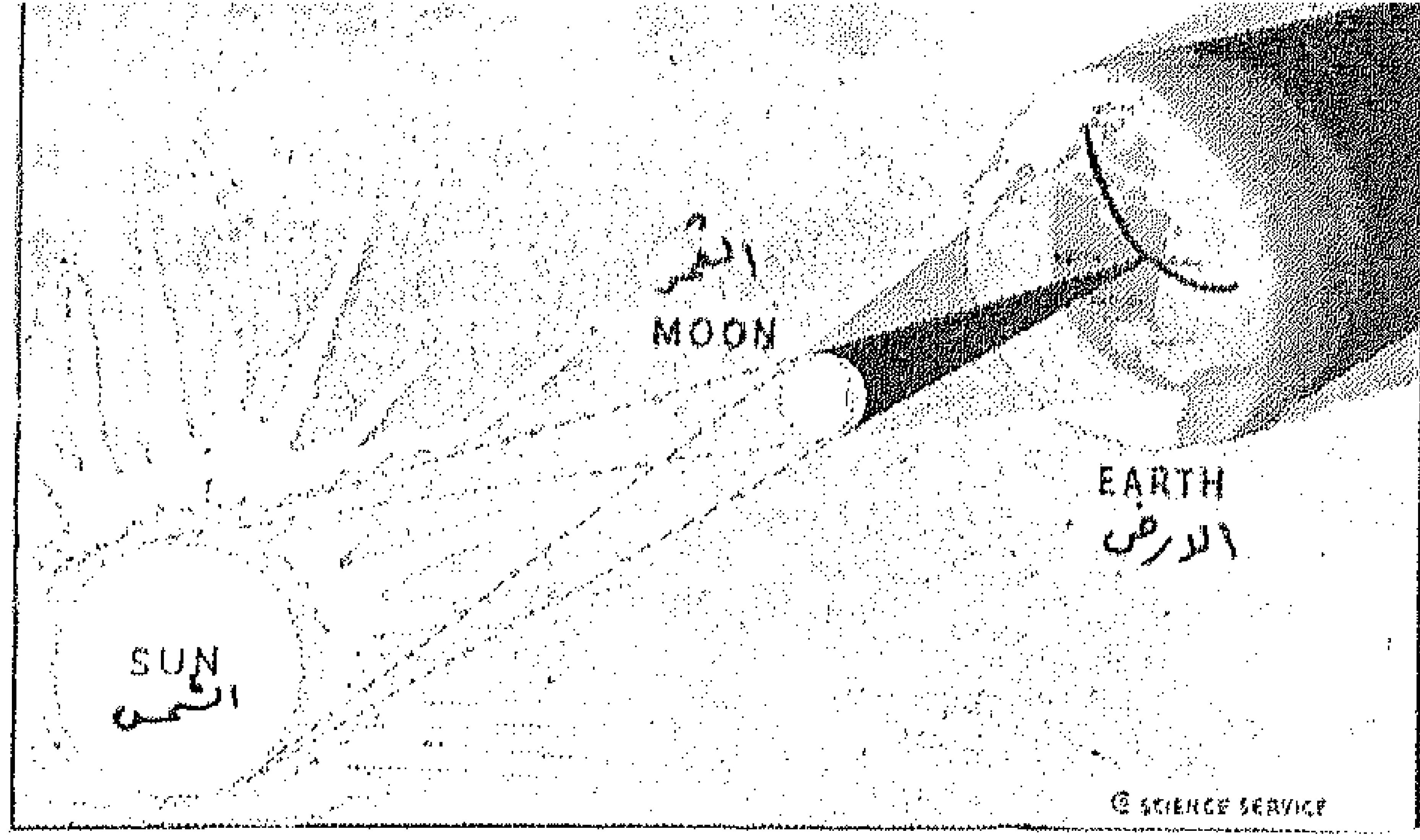
للسر الفرد يونغ
رئيس مجمع ترقية العلوم البريطاني ملخصاً من خطبة الرآسة فيه

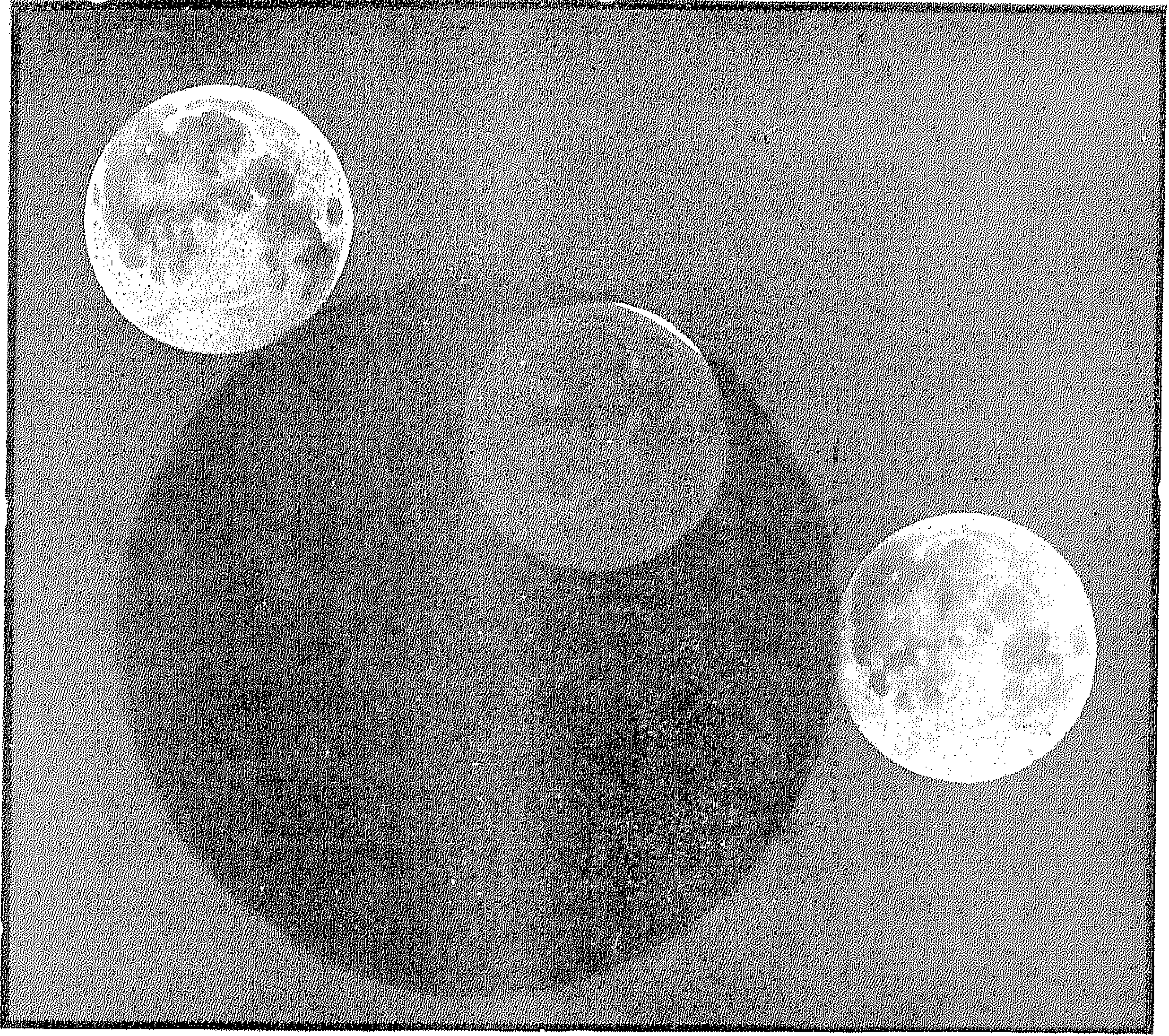
في اواسط العقد الاخير من القرن الماضي بدأت نهضة عجيبة في علم الطبيعة كان مدارها « الذرة » ثم امتدت منها الى « النجوم » . ففي ١٨٩٥ كشف رنتجن الالماني الاشعة السينية (اشعة اكس) وفي السنة ١٨٩٦ كشف بكرل الفرنسي ظاهرة الاشعاع وفي السنة ١٨٩٧ كشف طمسن الانكليزي الكهرب (الالكترون) فبعثت هذه المكتشفات في اذهان الطبيعيين شعور الدهشة والحيرة ولكنها في الوقت نفسهِ دفعتهم الى ميادين جديدة من البحث والتجريب فهبوا الى تجهيز معاملهم بالادوات الموافقة لاساليب البحث الجديد فتلا ذلك تيار من المكتشفات الجديدة ولما ينقطع بعدُ . وقد انبئنا في الشهور الاخيرة انباءً جديرة بكل عنايتنا

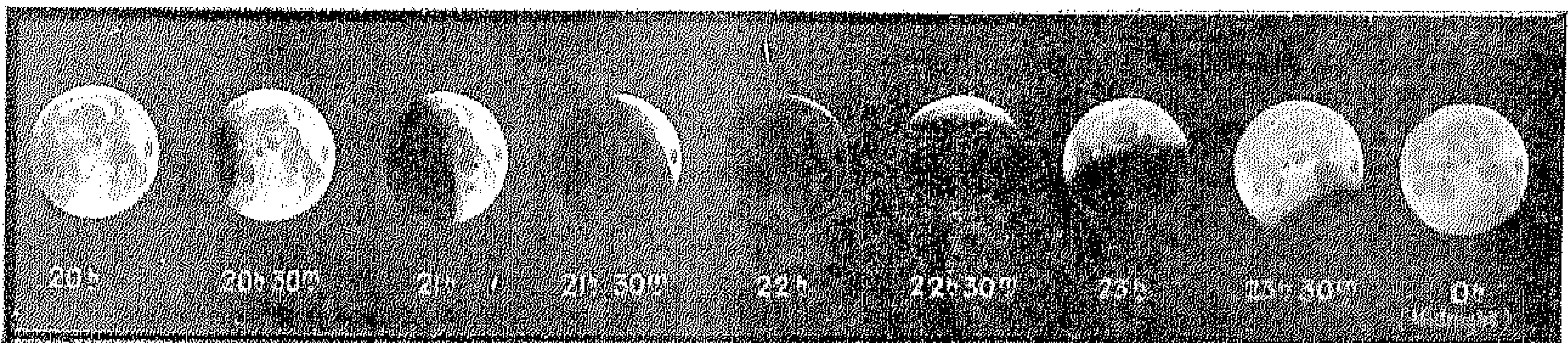
واظنني اكون ملبيًا مقتضى الحال اذا انا ذكرت اهمَّ ما تمَّ في هذه الناحية في نظري

اننا نعلم الآن بفضل المباحث التي قام بها طمسن ورذرفورد وبوهر ان الذرَّة مبنية بناءً شديد التعقيد من مادتين اساسيتين — هما الالكترونات وهي وحدات لا تجزأ من الكهربائية السالبة والبروتونات وهي وحدات لا تجزأ من الكهربائية الموجبة . فالمسألة في ظاهرها بسيطة فكاننا عدنا الى غرفة طفل وقد اعطي بين العابهِ طائفتين من الكعاب متساويتين عدداً وكلٌّ منهما مؤلفة من كعاب متماثلة ثم طلب اليهِ ان يبني هذا الكون المادي الرحيب المنوَّع بهما . انها كعاب لا تحطَّم ولا تتغيَّر. اما فيما يرتبط بشحنتها الكهربائية فشحنة الكعب في الطائفة الواحدة تعادل وتعدّل شحنة الكعب في الطائفة المقابلة . ومع ذلك ترى ان نصيب كلٍّ منهما من كتلة الذرة يختلف عن نصيب الآخر. فنصيب البروتون — لسبب ما زلنا نجهله — من كتلة الذرة يفوق نصيب الالكترون نحو ١٨٤٠ ضعفاً

وكل مادة مبنية من هاتين الطائفتين من الكعاب . فاذا وازنت بين مادتين مختلفتين وجدت الاختلاف بين خواصهما الكيمائية ناشئاً من الاختلاف في ترتيب الكعاب الموجبة والسالبة في بنائهما . وكل ذرَّة ، في حالتها الطبيعية السويَّة ، يجب ان تحتوي على اعداد متساوية من الكهارب والبروتونات



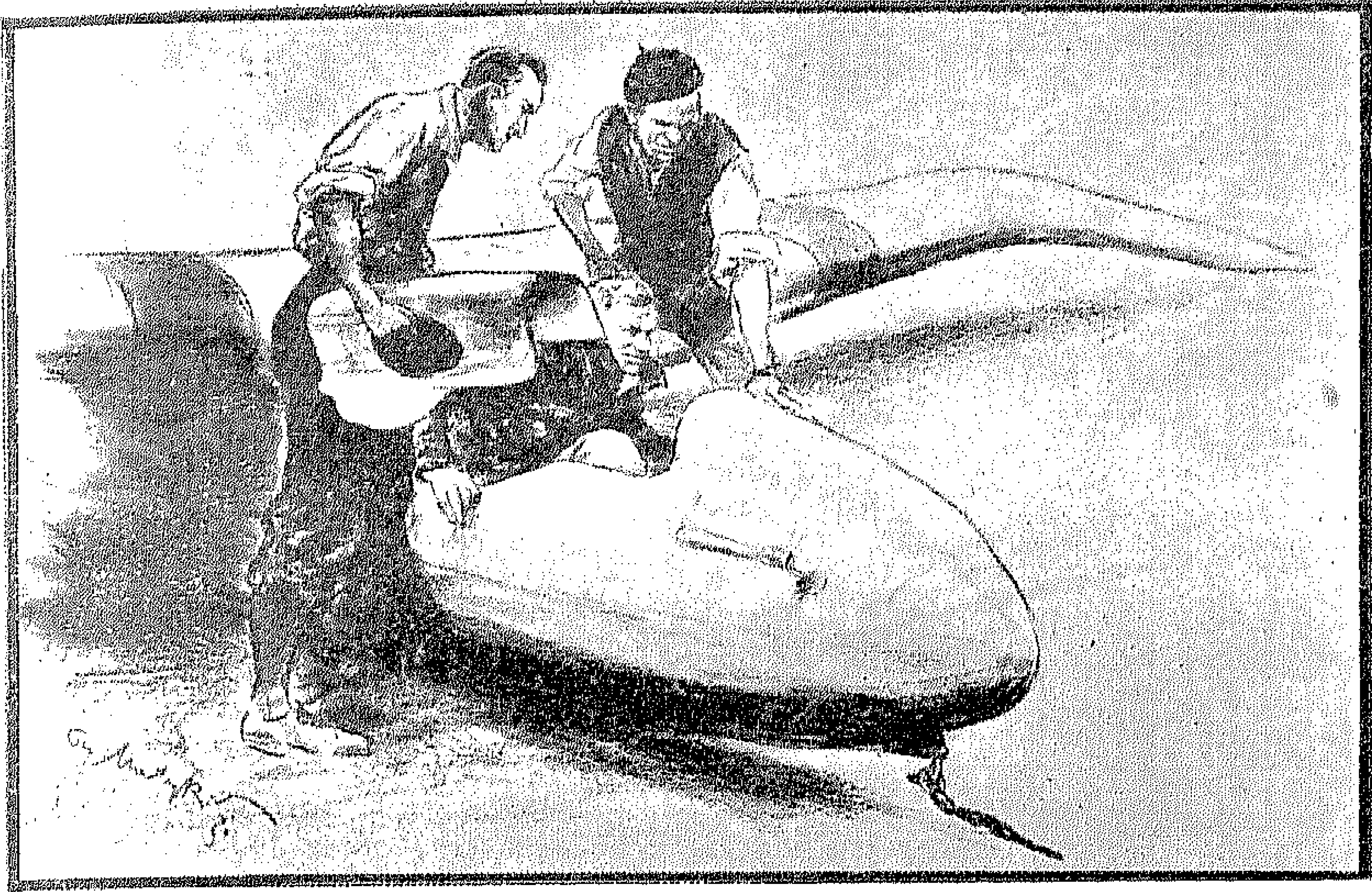


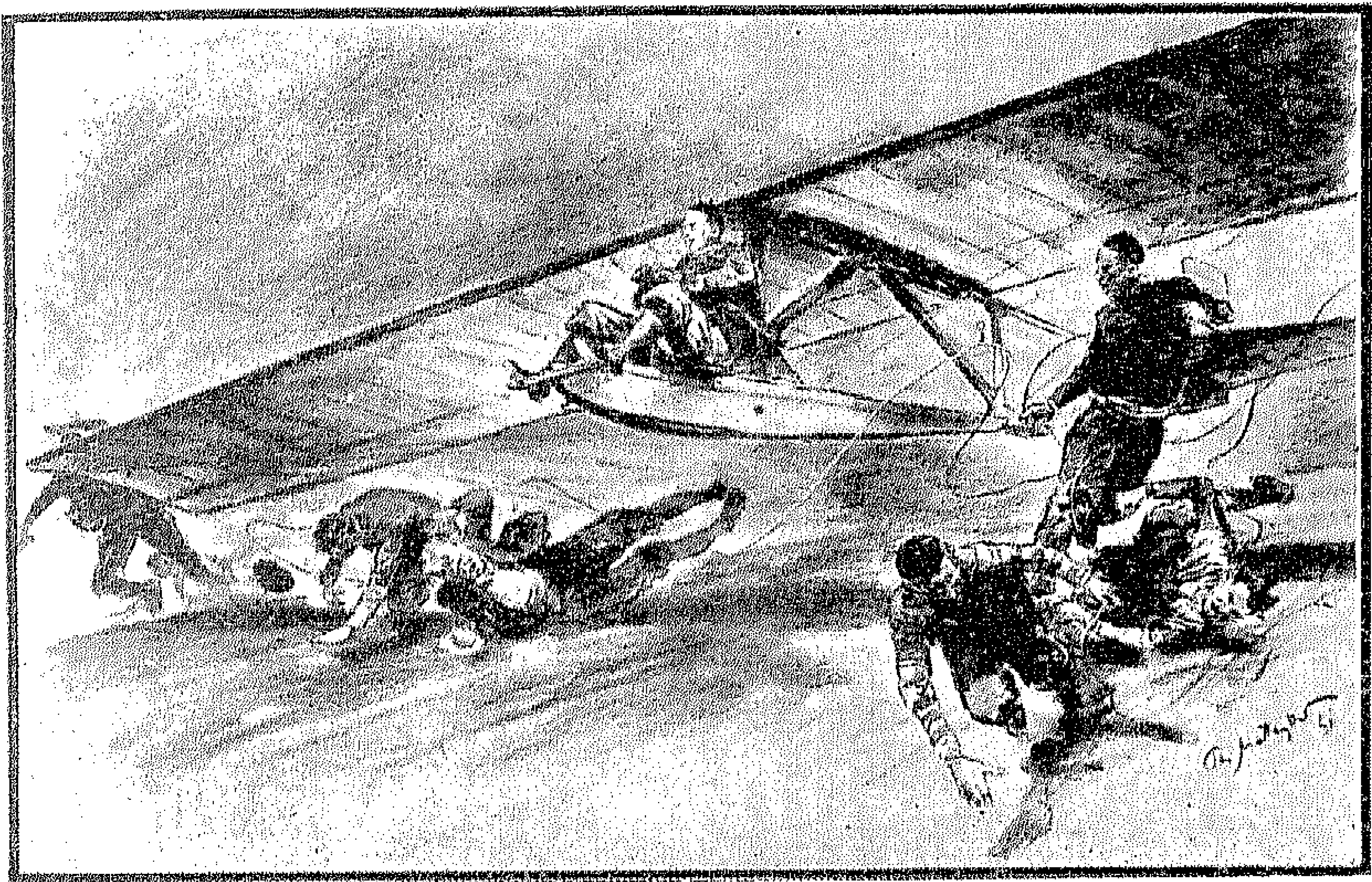


في الصورة العليا رسم يمثل كسوف الشمس الاخير (٣١ اغسطس) وقد شوهد كليًّا في شمال اميركا من اعالي بكندا الى شمال الولايات المتحدة الغربي.

والصورتان التاليتان تمثلان خسوف القمر في ١٤ سبتمبر الماضي

مقتطف اكتوبر ١٩٣٢ — الاخبار العلمية





السابحات في الجوّ

كتبنا قبلا عن الرياضة الجديدة وقوامها الطيران بطيارات لا محرّك لها فيعتمد الطيّار اولاً على جرّ الطيّارة فوق سطح منحدر ثم يسبح في الجوّ مستعملا تيارات الهواء . وقد تمكّن بعض هؤلاء الطيارين من البقاء نحو ١٥ ساعة في الجو. وهذه الصفحة يرى القارىء في اعلاها الطيار راكباً طيارتهُ واثنان يدفعانها وفي اسفلها الطيارة وقد ارتفعت عن سطح الارض

اما البروتونات فمجتمعة في قلب الذرّة مع بعض كهارب فيتألف من مجموعها كتلة صلبة كثيفة تعرف بالنواة. ومعظم وزن الذرة في نواتها ولكنها مع ذلك لا تشغل من حيز الذرّة الاّ جزءاً يسيراً. اما الالكترونات التي في النواة فعملها ربط البروتونات بعضها ببعض. واما الالكترونات التي خارج النواة فتؤلف حولها منطقة او مناطق متوالية بعيدة بعداً نسبيًّا عن مركز الذرّة مما يجعل بناء الذرّة كثير الخواء. وقد تحدث انقلابات في هذا البناء بفعل العوامل الخارجية فيزول كهرب من الكهارب الخارجية فتصبح بقية الذرّة ذات شحنة كهربائية موجبة وهو التأيُّن Ionization. ولكن الكهرب الشارد قد يعود او يحلُّ غيرهُ محله، فاذا حدث هذا انطلق قدر قليل من الاشعاع. وقدر الاشعاع الذي ينطلق لدى انتقال الكترون من منطقتهِ الى منطقة تالية يدعى «الفوتون». والفوتون يتصرف آناً كدقيقة مادية وآناً كامواج. ولا بدَّ من التسليم الآن بذلك مع عجزنا عن التوفيق بينهما. و«الفوتون» لهُ قدر معيَّن من الطاقة ويتذبذب تذبذباً معيَّناً. اما طاقتهُ فتوقفة على المنطقة حول النواة التي هبط منها والمنطقة التي هبط اليها. وهذا يعيّن سرعة تذبذبهِ. ومن الغريب ان سرعة تذبذب الالكترون تعدل طاقتهُ مقسومة على القيمة الطبيعية الثابتة التي اكتشفها بلانك الالماني ودعاها الكونتم. فالذرات في عنصر واحد متماثلة في مناطق الكتروناتها حول نواها. وهذه المناطق لها صلة وثيقة بالخطوط الطيفية الخاصة بالعنصر. اما ذرات العناصر الرزينة (الثقيلة) فمناطق الالكترونات حول نواها كثيرة ولذلك نرى خطوطها الطيفية متعددة

وما يجب ان نعلمهُ هو ان كل المادة مبنية من نوعين من الكهربائية — البروتونات والالكترونات مع ان الكهربائية كانت في نظر الباحثين الكهربائيين الاول صفة من صفات المادة لاغير. اما نحن فنحسبها — المادة نفسها — الشيء الاساسي الذي تبنى منهُ الذرات

اما اذا سألتم ما الكهربائية فلن تحصلوا على جواب الاّ انها شيء تجدونهُ في نوعين سالب وموجب والواحد منهما يجذب الآخر. ثم عرض الخطيب للنيوترون وتحطيم الذرة مما سوف نفصله في مقالتين على حدة.

الزكام: بحث ظريف فيه

مدى الزكام العادي ثلاثة ايام او اربعة. فالذين يشكون اصابتهم بالزكام «طول فصل الشتاء» انما يشكون اصابتهم بعدوى ثانوية تلزمهم بعد شفاء الزكام. هذا على الاقل ملخص رأي الدكتور سملي Smillie استاذ الصحة العامة في جامعة هارفرد. فقد اجرى الدكتور سملي مباحثهُ في الزكام في اربع جماعات من الناس احداها في الاباما بالولايات المتحدة الاميركية والثانية في لابرادور في شمال كندا الغربي والثالثة في جزيرة سبتسبرجن التي يطير منها الذين يحاولون الطيران الى القطب الشمالي والرابعة في احدى جزائر الاتلنتيكي النائية

في هذه الجماعات من الناس كان الاتصال بالعالَم الخارجيّ قليلاً فاستطاع الدكتور سملي واعوانهُ ان يتتبعوا سيْرَ الزكام من بدئهِ من دون مايعقّد التتبُّع . فوجدوا ان الزكام معدٍ وانهُ ينتشر باللمس والاختلاط . ففي جماعة سبتسبرجن لم يصب احد بزكام — من نوفبر — لما اقلعت آخر سفينة منها — الى ابريل بعد وصول اول سفينة بيوم واحد . فالمعدّنون في تلك المستعمرة خمسمائة معدّن يعيشون في بيوت دافئة رطبة ويخرجون منها كلَّ صباح الى عملهم في جوّ شديد البرد وريح هوجاءَ فيعملون في مناجم حيث الحرارة تهبط تحت درجة الجمد احياناً ثم يعودون الى بيوتهم الدافئة ليلاً . وهذه الاحوال في الرأي السائد مؤاتية كلَّ المؤاتاة للاصابة بالزكام ولكن هؤلاءِ المعدنين لم يصابوا بهِ

فلما وصلت السفينة الاولى من الخارج في ابريل فحص سملي واعوانهُ ركابها وملاحيها قبل نزولهم الى اليابسة فكان احدهم مصاباً بزكام شديد . وفي اليوم نفسهِ ذهب موزع البريد من سبتسبرجن الى السفينة واصيب بالزكام الاول . فلم تنقضي ٣٦ الى ٤٨ ساعة حتى اصيبت الجماعة بوافدة من الزكام . وما شاهدهُ الدكتور سملي في جماعة سبتسبرجن شاهده في الجماعات الثلاث الاخرى على بعد الدار بينها وتباين الاحوال . وانما وجد ان الزكام في البلدان الاستوائية اخف وطأة منهُ في البلدان الباردة ولا تعقبهُ عادة اختلاطات مثل اصابة تجاويف الانف او الاذن او الشُعب الرئوية او النزلة الصدرية . وهذه الاختلاطات — عدا النزلة الصدرية — تطول احياناً وتحسب انها الزكام نفسهُ

والزكام الواحد يطول ثلاثة ايام او اربعة . فاذا شفيتَ منهُ تماماً اصبحت ذا مناعة ضدّ الزكام تدوم ثلاثة اشهر . اي اذا شفيت من زكامك شفاءً تاماً فلا تصاب بآخر قبل انقضاء مدة المناعة الموقتة وهي نحو ثلاثة اشهر . ولكن اذا اهملت الزكام نفسهُ فقد تصاب بعدوى ثانوية هي امتداد الزكام الاول فيبدو كأنك تصاب بزكامٍ تلو الآخر

ولم يعثر الدكتور سملي ولا اعوانهُ على مكروب يحدث الزكام وانما وجد غيره من الباحثين ان سبب الزكام Virus فيروس مرشّح . فاللقاح ضدّ الزكام لا يصنع من هذا الفيروس وانما يصنع من الميكروبات التي تحدث العدوى الثانوية . فاللقاح لا يمنع زكاماً قط ولكنهُ من الوجهة النظرية على الاقل يستطيع ان يمنع العدوى الثانوية التي تنشأ من الزكام

الانسان النيندرتالي في فلسطين

اعلن الدكتور مكردي MacCurdy احد اساتذة جامعة يايل ، في اول الصيف ان بعثة المدرسة الاميركية للبحث السابق للتاريخ والمدرسة الأثرية البريطانية عثرت في كهف على مقربة من حيفا على اربعة هيا كل للانسان النيندرتالي يرجع عهدها الى قبل ٧٥ الف سنة . ويختلف انسان فلسطين النيندرتالي عن انسان اوربا النيندرتالي في ان ذقن الفلسطيني

ليست مرتدة وجبهته اعلى . ويتشابهان في بروز حجاجي العينين واسنان الفك الاعلى وقوة العضلات كما يتبين من درس العظام

ويذكر قراء المقتطف ان المستر تورفيل بيتر الانكليزي عثر سنة ١٩٢٥ في كهف تبغة على مقربة من طبرية على جمجمة انسان نيندرتالي غير كاملة فلم تصلح اساساً للمقابلة بين اناس ذلك العصر في فلسطين واوربا

وجمجمة تبغة اول اثر للانسان النيندرتالي عثر عليهِ المنقبون في آسيا

الاشعة الكونية : تعليل جديد

ذهب الدكتور اسكندر دوڤيليه Dauvillier احد اساتذة معهد العلوم العالية في باريس مذهباً جديداً في تعليل منشأ الاشعة الكونية ومصدرها فقال ان كهارب سريعة تنطلق من الشمس بسرعة تقارب سرعة الضوء تقريباً فتحدث لدى اصطدامها بذرات الهواء الاشعة التي نحسبها قادمة الينا من رحاب الكون . ومصدر هذه الكهارب البقع اللماعة على سطح الشمس lacunae حيث الحرارة تبلغ نحو سبعة آلاف درجة بميزان سنتغراد. فتنطلق الكهارب بسرعة غير عظيمة اولاً ثم تزداد سرعتها زيادة عظيمة اذ تمرُّ في جوّ الشمس الموجب . وجوّ الشمس المؤلف من عنصري الايدروجين والكلسيوم في الغالب موجبٌ لأن الاشعة التي فوق البنفسجية المنطلقة من قلب الشمس تصدم ذرات هذين العنصرين فتطرد بعض كهاربها . والذرة اذا فقدت احد كهاربها اصبحت شحنتها موجبة ثم اذا اقتربت الكهارب من الارض انجذبت بفعلها المغناطيسي وتجمعت اقواساً ثم اذا دخلت طبقات الجوّ العليا اطارت من ذرات غازاته بعض كهاربها وهذه مصدر الضوء القطبي . فاذا قيست اقواس الاضواء القطبية امكن الوصول بعملية رياضية الى سرعة الكهارب الاولى المنطلقة من الشمس والتي جذبتها مغناطيسية الارض . والظاهر ان سرعتها لا تقلُّ الاَّ ٣٠ سنتمتراً عن سرعة الضوءِ في الثانية . واذاً فهي تصل الارض في بضع دقائق (يصل النور من الشمس الى الارض في ثماني دقائق وثلاث ثوانٍ) وآثار هذه الكهارب تحيط بالارض من كل النواحي فيبدو للباحث انها تأتينا من نواحي الفضاءِ على السواء. وقد حسب دوڤيليه طاقة هذه الكهارب فوجدها قريبة جداً من طاقة الاشعة الكونية ويرى من العبث البحث عن تعليل آخر لهذه الاشعة

تجديد العناية بسكنى الزهرة

للزهرة جوٌّ تسبح فيهِ غيوم تحجب سطحها عن الراصد الارضيّ . ويقدَّر عمق الهواءِ تحت هذه الطبقة باربعة آلاف قدم . ولكن اذا رصدت الزهرة وهي عابرة وجه الشمس — أي حين تتوسط بين الارض والشمس — بدت حولها هالة من الضوءِ ليست الاَّ اشعة الشمس وقد عكستها طبقة الغيوم التي تحيط بالزهرة

الى هذه الهالة وجّه عالمان من علماءِ مرصد

جبل ولسن التلسكوب الكبير الذي فيهِ وغرضهما حلُّ الاشعة التي تحت الاحمر في ضوء هذه الهالة . فوجدا ان طيف هذه الاشعة تنقصها امواج يمتصها عادة غاز ثاني اكسيد الكربون. فحكما بان جوَّ الزهرة يحتوي على هذا الغاز. ولا يخفى ان البحث لمعرفة ما يحتوي عليهِ جوُّ الزهرة من مقومات الحياة — كالاكسجين وغاز ثاني اكسيد الكربون — لم يسفر قبل الآن عن نتيجة ما . فوجود غاز ثاني اكسيد الكربون — وهو من مقوّمات الحياة النباتية لانهُ اساس ما تبنيهِ النباتات من النشاء والسكر وهو كذلك من نفايا الحياة النباتية والحيوانية لان الحيوانات والنباتات تفرزه على اثر تنفسها — باعث على تجديد عناية الباحثين في امكان وجود احياءٍ على سطح الزهرة وبوجه خاص لان درجة الحرارة على سطحها توافق الحياة كما نعرفها على الارض

الشفق القطبي المصطنع

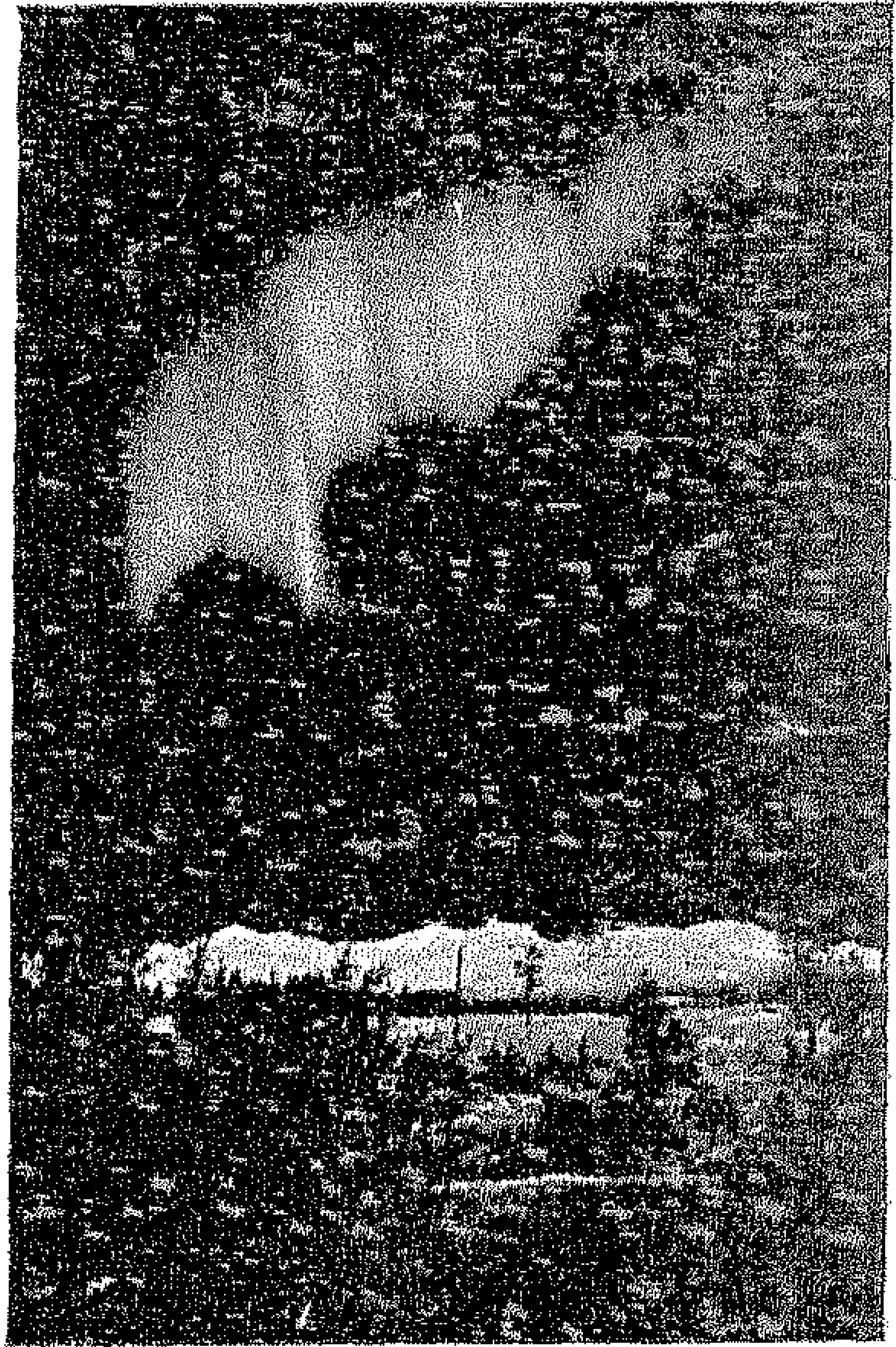
صنع الاستاذ دوفيليه الفرنسي جهازاً يمكنهُ من توليد ضوءٍ في المعمل كالضوء القطبي المعروف «بالشفق القطبي» . ويؤيد في الوقت نفسهِ المذهب الذي علَّل بهِ الاشعة الكونية (راجع النبذة الرابعة في هذا الباب)

اخذ كرة مفرغة من الالومنيوم ووضع داخلها كرة مفرغة كذلك من الحديد تحيط بها اسلاك موصلة للكهربائية لمغنطة الكرة الحديدية متى شاء . ثم وضع الكرتين في كرة كبيرة من الزجاج افرغت الاَّ من قليل من الهواء فضغط الهواء فيها يماثل ضغطهُ في طبقات الجوّ العليا حيث تظهر انوار الشفق القطبي ثم اطلقت في فضاء الكرة الزجاجية — حيث الهواء لطيف كل اللطف — كهارب بطيئة من مهبط (Cahodea) ضغطهُ ٢٠٠ فولط واجرى تياراً كهربائيًّا في الاسلاك التي تحيط بالكرة الحديدية . فلما انطلقت الكهارب في الهواء انحرفت بفعل مغنطيس الكرة الداخلية. وفي اثناء انطلاقها اصطدمت بذرات الهواء فاطلقت منها كهارب ثانوية احدثت اضواءً شبيهة باضواء الشفق القطبي. بل كونت حلقة منيرة حول الكرة الداخلية شبيهة بالشفق القطبي الذي رآهُ العالم نوردنسكيولد(Nordenskjold) سنة ١٨٧٨ ووصفهُ . وتختلف اشكال الشفق باختلاف حقل الارض المغنطيسي

سرعة دوران الشمس

لعلماء الفلك طريقة في قياس سرعة دوران الشمس على محورها بقياس سرعة نقطة معينة في محيط قرصها ولا يبلغ الخطأ في هذه الطريقة زيادة أو نقصاً اكثر من واحد في المائة. وقد قيست سرعة نقطة في محيط قرصها مراراً بين سنة ١٩٠٠ و ١٩١١ فبلغت سرعتها نحو كيلومترين في الثانية. ثم قيست بين سنة ١٩١٥ — ١٩٢٩ فبلغت ١ر٩٢ من الكيلومتر في الثانية وابطأ سرعة قيست في هذه المدة ١ر٩٠ من الكيلومتر . وقد عني بقياسها حديثاً



اربعة مشاهد للشفق القطبي الشمالي صوّرت حديثاً نقلناها هنا على ذكر الرأي الجديد في تعليلها (انظر صفحتي ٣٧٥ و ٣٧٦ من هذا الجزء تحت عنوان «الاشعة الكونية تعليل جديد» و« الشفق القطبي المصطنع»)

الدكتور اقرشد الانكليزي فبلغ متوسط السرعة ٢٫٠١٥ من الكيلومتر في الثانية وهو اكثر قليلاً من متوسط المقاييس بين ١٩٠٠ و ١٩١١ ولذلك يظن ان سرعة دوران الشمس حول محورها يزيد وينقص في مدد كل منها نحو ثلاثين سنة . كما يكثر ضوءها ويقل في مدد كل منها ١١ سنة — وهي مدة الدورة الكلفية (sun-spot cycle)

بعض الماس يولد كهربائية

مما يدعو الى الدهشة ان بعض انواع الماس النادرة شفافة للاشعة التي تحت الاحمر والاشعة التي فوق البنفسجي شفوفها لامواج الضوء . وما هو ادعى من ذلك الى الدهشة ان هذه الانواع النادرة تولد تياراً كهربائياً اذا صوبت اليها اشعة معينة . وقد صرح السر روبرت روبرتسن كيماوي الحكومة البريطانية انهُ امتحن ٢٥٠ نوعاً من الماس فلم يجد الا خمسة تولد تياراً كهربائياً . وقد جرب حديثاً تجربة بماسة منها في حفل من اعضاء الجمعية الملكية بلندن . فاخذ الماسة ووضعها بين قضيبين من الكربون وصوب اليها اولاً شعاعاً من الاشعة التي فوق البنفسجية ثم شعاعاً من الاشعة تحت الحمراء وفي كلتا الحالتين ولدت الماسة تياراً كهربائياً حرف ابرة الغلفانومتر (مقياس كهربائي)

اقدم مدينة في العالم

عثر الباحثون في العراق على ما يحسبونهُ آثار اقدم مدينة في التاريخ عرفت حتى الآن . هذه المدينة تدعى تيب جورا (Tepe Gawra) وهي في شمال العراق ويرتد تاريخها الى ٣٧٠٠ ق . م . والظاهر من كلام الدكتور سبيزر عليها — وهو رئيس بعثة جامعة بنسلفانيا والمدارس الاميركية للبحث الشرقي التي كشفت عنها — ان تخطيط مبانيها وشوارعها يبعث على الاعجاب ببنائها . ففي قلب المدينة كان ميدان فسيح والى شماله معبدان يتصلان بحمامات ومخازن . وقرب الميدان قلعة . والى الجنوب حي السكن . وفي احدى النواحي خزان كبير للماء عمقهُ مائة قدم لاستعمال مائه في ايام الحصار . وبناتها اول بناة في التاريخ — على ما نعلم — عرفوا بناء القناطر . فالكشف عن هذه المدينة يضيف جديداً الى تاريخ « فن العمارة »

وقد كانت آثار هذه المدينة مدفونة حتى عُثر عليها تحت ثماني طبقات مترا كمة فوقها والظاهر ان الطبقة السادسة توازي في قدمها مدينة اور الكلدانيين اما الثامنة فتاريخها اقدم من ذلك بنحو خمسمائة سنة

اشعة الجسم الفتاكة

كشفت طائفة من علماء جامعة كورنل عن اشعة تنطلق من دم الانسان وانامله وانفه او تشع من عينيه وتفتك بخلايا الخميرة وغيرها من الكائنات الدقيقة . وقد عني الاستاذ اوتو ران Otto Rahn البكتيريولوجي بدرس هذه الاشعة من ناحية فعلها بالمكروبات فاسفر بحثهُ عن نتائج حملتهُ على المضي في البحث وحث الآخرين عليهِ

والاستاذ ران الماني تلقى علومه في المانيا وهو الآن استاذ البكتيريولوجيا في جامعة كورنل . فلما بسط نتائج تجاربه على المجمع الاميركي لترقية العلوم الملتئم في الصيف الماضي دهش العلماء لانها تعيد الى الذهن بعض المعتقدات القديمة بان الجسم البشري يؤثر أثراً ضاراً في ما يحيط بهِ

فمن تجاربهِ انهُ اخذ قدراً من الخميرة المستعملة في صنع الخبز فقتلت خلاياه بالاشعاع المنطلق من انامل شخص واحد في خمس دقائق . فلما وضع لوح من الكوارتز بين الانامل والخميرة انقضت ١٥ دقيقة قبلما فتكت اشعة الانامل بخلايا الخميرة

ثم قام بتجارب اثبتت لهُ ان اشعة شبيهة باشعة الانامل التي تقتل خلايا البكتيريا تنطلق من الانف والعينين . وان اثر الاشعة المنطلقة من العين تذكرنا بقول الاقدمين في «اصابة العين»

واحدث ما قام بهِ ران من التجارب يدل على ان هذه الاشعة لا تنطلق من صدر الانسان ولكنها تنطلق من الدم واللعاب. وانما تختلف قوتها باختلاف الشخص — وان المنطلق منها من انامل اليد اليمنى اقوى دائماً مما ينطلق منها من انامل اليسرى

اما طبيعة هذه الاشعة فلم تعرف بعد ولا يبعد ان تكون من قبيل الاشعة التي فوق البنفسجي ، فانها تخترق الكوارتز مثلها ، وتبقى فعالة بعد اختراقها لهُ

(راجع مقالة الاحياء المشعة في الصفحة ٢٨٢ من هذا الجزء من المقتطف)

املاح تؤخر الشيخوخة

يرى الدكتور فكتور لامير (La Mer) احد اساتذة جامعة فولوجيا ان املاح الكلسيوم والفصفور اذا أخذت في مقادير معينة تطيل شباب الجسم وتؤخر الشيخوخة نحو عشرة في المائة . فمن يموت عادة في السبعين من العمر يعيش الى السابعة والسبعين اذا تناول ملح فصفات الكلسيوم — وهو الملح الذي يضاف الى ملح الطعام ليمنع تبللهُ بامتصاصهِ للرطوبة — ولكن لا بدَّ من تناول هذين العنصرين في نسبة معينة لان تناول العنصر الواحد دون الآخر ضارٌ بالجسم . ومما يذكر في هذا الصدد النتيجة التي وصل اليها الدكتور مكلُم (Mc Collum) استاذ التغذية في جامعة جُنز هبكنز الاميركية وهو ان اسنان الفئران التي جرَّب تجاربهُ فيها يصيبها النخر اذا لم تتناول الفئران مقادير كافية من هذين العنصرين اللذين لا مندوحة عنهما لبناء العظام. والظاهر ان حاجة الاطفال اليهما هي ضعف حاجة الكبار اليهِ وان حاجة الامهات اليهما ثلاثة اضعاف حاجة الكبار

لقاح ضد التيفوس

وفقت طائفة من اطباء معهد الصحة الاميركي الى صنع لقاح يقي من الحمى التيفوسية المتوطنة في الولايات المتحدة الاميركية. وقد جرّب في خنازير الهند فوقاها من التيفوس ومتى اتقن صنعهُ يجرَّب في البشر ويرجح ان اول من يجربهُ الاطباء الذين استنبطوه

والحمى التيفوسية المتوطنة في الولايات المتحدة الاميركية تختلف عن الحمى التيفوسية التي تتفشى احياناً في اوربا . فالحمى الاميركية اخف وطأة على الجسم من الحمى الاوربية التي تميت المصاب في الغالب . والحمى الاميركية ينقل ڤيروسها برغوث متطفل على الجرذان . اما الاوربية فينقل ڤيروسها — وهو يختلف قليلاً عن ڤيروس الاميركية — القمل

الصداع وهرمون التناسل

الهرمون اسم يطلق في اللغات الاوربية على ما تفرزه الغدد الصماء . فمفرز البنكرياس الذي لا مندوحة عنهُ لوقاية الجسم من مرض البول السكري يدعى هرمون البنكرياس . ومفرز الغدة الدرقية اللازم للجسم لكي يحتفظ بحدود النمو الطبيعية يدعى هرمون الغدة الدرقية . والظاهر ان الهرمونات التي يفرزها مبيض المرأة لها اثر في علاج نوع اليم من الصداع يصحبهُ غثيان وقيء واحياناً زيغ النظر

وقد بعث الدكتور طمسن (A. P.) طبيب المستشفى العام للاطفال في مدينة برمنغهام برسالة الى مجلة اللانست الطبية ذكر فيها انهُ جرّب هذا العلاج في عدة حالات فاسفرت تجربتهُ عن النجاح . وكان صداع الذين عالجهم شديداً ارغمهم على ملازمة الفراش نحو يومين واضطرَّ بعضهم الى استعمال المورفين حقناً فراراً من الألم . على انهم كانوا فيما عدا ذلك لا يشكون علةً ما يمكن ان تسبب الصداع

ويرى الدكتور طمسن من بحث اعراض المصابين انهُ قد توجد علاقة بينهُ وبين اضطراب الغدة النخمية وهي الغدة التي لها اثر قوي في عمل الغدد التناسلية . فلما عجزت وسائل معالجة الصداع العادية عن تخفيف آلامهم عمد الى حقنهم بهرمون المبيض ovarian follicular hormone فخف الم الصداع وزالت سائر الاعراض . ولما صورت جماجم هؤلاء المصابين بأشعة اكس ظهر تغير في المنخفض العظمي الذي يحتوي على الغدة النخمية . فهذا المنخفض مفتوح من اعلاه عادة فاذا تضخمت الغدة النخمية كما يحدث عند النساء في بعض الادوار لم تجد ما يعيقها

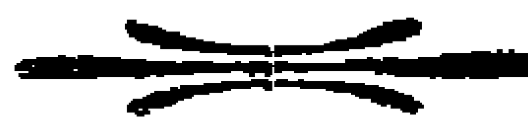
اما اذا كان اعلى المنخفض مسدوداً او مسقوفاً لم تتمكن الغدة من التضخم فتضغط على بعض الاعصاب والاوعية الدموية فيحدث الصداع . اما الذين لا يصابون قط بهذا النوع من الصداع فقد ثبت ان منخفض الغدة النخمية ليس «مسقوفاً» في جماجمهم . وفي حالتين من الحالات التي درسها وجد ان الفتاة ورثت من امها الحالة العظمية المذكورة والصداع كذلك . وهذا مما يؤيد رأيهُ

اعتراف بفضل

نشرنا في مقتطف ابريل الماضي مقالة موضوعها «حول مؤتمر الموسيقى» لبشر فارس وامام الصفحة ٣٩٥ نشرنا ثلاث صور لآلات موسيقية عربية قديمة وفاتنا ان نذكر هناك انها من كتاب «ارث الاسلام» في المقال الذي كتبهُ عن «موسيقى العرب» الاستاذ هنري فارمر

الجزء الثالث من المجلد الحادي والثمانين

صفحة





امثلة من روائع الفن الاسلامي

(منقولة عن الطبعة الاخيرة من دائرة المعارف البريطانية)

مقتطف نوفمبر ١٩٣٢ — مقالة مآثر الحضارة العربية

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الحادي والثمانين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٢ — ٢ رجب سنة ١٣٥١

تشتية الحيوانات وتصييفها

غرائب الطبيعة وعجائب المخلوقات

لا يخفى ان بعض الحيوانات كالادباب والخفافيش والسلاحف والارانب وغيرها تستكنُّ في الشتاءِ فتدخل مكاناً تأوي اليهِ وتبقى فيهِ زمناً لا تأكل ولا تشرب ولا تتحرك فاذا جاءَ الربيع خرجت من مشتاها سعياً وراء رزقها. فهذا السكون في الشتاء يسميهِ علماءُ الطبيعة (Hibernation) ومعناهُ بالعربية التشتية من قولهم شتَّى في المكان اي اقام فيهِ شتاءً وبعض الحيوانات يكمن في الصيف كالحلازين والضفادع وبعض الاسماك في البلاد الحارَّة وهو ما يسميهِ الافرنج (Estivation) اي التصييف من صيَّف في المكان اي اقام فيهِ صيفاً. وقد كانت التشتية معروفة عند العرب اشار اليها الجاحظ في كتاب الحيوان حيث قال « وجميع الحشرات والاحناش والعقارب وهذه الذبابات التي تعض وتلسع تكمن في الشتاء الا النمل والذر والنحل فانها قد ادَّخرت ما يكفيها وليست كغيرها مما تثبت حياتهُ مع ترك الطعم ». وقال الدميري في وصف الضب « ومن شأنهِ في الشتاء ان لا يخرج من جحره وقد اشار الى ذلك امية بن ابي الصلت في قوله

يباري الريح تكرمة ومجداً ... اذا ما الضب اجحرهُ الشتاءُ »

أي إذا جاءَ الشتاءُ فلزم جحرهُ. وقال في وصف الدب وهو « يحب العزلة فاذا جاء الشتاء دخل وجارهُ الذي اتخذهُ في الغيران ولا يخرج حتى يطيب الهواءُ . . . . »

والحيوانات التي تشتي أو تصيف كثيرة جداً منها الخفافيش أي الوطاويط فانها إذا جاءَ

الشتاء اوت كهفاً او جوف شجرةٍ وتعلقت بمخالبها وادلت رؤوسها والتصقت بعضها ببعض وبقيت على ذلك الشتاء بطولهِ لا تتحرَّك مطلقاً وإذا نبهت قليلاً اخذت تتنفس رويداً رويداً ثم عادت إلى ما كانت عليهِ من السكون فاذا جاء الربيع خرجت من مكمنها وعادت إلى الحركة والطيران

ومنها الادباب فانها تشتي في اكثر الاماكن الباردة تدخل كهفاً فيسقط الثلج ويغطيهِ وهي داخل الكهف نائمة لا تأكل ولا تشرب وقيل إن اناثها تلد وترضع صغارها وهي في داخل الكهف ولا تغتذي بشيءٍ مطلقاً فاذا جاء الربيع خرجت من مشتاها سمينة قوية كأنَّ الصيام لم يؤثر فيها. على إن بعض الحيوانات كالمرموط وسنجاب الارض يخرج من مشتاهُ هزيلاً ضعيف القوى

ومنها القنفذ المعروف في الشام بكبابة الشوك فانهُ يدخل ثقباً في صخر او تحت جذور شجرة ويبقى زمناً لا يأكل ولا يتحرك . والزغبة وهي التي يسميها الانكليز (Dormouse) اي الفأرة النوامة تقيم شتاءً في عش طائرٍ او تبني لها بيتاً من الطحلب او الريش وتكمن فيهِ عدة اشهر نائمة لا تتحرك. والارنب تندسُّ تحت الثلج فيغطيها وتبقى كذلك عدة اشهر لا يصيبها مكروهاً

وهذا السكون في زمن الشتاء او زمن الصيف ليس مقتصراً على الحيوانات اللبونة اي التي ترضع صغارها بل نراه في كثير غيرها من الحيوانات البرية والبحرية كالزحافات والاسماك لكنهُ غير معروف في الطيور . فالسلحفاة البرية تكمن زمناً في حفرة من الارض والسلحفاة النهرية تغوص في الطين على شواطيء البحيرات والانهار . والضفادع تفعل ذلك ايضاً في بعض الاماكن واحياناً يجف الطين في زمن القيظ فتبقى عدة اشهر في الطين الجاف على عمق عشرين قدماً او اكثر لا تغتذي بشيء ولا تتنفس ثم إذا جاء الشتاء خرجت من مكمنها . اخبرنا بعضهم انهُ كان يحفر بئراً في السودان في مكان تجتمع فيهِ المياه في زمن المطر فحفر الى عمق ٤٢ قدماً ولم يجد ماء ولكنهُ وجد ضفادع كثيرة على عمق ٢٠ قدماً إلى ٣٠ قدماً. والسمك الرئوي يصيّف اشهراً في زمن الجفاف فانهُ يغوص في الطين ويجف الطين حولهُ ويبقى في الطين الجاف إلى ان يأتي المطر وتفيض المياه وتملأ الغدران فيخرج من مكمنهِ ويعوم في الماءِ

واكبر الحلازين البرية تبقى زمناً طويلاً في الصيف بلا تغذية فالبزاق وهو نوع منها يختبئ في حفرة او نقرة ويجعل لفوهة بوقهِ غطاءً فيهِ ثقب صغير يتنفس منهُ ويبقى كذلك الصيف كلهُ إلى ان يقع المطر. والغطاء مصنوع من مادة يفرزها من فمه والغاية منهُ منع التبخر فتبقى الرطوبة في جسمه زمناً طويلاً ومتى شتّى البزّاق او صيّف لا يأكل شيئاً لذلك يقول العامة انهُ صائم

والفراش والعث وغيرها من الحشرات والهوام تكمن في الشتاء وبعضها يكمن زمناً طويلاً جدًّا قبل ان يصير حيواناً كاملاً كبعض انواع زيز الحصاد فانهُ يبقى بضع عشرة سنة تحت الارض وهو دعموص قبل ان يصير حيواناً كاملاً . اما النحل فكما قال الجاحظ لا يكمن في الشتاء بل على ضدّ ذلك فانهُ يحتاج إلى مقدار كبير من الغذاء في الاشهر الباردة وبقاؤهُ في الخلايا

لا يعدّ تشتية بالمعنى الذي يفهمهُ علماءُ الطبيعة لان الحيوانات التي تشتي لا تتناول غذاءً مطلقاً في زمن التشتية او انها تأكل حيناً بعد آخر كالمرموط لكن ذلك ليس تشتية بالمعنى الحقيقي

ومتى شتّى حيوان او صيّف ضعفت فيهِ كل القوى الحيوية وانخفضت حرارتهُ كثيراً وقد تصل الى درجة من الانخفاض لا تزيد كثيراً عن حرارة ما يجاورهُ من الاجسام. وبعض الحيوانات التي تشتي تهيّئ في آخر الصيف مقداراً من الطعام تدخرهُ الى زمن الشتاءِ لكن ذلك لا يكون تشتية بالمعنى الحقيقي فانهُ يراد بالتشتية ادّخار الدهن او الشحم في الجسم قبل الزمن الذي يستكنُّ فيهِ الحيوان فمتى استكنّ نام نوماً طويلاً لا يتناول فيهِ طعاماً ما بل يستعيض عن ذلك بالاغتذاءِ بما ادخرهُ من الدهن في جسمهِ فاذا كان بهيمة اي من اكلة البقول صار في تشتيتهِ سبعاً او لاحماً اي من اكلة اللحوم لأن غذاءَهُ يكون من لحمهِ فيحدث فيهِ بعض التغيير الفسيولوجي وتتغير الفضول التي يفرزها تغيراً يذكر وتصير مثل فضول السباع في تركيبها الكيماوي

والمشهور ان التشتية في الحيوان سببها البرد لكننا اذا انعمنا النظر وجدنا ان البرد وحده ليس كافياً لذلك فان اكثر الباحثين قد وجدوا ان عرض الحيوانات للبرد الشديد في الصيف لا يجعلها تشتي . والتجارب التي من هذا القبيل متناقضة على ان اكثرها يثبت ما ذكر. ولا ريب ان قلة الغذاءِ قد تكون سبباً من اسباب التشتية فان الحيوانات التي تشتي اذا كثر الطعام عندها تؤخّر الزمن الذي تشتي فيه عادة لكن ذلك ليس مطرداً فان بعضها يشتي رغماً عن كثرة الطعام لديهِ

ومما يحسن ذكرهُ تأثير قلة الطعام في الانسان كما يحدث لفلاحي روسيا في سني الجدب فانهم اذا رأوا ان غلالهم لا تكفيهم الى آخر الشتاءِ احتاطوا لذلك وانقصوا طعامهم اليومي ولكي لا تخور قواهم قبل انتهاءِ الشتاءِ ناموا نوماً طويلاً فوق مواقدهم فلا يتحرك الواحد منهم ولا يقوم من فراشهِ الا لايقاد النار واكل كسرة من الخبز وشرب قليل من الماءِ ثم يعود الى فراشهِ وينام فان السكون والنوم الطويل يقللان انحلال الجسم والمقدار اللازم من الطعام لتغذيتهِ

والى القارىء بعض الظواهر الفسيولوجية في الحيوانات اللبونة متى كانت شتاة

التنفس . يقل التنفس كثيراً ويسير سيراً غير منتظم ثم تقف عضلات التنفس وقوفاً تامًّا ولا يعود الصدر يتحرك فيبقى التنفس قائماً بحركة القلب فقط فاذا انقبض دخل الهواءُ الى الرئتين واذا انبسط خرج منهما . فالرغبة مثلاً متى كانت مشتية تراها تتنفس تنفساً قليلاً ثم يقف نفسها تماماً نحو عشر دقائق ثم تعود الى التنفس وهلمَّ جرًّا . وهي تتنفس عادة ثمانين مرة او اكثر في الدقيقة . ومن الغريب ان بعض هذه الحيوانات كالمرموط والخفاش اذا وضعا وهما في حالة التشتية في صندوق فيه مقدار كبير من الحامض الكربونيك لا يصيبهما سوءٌ واذا وضع عصفور او جرذ في الصندوق نفسهِ مات حالاً مما يدل على ان الحيوانات متى كانت مشتية

لا تتناول الاَّ مقداراً يسيراً جدًّا من الاكسجين لشدة انخفاض القوى الحيوية فيها والسبب نفسه لا ينبعث منها الاَّ مقدار قليل جدًّا من الحامض الكربونيك

الدورة الدموية . تضعف ضربات القلب كثيراً وينقص عددها ففي الخفاش والزغبة ينقص من مائة ضربة في الدقيقة الى ١٤ او ١٦ ضربة فقط . وقد فُحِص الدم الوريدي في الحيوانات المشتية فكان شريانيًّا اي احمر قانئاً . على ان بعض الباحثين وجدوا الدم في الاوعية وريديًّا اي ارجواني اللون

الهضم . يختلف الهضم باختلاف عادات الحيوان فالزغبة والمرموط وغيرها من الحيوانات التي تشتي تدخر طعامها في اواخر الصيف فاذا اقبل الشتاء وكمنت استيقظت حيناً بعد آخر واكلت قليلاً فلا بدَّ اذاً ان اعضاء الهضم فيها تعمل بعض العمل احياناً . وبعضها كالدب الاسود لا يأكل مطلقاً وهو مشتٍ فيقف الهضم فيه وقوفاً تامًّا

وللكبد شأن كبير في زمن التشتية فتكون مخزناً يخزن فيه ما يسميه الفسيولوجيون بالغلوكوجين اي مولّد السكر وهو مادة مصدرها المواد النشائية فتحولها الكبد إلى سكر تفرغهُ في الأوعية الدموية فيسير مع الدم إلى الانسجة فتغتذي به مثلما تغتذي به في اليقظة ايضاً

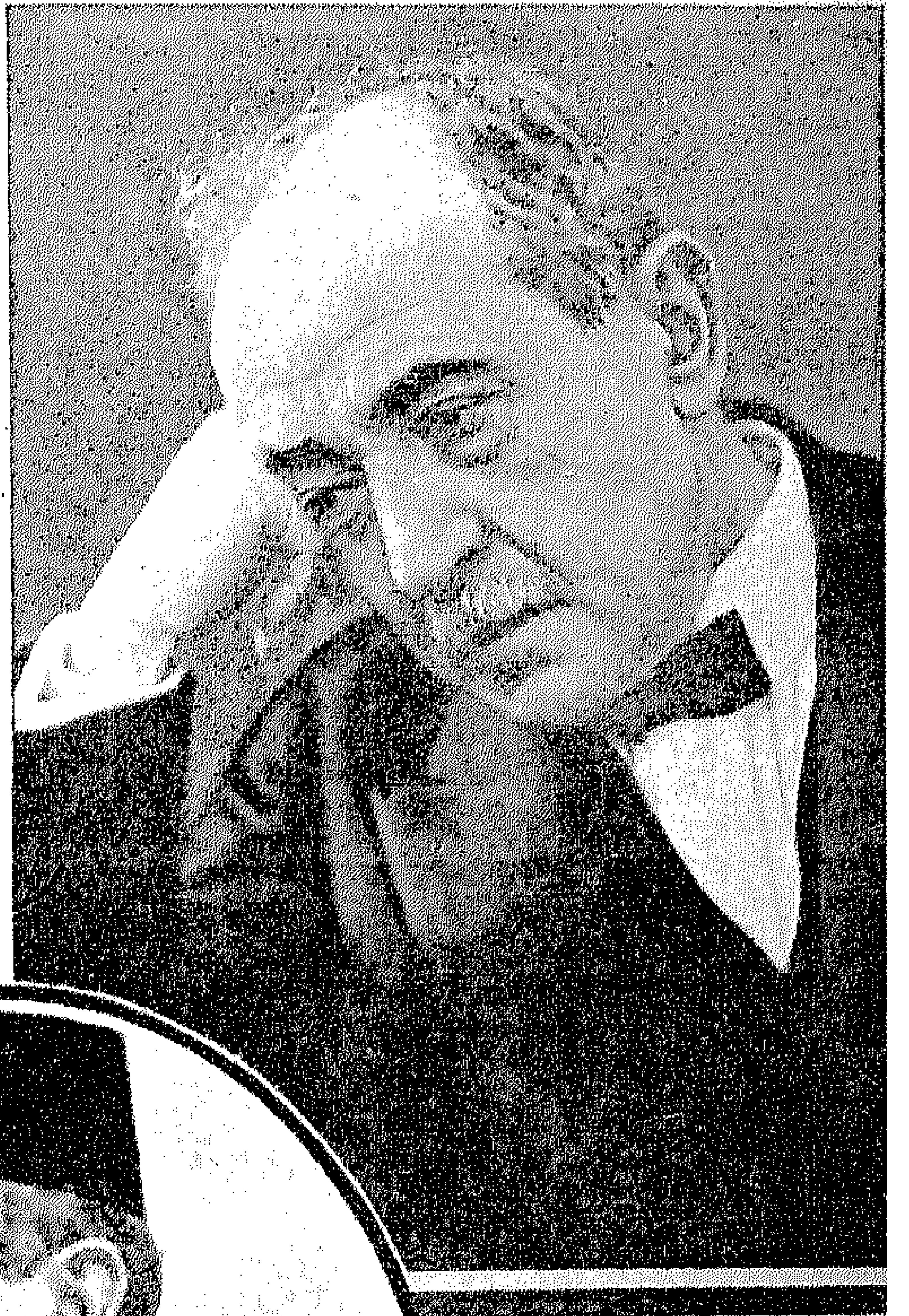
الجهاز العصبي والحرارة . يضعف تنبه الاعصاب كثيراً في الحيوانات المشتية لكنها تصير من هذا القبيل شبيهة بالحيوانات الباردة الدم[1] كالضفادع اي إن التنبه العصبي يبقى في عضلاتها مدة طويلة بعد فصلها عن الجسم . وتفقد الحيوانات الحارة الدم قوة ضبط حرارتها فتصير مثل الحيوانات الباردة الدم اي عوضاً عن ان تكون حرارتها منتظمة وعلى معدل واحد تصير مثل حرارة ما حولها فترتفع او تنخفض بارتفاع هذه الحرارة وانخفاضها ومتى اوقظت رفعت حرارتها حالاً إلى حالتها المعتادة

المناعة . وجد بعضهم إن الحيوانات المشتية تقاوم الامراض المعدية اشد المقاومة وإن مدة الحضانة تطول فيها ووجد آخرون إن بعضها يكون موقى من الامراض المكروبية متى كان مشتياً

الخلاصة إن التشتية سكون بعض الحيوانات سكوناً تامًّا تقف فيه اعمال اكثر الاعضاء حتى لقد قال بعضهم ان التنفس يقف وقوفاً تامًّا في التشتية الحقيقية لكن هذا القول مشكوك فيه . وهي تتدرج من النوم الطبيعي حيث تقف اعمال بعض الاعضاء إلى التشتية الحقيقية حيث تكون ظواهر الحياة في ادنى درجة من الضعف . ويظن إن السبات الذي يقع فيه دراويش الهند نوع من انواع التشتية . والتشتية لازمة لهذه الحيوانات ولولاها لانقرضت عن وجه الارض

(١) يراد بالحيوانات الباردة الدم الضفادع والسلاحف والعظاء وما اشبه وحرارتها بين الصفر والتسعين من مقياس فارنهيت وقلما ترتفع عن حرارة ما يحيط بها اما الحيوانات الحارة الدم كالانسان والطيور وما اشبه فتكون حرارتها اكثر من ذلك ولا تتغير بتغير الحرارة التي حولها بل تبقى على معدل واحد







فقيد الشعر العربي

احمد شوقي بك

توفاه الله في فجر

١٤ اكتوبر ١٩٣٢

عن اللطائف المصورة

امام صفحة ٣٨٥

شوقي

مصطفى صادق الرافعي

هذا هو الرجلُ الذي يُتخيَّلُ الي أن مصر اختارته دون أهلها جميعاً لتضعَ فيهِ رُوحها المتكلم ، فأوجبتْ له ما لم توجب لغيره وأمانتهُ بما لم يتفق لسواه ووهبتهُ من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمّة تريد أن تكون شاعرة لا على قدر رجل في نفسهِ ؛ وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ : شعري وأدبي

شوقي . هذا هو الاسم الذي كان في الأدب كالشمس من المشرق متى طلعت في موضع فقد طلعت في كلِ موضع ، ومتى ذُكر في بلد من بلاد العالم العربي اتسع معنى اسمه فدلَّ على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة . مترادفات لا في وضع اللغة ولكن في جلال اللغة

رجل عاش حتى تمَّ وذلك برهان التاريخ على اصطفائه لمصر ودليلُ العبقرية على أن فيهِ السرَّ المتحرك الذي لا يقف ولا يكلّ ولا يقطع نظامَ عمله كأن فيهِ حاسَّةَ نحلة في حديقة . ويكبر شعره كلما كبر الزمن فلم يتخلَّف عن دهره ولم يقع دون أبعد غاياته ، وكأنهُ مع الدهر على سياقٍ واحد وكأن شعره تاريخٌ من الكلام يتطورُ أطوارهُ في النموّ فلم يجمدْ ولم يرتكسْ ، وبقي خيالُ صاحبه الى آخر عمره في تدبير السماء كعَرَّاضِ الغمامة سحابةٌ كثير البرق ممتلئٌ ممطرٌ ينصبُّ من ناحية ويمتلىء من ناحية

والناس يُكتبُ عليهم الشباب والكهولة والهرم ولكن الاديب الحقّ يُكتب عليهِ شبابٌ وكهولةٌ وشباب ، إذ كانت في قلبهِ الغاياتُ الحية الشاعرة ما تنفكُ يلدُ بعضُها بعضاً الى ما لا انقطاع له فانها ليست من حياة الشاعر التي خلقت في قلبهِ ولكنها من حياة المعاني في هذا القلب

* * *

اقرر هذا في شوقي رحمه الله وأنا من أعرف الناس بعيوبه وأما كن الغميزة في أدبه وشعره ، ولكن هذا الرجل انفلَتَ من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها المتساير في الجوّ فأصبحت مصر بهِ سيدة العالم العربي في الشعر وهي لم تذكر قديماً في الأدب الاّ بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة ولم يستفِضْ لها ذكر بنابغة ولا عبقري

وكانت كالمستجدية من تاريخ الحواضر في العالم حتى ان أبا محمد الملقب بولي الدولة صاحب ديوان الانشاء في مصر للظاهر بن المستنصر (وقدتوفي سنة ٤٣١ هـ) وكان رزقه ثلاثة آلاف دينار في السنة غير رسوم يستوفيها على كل ما يكتبه — سلم لرسول التجار الى مصر من بغداد جزءين من شعره ورسائله يحملهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى وغيره من أدبائها فيستشيرهم في تخليد هذا الادب المصري بدار العلم ان استجادوه وارتضوه. كأن حفظ ديوان من شعر مصر ونثرها في مكتبة بغداد قديماً يشبه في حوادث دهرنا استقلال مصر وقبولها في عصبة الامم....

وهذا أحمد بن علي الاسواني امام من أئمة الأدب في مصر توفي سنة ٥٦٢ هـ) وكان كاتباً شاعراً يجمع الى علوم الادب الفقهَ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والفلك — أراد أن يدوّن شعر المصريين فجمع من شعرهم (وشعر من طرأ عليهم) اربع مجلدات كأن الشعر المصري وحده الى آخر القرن السادس للهجرة في العهد الذي لم يكن ضاع فيهِ شيء من الكتب والدواوين لايملأ اربع مجلدات ٠٠٠ على اختلافهم في مقدار المجلدة فقد تكون جزءاً لطيفَ الحجم والاسواني نفسهُ يبلغ ديوانهُ نحو مئة ورقة

واخوه الحسن المعروف بالمهذب الاسواني المتوفى سنة ٥٦١ قال العماد الكاتب انه لم يكن بمصر في زمنهِ أشعر منه وسارت له في الناس قصيدة سموها النوّاحة وصف فيها حنينه الى اخيهِ وقد رحل الى مكة وطالت غيبته بها وخِيفَ عليه. فالرجل اشعر اهل مصر في زمنه وحادثة النواحة تجعله في هذا المعنى اشعر من نفسهِ على أنهُ مع هذا لم يقل الاّ من هذا:

يا ربعُ أين ترى الأحبة يمّموا هل أنجدوا من بعدنا ام أتهموا
رحلوا وفي القلب المعنّى بعدهم وجدٌ على مرّ الزمان مخيّمُ
وتعوّضتْ بالانس نفسي وحشةً لا أوحشَ الله المنازل منهمُ . . .

ولولا ابن الفارض والبهاء زهير وابن قلاقس الاسكندري وامثالهم وكلهم اصحاب دواوين صغيرة وليس في شعرهم الاّ طابع النيل اي الرقة والحلاوة، لولا هؤلاء في المتقدمين لاجدب تاريخ الشعر في مصر. ولولا البارودي وصبري وحافظ في المتأخرين وكلهم كذلك اصحاب دواوين صغيرة لما ذكرت مصر بشعرها في العالم العربي. على ان كل هؤلاء وكل أولئك لم يستطيعوا ان يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر ووضعه شوقي وحده

والعجب ان دواوين المجيدين من شعراء المصريين لا تكون الاّ صغيرة كأن طبيعة النيل تأخذ في المعاني كأخذها في المادة فلا فيض ولا خصب الاّ في وقت بعد اوقات وفي ثلاثة اشهر من كل اثني عشر شهراً. ومن جمال الفراشة ان تكون صغيرة وحسبها عند نفسها ان اجنحتها منقطة بالذهب وأنها هي نكتة من بديع الطبيعة

على انك واجدٌ في تاريخ الادب المصري عجيبة من عجائب الدنيا لا تذكر معها الالياذة ولا الانيادة ولا الشاهنامة ولا غيرها ولكنها عجيبة ملأتها روح الصحراء ان كانت تلك الدواوين الصغيرة من روح النيل،وهي قصيدة نظمها ابو رجاء الاسواني المتوفى سنة ٣٣٥ هـ وكان شاعراً فقيهاً اديباً عالماً كما قالوا ،وزعموا انه اقتصَّ في نظمه أخبار العالم وقصص الانبياء واحداً بعد واحد . قالوا وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتك فقال ثلاثين ومائة الف بيت.... وما أشك ان هذا الرجل وقع لهُ تاريخ الطبري وكتب السيَر وقصص الاسرائيليات فنظمها متوناً متوناً .... وافنى عمره في ١٣٠ الف بيت حوّلها التاريخ الى خبر مهمل في ثلاثة اسطر

***

كل شاعر مصري هو عندي جزء من جزء ولكن شوقي جزء من كلٍ ، والفرق بين الجزءين أَن الاخير في قوتهِ وعظمته وتمكنه واتساع شعره جزء عظيم كأنه بنفسه الكل . ولم يترك شاعر في مصر قديماً وحديثاً ما ترك شوقي وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه وذلك من الادلة على انه هو المختار لبلاده فساوى الممتازين من شعراء دهرهِ وارتفع عليهم بامور كثيرة هي رزق تاريخه من القوة المدبِّرة التي لا حيلة لاحد أن يأخذ منها ما لا تعطي او يزيد ما تنقص او ينقص ما تزيد . وقد حاولوا اسقاط شوقي مراراً فأراهم غباره ومضى متقدماً ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه ....ويري بها ان شوقي من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها في التاريخ بحرب ونصر وما هو بمنزلة شاعر وشعره

ولد شاعرنا سنة ١٨٦٨ في نعمة الخديوي اسماعيل باشا ونثر له الخديوي الذهب وهو رضيع في قصةٍ ذكرها شوقي في مقدمة ديوانه القديم ثم كفله الخديوي توفيق باشا وعلمه وانفق عليه من سَعَة وأنزل نفسه منه منزلة اب غني كما يقول شوقي في مقدمتهِ ثم تولاه الخديوي عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول

شاعرُ العزيز وما بالقليل ذا اللقبْ

واذا انت فسرت لقب شاعر الامير هذا بالامير نفسه في ذلك العهد خرج لك من التفسير شاعر مُرْهَفٌ مُعَانٌ باسباب كثيرة ليكون أداة سياسية في الشعب المصري تعمل لاحياء التاريخ في النفس المصرية وتبصيرها بعظمتها واقحامها في معارك زمنها وتهيئتها للمدافعة ، وتَصِلُ الشعر بالسياسة الدينية التي توجهت لها الخلافة يومئذ لتضرب فكرة اوروبا في تقسيم الدولة بفكرة الجامعة الاسلامية . ولا يخرج لك شوقي من هذا التفسير على انه رجل في قدر نفسه بل في قدر أميره ذلك وكان ممتلئاً شباباً يغلي غلياناً ومُعِداً يومئذٍ لمطامحَ بعيدة ملفقَة حشوها الديناميت السياسي....

كنت ذات مرة أكلم صديقي الكاتب العميق فرح انطون صاحب الجامعة وكان معجباً

بشوقي اعجاباً شديداً فقال لي إن شوقي الآن في أفق الملوك لا في أفق الشعراء. قلت كأنك نفيته من الملوك والشعراء معاً اذ لو خرج من هؤلاء لم يكن شيئاً ولو نفذ الى اولئك لم يعدُّ شيئاً. انما الرجل في السياسة الملتوية التي تصله بالامير هو مرة كوزير الحربية ومرة كوزير المعارف

وهذه السياسة التي ارتاض بها شوقي ولابسها من اول عهده واتجه شعره في مذاهبها من الوطنية المصرية الى النزعة الفرعونية الى الجامعة الاسلامية فكانت بهذا سبب نبوغه ومادة مجده الشعري — هي بعينها مادة تقائصه فلقد ابتلته بحب نفسه وحب الثناء عليها وتسخير الناس في ذلك بما وسعته قوته الى غيرة اشد من غيرة الحسناء تقشعر كلُّ شعرة منها اذا جاءها الحسن بثانية. وهي غيرة وان كانت مذمومة في صلتهِ بالادباء الذين لذّعوه بالجمر . . . ونحن منهم ، غير انها ممدوحة في موضعها من طبيعتهِ هو اذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس، حتى ظله، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ونافس ذاته ايضاً ليجعل شوقي اشعر من شوقي. وعندي أن كل ما في هذا الرجل من المتناقضات فرجعه الى آثار تلك السياسة الملتويه التي ردَّت بطبيعة القوة عن وجوهها الصريحة فجعلت تضطرب في وجوه من الحيل والاسباب مدبرةً مقبلةً مُتَنَهَدّيةً في كل مجاهلها بابرة مغناطيسية عجيبة لا يشبهها في الطبيعة الا أنف الثعلب المتجه دائماً الى رائحة الدجاج ....

ومؤرخ الادب الذي يريد أن يكتب عن شوقي لا يصنع شيئاً ان هو لم يذكر ان هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديوي توفيق والخديوي عباس لمصر كالدلتا بين فرعي النيل . وما اصابه المتنبي من سيف الدولة مما ابتعث قريحتهُ وراش اجنحته السماوية وأضفى ريشها وانتزَى بها على الغايات البعيدة في تاريخ الادب — أصاب شوقي من سمو الخديوي عباس اكثر منه فكان حقيقاً ان يساوي المتنبي أو يتقدمهُ ولكنه لم يبلغ منزلتهُ لان الخديوي لم يكن كسيف الدولة في معرفتهِ بالادب العربي ورغبته فيهِ .وسر المتنبي كان في ثلاثة اشياء: في جهازه العصبي العجيب الذي لا يقل في رأيي عما في دماغ شكسبير ، وفي ممدوحهِ الاديب الملك الذي ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائي من آلة عظيمة يديرها بعلم ويقوم عليها بتدبير ويحوطها بعناية ، ثم في أفق عصره المتألق بنجوم الادب التي لا يمكن ان يظهر بينها الاّ ما هو في قدرها ولا يتميز فيها الاّ ما هو اكبر منها ولا يتركها كالمنطفئة الاّ شمس كشمس المتنبي تتفجّر على الدنيا بمعجزاتها النورانية

ولقد والله كان هذا المتنبي كأنه يوزع الشرف على الملوك والرؤساء وهل أدل على ذلك من ان ابا اسحاق الصابي شيخ الكتاب في عصره يراسله أن يمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم فيرسل اليه المتنبي : ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ولكني ان مدحتك تنكر لك الوزير (يعني المهلّبي) لاني لم أمدحه فان كنت لاتبالي هذا الحال فانا أجيبك ولا

أريد منك مالاً ولا من شعري عوضاً . فأين في دهرنا من تشعره عزّة الادب مثل هذا الشعور ليأتي بالشعر من نفس مستيقنة ان الدنيا في انتظار كلّها ؟

على ان شوقي لم يكن ينقصه باعتبار زمنه الاّ (الجمهور الشعري) وكل بلاء الشعر العربي أنهُ لا يجد هذا الجمهور ، فالشاعر بذلك منصرفٌ الى معانٍ فردية من ممدوح عظيم او حبيب عظيم او سقوط عظيم .... حتى الطبيعة تظهر في الشعر العربي كأنها قطع مبتورة من الكون داخلة في الحدود لابسة الثياب . ومن ذلك ينبغ الشاعر وليس فيهِ من الاحساس الاّ قدر نفسه لاقدر جمهوره والاّ ملء حاجاته لا ملء الطبيعة فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول ويسقط بشعره على صور فردية ضيقة الحدود فلا تجد في طبعه قوة الاحاطة والتبسّط والشمول والتدقيق ولا تؤاتيه طبيعته ان يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها فاذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عَفوِه ولا يحسن أن يوغلَ فيهِ واذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثهُ ولا يتقدم فيها نظره واذا نفسه تمرُّ على الكون مرّاً سريعاً واذا شعره مقطع قطعاً واذا آلامهُ وأفراحهُ أوصاف لا شعور وكلمات لاحقائق وظلٌّ طامس ملقى على الارض اذا قابلتهُ بتفاصيل الجسم الحي السائر على الارض

واجتمع لشوقي في ميراث دمه ومجاري اعراقهِ عنصر عربي وآخر تركي وثالث يوناني ورابع شركسي وهذه كثرةٌ انسانية لا يأتي منها شاعر الاّ كان خليقاً ان يكون دولةً من دول الشعر . والى هذا ولد شاعرنا باختلاله العصبي في عينيهِ كأن هذا دليل طبيعي على ان وراءها عينين للمعاني تزاحمان عيني البصر . وما لم يكن التركيب العصبي في الشاعر مهيأً للنبوغ فاعلم انهُ وقع من تقاسيم الدنيا في غير الشعر وليس في الطبيعة ولا في الصناعة قوة تجعل خنجرة البلبل في غير البلبل . ومع كل ما تقدم فقد أعين شوقي على الشعر بفراغه له اربعاً واربعين سنة غير مشترك العمل ولا متقسم الخاطر على سعة في الرزق وبسطةٍ في الجاه وعلو في المنزلة ، وبين يديه دواوين الشعر العربي والاوروبي والتركي والفارسي . وان تنس فلا تنس ان شاعرنا هذا خص بنشاط الحيـاة وهو روح الشعر لا روح للشعر بدونه فسافر ورحل وتقلب في الارض وخالط الشعوب واستعرض الطبيعة يتخللها ببصره ما بين الاندلس والاستانة وظهيرهُ على ذلك ماله وفراغهُ ، وانما قوة الشعر في مساقط الجو ففي كل جو جديد روح للشاعر جديدة ، والطبيعة كالناس هي في مكان بيضاء وفي مكان سوداء وهي في موضع نائمة تحلم وفي موضع قائمة تعمل وفي بلد هي كالانثى الجميلة وفي بلد هي كالرجل المصارع ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبي على أقواه وأشدّهِ الاّ إذا أطعمته مع صنوف الاطعمة اللذيذة المفيدة ألوان الهواء اللذيذ المفيد

وعندي انهُ لا أمل أن ينشأ لمصر شاعر عظيم في طبقة الفحول من شعراء العالم الاَّ اذا أُعيد تاريخ شوقي مهذباً منقحاً في رجل وهبه الله مواهبه ثم تهبهُ الحكومة المصرية مواهبها

* * *

والكتاب الاول الذي راض خيال شوقي وصقل طبعهُ وصحح نشأتهُ الادبية هو بعينهِ الذي كانت منه بصيرة حافظ وذكرناهُ في مقالنا عنه اي كتاب الوسيلة الادبية للمرصفي. وليس السر في هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة فهذا كله كان في مصر قديماً ولم يغنِ شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقي . ولكن السر ما في الكتاب من شعر البارودي لانه معاصر والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب ان كان الصواب وعلى خطإٍ ان كان الخطأ . وقد تصرَّمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبي وغيره ثم لا يجيئون الاَّ بشعر الصناعة والتكلف ولا يُخلِدُ الجيلُ منهم الاَّ لما رأى في عصره ولا يستفتح غير الباب الذي فُتح له . الى ان كان البارودي وكان جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة لا يحسن منها شيئاً ، وجهله هذا هو كلُّ العلم الذي حوَّل الشعر من بعد فيا لها عجيبة من الحكمة وهي دليل على ان اعمال الناس ليست الا خضوعاً لقوانين نافذة على الناس . واكبَّ البارودي على ما أطاقه وهو الحفظ من شعر الفحول اذ لا يحتاج الحفظ الى غير القراءة ثم المعاناة والمزاولة ، وكانت فيهِ سليقة تخرجت مخرج مثلها في شعراء الجاهلية والصدر الاول من الحفظ والرواية وجاءت بذلك الشعر الجزل الذي نقله المرصفي بالهام من الله تعالى ليخرج بهِ للعربية حافظ وشوقي وغيرها . فكل ما في الكتاب انهُ ينقل روح المعاصرة الى روح الاديب الناشيء فتبعثهُ هذه الروح على التميز وصحة الاقتداء فاذا هو على ميزةٍ وبصيرة واذا هو على الطريق التي تنتهي بهِ الى ما في قوة نفسه ما دام فيهِ ذكاء وطبع . وبهذا ابتدأ شوقي وحافظ من موضع واحد وانتهى كلاهما الى طريقة غير طريقة الآخر والطريقتان معاً غير طريقة البارودي

تحول شوقي بهذا الشعر لا الى طريقة البارودي فانهُ لا يطيقها ولا تتهيأ في اسبابه وخاصة في اول عهده وكأن لغة البارودي فيها من لقبه اي فيها البارود .... ولكن تحوَّل نابغتنا كان عن طريقة معاصريه من امثال الليثي وابي النصر وغيرهما فترك الاحياء وانطلق وراء الموتى في دواوينهم التي كان من سعادته أن طبع الكثير منها في ذلك العهد كالمتنبي وابي تمام والبحتري والمعري ثم اهل الرقة اصحاب الطريقة الغرامية كابن الاحنف والبهاء زهير والشاب الظريف والتلعفري والحاجري ثم مشاهير المتأخرين كابن النحاس والامير منجك والشرقاوي . وقد حاول شوقي في اول أمره أن يجمع بين هذا كله فظهر في شعره تقليده وعمله في محاولة الابتكار والإبداع وإحكام التوليد مع السهولة والرقة وتكلف الغزل بالطبع المتدفق لا بالحب الصحيح

وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون اكبر همي الاَّ البحث في طريقة ابتداعه لمعانيه

وكيف ألمَّ وكيف لحظ وكيف كان المعنى منبَهةً له وهل ابدع ام قلد وهل هو شعر بالمعنى شعوراً خالط نفسه وجاء منها ام نقله نقلاً فجاء من الكتب . وهل يتسع في الفكرة الفلسفية لمعانيه ويدقق النظرة في أسرار الاشياء ويحسن ان يستشف هذه الغيوم التي يسبح فيها المجهول الشعري ويتصل بها ويستصحب للناس من وحيها ، ام فكره استرسالٌ وترجيم في الخيال واخذٌ للموجود كما هو موجود في الواقع ؟وبالجملة هل هو ذاتية تمرُّ فيها مخلوقات معانيه لتخلق فتكون لها مع الحياة في نفسها حياةٌ من نفسه ام هو تبعيَّة كالسمسار بين طرفين يكون بينهما وليس منهما ولا من احدهما ؟ في هذه الطريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر ولا يؤديك الى هذا التاريخ الاَّ ذلك المذهبُ اليهِ إن اطقته أما تاريخ الشاعر نفسه فما اسهله إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره وليس في تأريخ ما كان الاَّ نقله كما كان

واذا عرضنا شوقي بتلك الطريقة رأيناه نابغةً من أول أمره ففيهِ تلك الموهبة التي أسميها حاسة الجو إذ يتلمح بها النوابغ معاني ما وراء المنظور ويستنزلون بها من كل معنىً معنىً غيره أنظر أبياته التي نظمها في أول شبابهِ وسنه يومئذٍ ٢٣ سنة على ما اظن وهي من شعره السائر :

خدعوها بقولهم حسناءُ والغواني يغرهنَّ الثناءُ
ما تراها تناست اسميَ لمَّا كثرتْ في غرامها الاسماءُ
إن رأتني تميلُ عني كأنْ لم تكُ بيني وبينها أشياءُ
نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ

دع غلطته في قوله (تميل عني) فان صوابها تَمِلْ إذ هي جواب إن الشرطية ولكن تأمل كيف استخرج معانيه، وانا كنت دائماً وما أزال معجباً بالبيتين الثاني والرابع لا إكباراً لمعناهما فهما لاشيء عندي ولكن اعجاباً بموهبة شوقي في التوليد فانهُ اخذ البيت الثاني من قول ابي تمام

أتيتُ فؤادها أشكو اليهِ فلم أخلص اليهِ من الزحام

فمرَّ المعنى في ذهن شوقي كما يمر الهواء في روضة وجاء نسيماً يترقرق بعد ما كان كالريح السافية بترابها لان الزحام في بيت أبي تمام حقيق بسوق قائمة للبيع والشراء لا بقلب امرأة يحبها . بل هو يجعل قلب المرأة شيئاً غريباً كأنهُ ليس عضواً في جسمها بل غرفة في بيتها . . . . وقد سبق شاعرنا ابا تمام بمراحل في ابداعه وذوقه ورقته

والبيت الرابع من قول الشاب الظريف

قف واستمع سيرةَ الصبِّ الذي قتلوا فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا
رأى فحبَّ فسام الوصلَ فامتنعوا فرام صبراً فأعيا نيله فقضى

وهذه « فاءات » تجر الى القبر ونعوذ بالله منها .... ومما كنت أعيبه على شوقي ضعفهُ في فنون الادب فان المويلحي الكاتب الشهير انتقد في جريدته مصباح الشرق ابيات(خدعوها)

عند ظهور الشوقيات في سنة ١٨٩٩ فارتاع شوقي وتحمَّل عليهِ ليمسك عن النقد مع ان كلام المويلحي لا يسقط ذبابة من ارتفاع نصف متر .... ومن مصيبة الادب عندنا بل من اكبر اسرار ضعفهِ ان شعراءنا لا طاقة لهم بالنقد وانهم يفرون منهُ فراراً ويعملون على تفاديه وانهم لا يحسنون غير الشعر فلا البارودي ولا صبري ولا حافظ ولا شوقي كان يحسن واحد منهم ان يدفع عن نفسه او يكتب فصلاً في النقد الأدبي او يحقق مسئلة في تاريخ الأدب

ومن معاني شوقي السائرة :

لك نصحي وما عليك جدالي آفةَ النصح أن يكون جدالا

وكرره في قصيدة أخرى فقال :

آفة النصح أن يكون جدالا وأذى النصح أن يكون جهارا

والبيتان من شعر صباه ايضاً وهما من قول ابن الرومي :

وفي النصح خيرٌ من نصيح مُوادعٍ ولا خير فيهِ من نصيح مواثب

فصحح شوقي المعنى وابدل المواثبة بالجدال وذلك هو الذي عجز عنهُ ابن الرومي . ومن ابداعه في قصيدته (صدى الحرب) يصف هزيمة اليونان

يكادون من ذُعرٍ تفرُّ ديارُهم وتنجو الرواسي لو حواهن مَشْعبُ

يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى ويقضم بعض الارض بعضاً ويقضب

وهذا خيال بديع في الغاية جعل هزيمتهم كأنها ليست من هول الترك بل من هول القيامة وهو مع ذلك مولَّد من قول ابي تمام في وصف كرم ممدوحه أبي دلف

تكاد مغانيه تهشُّ عِراصُها فتركبُ من شوقٍ الى كل راكب

فقاس شاعرنا على ذلك واذا كادت الدار تركب الى الراكب اليها من فرحها فهي تكاد تفرُّ مع المنهزم من ذعرها ولكن شوقي بنى فأحكم وسما على ابي تمام بالزيادة التي جاء بها في البيت الثاني

ومن احسن شعره في الغزل :

حَوَت الجمال فلو ذهبت تزيدها في الوهم حسناً ما استطعت مزيدا

وهو من قول القائل :

ذاتُ حسن لو استزادت من الحسن اليها لما أصابت مزيدا

غير ان شوقي قال لو ذهبت تزيدها في الوهم والشاعر قال لو استزادت هي فلو خلا بيت شوقي من كلمة (في الوهم) لما كان شيئاً ولكن هذه الكلمة حققت فيهِ المعنى الذي تقوم عليهِ كل فلسفة الجمال فان جمال الحبيب ليس شيئاً الاَّ المعاني التي هي في وهم محبه فالزيادة تكون من الوهم وهو بطبيعتهِ لا ينتهي فاذا لم تبق فيهِ زيادة في الحسن فما بعد ذلك حسن . وقد بسطنا هذا المعنى في صور كثيرة في كتبنا رسائل الاحزان والسحاب الاحمر واوراق الورد فانظره فيها

ومما يتمم ذلك البيت قول شوقي في قصيدة النفس

يا دمية لا يستزاد جمالها زيديه حسن المحسن المتبرع

وهذا المعنى يقع من نفسي موقعاً وله من اعجابي محل فهذه الزيادة التي فيه كزيادة العمر لو أمكنت وهي في موضعها كما ينقطع الحظ ثم يتصل وكما يستحيل الأمل ثم يتفق ويسهل . وقد علمتَ مأخذ الشطر الاول أما الثاني فهو من قول ابن الرومي

يا حسنَ الوجه لقد شِنتَهُ فاضمم الى حسنك احسانا

وفي القصيدة التي رثى بها ثروت باشا وهي من احسن شعره تجد من أبياتها هذا البيت النادر

وقد يموت كثير لا تحسُّهمو كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا

وشوقي يعارض بهذه القصيدة ابا خالد ابن محمد المهلبي في داليَّته التي رثى بها المتوكل وكان المهلبي حاضراً قتله هو والبحتري فرثاه كل منهما بقصيدة قالوا انها من اجود ما قيل في معناها وبيت شوقي مأخوذ من قول المهلبي

انا فقدناك حتى لا اصطبارَ لنا ومات قبلك أقوامٌ فما فُقدوا

اي لم يحسَّ موتهم أحد ولكن البيت غير مستقيم لان الذي يموت فلا يفقد هو الخالد الذي كأنهُ لم يمت فاستخرج شوقي المعنى الصحيح وجعل العدم الذي هو آخر الوجود في الناس اول الوجود ووسطه وآخره في هؤلاء الذين هانوا على الحياة فوجدوا وماتوا كأنهم ماتوا وما وجدوا

***

والى ما علمتَ من قوة هذه الشاعرية ودقتها فيما تتأتى له ومجيئها بالمعاني النادرة مستخرجةً استخراج الذهب مصقولة صقل الجوهر معدَّلة بالفكر موزونةً بالمنطق — تجد لها تهافتاً كتهافت الضعفاء وغرَّةً كغرة الاحداث حتى لتحسب أن طفولة شوقي كثيراً ما تنبعث في شعره لاعبةً هازلة أو كأن للرجل شخصيتين كما يقول الاطباء فهما تتعاوران شعره كمالاً ونقصاً وعلوّاً ونزولاً او قل هي العربية واليونانية في ناحية من نفسهِ والتركية والشركسية في ناحية أخرى. لتلك الابتكار والبلاغة والمنطق ، ولهذه التهويل والمبالغة والخلط ، وشوقي هو بهما جميعاً تفتنهُ القوية منهما فيعجب بها إعجاب القوَّة وتخدعه الضعيفة فيعجب بها اعجاب الرقة . كما أعجب ببيته الذي قالهُ في الحنين إلى الوطن من قصيدتهِ الاندلسية الشهيرة :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي

وهذا البيت مما يتمثل به الشبان وكتاب الصحافة ولم يفطن أحد إلى فساده وسخافة معناه فان الخلد لا يكون خلداً الاّ بعد فناء الفاني من الإنسان وطبائعه الارضية وبعد أن لا تكون أرض ولا وطن ولا حنين ولا عصبية . فكأن شوقي يقول: لو شغلت عن الوطن حين لا أرض ولا وطن ولا دول ولا أمم ولا حنين الى شيء من ذلك فاني على ذلك أحن إلى الوطن الذي لا

وجود لهُ في نفسي ولا في نفسهِ . . . . وهذا كله لغوٌ . . . . والمعنى يعد من قول ابن الرومي

وحبَّبَ أوطان الرجال اليهمو مآربُ قضَّاها الشبابُ هنا لكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمو عهود الصبي فيها فحنُّوا لذلكا

ومنازعة النفس هي الحنين ومعنى ابن الرومي وان كان صحيحاً غير انه لا يصلح لفلسفة الوطنية في زمننا

وان في شوقي عيبين يذهبان بكثير من حسناتهِ احدهما المبالغات التركية الفارسية مما تنزعه اليه تركيتهُ ولا مبالغة في الدنيا تقاربها كقول بعض شعرائهم ان النملة بزفرتها جففت الأبحر السبعة... وهو اغراق سخيف لا يأتي بخيال عجيب كما يتوهمون بل يأتي بهذيان عجيب. واذا كان الصدق يأنف من الكذب فان الكذب نفسه يأنف من هذا الاغراق . ومن هذه التركية في شوقي إضافات وهمية هي من تلك المبالغات كذيل الحمار من الحمار ، قطعة فيهِ ودليل عليهِ وآخر لأوله ولا محل لها في ذوق البلاغة العربية كقوله

(عيسى الشعور) إذا مشى رد الشعوب الى الحياة

وقوله في سعد باشا في حادثة الاعتداء عليهِ

ولو زُلْتَ غُيِّبَ (عمرو الامور) وأخلى المنابرَ سحبانُها

ويدخل في جنايات هذه التركية على شعره تكراره الاسماء المقدسة والاعلام التاريخية كيوشع وعيسى وموسى وخالد وبدر وسيناء وحاتم وكعب وغيرها مما هو شائع في نظمهِ ولا تجده اكثر ما تجده إلاَّ ثقيلاً مملولاً ولهذه الالفاظ عندنا فلسفة لا محل لها الآن فهي احياناً تكون السحر كله والبلاغة كلها على شرط أن يكون القلب هو الذي وضعها في موضعها وأن لا يضعها إلاَّ على هيأة قلبية فيكون كأنه وضع نفسه في الشعر ليخفق خفقانه الحيَّ في بضعة الفاظ وهذا ما لم يحسنه شوقي . والعيب الثاني ان الفاظ شاعرنا لا يثبت اكثرها على النقد لضعفه في الصناعة البيانية ثم لضعف الموهبة الفلسفية فيه وإعتباره التهويل شعراً والمبالغة بلاغة وان فسدت بهما البلاغة والشعر . أنظر إلى قوله من قصيدته الشهيرة ٢٨ فبراير

قالوا الحماية زالت قلتُ لا عجب قد كان باطلها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانة الله حزماً يقطع الذنبا

قلنا فاذا قطع (رأس الحماية) وبقيت منها بقيةٌ ما ذنب او يد او رجل فان هذه البقية في لغة السياسة التي تنقد الالفاظ وحروفها ونقط حروفها .... لن تكون ذنباً ولا يداً ولا رجلاً بل هي (رأس الحماية) بعينهِ .... على ان شوقي انما عكس قول الشاعر

لا تقطعنْ ذنب الأفعى وتُرسلها ان كنت شهماً فأتْبِعْ رأسَها الذنَبَا

وهذا كلام على سياقهِ من العقل فما غناء قطع ذنب الأفعى اذا بقي رأسها وانما الافعى كلها هي هذا الرأس

ولقد ظهر لي من درس شوقي في ديوانهِ أمر عجبت له فاني رأيتهُ يأخذ من ابي تمام والبحتري والمعري وابن الرومي وغيرهم فربما ساواهم وربما زاد عليهم حتى اذا جاء الى المتنبي وقع في البحر وأدركه الغرق لانهُ نشأ على رهبةٍ منهُ كما تشير اليهِ عبارته في مقدمة ديوانهِ الاول . وقد وصف خيل الترك في قصيدة انقره بقوله :

والصبر فيها وفي فرسانها خلقٌ　　توارثوهُ اباً في الروع بعد أب
كما وُلدتم على أعرافها وُلدت　　في ساحة الحرب لا في باحة الرحَبِ

وشعره هذا كأنهُ يرتعد امام قول المتنبي :

اقبلتها غُررَ الجياد كأنما　　أيدي بني عمرانَ في جبهاتها
الثابتين فروسةً كجلودها　　في ظهرها ، والطعنُ في لبَّاتها
فكأنها نُتجت قياماً تحتهم　　وكأنهم وُلدوا على صهواتها

فانظر أين صناعة من صناعة وأين شعرٌ من شعر . وقال في (صدى الحرب) يصف مدافع الدردنيل :

قذائفُ تخشى مهجة الشمس كلما　　علتْ مصعِدات أنها لا تصَّوبُ
اذا هبَّ حاميها على السفْن انثنت　　وغانمها الناجي فكيف المخيَّبُ ؟

وهذا الاستفهام (فكيف المخيب) استفهام مضحك لانهُ اذا كان الناجي غانماً فالمخيب خاسر بلا سؤال ولا فلسفة . والكلمة الشعرية في هذا كله هي قوله (وغانمها الناجي) وهي كالهاربة تتوارى خوفاً من بيت أبي الطيب

أغرُّ أعداؤه اذا سلموا　　بالهرب استكبروا الذي فعلوا

فهذا هو الشعر لا ذاك . على اني اشهد ان في قصيدة (صدى الحرب) ابياتاً هي من اسمى الشعر وكأن شوقي رحمهُ الله كان ينظم هذه القصيدة من ايمانهِ ومن دمهِ ومن كل مطامع دنياه وآخرته . يبتغي بها الشهرة الخالدة في الناس والمنزلة السامية عند الخديوي ونباهة الشأن عند الخليفة والثواب عند الله تعالى . ولو هو في اثناء عملها اسقط نصفها او اكثر لجاءت فريدة في الشعر العربي غير ان الحرص كان يعترُّه وكان طول عمره مفتوناً بشعرهِ فجاء في هذا الشعر بالطّم والرّم كما يقولون . وله كثير من الكلام الرذل الساقط بضعفه وتهافته ولولا تلك التركية الفارسية وضعفه البيانيّ لما رضي ان يكون ذلك في شعره . وليت شعري كيف غاب عن مثله ان التهويل والاغراق والإحالة مما يهجّن الشعر ويذهب بأثره في النفس ويحيله الى صناعة هي شرٌّ من الصناعة البديعية لان هذه تكون في الالفاظ والالفاظ تحتمل العبث البديعي ويخرج بها الامر الى ان تكون ضرباً من الرياضة كمعاناة بعض المسائل في الجبر والهندسة تركيباً وحلاً ، ولكن المعاني لا تحتمل ذلك اذ هي تفكير لا يلتوي الاّ فسد . والمعاني التي يأتي بها الشاعر يجب ان تكون فيها مزية بخاصَّتها من الجمال والبيان وان تكون أخيلتها هي الحقائق التي أول مواضعها فوق حقائق البشر

ان الخيال الشعري يزيغ بالحقيقة في منطق الشاعر لا ليقلبها عن وضعها ويجيء بها ممسوخة مشوهة ولكن ليعتدل بها في أفهام الناس ويجعلها تامةً في تأثيرها وتلك من معجزاته اذ كانت فيه قوة فوق القوة عملُها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوحه مرة وبغموضه أخرى

ولعلماء الادب العربي كلمة ما أراهم فهموها على حقها ولا نفذوا إلى سرها. قالوا أعذب الشعر اكذبهُ يعنون إن قوام الشعر المبالغة والخيال ولا ينفذون إلى ماوراء ذلك وما وراءَهُ الاّ الحقيقة رائعة بصدقها وجلالها . وفلسفة ذلك أن الطبيعة كلها كذبٌ على الحواس الانسانية وإن أبصارنا وأسماعنا وحواسنا هي عمل شعريٌّ في الحقيقة اذ تنقل الشيء على غير ما هو في نفسهِ ليكون شيئاً في نفوسنا فيؤثر فيها أثره جمالاً وقبحاً وما بينهما. وما هي خمرة الشعر مثلاً ؟ هي رضاب الحبيبة . ولكن العاشق لو رأى هذا الرضاب تحت المجهر لرأى .. لرأى مستنقعاً صغيراً .... ولو كان هذا المجهر اضعاف الاضعاف مما يجهر به لرأيت ذلك الرضاب يعج عجيجاً بالهوام والحشرات التي لا تخفى بنفسها ولكن أخفاها التدبير الالهي بأن جعل رتبتها في الوجود وراء النظر الانساني رحمةً من الله بالناس. فأعذب الشعر ما عمل في تجميل الطبيعة كما تعمل الحواس الحية بسرّ الحياة، ولهذا المعنى كان الشعراء النوابغ في كل مجتمع هم كالحواس لهذا المجتمع

ومن سخيف الاغراق في شعر شوقي قوله في رثاء مصطفى باشا كامل وهي ابيات يظن هو انه أوقع كلامه فيها موقعاً بديعاً من الاغراب :

فلو أن أوطاناً تصوَّر هيكلاً دفنوك بين جوانح الاوطان
او كان يحمل في الجوارح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
أو كان للذكر الحكيم بقيةٌ لم تأت بعدُ رُثيت في القرآن

فهذه فروض فوق المستحيل بأربع درجات . . . . وتصور انت ميتاً يحمل في الجوارح فيترم فيها ويبلى .... وما زال الشاعر في ابياته يخرج من طامّة إلى طامة . حتى قال رثيت في القرآن . ولو سئلت أنا إعراب (لو) في هذه الابيات لقلت انها حرف نقص وتلفيق وعجز.... وكيف يسوغ في الفرض أن تكون للقرآن بقية لم تنزل والله تعالى يقول فيه «اليوم أكملت لكم دينكم» . والامر أمر دين قد تم وكتاب مقدس ختم ونبوّة انقضت والشاعر ماض في غفلته لم يتنبه لشيء ولم يدر انه يفرض فرضاً يهدم الاسلام كله بل حسب أنه جاء بخيال وبلاغة فارسية . وشوقي في الحقيقة كامل كناقص وإن من معجزات هذا الشاعر أن يكون ناقصاً هذا النقص كله ويكمل

وفي الشوقيات صفحات تكاد تغرّد تغريداً وفيها صفحات أخرى تنقّ نقيق الضفادع . وفي هذا الديوان عيوب لا نريد أن نقتصها فأن ذلك يحتاج إلى كتاب برأسه اذا ذهبنا نأتي بها ونشرح العلة فيها ونخرج الشواهد عليها . ولكن من عيوبه في التكرار ان له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في الساقية وهو هذا البيت:

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان همو ذهبت اخلاقهم ذهبوا

بل هذا البيت : وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان تولت مضوا على آثارها قدما

بل هو هذا : كذا الناس بالاخلاق يبقى صلاحهم ويذهب عنهم امرهم حين تذهب

بل هو هذا البيت : ولا المصائب اذ يرمى الرجال بها بقاتلات اذا الاخلاق لم تصب

وقد تكرر (فيما قرأتهُ من ديوانه) ثلاث عشرة مرة فعاد المعنى كطيلسان ابن حرب الذي جعل الشاعر يرقعهُ ثم يرقعهُ حتى ذهب الطيلسان وبقيت الرُّقع .... والبيت الاول من العَيْن النادر ولكن افسده في الباقي سوء ملكة الحرص في شوقي أو ضعف الحس البياني ، او ابتذاله الشعر في غير موضعه ، او وهن فكرتهِ الفلسفية من جوانب كثيرة . وهذه الاربعة هي الابواب التي يقتحم منها النقد على شعر صاحبنا ولو هو كان قد حصَّنها بأضدادها لكان شاعر العربية من الجاهلية الى اليوم ولكان عسى ان ينقل الشعر الى طور جديد في التاريخ. ولكن الفوضى وقعت في شوقي من اول امره فارسل الى اوربا لدرس الحقوق وكان الوجه ان يرسل لدرس الآداب والفلسفة ، وغامر في سياسة الارض وكان الحق ان يشتغل بسياسة السماء وتهالك في مادة الدنيا وكان الصواب ان يتهالك في معانيها

ان الفوضى ذاهبة بنا مذاهبها في الادب والشعر . فكل شاعر عندنا كمؤلف يضع رواية ثم يمثلها وحده وعليهِ ان يمثلها وحده فهو يخرج على النظارة في ثياب الملك فيلقي كلاماً ملكيًّا ثم ينفتل فيجيء في ثوب القائد فيلقي كلاماً حربيًّا ثم ينقلب فيعود في هيأة التاجر فيلقي كلاماً سوقيًّا ثم يروغ فيرجع في مباذل الخادم ثم . . ثم . . ثم يتوارى فيظهر في جلدة بربري . . . . وهذه الفوضى التي اهملتها الحكومة واهملها الامراء والكبراء هي حقيقة مؤلمة ، لكن هي الحقيقة

***

وشوقي على كل هذا هو شوقي اول من احتفى بتاريخ مصر من الشعراءِ وأول من توسع في نظم الرواية الشعرية فوضع منها ست روايات وهو صاحب الآيات البديعة في الوصف وهذه الناحية هي اقوى نواحيهِ . ولقد الهمتني قراءة البارع من شعره في اغراضهِ وفنونهِ المختلفة ان الله تعالى ينعم على الآداب الجميلة بأفراد ممتازين في جمال ارواحهم وقوتها تجد الآدابُ لذتها فيهم وسموَّها بهم ، كأن الامر قياسٌ على ما يقع من عشق الناس لبعض المعاني فيكون في المعاني ما يعشقَ بعض الناس . ومتى بلغ عشق المعنى لانسان مبلغَ الاختصاص والوجد ظهر الفن ابدعَ ما يُرى كأن المعنى الادبيَّ يتجمل ويتحبَّب ليستميل هذا الانسان الحاكمَ عليهِ حكمَ الحب

فيا مصر لقد مات شاعرك الذي كان يحاول ان يخرج بالجيل الحاضر الى الزمن الذي لم يأت بعد . فاذا جاءَ هذا الزمن الزاخر بفنونه وآدابه العالية وذكرتِ مجد شعرك الماضي فليقل اساتذتك يومئذ : كان هذا الماضي شاعراً اسمهُ شوقي

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

بناء الدولة

العوامل النافذة في بناءِ الدولة : قد يستاء الباحث الاخلاقي ان يعلم ان انفذ البواعث أثراً في تأليف الدولة باعث اناني مزدوج مؤلف من عاملين اثنين جمع الثروة وحب التسلط على الناس. ولكن ماذا يفيد الاستياء وماذا تنفع الحوقلة ومعظم الاوضاع التي يباهي بها البشر كوضع الزواج الذي شرحناه يبتدىء حقيراً ذا فجر مظلم ثم لا يلبث ان ينطبع بطابع الانسانية اللألاء؟ ويلوح لنا ان الاستئثار والطمع والخوف والشهوة والظلم والانانية وغير ذلك من البواعث الطبيعية كل ذلك كان له الشأن الخطير في تأسيس اوضاعنا الاجتماعية مادية كانت ام معنوية

وقد دلّ التاريخ على ان عامل جمع الثروة كالكسب الذي يكسبه الغزاة من ماشية وسائمة واماء وعبيد يؤول الى تقوية الروابط الحكومية وتأييد قوة الفاتحين ونفوذهم بالنظر الى ما تجلبه الدولة من المنافع المادية ناهيك بالحاجة التي يشعر بها سواد الناس الى النظام واجراء العدل في توزيع هذه المنافع — وهو وظيفة الحكومة طبعاً

ومن الامثال التي نضربها على ذلك ان الملك عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز اليوم كان في بداءة القرن الحاضر لاجئاً الى الكويت بسيطاً عند اميره الشيخ مبارك بن الصباح لان آل الرشيد كانوا قد احتلوا مواطن آبائه واجداده وانتزعوا السلطة منهم وابن السعود هذا هو رجل شجاع ذو عزيمة صادقة وطموح وثاب فوطد النفس على العودة الى نجد واخراج آل الرشيد المغتصبين منه فدبر امره في ليل حتى تمكن من اغتيال عامل الرشيد في فراشهِ وبمساعدة كمين ابقاهُ خارج القصر تمكن من ترسيخ قدمه في البلاد ثم اخذ ملكه في التكامل والاتساع الى ان امتد الى البحر الاحمر غرباً وسورية والعراق شمالاً ولكن هذا الاتساع ما كان ليتم لولا المنافع التي جناها الغزاة الفاتحون من جنوده واعوانه . فزج هذه المنافع الاساسية بدعوة روحية جذابة كالدعوة الى التنزيه ومحاربة الشرك ولا سيما الاستيلاء على اموال المشركين جزاءً لهم كل ذلك ألَّف من همج النجديين خصوصاً ممن يدعون « غطغطاً » جيشاً لجباً متحمساً اكتسح هذه الاصقاع المترامية الاطراف ولم يتورع ان يطبق على الكثير

من سكانها قاعدة القتل العام — ولو على ابواب مكة — باسم التوحيد والتطهير من الشرك !
فالقارىء يرى من هذا المثال الملموس كيف ان الباعث الاول على تأسيس هذه المملكة المترامية الاطراف هو باعث طبيعي يرتكز على شعور بالثأر متأصل في العرب ، فلما ذر عليه القائمون به فلفلاً وبهاراً من دعوة اخلاقية خيالية كمالية صلح طعمه وصار لذيذاً حتى في افواه الآنفين المتأنقين ناهيك بالشرهين الشرسين . ولاحظت في المدد التي اقمتها في الصحراء ان كل دعوة كائنة ما كانت متى وضعت عليها التوابل الروحانية المقبلة وكان من ورائها نفع مادي تلاقي رواجاً عظيماً ولا سيما عند القبائل التي تشكو القلة وتعاني المحل . ولا نخطىء اذا نحن قلنا ان المؤمنين بمثل هذه الدعوة عن اخلاص طاهر لا تمازجه المنافع المادية هم الاقلية . واما سواد الناس فهم لا يدركون الكمال عادةً الاّ اذا كان مصلّحاً طعمهُ بالمنافع فلا يصلون لله مثلاً الاّ اذا اعتقدوا ان تحت السجادة في الدنيا ديناراً وهاجاً وفي الآخرة قصراً حافلاً بالحور العين

ويمكننا ان نضع القاعدة العامة الآتية عن الاقوام التي لا تزال على الطريقة الفطرية العمياء في نموها — يعني انها لم تدخل بعد في طور الارتقاء الغائي الذي يكون التحول الاجتماعي فيه غاية يدركها الناس بعقولهم — وهذه القاعدة هي ان التابل الذي يذر على الباعث المادي الاصلي ليجعل طعمهُ لذيذاً هو مقياس ارتقاء الشعب الذي يذره . بل ان هذه القاعدة تنطبق على اي شعب كان ما دام سواده كرة تتقاذفها صوالج الدعايات المزوقة فتتلقفها ايدي اللاعبين

تأثير الدين في تأسيس الدولة : ومن العوامل المتجلية في تأسيس كيان الدولة العامل الديني منذ الاعصر القبلية الاولى الى اليوم فقد ايد الدين الاستقرار السياسي وساعد على حفظ النظام بما اتاه من تعضيد الشيخ الزعيم وتثبيت الفاتح العظيم وذلك للمصلحة التي توخاها من مقامهما الرفيع ولا يزال الملوك والقواد الى يومنا هذا حتى في ارقى البلدان الغربية مظاهر عطف الاكليروس ومجلى تأييده . وزاد في سلطة الشيوخ والفاتحين في الاعصر السحيقة ان الكهنة كانوا يجمعون الى الخوف من الآلهة والفزع من الاصنام والارواح الخوف منهم . وقد مثل الشيخ الزعيم والفاتح العظيم سلطة هذه المعبودات في القرون الاولى كما مثلاها في القرون الوسطى فلم يكن الفرق كبيراً بين فرعون الرب الاعلى وشارلمان ظل الله على الارض . وبالانتقال من الوضع القبلي البسيط الى الوضع الدولي المعقد انتقل الدين من شكله المحلي الاهلي الى شكله القومي العام كما حدث عند الاسرائيليين اذ تغلب دين احد الاسباط على اديان الاسباط الاخرى فاكتسحها ومن ثم صار الدين اليهودي القومي . وحينئذٍ انتقل (يهوه) من بقعته المحدودة الى مقامه الشامل — من صنم سبطي محلي لا يختلف كثيراً عن اللاة والعزى ومناة الى اله قدير يحكم على المشارق والمغارب

اشراك الآخرين في الحكم : وغني عن البيان ان اتساع القبيلة على الطريقة التي ذكرناها ادّى الى رغبة الناس في الحصول على النظام والتمتع بالحماية تحقيقاً للمصلحة العامة لكن القيام بجميع الوظائف

التي يقتضيها هذا التحول يتعذر على اي فرد من الافراد ولو كان من الجبابرة فلو اصرّ (الشيخ النوري بن شعلان) في المثال المتقدم او اصرّ المرتزقة من اعوانه ممن يتمتعون بنواله مباشرة على ان يبقى هذا الامر جميعاً في قبضة يده لاختل النظام وتألب عليه الناس في الداخل والخارج. لاجرم انهُ مضطر الى اشراك غيره في الحكم من انتداب من يساعده في التشريع والقضاء والتنفيذ لان سياسة جمهور كبير من الناس والاشراف على اعماله ومعاملة افراده بالعدل هي كلها امور تدل على التعقد الذي طرأ مما لا يقوى الشيخ الزعيم على معالجته كما يعالج الوالد الشؤون العائلية فلا بد والحالة هذه من اختيار المنتدبين الصالحين للاعمال وهذا الانتداب يحدث تنوعاً مستمراً في الوظائف الحكومية وهو تنوع يدل على طريقة تأليف الدولة

ومن اكبر البلايا التي اصيب بها الحسين بن علي ملك الحجاز وزعيم الثورة العربية طمعهُ في ان يبقى «شيخاً زعيماً في القبيلة» يتناول الاشياء كبيرها وصغيرها بقبضة يده مما كان سبباً عظيماً في انهيار ملكه، وعسى ان يتعظ الآخرون من ملوك العرب ممن يجرون على طريقته الهرمة العتيقة هذه اما بسائق الغفلة او بتحريض المرتزقة من حواليهم. وفي وسعنا وضع القاعدة الآتية وهي ان كل قطر متسع متشعب يبلغ بهِ الولع بالمحافظة الى درجة انهُ يحاول البقاء مقتصراً على سلطة «الشيخ الزعيم» او على السنة التي استنها بمفرده من غير اعتبار للطوارئ ولا اشراك غيره معهُ في الامر هو قطر رجعي يطلب العودة الى الاوضاع القبلية الاجتماعية البائدة

النظرية النشوئية في تعليل الدولة: كما تولدت الاسرة من سعي الرجل والمرأة لأن يعيشا معاً بالالفة والتعاون ويستولدا الاولاد ويحضناهم كذلك الدولة نشأت من سعي الناس لأن يعيشوا معاً متكاتفين متآلفين تحقيقاً لغايات مشتركة يطلبونها فلم تكن الدولة والحالة هذه بداية المجتمع الانساني ولا الغاية الاختيارية التي نشدها الانسان بمحض اختياره وبعد نظره بل هي احدى الوسائل المتأخرة التي توسل بها بفطرته وبطبيعتهِ للحصول على الهناء الاجتماعي وذلك بما استجد من نظام معين خضع له وهذا النظام هو النظام السياسي

فالدولة اذن هي فرع من فروع تلك الشجرة الاجتماعية الباسقة التي انبتت فروعاً اخرى من أوضاع خطيرة مثل وضع الزواج والاقتصاد والدين. وكما أن هذه الاوضاع متأصلة في المجتمع ومشتبكة بهِ اشتباك السدية باللحمة كذلك الدولة هي ظاهرة من ظواهره الجوهرية. ولا يظنن احد ان تعيين الزمن الذي بدأت فيهِ الجماهير بالخضوع للادارة السياسية والاشراف «الحكومي» التام هو أهون من تعيين الزمن الذي اتصل فيهِ الرجل بالمرأة لتأسيس الأسرة بل كلاهما حادث مع المجتمع وملازم له. وليست حاجة المجتمع الى التعاون والنظام والحماية العامة دون حاجته الى استيلاد الاولاد والاَّ لما اختلفت الجمعية البشرية كثيراً عن قطيع من الجواميس يرود المستنقعات في الهند او سرب من القردة يجوب الغابات في افريقيا



قبر شاعر

الى روح الشاعر فوزي المعلوف

[نظمت على أثر مطالعة الشاعر لقصيدة « على بساط الريح »]

رفّتْ عليهِ مُورقاتُ الغُصُونْ   وحَفَّهُ العُشْبُ بنوّارِهِ
ذلكَ قبرٌ لمْ يشِدْهُ المَنونْ   بَلْ شادَهُ الشعرُ بآثارِهِ
بناه من لَبناتِ الفنونْ   وزانَهُ المجدُ بأحجارِهِ
ألقى بهِ الشاعرُ عِبءَ الشُّجونْ   وأوْدعَ القلبَ بأسرارِهِ

وجاورتهُ نخلةٌ باسِقَهْ   تجثُمُ في الوادي إلى جَنْبِهِ
كأنها الثاكلةُ الوامِقَهْ   تَقْضي مَدى العمرِ إلى قُربِهِ
تَئِنُّ فيها النسمةُ الخافِقَهْ   كأنما تخفقُ عن قلبِهِ
وترسِلُ الأغنيةَ الشائِقَهْ   هَتُوفَةً ظلَّتْ على حُبِّهِ

وَيُقبلُ الفجرُ الوَضيءُ الأهاب يهفو على القبرِ بأضوائهِ
كأنما يَذْكُرُ تحتَ التراب لؤلؤةً تزري بلألائهِ
إستلَّ منها الموتُ ذاكَ الشِّهابْ غير شعاعٍ في الدجى تائهِ
يظلُّ يهفو فوقَ تلكَ الشعابِ يطوفُ بالينبوعِ من مائهِ

ويذهبُ النورُ ويأتي الظلامْ وتبزُغُ الانجمُ في نسَقِهِ
حيرى تجوبُ الليلَ كالمستهامْ أسهرهُ الثائر من شوقِهِ
تبحثُ عن نجمٍ بتلكَ الرِّجامْ هوى بهِ المقدور عنْ أفقِهِ
أخٌ لها في الأرضِ ودَّ المُقَامْ وآثرَ الغربَ على شرقِهِ

ويطلِقُ الطيرُ نشيدَ الصَّباحْ بِنغمةٍ تنبئُ عن حزنِهِ
يَمُدُّ فوقَ القبرِ مِنهُ الجِناحْ ويرسلُ المنقارَ في ركنِهِ
أفضى إلى الراقِدِ فيهِ وباحْ بأنَّهُ الملهمُ من فنِّهِ
فَمِنْ قوافيهِ استمدَّ النواحْ ومن أغانيهِ صدَى لحنِهِ

وحين تمضي نَسماتُ الخريفْ وتملأُ الارضَ رياحُ الشتاءْ
ويقبلُ الليلُ الرهيبُ المخيفْ فلا ترى نجماً ينيرُ السماءْ
هناكَ لا ظلٌّ عليهِ وريفْ يهفو ولا طيرٌ يثيرُ الغِناءْ
يظلِّلُ الارضَ الظلامُ الكثيفْ كأنها تُمسي بوادي الفناءْ

يا شاعراً ما جمعتني بهِ كواكبُ الليلِ وشمسُ النهارْ
لكنَّهُ الشرقُ وفي حُبّهِ ينأى بنا الشوقُ وتدنو الديارْ
سَكبْتَ من شجوكَ في قلبهِ ومن مآقيكَ الدموعَ الغِزارْ
فَودَّ أنْ لَوْ نِمْتَ في تربهِ ليَشفيَ النفسَ بهذا الجِوارْ

صوَّرَ لي القبرَ الذي تنزِلُ تخيُّلُ الشعرِ ووحيُ الشعورْ
فجئتُ للقبرِ بما يَجمُلُ من صُوَرِ الدنيا الفَتونِ الغرورْ
قُلْ لي بحقِّ الموتِ ما يفعلُ بالشاعرِ الموتُ وتلك القبورْ
وهل وراءَ الموتِ ما نجهلُ من عالمِ الرُّجعى ويوم النُّشورْ

قَدْ راعني موتُكَ يا شاعري في مَيْعَةِ العمرِ وفجرِ الشبابْ
وهزَّني ما فاضَ من خاطرٍ كانَ ينابيعَ البيانِ العذابْ
ونَفَثَاتُ القلَمِ الساحرِ في جوِّ بكَ الافقَ وطيِّ السحابْ
ووقفةٍ بالكوكَبِ الحائرِ رأى بساطَ الريحِ يدْنو فهابْ

لكنَّهُ شعرُكَ لمّا يَزَلْ يُردِّدُ الكونُ أناشيدَهُ
شعرٌ كصوتِ الوحيِ أنّى نزَلْ أرقصَ في الرَّوضِ أماليدَهُ
وعلَّمَ الطيرَ الهوى والغزَلْ فأسمَعَ الزهرَ أغاريدَهُ
وغنَّتْ الريحُ بهِ في الجبَلْ فحرَّكَتْ منْهُ جلاميدَهُ

يا قبرُ لم تُبْصِرْكَ عيني ولاَ رأتْكَ إلاَّ في ثنايا الخيالْ
ملأتَ بالرَّوعِ فؤاداً خلاَ إلاَّ من الحبِّ ونورِ الجمالْ
أوحيْتَ لي سرَّ الرَّدى فانجلَى عن عينيَ الشكُّ وليلُ الضلالْ
غداً ستطوى القلبَ أيدي البِلَى ويقْنُصُ النجمَ عُقابُ الليالْ

وهكذا تمْضي ليالي الحياهْ والقبرُ ما زالَ على حالهِ
دُنْيا مِنَ الوهمِ ودهرٌ تراهْ يُغرِّرُ القلبَ بآمالهِ
يسْخرُ من مبتسماتِ الشفاهْ وجارفِ الدمعِ وسيّالهِ
دهرٌ على العالمِ دارتْ رحاهْ فلم تدَعْ رسماً لأطلالهِ

علي محمود طه المهندس

ارز لبنان ومغارة قاديشا

للامير مصطفى الشهابي

لا يسمع الانسان باسم الارز الا وترتسم في ذهنهِ صورة فيها جمال واتساق وروعة وعظمة ، صورة شجرة من دهاقين الشجر وسادتها وسرحة من سراة الدوح وعيونها تفتنك بعلو ساقها الشاهق وبطول اغصانها المعترضة (الافقية) وبخضرة اوراقها الحانئة وبقيام ثمارها البيضية كالشموع اوكالقناديل على الأغصان فوق الورق. ولا عجب فالأرز شجر الرب المنسوب الى اكرم فصيلة نباتية وهي الفصيلة الصنوبرية لأن فيها ملوك النبات كما ان في الفصيلة النخلية امراءها

ولكم تاقت النفس الى رؤية هذا الشجر المبارك في حرمه والى ولوج المغارة التي تتدفق منها مياه نهر قاديشا القدسية حتى اتاحت لي الايام فرصة انتهزتها في ١٢ آب (اغسطس) ١٩٣٢ ؛ فكتبت بعدها هذه الكلمات

الارز من اعظم اشجار الفصيلة الصنوبرية لكنهُ ليس انفعها ولا اكبرها قداً . فانواع الصنوبر اكثر انتشاراً منهُ واعمّ نفعاً وكذا الشوح والعرعر واللزاب وغيرها . وقلما يزيد علو الارزة على ٤٠ متراً على حين ان الشجرة الجبارة (وهي تدعى سكويا في كليفورنيا) يبلغ قدها ١٣٠ متراً في بلادها . وهي من الفصيلة نفسها

وللأرزة الصغيرة ساق ملساء تضرب الى اللون الرمادي اما المعمرة فلها ساق سمراء محزوزة اللحاء حزاً غير عميق . ويكون لكل شجرة ساق واحدة في الغالب وعليها الفروع والاغصان لكنهُ قد يكون للأرزة ساقان او ثلاث سيقان احياناً تعلو صُعُداً على مقربة من الارض وربما اندغم بعضها ببعض اندغاماً جزئياً او كلياً على طول الزمن . وقد شاهدنا كثيراً من اشجار الارز القديمة لكل منها جذعان او اكثر

وفروع الأرز قوية غليظة تمتد امتداداً افقياً الى بعيد وتقصر على التتابع كلما قربت من قمة الشجرة وينشأ عليها اغصان كفية عظيمة تغطيها الاوراق في جزئها الاعلى فيكون للشجرة شكل مخروطي او شبيه بالبيضي له في العين روعة وجمال. ويكون الورق اما متفرقاً على الغصن السنوي او مجتمعاً خصلاً على زنود اي غصينات طول كل منها سنتيمتر تقريباً . والشكل الثاني اعمّ . وعدد الاوراق على كل زند ٣٠—٥٠ ورقة . وهذه دائمة ابرية الشكل خضراء حانئة رأسها قاس يكاد يكون شائكاً ويبلغ طولها سنتيمتراً الى سنتيمتر ونصف في معظم الاوراق التي قسناها

والزهرة وحيدة الجنس وكلا الزهرتين الذكرية والانثوية على شجرة واحدة . والازهرار في اواخر الصيف . وتسمى الزهرة هريرة في علم النبات . فالهريرة الذكرية غليظة اسطوانية متراصفة الفلوس اي العصفات وهي صغيرة لا يتجاوز طولها سنتيمترين او ثلاثة فيما شاهدناه منها وتقوم على غصينات فوق الورق . اما ثمرة الارز فهي من الثمار الصنوبرية (كوز) قست عدداً منها فبلغ متوسط طول الواحدة ٧ — ٩ سنتيمترات وقطرها ٤ — ٥ سنتيمترات . وهي تكاد تكون بيضية او اهليلجية تقوم على غصنين فوق الورق وتنضج في سنتين ولا تتفتح الأ في ثلاث سنين او اربع فتنتثر البزور وتبقى الثمرة على الاغصان . وقد شاهدت ثماراً في مختلف هذه الحالات . وبزرة الأرز ثخينة راتينجية ذات زوايا يعلوها جناح مستطيل . وهي تشبه بزرة التنوب لكن غلاف بزرة الأرز (ويسمى الغدفة نباتيًّا) اكثر لمعاناً واشراقاً

ويستخرج البزر من الثمرة التي لم تتفتح على الشجرة بنقعها في الماء البارد ، يوماً او يوماً ونصفاً ثم توضع في الشمس فتنفصل العصفات بعضها عن بعض فتؤخذ البزور بسهولة. والبزرة المزروعة تنتش فيخرج مع السويق ثماني وريقات فلقية ويضرب الجذير في الارض الى غور بعيد . ويكون نموّ الارزة بطيئاً جدًّا في السنين الخمس الأولى من حياتها ، ثم تزداد الشجرة نشاطاً ورسوخاً مع الزمن . ولا تتحمل الأرزة الصغيرة الظل ولا النقل من ارض الى ارض وكثيراً ما يتلفها النقل او يفقدها رأسها فتكف عن النمو الى فوق فيسوء مظهرها

وخشب الارز الخارجي تحت اللحاء ابيض اللون اما خشب القلب فاسمر وردي او اسمر الى صفرة . وخلاياه دقيقة متجانسة مرنة . ويحتوي الخشب على فجوات راتينجية متفرقة تجعل له رائحة خاصة زكية . ووزن الخشب النوعي ٨٠٦/٠ الى ٨٠٨/٠ ويختلف الخشب من حيث جودته بحسب المكان الذي عاشت شجرة الارز فيه فاذا كانت الشجرة نامية في ارض جبلية عالية بعيدة عن الاشجار السائرة يكون خشبها جيداً وجديراً بالشهرة التي نالت خشب الارز في سالف الزمان . اما اذا عاشت الشجرة في سهل ونمت بسرعة فان خشبها يكون رخواً اسفنجيًّا قليل الصلابة . وقد نُقل الارز الى فرنسا منذ قرنين والى انكلترا منذ قرنين ونصف تقريباً . وهو هنالك يحتمل هبوط الحرارة الى ٢٥ درجة تحت الصفر . ويرى الشجّارون وعلماء الحراج انهُ من اجمل الاشجار واروعها في حدائق التزيين لكنهم يرون ان في بلادهم اشجاراً كثيرة اصلح منهُ في الحراج من حيث استعمال خشبها وقيداً او استعماله في الصناعة

وللأرز ذكر في تاريخ كل الشعوب القديمة التي سكنت بلاد الشام او غزتها . فسليمان الملك اشغل عشرة آلاف عامل في قطع شجر الارز والشوح من حراج لبنان لبناء هيكل اورشليم. وكان البابليون والآشوريون يستعملون خشب الارز في بناء هيا كلهم . واستعملهُ المصريون الاقدمون في صنع السفائن واثاث البيوت والجسور والتوابيت . وعثر احد علماء

الآثار اثناء التفتيش عن مخلفات الاشوريين على خشب الارز الذي كان هؤلاء يستعملونهُ منذ ثلاثة آلاف سنة ونيف فاذا بهِ لا يزال صلباً ومعطراً برائحة الراتينج المنعشة . وكان القدماء يعتقدون بأن الفساد لا يتطرق اليهِ ولذلك كانوا يصنعون منه اصناماً لآلهتهم كما كانوا يصفّحون بهِ جدران الهيا كل . واتسعت تجارة خشب الارز قديماً وعمت فوائده وصار الفراعنة وملوك العجم وبابل وآشور يتطلبون الخشب من حراج لبنان جزيةً على الناس

ومن المعروف ان لكل نبات مهداً اصليًّا يعيش فيهِ وينتشر منهُ الى الأصقاع المجاورة فجبال لبنان وطن الأرز او هي من مواطنهِ الأصلية (١) . ولا شك ان تربة هذه الجبال وهواءها يلائمانه كل الملاءمة وانه كان قديماً اهم اشجار الحراج في ذلك الاقليم . ويتضح من آثار الأقدمين ان حراج لبنان كانت عظيمة الشأن في العصور الخالية وانها كانت تغطي معظم روابيه ووهاده وان اهم اشجارها الأرز والشوح والعرعر واللزاب والسنديان والملول وغيرها . وكل هذه الأنواع مبذولة فيهِ اليوم الاّ الارز فان منه بقايا في بقاع قليلة وهي بشري والحدث (حدث الجبة) واهدن وسير وعين زحلتا ومعاصر الشوف والباروك حيث يسمى الأبهل

ارز بشرّي

اعظم حراج الأرز شأناً واقدمها سنّاً حرج بشرّي فهو الذي يطلقون عليهِ اسم « ارز لبنان » تعميماً وهو الذي صوروا احدى شجراتهِ على علم لبنان الحاضر وهو ايضاً الحرج الذي زرناه وكتبنا فيهِ هذه المقالة . ويقع هذا الحرج في جبل المكمل (يلفظونهُ بميمين مفتوحتين بينهما كاف ساكنة) الواقع شرقي طرابلس بين جبل العاقورة جنوباً وجبال عكار شمالاً . وجبل المكمل هذا هو الذي فيهِ اعلى قمم لبنان كقمة فم الميزاب وقرنة السودا وضهر القضيب . ولم اصعد في الجبل فوق الأرز الاّ قليلاً . ولم اصل الى هذه القمم ولذلك اضطررت في معرفة علوها فوق سطح البحر الى مراجعة ما لديَّ من المآخذ كخريطة لبنان التي رسمتها الحملة الفرنسية سنة ١٨٦٠ — ١٨٦١ وخريطة بلاد الشام التي صنعها ديوان المساحة في جيش الشرق الفرنسي سنة ١٩٢٨ وكتاب لبنان الذي الفهُ عدد من العلماء خلال الحرب الكبرى وطبع في بيروت سنة ١٣٣٤ رومية بهمة المتصرف اسماعيل حقي بك وغيرها فألفيت علو ضهر القضيب ٣٠٦٣ متراً وعلو فم الميزاب ٣٠٤٧ متراً وعلو قرنة السودا (هكذا يلفظها الأهالي ويجب كتابتها القرنة السوداء) ٣٠٨٨ متراً وهي اعلى قمة في بلاد الشام لان قمة صنين لا يزيد علوها على ٢٦٠٨ امتار وقمة جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً

(١) في الجزائر صنف من ارز لبنان يسمى ارز لبنان الاطلنطي (ومن النباتيين علماء يجعلونه نوعاً مستقلا) في حراج واسعة بولاية قسنطينة خاصة . وهو موجود ايضاً في جبال الريف من اعمال مراكش ويعرف باوراق اقصر من اوراق ارز لبنان وثمار اصغر . وفي جبال حملايا وجبال التبت شمالي الهند نوع يسمى ارز حملايا ربما بلغ ارتفاعه في بلاده ٦٠ — ٧٠ متراً . اوراقه اطول من اوراق ارز لبنان وثماره اكبر .

وتقع حرجة ارز بشرّي في وسط الدائرة المتكونة من قمم جبل المكمل تلك الدائرة التي تنفتح في الجبهة الغربية حيث تتدفق مياه نهر قاديشا . وتعلو الحرجة ١٩٠٠ متر ونيف عن سطح البحر وفيها ٤٠٠ ارزة تقريباً كبيرة وصغيرة[1]. فاما كبيراتها ففيها جلال مسوّق الشجر العظام . ولقد قست ساق كبراها فبلغ محيطها نحو ١٦ متراً وعمرها اكثر من الفي سنة ويقول بعضهم انها تبلغ ٤٠٠٠ سنة من العمر لكنه لا يمكن معرفة سنها على وجه الضبط ولا على وجه التقريب . وشاهدت اربع ارزات مسنة محيط ساقها بين ١٢و١٣ متراً وعلوها نحو ٣٠ متراً وسنها اكثر من الف سنة في الغالب . اما باقي الاشجار فاقل ثخناً واقصر عمراً ومع هذا فهي هنالك منذ بضعة قرون إن لم تكن كلها فمعظمها . ولا تخلو الحرجة من اشجار فتية

ومما يسترعي النظر ان رحالة من الغربيين اسمهُ رولوف Raulovv ذكر في سنة ١٥٧٤ ان الاشجار الهرمة العظيمة الجذوع تبلغ ٢٦ شجرة عداً . اما اليوم فهي لا تزيد على بضع شجرات كما ذكرت والباقي عملت بهِ يد المحتطبين والجهال من سكان ذلك الجبل . وادرك المتصرف المعروف رستم باشا مكانة البقية الباقية من حرجة بشري فاحاط معظم اشجارها بسور من حجر وصرف عنها اذى الناس ثم عيّنت حكومة لبنان لها حارساً ودليلاً يطوف بالسياح وطالبي الفائدة . وعبدت الطريق بينها وبين بشري فصار من الصعب ان يقدم احد على قطع شجرة دون ان تدري الحكومة به فتعاقبهُ

والتطعيم الطبيعي امر مألوف في الحراج وفي اغصان الشجر المتجاورة . وهو ان يحتك غصن بغصن بفعل الهواء وضيق المكان فينحتّ لحاؤها فتتماس المادتان المولدتان الواقعتان بين الخشب واللحاء فيلتصق الغصنان ويغلظا مع الزمن . وقد شاهدت في ارز بشري اشجاراً متجاورة حصل في سوقها تطعيم طبيعي واخرى حصل في فروعها . ورأيت ارزة احترق ساقها وهي لا تزال حية لانها تستمد الغذاء من فرع شجرة مجاورة أنشبته[2] الطبيعة في الشجرة المحروقة فوق ساقها . وهنالك شجرة يسمونها ارزة لامارتين وهو الشاعر الفرنسي المشهور نقش اسمه واسم ابنته جوليا على ساقها ونقش التاريخ ايضاً فكان سنة ١٨٣٢ اي منذ قرن تماماً . وعلق شباب بشري لوحة على الشجرة تذكاراً لزيارة الشاعر المومأ اليه للارز .

وهنالك ايضاً شجرة يسمونها ارزة الناسك وارزة الراهب وارزة الحبيس يزعمون ان ناسكاً كان يقيم في تجويف ساقها فيأكل من المن ويشرب من ماء في داخل الشجرة . ولعل هذا الماء الذي تلمسناه يحصل من ذوب الثلج المتراكم في الساق او لعله من طلّ الشجرة اي نسغها وهو اقرب الى الذهن

(١) قرأت في احد كتب الاشجار القديمة ان القبطان الانكليزي المسمى اوليفر Oliver عد منها ٣٨٤ ارزة مختلفة القد في سنة ١٨٧٨ . وحاولت عدها فلما بلغت الرقم ٢٩٠ اخطأت العد فأحجمت لضيق الوقت

(٢) التطعيم والتركيب والانشاب بمعنى واحد

ولفتت نظري تربة الرابية التي فيها الارز والتربة التي تحتها فهي لا تشبه في علم الجيولوجية راسبات الحقبة الرابعية التي كوَّنتها الانهار والسيول بل هي قفٌّ اي حجارة كبيرة وصغيرة معظمها كلسي غاص بعضها ببعض مما يدل على انهُ كان يوجد في الحقبة الرابعية ركام جليدي Glacier مكان الارز وراجعت للتثبت من ذلك كتاب جيولوجية لبنان للعالم اليسوعي زوموفن احد اساتذة الجامعة اليسوعية في بيروت فاذا بهِ يرجح هذا الرأي ترجيحاً لكنهُ يذكر ان معظم العلماء من الرواد على هذا الرأي مثل هوكر وفراس ولارته وطومسون وغيرهم اما جبل المكمل وكل الهضاب المحيطة بوادي قاديشا فهي جيولوجيًّا من الاراضي الطباشيرية التابعة للحقبة الثنائية . وتكون الاراضي الطباشيرية على بضع طبقات لكل منها اسم وجميعها تتجلى في اعضاد الوادي العميق الذي حفره نهر قاديشا. وتراب هذه الطبقات كلسي الا ترابا رمليًّا يسمونهُ رمل نوبيا شاهدناه بين بشري واهدن وبالقرب من حدث الجبة . وهو مبذول في انحاء لبنان. ولابد لمثلي ممن يأنسون بالنبات وحياته ان يتعرف الى الاعشاب الجبلية في حرجة الارز وحولها وهذه الاعشاب عديدة تنتسب الى فصائل مختلفة في ابان الازهرار على حين اننا في آب (اغسطس) . فما عرفته منها النباتات الآتية :

بربريس	Berberis	عرق الطيّون	Inula viscosa
إيستس	Isatis	انواع من الجُرَيس	Campanula
القرنفل القصير الورق	Dianthus brevifolis	انترسكس	Anthriscus
جبسوفيلا	Gypsophilla	سراستيوم	Cerastium
زهرة الرمال الاقرعية	Arenaria cassia	انواع من البنفسج بقرب اهدن الخ . . .	
اللتين	Ononis		

مغارة قاديشا

هي المغارة التي تخرج منها مياه نهر قاديشا وهي في لحف جبل الارز فوق وادي قاديشا الشهير . ولفظة قاديشا هذه لفظة آرامية معناها المقدس توجد بهذا المعنى في كل اللغات السامية . ويظهر ان قداسة الوادي المذكور منبعثة من انهُ كان يقطن جماعة من النساك كهوفه ومغاوره . ويرى الانسان في تلك المغارة صورة جميلة لتأثير المياه الشديد في الصخور الكلسية فمياه قاديشا تحصل خاصة من ذوبان الثلج على قمم جبل المكمل وسفوحه لا من الامطار التي تهطل عليهِ . والدليل على ذلك ان الماء يشح في الشتاء واوائل الربيع لا في الصيف . ولقد شق الماء طريقاً في الصخور الكلسية على بعد مئات من الامتار فتكونت مغارة قاديشا. وسالت نقاط الماء في اماكن عدة من سقف المغارة وجوانبها فأفلت منها ما تحويه من الغاز الكربونيك فرسبت مذوبات كربونات الكلس فحصل منها مجموعة بديعة من الشموع الرواسب التي يسمونها

في علم الجيولوجية استلاغتيت واستلاغميت. وأنيرت المغارة بالكهرباء فصار لهذه الشموع منظر جميل ومهيب . ومن العجيب ان بعض الشموع الرواسب تشبه اناساً مشهورين في التاريخ فهذه فيكتوريا ملكة الانكليز وذاك السلطان عبد الحميد وذلك توت عنخ آمون بعينه وهلم جراً

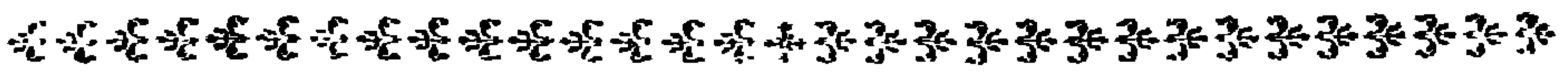
وعندما يخرج الماء من المغارة ينصب في الوادي على شكل شلال رائع المنظر الى عمق ثلاثمائة متر تقريباً . لكن شركة قاديشا الوطنية للتنوير الكهربائي ضبطت قسماً من ماء النهر واسالته في قناة حفرتها في لحف الجبل على طول ٩٥٠ متراً ثم هوت به في انبوب عظيم الى قعر الوادي حيث بنت معملاً لتوليد الكهرباء

الخلاصة

جمال الجبال في القمم العمودية او المسننة والمياه المتدفقة والمثالج البيضاء والوديان السحيقة والحراج الملتفة . وحظ لبنان من ذلك اقل من حظ جبال اوربا الشهيرة كجبال الالب وجبال البرانس . لكن لبنان يمتاز بسمائه الصافية طول الصيف وبقربه من سائر بلاد الشرق العربي وبلغة سكانه وهي العربية ويمتاز شمالي لبنان عن جهاته السائرة بالارز ومغارة قاديشا ووادي قاديشا الذي لم ار اروع منهُ في كل انحاء لبنان

وفي الارز فندق حديث فيه كل وسائل الراحة . ويبنون اليوم فندقاً كبيراً بقرب الارز على الرابية الواقعة فوق مغارة قاديشا في مكان مطل على الوادي وقراهُ . وربما تم بناؤه في السنة القادمة . وعبدت الطريق بين بشري والارز . وجرت مياه نبع شاغورة الى الارز وحواليه وأنيرت كل القرى المهمة بالكهرباء كأهدن وحصرون وبشري وغيرها . ومدّت اسلاك الكهرباء الى الارز والى طرابلس حتى مقر شركة السمنت عند رأس الشقعة . ويمكن الذهاب من طرابلس الى الارز في طريقين معبدتين الاولى طريق الحدث وحصرون وبشري والارز. والثانية طريق زغرتة واهدن وبشري والارز وتكاد تكون المسافة واحدة في الطريقين (٦٠ — ٦٣ كيلو متراً) وكلاهما جميل ينتقل فيه المرء من الساحل وموزه، فالكورة وزيتونها ، فالجبل المتوسط الارتفاع وتينه وعنبه وصنوبره وأبهره وبطمه فالجبال العالية وسنديانها ودفرانها وتنوبها وأرزها.

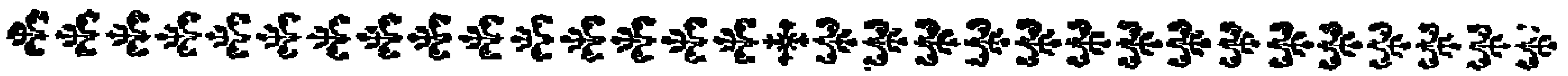
ووسائل الراحة متوفرة في كل فنادق بشري وحصرون واهدن والارز .والقرى الثلاث الاولى تعلو اكثر من ١٤٠٠ متر عن سطح البحر . اما الارز فاكثر من ١٩٠٠ متر كما ذكرت ولذلك يمكن للانسان ان يتصور مبلغ نقاء الهواء وبرودته في الصيف. فميزان الحرارة عند ما كنا هنالك في آب (اغسطس) لم يزد على ٢٥ درجة في الفرط . وكان يهبط ليلاً الى ١٤ درجة وهذه هي حرارة الربيع في دمشق وحرارة الشتاء في مصر في كثير من ايام هذين الفصلين



قاهر البعوض

سيرة السر رُنَلْد رُسْ واعماله

Sir Ronald Ross



— ١ —

في اساطير البشر قصص ابطال حاربوا جبابرة مردة، واحاديث فرسان نازلوا تنانين مفترسة فرفعهم الناس الى مستوى الآلهة . وقصص مكافحتهم لها حافلة باروع الروايات وابعدها اثراً في نفس الانسان . وما زلنا حتى اليوم ، وقد انقضت عليها القرون ، وتبددت اشباح الجبابرة والمردة بفعل العلم والاستنباط، نقرأ هذه القصص صغاراً فنؤخذ بها ونجعل أبطالها الخياليين ابناء عالمنا الحقيقي ، ونطالعها كباراً — وقد تبددت اخيلة الصغار — فتملكنا نشوة الصور التي ابتدعها الذهن البشري وقد اخذ يتفتح عن ازاهير الفكر

على ان عصر الابطال لم ينقض . وفي قصص بعض العصريين منهم من الروعة والرواء ما يفوق كل اساطير القدماء وهذه قصة رجل فردٍ، من ابناء عصرنا، تغلب على عدوٍ صغير، ولكنهُ عدوٌ فتاك ، ولولاهُ لكان ذلك العدوّ ماضياً الآن يفتك بالوف الوف الناس كلَّ سنةٍ

ذلك الرجل هو السر رونلد رُسْ .والعدوّ الذي قهرهُ هو البعوضة الناقلة لطفيلي الملاريا

ووجه الاختلاف بين رُسْ ، البطل العصري ، وابطال الاساطير الاقدمين ، ان اولئك عرفوا عدوّهم وما يتصف بهِ واين يوجد . فكانوا على بيّنة مما يقدمون عليهِ . اما هو فكان عليهِ ان يكشف اولاً في اية صورة من الصور تختفي قوة هذا العدو ، واين يستطيع لقاءها، واية الاسلحة تفيد في مكافحتها والتغلب عليها.فاستغرق بحثهُ سنين من الدأب المضني ولكنهُ توّج في اغسطس سنة ١٨٩٧ بتاج الظفر ، اذ كشف رُسْ طفيلي ملاريا العصافير ، وهو مرض شديد الشبه بملاريا الناس، في معدة انثى من صنفٍ من البعوض يدعى انوفيليس

جرّد رُسْ سلاحهُ ضدَّ هذا العدوّ الذي لا يرى . اما قصة الحرب التي شنها ، وحديث الايمان الذي لا يقهر ، والجهد المضني الذي لا يني ، فمن اروع القصص في تاريخ الشعب البريطاني. كان امامهُ سبيل واحد وهو المضيُّ في تشريح البعوض تحت عين المجهر الى ان يفوز بالعثور على طفيلي الملاريا في احداها وقد شرَّح اكثر من الف بعوضة على ما يقال . كان هذا العمل يقتضي قوة عشرات من الجبابرة وصبر كثيرين من امثال أيوب . فقد كان محتوماً على رُسْ ان يشتغل في جوّ استوائي شديد الحرارة والرطوبة في كلكتة من دون ان يستعمل «مروحة الخيش » لان هواءها ينثر قطع البعوض الدقيقة التي على مائدته . وكان محتوماً عليهِ كذلك ان يقضي نحو ساعتين في تشريح كل بعوضة وفحصها في حين ان اخواتها كنَّ يهاجمنهُ من

غير مهادنة . وكان الهنود — وهم على وشك ان يجنوا اعظم الفوائد من بحثهِ — ينظرون اليهِ شزراً ، ويظنونهُ ساحراً ، ويترددون في مدّ اصابعهم لوخزها واستخراج الدم منها بغية فحص كرياته ، مع انهُ كان ينفحهم بثلاث ربّيات لقاءَ كل وخزة

واخيراً في ٢١ اغسطس ١٨٩٧ لمح الجنديُّ الباسل العدوّ الفتاك الذي خرج لذبحهِ . في ذلك اليوم ، ابصر رُسْ على جدران غرفتهِ ببعوضةٍ من نوع لم يمتحنهُ قبلاً ، فقبض عليها فرحاً ، وكانت نوعاً خاصًّا من جنس الانوفيليس . ثم جاءَهُ في ذلك اليوم نفسهِ ، احد جامعي البعوض بنحو ١٢ بعوضة من هذا النوع . فوضع البعوضات واحدة اثر واحدة على شريحة المكرسكوب وشرَّحها ، مكروناً مكروناً (المكرون هو جزءٌ من الف جزءٍ من المليمتر) ولكن لم يعثر بجديد يسترعي النظر ، فاقبل على الاخيرة ، ومرارة الاخفاق في عينيه

وهنا نترك الكلام لرُسْ يقصُّ نهاية بحثهِ الاخاذة قال :—

كان التشريح تاماً . ففحصت الانسجة بعناية . بعدما صارت معروفة لدي . باحثاً في كل مكرون بنفس اللهفة والعناية اللتين يبحث بهما في قصر خرب عن كنز مدفون . لا شيء — كلا ان هذه البعوضات الجديدة سوف تخيبني . لا بد من خطاء في النظرية . ولكن نسيج المعدة لم يفحص بعد . رأيته ملقى هناك فارغاً رخواً ، على شريحة زجاجية وهو امتداد فسيح ابيض من الخلايا كدار كبيرة مبلطة . كل خلية يجب ان تفحص بدقة . عمل نصف ساعة على الاقل . وكنت متعبا . فقلت وما الفائدة من البحث . واظن انني كنت قد فحصت اكثر من الف بعوضة قبل ذلك ولكن ملاك القدر وضع لحسن الحظ يده على رأسي . فرأيت امامي دائرة صافية قطرها نحو ١٢ مكروناً وكانت جلية جلاء غير عادي . والخلية اصغر من ان تكون خليه عاديةفي معدة بعوضة . فدققت قليلا . ها هي خلية اخرى . تشابه الاولى كل الشبه . وكان الجو حاراً معتماً . واذكر انني فتحت حدقة الميكرسكوب لادخال قدر كاف من النور اليه ثم غيرت ضبط العدسة . في كل من هذه الخلايا رأيت مجموعة من حبيبات صغيرة سوداء كالحبر

كانت هذه الحبيبات طفيليات ملازية . وبعد يوم رآها وقد كبر حجمها . ومن ثمَّ ، تتبع طفيليّ الملاريا ، درجة درجة ، من معدة الانوفيليس ، الى ممصّه ، (وهو كالخرطوم) وبهِ يدخل الى مجرى الدم في الطيور اي في ما تلسعهُ البعوضة من الطيور

كان هذا اكتشافاً مجيداً ، وخالداً ، لانهُ مهد السبيل لمنع الملاريا ومعالجتها العلاج الناجع ولانهُ مكّن الاطباء والعلماء كذلك من مكافحة الامراض الاستوائية وغير الاستوائية بالجري على الخطة نفسها في البحث والمكافحة

وقد وصفهُ شاعر العرش البريطاني جون مايسفيلد بانهُ اعظم عمل قام بهِ الانسان في عصرنا

— ٢ —

ولد السر رونلد رُسْ في ألمُورا بالولايات الهندية الشمالية الغربية عند سفح جبال حمالايا سنة ١٨٥٦ وهو اكبر ابناء الجنرال السر كامبل رُسْ . فلما كان في الثامنة من عمره بعث بهِ والداه الى انجلترا وعهدا بهِ الى عمٍ لهُ قاطن جزيرة وَيْط فتلقى مبادىء العلم في مدرسة سبرنغهل في مدينة سوثمبتن وهي تناوح جزيرة ويط على شاطىء انكلترا الجنوبي . ويؤخذ من مذكراتهِ انهُ كان في حداثتهِ شديد الميل الى الهندسة والرياضيات والموسيقى . وقد ظلَّ شديد الميل اليها حتى قال مرة انهُ

ظن ان بحثهُ في انتقال الملاريا ومكافحتها ليس الاَّ فترة في عمله الطبي الذي لم يقع من نفسهِ وقعاً عظيماً

وفي سنة ١٨٧٥ دخل مستشفى سانت برتولميو في لندن لدرس الطب فلما انقضت عليهِ اربع سنوات فاز بشهادة عضو في كلية الجراحين الملكية . ولكنهُ لم يكن في اثناء تلقي العلوم الطبية تلميذاً ممتازاً . بل كان لا يميل قط الى الدروس السريرية مما حملهُ على التفكير بالتحول الى درس الفنون . ولكن البحث المجهري كان الموضوع الوحيد ، بين الدروس الطبية ، الذي فتن لبَّهُ

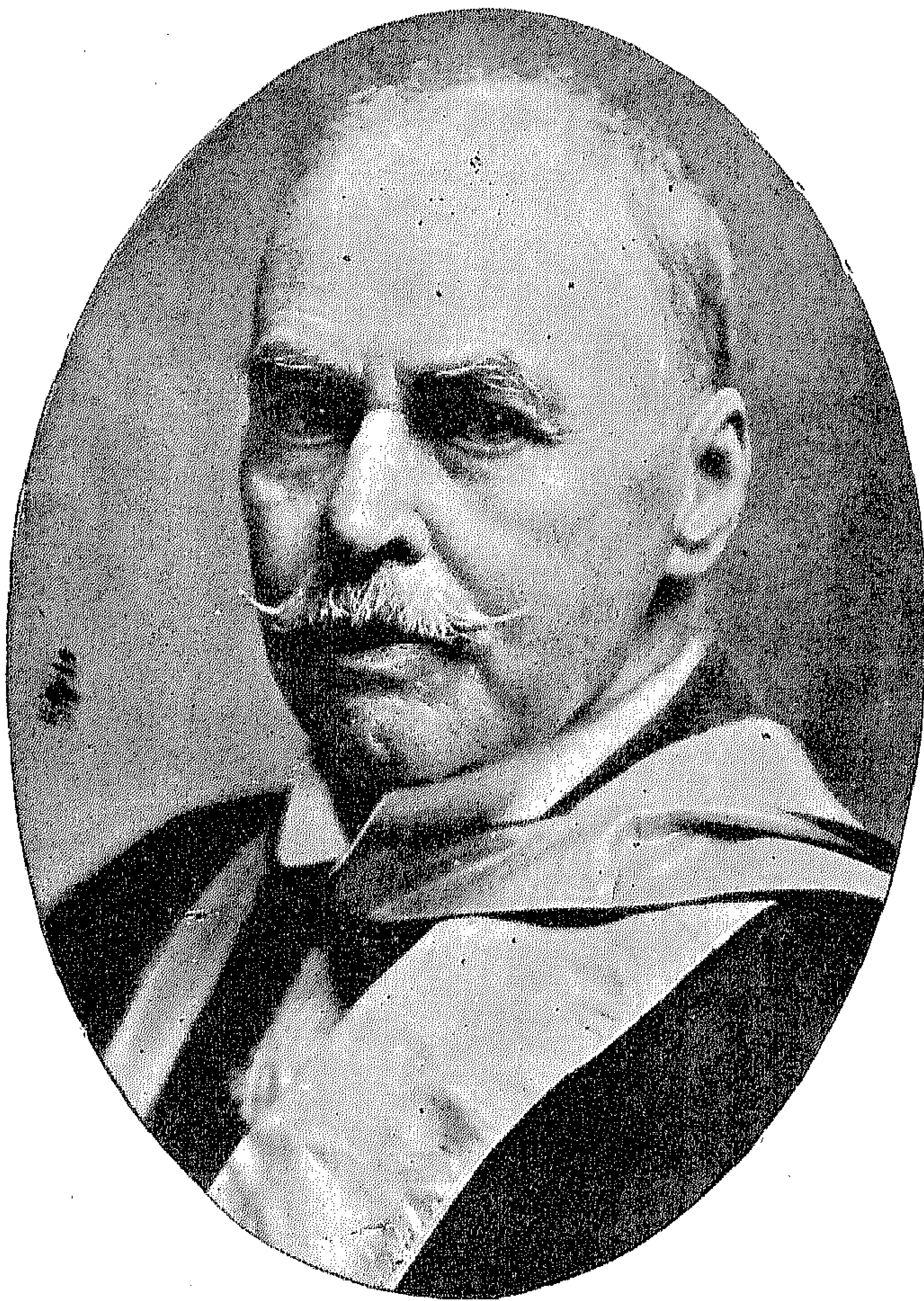
على ان والدهُ السر كامبل رُس كان جندياً ممتازاً ذا مقام رفيع في جيش الهند ، كما كان جدهُ من قبله ، فكان الطريق ممهداً امام رُنَلد للانتظام في سلك القسم الطبي في جيش الهند ، والمحافظة على تقاليد اسرتهِ ومقامها فيه . فانتظم فيهِ سنة ١٨٨١ ملبياً دعوة ابيهِ غير مدفوع بباعث نفسي خاص . وتنقل في الهند من ميسور إلى بنغالور إلى مدراس إلى كوتا إلى مولمين في برما إلى جزيرة أندمان ، فكان يقوم بأعماله الطبية في كل منها خير قيام ولكن لم يبدُ عليهِ في أثناء ذلك كلهِ أي ميل خاص للبحث العلمي . فأهمل حتى ميله الشديد السابق إلى البحث المكرسكوبي . وقضى وقت فراغهِ ينظم الشعر ويدرس مسائل الرياضة العالية. وفي هذه الفترة تبينت لهُ علاقة وطيدة بين الموسيقى والرياضة . فجعل يكتب الرسائل الرياضية ويبعث بها الى المجلات الخاصة بها مع ما كان يناله من رفض نشرها . ونظم رواية شعرية عنوانها « ابن الاوقيانوس » . وقد نشرت هذه الرواية وغيرها من الفصول النثرية التي كتبها فأثنى النقاد ثناءً جمّاً على ما يبدو فيها من آثار الخيال الرائعة . واشتغاله بالرياضة والادب الموسيقي ، هوَّن عليهِ البقاء في الهند قبل الرجوع إلى انكلترا في اجازته الاولى

وكان مجال العمل في ناحية الصحة العامة في الجيش الهندي متسعاً للعامل النشيط ، فلما اقترب موعد أجازتهِ الاولى عزم على البقاء في الجيش وان يقضي أجازته في انكلترا في درس موضوع الصحة العامة والحصول على شهادته (D. P. H.) التي كانت قد انشئت حديثاً في مدارس انكلترا

وفي سنة ١٨٩٠ عاد رُس الى الهند وقد تمكن من اصول علم البكتيريا فشغل منصب جراح مستشفى بنغالور . ومع ان عنايتهُ بالموضوعات الادبية والرياضية لم تني أ كب بعد عودته على مطالعة المؤلفات الطبية ، فأدرك اثر علم البكتيريا ومقامهُ في مكافحة الامراض الاستوائية. فلما انقضت مدة عمله في بنغالور سنة ١٨٩٤ عاد الى انكلترا وعرض على الاستاذ كانتاك آراءَهُ في اصل الملاريا فقدمهُ هذا الاستاذ الى پاترك مانسن Manson وهو امام الطب الاستوائي في ذلك العهد

كان مانسن يعرف كل ما يعرف عن طفيليات الملاريا[١] في ذلك العهد ، وكان ذكاؤه قد

(١) رأى لافران الفرنسي سنة ١٨٨٠ ، وهو في الجزائر حينئذ اجساماً خيطية على جوانب خلايا الدم الحمرا في مريض مصاب بالملاريا ، وكانت تشبه الذنيبات وتتحرك داخل الخلايا وتحل محل المادة الملونة فيها . فقام في نفسه ان هذه الاجسام من النوع الطفيلي وانها هي سبب الملاريا ، وبعث باكتشافه هذا الى الاكادمية العلمية والاكادمية الطبية في باريس سنة ١٨٨٠ و١٨٨٢ كاتباً في ذلك رسالة موضوعها الملاريا مرض طفيلي ووصف الاجسام التي وجدها في دم المصابين بها



السر رُنَلد رُس
Sir RonaldRoss

مقتطف نوفبر ١٩٣٢ امام صفحة ٤١٣

هداه الى القول بأن للبعوض شأناً في نقل الداء من انسان الى آخر . ولكن قوله هذا لم يكن حدساً من دون سند علمي. ذلك ان مانسن كان قد بحث في الصين في مرض يسببهُ طفيلي يدعى «فيلارية بانكرفت» وهناك كشف عن ظاهرتين غريبتين في حياة هذا الطفيلي — وهما ظهورهُ في دم الانسان في الليل دون النهار وفقدانهُ غمدهُ اذا اخذت قطرة من الدم وبردت فكأنها تستعد لحياة اخرى. فسأل نفسهُ ما معنى كل هذا وهل له علاقة بأدوار حياة الطفيلي. وكان قد تحقق ان هذا المرض لا يُعدي باللمس والمخالطة، وان لا بدَّ لهُ من اسلوب دقيق يمكّن الطفيلي من الخروج من جسم الانسان . فحكم من هذه المقدمات على ان البعوض هو هذه الوسيلة في الغالب . فاذا مصّ البعوضة دم الانسان ، امتص الطفيليات كذلك ، فتعيش في البعوضة مدى حياتها ، ثم إذا ماتت البعوض اتصلت الطفيليات بالماء ثم تنتقل الى جسم الانسان. كذلك قال مانسن واتبع قولهُ بالاكباب على درس الملاريا في لندن فشاهد بعض ظواهر في طفيلي الملاريا حسبها ادواراً في حياته

افضى مانسن الى رُسْ بكل هذا، وكان قد اصبح رُسْ بكتيريولوجيًّا بارعاً، فاسترعى البحث كل عنايتهِ ، وبوجهٍ خاص لما ادرك ما ينطوي عليهِ كشفهُ لناقل طفيلي الملاريا من امكان مكافحة هذا الداء الوبيل . فقضى نحو سنتين يبحث على غير طائل . فشرَّح أكثر من الف بعوضةٍ، باحثاً في كل نسيج من أنسجتها عن الطفيلي المنشود. ولم يكن يعلم حينئذٍ ولا كان مانسن يعلم ، ان أنواعاً خاصة من جنس بعوض الانوفيليس تحمل هذه الطفيليات دون غيرها . ولكنهُ عثر اخيراً على نوع جديد من بعوض الانوفيليس ، فربّاهُ وغذّاهُ بدم مصابٍ بالملاريا وبعد انقضاء ايام على ذلك شرَّح نسيج المعدة فوجد فيهِ طفيلي الملاريا — وهو جسم دقيق ولكن عين الباحث البصيرة تبينت فيهِ الطفيلي الذي تبحث عنهُ ، لأنهُ كان يحتوي على حبيبات من المادة الملونة التي تمتاز بها خلايا الدم الحمر . فتخطى بذلك عقبتين في آن واحد ، فكأنهُ اصاب عصفورين بحجر ، ذلك انهُ عرف في اي نسيج من انسجة جسم البعوض يعيش الطفيلي ، وثانياً عرف نوع البعوض الخاص الذي ينقله بين مئات الانواع والاجناس من البعوض

والظاهر انهُ يندر بين رجال الحكم في كل البلدان من يستطيع ان يقيم للبحث العلمي قيمة صحيحة ، فعيّن رُسْ ، وهو في مستهلّ النصر الكامل في مقاطعة خالية من الملاريا . ولكن مانسُن انتصر له ، فنُقِل الى منصب لا يشغله فيهِ الاّ البحث العلميّ . فتمكن في سنة ١٨٩٨ من نقل الملاريا من عصفور الى عصفور ولم يلبث أن تتبع تتبعاً علميًّا دقيقاً ادوار حياة الطفيلي من مصّ البعوض الى دم العصفور الى معدة البعوض فالى الممص من جديد. ثم جرى علماء ايطاليا على طريقتهِ فأثبتوا في جسم الانسان ما كان قد اثبتهُ في اجسام العصافير. فلما عرض مانسن النتائج التي اسفرت عنها مباحث رُس على القسم الخاص بالامراض الاستوائية في مؤتمر الجمعية البريطانية الطبية في ادنبره سنة ١٨٩٨ احدثت اثراً عظيماً في نفوس الاعضاء فوقفوا مهللين

— ٣ —

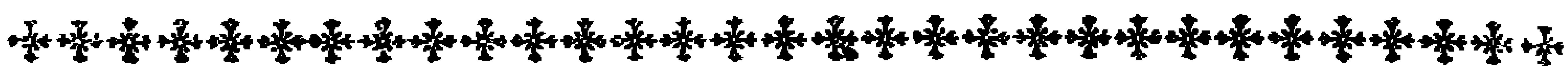
ولكن الانسان لا يخلو من ضدّ او شانئٍ او حاسدٍ ولو كان في رأس الجبل . ففي السنوات الاخيرة من القرن الماضي وفي مطلع هذا القرن دار نزاع عنيف على السابق في اكتشاف ناقل الملاريا وتتبع ادوار حياته . وعقد النصر مؤقتاً حينئذٍ ، لأطباء ايطاليا ، الذين ادعوا انهم سبقوا رُس . ولكن الانصاف حمل كوخ ولافران ولستر ومتشنكوف وأسلر سنة ١٩٠١ على اعادة التاج الى رأس مستحقهِ . ولما التأم مجمع تقدُّم العلوم البريطاني اقترح اللورد لستر توجيه الشكر الى رُس باسم المجمع فقال في اقتراحه « ان اكتشاف بعوض الملاريا وتتبع ادوار طفيليهِ يعود الفخر فيهما الى رُس وحده وما امتاز بهِ من براعة وحماسة ومثابرة » وفي سنة ١٩٠٢ وهب جائزة نوبل الطبية وكانت قيمتها حينئذٍ ٧٤٠٠ جنيه

وكان رُس مثالاً في الاعتراف لكل عامل بنصيبهِ . فكتب سنة ١٨٩٨ ما يأتي : « هذه المشاهدات تثبت نظرية انتقال الملاريا بالبعوض التي ابدعها الدكتور مانسن . ولا بدَّ لي في الختام من الاشارة الى مدى استفادتي بارشاده ومعاونته . فان نظريتهُ الالمعية عينت لي الطريق فما كان عليَّ الاَّ السير فيه »

بعد رجوعهِ من الهند سنة ١٨٩٩ عين مدرساً في مدرسة الطب الاستوائي بجامعة لفربول فظلَّ فيها ثلاث سنوات وراتبهُ السنوي لا يزيد على ٢٥٠ جنيهاً في السنة ! ثم فتح عيادة للاستشارة الطبية في لندن . ولكن زياراتهِ المتعاقبة الى سيراليون وجزائر مورشيوس وجزيرة قبرص والقطر المصري — جاء الاسماعيلية بدعوة من شركة قنال السويس لدرس الملاريا فيها — حالت دون نجاحهِ كطبيب مستشار نجاحاً ماليًّا . فمنح رتبة سر سنة ١٩١١ وجعل اصدقاؤه يفكرون في تشييد معهد للبحث الطبي الاستوائي يجعل هو مديرهُ . ولكن نشوب الحرب حال دون ذلك فعيّن عند نشوبها طبيباً مستشاراً في الامراض الاستوائية المرتبطة بالجيوش الهندية في اوربا . ثم ارسل الى الاسكندرية للبحث في الدوسنطاريا الاستوائية التي فشت في الدردنيل سنة ١٩١٧ ورقي الى رتبة كولونل سنة ١٩١٨ فلما وضعت الحرب اوزارها عاد الى ميدان العمل الحرّ واكبَّ من جديد على مباحثهِ وكتاباتهِ الادبية والرياضية

ولكن اصدقاءهُ لم يهملوا انشاء المعهد الخاص به فجمعوا لهُ المال وبنوهُ على اكمة تُبنى خارج لندن وافتتحهُ البرنس أف ويلز سنة ١٩٢٦ وفي السنة التالية رحل رُس الى بلدان الشرق فزار ملابار واسام وبرما ومدينة كلكتة حيث حضر حفلة ازاحة الستار عن نصب بني فيها تخليداً لاكتشافهِ العظيم . وفي سنة ١٩٢٩ بدأ اصدقاؤه يجمعون لهُ مبلغاً من المال قدره ١٥ الف جنيه ، على اثر عرضهِ اوراقهُ العلمية للبيع لما اشرف على الافلاس ، فابتاعت اللايدي هوستن هذه الاوراق بالفي جنيه واهدتها الى معهد رُس

وكانت وفاتهُ في ١٦ سبتمبر الماضي في معهد رُس بعد مرض طويل



الحياة الاجتماعية في الحيرة

مقال مستل من كتاب « الحيرة : المدينة والمملكة العربية »

تأليف يوسف رزق الله غنيمه
وزير مالية العراق سابقاً



— ٢ —

كان لحانات الحيرة شهرتها الطائرة يقصدها اهل القصف واللهو من سكّان المدن والبدو ولا بأس ان ننقل هنا بعض حوادثها للتفكهة والفائدة

قال المغيرة بن شعبة : كنت في ركبٍ من قومي في طريق لنا الى الحيرة فقالوا لي قد اشتهينا الخمرة وما معنا الاّ درهم زائف فقلت هاتوه وهلموا بزقين فقالوا واما يكفيك لدرهم زائف زق واحدقلت اعطوني ما طلبت وخلاكم ذم ففعلوا وهم يهزؤن من قولي فصببت في احد الزقين شيئاً من ماء ثم جئتُ الى خمّار فقلت لهُ كِلْ لي ملء هذا الزق فملأه فأخرجت الدّرهم الزائف فأعطيتهُ اياهُ فقال ان ثمن هذا الزق عشرون درهماً جياداً وهذا درهم زائف فقلت انا رجل بدوي وظننتُ ان هذا يصلح كما ترى فان صلح والاّ فخذ شرابك فاكتال مني ما كالهُ وبقي في زقي من الشراب بقدر ما كان فيهِ من الماء فافرغتهُ في الزق الآخر وحملتهما على ظهري وخرجتُ فصببتُ في الزق الاول ماءً ودخلت الى خمّار آخر فقلت اني اريد ملء هذا الزق خمراً فانظر الى ما معي منهُ فان كان عندك مثله فاعطني فنظر اليهِ وانما اردت ان لا يسترب بي اذا رددت الخمر عليهِ فلما رآه قال عندي أجود منهُ قلتُ هات فاخرج اليَّ شراباً فاكتلتهُ في الزق الذي فيهِ الماء ثم دفعت اليهِ الدرهم الزائف فقال لي مثل قول صاحبهِ فقلت خذ خمرك فاخذ ما كالَ لي وهو يرى اني خلطتهُ بالشرابِ الذي اريتهُ اياهُ وخرجت فجعلتهُ مع الخمر الاول ثم لم ازل افعل ذلك بكل خمار في الحيرة حتى ملأت زقي الاول وبعض الآخر ثم رجعت الى اصحابي فوضعت الزقين بين ايديهم ورددت درهمهم فقالوا ويحك اي شيءٍ صنعت فحدثتهم فجعلوا يعجبون(١)

ومن الشعراء الذين ذكروا خمرة الحيرة والسكر فيها عبدالله بن ايوب التيمي احد الخلعاء الوصّافين في الدولة العباسية قال(٢)

هل الى سكرةٍ بناحية الحـيرة شنعاءَ يا قبيص سبيل
وابو التيجان في كفة القر عة والرأس فوقهُ اكليل

---

(١) الاغاني ١٤ : ١٣٥ (٢) كذلك ١٨ : ١١٩

وعرار كأنهُ بيذق الشطـرنج يفتنُّ فيهِ قال وقيل

ومن نوادر الخمارين في الحيرة بعد الفتح ان الأُقيشر شرب يوماً في بيت خمار في الحيرة فجاء شرطي من شرط الامير ليدخل عليه فغلق الباب دونهُ فناداهُ الشرطي اسقني نبيذاً وانت آمن فقال واللهِ ما آمنك ولكن هذا ثقبٌ في الباب فاجلس عنده وأنا اسقيك منهُ ثم وضع لهُ انبوباً من قصب في النقب وصبَّ فيهِ نبيذاً من داخل والشرطي يشرب من خارج الباب حتى سكر فقال الأُقيشر :

سأل الشرطي ان نسقيه فسقيناهُ بانبوب القصب
انما نشرب من اموالنا فسلوا الشرطي ماهذا الغضب[1]

ولع الحيريون بالصيد والقنص وخرج اليهِ ملوكهم وامراؤهم واشرافهم وشبابهم. وتروى الاخبار والاشعار الكثيرة في وصفهِ وحوادثهِ فاقتصرنا على الالماع اليهِ في هذا المقام للايجاز

ولا بدَّ لنا هنا من كلمةٍ عن القيافة التي اشتهر العرب بها وهي معرفة الانسان والحيوان من آثاره في الرمل او التراب [2] وقد مارسها الحيريون وها نحن نورد حكايتين عنها اولها ان امرأة مرثد بن سعد بن مالك شغفت بابن اخيهِ عمرو بن قمئة الشاعر المشهور وراودتهُ يوماً عن نفسهِ في غياب عمهِ فامتنع وارادت الايقاع بهِ عند عمّهِ فكفأت جفنةً على أثر بن قمئة. ولما رجع عمه اخبرته انرجلاً من قومهِ قريب القرابة جاء يستامها نفسها ولما سألها عنهُ اجابتهُ: أما انا فلا اسميه ولكن قم فافتقد أثره تحت الجفنة فلما رأى الاثر عرفه[3]

والحكاية الثانية : ان المرقش الاصغر كان يهوى فاطمة بنت الملك المنذر صاحب الحيرة وكان لفاطمة قصر يحرسهُ الحرس وينثرون التراب حول قبتها ويجرُّون عليهِ ثوباً حين تمسي ولا يؤذن لاحد بالدخول عليها الأ جارية لها تعرف ببنت عجلان. فحملت الجارية ليلة ما المرقش على ظهرها واخذتهُ الى سيدتها فلما اصبح الصباح بعث الملك بالقافة فنظروا وعادوا اليهِ فقالوا نظرنا أثر بنت عجلان وهي مثقلة. .[4]. والظاهر ان هذه الحكاية موضوعة ملفقة ولكن تدل دلالة اكيدة على القيافة والعمل بها في الحيرة

اعتقد اهل الحيرة بالخرافات والرواقي شأن الامم القديمة ولا تزال بقايا تلك العقائد عند اعرق الشعوب في المدنية الآن مما ورثوه من السلف وفي ذلك يقول عدي بن زيد[5]

او تكن وجهة فتلك سبيل الناس لا تمنع الحتوفَ الرواقي

وقد تغلغلت هذه العقائد في الطب عندهم ومنها انهم كانوا يعتقدون ان دماء الملوك تشفي من الخبل [6] والكلب [7] والمحبة[8] وقال المتلمس

(١) كذلك ١٠ : ٨٦ (٢) زيدان آداب اللغة العربية ١ : ١٨٩ (٣) الاغاني ١٦ : ١٥٨
(٤) كذلك ٥ : ١٨٤ (٥) شعراء النصرانية ٤٥٤ (٦) الاغاني ١٤ : ٧٢ (٧) الميداني مجمع الامثال ١ : ١٥٨ في مثل « خطب يسير في خطب كبير » (٨) الاغاني ١٤ : ٧٢

من الدارميين الذين دماؤهم شفاء من الداء المحبة والخبل

وقال المثقب العبدي [١] :

يا جريَّ الدمّ مرٌّ طعمهُ يبرؤ الكلب اذا عضَّ وهرْ

وعلى ذكر الطب نسرد على سبيل المثال بعض ما كانوا يطببون بهِ . يعالجون بالكي من كان يطعن من الغمّ أو يصعق بخبر أو حادث يفزعهُ [٢] ولا يزال أهل العراق يأخذون بهذه الوصفة حتى اليوم . وقد كان قسوس النصارى يتعاطون الطب في الحيرة قال أبو الفرج الأصفهاني بينما المتوكل الليثي بالحيرة رمد رمداً شديداً فمرَّ بهِ قس منهم فقال مالك ؟ قال رمدتُ — قال أنا أعالجك قال فافعل فذرَّه [٣] واستعمل اطباؤهم السعوط واللدود قال شاعرهم عدي بن زيد [٤] :

والاطباء بعدهم لحقوهم ضلَّ عنهم سعوطهم واللدود

وعالجوا الجرب في الابل بالطلاء بالقار ولا تزال هذه الوصفة عند عرب البادية حتى اليوم قال النابغة الذبياني مخاطباً النعمان في قصيدة [٥]

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناسِ مَطليٌّ بهِ القارُ أجربُ

ويجمل بنا أن نذكر هنا ان البيطرة كانت معروفة في الحيرة لمداواة الحيوانات قال الذبياني [٦]

شكَّ الفريصة بالمدرى فأنفذها طعن المبيطر إذ يشفي من العضد

وكانوا يداوون العُرَّ وهي قروح تخرج في عنق الفصيل بكيّ بعير آخر صحيح فيبرأ العليل بل قيل انهم كانوا يكوون الصحيح للمناعة لئلاً يتعلق بهِ المرض وليس ليفيق العليل وفي ذلك يقول الذبياني [٧]

لكلّفتني ذنبَ امرئٍ وتركتهُ كذي العُرِّ يكوى غيره وهو راتع

ومن عاداتهم انهم كانوا يجعلون الحلي والخلاخل في يدّ من تلدغهُ الأفعى ويسمون الملدوغ السليمَ تفاؤلاً . ويحركون تلك الحلي لئلاً ينام فيدبّ السم فيهِ وقال بعض الأعراب إذا لدغ الرجل علقنا فيهِ الحلي سبعة ايام لتنفذ عنهُ الحمة وإشارة إلى هذه العادة انشد النابغة الذبياني

يُسهَّدُ من ليل التمام سليمها لحلي النساء في يديهِ قعاقعُ [٨]

ومن عادة أشراف الحيريين انهم يرسلون أطفالهم للرضاعة والتربية إلى بيوت معارفهم أو من يعتمدون عليهِ من أخصائهم . وكانت هذه عادة العرب في غير الحيرة ايضاً ولا تزال قائمة

(١) شعراء النصرانية ٤٠٤ (٢) الميداني مجمع الامثال ١ : ١٥٨ في مثل « قد يضرط العير والمكواة في النار » (٣) ١١ : ٤٠ (٤) شعراء النصرانية ٤٧١ (٥) كذلك ٦٥٦ (٦) كذلك ٦٦١ (٧) كذلك ٦٩٣ . (٨) كذلك ٦٩٠

حتى اليوم عند بعضهم . ولما ملك المنذر جعل ابنهُ النعمان في حجر عديّ بن زيد[(١)] ووضع المنذر بن ماء السماء ابناً له اسمهُ مالك عند زرارة[(٢)] وترك الاسود بن المنذر ابنه شرحبيل عند سنان بن ابي حارثة المري لترضعه زوجه[(٣)]

لنقف قليلاً عند اولاد الحيريين ونرى العابهم وملاهيهم . نراهم يلعبون بالدوَّامة وهو «المصراع» بلسان العراقيين اليوم تصحيف «المرصاع» الفصيح قال المتلمس[(٤)]

وتظلُّ في دوّامةِ م المولود يظلمها تحرَّق[(٥)]

ومثلها لعبة الخذروف المنتشر يومئذ عند العرب وفيها يقول امرؤ القيس في معلقته

دريرٍ كخذروف الوليد امرَّه تتابع كفَّيه بخيط مُوصَّل

والخذروف لعبة مستديرة يديرها الصبيان بخيط ادخل في ثقبه وفتل . ولعبوا بالكعاب على ما نراه حتى اليوم عند أولاد العراقيين وغيرهم فقد جاء ان المرقش كان يهوى ابنة عمه اسماء فذهب الى أحد الملوك وفي غيابه زوَّجها عمه من رجل آخر فخبره اخوته عند عودته انها ماتت ودفنوا غظام كبش في قبر وهّموه انهُ قبرها فأخذ يزوره فبينما هو مضطجع ذات يوم وابنا اخيه يلعبان بكعبين لها اذ اختصما في كعبٍ فقال أحدهما هذا كعبي اعطانيه أبي من الكبش الذي دفنوه وقالوا اذا جاء مرقش اخبرناه انهُ قبر اسماء . فاطلع المرقش على الخبر من قول الولد[(٦)] . .

وفي الحيرة العابٌ لعبها غير الاولاد منهم . نذكر الطِّبْنَ وقيل هي السُّدر قال المتلمس من قصيدة يهجو الملك عمرو بن هند[(٧)]

أعني الخوؤلةَ والعموم فهم كالطِّبْن ليس لبيته حُوَلُ

ومن العابهم الجعِرَّى وهي لعبة للصبيان وهو أن يحمل الصبي بين اثنين على أيديهما ولا تزال هذه اللعبة حية بين اولاد العراقيين ويسمونها في بغداد « صندوق عالٍ »والبوصاء وهي لعبة لهم يأخذون عوداً في رأسه نار فيديرونهُ على رؤوسهم . وهذه موجودة في العراق ولكن اسمها غير معروف اليوم . و « الخُطَّة » يخط الصبيان دائرة ويقف فيه صبي ويحيطون به ليأخذونهُ . وهي باقية في بلاد الرافدين بهذا الاسم والوصف وربما سميت في اللغة الفصحى الحاجورة ايضاً . والزحلوفة تزلج الصبيان من فوق التلِّ إلى أسفله. واللعبة مشهورة في العراق ويسميها بعضهم الزحلوقة. أما الحوالس فلعبة لهم بالحصى وأنشد الشاعر :

---

(١) شعراء النصرانية ٤١٦ (٢) الاغاني ١٩ : ١٢٨ (٣) ابن الاثير ١ : ٢٣٣ (٤) شعراء النصرانية ٣٤٦ (٥) الدوامة لعبة صبيان العرب يرمون بها على الارض بالخيط فتدوم اي تدور. يقول شاعرنا بهذا البيت لعمرو بن هند ملك الحيرة: لك هذه الدنيا وهذه القصور وانت اذا أخذ من ابنك دوامة تحرق اي تلتهب غضباً (٦) الاغاني ٥ : ١٨٠ (٧) شعراء النصرانية ٣٣٩ والمشرق

فأسلمني حلمي فبتُّ كأنني أخو خَرَقٍ يُلْهيه ضرب الحوالس

قلنا هذه اللعبة تسمى في الموصل « الحالوسة » وفي بغداد والشام « المنقلة » يلعب فيها اثنان يأخذ كل منهما ٤٩ حصاة أو ودعة أو خرزة ويوزعها كلٌّ منهما على سبع حفرٍ محفورة في خشبة متقابلة ويأخذ كل في دوره محتويات احدى الحفر من الحصى ويلقي حصاة في كل حفرة من الاربع عشرة حفرة وهكذا يسير في توزيعه فاذا انتهى الى حفرة فارغة والتي فيها حصاةٌ . يبدأ الآخر بتوزيع الحصى وإذا انتهى إلى حفرة صار فيها حصاتان أو أربعة حصى ربح هذه الحصى وما في الحفرة المقابلة

ومن العاب الحيريين المخراق وهو منديل أو نحوه يُلوى فيضربُ به أو يُلفُّ فيفزع به وأنشد أبو علي :

أرِقت له ذات العشاء كأنهُ مخاريقُ يُدعى وسطهنَّ خريج

قلنا ولا تزال هذه اللعبة معروفة في بغداد يسميها صبيانهم باسم تركي « قره قامچي » معناه السوط الاسود

ومن ألعابهم المِقْلاء والقُلَة عودان يلعب بهما الصبيان فالعود الذي يضرب به هو المِقْلاء والقُلَة خفيفة الخشبة الصغيرة التي تنصب ويقال لها أيضاً المقلاء والقال وأنشد الشاعر

كأنَّ نزو فراخ الهام بينهم نزو القلاتِ زهاها قال قالينا

وهذه اللعبة تعرف في العراق حتى اليوم ويسميها الصبيان والبغداديون « الشنطرة والبلبل » عوضاً عن المقلاء والقُلَة [1]

كما أنهم لعبوا بالنرد والشطرنج اللعبتين اللتين اخذهما العرب من العجم [2] وتعلموا لعبة الصولجان من العجم ايضاً [3]

وكان من عادة الحيريين اذا اراد الرجل منهم امراً نذر انه لا يشرب الخمر ولا يغسل او لا يأكل اللحم او لا يعمل ذلك كله حتى يتم له الامر [4]

ولهم عادات في الموت والمناحة . فكانوا يكفنون موتاهم ويحنطونهم وتقوم نادبة تندبهم [5]

وقال عدي بن زيد في النائحة : [6] سأكسب مجداً او تقوم نوائح

وكانت المرأة عندهم اذا ناحت قائمة على زوجها علم انها لا تريد ان تتزوج بعده وهكذا فعلت عائشة بنت طلحة على زوجها الاخير عمر بن عبيد الله بن معمر [7]

ولا تثريب علينا ان مررنا بكم بطرق الحيرة وطفنا مجتمعاتها وسمعنا صور حلف القوم

(١) راجع المخصص لابن سيدة ١٣ : ١٦ — ١٩ والساق على الساق لفارس الشدياق ٨٧ للتوسع
(٢) الاغاني ٨ : ٩٥ (٣) شعراء النصرانية ٤٤١ (٤) الاغاني ١٠ : ٨٦ (٥) كذلك ١٩ : ٨٨
(٦) شعراء النصرانية : ٤٦٧ (٧) الاغاني ٢ : ١٣٣

بمقدساتهم ومعتقداتهم واقسامهم الدالة على نفسيتهم واديانهم فها اننا نسمع ملكهم المنذر يقسم لزيد بن عدي « حق سبد » وسبد صنم اهل الحيرة [١] وها اننا نسمع عبد المسيح المتلمس يحلف باللات والانصاب وهو يهجو عمرو بن المنذر فيقول [٢]

أطْرَدْتَنِي حَذَرَ الهجاءِ ولا والـلات والانصـاب لا تَئِـلُ

ونسمع المنذر يقسم ايضاً باللات والعُزَّى ويقول بعدهلاك عدي بن زيد لما اراد اهل الحيرة اخذ الف ناقة كانوا قد اعطوه اياها يوم ولوه عليهم « لا واللات والعُزَّى » لا يؤخذ مما كان في يد زيد ثفروقٌ . [٣] وقد جمع شاعر الحيرة عدي بن زيد في قسمه بين مكة والصليب في قصيدة نظمها في سجنه يوم القاه فيه النعمان : [٤]

سَعَى الاعداء لا يألون شرًّا عليك وربِّ مكَّةَ والصليب

وحلف عمرو بن عبد الجنّ بالعُزَّى وبالنسر وما يضحى عليهما من الضحايا وبقربان المسيح على الهيكل فقال : [٥]

اما ودماءٍ مائرات تخالها على قُلّةِ العُزَّى او النسر عندما
وما قدس الرهبان في كل هيكل أبيل الابيلين المسيح بن مريما

وجاء في حلف الاخطل القسم بمكة ومناسك الحج [٦]

اني حلفتُ برب الراقصات وما أضحى بمكّةَ من حجب وأستار
وبالهدايا التي احمرَّت مذارعُها في يوم نسك وتشريف وتنحار
وما بزمزم من شمط محلّقةٍ وما بيثرب من عونٍ وأبكار

واقسم الاعشى ذاكراً يوم ذي قار قائلاً [٧]

حلفتُ بالملح والرماد وبالعُزَّى وباللات تسلم الحلقة

ومما يسترعي الانتباه في هذه الاقسام ان بعض هؤلاء الشعراء حلفوا بالاصنام والاوثان ومكة في الجاهلية اخذاً بعاداتهم القوميةليس الاَّ كما يقال باللاتينية حتى في عهدنا بحق هركل « Mehercle » او بالايطالية بحق بخوس « Per Bacco » . [٨]

واقسمت هند بنت النعمان « بالصليب » لما رفضت المغيرة بن شعبة اذ جاءها خاطباً فقالت له «والصليب» لو علمتُ ان فيَّ خصلة من جمال او شباب رغَّبتك فيَّ لأجبتك ولكن اردت

(١) الاغاني ٢ : ٢٠ (٢) شعراء النصرانية ٣٣٩ (٣) شعراء النصرانية ٤٤٥
(٤) الاغاني ٢ : ٢٣ (٥) الطبري ٢ : ٣٤ ونسب الاب شيخو في كتابه النصرانية وآدابها ص ٤٠٤ البيت الاول للاخطل وذكر ص ١٩٠ ان البيت الثاني منسوب للاعشى وللاخطل ولابن عبدالجن
(٦) ديوان الاخطل ١١٩ (٧) الاغاني ٢٠ : ١٣٩ (٨) شيخو: النصرانيةوآدابها ص ٤٠٤

ان تقول في المواسم ملكتَ مملكة النعمان ونكحت ابنته « فبحق معبودك » اهذا اردتَ . قال اي والله قالت فلا سبيل اليه فقام المغيرة وانصرف (١)

واقسم عدي بن مرينا قبل عهد هند بالصليب والمعمودية قال للاسود بن المنذر قد غشك عدي بن زيد «والصليب والمعمودية»(٢) ونسمع حنين ابن بلوع يقول ان صوت ابن سريج ما صنع « والصليب والقربان » الاّ في منزلنا وفي سرداب لجدي (٣) وعلى ذكر الحلفان بالقربان نقول ان العرب في الجاهلية سمت القربان الشَّبر .وأقسم به عدي بن زيد (٤)

إذا أتاني نبأ من مُنْعم لم أخُنهُ والذي اعطى الشَّبر

وحلف الأخطل هكذا « قدوس قدوس وحق الصليب» (٥) وحلف في محل آخر «والمسيح» (٦) كما حلف قبله جد حنين الحيري «فوحق المسيح» (٧) وكان يحلف نصارى الحيرة بالله قال عدي بن زيد (٨)

إنني « والله » فاقبل حَلِفي لأبيلٍ (٩) كلما صلّى جأَرْ

وحلف قصير بن سعد للزباء يوم قصدها وهو أجدع قائلاً « ورب البشر» ما كان على ظهر الارض أنصح لخدمة جذيمة مني (١٠)

وكانوا يقسمون بكتاب الله فهذا زيد بن عدي النصراني يقول (١١)

ناشدتَنا «بكتاب الله» حُرْمتَنا ولم تكُن بكتاب الله ترتفع

* * *

ومن عادة الحيريين للتوثيق من قسمهم انهم يحلفونهُ في البيعة وقد قام بهذا كل من عدي ابن زيد وعدي بن مرينا واليك رواية الاغاني (١٢) . . . وقام عدي بن زيد الى البيعة فحلف ان لا يهجو عدي بن مرينا ابداً ولا يبغيه غائلة أبداً فلما فرغ عدي ابن زيد قام عدي بن مرينا وحلف ...

نقف عند هذا الحدِّ في موضوعنا راجين أن نتوفق الى الاسهاب فيه عند طبعنا كتابنا « الحيرة : المدينة والمملكة العربية »

بغداد يوسف غنيمة

---

(١) الاغاني ٢ : ٣١ (٢) كذلك ٢ : ٢٢ (٣) كذلك ٢ : ١٢١ (٤) شعراء النصرانية ٤٥٢ (٥) الاغاني ٨ : ٨١ (٦) كذلك ٨٢ (٧) كذلك ٢ : ١٢٢ (٨) شعراء النصرانية ٤٥٣ (٩) الابيل حبر النصارى وهوايضاً السيد المسيح (١٠) الاغاني ١٤: ٧٢ (١١) شعراء النصرانية ٤٧٢ (١٢) ٢ : ١٢٢

مآثر الحضارة العربية

في العلم والعمران

في اقل من قرن واحد افتتح العرب كثيراً من البلدان حتى وصلوا الى اسوار الصين واصبحوا ذوي سيادة وسلطان ، وبعد ان استتب لهم الامر تحولت عنايتهم الى ناحية العلم فصرفوا اكثر همهم اليه وبقي اعتناؤهم به بارزاً رغم ما اعترى الخلافة العباسية من ضعف وانحلال . ولم تضعف النهضة العلمية رغم استقلال كثير من الامارات عن بغداد ، فعوضاً عن ان يكون لها مركز واحد صار لها مراكز عديدة في حواضر الامارات المستقلة . ولقد استطاع العرب في مدة وجيزة ان يترجموا كتب اليونان والفرس والهنود في مختلف العلوم ولم يكتفوا بالنقل فقط بل توسعوا في الابحاث العلمية واضافوا اليها اضافات خطيرة تعتبر اساساً من أساس الحضارة الاوربية القائمة الآن . (وهنا اشار الكاتب الماماً الى آثارهم في اللغة والدين والشعر)

كتب العرب كثيراً في التاريخ وبعضهم اجاد اجادةً أثارت اعجاب المنصفين من علماء الغرب ، ولقد فاقت مؤلفاتهم فيه مؤلفات غيرهم من الامم ، واذا رجعنا الى كتاب كشف الظنون الذي يبحث في اسماء الكتب والفنون وجدنا فيه اكثر من (١٣٠٠) كتاب غير الشروح والاختصارات وما فقد منها في اثناء الانقلابات التي حدثت في العصر العباسي « ومن الكتب التاريخية ما هو مرتب احسن ترتيب باعتبار السنين كالطبري وابن الاثير وابي الفداء او باعتبار الامم او الدول كالمسعودي والفخري وابن خلدون او بحسب المدن او الملوك مما لا يحصى »[1] . وكان بعض المؤلفين بليغاً في كتاباته مجيداً في سبك عباراته دقيقاً في استنتاجه . ولقد ظهر في المسلمين مؤرخون اعترف لهم الغرب بعبقريتهم ولا تزال المعاهد العلمية الاوروبية وغيرها تستعين بكتبهم ، فابن خلدون ألف تاريخه المشهور ورتبه على الدول كما اسلفنا وافاض في اخبار المغرب والاندلس مما لم يسبقهُ اليه احد . ومن مميزات هذا التاريخ مقدمته التي يقول فيها احد علماء الافرنج « ان مقدمة ابن خلدون هي اساس فلسفة التاريخ وحجر الزاوية في هذا العلم »[2] ويقول آخرون «انها مقدمة فلسفية لم ينسج احد على منوالها قبلها حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة »

وللعرب فضل في علم الجغرافية وتقدمها فهم بعد ان نقلوا عن اليونان وغيرهم الكتب

---

(١) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٩٣ (٢) مجلة الكلية مجلد ١٤ ص ٨٨

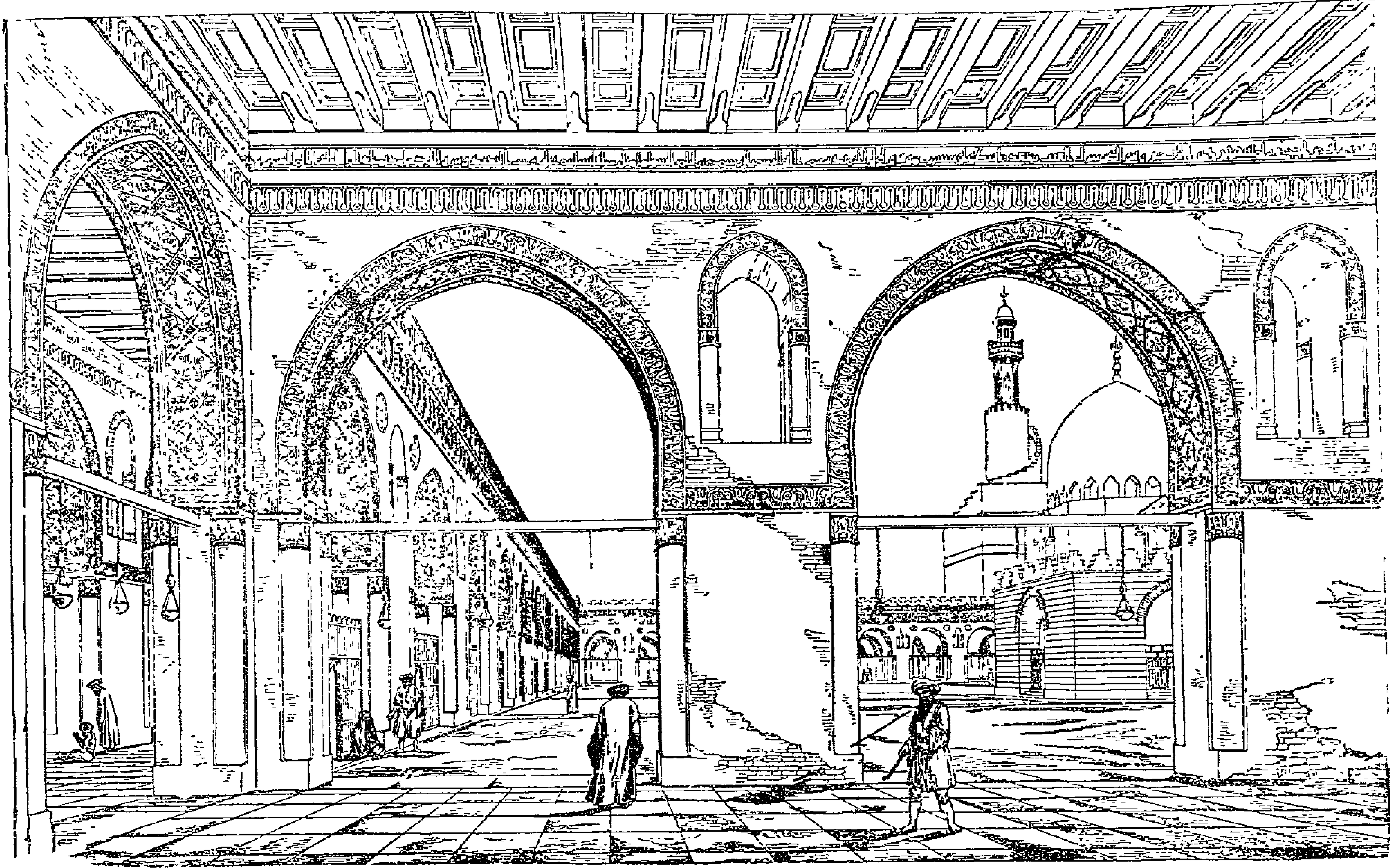
الجغرافية وتوسعوا في مباحثها زادوا عليها ماشاهدوه في اثناء خوضهم البحار وارتيادهم الاقطار. ولقد صححوا كثيراً من اغاليط بطليموس [١] وامتازوا على الرومان بكونهم عرفوا الصين وتوغلوا فيها وفي افريقيا ايضاً فدخلوا الصحراء الى بلاد السودان. ويمتاز العرب على الأمم التي سبقتهم بكونهم استطاعوا ان يؤلفوا في الجغرافية ويرسموا الخرائط ويبدعوا في ذلك وحسبهم فخراً أنهم اول من عرف اصول الرسم على سطح الكرة واول من وجد بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار. واشهر جغرافيي العرب المسعودي والبيروني والادريسي وياقوت والمقريزي والقزويني وابن بطوطة. اما الادريسي فهو انبغ الذين ظهروا في القرن الثاني عشر للميلاد [٢]. وهو مؤلف كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وقد الفه لروجر ملك صقلية ورتبه على الاقاليم السبعة واورد فيه اوصاف البلاد والممالك تفصيلاً ؛ وعمل لروجر خارطة على كرة مسطحة من الفضة [٣] ورسم عليها الاقاليم والاقطار التي كانت معروفة في زمانه. ولقد استرعى الادريسي انتباه علماء الفرنجة اكثر من غيره لانه كان حلقة الاتصال بين جغرافية الاسلام وجغرافية الافرنج ، ويقول كتاب تراث الاسلام « ان طلب الملك روجر ملك صقلية عمل كتاب جغرافيا ورسم خرائط من عالم مسلم مما يدل على ان تفوق المسلمين العلمي كان معترفاً به في ذلك العهد » [٤]

يقول بعض الكتّاب ان العرب لم يكونوا غير نقلة ماهرين ولم يعرفوا من العلوم الا جانبها النظري وهذا القول يردده بعض الذين يدّعون العلم من الغربيين المتعصبين ويقلدهم في ذلك بعض المتعلمين منا، وهو قولٌ لاشك فيهِ خطأ وتحامل. فلقد ثبت حديثاً لدى الباحثين المنقبين المنصفين من علماءِ الغرب ان العرب كانوا مبدعين مخترعين اكثر منهم ناقلين في كثير من فروع المعرفة. ففي الطب بعد ان عكفوا على دراسة ما اخرجه اليونان والسريان والكلدان اصلحوا بعضه وزادوا عليه ويعترف كتاب تراث الاسلام « ان العرب زادوا على الطب اليوناني كثيراً وزياداتهم مبنية على التجربة اي انها كانت عملية » وهذا يردُّ رأي القائلين بان علوم العرب كانت نظرية مبنية على الاسلوب الغيبيّ. وقد ظهر لهم فيه مؤلفات قيمة كالقانون لابن سينا وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي ولقد استفاد الافرنج من هذا الكتاب في نهضتهم الحديثة فائدة كبرى. وبقيت بعض المؤلفات الطبية العربية تدرس في جامعات اوروبا حتى القرن الثامن عشر للميلاد. والذين نبغوا في الطب عند العرب كثيرون وتصفحٌ بسيط لكتب طبقات الاطباء وتراجم الحكماء وكشف الظنون وغيرها تثبت ان الذين زاولوا الطب والصيدلة كثيرون جدّاً. وقد كان لهؤلاء نظام مخصوص يسيرون عليه ورئيس يمتحنهم ويجيز المقتدر منهم وبلغ عدد الاطباء في زمن المقتدر

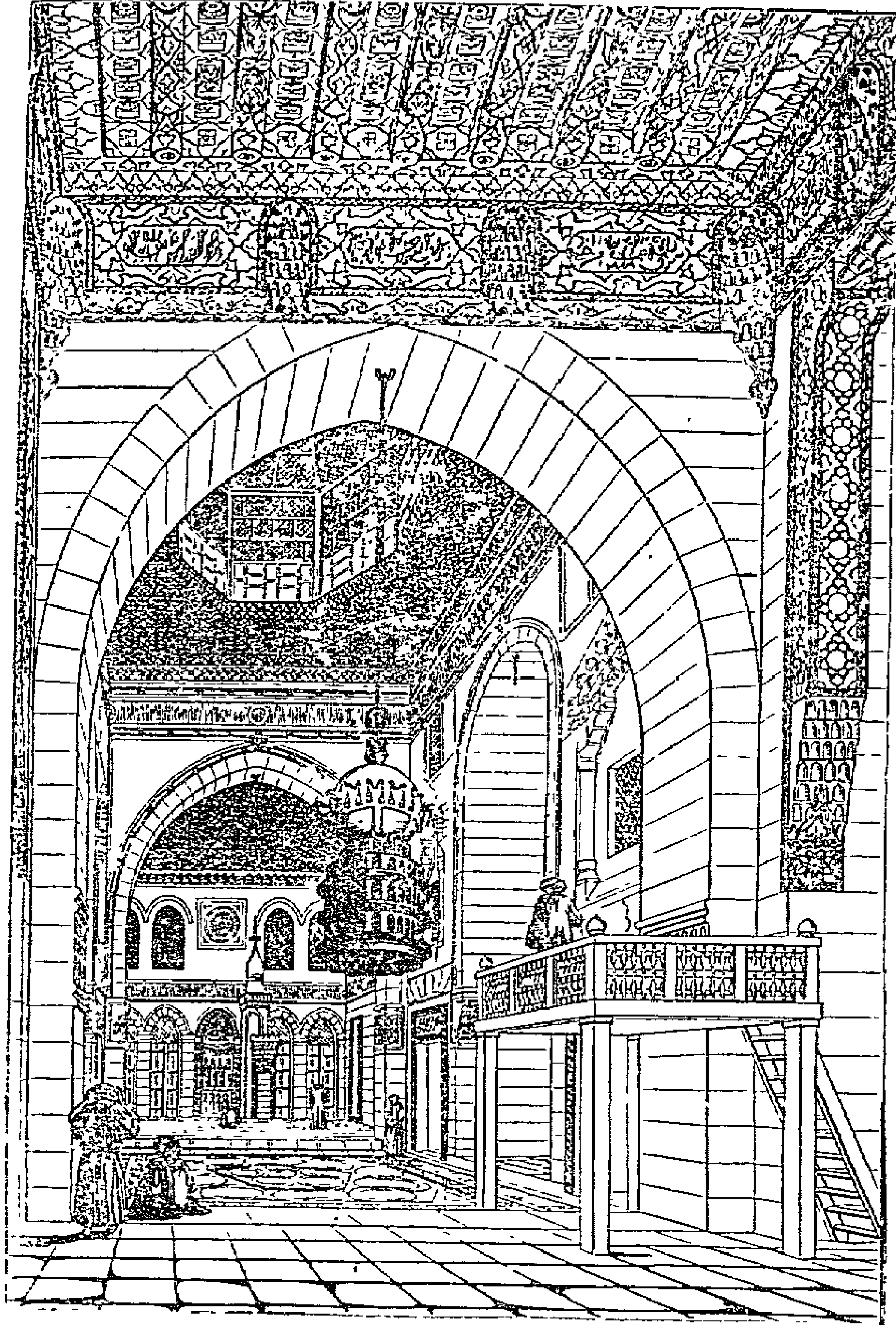
(١) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٩٧ (٢) كتاب تراث الاسلام (Legacy of Islam) ص ٨٩ (٣) دائرة المعارف البريطانية مادة (Map) (٤) كتاب تراث الاسلام ص ٨٩ .

بالله في بغداد « ثمانمائة رجل ونيفاً وستين رجلاً سوى من كان في خدمة السلطان » [١] ولم يقتصر النبوغ في الطب على الرجال فقط فلقد نبغ في النساء عدد غير قليل كاخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها اللتان كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء[٢]. والفحص الطبي عند العرب لايختلف كثيراً عما هو عليه الآن فقد كانوا يفحصون البول ويجسون النبض ، وانتقدوا كثيراً من آراء اطباء اليونان واصلحوها عدا ترتيبهم الكتب اليونانية وتعليقهم عليها . وهم (اي العرب) اول من استخدم المرقد — البنج — في الطب والكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم وهم اول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المسلولين ووضعوا علاج اليرقان والهواء الاصفر واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزيف وعالجوا خاع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي[٣] وكذلك هم اول من كتب في الجذام[٤] وفي الحصبة والجدري والعلق واشكاله وخصائص كل منها . وكانوا يعالجون المرضى ويدرسون الطب في امكنة مخصوصة تسمى بيمارستانات وهذه تخرج الاطباء كما يجري الآن في مدارس الطب وكانت على غاية ما يكون من النظام والترتيب اذ كانت مجهزة بكل الادوات الضرورية وبالخدم ومقسمة الى غرف كل واحدة لمرض من الامراض المعروفة عندهم . وبحث العرب في الجراحة واول من اهتم بها الرازي ، وممن برع في عمل اليد واجراء العمليات الجراحية واستعان بالآلات والادوات هو ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي[٥]. واشتغلوا في الصيدلة واشتغلوا بالعقاقير من الهند وغيرها من البلدان ، وتحقق لدى الافرنج ان العرب هم واضعو اسس فن الصيدلة [٦] واستطاعوا ان يستنبطوا انواعاً جديدة من العقاقير يدلنا على ذلك اسماؤها التي وضعها العرب والتي لا تزال على وضعها عند الغربيين . واكتشفوا في الكيمياء كثيراً من مركباتها وعرفوا عمليات التقطير والترشيح والتصعيد والتذويب والتبلور وتحضير الكحول واكتشفوا بعض الحوامض المعدنية والقلويات النباتية والمعدنية ، وكتبوا في ابطال الكيمياء القديمة . ويرجح لدى الباحثين ان العرب هم الذين ركبوا البارود ، ويقول ابن الاثير ان العرب استعملوا ادوية اذا طلي الخشب بها امتنع احتراقه . واشتهروا في صناعة الزجاج والتفنن فيها . ولا يفوتنا ان نذكر ان العرب برزوا في علم النبات واشتهر في هذا العلم ابن البيطار ورشيد الدين ابن الصوري الذي كان كثير التدقيق والبحث « فكان يستصحب معهُ مصوراً (عند بحثه عن الحشائش في منابتها) ومعهُ الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها فكان يتوجه الى المواضع

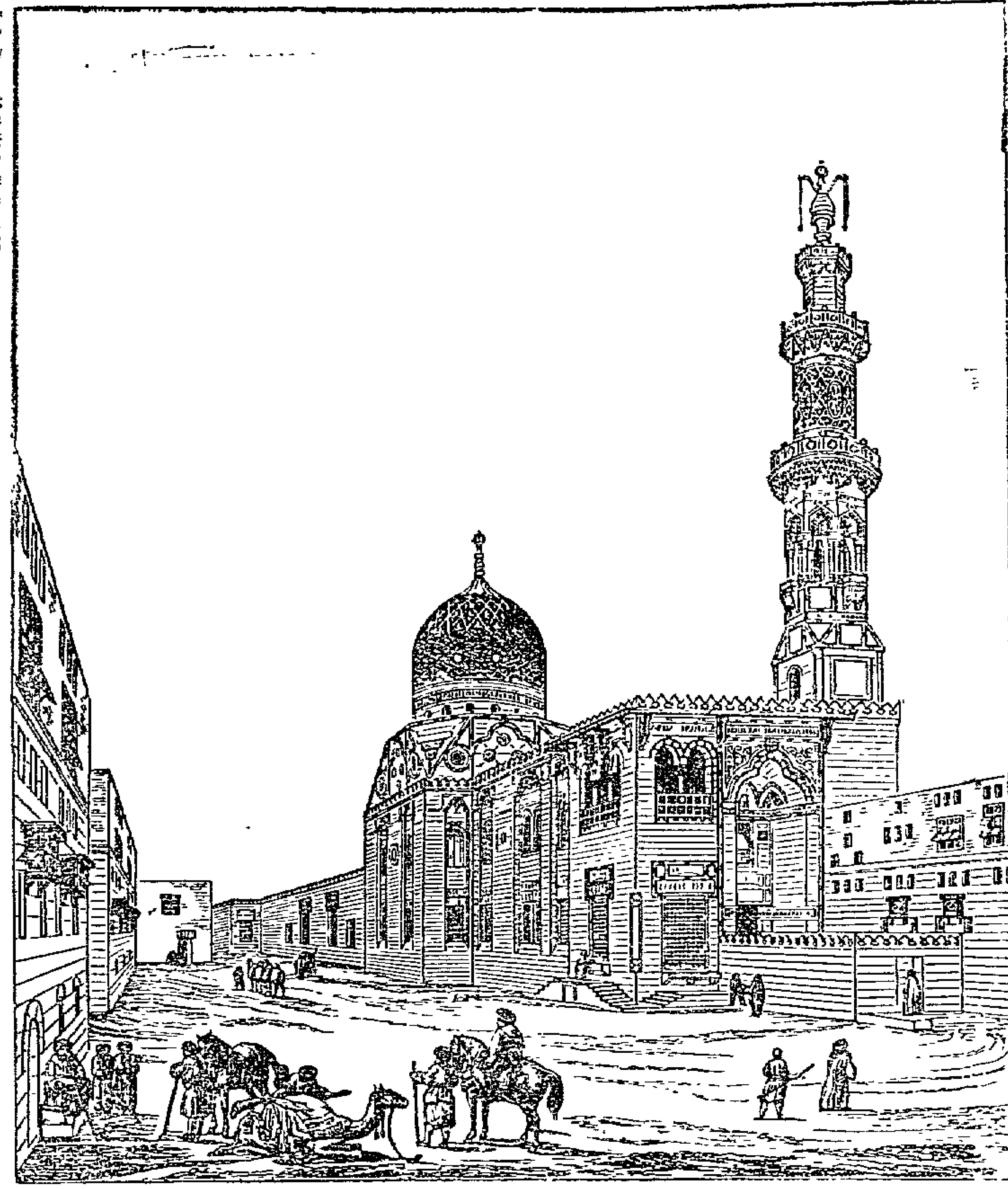
(١) ابن ابي اصيبعة — طبقات الاطباء — ج ١ ص ٢٢٢ (٢) ابن ابي اصيبعة — طبقات الاطباء — ج ٢ ص ٧٠ (٣) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٨٠ (٤) ابن ابي اصيبعة — طبقات الاطباء — ج ١ ص ١٨٣ . (٥) الدكتور احمد عيسى — آلات الطب والجراحة عند العرب ص ٤ — ٥ (٦) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٨١



صحن جامع ابن طولون في القاهرة عن دائرة المعارف البريطانية



جامع قايتباي في القاهرة من الداخل



جامع قايتباي في القاهرة من الخارج

التي بها النبات . . . فيشاهده ويحققهُ ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقهِ واغصانه واصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها ، ثم انهُ سلك ايضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك انهُ كان يري النبات للمصور في ابّان نباته وطراوته فيصوره ثم يريهِ اياه ايضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ثم يريه اياه ايضاً وقت ذواه ويبسهِ فيصوره فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر اليهِ في الكتاب وهو على انحاء ما يمكن ان يراه بهِ في الارض فيكون تحقيقهُ له اتم ومعرفته له ابين »[1] ولا أظن ان علماء النبات في هذا العصر اكثر دقةً في ابحاثهم العلمية من ابن الصوري

واشتغل العرب في علم الطبيعة (الفيزيكس) ولهم فيهِ ابحاث مبتكرة فبعد ان ترجموا كتب اليونان في هذا الفرع توسعوا فيهِ وزادوا عليهِ . ولقد استنبطوا طرقاً واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من حساب الثقل النوعي واستعملوا موازين دقيقة حتى ان فرق الخطأ كان اقل في ٤٠٠٠ من الغرام . وبينوا أن الهواء يحدث ضغطاً من اسفل الى اعلى ، وبحثوا في الجاذبية وقالوا بها[2] ولهم في الضوء نظريات وآراء لم يسبقهم احد اليها ، ولقد توسعوا فيها كثيراً وصححوا آراء اليونان في بعض المباحث عدا الاضافات التي لولاها لما كان بحث الضوء على ماهو عليهِ الآن . ويقال ان كتاباتهم هذه هي التي اوحت اختراع النظارات[3] وكتبوا في العين وتشريحها[4]

واما في الموسيقى فقد زادوا وتراً خامساً زاده زرياب بالاندلس واستنبطوا الآلة المعروفة بالقانون والذي اخترعها الفارابي الفيلسوف وهو اول من ركّبها هذا التركيب[5] ولا تزال عليهِ الى الآن . ويقال ايضاً ان الفارابي اخترع آلة غريبة الشكل في بابها مؤلفة من عيدان يركبها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ، يحكى انهُ كان مرة في مجلس سيف الدولة فسأله هل تحسن صنعة الغناء؟ فقال نعم « ثم اخرج من وسطهِ خريطة ففتحها واخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخر ثم ضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكها وغيّر تركيبها وضرب عليها ضرباً آخر فنام كل من كان في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج[6] » . وفكروا في امكان الطيران وأول من فكر فيه عباس ابن فرناس ، جاء في نفح الطيب « واحتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومدّ لهُ جناحين وطار في الجوّ مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذى في مؤخره ولم يدر ان الطائر انما يقع على زمكه ولم يعمل له ذنباً[7] »

ولنرجع الآن الى ما عمله العرب في الرياضيات والفلك فنقول بعد ان عكف العرب على

(١) ابن ابي اصيبعة — طبقات الاطباء — ج ٢ ص ٢١٩ (٢) الدكتور صروف — بسائط علم الفلك ص ٢٢ (٣) دائرة المعارف البريطانية مادة Light (٤) كاجورى — تاريخ الفيزيكس ص ٢٣ (٥) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢ ص ٧٧ (٦) ابن خلكان — وفيات الاعيان ج ٢ ص ٧٧ (٧) المقري — نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣١

دراسة ما كتبه اليونان والهنود في هذين الفرعين توسعوا فيهما وزادوا عليهما . ففي الحساب بحثوا في الأعداد وخواصها ، وهم اول من استعمل لفظة صفر لنفس المعنى الذي نستعمله نحن ، ويغلب الظن انهم وضعوا علامة الكسر العشري ، وينسب اليهم اكتشاف ميزان الجمع باسقاط التسعات [١] ، وهم الذين نقلوا الارقام الهندية ، قال الخوارزمي في احدى مؤلفاته ان الارقام وصلتنا عن طريق الهند[٢] ، وعنهم (اي عن العرب) اخذ الافرنج (الارقام). اما في الجبر فللعرب الفضل الاكبر في تقدمه اذ لم يكن معروفاً تماماً عند اليونان . ويمكننا ان نقول دون تردد ان الجبر هو من موضوعات العرب . قال كاجوري ان العقل ليدهش عند ما يرى ما عمله العرب في الجبر . وهم اول من اطلق لفظة جبر على العلم المذكور ، وعنهم اخذها الافرنج ، ولقد اكتشفوا كثيراً من نظرياته التي نعرفها الآن ووصفوا حلولاً جبرية وهندسية لمعادلات ابتدعوها مختلفة التركيب وحلّوا المعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة وفي حل القسم الاخير اجادوا جداً ولهم فيه ابتكارات هي محل اعجاب علماء الغرب . قال كاجوري « ان حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط من أعظم الاعمال التي قام بها العرب »[٣] فيكونون بذلك قد سبقوا دكارات وبيكر ، وقد حلّوا ايضاً بعض اوضاع المعادلات ذات الدرجة الرابعة[٤] ، ونشر محمد بن موسى الخوارزمي بأمر من المأمون كتاباً في الجبر والمقابلة وهو اول كتاب عربي ظهر في هذا العلم واشتهر هذا الكتاب كثيراً وطار اسمه في الآفاق وله شأن تاريخي كبير اذ كل ما الفهُ علماء الفرنجة في الجبر مبني على الكتاب المذكور الذي كان ايضاً اساساً لدراساتهم ومباحثهم الرياضية المختلفة . وأما في المثلثات فلقد تفننوا فيها كثيراً ولهم فيها باع طويلة جداً فهم اول من ادخل المماس في عداد النسب المثلثية[٥] واليهم يرجع الفضل في اكتشاف قانون تناسب الجيوب وحسبهم فخراً انهم اول من اكتشف قانوناً عاماً لحل المثلثات الكروية وأول من عمل الجداول لنظير المماس والقاطع ونظيره. وعلى العموم فالعرب لم يتركوا زيادة لمستزيد في علم المثلثات ويعترف بذلك علماء الافرنج

واشتغل العرب في الفلك ولم يقفوا فيه عند النظريات بل خرجوا منها الى العمل — الرصد — ولقد اكتشفوا بعضاً من النظريات المهمة وابتنوا المراصد الكثيرة وأجروا فيها ارصاداً جليلة النفع . وظهر منهم عدد لا يستهان بهِ من الفلكيين ومنهم من اعترف لهم الغرب بالعبقرية والتفوق حتى ان لالاند العالم الفلكي الفرنسي الشهير عدّ البتاني من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كلّه[٦] .وقالوا باستدارة الارض وبدورتها على محورها[٧] وعملوا

(١) كتاب تراث الاسلام ص ٣٩٤ (٢) سمث كاربنسكي — الارقام الهندية العربية ص ٥ (٣) كاجوري تاريخ الرياضيات — ص ١٠٧ (٤) كاجوري — تاريخ الرياضيات — ص ١٠٧ (٥) دائرة المعارف البريطانية مادة مثلثات Trigonometry ونصير الدين الطوسي — شكل القطاع ص ١٢٦ (٦) انظر مقالي مقتطف يناير سنة ١٩٣١ (٧) مجلة الكلية مجلد ١٤ ص ٢٧٠

الازياج العظيمة الفائدة وبينوا حركة نقطة الذنب للارض وأصلحوا قيمة الاعتدالين الصيفي والشتوي . وحسبوا قيمة ميل فلك البروج على فلك معدل النهار ومن الغريب ان حسابهم في قيمة هذا الميل دقيق جداً وقد اصابوا في رصدهم وحسابهم الى دقيقة واحدة (١) ونتائج حسابهم لبعد الشمس عن مركز الارض قريبة جداً مما وصل اليه العلماء الآن(٢) وقد اختلف علماء الغرب في اكتشاف بعض أنواع الخلل في حركة القمر الى تيخو براهي أو الى ابي الوفاء(٣) ولكن ظهر حديثاً ان اكتشاف هذا الخلل يرجع الى ابي الوفاء لا الى غيره (٤) . وهم الذين اخترعوا الاسطرلاب وغيره من آلات الرصد ، واعتنوا كثيراً باتقان صنعها(٥) ، ووجدت في احدى الكتب الفلكية (بسائط علم الفلك) ان خمسين في المائة من اسماء النجوم الموجودة فيه من وضع العرب ومستعملة بلفظها العربي في اللغات الافرنجية ، وشدة ولوع العرب بهذا العلم جعل بعضهم «يصنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظرين فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود» (٦)

***

ولما اصبح العرب في سعة من العيش وصار لهم سلطان يمتد الى أكثر اقطار المعمور بدأ دور الترف عندهم فحلقوا في سماء الخيال ونبغوا في الشعر وبرعوا في الموسيقى وشيدوا الأبنية التي تحاكي الجنان بجمالها وبهائها والتي تبهر العقول بفخامتها وزخرفها والتي لها مميزات جعلت الفن الاسلامي في البناء يجمع بين التناسب والتناسق . ونظرة الى جوامع مصر القديمة والى جامع الاموي في دمشق وإلى قصور الاندلس ومعابدها تريك العظمة والاتقان والمتانة بأجلى معانيها . لا استطيع وصف الحمراء (كما يجب) ولكني قرأت عدة اوصاف لها وكل وصف يختلف عن الآخر ، وما الاختلاف على ما اعتقد الا نتيجة لما عليه القصر من عظمة الفن والجلال الهندسي . والحمراء اقسام اهمها ردهة الحكم ، حوش السباع ، حجرة بني سراج ، حوش الريحان ، ردهة السفراء ، وقد نقشت جدران كل منها بنقوش هي غاية في الابداع في جلال الفن وروعة المنظر ، وقد اعترف الغربيون بعجائب الحمراء وكثيراً ما وصفوه وغالوا في ذلك متأثرين بالفخامة ودقة الصنعة . ولقد اتخذ الافرنج لكثير من ابنيتهم العظيمة ومراسحهم الكبرى أسماء الهمبرا أي الحمراء والالكزار اي أي القصر (٧) وأصبحت كلمة الهمبرا عندهم تعني قصراً منيفاً بديعاً تكتنفه حدائق ذات أشجار باسقة منسقة أجمل تنسيق . وعلى كل فقصر الحمراء آية بينة على ما وصل اليه العرب من جاه ورفاهية . ويضيق الوقت عن وصف القصر الكبير بأشبيلية والزهراء والزاهرة وغيرها من القصور والدور التي في الاندلس . ويقال انه كان «في قصر

(١) اسماعيل مظهر — تاريخ الفكر العربي ص ٤٥ — ٤٦ (٢) اسماعيل مظهر — تاريخ الفكر العربي ص ٤٦ (٣) فانديك — كتاب علم الهيئة — ص ١٣٧ (٤) كاجوري — تاريخ الرياضيات ص ١٠٥ (٥) كتاب تراث الاسلام ص ٣٩٥ (٦) المقري — نفح الطيب — ج ٢ ص ٢٣١ (٧) مجلة الكلية مجلد ١٥ ص ٣٣٠

الزهراء كثيرمن الرخام الابيض والاخضر والوردي والمجزّع ومائة وعشرون تمثالاً من الذهب الأحمر تمثل العقبان والغزلان والتماسيح والشواهين وكلها مرصعة بالجوهر يجري الماءمن افواهها»(١)

هذه ابنيتهم كانت ولا تزال مرتعاً خصباً لقرائح الشعراء وميداناً واسعاً لجولات الادباء فلقد أجادوا وصف هاتيك الديار التي تمتاز على غيرها بقناطرها وقببها الشماء، ومآذنها ذوات القامات الهيفاء ، ومقرنصاتها التي جعلت لتزيين تيجان العمدان ، وحبكها الهندسية المملوءة خلاياها بنقوش الازهار وأوراق النباتات ، وباطاراتها التي كثيراً ما كانت ترصّع بكريم الاحجار ، وبالالوان المختلفة التي تزيد في جمال البناء وبمسايل المياه التي تعد من آيات فن المعجزات ، وبالصور والنقوش الذهبية التي تظهر في قصورهم فتزيدها بهاء فوق بهاء

قيل في وصف بركة على حافاتها اسود تقذف المياه من افواهها وعليها نقوش وطيور :

وضراغم سكنت عرين رياسة ... تركت خرير الماء فيهِ زئيرا
فكأنما غشي النضار جسومها ... واذاب من افواهها البلورا
اسد كأن سكونها متحرك ... في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت. فتكاتها فكأنما ... اقعت على ادبارها لتثورا

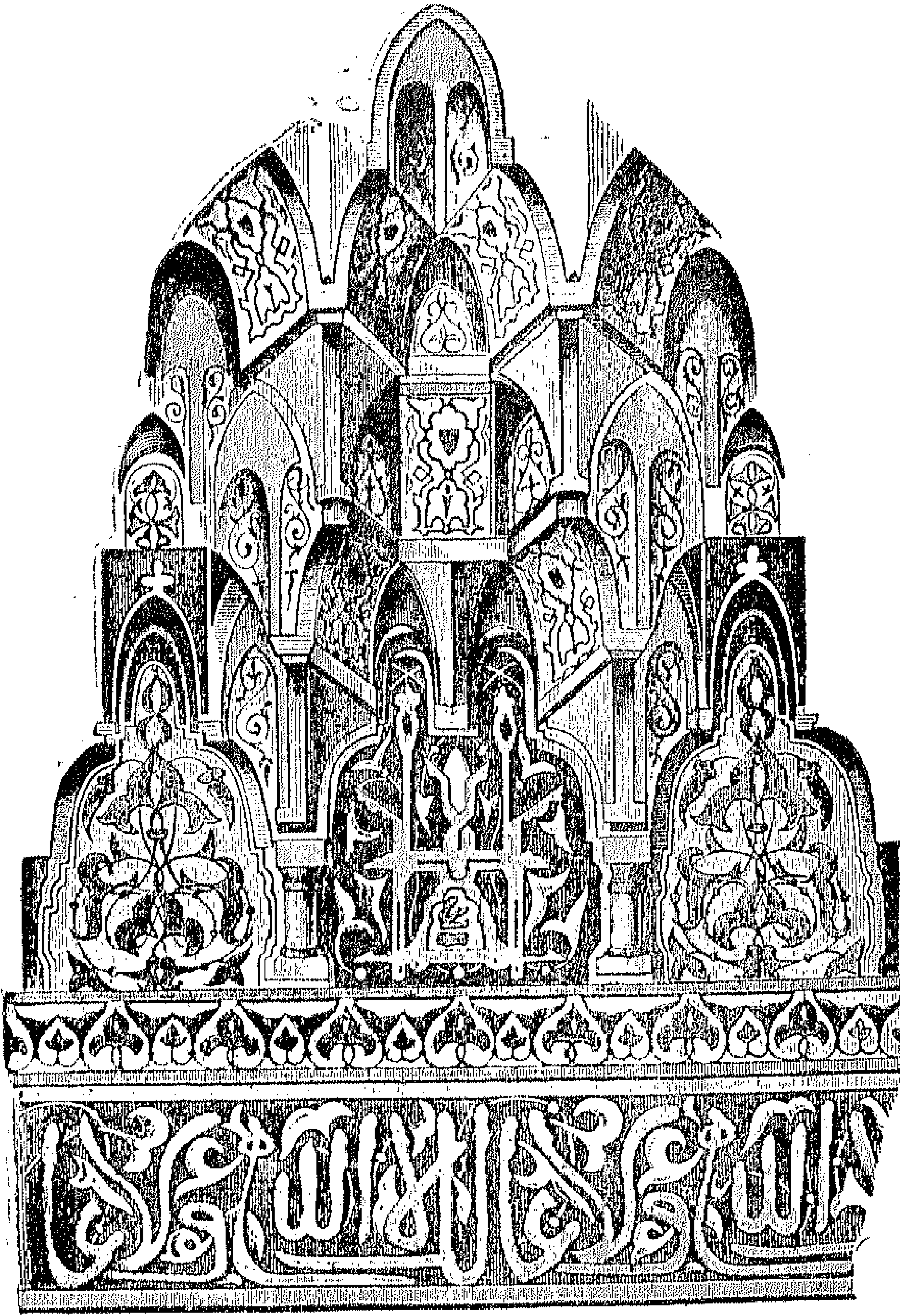
الى ان يقول :

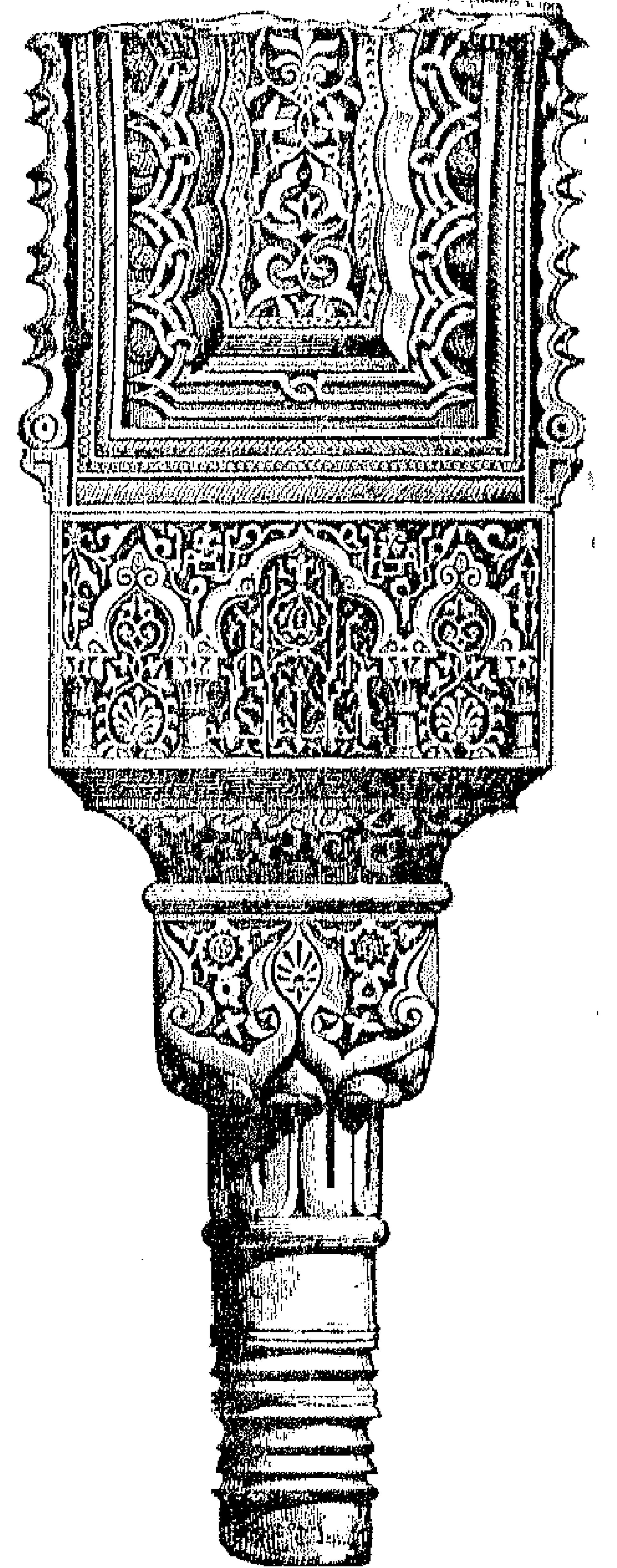
وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناي بحر عجائب مسحورا
شجرية ذهبية نزعت الى ... سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد صوبحت اغصانها فكأنما ... قبضت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقّع طيرها ... ان تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعدمن الفصاح فان شدت ... جعلت تغرّد بالمياه صفيرا (٢)

هذا عدا ما بني في الشام والعراق وغيرها من البلدان الاسلامية من الابنية الفخمة التي هي وليدة حضارة عالية يفتخر بعض الافرنج بالانتماء اليها . يقول احد المهندسين الاسبان « انهُ يفتخر بالانتماء الى العصر العربي في اسبانيا » ويقول ايضاً في مكان آخر « اني ارى مسجد قرطبة هو الفخر واعظم تحفة فنية في هذه البلاد (اسبانيا) ولست ادري هل له في العالم نظير »وهو الذي يقول « ان اعمال الري وتوزيع المياه التي قام بها العرب بالاندلس كانت تفوق حتى ما وصل اليهِ الفن في العصر الحديث »(٣) واشتهر العرب بالفلسفة ونبغ فيهم عدد كبير منهم الكندي وابن سينا وابن الهيثم وابن رشد وغيرهم ولا تزال الآراء الفلسفية لبعضهم موضع دراسة العلماء واهتمامهم

هذا قطرة من بحر الحضارة العربية الخضمّ ولا يتسع المجال لاكثر مما تقدم ومع ان

(١) مجلة الكلية ١٥ ص ٣٣٠ (٢) المقري — نفح الطيب — ج ١ ص ٢٣٠ (٣) الفتح عدد ٢٩٢





اثران من روائع الفن الاسلامي في الحمراء
الى يمين الناظر أثر من ردهة ابن سراج والثاني من حوش الاسود

الغربيين قد ضربوا بسهم وافر في البحث عن حضارة العرب فان نواحي عديدة منها لا تزال غامضة اذ لم يكن لها نصيب من البحث والتنقيب ، والذي اراهُ ان الغربيين كلما تقدموا في البحث عن مآثر العرب تجلى لهم فضل العرب في السبق الى كشفِ كثير من الآراء والابحاث العلمية . يقول احد علمائهم : من الغريب ان بعض ابتكارات واختراعات حسبناها من عملنا ثبت بعد قليل من البحث ان العرب سبقونا اليها . والغريب ان طائفة من مؤلفي الفرنجة انتحلت بعض الابحاث التي وضعها العرب لنفسها ، وآخرين لم يذكروا المصادر التي اعتمدوا عليها او نقلوا منها فكأنهم يدعونها لانفسهم . ومع كل هذا استطاع علماء العصر الحاضر المنصفون ان يدركوا شأن حضارة العرب اذا قيس بشأن حضارتهم التي ينعمون بها فاعترفوا بعلوّ كعبها وبما قدمتهُ من خدمات جلى للمدنية الحديثة . قال فلوريان « كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيهِ بانكبابهم على الدرس وسعيهم في ترقية العلوم والفنون . ولا نبالغ اذا قلنا ان اوربا مدينة لهم بخدمتهم العلمية — تلك الخدمة التي كانت العامل الاكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر » ولا شك ان الحضارة العربية هي حلقة الاتصال بين اليونان والحضارة الحالية فهم الذين حفظوا علوم اليونان وغيرهم من الضياع وهم الذين نقلوها ونقلوا معها اضافاتهم الكثيرة الى اوربا عن طريق الاسبان . واعترف كاجوري وسمث بفضل العرب على الرياضيات والفلك . ويقول البارون دي فو « ان الميراث العلمي الذي تركهُ اليونان لم يحسن الرومان القيام بهِ ، اما العرب فقد حفظوه واتقنوه . . . . فهم لم يكونوا حفظة وخزنة للعلوم فحسب ولكنهم توفروا على ترقيتها وتطبيقها باذلين الجهد في تحسينها وانمائها حتى سلموها للعصور الحديثة » . وقال الدكتور سارطون في خطاب القاهُ حديثاً في جامعة بيروت الاميركية « ان بعض الاوربيين يحاولون ان ينتقصوا من قدر العرب العلمي في القرون الوسطى وذلك بقولهم ان العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم اليونانية ولم يزيدوا عليها شيئاً . . هذا خطأ . . . واذا افترضنا ان العرب لم يكونوا غير نقلة لعلوم الاقدمين ، أليس في عملهم هذا خدمة كبيرة للعالم ؟ فلولا نقلهم لما تقدمت العلوم تقدمها الحاضر ولكنا حتى الآن في قرون وسطى »

والدكتور سارطون يعتقد ان الاخذ عن الغير يتلو الاكتشاف من حيث خطورة الشأن فالاكتشافات اذا لم تؤخذ وتستعمل فلا فائدة منها ، والذي يعرف كيف يعلّم ما اقتبسه عن الغير هو (في نظرهِ) مخترع ثانٍ « ولذلك فان العرب كانوا اعظم معلّمين في العالم في القرون الوسطى لا سيما في القرون الثلاث الثامن والحادي عشر والثاني عشر للميلاد . . . . لم يكن نقل العرب للعلوم ميكانيكيًّا بل على الضدّ فيه روح وحياة ، ولم يقتصروا على نقل علوم اليونان فحسب بل استطاعوا ان يأخذوا عن الهنود وفي كثير من الحالات جمعوا بين الثقافتين الهندية واليونانية »

نابلس — فلسطين قدري حافظ طوقان

من الشعر الغربي

لتوماس هاردي

بعد الموت

القبر اروحُ لي مقيلاً والردى — خيرٌ وفيهِ أَعودُ أصلحَ حالا
قرٌّ الذي اضناك طول لجاجهِ — والجهدُ والتعبُ المعاود زالا

***

برق الحياة لقد خبا بوميضه — وأخذتُ في الوادي الرهيب مكاني
وأنا الوفيّ اذا قدمتِ وجدتني — رهن انتظارك لا أملّ زماني

شفاء الآلام

يا كم دعوت الوحيَ واستلهمتهُ — شعراً خليقاً بالحبيب المجتبى!
أصف المحاجر والشفاه وسحرها — والطبع والخلق الكريمَ الطيبا
فاذا اجتّنيَ الشقاء نظمته — معنى سماويًّا ولفظاً مُعْربا
واذا طغا ألمي عزفتُ كأنهُ — قيثارة رقّت كأنفاس الرُّبى

ولذاك كم هدّأت سورة خاطري ونسيتُ ما اشقى الفؤاد وعذبا
حتى اذا ران الهدوء حسبتني بين المقابر موحشاً متهيبا
فأصيح يا لهفاً على ايامه من ذا يعيد عذابها المستعذبا !

هينرخ هينه

دعاء الراعي

يا ايها الحمَل الوديع انا الذي يحنو عليك انا الحبيب الراعي
كم ليلةٍ والرعب يعشي في الدجى والهول منتشر على الاصقاع
اغفيتَ في كنفي وفي ظل الكرى كالطفل في أمنٍ من الاوجاع
يا رب قد وهت العصا واستأثرت غِيَرُ الليالي بالقويّ الباع
يا رب انَّ تلك قد اذنت بفرقة وحكمت للراعي بوشك زماع
فانظر الى الحمَل الوديع ووقّهِ شرّ النفوس وفتنة الاطماع
نضّر لهُ الدنيا ومُدّ ربيعها وانشره مؤتلقاً بكل شعاع
واجعل له الأيام ظلاً وارفاً وخرير انهارٍ وخصب مراعي

الدكتور ابراهيم ناجي

وبعد تحطيم الذرة ....

اطلاق قوتها الكامنة — تحويل العناصر — حجر الفلاسفة الجديد

منذ ما اثبت السر جوزف طمسن ان الذرة مركبة من دقائق، اصبح تحطيم الذرة موضوعاً يخلب لبّ العلماء وقراء الروايات الاخاذة على السواء . وقد اهتم العلماء بهذا الموضوع لانهم علموا ان في داخل الذرة تكمن طاقة عظيمة . ولكن الباعث الاعظم على عنايتهم كان رغبتهم في الكشف عن اسرار البناء المادي . ففهم بناء الذرة يفضي الى فهم طبيعة الكهربائية وحركات الاجرام السموية ، وقد يفضي اخيراً الى فهم لغز الاشعة الكونية

ولكن الناحية الاخاذة في موضوع تحطيم الذرة ، هي الناحية التي استرعت عناية الجمهور فقد قيل للجمهور انهُ اذا تحطّمت الذرّة لم يدرِ احد ما يسفر عن تحطيمها —وهو صحيح. فتسرّع الناس في الحكم المبني على هذه الاقوال وظنوا ان قوى هائلة تنطلق منها في لحظة ، كما ينطلق الغاز من مادة متفجرة ، فينشأ عن انطلاقها انقلاب عالمي . ومكث مكاتبو الصحف على ابواب العلماء ينتظرون الانباء ، وكأنهم في فوهة بركان لا يدرون اي متى يثور . اما كتّاب الروايات الباحثون عن استنباط غريب يعزونهُ الى ابطال رواياتهم فوجدوا في تحطيم الذرة مناط آمالهم ، فذهب خيالهم في وصفهِ ووصف نتائجه كل مذهب

***

لقد حطمت الذرة فتمَّ للدكتور كوكروفت والدكتور ولطن — وهما من علماءِ معهد كافندش بجامعة كمبردج الذي يرأسهُ اللورد رذرفورد — تحقيق ما حاول العلماء تحقيقهُ منذ ما اكتشف الالكترون وقسيمهُ البروتون . ومع ذلك ما زلنا حيث نحن ، لم يحدث انفجار مدمّر ، ولا انطلقت قوى عظيمة لا نستطيع السيطرة عليها . فذاعت انباء هذا الاكتشاف كالنار في الهشيم ، ولكنها لم تسحب في اثرها ذيلاً من التخريب والتدمير كما تنبأ المتنبئون

والواقع ان تحطيم الذرة أمر علمي عظيم . حققهُ هذان العالمان في معملهما ، بادوات بسيطة ، ما عجز عنهُ العلماء الالمان والاميركيون بقوى كهربائية عالية الضغط مستمدّة من شرر البرق . انهما استعملا قوة كهربائية ضغطها يبلغ ١٢٠ الف ڤولط مع ان الاميركيين والالمان كانوا قد ذهبوا الى ان قوة كهربائية لا يقلّ ضغطها عن عشرة ملايين ڤولط تعجز عن تحطيم الذرة

واذا قلنا ان عمل كوكروفت وولطن عمل علمي مجرّد لم ينتقص قولنا من شأنهِ، مع ان الذرة

حطمت من قبل . ولا ننسى ان من بعض المباحث النظرية المجرّدة نشأت طائفة من اعظم المستنبطات واكبرها فائدة. فلما بدأ لورد راليه Rayleigh مباحثهُ التي افضت الى كشف الغازات النادرة في الهواءِ ، كان يرمي من ورائها الى ضبط اخطاء طفيفة وجدها في نتائج تجاربهِ السابقة فدلّ القياس على وجود مقادير ضئيلة جدًّا من الغاز في الهواءِ ثم ثبت انها غازات الارجون والهليوم والنيون والكربتون والكزينون . والغازات الثلاثة الاولى كثيرة الاستعمال في الصناعة الآن . فالهليوم تملأ بهِ البلونات لانهُ خفيف ولا يشتعل . والنيون يستعمل في صنع المصابيح التي تضيءُ بضوءٍ احمر فتستعمل في الاعلانات المضيئة وغيرها . والارجون تملأ بهِ المصابيح الكهربائية

وما تمَّ للغازات النادرة قد يتم للذرّة وقد حُقّق تحطيمها . فالعلماءُ يصورون لنا قدراً عظيماً من الطاقة كامناً فيها . والاستاذ اندريد العالم الطبيعي الكبير ، يقول ان الطاقة الذرية المنطلقة في اثناءِ صنع اوقية هليوم من غاز الايدروجين ، تجهزنا بقوة مليون حصان مدة سبع ساعات . ولكن القوة التي نحتاج اليها لكي نحطم ذرات الايدروجين توطئة لتحويلها اعظم من القوة التي تنطلق في التحويل

والى القارىء مثلاً آخر . . . . يوضع الماءُ في مرجل قاطرة فيحول بخاراً يدفع القاطرة . ولكن لا بدَّ من استعمال قدرٍ من الطاقة — حرارة الفحم — لتحويل الماءِ الى بخار. فالوقود الذي يدفع القاطرة ليس البخار بل الفحم . كذلك البحر مصدر طاقة عظيمة ولكن لا بدَّ من تحويلها الى بخار — او طاقة ميكانيكية — قبل استعمالها

***

وهذا يصحُّ على الذرّة . فالذين يتنبأون بان طاقة عظيمة سوف تنطلق من الذرة اخطأوا في حسبانهم انهم يستطيعون اطلاق هذه القوة عفواً — اي من دون استعمال قوة اخرى لاطلاقها . قد نكشف في المستقبل ان الذرة مصدر قوة محركة — كقوة البخار . ولكننا نحتاج الآن الى استعمال مقدار من الطاقة في تحطيم الذرة اكبر من مقدار الطاقة المنطلقة منها بعد تحطيمها . ولنذكر بعض ارقام توضح ما تقدم وتؤيده

تتحطم الذرة باطلاق دقائق سريعة عليها منبعثة من انبوب شبيهٍ بانبوب اشعة اكس او انبوب الراديوم . ولكي تتحطم الذرة يجب ان تنطلق من الانبوب دقيقة تصيب نواة الذرة في الصميم ، اذ لا يكفي ان تمسحها مسحاً . ولكن نواة الذرة دقيقة جدًّا اذا قيست بحجم الذرة نفسها . والذرة صغيرة جدًّا لم يتمكن عالم من رؤيتها باقوى المجاهر . فاحتمال انطلاق دقيقة صغيرة واصابتها نواة الذرة في الصميم احتمال بعيد جدًّا

والواقع ان ملايين من الدقائق تنطلق من الانبوب على ملايين من الذرّات . ونواميس الارجحية تقضي بأن تصيب بعض الدقائق بعض الذرّات. وقد قدَّر اللورد رذرفورد — وتأيد تقديره بالصور — ان دقيقة من ٥٠٠٠٠٠ دقيقة تصيب نواة ذرة . وهذا يعني اننا اذا اخذنا ربع جرام من النتروجين واردنا ان نحطم ذراته بالطريقة المتقدمة وجب ان نستعمل انبوباً يحتوي على جرام من الراديوم ، بتوجيه الراديوم الى النتروجين مدة سنة . ولا يخفى ان ثمن جرام راديوم الآن يبلغ نحو ٢٥ الف جنيه : واذاً فتحطيم الذرة باستعمال الراديوم كبير النفقة . فاذا استعملت الوسائل الكهربائية كانت النفقة اقل وانما احتاج الباحث الى قدر كبير من الطاقة ومع ذلك لا يفوز الاَّ بتحطيم ذرة او بضع ذرات على الاكثر . وثمة فرق بين تحطيم بضع ذرات وتحطيم كمية كبيرة منها !

***

لتحطيم الذرة وجهان جديران بالعناية . الاول امكان اطلاق الطاقة الكامنة فيها. والثانية تحقيق ما تصوَّره الكيميائيون الاقدمون من تحويل العناصر ، كتحويل الرصاص الى ذهب مثلاً . وكان العلماء في مطلع العصر العلمي الحديث يهزأون من اقوال الكيميائيين القدماء وما تخيلوهُ عن « حجر الفلاسفة » . ولكننا نعلم الآن ان ما حاولوا تحقيقهُ ليس مستحيلاً ، وان « حجر الفلاسفة » الذي يحوّل بلمسهِ السحري خبث المعادن الى ذهب ، قد يكون الكهربائية. بل يدعي بعضهم انهُ قد فاز بذلك ولكن المقادير التي تحولت اقل من ان ترى

فالمباحث التي بدأت من نحو ستٍ وثلاثين سنة ، لما كشف السر جوزف طمسن الالكترون وتبعهُ رذرفورد باكتشاف البروتون وشدك باكتشاف النيوترون ، اسفرت هذه المباحث الجديدة عن ان المادة مبنية من دقائق صغيرة يظن انها شحنات كهربائية . فشحنة الالكترون شحنة كهربائية سالبة . وشحنة البروتون شحنة كهربائية موجبة . والنيوترون لا شحنة كهربائية له . لان الكهربائية السالبة فيه تعدّل الكهربائية الموجبة . ولذلك دعي نيوترون اي «المتعادل». هذه الدقائق تجتمع ذرات والذرات هي لبنات هذا الكون العظيم . فاذا استطعنا ان نستفرد الدقائق التي تبنى منها المادة ، افلا نستطيع ان نستعملها في بناء ما نريد منها ؟ هذا هو الحلم الذي قرب تحقيقه بتحطيم الذرّة . اي ان العلماء يبغون ان يجزئوا ذرات الرصاص مثلاً الى الدقائق المبنية منها ثم يعيدون بناءها في شكل آخر لينصعنوا منها عنصراً نادراً كالذهب مثلاً . فكأنهم يملكون احجاراً وطيناً فيستطيعون ان يبنوا بها قصراً او سجناً او زريبة كلاب

ولكن المسألة لا تبلغ هذا المبلغ من السهولة ، للاسباب التي بيّناها . والمحاولات القديمة لم تصب كثيراً من النجاح . واذا كان احد العلماء قد حوّل ذرة الى اخرى في المعمل —

وهو امر لم يثبت بعدُ — فالنجاح نجاح علمي مجرّد ، والمقدار الذي صنع من العنصر ضئيل جداً لا يمكن تبيُّنهُ الاّ بآلة الحل الطيفي (السبكترسكوب)

ولا ننسَ ان ذرات بعض العناصر تتحطم تحطماً مستمراً في حالتها الطبيعية . فاذا راقبت ميناء ساعتك المضيئة في غرفة مظلمة فأنت تشاهد ذرّات تتحطم . فذرات العناصر المشعة في تحطُّم مستمرٍ . تنطلق منها دقائق وتتحوّل الى ذرّات عناصر اخرى . اي انها تنحلّ . ومن نكد العلم انهُ لا يستطيع ان يغير هذا الانحلال اسراعاً ولا ابطاءً ، لا بالحرارة ولا بالبرد ولا بالضغط ولا بغيرها من الوسائل الطبيعية او الكيمائية على ما نعلم

فلما اكتشف الراديوم رأى العلماء رؤًى ، فتصوروا انفسهم وقد اخذوا بناصية القوة عن طريق تحطيم الذرّات . ذلك انهم وجدوا ان كتلة صغيرة من الرايوم ، تطلق في اثناء حياتها الطويلة طاقة تكفي لتسيير باخرة كبيرة بسرعة ٢٥ عقدة في الساعة . ولكنهم خذلوا لما وجدوا انهم لا يستطيعون ان يسرعوا انطلاق القوة من الراديوم . فما ينطلق من الكتلة الصغيرة في مليون سنة مثلاً لا يمكن ان يطلق في ساعةٍ او يوم او شهر . ضعهُ في الهواء السائل او في اتون حامٍ ، فلا تتغير سرعة اطلاق طاقتهِ . ولو انهم استطاعوا ان يفعلوا ما تصوروهُ لقلت عنايتنا بالفحم والزيت ونفادها . ولكانت مقادير الراديوم القليلة في العالم كافية لتجهيز ما نحتاج اليهِ من القوة المحركة . ولكن لو ... هذه وقفت في سبيلهم سدّاً منيعاً

على ان ثمة فرقاً كبير بين مراقبة الذرات تتحطم وتعيد بناءها من تلقاء ذاتها ، وبين تحطيمها واعادة بناءها بحسب ما نريد ؟ يقول الاستاذ لو العالِم والمستنبط الانكليزي :—

ولا ريب في حلول يوم يتناول فيهِ العالِم الالكترونات والبروتونات ويلعب بها كما يتناول الطفل الحجارة . قد لا يحلّ ذلك اليوم قبل جيل او اجيال ولكن لا ريب في انهُ آتٍ . حينئذٍ يستطيع العالم ان يحذف من هنا بروتوناً او يلجم هناك نيوتروناً او يعيد هنالك ترتيب الالكترونات فيحصل على المادة التي يطلبها . وبعد ذلك لن يخامرنا خوف من نفاد اية مادة من مواد الصناعة لان في طاقة العالم حينئذٍ ان يحوّل الصخور الى ذهبٍ والتراب الى رصاص

ومن الخطإِ البالغ ان نحسب اننا نعرف كلّ ما تمكن معرفته عن الذرة . فالعلم بحث حيٌّ ، ولا تقيمن الوزن لعالِمٍ يدعي انهُ وقف على التعليل النهائي لاية ظاهرة من الظاهرات . وقد يسفر البحث عن ان كلاً من الدقائق التي تتركب منها الذرة — الالكترون والبروتون والنيوترون — بناءٌ معقد . وليس الزمن الذي كان فيهِ العلماء يحسبون الذرة اصغر دقائق المادة التي لا تتجزأ ببعيد . فلو اتيح لدلتن ان يقرأ الآن كتاباً حديثاً في علم الطبيعة لدهش . وقد يشفق علينا حفدتنا اذ يقرأون عن محاولاتنا الضعيفة لتحطيم الذرة ومعارفنا الناقصة عن بنائها !

مولد المأساة

BIRTH OF TRAGEDY

وردتنا في اوائل الصيف مقالتان في موضوع قلما يطرقه أدباؤنا وهو الادب الاغريقي فقدمنا مقالة نشأة المسرح الاغريقي (مقتطف اكتوبر ١٩٣٢) على مقالة مولد المأساة لانها أعم وفهم الثانية بعد مطالعة الاولى أقرب منالا

اشتهر فردريك نيتشه الفيلسوف الالماني المعروف بموضوعين ، قتلهما بحثاً وتنقيباً ، هما الادب الاغريقي وفلسفة الاجتماع . استغرق تأليفه في القسم الاوّل سبع سنين من حياته وتمتاز مؤلفاته في هذه المدة بصفتها الكلاسيكية الفلسفية الصبغة ومن اهم تلك المؤلفات واشهرها : مولد المأساة : طبع هذا الكتاب سنة ١٨٧٢ واضاف اليه مقدّمة خطيرة سنة ١٨٨٦ تغلغل به في ابحاث الادب الاغريقي ، وابرز من زواياها خبايا الحقائق في التاريخ وفي الفن . فجلّى الاصول التي منها نشأت المأساة ، والاطوار التي تعاقبت عليها

الالهان : ديونيسيوس وابُلّون

هنالك كلمتان هما مفتاح مؤلفات نيتشه الاغريقية ، وكثيراً ما تردّدتا في كتاباته ، وفيهما الكشف عن اصل المأساة وهما ديونيسيوس وابُلّون الاول اله الخمر والمرح ونزق الشباب . والثاني اله الفن والتعبُّد والترصُّن . والنسبة اليهما الديونيسيَّة والابلونيَّة . تمثّل الاولى الهمة الوثّابة في عالم الطرب والمرح ، عالم الموسيقى والاغاني والرقص والخلاعة والحركات المعربة عما انطوت عليه الاضالع من الانفعالات الغرامية والمجونية ، المتحكّمة في النفس في شرخ الصبا . وتمثّل الثانية جمال الجنس ونقاوته ورصانة الطلعة والوقار . شرحهما فوجيه في كتاب خاص قال :—

هنالك جنس أحبّ الجمال والحياة دون ما سوى . واختصّ بحبه الحياة والقوّة والتفوُّق والمرح . يُدْعَى الاغراق في هذه الاشياء : النفس الديونيسية : لكن ذلك الجنس احبّ ايضاً الجمال والطهارة والاتزان والتقوى . ذلك ما ندعوه : النفس الابُلّونية

اقترنت هاتان الرغبتان في ادراك الاولمبيا . والاولمبيا مغنى الكائنات السامية المالكة القدرة والجمال ، المعتزّة بتأكيد خلودها — بارادة الحياة — والخلود كلمة فقدت قوّتها لكثرة التكرار . فهي تعني عدم الشبع من الحياة ، والرغبة في دوامها الى الابد . ولما كانت تلك الكائنات مسرورة ايضاً بالجميل ، وهي تتأكّد جمالها ، وتروم دوامه كان الاولمبيّ ذلك الشخص الذي في نفسه كلتا الصفتين ، الديونيسية والابلونية . فالفن الابلوني مثال النظام والتعمق والارتكاز . والفن الديونيسي مثال الموسيقى المرتبكة ، مثال الانفعال . وقد عرفنا اتجاه كلّ

منهما ضد اخيهِ. على انهما اقترنا اقتران الزوجين على ما فيهما من تضاد فوفّقا في انتاج انجب المواليد. فمدّا بينهما جسراً هو فن المأساة. فالمعجزة الهيلينية زواجهما فولادتهما المأساة. وكيف ذلك؟ تشبّه الابلونية بحلم الجمال، والديونيسية بحال السكر. فنرى في ابلون مثالاً الهيًّا مجيداً. وصفهُ شوبنهور وصفاً شعريًّا تصويريًّا قال: — رعبة مخيفة تملك على المرء شواعره فتغادرهُ ذاهلاً جامداً كالصخر الاصمّ لاخسّ ولا انس. فيحسب الذهن في اوضح ظاهراته حالة استثنائية بازاء ما حصل في نفسه من الغيبة الساحرة التي بلغت عمق اعماق وجوده. اضف الى ذلك رعبة الذهول الفنيّ الناشىء عن الانفعال الحاصل في قرارة النفس. اذ يشعر الذاهل بفقدهِ وجودهُ الفردي المستقل فكأنهُ اصبح جزءًا من اللامتناهي. هذا هو موقف المرء امام ابلون

في غمرة هذا الاختبار الفريد تقع العين على الكائن الديونيسي الذي يمثل حالة السكر والخمول، الذي يستولي على العقل، اما بتأثير مجالي الربيع وظاهرات شواعر النفس للهيام، والثورة على الهدوء والجمود، او بتأثير المغيبات، كما روت لنا ذلك اشعار الاقدمين والمحدثين. فبهذا وبذلك تبعث النفس امواجاً من الحبور والبهاء فتستيقظ عواطف الديونيسي في غيبة تزول عندها الذات. بعد ما تبيَّن القارىء المراد بالديونيسية والابلونية يتقدَّم نيتشه لبسط الكلام في الموضوع. قال: —

كان الفن الاغريقي والتمدُّن الاغريقي، على ما نعلم، ابلونيًّا والهيًّا. والمأساة عندهم قرينة الديانة ووليدتها. ادخل اليهم الفينيقيون ديونيسيوس آلـه الخمر. فضمُّوا اليهِ باخس وغيره من الآلهة، مع ابلون آلـه الشمس واخته ديانا الاهة القمر. وكان خدامه (الكهان) يلبسون جلود الذبائح المقدمة له في الحفلات والاعياد. وهؤلاء هم الساتيريون — جمع ساتير — وساتير مخلوق خرافي عندهم نصفهُ انسان ونصفهُ تيس (ذكر في التوراة مع الاشارة الى ما كان يجري في تلك الحفلات الدينية من الرقص التمثيلي بجلود المعز. جاء في اشعياء ص ١٣ عدد ٢١: بل تربض هناك وحوش القفر، ويملأ البوم بيوتهم، وتسكن هناك بنات النعام، وترقص معز الوحش: فمعز الوحش ساتير الذي كان يمثله عباد باخس) اقول، كان الكاهن او صديقه يلبس جلد التيس مقنعاً كانهُ يمثل «ساتير» ويرقص ويرنم منشداً اغاني باخس آلـه الخمر المعروف، وديونيسيوس زميله ومثيله. ويقال ان آلهة المأساة اربعة هم ديونيسيوس وباخس وابلون وديمتريوس. وان المأساة من اصل خمريات باخس. نشأ ذلك في نحو القرن السادس قبل المسيح. فيقف الشاعر على منصة عالية ليراه المحيطون بهِ، ويقف معهُ الكاهن او الزعيم. فيشرع في تلاوة الاغاني، او الالقاء، وزعيم المرنمين يتلقى منهُ ذلك في صورة محاورة تشتمل على اساطير الاولين والكائن في الوسط. والمرنمون يحيطون بهِ في شكل نصف دائرة تجاه

المذبح. وقد اضاف (ثيبس) القناع الى هذه الهيأة والمقصود منهُ اخفاء حقيقة الممثل عن العامة فكانوا يحسبون «ساتير» وممثله واحداً

بدأ هذا الطقس المقدس عندهم — على ما روى نيتشه — أورفيوش او بروميثيوس، الذي سرق نار الآلهة من السماء، وهبط بها الى الارض. فأضرم في صدور الاغريق تلك الجذوة التي اضرمت اوربا والعالم. وهي مثل نار (هورمزد) التي لا تطفأ. اقول: كان ذلك الفن الالهي الرصين يملأ فراغ النفس في العهد الدوري والابلوني والاتكي. فيقود الشعب الى مظاهر الورع والتعبد ومراسم الخشوع والتأدب. ففاجأه في المشهد ديونيسيوس الموسيقي المرح. اراد نيتشه ان يقول انه طرأ على المسرح الديني روح علمانية تخاطب نفوس الشبان بلا استئذان، فتخلب الالباب وتستلب أثمن ما ذخر في مخابئ الحياة. فراع العنصر الابلوني ذلك وحسب اصحابهُ لهُ أي حساب. هذا كان موقف الديونيسي والابلوني في مسرح باخس. وما عتم ان اقترنا اقتران الذكر والانثى فولدا الفن السامي، وخمريات باخس، والمأساة. هذه هي ذرية آلهي الفن. فقد توّج قرانهما بالامجاد بعد معارك طاحنة ختمت بميلاد انتيفون وكندرا. كان الوسط التاريخي والمسرحي مسقط رأس المأساة في حفلات باخس، الذي ترى صورته في الآثار اليونانية طفلاً يلوذ بأمه او بالكرمة. وهو لا يريد ان يدرك من الحياة سوى معنى المرح والاستسلام البريء. وكان المرنمون ينشدون الترانيم المنطوية على التسبيح والتعظيم والعامة يحسبون «ساتير» شخصاً حقيقيّاً. وذلك يعرب عن اميالهم الفطرية للحرية والقصوف، وللرغبة في الحياة بحسب الفطرة، على اكثر مما عناه جان جاك روسو لما ارسل نداءه الذي هزّ به اوربا قائلاً: عودوا الى الطبيعة:

استمال ممثلو «ساتير» ألباب الاغريق الذين كانوا يحبون ان يروا الالـه في شخص الممثـل المقنع. في وسط تلك الهيأة المسرحية بدأ فرينيخس المأساة. ومن ابطالها الاولين اسخيلس سنة ٥٢٥ ق. م. وصفوقليس سنة ٤٩٥ ق. م. ومن قبلهما ثيبس مستنبط القناع

كان هسيودس الشاعر اشد الابلونيين تطرفاً. ودونه في ذلك هوميروس الساذج (وكلمة ساذج هذه من مخرجات الشاعر شلر الالماني الشهير. ومعناها الاصلي على الفطرة) وكان ممثل العنصرين الابلوني والديونيسي، ارخيلاوس الشاعر الغنائي. ثم تلاءمت الابلونية والديونيسية، فجمعتا بين الطقس الديني ورغبة الانسان الفطرية في المرح والسرور. وليس الامر خيالاً عند الديونيسي. لانه كشاعر يرى التطبيق في اول مراتب الشأن. وهو يرمي الى تجلية حقيقة الحياة بآلامها وتقاليدها. والشعر اليوناني القديم يرمي الى الحقيقة دون الخيال. فأنشأ الشاعر الديونيسي يجلي هذه الحقيقة وهي نقطة تحوُّل في حياة المأساة. بها تخرج من طور الى طور. وقد حمي الوطيس بين اسخيلس وصفوقليس في اي التفسيرين اجدر بالاتباع

وآراء نيتشه ثقة في هذا الباب في اواخر القرن التاسع عشر . فأبان ان المأساة عنيت اولاً بديونيسيوس الذي ظهر في المسرح (اي اكثر من عنايتها بابلون)

تمام الانتقال

اجتمعت العناصر الآنفة الذكر ، الابلونية ، والديونيسية ، وحفلات باخس ، والتمثيل الديني،ورغبات العامة الفطرية ، وبقيت حلقة واحدة بها تتم ولادة المأساة. تلك الحلقة هي: تحويل التمثيل من آلهي الى انساني : ومن ديني الى علماني : والذي قام بهذه الحلقة هو يوربيدس ، استاذ سقراط . هذا عرض اولاً على المسرح روايات تنطوي على احوال الحياة اليومية . فأخلت الآلهة المسرح للناس . والبشر نفعيون اولاً وآخراً . فيؤثرون مصالح الحياة اليومية على شؤون الآلهة . فكان امراً طبيعيًّا التفاتهم الى التمثيل المسرحي العلماني، شأن التاريخ في كل ادواره، يبدأ في السماء وينتهي على الارض ، يبدأ في جنة عدن وينتهي في الشوك والحسك خارجاً . يبدأ في مقبّب الفلك بين الآلهة والالاهات وينتهي على ضفاف الانهار وفي الانجاد والاغوار . يبدأ في عالم الشعور والاحلام وينتهي في تقرير الواقعيات. ذلك ما حدث للمسرح بزعامة يوربيدس . على ان التطور في الدرامة كما في غيرها من حلقات سلسلة الارتقاء لم يتم الا تدريجاً . ومع ان المأساة لم تصر ابلونية لا يمكننا حسبانها ديونيسية صرفةً . فهي طبيعة فنيَّة

جاء سقراط اثينا فاذهله اندفاع الناس وراء الحسيات بالحوافز الفطرية . وفي كلمة فطرة نلمس اتجاه سقراط ولباب فلسفته. ففند سقراط تلميذ يوربيدس الفن الفاشي باثينا، كما فند الاخلاق والميول السائدة . وحيث اتجهت السقراطية تبينت نقص الاخلاق وسيادة الاوهام . فرأت من ذلك زيغ الاحوال وفسادها . ورسخ في نفس سقراط انه رسول الاصلاح العظيم . فدخل المعمعان اعزل،يدفع عن مصلحة الامة والفن لتحريرها من فساد الشهوة والبطر

قال نيتشه : يسودنا التردُّد بديهة في امر سقراط . فمن هو هذا الاعزل الذي يرمي الى قلب الصبغة الاغريقية ومن ابطالها : هوميرس وديونيسيوس واسخيلس وفيدياس وبيركليس وبيثا وبندار اسمى ابطال — الاغريق وابعدهم غوراً. افيستحق سقراط هذا اعجابنا ؟ويل ويل لك يا سقراط ! فقد حطَّمت الفن الجميل بلكمة واحدة ولا يزال العالم مكبلاً بالثقافة السقراطية التي نقلتها الينا الثقافة من الاسكندرية. وآثار سقراط بادية في كل ما تمتد اليه ايدينا. وان من تصوَّر ذلك يصرخ قائلاً : — ما اعظم ديونيسيوس في وسطك ايها الجنس الهيليني : فيردُّ عليه شيخ توّج الشيب هامته : — بل قل ايها الاجنبي ما اعظم ما تحمَّل هذا الجنس من الآلام حتى ابرز ذلك الجمال . ولكن اتبعني الى تمثيل المأساة ، وشاركني في التضحية في هيكلي ديونيسيوس وابلون

مصر حنا خباز

مهاتما غاندي

— ٤ —

— طلب العلم في لندن —

غندي في السجن او خارجه قوة تحاذر . ففي بلاد يكثر فيها الجوع ، يقام لصومه وزن كبير . فتتحرك طبقات الهندوس وتهتز الامبراطورية البريطانية وتردد اصداءه وانباءه صحف العالم في الشرق والغرب. ولا يخفى ان غندي نقل الى سجن بونا ، بعد استئنافه للعصيان المدني ، على اثر انتهاء مؤتمر الدائرة المستديرة في يناير الماضي . ينام فيه في الفضاء ويستيقظ في الساعة الرابعة كل صباح ليقوم بفروض الصلاة ، ثم يمشي نحو ساعتين في حظيرة لا يزيد طولها على مائة ذراع ثم يغزل القطن ثم يطالع

وماذا يطالع غندي في سجنه ؟ لقد قرأنا في احدى صحف الغرب انه قرأ في خلال العام الماضي التوراة والانجيل — طبعة الملك جايمس — والقرآن . ثم كتباً مختارة لرسكن الانكليزي وتولستوي الروسي وثورو الاميركي

ويقال ان حكومة الهند عينت نحو عشرين غرشاً لتنفق على طعامه وما يحتاج اليه في السجن ولكنه لا يكلفها اكثر من خمسة قروش لانه لا يتناول الا العنب ولبن الماعز

وكنا قد نشرنا في مقتطف ابريل ومايو ويونيو ثلاثة فصول في طفولة غندي وحداثته تلخيصاً عن الكتاب الذي كتب فيه سيرته بالاشتراك مع المستر اندروز الانكليزي. وهذا فصل رابع يصف فيه حياته في انكلترا في اثناء طلب العلم فيها جدير بان يطالعه كل شاب يطلب العلم في انكلترا او غيرها

زار دكتور « مهتا » حجرتي وتفقد محتوياتها ، ثم هزَّ رأسهُ علامة على عدم الرضا عنها ثم قال « هذا المكان لا يليق . إننا لا نهبط لندن للدرس ، بقدر ما نهبطها لممارسة الحياة والعادات الانجليزية ، ولهذا يجب عليك ان تعيش في اسرة . ولكن قبل ان تَتَقَدمَ على هذا اظن انهُ يحسُنَ بي أن اعهد بك لاحد اصدقائي لتدريس الحياة وتمرن عليها »

ولقد قبلت هذا الاقتراح بكل شكران ، وانتقلت تواً الى سكن ذلك الصديق . وكان هذا الصديق مثال الرأفة والتيقظ ، فعاملني معاملة الأخ وأخذ يعلمني اصول السلوك الانجليزي . على ان غذائي اصبح مسألة معضلة . وكنت لا استسيغ الخضر المسلوقة من غير توابل . وتحيَّرت ربة البيت فيما يمكن أن تجهز لي من غذاء . وكنا نتناول عصيدة القرطم للافطار فكانت كافية ، ولكني كنت اشعر بالجوع في وجبتي الظهر والمساء . وحاول صديقي الذي عهد بي اليهِ دكتور « مهتا » أن يغريني بأكل اللحم ، ولكني كنت اذكر له عهدي الذي عاهدت عليهِ امّي ، واظل صامتاً . اما وجبتا الظهر والمساء فقد

اعتدنا ان نتناول فيهما الاسفناخ والخبز والمربىً . وكانت شهيتي غالباً ما تقوى ، ولكني كنت اخجل من ان اطلب اكثر من قطعتين او ثلاث قطعٍ من الخبز ، معتقداً انهُ ليس من حسن الذوق أو الادب في شيء ان افعل غير هذا . وكنا لا نتناول اللبن في غير الصباح . ولقد امتعض صديقي يوماً من هذه الحال فقال لي بصراحة : « لو أنك كنت اخي ، اذن لامرتك بالاسراع في حزم امتعتك . ما هي قيمة عهد تعاهد عليهِ أمّاً غير متقفة جاهلة بمجرى الاحوال هنا . ان عهدك هذا ليس عهداً على الاطلاق . انهُ لا يعتبر عهداً صحيحاً امام محكمة قضائية . وصبرك على الاخذ بمثل هذا الوعد ليس اكثر من خيال ووهم فارغ . وعكوفك عليهِ لا يعود عليك بأية فائدة هنا . انك اعترفت انك اكلت اللحم . وتذوقتهُ . ففعلت هذا في وقت لم يكن اكل اللحم فيهِ ضروريّـاً ، وتمتنع عنهُ في وقت تدعوك الحاجة اليهِ ».

ولكني ظللت صُلْباً ولم تلنْ قناتي

وكثيراً ما كان يستمر هذا الصديق في سرد براهينهِ ، ولكن كان عندي قوة سالبة استقرّت في نفسي اواجههُ بها كلما لجَّ في الكلام والتدليل على صحة رأيهِ . وكان كلما امعن في محاوراتهِ ، امعنت في عنادي . وكنت اصلي لله كل يوم ليحميني ، فحماني . ولم يكن عندي اية فكرة بَيِّنَـة في الله . بل كان مجرد إيمان اثَّر أثره . اما هذا الايمان فقد غرستهُ في نفسي مربّيتي

عثرت خلال تجوالي في المدينة على مطعم للنباتيين في شارع فرنجدون . وكان لمجرد وقوع نظري عليهِ هزة فرح في نفسي كتلك الهزات التي يشعر بها الأطفال لدى عثورهم على شيءٍ تعلقت بهِ قلوبهم الطاهرة . ورأيت قبل ان ادخل المطعم ومن وراء الزجاج ، كتباً عرضت للبيع ومن بينها كتاب « صولت » الذي عنوانهُ « الدعوة للحياة النباتية » فاشتريتهُ بشلن واحد ودلفتُ توًّا الى حجرة الطعام . وهنالك تناولت اول وجبةٍ ارضتني منذ هبطت أرض انجلترا ، وشعرت بأن الله ساعدني وأخذ بيدي

قرأت كتاب « صولت » من ألفهِ الى يائهِ ، فأثر فيّ كل تأثير ولمّا قرأتهُ ، اصبحت نباتيًّا بالاختيار ، واني لأبارك ذلك اليوم الذي عاهدت فيهِ أمي على ذلك العهد . ولقد كنت امتنع من قبل عن اكل اللحم احتراماً للصدق والعهد الذي قطعتهُ لامي ، ولكني كنت أرغب من كل قلبي في ان يصبح كل هندي من اكلة اللحوم . وكنت أتطلع الى حلول الوقت الذي اكون فيهِ واحداً منهم أعالج الأمر بحرية وجهرٍ وادعو غيري اليهِ . ولكنَّ اختياري الآن مال بي الى ناحية الحياة النباتية والتبشير بها اضحى كل همّي

وظهر لي ان الملابس التي قدمت بها من « بومباي » لا توافق ذوق المجتمع الانجليزي فبدلتها بملابس أوصيت عليها في مخازن الجيش والبحرية . واشتريت قبعة حريرية كلفتني تسعة عشر شلناً . ولم اكتف بهذا فانفقت عشرة جنيهات على بذلة للسهرة اوصيت عليها في

محل « بوند ستريت » وكتبت لاخي ليرسل اليَّ سلسلة ذهبية . ورأيت انهُ ليس من حسن الذوق ان البس رباط رقبة مربوط ، فتعلمت كيف اربط رباط الرقبة بعد مرانة عليهِ . ولم اعتد في الهند النظر في المرآة ، بل كانت المرآة من ادوات الترف لا انظر فيها الاَّ في اليوم الذي يزورنا فيهِ حلاق الاسرة . اما في لندن فكنت اقضي كل يوم عشرة دقائق امام مرآة كبيرة ، انظر فيها كيف أعدل رباط رقبتي وامشط شعري على طريقة مألوفة ولم يكن شعري ناعماً فكانت تقوم في صبيحة كل يوم معركة مع المشط والفرشاة حتى يستقيم وتسفر المعركة عن توليفهِ بطريقة منتظمة . وكنت في كل فترة اخلع فيها القبعة او اضعها فوق رأسي ، تمر يدي على شعري بطريقة اوتوماتيكية لاصلح شعري واحفظ نظامه

وكل هذا ايضاً لم يكن كافياً . فبدأت اوجه انتباهي الى تفاصيل اخرى . فرضت اني اذا عكفت عليها استطعت ان اخرج من نفسي سيداً كريماً (جنتلمان) على الطراز الانجليزي . وقيل لي انهُ من الضروري ان اتلقى دروساً في الرقص واللغة الفرنسية وفن الالقاء . فصممت على ان ادرس الرقص في معهد ، ودفعت ثلاثة جنيهات اجراً على دورة لتعلم الرقص مداها ثلاثة أسابيع . وكنت احتاج الى ستة أسابيع لاعرف كيف أرقص ولكني وجدت اني عاجز عن أن اقوم بحركات متزنة مؤتلفة ، لاني لم اكن استطيع ان اتبع توقيع البيانة ، فيستحيل عليَّ أن أوفق بين حركة اقدامي وتقسيم التوقيع . ولكن ماذا أفعل ؟ تروى اسطورة ان ناسكاً احتفظ بهرة في منسكه ليقاوم الفئران ، ثم ببقرة لتغذي الهرة بلبنها ، ثم برجل ليخدم البقرة ، وهكذا . ولا ريبة في ان مطامعي اخذت تتكاثر ويتبع بعضها بعضاً ، مثل الناسك . ففكرت في أن اتعلم العزف على الكمان حتى أعوِّد اذني على أنغام الموسيقى الغربية وتوقيعاتها . فاشتريت كماناً بثلاثة جنيهات واضفت الى الجنيهات الثلاثة مبلغاً من المال اجراً لمعلمة ، واخذت ابحث عن معلم ثالث ليعلمني فن الالقاء ، ودفعت لهُ جنيهاً لأ بدأ عليهِ درسي وامرني بان اشتري كتاب « بل » — Bell — في فن الالقاء ، فاشتريتهُ غير وانٍ

غير ان كتاب « بل » هذا كان اول شيءٍ قرع « الناقوس »[1] في أذني فصحوت من هذه الغفوة النفسية . قلت في نفسي « انك سوف لا تقضي عمرك في انجلترا ، فما الفائدة في تعلم فن الالقاء »؟ والآن « هل من الممكن أن أصبح بتعلم الرقص جنتلماناً » ؟ والكمان عجزت عن تعلمها حتى في الهند . وما دمت في طور التلمذة ، فيجب عليَّ أن اعكف على دروسي فاذا أهلت بي اخلاقي لان تخرج مني جنتلماناً فهذا خير من كل ما عداه . وعلى هذا اوجبت على نفسي أن اترك كل هذه الاشياء

اكتنفتني هذه الافكار ومثيلاتها ، وكتبتها في خطاب ارسلت بهِ الى معلم فن الالقاء

(١) بين كلمة « بل » وهو اسم مؤلف الكتاب وكلمة ناقوس جناس ، لان الناقوس في الانجليزية اسمه « بل »

راجياً ان يعفيني من اتمام دروسي . ثم ارسلت بخطاب آخر الى معلم الرقص ، وذهبت بنفسي الى معلمة الكمان ، لاعتذر اليها ولاقول لها بانها تستطيع ان تتصرف في الآلة الموسيقية باي ثمن يمكن الحصول عليه . كانت مخلصة ودودة ، فاخذت اظهر لها كيف أني تبيّنت اخيراً اني اتبع املاً خاطئاً ، فشجعتني على ان اتابع ما صممت عليه من تغيير خطتي تغييراً كليًّا. ولقد استمرّ ولعي بهذه الاشياء ثلاثة اشهر. اما المحافظة على هندامي فقد استمرّ سنين عديدة ولكني رجعت على كل حال تلميذاً ، بعد أن تخليت عن افتتاني هذا

وليس من حق احد ان يظن أن تجاريبي في تعلم الرقص وامثاله من الاشياء كان طوراً من اطوار الانغماس في الملذات قطعتهُ في حياتي . فاني حتى في اثناء ولعي بهذه الاشياء ، كنت مالكاً لكل قوى نفسي ، ولم يتحرر طور افتتاني بهذه الخيالات من تأمل عميق كنت اقع صريعه الفينة بعد الفينة . وكنت اقيد حسابي فلا اهمل ذكر المليم والدانق الذي أصرفهُ . وبدأت اناقش نفسي في نفقاتي ، فاستبان لي انهُ من الضروري ان اقتصد . وعلى هذا صممت على ان أختزل نفقات حياتي الى النصف. فقد استبان لي من مناقشة الحساب أن ابواباً كثيرة تذهب أجوراً . ووجدت من جهة اخرى ان معيشتي في وسط اسرة يستدعي ان ادفع حسابي كل اسبوع . فأقلعت عن عادة التحبب الى افراد الاسرة بدعوتهم الى الطعام، كما رفضت ان اقبل دعواتهم اذا انصرفوا الى النزهة او اللهو. وكل هذا كان يستدعي زيادة في النفقات. فاذا كانت رفيقتك في النزهة سيدة وجب عليك ان تقوم بكل النفقات. وظهر لي ايضاً ان الاكل خارج المنزل كان اسرافاً ، لان كل الوجبات التي لا اتناولها في المنزل لا تنقص من الحساب الاسبوعي شيئاً . ولماذا لا اوفر على نفسي كل هذه الابواب ؟

صممت على ان اؤجر حجراً مستقلة ، بدل ان اعيش مع اسرة ، وبذلك اتمكن من الاختلاف من مكان الى آخر على مقتضى طبيعة اعمالي التي اقوم بها ، فاكسب تجربة وعلماً . فانتقيت الغرف التي اجرتها بحيث كانت لا تبعد عن محل عملي اكثر من نصف ساعة مشياً على القدم ، وكذلك اخذت اقتصد في الاجور التي أنفقها . وكنت قبل ذلك لا انتقل من مكان الى آخر الا راكباً ، قائلاً انني استطيع ان اقتصد من الوقت ما اقضيه في النزهة ماشياً . اما الترتيب الجديد فكان نزهة واقتصاداً ، إذ استطعت ان اقتصد اجور الانتقال وان اقطع كل يوم ثمانية او عشرة اميال سعياً على قدميَّ . ولقد أفادتني عادة المشي فوائد جلى ، فحفظتني من الامراض طيلة مقامي في انجلترا ، واكسبتني قوة في البدن وشدة في الاصلاب

حدث بعد هذا بقليل ان قرأت كتباً في الحياة البسيطة ، سارعت بعدها الى ترك حجراتي واستأجرت بدلاً منها حجرة واحدة مهيأة بمدفأة ، ومضيت اجهز افطاري بنفسي وفي حجرتي، ولم يكن يشغلني هذا اكثر من عشرين دقيقة ، اذ لم يكن لي من حظ في وجبة الصباح اكثر

من عصيدة القرطم وماء ساخن للكاكاو. وبهذا استطعت ان اعيش بشلن وثلاثة بنسات كل يوم . وكان هذا الوقت وقت اكباب على الدرس وافتتان به . ولقد وفرت عليّ هذه الحياة البسيطة كثيراً من وقتي ، فاجتزت الامتحان . على ان هذا الاقتصاد لم يجعل حياتي جافة كما يخيل الى البعض . بل على الضد من هذا ، فان التغيير الذي ادخلتهُ على نمط حياتي اكسبني أُلفةً ثمات حياتي النفسية والجسمية . بيد أن الطريقة التي اتبعتها كانت تلائم موارد اسرتي ، فضلاً عن أنها كانت اقرب للاستقامة ، فعمَّ نفسي بذلك فرح لا يوصف

منذ اربعين سنة خلون لم يكن في لندن من الطلاب الهنود سوى عدد ضئيل . وكانت العادة ان يعيش هؤلاء عيش العزوبة ولو كانوا متزوجين . ذلك لانه يشترط في طلاب المدارس والجامعات ان يكونوا غير متزوجين ، لانهم يعتقدون هنالك ان حياة الطلب والدرس لا تتفق مع الزواج . وكانت لنا هذه العادة في الهند خلال الازمان القديمة ، ولكنا استبدلناها في العصور الحديثة بتزاوج الاطفال ، وهي عادة غير معروفة في انجلترا . وكثيراً ما كانت تعلو حمرة الخجل وجوه شباب الهند عندما يضطرون الى الاعتراف بانهم متزوجون . ولقد اخذتني عدوى هذه العادة فقيدت اسمي أعزبا ، على الرغم من اني كنت متزوجاً ولي ابن . ولكني لم أكن سعيداً بان اشعر اني خادعت وراءيت . ولكن خجلي وصمتي وتكتمي ، كل هذه الاشياء حملتني عن ان أُدلف الى اعماق اشد غوراً

كنت مرة في صحبة اسرة من « فنتور » امضي اجازتي . والعادة في مثل هذه الاسر ان تصحب الفتاة بنت صاحبة البيت ضيوف اهلها للنزهة والترييض . فاصطحبتني الفتاة يوماً الى تلال جميلة هادئة تحيط ببلدة « فنتور » ولست ممن يتئدون في المشي ، ولكن رفيقتي كانت اسرع مني خطواً ، فجرتني وراءها واخذت تثرثر طيلة الوقت . وكنت اجيب على ثرثرتها المرة بعد المرة بكلمة «نعم» او « لا» ، وفي بعض الاحيان بكلمة «نعم.ما اجمل هذا او ذاك». وكانت كأنها طير يطير ، وظللت أُفكر متى نعود الى المنزل بعد ان ضربنا في المسير وبلغنا قمة تل . ولكنا لم نكد نعتلي القمة حتى اخذت افكر كيف نهبط مرة اخرى . وعلى الرغم من حذائها العالي الكعب ، فان هذه السيدة التي كادت تتجاوز من العمر الخامسة بعد العشرين ،هبطت من فوق التل كأنها سهم زل عن كبد القوس . اما انا فكنت في حيرة الخجل أُجاهد لاهبط ذلك المرتقى الوعر . ووقفت هي تبتسم وتشجعني وتعرض عليّ ان تأتي لنجدتي . وبكل ما يمكن ان يتصور ذهني من الصعوبة اخذت اعالج الامر فأتساند مرة وأزحف على ركبتي اخرى حتى استطعت ان اهبط الى سفح التل ، فصاحت بملء فيها « براڤو » . ولكن ضحكاتها اوقعتني في خجل مرير لا استطيع وصفه

غير اني لم استطع ان افلت من غير إضرار . لان الله اراد ان يخلصني من سرطان الكذب والبهتان

ذهبت مرة الى « برِيْتْشُنْ » ، وقابلت هناك أرملة عجوزاً معتدلة الثروة . حدث هذا خلال السنة الاولى من اقامتي في انجلترا . وكان جدول الطعام في الفندق مكتوباً بالفرنسية التي لا اعرف منها الأ القليل . وجلست الى المائدة التي جلست اليها هذه الارملة . وقد لحظت اني غريب واني مرتبك ، فسارعت الى مساعدتي . بادرتني قائلة : « يظهر انك غريب وانك مرتبك . لماذا لم تطلب شيئاً ما » ؟ فشكرتها وابنت لها عن الصعوبة التي تعترضني لاني لا استطيع ان اميز بين الوان الطعام وأيها يتفق وخطة النباتيين لاني لا اعرف الفرنسية الاَّ جهداً فقالت : « اسمح لي ان اساعدك . سأوضح لك الالوان وارشدك الى ما تأكل » . وكانت هذه بادرة علاقة استحالت الى صداقة استمرت طوال مقامي في انجلترا وزمناً طويلاً بعدها . واعطتني عنوانها في لندن ودعتني الى الغداء في بيتها كل يوم احد ، فكانت تحتفي بي وتقدمني الى فتيات وتحملني على الاشتباك معهن في الحديث . وكان من بينهن على الاخص سيدة فتية كانت تقيم معها ، وغالب ما كانت تتركنا معاً في وحدة شاملة

شعرت اولاً بان الامر شاق متعب . فكنت لا استطيع ان ابدأ حديثاً ، ولا اقدر على ان اشترك في فكاهته . ولكن هذه السيدة الفتية قادتني الى الطريق ورسمت لي الخطة . وبدأت اتعلم . ومع مرور الزمن بدأت اتشوق الى يوم الاحد من كل اسبوع ، واخذت أميل الى التحدث الى صديقتي الشابة

واخذت الارملة العجوز تمد اطراف شباكها يوماً بعد يوم . كانت تظهر الاهتمام بمقابلاتنا. وليس من البعيد انها كانت تختط من حولنا خطة تحاول تنفيذها . فتولتني حيرة مزعجة . كيف اقوى على ان اخبر ربة البيت باني متزوج ؟ غير اني تمنيت لو اني اخبرتها . اذن لرأت ان من الصعب عقد خطبة بيننا . ولكن الوقت لم يكن قد فات بعد . ورأيت ان اعلان الحق كفيل بان يوفر عليَّ تعساً اكبر من التعس الذي اشعر بهِ . وبهذه الفكرة كتبت لربة البيت خطاباً جاء فيهِ :

«لقد شملني عطفك منذ ان تقابلنا في برِيْتْشُنْ لاول مرة ، حتى انك عنيت بي كما تعنى الام بابنها ، وفكرت في ان اتزوج ، واخذت تقدمينني لفتيات لأعقد معهن يوماً اواصر الالفة والصداقة . ولاني لا ارغب في ان تتمادى الامور الى أبعد مما وصلت الآن ، اصارحك باني لم اكن خليقاً بعطفك هذا . كان من الواجب عليَّ ان اعرفك منذ بدأت زياراتي لمنزلك اني متزوج . فقد عرفت ان طلبة العلم من الهنود يخفون في انجلترا امر زواجهم ، فتابعتهم في هذا . واني لآسف لاني اضطررت لان اخفي عنك الحقيقة طوال هذه المدة . ولكني الآن مغتبط لان الله قد أمدني بشجاعة حملتني على ان اقول الحق وان اصارحك به . فهل لك ان تغفري لي ؟ واني لأؤكد لك باني لم اتجاوز حد الآداب مع السيدة التي تفضلت بان قدمتني

لها . فاني اعرف الحدود التي يجب ان اقف عندها . اما انت ، فلانك كنت جاهلة امر زواجي ، فقد رغبت في ان تتم خطبتنا . ومن اجل اني رغبت في ان لا تتجاوز الامور حدها الذي بلغت اليه ، رأيت واجباً عليَّ ان اطلعك على الحقيقة

« اما اذا وصلك هذا وكان شعورك باني كنت غير خليق بان اوجد تحت سقفك وفي ضيافتك ، فاني أؤكد لك بان ذلك يسوؤني كل الاساءة . ان لك في عنقي ديناً لا يوفيه عرفان الجميل والشكران جزاءَ ما اظهرت نحوي من العطف والحنو . فاذا رأيت بعد هذا أن لا تطّرحيني واني جدير بكرمك الذي سوف لا آلو جهداً في أن اجعله من نصيبي ، فلا شك في اني اكون سعيداً ، واعتبر ان هذه خاطرة اخرى من خاطرات حنوك وعطفك »

كتبت هذا الخطاب مرات لانقحهُ مرة بعد اخرى . ولكن على كل حال حمل عن كاهلي عبئاً كنت اشعر بثقل وطأته. وفي عودة البريد وصلني الرد فكان فيهِ ما يلي :

« وصلني خطابك الذي عبرَّ عن اخلاصك . ولقد اغتبط بهِ كلانا ، كما اضحكنا كثيراً . فان الحقيقة التي اخفيتها عنا وتعتقد أنك أجرمت في اخفائها يمكن العفو عنها . ولكنك احسنت في انك اوقفتنا على حقيقة حالك . وان دعوتي لك ما تزال جارية كما كانت ، وانا لفي انتظارك يوم الاحد المقبل وتتشوق الى سماع رواية زواجك وانت طفل لعلنا نسرُّ ونضحك بعض الشيء ونسري عن انفسنا على حسابك . ولست في حاجة لان اؤكد لك ان صداقتي لم تمس من جراء هذا الحادث »

بهذا طهرت نفسي من سرطان الكذب والبهتان . وما ونيت منذ ذلك الحين ان اتكلم عن زواجي كلما سنحت فرصة للكلام فيهِ

قبل ان تنتهي سنتي الثانية في انجلترا ، بدأت علاقتي باخوين من الآخذين بمبدإ الثيوصوفية — theosophism — وكان كلاهما غير متزوج : وتكلما معي عن اسفار « الغيتا » — The Gita — وكانا في ذلك الوقت مكبين على قراءة ترجمة سير « أدوين ارنولد» لكتابنا المسمى « الاغنية السماوية» ودعياني لان اقرأ الاصل معهما . فشعرت بالخجل لاني لم اكن قد قرأت « الاغنية السماوية» لا في اللغة السنسكريتية ولا في اللغة الجوجراتية . فاضطررت لان اصارحهما باني لم اقرأ « الغيتا » ، ولكني اقرأه معهما بسرور ، وان معرفتي بالسنسكريتية ان كانت « لخة » ناقصة ، فقد امّلت ان افهم الاصل بحيث استطيع ان اعرف اين عجزت الترجمة عن التعبير عن المعنى . وبهذا بدأت اقرأ « الغيتا » معهما . ولقد اثّر فيَّ جانب من الفصل الثاني تأثيراً لا ينسى ، وعلى الاخص المقطوعة الآتية :

« اذا عكف الانسان على حاجات البدن ، فهنالك يبدأ الميل اليها ، ومن الميل تتولد الرغبة ومن الرغبة تتولد نيران الشهوة المفترسة . والشهوة تولد الطيش والتهور . وبذلك تخون الانسان

الذاكرة ، فيقضي على الاغراض النبيلة ، ويتقوض بناء العقل ، فيفنى الغرض والعقل والانسان»

ولقد ظهر لي ان الكتاب لايقدر بثمن . وهذه الفكرة التي كونتها في اسفار « الغيتا » ما تزال حتى اليوم تنمو وتتطور في نفسي ، حتى اني لاعتبرها اليوم اسمى كتاب يعرفنا الحق. ولقد امدني هذا الكتاب باكبر المساعدات في اشد ساعات محنتي حلكة وقرأت بعد ذلك كل الترجمات الانجليزية التي ظهرت لهذه الاسفار ، فرأيت ان ترجمة سير أدوين ارنولد احكمها وأصفاها . فقد حافظ على الاصل ، مع انهُ صقلها فكانت بعيدة عن روح الترجمة . وعلى الرغم من اني قرأت « الغيتا » مع هذين الصديقين ، فاني لن ادعي اني درستها اذ ذاك . ولكن بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ بدأت اصحب « الغيتا » اذ جعلتهُ كتابي اليومي

ارشداني بعد ذلك الى كتاب آخر بقلم سير « ادوين ارنولد » عنوانهُ « نور آسيا » . وكنت لا اعرف ان للسر « ارنولد » كتاباً آخر غير « الاغنية السماوية » . فقرأت ذلك الكتاب بلذة واكباب لم اجدها حتى في قراءة الغيتا . وما فتحت الكتاب حتى اختلبني فلم استطع ان القيهُ من يدي . وصحبتهما بعد ذلك الى مَحفَل « بلاڤاتسكي » وقدَّماني الى مدام « بلاڤاتسكي » ومسز « بزانت » . وكانت مسز بزانت قد انتمت الى الجمعية الثيوصوفية حديثاً ، فتتبعت بكل عناية حديث اعتناقها لهذا المذهب . ونصح لي الصديقان ان انتمي للجمعية ، ولكني رفضت بأدب قائلاً « إنَّ معرفتي بحقائق ديني غير تامة ، ولهذا لا أريد ان اتصل باي جماعة دينية » . واذكر اني قرأت بارشادهما كتاب مدام « بلاڤاتسكي » « مفتاح الثيوصوفية » . ولقد كان من اثر قراءتي لهذا الكتاب ما حملني على ان اقرأ كتباً اخرى عن الهندوكية ، خرجت منها بفكرة كاملة في تحامل المبشرين على الدين الهندوكي ، اذ يزعمون انهُ مدخول بالخرافات والأساطير

في ذلك الوقت قابلت نصرانياً مستقيم الفكر في « مانشستر » في فندق خاص بالنباتيين. فتكلمنا في الدين النصراني . واطلعتهُ على ما ثبت في ذهني من اعمال المبشرين في راجكوت. فتألم مما سمع وقال « انا من النباتيين ولا اشرب الخمر . وكثير من النصارى يأكلون اللحم ويعاقرون بنت الحان . ولكن كلا الأمرين غير مسموح بهِ في الاناجيل . ارجوك ان تقرأ « الكتاب المقدس » . فقبلت نصحهُ واعطاني نسخة . ويخيل اليَّ ، بقدر ما تسمح بذلك ذاكرتي ، انهُ كان يبيع الكتب المقدسة ، واني اشتريت منهُ نسخة تحتوي على خرائط وفهارس للكلمات وغير ذلك من وسائل المساعدة على مطالعة الكتاب . واخذت اطالعهُ ، ولكني عجزت عن ان اتم قراءة العهد القديم . قرأت سفر التكوين . اما الفصول التي تتلوه فقد بعثت بالنعاس الى جفوني فتثاقلت واخذني الاغفاء . غير اني حملت نفسي على متابعة القراءة لا استطيع ان اقول اني قرأت الكتاب ، فتصفحت الاسفار الاخرى بصعوبة ، وباقل

ما يمكن ان تتصور من اللذة او القدرة على الفهم . وكرهت ان اقرأ سفر العدد

اما العهد الجديد فقد اثر في نفسي تأثيراً مخالفاً كل المخالفة لهذا ، وعلى الأخص «موعظة الجبل » فانها وجدت طريقاً مباشراً الى قلبي . ولقد اخذت اوازن بينها وبين الغيتا ، وتخلقت بقول عيسى « لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ايضاً . ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء» . وكان تأثيره في نفسي بالغاً لا يقاوم . وزين لي عقلي الصغير أن أوحد بين الغيتا ونور آسيا وموعظة الجبل

وكان من أثر مطالعاتي هذه ان ولعت بقراءة سير اصحاب الاديان الاخرى. وأرشدني صديقي الى كتاب كارليل « الابطال وعبادة البطولة » وقرأت الفصل الذي عقده في « البطل في صورة نبي » وعرفت منهُ عن نبي الاسلام العظمة البالغة والشجاعة النادرة وعيشة التقشف والصلابة

وما عدا هذه المطالعات التي دارت حول الدين ، لم اقرأ شيئاً ، لان ميعاد الامتحان كان قد قرب وبذلت كل جهدي في الاكباب على الدرس . ولكن اتجه فكري الى ضرورة ان أقرأ عن الدين اكثر مما قرأت في كتب الدين وان ألمّ بكل الاديان العظمى

وكيف استطيع ان اعرف شيئاً عن الالحاد وانكار وجود الله بجانب هذا ؟ ان كل هندي يعرف اسم « برادلو » — Bradlaugh — والحاده . فقرأت في الالحاد كتاباً نسيت اسمه ، لانهُ لم يترك اي أثر في نفسي ، وكنت اذ ذاك قد اقتحمت مفازة الالحاد . وكانت مسز «بزانت» في ذلك الحين قد انتقلت من الالحاد الى الالوهية ، فقوّى هذا الحادث عندي الزهد في الالحاد ، بعد ان قرأت كتابها « كيف اصبحت ثيوصوفية » ؟

***

في ذلك الحين مات « برادلو » ودفن في مدفن « بروكوود » . ولقد شهدتُ الجنازة ، كما شهدها كل هندي مقيم في لندن . وكان فيها قليل من رجال الدين ليقوموا بآخر واجباتهم نحو الراحل . وعند عودتنا اضطررنا ان ننتظر في محطة السكة الحديدية مقدم القطار ، فتقدم احد زعماء الالحاد من احد رجال الدين وسأله : « أتعتقد يا سيدي في وجود الله » ؟ فاجابه الرجل « أفعل » مغضياً من صوته . فاجابهُ الملحد وعلى فمه ابتسامة الواثق من نفسه . « أتسلم ايضاً ان محيط كرة الارض ٢٤٫٠٠٠ ميل ؟ اتوسل اليك ان تعرفني ما هو حجم إلهك وأين هو ؟ »

« نعم . لو اننا عرفناه حقّاً ، إذن لعرفنا ان مثواه في قلبينا معاً »

— « لا تهزأ بي كما تهزأ بطفل » — قال الملحد هذه الكلمات وفي عينيه نظرة المنتصر النافر . ولكن رجل الدين احتفظ ازاء هذه النظرة بصمت مهيب

وكان لهذا الحديث أثر في نفسي زادني بغضاً في الالحاد وزهداً فيه

هبط انجلترا في ذلك الوقت هندي معروف هو « نارايان همشاندرا » وكنت سمعت عنهُ ككاتب. وكنا اول ما تلاقينا في منزل مس « مانتج » وهي من اعضاء الجمعية الهندية الوطنية. واعتدت أن ألزم الصمت التام كلما زرت بيتها فلا اتكلم الاّ اذا كُلّمت. فقدمتني الى « همشاندرا » ولم يكن يعرف الانجليزية. بل كان هندامه عجيباً. بنطلون غليظ صفيق. ومعطف كثير الثنايا متسخ رمادي اللون، مقصوص على الطريقة « الباريسية »، ثم انهُ كان بلا زيق وبلا رباط للرقبة. وعلى رأسهِ قلنسوة من صوف يتدلى منها زر كبير، وعلى صدره تترسل لحيه كثة طويلة. كان ضئيلاً قصيراً. وشابت وجهه المستدير ندوب الجدريّ، واستوى في وسط ذلك الوجه انف ليس بالدقيق ولا بالغليظ. ومثل هذا الشخص الغريب بملبسه هذا، كان مرشحاً لان يزحم جماعات لندن المعروفة بأناقتها

كنا نتقابل كل يوم. واتضح لي ان هنالك توافقاً كثيراً بين ما يجول في رأسينا من الافكار وما نعتزم من العمل. وكلانا كان نباتيّاً. وغالب ما كنا نتعاطى طعام الظهر معاً. وكنت في ذلك الوقت اعيش بسبعة عشر شلناً في الاسبوع واطهي طعامي بنفسي. وكنت اختلف الى حجره آونة بعد أخرى، كما كان يختلف هو الى حجرتي. وكنت اطهي على الطريقة الانكليزية، ولم يكن يلتذ الاّ بالطهي على الطريقة الهندية. كنت اصنع شوربا الجزر وكان يرثي لذوقي. وعثر مرة على قليل من العدس فطبخهُ وحضر بهِ الى سكني. فأكلت منهُ بشوق وشغف ومنذ ذلك اليوم كنا نتبادل ما نطهي. كنت اذهب اليهِ بالواني النادرة، وكان يحضر اليّ بالوانهِ

كان اسم الكردينال « مانتج » على كل لسان. وكان اعتصاب عمال احواض السفن قد قضي عليهِ باسرع ما تصور انسان بفضل مساعي « جون برنز » والكردينال « مانتج ». وحدّثت « نارايان همشاندرا » عن شكر « دزرائيلي » ومدحهِ بساطة الكردينال: فقال « اذن فلا بد لي من ان ارى ذلك الحكيم »

« انهُ رجل عظيم القدر، فكيف تتوقع ان تقابلهُ » . ؟

« ولماذا. اني اعرف كيف يكون ذلك. سأجعلك تكتب لهُ نيابة عني فتقول له اني مؤلف واني اريد ان اهنئهُ شخصيّاً بعملهِ الانساني، واني ساصحبك معي كمترجم لاني لا اعرف الانجليزية »

فكتبت خطاباً بهذا المعنى. وبعد يومين او ثلاثة وصلتنا بطاقة من الكردينال مانتج محدداً لنا موعداً. فذهبنا اليهِ معاً. اما انا فارتديت بزة الزيارات. وبقي « نارايان همشاندرا » كما هو بمعطفهِ المعروف وبنطلونه الذي وصفت. وحاولت ان اهزأ بهِ، ولكنهُ ضحك مني قائلاً:

« انتم معشر المتمدينين جبناء. ان العظماء لا يعنون بمظاهر الاشخاص. انما ينظرون في القلوب »

ودخلنا قصر الكردينال . وما إن اخذنا مجلسنا حتى دخل علينا « جنتلمان » نحيف طويل القامة وسلم علينا يداً بيد . . وهنا بدأ « نارايان همشاندرا » مقولته :

«لا اريد ان اضيع عليك وقتك .فقد سمعت عنك كثيراً وشعرت واجباً عليّ ان احضر اليك لاشكرك على ما فعلت من خير للمضربين . ومن عادتي ان ازور حكماء الدين . ولهذا اضطررت ان ازعجك بزيارتي » وكان يتكلم باللغة الجوجراتية ، وانا أترجم الى الانكليزية

فرد عليه الكردينال قائلاً : « اني لمسرور بزيارتك . وآمل ان تكون اقامتك في لندن مواتية وان تتمكن من الاتصال بالقوم هنا . وليباركك الله » ولما اتم هذه الكلمات وقف وودعنا

زارني « نارايان همشاندرا » مرة في قميص ودوقيه [1] كما نلبس في الهند . ولم تكد ربة البيت تفتح الباب اذ قرعهُ حتى ارتدت اليّ مفزوعة :— «رجل به مس يريد ان يراك » —

فسارعت الى الباب وكم كانت دهشتي عند ما رأيت همشاندرا على هذه الصورة وفي هذا الزي . فأخِذْتُ . غير ان وجهه لم ينم على شيء ، اللهم الاّ على تلك الابتسامة الهادئة التي عوّدناها منهُ

« ولكن الم يهزأ بك الاطفال في الطريق » ?

«نعم فعلوا . فلما اهملتهم سكتوا »

وذهب نارايان همشاندرا الى باريس بعد ان اقام في لندن بضعة اشهر . وبدأ يتعلم الفرنسية وحاول ان يترجم منها كتباً . وكنت اعرف من الفرنسوية قدراً مكنني من مراجعة ترجمتهِ ، فأعطانيها لاطالعها. وسرعان ما استبان لي انها لم تكن ترجمة بل مادة جديدة

وأخيراً صمم على ان يزور اميركا . وبكل صعوبة استطاع ان يحصل على تذكرة سفر في الدرجة الرابعة . ولما كان في اميركا حوكم لانهُ قليل الاحتشام في ملبسهِ ، لانهُ خرج يوماً في قميص ودوقيه . واذكر انهُ بُرّيء من هذه التهمة

كان من السهل عليّ ان ازاول مهنة المحاماة في انكلترا . ولكن المرانة كانت غير ميسورة المنال . كنت قد درست القانون كمادة اساسية ،ولكني لم ادرس كيف اتابع الاجراء القانوني. درست مبادىء القانون ، غير اني لم ادرس كيف اطبقها في مزاولة مهنتي

كانت الشكوك تمزق احشائي تمزيقاً خلال درس القانون : فأطلعت بعض اصدقائي على ما ارى من هموم . واقترح احدهم ان ألجأ الى « دابابابي نايوروجي » في طلب العون والنصيحة. وكنت اشعر بأنهُ ليس من حقي في شيء ان ازعج مثل هذا الرجل العظيم واشغله بنفسي ،

(١) عبارة عن قطعة طويلة من قماش القطن ، تطوى حول الوسط وتغطي الجزء الاسفل من الجسم

على الرغم من اني كنت احمل اليهِ كتاب توصية من الهند . وما فاتني يوماً أن احضر خطاباً ازمع القاءه ، بل كنت اذهب الى المكان واصغى اليه من ركن في الحجرة كنت آوي اليهِ ، ثم انصرف بعد ان اشبع سمعي وبصري . ومن اجل ان يكون اكثر احتكاكاً بالطلبة اسس جمعية . واعتدت ان احضر اجتماعاته وكنت اسر كل السرور بما ارى من اشفاقه على الطلبة ومن احترامهم له . وعلى مدى الزمان استجمعت شجاعتي وقدمت له كتاب التوصية. فابتدرني بقوله « يمكنك ان تحضر اليَّ لتتلقى نصائحي في اي وقت تشاء» ولكني لم احاول ان انتفع قط من وعده هذا بشيء

ولقد نسيت الآن ان كان صديقي هذا بعينه هو الذي قدمني الى مستر « فردريك بنكت» — Mr-Frederick Pincutt — كان من حزب المحافظين، ولكن عطفه على الطلبة الهنود كان صافياً ومن غير شائبة . ولقد سأله كثير من الطلبة النصح والمساعدة ، وسألته بدوري ان احظى بموعد ، فلم يبخل بهِ . ولن انس ما اعيش هذه المحاورة . فلقد رحب بي كصديق وهزأ بتشاؤمي قائلاً : « كن على يقين من انهُ ليس بشيء غير عاديٍ ان يصبح الانسان محامياً ذا مرانة وحصافة . فالامانة والعمل كافيان لان يجعلاه يعيش . وليست كل القضايا مرتبكة الاجزاء كما تتوهم . ولكن عرفني ما هي معلوماتك العامة ومطالعاتك »

فلما اطلعته على مقدار معرفتي ، وهي ضئيلة ، رأيت انهُ امتعض . ولكن امتعاضه لم يستقم اكثر من دقيقة وسرعان ما اشرق وجهه بابتسامة مرضية وقال :

« لقد فهمت السر في اضطرابك . ان معلوماتك العامة ضعيفة . انك قليل الخبرة بالدنيا. والدليل انك لم تقرأ حتى تاريخ بلادك . ان المحامي يجب ان يدرس الطبيعة البشرية ، وواجب على كل هندي ان يُلِمَّ بتاريخ الهند . وليس لهذا من علاقة بمزاولة مهنة المحاماة . ولكن ينبغي لك ان تعرف هذا . واتضح لي انك لم تقرأ شيئاً مما كتب « كاي » او « ملسون » عن تاريخ العصيان في الهند . الجأ الى هذا في الحال ثم اقرأ كتاباً او كتابين في الطبيعة البشرية »

شعرت بانى مدين باكبر دين لذلك الصديق الذي أمدني بهذه المساعدة القيمة . على ان نصيحة « بنكت » ان كانت لم تفدني فائدة مباشرة ، فاني استعضت بصداقتهِ عما خيل اليَّ ان انال من فائدة بنصحهِ . وان وجهه الغُرَّ البسوم ما يزال حياً في مخيلتي ، وما زلت اعتقد ان الكفاية العليا ليست ضرورية لكي يكون الانسان محامياً ناجحاً في الحياة . فالامانة والاكباب على العمل يكفيان . ومذ كان لي في الحياة نصيب من هاتين الصفتين شعرت باني حققت قوله

فلما اجتزت الاختبار النهائي في القانون ، انقضت مدة اقامتي في انجلترا

اسماعيل مظهر

الجريمة والعبقرية

اذا درسنا المجرمين والعبقريين والنابغين من رجال العلم والتأليف والفن ، الذي تمتلىء باسمائهم سجلات الخلود العالمية ، من الناحيتين العقلية والجسمانية ، وجدنا ان العبقري لا يختلف كثيراً عن المجرم الذي يلقى في غياهب السجن ويحبس عن المجتمع درءاً لشروره وآثامه . فهل هناك علاقة بين الجريمة والعبقرية ؟ وهل العبقري يميل لاقتراف الجرائم واجتراح المساوي اكثر من غيره ؟

لنأت اولاً على تعريف الجريمة ، وماذا نريد بها

اختلف علماء الاجرام (Criminologist) في تعريف الجريمة ، فقال بعضهم : « انها عمل مخالف لانظمة المجتمع » وعرفها آخرون بقولهم : « ان يعيش الانسان حياة مخالفاً نظام السلوك والآداب المعترف به من بقية افراد المجتمع » وقال غيرهم : « ان الجريمة اي عمل سواء أكان اهمالاً او ارتكاباً يجازي به القانون لفائدة المجتمع » او قول بعضهم : « شذوذ عن احكام الشريعة والآداب » . فنرى ان ثمة اختلاف ظاهر في التعاريف المذكورة ، وليس بالامر اليسير تعريف الجريمة تعريفاً دقيقاً . واذاً فما كان يعتبر جريمة في السابق لا يعتبر كذلك الآن ، وعلى الضد من ذلك فقد نحسب عملاً ما جريمة الآن ولكنهُ لم يكن في نظر الاقدمين كذلك . فان الشعوذة كان يعتبر محترفها مجرماً ولكنها الآن ليست كذلك . والرقيق الذي كان في الماضي عملاً يرتزق منه اناس كثيرون اصبح الآن يعد جريمة اجتماعية لا تغتفر ويطارد صاحبها . وقد يُعَدُّ نوع من الاعمال جرماً عند امة ولكن عند غيرها قد يحسب عملاً شريفاً

يقول لومبروزو (Lombroso) : « ان المجرم نوع خاص ، يقف وسطاً بين العته والوحشية » .
اما « ونزلاف » العالم النفسي فيقول في كتابه « الانسان العقلي »[1] ما يلي : « ان المجرم يمثل نوعاً آخر من النمو المتوقف (اي العاطل) . وليس المجرم شخصاً بسيطاً ، ومجرماً عرضيًّا ، وانما هو انسان لا يفرّق بين واجباته وحقوق الآخرين . وتنقصه حاسة الاخلاق واما قوة ادراكه فضعيفة بوجهٍ عام ، وهو قليل الشعور بحاسة الالم بوجهٍ خاص ، ولذا كان قاسياً عديم الشفقة . ومن صفات المجرم ايضاً الكسل ، وهو معجب بنفسه ، لا يندم على ما يقترف من آثام واجرام ، شديد الولع بالمنبهات ، والقمار ، والفسق ، والدعارة ، مهمل للديانة ،

---

(١) ص (٢٦٠) "The Mental Man" by G. G. Wenzlaff

كاره للانسانية ،وعلاوة على ذلك فهو خبيث ،قليل الذكاء ، وميزاته الفراسية (physiognomie) واضحة ظاهرة كميزاته العقلية »

هذا ما يقوله وزلاف عن تعريفه للمجرم . فهو يصفه باوصاف نراها متفشية بصورة عامة بين مختلف طبقات الناس . وقد خالفه لومبروزو العالم الايطالي المشهور ، الذي ظل علماء الاجرام مدى جيل يعتبرون كتبه من اهم ما الف من نوعها في العلوم النفسية ، ومن جملتها كتاباه «الرجل العبقري» و «الرجل المجرم» .فان لومبروزو يغرق اغراقاً في بحثه واستدلاله على تبيّن الاجرام من القسمات والجوارح ، وما يميز ذلك من خواص وحقائق . ويعتقد لومبروزو: «ان للمجرمين شذوذاً في القوى الجسمانية والعصبية والعقلية اكثر من شذوذ غير المجرمين وان هذا الشذوذ سببهُ اما انحطاط وتقهقر (في القوى العقلية) ، واما رجوع او ردَّة لمرض وراثي في العائلة »[١] . وقد اشتهر قبل لومبروزو بمدة طويلة في البحث في الاجرام العالم الطبيعي النمساوي (فرنز جوزيف غال) Franz Joseph Gall وقد كان بحاثة مشهوراً في العلوم المتعلقة بدراسة الجمجمة والدماغ وتلافيفه ، فأخذ بالنظرية الآتية وهي : « ان الميول الاجرامية غريزية في الغالب ، ويمكن ان تُكتشف وتظهر بدراسة تركيب الجمجمة »[٢]

ثم ان الدكتور غورنغ Dr. Goring يذكر في كتابه « المجرم الانكليزي » ١٩١٣ ، بعد بحث واستقصاء عظيمين ان من النتائج التي توصل اليها النتيجة الآتية :— « لا يوجد هناك ما يصح ان يطلق عليه نوع المجرم الطبيعي » .ان هذه النتيجة التي توصل اليها العالم المذكور قد وافقه عليها جميع علماء الاجرام ، وقد زاد على ذلك فقال انه لا يوجد نوع يطلق عليه «المجرم العقلي» .وقد ظهر الآن ان الجريمة مظهر متشعب من مظاهر الحياة الاجتماعية للطباع والعادات الخطرة الموبوءة ، كالفقر المدقع ، وانتشار الاوبئة والامراض ، واختلال القوى العقلية»[٣]

لقد عرفنا الجريمة والمجرم ، فلنأت الآن على تعريف العبقرية ، فما هي ،وما علاقتها بالجريمة؟

العبقرية موهبة ، وشذوذ في النمو العقلي ، تنحو بصاحبها للتفوق على اقرانهِ في عمل مشترك ، واظهار مقدرة فائقة في ناحية من نواحي الحياة ، يقصر بقية الناس عن اللحاق بهِ ومجاراته فيها ، فاذا قلنا ان فلاناً شاعر عبقري مثلاً فاننا نقصد بذلك أنهُ نابغ في فنهِ (الشعر) متفوق بهِ على زملائهِ في هذا الفن ، من ذلك شكسبير ودانتي وغيرهما ، وانهُ (اتى بما لم تستطعهُ الاوائل) على حد قول المعري . . .

والعبقرية تنشأ على الغالب ، من خلل في خلايا الدماغ وتوتر في الاعصاب ، وقد تحدث

(١) دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشرة . مجلد ١٤ . ص ٣٤٥
(٢) « « « « « « . ٦ . ص ٧٢٠
(٣) George W. Kirchwey in the Encyclopaedia Britannica vol 6 p. 720-21

بسبب البيئة والوراثة ، واعراض كثيرة تتوالى على الانسان في مختلف ادوار حياته . وللامراض ايضاً أثر قويّ في العبقرية ، وخصوصاً ما كان منها مزمناً كالسل وغيره . وكثيراً ما قيل ان العبقرية تنشأ من الامراض . ولقد قضى كثير من العبقريين ، كالشاعر الانكليزي كيتس والروائي الروسي تشيخوف والكاتب الانكليزي ستفنسون ضحية هذا الداء الوبيل (السل)

وقد جاء في محاضرة للدكتور بيرسون (١) Dr. A. Vere Pearson الطبيب في مستشفى مندسلي ما يلي : —

« كثيراً ما نسب العلماء البواعث المثيرة للعبقرية الى مرض السل . ولكنني احسب ان هؤلاء قد افرطوا جدًّا فيما نسبوه اليهِ . ومما لا ريب فيهِ انهُ يحدث هيجان واضطراب في بعض اعراض مرض السل الرئوي ، وثمة شعور بقصر الحياة ، ولكن هذا الشعور لا يسلم بهِ العقل الواعي . ان الشعور بقصر الحياة والهيجان المضطرب الناشئين عن هذا المرض المزمن ، وخصوصاً في ادواره الشديدة ، قد يكونان كباعث قوي ومنبه للانتاج والابتكار ، ولا سيما عند المؤلفين ، الذين يتمكنون من دون كبير عناء جسماني ، من اظهار آثارهم ونبوغهم »

يتلخص معنا من هذا ان المرض ليس شرطاً من شروط العبقرية ، وانما هو عارض طارىء لا يلبث ان يزول ، اما العبقرية فاذا وُجدَتْ ، فهي موجودة اصلاً ، ولكن المرض قد يزيدها تأججاً واضطراماً

هذا وبعد ان اتينا على تعريف الجريمة والعبقرية فلنبحث الآن في العلاقة بينهما ، وهل يكون المجرم عبقريًّا ، والعبقري مجرماً ؟ ؟ اننا نرى العبقري غريباً في افكاره وأطوار حياتهِ ، متصفاً بصفات شاذة ، اكثر ما يتصف بها المجانين والمجرمون . وثمة تقارب ظاهر بين المجرم والمجنون والعبقري ، والصفات والعادات التي يتصف بها هؤلاءِ الثلاثة، لا نقول انها واحدة ، ولكنها قريبة مشتركة ، ويمكننا ان نعد هؤلاءِ ثواراً على الهيئة الاجتماعية وهم ابعد ما يكونون عنها وعن الانسان العادي . فالعبقري تتمثل فيهِ الروح الاجرامية الثائرة بمظاهرها المختلفة ، ويتأجج في نفسهِ البغض نحو المجتمع الذي لا ينفك يثيره ويهيجهُ وهو في خصام دائم معهُ ، تتنازع صدره الاطماع والمنافع، وتثيره الانظمة والقوانين فيكاد يحطمها، ويسعى جهده لتبديلها وتغيير معالمها . فأوجه الشبه بين العبقري والمجرم انهما مشتركان في صفات عدة ، كالانفعال الشديد الهدَّام ، والثورة المضطرمة والبغض المتأجج ، والحنق الدائم ، والخيال الوثَّاب ، وغير ذلك . اما الشواهد الدالة على تقارب ذهني المجرم والعبقري فكثيرة في التاريخ

(١) راجع عدد آب (اغسطس) سنة ١٩٣٢ من مجلة "Journal of State Magazine"

يقول هنري رودس في كتابه « الجرم والعبقري »[1] ما يأتي : —

« إنَّ العبقرية اكبر اعداء المجتمع . والمجتمع يعمل لهدم العبقري وهلاكه اولاً ثم يتخذ آراءه الاجرامية ويتبعها . فالعبقري يضر المجتمع ويهدمهُ احياناً كثيرة . وقد جعل نابوليون من اوربا مذبحاً ومجزرةً . اما لنين فقد ترك روسيا جائعة دامية . وقد قيل ان ڤولتير يحمل تبعة الثورة الفرنسية وهو مسببها ، فقد قوَّض بقلمهِ الحاد ، دعائم النظام في فرنسا ، ومهَّد بذلك السبيل للثورة . ولكن من الخطأ ان نعتبر العبقرية مضرة ، او نافعة ، فقد تكون هذه او تلك . . . »

فالعبقرية نتيجة حالة غير طبيعية في العقل البشري ، وهي بثورانها ضد المجتمع تدور في دائرة ، وكثيراً ما ترى لها مخرجاً في الرجل الجرم . ومن امثلة الطبيعة الثائرة « اوغست سترينبرغ » الكاتب القصصي السويدي . فقد تجمعت فيهِ صفات كثيرة ومواهب عديدة ، فكان مؤلفاً مسرحيًّا وكاتباً روائيًّا ، وعالماً نباتيًّا ، وكيمائيًّا ، ومن العجيب انهُ تعلم اللغة الصينية وهو لم يزر قط بلاد الصين ! وقد كان يحتقر ما تواضع عليهِ المجتمع من مقاييس السلوك والآداب ، ويكره ما ائتلف عليهِ الناس من قواعد الاخلاق وأنظمتها . وقد أُتهم بالتجديف ، وكتبه مشحونة بالآراءِ الثورية ضد المجتمع ، حتى انهُ في بدءِ حياته ظهرت فيهِ بوادر عديدة للأجرام . وكان ريشيليو غير شريف في الاساليب والطرق التي سلكها لجمع المال . وبدأت حياته بالتزوير ولما اعطيت له ورقة عماده الكنائسية بواسطة وثائق مزورة ، وضع فيها اسمهُ في سجل العماد بدلاً من اسم اخيهِ . ويقول رودس المذكور آنفاً : « ان جرائم ريشيليو سبب قوي في ظهور عبقريته ، وان ريشيليو الجرم هو الذي كان عظيماً . واما بقية مواهبه فكانت عادية ، بل حقيرة »

اما (ادجر ألن پو) الشاعر الاميركي فكان (عبقريًّا — مجرماً) بمعنى الكلمة ، فكان دائم النزاع والنفور من المجتمع ، وقصصهُ اجرامية حافلة بحوادث المجرمين ووقائعهم . ويصف (پو) الجرم وصفاً لا يصفه بهِ غير الجرم . واما اسكار وايلد فحاكمتهُ وسجنه تظهره للملأ مجرماً كبقية المجرمين ، لا يختلف عنهم في شيءٍ . ولعلَّ من قرأ كتابه « من الاعماق » De Profundis الذي ترجم للغة العربية ، يعرف ماذا قاسى وكيف عاش وايلد في السجن مع زملائه العاديين !

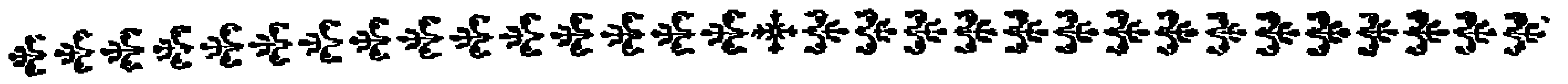
فبين العبقرية والجريمة اذاً ، اتصال وثيق ، ولكن ليس شرطاً ان يكون العبقري مجرماً او ان يكون الجرم عبقريًّا .. وانما هي فلتات الطبيعة وشذوذها ، تجعل من الانسان تارةً عبقريًّا يحلق في سماء الخلود ، واخرى مجرماً يعيش وراء القضبان في ظلام السجون ! ...

حلب : سورية فؤاد عينتابي

(١) "Genius & Criminal : a Stuty in Rebellion" by Henry T. F. Rhodes



شيخوخة جوته
١٨٠٥ – ١٨٣٢
للدكتور علي مظهر



لحق الاسى والجزع بجوته عندما فقد نده في الشعر والادب وزعامتهما ونعني بذلك شلر الشاعر المفكر الذي قضى وهو في ربيع الحياة وتخليداً لذكراه وقياماً بالواجب نحو صديقه الراحل نظم له قصيدة سماها (النشيد الختامي للاجراس) وعاش جوته بعد شلر سبعاً وعشرين سنة كان فيها مثال الجد والنشاط في جميع ابواب العلوم والآداب فكنت تراه احياناً يدرس البصريات ونظريات الالوان وعلم تركيب عظام الهيكل الفقري وعلم طبقات الارض وعلم الافلاك والكواكب والتغيرات التي تطرأ على النبات وغير ذلك من الامور النافعة المفيدة . اما الشعر فكان حظه من قرضه في اثنائها اقل مما سبق

وكان اول مؤلفاته الممتعة روايته القصصية التي اسماها Die Wahlverwandschaften (القربى المختارة) التي اظهرها للناس سنة ١٨٠٩ . وقد اراد ان يبين في تلك الرواية ان سعادة الحياة تتبدد بمجرد انفصام عرى الآداب الفاضلة . وقد خطر له هذا الخاطر عندما فكر في مسألة الزواج الذي قال عنهُ انهُ هو مبدأ الحضارة وذروتها وانهُ اقدس عقد يعقد لا انفصام له اذ ان عروتهُ وثقى . وان الزواج يكون مقروناً بالسعادة ويكون زواجاً حقيقيّاً اذا ما امتزج فيهِ الحب الطبيعي غير المتكلف باحترام الآداب ومراعاتها . ولنذكر ملخصاً لتلك القصة :

عاش ادوارد وشارلوتي عيشة زوجية سعيدة ناعمي البال كما كان يظهر عليهما وبقيت لهما تلك السعادة وذاك الهناء حتى ان دعت الزوج هوپمان واوتيلي في ضيعة لها بالريف وبمجرد ما حدث ذلك الاتصال بدأت (المعركة) وكانت شارلوتي امرأة حازمة خيرة امكنها ان تتفادى بكل ما اوتيت من قوة ما كان القلب بهِ يتحدث والنفس اليهِ تميل وان تقوم بواجبها كزوجة طيعة بارة وكذلك كان هوپمان فقد كان رجلاً صلداً يعرف ان يضبط نفسه وان يراعي قانون الآداب الفاضلة وان يتغلب على حبه فيكبح جماحه . اما اوتيلي فكانت طفلة بطبيعتها لا تقدر ان تحكم عواطفها وميولها ولا ان تقاومها وكان ادوارد زير نساء من غواياته يعيش ويحيا وكان ارضاء ملذاته اكثر الاشياء التي تهمهُ وتشغله في هذا الوجود بل قل انهُ كان يعتبر غايتهُ من هذا العالم ووجوده فيهِ انما كان للافساد لا للاصلاح لهذا كان يعيش ولهذا وجد ولم يكن له من عمل آخر غير البحث والتنقيب عن الغواية والملذات فلم يتمكن هو ولا تمكنت هي من ضبط عواطفهما وتبعا غواية الشيطان وضلالته فعكر صفو تلك الحياة التي كانت من

قبل وكفرا بحتفهما عن آثامهما وانهما كهما لحرمة الآداب

ولما انتهى جوته من كتابة تلك القصة الروائية اراد ان يكتب قصته هو وان يصور للناس حياته وان يخط لهم تاريخها بنفسهِ فأخرج للناس كتاباً نفيساً عنوانه (من حياتي — شعر وحقيقة) وقد اظهر من هذا المؤلف سنة ١٨١١ الجزء الاول ثم ضم اليهِ جزءين آخرين بعدئذ فاتى فيهما على وصف حياتهِ كما كان القدماء يكتبون وكيف كان يعيش وجاء بذكر هفواتهِ ومساعيهِ ومحاولاتهِ وكيف تكوّنت عنده الشاعرية وقد اجاد في وصف ذلك ايما اجادة ولكن مما يؤسف له انهُ وصف حياتهُ الى السادسة والعشرين من عمره والى ان اقام في ڤيمار فقط وتجد شيئاً من التتمة في اوصاف رحلتهِ في ايطاليا ورحلتهِ الثالثة الى بلاد سويسرا ووصفهِ لحملة في فرنسا وحصار ماينز وفي كراساتهِ اليومية والسنوية

ولما ان كانت حروب الاستقلال والحرية المعروفة عند الالمان ودع جوته تلك الحياة الثائرة العاصفة وولّى وجهه شطر الشرق فبدأ يدرس اللغة العربية والفارسية واخذ يترجم عن هذه اللغات بعض اشعارها احياناً او ينظم من عنده ويلبس قريضه ثياباً شرقية وقد جمع تلك الاشعار بعدئذ في سفر اسماه : ديوان الشرق والغرب (Der westoestliche Diwan) وظهرت تلك المجموعة الشعرية سنة ١٨١٩ اما زوليخا (Suleika) التي يذكرها في ديوانه هذا فهي السيدة ماريانه فون ڤيليمير Mariane v. Willmer واصلها من فرنكفورت (ولدت سنة ١٧٨٤ وتوفيت سنة ١٨٦٠) . ويؤخذ مما ذكره عنها في بعض قصائده ما كانت عليهِ تلك السيدة من سجايا فاضلة ونبل وشرف . وقد بدأ جوته صحبتهُ لها سنة ١٨١٥ . ومع ان الشاعر لم يشترك في حركات الالمان الوطنية حينئذ ولكنهُ حيّى تحرير المانيا من نير الفرنسيين بروايتهِ التمثيلية (يقظة ﭘيميندس Des Epimenides Erwachen) التي مثلت في برلين يوم ٣٠ مارس سنة ١٨١٥

وكانت رغبة الشاعر الشيخ او شيخ الشعراء ان يتم مؤلفيْن كان قد بدأ بهما واشتغل بهما طويلاً فاظهر في سنة ١٨٢١ (سني تجوال فلهلم مايستر) وهو عبارة عن سلسلة من القصص عالج فيها تربية الانسان الخلقية الدينية وفيها آراء في التربية واجتماع الطبقات الوسطى وحياة رجال الادارة والسياسة وغيرها من القصص والنوادر

ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره (١٨٣١) اتم جوته رواية (فاوست) التي اشتغل في اعدادها ستين عاماً . وكان اول ما بدأ كتابتهُ فيها لما عاد من ليبتزج الى منزل والديهِ في فرنكفورت وكان يشغل نفسهُ بدراسة الكيمياء اثناء نقاهته ثم عثر على كتاب شعبي قديم للدكتور فاوست فأثرت الافكار التي وجدها فيهِ تأثيراً كبيراً وما زالت تلك الامور وغيرها تملك عليهِ نفسهُ ومشاعره حتى بدأ في كتابتها سنة ١٧٧٤

ثم اخذ جوته يزيد في روايتهِ كل حين وصار يزيد في مجموعها ويضيف الى مناظرها مناظر

جديدة ويبدّل ويغيرفتراه يكتب بعض المناظر في اثناء سياحتهِ الاولى في بلاد سويسرا وكذلك لما كان في ايطاليا واشتغل قليلاً بها لما كان في روما سنة ١٧٨٨ وما زال يكتب فيها كلما خطرت له اشياء جديدة حتى تم الجزء الاول وظهر سنة ١٨٠٨ اما الجزء الثاني فقد ابتدأ في كتابته وهو في سن الشيخوخة مع انهُ اشتغل بجزء صغير من قبل ذلك وترى جوته سنة ١٨٠٠ وهو يتبادل الرأي مع نده ورصيفه شلر لوضع خطة للجزء الثاني من (فاوست) وقد قرأ اوله على شلر في سبتمبر سنة ١٨٠٠ ولبث سنين لا يعمل فيهِ ثم عاد يعمل فيهِ حتى ظهر سنة ١٨٣٢ عقب وفاة الشاعر الكبير . وترى من هذا ان هذا العمل الكبير شغل حياة الشاعر كلها تقريباً او بمعنى آخر انه شغل نفسهُ طيلة حياتهِ الشعرية بهذا الاثر النفيس الذي تجد فيهِ عناصرِ من كل درجات النشوء المختلفة التي مرَّ بها جوته كما انهُ يمكنك دراسة حياة الشاعر العقلية برمتها في طيات الخرافة القديمة . وبينما تراه يصف فيها اموراً حدثت لهُ اثناء حياته الطويلة اذ تراهُ يجعل من الاشياء الجامدة او الامور الشخصية اموراً واشياء عامة للانسانية ولذا فانك لست بمستعرض صورة من صور عصره ولكن صورة من صور الدنيا والانسانية بأسرها . وترى فيها مناظر شتى منها ما هو محبوب ولطيف ورقيق واخرى كلها الشياطين والفظاعة والبشاعة ويريك صوراً شتى من اعمال البشر واوصاف الناس وافكارهم

وأول ماعني بهِ ما يثور في النفس من حروب عنيفة كالحرب التي تنشب بين العقيدة والعلم وبين طبيعة الملاذ البشرية وطبيعة العقل والحكمة . وقد افتتح جوته الاقصوصة بذلك المطلع على طريقة اهالي القرون الوسطى وما كانوا يتخيلونهُ من اسرار ومعجزات . فتراهُ يرجع الى كتاب ايوب في ذلك اذ يظهر الشيطان امام الله فيسألهُ الله عن ايوب فيجيبهُ الشيطان انهُ يراهن الله على ان ايوب قد عصاه لما حلَّ بهِ من فاقة وبؤس . كذلكم فعل جوته اذ يظهر الشيطان امام الله فيسأله عن (فاوست) وهل يعرفه فيسأل ميفيستوفوليس الشيطانُ اللهَ الرحمنَ الرحيمَ عما يرغب ان يراهن بهِ اذا ما جعله يضل السبيل وهنا سار جوته على منوال ما جاء بالتوراة اذ سمح الله للشيطان بأن يسعى لضلال ايوب . كذلك قال الله للشيطان ان يسعى لتضليل فاوست فقال الشيطان ما من شيء عسير عليه وانه سوف يضله سواء السبيل

وبعدئذ ترى فوست وهو رجل يعمل في غرفته منكبّاً على عمله يبحث وينقب ويدرس ولكنه لم يكن يقنع في نفسه بما ناله من دراسة وعلم كما كان يأمل حتى السحر الذي عني بهِ ووقف له وقته ونفسه لم يصل الى اصل الوجود ومنشأه وكاد يأسه من ذلك يبلغ بهِ الى الانتحار بأن يشرب ما كان بكأس السموم ليريح نفسه من قيود الجسم التي تعوقه من التغلغل في باطن الطبيعة وتحول بينه وبين حقيقة الاشياء . وبينا هو يرفع الكأس السامة ليشرب منها اذ باجراس البيعة تقرع واغنية عيد الفصح تملأ الفضاء . فأعادت تلك الانغام ذكرى طفولته العذبة وذكرى

ايامه الاولى التي قضاها وهو طفل صغير فرجع عن عزمه ثم كاد يتغلب عليهِ اليأس من جديد واخذ يزمجر واصبح في قبضة الشيطان

وسار فاوست مع تلميذه وامين سره (Famulus) المدعو فاجنر يروحان عن النفس واذا بالشيطان الشرير قد اتخذ هيئة كلب يبصبص بذنبه وينظر الى فاوست نظرة كلها ملق فعطف عليهِ واخذه معهُ الى منزله وهناك عرف الحقيقة فاخذ يقرأ عليهِ آيات سحره وتعاويذه و (تعازيمه) فلم يؤثر كل ذلك فيهِ ثم انقلب الحيوان واصبح في هيئة تلميذ على اهبة السفر ولما سأله فوست عن حاله اجاب بانهُ (الروح الذي ينفي — اي يجيب بالنفي — دائماً) وقال لهُ انه سوف يعلم حقيقته بعدئذٍ حين يسعى لمزج الحسن والجميل والحقيقة والطهارة بالقاذورات ظاهره حسن وكله لباقة ومهارة ونبل وداخله حب الذات واللؤم والسفالة. ثم انهُ وعد فاوست بالسعادة وراحة الضمير في هذا العالم اذا ما اسلم اليهِ نفسهُ ويظل العهد قائماً بينهما حتى يحصل فاوست على طمأنينته وراحة ضميره . وتم الاتفاق بينهما فاراد ميفستوفوليس ان يقود فاوست ويطلعهُ على ما بهذه الدنيا الواسعة الارجاء من مباهج وعظمة ومسرات . ثم اخذ الشيطان فاوست وطاف بهِ على عالم الملذات الحية من اماكن لهو ومتاع واكل وشراب مما لذ وطاب ولم يؤثر كل ذلك في الدكتور وعندها اطلعهُ الشيطان على مرآة مسحورة فرأى بها اجمل صور رآها في حياته لامرأة وناوله شراباً ساحراً حرك فيهِ حب الملاذ والشهوات. وسار في المدينة فرأى (جريتشن Grétchen) احدى النساء الجميلات وهي التي عنى جوته بوصفها فتحركت الطماعةُ وغلبت عليهِ شهواته وطلب من الشيطان المساعدة والعون ومال الرجل الى البنت لما رأى فيها من طهارة وعفاف واحبها حباً جماً . وقارب فاوست ان يحقق آماله وان يظفر بالبنت زوجاً له وهذا ما كان اليهِ يصبو الاَّ ان الشيطان قد تغلب ونجح في تأثيره فقد اظهر لهُ صورة مشوهة من نفس جريتشن . ولشدة تعلقها بفاوست ضلت عن طريقها الى العفاف بحسن نيتها وعندها بدأ الشيطان يجد وينحدر بها في هاوية الشقاء والبؤس وماتت امها لانها شربت شراباً مسموماً كان فاوست قد نصح البنت بتعاطيه ثم مات اخوها قالتين من يد فاوست وكان يحرس منزلها ليلاً واخذ يلعن اخته. وجعل الشيطان يضل فاوست ويجعله يسفك الدماء لكيلا يفلت من يده ويظل تابعاً له . وما زال ذلك الشيطان اللعين يمس الاثنين فيتخبطان ويقعان في حبائله ومكائده . وترى الآنسة قد حملت وقتلت طفلها واستولى عليها الجنون وزجت في اعماق السجون فذبل عودها وهزل جسمها ووقفت بين يدي العدالة لتكفر بالموت عن سيئاتها . وعندها اشتد غضب فاوست على الشيطان اذ انهُ اخفى عنهُ كل ذلك واراد التملص منهُ والخلاص ولات حين مناص فقد استولى عليهِ اليأس وجعله يتمسك بهِ لكي يساعده على تخليص جريتشن من السجن والقيود . وتمكن فاوست من اقتحام السجن ليخلص محبوبته المسكينة ولكنها

راجعت ولم تأمن على نفسها . وقدمت للمحكمة الجنائية العليا فرأى رئيس القضاة ان يعفو عنها بعد ان توسلت هي اليهِ وظل فاوست في رعاية الشيطان ورهين ارشاداته .والى هنا ينتهي القسم الاول من فوست وفيهِ ترى ان فاوست قد طاف بكل ناحية من نواحي العلم والعرفان ولكنهُ لم يشف غليله وانهُ ذاق كل انواع الملذات والمسرات ولكنهُ لم يرضِ ضميره وظل اكثر التصاقاً بالشيطان من ذي قبل .وفي القسم الاول من تلك المأساة ترى العقدة تعقدو في القسم الثاني منها ترى حلها

فاذا ما جئنا الى القسم الثاني رأينا فاوست في رعاية الشيطان في بلاط احد القياصرة الذين ساء ملكهم وفسد نظام امورهم قد تحكمت بملكه القوة وعم الظلم والجبروت وارتفع العدل وندر في السوق العثور عليهِ واكل الناس الاموال بينهم بالباطل وكثرت الرشوة واصبحت الخزائن اخوى من جيب الموظف آخر الشهر وازدادت ديون الدولة . وعندئذٍ تقدم الشيطان في زمن العسر والحاجة وافهم الناس انهُ رجل الدنيا وواحدها وانهُ يعرف امثل الطرق للخروج بالدولة من هذا المأزق الحرج وذلك باختراعه للعملة الورقية (بنك نوت) واخذ فاوست يضارب في المسائل المالية فاحبهُ البلاط والناس ومالوا اليهِ ثم انعكست معهُ الآية وساء عمله هذا فعدل عنهُ الى سواه واخذ يبحث عن اعلى مثال للجمال حتى عرف هيلينا Helene اخيراً وتجد هذا في قصة فاوست القديمة قبل جوته ولكن الشاعر الكبير قد جعلها وفق طلبتهِ وحاجته وجعل فاوست يبني بهلينا Helena ويرزق منها بولد اسماه Euphorion (اويفوريون) وحيَّ فاوست حياة شعرية وتنقل بين فنون الشعر ونواحيه وجاءَ الى شاطىء البحر وسكنه واصلح من شأن الارض حوله وجعلها خصبة مثمرة معمورة بالسكان وارسل الاساطيل التجارية الى البلاد الاخرى وجملة القول انهُ اوجد لنفسهِ عملاً كبير النفع كثير الخير للآخرين جعله يشعر بالراحة والطمأنينة في شيخوخته تلك الطمأنينة التي طالما جد وراءَها ثم يموت فاوست وقد رضي الله عنهُ في خاتمته

اذا نظرنا الى قسمي فوست من حيث قيمتهما الشعرية رأينا القسم الاول يفضل الثاني ويتفوق عليهِ . فترى الشاعر يصف لك في الاول الحياة صافية اشخاصها يتكلمون ويعملون بينا تراه في الثاني يكثر من الاستعارات والتشابيه والاشارات وفي الاول ترى (جريتشن) انسانية يجري الدم في عروقها ذات تقى وفهم طفلة طاهرة لطيفة المعشر ظريفة الحركات بينما تراه يعني بهلينا في القسم الثاني الشعر القديم الذي كان للاغريق والرومان من قبل . وكان جوته يعلم انه قد اخفى اشياء كثيرة في القسم الثاني وجعلها مبهمة مستورة حتى ان الايضاحات والتفاسير العديدة والشروح المختلفة لا تجعلها واضحة مفهومة للكثيرين

ولما انتهى جوته من كتابة (فاوست) شعر كأن عبئاً ثقيلاً قد رفع عن عاتقه وكان يقول انهُ اتم عمله وواجبه كشاعر . ومات جوته في ڤيمار في الثاني والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٣٢ بعد ان مرض اياماً قليلة ودفن في مدفن الامراء في تلك المدينة الشعرية الخالدة اللطيفة

الحياة والكهربائية

هل هما من معدنٍ واحد

قال أحد الكتّاب ان علم الطبيعة أخذ يضمُّ تحت جناحيه سائر العلوم . ومما لا ريب فيه ان طائفة كبيرة من العلوم المختصة بناحية معينة من البحث اخذت تستمدُّ من علم الطبيعة ما يمكنها من درس الظاهرات الخاصة بها ، فأصبحت وكأنها أقسام من علم الطبيعة . فعلم الكيمياء حيث يتناول الاركان يدعى الآن « علم الكيمياء الطبيعية » ومن اشق الأمور على الباحث تعيين الحد الفاصل بين الطبيعة والكيمياء الطبيعية . وثمة علم الفلك الطبيعي (Astrophysics) وعلم الجيولوجية الطبيعية (Geophysics) . وقد أخذ أصحاب علم المحيطات (الاوقيانوغرافيا) يرون في علم الطبيعة وسائل لحلّ مسائل كانوا يحسبونها حيوية من قبل . أما علماء الاحياء في بحثهم عن بناء المادة الحية فيسألون نفوسهم ، ألا يستطيعون ان يرجعوا بنواميسها إلى نواميس حركة الالكترونات والبروتونات والايونات

إن إمتداد علم الطبيعة إلى الكيمياء والجيولوجية والفلك أمر معقول . وأما تعديه على علوم الأحياء فغير معقول لأول وهلةٍ . إذ يصعب علينا أن نتصور الخلية الحية ، التي تنطوي على دماغ كدماغ نيوتن ، أو يد كيد رفائيل ، وكأنها آلة مركبة من ذرّات . ولكن منذ ما ركّب الكيميائي الالماني وهلر مادة « اليوريا » ضعف القول بوجود قوة حيوية تدخل على المادة فتجعلها حيةً . وفوز العلماء المحدثين بصنع خلايا تتصرف من بعض الوجوه كتصرف الخلايا الحية ، يقوي الامل الذي بنى عليه أحد العلماء القول بأن صنع المادة الحية في المعمل قد لا يتأخر . فعلماء الاحياء يشدّون مطاياهم الآن إلى غاية عظيمة — هي فهم الأفعال الحية

ما سرُّ الحياة ؟ . . . ولكن أجب أولاً لماذا تنقسم الخلية إلى خليتين ، فلعلّك تجد في الجواب عن السؤال الاصغر جواب السؤال الاكبر

خذ خلية ملقحة من خلايا القنفذ البحري (الرتسا أو التوتياء) ودعها تنقسم إلى خليتين ثم خذ كلاًّ من الخليتين وضعها في إناءٍ على حدة ترَها وقد نمت إلى قنفذ بحري كامل الاعضاء . أو دع الخليتين تنقسمان إلى أربع خلايا أو إلى ثماني خلايا ثم خذ كلاًّ من هذه الخلايا وضعها في إناءٍ على حدة تنمُ قنفذاً بحريًّا كاملاً . فلماذا تنمو كل خلية ، إذا فصلت عن غيرها ، قنفذاً بحريًّا كاملاً ، ولكنها لا تفعل ذلك إذا بقيت واحدة من طائفة من الخلايا ؟ وما الطريقة التي تعلم بها الخلية المفصولة ان عملية تخليد الحياة تقع على عاتقها فتنمو قنفذاً بحريًّا كاملاً ؟

أو اقطع الغصن الرأسيَّ من شجرة الشوح. فلا تلبث حتى ترى أحد أغصانها الجانبية وقد انتصب وحلَّ محلَّ الغصن الرأسي المقطوع. فجماعة الخلايا التي تتألف منها الشجرة، تتصرف كأنها تعرف ان غصنها الرأسي قد قطع. فلماذا تتصرف هذا التصرف؟ وكيف تعرف ان غصنها الرأسي قد قطع؟ فليس للشجرة ولا لبيضة القنفذ البحري اعصاب: فما هي وسيلتها الى فعل ما تفعلان

ان تعاون الخلايا والتنسيق بين افعالها مسألة حيوية قديمة حافلة بالاسرار. وطالما استرعت عناية الباحثين وليس ما يلي الاَّ خلاصة لبعض النتائج الحديثة في هذا الميدان

كان الدكتور لُنْد E. J. Lund استاذ علوم الاحياء في جامعة تكساس، يشتغل في معمل علم الحيوان بجامعة جونز هبكنز سنة ١٩١٤ وكان يجري تجاربهُ على حيوان مجهريّ (مكرسكوبي) يطفو في الماء يدعى البرساريا Bursaria. ولهذا الحيوان اهداب شعرية يحركها فيحدث في الماء تيارات تتجه الى ناحية فمهِ وهي طريقة تستعملها الحيوانات المفردة الخلية لالتقاط دقائق الغذاءِ من الماءِ. ومن غريب ما رآهُ ان هذا الحيوان، يكوّن في بعض الاحيان، فمّاً في مؤخر جسمهِ اي في الطرف المقابل للطرف الذي فيهِ فمهُ العاديّ. ثم يغيّر حركة نصف الاهداب التي تغطي جسمهُ فيحدث في ناحيةٍ تيارات مائية تتجه الى فمهِ الواحد، وفي الناحية الاخرى تيارات مضادة تتجهُ الى فمهِ الثاني. ثم لا يلبث ان ينشطر الحيوان الواحد الى اثنين، لكلّ منها فم، وينفصل احدها عن الآخر، ويعيش كلٌّ منهما عيشة مستقلة. ولكنهُ شاهد في بعض الاحوال ان احد الشطرين، يضمر رويداً رويداً قبل الانفصال ثم يزول، كأنَّ النصف الآخر قد قوي عليهِ وابتلعهُ. فلما حاول الدكتور لُنْد ان يعلّل هذا التحوُّل في تصرف الحيوان — كتحوُّل الذنب الى فم، وابتلاع النصف الواحد للنصف الآخر — تذكر ما يفعلهُ حيوان آخر، وحيد الخلية اذ يوجَّهُ اليهِ تيار كهربائيّ

ذلك الحيوان يدعى البراميسيوم — وهو ابسط تركيباً من البرساريا — ومؤلف من خلية بيضية مستطيلة تغطيها اهداب تتحرك لتحدث في الماءِ تيارات تتجهُ الى فم الخلية لتجهزها بدقائق الغذاءِ. وكان بعض الباحثين — قبل لُنْد — قد بينوا انهُ اذا وُجّه تيار كهربائي دقيق الى البراميسيوم اثر في حركة اهدابهِ تأثيراً يختلف باختلاف اتجاه التيّار. فاذا كان التيار متجهاً من رأس البراميسيوم الى ذنبهِ، تغير اتجاهُ حركة الاهداب في النصف المؤخر فتحدث تيارات مائية متجهة الى ناحية الذنب كأنَّ الذنب فمّاً تجب تغذيتهُ، ولكن اذا عكس اتجاهُ التيار بعد ذلك عكست حركة الاهداب في نصفي الخلية

فبعدما اجرى الدكتور لُنْد مباحث وتجارب كثيرة من هذا القبيل، ثبت لهُ أثر التيار الكهربائي في الخلايا في اثناءِ نموّها. فعرف انهُ يستطيع ان يوقف النموّ او يعيقهُ او يغير اتجاههُ باستعمال التيار الكهربائي. بل تمكن في خلايا بعض الحشائش البحرية من ان يعيّن اتجاه

النمو كما يشاء فوجد انهُ اذا ترك الخلايا الملقحة من دون ان يتعرّض لها بتيار كهربائي، نمت منها أعشاب نمواً مشوشاً في نواحٍ مختلفة ، فهذه الى اليمين وتلك الى اليسار وأخرى بين الاتجاهين . ولكن اذا وضعت الخلايا الملقحة في مسير تيار كهربائي انتظم اتجاهُ نموّها . وتحوّل الجانب الموجّه إلى القطب الموجب إلى جذرٍ دائماً . ولما وجد ان للتيار هذا الاثر الواضح في نموّ الخلايا ، سأل نفسهُ ، أليس للكهربائية ايُّ اثر في نموها السويّ . ألا تولد هذه الاحياء كهربائية في اثناء نموها ؟ واذا كانت تولد كهربائية في اثناء النمو : فهل يشابه تأثير هذه الكهربائية في نموها تأثير التيّار الكهربائي الموجّه اليها من الخارج ؟ أليس لهذه القوة الكهربائية اثرٌ في نماء الاحياء وتنوع خلاياها واعضائها من رأسٍ وذنب وجذر وغصن

عرف من قبل ان للعضلات والاعصاب صفات كهربائية ، لان فعلها يصحبهُ اطلاق قوة كهربائية . كذلك عرف ان السنط الحسّاس والاسماك الكهربائية تطلق قوة كهربائية اذا لمست، ولكن اطلاقها للكهربائية متقطّع كأنهُ اطلاق القوة الكهربائية من حرّة ليدن . اي ليس ما ينطلق منها تياراً كهربائيّاً مستمرّاً . وظاهرة الكهربائية الحيوانية مسلّم بها منذ ما اثبت غلفني العالم الكهربائي ذلك في الضفدع في اوائل القرن الماضي

ولكن الباحث الالماني « بف » كشف في سنة ١٨٥٤ ظاهرة كهربائية اخرى في الاحياء تختلف عن الظاهرة السابقة الذكر . ذلك انهُ اثبت وجود تيار كهربائي مستمرٍ من رأس الجذر الى اجزاء النبات العليا . ثم اعاد العالمان مُلر هنلنجنغ وماثيوز — كلٌّ على حدة — تجارب «بف» فأيّدا النتائج التي وصل اليها . فلما بدأ لُنْد مباحثهُ بدأها بدرس التيارات الكهربائية المستمرة في النباتات والحيوانات، فقضى في جامعة منّسوتا والمعمل البيولوجي في بيوجت سوند وجامعة تكساس اثنتي عشرة سنة يوالي التجربة والبحث وصل في نهايتها الى النتائج الآتية

١ — في النباتات والحيوانات تيارات كهربائية مستمرّة مما يبين ان الكهربائية ملازمة الحياة

٢ — تتولد هذه التيارات في الخلايا الحية في كل كائن فكأن كل خلية بطرية كهربائية صغيرة

٣ — تختلف الخلايا في مقدرتها على توليد الكهربائية ، فهي على اعظمها في الخلايا الناشئة ثم تضعف في الخلايا الهرمة ثم تزول بتاتاً في الخلايا الميتة .

٤ — قوة التيارات التي تولدها الخلايا توازي قوة التيارات الكهربائية المستعملة في التجارب المذكورة آنفاً

٥ — ان هذه المقدرة على توليد الكهربائية توليداً مستمراً صفة عامة من صفات المادة الحيّة

فهل يأتي التحوُّل على الحياة والنماء وفقاً للتحوُّل في ما تولده الخلية من الكهربائية ؟ هل التقدم في السن والموت نتيجة لضعف هذه القوة او ظاهرة تصاحبها ، فكأن الخلية لدى موتها بطرية كهربائية قد فرغت ؟ هذه مسائل تبدو للذهن لدى الاطلاع على نتائج هذا البحث الطريف

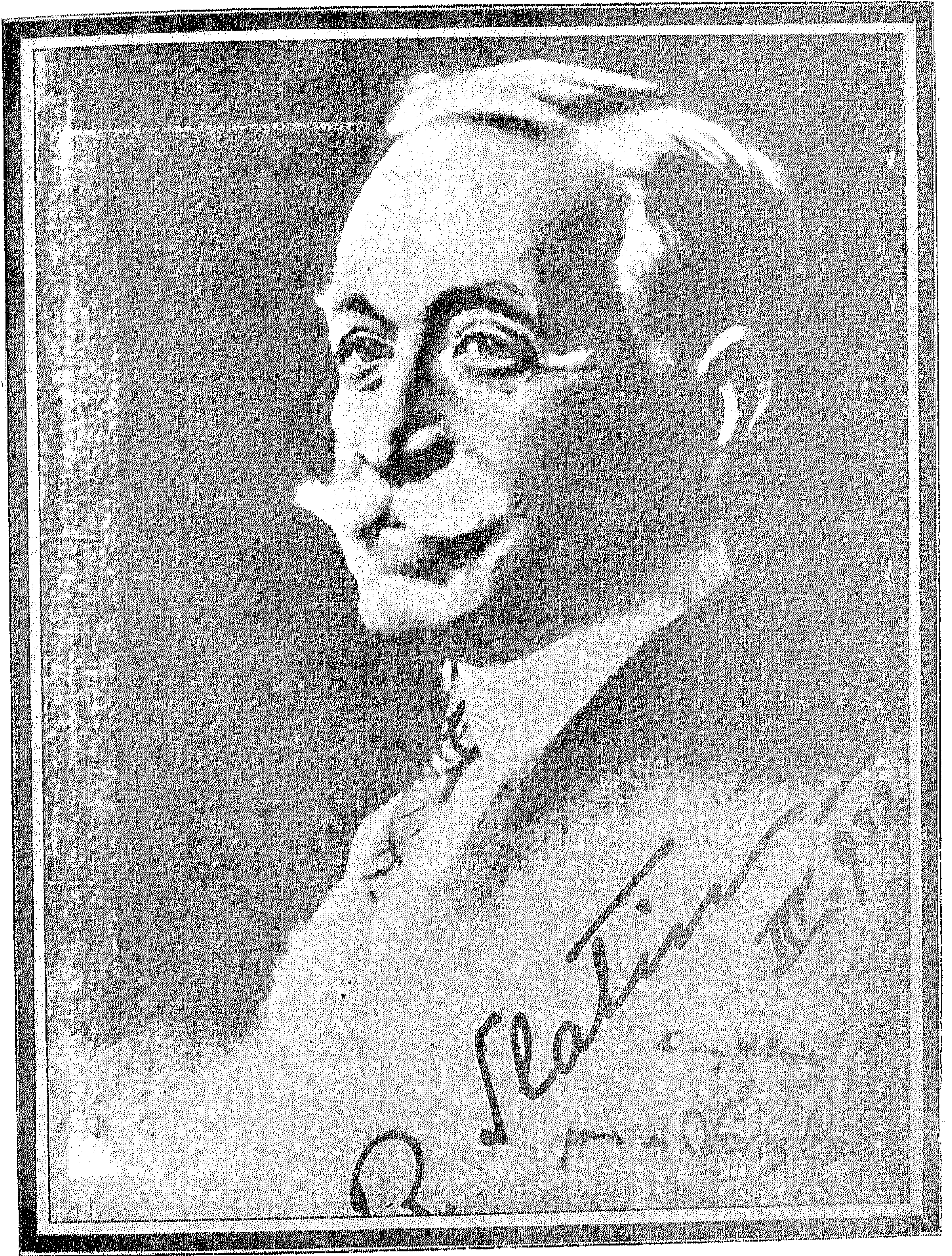
البارون سلاتين باشا

بقلم من عرفهُ وصحبهُ في اعمالهِ واسفارهِ

لما قامت ثورة المهدي في السودان واستفحل أمرها ثارت قبائل العرب في جهات دارفور حيث كان سلاتين باشا مديراً عامًّا فكان له معها مواقع حامية ذكرها في كتابهِ وقد بلغت على ما أذكر ٢٧ موقعة كان الفوز له في أكثرها وذلك بحسن تدريبه العسكري وقوة ابتكاره لانهُ تلقى العلوم العسكرية في ڤينا وكان ضابطاً في جيشها العامل . لكن انتصارات المهدي على جنود الحكومة في كردوفان وجهات أخرى من السودان لا سيما على حملة الجنرال هكس باشا وحصار الخرطوم كان من شأنها أن تؤثر تأثيراً سيئاً جدًّا في أفكار جنوده الذين كانوا يتحينون الفرص لترك حصونهم والانضمام الى المهدي باسلحتهم وذخائرهم وكانوا ينسبون انخذالهم في بعض المواقع — مع أنهم كانوا يكبدون الاعداء خسائر فادحة تزيد عن خسائرهم كثيراً — الى كون قائدهم مسيحيًّا . فرأى سلاتين باشا ان السهم الوحيد الذي بقي في كنانتهِ للاحتفاظ باخلاص جيشهِ الى ان يتسنى للحكومة القضاء على حركة المهدي هو ان يعتنق الدين الاسلامي بحضور القاضي والمفتي وضباط الجيش ثم استعرض الجنود واعلن لهم اسلامه فهتفوا له طويلاً ووعدوا ان يخلصوا للحكومة وله في القول والفعل . فكان لذلك بعض الاثر . ولما لم يبق لديه الاَّ عدد قليل من الجنود قد برَّح بها الجوع وفتكت الحميات ونفدت ذخائرها اضطرَّ الى ان يسلم الى قائد جيش المهدي خالد زجل وكان وكيلا للمديرية تحت رآسة سلاتين باشا.

وكان سلاتين يعرف ان وكيل مديريته من اقارب المهدي وانه على اتصال به فلم يرَ للتخلص منه ومن دسائسه سوى انفاذه الى المهدي لكي يراقب الامور ويخبره بما يجري لكنه عند وصوله الى معسكر المهدي انضم اليه قالباً وقالباً وصار من اشد اعوانه واكبر انصاره فجعلهُ اميراً وانفذه مع جيش كبير الى دارفور للاستيلاء عليها . وقد ذكر لي سلاتين باشا ان امرَّ ايام حياته كان يوم اضطراره ان يسلم ويخضع الى من كان احد موظفيه ولكنه ابرم معهُ اتفاقاً حفظ بهِ حياة رجاله وحرمة نسائهم وبناتهم

وقد صحب سلاتين باشا جيشَ المهدي في اثناء حصار الخرطوم وفي تلك الآونة اوجسوا منه خيفة ان يهرب وينضم الى جيش غردون باشا لانه راسل غردون بذلك فعلاً ولم يتلقَّ منه ردًّا



البارون سلاتين باشا

فألقوا القبض عليه بامر الخليفة واثقلوه بالاغلال والقيود ووضعوا في رجلهِ « مكية » ثقيلة جعلته لا يستطيع النهوض او السير على قدميهِ وأظنهُ اخذ هذه المكية بعد فتح الخرطوم الى بيتهِ في ڤينا لكي يريها لاصدقاءه ومعارفه ويحافظ على ذكر ملازمتها اياهُ في سجنه ! !

ولما سقطت الخرطوم في ايدي الدراويش وقتل بطلها العظيم غردون باشا اتوا الى سلاتين باشا في سجنهِ برأس ذلك البطل وقالوا له انظر اليس هذا رأس خالك الكافر الذي كنت تحاول الفرار للانضمام اليه . فنظر سلاتين باشا إلى ذلك الرأس هلعاً وكاد ان يغمى عليه لكنه تمالك روعه واظهر تجلداً لا يستطيعه الا من كان له من قوة الارادة وضبط النفس ما لهُ وقال لهم « ان صاحب تلك الرأس لم يكن الا جندياً باسلاً مات شريفاً في سبيل القيام بواجبه »

وبقي سلاتين باشا سجيناً في السايِر (اسم سجن الدراويش) يقاسي من العذاب وشظف العيش ما ترتعد لهُ الفرائص الى ان أخرجهُ الخليفة والحقهُ بخدمتهِ « ملازماً للفروة » وكان يقف في بابهِ ليلَ نهار ويقوم بالصلوات الخمس من دون انقطاع حتى لا يتسنى لهُ فرصة للفرار

بعد موت المهدي تسلم الخليفة عبد الله التعايشي زمام الحكم المطلق فشدد الرقابة على سلاتين باشا وكان يعتز امام عربان التعايشة وقبائل الغرب البقارة ان الحاكم الذي كان يسيطر عليهم اصبح اسيراً في قبضة يده

وقد روى لي سلاتين باشا ان الخليفة لما كان يستعرض جيوشه التي كانت تملأُ السهل والجبل كان يقف تحت رايته الزرقاء فتمر امامه الجنود (جيوش المهدية) هاتفين مهللين مكبرين ثم يأخذ بعض الفرسان الممتازين بالانقضاض على الراية التي كان الخليفة تحتها ويهز السيف او الرمح فوق رأسهِ ويتكنى اي يتفاخر . وكان سلاتين باشا في بادىء الامر يجري وراء الخليفة حافي القدمين متحملاً حرارة الارض المحرقة في ايام الصيف حتى ان قدميهِ تشققتا وصارتا كخف الجمل ولكنه كان يتجلد واضعاً نصب عينيهِ الفرار والحرية . واخيراً صرح له الخليفة ان يمتطي جواداً ويسير في ركابه وفي احد الايام إذ كان الفرسان يقومون بالعابهم الحربية ويظهر كل منهم ما يستطيعه من ضروب الفروسية التفت الخليفة الى سلاتين باشا وسألهُ (منادياً لهُ باسم عبد القادر) لماذا لا يبدي امام اخوانه انصار الدين ما يمتاز به من المهارة في ركوب الخيل ويفاخر باعماله مثلهم فقال له حباً وكرامة يا خليفة المهدي . ثم كرَّ بجواده ولعب على ظهره العاباً دهش لها الخليفة وفرسانه ثم انقضَّ على راية الخليفة وهزَّ سيفه فوق رأسه وقال « انا المصيبة المعلقة بسبيبة (شعرة الفرس) اذا انقطعت السبيبة حلت المصيبة » . فابتسم الخليفة واثنى على مهارتهِ واخلاصه في نصرة المهدية وسأله قائلاً من اين تعلمت ياعبد القادر هذه الاقوال الحماسية فاجاب انه تعلمها من العرب الذين عاش اليهم زمناً طويلاً . فقال الخليفة بارك الله فيك وفي مروءتك . ولما تمكن سلاتين باشا من الفرار قال الخليفة لرجال مجلسه الخاص

ان السببية قد قطعت كما قال ذلك (الكولونيل سلاتين) وقد صدق في ذلك لان فرار سلاتين باشا من السودان كان له الشأن الاول في تقرير امر الحملة لاسترجاع السودان من ايدي الدراويش

وكان الخليفة شديد الحرص على سلاتين باشا والاحتفاظ به وكان يقيم عليه الارصاد ويبث الجواسيس لتنسم اخباره ومعرفة كل حركة وسكنة من اعماله وكثيراً ما كانت الاخبار التي كان يتلقاها الخليفة محشوة بالاكاذيب والترهات فكان عند سماعها يستدعي سلاتين باشا اليه ويسأله أن يخبره بالحقيقة ولا يكتم عنهُ شيئاً فكان سلاتين باشا يتظاهر بثقل السمع حتى يكون له متسع من الوقت للتفكير بما يجيب مستفيداً من الدقائق القليلة التي تلزم لاعادة سرد تلك التهمة . وبقيت تلك العادة متسلطة عليهِ إلى ما بعد فرارهِ فلما قابل الملكة فكتوريا كان يستعيدها القول إذا تكلمت فسألتهُ هل في سمعهِ وقر فقص عليها كيف ان هذه العادة تمكنت منهُ مدة أسره وكانت وسيلة مكنتهُ من تسويغ اعماله لدى الخليفة في مواقف كثيرة كان الموت أو السجن أقرب اليهِ من حبل الوريد فأعجبت جلالتها بسعة حيلتهِ وشدة دهائه وبعد نظره .

وقد حدثني رحمهُ الله انهُ كان في مدة أسره يطلب كل سنة من الخليفة أجازة ثلاثة أيام يقضيها في بيته لتناول دواء خاص تعوّد تناولهُ مدة حياته حفظاً لصحته . فكان الخليفة يأذن له بذلك انما كان يحيطهُ بالجواسيس والارصاد خوف فراره . ولكنهُ في السنوات الاخيرة خفّف كثيراً من شدة هذه المراقبة وفي السنة التي تمكن فيها سلاتين باشا من الهرب من أم درمان بناءً على الاجراءات التي أعدت لهربه بواسطة مدير المخابرات العسكرية (الميرالاي ونجت بك وقتئذ) ومؤازرة قنصل جنرال حكومة النمسا والمرحومين ملحم بك شكور ونعوم بك شقير والقس يوسف اوهرولدر (الذي تمكن قبله من الفرار من أم درمان مع راهبتين) طلب سلاتين باشا هذه الاجازة السنوية من الخليفة فسمح له بها كالعادة وهذا مكنهُ من اكتساب الوقت الكافي لاجتياز ما يزيد عن ١٣٠ ميلاً مع أدلائهِ في ٢٤ ساعة فوصل إلى جبل الجلف بالقرب من بربر وهنا اضطرَّ أن يبقى مختبئاً في مغاور الجبل إلى ان اعدوا له مطايا أخرى عبر بها نهر النيل وسار في عتمور أبو حمد إلى أن وصل إلى المراث وكان فيها نقطة للحكومة من عربان العبابدة الموالين للحكومة ومنها ذهب إلى اصوان حيث قابله هنتر بك (هنتر باشا) ومتشل بك وغيرهم من الضباط الانكليز في الجيش المصري

وأذكر انني كنت حينئذٍ رئيساً لفرع مكتب المخابرات العسكرية في سواكن وقبل وصول سلاتين باشا إلى الديار المصرية بنحو ١٨ يوماً جاءني تاجر من أهل بربر كنت أساعده في أعماله واستخدمهُ في التحري عن شؤون السودان والسؤال عن أمور كانت تعهد إليَّ بها ادارة المخابرات في مصر . وقد جاء خاصة ليعلمني بفرار سلاتين باشا من أم درمان

فطيرت هذه البشرى في الحال على جناح البرق الى مخابرات مصر فلم ألبث حتى وردني الرد بالاستفهام هل الخبر مما يستحق أن يركن اليهِ وعن الطريق التي سلكها سلاتين حتى إذا كان قد اتخذ طريق بربر الى سواكن ترسل الحكومة قوة راكبة من الهجانة للاستيلاء على نقطة كوكريب التي كان يتولى الدفاع عنها كتيبة من الهدندوه تسهيلاً لفراره . فأجبت باسم المحافظ ان النبأ حقيقي لان الرجل الذي جاء بهِ من اعوان المخابرات وانهُ قد شاهد الهجانة الذين أرسلهم الخليفة في أثره وانهُ قد اجتاز مسافة تقرب من ٣٠٠ ميل في ثلاثة أيام ليتصل بأسرع ما يمكن . وان الطريق الذي سلكه سلاتين لابد ان يكون نفس الطريق الذي سلكهُ القس يوسف اوهروالدر والراهبتان من قبله وهو عتمور أبو حمد لان الطريق بين بربر وسواكن مأهولة بقبائل الهدندوه لا سيما وان عثمان دجنه وأعوانهُ يرابطون في جميع الجهات وان سلاتين باشا أحرص من أن يستهدف لمثل هذه الأخطار

وعند وصول سلاتين باشا إلى اصوان ورد تلغراف من مدير المخابرات العسكرية بمصر إلى حاكم سواكن لويد باشا يزف اليهِ هذه البشرى ويثني على إدارة المخابرات في سواكن التي سبق خبرُها الهاربَ

وقد ذكر لي سلاتين باشا في أحاديثه انهُ عند ما كان مديراً عامًّا لدارفور وكان إذ ذاك فتى في بدء عهد الشباب أن أحد معاونيه (وكان متقدماً في السن اشيب الناصية) كان كلما رأى رئيسه رأياً أو أمر أمراً في شأن من الشؤون أن يعارضهُ بحجة انهُ أكبر منهُ سناً وأنهُ أعرف منهُ بأمور الحياة. فقال له سلاتين باشا يوماً وهل تظن يا هذا ان التقدم في السن يعد حجة لعلو كعب الانسان في الشؤون الادارية والسياسية وهذا الطاهي في بيتي أكبر مني ومنك سنًّا . فوجم الرجل وعلم ان رئيسه الشاب ليس ممن يسهل التسلط على ارادتهم

وقد عرفت سلاتين باشا في مواقف عديدة فرأيت من اصالة رأيه في الأمور وسعة مداركه ما يحتاج إلى أكثر من مقال واحد . وقد كان ممن لا يسهل تحويلهم الى ما يخالف رأيهم بوجه من الوجوه الاَّ بالحق والاقناع . ولكنهُ يذعن للصواب إذا أمكن اقناعه به . اضف الى ذلك انهُ كان قوي الحجة شديد البرهان سريع الخاطر

وقد حدَّثني يوماً ان جلالة الملك ادوارد السابع دعاه مرة إلى ليلة ساهرة في قصر بكنغهام فذهب بملابس السهرة السوداء ولما التقى بجلالة الملك قرأه السلام لكن الملك اعرض عنهُ وبعد برهة عاد اليه وسأله لماذا لم يرتد ثوبه العسكري ويتقلد جميع اوسمته فأجابه أن ذلك لم يذكر في الدعوة التي تلقاها من القصر فقال له الملك ان أوامره الدائمة في شأنهِ تقضي بانهُ اذا دعي إلى القصر لسهرة أو لمأدبة وجب ان يكون بلباسه العسكري متقلداً جميع أوسمته ومدالياته الحربية . وقد قال لي انهُ منذ تلك الليلة لم يكن يظهر في القصر الملكي الاَّ بلباسه العسكري

وأوسمته فكان يظهر مثل شجرة عيد الميلاد ...! ولما زار سمو عباس حلمي باشا الخديوي السابق الخرطوم أقيمت له حفلة استقبال في قصر الحاكم بالخرطوم حضرها كبار رجال الحكومة والضباط العسكريين والموظفين والعمد والمشايخ والاعيان وقبل الحفلة بقليل ذهبت إلى بيته لاخذ قراره في أمر خطير فوجدته منهمكاً في وضع أوسمته على ثوبه العسكري . ولما رآني قال لي انني يا ابراهيم أشتغل منذ أكثر من ساعة في ما تراني منهمكاً به فقلت له يا سعادة الباشا اعطني هذه الاوسمة التي تبهر الابصار فلا اسمعك مثل هذه الشكوى المرَّة فابتسم وقال لي انني لما كنت في سنك لم يكن لي الاَّ القليل جدًّا منها وها انت الآن تتقلد عدداً لا بأس بهِ اذا نظرنا الى صغر سنك فضحكت وضحك هو لانهُ ادرك ما كان يدور بخاطري

وقد كان للمرحوم سلاتين باشا رعاية خاصة لدى الملكة فكتوريا ولدى الملك ادوارد وكان هذا احياناً يصطحبهُ في زياراتهِ الخاصة عند ما يذهب الى ماريئباد او كرلسباد للاستشفاء بمياههما المعدنية

زرت مرة سلاتين باشا في مصيفهِ الجميل القائم على بحيرة ترونكرخن وكان المرحوم مبروك باشا فهمي رفيقي في هذه الزيارة فعرفنا عائلة انكليزية توطنت في تلك الجهة منذ زمن طويل تدعى عائلة هاسوال وقد كان احد أبنائها مديراً لمصلحة التنظيم بمصر ويعرفهُ كثيرون. وقد ذكر لي سلاتين باشا ان عمة المستر هاسوال المذكور وكانت دائماً تلح عليهِ ان يساعدها في المثول بين يدي جلالة الملك إذا تمكن يوماً وان يستعطفهُ لان يعرج بقريتهم في اثناء سفره إلى المنتجعات المائية وكانت تقول له أن أقصى أمانيها أن ترى جلالته قبل وفاتها. فانتهز سلاتين باشا فرصة سانحة وأخبر الملك ادورد بحديث هذه العائلة الانكليزية مولداً والنمسوية تبعة وذكر له شيئاً عن الامنية العظيمة التي كانت تلك السيدة لا تفتر من المجاهرة بها . فعين جلالته موعداً يمر فيهِ بتلك الجهة ويقف بقطاره في تلك المحطة وأمر سلاتين باشا أن يبرق بذلك الى هذه العائلة والى اخواته الثلاث ففعل وعند وصول القطار كان الجميع ينتظرونهُ. في المحطة فنزل الملك من القطار مع شدة الامطار المنهمرة وصافح الجميع. ولما رأت السيدة الطاعنة في السن الملك هتفت باعلى صوتها قائلةً الآن تنطلق عبدتك يا رب السلام لان عيناي قد ابصرتا خلاصك (إشارة لما قاله سمعان الشيخ عند ما رأى المسيح طفلاً)

ومما قصهُ عليَّ انهُ أصيب في احدى المواقع التي جرت في دارفور برصاصة في منتصف عقدة بنصر يده اليمنى كسرتها فطلب من احد ضباطهِ ان يقطع تلك العقدة لكن الضابط تردد في تنفيذ الامر واظهر الجزع فتناول السكين من يده وقبض على الاصبع المكسورة بنواجذه. وقطعها بنفسهِ وقد صحبت سلاتين باشا في كل اسفاره في جميع انحاء السودان مدة طويلة فلم أر أصلب منهُ عوداً ولا اكثر صبراً وجلداً على احتمال المشقات وكثيراً ما كنا نضطر اذا اقتضت الحال ان

نسير مسافة تقرب من مائة ميل في اليوم على ظهور الهجن

ثم اني درست حياة سلاتين باشا درساً دقيقاً في حله وترحاله فعرفت فيهِ الذكاء وسرعة الخاطر ومكارم الاخلاق والابتعاد عن الاساءة للغير ولا أذكر إنهُ سعى في ايذاء احدٍ من الذين اعتدوا عليهِ أيام اسره وكان يساعد كل من التجأ اليهِ بكل وسيلة تصل اليها يده وكثيراً ما كان يحسن إلى أشخاص وأسر اخنى عليها الدهر ويجود بمال من جيبه الخاص بعد نفاد جميع المبالغ المرصودة لمثل هذه الغايات في ميزانيــة مكتبه وميزانية قلم المخـابرات وميزانية الحاكم العام . وما رأيتهُ يوماً يخيّب رجاء انسان إذا رأى وجهاً لمساعدته. وكان يقول لي ان السياسة التي كان يسير عليها الحاكم العام ويناصره هو فيها بكل ما في وسعهِ لهي السياسة التي بلغت بالسودان في مدة قصيرة الى ما وصل اليهِ من الارتقاء . وقد صدق وايم الحق من وضع رسم اللورد كتشنر ورسم الجنرال ونجت باشا ورسم سلاطين باشا في اطار واحد وكتب تحتها The three Makers of the Sudan اي الرجال الثلاثة الذين شيدوا معالم المدنية في السودان

وقد كان سلاتين باشا في اثناءِ اقامته في الخرطوم مفتشاً عامًّا للسودان ، مقصد جميع السياح والصيادين الاجانب الذين كانوا يحضرون الى السودان افواجاً كل سنة في فصل الشتاء وفصل الربيع التي لاتسقط في اثنائهما الامطار، فكان يعدّهم جميعاً بما في طاقتهِ ، وكان يقيم الولائم ثلاثة ايامٍ او أربعة في الاسبوع لمن يكون منهم في الخرطوم في اثناء فصل السياحة فكانوا يدهشون لاحاديثه الطلية وملَحِهِ العذبة التي طرب لها الملوك والامراء فسرّهم استدعاؤه الى قصورهم وإلى حفلات ولائمهم ومراقصهم

وقد ذكر لي أنهُ أعطى يوماً كريمات الملكة الكسندرا رسمهُ فقالت له الملكة مازحة انها تجده كغيره من الرجال لا يروقهُ سوى إرضاء الشابات فقال لها معتذراً ان كريماتها قدمنَ رسومهنَّ لهُ وطلبنَ رسمهُ ففعل فابتسمت الملكة ولم تفُتْها النكتة فقدمت لهُ رسمها الكريم موقعاً عليهِ منها وكان للباشا كل الفخر أن يحذو حذوها

وقد كان لسلاتين باشا كما عرفت منهُ الفخر العظيم يوماً ان يرقص مع جلالة الملكة الكسندره بناءً على اشارة جلالة الملك ادورد وذلك لكي يرقص محاذياً لجلالتهِ لما افتتح الرقص مع جلالة ملكة اليابان التي كانت في ضيافتهِ فجاءَ هذا دليلٌ على ما كان لسلاتين باشا من المكانة والالتفات في قصر أعظم ملوك العالم

وكان لسلاتين باشا يد في الانتصار على جيوش الخليفة في موقعة أم درمان الشهيرة لانهُ أرسل سرًّا إلى بعض أصدقائهِ الاوفياء في أم درمان ممن كان يضمهم بلاط الخليفة وكانوا أعضاءً في مجلسهِ الخاص يحثهم على أن يشيروا على الخليفة بأن لا يهاجم الجيش المصري ليلاً في كرري بل ينتظر الى الصباح لان الانوار الكشافة الكهربائية التي تطلقها السفن الحربية تكشف

رجال جيشهِ وتبهر ابصارهم فلا يرونْ شيئاً مما حولهم فتفتك بهم المدافع والرشاشات فتكاً ذريعاً وان يشيروا بالتريث إلى بزوغ الفجر فيكر عليهم بخيله ورجله ويبيدهم عن آخرهم ثم يعود إلى أم درمان ليصلي صلاة العصر في الجامع طبقاً لما جاء في نبوة المهدي قبل موتهِ إذ قال ان جند الحكومة سيباد عن بكرة ابيهِ في كرري . وكرري هو المحل الذي جرت فيهِ موقعة أم درمان التي اعادت سلطة الحكومة إلى بلاد حلت بها الفوضى وعم الظلم والخراب مدة طويلة من الزمن. ولو أن الخليفة هجم على جنود الحكومة بجيشهِ اللجب ليلاً لكانت خسائر الجيش اعظم على ما يقولهُ الخبيرون

ولما نشبت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ كان سلاتين باشا بالاجازة في النمسا . وقد تم زواجه في بدئها بالبارونة رامبورغ فارسل اليهِ حاكم السودان العام وصديقهُ الحميم ونجت باشا ان يوافيهُ الى مصر لكنهُ لم يفعل لان جنسيتهُ ومركزه الادبي والاجتماعي حالا دون ذلك على انهُ ذهب الى الامبراطور وأخبره انهُ يتحتم عليهِ كنمسوي مخلص لامته وبلاده ان يخدم وطنه خدمة صادقة لكنهُ لا يسمح لنفسه ان يستل السيف لمحاربة امة يحترمها وتربطهُ بملكها وأعاظم رجالها اواصر الصداقة فأجابهُ الامبراطور وكان فرنسوى جوزيف انه يعلم ذلك واستمهلهُ الى الغد حتى يتسنى له ان يستشير رجال وزارته . وفي اليوم الثاني دعاهُ اليه واخبره انهُ قرر تعيينه مديراً لجمعية الصليب الاحمر فقام بواجبه نحو امتهِ ونحو الدول المحاربة بما يرضي ضمير كل محب للانسانية . وأذكر ان بعثة الصليب الاحمر التي كانت برآسة الدكتور خريستوفرسن — وكان هذا من زملاء سلاتين باشا لما كان مديراً لمصلحة الصحة العمومية في الخرطوم — عند ما وقعت في أسر القائد النمسوي عند انتصاره على جيش الجبل الاسود أُتوا بها إلى فينا فقابلها سلاتين باشا بكل حفاوة واحترام على المحطة وقدم لجميع أفرادها هدايا من الحلويات والاشياء التي كان الحصول عليها أيام الحرب متعذراً ثم سعى باطلاق سراحهم جميعاً وترحيلهم إلى البلاد المحايدة . وهذه وغيرها من الخدمات الانسانية التي كان يقوم بها سلاتين باشا نحو الحلفاء من دون الاضرار بمصلحة حكومته وأمته كان لها أبلغ وقع لدى حكومات الحلفاء فحمل ذلك حكومة انكلترا على أن لا تمسَّ رتبه وأوسمته الانكليزية . ولم يكن للخبر الذي نشرته بعض الجرائد انهُ أعاد أوسمته إلى انكلترا عند وقوع الحرب أدنى أثر من الصحة كما عرفت منهُ بالذات . وقد جاملتهُ الحكومة المصرية فأعطته كل ما كان متجمعاً له من المعاش مدة الحرب وكافأتهُ حكومة السودان لما وضعت الحرب اوزارها بمبلغ من المال

وكان لهُ يدٌ في مساعي الصلح الابتدائية بين الدول الاوربية فكان لشهرته العظيمة ولحسن صلاته الودية مع ملوك اوربا ووزاراتها اكبر أثر في تسهيل مهمة مفاوضات الصلح كما عرفتهُ منهُ

حيفا ابرهيم ديمتري

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

علاقة فينيقية بمصر

— ٢ —

أتيانها بحوادث التاريخ من الفتح العربي الى العهد الحديث

الفتح العربي

اذا صرفنا النظر عن العصر البيزنطي ولم نتبسط في الكلام عنهُ لخلوه من ادلة تاريخية بارزة على اشتراك مصر وسورية في امر هام او تعاونهما على درء شر مستطير وما شاكل ذلك من وجوه الاتحاد والتآزر فلا يسعنا الاغضاء عما قام بينهما من الصلات الوثيقة في عصر العرب. فان التاريخ طافح بالشواهد والبينات على ان هذا العصر اعاد العلاقات بين البلادين الى احسن مما كانت عليهِ في عهد الفراعنة . ذلك انهُ لما تقلّص نفوذ الدولة البيزنطية او الدولة الشرقية من سورية وافضت السلطة فيها الى العرب المسلمين في القرن السابع للمسيح عادت صلات المودة فاستحكمت بين الديار الشامية والمصرية باتصال سيادة الفاتحين الى مصر على يد عمرو بن العاص[1] . وقد كان عصر العرب في القطرين في ولاية بني امية وبني العباس عصر فلاح واقبال ولو انهُ لم يخلُ من شوائب شوهت شيئاً من محاسنهِ . وبلغ الرقي الادبي العلمي في سورية شأواً بعيداً في أيام هارون الرشيد أعظم خلفاء العباسيين وانتشرت دور العلم ومعاهد التربية في ولايتهِ انتشاراً كبيراً ولاسيما في دمشق ، ورسخت آداب الفاتحين والعلوم التي تلقنوها من علماء السريان واليونان في القطرين السوري والمصري وتأصلت عاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم عند السوريين والمصريين على السواء وما زال هذا شأنها الى اليوم . فانك ترى الى الآن في اخلاق الشعبين وعاداتهما وعلاقات الافراد والجماعات احدهم بالآخر مسحة عربية بحت لا تكاد تختلف في شيء عنها في ابّان عصر العرب مع ان الدول الفاتحة التي تعاقبت على حكم البلادين بعد الفتح العربي ولاسيما الاتراك على اختلاف دولهم وتفاوت نزعاتهم السياسية واساليبهم الاستعمارية أفرغت جهدها في التمتع بجميع حقوق الفتح على منوال يؤدي حتماً إلى حرمان البلادين من طابعهما العربي

---

(١) أنشأنا حديثاً رواية تمثيلية بسطنا فيها حكاية فتح العرب لمصر على أسلوب جديد توخينا فيه اظهار الفضائل العربية التي تجلت على أتمها في حكم العرب للممالك الشرقية

ولما نقل مركز الخلافة الى بغداد قامت في الديار الشامية فتن شديدة تلتها ازمة طويلة الاجل انجلت عن استقلال امراء البلاد وغزاتها بالحكم ولم يبقَ للخلافة رأي في شؤون بلادهم السياسية فكانوا يجلّون مقامها بما لا يخرج عن الطاعة الاسمية . وأصبحت سورية من جراء هذا الانقلاب كريشة في مهبّ الريح تارة تضم إلى مصر كولاية خاصة بها وطوراً يقوم على حكومتها ملوك اكفاء يستقلون في شؤونها

عصر الدول الثانوية

وفي مقدمة الفاتحين الذين اغتصبوا ولاية الديار الشامية أثر تلك الفتن احمد بن طولون صاحب مصر في القرن الثامن . ثم قامت دولة الاخشيديين في القرن العاشر . ثم دولة بني حمدان في الموصل . ثم دولة القرامطة فعاثت في البلاد فساداً . ثم قامت المنازعات بين امراء سورية وعمالها على السيادة فيها فتحين الروم الفرصة واسترجعوها . ثم قامت دولة الفاطميين في مصر في منتصف القرن الرابع للهجرة واستولت على ديار الشام وعادت العلاقات السياسية بين مصر وسورية الى ما كانت عليه في العصور السابقة . وقام الحاكم بامر الله ينشر دعوته في الديار فنشبت في البلاد ثورة فكرية تخللتها فتن شوّهت صفحة الفاطميين . ثم قامت دولة الاتراك السلجوقيين في القرن الحادي عشر فاكتسحت سورية وعادت الفتن والمنازعات تمزقها وظهرت دولة بني عقيل المردشيين في الشمال ثم عصابات السفاحين المعروفين بالاسمعيلية فعاثت في البلاد كثيراً وانقسمت على يدها دولة السلاجقة إلى قسمين قسم في حلب وقسم في دمشق

عصر الصليبيين

وفي عصر الصليبيين تجددت العلاقات بين مصر وسورية . وحاول بعض ملوك الافرنج فتح مصر على عهد الملك الصالح بن الكامل وخلفائه ولكنهم لم يقووا على ترسيخ قدمهم فيها وأكرهوا على الجلاء عنها بعد وقوع لويس التاسع ملك فرنسا في الاسر . ثم قام نور الدين الزنكي صاحب دمشق ففتح مصر على يد قائده الناصر صلاح الدين الايوبي الكردي في أواخر القرن الثاني عشر وقطع دابر الفاطميين منها . ثم استبد صلاح الدين بالحكم وفتح ديار الشام وواقع الافرنج وكسرهم في معارك كثيرة واليه يرجع معظم الفضل في تقويض اركان سلطانهم في المشرق

وفي اواسط القرن الثالث عشر ظهر أهل خوارزم وهم من القبائل التي فرت من أمام جنكزخان في زحفه على بلاد الشام وفتحه لها واستقروا في شمال سوريا بايعاز المصريين لانجادهم حين الحاجة . ثم تفاقم امرهم واجتاحوا الديار السورية حتى بلغوا أورشليم وغلبوا الافرنج على أمرهم وحصروهم في منطقة ضيقة في بلاد الجنوب

دول المماليك

ثم قامت دولة المماليك البحرية أو الكردية في منتصف القرن الثالث عشر واستولت على مصر وسورية وقضت على دولة الأيوبيين . وفي اثناء ذلك ظهرت دولة التتر أو المغول فاستحوذت على سورية وطردت المماليك منها ثم عاد المماليك فاسترجعوها على يد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدار الذي دانت لصولجانه بلاد الشام بأسرها . ثم استردَّ المغول سورية في آخر القرن الثالث عشر في عهد تيمور لنك الذي غزا دمشق وأجلى صناعها ولاسيما صناع الاسلحة الدمشقية المشهورة إلى بلاده (سنة ١٤٠٠ م) . ثم قامت دولة الجراكسة المعروفة بدولة المماليك البرجية على حكم مصر وسورية في أواخر القرن الرابع عشر وظلتا في حيازتها إلى الربع الأول من القرن السادس عشر حيث أفضى تاج آل عثمان في الدولة التركية إلى السلطان سليم الأول الفاتح الشهير

الفتح العثماني

ما كاد السلطان سليم يفرغ من قتال الفرس ويستتب له الامر في ولاياته البلقانية والاوربية حتى طمحت نفسهُ إلى فتح الديار الشامية والمصرية وكان ما آل اليهِ هذان القطران الشقيقان في عهد المماليك من الضعف والانحطاط باعثاً له على استصغار شأنهما والتعجيل في اجتياحهما ولا سيما انهُ شعر بعدم انتظام أمور المماليك فيها وعجزهم عن الاحتفاظ بسيادتهم فيها فزحف على سورية بجيش عظيم (١٥١٦ — ١٥١٧) واكتسحها وتابع زحفه إلى مصر فتملكها بعد أن ظفر بجيش الجراكسة ونكل به واستأسر الملك طومان باي وشنقه وبه انقرضت دولة المماليك. على أن الغازي ترك لامراء سوريا شيئاً من الاستقلال وأقر أكثرهم في ولاياتهم واقطاعاتهم بعد ان فرض عليهم جزية قليلة وترك للمماليك في مصر بيكاتهم الاربعة والعشرين وهي الاقطاعات التي كانوا يحكمونها بأمر ملوكهم وأطلق عليها اسم سناجق مكتفياً بإبطال سيادتهم العليا في وادي النيل وتخلى له المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين في مصر عن الخلافة العربية وبايعهُ شريف مكة وبذلك دانت الامة العربية لصولجانه

وعلى الاجمال فان الفترة التي انقضت بين الفتح العربي والفتح العثماني في الديار المصرية والشامية نغصت عيش الشعبين المصري والسوري لما توالى عليهما فيها من الرزايا والنكبات التي صرفت الناس عن أرزاقهم الى الاحتيال على تخفيف عبء المظالم التي حلت بهم بالتزلف الى الحكام ووقف كل ما هو عزيز لديهم من شرف وروح ومال على مشيئتهم وأهوائهم فكانت هذه الفترة أكثر العصور المظلمة شؤماً على البلادين

وقد ظهر الاتراك العثمانيون عند استيلائهم على الديار الشامية والمصرية بمظهر الخلفاء الاولين فأجروا العدل بين الناس وأقاموا دعائم سلطانهم على اساس الحلم والانصاف فأقالوا البلاد من عثرتها وانتشلوها من وهدة الخراب والانحطاط التي كانت دول الاكراد والمماليك والمغول قذفت بها اليها . لكنهم بعد انقضاء زمن الفتح وانبساط رواق سلطانهم في هاتيك الديار ظهر عجزهم عن مجاراة الخلفاء الاولين وفقدوا تلك الاخلاق السامية التي تخلقوا بها عند الفتح لانهم لم يألفوها في قصور السلاطين الذين تقدموهم وشادوا مجد دولتهم على أسنة الرماح وشفار السيوف ذاهلين عما ينبغي لارباب التيجان ان يتحلوا به من الفضائل الرائعة ليتمكنوا من اقامة أركان الدولة على اساس صحيح لا تقوى عليه صروف الدهر وكوارث الايام : فجار لذلك السلاطين وجار عمالهم في القطرين الشقيقين وهم في شغل عنهم يتلاهون ببهرجة الملك فرجعا القهقرى وغرقا في لجة عميقة من الضنك والشقاء . وحال اعتساف الحكام ووشاياتهم بعضهم بالبعض الآخر وتحاسد الزعماء وتنابذهم وتنافرهم دون سد ثلمتهما واصلاح ما فسد من امورها

وفي ايام السلطان سليم الثالث حمل نابليون بونابرت على مصر ثم اجتازها الى سورية سنة ١٧٩٩ فاخضع احمد الجزار والي عكاء وفتح بعض مدن فلسطين ثم قفل راجعاً الى مصر ففرنسا وعاقد الاتراك على السلم مكرهاً

عهد ابراهيم باشا في سورية

وفي ايام السلطان محمود (١٨٠٨ — ١٨٣٩) انفرجت الازمة السياسية في البلاد وشعر الاهلون في مصر وسورية بشيء من اليسر والهناء . غير ان ظهور الوهابيين في جزيرة العرب افسد الامر على البلاد . وكان الحكم في مصر افضى الى محمد علي بموافقة الدولة العثمانية وكان هذا الفاتح العظيم منذ ما تبوأ عرش الامارة المصرية يرمي الى التوسع في الملك وانشاء سلطنة واسعة الاطراف تليق بعظمته ولم ترَ الدولة اقدر منه على خضد شوكة الوهابيين فحقق ظنها به وقضى على هؤلاء القوم قضاء مبرماً . وحدث ان عبدالله باشا بن احمد الجزار والي عكاء خرج عن طاعة الدولة فعهدت الى محمد علي في تأديبه واعادته الى طاعتها فارسل ابنه ابرهيم باشا الى عكاء سنة ١٨٣٢ فحاصرها وفتحها بمساعدة الامير بشير شهاب الكبير حاكم لبنان مع رجاله اللبنانيين وكافأ صاحب مصر امير لبنان بان خوله الحق في تسمية الحكام المحليين في جميع انحاء سورية ولبنان . ولم يقتصر الفاتح المصري على اخضاع العاصي بل اوغل بجنده في البلاد الشامية واستولى على دمشق وصادق اللبنانيين فكانوا له عوناً على الاتراك ردحاً من الزمن عملاً بالاتفاق السرّي الذي عقد بين والده والامير بشير يوم زاره في مصر . ثم انقلب فريق من اللبنانيين

عليه لعدة اسباب اهمها اقدامه على نزع سلاحهم وارهاقهم بالضرائب فقاتلهم واوغل في بلادهم ثم سار الى حمص وبيلان وافتتحها . وبعد سنة واحدة لاجتيازه حدود مصر دخلت بلاد الشام باسرها في حيازته واقر حكومة والده فيها واستأنف الزحف على الاستانة لفتحها . فاشفقت اوربا من بطشه على سلامة السلطنة واختلال التوازن الدولي فاتفقت انجلترا والنمسا وبروسيا وروسيا على اخراجه عنوة من ارض الدولة . وبعد ان امنت الدول جانب فرنسا التي كانت تؤيد امير مصر ارسلت الى سورية حملة دولية مختلطة غلبته على امره بمساعدة ثوار لبنان . وفي استيلاء الاميرال بابيه الانجليزي على حصن عكاء تمَّ جلاء الجند المصري عن ديار الشام على اسلوب فني مدهش اعجب به اعظم رجال الحرب في اوربا ورجوعها الى الدولة العثمانية بعد ان قامت مصر على حكمها ثمانية اعوام

ولقد اشتهرت حكومة ابرهيم باشا في سورية ولبنان بالعدل والانصاف . وما زال السوريون واللبنانيون الى اليوم يتناقلون اخبار هذا الفاتح العظيم ويتحدثون بما تجلى في بلادهم من آيات عدله وشجاعته ومروءته . وهم مجمعون على انه فاتح عظيم ومن اكبر رجال القرن التاسع عشر

بعد فتنة ١٨٦٠

بعد الفتنة التي اثارها رجال الدولة العثمانية سنة ١٨٦٠ في لبنان وسورية تطرق الضعف الى البلاد الشامية فهجرها كثيرون من اهلها الى الخارج التماساً للحرية والهناء . وادرك الاهلون ما هم مستهدفون له من الاخطار في قعودهم عن الاخذ باسباب الرقي الصحيح وكان ان اقبلت على البلاد الرسالات الاوربية الدينية فانشأت مدارس كثيرة ونشط الاهلون من عقالهم ونسجوا على منوالها فاكثروا من دور العلم . وما هي الا فترة من الزمن حتى غصت البلاد بالمتعلمين من ابنائها ولا سيما لبنان حيث استقر اكثر الرسالات فقصد فريق كبير منهم الى الديار المصرية في مدات متقاطعة فاختصتهم الاسرة العلوية الشريفة بالتفاتها السامي وقربت نوابغهم ونشطت علماءهم وكتابهم فكانوا من اعظم دعائم الحركة الفكرية في وادي النيل ولم تدخر وسيلة لمساعدتهم على تعزيز مقامهم في هذه البلاد حاذية حذو مؤسسها العظيم الذي كان اول من فكر في اتخاذ اللبنانيين وبعض السوريين عوناً لاخوانهم المصريين وشركاء لهم في تأسيس نهضة مصر الحديثة على قاعدة تبادل المنفعة بين القطرين الشقيقين . وبذلك استطاع هؤلاء المهاجرون ان ينشئوا في وادي النيل وحدة قومية تغبطهم عليها سائر الجاليات غربية كانت او شرقية وان يعيشوا مع اخوانهم المصريين اشقاء متآزرين في السراء والضراء

الزيتون بولس مسعد

باب شؤون المرأة
وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

ارشادات صحية لربات المنازل

للدكتور محمد زكي شافعي
السكرتير الفني بمصلحة الصحة العمومية

ربة المنزل الحازمة والمالكة لناصية وظيفتها في الحياة هي نعمة عظيمة من أنعم الله وملاك رحمة واسعاد أرسلها إلى عباده لتخفف من لوعة ما يعانيه بنو الانسان في طريق الحياة المملوء بالاشواك . ربة المنزل الجديرة بهذه المهمة السامية والرسالة المقدسة لها أعظم شأنٍ في مستقبل قرينهـا وأولادها فهي الرأس المدبر والقوة المنفذة في مملـكتهـا الصغيرة بل هي الاساس الذي تبنى عليهِ دعائم تقدم القطر اذ هو يتكوَّن من مجموعة هذه الممالك الصغيرة فاذا اختلَّ توازن احداها عاق ذلك تقدم القطر في ناحية من نواحيهِ فتأثرت بقية النواحي — ولا تظنوا إن في هذا القول أي مبالغة . فربة المنزل بسبب اهمالها قد تنتج ابناء ضعاف الصحة يصبحون عالة على الامة بسبب عدم كفايتهم للعمل أو أولاداً لا اخلاق لهم يكونون شرًّا عليها ومعاول هدم في بنيانها اذ أن الامم الاخلاق — ألا ترون أيها السادة ان ربة المنزل اذا حادت عن الطريق السوي قد تكون سبباً في تلف زوجها وفي ذلك الطامة الكبرى بل قد تـكون مثالاً سيئاً لغيرها فتقوض في من تتسرب اليهم عدواها دعائم هناءتهم وبالتالي تصبح معولاً من معاول الدمار في كيان الامة

ربة المنزل — أيها السادة — هي المسيطرة الاولى على الصحة العامة هي مفتاح الصحة لنا جميعاً أفراداً وجماعات ولذلك شغلنا وشغلت الامم الاخرى بالعناية بها جنيناً وطفلاً وفتاة وعروساً وأمًّا وكهلة وشيخة — فخطورة هذا الموضوع هي التي دعتني لان أحاضركم هـذا المساء في الارشادات الصحية اللازمة لربات المنازل وأرجو ان لا يجول بخاطر أحد منكم ان

ما سأذكره قاصر على الاناث دون الذكور بل العلم به لزام علينا معشر الرجال لان الجنس اللطيف مهما دفعه الماضي الذي اصبح الآن مصدر ألمنا — ماضي حياته في أسرنا واستعبادنا — مهما دفعه الى الانتقام من الجنس النشيط فاننا يجب ان نشعر على الدوام بأننا ملزمون باعداد وسائل الرفاهية والغبطة لشريكة حياتنا وكفى انها من جنس أمنا — هذه المخلوقة التي تحوطها هالة من النور والتقديس وتصدر عن صوتها الحنون أعذب نغمات الموسيقى السحرية لابنائها وفي بسماتها اقوى الآمال وفي لثماتها أرقى درجات الحنان وفي احضانها نستمتع بغاية الهدوء والاطمئنان ومتى أحسسنا بلمس يدها لاجسامنا شعرنا بدبيب الحياة وبالصحة تجري في عروقنا ومنها نأخذ النصح الخالص ورضاؤها علينا تذلل أمامنا الصعاب فهي اذا أرادت ازالت من ناموس الحياة كلمة «المستحيل» وقضت — ولا رادّ لقضائها — وقالت وكان القول ما قالت — وجماع القول ان الام هي روح المحبة المتغلغلة في أعماق القوة أو بمعنى آخر هي أسمى مظاهر العقل البار وهذه هي ارقى مرتبة من مراتب الانسانية

اني أقصد بالارشادات الصحية — أيها السادة — كل ما يدعو للعناية بصحة المرأة ولتجديدها ولصونها فاننا نعلم جميعاً ما عليه جسم المرأة من الدقة ونعلم ايضاً ما له من الوظائف الهامة وما يتحمله في سبيل ذلك من المشاق ولذلك هو في حاجة قصوى الى العناية به محافظة على روائه وبهائه وعلى ضمان قيامه بوظائفه على الوجه الاكمل . فالمرأة كالشجرة التي لا تثمر ثماراً طيبة الا ان كانت سليمة فان أصابها العطب أثمرت ثمراً فجّاً أو تعذر عليها الاثمار فأصبحت عقيماً ولذلك فانني سأتتبع خطواتها من يوم دخولها في مضمار الحياة العملية المنزلية لان المجال لا يتسع لتتبع حياتها العملية خارج المنزل — ولنترك ذلك لفرصة أخرى

أيها السادة

تبدأ الفتاة حياتها الزوجية الجديدة وقد تكون ملمة بعض الالمام بمبادىء الصحة وربما تجتهد في تطبيقها على منزلها وحياتها الجديدة أو تهملها وقد تكون معلوماتها خاطئة وفي الغالب يرجع سبب ذلك الى تشرب أفكارها بما يلقيه الوسط في روعها من المبادىء غير الصحيحة فتنساق في الاخذ بها حرصاً على اتباع ما يقال له « المودة »

ان «المودة» — أيها السادة — لم تترك بيتاً لم تدخله ولم تترك سيدة لم تحترق بنيرانها الا من عصم ربك وقليل ما هم — يبدأ أثر «المودة» السيء من وقت بدء السيدة لحياتها الزوجية . ينشأ هذا الشر المستطير من اليوم الاول من ايام هذه الحياة المقدسة مع انهُ على هذا البدء يتوقف تمتع السيدة بصحة جيدة في معظم الباقي من حياتها وعليه يتوقف قيامها باحسن واقدس ما يجب عليها وهو الامومة

كنا فيما مضى نعيب على «المودة» ضيق الثوب والمشد وما ماثلهما ونخشى اثرها في إضعاف النسل ولكننا والحمد لله قد خلصنا من هذه الرزايا بفضل الميل العام الى الرياضة البدنية اذ ان الثياب الضيقة تعوق السيدة عن اداء ما تتطلبهُ هذه الرياضة ولكنْ لعنة المودة لا تزال تتبع السيدة اينما سارت اذ حلت بدل الثياب الضيقة الملابس الفضفاضة والطويلة التي لا زلنا نرى البعض من السيدات يلبسنها في الطرقات العامة فيكنسنها بذيولهن وبذلك تبلى الثياب بسرعة فضلاً عما تحمله الذيول من الجراثيم التي تنتقل معها الى المنزل . ولا شك ان مثل هذه الثياب لا تصلح الاّ لمن لا ينتقلن من مكان الى آخر الاّ وهن راكبات فضلاً عن انها لا ترتدَى الاّ في السهرات. ونحمد الله ان اكثر سيداتنا غير هاويات للسهرات — وان كانت عدوى «المودة» تكاد تهدم فروق الموارد المالية التي يجب ان تراعى بين الغنية والفقيرة اذ السيدة المتوسطة الحال تحاول التشبه في ملابسها بالسيدة الغنية فتختل ميزانيـة زوجها ويرفرف على المنزل شبح الخراب والشقاء

وهناك ايضاً «مودة» اخرى خطرها يعود على الامة مباشرة وهي «مودة» الاقلال من النسل فان الفتاة تجعل همها الوحيد من بدء السنة الاولى لحياتها الزوجية ان تترك وشأنها بغير نسل لكي تصيب من متع الحياة اوفر نصيب قبل ان تقيد حركاتها وسكناتها الاطفال ، ولكي تحافظ على بهاء منظرها وتنتحل هي وقرينها الاعذار لذلك واهمها ان نفقات المعيشة اصبحت كثيرة فلا يقدران على تحمل نفقات مولودٍ هما مجبران على انباتهِ نباتاً حسناً واحاطتهِ بجميع أسباب الهناءة وقد تستعمل لمنع النسل طرقاً ضارة كلها وربما تسبب للسيدة العقم المستديم او امراضاً نسائية عديدة او امراضاً عصبية أو نفسية يتعذر الخلاص منها بسهولة. وفي بعض الاحيان قد تصل القسوة بالام الى قتل الطفل وهو جنين في بطنها ويكفي للتدليل على شناعة هذا العمل أن نصف الام بالكلمة التي تتفق وفظاعة عملها أي بوصف القاتلة . والسيدة التي لا تحب النسل هي في الواقع أقل من الحيوان الضاري احساساً وشعوراً بل هي امرأة خرجت عن طبيعتها واظهرت عواطف لا تتفق والغرائز البشرية لان حب النسل والتناسل غريزة في كل انثى في المملكة الحيوانية على الاطلاق — والتناسل للمرأة التي تتصف بالامومة الكاملة هو كالغذاء والهواء اللازمين لحياتها لان رسالتها في الحياة هي اقامة النسل وحفظ الجنس ولا بد لها من ان تلبي داعي خالقها والاّ كانت متعدية لطورها معطلة لحياتها فتحيا حياة لا معنى لها اذ انها بلا غرض سوى ارضاء الغرائز الحيوانية الزائلة — أما الروح فتقصد دائماً الى الخلود لا بالاقتصار على الحياة الاخرى بعد الموت بل بالخلود في هذه الحياة الدنيا أيضاً وما هذا الخلود الاّ ان نظل احياء في اولادنا واحفادنا الجديرين بان يحملوا اسماءنا . هذه هي مهمتنا في الحياة

قد يقال ان الفقر يأتي في اثر الاطفال وأنا أقول إن السعادة في التناسل والنسل . وقد

توجد هذه السعادة في اكواخ الفقراء حيث توجد القناعة في حين ان التعاسة قد تهيمن على قصور الاغنياء . ان مظاهر السعادة التي تشاهد أحياناً في هذه القصور قد تكون مظاهر خادعة وقد يكون في بعض هذه القصور من الشقاء وعدم الهناءة ما لا يخطر ببال ولا سيما اذا كان القصر لا يزينه طفل ويملأه سروراً وحبوراً لان نعمتين من اعظم نعم الله على الجنس اللطيف تتمناهما كل فتاة هما « الصحة والاطفال » فاذا حرمت منهما ذات مال فلا ينفعها مالها ولا جاهها لاستخلاص السعادة مما يحيط بها « لها تتمة »

احاديث صحية وطبية

للدكتور شخاشيري

مقام الطبيب من صحة الجمهور

لا جدال في ان مقـام الطبيب من صحة الجمهور خطير وعلى جانب كبير من الشأن فهو خطير بحكم صناعته التي يمارسها بين عامة الناس وخاصتهم وخطير بما ينشأ عن هذه الصناعة من تعارف وروابط بينه وبين افراد الجمهور فضلاً عن الفوائد المشتركة التي يحس بها هو ومن يتصل بهم على السواء. فتجده يدأب في فنه على صيانة حيوية الأمة والزيادة من نضارتها والدفاع عن كيانها ويرفع بمهارته وحسن سياسته وبمقدار ما يسديه من خدمات مقامهُ الفني والاجتماعي الى المستوى الذي يجب ان يكون فيه محترم الشخصية موفور الكرامة فيعيش في سعة وطمأنينة لا هموم تساوره ولا منازع اقتصادية تصرفه عن متابعة الدرس والتغذي بالمعارف والعلوم الحديثة والاختبارات المستجدة . ومن الحكمة وسداد الرأي ان تضمن له وسائل المعيشة الكريمة والظهور بصورة محترمة تتفق وكرامة الفن الذي نصب نفسه له. وفي ذلك تتوفر جهوده على العناية بصحة الجمهور الذين هم في الواقع جزء من ذلك الجمهور. ومع هذه الاعتبارات الملموسة الأثر ترى صلة الطبيب بالجمهور ضعيفة متراخية الاوصال على غير ما يجب ان تكون عليه من تلاؤم وتقرب . فانك ترى بعض الجماعات حتى في اوقات اليسر والرخاء لا تنال من الرعاية الطبية لا عن طريق المعالجة ولا عن طريق الوقاية القدر الذي تستحقه . وترى من الناحية الاخرى اطباء عديدين على استعداد فني كبير من غير عمل وفي حالة عسر شديد . وكذلك تشاهد مرضى كثيرين بحالة بؤس وشقاء ولا سيما في هذه الاوقات العصيبة يطلبون التداوي ويتلمسون الدواء فلا يجدون لا هذا ولا ذاك وهم في حال

لا يقوون على دفع تكاليف المعالجة كما يجبّ فيظلون عرضة للامراض . في حين ان طائفة من الاطباء تشتغل في استمرار وخصوصاً في العيادات المجانية مقابل أجر ضئيل . وهذا التناقض غير مقتصر على مصر وغير مصر من بلاد الشرق بل تجد امثاله في اوربا واميركا وكل مكان . وقد وصل سوء الحال في اميركا إلى حد الخوف من انقطاع عدد كبير من الاطباء عن مزاولة صناعتهم وفي اوربا يتحدثون بانَّ العيادات الخصوصية ستبطل وتعود لا وجود لها مما جعل موضوع مقام الطبيب من الصحة العامة في غاية الخطورة . وقد تألفت لجنة في العام الماضي في الولايات المتحدة لدرس تكاليف العناية الطبية من نواحيها المختلفة وأسباب هذا التناقض الموجود في علاقة الطبيب بالجمهور وازالته . ويظهر ان منشأ هذا التناقض هو تقدم العلوم الفنية واقبال الاطباء على التخصص بها والتوفر على فروعها وتيقظ الحكومات لمساعدة الجمهور وتوزيع الفوائد الطبية على افراده في حدود طاقتها. وأقرب شاهد ماثل امامنا حكومة مصر ومنشآتها العديدة من عيادات وملاجيء ومستشفيات فانها تضيق على الطبيب مجال عمله الحرّ في عيادته الخاصة وترغمه على اتخاذ وسائل تحط من كرامة الفن وتنال من مقامه الاجتماعي. وهو في حال لا يكفيه ان يكون متتبعاً لخطوات العلم فقط ملمًّا بأبحاث العلماء في مختلف الفروع الطبية واقفاً على الخطوات الحديثة في التشخيص والمعالجة والوقاية بل عليه ان يعتبر المريض الذي يتداوى على يديه جزءاً هامًّا من جسم الامة لا فرداً مستقلا عنها وان مايصيب الجزء من مرض وعلة يتأثر له الجسم ويكون السبب في ضعفه والنيل من قوته والباعث على فنائه واضمحلاله

الحكومات الاوربية وسياستها الطبية

يعنى الاوربيون اشد عناية بتوسيع نطاق المعالجة الطبية إلى اقصى مدى يخوله العلم لانها في نظرهم اساس ينبني عليه قوام صحتهم وبقدر ما يكون هذا الاساس سليماً من الوهن تكون اعمالهم سليمة ومنتجة . وعليه فهم ينظرون إلى الطبيب كما ينظر إلى المحارب في خطوط الدفاع عن كيان امته فعليه تقع التبعة في دفع غوائل الادواء عنهم والقضاء على مسبباتها بالوسائل العلمية الحديثة . وأهم اركان الدفاع عن الصحة العمومية ومكافحة الاوبئة والامراض الوافدة التشخيص الباكر وان النجاح في التغلب عليها يتوقف على صحة ذلك التشخيص وسرعته . ومقام الطبيب الحر اليوم يختلف عما كان عليه سابقاً فهو بعد توزيع العناية الطبية على افراد الامة فقيرها وغنيها سواء امام امرين لا ثالث لهما فاما ان ينضم إلى الحكومات او الجمعيات ويشتغل بأجر محدود وأما ان يبقى معرضاً في أعماله الحرة الى المنافسة الشديدة ويتقبل مصيرها وما تؤول اليه نتيجة هذا الكفاح القائم بينه وبينها بالرضى ومن غير تذمر

التأمين ضد الامراض

وقد استقر الرأي العام في اوربا واميركا على محاربة الادواء كجماعة منظمة لا كفرد وانشأوا لذلك جمعيات التأمين ضد الامراض ورأوا الحاجة ماسة الى العناية بالعمال وغير العمال ووقايتهم من الامراض ومعالجة من يصاب بها منهم مقابل قدر صغير من المال يدفعونهُ كل شهر من اجورهم. وقد سرى هذا الرأي وعم طبقات العمال وتطور وجعلوا له نظاماً وقيدوا المنضم اليهِ بشروط كما فرضوا غرامة على من يخرج عليه من الاعضاء . وكانت المانيا اول من قرر الاخذ بنصرته سنة ١٨٨٣ وانتشر نظام التأمين على صحة العامل بعد الحرب الكبرى في اوربا واميركا وامتد الى ابعد من اوربا واميركا وكان على صورتين اجباري واختياري . فالتأمين الاجباري متبع في المانيا والنمسا ونروج ولكسمبرج والمجر وبريطانيا ويوغسلافيا وروسيا واوربا المتوسطة وفرنسا وهولندا واليابان وتشكوسلوفاكيا والبرتغال وبولونيا واليونان . وجميع هذه الممالك توجب على كل مشتغل بصناعة معلومة وكل من لا يتعدى ايراده مبلغاً معيناً ان يضم الى المؤمنين على صحتهم او بالحري الى الجمعيات التي تجمع المال بالتقسيط وتنفقه عند الحاجة على المرضى . وهو اختياري في الارجنتين واسبانيا والدنمرك وسويسرا وبلجيكا وفنلندا واسوج وهذه الامم لا ترغم احداً على التأمين على صحته ولكن الحكومة تشجع المؤمنين بالاعانات حيناً وبالمكافئات حيناً آخر . ويظهر من الاحصاء الرسمي العام ان اوربا ماعدا اسبانيا وايطاليا لا يزال نظام التأمين فيها غير شامل لكل الامراض اي ان المؤمن له الحق ان يتداوى من الامراض المعدية وليس له هذا الحق في احوال التداوي بالجراحة فهو مكلف ان يدفع عن هذه الوسيلة عند ما تدعو الحاجة اليها . والغاية التي ترمي اليها تلك الامم هي ان يتآزر المجموع على حمل اعباء المرض لكي لا يقضى على الفرد بسبب المرض او بسبب توقفه عن العمل او عجزه عن دفع نفقات المعالجة . وكانت نتيجة هذا التآزر والاقبال على التأمين ان تضاعفت العناية الطبية بسواد الامة وازداد عمل الاطباء وتحسن ايرادهم وقل تفشي الامراض بينهم . وتدل الاحصاءات على ان ثلاثة اخماس الشعب الالماني منضم الى هذا النظام البديع وله الحق في المعالجة الطبية عند الحاجة اليها مجاناً . وان ثلاثين الف طبيب او ثمانين في المائة من مجموع اطباء تلك الامة قائمون على خدمة هذا النظام يمارسون صناعتهم في ظله الوارف ولولاه لضاقت بهم الدنيا على رحبها ودبَّ اليأس في قلوبهم وقنطوا من الحصول على معايشهم. وعدد المؤمَّن عليهم في بريطانيا العظمى بلغ سبعة عشر مليون عامل. وفي تشكوسلوفاكيا نصف سكانها مؤمن على صحتهم ويعتني بهم نحو خمسة آلاف طبيب من مجموع ٧٣٠٠ طبيب وقد بلغ ايرادهم سنة ١٩٢٧ نحو مليون ونصف مليون من الجنيهات ، وعدد المؤمَّنين في

الدانمرك نحو٦٦ في المائة من مجموع السكان ومعدل نسأهم بين ١٤ و٦٣ . ومعظم العمال في هولندا مؤمّن عليهم .وفي بلجيكا ٥٠ في المائة من الاهالي مؤمنون و٢٥ في المائة من المجر و٨٠ في المائة من شعب بودابست . وأما في بولونيا فلم يتجاوز معدل المؤمَّنين من شعبها ١٦ في المائة. وفي يوغسلافيا ٢/١ ٣ في المائة وهذا يدل على ان معدل المؤمَّنين ينقص في البلاد الزراعية عنه في غير هذه ما عدا الدانمرك . ويقوم بهذا التأمين الجمعيات المؤلفة من العمال وممثلي الموظفين وهم احرار في شؤونهم .وتجمع الاموال من المشتركين ومن الاعضاء الامناء والحكومة تساعد بالتبرع

وفوائد التأمين عديدة وتختلف في بلاد عن أخرى وهي ماليــة وفنية وليس في نظـام التـأمين ما يبيح هذه الفوائد لغير المؤمنين الا ان الفوائد الطبية تشمل اهل المشـتركين . والفائدة المالية هي ان يدفع للمريض المؤمن مدة مرضه ما يعادل نصف أجره والفائدة الطبية هي ان ينال المريض من الطبيب المعالج العناية الطبية في حدود مرسومة ، ما خلا بريطانيا فالمعالجة غير مقيدة بشروط الأزمن المعالجة ، ومع ذلك فالمريض المؤمن على صحتهِ يتداوى مدة طويلة ويدفع الى عائلتهِ ما يقوم بمعيشتها مدة مرضه . وفي المانيا ينال العامل المؤمن في حال المرض المساعدة المـالية والمعالجة الطبية في جميع صورها واحتياجاتها كاجراء عملية جراحية والمعالجة الطبية في المصحات والمستشفيات والاشعة ومعالجة الاسنان والادوية ويدفع قيمة معينة للحامل عن المدة التي تضطر فيها الى الانقطاع عن العمل مع العناية بها قبل الولادة وفي اثناء الولادة وبعدها ويدفع لها اجر المولد وأجر الممرضة التي تعتني بها وبمولودها . وقد بلغ عدد الامهات سنة ١٩٢٥ اللواتي نلنَ هذه المعاونة نحو ٨٥٠ الف امرأة وهو نحو ثلثي والدات تلك السنة

كان اثر هذا النظام الواسع النطاق ان زاد زيادة عظيمة في عمل المستشفيات وغيرها من المعاهد الطبية وكان شبه دعاية للاعمال الطبية وكذلك كان أثره في تقرير اجور الاطباء وتعيينهم في المراكز المزدحمة بالعمال ظاهراً . وقد دعت جمعية الامم في العام الماضي الى عقد مؤتمر دولي ليدرس شؤون الصحة العـامة في الارياف والقرى ومعرفة ما يحتـاج اليهِ كل قسم منها من الاطباء بحيث ينال الجميع العناية الطبية على التساوي . ولهذا النظام ثلاث فوائد عامة فالاولى اجتماعية فانه يصون كرامة العائلة من مذلة الفقر في اثناء مرض عائلها والثانية طبية بحيث يساعد المريض على التداوي واسترداد قوته بالادوية والارشادات والتمريض والثالثة الوقاية فهو يضمن للحامل جميع اسباب الصحة والرفاهية قبل الولادة وفي اثنائها وبعدها وفي مدة الرضاعة فضلاً عن الوسائل التي تتخذ ضد انتشار الامراض المعدية كالسل والزهري وغيرها . ولا يخفى على فطنة احد ما ينطوي عليه هذا النظام من فوائد بعيدة المدى في استقرار صحة الفرد على قاعدة منظمة ومعيشة مرتبة وشعور مطمئنة وهو ولا شك اقوى العوامل على حفظ الصحة ووقايتها من عدوى الامراض

المانيا تشكو كثرة الاطباء

نشرت احدى المجلات الطبية رسالة عن كثرة الاطباء في المانيا قالت يحتاج طالب الطب في المانيا الى سبع سنوات دراسة بما فيها مدة الامتحانات وسنة تمرين والى سبعين الف مارك او نحو ٣٣٣٢ جنيهاً ولكي يكون الطبيب المتخرج مطمئن البال الى ايجاد عمل يقوم بتكاليف المعيشة عليه ان يهتم بالحصول على مركز في جمعية العناية بالمرضى لان ايراد العمل الحر في حكم العدم وللجمعية المذكورة شروط لقبول الاطباء منها ان يعتني كل طبيب بعدد من المرضى لا يقل ولا يزيد على سمائة مريض . ولما كانت هذه النسبة قد تعادلت فقبول اطباء جدد اصبح غير متيسر الا في احوال ملء المراكز الخالية بسبب اجازات عادية او مرضية وان على المتطوع ان يقضي ثلاث سنوات بصفة مساعد قبل ان يعيَّن تعييناً رسميًا . وعدد المساعدين لا يزال ناقصاً عن المطلوب ومعنى هذا ان طالب الالتحاق مستعد ان يشتغل كمساعد من غير مقابل الى ان يخلو مركز ومع ان الاجر على معالجة المريض المؤمن على صحته ضئيل جداً فيكاد يكون من المستحيل على الطبيب المتخرج حديثاً ان يجد في العمل الحر ما يصرفهُ عن الاهتمام بمثل ذلك المركز وقبول ما فرضت له الجمعية من شروط . والمراكز في المصالح الاخرى قليلة جداً وخلوها نادر . وصناعة الطب وحاجة البلاد الى معونتها على رأي بعض الثقاة الخبيرين لا تدعو الى أكثر من الف ومائة الى الف ومائتي مخرج في السنة وان كل زيادة على هذا العدد تقلل من كرامة الفن بما ينشأ عنهُ من المحاولات والتنافس جرياً على سنة تنازع البقاء

وهذا من دون شك ينال من شهرة الاطباء القدماء المعروفين. وفضلاً عن ذلك فعدد الطلبة المنضمين الى كليات الطب قد فاق في السنين الاخيرة أضعاف ما تحتاج اليهِ البلاد. فبلغ في سنة (١٩٢٨ـ١٩٢٩) ٣٣٥٠ طالباً وفي سنة (١٩٢٩ـ١٩٣٠) ٣٧٩٥ وفي سنة (١٩٣٠ـ١٩٣١) ٤٢٦٧ طالباً ومن هذه الارقام يتضح لك ان الزيادة في مدى ثلاث سنوات قد بلغت ٧٨٠٠ طبيب لا تحس البلاد بحاجة الى معونتهم الفنية. وهذه الزيادة مستمرة في صعود وعدد من لا يكفيهم دخل عياداتهم يتضاعف كل سنة ويعدون بالآلاف . ومما تقدم فأنت ترى ان الشعب الالماني مهدد بخطر انحلال اخلاق طائفة كبيرة من ارقى عناصره علماً وخلقاً وهذه الحقيقة تدعو الى الاسراع في اتخاذ الوسائل اللازمة لملافاته قبل استفحاله وأنجع طريقة هي ان تفرض على الطالب شروطاً مرهقة لا يقبل الاخذ بها الا من كان على استعداد في ظروفهِ ومواهبه ونحن نأسف اشد الاسف على تقييد العلم بشروط ولاسيما في امة راقية كالمانيا

الدكتور شخاشيري

باب الزراعة والاقتصاد

في الانتاج الزراعي

كتبت هذا البحث على أثر ما قرأته للجنة البرلمانية في موضوعه منذ شهور

متوسط محصول الفدان من القطن الاشموني بالجهات الجنوبية ٤ر٥٠ قنطار — حيث يباع قبل الحلج — ومتوسط ثمنها ونفقات انتاجها بالمزارع الكبيرة قبل سنتين اي في سنة ١٩٢٩ المتداخلة في سنة ١٩٣٠ والآن

الثمن بالقروش	سعر القنطار	النفقات	
١٨٠٠	٤٠٠	٦٥٠ مصاريف زراعية بما فيها تطهير المساقي واجرة الخفر	قبل سنتين
		٢٥٠ ضرائب ورسوم اميرية ومصاريف ادارة زراعية ٥٠ قرشاً	
		٩٠٠	
١١٢٥	٢٥٠	٦٠٠ مصاريف الخ	الآن
	بعجز ٣٧ر٥ ٪	٢٣٠ ضرائب الخ والنقص في مصاريف الادارة لا في الضرائب	
		٨٣٠	

ومتوسط محصول الفدان من القطن السكلاريدس بالجهات البحرية ٣ قناطير ومتوسط ثمنها ونفقاتها كما يلي :

الثمن بالقروش	سعر القنطار	النفقات	
١٦٥٠	٥٥٠	٦٣٠ مصاريف الخ	قبل سنتين
		١٧٠ ضرائب الخ	
		٨٠٠	
٩٠٠	٣٠٠	٥٧٠ مصاريف الخ	الآن
	بعجز ٤٥ر٥ ٪	١٥٠ ضرائب الخ والنقص في مصاريف الادارة	
		٧٢٠	

ملحوظة : راجع مذكرة سياسة الحكومة القطنية للاستئناس وما سيذكر بعد

واذاً فالربح كما يلي بالقروش :

قبل سنتين	الآن	العجز الآن
٩٠٠	٢٩٥	٦٧٫٣ ٪ بالجهات الجنوبية
٨٥٠	١٨٠	٧٩ ٪ بالجهات الشمالية

ومتوسط محصول الفدان من القمح ٦ ارادب و٦ احمال تبن بالجهات الجنوبية و٣½ ارادب و٣ احمال بالجهات الشمالية ومتوسط الثمن والنفقات كما يلي :

في الجهات الجنوبية

الثمن	السعر	النفقات	
١٠٢٠	١٥٠ الاردب	٤٣٠ مصاريف الخ	قبل سنتين
	٢٠ الحمل	١٦٥ ضرائب الخ	
		٥٩٥	
٦٦٠	١٠٠ الاردب	٣٤٥ مصاريف الخ	الآن
	١٠ الحمل	١٥٥ ضرائب والعجز في المصاريف الادارية	
		٥٠٠	

في الجهات الشمالية

الثمن	السعر	النفقات	
٥٨٥	١٥٠ الاردب	٣٧٠ مصاريف الخ	قبل سنتين
	٢٠ الحمل	١١٠ ضرائب الخ	
		٤٨٠	
٣٨٠	١٠٠ الاردب	٣٠٠ مصاريف الخ	الآن
	١٠ الحمل	١٠٠ ضرائب الخ	
		٤٠٠	

واذاً فالربح كما يلي .

قبل سنتين	الآن	الفرق
٤٢٥	١٦٠	عجز ٦٢ ٪ بالجهات الجنوبية
١٠٥	والآن خسارة ٢٠ قرشاً	بالجهات الشمالية

وبما انه في المزارع الواسعة لا يستطيعون عادة زراعة الارض كلها زراعة نيلية لحسابهم تزيد نفقاتها في الجملة عن ايراد ما يزرع منها زيادة تأكل الربح الطفيف الذي قد يكون الآن

من زراعة القطن الصيفي وزراعة القمح الشتوي وقد اقتصرنا على ذكر انتاجهما ونفقاته دون سائر الزروع اذ الغرض التمثيل لا الاستقصاء فضلاً عن انهما اهم الزروع

وتزيد النفقة حينما يكون الري كله او اكثره بالآلة ويزيد الانتاج في الارض الفائقة الخصب — واذا كانت الارض اقل من المتوسط انتاجاً لسوء ظروفها الزراعية او الادارية فان الخسارة تكون في كل زرعة كما هو الحال الآن في كثير من المزارع الكبيرة في هذا الرخص إلاَّ انهُ في الغالب يجمع الملك في استغلال ارضهِ بين ذراعتها لحسابهِ والتأجير قطاعي لصغار الفلاحين فتتجزأ الارض الى مزارع صغيرة ومن هنا يكون له ربح بقدر ما يكون من التأجير وموافقته للظروف بدون افراط ولا تفريط

في المزارع الصغيرة حيث يستغلها زراعها بانفسهم واولادهم وحيث ينتفعون من ماشية فلاحتها انتفاعات اخرى تقل نفقات الانتاج الى النهاية الصغرى واذاً يكون منهُ ربح هو في الغالب نتيجة عمل الفلاح واولاده يأخذه وهو كزارع لا كأجير

***

منذ شهور استشارني احد موظفي الحكومة وهو مستأجر واخوته ارضاً بجوار ارضهم لاحد الملاك — فيما يصنع لاقناعه بقبول ايجار معقول فكتبتُ له مذكرة بالقواعد التي يصح الرجوع اليها في تقدير الايجار تقديراً معتدلاً وقد أثمرت هذه الوسيلة وجاء عندي هذا الموظف شاكراً فشجعني هذا على التوسع في تلك المذكرة ونشرها في مجلة المقتطف «عدد يونيو الماضي»

منذ شهور سألني احد المشتغلين بالادارة الزراعية عما كان يجري قبلُ وسعر القطن رخيص في استغلال الارض بربح فأجبتهُ باجمال أبينهُ فيما يلي

حينما كان ريع انواع الحاصلات الزراعية قطنية كانت او حبوبية او علفاً متماثلاً وكانت اثمانها واثمان المصنوعات أهلية كانت او اجنبية متناسبة وكانت الضرائب والرسوم متجهة الى التقليل والتخفيف وكانت احوال الفلاح مستقرة منسجمة وكان هناك مبادىء نهضة عامة زراعياً ومالياً واجتماعياً يسودها الاطمئنان الى الحاضر وحسن الامل في المستقبل — حينذاك وكان ذلك منذ بضع وثلاثين سنة كانت زروع العلف كالبرسيم والفول واثرها الفعال في تخصيب الارض وفي تسهيل تربية المواشي — وكان عدد هذه سواء كانت للعمل او للانتفاع بالبانها ولحومها — وبالتالي كان السماد العضوي الناتج من ذرائبها وكان اثرها في فلاحة الارض وتموين الاسواق المحلية باللحوم والالبان والاكتفاء بها عن الواردات الاجنبية — وكان الاعتماد في فلاحة الارض بانفار تعطى لها اطيان نظير اجرتها — كل ذلك كان اكثر من الحاصل الآن ولذلك كان هناك تناسب بين انتاج الارض ونفقاته وبالتالي كان هناك ربح مرضي (راجع

مقتطف يونيو سنة ١٩٣٢ ص ١٠٢) يقوم بحاجة المالك القائم البعيد عن الدين والاسراف اذ لا ترف ولا دين الا قليلاً في حدود خاصة

ولكن لما غلا سعر القطن وصار الربح منهُ اكثر من ربح سائر المزروعات زادت زراعته وقلّت زراعة الحبوب والعلف وعدد المواشي وبالتالي كثر استيراد الحبوب والاسمدة المعدنية (الكيماوية) ومواد العلف ومنتجات الالبان واللحوم والآلات الزراعية باثمان عالية عما كانت وكثرت الحاجة للانفار لفلاحة الارض واعتمد في استكرائها على النقود لوفرتها ومع كل ذلك كان الربح من القطن كافياً لموازنة الاحوال الاقتصادية ولكن كان بعض الزراعيين والاقتصاديين يتوجسون حذراً من الاندفاع في التوسع في زراعة القطن واهمال ما عداه وكتبت في ذلك بحثاً مسهباً بجريدة المؤيد سنة ١٩٠٥ وأعدت نشره بكتابي زراعة القطن سنة ١٩١٠ ولكن استمرار الارتفاع في ثمن القطن أغرى الزراع بالاستمرار في زيادة زراعته والاعتماد عليه وحده والاستدانة للاسراف ومشترى الاطيان باثمان عالية مقسّطاً اقساطاً الى ان كان هذا الكساد الذي فاجأنا منذ سنتين كساد ثمن القطن والمنتجات الزراعية وبقاء الغلاء في المصنوعات والواردات الاجنبية والديون ففقد التناسب بين الانتاج ونفقاته وبين كسب الزارع وحاجاته وديونه

* * *

وفيما يختص بموضوعنا فقد رجع الزراع الى الاقلال من زراعة القطن والاكثار من زراعة الحبوب والعلف وتربية المواشي الخ واخذ بعضهم في الاعتماد في استكراء الانفار للفلاحة باعطائهم اطياناً بدل النقود ولكن لا تزال الضرائب والرسوم الحكومية على ما صارت اليه من الزيادة حتى ضريبة القطن التي ضربت عليه وثمنه فوق الاربعين جنيهاً للقنطار ولا تزال اثمان الواردات الاجنبية غالية ولا تزال الديون وقد كانت تعتبر منذ سنتين جزءاً من قيمة الاطيان فصارت الآن ضعف ثمنها او اكثر وصار ريع الارض لا يفي بربا الدين هذا مصداق لقول القرآن الحكيم « يمحق الله الربا ويربي الصدقات » ورحم الله الدكتور صروف اذ يقول (لولا الدين لكنا في رخاء)

* * *

ملاحظة — كان ثمن قنطار القطن في سنة ١٩٢٨ سكالاريدس واشموني اعلى منه في سنة ١٩٢٩ ببضعة ريالات ولكنا اكتفينا بجعل المقارنة بين هذه وما يليها لانه لو بقي سعر سعر القطن كما كان في سنة ١٩٢٩ ما كانت هذه الازمة الشديدة

احمد الالفي

مكتبة المقتطف

ميزان الاكوان ودولاب الزمان

ظهر في هذه الآونة كتاب بهذا العنوان قلما نرى له نداً في عالم المطبوعات العربية في عام حتى ولا في بضعة اعوام . وهو كتاب قيم في فلسفة الكون بقلم الدكتور ابراهيم شبلي الصليبي اللبناني . وقد اشتمل على احدث النظريات العلمية وبعضها من مبتكرات المؤلف . اقول قلما نرى له نداً في لغتنا لأن انفس المؤلفات العربية التي صدرت في هذا العصر الى الآن يندر ان تتجاوز دائرة الادب العربي والتاريخ العربي. وهيهات ان نرى مؤلفاً في موضوع علمي حديث الآراء طريف النظريات عصري الحقائق الطبيعية

لذلك طالعت الكتاب الذي نحن بصدده بشوق عسى ان اجد فيه كل جديد عن فلسفة الكون . وقد وجدت كثيراً واستفدت كثيراً وأثنيت على المؤلف وشكرت تحفته للعربية

توخَّى المؤلف تعليل كثير من الظاهرات الكونية والحركات الفلكية جاعلاً اولية ابحاثه ان الكون شيئان هما الوجود والحركة (ولعله يعني الوجود المادي) وان ميدان الكون ظرفان هما المكان والزمان . فكانت هذه الاولية السمط الذي انتظمت فيه خلقات بحوثه في «الجوهر الفرد» الذي اصطلحنا اخيراً على تسميته بالذريرة، وفي الأثير الذي يتحرك فيه الجوهر الفرد ومجموعاته من اجرام وأجسام وفي طبائع حركاتها

ثم فصل اسباب تلك الظاهرات فشرح اولاً كيفية نشوء النظام الشمسي وما نجم عنهُ من اعراض وما تناوبه من حالات ككلف الشمس وأهليلجية افلاك السيارات وتداول قوتي الجذب والدفع وتعاقب الحركات المختلفة في ذلك النظام وتباين افلاك السيارات وميلها وسبب دورانها في محاورها ونشوء الاقمار الخ

ثم تبسَّط فيما نجم عن اختلاف الحركات ومن تمايل سطح خط الاستواء على سطح دائرة البروج الى غير ذلك من اسباب المدّ والجذر وتعاقب الادوار الجليدية على الارض. وما اقتضاه ذلك من تعاقب ادوار العمران ورقي الانسان الى غير ذلك من المباحث التي تتسلسل تسلسلاً انيقاً يستهوي القارئ

وبعد ان استغرقت هذه المباحث نحو نصف الكتاب عكف المؤلف على اثبات وجود

الاثير وايضاح انهُ سبب الجاذبية والامواج النورانية والكهرباء الى غير ذلك جاعلاً هذا الاثير علة لكل ظاهرة كونية وطبيعية ومن جملتها الحياة والعقل والاجتماع والاخلاق الخ

فيما تقدم كفاية لبيان ماهية هذا السفر النفيس للقارىء . ومنهُ يفهم قيمتهُ وشأنهُ في عالم العلم . وقد لاحظت ان كثيراً من النظريات المبسوطة في هذا الكتاب انما هي من مبتكرات المؤلف . وفي بعضها يخالف نظريات غيره من علماء العصر . ولذلك تحتمل النقد والمناقشة من اهل العلم او تحتمل الاستزادة من الايضاح والتفسير من قبل طلاب العلم ككاتب هذه السطور

ومن امثلة ذلك قوله في مطلع الفصل الاول ان الشمس تسير في الفضاء في خط مستقيم الى جهة معلومة بسرعة ١٣ ميلاً في الثانية نحو السماك الرامح . وبناءً على ذلك يستنتج انها لا بد ان تصطدم يوماً بجرم من الاجرام

والظاهر من قولهِ هذا انهُ يقصر فعل السير على الشمس وحدها . وكأن السماك الرامح ثابت في مكانهِ . ولكن الارصاد الفلكية المختلفة اظهرت ان جميع الاجرام متحركة حتى السماك الرامح نفسه متحرك ايضاً . (ويحتمل ان يكون هو المقبل الى الشمس) وانها جميعها متساوقة كأنها تدور حول محور ولو وهمي . فاذا كان السماك الرامح في جانب من دائرة كون المجرة التي هي عالمنا الخاص والشمس في جانب آخر وهما يتراءيان الآن كأنهما يتقاربان ، في حين ، ولو بعد ملايين السنين ، سيتراءيان متباعدين . وهكذا الامر مع سائر الاجرام . ولذلك يندر الاصطدام . ويغلب ان تكون الشمس ناجية منهُ . فليس اكيداً ان سبب اشتعال الشمس اصطدام قديم . وجميع النجوم او معظمها مشتعلة . فهل اشتعلت كلها من جرَّاء اصطدامات ؟ اذاً الاصطدام امر كثير الحدوث بين ملايين الاجرام ولا بدَّ ان يرى منهُ كل يوم او كل عام او بضعة اعوام . وقد قدَّر الاستاذ ادنجتن احتمال اصطدام شمسنا باخرى فاذا هو كنسبة واحد إلى مائة مليون

ومن اقوالهِ ان من نتائج الاصطدام انفتال كل من الجرمين المتصادمين بحيث يجعل كلاًّ منهما يدور على محوره لان كلاًّ منهما كان قبل الصدمة يسير في خط يميل على خط مسير الآخر . وهنا تجاهل حضرتهُ فعل الجاذبية مع انهُ قرره في بدء الحديث . ولذلك مهما كان خطَّا مسير الجرمين مائلين ، ومهما كانت سرعتهما ، فكلما تقاربا اشتدت قوة التجاذب الى ان تتغلب على الحركة الاستمرارية Inertia فينقضُّ كلٌّ منهما على الآخر انقضاضاً سمتيًّا Vertical ولذلك لا يحدث الانفتال الذي علَّل به الدوران على المحور

ولو كان المقتطف يأذن بمزيد البحث لذكرت امثلة اخرى . على اني اعجب جدًّا بتعليل حضرته لنشوء النظام الشمسي وان كان يخالف الرأي الحديث الذي ارتآه السير جايمس جينز وأذعن لهُ جانب من العلماء . فضلاً عن انهُ يحتاج الى براهين اسدّ . وكذلك اعجب بتعليله اهليلجية افلاك

السيارات وان كان سببها الاساسي محل للنظر. وأعجب اكثر بتعليله لتعاقب الادوار الجليدية على الارض

ان اهم ما يسترعي نظر المطلع الدارس تفسير حضرته لنظرية الاثير واثباته لوجوده. وقد تبحرت في مباحثه جيداً فما وجدته يسند تفسيره الى امتحانات واختبارات معملية او رصدية وانما هو وصف الاثير بأنهُ جسم متصل، لا مسامّ فيه، تام السيولة، لا يقبل التمدُّد ولا الانضغاط، ولا يتأثر بالحرارة، مالىء كل فراغ في الكون حتى مسامّ المادة . مترجرج من كل جهة طرداً وعكساً بسرعة فائقة . ولكنهُ لم يعطنا برهاناً دامغاً على ان الاثير كذلك بل كأنهُ يطلب من القارىء ان يسلم بوجوده بهذه الصفات تسليماً اعمى. ثم يبني تعليله للجاذبية وغيرها من نور وكهرباء واشعاع على هذه الاوصاف . فبناء البرهان على شيء غير مبرهن هو كالبناء في الهواء . والاَّ لجاز ان نفرض اي شيء بلا برهان ونبني عليه ما نشاء من المزاعم

والذي نعلمهُ ان الاثير فُرِضَ فرضاً لتعليل الانتقال في الحيز كانتقال النور. وكان فرضاً جميلاً لارتياح العقل الى تعليل سير النور يوم زعموا ان النور حركة تحتاج الى شيء يتحرك. ولكن لما ثبت انهُ مادة كهربائية مغنطيسية تنتقل بلا وسيط اصبح الاثير مستغنىً عنهُ فوضع على الرف الى ان يُحتاج اليه فيستدعى ثانيةً

الى الآن لم يقم برهان عمليّ على وجود الاثير. وقد اطلعت على كتاب «الاثير والحقيقة» تأليف زعيم الاثيريين السير اوليفر لدج واطلعت ايضاً على مقالة في دائرة المعارف البريطانية الطبعة الاخيرة سنة ١٩٢٩ فما وجدت برهاناً امتحانيًّا في العمل يثبت وجود الاثير بالصفات التي وصف بها . بل ان عملية ميكلصن — مورلي التي ذكرت في المقتطف غير مرةٍ عجزت عن اثبات وجوده . لذلك لا يستطاع قبول تعليل جناب الدكتور صليبي للجاذبية بصدم الاثير للجرمين المتجاذبين لان الاثير لا يزال فرضاً بلا برهان حسي

واصرار جناب الدكتور على وجود الاثير وكونه علة لكل حركة حمله على شجب نظرية الكهرب Electron في حين ان المعمل اثبت وجوده وقاس حجمه ووزنهُ وسرعتهُ وشحنتهُ الكهربائية . فكيف نستطيع ان نجحد الكهرب المبرهن بالمعمل ونسلم بالاثير الذي لا يزال فرضاً

ثم انهُ جحد النسبية مع انها ناموس رياضي لا يمكن شجبه . وما هي زعم لفرض شيء طبيعي . قد تقبل من جناب الدكتور جحده لنظريتي النسبية والكهرب اذا كان عنده برهان عملي ينقضهما . ولكنهُ اذا كان يقتصر على التهكم والسخرية في جحدهما فلا نظن اهل العلم يحسبون قيمة لهذا الجحد. فحبذا لو نزَّه حضرة الدكتور كتابه القيم عن هذا التجريح. وحبذا لو يغتفر لهذا العاجز الذي لا يدعي الاَّ التلمذة لاهل العلم تعرُّضه لهذه النقط المحتملة الاعتراض.

شبرا نقولا الحداد

المحرر — سيصدر في العدد القادم مقال مضاف للكاتب عن الاثير والنور. فنوجه الانظار اليه



ابو عثمان الجاحظ

كما تخيّله مؤلف هذا الكتاب ورسم بارشاده

ادب الجاحظ

تأليف حسن السندوبي — طبع بالمطبعة الرحمانية — صفحاته ٢٤٧

نال الجاحظ من عناية الكتاب في هذا العهد ما لم ينلهُ اديب او عالم آخر من علماء العرب وادبائهم . و لا غرو فقد قيل ان الفيلسوف ثابت بن قرّة الصابئ الحرّاني قال « ما احسدُ الامة العربية الاّ على ثلاثة انفس، اولهم عمر بن الخطاب والثاني الحسن بن الحسن البصري (وهو من شيوخ المعتزلة) والثالث ابو عثمان الجاحظ» . وقال ابن العميد « كُتُب الجاحظ تعلم العقل اولاً والادب ثانياً »وقال كذلك « ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة انفس اما الفقه .... واما الكلام .... واما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى ابي عثمان الجاحظ» . وقال ياقوت—بعد ما ذكر ان ابن الاخشيد اقام بعرفات ينادي : يرحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي لابي عثمان الجاحظ على اي وجهٍ كان — « وحسبك بها فضيلة لابي عثمان ان يكون مثل ابن الاخشيد، وهو هو في معرفة علوم الحكمة وهو رأس عظيم من رؤوس المعتزلة يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادي عليها بعرفات والبيت الحرام ...» وقال ابو القاسم الاسكافي « استظهاري على البلاغة بثلاثة : القرآن وكلام الجاحظ، وشعر البحتري » . وجعل ابن دريد « كتب الجاحظ من متنزهات القلوب» لما ذكرت امامهُ متنزهات الدنيا او متنزهات العيون كما دعاها

وقد اطلعنا في خلال الشهرين الماضيين على كتابين من الكتب الحديثة في الجاحظ الاول كتاب شفيق جبري — وقد ذكرناه في مقتطف اكتوبر الماضي — والثاني الكتاب الذي بين ايدينا الآن . وعلمنا ان خليل مردم بك وضع كتاباً في الجاحظ كذلك ولكننا لم نره

وعندنا بعد مطالعة كتابي السندوبي وجبري ان الاول عني بايراد سيرة الجاحظ وآرائهِ فانت تخرج منهُ بصورة واضحة (انظر الصورة) لشكلهِ وتعليمهِ ورزقهِ وبسطة جاههِ ومقامهِ الادبي ورأيهِ في المعتزلة والكتب التي صنفها والمؤلفات التي نسبت اليه . وعني الثاني عناية بدرس ادب الجاحظ وطريقتهِ في البحث والتحقيق والنقد وتحليل شعورهِ الديني ونواحي ادبهِ من الضحك الى التهكم الى الصنعة الى الفن وغير ذلك . فاذا استعملنا التعبير الغربي قلنا ان الاول تاريخ خارجي للجاحظ والثاني تاريخ داخلي . وكل منهما مكمّل للآخر

***

وقد حقق المؤلف مولد الجاحظ فرأى ان يعتمد النص الذي جاء بهِ الجاحظ قال (صفحة ٢٠)

نقله الينا ياقوت في معجمهِ فقد روى انهُ قال : انا اسنُّ من ابي نواس بسنة ولدت في اول سنة ١٥ هـ (٧٦٧ م) وولد في آخرها» وليس بعد هذا — في رأي المؤلف — نصٌّ يعتدُّ بهِ

ثم اظهرنا في الفصل الثالث على صورة من اساليب التعليم في ذلك العصر قال :

«فقد كان الرجل يبعث بولده الى كتاب الحي فيتعلم فيهِ مبادىء القراءة والكتابة، ويشدو شيئاً من قواعد النحو والصرف ، ويتناول طرفاً من اصول الحساب ، ثم يستظهر كتاب الله الكريم استظهاراً تامًّا مجوّداً مرتلاً ، وهو في خلال ذلك يتردد مع اترابه على القاص فيسمع منهُ احداث الفتوح ، وانباء المعارك ، وأخبار الابطال ، ومقاتل الفرسان ، ومفاخرات الشجعان ، وسير الغزاة والفاتحين ، ممزوجاً ذلك بالمواعظ والعبر وايراد احوال الصالحين وأطوار الزهاد والنساك والمتقين . وبعد ان يأخذ من كل طرف من هذه المعلومات نصيبهُ الكافي يولي وجهه شطر حلقات الدرس بالمساجد العامة ، والمعاهد الجامعة، والمدارس الخاصة فيقوم من حلقة الفقيه إلى حلقة المحدث ، ومن مجلس اللغوي الى سارية النسابة، ومن حضرة الاخباري الى دارة المتكلم ، ومن معهد المنطقي الى مجمع الفلسفي ، ومن محفل الاديب الى قاعة المهندس ، ومن بين يدي المفسر الى حظيرة الاصولي ، ومن غرفة الراوية الى بيت الشاعر ، ومن ديوان الكاتب الى صاحب النجوم ، ومن الاسطرلابي الى الجغرافي ، ومن مشهد الموسيقار الى مقعد المغني ، ومن عند الزمار الى دكانة الوتار . الصبيان والبنات في ذلك سواء ، وان كانت الغالبية في الصبيان دون اخواتهم . حتى السجون ، فقد كان لاهلها حظ من التعليم وكان لهم معلمون يدخلون اليهم في اوقات معينة »

***

وقد تلقى الجاحظ علومهُ على شيوخ البصرة والكوفة وممن أخذ عنهم علومهُ الاصمعيُّ وابو زيد الانصاري وابو الحسن الاخفش وممن تلقى عليه العلم المبرّد صاحب الكامل

ويقال انهُ كان وهو في دور الطلب يعاني الاتجار في الخبز والسمك بسَيْحان (نهر بالبصرة) وسواء اصحّ هذا الخبر ام لم يصحَّ فقد درج الجاحظ في بحبوبة من اليسر والرخاء واتسعت موارد رزقه . . . . فلا عجب ان يعلو على امثاله فضلاً وفهماً ، ، وان يقدم للغة العربية هذه المصنفات التي وضعها في كل ضربٍ من ضروب العلم وفنّ من فنون الآداب على كثرتها وجليل شأنها. فان العطايا واللُّهى تفتح اللَّها، على شريطة الاستعداد الفطري والكفاية الظاهرة (ملخصاً من الفصل الرابع) وقد أشار مصطفى صادق الرافعي الى ذلك في مقالتهِ عن شوقي (في هذا الجزء)

***

ومما اعرض لهُ المؤلف ولم يدعمهُ باسناد قولهُ ان الجاحظ أتى مصر قال (صفحة ٧١)

ووقعتُ في كتاب الحيوان على انهُ وفد مصر واقام بها زمناً واجرى بها اختبارات فيما عثر عليهِ من حيوانها » وحبذا الحال لو أشار الى الفقرة التي نُصَّ فيها على ذلك او يحصّل ذلك من معناها . ولكنهُ كان شديد الحذر لما ذكر ان الجاحظ كان يلمُّ بالفارسية — قال اجل ليس هناك نصٌّ صريح يملأ يد الباحث في هذا الشأن ولكن هناك من العبارات والالفاظ ما يدفع الى استنباط هذا الرأي . . . وقال كذلك بعد ما ذكر شاهداً على قولهِ . . . فمسألة عرفان الجاحظ باللغة الفارسية تستنبط بالقوة من خلال سطور كتبهِ ولا تؤخذ بالنصّ

ونرى انهُ كان شديد القسوة لما بيّن ان كتاب « التاج » ليس من مؤلفات الجاحظ (١٤٥ — ١٥٢) فبعد ما اورد نص تقدمة صدَّر بها الجاحظ كتاباً لهُ ونص تقدمة « التاج » وهما موجهتان الى رجل واحد قال: «فأيٌّ امرىء لهُ مسكةٌ من عقل او امارة من الذوق او بقية من ادب او لبابة من فضلٍ ، يستطيع ان يقول ان كاتب تلك التقدمة هو كاتب هذه».ولعلَّ بلاغة العبارة ساقتهُ في تيار وقعها فانساق

وفي الكتاب فصل مسهب احصيت فيه كل مؤلفات الجاحظ والمؤلفات التي نسبت اليه وفصلان بسط فيهما مذهب المعتزلة ورأي الجاحظ فيهِ ، وفصول اخرى تحتوي على نوادره ومختارات من نثرهِ وشعرهِ

وفي حواشي الصفحات ترجمات موجزة للاعلام الذين ورد ذكرهم في المتن

* * *

نقول وياليت المؤلف توسع في بعض الفصول توسعاً ينقع الغلة كالفصلين اللذين افردهما لمعارف الجاحظ واحاطتهِ وتحقيقهِ للعلم فانهما شديدا الايجاز . ولكنهُ قد يفعل ذلك لدى نشره كتاب « الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين »

الصاحب ابن عباد

ورثة هذا اللسان العربي هم الآن أقلُّ خَلَفٍ شوقاً إلى نشر التاريخ المطويّ لمن سلف من آبائهم ، وأبعدهم عن معاناة المشقة في استقصاء أخبار من غبر من علمائهم وائمتهم وهداتهم ومن فتح ومن قاد ومن حكم ومن استوزر من أسلافهم ، فلذلك نكِروا التاريخ العربي إذ لم يعرفوه ، وركَّتْ أساليبهم إذ كان الادب العربي على جانبي التاريخ العربي وفي طريقهِ ومن بين يديه ومن خلفه . ولا عجب فقد كانت البلاغة لعهدهم هي ميزان الرجال ، ومقياس العقل ، وقسطاس الحكمة . وما عق هذا الخلف أبوّة من غبر من أسلافهِ إلاّ لأسباب أخذت عليه

طريقةً ،ولو ان جلها ليس مما يبرر هذا العقوق أو يُعذر منه

ولقد انتدب لمداواة هذا العقوق رجال من الادباء والشعراء فبذلوا ولم يضنوا ،وأخرجوا في رجال الادب والتاريخ كتباً تعرف الناس بهم وبأدبهم وأخلاقهم وفضائلهم وما سوَّغوا من الحكمة ، وما رزقوا من الفضل . فمن ذلك ما كتب الاديب الجليل « خليل مردم بك » عن «الجاحظ » و «ابن المقفع» و «ابن العميد » و « الصاحب ابن عباد » . والثلاثة الاولى من كتبه قد نشرت من أشهر وتداولها الناس . ونشر حديثاً كتابه عن «الصاحب ابن عباد» فاستوفى ترجمته ما استطاع ، وجمع شتات ما وصل الينا من اخباره ، ثم ابدى في ذلك من صواب الرأي والدقة والتوثق قبل الحكم ما يشهد بأمانته وعدله . وفي الكتاب من رسائل «الصاحب» ومن شعره ما لم ينشر مستقلاً بعد

وأسلوب كتابه هذا ،هو الاسلوب الجيد في عرض التراجم التي يقصد من كتابتها تعريف الناشئين بمن مضى من أسلافهم ، حتى لا يقفوا منهم موقف الجهل اذا ما عرض ذكرهم في حديث أو كتاب . على انهُ لا يمكن ان يقال إن هذا الكتاب هو أوسع ما يكتب عن الصاحب، فان اكثر ما كتب هو وما أُلّف ، او ما كتب عنه أو قيل فيه ، قد استبد به الضياع . ولا يبعد ان يطلعنا القدر يوماً ما على اثر من آثار الصاحب أو آثار من عرض لذكره والكلام عنه يبدل الحكم عليه او ينقص منه او يزيد فيه

***

واهم أبواب كتاب «الصاحب ابن عباد» هو القول في «اساليبه وخصائصه» من ص ١٢٩ — ١٥٧ قد وفق المؤلف في الكلام عن الاسلوب ولم يُوف خصائص الاسلوب حقها حتى تستطيع بعد ان تقرأه ان تعرف ما يميز اساليب «الصاحب» من اساليب استاذه «ابن العميد» على ان للمؤلف عذراً بيناً في هذا فان آثار «الصاحب» و «ابن العميد» قد ضاعت ولم يبق الاَّ اقلها مما لا يعين على التحديد والحصر والابانة عن مواضع التمييز . والكلام على خصائص اساليب الكتاب من امثال الصاحب وابن العميد هو اهم ما يكتب عنهم واجداه على العربية وطلابها الاَّ انه فيما نرى اشقها وابعدها مطلباً ، ولن يوفق اليه الاَّ من استكمل العُدَّة وتهيأ له الطبع الرقيق والبصر النافذ وواتته الاسباب بظهور جزء من الكتب الضائعة والمغمورة واعانه العلم المستفيض بأخبار الكتَّاب واخبار عصورهم ومن سبقهم ممن أخذوا عنه او نهلوا منه . واما بعد ، فان كتاب خليل مردم بك عن الصاحب هو من احسن ما يعرّف الناس بلسان من الالسنة البليغة ووزير من الوزراء النابهين في القرن الرابع للهجرة

محمود محمد شاكر

خالتي
وقصص أخرى

وكيل البريد
وقصص أخرى

لشاعر الهند : رابندرانات طاغور

نقلها الى العربية عبد اللطيف النشار

لاسم « طاغور » رنين جميل في أذني ، ولاشعاره وقصصهِ وآرائهِ مكان وسيع من قلبي. وما قرأت له شيئاً إلاَّ أحسست في نهايتهِ اني ارتفعت الى عالم بعيد من النور والقداسة اجتذبني اليهِ في رفق ولين ، وغمرني بالاحلام والاماني ، وحملني على اجنحة هادئة الرفيف

فهو الكأس الإلهية التي تسقي العالم في عصره المادي خمراً روحية الكرمة والعصير

وهو الناي الذي يجتذب أصداء الخلود من عالمها فيرددها على أسماع الفانين الهالكين

ولطاغور أسلوب مزدهر الالفاظ ، ألاَّق المعاني ، سامي التفكير ، حلو النفَس والرنين

ولقد عرف له العالم الغربي هذا فترجم كثيراً من مؤلفاته ، وعرفنا نحن هذا الينبوع الصافي فخففنا اليهِ ، واغترفنا ما قدّر لنا ان نغترف منهُ . والكتيبان اللذان نحن بصددهما هما مجموعة من قصصهِ نقلها الى لغتنا الاديب عبد اللطيف النشار

إلاَّ انني قرأتهما فأحسست ان ألوان طاغور الفتانة قد تلاشت ، وكأن الناقل الفاضل قد أحسّ بذلك من قبل فاحتاط اليهِ بقوله : « ولست أزعم أنني أدّيتهُ في لغتنا كما أداه ذلك بأن معاني الشعر (ومثله القصة) تُنقل في سهولة ، أما الضوء وأما اللون فلا ينقلان في الترجمة»

واذا كان هذا عذراً من الناقل يظنهُ رادًّا عنهُ نقد أمثالي فهو عذر ضعيف — وخاصة منهُ هو — فالاديب النشار شاعر له من الألوان ما يمكن ان يؤلف منها ألواناً تقرّب الينا روح طاغور في كتابته

على ان الضوء واللون شيئان غير الروح : فهما في إمكان الشاعر والرسام نقلهما عن غيرهما أما الروح فهي سرٌّ في نفس كل إنسان تعطى بقدرٍ ، وتوهب بنسبٍ مختلفة

كما اني لا أفهم معنى لان ينقل الأديب النشار أغنية ريفية في قصة «خالتي» باللغة العامية... ألأنها ريفية ؟ وما علاقة اللغة العامية المصرية بريف الهند ؟ وهل اذا كتب أديب غربي عن ريف مصر وضع اللهجة الريفية في كتابتهِ ؟

أم اراد أن يصوغها في لغة بسيطة فلم يجد إلاّ الاسلوب الدارج ، وكان أدبهُ وشاعريته وروحه كفيلة بان تنقل هذه الاغنية عربية اللهجة سمحة الاسلوب ساذجة اللفظ

على ان ذلك لا ينقص من قدر مجهوده الذي نودُّ ان لا يقف بهِ عند حد في نقل زهرات الآداب من لغاتها الى لغتنا وهو حريص على خدمتها

حسن كامل الصيرفي

جماعة اخوان الصفا

لعبد اللطيف الطيباوي

اخوان الصفا وخلان الوفا هؤلاء جماعة من العلماء الذين الّموا بما كان معروفاً في إقليمهم من صنوف العلوم وضروب المعارف، وقد تآلفوا فيما بينهم بعد ان فشا في العالم الاسلامي نقل فلسفة اليونان وحكمة الهند وآداب الفرس، وذلك في منتصف القرن الرابع للهجرة. رأى هؤلاء الجماعة ما أصاب الناس من الفساد في الخلق والرأي والمعتقد، ورأوا ما اصاب اهل العلم والنظر وحملة الآراء والفكر من الاضطهاد والتنكيل والتشريد وتسليط العامة عليهم ففزعوا الى ما بين جنوبهم من ضمائر صافية وإلى ما في قلوبهم من رحمة على المجتمع ورأفة، وحسبوا انهُ لا صلاح للناس إلا بصلاح النفوس ولا صلاح للنفوس إلاّ بالفلسفة ممتزجة بالشريعة، او بالشريعة معتمدة على الفلسفة. فأجمعوا امرهم على ان يحتجبوا عن الانظار ويبعثوا في الناس أشعة علومهم ومعارفهم بواسطة رسائل يكتبونها ويبثونها في الوراقين وباعة الكتب وناسخيها، وقد نشروا من ذلك احدى وخمسين رسالة (وان شئت فقل: مجلة علمية)

وظلَّ امرهم مخفيًّا ورسائلهم معروفة متداولة الى ان كانت سنة ٣٧٣ هجرية حيث كان ابو حيان التوحيدي في حضرة الوزير ابن سعدان وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة ملك بغداد في عهد الطائع لله العباس فسأل الوزير ابا حيان في كلام كان سمعهُ من زيد بن رفاعة — وقد كان من الجماعة بلا شك وكان مع هذا من خاصة الوزير ومن اكابر جلسائه — فأخبره ابو حيان بشأنهم وأنبأه بما يتلجلج في صدورهم وأطلعهُ على اسلوبهم في بث تعاليمهم وذكر له ان زيد بن رفاعة « لا ينسب الى شيء ولا يعرف برهط، لجيشانهِ بكل شيء وغليانه بكل باب ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانهِ وسطوته بلسانهِ، وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً وصادف بها جماعة لاصناف العلم وأنواع الصناعة منهم ابو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي وأبو الحسن علي بن هرون الزنجاني، وأبو احمد المهرجاني، والعوفي وغيرهم فصحبهم وخدمهم وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله الخ »

في هذه الجماعة وضع الشاب النجيب عبد اللطيف افندي الطيباوي خريج كلية الآداب والعلوم بالجامعة الاميركية ببيروت رسالة حاول فيها التعريف بشأن افرادها من هو الرأس المدبر لها وهل كاتب رسائل اخوان الصفا رجل واحد أو عدة رجال. وقد دل بهذه الرسالة انهُ شغوف بالبحث محب للتنقيب متجه نحو عرفان حقائق الاشياء على وجهها. وهو وان لم يبلغ في هذه الرسالة الغاية التي يتوخاها أهل البحث والتمحيص فإنا نرجو له بلوغ هذه الغاية في بحوثهِ الآتية فان استعداده الظاهر من خلال رسالته يبشر بهذه النتيجة المنتظرة

باب الاخبار العلمية

مؤتمر الطلبة الشرقيين

ان موقف الطالب الشرقي موقف غريب معقد ، فهو بين حضارة غربية مادية لا توائم طبيعة نفسه ونوع نزعاته ، ولكنها حضارة غالبة صبغت كل شيء بلونها وكسبت الظفر في كل الميادين فهو مضطر ان يصطنعها . وبين حضارة شرقية جليلة ليس في مبادئها شيء من هذه السمة الذي تتسم به الحضارة الغربية ؛ فيوم ان كانت لها السيادة كانت تبسط النور حيث حلّت ولم تكن آثارها الثكنات والمعسكرات تترك حيث سارت بل كانت المعاهد والجامعات والتقدم العلمي والروحي والفكري . ولكن هذه الحضارة الشرقية ركدت مياهها ، وجمدت حتى فقدت بعض عناصر الحياة فيها ثم زادها ضعفاً ابتعاد الشرقيين عن الشرق وترامیهم على الغرب وفقد الصلة بين نفوس الشرقيين وتعاليمهم . والطالب الشرقي اذ يستقبل عهد الشباب، عهد الحماسة والايمان والعمل لا يدري الى اي متجه يتجه ويحس بنفسه كشرقي يجب عليه الاعتداد بشرقيته وكانسان يجب ان يأخذ بأسباب التفوق والنجاح . مضطرباً حائراً لا يعرف كيف يوفق بين ما يرجوه وبين ما يجب عليه . على ان هذه الحالة اذا تركت دون علاج تفاقمت واستفحل شرها لان الشرقيين الذين يأخذون عن الغرب كل شيء يفقدون ثقتهم بأنفسهم فيسعون مقلدين محتذين وتضعف فيهم ملكات الابتكار والابداع . ولان الشرقيين الذين لا يأخذون عن الغرب لا تواتيهم الحضارة الشرقية في نهوض . فما الوسيلة اذن لعلاج هذه الحالة ؟

العلاج فيما يخيل لبعض المفكرين ان العناصر الحية في الشرق يجب اولاً ان تجتمع ، وان تنظم علاقاتها بعضها ببعض . ولهذا الاجتماع آثاره الجليلة . ذلك لان اجتماع العناصر الحية في الشرق — ونعني الطلبة الشبان — يقرب الشرقيين من الشرق ، لان الطلبة في هذا الشرق لا يقصدون الا الغرب ولا يتعاونون الا مع الغربيين ولا يزورون الا اوربا واميركا فان اجتمعوا مع اخوانهم وهم في شبابهم ، اتجه تفكيرهم اتجاهاً جديداً . ولان الشباب في الشرق يرنو الى النهوض ويبغي العمل ، فاذا اجتمع بعضهُ مع بعض احسَّ ان في الشرق حياة وشعر ان هذه الرغبة في النهوض التي يحسها في بلاده وفي الشرق بوجه عام ، هي رغبة شاملة تعم الشرق كله فيزداد قدره في عينه فتعود ثقتهُ بالشرق إليهِ وبهذه الثقة

يستطيع ان ينزل الى ميدان الحياة بسلاح جديد: سلاح الاعتداد والاعتزاز

لهذا نبتت فكرة مؤتمر الطلبة الشرقيين ليضم الطلبة من جميع بلاد الشرق على اختلاف ألوانهم وأديانهم وجنسياتهم . على ان يكون اجتماعاً دوريًّا يعقد كل عام في عاصمة من عواصم الشرق . حتى يكون لكل أمة في هذا الشرق فرصة عرض جهودها امام شباب النهضة فتتاح لشباب الشرق فرصة دراسة الشرق كله والتعرف عليه . والمؤتمر انما ينعقد لا شك سيحمل بزور الحياة لان اجتماع مائة شاب لغرض واحد وقد جاءوا من بلادهم للبحث والاستقراء والتعرف سيفتح الاذهان والنفوس للاخوة التي تربط الشرق كما ان بحوثهم ومناقشاتهم في المؤتمر وقراراتهم ستفتح ابواب البحث والجدل والدرس للكتاب والمفكرين

وهذا المؤتمر سيكون بطبيعة الحال أبعد ما يكون عن السياسة والمنازعات الدينية ، والواقع ان علة هذا الشرق في خلافاته الطائفية والمذهبية والسياسية هذه الخلافات التي تسبب التوزع والتخاذل والتي تذهب بالجهود فيما لا يفيد ولا يجدي . ولعل هذه خدمة جديدة يقدمها المؤتمر للشرق . فيجمع البوذي والهندوكي والمسلم والمسيحي معاً في صعيد واحد ، ويرسم لهم جميعاً مثلاً أعلى مشترك تتجه اليه الجهود ويسعى لتحقيقه الشباب

وسينعقد المؤتمر في شهر فبراير القادم بعد ان نظمت له دعاية في البلاد الشرقية كلها . وبعد ان كوّنت لجان لهُ تعمل باسمه في هذه البلاد وتذيع دعوتهُ وتوضح فكرته . على ان هذه الدعاية نفسها ستأخذ صوراً مختلفة حتى ينعقد المؤتمر

وستسعى اللجنة المركزية التحضيرية للمؤتمر في مصر ، للحصول على امتيازات كثيرة لاعضاء المؤتمر من شركات النقل والملاحة ولدى مصالح السكك الحديدية حتى يكون باب السياحة والتنقل مفتوحاً للطلبة الشرقيين دائماً ، وحتى تكون وسائل هذه السياحة مذللة ممهدة . وهذه اللجنة تستطيع أن تظفر بالكثير لانها تتكوّن من سعادة علي باشا ابراهيم نائب مدير الجامعة ومن الدكتور منصور فهمي ، والاستاذ احمد امين والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور عبد الرازق السنهوري ، والدكتور علي مصطفى مشرفة والدكتور احمد زكي ، والدكتور خليل عبد الخالق وكلهم من كبار أساتذة الجامعة . والى جانب هذه اللجنة لجنة من الطلاب تضم جميع جنسيات الشرق . فهي في اجتماعاتها عصبة امم شرقية صغيرة وقد انتجت اجتماعات هذه اللجنة وجهودها حتى أصبح اسم مؤتمر الطلبة معروفاً في سومطره وجاوه والهند والصين وفارس ، بالقدر الذي هو معروف بهِ في مصر وسوريا والعراق

وسيدوم اجتماع المؤتمر ٦ أيام يبحث في خلالها الموضوعات الآتية ١ — انشاء صحيفة للطلبة الشرقيين تكون دورية وتكتب باكثر من لغة شرقية ٢ — تنظيم ألعاب اولمبية دورية

شرقية تشبه الالعاب الاولمبية الاوربية ٣ — اتحاد اندية للطلبة الشرقيين في جميع بلاد الشرق ٤ — انتخاب يوم يسمى عيد الطلبة الشرقيين يحتفل به في جميع البلاد الشرقية احتفالاً شرقيًّا خاصًّا ٥ — وضع برنامج خلقي اجتماعي يسير عليه الطلبة الشرقيون في بلادهم

وسيزور اعضاؤهُ متاحف مصر وآثارها ومعاهدها ويلقي عليهم كبار الاساتذة محاضرات في نواح من العلم والادب مختلفة . وعقب انتهاء ايام المؤتمر ستنظم رحلة للاعضاء في صعيد مصر فينزلون في عواصم المديريات كلها حتى يصلوا اسوان فيقيمون هناك يوماً او اكثر ويعيشون معاً عيشة كشافية بسيطة ثم يعودون الى القاهرة

مباحث جديدة في الاشعة الكونية

يعلم قراء المقتطف ان الاشعة الكونية ظاهرة طبيعية استرعت عناية العلماء في العهد الاخير . وقد والينا الكتابة في كل طريف عنها من سنة ١٩٢٦ الى الآن . وأحدث تلخيص لما عرف عنها نشرناه في مقالة «ارتياد طبقات الجوّ العليا» في مقتطف اكتوبر الماضي صفحة ٣١٧ـ٣١٩ وقد قلنا في نهاية تلك المقالة ان العلماء ينتظرون نتائج رحلة الاستاذ بيكار بفارغ الصبر

وقد انشأ الاستاذ بيكار في جريدة التيمس (٨ اكتوبر) مقالاً لخص فيهِ نتائج الارصاد التي قام بها في هذه الناحية فقال انهُ حاول درس الاشعة الكونية من ناحيتين: الاولى تحقيق الاختلاف في قوة الاشعة باختلاف الارتفاع . والثانية : تحقيق الاختلاف في قوتها باختلاف الاتجاه

اما نتائج البحث في الناحية الاولى فتتفق مع نتائج الاستاذ رجنر Regener وهي ان قوة الاشعة الكونية تزداد بالارتفاع ثم تقل زيادتها رويداً رويداً الى ان تصبح ثابتة فوق ارتفاع معيَّن . اما البحث في الناحية الثانية فأسفر عن ان الاشعة الكونية لا تكثر في اتجاه معين دون آخر

وليس الاستاذ بيكار بمنفرد بين العلماء في درس هذه الاشعة . فالاستاذ مِلِكن الاميركي ما زال يوالي البحث فيها . كذلك الاستاذ كولهرستر وهو من اوائل الذين كشفوا عنها . وكان ملكن قد ابان ان الاشعة الكونية لا تكثر فوق منطقة معينة على سطح الارض دون اخرى ولكنَّ الاستاذ كُمْبتُن الاميركي نظم رحلة علمية طوق بها الارض من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب لامتحان نتائج ملكن وقياس قوة هذه الاشعة في بلدان مختلفة فأسفر بحثهُ عن وجود اختلاف في قوتها في مناطق مختلفة وخصوصاً في الاشعة الضعيفة منها . وقد بعث برسالة الى المجلة الطبيعية (اول سبتمبر ١٩٣٢) قال فيها ان هناك ارتباطاً بين قوة الاشعة الكونية واتجاه مغناطيسية الارض . فهي اقوى في نواحي القطبين المغناطيسيين منها في نواحٍ اخرى . وقد

ايدهُ في ذلك العالمان كلاي وبرلاج في رحلة رحلاها من امستردام بهولنده الى بتاڤيا بجزيرة جاوه لقياس قوة الاشعة في مسير الباخرة التي استقلاّها. وهذا منتظر اذا كانت الاشعة الكونية من تيارات من الدقائق المكهربة السريعة لا من امواج قصيرة من قبيل امواج الاشعة السينية (X rays) ولكن اقصر منها. وثمة مباحث اخرى تدور حول هذا الموضوع الاخير، ويبدو منها ان الاتجاه الآن الى حسبانها دقائق مكهربة سريعة — كهارب او بروتونات — وهو مخالف لما كان يراهُ الاستاذ ملكن

اثمن المواد

اتخذت امم الارض الذهب قاعدة للمعاملات التجارية. لذلك اذا اراد احد ان يعرب عن قيمة مادة ما قال «تعدل وزنها ذهباً» فاذا حاولنا ان نعين اغلى المواد وجب ان نحصر بحثنا في المواد التي تشرى وتباع في الاسواق الحرَّة، صارفين النظر عن الاشياء التي تستمد قيمتها من قدمها او طابعها الفني او علاقتها بالعلم كالتحف والآثار والصور والكتب النادرة وطوابع البريد والآلات العلمية المفردة

فاذا سرنا على ذلك وجدنا مواد كثيرة تعدل «اكثر من وزنها ذهباً». ففي الاحوال العادية يبلغ ثمن البلاتين ثلاثة اضعاف الذهب وزناً بوزن. أما عنصر الاريديوم فيبلغ ثمنهُ ١٥ ضعف ثمن الذهب. وأما الماس فثمنهُ يختلف باختلاف حجم الماسة ولونها وصفائها. فاذا اتخذنا سعر ثمانين جنيهاً للقيراط الواحد بلغ ثمن الاوقية نحو ١٢ الف جنيه. يقابل ذلك ٨ جنيهات لاوقية من البلاتين. فثمن الماس يفوق ثمن البلاتين ١٢٥٠٠ ضعف ويفوق ثمن الذهب نحو ٣٠٠٠٠ ضعف. ومن غرائب الازمة الاقتصادية الحالية ان سعر الماس كان اكثر ثباتاً من غيره من المواد الكمالية. فسعر البلاتين قد هبط سعره خمسون في المائة وأما سعر الماس فلم يهبط سوى ١٠ في المائة

ولكن اغلى المواد التي تشرى وتباع هو عنصر الراديوم وما يحلُّ محلَّه مثل المزوثوريوم. فقد انقضت سنون وسعر الملغرام الواحد من الراديوم يتباين من عشرين جنيهاً الى ٢٥ جنيهاً. فلما اكتشفت مناجم الراديوم في بلاد الكنغو البلجيكية هبط سعر الملغرام الى ١٤ جنيهاً. والراجح ان هبوطهُ الى هذا الحدّ كان يقصد به مزاحمة مستخرجيه في الاقطار الاخرى. فسعر الاوقية يبلغ نحو ٤٠٠ الف جنيه فكأن ثمن الراديوم يفوق ثمن الذهب ١٠٠ ٠٠٠ ضعف وزناً بوزن. يليه في ذلك المزوثوريوم وثمن الاوقية منهُ نحو ٣٠٠ الف جنيه

الحرير الصناعي من الخيزران

تجرَّب التجارب في الهند الآن لصنع الحرير الصناعي من الخيزران

زلزلة اليونان

حدثت زلزلة في بلاد اليونان في ٢٦ سبتمبر الماضي دمرّت قرى كثيرة في خلقيديقة وكان مركزها في بحر ايجه على مقربة من شواطىء اليونان حيث يلتقي خط العرض ٣٩ بخط الطول الشرقي ٢٤ وقد دونت آثارها وآثار ما تلاها من الهزات في ادوات رصد الزلازل بالولايات المتحدة الاميركية

ويظن ان زلزلة من هذا القبيل كانت السبب في تدمير الحضارة الزاهرة التي نشأت في جزيرة كريت من نحو ثلاثة آلاف سنة ، ذلك ان كنوسُس عاصمة كريت القديمة زالت من الوجود فجأة في سنة ١٢٠٠ ق.م على ان اطلال هيا كلها ومبانيها تشير الى ان زلزالاً كان سبب التدمير الذي حلّ بها. ولعلّ فعل الزلزال في تدمير المباني وقتل الناس بلغ درجة لم يتمكن معها الاحياء من ترميم المباني المدمرة واعادة حضارة المدينة سيرتها الاولى. ومن ثمَّ توالى عليها القرصان والملاحون من مدن السواحل المناوحة والمجاورة فلم يستطع ابناء الجزيرة من صدّهم عن النهب

نجيمة جديدة

اكتشف عالمان احدهما اميركي والآخر روسي نجيمة جديدة لا يزيد قطرها على عشرة اميال وتكمل دورتها حول الشمس في ٢٫٠٢٣ من السنة فهي ثالثة النجيمات في سرعة دورانها حول الشمس. والنجيمات كما لا يخفى هي اجسام فلكية صغيرة تدور حول الشمس بين فلكي المريخ والمشتري ويقال انها بقايا سيّار تهشم ويبلغ عددها ١٥٠٠ نجيمة

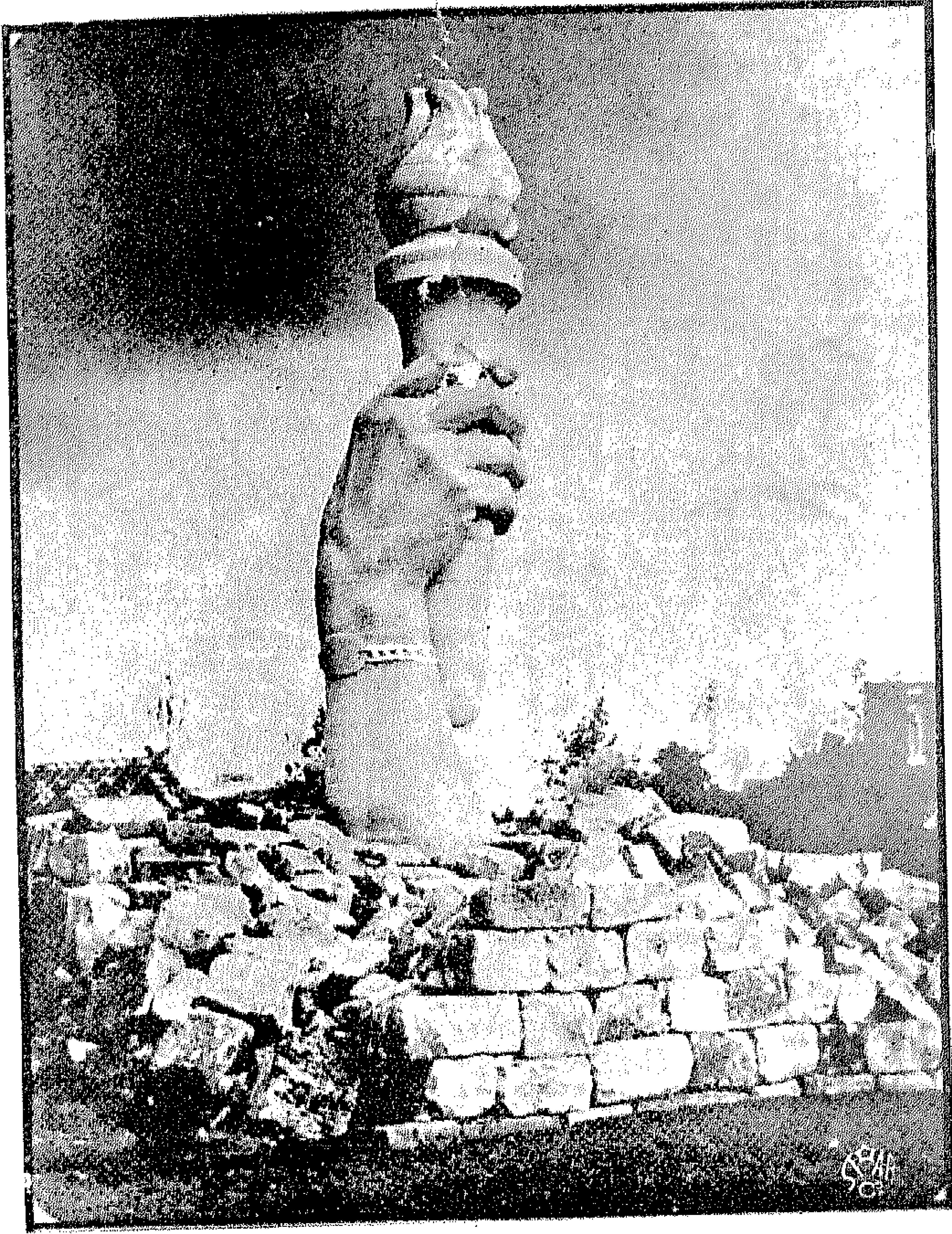
بكتيريا تعيش ٢٢ سنة

بين سنة ١٩٠٣ و ١٩١١ زرع الاستاذ ويت (Waite) احد اساتذة جامعة نبراسكا الاميركية طوائف من ضرب خاص من البكتيريا في مادة مغـذية ثم وضعها في انابيب وختم الانابيب ثم توفي الاستاذ ويت ولم تفتح الانابيب الاَّ من عهد قريب فتحها الاستاذ ومبر ديكن (Deacon) واجرى عليها تجارب منوعة فوجدها لا تزال حية

تعليل زيادة اصابات السرطان

الباحثون في الاحصائيات الطبية مجمعون على ان اصابات السرطان في ازدياد مطرد. وتعليل ذلك ان الناس الذين يبلغون الآن بفضل وسائل الصحة العامة والطب الوقائي السن الذي يتعرض فيهِ الانسان للسرطان هم اكثر من الذين كانوا يبلغون هذا السن من قبل. وثانياً كانت طائفة كبيرة من الناس الذين يبلغون سن السرطان يموتون بامراض اخرى كالنزلة الصدرية وغيرها. ولكن نسبة وفياتهم الآن بهذه الامراض اقل جداً مما كانت قبلاً . فتعرضهم للاصابة بالسرطان يصبح مضاعفاً . وعليهِ فنقص الاصابات بالامراض العامة في الحداثة والشباب والكهولة يصحبهُ زيادة في اصابات السرطان

الجزء الرابع من المجلد الحادي والثمانين



مصباح السلام

صورة لنصب من اروع الانصاب التي اقيمت دعاية للسلام على مقربة من مدافن الالمان والفرنسيين في أرتوى. فاليد الحاملة لمصباح السلام ترتفع من الانقاض الى علو ٢٥ قدماً ، لتذكر الاجيال المقبلة بان مصباح السلام يجب ان يظلّ مضيئاً

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد الحادي والثمانين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٢ — ٣ شعبان سنة ١٣٥١

الاضداد في الطبيعة

العقل الانساني مولع بالمفاضلة . فيتجشم الناس مشاق الاسفار ليروا اعلى الجبال او اكبر المباني أو اروع مشاهد الغروب او اقدم الآثار أو للاجتماع باعظم المعاصرين . الا يذكر كل قارىءٍ شعوره لما قيل لهُ في صغره بانه سوف يرى اضخم الفيلة أو اصغر الاقزام أو اقوى المصارعين . ثم اذا قرأنا الصحف اعجبنا اشدَّ الاعجاب بما ترويهِ عن اسطع المنائر التي تبلغ قوة ضوئها ملايين من الشموع واصغر المصابيح الكهربائية حتى ليستطيع الجرَّاح ادخالها من ثقب دقيق الى جمجمة الرأس في اثناء عملية جراحية واطول الجسور وادق الاسلاك واضخم البلونات واسرع السفن وما الى ذلك . ان الاشياء العادية لا تسترعي انتباهنا ولكنها اذ شذَّت عن المستوى العادي نبهت فينا عناية خاصة بها

والطبيعة اغدقت على الانسان هباتها متباينة الصفات والخواص ، فمهَّد العلم للانسان سبيل تعديل هذه الخواص وجعلها ملاءمة لاغراضه . فاذا كان صانع الساعات يطلب زنبلكاً شديد المرونة همَّهُ ان يعرف ما هي العناصر او المركَّبات التي يستطيع ان يستخدمها لصنع هذا الزنبلك وكيف يعالجها لتتصف بالصفات المطلوبة . كذلك المهندس الذي يطلب كرات دقيقةً لمحاور العجلات ، والطبيب الذي يبحث عن علاج لمريض . كلهم يطلب افضل ما يمكن لتأدية غرضهِ . واذن فرغبتنا الفطرية في المفاضلة بين الاشياء تذكيها مطالب الحضارة . والبحث في الاضداد — في اصغر الاشياء واكبرها ، أثقلها وأخفها ، اغلاها وارخصها ، اكثرها قابلية للمدّ والانطراق ،

اعلى درجات درجات الحرارة وادناها ، ليس الغرض منهُ اكفاء الميل الفطري فقط بل هو من امتع ما يعنى به الباحثون وتفسح لهُ المجلات العلمية صفحاتها[1]

ما اثقل المواد

لابدَّ من التدقيق في الاجابة عن هذا السؤال لان المواد الثقيلة في الطبيعة كثيرة والفروق بينها دقيقة . ولا ريب في ان اثقل المواد يجب ان يكون من الجوامد ، لان الجوامد تحتوي عادة على المادة في اكثف حالاتها . فثمة صخور ومعادن كثيرة مشهورة بثقلها ولكن يندر بينها ما يزيد وزن بوصة مكعبة منهُ سبعة اضعاف عن وزن بوصة مكعبة من الماء[2] ولكن الفلزات (metals) التي يزيد وزنها النوعي عن ١٠ كثيرة ولا تقل عن ١٧ فلزًّا . وقد جرت العامة على قولها « اثقل من الرصاص » اذا شاءت ان تصف جسماً ما بالثقل العظيم ، لان العامة خبرت ثقل الرصاص النوعي في كثير من معاملاتها اليومية . ولكن الرصاص يبعد عن ان يكون اثقل الفلزات . فالذهب والزئبق والبلاتين والتنتالوم والتاليوم والثوريوم والتنغستن والاورانيوم تفوقهُ جميعاً في وزنها النوعي . وفي اختيار اثقل هذه الفلزات ، يجب ان نعنى عناية خاصة بتحضير النماذج المستعملة اساساً للمقابلة . فالذهب اذا نقي في فراغ كان وزنهُ النوعي ١٨٫٨٨ ولكنهُ اذا مُدَّ بعد احمائهِ بالنار وسقيهِ بالماء اصبح ١٩٫٢٦ . كذلك الذهب الزهر وزنهُ النوعي ١٩٫٣ ولكنهُ اذا كان مطرَّقاً اصبح ١٩٫٣٣ . واذن فالمقابلة يجب ان تتم بين نماذج حضّرت بطريقة واحدة . واثقل الفلزات التي يتناولها الناس عادة هو عنصر البلاتين ويتباين وزنهُ النوعي من ٢٠٫٩ الى ٢١٫٧ ويشبههُ في ذلك الاسميوم والاريديوم وهما من الفلزات غير المشهورة . وكلاهما اثقل من البلاتين قليلاً . فوزن الاسميوم النوعي يتباين من ٢١٫٣ الى ٢٤ فاذا كان في اكثف ما يكون عليهِ كان اثقل المواد على سطح الارض

ما اخف المواد

لقد بحثنا عن اثقل المواد بين المعادن والفلزات فيجب ان نبحث عن اخفها بين الغازات لانها تحتوي على المادة في الطف اشكالها . تقول العامة «اخف من الريشة» ولكن خفة الريشة اذا قيست بخفة بعض الغازات كانت كبعض المعادن ازاء الماء . ولا يخفى ان الريشة اثقل من الهواء ، ومهما يضرب بها المثل في الشعر العربي بعدم الاستقرار ، فلا بدَّ ان تهبط الى الارض .

---

(١) هذه المقالة مبنية على بحث مسهب في المجلة العلمية الاميركية . (٢) تعرف هذه الصفة بالثقل النوعي او الوزن النوعي . وهو النسبة بين وزن جسم من حجم معين ووزن جسم من الماء من الحجم عينه . فاذا قيل هذه المادة يبلغ ثقلها النوعي ١٠ عني ان مقداراً منها يزن عشرة اضعاف مقدار يماثله من الماء

ولكن بعض الغازات اخف من الهواء فاذا اطلقت فيهِ ارتفعت بدلاً من ان تهبط الى سطح الارض ، وقد جرى العلماء لدى الكلام في الغازات على المقابلة بين مقدار من الغاز بمقدار مثلهِ من الهواء . وكل غاز اخف الهواء تكون كثافتهُ اقل من ١ لان هذا الرقم هو الممثل لكثافة الهواء . فالاسيتلين والامونيا واكسيد الكربون الاول والنيون والنتروجين والهليوم اخف من الهواء . اما الثلاثة الاولى فمركبات . واما الثلاثة الاخيرة فعناصر . وتبلغ كثافة عنصر الهليوم ١٣٨ر٠ فهي اقل من سبع كثافة الهواء . ومع ان الهليوم خفيف جداً لا يمكننا بحال من الاحوال ان نحسبهُ اخف المواد على سطح الارض . ذلك اننا اذا اخذنا لتراً من الايدروجين ووزناهُ واخذنا لتراً من الهليوم ووزناهُ وجدنا ان وزن الايدروجين نحو نصف وزن الهليوم . فيصحُّ ان نحسب الايدروجين اخف المواد التي نتناولها . ولكن لا يصحُّ ان نقول انهُ اخف المواد على سطح الارض لان المشتغلين بالاشعة المولّدة للكهارب في فراغ الانابيب العلمية يتناولون تيارات من الكهارب ، وهذه التيارات لابد ان تكون اخف من الايدروجين لان كل الكترون ليس الاّ جزءًا من ذرة الايدروجين

وقد طبق ما عرف عن اخف العناصر تطبيقاً عملياً في شؤون الملاحة الجوية . فتملأ البلونات — مثل البلون غراف تسبلين — بالايدروجين تارة وبالهليوم اخرى . وقوة الايدروجين على رفع الاجسام عن سطح الارض غريبة . فالانسان لايستطيع ان يرفع نفسهُ اكثر من ست اقدام ونصف قدم في الهواء . وهو الرقم القياسي في القفز العالي . ومع ذلك لا بد لهُ من قوة عضلية ومرانة وخفة لبلوغهِ . والذين بلغوهُ قلائل . اما الايدروجين فيرفع جسماً ثقيلاً عن الارض . فاذا ملأت بلوناً بما وزنهُ رطل من الايدروجين رفع ثقلاً وزنه ١٤ رطلاً . ولكنهُ شديد الالتهاب ، لذلك يمنع التدخين في البلون غراف تسبلن في اثناء الطيران وعلى مقربة منه في حظيرتهِ . ومردُّ طائفة كبيرة من الكوارث التي أصابت البلونات الى شدة التهاب الايدروجين . اما الهليوم فاثقل وزناً من الايدروجين ولكنه لا يلتهب . وقد كانت اكبر مصادره — حتى عهد قريب — في الولايات المتحدة الاميركية فاستعملتهُ حكومتها في ملء بلوناتها الحربية ومنعت اصدارهُ من بلادها

ما اقسى المواد

لا بد من تعريف « القساوة » ثم البحث عن اسلوب لقياسها ، قبل البحث عن المواد المتصفة بها . فاذا قال احد المهندسين ان هذا الفلز أو ذاك قاسٍ فقد يفسَّر قولهُ بمعانٍ كثيرة . فاذا قال ان كرات العجلات في هذه الماكنة مصنوعة من فلزٍ صلب عنى انها

وهي مزيتة لا تتآكل بسرعة في اثناء دوران العجلة وفرك السطوح المعدنية الملامسة لها ، واذا اشار الى الصلب الذي تصنع منهُ الخطوط الحديدية بانهُ صلب قاسٍ قصد انهُ لا يتآكل بسرعة من سير العجلات عليهِ من دون تزييتهِ . واذا تكلم عن قساوة الفلزات في آلةٍ معدة لتحطيم الحجارة عنى مقاومتها « للهرش » في اثناء هذا العمل . فاذا وصف بالقساوة فلزاً معدًّا للقطع عنى بذلك مقدار ما يلقاهُ الصانع من الصعوبة في قطعهِ . وكل واحدة من هذه الصفات تختلف عن الاخرى وكلها تعرف باسم عام هو القساوة (Hardness)

فاختيار وسيلة لقياس قساوة المواد للموازنة بينها يكاد يكون متعذراً . ولكن المهندسين جروا على تعريف القساوة بمقدار ما تحدثهُ آلة مقساة تقسية خاصة في مادةٍ ما اذا ضغطت عليها ضغطاً معيناً . وطريقة « برينل » تستعمل كرة من الصلب قطرها عشرة مليمترات . فتوضع تحتها المادة التي يراد قياس قساوتها وتضغط هذه الكرة عليها ضغطاً معيناً ثم ينظر في ما احدثتهُ الكرة في المادة من أثر . وقد يستعمل بدل الكرة مخروط صغير من الصلب او مطرقة ذات وزن معين تهبط من علوّ معيّن ثم يقاس مقدار ارتدادها . وغير ذلك . وهذه الوسائل كلها تمكن الباحثين من الموازنة بين قساوة المواد المختلفة بالمعنى الخاص بها دون غيره . لانهُ قد تكون المادة قاسية جدًّا ولكنها قابلة للانكسار فاذا ضغط عليها المخروط الفولاذي او سقطت عليها المطرقة تشعثت او تحطمت

اما المعدِن فتهمُّهُ الموازنة بين قساوة المعادن (Minerals) ولذلك يستعمل سكيناً او مبرداً مصنوعاً من مادة قاسية فيخدش المعادن بقوة معينة ثم يقيس الخدش وبذلك يوازن بين قساوة المواد المختلفة

واقسى المعادن في الطبيعة هي الماس فالياقوت الازرق فالياقوت الاصفر فالكوارتز

***

ولكن ثمة امكان صنع مواد اقسى من الماس . فدرجات الحرارة العالية التي يمكن بلوغها في الاتاتين الكهربائية مهدت السبيل لصنع مواد قاسية جدًّا وهي مركبة في الغالب من عناصر الكربون والسليكون والبورون وبعض الفلزات واشهر هذه المواد « الكربورندم » وهو كاربيد السليكون ويصنع باحماء مزيج من الكربون والسليكون في أتون كهربائي على درجة عالية من الحرارة . وقساوتهُ تكاد تساوي قساوة الماس . ويستعمل في الصناعة لصقل الادوات المعدنية والفلزية القاسية . وقد صنعت مركبات السليكون والكربون والبورون من عناصر الالومنيوم والكلسيوم والفناديوم والتيتانيوم والزركونيوم والموليبدينوم والتنغستن والتنتالوم والكروميوم فجاءت شديدة القساوة . وثمة مركَّب « كربيد البورون » فقد قيل انهُ يصلح لصقل الماس ، والمرجح ان صنع مادة اقسى من الماس لم يحقق بعد

والماس مشهورٌ على انهُ من الحجارة الكريمة . ولكن نصف ما يستخرج منهُ من المناجم يستعمل في الصناعة في صقل الاجزاءِ الفلزية في الآلات الدقيقة كالساعات والمقاييس العلمية . ثم ان غبار الماس يستعمل في قطع الحجارة الكريمة وصقلها . واشهر البلدان التي يستخرج الماس منها بلاد جنوب افريقية اذ يستخرج من مناجمها ٩٥ في المائة من الماس المستخرج في العالم . اما اكبر حجارة الماس التي وجدت فهو ماسة كولينان وكان وزنها لما وجدت ٣١٠٦ قراريط وماسة كوهي نور ووزنها الآن بعد صقلها مائة قيراط

ما اكثر المواد قبولاً للمدّ

مدَّ الحبل ومدَّ بهِ مطلهُ . والمدُّ في علم المعادن قابلية الفلز لان يُمَدَّ او يسحب سلكاً طويلاً . ويكاد يلازم هذه الصفة قابلية الفلز للانطراق رقوقاً

وهاتان الصفتان تمتاز بهما الفلزات . وفي تعيين ايها اشد قبولاً للمدّ والانطراق يجب ان نراعي صفاءَ الفلز من الشوائب وطريقة تحضيرهِ . فوجود شوائب في الفلز يجعله اشد قبولاً للتكسُّر . ولنا في عنصر التنغستن ابلغ مثلٍ على ذلك ، وهو الفلزُ الذي تصنع منهُ اسلاك المصابيح الكهربائية . فلما حاول الباحثون صنع اسلاك المصابيح منهُ ، وجدوهُ يتكسر بين ايديهم فلا يستطيعون مدَّهُ اسلاكاً . ولكن لما حضّر تحضيراً صفّاهُ من الشوائب ،وعولج بالنار معالجة خاصة ،اصبح يسهل مدّهُ اسلاكاً دقيقة كما ترى في المصابيح

لذلك يعتقد العلماءُ ان الفلزات التي تحسب قاسية متكسرة تصبح مرنة قابلة للمدّ والطرق اذا صفّيت من شوائبها وحضّرت التحضير الموافق لها

وقد يحدثُ احياناً ان وجود بعض الشوائب يجعل الفلز اشدَّ مرونة منهُ اذ خلا منها. فالحديد المطرَّق مثلٌ يضرب بين الفلزات في الطراوة والقساوة والمرونة وقابلية المدّ . وذلك لانهُ يحتوي على مقدار معين من الكربون والفصفور مع ان هذه الشوائب في الحديد تجعله قاسياً وقابلاً للتكسر بوجهٍ عام

ومن المجمع عليهِ الآن ان الذهب فالفضة فالنحاس اكثر الفلزات قبولاً للمدّ والطرق ويليها القصدير والبلاتين والرصاص والزنك الحامي

فالذهب ينزل من هذه القائمة في الرأس، لانهُ مدّت منهُ اسلاك دقيقة لا ترى الاَّ بالمجهر . ويقال ان غراماً من الذهب مدَّ سلكاً طولهُ ٣٠٠٠ متر . فاذا صحَّ ذلك فاوقية الذهب تمدُّ سلكاً طولهُ خمسون ميلاً . وقد طرق الذهب اوراقاً رقيقة حتى ان ١٥٠٠ ورقة منهُ لا تزيد كثافتها على كثافة صفحة من المقتطف ، فاذا جمعنا منها ٣٠٠٠٠٠ ورقة لم يزد علوها عن بوصة

واحدة . واذا اخذنا اوقية من الذهب وطرقناها كما تقدم بلغت مساحتها ١٨٩ ميلاً مربعاً . اما الورق الذهبي المستعمل في التجارة في صناعة التجليد والتذهيب فيحتوي على ٢ في المائة من النحاس و٢ في المائة من الفضة . والغرض من اضافة هذين العنصرين تحسين اللون وتقوية الورق حتى يستطاع تناولهُ في الاعمال من دون تفتيته

اما عنصر التنغستن فيباري الذهب في ذلك ولكنهُ لا يساويهِ . فقد حضّر حديثاً خالياً من كل شائبة وعولج بالنار فامكن مدّهُ سلكاً قطرهُ خمسة اجزاءٍ من الف جزءٍ من الملمتر او $\frac{1}{20}$ من ثخن شعرة الانسان واثخن قليلاً من ادق اسلاك الذهب . وقد تسفر موالاة البحث في التنغستن عن امكان مدّه اسلاكاً ادق من اسلاك الذهب

ما اعلى درجات الحرارة

ونقصد هنا اعلى درجات الحرارة التي بلغها الانسان بوسائله الصناعية . والطريقة العادية التي يجري عليها الانسان لتوليد درجات الحرارة العالية هي اشعال وقيدٍ جامد مثل الفحم او « الكوك » (وهو الفحم الحجري الذي طار غازهُ منهُ) في الهواء . واستعمال هذه الطريقة تمكننا من توليد حرارةٍ تبلغ نحو ٧٠٠ درجة بميزان سنتغراد (مئوية) وهي كافية لصهر القصدير والرصاص والزنك . وقد تولّد حرارة تبلغ ١٢٠٠ درجة مئوية اذا استعمل تيار جاف وهي كافية لصهر النيكل والحديد . فاذا اردنا ان نولد حرارة اعلى مما تقدم سحق الوقيد ثم ادخل الى الاتون في تيار من الهواء فيتكوَّن من دقائق الوقيد وجزيئات الهواء مزيج يولّد لدى احتراقه حرارة درجتها ١٦٠٠ مئوية وهذا الاتون يستعمل في صنع الاسمنت . فاذا شئنا المزيد ابدلنا الهواء في مزيج الوقيد والهواء بغاز الاكسجين فنجتنب فعل نتروجين الهواء الذي لا يشتعل وتبلغ الحرارة نحو ٢٠٠٠ درجة مئوية . فاذا استعمل غاز مشتعل مع الاكسجين كالايدروجين مثلاً تولدت حرارة هي اعلى حرارة نستطيع توليدها من وقيد مشتعل . وتبلغ ٢٨٠٠ درجة مئوية . وقد استنبطت حديثاً وسيلة لتجزئ غاز الايدروجين واستعماله مجزءًا في توليد الحرارة فولدت حرارة بلغت ٣٨٠٠ درجة . وهذه الحرارة كافية لصهر أو تبخير كل مادة ارضية معروفة الا الكربون والمادة الصناعية الجديدة وهي كربيد التنتالوم

وقد شاع حديثاً استعمال الاتون الكهربائي . ومبدؤهُ تحويل الطاقة الكهربائية الى حرارة بامرار تيارها في مادة مقاومة له . فاذا لفّ سلك حول قضيب فلزي وأُمرّ تيار كهربائيٌّ في السلك تولدت حرارة تبقى آخذةً في الارتفاع حتى تبلغ درجة يلين عندها الفلز . فاذا استعملت اخلاط النيكل والكروم أمكن الحصول على حرارة تبلغ درجة ١٠٠٠ بميزان سنتغراد ، واذا

استعمل سلك مصنوع من عنصر المولبدينوم او التنغستن بلغت ٦٠٠، ° . وثمة نوع آخر من الاتاتين الكهربائية مبني على استعمال مبدإ النور القوسي فيمر التيار الكهربائي في انبوب يحتوي على حبيبات من الكربون وهي شديدة المقاومة لمرور التيار فترتفع الحرارة حتى لقد تبلغ درجة ٣٥٠٠ الى ٣٦٠٠ درجة مئوية وفي هذه الاتاتين تصنع مادة الكربورندم التي ذكرناها في المواد القاسية . ولكن يؤخذ على هذه الطريقة عجزنا عن السيطرة عليها وتباين درجات الحرارة في احوال متماثلة .وهناك انواع اخرى من الاتاتين الكهربائية نضرب عنها صفحاً

وقد حاول بعض العلماء من عهد قريب ان يجمعوا حرارة الشمس في نقطة معينة باستعمال عدسات ومرايا مختلفة وقد بلغت اعلى درجات الحرارة التي بلغوها بهذه الطريقه ٣٠٠٠ درجة مئوية .وقد يسفر البحث في هذه الناحية في بضع السنوات المقبلة عن بلوغ درجات من الحرارة اعلى جداً مما بلغناهُ حتى الآن

اما قياس الحرارة في درجاتها العالية فمسألة ذات شأن . فنحن قد اعتدنا استعمال الميزان الزئبقي (ميزان الحرارة الذي يستعمله الاطباء في قياس حرارة المرضى او ما هو مبنيٌّ على مثاله) لما ثبت لنا من صحة الاعتماد عليهِ . ولكن اذا بلغت الحرارة ٥٠٠ درجة مئوية وجب البحث عن مقياس آخر . وقد عمد الطبيعيون الى الغازات فانهم يعلمون انها تتمدد تمدداً معيناً محدوداً بارتفاع حرارتها فبنوا على هذا المبدأ مقاييس غازية لقياس درجات الحرارة . وقد تملأ الانابيب المستعملة لهذا الغرض بالايدروجين او الهليوم او النتروجين او الارجون ثم يعين ارتفاع الحرارة بمقدار زيادة ضغط الغاز اي بمقدار تمددهِ.والظاهر انها بسيطة التركيب دقيقة القياس وسهلة التناول

وقد صنعت مقاييس كهربائية ولكنها معقدة التركيب ويحتاج العامل الى براعة خاصة لكي يحسن استعمالها . ومع ذلك فهذه الطرق كلها لا تصلح لقياس اعلى درجات الحرارة . لانهُ اذا زادت درجة الحرارة عن ١٧٧٤ درجة مئوية — وهي درجة انصهار البلاتين — اصبحت كل هذه المقاييس المبنية من مواد اقل صلابة من البلاتين ، لا تصلح لانها تلين وقد تصهر قبل بلوغ هذه الدرجة

لذلك بنوا مقاييس تعرف « بالمقاييس الضوئية » ولا نستطيع ان نتبسط في وصفها هنا . انما المبدأ الذي تقوم عليهِ هو انهُ كلما ارتفعت الحرارة تغير لون الاشعة المنبعثة منها ، أي تغير طول امواجها .فاذا تبيَّنا اللون او قسنا طول الاشعة استطعنا تقدير درجة الحرارة التي انبعثت منها هذه الاشعة . على ان اعلى درجات الحرارة التي بلغها الانسان باستعمال اصناف الوقيد المختلفة وبناء الاتاتين الكهربائية ، ليست شيئاً يذكر ازاء حرارة الشمس اذ يقدر علماء الفلك الطبيعي (Astrophysics) حرارتها بـ ٤٠٠٠٠٠٠٠ درجة مئوية !

ما ادنى درجات البرد

ان توليد درجات البرد الشديد يقوم على ازالة حرارة الاجسام بوسائل مختلفة . وأشهر هذه الوسائل هي المستعملة في صنع (الجلاته او الدندرمة) اذ يؤخذ المزيج الذي يراد تجميده ويوضع في وعاء من الالومنيوم مثلا يحيط بهِ وعاءٌ خشبي آخر اكبر منهُ وبين جداري الوعائين يوضع مزيج من الجمد (الجليد) والملح . والجمد في ذوبانهِ يمتص كثيراً من الحرارة . ولما كان المعدن اكثر ايصالاً للحرارة من الخشب ، فالجليد يمتص من المزيج في الوعاء المعدني اكثر مما يمتصهُ من الهواء خارج الوعاء الخشبي . ويمكن الهبوط بالحرارة ، بهذه الطريقة ، الى ٢٠ أو ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر . فاذا استعمل ثاني اكسيد الكربون الثاني المتجمد بدلاً من جمد الماء بلغت البرودة ٥٠ تحت الصفر ، واذا صبَّ سائل طيار على جمد اكسيد الكربون الثاني هبطت الحرارة الى ٧٧ تحت الصفر

ثم هنالك طريقة اخرى لتوليد برد اقوى من البرد المولّد بالطريقة المذكورة سابقاً . ذلك ان بعض الغازات يؤخذ ويضغط ضغطاً شديداً ، ثم يبرَّد الغاز المضغوط باحدى الطرق المذكورة آنفاً ، ثم يرفع الضغط فجأة ، فتتمدَّد الغازات وفي تمددها تمتص حرارة . فاذا احيطت الانابيب التي يتمدد الغاز فيها فجأة بسائل ما امتصَّ الغاز الحرارة من السائل فتهبط حرارة السائل هبوطاً عظيماً وهي الطريقة المستعملة لصنع الثلج الصناعي — وهو في الواقع ليس ثلجاً وانما هو جمد او جليد

فاذا رتبت الانابيب التي يضغط فيها الغاز بشكل دوائر متمركزة ، وفتح اولاً صمَّام دقيق ليخرج منهُ مقدار ضئيل من الغاز لكي يتمدَّد ، ثم قفل الصمام ، تمدَّد ذلك الغاز وفي اثناء تمدده يمتص الحرارة من باقي الغاز الذي لم يتمدد . ثم يفتح الصمام ثانية ويخرج مقدار آخر فيتمدد ويمتص الحرارة في اثناء تمدده من الغاز الباقي ، وهكذا رويداً رويداً الى ان يبقى مقدار قليل من الغاز وقد هبطت حرارته حتى اصبح سائلاً . وهكذا تسيل الغازات . ومختلف الغازات تسيل على درجات مختلفة من البرودة . فالاكسجين السائل اذا بلغت حرارته ١٨٢٫٥ تحت الصفر تحول غازاً والنتروجين السائل اذا بلغت حرارته ١٩٥٫٨ تحت الصفر تحوَّل غازاً والايدروجين السائل اذا بلغ ٢٥٢٫٧ تحت الصفر تحول غازاً — وهو ما يعرف بدرجة الغليان لسائل الغاز . فاذا غلت هذه السوائل تحت ضغط عظيم زاد بردها وقد تتحول الى جوامد . فدرجة غليان الهليوم السائل ٢٦٨٫٩ تحت الصفر ودرجة ذوبان الهليوم الجامد ٢٧٢٫٢ تحت الصفر . وهي ادنى درجات البرد التي بلغ اليها العلماء

خبز الذرة والحلبة[1]

للدكتور علي حسن
الاستاذ المساعد للفسيولوجيا في كلية الطب

يصيب بعض اهالي القطر المصري مرض يعرف طبيًّا بالبلاجرا ويميز هذا المرض بطفح يظهر على اجزاء الجسم المعرضة للشمس كاليدين والقدمين والوجه والرقبة وتلبكات معدية معوية مصحوبة باسهالات تنتج ضعفاً شديداً وهزالاً مميتاً في بعض الاحوال وقد تتأثر حالة المريض العقلية فيصاب بجنون لا يقتصر خطره على المريض نفسه بل قد يمس بعض اهله او عارفيه لانه نوع من الجنون تصحبه في كثير من الحالات رغبة في القتل مبعثها في الغالب سوء ظن المريض في اقرب الناس اليه فقد يخيل اليهِ عقله المشوش انما يصيبه من الاسهال والضعف نتيجة لاعمالٍ سحرية أو لان امه او زوجته تدسُّ له السم في طعامهِ للتخلص منه إمّا لطول مرضهِ أو لان زوجته تميل لرجل آخر فهي لذلك تحاول اماتته لتصبح حرة قادرة على الزواج من جديد بمن تحب. وقد يقتل زوجته او رجلاً من اهلهِ أو اصدقائه وتكون الغيرة هي الدافع له على ارتكاب هذا الجرم لان هذا المرض يقعده عن اداء وظيفته الزوجية وشعوره بعجزه هذا يبعث في عقلهِ السقيم شكوكاً من جهة سلوك زوجته ومن تختلط بهم عادة من الرجال . فالبلاجرا في الغالب تميت مرضاها موتاً بطيئاً او تقودهم الى مستشفى المجاذيب وقد يقضي المريض باقي ايامه هناك ان كان متهماً بجريمة وذلك رغم ما يطرأ على حالتهِ من التحسن او الشفاء خوفاً من عودة المرض اليهِ

اتجهت الجهود في ايطاليا وفرنسا واسبانيا ورومانيا والولايات المتحدة اخيراً حيث يكثر هذا المرض ايضاً الى دراسة اسبابه تمهيداً لمقاومته مقاومة فعالة وقد اجمع الكل تقريباً على انه مرض يصيب عادة فقراء الفلاحين والعمال في القرى لانه يكثر بين الطبقات الفقيرة في الريف. اما متيسري الحال من الفلاحين وساكني المدن فلا يصابون به الاَّ فيما ندر

وبعد تخبط طويل اتجهت الآراء الى اتهام الذرة بانها تسببه لان المرض يكثر في الممالك التي تزرع الذرة وتأكلها ودلل البعض على صحة هذا الاتهام بان المرض لم يكن معروفاً في اوربا قبل بدء زراعة الذرة فيها والذرة كما تعلمون نبات ورد الينا من امريكا وانتشرت زراعته في الدنيا القديمة من اواخر القرن الثامن عشر الى وقتنا هذا

---

(١) لا يصدر هذا الجزء من المقتطف وتتداوله ايدي قرائه الا ويكون كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية قد خرج من المطبعة محتوياً على محاضرات المؤتمر الثالث الذي عقد برآسة الدكتور محمد شاهين باشا . وقد اخترنا هذه المحاضرة المفيدة منها لتنشر في المقتطف . وعندنا ان قراء المقتطف لا يستغنون عن هذا الكتاب النفيس

ولاظهار العلاقة بين الذرة والبلاجرا حاول علماء ايطاليا اقامة الدليل على ان البلاجرا هي حالة تسمم بطيء ناتجة من اكل الذرة الفاسدة وذلك لان حبوب الذرة عرضة للفساد ولنمو بعض الفطريات عليها خصوصاً اذا لم يعتن بتجفيف الحبوب بعد ضمها او اذا ضمت قبل تمام نضجها. وان هذه الفطريات تفرز سموماً اذا اكلت مع الذرة أصيب آكلها بالبلاجرا — الاَّ ان هذه النظرية التي وجدت كثيراً من المعضدين اهملت لضعف الادلة التي قدمت للبرهان على صحتها واستبدلت بنظرية أخرى تدور حول الذرة ايضاً. وهذه النظرية الاخرى تقول بان البلاجرا مرض ينشأ من الاعتماد على الذرة في الغذاء لان زلاليات الذرة من نوع رديء من الوجهة الغذائية — وهنا يحسن بي ان اوجّه نظركم الى بعض حقائق اثبتها علم التغذية منها ان الانسان يحتاج يوميًّا الى مقدار من المواد الزلالية يتأثر مقدارها بعوامل كثيرة منها السن والنوع والوظيفة ومصدر المادة الزلالية ذاته — وان المواد الزلالية موجودة في لحوم الحيوانات والحاصلات الحيوانية كاللبن والبيض وتوجد ايضاً في النباتات من خضروات وفواكه وحبوب خصوصاً في بزور الفصيلة البقلية ففي العدس والحلبة مثلاً حوالي ٢٥ في المائة زلاليات اما اللحم الاحمر ففيهِ ٢٠ في المائة فقط وان الزلاليات الحيوانية اكفأ من الوجهة الغذائية اي من وجهة قدرتها على تقديم المركبات اللازمة للاصلاح والبناء من الزلاليات النباتيــة . ولاضرب لذلك مثلاً : اذا اعطينا فريقين من الحيوانات غذاءين متشابهين الاَّ في نوع الزلاليات التي بها كأن يحتوي غذاء الفريق الاول على عشرين في المائة من زلاليات مستخرجة من اللبن ويعطى الفريق الآخر مقداراً مساوياً لها من مواد زلالية مستخرجة من القمح فان الفريق الاول ينمو ويتوالد بشكل طبيعي اما الفريق الآخر فيكون نموه وتوالده ضعيفاً ضعفاً بيّناً

ولكن النمو والتوالد يتحسن في الفريق الثاني اذا اضيفت الى زلاليات القمح زلاليات اخرى من اصل نباتي آخر ومعنى ذلك انهُ بينما تنمو الحيوانات وتتوالد جيداً اذا اعطيت غذاءً فيهِ زلاليات من اصل حيواني واحد كاللحم أو البيض أو اللبن فانها لا تنمو ما يقرب من هذا النمو اذا إغتذت بزلاليات نباتية الاَّ اذا زيدت الزلاليات النباتية في الغذاء وتعدَّدت مصادرها وحسن اختيارها

ومسألة تعدد المصادر فيما يختص بالمواد الزلالية النباتية مسألة خطيرة جدًّا من الوجهة الغذائية لان مقدار الزلاليات في الغذاء مسألة ثانوية ازاءَ نوعها وقد عرفنا السبب . والواقع انهُ اذا أردنا أن نعيش على غذاء نباتي محض وجب علينا أن نعدد أصنافه والاَّ تقتصر على ألوان قليلة لنضمن حصولنا على كفايتنا الغذائية من الزلاليات . ويحسن بنا دائماً اتباع هذه السياسة أي سياسة تعدد أصناف الغذاء في كل حال لان الزلاليات ليست بالمادة الغذائية الوحيدة المعرضة للنقص بل هناك مواد اخرى كالفيتامين مثلاً وخطر نقصها في الغذاء شديد لان الحرمان منها مدة طويلة يحدث امراضاً خطرة

نستطيع الآن ان نفهم كيف نشأت النظرية الثانية التي تربط البلاجرا بتناول غذاء عماده الذرة كما هو حاصل في البلاد التي تزرع الذرة بكثرة — فقد بيّنا ان زلاليات القمح اقل كفاءة من الوجهة الغذائية من زلاليات اللبن — ونحن اذا قابلنا بين القمح والذرة من الوجهة الغذائية بنفس الطريقة وجدنا ان نمو الحيوانات اذا تغذّت بالذرة يقل عن نموها اذا تغذّت بالقمح الاّ ان الفرق في النمو في هذه الحالة قليل. ولقد اظهرت الابحاث بان احد زلاليات الذرة وهو يوازي خمسين في المائة من مجموع زلاليات ينقصهُ عاملان مهمان من الوجهة الغذائيـة ولقد استعمل هذا الاكتشاف لتعزيز النظرية الثانية رغم ان زلاليات الذرة الباقية تعوض هذا النقص الى حد كبير

شكّ الكثيرون في صحة هذه النظرية لاستحالة تطبيقها على جميع الحالات فقد شوهدت حالات بلاجرا في بلاد لا تعرف الذرة ولا تدخلهُ في طعامها قط كما ان البلاجرا قد تصيب اشخاصاً يحتوي غذاؤهم على زلاليات من اصل حيواني اي من نوع جيد غذائيًّا

ومع ان هذه الاعتراضات كانت سبباً في تعديل النظرية تعديلاً لم يؤثر كثيراً في أساسها الاّ ان النظرية بعد التعديل لم تعد تعتبر الذرة العامل الوحيد في احداث البلاجرا وسلم القائلون بها بامكان حدوث البلاجرا بعد تناول غذاء ليس للذرة اثر فيهِ ولكنهم قالوا ان القيمة الغذائية لزلاليات هذه الاغذية الخالية من الذرة اذا قدرت وجدت تقل عن رقم مخصوص اصطلحوا عليهِ

لقد اطلت عليكم ولكن كان لا بدَّ لي من هذه المقدمة الطويلة لكي نتمشى معاً في بحث الموضوع الاساسي الذي اخترته لهذه الليلة

يظهر لنا لاول وهلة أن هذه النظرية تفسر حدوث البلاجرا بالقطر المصري لان طائفة كبيرة من فلاحي القطر وهم حوالى اربعة اخماس السكان يصنعون خبزهم من الذرة الشامية او الذرة الرفيعة وان حالتهم الاقتصادية لا تسمح لهم بتنويع طعامهم ولا باختياره من اصناف مشهورة بجودة زلالياتها . واذا علمنا أن متوسط دخل الفلاح في السنة لا يزيد عن خمسة عشر جنيهاً يصرف منها على غذائهِ وملبسهِ وباقي مطالبهِ استطعنا أن نفهم لِمَ يبيع الفلاح بيض دجاجه ولبن ماشيته بدل ان يأكلهـا هو واهله . وإذا استثنينا الاحوال النادرة التي يوسع فيها الفلاح على نفسه بشراءِ قليل من اللحم وجدنا انهُ يعيش على النباتات ولا يختار الاّ الرخيص منها . من هذا نرى اذاً ان احوال الفلاح الغذائية وتعرضهُ للاصابة بالبلاجرا تعزز هذه النظرية . ولكن يخيل اليَّ ان هذا التعزيز ظاهري فقط فالقيمة الغذائية في خبز الفلاح باعتباره عماد غذائه يجب ان تحملنا على الريب في صحة هذه النظرية إذا أمكننا أن نثبت بانها تفوق القيمة الغذائية لخبز المدن المصنوع من القمح

ان تفضيل دقيق القمح في صنع الخبز لم ينشأ عن امتيازه على غيره من الحبوب المستعملة في عمل الخبز لان بعض الحبوب كالشوفان مثلاً المستعملة الى وقتنا هذا لصنع الخبز في المانيا

وبلاد بحر البلطيق تمتاز عن القمح من الوجهة الغذائية الاَّ انها لم تنتشر انتشار القمح في انحاء العالم كاساس لصنع الخبز الجيد اقصد خبزاً جيداً من وجهة الصناعة فقط

ولكن هذا التفضيل ناشئ عن احتواء دقيق القمح على مواد زلالية اذا مزجت بالماء اعطتنا عجينة شديدة اللزوجة تشبه المطاط وهذه الخاصة هي أساس الصفات الخاصة برغيف القمح والتي تظهر لنا بوضوح في الرغيف الافرنكي — وهي القوام الاسفنجي والوزن الخفيف بالنسبة لحجمه وهي صفات لا تتوافر في رغيف مصنوع من دقيق آخر — يضاف الى ذلك امكان الحصول من القمح على رغيف يمتاز بشدة بياضه — لا شك في ان القوام الاسفنجي يجعل الرغيف اسهل هضماً وبياضه يحببهُ الى الجمهور ولكن هل يدري الجمهور اي ثمن يدفع للحصول على هذه النتيجة هل يعلم ان العمليات الكثيرة التي يمر فيها القمح ليعطينا اجود الارغفة شكلاً تزيل من دقيقه كثيراً من موادهِ الغذائية من زلاليات وفيتامين وزيت واملاح

ولكني اؤكد لكم بناءً على تجارب اجراها باحثون مختلفون في ممالك متعددة أن انقى الارغفة وانصعها بياضاً اقلها قيمة من الوجهة الغذائية ومعنى ذلك ان الرغيف العادي أجود من الوجهة الغذائية من الرغيف الخاص وان الرغيف المصنوع من الحبة كلها اجود من الاثنين ولذا نرى الجيش المصري يتبع في تجهيز خبزه الطريقة الاخيرة اي أن القمح يطحن ويؤخذ الدقيق كما هو لعمل الخبز واني وان اعترفت بان منظر رغيف الجيش لا يسر كثيراً الاَّ أنهُ في الواقع يفضل من الوجهة الغذائية ما سواه

توافقون حضراتكم على أنهُ في سبيل الحصول على رغيف لطيف شكلاً وقواماً نعرض القمح لعمليات تقلل من قيمتهِ الغذائية أو بمعنى آخر تقرب قيمته الغذائية الى الذرة والفرق بينهما كما قدمنا قليل في الاصل ولكن هل يتعرض الذرة لمثل هذه العمليات — لا — أنهُ لا يتعرض لذلك لسببين رئيسيين . أولاً أن أغلب أنواع الذرة المستعملة في عمل الخبز بيضاء من الاصل فضلاً عن أن آكلي خبز الذرة لا يعملون عادة للحصول على رغيف ابيض . ثانياً أنهُ من الصعب عمليًّا الحصول على رغيف أبيض من الذرة لان الذرة لا تعطينا دقيقاً له نعومة دقيق القمح ومن هذا نرى أن قيمة الذرة الغذائية لا تتعرض للنقص في اثناء تجهيز الحبة لعمل الخبز

وعلاوة على ذلك وهو بيت القصيد ان الفلاحين في مصر يضيفون الى الذرة قليلاً من الحلبة فخبزهم أغلبهُ مكوَّن من مزيج من ذرة وحلبة ومن النادر ان نرى خبزاً مصنوعاً من الذرة فقط . واضافة الحلبة الى الذرة في صنع الخبز هي ضرورة عملية لان زلاليات الذرة لا تعطينا اذا مزجت بالماء عجينة لزجة كما هو الحاصل في القمح وهذا النقص هو السبب في استحالة الحصول من الذرة على رغيف اسفنجي خفيف فعجينة الذرة الخالصة ليست متماسكة واذا اريد عمل ارغفة منها تعذر ذلك الاَّ اذا كانت في شكل كتل تخرج من الفرن صماء ثقيلة

قد تؤكل بسهولة وهي طازجة اما اذا تركت مدة تعذّر مضغها وازدرادها

فاضافة الحلبة هي لمجرد الحصول على عجينة لزجة لان الحلبة تحتوي على مادة شديدة اللزوجة وهي لشدة لزوجتها استعملها صانعو الاحذية في اثناء الحرب العظمى في لصق الطبقات الداخلية لنعل الحذاء وذلك لانقطاع المادة المستعملة عادة لهذا الغرض وقد تستعمل البامية الناشفة في صنع خبز الذرة بدل الحلبة وهي طريقة يلجأ اليها الفقراء اذا تعذر عليهم الحصول على الحلبة

هنا ميزة اخرى لخبز الذرة والحلبة اذ بينما زلاليات خبز القمح ترجع كلها الى اصل واحد هو القمح فزلاليات خبز الذرة والحلبة من اصلين. وهذا كما قدمت عامل مهم من الوجهة الغذائية . قد يقول البعض ان مقدار الحلبة الذي تضاف الى الذرة لا يتعدى نسبة قليلة هي حوالي اربعة في المائة وهي لذلك لا تؤثر تأثيراً محسوساً في قيمة الخبز غذائيًّا ولكن لنذكر اولاً بأن الحلبة غنية بموادها الزلالية اذ فيها ما يقرب من ٢٥ في المائة منها وان هذا المقدار القليل يعطينا فعلاً رغيفاً يفوق من الوجهة الغذائية رغيف القمح

ولقد تيسر لي اثبات ذلك عمليًّا بواسطة تجارب غذائية — اشرت اليها في مقالي السابق بالمؤتمر الاول لهذا المجمع — اجريت هذه التجارب على حيوانات لمدة ستة اشهر ومنها ظهر أن نمو الحيوانات وتوالدها اذا اغتذت بالذرة مضافاً اليها الحلبة كان احسن منه اذا اغتذت بالقمح وظهر أن النمو يكون ممتازاً حتى ولو انزلت نسبة الحلبة الى اثنين في المائة فقط

خرجت من هذه التجارب بنتيجتي الاولى وهي ان الرغيف المصنوع من الذرة والحلبة اجود من الناحية الغذائية من رغيف القمح. والثانية هي اني بدأت اشك في وجود علاقة بين المواد الزلالية التي في الغذاء وبين البلاجرا . والواقع انهُ ظهرت في اميركا من عهد قريب ابحاث تشير الى ان البلاجرا نتيجة لنقص فيتامين خاص في الغذاء اطلق عليهِ اسم الفيتامين الواقي ضد البلاجرا

اريد في النهاية ان اعرض على حضراتكم اقتراحاً تشجعني الأزمة الحالية على تقديمه. انتم تعلمون بأن الذرة رخيصة الثمن اذا قيست بالقمح اذ بينما سعر اردب الذرة اليوم حوالي ٦٥ قرشاً فسعر القمح ١٤٠ قرشاً ففكروا فيما يمكن توفيره اذا صنعنا خبزاً مركباً من :

٥٠ ./٠ ذرة ٤٧ ./٠ قمح ٣ ./٠ حلبة

يكون الوفر اعتماداً على هذه الاسعار حوالي ٢٥ ./٠ اما مميزات هذا الخبز فهي :

(١) قيمته الغذائية احسن من قيمة خبز القمح (٢) وثمنهُ ارخص من ثمن خبز القمح ولخبز الذرة فائدة في تنظيم الامعاء فأنتم على ما اظن تعلمون بأن الذرة مُلَيِّن الى حد ما وذلك لانها تترك في الامعاء فضلات كثيرة تنبهها للعمل وعليهِ تكون مصلحة المصابين بالامساك المزمن في استعمال مثل هذا الخبز. تضاف إلى ذلك ميزة اخرى وهي انها سهلة المضغ ويظهر ذلك على الخصوص اذا اكل الرغيف بعد خبزه بيوم على الاقل

عيد ميلاد
في الجحيم
للاستاذ عباس محمود العقاد

دخل شقي الجحيم فحسبوه مولوداً جديداً في ذلك العالم القديم ، ومضى عليه العام فاحتفل بعيد ميلاده ، وقال لاترابه وأنداده :

صفّوا الموائد واملأوا الأكوابا ... وادعوا الصحاب، وبشروا الأحبابا
قولوا مضى عام ليوم هبوطه ... هذا الجحيم ، فقرّ فيهِ وطابا
وبلا المقام فراح يحمد شرَّ ما ... فيهِ ، وآدب[1] باسمهِ ايدابا
هذا الجحيم أحبُّ لي من عالمٍ ... ما كان لي الا رجاءً خابا
الشرّ ثمة كان شرًّا كاسمهِ ... والخير كان كما علمت سرابا
يشقى بنوهُ ليعمروهُ ، ويجشموا ... فيهِ الشقاء ليرجعوه خرابا
لا يعرفون الحق ان سمعوا بهِ ... الا ليلقوا في الحقوق عذابا
أهونْ بصابٍ في الجحيم اذوقهُ ... قد كان ثمة كل شيء صابا
قد كنت اشربهُ بعينيَّ تارةً ... وفمي المرير ، وساء ذاك شرابا
ولربَّ وجه يومذاك شهدتهُ ... فكأنَّ سمًّا في العيون انسابا
وجهُ اللئيم اذا استهلَّ ومثلهُ ... وجهُ الكريم اذا اضمحلَّ وذابا
ورضى الظلوم وحيرة المظلوم في ... بلواهُ يطرق كل يوم بابا

* * *

يا صحب حيوا النار في ويلاتها ... واحثوا على ذاك التراب ترابا
ما كان من حُسنٍ هناك فجهده ... ان يخدع الابصار والألبابا
او كان من فضل فتلك حبالةٌ ... للبؤس تضني البائسين طلابا
يا صحب هاتوا من علاقمها لنا ... وادعوا الأحبة ، واشربوا الأنخابا
من عاش عاماً في الجحيم فلا اشتهى ... ابداً الى ذاك الجوار مآبا

(١) آدب اي اقام مأدبة او وليمة

دراسة علماء الغرب

لمذهب الصوفية

محاضرة الاستاذ المستر اربري مدرس التصوف بجامعة كمبردج بانكلترا وتلميذ الاستاذ نكولسن المستشرق المعروف واستاذ اللغة العربية بجامعة كمبردج القاها بنادي الشبان المسلمين بالقاهرة بدعوة من جماعة النشر والترجمة وعربها السيد محمد الغنيمي التفتازاني شيخ السادة الغنيمية الصوفية بمصر

امتاز القرن التاسع عشر في الغرب بالتطور السريع الذي ظهر في الأخذ بطرق التحليل العلمي . وازدياد علم الناس ازدياداً هامًّا بالظواهر الطبيعية يضاف الى هذا ما بدا من ضعف في الاعتقاد بالمذاهب والعقائد الدينية القويمة . تلك العقائد التي ظلت موضع التقدير والاحترام على مرّ الأزمان وكرّ الأعوام . ولما أثبت لنا علم طبقات الارض ما لم نكن نتصوره أو نحلم بهِ عن كرتنا الارضية وما عمرته من دهور وأحقاب . وكشف لنا علم الفلك عن ذلك الفضاء اللانهائي . وذلك الزمن الذي حار في حسبانه الانسان . والذي لا يعد ما سجله التاريخ منهُ الاَّ بمقدار لحظة او كلمح البصر . لما أثبت العلم كل هذا . هوى نجم الدين . وضعفت العقائد . وكاد يطغى على العالم سيل المادية الجارف . فيكتسح في سبيله جميع الآراء الفلسفية والدينية — غير أنهُ في بداءة القرن الحاضر أخذت هذه الحركة الفكرية في التراجع . وبدأ يحل محلها الايمان بالله . والاعتقاد بان هذا الكون لم يخلق عبثاً . وفي الوقت نفسه ظهرت هناك بوادر تدل على الرغبة في البحث وراء الحقيقة في الديانات الاخرى . واشتدت هذه الرغبة حتى فاقت نظيرتها في الغرب وبوجهٍ خاص فيما يتعلق بالناحية الصوفية من هذه الديانات . فانها استرعت اهتمام فريق من الناس طفقوا يبحثون في حياة وسير عظماء الدينيين من رجال ونساء . ليستخلصوا من حياتهم وسيرهم الدليل المباشر على صحة ما اتبع هؤلاءِ الناس من مِلل وارتضوه من عقائد . هم أدرى بها وأعلم . هذا إلى أن وقعت الحرب العظمى فجاءَت دافعاً جديداً للبحث عن الحقيقة . إذ كانت تلك الوحشية . والمأساة الصادعة التي تمثلت في هذه المجزرة البشرية . أشد ما تكون باعثاً على أن يتطلب الناس الخلاص والاطمئنان بالالتجاء الى قوة روحية تفوق قوى البشر وتسيطر عليها

ولم تعالج دراسة الصوفية بالحماسة العظيمة أو الدقة في البحث بمثل ما عولجت بهِ في أيامنا هذه . على أن الاحوال الحاضرة هي خير فرصة ملاءمة لتقدم هذه الدراسة والسير بها إلى الأمام — وليس الغرض من هذه العجالة الاَّ وضع ملخص وجيز للعمل الذي قام بهِ حتى الآن جماعة العلماء الاوربيين . وبيان خطتهم التي اتبعوها في تناولهم لمذهب الصوفية ..

وأول رسالة هامة ظهرت في اوربا عن الصوفية هي رسالة (تولك) التي نشرت باللاتينية سنة ١٨٢١ — ويعتبر هذا الكتاب الآن اثراً قديماً . غير انهُ لا يزال موضع اللذة لقارئهِ. وفي سنة ١٨٦٧ — نشر (ادوار بلمار) استاذ اللغة العربية بجامعة كمبردج وأحد مترجمي القرآن الى اللغة الانكليزية كتابهُ الصغير الذي سماه (الصوفية الشرقية) . وقد كتب فون كرامر عن الصوفية كتابة مختصرة في مؤلفه (Die Von Islam) وكذلك (جولزهر) في كتابه القيم (الدراسة المحمدية) ثم ضمن كتابه (Unrenchen Islam) معلوماته الهامة في الموضوع . أما (ف. ج. و. جب) الذي خسر العالم بموته السابق لاوانه اكبر عالم محقق مدقق . فقد رسم لنا في سفره الجليل (تاريخ الشعر العثماني) حدود الصوفية . ووضح لنا معالمها التي تنير السبيل . كما اشار الى الصوفية في مناحيها المختلفة العلامة (ف. ج. برون) في كتابه القيم (تاريخ الادب الفارسي) . كذلك كتب عن الصوفية العلامتان (د. ب. مكدونالد) و (ي. س. مارجليوث) الاول في كتابه (نمو الدين الاسلامي) والثاني في (الاسلام في بدء ظهوره) — ومن ثمَّ بقي على الاستاذ (نكلسون) ان يأخذ على عاتقه بعد ذلك التوفر على الصوفية وجعلها الموضوع الاساسي لبحوثه

ولد الاستاذ (نكلسون) الذي يشغل الآن كرسي اللغة العربية بجامعة كمبردج في سنة ١٨٦٨ . وقد عكف وهو يجاور في كمبردج على دراسة المؤلفات الاغريقية واللاتينية الشهيرة فتفوَّق فيها . وكان لهذه الثقافة العالية أثرها الذي لا يقدَّر . فلما وجه عنايته الى دراسة اللغة العربية والفارسية تمكن منهما كل التمكن . ففي سنة ١٨٩٨ وضع مؤلفه الاول (مختارات نظمية من ديوان الشمس التبريزي) وفي مقدمة هذا الكتاب اثار بحثاً في منشأ الصوفية . وهو موضوع لم تحل عقدته الى الآن . وقد دحض نظريتين . احداهما ما يمكن ان يعبر عنها بالنظرية الايرانية . لانها تعتبر فارس في جاهليتها (اي قبل ظهور الاسلام) هي المهد الروحي للصوفية ومبعث وحيها . والنظرية الثانية تعزو مثل هذا الى الديانات الهندية — اما الاستاذ (نكلسون) فانهُ وجد في الفلسفة الاغريقية ما يبعثهُ على الاعتقاد بأنها مصدر كثير من الآراء الصوفية. وقد عمل على نشر هذه النظرية بعد ذلك (ونزوك) و(اندريا) الاول في ترجمته كتاب اليمامة تأليف (بارهبريوس) والثاني في رسالته الجميلة (الشخصية المحمدية) ومما نشره الاستاذ (نكلسون) عن الصوفية رسالة دقيقة عنوانها « الصوفية في الاسلام » شملت الموضوع برمته وكان لها الحظ الوافر لدى جمهرة القراء . ثم كتابه « بحوث في الصوفية الاسلامية » ومحاضرات تتناول نظرية الشخصية في التصوف ومقالات متعددة في دوائر المعارف والصحف . وقد كتب مقالاً شائقاً عن الصوفية في « تراث الاسلام » الذي نشر في العام الماضي . ثم هذَّب او ترجم الكتب العربية والفارسية الآتية . كتاب اللمعة للسراج وكشف المحجوب

للحجويري وترجمان الاشواق لابن العربي وتذكرة الاوليا للعطار والمثنوي لجلال الدين الرومي

وكذلك يعد الاستاذ (لويس ماسينيون) في الغرب حجة في الصوفية . وكانت مباحثه تدور حول سيرة (منصور الحلاّج) وشخصيته وآرائه . ويعتبر المؤلف الذي نشره خير مجموعة زادت من علمنا عن الصوفية ومناحيها المختلفة . وقد بلغت مباحثه ذروتها بظهور اهم مؤلفاته وهو كتاب « الحلاج شهيد الصوفية الاسلامية » في سنة ١٩٢٢ .وكان قد نشر قبل ذلك مؤلفيه «الطواسين» الذي ظهر سنة ١٩١٣ و «اربعة الاصول غير المنشورة الخاصة بتاريخ حياة الحلاج » الذي ظهر سنة ١٩١٤ . وفي سنة ١٩٢٢ ايضاً نشر مقالة عن مصادر الكتب الفنية الجامعة للصوفية الاسلامية . وفي هذين الكتابين بحث بحثاً مستفيضاً في تاريخ تطور الصوفية . وخطأ النظريات الاغريقية والايرانية والهندية التي اشرنا اليها آنفاً. وأكد لنا ان اساس الآراء الصوفية وتعاليمها هو القرآن . وفي سنة ١٩٢٩ نشر(ماسينيون) «مجموعة الاصول الصوفية» وفي العام الماضي مقتطفات من « ديوان الحلاج»

ويجدر بنا ان نذكر المجهود الذي قام به المستشرق الاسباني (آسين بلاسيوس) فقد نشر في العام المنسلخ نبذته الجميلة عن المذهب الفلسفي لابن العربي . ولما كان في كتابه هذا قد استقصى اثر الآراء الاسلامية في دانتي . فقد خرج هذا السفر كتاباً قيماً غنيًّا بمعلوماته . ثم هناك الآنسة (مرغريت سمث) وهي كاتبة دخلت في هذا الميدان حديثاً ويرجى منها كثيراً فكتابها عن رابعة العدوية يعتبر آية العلم والابداع . ثم لما ظهر كتابها المعنون «بحوث في الصوفية الشرقية والغربية » طار صيتها كل مطار

ولا يزال هناك متسع كبير للعمل اذ من المرغوب فيه على الخصوص ان تطبع النصوص الصحيحة لما كتبهُ جماعة الصوفيين الاوائل امثال (الجنيد) و (الترمذي) و (المحاسبي) وعندها فقط تصبح الدراسة العلمية لتاريخ الصوفية في متناول الطالب العادي الذي لا يستطيع الالتجاء الى دور الكتب الاجنبية بسبب قصر وقته او ضيق ذات يده

اما المطبعة المصرية التي قامت حتى الآن بخدمات جليلة للجمهور بما اخرجته من اشهر تصانيف الادب العربي فانها تستطيع ان تأخذ على عاتقها مسألة هذه المؤلفات

على انهُ مما لا نزاع فيهِ ان التفقه في الدين الاسلامي والتمكن من دراسة القرآن الدراسة الوافية هي خير عدة لكل من اراد ان يتبحر في الصوفية ويلم بأطرافها .

والنهضة العلمية التي تخطو الآن في مصر خطواتها السريعة . ستتمخض بلا مراء عن علماء أكفاء لا تعوزهم الرغبة في متابعة البحث الذي قام بهِ جماعة العلماء الغربيين في الصوفية وهم بلا شك سيذللون كثيراً من الصعاب التي لا تزال بحاجة الى من يكشف عنها النقاب . وفي تضامن المعارف الشرقية مع طرق التحليل العلمي الغربي ما يكفل الوصول الى ابهر النتائج واثبتها

القراءة المفيدة [1]

قيل ارسل احد الخلفاء يطلبُ احدَ العلماء ليسامرهُ . فلما جاءهُ الرسول وَجدهُ جالساً وحواليهِ الكتب يقرأ فيها. فقال له ان أمير المؤمنين يستدعيك . فقال قل لهُ: عندي قوم من الحكماء احادثهم . فاذا فرغت منهم حضرت. فلما عاد الخادم الى الخليفة وافضى اليهِ بذلك قال : ويحكُ من هؤلاءِ الحكماءِ الذين كانوا عندهُ. قال والله يا أمير المؤمنين ما كان عندهُ احد. قال فأحضره الساعةَ كيف كان . فلما حضر العالم قال لهُ الخليفة من هؤلاءِ الحكماء الذين كانوا عندك فانشد :

لنا جلساءٌ لا نملُّ حديثهم ألبّاءُ مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علمَ ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فان قلت اموات فلم تعد امرهم وان قلت احياء فلست مفنَّدا

وقال شيشرون الخطيب الروماني المفوّه : الكتب غذاءُ الشباب وبهجة الشيخوخة . هي الزينة في ايام الاقبال والرجاءُ والملجأ في الساعات السود . ورفاق لا نملهم في الليل او في اثناء السفر او في الريف . وقال شكسبير على لسان احد ابطاله : هذه مكتبتي واية دوقية تساويها . وقال اولفر غولد سمث : اذا قرأت كتاباً نفيساً للمرة الاولى شعرت انني كسبت صديقاً جديداً. فاذا قرأتهُ ثانية شعرت بأني اقابل صديقاً قديماً . وقال بيتشر الواعظ الاميركي الشهير: ان مكتبة تتعهدها كلّ سنة باضافة شيءٍ اليها ناحية نبيلة من حياة كل انسان . ويجب على الانسان ان يقتني كتباً . فالمكتبة الخاصة ليست من كماليات الحياة بل من الضرورات التي لا يستغنى عنها . وقال جون رسكن : الحياة قصيرة وساعاتها الهادئة نادرة فلا تضيعها سدًى في قراءة كتاب سخيف . اما الكتب النفيسة فيجب ان تكون في كل بلاد متمدينة في متناوَل كلّ انسان

ولو شئت لمضيت اعدد اقوال العلماء والحكماءِ والشعراءِ والفلاسفة في مقام الكتاب من الحضارة بوجهٍ عام ومن الثقافة الفردية بوجهٍ خاص وما في القراءة من النشوة دونها نشوة الراح والفائدة التي لا توزن بالدرهم والدينار

والواقع ان القراءة سياحة العقل بين آثار الفكر الانساني . فهي آناً في رياض من هذه الآثار فواحة العبير — هنا الاشعار الغنائية والقصص التي لا تبلي جدتها السنون . وهي آناً بين امجادٍ كأنها اطلال الحضارات القديمة فخمة كالكرنك راسخة كالاهرام — هنا الملاحم الشعرية وكتب التاريخ والحكمة والعلم يتلمس فيها الانسان اشعة النور من خلال الظلمات المطبقة على الذهن

(١) خطبة لاسلكية اذاعها رئيس تحرير هذه المجلة من محطة راديو مصر في ٨ نوفبر الماضي

الانساني . وهي آناً آخر في معترك العزائم والارادات والمطامع والعواطف — هنا سير العظام والعظيمات من الناس وما تخلل سطور حياتهم من دموع وآهات وطمع وطموح وحب وانتقام. فانت في كل هذا كأن مواكب الانسانية تمرّ امامك وقد لبست من النثر والشعر حلة الجمال الاسنى

وحبُّ القراءة ثمرة الثقافة الصحيحة بل هي مقياسها الذي لا يخطئ . وقد قال احد الحكماء قل لي ما تقرأ من الكتب أقل لك مَنْ أنت

لماذا تقرأ

قد يقرأ الانسان ليوسع نطاق خبرته . فالحياة قصيرة محدودة وفي قرارة النفس نزوع الى التملص من قيودها وحدودها ،فنعمد إلى ميادين الخيال ومروج الفكر ، نجول في جنباتها لنجني منها ادب الذاهبين ومعرفتهم وحكمتهم . ثم ان بعض الناس يقرأ مدفوعاً بحب الاستطلاع ، فلا يقرّ له قرار إلاّ باستكشاف الاسرار واستجلاء الخفايا . ومنهم من يقرأ رواية او قصيدة او رسالة لانهُ في اثناء قراءتها يسبغ عليها لوناً من شعوره فيحسُّ أن ثمة صلة بين صور هذه الرواية وصور خياله واعية او غير واعية ، فكأنهُ عائش في عالمها ، وهذه ناحية من نواحي ملكة الابداع او التوليد لان الذي يطالع على هذه الطريقة يحسُّ في الغالب احساساً خاصًّا به ، او يصل الى نتائج غير النتائج التي يقصد اليها الكاتب ، فكأن القراءة حافز نفسي يحفزهُ الى الكشف عن الاحاسيس والآراء الكامنة فيه كالجمر تحت الرماد

وبعضهم يقرأ ليفرّ من عالم الحقيقة الى عالم الخيال ،وغيرهُ على الضد من ذلك يقرأ ليرهف احساسهُ بما يقع حولهُ ويصقلُ حكمهُ في حوادث يومه. وثمة طائفة تقرأ لان الحركة والمغامرة والاقدام والنضال في ما تطالعهُ تستهويها . تقابلها طائفة اخرى تنأى في مطالعتها عن ميادين العمل العنيف ، الى سهول التأمل الهادئ الرصين

وقد يؤخذ قارئ ما بسيَر الرجال . ويفتتنُ آخر بسيرة الحياة خلال العصور من النطفة الاولى الى يومنا هذا . وقد يعنى احدهم بصور العاطفة ولا يهتم غيرهُ الاّ بارتقاء الفكر . وقد يرى احد القراء ان عصراً ما ، ليس الا مسرحاً للرجال والنساء الذين ظهروا فيه وبرزوا وانهم في نظره جلُّ ما يستحق العناية والدرس . ولكن رجلاً آخر قد يرى ان الشخصيات الكبيرة ليست الاّ طريقة من الطرق التي يفصح بها عصر من العصور عن ذات نفسه. وقد يرغب الواحد في الاسلوب البليغ الجزل ، ويتجاهلهُ آخر لان عنايتهُ موجَّهة إلى تبيُّن البراعة في تحليل الاشخاص وترتيب الوقائع وسرد الادلة مثلاً

هذه طائفة قليلة من البواعث التي تبعثنا على المطالعة . وهي تختلف باختلاف الناس ،بل هي تختلف في الانسان الواحد باختلاف ساعات النهار والحالة العقلية والنفسية السائدة في ساعة ما . والباعث السائد في ساعة القراءة هو الذي يعيّن موضوعها واليه يكون مردُّ الاختيار

الغرض من اقتناء الكتب

والواقع اننا نقتني الكتب لغرض من ثلاثة اغراض بوجه عام . يقتنيها بعض الناس للزينة. فهم يعلمون قيمة العلم ، وان العلماء والحكماء لهم صدر النادي من اقدم العصور إلى يومنا هذا ، وان المؤلفات النفيسة تأتي بعد الكتب المنزلة في اعتبار الناس واحترامهم ، فيرون ان اقتناء الكتب من ادوات الزينة والمباهاة التي يزدان بها البيت ، ويغالي بعضهم في ذلك فيحتم ان تجلَّد تجليداً فاخراً لتسبغ هي والستائر الحريرية الكثيفة والصحاف الخزفية القديمة والادوات الفضية الثمينة ، على البيت صفة المحتد النبيل والحاضر الكريم . وقد قرأت ان احد اثرياء الاميركيين بنى قصراً فخماً ، والقصر لا يكون كاملاً في نظره من دون غرفة خاصة بالكتب. فأمر المهندس بتوجيه العناية الخاصة الى تلك الغرفة فلما تمَّ بناء القصر ، أخذ الثريُّ يجمع من الكتب النفيسة ما كان أجودها طبعاً وأغلاها ورقاً وأفخرها تجليداً وجاء بيتهُ وأمر برصف الكتب على الرفوف ، فوجد ان عرض الكتب أكبر من عمق الرفوف فتظهر فيها الكتب بارزة كأنها قذى في العين . فعرض عليهِ المهندس ان يزيد عمق الرفوف ولو تأخر اعداد هذه الغرفة فأبى الثريُّ وقال انهُ يفضّل ان تقطع مقدار بوصة من الكتب وتترك الرفوف كما هي

قد تكون هذه القصة نادرة «كاريكاتورية» موضوعة لبيان التطرف والمغالاة في اقتناء الكتب للزينة فقط. وان الثري لم يحفل بالكتب وانما حفل بمنظرها وجلودها الفاخرة المذهبة ولكنني أؤكد لكم انني اذا دخلت داراً مهما تكن صغيرة، ولم اجد فيها كتاباً او مجلة، تدلُّ على حياة النفس في تلك الدار، شعرت انني في ارض قفر خال من الخضرة والماء ، فاسأل نفسي كيف يقضي اصحاب هذا البيت ساعة من ساعات الفراغ . ومع ذلك افضل بيتاً خالياً من الكتب على بيت يباهي بها ولا يقرأها . فاصحاب البيت الاول على الاقل يتصفون بالصراحة بان القراءة لا تهمهم واما اصحاب البيت الثاني فيرغبون في المباهاة بصفة لا يتصفون بها ، وهو من عيوب الخلق

ويقتنيها بعضهم اداة للعمل كالمشرط للجرَّاح ، والزاوية للمهندس . ويغلب ان تكون الكتب التي من هذا القبيل كتباً فنية . فالطبيب يجب ان يقتني الكتب الطبية الحديثة والمجلات الطبية السائرة في الفرع الذي انقطع لهُ ، وعليهِ ان يدمن مطالعتها ليجاري سير الاكتشاف والاستنباط . وهذه المطالعة امانة في عنقهِ للجمهور الذي يعهد اليه في كشف غمة المرض بالتشخيص الصحيح والعلاج الموفق . فالكتب الطبية اداة من ادوات عملهِ كالمشرط والمجهر . وعلى المحامي ان يقتني كتب القانون والتاريخ وعلم النفس التي يرجع اليها ويستشهد باقوال شرَّاحها للوقوف على حكمة السابقين قضاة واساتذة ومحامين . ولكن الكتب التي من هذا القبيل لا تخلق الرجل ، وانما هي تمكنهُ من العمل

ولا بدَّ لكل بيتٍ من ان يضمَّ بين جدرانهِ كتباً من هذا القبيل، ويجب علينا ان نعلم ابناءنا تناولها . ولا بدَّ لكل بيت من ان يحتوي على مصوَّر جغرافي ومعجم صغير ودائرة معارف مبسّطة وكتب في الاوليات والمبادئ . فاذا كان حديث اليوم يدور حول حرب في البلقان جلس الاولاد الى والدهم فيفتح امامهم المصوَّر الجغرافيَّ ويريهم اين تقع الاستانة وبلاد اليونان وبلاد البلغار ومضايق الدردنيل . واذا عرضت للولد القارئ في صحيفة لفظة لم يدرك معناها هداه والدهُ ، او هدته والدتهُ ، الى المعجم ليبحث عن معناها فيهِ ، واذا جاء ذكر رجل من مشهوري رجال السياسة او العلم ، فتح دائرة المعارف او ما يقابلها للبحث عن عصر الرجل وآثارهِ

ان مطالعة نصف ساعة بهذه الطريقة ، تعلّم الولد ، من الجغرافية او اللغة أو التاريخ اكثر مما يتعلمهُ خلال ايام في دراسة الكتب المعيّنة له في المدرسة ، فهو ينفر من هذه لانها تمثّل في نظرهِ ما يجب عليهِ لا ما يتوق اليهِ ويرغب فيهِ من تلقاء نفسهِ

وقد تقتني الكتب ، كما تمكّن اواصر الصداقة مع الصحاب ورحم الله شوقي حيث قال:

انا من بدّل بالكتب الصحابا لم اجد لي وافياً الاَّ الكتابا

اتيحت لي زيارة احدى كليّات البنات في اميركا سنة ١٩٢٤ وقد خصصت الكلية احد مبانيها داراً للكتب . وفي هذه الدار غرفتان استرعتا نظري الاولى عاطلة من الزينة نظمت في باحتها رفوف الكتب والموائد والكراسي من الخشب الصلب . وفيها تجد الطالبات مكبّات على البحث والموازنة والتحقيق ، يعددن فيها دروسهنّ او امتحاناتهن او رسائلهنَّ . وكل العيون متجهات إلى العمل الخاص الذي يشغل الذهن ، فلا تكاد ترتفع عينان لرؤية الداخل . وثمة غرفة اخرى فيها الطنافس الوثيرة ، ورفوف الكتب قريبة المنال ، وفي الموقد نار مشبوبة . هنا تجلس الفتيات وقد مضت فترة العمل والبحث ، ينصتن الى اصواتٍ تتحدث معهن من خلال العصور في صفحات الكتب الخالدة . الكتب في الغرفة الاولى تستعمل ادوات للعمل . وأما الكتب في الغرفة الثانية فتتخذ اصحاباً ، يرشدون بحكمتهم ، ويؤدبون بآدابهم ، ويحفزون الملكات بعرض صور الانسانية في احوالها المتباينة ، وهي تسير ، آناً تقدم وآناً تتعثر ، في طريقها نحو المثل الاعلى

وهنيئاً للبيت الذي لا يخلو من كتب هذه صفتها ! يؤوب الرجل من عمله الجاهد ، أو تخلد السيدة الى راحتها بعد جهد النهار المضني ، فيجلس في كرسي مريح والى يسارهِ مصباح متألق ، فيختار من الكتب ، الصديق الذي يلائم حالتهُ النفسية الخاصة . فقد يختار ديوان المتنبي فيقرأ فيهِ قصيدة من قصائده الخالدات يرى في خلالها عثير الحرب وبريق الاسنة وصليل السيوف ويسمع عبارات الفخر ، أو مجلداً من الاغاني في طبعتها الجديدة التي اخرجتها دار الكتب ، فيطالع من نوادر الاقدمين وآدابهم ما يروق النفس ويبهج الخاطر . أو قد يختار قطعة من كارليل ، فيرتدُّ بها على أجنحة الخيال الى عهد الثورة الفرنسية ، أو صفحة

من برستد ينفذ منها الى امجاد الممالك المصرية القديمة، اورواية لاناتول فرانس فيجد فيها الحكمة النادرة والنقد اللاذع في نثر مشعشع كالخمور المعتقة ، او نسخة من كتاب علمي بليغ فيتعرَّف الى اسرار الاحياء وطبائعها او يرود مع أحد اساطين العلم رحاب الفضاء

كيف تقرأ

النظام هو اساس القراءة المفيدة . والقراءة المفيدة ركناها الاستزادة أو الاستلهام . فاذا كنت ترمي إلى الاستزادة أي إلى توسيع نطاق معارفك بالاطلاع على مباحث الكتاب والعلماء والفلاسفة وجب أن تجري على الطريقة الآتية : خذ كتاباً يروقك . واقرأه على مهلٍ . وبعد أن تأتي على فصل فيه ، أو على فقرةٍ من فصل ، اطبق كتابك ، واغمض عينيك ، وحاول أن تلخص في ذهنك ما فهمتهُ من معنى ما قرأت . واذا كان لك غرض خاص من المطالعة ، فيجب أن تدوّن ما فهمت . ثم سِرْ في مطالعة الكتاب على هذا النمط . ثم اترك الكتاب سنة أو سنتين او عشر سنوات — فأعمار الكتب الخالدة لا تقاس بالسنين — واعد الكرة عليهِ . تجد ان فهمك له قد تحوّل بتحول نظرك إلى الحياة وتفتح مغاليق ذهنك واتساع نطاق خبرتك . فاذ فعلت ذلك ، فقد اضفت إلى حكمتك حكمة رجل آخر . وأذكرُ ان حكيماً اميركيًّا قال انهُ أخذ أحد مؤلفات كارليل وهو في العشرين فقرأه وخرج منهُ صفر اليدين فأعاد الكرة عليهِ وهو في الخامسة والثلاثين ، فبدا له فيهِ من المعاني ما أسبغ على الكتاب حلة الاعظام . وكان وهو يروي لي هذه الحكاية ، في الخامسة والخمسين من العمر ، يقضي ساعات الفراغ في مطالعة ذلك الكتاب للمرة الثالثة . وقد قرأت بعض الفصول في كتاب امرسن «ممثلو الرجال» عشر مرات على الاقل . وكلما شعرت بتعب او مرارة او خيبة اعود اليهِ فاقرأ رسالتهُ في « منافع الرجال العظام » Uses of Great Men

اما القراءة للاستلهام فسرُّها ان عبارة واحدة في فصل لكاتب ، او صورة فردة او رأياً سيق في معرض الكلام، قد يحفزك الى التفكير والتصوّر، فتصرف النظر عما تقرأ حيناً لكي تسترسل مع صور خيالك او افكارك المتداعية . وفي هذه الحال يصح ان تدوّن على هامش الكتاب هذه الصور أو الافكار الشاردة ، لان اقتناصها بعد مرورها في تيار الوعي متعذر

واحذر تعوّد قراءة النُتَف. فقد شاعت في هذا العصر ، عصر السرعة، صحف ومجلات تجمع من العلم والادب والتاريخ نتفاً يتسلى بها القراء فيكتفون بها عن قراءة المقالات الوافية والكتب الممتعة التي تقتضي مطالعتها حضر الفكر وكدّ الذهن . اما قارئ النتف فيتسلى بها مهلة ما يقرأها ثم ينساها في الغالب ، وهو يظن انهُ وعى العلم والادب والتاريخ باطلاعهِ عليها

واذا واظب على ذلك ضعفت ذاكرتهُ وخلطت بين الحقائق خلطاً شائناً

***

وقد كنت اودُّ ان اتناول موضوع ماذا تقرأ . ولكنني اخشى الاطالة فينالكم السأم ، فتوصدون دوني آلات تكم اللاقطة وابقى هنا وحدي «اتكلم في الهواء» او كما يقول المثل العربي «اصرخ في وادٍ»

على أن المسألة التي لا استطيع التجاوز عنها هي النقص المعيب في المكتبة العربية وفي استطاعتنا تلافيهِ . ذلك ان علماء الغرب وكبار كتّابهِ لا يأنفون من الاشتراك مع اصحاب بيوت النشر في وضع سلاسل من الكتب التي تتناول اصول المعرفة البشرية باسلوب قريب التناول فتخرجها بيوت النشر في طبعات رخيصة الثمن يسهل على كل راغب اقتناؤها والتمتع بما تحتوي عليهِ من درر العرفان . واذ اشرتُ في بدءِ كلمتي الى المصوّر الجغرافي ودائرة المعارف وما اليها من الكتب التي يجب ان تكون في كل بيت فعلت وفي النفس حسرة لان بعض ما اريدهُ من هذه الكتب غير متاح لنا الآن بالشكل الذي يغري بالقراءة ويحببها الى الصغار

ولكن الامرَ ليس متعذراً . فعندنا في نواحي العلم والادب والفلسفة رجال يستطيعون ان يضعوا — تأليفاً واقتباساً وترجمة — هذه الكتب على ما نريدها

ولكن الناشرين ومن يتصل بهم من الكتّاب يشكون عدم الاقبال على ما ينشر من الكتب ، اقبالاً يغري الناشر والمؤلف على السواءِ بالاقدام على التوسع في التأليف والنشر وهي شكوى صحيحة الى حدٍّ بعيد[1] . اذ يندر بين الكتب العربية كتاب يطبع منهُ ثلاثة آلاف نسخة وتنفد في سنة او سنتين او ثلاث سنوات — استثني من ذلك الكتب المدرسية فان الطلاب يبتاعونها للدراسة — ومع ذلك فالاقوام الناطقة باللغة العربية يبلغون سبعين مليوناً وتسري في عروق ابنائهم ثورة تدفعهم الى طلب العلم والاستزادة من الحكمة ، والمدارس تخرج كلَّ سنة الوفاً من الطلاب المطلعين على اصول العلم والتاريخ والادب . فلماذا لا يقرأون ؟ ولست اطلق هذا الحكم عليهم جميعاً فانني اعرف ان طائفة ممتازة منهم تقرأ وتحسن اختيار الكتب والصحف التي تقرأها . ولكن جلّهم لا يقرأ ما يجب عليهِ ان يقرأ . والاَّ لما كنا نشهد هذا الركود في ميدان التأليف . والواقع ان المسألة خطيرة كلَّ الخطورة تتصل بالاركان التي يقوم عليها التعليم وهل يؤتي الثمار المطلوبة او لا يؤتيها

ولا يخفى إن الشيء الثمين الاساسي في العلم والتعليم انما هو الانطباع بروح العلم واسلوبهِ . وتشرُّب الطالب حب البحث عن الحقائق والاستزادة منها . وحفز ملكات العقل إلى النشاط الذي يمكّن الرجل من تكوين رأي مستقل أو ابداع شيء جديد . وواضح إن الاكتفاء بالكتب الدراسية ليس السبيل القويم المفضي إلى هذه الغاية النبيلة ، التي لا مندوحة عنها في كل تعليم سليم وارتقاءٍ صحيح

(١) لا ريب ان الناشرين لم يتوسلوا بكل ما يصح التوسل به لطبع الكتب النفيسة وترويجها وهذا يستحق بحثاً على حدة

واري ان وزارة معارفنا الجليلة تملك علاج هذا الضعف في ناحية من أهم نواحيه وقد انعمت النظر في طريقة هذا العلاج ، فرأيت ان اقترح على وزارتنا الجليلة تعيين لجنة من بعض رجال الوزارة وبعض الادباء والنقاد المعروفين بحصافة الرأي واستقلاله لاختيار اثني عشر كتاباً كل سنة — او أكثر أو اقل — من نفيس المطبوعات العربية الحديثة تفرض مطالعة ستة منها على مدرسي المدارس باشراف الناظر ، والستة الاخرى تفرض مطالعتها على طلبة الفرق المتقدمة في المدارس الثانوية في فرقها باشراف المدرسين

وليس هذا العمل بدعةً . فقد جرت جامعات الغرب على تكوين حلقات للطلاّب والاساتذة ، تجتمع اجتماعات دورية . وهي من الوسائل الفعالة لاحكام الصلة بين المدرسين وتيارات الفكر الحديث من ناحية ولتثبيت عادة القراءة المفيدة في الموضوعات الخارجة عن نظام الدراسة في نفوس الطلاّب . ولنفرض ان الحلقة ستة من المدرسين — او الطلاّب — تجتمع مرةً في الاسبوع او مرة في الاسبوعين . فيفرض على احد اعضائها ان يقرأ كتاباً معيناً فيقرأه ويلخصهُ في رسالة يتلوها في الاجتماع المعيّن له . وفي الاجتماع التالي يفعل مدرس آخر ما فعلهُ زميلهُ ولكن في كتاب آخر . وبعد تلاوة الرسالة يتناقش الحاضرون في موضوعاتها ومعانيها ويتحاورون وهذه الطريقة تحفز ملكات التفكير والنقد العلمي المنزه الى النشاط . ثم هي تغنيهم عن وجوب الاتفاق منفردين على بعض الكتب التي يرغبون في مطالعتها ولكن غلاء ثمنها يحول دون اقتنائهم لها . فاذا تمكنت وزارة المعارف الجليلة من وضع نظام مبني على مثل هذه المبادىء فانها تؤدي لنشر الثقافة الصحيحة خدمة جلّى

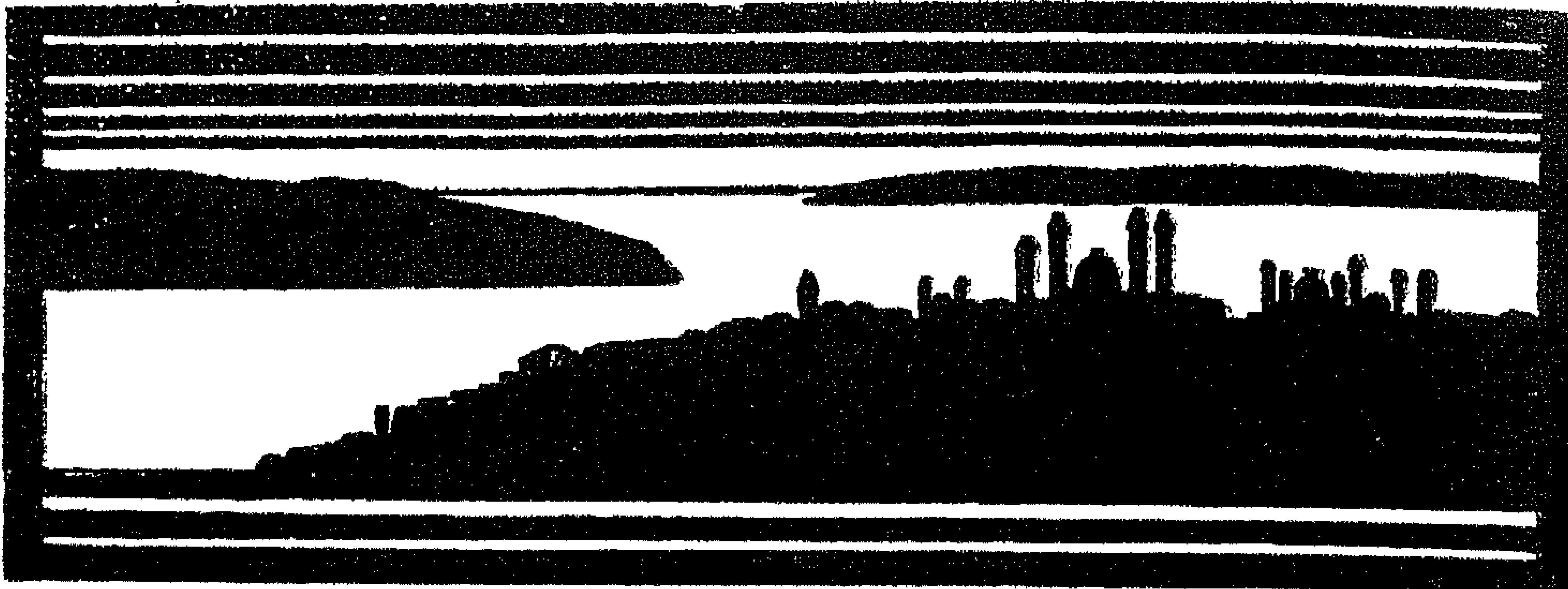
فاولاً — تحكم الصلة بين المدرسين ومؤلفي اللغة العربية المعاصرين

وثانياً — تخلق في نفوس الطلاّب رغبة في القراءة المفيدة التي لا معنى للثقافة من دونها

وثالثاً — يشجع المؤلفون والمترجمون على اتقان ما يكتبون وينشرون اذ يعرفون ان كتبهم قد تختار للمطالعة والمناقشة في الاجتماعات المدرسية المذكورة

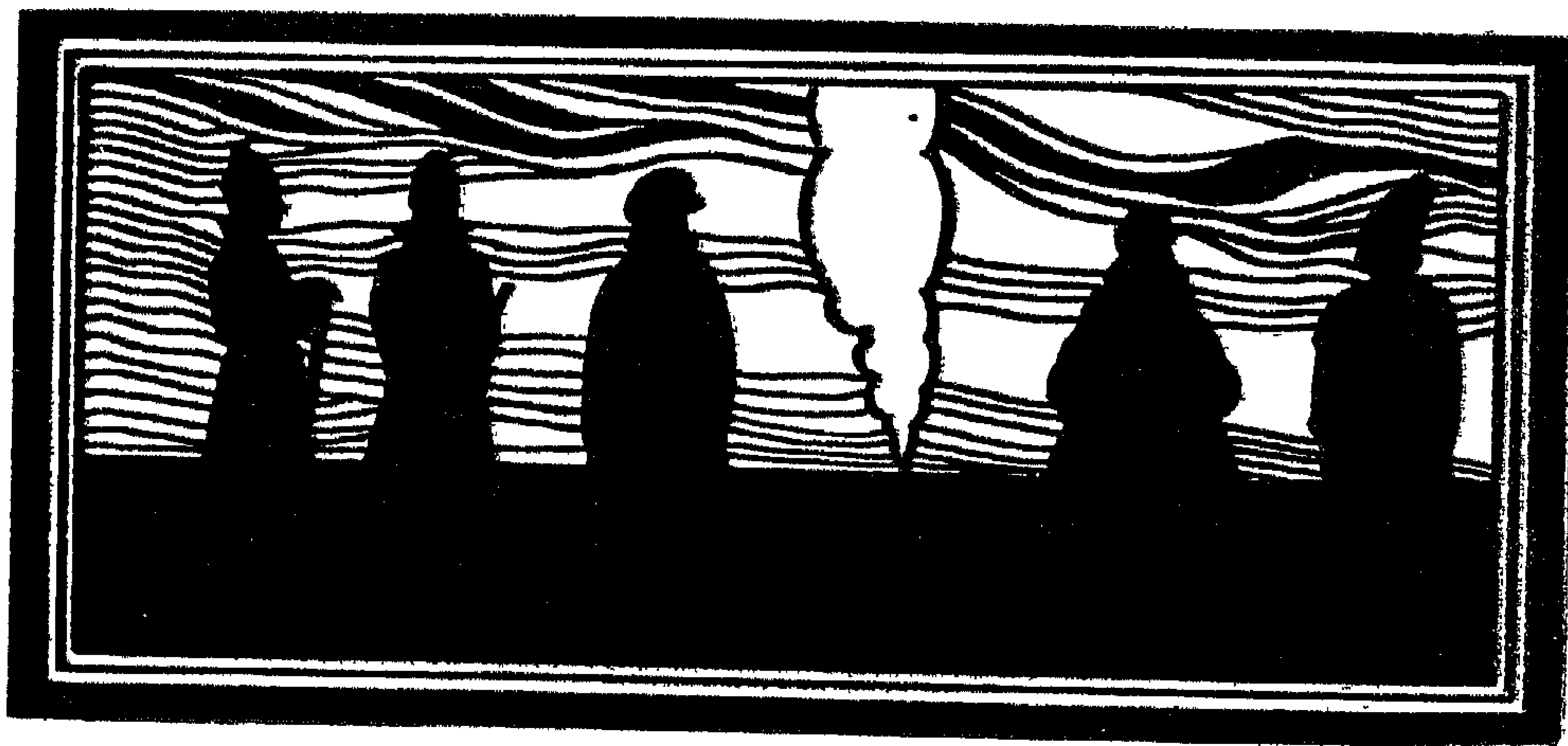
رابعاً — تخلق لنا جيلاً يتوق إلى القراءة المفيدة ويقبل عليها . وهذا من أقوى البواعث للمفكر على التفكير ، وللمؤلف على التأليف ، وللناشر على النشر

وكل هذا لا يكلف الوزارة اكثر من ثلاثة آلاف جنيه في السنة أو أربعة آلاف على الاكثر . لانهُ إذا افترضنا انها قررت ان تبتاع من كل كتاب تختارهُ اللجنة الفي نسخة — لتوزعها على المدارس — بلغ عدد النسخ التي تبتاعها ٢٤ الف نسخة متوسط ثمن النسخة منها قد لا يزيد على ١٥ غرشاً — فالمبلغ لا يزيد على ٣٦٠٠ جنيه . وهي تنفق اضعاف هذا المبلغ في اعانة المعاهد والمدارس والجمعيات ، فاحرِ بها ان تنفقهُ في سبيل تشجيع التأليف وتربية ملكة القراءة المفيدة في نفوس الشبان والشابات



إيلي روحي

حافظ وشوقي





صورة رمزية عنوانها « آفاق الشعر الواسعة »

مكانة الشعر في كيان الامم

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

رغبنا الى الدكتور شهبندر في كتابة فصل يكون بمثابة مقدمة للمجموعة التي ننشرها في هذا العدد عن شوقي وحافظ فاتحفنا بهذا المقال الادبي الاجتماعي البليغ

الكلم

ان اليوم الذي اطلق فيهِ البشر على الاشياء والاجناس اسماء هو يوم سجلوا فيهِ تاريخ انتقالهم من صف العجماوات ودخولهم في المرتبة الانسانية . وشأن هذه الكلمات التي ندعوها اسماء شأن في الامم مقدس خطير حتى ان النصرانية تقول عن «الكلمة» بلسان يوحنا (انها كانت في البدء) . ذلك لانها وجدت مع الفكر المجرد الازلي الذي لا يحيط بهِ ادراك ولا يحصره وعي ، فهي الاصل وكل شيء سواها عارض . وتشبه «الكلمة» بهذا المعنى «الفكرة» في حكمة افلاطون لان الفكرة المجردة عنده هي الحقيقة الدائمة وما عداها صورة منسوخة . لكن الافكار يعبر عنها بالكلام ايضاً فلا غرو ان تكون «الكلمة» هي الحقيقة الخالدة بقدر انطباقها على الواقع . وفي الاسلام ان الله خلق آدم من التراب ، فلو تركه وشأنهُ ما اختلف عن سائر المخلوقات الحية في شيء ولكنهُ اعتنى بهِ عناية خاصة فوضعهُ في مدرسة الالفة والاجتماع حيث علمه الاسماء كلها فلما اتقنها وبرع فيها نال شهادة الكفاءة الانسانية فاذن لهُ بموجبها ان يمارس صناعة الابوّة البشرية ، ومن احقّ بها منهُ يا ترى وقد اصبح قادراً بالأنات والآهات على بيان الآلام التي يعانيها وبالكلمات المنسجمة على الافصاح عن اعمق الاسرار التي تختلج في صدره

ولو كتب على هذا البشر ان ينشأ ويتدرَّج بطريق النظر بالعين فقط من غير اذن يسمع بها ولسان ينطق بهِ فماذا تكون حاله ؟ انهُ يكون كالصم البكم الذين نشاهدهم من حين الى آخر فيما بيننا بل هو اضعف منهم وأدنى مرتبة ، ذلك لان هؤلاء قد استفادوا عرضاً من ارتقاء البشر حولهم بما حصلوا عليهِ من الخصائص التي اكتسبوها بطريق الاذن واللسان

ولا مراء ان الصمّ البكم احد نظراً وأدق لمساً وذوقاً وأقدر على فهم الحركات وقراءة اسارير الوجه وحفظ الذكريات الا انهم حسبهم ان يفقدوا المعاني الادبية التي يؤديها الكلام ليفقدوا معها كل ميزات الثقافة الرفيعة ، واللغة شمس مشرقة على الآفاق لكن الاذن الصماء كالعين العمياء لا ترى نورها الساطع

لولا «الكلمة» التي نطق بها هذا المخلوق المنتصب على رجليهِ اسماً للاشياء التي رآها لكان مستواهُ العقلي على قدر المستوى الرياضي في القبائل الابتدائية المعاصرة التي لا تعرف للاعداد ارقاماً لتجمع بها او تطرح و تضرب او تقسم ، فكما انهُ لا مجال بينها للحساب والجبر والهندسة وما تفرّع منها من العلوم الرياضية العالية كذلك لا مجال بين الصمّ البكم للادب والموسيقى والعلوم وما تفرع منها . اولئك لا يملكون الواحد القياسي في الرياضيات وهو الرقم ، وهؤلاء لا يملكون الواحد القياسي في الادراك وهو الكلمة

الشعر والكلمة

فاذا كان هذا شأن اول «كلمة» نطق بها الانسان فيهمنا كثيراً ان نعرف كيف تيسر له ذلك ، وكيف توصل الى ربط الاصوات بالافكار ولصق الاسماء بالمسميات حتى صار قادراً على التفكير الادراكي بطريق المبتدأ والخبر . وان الشاعر ليطرب كثيراً ان يعلم ان للمواقف الشعرية والمعاني الشعرية والاوزان الشعرية القدح المعلّى في استيحاء هذه « الكلمة » التي كانت فصل الخطاب بين دورين جوهريين في حياتنا البشرية

يعتقد الذين أخصوا في اللغات وتتبعوا اصولها بأن الاعياد والمراقص والمآتم والمخاطر والمجازر وسائر العادات والمواقف الشعرية المؤدية الى الافراح والاتراح الاجتماعية خصوصاً الصياح الجوقي المشترك كجؤار الثيران المجتمعة ، هذا كله المصدر الدافع الى النطق . ومتى كان الصوت الجوقي صادراً عن انفعالات نفسية — كالهتاف او الصراخ في حالة التهيج — يتخذ شكلاً موزوناً ويتكرّر على اصول متناسبة . وبعض الحيوانات لا يقتصر على فهم ما يؤمر بهِ فقط « كتعال» و « نم » و « كل » بل يصيح بما يشبهُ « الوصفة » ينادي بها الفرد فتجيب عليها الجماعة «بالردة» . وهذا الافصاح عن الشعور بالاصوات النبرية البسيطة يشترك فيهِ كثير من اصناف الحيوان وقد تدرَّج في الانسان في أول الامر غالباً من صراخ او جؤار فطري الى غناء جوقي مشترك ثم الى كلام مقطع صريح [1] والراجح ان كثيراً من هذه الاصوات الجوقية المحولة الى غناء بسيط كان في اول الامر حكاية اصوات حيوانات وأشخاص يحكيها الجوق مجتمعاً ويقلد اعمال اصحابها بالاشارات وبالرقص «البنتوميمي» الصامت. وهكذا متى اقترنت بعض الاصوات بأشياء بعينها او بجنس منها اقتراناً متلازماً متكرراً بحيث يصير هذا الاقتران عادة ماثلة في النفس فان مجرد ذكر هذه الاصوات يعيد الى الذهن صورة تلك الاشياء اما بمفردها او بجنسها الجامع — والصورة الجنسية هذه هي عماد الادراك الانساني . ويعدّ هذا التلازم او الاقتران المعنوي العلامة القطعية على توطد اركان النطق

اذن فالبواعث الحافزة الى الاجتماع والمؤدية الى الافراح والاتراح وما اليها من المواقف

(1) Elements of Sociology, Giddings, p 240

الشعرية الهائجة قد زودت البشر بأسباب النطق وسلحتهم بأمضى سلاح شقوا بهِ الطريق من الظلمة إلى النور ، ذلك انهم بحصولهم على النطق « قد حصلوا على (مخل ارخميدس) في رفع حياتهم الاجتماعية إلى مستوى جديد في التركيب والكمال »[1]

القصائد الاولى

واذا كان النطق الاوَّل شبيهاً بالشعر في النبرة والوزن فهل من سبيل يا ترى الى معرفة « القصائد » التي تلاها الاوائل قبلما اهتدوا إلى فن التدوين ؟ وما هي الموضوعات التي تناولوها بقصائدهم ؟ وان درس الاقوام الابتدائية المعاصرة وتتبع القصص التي يسمعها الاطفال المتمدنون في احضان امهاتهم حتى في لب البلدان المتمدنة كل ذلك يجيز لنا القول بان الانسان الاول نطق بالاوزان وان تكن غير مقفاة ، وتناولت « قصائده » أخبار الظفر بالحيوانات وخوفها من الشرك الذي وقعت فيهِ وسعيها للخلاص منهُ وارتعاشها عند الذبح مع حكاية اصواتها من شهيق ونهيق وخوار وعواء وزئير وغير ذلك مما يؤلف جزءًا ضافياً من معاجم الامم

وتناولت هذه القصائد فيما تناولتهُ اخبار الاعياد والولائم المقامة على لحوم هذه الحيوانات وما تؤدي اليهِ من مرح وبطر ، وشملت احاديث اختطاف النساء وعشرتها والبكاء على المفقودين من رفقاء الصيد والقنص والراحلين من الاخوان والابناء الاعزاء ، وكان فيها الشيء الكثير من اغاني الرقص التقليدي واغاني الرقص الروحي تقرباً من الآلهة واسترضاءً لها وتمجيداً لاعمالها واستجداءً لكرمها ، وقد ورث هؤلاءِ الاوائل ابناءهم أديانهم وعقائدهم وتقاليدهم وحكمهم وخرافاتهم وآدابهم في بطون هذا الكلام الموزون الذي ساعد الثقافة الاولى مساعدة الكتابة والطبع في الاعصر اللاحقة وذلك بسبب سهولة حفظه ونقله وتلاوته فكان اشبه شيء بموسوعات مطبوعة تخاطفتها الايدي وتناقلتها الالسن قبل ظهور (جوتنبرج) ومطبعته في اوائل القرن الخامس عشر

وغني عن البيان ان هذه الموضوعات التي تناولتها قصائدهم هي اسس الموضوعات التي نباهي بها اليوم ونفتخر ان تتناولها قصائدنا ، وعليها قامت أوضاعنا من حروب وانتصارات واعراس ومآتم واديان وعبادات وتقاليد وشعائر وملوك وأرباب

ولا مراء ان قصائدهم كانت طافحة بما انطبع في قلب الانسان من الالم المفجع الذي اصابه من الدّ اعدائه وهو اخوه الانسان فكان فيها روعة الشعر الحيّ الذي نشاهده في عصرنا في القصائد التي تعالج انانية البشر وما انطوت عليهِ قلوبهم من اللؤم والاذى . لا جرم ان قصيدة تليت او كتبت منذ الفٍ او الفين من السنين تقرأ اليوم كانها كتبت بالامس لان موضوعها حيّ يتصل باعماق الحياة الانسانية .

(1) Outline of Sociology, p. 59

الذاكرة والشعر القديم

وفي الحق اننا ونحن في القرن العشرين ما زلنا نتغذّى بادب ما قبل التاريخ ، فاولادنا في طفولتهم وهو سن الانطباع الثابت يسمعون اقاصيص الغيلان والمردة والجان واخبار العمالقة والابطال واوصاف القوى المحجبة وما لها من اسرار وحديث ادب السلوك وحسن المعاشرة وهم في حجر امهاتهم على الفرش الوثيرة بصورة لا تختلف كثيراً عن مثلها لما كانت الامهات يفترشنَ القش ويلتحفنَ الجلود في الكهوف والغابات، وعلينا ان نذكر دائماً ان مثل هذه الاخبار الشعرية المتصلة بالحياة المنفعلة الاولى وما فيها من المواقف المضطربة الهائجة لا تزول من النفوس بل وجد أهل التتبع والاستقصاء مثلاً ان الطوائف الامية الجاهلة النازلة بالاصقاع الجبلية المنقطعة في ولايتي (كنتكي) و(تنسي) من الولايات المتحدة يرددون بعض القصائد الطويلة التي أثرت في عقولهم والتي وصلت اليهم بطريق العنعنة من قصص شعرية قديمة حملها اجدادهم معهم الى تلك البلاد من انكلترة منذ ما فروا بدينهم من الاضطهادات . ولما قوبلت هذه القصائد بالكتب التي دونت فيها النصوص الشعرية الاصلية في اواخر القرون الوسطى وجدت سليمة في جوهرها ولم تصب الا بعطل طفيف في انتقالها على الالسنة والشفاه وسفرها من القلب الى القلب

***

ولا شك ان مثل هذا الدور الحفظي المتوقف على قوة الذاكرة في الشعوب الامية القديمة تناول كنوزنا الادبية الثمينة احقاباً قبل ان يتيسر تدوينها ، فقد استيقظت هذه الشعوب على بلابل الشعر تغرّد في فجر المدنية فلم يكن لديها وسيلة تدوّن بها هذا الغناء الفتان سوى طبعهِ على صحائف القلوب وترديدهِ على الالسنة في الاعياد الخالية كما تدار اسطوانات الحاكي في الحفلات والمقاهي اليوم وحسبي أن أذكر أسماء هذه اللآلئ الادبية الثمينة التي انارت الظلمة في العصر القديم ليعرف القارئ منها شدة نفوذ الادب ولاسيما الشعر في تكوين الامم والتحكم بسيرتها ، «فالالياذة » « والاوديسة» لهوميروس و «الاعمال والايام» لهزيود واغاني « الفيدا» عند الهندوكيين والاجزاء الشعرية من العهد القديم ، ثم ما ظهر بعد ذلك من الطرائف النادرة في جزيرة العرب في العصرين الجاهلي والاسلامي قبل التدوين واتخاذ العظام وسعف النخل وورق الغزال اداة للكتابة ، ان هذه الكنوز الادبية الغالية التي هي تراثنا الروحي الخالد يدلنا مجرد ذكرها على سلطان الشعر على الامم المتنوعة من اليونان والرومان وابناء عمومتهم الهنود الآريين الى اليهود الساميين ومن دان بالعهد القديم من الامم النصرانية فالعرب وسائر من دان بالاسلام في المشارق والمغارب

الشعر العربي

ومع كل التحريف والتلفيق والدس الذي انزلهُ القصصيون والرواة بالشعر الجاهلي فهو بالاجمال مرآة صافية يتجلى فيها مجتمع تلك العصور السحيقة وقد قام بوظيفته في تثبيت الحياة العربية وتأييد الاخلاق الفطرية السليمة ليس في الجزيرة فقط بل في جميع الاقطار التي استولت عليها الجيوش العربية وانتصبت فيها المنابر وارتفعت المآذن . وانك وانت في بلاد الهند أو في القرم أو في التركستان الصينية مثلاً لترى في سيرة الافراد وفي مقاييسهم الاخلاقية ما يعيد إلى ذاكرتك الشيء الكثير من اخبار الحجاز في جاهليتهِ دع عنك ما فعله الادب العربي الاسلامي بواسطة الدين من المعجزات في هذا المضمار

ومما يستوقف الانظار ان نخبة من اساتذة الجامعة الاميركية في بيروت قامت منذ حين بدرس بعض الشؤون الاجتماعية في الشرق الادنى ولا سيما في سورية فرأت الفضائل الآتية ماثلة في اهلهِ وهي (١) الاباء أو عزة النفس (٢) الوفاء (٣) قرى الضيف (٤) الميل الفطري للدين (٥) العطف والمواساة (٦) الاهتمام بالاعراض وما للمرأة من ميزة خاصة . فمن يقرأ كتيباً في الادب العربي الصميم يأرى جاهليًّا كان هذا الادب أم اسلاميًّا ولا يرى هذه الخصال ظاهرة فيهِ ظهور الشمس في رابعة النهار ؟ ولعمري ان المرء ليستطيع ان ينسلخ من جلده ولا يستطيع ان ينسلخ من تأثير العقل الاجتماعي الادبي حواليه ، وما نحن في الواقع الا سمك يعوم في لجة هذا البحر الذي يحيط بنا من كل جانب ، ولأهون على المرءِ ان ينكر فعل الاجواء والاهواء والانهار والجبال والوهاد والوديان في جسم المرء من ان ينكر فعل الادب في عقلهِ

ويلوح لي ان الجزء العقلي الممزوج في الشعر بالجزء الادبي يكسبهُ تفوُّقاً ظاهراً على سائر الفنون الجميلة ، ولئن كان التصوير تمثيلاً بالخطوط والالوان ، والموسيقى تمثيلاً بالانغام والالحان فالشعر تمثيل بالقوافي والاوزان : فالتصوير شعر صامت والشعر تصوير ناطق

قال (ثيودور وطس) « ليس في مقدور احد ان يخط كلمة واحدة في الشعر ما لم يولد من جديد — ما لم يهبط من الملأ الاعلى مرة ثانية

« ثم ما هو الفرق بين الشاعر والناثر ؟ افلا يجوز للكاتب ان يتحلى بشيء آخر غير الشعر ؟ ألا يكون محارباً ايضاً كما كان اسكيلوس ، وتاجراً كشكسبير ، ونديم الملوك كتشوسر ، وفيلسوفاً خليطاً كغوته ؟ بيد انه في اللحظة التي تحل عليهِ فيها الشاعرية يتعرّى من تلك الكسى الدنيوية التي اكتسى بها منذ سنين ، فيزول من نفسهِ جميع ما للدنيا من علم وانانية واستخفاف وطموح ، ويصبح طفلاً ملهماً من جديد باذنين مطبقتين في النغم على تلك الهمسات التي تهب من (العصر الذهبي) — لما كانت السعادة باسطة جناحيها على هذا الانسان المتعب — فينتشر اريجها المنعش في هذهِ الارض الفاسدة ويطهرها من الارجاس »

ولعلماء التربية والاجتماع اهتمام خاص بتاريخ الادب وذلك لانهم يرون فيهِ ميداناً متسعاً لنشر التربية الاجتماعية والتثقيف الفني ، والادب مرآة تتجلى فيها صورة المجتمع ، وتكون هذه الصورة على احدث طراز ، لان الادب يتوقف في شكلهِ ومادتهِ على الاحوال الاجتماعية المستجدة ، فالشعراء هم اشعر الناس بالطوارىء وقلوبهم اوتار حسّاسة ما اسرعها إلى الاهتزاز برجات الانقلاب والثورة ، وكما ان الشعر صورة الشاعر كذلك الشاعر صورة المجتمع ، بل الشاعر كما قال الاستاذ (بايندر)[1] نقطة الاحتراق تلتقي فيهِ جميع الاشعة المنتشرة من الحياة الاجتماعية المضيئة حواليهِ فيكسبها شكلاً فنيًّا وبياناً لفظيًّا بما تحلت بهِ شخصيته من الميزات وسواء أكان الشعر غنائيًّا أم قصصيًّا ،ارشاديًّا هجويًّا أم تمثيليًّا فنجاحه في التأثير في قلوب الناس يتوقف على الاحوال الاجتماعية التي يعيشون تحت سمائها

والشعر العربي هو مثل الغناء العربي طافح بالحزن والاسى والتوجع والبكاء لانه لا يردد فقط مظالم الانسان من سلب ونهب وانتهاك حرمة وازهاق نفس بل يردد ايضاً مظالم الطبيعة من امراض فتاكة وسيول جارفة ورياح سامة ومجاعات قتالة وما اكثرها في بلاد العرب . والواقع ان للجزيرة العربية طبيعة خاصّة في شدة التأثير في النفس واستخراج اللآلي الشعرية من اعماق الصدور . فالكواكب المتلألئة في سمائها الصافية الاديم استوقفت انظار البدو من اقدم الازمان وجذبتهم حتى كادوا يطيرون اليها من غير جناح ، والبوادي الجرداء القاحلة المنتشرة في ارجائها تـعـدّ ساكنيها لرؤية الجمال الحي في كل برعمة على اية شجرة كانت من الشجر في الواحة ولو كانت شجر الشوك والبلان . ومعاطشها اليابسة المحرقة تولد في الصادىء عند وروده الماء لذة لا يذوقها المتنعمون بالينابيع والانهار. وحدث لي في آواخر سنة ١٩١٥— إذ كان الاتحاديون يتتبعون أثري —انني قطعت البادية الموحشة من (تدمر) الى قرب (الميادين) وانا اعيش على الماء الآسن الاجن الذي كان يزيد في غلتي فلما نزلت الفرات وذقت مصة من مائه العذب صحت باعلى صوتي « الكوثر . . الكوثر . . . وهذه جنات عدن تجري من تحتها الانهار » . ثم ان الهجرة الشاسعة وطي البيد الواسعة والابتعاد عن المنازل في الغزوات وطلب الكلاً مع رؤية الاطلال والمعالم والآثار وما تحدثهُ في النفس من الذكريات الماضية والايام الخالية كل ذلك من البواعث الشعرية الخاصة بالجزيرة . وكذلك المنقطع الخائف الجائع الصادي متى وجد بيتاً من الشعر نزل بهِ واهلاً امن بهم تجلّى له الكرم « الحاتمي » باجلى مظاهره فسد البلغة يومئذٍ — ناهيك بعقر الناقة — يفعل في نفسه ما لا تفعله الولائم في القصور ، وباب الحرم يسدل عليهِ ليحميهِ من مطارديه امنع لديه من مدافع الحصون على حدود الدول. وقصارى القول ان مثل هذه البيئة البسيطة الجافة وما فيها من شظف العيش تبرز المعاني الشعرية بثوبها القشيب وهو ثوب الطبيعة الفتان

(1) Major Social Problems,p. 302

فقر الغرب في الشعراءِ اليوم : يعلل بعض الباحثين فقر الامم الغربية في الشعراء ورغبتها عن الشعر بالمدنية المادية التي تغوص فيها الى مفرق الرأس ، وعندهم ان وسائل النقل الحديثة وانتشار الاباحية وزوال ذاك البرقع الجذاب عن وجه الانسانية واشتغال الدول بالشؤون الاقتصادية والسياسية وانهماك الافراد في تحصيل القوت الضروري والخلاصة زوال الاحوال الروائية عن ظهر الكرة الارضية كل ذلك من العوامل التي ذهبت برشاقة النظم وقضت على دولة الشعر ، حتى ان جائزة كبيرة عرضت منذ امد قريب في فرنسا للمجلّي في حلبة الشعر فلم يتسابق للحصول عليها احد . ولكن من حسن الحظ ان الناظمين اذا قلوا فان المستمعين ما زالوا عند حسن الظن بهم ، وفي عقيدتي ان ليس الشاعر من نظم الشعر ولا الموسيقي من وقّع الالحان، بل قد يكون المرء شاعراً وموسيقيّاً بالفهم والطرب ، ذاك فنان ايجابي وهذا فنان سلبي . والمظنون ان هذه الفترة التي نعانيها في الزهد بالشعر هي فترة موقتة او سحابة صيف لا تلبث ان تنقشع وذلك عند ما نألف محيطنا الجديد المزدحم بالحوادث والسكان فتعود الينا غرائزنا المنفعلة الاولى وتثور فينا مراجل الاضطراب وتسترجع هذه الدنيا السمجة جوها الروائي الجذّاب

الشعر والثورة

وقد لا نبتعد عن الصواب كثيراً اذا نحن قلنا ان هذه الانقلابات الاقتصادية المادية التي نعانيها في هذا العصر ليست بمعزل عن الشعر بتاتاً بل قد يكون الشعر بمعناه السيكولوجي من ادعى دواعيها ، وسبب ذلك ان هذه الحياة العقلية التي نولد وندب وندرج في احضانها هي التي يطلق عليها في الاصطلاح العلمي اسم « العقل الاجتماعي » وهذا العقل المتصرف في حركاتنا وسكناتنا لولا اللغة وما انطوت عليهِ من الادب الرائع ما كان له سلطان على قلوبنا وهو بواسطة ما يحدثهُ في الافراد من رأي مشترك يسمى «الرأي العام» يولد الثورة ويغذيها ولكن لا شيء اهون على الباحث من اظهار العلاقة المتينة بين المواقف الشعرية والتأثير في « الرأي العام » . فكم من مظلمة ناح من اجلها الشعراء فأغضبت الرأي العام وهاجته ولم تنطفىء جذوة هذا الغضب إلاَّ بالثورة. والجمعيات التي مثلت اخطر الادوار في سياسة الامم هي التي عرفت كيف تحرك الرأي العام بما تبثهُ من الدعايات الشعرية المهيجة وربما استغلت الحادثة الواحدة الطارئة عرضاً فأحدثت بسببها الانقلاب المنشود

وقد ذهب (اوغست كونت) في فلسفته الحسية الى ان « الفكرة » هي التي تدفع الى العمل ، ولكن الفكرة الجامدة الخالية من الروح — الفكرة الباردة المجردة — لا تستطيع ان تعمل عملاً مباشراً بل لابدَّ لها من ان تكون فكرة منفعلة هائجة اولاً ومتزينة بالادب ومتحلية بالشعر لتستحوذ على ارادة الناس ، وان قول تلك البدوية لاهلها في قصيدة تشتكي

بها على الاعداء الذين أسروها أنهم « ضربوا موضع العفة مني بالعصا » ، ونداء تلك الحضرية مستجيرة بالخليفة في بغداد بقولها « وامعتصماه » وبيت الشعر الذي قاله المتنبي

« لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم »

ان هذه الاقوال الهائجة وأمثالها احدثت في العالم العربي من الاضطرابات اضعاف اضعاف ما عمله اقليدس بهندسته وبقراط بامزجته ونيوتن بجاذبيته ورونتجن باشعته ، وقد رأيت المجاهدين من بني معروف في الثورة السورية الاخيرة يقتحمون مدافع الفرنسيين بصدورهم وهم يصيحون باعلى اصواتهم مذكرين الجنرال غاملان بوقائعهم الماضية

« ممدوحْ وسامي قبلك خرجوا من السويده »

ثم ما هي كلمات « حرية » و« مساواة » و« اخاء » وغيرها من الكلمات الحية التي قلبت وجه الارض وغطته بالدماء ؟ أليست كلها احتجاجاً شعريًّا صادراً من اعماق القلب على الاستعباد والظلم والأثرة المغرقة ؟ وهل هنالك موقف يهيج كامن الالم اكثر مما ان يرى الانسان اخاه الانسان مكبلاً بالاصفاد ومداساً بالاقدام ومساقاً للاستثمار كما تساق الغنم للذبح ! ان هذه المواقف الشعرية المؤلمة تعمل اليوم في الشرق ما عملته فكرة «الحقوق الطبيعية» في الثورتين الكبيرتين الاميركية والفرنسية

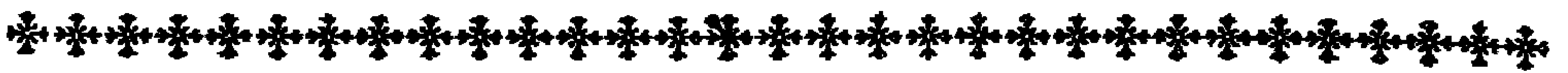
وبديهي ان تكون الافكار حافزة الى العمل ودافعة إلى الاضطراب بقدر ما فيها من عناصر الانفعال والتهييج لان ما يفور من القلب كما قال الشاعر (وردورث) يسيل إلى القلب ، وما دام التصوير والموسيقى والشعر هي الوسائط المعبرة عن اسمى الشعور والمفصحة عن ادق الانطباعات المنقوشة على صفحات الصدور — ما دامت هذه الفنون الجميلة مجلى تأثرنا من الطبيعة المحيطة بنا من كل جانب بافراحها واتراحها فهي القوة الاجتماعية الدافعة في المقام الاول . ولئن كان آدم البشر الحقيقي كما قال (منصن) هو اول من عمل آلة استعان بها نسله على مكافحة الطبيعة فان حواءهم الحقيقية هي اول من علمت ابناءها اغنية من الشعر ايقظت بها ارواحهم الخاملة ، وكما ان خلايا اجسامنا مؤلفة من العناصر المادية التي تحيط بنا كذلك «خلايا» عقولنا مؤلفة من الحياة العقلية التي اوجدناها ونحن ننمو في وسطها وانا لنستدر الهامنا منها كما يستدر الطفل اللبن من ثدي أمه

ولقد اجاد (مونتسكيو) كل الاجادة عندما وصف التفاعل السياسي بين الدولة والافراد بقوله « في طفولية الامم يربي الرجل الدولة ، ولكن في رشدها تربي الدولة الرجل» وكذلك الحال في التفاعل الادبي الروحي ، ففي الحياة الابتدائية تربي العقول دولة الادب ولكن في الحياة الراقية تربي دولة الادب العقول ، لانها تربي الشعراء والادباء والعلماء والحكماء جميعاً ، ونحن أبناء محيطنا العقلي كما نحن أبناء محيطنا المادي



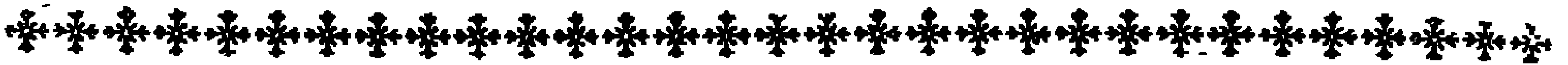
الاهة الشعر الغنائي

لوحة في مكتبة الكنغرس بوشنطن تمثل الاهة الشعر الغنائي في الوسط ووصيفاتها من اليسار الى اليمين يمثلن المرح فالجمال فالشهوة فالحنو فالحقيقة فالاخلاص وهي عناصر الشعر الغنائي في نظر المصور



شوقي او الشاعر

الاستاذ سامي الجريديني



نزل الهلالُ عن السماء فليتها طويت وعمَّ العالمين ظلام

وقد يُودي القدرُ بالهلال فتزول معالمه وتضيع آثار مادته فينا ويبدلنا الله اقماراً خيراً منهُ او نكتفي بالشمس . وأما هلالنا الروحي الذي ودّع العالم بالأمس فلن ينزل عن سمائهِ ما دام في كتب الادب أثر للغة العرب

ولقد طالما جال في الخاطر عند ما كان يدور البحث بين الادباء على الشعر العربي وعلى شاعرية شوقي وغيرهِ ان نبدي رأينا في الشعر وفي منزلة شوقي منهُ ثم نحجم خوف التهمة لاننا نرى ان الكتابة في مثل هذا الموضوع يجب ان تسمو عن الشخصيات وان تساق خدمة للادب العربي خالصة لوجه الله

* * *

ليس لاحد من الناس ان يُسمَّى شاعراً الاّ اذا كان نابغة شعر . وقد قلنا نابغة شعر قاصدين — فالناس قد جعلوا الشعر مبتذلاً . منهم لشر ما ينظمون . ومعظمهم لسوءِ ما يقدرون ولفضيحة ما يطلقون من الالقاب على الناظمين . قلنا نابغة شعر ولولا ما قدمنا لكان حتماً علينا ان نقول «الشاعر» وكفى . لأن كل شاعر نابغة ولا يعكس واذا قلنا الشاعر فقد قلنا شيئاً كثيراً

فهل كان شوقي شاعراً . وهل كان نابغة ؟ وما هو الشعر والشاعر ؟ وما هو النبوغ ؟ ان استطعنا ان نقرب فهم هاتين الكلمتين الى الاذهان فقد عرّفنا الشعر وعرفنا مكانة شوقي منهُ

* * *

ليس الشعر كلاماً مقفى موزوناً . ان هو الاّ وحيٌ يوحى يهبط على الشاعر فاذا بهِ صاحب رسالة يؤديها . يغنيها بالعربية مرةً وبالاعجمية اخرى على وزن وقافية هنا وعلى غير هذا الوزن وعلى غير هذه القافية هناك . أرأيت الى هذا المصوّر يخطيء في الاوضاع التشريحية لاعضاء الوجه او يضيع النسبة بينها . ان فعل ذلك فليس هو من التصوير في شيء وكان شأنهُ شأن كل الاطفال يعبثون بالقلم والورق . ولكنهُ ان اكتفى بالقواعد التشريحية وبالاوضاع

الطبيعية للاعضاء لما زادت قيمته عني وعنك ايها القارىء الكريم ان كنتَ مثلي لا تكاد تحسن رسمَ خط مستقيم

لا ليس المصور مفتنّا اذا هو اهمل الاصول وضرب بالقواعد عرض الحائط . وليس هو بالعبقري ان قال هذا حسبي

يجب ان يسبغ على القواعد والاصول روحاً تعطي العيون الحاظاً تعبر في الصورة عما في ضميره . ويلبس الوجه معنىً ليس في الاصول والقواعد بل في نفسه وفي نفسه هو دون سواه . فيبرز لنا الجمال ، نعجب بهِ ونحسبه من بسائط الاشياء التي في متناول ايدينا ولكنا لا نستطيع ان نحاكيه — كذلك الشاعر . وعند ما قلنا ن الشعر ليس بالكلام المقفى الموزون لم نقصد الى الاباحية في اللغة او الفوضى في قواعدها ولم نرمِ الى فتح الباب على مصراعيه يدخله كل ناظم لا يملك من حطام الادب الا كلاماً مرصوصاً موزوناً ذا قوافٍ يضرب باللغة وقواعدها واصول الكتابة فيها عرض الحائط ، يستر جهله وتفضح الجرائد غفلته بدعوى «الشعر العصري» او «الادب الجديد» وما الى ذلك من سقط المتاع

لا . ان لم يكن الشاعر متبحراً في اللغة متضلعاً من القواعد فليس بشاعر . ان لم تكن لغته اللغة الفصحى فليس بشاعر . ولكنه ليس بالشاعر ايضاً ان اكتفى بالقواعد والاصول لغة وبياناً وبديعاً — لا . لن يكون من «الشاعر» في شيء ان قال هذا حسبي . فهذه كلها اثواب واعضاء جسم عار . أما الروح التي تنفخ في الجسد الحياة فتجعل الرجل يتألم ويحزن ويفرح ويفتخر ويطرب ويغنّي فهذه هي روح الشاعر . وهذه الروح مخلوقة فيه توحي اليهِ ان غنِّ فيغني مدفوعاً بسليقته مسوقاً بطبيعته يكمل من فطرتها بالدرس ويهذّب من بداوتها بالملاحظة. فانهُ ان كان «مدفوعاً الى السقم السقيم» ومضطراً الى ركوب الاسنّة المخاطرُ فمفطور على الشعر الشاعر يضرب على قيثارتهِ لانهُ مقدَّر له ان ينشد ويقول الشعر لانهُ محتم عليهِ ان يقوله

قرأت من زمن ليس بالقصير مقالاً لأديب ينعى فيهِ على العصر الحالي خلوّه من الشعراء المبرزين وينسب الامر الى طغيان الروح المادية والى تفوق العلوم التحليلية على الخيال والعواطف. وهذا رأي قال بهِ كتّاب كثيرون فيما مضى ثم عاد زعيمهم — وهو افرنجي — فأنكره وأقرّ بخطأه . فلا شك ان العلم الطبيعي تقدم كثيراً ولا يزال يسرع في تقدمه ولا شك ان الروح المادية قد قويت وطغت واشتد سلطانها فهل في هذا مساس بالشعر ؟ وهل من علاقة بين هذا الامر وذاك ؟

السعي وراء الماديات والاستمتاع بما يغدقه توفر الامور المادية على الناس كان منذ الازل وسيبقى الى الابد . ولكن صورتهُ تختلف ومبلغهُ يتغير وشكله يتحول ويتبدل فلا يبقي على حال واحدة . والعلم الطبيعي الآن مثل «العلوم» التي تقدمته من كلامية وفقهية ولغوية

وفلسفية يمشي في طريق ويمشي الشعر في طريق آخر. فليس لهذا سلطان على ذاك وليست مملكة العلم والمادة مما يطغى على مملكة الشعر والفن. فالانسان في تاريخه ليس خاضعاً لاحكام العقل والمنطق او للعلوم الطبيعية التي تريك ان الواحد والواحد اثنان بل يخضع لعواطفه ايضاً

فكل منا رجلان او لكل رجل صفتان واحدة تريه ما وصل اليهِ العلم الطبيعي من الاستكشاف والتفنن في تذليل القوى المحيطة بهِ فتهيء له كل اسباب راحته المادية، وواحدة تقف حائرة مذهولة تسأل قائلةً وما بعد هذا ؟ وهل في هذا راحتي ؟ بل تأبى مكرهةً ان تقنع بما هو تحت نظرها وتمدُّ خيالها الى ما وراء الطبيعة فتخلق لنفسها ما تشاء. ذلك ان اشباع الروح شيء واشباع الجسد شيء آخر. وذلك ان في كيان البشرية تشوقاً الى الراحة النفسية وتعطشاً الى الجمال لم يجده في العلوم الطبيعية حتى الآن فحاول ان يخلقهُ من العاطفة ومن هتاف الوجدان الداخلي. ذاك مسرح تلعب فيه العلوم الطبيعية ادوارها وهذا مسرح يغني فيهِ الفن ادواره، ولن يلتقي هذا بذاك

الشاعر يوقظ فينا كل ما في النفس من آمال ومن شعور والعالم يرسم لنا قواعد ما يقع تحت الحواس

الشاعر يوقد فينا جذوة التصور فينير عواطفنا بكلامه كما يوقدها وينيرها المصور بريشتهِ والوانهِ

فالقول اذاً بان العصر العلمي او المادي يقف في سبيل الفن قول لا يستند الى الحقيقة وليس له ما يسوّغه من ماض او حاضر. فالمادة كانت قد طغت منذ ونيف الف سنة وكانت « علوم » ذلك العصر قوية اخذ بها الناس ودرسوها فلم تمنع تلك المادة ذلك العصر ان يخرج لنا المتنبي ونبوغه في فنه — كما ان هذا العصر لم يستطع بمادته وعلمه ان يحول بيننا وبين شوقي ونبوغه في فنه

ليست غاية الشاعر ان يحلل ويضع المقدمات يتبعها بالنتائج انما غايتهُ ان يخلق لنا صورةً تامةً تتمثل لنا بشراً سويّاً مرةً وعاطفةً مرةً اخرى واملاً ومطمحاً مرات عديدة

ليس الشاعر بالكيمائي او بالعالم التجريبي او التحليلي وليس بالمنطيقي. انما هو مصور ينقل لنا بالكلام ما يضعهُ المصور في اللوح بالالوان. بل هو ابلغ منهُ اذ تكفي جملة واحدة يقولها حتى تثير في انفسنا صورة ذهنية قد لا تكون مشابهة للحقيقة ولكنها تؤدي المعنى الذي رمى اليهِ الشاعر

خذ امرؤ القيس يصور لنا الليل فيقول

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليَّ بانواع الهموم ليبتلي
فقلتُ له لما تمطّى بصلبهِ   وأردف اعجازاً وناء بكلكل

فلو أراد الفيلسوف أو العالم التحليلي ان يشرح الصورة شرحاً تحليليّاً لقال ان ليل أمرىء القيس غريب فهو يبدأ موجاً وهذا الموج كالستور المرخيّة ثم ينتهي فرساً يتمطط وتزداد مآخيرهُ امتداداً ويبعد صدرهُ. ولا أرى امرؤ القيس الاّ غبيّاً. واما كافة الناس فيقرأون

البيتين فتبدو لهم من خلال هذه الالفاظ صورة ليل بهيم مخيف طويل . وهذا كل ما أراده الشاعر بل خذ اعظم شعراء العالم مثلاً

فلو أراد مبتدىء في الكتابة ان يصف لنا البخيل لكتب في البخل وقبحه واسبابه ونتائجه وتأثيره في الناس وفي البخيل نفسه كتابة لا تدع زيادة لمستزيد في كل مقومات البخل وفي كل آثاره في المجتمع الانساني ولكنه لا يعطينا صورة البخيل

واما شكسبير فينطق « شيلوك » ويجعله يشكو ويطلب ويغضب ويرجو فاذا بالبخيل قد تمثل لنا انساناً. وانطق « اوتلو » بالحب وبالحرب فتجسدت لنا الغيرة. وهكذا يخلق لنا ناساً يتكلمون ويعشون ويأكلون ويشربون فتتمثل لنا صور الخديعة والعقوق والتردد والتضحية والمكر فلا تميّز الصورة عن الاسم الذي سمّى شكسبير رجلَهُ به

ولكنه لم يعطِ لغير شكسبير ان يكون عالميًّا لان الصور التي رسمها لنا هي هي في كل زمان وفي كل بلد وفي كل قوم . فالحسد والغيرة والبخل والعقوق لا تتغير مهما تغيّر في ابن آدم ومهما تغير في الاقليم ومهما تغيّر في الزمن

أما الشعراء الآخرون — ومنهم شوقي — فاكتفوا بصور أخرى، بصور هي آمال الشعوب التي نطقوا بلغتها وعواطفهم متمثلة في احزانهم وآلامهم وافراحهم ومفاخرهم فكانوا في عداد الملهمين

والنبوغ والعبقرية ما هما ؟ النابغة في عرفنا رجل يظهر في عصر من العصور وكأنهُ تمثَّل ماضيَهُ كله وضمه في نفسهِ وصوّر جيلهُ الحاضر جامعاً ضمير قومه كلهم في جسد واحد وقلب واحد . فهو المثال القومي على ارقى درجاته يرى كلُّ فرد آماله وشعوره وعواطفه متجليةً فيه فينظر كما بمرآة إلى أعماق نفسهِ فيراها كما هي . فان حاول هو ابراز الصورة لا يستطيع فينقاد إلى المعبر عنها ويستسلم له . ويسمو النابغة عن المستوى العادي ولكنه في الواقع ونفس الامر مثال لكل ما في هذا المستوى من محاولةٍ إلى التطلع إلى فوق والسير إلى الامام . فهل كان شوقي هذا الرجل ؟

تعال معي أيها القارىء الكريم اريكهُ

ليس الاسلام ديناً فحسب بل ملكاً ضخماً وامبراطورية مترامية الاطراف لا تغرب الشمس عنها ساطان قام — مثل كل سلطان — بالسيف وبالسياسة وبكفاءة اعلام بارزين

فاذا كان الرومانيُّ في ابان الامبراطورية الرومانية يكتفي في حلبة الفخر بقوله انا روماني فيجمع في نفسهِ كل عظمة الامبراطورية ، كذلك يحق لكل مسلم وامبراطوريتهُ في أوجها ان يفخر بالاسلام ويزدهي وينشد في حب الاسلام

وما كان شوقي بالشاعر النابغة لو انه — وهو مسلم — انساهُ وحيهُ مثل هذا الفخر والحب والاخلاص في خدمة الاسلام

ما كان يجدر بنا ان نعدّه في النوابغ لو لم يتجمع في قوله كلُّ ما في ماضي الاسلام من عزّ دنيوي ولو لم يتمثل الاسلام فيرث تراث الاجداد وينظر — وهو في الثلاثين والاربعين من عمره — دولة الاسلام لاتزال في سطوة لا بأس بها، تهاجمها دول اوربا من اليمين ومن اليسار فتصمد لهم تارة بالسيف وأخرى بالسياسة حتى كانت الحرب مع اليونان وفوزها الباهر عليهم فيجمع روح الملايين من المسلمين في قصيدته « بسيفك يعلو الحقُّ والحق اغلب » يخاطب امير المؤمنين

إذ صح تعريفنا النابغة انه هو الذي يعبر عن شعور قومه فينشد لفظاً ما يخالج اعماق نفوسهم فكراً فهو هو النابغة إذ يتغنى ببطش الترك وقوة الترك وتضحية الترك في سبيل نصر الاسلام

فاذا عاب عليه بعضهم قوله « وارمينيا ثكلى وحوران اشيب » لانه لا يليق بامبراطورية عظيمة ان تقتل من رعاياها وتكسر من كبرياء ابنائها، كان على خطإٍ مبين فشوقي لم ينطق بلسان الرجل تملك عليه مشاعرَهُ التقوى والمحبة وفعل الخير، بل نطق بلسان امبراطورية تأبى ان يهاجمها العدو من الخارج ومن الداخل . فاذا ما جاءت حرب البلقان وخيل إلى الناس ان الاسلام قد زال عن البلقان تجلت عبقريتهُ فعبر مرة أخرى عن ضمير الاسلام اذ صاح « يا أخت اندلس عليك سلام » بل يقف والرأي العام الاسلامي على لسانه يغلظ القول لسبط نبي المسلمين شريف مكة اذ اضطهد حجاج البيت وأساء اليهم ويستعدي عليه أمير المؤمنين في استانبول ويقول لهُ « ادّبْهُ ادّب ... للشريف عليها أم لك العلَمُ ». وهو النابغة ايضاً اذ يأخذ مثل قومه الاعلى فيصيغهُ حكمةً قد لا تكون في ضمير كل احد منهم ولكنها ضمير الاسلام الحق فيذكر المسيحية ويقول فيها وفي سيدها ما لم يؤثر باحسن منهُ الاّ في القرآن

وكانت الحرب العظمى وتخلّى الاتراك عن الخلافة وداول الله الايام بين الناس وطغى على العالم كله روح الوطنية فانكمش شوقي ثم عاد نابغةً آخر يعبر عن عواطف قومه ومطمحهم ومثلهم الاعلى بشعر يتغنى فيه بالوطنية فيعود إلى مصر ينقب عن ماضيها فيحييه وينشر حاضرها

« وطني ان شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي »

ودع عنك التمسك بالتقديم والتأخير في تاريخ شعره فنحن نصورهُ صورةً مستقلة عن الوقت . كما اننا نصوره كما هو فوق الاحزاب وفي معزل عنها لانه ملك الجميع فلا ينطقه الله الاّ بما يصح ان يقولهُ الجميع

بل كيف لا يكون النابغة الذي عرّفنا وهو ان طربنا غنينا بشعره أو فرحنا انشدنا شعره أو رثينا رجعنا الى شعره أو افتخرنا زهونا بشعره أو اردنا الحكمة تتخذها مثلاً سائراً استشهدنا بشعره

« رواة قصايدي فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق »

فاذا كان هذا الذي تغلغل في حياتنا الادبية إلى اعماقها والتصق بكل عواطفنا وجوارحنا

وكان سفيراً مفوضاً مطلق الرأي من لدنا امام الاهة الشعر — إذا كان هذا ليس بالشاعر النابغة فاين هو ذلك الشاعر ؟

***

ان الخطأ الذي وقع فيهِ الذين وزنوا شوقي بالميزان فوجدوهُ ناقصاً لا يغتفر لمن ينصب نفسهُ حكماً ناقداً للشعراء. ذلك انهم لم ينظروا اليهِ كشاعر عربي فقاسوه بمقياس البيئة العربية قديمها وحديثها او بمعيار الشعر العربي ما هو جديد منه وما طال عليهِ القدم بل تأثروا بالنقد الافرنجي للشعر الافرنجي فاخذوا نظر الافرنج الى شعرائهم وطبقوا مذاهبهم على شوقي

وليس هذا من العدل في شيء

فالشعر الافرنجي شيء والشعر العربي شيء آخر . الادب العربي شيء والادب الانجليزي شيء آخر والادب الالماني آخر وهكذا. فثمة رجل ذو ملامح واخلاق وتاريخ ولغة تجعلنا ندعوهُ انجليزياً . وثمة رجلٌ مثله ولكنه ذو ملامح واخلاق ولغة وتاريخ آخرين ندعوهُ افرنسياً

كذلك ثمة رجل آخر مثلهما ذو تاريخ ولغة واخلاق تجعلهُ عربياً . فلا يصح قياس هذا بذاك . ولا اخذ قاعدة ما عند ذاك لتطبيقها على ما عند هذا . إذا أردنا ان نحكم حكماً صحيحاً على شوقي فالواجب ان نأخذه شاعراً عربياً والشاعر العربي ليس بشاعر ان لم يؤثر فيهِ تاريخه ولغته وبيئتهُ . فما لهُ وللاوساط الاخرى واللغات الاخرى التي تنتج شاعراً ليس بينه وبين شاعرنا مشابهة

انه أعطي للقليلين — لقليلين لا يكادون يعدون على اصابع اليد الواحدة — ان يكونوا شعراء عالميين ونحن لا نعرف الا شكسبيراً شاعراً عالمياً وأما نوابغ الشعر الآخرون فمحليون. فكم من شاعرٍ فحل انجليزي لا يعرف الافرنسيون عنه شيئاً ولو نقل الى لغتهم لما استساغوه ولكنه شاعر في نظر الانجليز يعبر عن ضمير امتهم وينطق بشعورها وآمالها ومطامحها

كذلك شوقي . فاننا عند ما نقيم انفسنا مقام الحكم الذي ترضى حكومته كان حتماً علينا ان نرى هل قال بلسان قومه وهل ترجم آمالهم وشعورهم وهل احزنهم إذا رثى وأطربهم إذا طرب وساق شعره مثلاً إذا نطق . هذا هو المحك للحكم على شاعرٍ في كل آن وفي كل زمان

انه من الضلال ان نطمع في جعل شوقي شاعراً عالمياً فليس هو كذلك ولكنه شاعر العربية وشاعر الاسلام وكفى بذلك مقاماً يجعلهُ في المقام الاول بين الشعراء . وسيان عندنا بعد ذلك وافق الحكم قاعدة نقد الشعر الافرنجي أم لم يوافق

ولسنا من الذين يقسمون الادب إلى قديمٍ أو تقليديٍ وجديدٍ أو محدث حتى نحكم على شوقي لا . اننا لا نؤمن بهذا المذهب فلنفسر ما نرمي اليه

انه إذا قام فينا رجل اليوم وأخذ في الشعر مذهباً كمذهب الشعراء منذ ونيف خمسة

قرون فليس بشاعر، أو مذهبهم في صدر الاسلام فليس بشاعر، أو مذهبهم في الجاهلية فليس بشاعر . ذلك لانه لبث ابن ذلك الزمن ونسي حاضر عصره وما فيهِ من اختلافٍ في الشعور والعواطف والآمال والمرامي عن العصور الاولى . انه لم يرق فيتكيف بالاحوال وبالمحيط فلا يستطيع ان يكون لسان جيله وترجمان بيئته فلا يتسنى له ان يكون شاعراً وان كان في عداد كبار الناظمين

وكذلك لو قام فينا اليوم رجل ينظم الشعر ناسياً ان هناك في صميم العربية شعراء دعوهم جاهليين ودعوهم اسلاميين وان هناك شعراء نظموا منذ الف سنة ومنذ خمسمائة سنة وانه غير مقيد بشيء من تقاليدهم واساليبهم وتاريخهم فليس بشاعر

فالشعر — مثل كل الفنون الجميلة ومثل كل شيء في الطبيعة — ذو اصولٍ تمتد إلى ابعد ما للشاعر من نسب فاذا انكرها لم يعد ابناً لها

والشاعر العربي اليوم ليس الاَّ ابناً يرث مما سرى في دم اجداده منذ اول يوم نُطِق فيه بالشعر حتى الآن . فاذا لم يتمثل هذا الميراث ويضمه إلى بيئتهِ الحاضرة ويمزجه بعصره الجاري فليس باهلٍ ان ينطق بلسانهم ويترجم عن آمالهم

وما الادب في كل قوم وفي كل بلد الاَّ تاريخ اول اديب منذ بدء الادب الى يومنا هذا

ارأيت الى مدرسة انكليزية لا يبدأُون في درس الادب فيها منذ ايام «تشوسر» نازلين الى «سبنسر» «فشكسبير» «فملتون» «فتنسون» حتى الآن

أم رأيت مدرسة افرنسية لا يرجعون بك فيها الى ايام انقسام الشعراء فئتين مختلفتين ويتدرجون خطوة خطوة حتى هذه الايام . ام رأيت اخرى عربية لا يبدأُون في تدريس الادب فيها منذ اوائل الجاهلية وشعراء النصرانية حتى الآن ؟ فالماضي جزء لا ينفصل عنا وانما للحاضر خلق يميزه عن ذلك الماضي ولكنه لا يفصله عنهُ . فالشاعر الخليق بالاسم هو من جمع الماضي كله مخبوءًا في دمه ونطق بكل ما في حاضرهِ من عواطف وتصورات. ولا اظن منصفاً يرى في شوقي غير هذا الشاعر

كذلك اخطأَ الذين اخذوا بيتاً لشوقي من هنا وآخر من هناك فقالوا لك انهُ قصر في هذا عن المتنبي وأُخذ المعنى عنهُ ولم يبلغ شأو البحتري في ذاك التركيب والتوى عليهِ القصد وانهُ في هذا البيت خالف المألوف فبالغ وانهُ في ذاك خرج على المنطق وعلى اللغة فلم يوفق

وما هكذا يكون النقد . واني ازعم ان النابغة لا يكون خليقاً بهذا الاسم ان لم يخالف المألوف ويضرب في بعض الاحايين بالاصول اللغوية عرض الحائط مبالغة في تأدية المعنى او امعاناً في اتقان الصورة التي يثيرها لفظه في ذهنك. وليس النابغة الاَّ رجلاً ارتفع عن المستوى ولكنه ليس بكامل — ومن آيات فنه انهُ يخطىء ولكن خطأه في قوله يزيد القول حسناً

ويزيدك بهِ اعجاباً وله محبة لخفة روحه وسلامة ذوقه

وانهم يقولون لك في كتب الادب الانكليزي انهُ لم يخالف القواعد اللغوية عظيمٌ مخالفة شكسبير لها . ولكنهُ مات فترك لغتهُ اغنى اللغات تراثاً وزاد في معجمها الالوف من الالفاظ ووضع شعرها في اعلى الطبقات

بل نبالغ نحن الآخرين ونقول انهُ اذا لم يخطيء الرجل الفذ فليس بحبيب الى قلبك واذا كان كلهُ كمالاً في كمال حيل بينك وبين جاذبيته وبقي جافاً تيبس عروقه وتذهب في الهواء

ولا نملُّ القول وتكراره فالنبوغ في الانسان هو الكفاءة لتمثيل جيله وعصره وترجمة ما عبَّرنا عنهُ بضميرها . فاذا فعل ذلك فهو الزعيم المقدم مهما اخطأ وسرعان ما يغفر لهُ موته جميع هفواته . افلا ترى ان النوابغ لا تذكر لهم السيئات مهما تعددت فخلدوا والى رجال الكمال اللفظي او الكمال الجسدي جلسوا على الرف فعلاهم الصدأ وأكلهم العث . ذلك ان الروح يحيي اما الجسد فيميت . واننا نقرر في غير وجل انهُ ما اقفر ادبنا العربي شيء مثل خلوه من النقد الحقيقي . ذلك النقد الذي يتناول الروح والمعنى والصورة الجلية والاثر الباقي ويهمل القشور . فانظر الى التاريخ العربي في الأدب انهُ منزل آهل بعظماء الاشخاص لو كانوا افرنجاً لرأيت المجلدات تكتب عن كل واحد منهم . بل انظر الى تاريخ الاسلام السياسي فلن تجد في اي امة اعجمية ما تراه فيه من كثرة الفحول المبرزين

فكم من كتاب نقرأه في اللغات الافرنجية عن نابليون وعن شارلمان وعن ولنتون وعن شكسبير وعن جوته وعن فولتير وهكذا إلى ما لا نهاية له

ولكنك ماذا تقرأ في العربية عن عمر ابن ابي ربيعة وعن الاخطل وعن ابي نواس وعن المتنبي وعن خالد ابن الوليد وعن معاوية وعن الحجاج وعن زياد ابن ابيه وعن ابي مسلم وعن صقر قريش : ذلك اننا عندنا المادة وانما ينقصنا الروح

فينا الكثير من امثال غليوم الثاني وبيرون وفوتشه ولكن ليس فينا « نيكلسون » و« ستراشي » و « اندره موروى » و « اميل لودفيج » و « ستيفان زفايك »

***

شيء آخر يتناوله النقاد أو الذين يترجمون أديباً شاعراً كان أم كاتباً فيقولون لك هذا مبتكر وهذا ينقصه الابتكار وذاك أخذ المعنى عن ذلك الشاعر أو قلد فيه هذا الكاتب

ان صغار المخلوقات في الادب تنسب إلى نفسها شيئاً اقتبسته من الغير أو تقلد وتنقل وتدعي الالهام

هذا فريق لا يليق ذكره أو الاهتمام بامره فليس هو من الادب في شيء

ولكننا نعني شعراءنا وكتابنا الذين ثبتوا على الزمن فاصبحنا وهم قادة الادب فينا

ترى هل الابتكار من مزاياهم وهل في الادب الحقيقي ابتكار — ليست دولة الادب من مملكة العلوم الطبيعية . فالاختراع والاكتشاف ملازمان العلم التجريبي او التحليلي لا ينفصلان عنهُ لانهُ شيئي . اما الادب فنفسي واحكام النفس معلقة بصاحبها اما كفرد او كأمة

وما نفسية شعب من الشعوب الاَّ هذه الصورة التي يرسمها لنا الشاعر اما خُلقاً او املاً او حبًّا او حزناً وما هذه النفسية الاَّ نفسيته هو ضمَّ فيها نفسية جيلهِ فصفَّاها واختصرها وهذبها وارسلها قولاً مأثوراً

لذلك كان الابتكار في الادب معدوماً . فالادب عن قدماء اليونان يكاد يكون هو الادب عند الاوربيين الآن مع هذا الاختلاف البيّن في اللغات وفي طرق التعبير . الروايات التمثيلية التي تملأ الادب الاوربي مستمدة من الروايات اليونانية مهما غيّر القوم من لغة ومهما بدّلوا في اشخاص. لان الروح الادبية تكاد تكون واحدة — أما الاسلوب فلا يعدّ ولا يحصى

فالاديب الاوربي المتغذي بكل هذا الماضي من الادب لا يمكنهُ ان يتجرد عنهُ ويبتكر . وماذا يبتكر ؟ انهُ يغير في الاسلوب وفي بيان اللغة ولكن روح الادب الاصلي هو هو

فاذا كان الادب العربي ميراثاً لكل ناطق بالضاد فكيف يكون الاديب اليوم اديباً ان لم يتناول ميراثه فيستغلّهُ . وهل يجدر بشاعرنا اليوم ان يتجرد عن كل الشعر العربي منذ فجر العربية حتى الآن ويتملص مما خالط قلبه وعقله من مادةٍ تلقاها عنهُ وينطق او يفكر او يشعر بغير ما آل اليهِ

لا . انهُ ان فعل فليس بشاعرٍ عربي

وأديبنا اليوم هو اديبنا البارحة انما تمشَّى مع هذا العصر وتكيَّف وتحوّل وبقي الاصل كما هو . فالقول عن نقد الشعر بان شوقي أخذ هذا المعنى عن شاعر قديم حيث قال هذا كذا وقال ذاك كذا فقول لا يؤيده تاريخ الادب في كل الامم وليس نقداً بالمعنى المعروف

* * *

ولقد عرّجنا على الكثير والقليل من مواطن القول ولم نتمّ صورة شوقي بعد

قلنا ان النابغة في عرفنا بشر يسمو عن المستوى العادي ولكنهُ ليس الهاً لتساق اليهِ الصلوات والمدائح وينزّه عن الخطإِ

فاذا احببنا ان نشبههُ بشيءٍ فلعله بآلهة اليونان اشبه — آلهة نسبوا اليها اشياء عظيمة ولكنهم جعلوا في طينتها خُلقاً بشريًّا ضعيفاً فكانت تعلو عن الناس في شيء وتسفل اليهم في شيءٍ آخر، فجعلوا لها محبة البشر وحسدهم وجميع ما فيهم من ميولٍ ليست مجردة عن الهوى في معظم الاحيان . وشوقي — في نظرنا — لا يكون النابغة الذي نحاول ان نصف ان لم يحمل نقصاً يشاركه فيهِ الكثيرون من الناس ولكنهم لا يشاركونهُ كل شيءٍ آخر

ذلك تعلقهُ بالسلطان — نعني « الوظيفة »

فقد كانت امنية شوقي منذ ما بلغ اشدَّه ان يكون في ركاب الحاكم — امنية تشفع لهُ فيها شرقيته التي لا يهنأ لها عيش الاَّ في ظل « الحكومة » ويشفع لهُ فيها نسبه وقد كان يمتُّ الى اصولٍ هبطت مصر حاكمةً او في معية الحاكمين. ولكنها مُنىً لا تليق بعبقريته وحالة لا يطيقها النبوغ

اننا نضع الشاعر فوق العروش وعلى ظهور الحاكمين ونأبى له قفصاً ولو كان من الذهب الابريز

اننا نعجب بشوقي وتأخذنا هزة الفخر والطرب عندما نتلو آياته يعتز بالاسلام ولكننا تعافه انفسنا اذ يأتمُّ « بعبد الحميد الثاني » ويضربهُ لنا مثلاً ومعياراً لعظمة الخلافة ونغضّ الطرف خجلاً اذ يثنّي بتابع ذلك الخليفة « عباس الثاني » فيقيمه ثانياً في المجد والكرامة

ليست القصور ولا دور الحكم بالمرتع الخصب لعبقرية الشاعر. انهُ طير النيل ولسان العربية وروح الاسلام. فالفضاء والحرية بهِ خليقان

وإذا فهمنا المتنبي يخلّد سيف الدولة فذلك لانه كان يمثل في تلك العصور كلما كانوا يعظمونهُ في الرجل من بطولةٍ وكرمٍ وحَسَبٍ وتقديرٍ للشعر. أما وحال ابطال شوقي غير حال سيف الدولة فاي عذر لهُ

إننا نستقل فيهِ ما كان يصبو اليهِ من لقب « شاعر الامير » ونغتفرها له إذ يقول شاكياً لذلك الامير:

« أليس من العزّ المنمع ان ترى أمير القوافي في رحابك جاثيا »

ونفضل عليهِ الاخطل وايامه غير ايام شوقي وبطش بني أمية غير بطش عباس الثاني إذ تلعب برأسهِ نشوة الخمر فتأخذهُ العزة بالاثم ويقول

إذا ما نديمي علّني ثمَّ علّني ثلاث زجاجاتٍ لهنَّ هديرُ
خرجتُ اجرُّ الذيل تيهاً كأنني عليك أمير المؤمنين أميرُ

ولكنها هفوة وقع فيها قبله غير واحد من النوابغ فما جعلوا القاعدة مثالاً يصح ان يحتذى وما اغتفرت لهم الاَّ لما أولوهُ للامم التي نطقوا بلسانها من فضل يثبت على الدهور

***

وكانت الحرب العظمى فنفي شوقي واعتزل الاهل والوطن وأبت العناية البارة بابنائها العبقريين الاَّ ان تكون في خدمتهِ. فليس للرجال العظام من مطهِّرٍ وحافزٍ وملهمٍ مثل العزلة. وما أدى نبي رسالته قبل ان يعتزل الناس زمناً — فكأن الوحدة رفعته الى مستوى نفسه فجلس يناجيها ويستوحيها خير ما نظم. فعاد الينا بعد الاعتزال وقد تجرَّد لتصوير الجمال النفسي فقال في الاندلس العربية وفي فراعنة مصر وفي جبال لبنان وأودية الشام ما يجعله في عداد الخالدين

وكأنه شعر بدنو ساعة الرحيل وخاطبته الاهة الشعر قائلة انت ابني الحبيب وبك قد سررت فاتم لي فرحي . انهم ينعون على الادب العربي خلوه من الشعر التمثيلي وان شاعرنا يلتزم وزناً واحداً في قافية واحدة في قصيدة واحدة فلا يلبث ان يتشكى كميته الجري فيسقط وما هكذا ادب الافرنج

قم ارني انك النابغة الحق تقمصت روح عصره فيهِ فرأى من حوله ميدان التمثيل قد رحب بعد ضيق واتسعت مسارحه لغير الروايات الافرنجية تُنقل ولا يحسن نقلها او تمثيلها فنهض واذا بهِ يضيف الى الادب العربي سفراً من ابلغ اسفاره . وعندنا ان هذا الضرب من الشعر قد فتح ابواب الادب العالمي لابناء العرب على مصاريعه

فاليونان والرومان وابناؤهم اوربيو اليوم ما بلغوا الذروة في الادب الا من هذا الباب — لحسب شوقي انه مهد الطريق وانارها وعسى ان يلهم الله من يرى هذا النور فيتمّ ما بدأ به شاعرنا العظيم

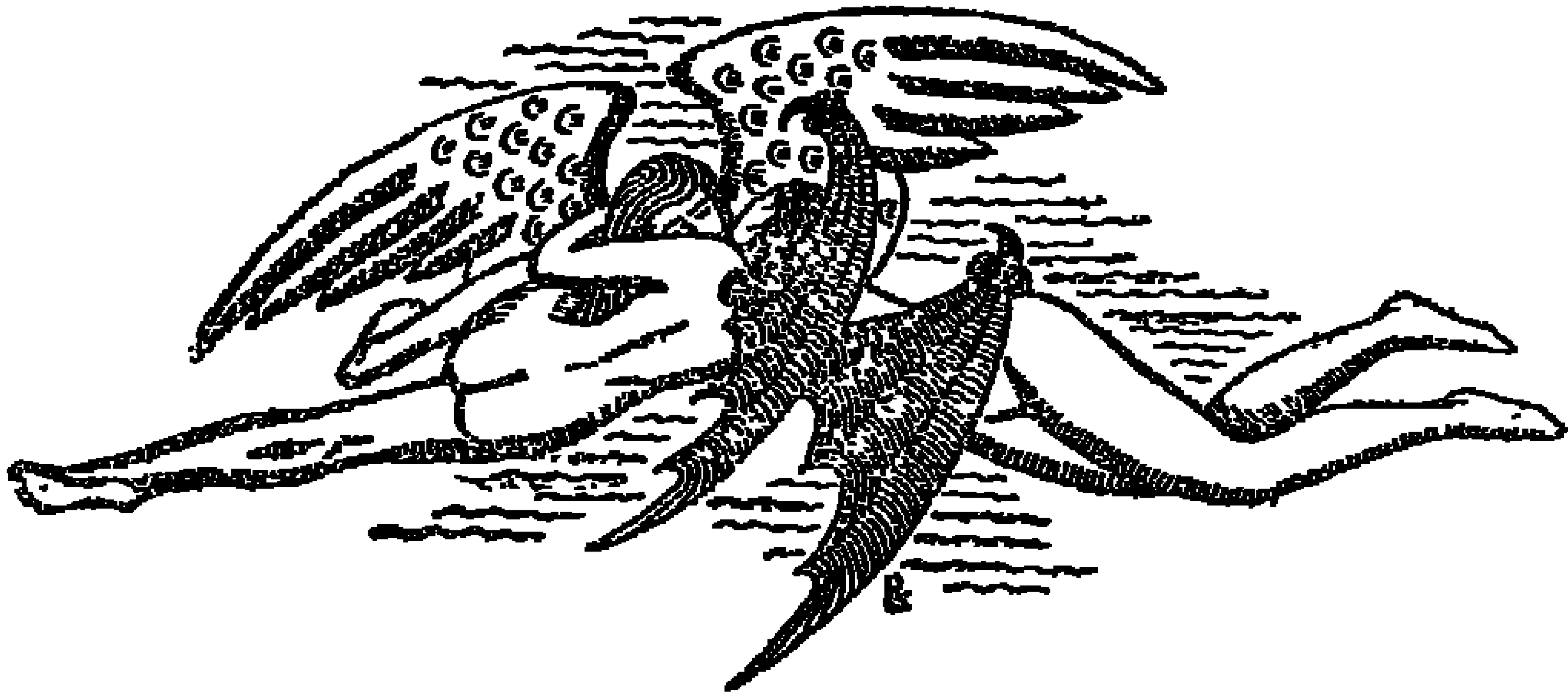
فمجال الشاعرية بل مجال الادب الخليق بالاسم هو هنا . فالصور متوفرة وما على الفنان الاّ ان يبرزها أما خلقاً — وما اكثر صور الاخلاق — أو حكمةً أو عاطفةً أو غناءً يثير الشجون

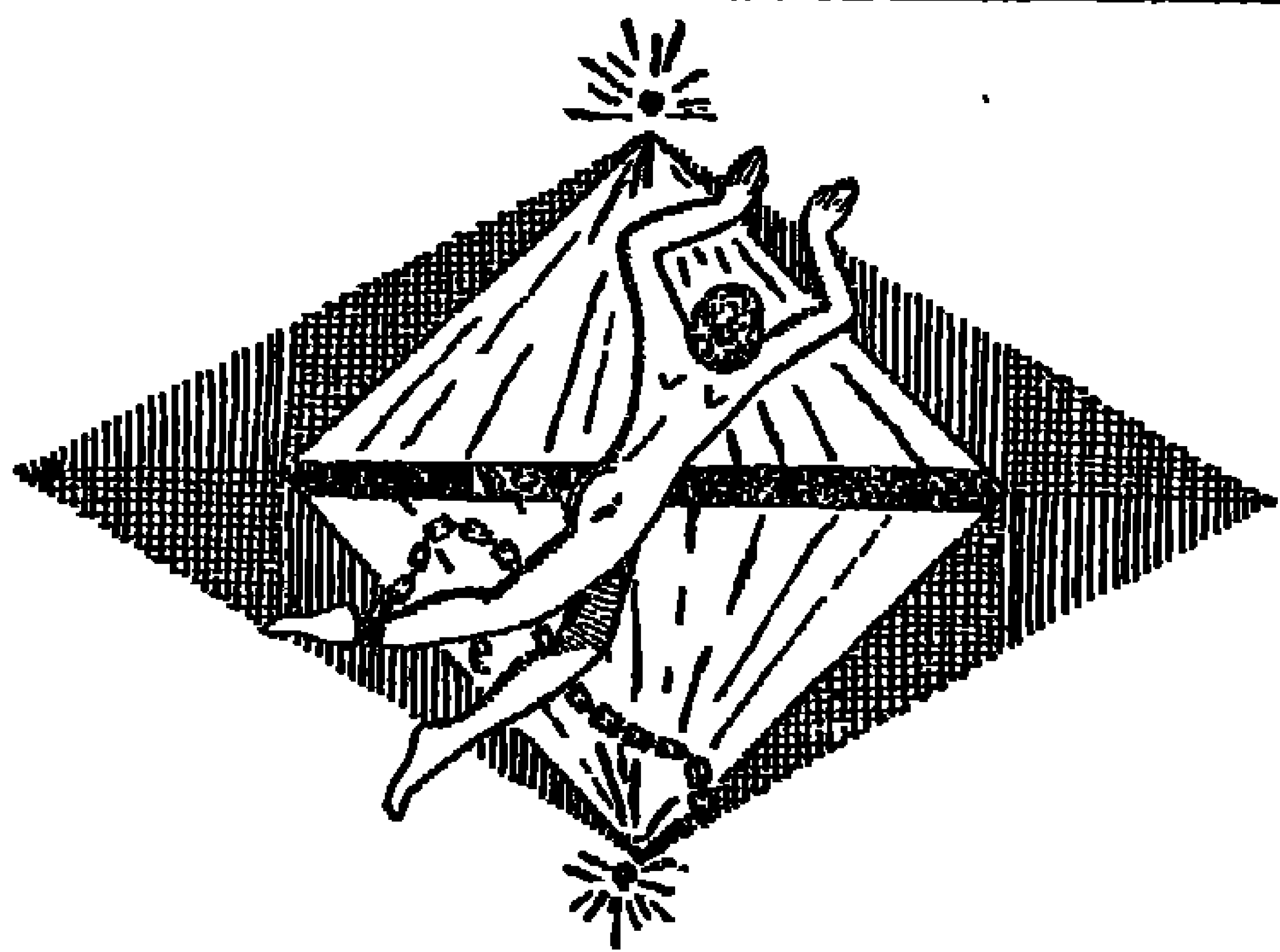
* * *

على اننا نعترف باننا لم نقرأ كل روايات شوقي التمثيلية وان نقد مثل هذا الفن يقتضي وقتاً طويلاً للتمحيص والموازنة حتى تعرف منزلة شوقي منه

ولكنه — كما قدمنا — يكفيه انه دلنا على الطريق وقادنا إلى حيث يمتنع الاقدام ويكره الاحجام فمثل شوقي لا يُبكى — فانهُ فينا ومنا مهما بقينا . انهُ منار يهدي واستاذ يرشد — موضع فخر الانفس ومحط آمال العواطف

سلام عليهِ يوم عاش فينا شاعراً وسلام عليهِ يومَ هو في الخالدين شاعر





موت الشاعر

لعلي محمود طه المهندس

مالوا بمصباح البيان صباحا ... ومشوا به في الذاهبين رواحا
ومضوا به الا شعاعاً لم يزل ... في الأرض مؤتلق السنى وضاحا
تهفو النجوم إلى سناه وتغتدي ... نشوى كأن من الأشعة راحا
وعلى جوانب أرضها وسمائها ... شفق تقلده السماء وشاحا
هذا شعاع العبقرية لم يزل ... يولي الحياة طلاقة وسماحا
قدر الخلود له وبارك افقه ... رب اراد به هدى وصلاحا
أجرى البيان على لسان نبيه ... غدقاً من السحر المبين قراحا
وحبا به الشعراء من ألحانه ... فشدوا بألسنة الطيور فصاحا
لما مشى في الأرض فجر صخرها ... ماء ونضرها ربى وبطاحا
وأنار في شرف السماء نجومها ... فتلون من آياته الألواحا
فكأنما الدنيا ضحى وكأنما ... في كل داجية نرى مصباحا

***

قل لابن هانىء لاذوت لك كرمة ... فقد الربيع هزارها الصداحا
قد كنت في أمس نزيل رحابها ... فنزلت أشرف ما أبلغ ساحا
ألقى وأسمع عبقريا ملهما ... طلق المحيا ماجداً مسماحا
يولي النفوس بشاشة وينيلها ... أدباً ويسقيها الوداد صراحا
أنست زماناً بالبيان وأهله ... حتى تبدل انسها أتراحا
وقفت بي الدنيا على جنباتها ... فرأيت حزناً واستمعت نواحا

وشَهِدَتْ ظِلَّ الموتِ فوقَ ظِلالها يَغْشَى الرُّبَى ويُجَلِّلُ الأَدواحا
وجَمَتْ وكانتْ بالطُّيورِ شَوادِياً تَستقبِلُ الإمساءَ والإصْباحا
وذَوَتْ أزاهِرُها ونُفِّرَ طَيْرُها يَنزو ويَقْطُر أدْمُعاً وجِراحا
يَبكي من الصَّدَرِ الوُرودَ لجَدْوَلٍ كَمْ عَبَّ من دفَّاقِهِ وامتاحا
لمَّا نُعيتَ لها تَزايلَ حُسْنُها وصَغا الرَّبيعُ بوجهِهِ وأشاحا
سِيَّانِ بعْدَكَ يابنَ هانئٍ دهرُها يَسري نَسيماً أم يَهُبُّ رِياحا

***

قُمْ وابْكِ للشِّعْرِ النَّبوغَ وقُل لَهُ أَمضَى زَمانُ النابغينَ وراحا؟
واهتِفْ بِصَومعةِ البيَّانِ فقدخَلا عهدُ الرِّسالةِ بالقريضِ وطاحا
ولَّى بِسِرِّ العَبْقَرِيَّةِ شاعرٌ اللهُ هيَّأَهُ لنا وأتاحا
لم تَسعدِ الفُصحَى بِمثلِ يَراعِهِ يوماً ولا لَقِيَ الخَيالُ جَناحا
شِعرٌ حوَى الدُّنيا ونَسَّقَ حُسْنَها صُوراً ومَثَّلها مُنًى وطِماحا
يَسْتَلْهِمُ الأكوانَ وحيَ جَمالِها حتّى لَيَنْطِقُ وحيُها إفْصاحا
ويُزيحُ عن ماضي العُصورِ سِتارَها فترَى بها الغادينَ والرُّوَّاحا
هوَ مِثلُ هذا الطيرِ في صَدَحاتِهِ والزَّهرِ لُطفاً والعَبيرِ نَفاحا
وأراهُ كالبَحرِ الخِضَمِّ عُبابُهُ يُعيي مَداهُ الخائضَ السَّبَّاحا
ويظُنُّهُ المَلاّحُ طوعَ شِراعِهِ فيرُدُّ عن غَمَراتِهِ المَلاَّحا
يُهْدي، اذا هدأ، الثرَى أصْدافَهُ واذا تَمَرَّدَ، دَرَّهُ اللمَّاحا
وأراهُ حينَ يرقُّ عاطرَ نَسْمَةٍ واذا قَسا فالعاصفَ المُجتاحا
شعرٌ يشفُّ عنْ الحياةِ وداعةً ويؤجُّ منها ثورةً وكِفاحا
ويُبينُ من غَضَبِ النُّفوسِ وصفوِها مثلَ الحياةِ كآبةً ومِراحا
ويفيضُ من نَبعِ القلوبِ فإنَّهُ ماءٌ، وآناً جامحاً لَفَّاحا
والشِّعرُ مِرآةُ الحياةِ ولمْ يزلْ يجلُو الرُّؤَى ويُصَوِّرُ الأشباحا
والشِّعرُ من أدبِ النُّفوسِ ولن ترَى من دُونِهِ هدْياً ولا إصلاحا
ولقدْ تذَوَّقتُ الحياةَ فلَمْ أجدْ كالشِّعرِ رِيًّا للنفوسِ وراحا

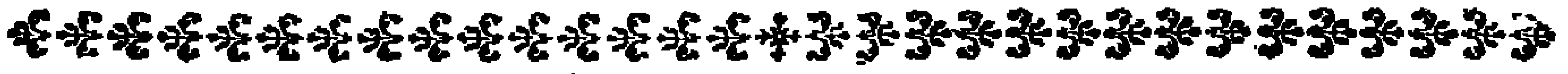
***

قلْ للكنانةِ عن رِمائكِ أقْصِري فلقدْ فقدْتِ الرَّاميَ النضَّاحا
صيَّادَ أسْرابِ الجَمالِ اذا دَنا جاءتْهُ ما عرَفتْ لديهِ جِماحا

يدني القصيَّ من الشَّوارد لفظُهُ ... ويروضُ منها النَّافرَ المراحا
من كلِّ معنىً بالروائع حافلٍ ... يُجلى كما تجلى الشُّموسُ صباحا
وقصيدةٍ كالرَّوض باكره الحيا ... فاهتزَّ ريحاناً ورفَّ أقاحا
منْ للطبيعة يستزيدُ جمالها ... غُرراً كآيات الكتاب وضاحا
ذهبَ الذي غنَّى خمائلَ روضها ... حتَّى مددنَ الى النسيمِ الرَّاحا
المرقصُ الزهراتِ فوقَ غصونِها ... والمُستخِفُّ عبيرَها الفوَّاحا
والمُسعِدُ الأيكاتِ منهُ بِمُلْهَمٍ ... كانتْ به الجنَّاتُ قبلُ شِحاحا
أوحَى لهُ المرحَ الوجودُ فصاغهُ ... شدْواً، وعلَّمهُ النُّواحَ فناحا
لمَّا جلا سِرَّ الحياةِ لقلبِهِ ... أفضى بأسرارِ القلوب وَباحا
سُبْحانَ من أهدى الخيالَ يراعهُ ... وهدى لهُ الإِبداعَ والإِسْجاحا
فتسمَّعوه فلمْ يزلْ من شِعرِهِ ... شادٍ يهُزُّ بسِحرِهِ الأرواحا

***

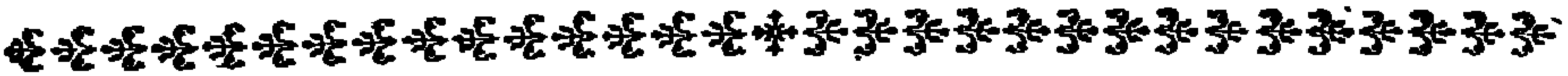
يا نازحاً عنَّا نزلتَ بعالَمٍ ... تلقى الأحبةَ فيهِ والنُّزَّاحا
فاحللْ بجنَّاتِ الخلودِ وروِّ من ... عَيْنِ النَّعيمِ فؤادكَ المُلتاحا
واملأ من الزَّهرِ المنوِّرِ والجنى ... كفَّيْكَ واطرحْ عِبْئَكَ الفدَّاحا
سترى الرَّسولَ على مُعطَّرِ روْضِها ... يُهدي إليكَ ببابها المِفتاحا
يسعى (بحسَّانٍ) إليكَ وأنَّما ... وضَحانِ من فجرِ النبُّوة لاحا
يختالُ في بُرْدِيَّةٍ من بُردَةٍ ... حاكَ القريضُ خُيوطَها أمداحا
يستافُ من ميلادهِ شوقيَّةً ... الله كانَ لمسكِها النفَّاحا
فاشرحْ هواكَ لهُ وبثَّ لواعِجاً ... كانتْ لهنَّ دموعكَ الشُّرَّاحا
أبلِغْ إلى (صبريٍ) التحيةَ والهوى ... عنَّا وحيِّ جبينَه الوضَّاحا
وامسحْ دموعكَ عن أسرَّةِ (حافظٍ) ... فلقد لقيتَ بقربِهِ الأفراحا
وتساقَ أقداحَ المسرَّةِ معْهما ... فلكمْ ملأتَ بدمعِكَ الأقداحا
واذكرْ على الأرضِ الشقيةِ رفقةً ... باتوا عليكَ يُقلِّبونَ الرَّاحا
في عالمٍ ما زالَ في غُلوائهِ ... ومُنىً على رثِّ الحطامِ تلاحى
أشرقْ بوجهكَ في غياهبِ ليلهِ ... يَخلعْ دجاهُ اذا جبينُكَ لاحا
وأضىءْ على شطِّ الحياةِ منارةً ... وأطلعْ بكلِّ دُجيَّةٍ مصباحا
ونمْ الغداةَ وحسبُ روحِكَ أنْ ترى ... من نورِ مجدِكَ هذه الأوضاحا



حول حافظ وشوقي

وأثرهما في احياء الشعر العربي

لاسماعيل مظهر



عاش حافظ وشوقي في عصر انتقال كثر فيه الكلام في الجديد والقديم ، وانتحى فيه النقد الادبي مناحي جديدة ، واتخذ معايير حديثة غير تلك التي عكف عليها ادباؤنا ، وسلك طرقاً متشعبة كانت نتاجاً للتوسع في المعرفة ولتأثير الاساليب العلمية الحديثة في النقد الادبي. وعلى كثر ما تكلمنا في القديم والحديث ، وفي النقد ، لم نستطع حتى اليوم ان نحدد العلاقة بينهما او ان نميز بين ما نعني بالحديث والقديم ، ولم نتمكن ، بعد من ان نضع لاصطلاح التجديد حدوداً محددة ومقاييس معينة نهتدي بها في ادبنا الجديد على ما يقولون . وأنت تقرأ في الادب القديم شعراً لم يشق له المجددون غباراً حتى اليوم ، كما تقرأ في الشعر الحديث قطعاً وقصائد يعاف القديم والحديث معاً ان تنسب الى الشعر ، بل هي بتراتيل المعابد اشبه منها بالشعر الذي يقتحم بنا ابواب الحياة كما يقول هيكل . لهذا ارجع الى اختيار قطعة من الشعر القديم في الوصف نتخذها اساساً للبحث الذي نريد ان نمضي فيه علّنا نخلص من ذلك الى نتيجة يحسن الركون اليها في تحديد معايير النقد وفي التفريق بين معقولي الحديث والقديم . وهي قطعة في وصف فيل قالها ابو الحسن الجوهري واليك هي ، ثم احكم أهي الى الحديث اقرب ام الى القديم : —

فيل كرضوى حين يلـ ... ـبس من رقاق الغيم بُردا
مثـل الغمامة ملـئت ... اكنافها برقاً ورعدا
رأس كقلة شاهق ... كسيت من الخيلاء جلدا
فتراه من فرط الدلا ... ل مصعراً للناس خداً
يزهى بخرطـوم كمثـ ... ـل الصولجان يرد ردّاً
يسطو بساريتي لجـ ... ـين يحطمان الصخر هدّاً
اذناه مروحتان اسـ ... ـندتا الى الفودين عقدا
عيناه غائرتان ضيـ ... ـقتا لجمع الضوء عمدا

فكٌّ كفوَّهة الخلـ ـيج يلوك طول الدهر حقدا
تلقاه من بُعدٍ فتحـ ـسبه غماماً قد تبدَّى
متناً كبنيان الخو رنق مائلاً في الدهر كدَّا
ذنباً كمثل السوط يضـ ـرب حوله ساقاً وزندا
يخطو على مثل أعمد ة الخباء اذا تصدَّى
او مثل اميال نضد ن من الصخور الصم نضدا
متملكاً فكأنهُ متطلباً ما لا يؤدَّى
متلفعاً بالكبرياء كأنهُ ملك مفدَّى
اذكى من الانسان حـ ـتى لو رأى خللاً لسدَّا

فقد تخيَّل بعض الادباء وان شئت فقل جلهم ، وكان تخيلهم خطأً ، ان كل قديم وكل ما ينسج على منوال القديم لا يمت الى نهضة الأدب الجديدة بسبب ولا يتصل معها بفكرة او اسلوب ، وان كل ما يخرج الأدب الحديث من الآثار لا يكون جديداً « ناهضاً » الا اذا تنكب طريق الأدب القديم وخالف اساليبه . وهذا في الواقع هو المحور الذي دار من حوله النقد في تصور القديم والحديث والحقيقة أن بين كل قديم وكل حديث اسباباً لا تقطع وعرى لا تفصم او تفضم عروة الأدب في مجموعهِ . وأنت ان اردت ان تقف على السبب الذي يرجع اليهِ ما يخرج الادب الجديد من آثار تبلغ نهاية الشخف حيناً وغاية ما يصل اليه التفريط في توخي الأساليب المنتقاة حيناً آخر ، فلا تذهب بعيداً واعرف ان السبب ينحصر في انك لم تدرس القديم دراسة وافية ولم تستوعب اساليبه العليا، ولم تقف على نواحيه الكثيرة وطرائقه ومعاييره اللغوية والأسلوبية . وكذلك اذا اردت ان تعرف السبب في اننا لا نستسيغ القديم بكليته فاعرف ان سبب ذلك هو اختلاف الاوضاع الاجتماعية وتشعب نواحي المعرفة والمخترعات والمكتشفات وتباين الذوق وترامي حدود التصور الى آفاق لم يبلغها القدماء . على ان الخطأ يأتي من ناحية واحدة هي اننا لا نتخذ من مجموع هذه الحالات مقياساً يقف عنده حكمنا على القديم والحديث . أما اذا حاولت ان تنكر هذه الحقائق فهذه قطعة قديمة نريد ان يبين لنا اديب ما فيها من ريحة القديم الذي يعافه الحديث . فاذا استطاع فنحن اول المؤمنين بأننا فيما نذهب اليهِ على خطإٍ واننا بعيدون عن الصواب

اما ما نريد ان نستطرد اليهِ ، ونتخذ فيهِ هذه القطعة شاهداً ، فتحديد أمرين احدهما فلسفي والآخر ادبي ، لهما اقوى الاواصر باعتبارات تقوم اليوم في الادب العصري. اما الاعتبار الاول فذو علاقة بمعايير النقد الادبي . فان اكثر الناقدين يتوخون النظر الى الكمال في نقد المؤلفات والآثار الادبية التي يتناولونها . وهم اذ يعجزون عن ان يجدوا لفكرة الكمال



رحلة الزمان

يمثل الزمان شيخ مجنح ممسك بمجذاف القارب — ثم امرأة تنظر الامام فهي تمثل الرجاء (المستقبل) ثم أخرى تضرب على آلة موسيقية تمثل الطرب (الحاضر) وثالثة مسندة رأسها بذراعها تستعيد الذكريات فهي تمثل الذاكرة (الماضي)

مقتطف دسمبر ١٩٣٢ | امام صفحة ٥٥١

معياراً صحيحاً ، ينظرون دائماً الى المثُل العليا في الشعر او النثر ويقيسون عليها الآثار التي ينتقدونها ، فيذهبون في الغلو او القسوة في النقد ابعد مذهب . على ان اتخاذ المثل العليا في المنتجات الادبية معياراً للنقد ، ان كان ضرورة عقلية تقسرنا عليها اذواقنا وتحملنا عليها مطالعاتنا ، الاّ ان الناقدين يجب ان لا يذهبوا في نقدهم الى الحد الاقصى من القياس على المثل العليا ، بل يجب أن يتخذوا معياراً اكثر من هذا تسامحاً واقرب الى التجاوز ، ليمكن ان ينتج النقد نتاجاً وأن يصفو من كثير مما ينتابهُ من مظاهر التحامل والمفاضلة التي كثيراً ما يلجأ النقاد اليها عجزاً وجرياً وراء اساليب النقد القديمة . اما ذلك المعيار فينحصر في أن يكون النقد مقصوراً على قياس النسبة بين الآثار المنقودة وبين المثُل العليا . فاذا توخى النقاد ذلك استقام النقد وخلص من كثير من المغالاة التي تلابس النقد في العصر الحاضر . وهذا يذكرني بفكرة بثها الاديب « مكس نورداو » في احد مؤلفاتهِ اذ قضى بانَّ ادراك الحقائق نسبي ، وان هذه القاعدة عامة تنصرف على كل ضروب المعرفة الانسانية من علم وأدب وفن . ومثّل على ذلك بعدد من المكفوفين اخذوا يصفون فيلاً ، فادرك كل منهم من الفيل بقدر ما احسَّ من الجزء الذي وضع يدهُ عليهِ . فالذي امسك برأسه قال انهُ « كقلة شاهق » والذي قبض على خرطومه قال انهُ « كمثل الصولجان » والذي لمس اذنهُ قال انهُ « كمروحة اسندت الى الفودين عقدا » ومن وضع يده في فمه قال إنهُ « كفوّهة الخليج » ومن امسك بذنبهِ قال انهُ « كمثل السوط يضرب حوله ساقاً وزنداً » ومن احسَّ قوائمه قال إنهُ « كاعمدة الخباء » . وهكذا فالكل مصيبون ولكن بقدر ما وقع تحت حسهم منهُ ، ولكن الحقيقة خفيت عليهم اجمعين . وهذا مثل النقاد في كل ضروب المعرفة الانسانية . فاذا راعينا ذلك خلصنا بالنقد الى الناحية التي تنقذنا من كثير من فوضى الادب في هذه الايام

اما الاعتبار الثاني فيتعلق بفكرة التجديد وتحديد العلاقة بين القديم والحديث والمعيار الذي يجب ان يقوم في دوائر الادب العليا ليكون اساساً لادراك العلاقة بينهما والتفريق بين هذين المعقولين . ولا نريد ان نذهب في هذا الامر مذهباً غير مقرر ، بل نعود الى مبدإ قرره في انجلترا الاستاذ « جلبرت مَري » G. Murray استاذ اللغة اليونانية في جامعة اكسفورد في كتابهِ « نشوء شعر الملاحم عند اليونان » The Rise of the Greek Epic ونكتفي بتلخيص ما ذهب اليهِ لعلنا بعد النقد نقبله كتصور يمكن ان يحدد العلاقة الادبية التي تقوم بين القديم والحديث : قال الاستاذ «مري» في ص ٢٣ — ٢٨ من طبعة اكسفورد سنة ١١١ ما ملخصهُ :

يقرر الاستاذ « مري » أن اوربا وقعت تحت آصار الآداب القديمة حيناً من الدهر . وان الاساليب الاغريقيـة قد بلغت حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، كما ان الاساليب الرومانية قد بلغت خلال الفترة التي تقدمت ميلاد المسيح والفترة التي تلت ميلاده ، اقصى مبلغ من كمال الوضع .

وانتقاء السياق وسيولة المعاني وسبك القوالب الكلامية في الشعر والنثر ، وأن هذه الاساليب قد اتخذت مثلاً عليا حاول ان ينسج عليها الكتاب والشعراء ، كما اتخذها النقاد اساساً يقيسون عليه اقدار الكتاب والشعراء فكان الدنو من هذه الاساليب او البعد عنها ، اصبح المعيار الاصيل للنقد الادبي

ثم يقول إن اغريق العهد الاول ورومان العهد الثاني ، قد استطاعوا ان يخرجوا من صور الادب ما لم يستطع اخلافهم خلال الف كاملة من السنين ، وان ادباء عصر الانحطاط كانوا يشعرون بهذه الحقيقة شعوراً كاملاً . ويعتقد الاستاذ مري ان هذه الحقيقة فيما يختص بالادب بيّنة لا تحتاج الى دليل ، ولذلك ذهب يدلّل عليها من فروع المعرفة الاخرى كالطب مثلاً الذي ظل حتى عصر النهضة الاوروبية واقفاً عند الحدود التي وصل اليها جالينوس وابقراط ومضى في تدليله على هذه الحقيقة حتى وصل الى التاريخ ، فقضى بأن اي مؤرخ يحاول الآن ان يتخذ اسلوب ثوقـديدس « Thucydides » اليوناني اماماً له في تدوين التاريخ او شرح حوادثه ، وان كل قصصي يحاول ان يحذو حذو «اسخولس» انما يشعر وشيكاً بانهُ عاجز عن مجاراة الاساليب القديمة ، لانها لدى الحقيقة ليست مثلاً تحتذى في الاسلوب الادبي ، من حيث الجمال أو السداد . غير اننا إذا أردنا ان نفهم ما هو «الاسلوب» وآمنّا بان الاسلوب هو «الشكل» الذي يعبر عنه بالقالب الكلامي ، وان الشكل يتضمن «الروح» لان لكل اسلوب روحاً خاصة تستمد منه روح الكاتب ، استطعنا بعد هذا ان نعرف الحقيقة وان نفقه تصور القديم فقهاً كاملاً . فان ما نعني بالقديم ينحصر في عدد من المؤلفات تضمنت من الحيوية ما جعل الناس يستسيغونها ويشعرون بنفع من قراءتها ، في حين ان غيرها من الكتب التي عاصرتها قد عجزت عن ان تبعث في الناس نفس هذا الشعور ، وفقدت كل قيمتها الادبية أو العلمية أو الفلسفية . ينبغي ان يكون في الكتاب الذي يحفظ قيمته الفي سنة والانسانية على اختلاف شعوبها مقبلة على قراءته والانتفاع به ولا تزال تطلب منهُ المزيد ، سرٌّ غير معروف ولا مدرك . والانسان بطبعهِ يميل إلى استجلاء هذا السر أو الوقوف على حقيقة الباعث الذي يحفظ لذلك المؤلف قيمته فيجعلها ثابتة على الزمان . وهذا في الواقع هو السبب الذي يحملنا على ان ندرس القديم في الادب والفلسفة والفنون . اما السبب في بقاء هذه المؤلفات على الدهر ، فيرجع إلى ان الشكل أو القالب ، ثم الروح التي يحملها الاسلوب ، تعيشان اكثر مما تعيش المادة . ومحصل هذا ان هنالك صفات تجعل الآثار الادبية تعيش ولا تموت . والذي يعيش ندعوه نحن قديماً (كلاسيك) .

هذا ملخص رأي ذلك الاديب الكبير . والخطأ الذي نقع فيهِ انما ينحصر في اننا لم نميز بين القديم الخالد والقديم الفاني . ولم نفرّق بين القديم ذا الروح والقديم الميت . بل أطلقنا القديم اطلاقاً تناول كل ما وصل الينا عن القدماء ، وحاولنا ان نفلِتَ بأساليبنا منه جميعاً من غير تمييز بين مراتب القديم ومن غير ان نكوّن تصوراً يحدد اصطلاح القديم تحديداً يهدينا

السبيل السوي في الانتاج أو النقد. والحقيقة اننا يجب ان نعتقد ان القديم روح تبعث في الجديد حياة تكمن في تضاعيفه، إنما يسبغ عليها الاسلوب الجديد ثوباً جديداً فيظهر هذا وتختفي تلك. فاذا اضفنا إلى هذا ما ذهبنا اليه من قبل انّ للادب حياة تنظم الطبيعة حلقاتها في سلسلة متواصلة على مرّ العصور، لم نجد بداً من ان نقول بان القديم والحديث اصطلاحان يربطان بين طرفي حقيقة واحدة، وان حاجة الادب اليهما ضرورة لا يستطيع ان يتخلى عنها طرفا الادب، ونعني بهم دعاة القديم ودعاة الجديد

***

تعاصر حافظ وشوقي في هذا العصر، الذي لا يخرج عن انه عصر انتقال وتطور. عصر لم تتميز فيه المعقولات الادبية، ولم تحدد فيه التصورات ولا الاصطلاحات، ولم يتخذ فيه النقد معايير قيمة يصح السكون اليها في تقدير الآثار الادبية أو الشخصيات. لهذا نجد ان من افدح الظلم ان نمضي في نقدهما من غير ان نقدر الاحوال التي احاطت بهما وجعلتهما يتراوحان بين كفتي ميزان تشيلان أو ترجحان على مقتضى ظروف لم تمكنهما يوماً من ان يكونا فيها حكمين أو بالاحرى زعيمين يتحملان مسؤولية الزعامة بما يترتب عليها أو ينتج عنها من الآثار. ولقد ظلم حافظ، كما ظلم شوقي، حيّين، ولسوف يظلمان ميتين، بما خلعنا عليهما من القاب، لو علما الحقيقة أو علما ما سوف يترتب عليها لنبذاها ولرضيا ان يعيشا غير متوجين بها. وما قولنا شاعر النيل في احدهما، وأمير الشعراء في الثاني، الا مجرد تفريط في البذل وافراط في الغلو، سوف يحمّلانهما ما لا يجب ان يحملا من مسؤوليات النقد الذي لم يخلص شيء في هذا الوجود من سلطانه الثابت. وأول ما يخطر على ذهننا ازاء ذلك سؤال طبيعي. فاذا كان شاعر النيل وامير الشعراء، قد عاشا في طور انتقال وتطور، فاي اثر تركا في حركة الانتقال وأي غذاء ذهني أو مذهبي غذيا به حركة التطور؟

لقد كانا في الوطنية كلاً على السياسيين أو الوطنيين. كان شاعر النيل كلاً على مصطفى كامل وكان أمير الشعراء كلاً على الخديو. وتراوح كل منهما بين الكفتين على غير أساس من الفكرة أو الايمان أو قيادة ناحية بعينها من نواحي السياسة أو الوطنية بثها في شعره. بل ان كلّ ما اخرجا في السياسة من الآثار لم يتعدّ ان يكون نواحاً على الماضي أو بكاءً على الحاضر أو مثلاً يضرب للعظة. اما ان يكون لهما اثر في تكوين الفكرة السياسية أو زعامة ناحية منها، فتلك دعوى لا نظن ان ناقداً يستطيع ان يدعيها لاحدهما أو ان احدهما كان يستطيع ان يدعيها لنفسه

في العشرين السنة الاخيرة كان شوقي وحافظ في أوجهما الاعلى. وفي العشرين السنة الاخيرة شهدت مصر أول بوادر الاتصال بحرية الفكر في العلم والفلسفة. فيها خرجت الصحافة على تقاليدها القديمة وخرج المفكرون على الاساليب التي ورثوها عن القدماء. فيها ترجمت كتب علمية كان مجرد ذكر اسمها أو اسم مؤلفيها تجديفاً وكفراً، وفيها هوجمت التقاليد العتيقة

بعنفٍ وشدة في بعض النواحي ، فلم يتحرك الشاعران ، وكأنهما في غور من كهف الزمان ، بل لم يحرك حافظ الاَّ اسم ارسطوطاليس عند ما نشر الاستاذ لطفي بك السيد ترجمة كتابه الاخلاق ، وارسطوطاليس كما نعلم جميعاً كان سنادة الكنائس والشيع في نصرانية العصور الوسطى ، وسنادة اصحاب المذاهب في صدر الاسلام، وعلى تتالي عصور عديدة . بل لا نذهب بعيداً اذا قلنا ان حافظاً لم يحركه ارسطوطاليس ولا كتابه في الاخلاق ، بل حركته علاقة الصداقة والود ورابطة الحزبية مع مترجم الكتاب . وان هذا لأدخل في التدليل على ان شاعر النيل وأمير الشعراء ، كلاهما كان بعيداً عن ان يعدَّ حركة التحرير الفكري ببيت واحد من الشعر ، وكذلك موقف شوقي ازاء ارسطوطاليس وترجمته لا يختلف كثيراً عن موقف حافظ

وكانت امامهما الطبيعة عطرة فياحة ، عبقة وضاحة . كان امامهما الانسان بما فيه من اسرار ومخايل وحقائق، فلا نظرا في الطبيعة ولا شديا بالانسان، فكأنهما قد انكرا في شعرهما الحياة : حياة الطبيعة ، وحياة ابنها الثائر . وكانت امامهما مشكلات مصر الاجتماعية التي تطورت بتطور الفكر والاتصال بالمدنية الغربية الحديثة . كانت امامهما مشكلة المرأة وحرية التعليم ونظام الطبقات وعلى رأسها جميعاً مشكلة الفلاح الاجتماعية . أكل التطفل الاجتماعي في مصر عظم الفلاح ولحمه ومصَّ دمه الزكيَّ، وحطت عليه الامراض بأنواعها وانتابته النوائب والكوارث وناء عليه الفقر وعملت فيه الخصاصة ، ولا يزال حتى اليوم يعاني من آثار ذلك الخراب والدمار والجوع . كل هذا والشاعران في شغل بالرثاء والنواح على الكثيرين ممن يحتملون اكبر مسؤولية فيما وصلت اليه حالة الفلاح من الانحطاط في هذا العصر

وكان امامهما بعد كل ذلك مختلف ابواب الحياة مادية وعقلية . فهل ارضيا الفن ام نصرا الدعوة الى العلم الصرف أم اخذا بيد الفلسفة ؟ ليس شيء من هذا بواقع في حياة شاعرينا العظيمين . وان دعوى تحاول نقض هذا لا تحتمل النقد ساعة واحدة

اذن فماذا كان الاثر الذي تركاه في حياة مصر والشرق ؟ كانا الجسر الذي عبر عليه الادب من القدماء الى ابناء الزمان الحاضر، احييا سنة الاسلاف وسارا بها الى الاخلاف في صورة لا تختلف كثيراً عن الصورة التي طبع بها اسلافنا الشعر، ولا تقرب قيد انملة من مثاليات الاعصر الحديثة

ولقد كان فرَقُهما من التعرض للشؤون الاجتماعية التي لها صلة بالدين عظيماً حتى انك لن تقع في شعرهما على بادرة تدل على تعبير عن دعوة لاصلاح حال الزوجية والقضاء على تعدد الزوجات او زواج الاطفال او نظام الحالات الشخصية التي ظل يحتكم فيها شرع الأئمة حتى عصرنا هذا الاَّ قليلاً . هذا في حين ان الشعر أداة قوية وفأس باترة تقطع في اصول الاشياء حسنة وقبيحة ، بقدر ما تقطع كل ادوات الادب الاخرى مجتمعة

هذا في النواحي الاجتماعية . فهل كان لهما أثر ثابت في تغيير أساليب الشعر ومناهجه القديمة

أو صبهِ في قوالب جديدة لم يألفها القدماء ؟ وهل نهضا بالشعر خلاً وثاقه من معاييره العتيقة ؟

***

للشعر القديم اساليبه ومعاييره ومثالياته . كما ان له حدوده التي لم يخرج عنها أو يكون قد افلت من ذلك الاطار الذي وضعهُ القدماء للشعر ليكون شعراً ذا قيمة ووزن قياساً على ما تكوَّن في اذهانهم من تصورات هي بحكم الحالات الاجتماعية وضيق افق المعرفة وعدم تحيز اسلوب الفكر الحر ، غاية ما استطاع القدماء أن يكوّنوا من معايير الشعر وغيره من مختلف المعلومات والفنون . ولقد تكوَّنت شاعرية حافظ وشوقي من الاكباب على نماذج القدماء ، فقد نهلا من اساليب شعراء العصر العباسي ومن اساليب شعراء الاندلس قدراً كبيراً صبغ شعرهما بصبغة قديمة تسمع فيها رنات شعرية نعثر بها في دواوين شعراء الصدر الاول من المخضرمين وفخامة الالفاظ التي امتاز بها كثير منهم ، ممزوجة بكثير من رقة الاندلسيين ، حتى في الرثاء وهو يملأ نصف ديوان حافظ وثلث ديوان شوقي ؛ فانك تجدهما قد اكبَّا على الاسلوب القديم وذكر صفات الميت والطعن في خصومهِ او خصوم الشاعر ، وعلى الجملة تستطيع ان تقول انهما لم يفلتا من القيود التي قيد بها القدماء الشعر . اما اكبر ميزة امتاز بها الشعر القديم فارتباطهُ بالارضيات ، سواء في الوصف ام في الخيال ، ولم يتعال قط الى المثل الآلهية العليا ، التي امتاز بها كثير من الشعراء المحدثين في الشرق والغرب . ولقد عكف القدماء على الاكثار من ذكر الحسيات ، سواء في ذلك الشعر الذي ندعوه جاهليًّا ، ام الشعر الذي ندعوه شعر ما بعد الاسلام ، فان اروع ما في معلقة امرىء القيس او الاعشى خلاعة شنيعة ؛ واكثر ما في شعر زهير حِكَم كالتي تجري على ألسنة الوفود اذا مثلت امام الملوك صيغت شعراً ، وكلها ممسوسة بالحسيات والشهوات ، وعلى الجملة بكل ما هو ارضيٌّ دون ما هو سماوي . اذن نقضي بان شاعرينا قد عكفا على اساليب القدماء صياغة وموضوعاً ومكانتهما تنحصر في انهما احييا الشعر في عصر اتخذتهما فيهِ الطبيعة حلقتين من حلقاتها الحية لتعبر من فوقها جسر الزمان وتنسل من طريقهما بين الاسلاف والاخلاف . لم يحدثا من انقلاب جديد لا في الاسلوب ولا في الفكر ؛ ولم يحاولا ان يدرسا الحالات القائمة من حولهما لا في الناحية الاجتماعية ولا في الناحية العلمية او الفلسفية . اما ما حاولا في هذه الناحية فلا يخرج عن انهُ خرج في شعرهما مكدوداً مهزولاً ، شأن من يرى الاشباح عن بعد كبير ، فحاول ان يصفها ويميز تفاصيلها ، ولكنهُ لا يصف الاَّ اشباحاً تتخايل له في نهاية الافق العريض

***

ذهبت من قبل في الشعر مذهباً مؤداه ان العرب عرَّفوا الشعر بانهُ الكلام الموزون المقفَّى اي الكلام الذي يجري على بحر من بحور الشعر الموضوعة ؛ وينتهي بقافية واحدة ، وعندهم

ان كل ما يجري هذا المجرى من الكلام شعر . والحقيقة ان هذا التعريف الذي ينصرف على اكثر ما قاله العرب من الكلام الموزون المقفّى أبعد الاشياء عن تعريف الشعر. فقد يكون كلام موزون مقفى وبينه وبين الشعر بعد ما بين الموت والحياة من الفروق ، وقد يكون كلام منثور يمتّ الى الشعر بأقرب الاسباب . اذن فالوزن والقافية لا يكوّنان الشعر ، بل على الضد من ذلك يستعين الشعر بالوزن والقافية لتكون له تلك الانغام الموسيقية التي تميز الشعر عن بقية ضروب الكلام . واذن تكون الشاعرية اصلٌ اداتها الوزن والقافية ، على الضد مما ذهب اليه العرب من القول ، بأن الوزن والقافية اصل اداتهما الشاعرية . واذا جارينا العرب على تعريفهم فقد وسعنا حدود الشعر ، ولكن قتلنا الشاعرية . واذن وجب ان نضع تعريفاً للشعر هو عندي ما قال بهِ الاستاذ «كرتهوب» استاذ الشعر في اكسفورد ومن كبار الادباء والمؤلفين ، وهو ان «الشعر عبارة عن الهام يصدر عن شاعر موهوب . اما مصدر ذلك الالهام فأمر يعدو حدود البحث والانتقاد » . وانما تزيد الشاعرية او تنقص بمقياس حده الاوسط مقدرة الناقد على تتبع مصدر الالهام في الشاعر ، فاذا استطاع النقد ان يصل الى عمق يعرف عنده مصدر الالهام ، فالشاعرية ناقصة غير كاملة ، واذا عجز النقد عن ان يصل اليه ، فالشاعرية قريبة من الكمال . وانت تنظر في ديوان من دواوين الشعر فيستوقفك بيت او ابيات انت تشعر بأن الشاعر نفسه لم يدر كيف صب معناه في ذلك القالب من الكلم واللغة ، وتشعر بأن المعنى والتصوير من صنع الالهام لا من قوة الصناعة . من صنع الطبع لا من التطبع . وانما تقاس شاعرية الشاعر بقدر ما في شعره من اثر هذا الالهام . وعلى هذا لا يبعد ان يكون الشعر عبارة عن تعبير عن الوجدانيات بالماديات من طريق الالهام . لا من طريق الصناعة ولا التكلف . ولا شك عندي في ان هذا المذهب ينقص من مجموع ما يعتبر شعراً في كل لغات العالم ، لا في اللغة العربية وحدها . ونحن لو اردنا ان نستخلص الشعر الحقيقي من دواوين الشعراء ، لقلَّ الشعر قلةً لا نتصورها ، ولكن نكون قد فزنا بالشعر الذي يؤثر في النفوس ويقوي مشاعرها ويحفز عزيمتها ويهذبها ويزكيها ويخلق فيها الاخيلة الجديدة ويحرك القلوب ، ونكون قد خرجنا من الشعر بأثرة التهذيبي ونكون قد فصلنا بين الشعر الوجداني الصحيح والنظم ، وفرقنا بين معقولين من معقولات الادب ، لكل منهما مركزه وخطره من مستحدثات العقل الانساني : ولن تقع في العالم كله على ديوان يزيد فيه الشعر الصحيح على الشعر المنظوم اي يزيد فيهِ الالهام على الصناعة . وشاعرانا لا يعدوان هذه القاعدة . ولكن قد يتفاضلان في شيء واحد . فان ما في شعر شوقي من الوجدانيات يرجح ما في شعر حافظ وما في شعر حافظ من جزالة لفظ وقوة سبك يزيد ولا شبهة على ما في شعر شوقي

وانت لا تنكر ان الوجدان اكثر ما ينطلق مع الرثاء . واكثر ما يأتي بهِ شاعرانا ،

لا ينطلق من الوجدان وانما ينطلق من الارض السابعة . فرثية شوقي الاولى في مصطفى كامل هي بذاتها قصيدته التي سماها شهيد الحق، مع اعتبار فوارق الزمان والظروف. واليك نتفاً منها

إلام الخلف بينكمو إلاما   وهذي الضجة الكبرى علاما ؟
وفيم يكيد بعضكم لبعض   وتبدون العداوة والخصاما
واين الفوز ؟ لا مصر استقرّت   على حالٍ ، ولا السودان داما ؟
واين ذهبتمو بالحق . لما   ركبتم في قضيته الظلاما
لقد صارت لكم حكماً وغنماً   وكان شعارها الموت الزؤاما

الى ان يقول: شهيد الحق قم تره يتيماً   بارض ضُيّعت فيها اليتامى
اقام على السّفاه بها غريباً   ومرّ على القلوب فما اقاما
سقمت فلم تبت نفسي بخير   كأن مهجة الوطن السقاما
ولم ارَ مثل. نعشك اذ تهادى   فغطّى الارض وانتظم الاناما

وتجري القصيدة كلها هذا المجرى . وعندي ان هذا الرثاء نظم لا يخرج عن انهُ كلام محبوس في قوافٍ وأوزان . وإذا أردت ان ندلك على هذا فاقرأ مرثية شاعرنا علي محمود طه في فوزي المعلوف لترى الفارق بين شعر الصناعة وشعر الوجدان :

رفّت عليهِ مورقات الغصون   وحفّهُ العشب بنواره
ذلك قبر لم يشده المنون   بل شاده الشعر بآثاره
بناه من لبنات الفنون   وزانهُ المجد باحجاره
التي بهِ الشاعر عبء الشجون   واودع القلب بامراره (١)

قابل الآن بين الارض السابعة التي تخرج منها مرثية شوقي والسماء السابعة التي يهبط منها خيال المرثية الثانية . ان في الاولى نظماً وصناعة ، اما في الثانية ففيها الوجدان والقلب . في الاولى الحضيض وفي الثانية العلاء. وان كان في هذا دليل على صحة ما نذهب اليهِ من معايير الشعر ونقده، ففيهِ دلالة اخرى على ان الشعر العربي قد ولد ميلاداً جديداً . اخذ يخاطب السماء بعد ان كان يخاطب الارض، ورفع رأسه إلى قمة العلاء، بعد ان كان مطأطأ الرأس الى الحضيض، ولا يكاد يرى ما تحت قدميهِ

في الاولى يخاطب شوقي الجماهير والسياسيين والملوك . وفي الثانية يخاطب الشاعر الشعر وآلهته والموت وسلطانه والفن وعظمته وشجون القلب وجارف الدمع وسياله :

« ودهر على العالم دارت رحاه   فلم تدع رسماً لاطلاله »

تستطيع أن تصيغ كل ما في القصيدة الاولى نثراً فلا يخرج عن كلام الجرائد الذي تقرأه كل يوم ولا تشعر بانك تجهد نفسك في الصياغة ولا في اخراج المعنى . اما اذا حاولت ذلك

(١) نشرت هذه القصيدة في مقتطف نوفمبر ١٩٣٢

في المرثية الثانية ، فانت مكدود الوجدان ثائر النفس ، تختلف على روحك الآثار وتلابسك حالات لست تدريها . وهذا هو الشعر ، وما دونه النظم والصناعة

تتكوّن صناعة النظم من عناصر يمكنك ان تحصيها ، وفي مقدورك ان تحدّدها. تتكوّن من الاوزان والقوافي والموسيقى واللفظ والمعنى وروح الشعر. اما «الشعر» فممَّ يتكون؟ انما يتخذ الشعر هذه العناصر أدوات يستعين بها على أن يبرز مصوغاً في قوالب هي الصناعة الشعرية اما الشعر فليس من هذه القوالب في شيء . أنهُ « جوهر » عرضهُ الصناعة ، وأنت اينما بحثت عن الجوهر لتدركه بحواسك فانك عاجز ما لم تستعن بوجدانك وروحك ، لا بحسك وحده. فاذا وقعت على الشعر الصحيح رأيت انهُ ليس الوزن ولا القافية ولا اللفظ ولا المعنى ولا الموسيقى ، انما هو شيء لا غير هذه جميعاً . مثلك لو أخذت قطعة من المادة بين يديك وحاولت على قول القدماء ان تميز فيها بين الجوهر والاعراض. فليس الجوهر هو الثقل ولا اللون ولا الطول ولا العرض ولا الصورة ولا أي شيء مما يجري مجرى الاعراض المحمولة في الجواهر. اما الجوهر فاين هو؟ هو موجود ادراكاً ، لان الاعراض محمولة فيهِ . امَّا وجوده حسًّا، فذلك ما ليس في مستطاعنا ان نصل اليهِ. اما اذا ادركت هذا ، فانت مفرق اذن بين «الشعر» ، وبين صناعة النظم.

***

طوى الشعر العربي صفحته مرتين ، ونشرها مرتين خلال تاريخ اللغة العربية . بظهور الاسلام طوى الشعر العربي صفحتهُ الجاهلية ونشر صفحتهُ الاسلامية الاولى، ثم طوى صفحتهُ هذه بسقوط الدولة العربية عن عرش الخلافة وظلت مطوية حتى هذا العصر الذي قدر لحافظ وشوقي ان يكونا الرائدين اللذين يفتحانها مرة أخرى. على ان هذا الحكم يظهر جائراً اذا لم نبين عما نقصد من ان حافظاً وشوقي كانا رائدي الشعر الذي يفتحان صفحته بعد ان طويت هذه القرون الطوال

بعد ان سقطت الاندلس وخرجت من يد العرب ، طغى على الشعر العربي روحان متناقضان احداها دنيوية وأخرى أخروية . طغت على فئة من الشعراء روح الاستجداء بالشعر يتخذونه وسيلة لقضاء الحاجات الدنيوية ، وعكف اهل الاسلام على الفقه وعلى العلوم الاسلامية يتخذونها سلوى عن خروج الحكم من ايديهم وسقوط دولتهم . وشملت فئة اخرى روح التصوف فكان منهم شعراء غلب عليهم التصوف وروح التفقه في الدين من طريق غيبي ، فكانوا يتخذون الشعر طريقاً الى بث روحهم والى الغاز الشعر ليتوجهوا بهِ الى الطريق الاعلى ، ولكن في قوالب دنيوية ، ومثلهم ابن الفارض، لاني لا اذكر من اهل الباطن وغالبهم عالج الشعر، ليكون وسيلة لتأدية رسالته من فاقه من حيث الدنو من روح الشعر بقدر ما قرب اترابه من روح التفقه . اضف الى هذا اثر العجمة الذي اذاعه الخارجون عن السليقة العربية في ابواب الادب العربي ، وزد الى هذا وذاك اغراض السياسة عليها اللعنة ، فان السياسة خلال كل العصور ما

أبرزت من اثر ثابت اللهمَّ الاّ إفساد ما أنبتت روح المجتمع من الامجاد ، وما اشادت روح المجتمع الانساني من شيء الاّ وكان طعمة لمفاسد السياسة. واذكر بجانب كل هذا نظام القطائع الذي وقعت تحت عبئه اكثر ممالك الاسلام ، بما فيهِ من روح الاستبداد والاستعباد واحتكام الجهل ذي القوة ، بالعلم ذي الضعف والاستكانة ، وطلب العالم والاديب والفيلسوف رزقه من افراد جهلاء وان كانوا امراء ، ومن جماعات اشد من هؤلاء جهلاً ، و

تلك المصيبة انست ما تقدمها وماالها مع طول الدهر نسيان

ولقد ارخى ذلك الليل البهيم سدوله على جوانب العالم العربي من العراق الى مراكش ومن شمال سورية الى مصر ، وعصفت بالعروبة الروح المغولية فأتت على كل ما فيهِ من صور الادب ، ولم تترك فيهِ قائماً ولا صعيداً ، ولم يفلت من اثر تخريبها الاّ بضعة الآثار التي نجدها اليوم بين ايدينا من مخلفات العرب والمستعربين ، تلك المخلفات التي نجت من ذلك السد العظيم الذي اقامهُ هولاكو على نهر دجلة بمجلدات المكتبة العربية في بغداد . واي زمان استعجم فيهِ أهل البربر وسوريا كرهاً في الروح المغولية ، وانت اليوم تشعر في كثير من مجامع سوريا انك في قطعة من فرنسا ، وانك في جزائر واق الواق اذا هبطت تونس والجزائر او مراكش ، وكنت تشعر وانت في مصر انك في حلقة اذكار عاشت فيها كل التقاليد الدخيلة على الاسلام والعروبة ، ولم يبق من اسس المجد الذي اقامته الدولات العربية إلا كتّاب الدواوين محبوسين في اقفاص من استبداد الامراء وارادتهم ، مكرهين على ان يعيشوا بعيدين عن التأثير في اهل زمانهم ، او ان يحيوا من الادب العربي ما دارت عليه رحى المغول في كل انحاء العالم العربي فتركته خرائب واطلالاً

وعجز القدر عن ان يضيف إلى تلك السلسلة التي تصل دائماً بين ماضي الانسانية وحاضرها حلقات جديدة من ابناء آدم وحواء قروناً ، استطاع بعدها ان يضيف اليها حلقتين هما حافظ وشوقي ، فوصل بهما بين ماضي الادب العربي وحاضره ، واحيا بهما روح العروبة الصحيحة بعد ان عدت تلك العاديات عليها . وفي هذا يتكوَّن كل ما يمكن ان نعزو اليهما من عظمة خالدة

اما الموازنة بينهما فلا نستطيع ان نقول فيها الاَّ ان كلاًّ منهما يمتاز بناحية خاصة ، وان لشوقي المنزلة الاولى على كل حال . ولو اننا أردنا ان نستطرد إلى نقد شعرهما اذن لضاقت المقتطف عن ان تسع ما نكتب ، وانا لنبقي على ذلك لفرص أُخرى عسى ان تتاح لنا

ولقد اختتم الشعر العربي بموت الشاعرين العظيمين عهداً وفتح عهداً ، ولا اغالي اذا قلت ان الشعر العربي سوف يفوق فيهِ كل الصور التي تتالت عليهِ منذ فجر التاريخ الى اليوم . سيغزو الشعر العربي نواحي الطبيعة وابواب الحياة ، ويؤثر في المجتمع ذلك التأثير الثابت الذي لن يحدثه الاَّ الشعر ، غير مشوب بأرجاس الذات والتهالك على الارضيات

حافظ واللغة العربية

للشيخ عبد القادر المغربي[1]

الفجيعة في حافظ هي فجيعة اللغة العربية فيه ولم ينشأ المجمع العلمي الا لخدمة هذه اللغة. والحرص على ارضائها : فاذا بكت اللغة بكى المجمع . واذا صاحت اللغة : واثكلاه واوحيداه صاح المجمع صياحها : واثكلاه واوحيداه ! وهذه لغة الضاد في موت (حافظ) اقامت مأتماً عاماً شمل بلاد العرب كلها : من طنجة الى السليمانية : تبكي في مأتمها هذا حافظاً وتندبه

«لبنان[2] يبكيه وتبكي الضاد من حلب الى الفيحا الى صنعاء»

وان اجتماعنا هذا صورة مصغرة للمأتم الكبير الذي اقامته اللغة لتأبين حافظ. وأقوالنا في هذه الحفلة انما هي صدى ندبها وعويلها :

« لقد[3] رزئت امُّ اللغات وحيدها فان لم تكنه فالأب البرَّ والجدَّا »

« مشت تتلوّى خلف نعشك كلما دعا باسمها الداعي اجدّ لها وجدا »

« فلما بلغتَ القبر خرّت لوجهها تضج وتشكو من تباريحها الجهدا »

حافظ ايها السادة هو الشاعرُ الشاعر . وهو فوق ذلك لغويٌّ وأخباري

أما كونهُ شاعراً فأمر لايجهله احد . ومن يجهل ان «حافظاً» كان اذا قال شعراً لا يلبث أن تتناقله الافواه . وتتلمظ بحلاوته الشفاه ؟ . شعرُ حافظ يمتزج بالعاطفة فيولد فيها رقة الشعور . ويمتزج بالنفس فيولد فيها ذوق اللغة . ويمتزج باللسان فيغرس فيه ملكة الفصاحة

مدارسة كتب الأدب . واستظهار الفصيح من نوادر اللغة، لايمنح النفسَ واللسان ملكة الفصاحة بقدر ما يمنحها شعرٌ كشعر حافظ : نقيُّ اللفظ منسجمُ الأسلوب مشرق الديباجة يعبر عن خوالج النفس الوطنية الثائرة فيحفزها نحو مطامحها العظمى . وينير امامها الطريق الى مثلها الاعلى . شعر حافظ كالمصباح يمشي نورهُ بين ايدي ابناء امتهِ . فيهديهم الطريق . لا بعيداً عنهم يمشي وحده . ويتركهم في ظلمات لايبصرون . شعرٌ مثل شعر «حافظ» يحيي لغتنا ويحقق قوميتنا ويثبت اقدامنا في اوطاننا .كان (حافظ) رحمهُ الله يقول الشعر لخدمة أمته. لا لخدمة شهرته . وإن فتىً عربيًّا او فتاة عربية تحفظ من شعر حافظ قصيدة (غادة اليابان) او قصيدة

« خرج الغواني يحتجبـــن وبت ارقب جمعهنه »

فتستفيد منهما ملكةً في اللغة الفصحى. وحميةً في حب الوطن. اكثر من مئة قصيدة غامضة المعنى.

(١) من محاضرته في حفلة تأبين حافظ في المجمع العلمي العربي بدمشق وقد نشرت في مجلته.
(٢) من مرثية احمد شوقي في حافظ (٣) من مرثية احمد محرم في حافظ

اعجمية الأسلوب . ولولا اني اتكلم عن (حافظ) من ناحيته اللغوية لسردتُ لكم شواهد تؤيد ماذكرت على ان احداً منكم قلما يجهل ذلك من امره . ومعظمكم يستظهر الكثير الطيب من شعره

نحن معشر العرب اصبحنا منذ سنين نهاجم في عقائدنا وفي تقاليدنا وسائر اوضاع اجتماعنا ولم تخلُ لغتنا المحبوبة من هذه المهاجمة العنيفة ايضاً . لم تخلُ من تنين هائل يواثبها . ويحاول القضاء عليها . ذلك التنينُ هو فكرةٌ مشؤومة ترمي الى احياء اللغة العامية وإماتة اللغة الفصحى . ها هي اللغة العربية في حدود سنة (١٩٠٠) اي منذ ثلاثين سنة تقف على ضفاف النيل . شاحبة اللون . مرتجفة الاعضاء والهةً ذاهلة . تندب نفسها . وتشكو مصابها :

« يا ويح أهليَ أبلى تحت أعينهم   على الفراش ولا يدرون ما دائي »

داؤها ايها السادة هو ماخامر نفوس أبنائها من زهدهم فيها . وانصرافهم عنها إلى غيرها من اللغات الاجنبية . والى نصرة الفكرة المشؤومة : فكرة إحياء اللغة العامية

تلك الفكرة الممثَّلة في أحد دهاة الانكليز (المستر ويلمور)

هبط (المستر ويلمور) مصر في ذلك الحين . وقام بدعاية واسعة النطاق للغة العامية المصرية . وخطب في الموضوع وكتب . وحاور وناظر . وألَّف كتاباً نشره على المصريين . يدعوهم إلى فكرتهِ . ويقنعهم بصحة رأيهِ . ومما يؤسف لهُ أن يجد (ويلمور) أنصاراً لهُ من الشعوبيين . شايعوه على رأيهِ . وأقاموا ضجةً في القطر المصري اهتزت لها البلاد العربية قاطبة . وكادت تكون لويلمور ولأشياعهِ الغلبة لو لم تصدمهم نهضة حماة اللغة الفصحى . وفي طليعتهم فقيدنا بالامس (حافظ ابراهيم) فيرفع صوته في وسط تلك الضجة . منشداً قصيدتهُ الخالدة على لسان اللغة الفصحى : تخاطب ابناءها وتسألهم إغاثتها . فتقول :

أيطربكم من جانب الغرب ناعبٌ   ينادي بوأدي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يوماً علمتمو   بما تحتهُ من فرقةٍ وشتات

ثم تلوم الصحف على خوضها في هذا الموضوع فتقول :

أرى كل يوم في الجرائد مزلقاً   من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتَّاب في مصر ضجةً   فأعلم أن الصائحين نعاتي

ثم تحضهم على الاخذ بالحزم في دفع الضر عنها :

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني   ومنكم وإنْ عزَّ الدواءُ أُساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني   أخاف عليكم أن تحين وفاتي

ثم ذكرتهم بجدودهم أبطال الجزيرة الذين كانوا يغارون عليها :

سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً   يَعزُّ عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظتهُ   لهنَّ بقلبٍ دائم الحسرات

وعاتبتهم على ميلهم الى اللغة العامية الممزوجة بالالفاظ الافرنجية

أيهجرني قومي عفا الله عنهمو ... الى لغةٍ لم تتصل بروَاةِ
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعابُ الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعةً ... مشكلة الألوان مختلفات

وعادت اللغة الفصحى إلى وصف مزاياها والتساؤل لماذا عقّها بنوها . وهي لم تقصر في خدمة دينهم وحضارتهم . فقالت :

وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً ... وما ضقتُ عن آيٍ بهِ وعظاتِ
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق اسماءٍ لمخترعات
أنا البحرُ في أحشائهِ الدرّ كامنٌ ... فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي

ثم عيرت ابناءها بالغربيين الذين عزّوا لما عزَّت لغاتهم فقالت :

أرى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً ... وكم عزّ اقوامٌ بعزّ لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنُّناً ... فياليتكم تأتون بالكلمات

ثم ختمت شكواها بتقديم إنذار مخيف الى الكتّاب الحسني الظن بلغات الافرنج وآداب الافرنج فقالت:

الى معشر الكتّاب والجمع حافلٌ ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياةٌ تبعثُ الميتَ في البلى ... وتنبتُ في تلك الرموس رفاتي
وإما مماتٌ لا قيامة بعده ... مماتٌ لعمري لم يقس بمماتِ

كانت هذه القصيدة من شعر (حافظٍ) من أمضى الاسلحة التي شهرت في وجه (المستر ويلمور) فأخفقت دعوته . وطويت رايته . ونكص على عقبيهِ إلى بلاده . وكأن أمير الشعراء (احمد شوقي بك) يشير إلى هذا الموقف المحمود الذي وقفه (حافظ) في وجه دعوة (ويلمور) فقال في رثائهِ لهُ :

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها ... وإمام من نجلتْ من البلغاءِ
ما زلتَ تهتفُ بالفصيح وفضله ... حتى حميتَ أمانة القدماءِ

وكما حنق (حافظ) على (ويلمور) حنق أيضاً على المستر (بلنْت) الانكليزي الذي اشتهر في الدفاع عن القضية المصرية ضدّ قومه الانكليز : فان هذا الرجل كان يرفع من شأن القصص العربية السخيفة العبارة ويقول عن قصة (بني هلال) انها نوع من القصص المسمى (إيبيك) وانها إيلياذة عربيةٌ صغيرة فما كان قوله هذا ليَسُرّ (حافظاً) بل كان يحسبهُ خدعةً ودعوة إلى اللغة العامية

ثم إن فوز (حافظٍ) في هذه المعارك نشّطه إلى متابعة العمل في نصرة اللغة . فاستمرّ يحيي فصيحها . وينثر الدرّ من كلمها إلى آخر نسمةٍ من حياتهِ . بل كان في مجالسهِ . وبين طلاب الادب المطيفين به — كأنه (استاذ سيّار) يصحح أغلاطهم . ويرشدهم الى الفصيح من القول . والصحيح من الاساليب . اما مقدرة حافظ اللغوية العملية فتتجلى لنا في الالفاظ الفصيحة التي كان يودعها قصائده ومصنفاته . وقد شهد له بهذه المقدرة (الشيخ ابراهيم اليازجي) : فقد كان تستجيد ذوق حافظ في اللغة . واختيار فصيح كلماتها . قال الشيخ عبد العزيز البشرى

لا اوافق الدكتور على ما قال : لان لقب (المحدّث) غلب في لغة الاسلام على راوي احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وان في آدابنا العربية كلمة اخرى احق بالقبول وأجدر وهي كلمة (أخباري) نسبة الى التبحر في الاخبار.والاتساع في الرواية.

وقد كان (الجاحظ) اكبر (اخباري) قام في الاسلام.وبعده المسعودي والمحسّن التنوخي صاحب نشوار المحاضرة وغيرهم كثيرون . وسمي (الجاحظ) هذا العلم (علم الخبر) وأُثر عنهُ انهُ قال (علم الخبر هو علم الملوك) . وعلى هذا يمكننا ان نقول : ان حافظاً كان اكبر المعاصرين في (علم الملوك) عندنا . كما كان (اناتول فرانس) اكبر استاذ في هذا العلم عند الافرنسيين .وكان (حافظٌ) رحمهُ الله يعرف من نفسهِ التفوق في هذا العلم : استأذن يوماً على المغفور له (سعد زغلول) وكتب اليهِ هذين البيتين :

قل للرئيس جزاه الله صالحةً بأن شاعره بالباب ينتظر
إن شاء حدَّثهُ او شاء اتحفه بكلِّ نادرة تُروى وتبتكر

وقد اتفقت كلمة من ترجم لحافظ كما اتفقت كلمة فضلاء دمشق الذين حضروا مجالسه في زيارته الاخيرة لبلادهم — انهُ ابرع اخباريٍّ واظرف نديم عرفوه في حياتهم.ولولا وقارُ (مأتم التأبين) لروينا لحضراتكم شيئاً من ملحهِ الادبية مما يدل على شدة ذكائه . وقوة حفظه

* * *

على انني مهما اغفلت ذكر خبرٍ من اخبار حفظه . لا احب ان يفوتني ذكر خبر مستغرب اتفق له مرة في نسيانه :.ذلك انَّ (حافظاً) يحفظ اخبار الاولين والآخرين ويروي ما يحفظهُ بكل دقةٍ وتثبّت . ولكنهُ مع هذا ذهل مرةً عن خبر (قصر الجزيرة) الذي كان للخديوي اسماعيل ثم اتخذ فندقاً لكبار السياح ثم صار قصراً لآل لطف الله — فروى لنا (حافظ) ان هذا القصر اصبح (بستان حيوان) . وذلك قوله من قصيدة[1] وصف فيها ذلك القصر :

كنت بالامس جنة الحوريا قصـ ـر فأصبحت جنة الحيوان

ولعمري ان نسيان (حافظ) لخبر هذين القصرين اللذين هما على مرمى سهم من نظراتهِ . وطالما لمحهما في غدواتهِ وروحاتهِ — أمرٌ مستغربٌ جداً نرويه في غرائب أخباره بعد مماته. كما كان رحمه الله يروي غرائب أخبار من كان قبله في حياتهِ . وهذا النسيان من (حافظ) يشبه ما روي عن الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده انه استأذن يوماً على بعض إخوانه.فسأله الحاجب عن اسمهِ.فأطرق يتذكر رحم الله (الشيخ عبده) ورحم (حافظاً) . وهل ترون الزمان . أيها الاخوان . يخلف علينا مثلهما في العلماء والشعراء ؟ إن فعل نكن حقّاً من السعداءِ

(١) هذه القصيدة منشورة في ديوان حافظ المطبوع سنة (١٩٠٧) ولم أجدها في ديوانه الذي طبع سنة (١٩٢٢)

الذي قرَّره أديب العرب الأكبر (الجاحظ) في كتابه الحيوان : من أن الواجب في نقل عبارات السوقة وألفاظ العامة أن تروى كما هي اي مغلوطةً ملحونةً والا ذهب رونقها وضعف تأثيرها

وشاعرنا (حافظٌ) رحمهُ الله كان كلفهُ بفصيح اللغة وجزل ألفاظها يحمله على أن يترجم كلام السوقة من أبطال البؤساء بعبارة فخمة الالفاظ لا ينطق بها عادةً الا الفصحاء

فالبنّاء الذي يبني رصيف الشارع اذا أراد أن يتكلم هل ينطق بكلمات (تيامن ثم تياسر) و (ركب المحجّة) و (ما أخلقك يا فلان بكذا) . هكذا (حافظ) ترجم لنا كلام البنّاء الافرنسي . ووصف لنا فرساً بأنهُ (سحير . عصلب . أهنع . أدكّ . مفتوح اللبان) و(فلان لبث معلّقاً بخيط من الاجل تحت شقي مقصّ الفناء) ... الى غير ذلك مما حمله ولوعه به على استعماله في غير مواطنه . مواطن هذه الكلمات كتُبُ الادب و (المقامات) . لا القصص والروايات . فحافظٌ بهذا الاعتبار خلق لغويًّا كاتباً . بل كاتباً مقاماتيًّا قديماً . لا كاتباً روائيًّا حديثاً . اما هو في الشعر فعلى العكس : اذ كان لا يستعمل غريب اللغة بكثرة تدل على شرهه وحرصهِ . فمن ثم لم يكن لغويًّا في شعره . كما كان لغويًّا في نثره . ولكن هذا الشره الى غريب اللغة في النثر إن كان ساءَ اقواماً فانهُ لم يكن ليسوء مجمعنا العلميّ الذي يحرص على ان تحيي اللغة العربية بإحياء الفصيح من كلماتها. والقديم الرائع من تعابيرها . لذلك كانت فجيعة المجامع اللغوية بحافظٍ من جهة لغته ونثره تعادل بل تفوق فجيعة الامة العربية بهِ من جهة نظمهِ وشعره

* * *

وصفنا لكم (حافظاً) العضو في مجامع اللغة والادب أما (حافظٌ) العضو في مجالس الانس والطرب فاليكم طرفاً مما يتسع له المقام :

يظهر أن أهل (حافظٍ) تنبأوا يوم ولادته بأن سيكون مولودهم كثير الحفظ لاخبار العرب وأشعارهم ومستملح نوادرهم فسمّوه (حافظاً) . روى اصدقاء (حافظ) انهُ كان يعمل على وضع مصنفٍ في المرقص من شعر العرب: يختار فيهِ لكل شاعر بيتاً من اروع ابياته وقد جمع مواد ذلك الكتاب . حتى بلغ نصفه . فاختار لبعض الشعراء مثلاً قوله :

ولا بدَّ لي من جهلة في وصاله فهل من كريم أودع الحلم عنده

واختار لغيره غيره وهكذا . وان اتساع (حافظٍ) في حفظ بليغ اشعار العرب على هذه الصورة اثر فيهِ ذوقاً في اللغة العربية . فكان انقى الشعراء المعاصرين عبارة . وأصحهم تركيباً . وأكثرهم تدقيقاً في اختيار الفصيح الرائع من الالفاظ . وليس هذا فقط بل إن حفظه لاخبار العرب جعله نديماً ظريفاً : غير مملول المجلس . ولا مأجوم الحديث

وقد استحسن الدكتور (زكي مبارك) ان نطلق على (حافظٍ) ومن كان على شاكلته من حفّاظ اخبار العرب — كلمة (محدّث) قال . وهو الذي يسميه الافرنسيون Causeur وانا

لا اوافق الدكتور على ما قال : لان لقب (المحدّث) غلب في لغة الاسلام على راوي احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وان في آدابنا العربية كلمة اخرى احق بالقبول وأجدر وهي كلمة (أخباري) نسبة الى التبحر في الاخبار. والاتساع في الرواية.

وقد كان (الجاحظ) اكبر (اخباري) قام في الاسلام. وبعده المسعودي والمحسّن التنوخي صاحب نشوار المحاضرة وغيرهم كثيرون . وسمي (الجاحظ) هذا العلم (علم الخبر) وأُثر عنهُ انهُ قال (علم الخبر هو علم الملوك) . وعلى هذا يمكننا ان نقول : ان حافظاً كان اكبر المعاصرين في (علم الملوك) عندنا . كما كان (اناتول فرانس) اكبر استاذ في هذا العلم عند الافرنسيين .وكان (حافظٌ) رحمهُ الله يعرف من نفسهِ التفوق في هذا العلم : استأذن يوماً على المغفور له (سعد زغلول) وكتب اليهِ هذين البيتين :

قل للرئيس جزاه الله صالحةً بأن شاعره بالباب ينتظر
إن شاء حدَّثهُ او شاء اتحفه بكلِّ نادرة تُروى وتبتكر

وقد اتفقت كلمة من ترجم لحافظ كما اتفقت كلمة فضلاء دمشق الذين حضروا مجالسه في زيارته الاخيرة لبلدهم — انهُ ابرع اخباريٍّ واظرف نديم عرفوه في حياتهم. ولولا وقارُ (مأتم التأبين) لروينا لحضراتكم شيئاً من ملحهِ الادبية مما يدل على شدة ذكائه . وقوة حفظه

***

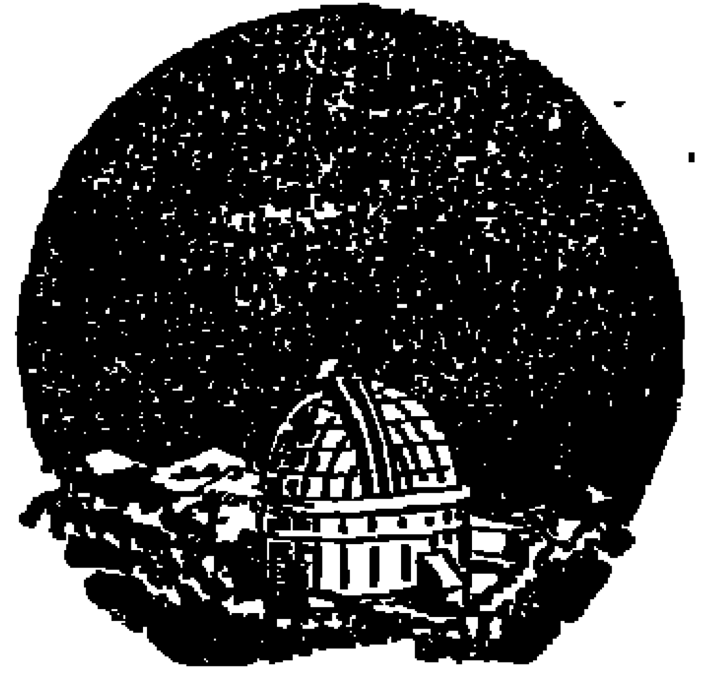
على انني مهما اغفلت ذكر خبرٍ من اخبار حفظه . لا احب ان يفوتني ذكر خبر مستغرب اتفق له مرة في نسيانه :. ذلك انَّ (حافظاً) يحفظ اخبار الاولين والآخرين ويروي ما يحفظهُ بكل دقةٍ وتثبّت . ولكنهُ مع هذا ذهل مرةً عن خبر (قصر الجزيرة) الذي كان للخديوي اسماعيل ثم اتخذ فندقاً لكبار السياح ثم صار قصراً لآل لطف الله — فروى لنا (حافظ) ان هذا القصر اصبح (بستان حيوان) . وذلك قوله من قصيدة[1] وصف فيها ذلك القصر :

كنت بالامس جنة الحوريا قصـ ـر فأصبحت جنة الحيوان

ولعمري ان نسيان (حافظ) لخبر هذين القصرين اللذين هما على مرمى سهم من نظراتهِ . وطالما لمحهما في غدواتهِ وروحاتهِ — أمرٌ مستغربٌ جدًّا نرويه في غرائب أخباره بعد مماته. كما كان رحمه الله يروي غرائب أخبار من كان قبله في حياتهِ . وهذا النسيان من (حافظ) يشبه ما روي عن الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده انه استأذن يوماً على بعض إخوانه. فسأله الحاجب عن اسمهِ. فأطرق يتذكر

رحم الله (الشيخ عبده) ورحم (حافظاً) . وهل ترون الزمان . أيها الاخوان . يخلف علينا مثلهما في العلماء والشعراء ؟ إن فعل نكن حقًّا من السعداء

(١) هذه القصيدة منشورة في ديوان حافظ المطبوع سنة(١٩٠٧)ولم أجدها في ديوانه الذي طبع سنة(١٩٢٢)



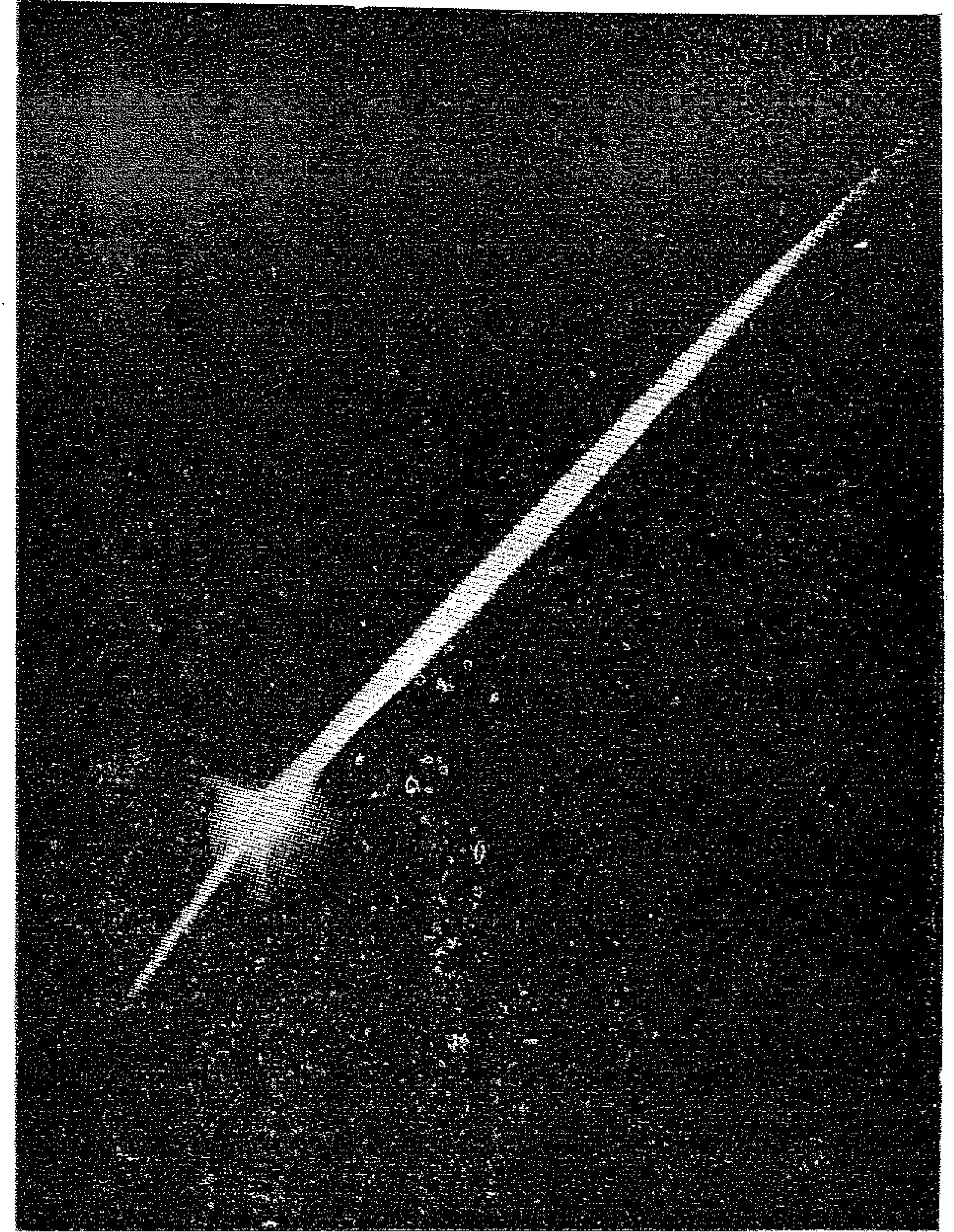
الشهب

الشهاب ما يرى في الليل كأنهُ كوكب انقضَّ من ناحية في السماء واختفى في ناحية اخرى. وقد اصطلح الذين كتبوا في علم الفلك الحديث بالعربية(١) على ان النيزك شهاب كبير ينقضُّ كالشهب ولكنهُ ينفجر ويسمع لانفجاره صوت شديد ثم يختفي. والرُجُم شهب او نيازك تصل الى الارض كحجارة معدنية مفردها رَجْمٌ

ومنظر الشهب المنقضَّة من اروع المشاهد الطبيعية وأبقاها اثراً في النفس. قال الدكتور نمر في المقالة المشار اليها في الهامش: «فلن ننسى هولَ ليلةٍ شهدناها ايام الصبوة وقد انقضَّت شهبها حتى غصَّت بها الآفاق وانبهرت بسناها الآماق. وكان الرجال يهللون ويكبرون والنساء راخيات الشعور ينادين بالويل والاطفال تضجُّ والمدينة في هرج ومرج كأن الأرض خربت وكواكب السماء تساقطت. والذي يعتري العامة الآن كان يعتري الناس من قديم الزمان ولذلك علقوا حدوث هذه الحوادث بأنباءٍ لها وقع وشأن. روى مؤرخو العرب ان ليلة وفاة الخليفة ابرهيم بن محمد في شهر اكتوبر سنة ٩٠٢ للمسيح انقضَّت كواكب السماء حتى استنار بها الفضاء وخيل للناس ان عيون السماء تبكي على الخليفة نجوماً. وروى المؤرخون الفرنسيون ان شهب السماء انقضَّت انقضاضاً عظيماً في ٢٥ ابريل سنة ١٠٩٥ حتى كأنها منهمل المطر او متناثر البرَد فتطيّروا بها وخافوا من انقلاب عظيم في النصرانية....»

ووصف السر روبرت بول Ball الفلكي الانكليزي وابل الشهب المنقضة في ١٣ و ١٤ نوفمبر سنة ١٨٦٦ قال ما ترجمته: كان الليل حالكاً لغياب القمر والسماء صافية وامتازت الشهب المنقضة بكثرتها وشدة تألقها. ففي تلك الليلة المشهودة كنت اقوم بعملي العادي وهو رصد السدم بمنظار رُسّ العاكس. وكنت اعلم ان علماء الفلك تنبأوا بانقضاض وابل من الشهب ولكنني لم اكن اتوقع ذلك المشهد الرائع الذي رأيت. وكانت الساعة نحو العاشرة اذ سمعت من احد مساعديَّ صوتاً حوَّلني من المنظار الى قبة السماء فرأيت شهاباً منقضّاً تاركاً وراءهُ خطاً طويلاً من الضياء ثم تلاهُ آخر ثم جعلت الشهب تنقضُّ جماعات فدلَّ ذلك على ان تنبؤ العلماء قد صح او كاد... ولبثنا ساعتين او ثلاثاً نتمتع بمشهد لن يمحى من ذاكرتي. وزاد عدد الشهب المنقضة حتى اصبحنا لا ندري لكثرتها في أية ناحية نراقبها فكانت تارة تنقضُّ فوق رؤوسنا وطوراً الى اليسار او الى اليمين. ولكنها كانت كلُّها منبعثة من نقطة عند الافق. فلما تقدم

(١) الدكتور فارس نمر في مقالة عنوانها «الشهب والنيازك والرجم» في مقتطف مارس ١٨٨٤ صفحة [illegible]



نيزك وهو الشهاب الذي ينفجر ويسمع لانفجاره دوي

مقتطف دسمبر ١٩٣٢



شهاب اجتز لوحة التصوير في خمس دقيقة

امام صفحة ٥٦٧

الليل وارتفعت كوكبة الاسد فوق الافق الشرقي ، ورأينا مساري الشهب صادرة منها »

ووصف احد الكتّاب وابل الشهب الذي شوهد في شمال اميركا الشمالية في ٩ فبراير سنة ١٩١٣ قال ما خلاصتهُ : «ظهر بغتة في الشمال الغربي جسم ناري احمر واصفر ذهبي له ذنب فسار الهوينا في خطٍ افقي الى ان بلغ اقصى الجنوب وغاب عن الابصار . ولم يكد يغيب حتى ظهر مجموع من الاجسام النارية اقتفت اثره ، وسارت سيره كأنها سرب من المركبات النارية ، مؤلفٌ من اجسام مجموعة مثنى وثلاث ورباع . ولكل منها ذيل يجرّه وراءهُ . ولما غاب ظهر مجموع ثالث . والغريب بطء سيرها [1] — لبعدها — وانتظامها مثنى وثلاث ورباع . ولما مرَّ نصفها ظهر جسم كبير جدًّا . . . فلما غاب آخرها سُمِعت خمسة اصوات او ستة كالرعد آتية من الشمال الغربي» . ويرى الدكتور فشر احد علماء مرصد هارفرد ان مشهد هذا الوابل اروع مشاهد الشهب التي وُصفت

﴿ حجمها ﴾ الشهب اجسام مادية مظلمة منثورة في رحاب الفضاء او تدور في افلاك معينة حول الشمس ، تلتقي بها الارض في مسيرها حول الشمس بسرعة ١٨ ميلاً ونصف ميل في الثانية . ومعظم هذه الاجسام دقيق الحجم لا يزيد عن الرمل الدقيق او رشاش البنادق او الحصى الصغير . فاذا دخلت جوَّ الارض وهي سائرة بسرعة كسرعة الارض او تفوقها ، اصطدمت بالغلاف الهوائي ، فتخفُّ سرعتها ، وتتحوَّل طاقة حركتها الى طاقة حرارة — تتباين حرارة هذه الاجسام اذ تتألف من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ درجة سنتغراد — فلا تلبث ان تضيء . فهي اذاً لا تضيء الاَّ بعد ان تدخل جوَّ الارض على نحو سبعين ميلاً فوق سطحها وتختفي في الغالب ، بعد ان تنفد مادتها ، على خمسين ميلاً ، بعد مسير يبلغ طولهُ نحو ٣٥ ميلاً — لانها لا تنقضُّ في خطٍ عموديّ — وقد قدّر الاستاذ شابلي مدير مرصد جامعة هارفرد ان نحو عشرة ملايين من هذه الاجسام تدخل جوَّ الارض كلَّ يوم ، ولكننا لا نرى منها الاَّ طائفة قليلة ولو استعملنا المنظار ، لان بعضها ضئيل النور جدًّا . على ان بعض هذه الاجسام كبير الحجم لا يتلاشى في اثناء تألقهِ لدى مرورهِ في الهواءِ فيصل الى سطح الارض ويصدمها صدمة عنيفة يحدث فيها غوراً كبيراً وهي الرُجُم كما مرَّ

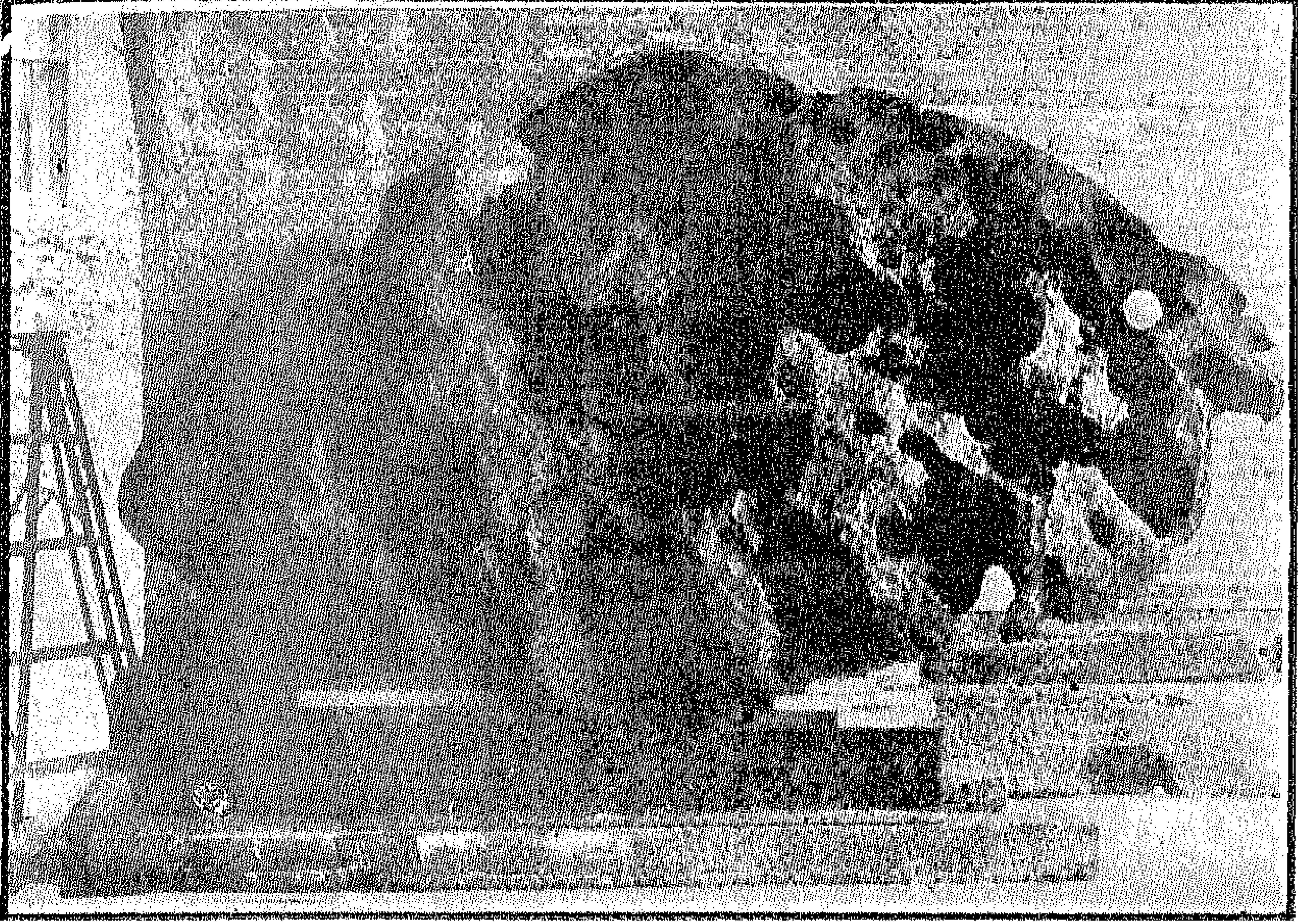
ففي ولاية اريزونا غور يقال لهُ غور الشيطان يبلغ قطرهُ ٤٠٠٠ قدم وعمقهُ ٦٠٠ قدم وهو يشبه فوهة بركان ويقال انهُ نشأ من انقضاض رجمٍ ضخم في العصور السابقة للتاريخ ولا يعلم ما يقاربهُ في العصور الحديثة . وانما انقضَّ رجمٌ في سيبيريا سنة ١٩٠٨ يقال انهُ أحدث ريحاً حارّة في اثناءِ انقضاضهِ ذوت لها الاشجار في البقعة المجاورة لمكان وقوعهِ . ولما كان ثلاثة ارباع سطح الارض مغموراً بالماءِ فالمرجح ان كثيراً من الرُجُم يقع في البحار ويغوص إلى اغوارها

(١) قدر الدكتور تشانت سرعتها بستة اميال في الثانية اي ٢١٦٠٠ في الساعة وهي سرعة عظيمة انما بدت بطيئة للمراقب على سطح الارض اذا قيست بسرعة الشهب العادية لانها مرت في طبقات الجو العليا

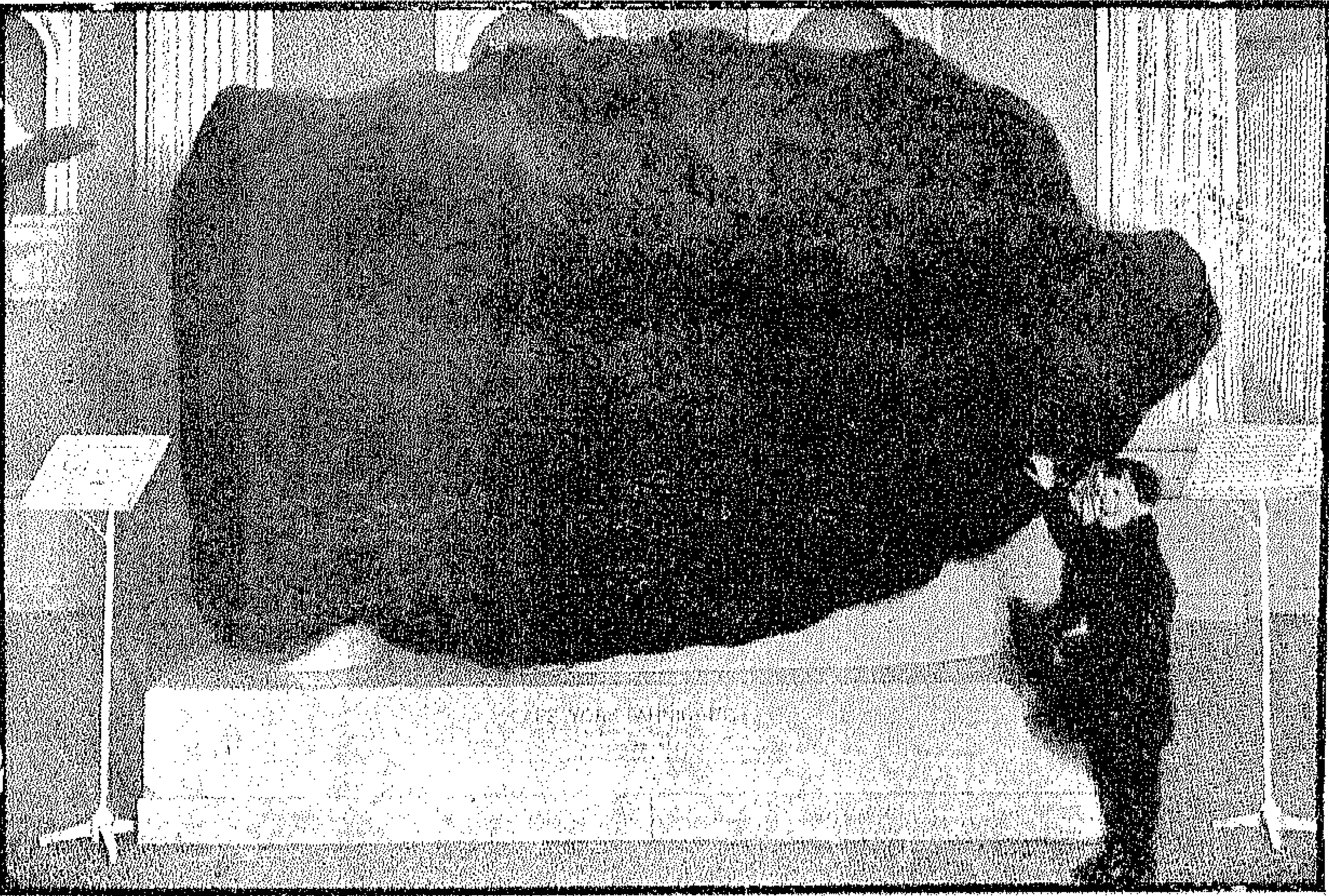
ويقال ان القومندور پيري — مكتشف القطب الشمالي سنة ١٩٠٩ — كان في سنة ١٨٩٤ يقضي الشتاء في جرينلندا فسار به بعض رجال الاسكيمو ليروهُ «قطع الحديد الضخمة». فعرف پيري انها بقايا ثلاثة رُجُم كبيرة. ولكنهُ لم يجد ما يمكنهُ من معرفة تاريخ انقضاضها وانما نقل اليهِ بالسماع انها انقضّت نحو مائة سنة قبل ذلك. وكان رجال الاسكيمو يدعونها «الكلب» «والمرأة» و«الخيمة» وفقاً لشكلها. وعاد پيري في السنة التالية لنقلها ففاز بنقل الكلب والمرأة بعد ما لقي الامرّين. واما الخيمة فاستعصت على رجاله حتى كانت سنة ١٩٠٣ ففاز بنقلها فلما وزنت بلغت ٣٦ طنّاً ونصف طن، وهي محفوظة في متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك

﴿ مادتها ﴾ ان الرجم التي نقلت الى متاحف التاريخ الطبيعي — كرُجُم پيري — مركبة من صخور مبلورة او حديد او من مزيجهما. ولكن هل الشهب الصغيرة التي تتلاشى قبل وصولها الى الارض مركبة من صخور مبلورة وحديد كذلك؟ ان الاجابة عن هذا السؤال لا تجيءُ الاّ عن طريق السبكترسكوب (آلة الحلّ الطيفي) على شريطة ان يقام التلسكوب ويوجَّهُ الى الشهاب المنقضّ، لكي يصوّر طيف نورهِ. ولكن هذا متعذّر لان الشهاب ينقض فجأة ولا يلبث منقضاً الاّ لمحة من الزمان لا تكفي لتوجيه السبكترسكوب اليهِ. وقد تمكن بعض الفلكيين من تصوير شهاب منقض في اثناء تصويرهم لطيوف النجوم، وانما اختلط طيف الشهاب بطيوف النجوم، فتعذر عليهم تبين الواحد من الآخر. وفي سنة ١٩٢٤ فاز العالمان الالمانيان هاس Haas وشواسمان Schwassmann بتصوير طيف شهاب منقض فتبيّن فيهِ خطّي عنصر الكلسيوم المعروفين بحرفي H, K وخطوط عنصر الحديد. وحديد الرجم يكون عادة خليطاً من الحديد والنيكل وعناصر اخرى. ولم يسفر البحث في بناء الشهب عن وجود اي عنصر جديد فيها غير موجود على الارض

(اصلها) ذهب بعض العلماء إلى ان الشهب اجسام انطلقت من براكين القمر قبلما خمدت ولكن علماء الفلك لا يأخذون بهذا الرأي الآن. ويرى غيرهم انها بقايا سيّار تهشم او هي مخلّفات من المادة التي تكوّنت منها الارض. ثم ان بعضهم يقول انها اجزاءٌ من ذوات الاذناب وعلى ذلك جلّة علماء الفلك الآن. فقد كشف الباحثون ان طائفة كبيرة من الشهب تسير في افلاك معينة حول الشمس وان هذه الافلاك تتفق في كثير من الاحيان مع افلاك بعض المذنبات. فالشهب التي انقضّت سنة ١٨٨٥ من بقايا مذنب بيلا Biela الذي اكتشفهُ القبطان بيلا النمسوي سنة ١٨٢٦ فلما ظهر هذا المذنب سنة ١٨٤٥ انشطر قطعتين تباعدتا ولما ظهر سنة ١٨٥٢ كان البعد بين شطريه قد زاد فلما حان ظهورهما سنة ١٨٧٢ انقضت الشهب انقضاضاً عظيماً من المكان الذي كان ينتظر ظهورهما فيهِ فترجح ان جانباً منهُ تمزق أو تفرقت دقائقهُ فسهل جذبها واحترقت من احتكاكها بجو الارض. ومع ذلك يبقى عدد من الشهب لا نستطيع تعليلهُ بما تقدّم اي انها ليست من اجرام المجموعة الشمسية. وقد اثبت البحث انها اتصلت بنا من اعماق الفضاء. ذلك ان



اكبر الرجم التي وجدت في اميركا . طولهُ عشر اقدام وعلوه ست اقدام ونصف قدم وثخانتهُ اربع اقدام وثلاث بوصات ووزنهُ ١٠٧ر٣١ ارطال انكليزية



أحد الرجم التي نقلها پيري من جرينلندا الى متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك وقد وقف جنبها صبي عمره ١٣ سنة لبيان حجمها

كل جسم لا تزيد سرعتهُ على ٢٦ ميلاً في الثانية لا يستطيع ان يفلت من جذب الشمس فيسير في فلك اهليلجي — تزيد استطالتهُ أو تقل بحسب سرعتهِ — حول الشمس . فاذا دخل جوَّنا جسم تزيد سرعتهُ عن ٢٦ ميلاً في الثانية ثبت لنا انهُ قادم من خارج المجموعة الشمسية . وقد قيست سرعة بعض الشهب ففاقت ٢٦ ميلاً في الثانية وبلغت سرعة بعضها ١٥٠ ميلاً في الثانية

﴿ وابل الشهب ﴾ وثمة احيان لا تنقضُّ الشهب مفردة متفرقة بل تنقضُّ كوابلٍ . وقد قصَّ فون همبولدت (Humboldt) العالم الطبيعي الالماني في اسفارهِ انهُ استيقظ في فجر ١٢ نوفمبر سنة ١٧٩٩ ليرى وابل الشهب فقضى اربع ساعات يشاهد الشهب تنقض من الشمال إلى الجنوب فوق الافق الشرقي بعضها كبير كالقمر وبعضها في حجم المشتري . فكانت تترك وراءها خطوطاً من الضياء وكأن بعضها ينفجر . وفي ١٢ نوفمبر سنة ١٨٣٣ شوهد وابل من الشهب في الولايات المتحدة الاميركية فاشار حينئذٍ العالمان الاميركيان اولمستد Denison Olmstead وتوينغ A. C. Twining إلى انهما شاهدا الشهب تنبعث من ناحية كوكبة الاسد . فكان ذلك حافزاً للعلماء إلى البحث وجعلوا ينقبون في المؤلفات القديمة ليطلعوا على وصف انقضاض الشهب في العصور الماضية . فوضع الاستاذ نيوتن احد اساتذة جامعة يايل جدولاً يبدأ سنة ٩٠٢ — وهي السنة التي اشار اليها الدكتور نمر لدى ذكر انقضاض الشهب يوم وفاة الخليفة ابرهيم بن محمد — فتبين لهُ ان انقضاض وابل الشهب من كوكبة الاسد يقع مرة كل ٣٣ سنة ، وتنبأ بان الوابل التالي يقع في ١٣ نوفمبر ١٨٦٦ — وهو الوابل الذي وصفهُ السر روبرت بول

فثبت من بحث الاستاذ نيوتن امران : الاول ترجيح وجود منطقة من الشهب تدور حول الشمس وتقترب من الارض في كل نوفمبر . وان الارض تخترقها مرَّة كل ثلاثٍ وثلاثين سنة في الشهر عينهِ وهذا تعليل ان وابل الشهب الاسدية Leonids نسبة إلى كوكبة الاسد لا ترى منقضة كوابل الاَّ مرة كلَّ ثلاثٍ وثلاثين سنة في شهر نوفمبر. ولكن هذا لا يمنع ان نرى بعض الشهب الاسدية كل سنة في نوفمبر اذ تقترب الارض من هذه المنطقة

ولما حان ميعاد وابل الشهب الاسدية سنة ١٨٩٩ لم تنقض كما كان ينتظر وظُنَّ ان السيارات الخارجية جذبت الشهب فكانت بعيدة عن الارض لما مرَّت الارض في منطقتها

وتنسب شهب الوابل إلى الكوكبة التي تنقضُّ منها فالشهب الاسدية تنقضُّ من كوكبة الاسد حوالي ١٣ نوفمبر وشهب المرأة المسلسلة Andromedids تنقض من كوكبة المرأة المسلسلة Andromeda حوالي ٢٧ نوفمبر والشهب الفرساوسية تنقض من صورة فرساوس Perseus في ١١ يوليو و ٢٠ اغسطس وشهب التنين Draconids تنقضُّ من كوكبة التنين Draco في ٢ ينايرِ وشهب اللورا (السلياق) Lyrids تنقض من كوكبة اللورا Lyra في ٢٠ ابريل وشهب الدلو Aquarids تنقضُّ من كوكبة الدلو Aquarius في ٦ مايو و ٢٨ يوليو وشهب الجبار Orionids تنقض من كوكبة الجبار Orion في ١٠ و ٢٤ اكتوبر



الشخصية

من الناحية الفسيولوجية

للدكتور ابرهيم ناجي



﴿ الشخصية ﴾ — ما هي الشخصية ؟ ! ان مشكلة الشخصية عند الفلاسفة تدور على حقيقة وجود الذات ، وهل هناك شيء ثابت يسمى الذات او الروح او النفس ؟ فوليم جيمس يشير الى ما يسميه تيار الوعي ويقول ان تجارب المرء الخاصة ، في سبيل ذلك المجرى، تتوحد في احساس يُشعر بما يسمى بالذاتية Selfhood والفلاسفة الحديثون امثال ميرنجتون وبرنجل باتيسون ، وبرادلي ، يؤمنون بحقيقة الذات ، ويبرهنون على ذلك في بحوث طويلة ، وينقسمون مذاهب لها مريدون واشياع

ومن الوجهة الاجتماعية ،يعرف العالم لوران Laurent الشخصية بانها صفة التفرد،والنزعة الخاصة originality ، ولستَ ذا شخصية مطلقاً حتى يكون لك اسلوبك الخاص ، فان كنت اديباً ،فلا يهم أن تقرأ أو تلاحظ، أو تنقد ، وانما المهم أن يكون لك تفكيرك الخاص واسلوبك الذي تتفرد به وتتميز، وان كنت سياسياً، او زعيماً وطنياً فالمثل الاعلى هو غاندي فله طريقته الخاصة في الدعوة ، وفي النضال ، وهو متفرد بمغزله، وعريه، وشكله، وقد تفرد اخيراً باسلوبه في الموت !

على ان الذي نحن بصدده الليلة ، والذي يهمنا من الناحية العملية هو وجهة نظر الاستاذ ماريون وتعريفه للشخصية بانها مرادفة للارادة المتحررة ، الارادة التي خلصت من العقبات، والمناقضات التي تعترضها في افق العقل ، وتكبلها : الارادة التي تحررت بعد الموازنة ، والتمحيص ، وتقليب الرأي : الارادة المتزنة الهادئة الواثقة ، الماضية الى غرضها في اطمئنان وعظمة ، الارادة المتحررة لا الرغبات ، ولا الميول ، فما الرغبات والميول إلاّ سحب قلقة مضطربة غير ثابتة ، ملازمة للغرائز ، وما هي الاّ غمامة تتلبد في افق الروح ، ولا تمطرها !

الارادة المرادفة للشخصية ، المرادفة للشعور بالذات ، والكرامة ، والقوة ، هي غرض المربين ، وعماد الذين يسعون في تكوين امة من الامم وانشاء جيل قوي العزيمة متين الخلق

نريد ان نكوّن شخصيات قوية ، مع الاعتراف بأن المواهب الخارقة غير متاحة لكل فرد، وانها شعل الهية من السماء تختار افراداً دون افراد غير اننا بدرسنا للعوامل المكونة للشخصيات

(١) من محاضرة القيت في جمعية الشبان المسيحية في القاهرة وقد تناول ابرهيم المصري الموضوع من الناحية النفسية ونشر بحثه في البلاغ

القوية وفهم الاسرار التي ادت الى بروزها ، والاشياء التي تضعفها او تكبلها او تلاشيها ، نستطيع ان نفهم الجوانب الخفية في النفس ، ونغوص في اغوارها السحيقة للبحث عن كنوز مختبئة ، فنسمو بأنفسنا وبغيرنا ونبني اجيالاً قوية كاملة

اما العوامل النفسية في بناء الشخصية وقوتها ، فلي ان اذكر منها فقط ما يتعلق ببحثي ، فأقول ان ذوي الشخصيات البارزة تفردوا فيما تفردوا به بأنهم درسوا انفسهم ، ودرسوا انفس الناس ، وانتهوا من المقارنة ، على نور الاخلاص التام ، والتحرر الكامل من الغرور ، الى رأي ، الى طريقة ينتهجونها في سبيل الكمال . والواقع ان درس النفس من اشق الامور فأغلب الناس ذوي الشخصيات العادية مفتونون بأنفسهم متحيزون لصفاتهم ، يضفون عليها الواناً من العظمة ليست لها . ولذلك يقفون عند حد ولا يتقدمون ابداً بينما الآخرون يبحثون في اغوار المنجم عن الماس، فيبرزونهُ ويصقلونهُ، حتى يصير خاطفاً للابصار، ويتعهدون احسن ما فيهم كما يتعهد البستاني اجمل اشجاره بالري والتشذيب ، وبينما هم في ذلك الصقل النفسي ، يمشون نحو الكمال والتفرد، يكون لذلك اثره في وجوههم ومشيتهم وحديثهم واشاراتهم

وانا لا نعلم على وجهٍ من الدقة كيف تطبع الروح الجسد على هذا النمط ، ولكن الواقع اننا لا نكشف انفسنا بكلماتنا بل على الضد من ذلك نتكلم لنسدل قناعاً على حقيقتنا ، وعند ما نشير او نمشي، او نأتي بحركة ما على غير قصد ، نكشف اخفى ما في طبائعنا، والاستاذ فانس على حق حين يسمي الجسد مرآة الشخصية، ويريك في كتابه البديع(١) كل دقائق الشخصية في تلك المرآة

﴿ فشية ﴾ الشخص مثلاً تدل على مقدار الارادة والقوة الحيوية وضبط النفس وهي تضع الانسان في مكانه في الهيئة الاجتماعية وتدل على جنسه وعلى حرفته وقليلاً ما تخطىء ، فالجندي الذي ترك الجيش مثلاً نستطيع ان نميزه مهما تكلف غير مشيته على ان المشية مع ذلك لا تدلُّ على قوة الذهن في شخص من الاشخاص

﴿ الصوت ﴾ الصوت لا يهم علوه ولا انخفاضه في الدلالة على الشخصية ولكن العلماء الحديثين يعنون بشيء واحد ، ويسترعون انتباهنا لهُ ، فيقولون انه بصرف النظر عن دلالة الصوت على ابناء امة من الامم واستحالة التقليد مهما طالت اقامة شخص غريب بين قوم ليسوا بقومه ومهما تعلم لغتهم واتقنها — كل هذا يقولون انه لا يدل على شخصية الانسان دلالة رنين الصوت الموسيقي the timber, instrumental sound of the speakers voice. فقلما تجتمع بضع نبرات une: فتحدث لحناً حزيناً أو مفرحاً فاننا لو ارهفنا السمع قليلاً ، وعودنا آذاننا بالمرانة ، أمكننا ان نصيب في الحكم على كثير من الناس . مثلاً ، عرفت من عهد قريب رجلاً يتحدث بنغمة مختنقة متزنة بلا رنين ، وعند ما يحاول ان يقنعني تتغير

(١) Mirror of Personality

النغمة إلى صوتٍ جاف كصوت الصلب ،وعلى الاطلاق كان يخيم الغموض والابهام على كل هذا، فلم اكن مطمئناً اليهِ ،واستنتجت على الفور انه رجلٌ ذو روح مختنقة جافة مبهمة كحالة صوته وقد صدق ظني فيا بعد . كذلك تعرفت إلى آخر صوته كرنين النخاس فاذا بمعاملاته لاصحابه — على ثقافته وسعة علمهِ — لها هي الاخرى هذا الرنين وعنفه

وثالث تعرفت اليهِ ، وكان لصوته رنة الناي الحنون ، فتبين لي بعد معاشرتي اياه ، ما استقر في اعماق روحه من الرقة ، والذوق الفني ، وحب الجمال ، والاحساس بهِ

والخلاصة أننا بمرانةٍ قليلةٍ لا نخطىء تقدير الشخصية من نبرات الصوت

﴿ الايدي ﴾ اما اليدان فقد قرأت كتاباً للكاتب النمسوي المشهور ستيفان زفيج يدعى ٢٤ ساعة في حياة امرأة ، اجاد فيهِ وصف ، شخصيات الناس من ايديهم دون النظر في وجوههم ، واراه في ذلك مصيباً كل الصواب فان اليد تدل على شخصية صاحبها في احدى حالات ثلاث وهي ساكنة ، أو وهي تشير ، أو وهي تصافح . اما الحالة الاولى فاهم ما فيها الزاوية التي بين الاصابع مجتمعة ، والمعصم. فقد ترى يداً تشابه يد القرد ، واخرى كمخلب الطير المفترس ، وثالثة لا تراها حتى تشعر بالقسوة الكامنة في صاحبها وغيرها تدلك على نبل الاصل ولا يمكن ان تخطىء مهما تقلب الزمان بصاحبها . اما الحالة الثانية وهي الاشارة فتدل بوضوح على مبلغ الاحساس والرشاقة ، والثقافة ، والعصبية

اما المصافحة فهي اوضح من كل هذا ، فهذا يصافحك من قلبهِ وهذا يدعك تصافحهُ، وذلك يزج في يدك حربة لا يداً وآخر يفلت يده بسرعة .... فلمسة اليد البسيطة للذي يدقق تكشف اغواراً سحيقة من الروح لا يدري صاحبها انه مزق سترها ، بهذه المصافحة من دون ان يشعر

اما الجمجمة ، من تركيب الرأس والفك والعينين ، فهي بلا شك المرآة التي لا جدال في صحتها وصدقها . ولا سبيل إلى الاستفاضة اليوم فان الموضوع مغرٍ بالتوسع فيهِ ولكني أقول عن الرأس ان الشائع ان الاذكياء هم كبار الرؤوس وهذا ليس بصحيح دائماً ، وان بروز الجبهة ايضاً دليل الذكاء وهذا ليس بصحيح دائماً وانما الصحيح ان الخط الممتد من الحاجب إلى مؤخر العنق في الاذكياء يكون مقوساً تقويساً كافياً ومتناسباً[1] وحافظاً لنسبة معقولة بينهُ وبين الخط الواصل بين الاذنين ، اما الناس ذوو الرؤوس المسطحة المضغوطة فليسوا على شيء من التفرد ولا الذكاء . اما من جهة العينين فقرب احداهما من الاخرى يدل على ضيق الذهن والخسة بعكس العيون البعيدة في الوجه الفسيح ، فهي تدل على العبقرية او على شبهها وهو الجنون ولعل اهم ما في العين هو الالق . البريق . النور الذي تشعه، ويدل على الصحة والحيوية، والقوة ، والعصبية، والاحساس بالحياة ، وما هو مضحك وغريب فيها

(1) Having a good sweep and symmetry

اما الفك ، فهناك الفك العنيف الدال على الوحشية ، كفك الغورلاً ، والمتوسط القوة الذي لو تكلم لقال اني قوي وقادر على التغلب على اي عقبة كائنة صعوبتها ما كانت ، والفك المنتهي الى ذقن شوهاء ، مدفونة في العنق ، تدل على تشوه خلقي بل على شخصية ضعيفة عاجزة

ان هذا الموضوع الشائق موضوع مميزات الجسد ودلالتها على الشخصية لا ينتهي واني لاشعر اني امشي وراءه فهو يصرف عنايتي عن سواه من الامور التي اود بسطها الليلة

قلت ان الارادة القوية والشعور بالذات والكرامة غرض التربية فاذا صرفت النظر عن الناحية الروحية قلنا اننا نحتاج في تربية الشخصية الى سلامة الدم وسلامة الاعصاب وسلامة الغدد الصماء

﴿ سلامة الدم ﴾ نظرة واحدة ايها السادة الى مواطنينا الفلاحين تحزن وتبكي ، اذا لبثوا في القرى اصيبوا بالبلهارسيا والانكلستوما التي تسبب فقر الدم ، فيصاب المخ ضمن اعضاء الجسد ، فتضعف قواه ويبلد الذهن ، واذا انتقلوا الى المدن بهرتهم بملاهيها ، وضجيجها ونسائها فتتلقفهم الامراض السرية وهم لا يعرفون عنها شيئاً ، فتنتقل الى دماء ابنائهم وتكمن فيها حتى اذا كبر الشاب شعر بأعراض مبهمة ذهنية ، او جسدية ، فاذا تنبه طبيبه الى تحليل الدم وجد انهُ يحمل نصيبه من جهل ابيه ، وقد لا يفطن الطبيب لكنـهِ المرض . فيتغلغل في الجسم ويسري الى المجموع العصبي فينفث فيه سمه ويهدم الشاب في الوقت الذي ننتظر منهُ كمال الشخصية ونضوجها ! هل نريد شخصيات قوية مستقلة النزعة ، علينا ان نعنى بفلاحينا ونحافظ على سلامة دمائهم ، ولا نكل عن محاربة ادوائهم

﴿ سلامة الاعصاب ﴾ نظرة اخرى الى المدن تحزن وتبكي . كلكم تسمعون عن ويلات المخدرات . ان المخدرات تهدم المجموع العصبي وتبيد الارادة ابادة . اي الشخصيات تكونون في شباب خائر القوى محطم الاعصاب ! اي شخصيات تكونون من هشيم تذروه الرياح ومن حطام مؤذن بالرواح ! تريدون شخصيات قوية انقذوا الشباب من آفته

﴿ الغدد الصماء ﴾ هنا اصل الى اهم الابحاث الجديدة . الى علاقة الشخصية بناحية كانت خافية ، فالقى عليها البحث الجديد اي نور قوي كشاف !

تسمعون ايها السادة عن الغدد الصماء ، فما هي؟ هي غدد تفرز افرازاً يتصل بالدم مباشرة ، يسمى الهورمون Hormone وتتعاون الغدد معاً في حفظ توازن الصحة والخلق ، والذي يهمنا اليوم : الغدة الدرقية ومركزها تحت الحنجرة ، وغدة فوق الكلى ، والغدة النخامية ، وهي في الجمجمة ، والخصيتان في الرجل والمبيضان في المرأة . هذه كلها تتعاون معاً وقد تتعارض مفرزاتها كما تتعارض مجاذيف القارب ، ولكنها تؤدي كلها الى غرض واحد ، وتتآزر تآزراً قويًّا مع المجموع العصبي في حفظ توازن الجسم ، ولا يمكن ان يختل افراز واحدة منها من دون ان يختل الآخر ، واذا اختل نظامها اصيب المجموع العصبي بضعف ظاهر ، ومن هنا أثرها في الشخصية

ومن العجيب الذي كشفتهُ الحرب ان الجنود الذي يصابون بما يسمونهُ صدمة القنابل ، يصابون بالنوراستنيا، ويعقب ذلك اختلال في افراز الغدة الدرقية ، وصاحبتها غدة فوق الكلى، وتتورمان ويزيد افرازها ، وينقص افراز الخصيتين، ويحدث ضعف تناسلي. فغدة فوق الكلى هي غدة الخوف والقلق، فاذا ازداد هذان ازداد افرازها ومرضت، وتبعتها صديقتها الغدة الدرقية، فاذا رأينا رجلاً كهذا رأينا رجلاً سريع دقات القلب ، مرتجف الاطراف، نحيلاً ، غزير العرق

اما عكسه، الذي يقل فيه افراز الغدة الدرقية قلة مرضية وهو الذي اريد ان اتناوله اليوم في بحثي ، فطراز ترونهُ كثيراً ، وهو طراز الشخصية البليدة الكسولة ، فاذا كان طفلاً صاح بهِ ابوه كل ساعة وهو لا يدري ما علته — يدعوه الى الدرس ، وتضربه امه وتلقبهُ بالبليد —وما ذنب المسكين ، واذا كان رجلاً فهو بطيء الفهم ، قليل الجلد ، كثير النسيان ، يتكلم فيما لا فائدة فيهِ ، ولا يتحدث عن نفسه بشيءٍ ، ولا يستطيع صب الفكر او الجهد على عمل ما ولا يعتمد عليهِ في شيء ويكسوهُ الشحم في امكنة خاصة ، فاذا كان رجلاً وجدت لهُ سنام فوق ظهره كسنام الجمال واذا كانت سيدة اكتنز الشحم في الردفين ومعظم الرجال يصابون بالصلع الباكر والشيب، وسقوط شعر الحاجب، وتكون حرارتهم دائماً تحت المتوسط الطبيعي . يجب ان نميز هؤلاء الاشخاص ، ولا نتهمهم بضياع الشخصية بلا مسوّغ فانهم يتحسنون بالعلاج اذا تناولوا خلاصة الغدد باشارة الطبيب

واخيراً هل لكل الامراض تأثير هادم للشخصية وهل كل ما يهدم الجسد يهدم الشخصية ؟ الواقع ان الشخصية اذا تم تكوينها ، لا يؤثر فيها المرض ولكن يحول دون تكوينها إذا لم يكن قد تمّ فملاً . على ان هنالك مرضاً واحداً له تأثير غريب في الحيوية ، ذلك هو السل . اني اوجه انظاركم ايها السادة إلى العيون الواسعة البراقة الجميلة ، في المسلولين ، وإلى صفاء ذهنهم وجمال نفوسهم، واذكر لكم ان الشاعر شيلر كان مريضاً بالسل ، ولكن ذلك المرض العجيب زاد ذهنه صفاءً ، وعبقريته حدة . ثم ان توكسين السل منبه للقلب. منبه للمجموع العصبي. منبه للمجموع التناسلي ، يبعث الامل . ورحم الله شوقي حين قال

الى الحياة سكنت وهي مصارعٌ وإلى الاماني يسكن المسلول !

ولكن ذلك التنبه يتلاشى مع الاسف في وسط الدمار المريع الذي يحدثهُ المرض في طغيانهِ واذكر لكم ايضاً ان الشاعر كيتس مرض بالسل ومات بعد سنتين من مرضهِ انتج في خلالها جلّ انتاجه الخالد

﴿ ختام ﴾ والآن كلمة اخيرة ! ان غاندي ، يضرب لنا مثلاً بصيامه ، في ان قهر الجسد، الى حدٍ محدود مساعد على تقوية الروح ، معظّم للشخصية ، بينما الاسترسال في الاعتناء بالجسد وتدليله هادم للشخصية مضعف لارادتنا

اننا لانستطيع ان نكون كلنا غاندي ولكن امامنا المثل السامي فلنسر على منواله. والسلام

سنة سرعة النور

في نظرية النسبية

النور والاثير — سرعة النور — استقلالها عن مصدر النور — ماذا حلّ محل الاثير

لنقولا الحداد

النور والاثير

لو نجحت عملية (ميكلصن — مورلي) التي شرحناها في المقال المنشور في مقتطف اكتوبر الماضي، اي لو ظهر فرق بين رحلتي الشعاعتين في الوقت والمسافة كما كان منتظراً، لحسبوها برهاناً دامغاً على وجود الاثير. وثمَّة يتيسر لهم ان يستخرجوا سرعة الارض بالنسبة اليه وهي تمخر فيهِ. ولكن خيبة العملية وتعليلها بتقلص الارض في اتجاه حركتها تركا الاثير كما كان فرضاً بلا برهان لان نتيجتها لم تنف وجوده وليس فيها شيء يناقض وجوده حتى « نظرية التقلص » لا تناقض وجوده ولا تنفيهِ. الاثير فرض كوسيلة لانتقال النور، والعملية المشار اليها لا تثبت الاستغناء عن هذه الوسيلة. وانما شيءٌ آخر يثبت هذا الاستغناء سنذكره فيما بعد

ولو لم تتدارك «نظرية التقلص» حيرة اهل العلم في فشل العملية لما وجد العلماء تعليلاً لها الاَّ وجود الاثير باعتبار ان طبقةً منهُ ملازمة لسطح الارض كملازمة طبقة الهواء له. وفي هذه الطبقة الاثيرية سارت شعاعتا جهاز ميكلصن كما يسير القطار وكل جسم متحرك على سطح الارض، وكما تسير الطيارة في طبقة هواء الارض، فلا يكون لسرعة الارض حساب في سرعة الاجسام المتحركة على سطحها وفي جوّها، كما ان الماشي على ظهر السفينة لا يحسب لسرعة السفينة حساباً مع سرعتهِ. وما رجحت نظرية التقلص على نظرية ملازمة طبقة الاثير لسطح الارض الاَّ لان هذه النظرية اضعف جدًّا من نظرية التقلص بسبب ان الاثير مفروض انه لطيف جدًّا جدًّا فلا يعقل ان سطح الارض يجرُّ معهُ طبقة منهُ، الاَّ اذا كان الاثير خاضعاً لسلطة جاذبية الارض كخضوع طبقة الهواء لها. وهذا الفرض ضعيف ايضاً لافتراض ان طبيعة الاثير مختلفة كل الاختلاف عن طبيعة المادة والاَّ لامكن اكتشافه وتحقق وجوده لاشتراكه حينئذٍ بنواميس المادة او ببعضها

ثم ان ما يرجح نظرية التقلص هو البرهان الذي بسطناه في المقال السابق على اقتحام نواة الذرة (Atom) في جوها الكهربائي المغنطيسي واستخرجنا منه قيمة تقلص هذا الجو بعبارة رياضية . واما اذا كانت ثمة نظرية تقضي على نظرية الاثير او على الاقل تغني العلم عنها فهي نظرية ان النور ليس الاَّ موجات كهربائية مغنطيسية تسير في جو جاذبي. وليس هنا محل لبسط هذه النظرية التي يسلم بها علماء هذا العصر جميعاً . وفحواها إن النور نوع من انواع التشعع العديدة التي تصدر امواجاً (وما هي الاَّ حطام الكهارب المندثرة المنحلة فكأنها ابسط صور المادة) ولذلك تنتشر في الفضاء بلا واسطة . لانها ليست حركة امواج في شيء متموّج بل هي الشيء المتموج نفسه . ولذلك يستغنى بها عن الاثير . هذه نظرية اهل العلم الآن

سرعة النور

كان من نتائج عملية ميكلصن تحقيق ان النور سرعة ثابتة لا تتغير اي لا تزيد ولا تقل بل هي على وتيرة واحدة في كل مكان وكل زمان والى اي جهة ولا سلطة لعوامل القوة عليها من هذا القبيل . فهي على سطح الارض وعلى سطح اي جرم وفي كل خلاء بين الاجرام على حدٍّ سواء. ثم ان الاشعة تنتشر الى جميع الجهات بالتساوي. وليس لمصدر النور سلطة على النور ولا سرعة النور مستمدّة من مصدره ولا مصدره يكسبه سرعة مع سرعته ولا هو خاضع لنواميس الحركة والقوة أي لا يدخل تحت قانون الاستمرارية Inertia والمسارعة Acceleration

ولذلك لولا تقلص الجسم المتحرك في اتجاه حركته كالارض مثلاً لظهر لنا ان شعاعة النور الواردة من الشرق تبلغ الينا قبل الشعاعة الواردة من الشمال أو الجنوب وبالاحرى قبل الواردة من الغرب لاننا نستقبل تلك بسرعة ٣٠ كيلو متراً في الثانية ونذبر عن الشعاعة الغربية بسرعة ٣٠ كيلو متراً . ولكن السرعة الارضية (وكل سرعة جرمية) تحدث تقلصاً في الجرم يقابل هذا الفرق بين سرعة النور وسرعة الجرم بحيث لا يظهر لنا فرق في سرعة النور من أي جهة جاء حتى يتراءى لنا كأنَّ الارض ثابتة لا تتحرك بسرعة ٣٠ كيلو متراً . وانما يظهر هذا الفرق بين سرعة الارض وسرعة النور لشخص يقيم خارج الارض . لو كان شخص في الشمس يستطيع أن يرقب حركة الارض والنور العابر على سطحها لرأى أي نقطة من سطح الارض تستقبل رأس لمعة نور شرقية قبل موعد وصولها بثلاثين كيلو متراً في الثانية أي أن سرعة النور تصبح عند تلك النقطة ٣٠٠ الف الاَّ ٣٠ كيلو متراً

بعد هذا البيان يفهم القارئ أن استقرار سرعة النور على حالة واحدة الى جميع الجهات لا يراد به أن سرعة الارض لا يحسب حسابها إذا كانت الارض مقبلة (أو مدبرة) إلى النور الوارد من أي جرم بل يراد به أن سرعة الارض لا يحسب حسابها مع سرعة النور بالنسبة لاهل

الارض الذين وهم على سطح الارض مشتركون معها في سرعتها كما ان المقيمين في السفينة الماخرة لا يحسبون حساب سرعتها مع سرعة شخص ماشٍ على ظهر السفينة لان السفينة بالنسبة اليهم وإلى ذلك الماشي على ظهرها تعتبر كأنها راسية وانما هي تعتبر سائرة بالنسبة الى البحر والشط . وانما يحسب حساب سرعة الارض مع سرعة النور بالنسبة لاي جرم آخر خارج عن الارض ولا شركة له بحركتها . فساكن المريخ مثلاً لا بدَّ ان يدخل حساب سرعة الارض مع سرعة النور في حالتي اقبال الارض أو أدبارها عن اتجاه النور بل نحن سكان الارض متى شئنا أن نحسب سرعة الارض بالنسبة إلى سرعة أي نجم آخر بيننا وبينهُ تباعد أو تقارب فلا بد أن ندخل سرعة أرضنا في حساب سرعة النور الوارد الينا من ذلك النجم لان حركة ذلك النجم غير مشتركة مع حركة الارض

ومن ذلك يتضح أن مسافة المرآة الشرقية في جهاز ميكلصن لم تقصر بالنسبة إلى غيرها من موجودات الارض لان كل ما على الارض متقلص مثلها فبقيت نسبة المسافات بينها واحدة لم تتغيَّر . لذلك لا نستطيع تمييز ذلك التقلص . وانما مسافة المرآة الشرقية قصرت بالنسبة إلى الشمس (أي إلى مَنْ في الشمس يراقب ما يحدث على الارض — على افتراض المستحيل) . وما اكتشفنا هذا التقلص بالرغم من اختفائهِ عنا وكتمان الطبيعة له عن ملاحظتنا إلاَّ بواسطة عملية ميكلصن . أي أن رجوع الشعاعتين معاً بالرغم من اختلاف مسافتيهما كان كاشفاً لحدوث ذلك التقلص

فعملية ميكلصن التي فشلت في اكتشاف علاقة الارض بالاثير نجحت نجاحاً عظيماً في اكتشاف ظاهرة طبيعية خطيرة الشأن بُنيت عليها نظرية النسبية وهي ظاهرة تقلص الجسم المتحرك في اتجاه حركته

* * *

قد يسأل القارئ : لو استطاع ميكلصن أن يقيس مسافة كل من المرآتين بعد أن يغير وضعهما فهل كان ممكناً أن يكتشف إن احداها صارت أقصر مسافة من الاخرى او أقصر مما كانت ؟ نجيب : هب أن ميكلصن يستطيع بطريقة عجيبة أن يجد مقياساً لضبط هذا الفرق الزهيد فالمقياس نفسه يتقلص ايضاً متى قاس بهِ المسافة شرقاً غرباً ويعود إلى طوله الاول متى قاس المسافة جنوباً شمالاً . ولذلك يستحيل عليهِ وهو على الارض ان يختبر الفرق بين المسافتين . وانما يختبره شخص ليس على الارض اذا كان في إمكانه أن يرصد أشياء الارض ويضبط أقيستها . فما من وسيلة لاكتشاف هذا التقلص الاَّ نتيجة عملية ميكلصن التي خالفت المنتظر من وصول احدى الشعاعتين قبل الاخرى

ولا يخفى على القارئ أن مقدار هذا التقلص زهيد جداً لزهادة سرعة الارض بالنسبة إلى سرعة النور فلا يمكن أن تلاحظهُ عين. وإذا شاء القارئ ان يعلم كم يتقلص قطر الارض الذي هو في اتجاه سيرها فليبدل الارقام بالحروف في عبارة لورنتز التي استخرجناها في المقال السابق هكذا

$$١ - \frac{١}{\sqrt{١ - \frac{س^{٢}}{ن^{٢}}}} = ١ - \frac{١}{\sqrt{\frac{(٣٠)^{٢}}{(٣٠٠٠٠٠)^{٢}}}}$$

والنتيجة بعد التحويل من كيلو مترات الى قراريط هي قيراطان ونصف. هذا على اعتبار ان الرقم (١) في المعادلة يعبر عن طول قطر الارض

ولكي يقصر قطر الارض حتى يصير نصفهُ يجب ان تكون سرعة الارض نحو ١٦١٠٠٠ كيلو متر . يمكن استخراج ذلك اذا ضربت عبارة لورنتز بنصف . ولو بلغت سرعة الارض أو أي جرم إلى حد سرعة النور أي ٣٠٠ الف كيلو متر لتلاشت الارض من الوجود. ولتحقيق ذلك رياضياً اجعل س = ن في عبارة لورنتز فتراها بعد البسط = صفراً . ولذلك يستحيل ان توجد سرعة تساوي سرعة النور او تفوقها . فاذاً سرعة النور أعظم سرعة في الوجود ولا تفوقها سرعة . وهذه خاصة اخرى للنور ليست لغيره من الاجسام . ولان النور متناهي السرعة وثابت السرعة صلح مقياساً للابعاد السحيقة . فاصطلح الفلكيون على قياس ابعاد الاجرام بالمسافات التي يقطعها النور في الثانية او الدقيقة او الساعة او اليوم او العام الخ فيقال ان الجرم الفلاني يبعد عنا كذا ساعات او اياماً او سنين من سني النور

استقلال سرعة النور عن سرعة مصدره

من النواميس الطبيعية ان الجسم المتحرك يمنح سرعتهُ لكل جسم مرتكز عليهِ اومتعلق بهِ . فاذا كنت في قطار او في الترام وهو يسير بسرعة كذا في الثانية وعمد السائق إلى توقيفهِ اندفع جسمك إلى الامام لانهُ لا يزال مكتسباً سرعة القطار فيندفع بقوة استمرار السرعة التي كانت للقطار . واذا كانت على ارض القطار بطيخة مثلاً تدحرجت الى الامام للسبب نفسه . واذا كنت في سيارة تسير بسرعة ١٥ متراً في الثانية مثلاً واطلقت من مسدس قذيفة بسرعة ١٠٠ متر في الثانية إلى الامام انقذفت الرصاصة بسرعة ١١٥ اذ تضاف اليها سرعة السيارة التي كانت ممنوحة لها قبل انطلاقها . واذا اطلقت الرصاصة الى الوراء انقذفت بسرعة ٨٥ متراً إذ

تنقص من سرعتها سرعة السيارة التي كانت ممنوحة لها (إلى الامام لا الى الوراء)قبل انطلاقها

تكاد تكون هذه السنة الطبيعية غريزة في ذهن الانسان إذ ترى الغلام مثلاً وهو يقذف من يده قذيفة كحجر او كرة إلى ابعد مدى يستطيعه — تراه يركض الى الامام مسافة ثم يقذف القذيفة وهو راكض لكي يزيدها سرعة على السرعة التي ينشئها عضل يده عند القذف

بمقتضى هذه السنة نفسها تسمع صفير القطار او دويّه وهو مقبل عليك اقوى مما تسمعهُ وهو مدبر عنك لان امواجه الامامية تكتسب مع سرعتها سرعة القطار ولان القطار منحها سرعتهُ إلى الامام لا الى الوراء . لهذا السبب عينهِ تكون امواج الصوت الامامية متقاربة بعضها الى بعض والامواج الخلفية متباعدة على نحو ما شرحناه في المقال السابق . فهل النور خاضع لهذه السنة ؟ أي هل يكتسب مع سرعتهِ سرعة الجسم الذي صدر منهُ ؟ ام هو مستقلٌّ عنهُ فلا يأخذ من سرعته في مسيره الى الامام (بخط اتجاه الجسم المنير) ولا يخسر من سرعته في مسيره الى الوراء (عكس اتجاه الجسم المنير) ؟

اذا كان النور يكتسب من الجسم المنير الذي اصدره سرعته كما يكتسب الصوت سرعة القطار والرصاصة سرعة السيارة في المثالين السابقين فحينئذٍ تنحل قضية عملية ميكلصن بتعليل آخر غير تعليل التقلّص — تعليل افضل وأصح منهُ لانهُ بسبب هذا الناموس (ناموس منح السرعة) لا بدّ ان تعود الشعاعتان في وقت واحد لانهما صادرتان من مصدر ارضي او تحت حكم مصدر ارضي وسائرتان في حيز ارضي فشأنهما كشأن شخصين يسيران على ظهر سفينة الواحد الى مقدمها والآخر الى جنبها — يسيران مسافتين متساويتين بسرعة واحدة ثم يعودان فيلتقيان حيث افترقا . سواء كانت السفينة راسية او ماخرة لأنهُ لا شأن لحركة السفينة بسرعتهما ما داما لا يخرجان منها بل هما باقيان فيها . كذلك لا شأن لسرعة الارض بشعاعتين صدرتا من مصباح على الارض الواحدة في اتجاه سير الارض والاخرى في اتجاه معامد له ثم عادتا عن مرآتين متساويتي البعد فلا بد ان تتلاقى الشعاعتان عند مصدرهما في وقت واحد

هذا اذا فرضنا أنّ النور يكتسب مع سرعته سرعة مصدره

***

ربما كان بعض القراء يستصعب التسليم بأن القذيفة المنطلقة من جرم الى اي جهة فوق ذلك الجرم تكون سرعتها واحدة ما دامت حركتها مقصورة على سطح ذلك الجرم كأن لا شأن لسرعته مع سرعتها : مع ان « ناموس منح السرعة » هو سبب هذه النتيجة فاذا كان القارىء يشك في ذلك فنضرب له مثلاً

تصوَّر سفينة طويلة (٦٠ متراً) تمخر البحر بسرعة مترين في الثانية مثلاً . وعلى ظهرها في منتصف المسافة بين مقدمها ومؤخرها شخص اطلق في وقت واحد رصاصتين

بسرعة ١٠ امتار في الثانية الواحدة الى هدف في المقدم والاخرى الى هدف في المؤخر . فهل تبلغ احداها الى هدفها قبل الاخرى ام تصيبان الهدفين في وقتٍ واحدٍ ؟ والجواب انها تصيبان الهدفين في وقت واحد. ولو كان المجال يتسع لعملية رياضية لانجلى هذا الجواب للقارئ كل الجلاء ، ولوجد ان الوقت الذي تستغرقهُ الرصاصتان في رحلتيهما هو ٣ ثوان. ولامتحان صحة هذه النتيجة نقول : في ٣ ثوان تقطع السفينة ٣×٢ = ٦ امتار والرصاصة الاولى تقطع ٣ × (١٠ + ٢) = ٣٦ بسرعتها مع سرعة السفينة والرصاصة الثانية تقطع ٣ × (١٠—٢) = ٢٤ سرعتها الا سرعة السفينة. فالفرق بين مسافتي الرصاصتين في الجو هو ١٢ متراً نصفه كان مقدار ابتعاد الهدف عن الرصاصة الاولى في اثناء العملية . والنصف الآخر مقدار اقتراب الهدف الآخر نحو الرصاصة الثانية. ولهذا اصابت الرصاصتان الهدفين في وقت واحد فتراءى لمطلقهما انهما قطعتا مسافتين متساويتين في وقت واحد . ذلك حقيقي بالنسبة اليه ولكن بالنسبة لشخص آخر يراقب التجربة على الرصيف ليس الامر كذلك

***

لنفرض ان الهدفين على حافة الرصيف والمسافة بينهما تساوي طول السفينة تماماً اي ٦٠ متراً . وفي منتصف هذه المسافة شخص على الرصيف يراقب . ثم نفرض ان السفينة مرت محاذية للرصيف . فلما صار الشخص ذو المسدسين تجاه موقف الشخص الذي على الرصيف اطلق الرصاصتين على الهدفين . فاذا كان هذا الرقيب يستطيع ضبط موعد اصابة الرصاصتين للهدفين رأى ان الرصاصة المطلقة الى الهدف المقابل للمقدم اصابته قبل ان تصيب الاخرى هدفها، لان الاولى مكتسبة سرعة السفينة مع سرعتها والهدف ثابت لا يسير مع السفينة فبلغت اليهِ في ثانيتين ونصف واما الاخرى فكانت تخسر من سرعتها سرعة السفينة فبلغت الى هدفها في ٤ ثوانٍ ونصف

وحاصل هذا الشرح ان «ناموس منح السرعة» الذي نحن بصددهِ يعدل الفرق الذي تحدثهُ سرعة الجرم المتحرك بين مسافتي قذيفتين تُقذفان من نقطة عليهِ الى اي جهتين فتقطع القذيفتان مسافتين متعادلتين في وقت واحد . ولذلك نرى ان قنبلة المدفع كيفما توجهت قطعت نفس المسافة بالنسبة الى سطح الارض لا بالنسبة الى الفضاء (ان كان في الفضاء جسم ثابت ينسب اليهِ) ولولا ان الارض تكسب القنبلة سرعتها اذا سايرتها وتختلس منها بقدر سرعتها اذا عاكستها سيراً ، لكانت القنبلة التي تسير بسرعة تضاهي سرعة الارض على محورها (نحو $\frac{1}{4}$ ميل في الثانية) اذا انقذفت الى الشرق تمادى مضاعف مداها واذا انطلقت الى الغرب سقطت امام فم المدفع

هل ينطبق ناموس منح السرعة على النور ؟

بناءً على هذا الناموس الطبيعي اي ان الجسم المنطلق عن جرم آخر ينطلق بسرعة واحدة الى جميع الجهات (اللهمَّ ضمن سطح هذا الجرم) سواءٌ كان الجسم الذي ينطلق عنهُ ساكناً او متحركاً ، وانما الفرق في السرعة بين انقذافهِ مع اتجاه الجرم وانقذافه ضده او الى جانبهِ يظهر لرقيب خارج عن ذلك السطح غير متحرك بحركتهِ — بناءً على هذا الناموس زعم العالم الطبيعي السويسري ريتز ان النور الصادر من مصدر ارضي (كما في جهاز ميكلصن) لا بد ان يسير الى كل الجهات بسرعة واحدة كسير القنبلة على سطح الارض الى اي جهة بسرعة واحدة وكسير الرصاصتين على ظهر السفينة . ولذلك في رأيهِ فشلت عملية ميكلصن في استكشاف سرعة الارض في بحر الاثير . ويستحيل ان تستكشف باي عملية أخرى ايضاً للسبب عينهِ

فان صحت نظرية ريتز هذه تسقط نظرية فتزجرلد (تقلص الارض في اتجـاه حركتها) . وبسقوط هذه تسقط « نظرية النسبية » برمتهـا لانها مبنية على نظرية استقلال سرعة النور عن سرعة مصدره . ولـكن العلامة الفلـكي الهولاندي دي ستر De Sitter برهن برصد النجوم المزدوجة ان سرعة انتشار النور لا يمكن ان تتوقف على سرعة الجرم الذي يبعث النور . وقد اعتمد العلماء على هذه الحقيقة لانهم وجدوا مؤيدات كثيرة لها . وثبت لهم ان اشعة النور تمتاز باستقلالها في سرعتها عن سرعة اي جرم تصدر منه . ليس لمصدرها تأثير عليها . فنظرية ريتز ساقطة

ولايضاح الفرق بين سرعة النور وسرعة الرصاصة في السفينة او القنبلة على سطح الارض نقول : اننا ونحن على الارض لا نحسب حساباً لسرعة الارض مع سرعة الاجسام التي عليها لانها (اي الارض) بسيرها تسترد من الجسم المتحرك عليها السرعة التي منحتها اياه ولـكننا نحسب حساب سرعتها مع سرعة النور لانها لا تمنح النور شيئاً من سرعتها . فاذا عبرت شعاعة نور على سطح الارض مع اتجاه سير الارض طرحنا سرعتنا من سرعة النور واذا عبرت معاكسة لخط مسير الارض أضفنا سرعتنا الى سرعتهِ . وانما نحسب في الحالتين حساب تقلص الارض

$$\sqrt{1 - \frac{س^{2}}{ن^{2}}}$$

فتتعدل المسافتان لوقت واحد

فاذا كنا نرى ان اشعة النور تقطع على سطح الارض مسافات متعادلة إلى جميع الجهات فليس ذلك لان سرعة الارض سقطت من الحساب بل لان تقلّص الارض عوّض الفروق

التي نحسبها لسرعة الارض . فكأن التقلص قام مقام منح السرعة

اذاً ، ناموس سرعة النور يختلف عن ناموس سرعة الاجسام ويمتاز عليه بهذا الاستقلال. واستقلاله هذا جعل النسبية مبدأً او ناموساً قائماً بذاته أيضاً . ولذلك لم يبق بدٌّ من مراعاة عبارة لورنتز المذكورة آنفاً في كل معادلة من معادلات الميكانيكيات تصحيحاً لها . ولايضاح ذلك فصل آخر

ماذا حل محل الاثير

هذا الموضوع يستلزم كلمة موجزة جدًّا في موضوع الجاذبية وهي اهم نقطة في «النسبية الخاصة» . فسَّر فارادي الجاذبية بانها جوٌّ ينشرهُ الجسم حوله . ولهذا الجو خاصة تجعل جسماً آخر ينجذب إلى الجسم الاول كما هي الحال بين الشمس وسياراتها مثلاً ، أو بين الارض والقمر. وقد فرض فارادي هذا الفرض لازالة ما علق في الاذهان من ان الجسم الواحد يجذب الآخر، لان الجذب عن بعد بغير واسطة غير معقول . ففرض له الجو الجاذبي . فالذي يجذب القمر والحجر إلى الارض ليس الارض نفسها وانما الجو الجاذبي الذي نشرته الارض حولها يدفع القمر او الحجر نحوها . فالارض انشأت الجو حولها . والجو تولَّى وظيفة الجذب او حركة الانجذاب. فالارض لا تجذب الحجر بل هو ينجذب اليها بواسطة الجو الجاذبي

يستفاد مما تقدم ان فكرة استحالة الفعل عن بعد بغير واسطة حملت فرادي ان يفترض هذا الجو لكي يتخلص من المستحيل في امر واقع (الجذب عن بعد) . فاذاً الجو الجاذبي مجرد فرض فقط لتسهيل حل ذلك اللغز اي لغز الانتقال او الفعل عن بعد بلا واسطة . فلما اكتشف مكسويل ان النور امواج كهربائية مغنطيسية قال العلماء استغنينا عن الاثير . ولكنهم ما لبثوا ان فرضوا الجو الجاذبي بدل الاثير ليكون واسطة لنقل الامواج الكهربائية المغنطيسية ومنها امواج النور كما يكون واسطة لنقل فعل الجذب او الانجذاب . اذن ، ما استغنوا عن فرض حتى اضطروا الى فرض آخر بدله مثله . فكأنهم ابدلوا الاسم فقط فجعلوا لفظ «الجو الجاذبي» بدل لفظ « الاثير » . وليس الجو الجاذبي حقيقة اثبت من الاثير بل هو شيء مفروض كما ان الاثير شيء مفروض . ولا يزال مثله حقيقة مجهولة

على ان الجو الجاذبي يختلف عن الاثير بكونه غير مالئ الفضاء على نمط واحد بل تتفاوت حدَّته بتفاوت الابعاد عن الجسم المحدثه . فكأنهم باختلاق هذا الجو قد نقحوا نظرية فرض الوسيط بين الفاعل والمفعول بهِ — الجاذب والمجذوب او المموّج والمتموّج او وسيلة الموج . فهو اذاً وسيط على كل حال سواء سُمّيَ اثيراً اوجوًّا جاذبيًّا . وبهذا الفرض الجديد اصبح الاثير اقرب إلى المادة منه الى الروح الاثيرية او الاثير الروحاني

شبرا — مصر نقولا الحداد

وجودي

لأحمد محرم

وُجودي ، لَسْتَ لي ، فلِمَنْ تكونُ ؟ أسرٌّ أنتَ عن نَفسي مَصونُ
يُصيبُ حَقائِقَ الأشياءِ عِلمِي وتَعْصِفُ بي حواليْكَ الظُّنونُ
أمِنْ نفْسي على نَفْسي غِطاءٌ ؟ فكيْفَ أنا ؟ أشَكٌّ أم يَقينُ ؟

* * *

وُجودي ، ما عرفتُكَ غيرَ مَعنىً تغلْغلَ في الخفاءِ ، فما يَبينُ
غَريقٌ في الظَّلامِ ، ولا مَغاصٌ ولا جِسرٌ يُلاذُ بهِ أمينُ
أُقيمَ عليهِ سُورٌ مِنْ عُبابٍ تَضِيلُ على جوانبِه السَّفينُ
أُطِلُّ ، ويَضرِبُ التيَّارُ وَجْهي فأينَ أنا ؟ أحُرٌّ أمْ سَجينُ ؟

* * *

وجودي ، أينَ أنتَ ؟ ألا سَبيلٌ إليكَ ، فيَهْدأُ العاني الحزينُ ؟
ومَنْ أنا في بَني الدُّنيا ؟ ومَا لي وللدُّنيا ، وما وَعثِ القرُونُ ؟
أتشغلُني الحياةُ بكلِّ حَيٍّ وتولِعُني بمنْ طَوتِ المنونُ ؟
أُريدُ هوادَةً ، وتثورُ حوْلي هُمُومٌ ، ما لعاصِفِها سُكونُ
وتَسْلُبُني خُطوبُ الدَّهْرِ نَفسي فما خَطْبي ؟ أحيٌّ أمْ دَفينُ ؟

* * *

وجُودي ، ما وَجَدتُكَ غيرَ خصمٍ تَلينُ قُوَى الخصُومِ ولا يَلينُ
قَرينُ مَضرَّةٍ لا بُدَّ منهُ إذا ما رابَني ، فهَو القَرينُ
تُطيلُ عَداوتي ، وأنا المُعادي وتَهْدِمُ قوَّتي ، وأنا المُعينُ
أُريدُ الصَّمتَ أستبْقيكَ جُهْدي وتُنطِقُني الحوادثُ والشُّؤونُ
ومَا لي أرقُبُ العُقبى فأشْقى ؟ ومَا العُقبى ؟ أجِدٌّ أمْ مُجُونُ ؟

* * *

وُجودي ، ما الوُجودُ ، ومَا وَرائي ؟ إذا عَدَتِ النَّوى ، ومضى الرَّهينُ ؟

رأيتُ المرءَ لا يُغنيهِ عقلٌ ولا يَهديهِ في الأحياءِ دينُ
سألتُ العلمَ كلَّ فتىً عليمٍ فلا سَمِحٌ أفادَ ، ولا ضنينُ
وما تُغني الشروحُ ، وإنْ تَناهتْ إذا استَعصتْ على العقلِ المتونُ
وما العقلاءُ إلاّ في ضلالٍ إذا استولى على الدنيا الجنونُ

* * *

ديارَ الشرقِ ، هل بكِ من قطينٍ ؟ دعيني ، ما الديارُ وما القطينُ ؟
ظمئتُ ، وفي الأدبُ المصفّى وضعتُ ، وفي يدي الكنزُ الثمينُ
ظلمتُ أبي ونفسي إنَّ مثلي لغالٍ في النوابغِ لا يهونُ
كريمٌ تدفعُ الأخلاقُ عنهُ ويمنعُ ركنَهُ الأدبُ الحصينُ
أقولُ فيفزعُ الشعراءُ صوتي وما أنا في بني وطني ظنينُ
لربّي ما عملتُ وعندَ قومي ديوني ، حينَ تلتمسُ الديونُ
أمِنْ أدبي تبيتُ الطيرُ تبكي ؟ فما أدري ؟ أشدوٌ أمْ رنينُ ؟

* * *

وجودي ، أينَ كنتَ ؟ وليتَ شعري ؟ على طولِ المقامِ ، متى تبينُ ؟
لئنْ أعجبتني فرضيتُ حيناً لذلكَ ما جنى الرأيُ الغبينُ ؟
كبرتُ وما عرفتُ مكانَ نفسي فما أدري أشيخٌ أمْ جنينُ ؟

***

وجودي ، حانَ موعدُ كلّ صادٍ وأبطأَ موعدي ، فمتى يحينُ ؟
نهاني عنْ حياةِ السوءِ علمي بما يَصِمُ الرجالَ ، وما يزينُ
أشدُّ على الفنونِ يدي ، وإنّي لفي زمنٍ جهالتُهُ فنونُ
يصونُ الحرُّ مهجتَهُ فيبقى ويُهلكُ نفسَهُ الضَّرعُ المهينُ
رأيتُ العزَّ أجمعَ في يراعٍ يصونُ جلالَهُ خُلقٌ متينُ

وما يَبْقى الهِزَبْرُ بغَيرِ نابٍ ولَوْ انَّ السَّحابَ لَهُ عَرينُ

***

سَلِ (الهرَمَ) المخلَّدَ بعْدَ (خوفو) أيَضرَعُ للخُطوبِ ويسْتَكينُ؟
خَصيمُ الدَّهْرِ تَستَعْصي ذُراهُ على ما كانَ مِنْهُ، وَما يكُونُ
يُزَلْزِلُ راجِفَ الأحْداثِ مِنْهُ وقُورٌ في زَلازِلِها رَزِينُ
فَتِيَ الدَّوْلاتِ، يُلْهِمُها هُداها ويُوقِظُها إذا غَفَتِ العُيُونُ
ويَنْهي المَالِكينَ، فَلا غُرُورٌ إذا قَهَرُوا الشُعُوبَ، ولا فُتُونُ
نَصيحٌ لا يَغشُّ، ولا يُداجي وقاضٍ لا يَضِلُّ، ولا يَخُونُ
زَهَا نَبْتُ المَمالِكِ في ثَراهُ وطَاحَ على جَوانبِهِ الدَّرِينُ (١)
مُشَيِّعُ نَعْشِها، إنْ كانَ مَوْتٌ وإنْ يكُ مَوْلِدٌ، فهُوَ الشَّبِينُ (٢)
ثَرىً دارَتْ عَلَيْهِ رَحَى اللَّيالي فَما وَقَفَتْ، ولا انْقَطَعَ الطَّحينُ
حَمَى (فِرْعَوْنَ) دُمِّرَ كلُّ عالٍ وهِيبَ بِناؤهُ العالِي المَكينُ
أمأْذَنَةُ الخُلودِ يُطِلُّ مِنْها على الدُّنْيا إذا نَزَلَ الأذينُ؟
تَمُرُّ بِهِ العُصُورُ، فَمُسْتَتِرٌ يُحاذِرُ أنْ يَراهُ، ومُسْتَبِينُ
بِناءُ العَبْقَرِيَّةِ في صِباها بِناهُ شَبابُها اللَّبِقُ الفَطِينُ
تَدِينُ لَهُ الصَّواعِقُ، وَهْوَ راسٍ بِمُصْطَدَمِ الصَّواعِقِ، لا يَدِينُ
تَشَكَّتْ طُولَ صُحْبَتِهِ اللَّيالي ومَلَّ جِوارَهُ الرَّصَدُ الكَمِينُ

***

وُجُودي، أنْتَ لي ولِكُلِّ حُرٍّ خَدِينُ جَلالَةٍ، نِعْمَ الخَدِينُ
حَنِينٌ ما رَأيْتَ، ولا خُلُودٌ خُلُودٌ ما بَنَيْتَ، ولا حَنِينُ
إذا عَزَّ السَّبيلُ على أُناسٍ فَأنْتَ إمامُهُمْ، وأنا الضَّمِينُ

احمد محرم

(١) الدرين ما اسود وقدم من النبات
(٢) الشبين من يقوم بخدمة العريس في العرس، والامر متقارب

المنذر بن ماء السماء

ملك الحيرة

٥١٤ — ٥٦٣ م

بقلم يوسف رزق الله غنيمة وزير مالية العراق سابقاً

هو المنذر الثالث ابن امرىء القيس سمي ابن ماء السماء بلقب امهِ ماء السماء ذلك اللقب الذي غلب على اسمها لجمالها وحسنها [١] او لكرمها ورقة طبعها [٢] وقيل سميت بهِ نسبةً إلى السماوة وكانت تدعى بماء فسمتها العرب ماء السماء [٣] وقيل كان اسمها ماوية او مارية بنت عوف ابن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط [٤] ويقال بل هي رُبيعة اخت كليب والمهلهل التغلبيين [٥] وروى بعضهم ان المنذر لقب ماء السماء لجوده وسخائهِ كما علاَّ قطر الغيث الارض . وعرف المنذر بذي القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره [٦]

لحكم هذا الملك عهدان تتخللهما فترة فالعهد الاول في زمن قباذ وهو بدء ملكه في الحيرة تولّى عرشها بعد وفاة أبيهِ سنة ٥١٤ وهي السنة السادسة والعشرون من حكم قباذ وعلى ذكر قباذ نقول انهُ تزيّن بتاج الاكاسرة سنة ٤٨٨ وفي سنة ٤٩٦ طرده جاماسب وحكم دولة الساسانيين. وعاد قباذ ثانية إلى الحكم سنة ٤٩٨ وما كان لقباذ من استيلاء جاماسب على دولتهِ حدث للمنذر الثالث . فانَّ الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي استولى على الحيرة بمعاونة قباذ وطرد المنذر الثالث في سنة ٥٢٩ وبقي عليها حتى سنة ٥٣١ وفي هذه السنة طرد كسرى انوشروان الحارث بن عمرو الكندي واعاد المنذر الى حكم الحيرة وبقي عليها حتى وفاته سنة ٥٦٣ وهذا هو عهد حكمه الثاني [٧]

قبل ان نأتي على تاريخ الحيرة في عهد المنذر بن ماء السماء لنقل كلمة في خلق هذا الملك :

---

(١) حمزة الاصفهاني ٧٠ (٢) شيخو : النصرانية وآدابها ٨٨ (٣) معجم البلدان مادة سماوة قال ياقوت ان ماء السماء هي ام النعمان . اما السماوة فهي بادية بين الكوفة والشام قفرى . وقال السكري السماوة ماءة لكلب (٤) الطبري ٢ : ٩٢ وحمزة الاصفهاني ٧٠ ذكر الطبري اسمها مارية والاصفهاني ماوية (٥) النصرانية وآدابها ٨٨ (٦) الطبري ٢ : ٩٢ (٧) ابو الفداء ١ : ٧٤ ويجعل كوسن دي برسفال بدء حكم ابن ماء السماء سنة ٥١٣ ونهايته سنة ٥٦٢

كان المنذر قوي الشكيمة لا يستميله الوعد ولا يلويه الوعيد يخوض غمارات الموت غير هيابٍ ولا وجل وينزل معامع القتال ثابت الجأش كالاسد الضرغام فيلقي الرعب في قلوب أعدائهِ وتنهزم فلول جيوشهم موليّة الادبار هلعة لان الرجل كان ظالماً عاتياً فتّاكاً يسفك الدماء مدراراً لاشباع اطماعه ونفسهِ الوثّابة وإرضاءً لواهمته الحادة الخيال وكان يظهر بين الفينة والفينة جواداً كريماً تعفّ عن نفسه الشرّ شأن الرجال الذين يقضون ايامهم في اضطراب وقلق . فيتجلى في اخلاقهم مظهران متشاكسان مظهر القسوة ومظهر العطف على البشرية المتألمة

***

في بدءِ مُلك المنذر كان قباذ ملك الفرس قد عقد الصلح مع الهياطلة بعد حروب دامت بين الفرس والهياطلة عشر سنوات (٥٠٣ — ٥١٣) فاتيح له آنئذٍ ان يوجّه انظاره إلى علاقاته بالروم لأن الروم كانوا قد استفادوا من انهماك الفرس بحرب الهياطلة فتقدموا من التخوم الفارسية وعززوا حصونهم في مدينة دارا ولم يصغ الانبراطور انسطاس إلى الاعتراضات التي بعث بها اليهِ قباذ على لسان وفد اوفده اليهِ وتابع يوسطنوس الاول Justin I (٥١٨ —٥٢٧) سياسة سلفهِ العدائية تجاه الفرس . وقصارى القول توترت العلاقات بين الدولتين واشتعلت نار الحرب بينهما في ارمينية الفارسية [١]

وكان الانبراطور يوسطنوس الاول يخطب ودّ المنذر بن ماء السماء ويحاول ان يعقد معهُ معاهدة صلح وولاء . فأرسل اليهِ وفداً في هذه المطاوي للمفاوضة يخبرنا احد كتبة السريان شمعون اسقف ارشم أنهُ في ٢٠ كانون الثاني (يناير) سنة ٥٢٤ غادر مدينة الحيرة مع القس ابراهام الذي كان قد اوفده الامبراطور يوسطنوس الاول إلى المنذر ملك العرب ليفاوضهُ في عقد معاهدة صلح فالتقى الوفد بالمنذر في رملة Ramla [٢]

نجهل الدواعي التي حدت بالانبراطور إلى إرسال هذا الوفد في ذلك التاريخ وغزوات المنذر بلاد الروم كانت بعد ذلك التاريخ على ما نحدس الاَّ اننا نرتئي أن يوسطنوس أراد أن يتحالف مع ملك الحيرة ليأمن حدود برية الشام في زمن كانت علاقاته بالفرس غير مرضية والحرب على قاب قوسين او اندلعت نيرانها في ارمينية الفارسية

ومما يذكرهُ لنا شمعون الارشمي في رسالته هذه انهم (اي هو والقس ابراهام وجرجس او سرجيس اسقف الرصافة) [٣] علموا آنئذٍ أن المنذر أخذ رسالة من ذي نؤاس الحميري ملك اليمن اليهودي يستحثهُ فيها على اضطهاد النصارى وقتلهم في الحيرة كما فعل هو

(1) Sykes : His. of Persia : I:480-481 (2) Duval : Litt. Syriaque 148-151

(٣) السمعاني المكتبة الشرقية ١ : ٣٦٤ طبعت رسالة شمعون الارشمي بالسريانية وترجمت الى اليونانية .

بنصارى نجران (١) فأثر كلام ملك اليمن في المنذر وأراد أن يمتحن ايمان المتنصرين من جيشه فدعا قوماً منهم وعرض عليهم جحود ايمانهم فقام احد ضباطه فقال له : « ان تنصرنا قد سبق جلوسك على عرش المناذرة فهيهات أن تقنعنا بالعدول عن ديننا وعلى كل ان كان رفقائي لا يثبتون في مذهبهم فاني لا أجحده مطلقاً ولست أخاف العذاب ولا الموت كما تحققت ذلك لما رأيتني في وقائع الحروب اذا لم يك سيفي اقصر من سيف سواي» فلما سمع المنذر كلامه عرف انهُ لا يستفيد شيئاً فعدل عن قصده وترك كلاً من جنوده يتبع دينه (٢) . وفي سنة ٥٢٨ كانت الحرب سجالاً بين الروم والفرس وكان جيش الروم بقيادة بلساريوس Belisarius فني بخسائر فرأى الملك يوسطنيانوس Justinian (٥٢٧—٥٦٧) خليفة يوسطنوس الاول تقوية جيشه فقواه . وكان الجيش الفارسي بقيادة فروز مهران يتقدم الى دارا (٣) ونرى في هذه التضاعيف المنذر بن ماء السماء يغزو الحارث بن ابي شمر ملك غسان وينتصر عليهِ ويغنم الغنائم الكثيرة والمال الوافر ويمعن في اجتياح سورية ويتقدم الى انطاكية ويستولي عليها ويقدم الى الالاهة العزّى ضحايا بشرية اربعمائة راهبة كما ذكره الكتبة السريان وسلب ونهب وقتل وألقى الرعب في القلوب (٤)

لم يطل الأمد على المنذر في حكمه بعد هذه الموقعة بل قام عليه الحارث بن حجر آكل المرار الكندي (٥) وطرده من الحيرة واستولى عليها بمؤازرة كسرى قباذ لانهُ شايعه في المزدكية مذهب مزدك بن بامداذان الزنديق الذي ظهر في ايام قباذ المذكور فوالاه قباذ المذكور ودان بالمزدكية الآمرة الناس بالتساوي في الاموال والاشتراك في النساء أي مذهب الشيوعية (٦) وكان المنذر قد رفض المزدكية فاغتاظ منهُ قباذ ونقم عليهِ (٧) . وقال حمزة الاصفهاني (٨) في هذا الموضوع . فضعف ملك العرب لان مادة قوة ملوك العرب كانت من جهة ملوك الفرس فعندها ملّكت بكر بن وائل عليها الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار فهرب المنذر من دار مملكته الحيرة ومضى حتى نزل إلى الجرساء الكلبي وأقام عنده وكانت هذه الحوادث نحو سنة ٥٢٩ . ثم أن أمرأ القيس الثالث (٩) (والد المنذر بن ماء السماء) كان يغزو قبائل ربيعة فينكي بهم

(١) راجع عن هذا الاضطهاد الطبري ٢:١٠٥ وابن الاثير ١:١٧١ (٢) شيخو: النصرانية وآدابها ٨٩ . (3) Sykes : His. of Persia I:481 (٤) تاريخ ميخائيل الكبير طبعة شابو ٢:١٧٨ وتاريخ زكريا الخطيب طبعة لندن ٣:٢٤٤ (٥) قال القلقشندي : في كتابه نهاية الارب في معرفة انساب العرب ص ٣٣١ كندة قبيلة من كهلان وكندا هذا ابوهم واسمه ثور وانما سمي كندة لانه كند اباه اي كفر نعمته وكندة هذا هو ابن اخي جذام ولخم وعامله وبلاد كندة باليمن وكان لكندة هؤلاء ملك بالحجاز واليمن ومنهم امرؤ القيس الشاعر المشهور . آه . وكانت كندة قبل ان يملك حجر عليهم بغير ملك يأكل القوي الضعيف فسدد امورهم وساسهم احسن سياسة وانتزع من اللخميين ارضهم (٥٠٣ م) ثم ملك بعده ابنه عمرو المقصور ثم استخلفه الحارث وعظم شأنه حتى ولاه قباذ على العراق زمناً (٦) ابو الفداء ١:٧١ (٧) ابن الاثير ١ : ١٧٥ (٨) كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ٧١ (٩) يذكر الاصفهاني اسمه امرء القيس البدء ونظنه غلطاً والاصح الثالث

ومنهم أصاب ماء السماء وكانت امرأة أبي حوط الحظائر ثم أنهُ ترك الحزم في غزوة من غزواتهِ فثارت بهِ بكر بن وائل فهزموا رجاله وأسروه فبقيت تلك العداوة في نفوس بكر بن وائل إلى أن وهى امر الملك قباذ فعندها ارسلت بكر إلى الحارث بن عمرو الكندي فملكوه وحشدوا له ونهضوا معهُ حتى أخذ الملك ودانت له العرب [1]

بقي الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ملكاً على الحيرة حتى مات قباذ وتولّى تاج الأكاسرة كسرى أنو شروان العادل سنة ٥٣١ وانتقض على مزدك فقتله وقتل اشياعه شر قتلة وطهّر البلاد من الزندقة وبلغهُ أن الحارث آكل المرار دان بالزندقة وحامى الزنادقة بمعنى أن المزدكيين الذين طاردهم كسرى وخشوا قصاصه هربوا ملتجئين إلى الحارث في الحيرة فبعث كسرى إلى المنذر بن ماء السماء من اشخصه اليهِ فقواه برجال من الاساورة وردّه إلى الحيرة ملكاً [2] وكان الحارث يومئذٍ في الانبار فبلغهُ الامر فخرج هارباً في صحابته وولده فمرّ بالثوية وتبعهُ المنذر بالخيل من تغلب واياد وبهر فلحق بارض كلب ونجا وانتهبوا ماله وهجائنه وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار فقدموا بهم إلى المنذر [3] فأمر المنذر بقتلهم بجفر الاملاك في ديار بني مرينا العباديين بين دير هند الكبرى والكوفة فقتلوا . ورثاهم امرؤ القيس الشاعر الذائع الصيت وهو حفيد الحارث آكل المرار وكان مع هؤلاء الذين قبضت عليهم تغلب من بني قومه وهو أفلت واليك مرثيته [4]

ألا يا عينُ بكّي لي شنينا وبكّي لي الملوك الذاهبينا
ملوكاً من بني حجر بن عمرو يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة اصيبوا ولكن في ديار بني مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسلٍ ولكن في الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم وتنتزع الحواجب والعيونا [5]

وفي هذه الموقعة يقول عمرو بن كلثوم في معلقتهِ [6]

---

(١) يفهم من رواية الاصفهاني ان احتلال الحارث الكندي الحيرة كان بالرغم عن قباذ ويؤيد هذه الرواية ما جاء في تاريخ الطبري ٢: ٨٦ ان الحارث بن عمرو بن حجر الكندي ملك الحيرة بمؤازرة خاله تبع بن حسان بن تبع بن ملكيكرب ابن تبع الاقرن (٢) حمزة الاصفهاني ٧١ (٣) ابن الاثير ١: ١٧٥ (٤) الاغاني ٨: ٦٢ وشعراء النصرانية ٧
(٥) وجاء في معجم البلدان في مادة (دير بني مرينا) وفي شعراء النصرانية ص ٥٧ ان امرأ القيس قال هذا الشعر في وقعة يختلف وصفها عما جاء في الاغاني كما اثبتناه في النص اعلاه وهو ان قيس بن سلمة حفيد الحارث آكل المرار اغار على المنذر فهزمه حتى ادخله الخورنق ومعه ابناه قابوس وعمرو ولم يكن ولد له يومئذ المنذر ابن المنذر فمكث المنذر ذو القرنين وهو ابن ماء السماء حولا ثم اغار عليهم بذات الشقوق فأصاب منهم اثني عشر شاباً من بني حجر بن عمرو كانوا يتصيدون وكان معهم امرؤ القيس الشاعر ولكنه أفلت وقدم المنذر في الحيرة بالفتية فحبسهم بالقصر الابيض شهرين ثم ارسل اليهم ان يؤتي بهم فخشي ان لا يؤتى بهم حتى يؤخذوا من رسله فارسلوا اليهم ان اضربوا اعناقهم حتى ما اتاكم الرسول فأتاهم الرسول وهم عند الجفر فضربوا اعناقهم به
(٦) الاغاني ٨ : ٦٢

فآبوا بالنِّهاب وبالسَّبايا وأُبنا بالملوك مصفدينا

كان الحارث آكل المرار قد فرّق ولده في قبائل العرب فملّك ابنه حجراً على بني أسد وغطفان وملك ابنهُ شرحبيل (قبل يوم الكلاب) على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة وطوائف من بني دارم بن تميم والرباب وملك ابنه معديكرب على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم ابن حنظلة والصنائع وهم بنو رقية وملك ابنه عبدالله على عبد القيس وملك ابنه سلمة على قيس[1] فكان المنذر بن ماء السماء يتحين الفرص للانتقام من اعقاب الحارث فوقع خلاف بين ابني الحارث شرحبيل وسلمة آلت الى حرب وقتال وبعد وقائع دامية في يوم الكلاب التجأ أحدهم سلمة ببني تغلب فاخرجت تغلب سلمة من بينهم فلجأ الى بكر بن وائل فلما صار عند بكر اذعنت له وحشدت عليهِ وقالوا لا يملكنا غيرك فبعث اليهم المنذر يدعوهم الى طاعته فأبوا ذلك فحلف المنذر ليسيرنَّ اليهم فان ظفر بهم فليذبحنهم على قلة جبل اوارة حتى يبلغ الدم الحضيض وسار اليهم بجموعهم فالتقوا باوارة فاقتتلوا اقتتالاً شديداً وانجلت الواقعة عن هزيمة بكر واسر يزيد بن شرحبيل الكندي فأمر المنذر بقتله. وقُتل في المعركة بشر كثير واسر المنذر من بكر اسرى كثيرة فأمر بهم فذبحوا على جبل اوارة فجعل الدم يجمد فقيل له ابيت اللعن لو ذبحت كل بكري على وجه لارض لم يبلغ دماؤهم الحضيض ولكن لو صببت عليهِ الماء ففعل فسال الدم الى الحضيض وأمر بالنساء ان يحرقنَ بالنار فتشفع رجل من قيس فأطلقهنَّ المنذر واشتهرت هذه الموقعة عند العرب بيوم اوارة الاول[2]

لا نعلم متى حدثت موقعة يوم اوارة. هل بعد عودة المنذر الى حكم الحيرة توّا أو بعد غزوته سورية للمرة الثانية في عهد كسرى انو شروان كما سيجيء ذكرها. وبعد زوال ملك الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار قال امرؤ القيس يرثي ملك جده ويصف تباريح الزمان:

أبعد الحارث الملك بن عَمْروٍ له مُلْكُ العراق الى عمانِ
مجاورةً بني شَمَجى بن جَرْمٍ هواناً ما اتيح من الهوانِ
ويمنحُها بنو شمجى بن جَرم مَعيزَهمُ حنانك ذا الحنان[3]

وبقي المنذر بن ماء السماء يطارد آل آكل المرار ويبطش بهم وهم يهابونهُ. ومنهم امرؤ القيس الشاعر الطائر الشهرة. فلبثوا عهداً عند الحرث بن شهاب حتى بعث اليهِ المنذر مائة من رجاله يوعده بالحرب ان لم يسلم اليهِ بني آكل المرار فأسلمهم ونجا امرؤ القيس. فخرج على وجهه وأقبل على فرسه الشقراء لاجئاً الى ابن عمته عمرو بن المنذر بن ماء السماء. لان ام عمرو هند بنت عمرو بن حجر بن آكل المرار وذلك بعد قتل ابيه واعمامه وتفرق اهل بيته وكان عمرو يومئذ خليفة لابيه المنذر ببقة وهي بين الانبار وهيت فمدحه وذكر صهره ورحمه

(١) الاغاني ٦٢ : ٦٣ (٢) ابن الاثير ١ : ٢٢٨ (٣) شعراء النصرانية ٦٧

وانهُ قد تعلق بحباله ولجأ اليهِ فأجاره عمرو ومكث عنده زماناً ثم بلغ المنذر مكانه عنده فطلبه وانذره عمرو . فهرب الى هانيء بن مسعود بن عامر احد رؤساء بني شيبان فلم يجره وقال له انا في دين الملك فأتى سعد بن ضباب الايادي سيد قومه فأجاره[1]

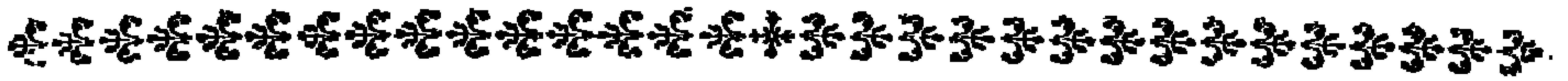
وذكر مؤرخو الروم مثل ننوز وبروكوب وغيرهما ان امرء القيس وهم يسمونهُ قيساً قبل وروده على القيصر يوستنيانوس اوفد اليهِ وفداً يطلب منهُ النجدة على بني اسد وعلى المنذر ملك العراق[2]

ذكر سايكس[3] ان في سنة ٥٣١ اتخذت التدابير في بلاد فارس لاجتياح سورية بمحالفة العرب بامرة المنذر بعد ان اخفقت مفاوضة الصلح مع الروم الاّ ان القائد الساهر بلساريوس وقف على هذا الخبر وسير عساكره سيراً حثيثاً وجعله حائلاً بين الغزاة وانطاكية . ولما فشل الجيش الفارسي في تحقيق جُلّ مقصدهم انجلوا عن البلاد الرومية وكان في نية القائد الرومي ان يفسح لهم المجال في جلائهم هذا الاّ ان عسكره ضجّ صاخباً وأراد ان يطارد الفرس فوافقهم مرغماً ولكنهم خسروا وتحرَّج موقفهم ولم يتمكن قائدهم من الخلاص من هذه الورطة الاّ بمهارة عسكرية . وكانت هذه آخر موقعة من الحروب وجاء خبر موت قباذ آنئذ فكفَّ الجيش الفارسي وانجلى

يفهم من رواية سايكس ان في أُخريات أيام قباذ كان المنذر في رأس العرب الذين نصروا الفرس في هذه الحرب مع ان مؤرخي العرب ذكروا ان المنذر كان على غير وئام مع قباذ وان الحارث آكل المرار كان قد اغتصب ملك الحيرة بمؤازرة قباذ نفسه كما مرَّ بنا قبيل هذا فان صحّت رواية سايكس هذه فلا نجد لتعليلها سبيلاً الاّ ان العلائق بين المنذر وقباذ كانت قد بدأت بالتحسن وكان ملك الفرس محتاجاً الى المنذر وكان المنذر يرجو خيراً من التقرب من خسرو قباذ وربما كان يطمع في الغزو . ومع هذا فان بعض المؤرخين يروون ان زحف المنذر على سورية في هذه السنة عينها ٥٣١ كان نجدةً لكسرى أنو شروان وليس لقباذ والواقع ان في هذه السنة مات قباذ وملك انو شروان وعقد يوسطنيانوس معاهدة صلح مع الفرس[3] لانهُ كان يرمي الى ايجاد صلات سلم في الشرق ليتسع له مجال الحرب والفتح في ايطالية وافريقية ولم يدخل اسم المنذر في هذه المعاهدة

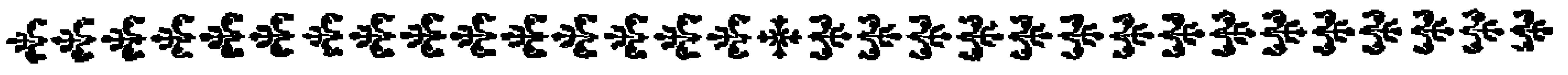
لم يدم الصلح طويلاً بين انوشروان ويوسطنيانوس اذ ساءَ انوشروان أخبار النصر الذي ناله الروم في افريقية وايطالية فاوعز الى عامله المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة أن يغزو سورية وكان آنئذٍ اختلاف بينهُ وبين الحارث بن جبلة الغسّاني في ملكية طريق للماشية في جنوبي تدمر يدَّعي المنذر انها من مملكته وينازعهُ في ذلك ملك غسّان فاهتبل المنذر هذه الفرصة وحارب الحارث وانتصر أنوشروان للمنذر وانتصر الروم للحارث فثارت الحرب بين الدولتين وغزا انوشروان سورية وآسية الصغرى (ستأتي البقية)

(١) الاغاني ٨: ٦٧ (٢) شعراء النصرانية ٣٥ (3) Sykes : His. of Persia 1 : 482



علم الجغرافية الاجتماعية

والاتجاهات الحديثة في الجغرافية



الاتجاهات الحديثة

كانت الجغرافية في نظر القدماء تشمل كل العلوم التي تتناول الارض وما عليها من الاحياء. يقابلها في عرفهم الفلك للاجرام الفلكية والرياضة للارقام والفلسفة للعقل . ولكن فروع العلم التي كانت تنطوي عليها الجغرافية اخذت تنفصل عنها إذ جعل رجال الاختصاص يوجهون الى مباحثهم الخاصة عناية خاصة ، فنشأت علوم الطبيعة والكيمياء والجولوجية والجغرافية الطبيعية وغيرها . وإذاً فيصحُّ ان نقول ان الجغرافية « أم العلوم »

واشتدَّ الاتجاه إلى التخصص في القرن التاسع عشر ، فظنَّ بعضهم انهُ لم يبق للجغرافية الاَّ الاهتمام بمواقع البلدان وتجارتها . والواقع ان معظم ما كان يدرس في فرع الجغرافية في النصف الاخير من القرن التاسع عشر لم يخرج عن تعيين المواقع وذكر حاصلات البلدان . ومعظم الذين تعلموا الجغرافية في ذلك العهد ، أو على تلك الطريقة ، لا يدركون قيمة الجغرافية في نظر العلم الحديث ، وقد يبدو لهم ان ينتقصوا من مكانتها

ولا ريب في ان علم الجغرافية خسر خسارة كبيرة لما انفصل عنهُ علماءُ من الطبقة الاولى تلبية لباعث الاختصاص فصاروا يحسبون في عداد الجولوجيين والانثربولوجيين والاقليميين (Climatologists) وفقدت من مكانتها بانفصال هؤلاء عنها حتى كادت الجامعات الاميركية لا تعنى بتدريس الجغرافية على انها علم مستقل ، او بتخصيص اساتذة لها بين اساتذة العلوم الاخرى

ولكن ما لبثت هذه الغيمة ان انقشعت وتحولت دوائر العلم إلى الاعتراف بفائدة الجغرافية كعلم مستقل ، في المانيا اولاً ثم في فرنسا ثم في انكلترا والولايات المتحدة الاميركية . وهي الآن تدرس في كل الجامعات ولاساتذتها مقام لا يفوقهُ مقام الاساتذة في العلوم الاخرى . وقد فازت الجغرافية بهذه المكانة ، لان كبار المربين اعترفوا بانها تتناول ميداناً من المعرفة جديراً بكل عناية ولكنها تحوَّلت عما كانت عليه . فالجغرافية الآن لا تقتصر على تعيين مواقع البلدان وذكر حاصلاتها. بل اتجهت الى ثلاث نواحٍ هي : الجغرافية الانسانية والجغرافية الاقتصادية والجغرافية المحلية والتاريخية

اما توزيع النباتات والحيوانات الجغرافي فصُرِف النظر عنهُ لان علماء الاحياء يرونهُ من اختصاصهم ، ولان علماء الجغرافية يريدون ان يقصروا مباحثهم على اثر البيئة في حياة الناس وميدان البحث الجغرافي — أي اثر البيئة في طبيعة الناس وتوزعهم على سطح الارض واعمالهم

وصفاتهم — يجعلها في مكان بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية . لذلك تراها في المدارس والجامعات الفرنسية وبعض جامعات اميركا — مشيغن وكليفورنية — في عداد العلوم الاجتماعية . اما في المانيا وبعض جامعات اميركا — برنستن وكورنل — فتحسب في عداد العلوم الطبيعية . واما في جامعة شيكاغو فتراها قد ذكرت في عداد العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء

ومما يبعث على الدهشة انك لا تكاد تقع على ذكر الجغرافية في دائرة معارف العلوم الاجتماعية التي تنشر الآن في بضعة مجلدات. ولعلّ تأخر علماء الاجتماع عن اقامة الوزن الصحيح للجغرافية بين العلوم الاجتماعية ناشئ عن ان الجغرافية الاجتماعية نفسها لم تبلغ بعد درجة وافية من النمو

ولما كانت الجغرافية الاجتماعية تعتمد على التاريخ والاجتماع والاقتصاد في جمع الحقائق اللازمة لها ، فلا يستغرب تأخر نموّها . على ان المراقبين لنموّها يرون فيها ، إذا بلغت اشدَّها ، علماً ذا فائدة اجتماعية كبيرة . وما يلي من هذه المقالة بيان موجز لاغراضها وحدودها

الجغرافية الاجتماعية : ميدانها واساليبها

الجغرافية الاجتماعية تتناول أثر البيئة في جماعات كبيرة من الناس دون الافراد والجماعات القليلة كالأسر . وتعنى بوجهٍ خاص بالتحوُّل الذي يصيب المثُلُ الاجتماعية في بلدان مختلفة وما أثر البيئة في هذا التحوُّل . واذاً فتنقل مراكز الحضارة وقيام الامم والجماعات وانحطاطها من المباحث التي تسترعي عناية الجغرافيين الاجتماعيين كلَّ الاسترعاء . وإذا قصر الجغرافي الاجتماعي بحثهُ على بلاد واحدة تناول بحثهُ أثر البيئة في ما يجدهُ بين مناطق البلاد من الاختلاف في كفاءة التعليم ، والصحة الاجتماعية ، والاجرام ، والأثر في سياسة البلاد ، والحضارة بوجهٍ عام . ومن افتن ابواب هذا البحث للب ، الموازنة بين ما تنجبهُ المناطق المختلفة من الزعماء

فالجغرافية الاجتماعية تضمُّ نواحي من مختلف فروع الجغرافية العامة . فهي تأخذ من الجغرافية الاقتصادية أثر الثروة ومصادرها في الحياة الاجتماعية ومثلها ولكنها لا تتناول الا لماماً وجوه الجغرافية الاقتصادية بالمعنى المألوف . وتتناول من الجغرافية المحلية الموازنة بين المناطق المختلفة في بلادٍ ما ، في شكل سطح الارض ، وحالة التربة والاقاليم ، ولكنها تعنى بوجهٍ خاصٍ بناحيةٍ يهملها الجغرافي المحلي Regional Geographer هي ناحية عدد الزعماء الذين تنجبهم مقاطعة ما ، وعدد السكان الذين يملكون بيوتاً ، وانتشار التعليم والامية ونسبة السكان في المدن إلى السكان في الريف وأثر ذلك في المثل الاجتماعية ومحاولة ربط نسبة الامية والمواليد والاجرام بالفروق الجغرافية بين المناطق

اما في الجغرافية التاريخية فالجغرافي الاجتماعي لا يوجه عناية كبيرة إلى العلاقة بين الجوّ وشكل سطح الارض أو بين حالة التربة ونتائج المعارك التاريخية وما عقد على أثرها من معاهدات

السلام . وانما هو يعنى عناية خاصة بالبواعث الجغرافية التي كانت ذات اثر في نهوض الامم وانحطاطها، وفوز السلالات أو تضعضعها وتلاشيها، وتغيُّر المثل الاجتماعية الذي يصحب هجرة السلالات من بلاد إلى بلاد، وانتشار اللغات والعقائد السياسية ، وطرق الانتفاع بمصادر الثروة الطبيعية

وليست الجغرافية السياسية الاّ ناحية من الجغرافية الاجتماعية ولكن الجغرافيَّ الاجتماعي يترك للمختص بالجغرافية السياسية درس الحدود بين البلدان ومواقع العواصم وغير ذلك

في النبذة المتقدمة المامة بميدان الجغرافية الاجتماعية . اما اغراضها الاساسية فهي الانتفاع بما يعرف من البيئة واثرها لفهم طبائع الشعوب وعاداتها واعمالها

ولذلك ثلاثة اساليب : الاول ان نتناول شعبين من اصل واحد ونشأة واحدة ولكن احدهما هجر بلاده الاصلية الى بلاد اخرى ثم نوازن بين طبائعهما وعاداتهما ومثلهما ،ونحاول تعليل ذلك بأثر البيئة الجديدة في الشعب المهاجر . والثاني ان نتخذ بيئتين متماثلتين في اكثر نواحيها ولكنهما مختلفتان في بعض النواحي ثم نحاول ان نكشف اثر هذا الاختلاف في اجتماع الشعبين اللذين يقطنونهما . والثالث ان نتناول اوضاعاً اجتماعية معينة مثل مقام المرأة او احوال الصحة الاجتماعية وندرسها في بيئات مختلفة محاولين ان نربطها بصفة خاصة من صفات البيئة اذا كان ذلك ممكناً . فالجغرافي الاجتماعي مثلاً يحاول ان يتبيَّن هل إنجاب الزعماء العظام مرتبط ايَّ ارتباط بنوع خاص من الاقليم كالاقليم البارد الشديد التقلب . اما وقد بينا اتساع ميدان البحث وتعقيده فلا عجب ان نجد الجغرافية الاجتماعية لا تزال تحبو على طريق النماء . ومع ذلك تمكن اعلام الباحثين فيها — مثل الزورث هنتنغتن (١) والاستاذ ستيفن فشر استاذ الجغرافية في جامعة انديانا وصاحب هذا المقال — من وضع طائفة من النظريات يصح ان تتخذ اساساً للبحث

نظريات الجغرافية الاجتماعية

١ — ترتقي الحضارة ارتقاءً سريعاً حيث تكون احوال الاقليم مؤاتية . فاذا نقلت بزور الحضارة الى اقليم غير مؤاتٍ ، انحطت الاّ اذا جدّدت بهجرة أقوام من بلدان ذات اقليم مؤاتٍ . فاذا شاءت الشعوب القاطنة في بلدٍ مؤاتي الاقليم ،ان تنشر الحضارة وتعززها في بلاد غير مؤاتية الاقليم ، وجب عليهم الاَّ يكتفوا بارسال الزعماء والاغنياء لدى افتتاح البلاد بل يجب امداد البلاد بجماعات تجدّد حياة الحضارة فيها جيلاً بعد جيل .

٢ — تحول التربة الخصبة أو الاحوال المؤاتية لسهولة العيش دون تعزيز الدمقراطية . ففي بلدان من هذا القبيل تتجمع الارض — وغيرها من اشكال الثروة — في ايدى افراد قلائل في حين ان سواد الامة يبقى في حالة فقر وانحطاط . اما في البلدان التي ليست خصبة التربة ، فالميل اقوى إلى التساوي — مساواة نسبية — بين طوائف الامة في الثروة والتعليم والسلطان

(١) صاحب مقالة « علم التنجيم الجديد » راجع مقتطف يناير وفبراير ١٩٣١

٣ — ان الحاصلات الطبيعية التي يسهل استخراجها من بطن الارض كالنفط والفحم والذهب هي من عوامل الدمار الاجتماعي في الجماعة التي تستخرجها ويجب ان تحسب في الموازنة الاجتماعية في ناحية الدين لا في ناحية مصادرة الثروة

٤ — ان استعمال مصادر الثروة الطبيعية تتوقف على صفات الشعب وبوجهٍ خاص على نشاطهم الطبيعي وبراعتهم الميكانيكية ، اكثر من توقفها على قرب مصادر الثروة من المناطق الآهلة . فمعظم الفحم والنفط مثلاً يستعمل في اماكن تبعد كثيراً عن مناجم الفحم وآبار النفط . وعلى الضدّ من ذلك نجد ان استعمال الفحم والنفط حيث يستنبطان نادر الاّ اذا كان على مقربة من اماكن استنباطها جماعة متصفة بالنشاط والبراعة الميكانيكية والصناعية

٥ — ان جانباً ضئيلاً جداً من سطح الكرة الارضية ينجب عدداً كبيراً من الزعماء بالنسبة إلى عدد السكان. وذلك لان الاستفادة من مواهب الزعماء يقتضي وجود شعب يقدر المواهب قدرها ويعنى بتشجيع المبتكرين . ومعظم شعوب الارض لا يستطيعون تشجيع النوابغ مادياً وأدبياً لتأخرها الاقتصادي . ولكن ثمة بقاع يتعذر فيها كسب الرزق ولكنها تنجب زعماء اذا كانت أحوال البيئة الاجتماعية مؤاتية لانجابهم وإذا كانت البلدان المجاورة في حاجة إلى هؤلاء الزعماء

٦ — وتندر البلدان التي توجه فيها بيئة اجتماعية كاملة . لان عنصراً أو آخر من عناصر البيئة الاجتماعية الصالحة مفقود في هذه البيئة او تلك . واهم هذه العناصر موقع جغرافي حسن يمتاز في ما يمتاز بهِ بجوٍّ بارد متقلب حافز للنشاط الجسدي والعقلي ، ولكنهُ على جانب من الدفء والرطوبة في بعض فصول السنة حتى يصلح للزراعة . ولا بدّ كذلك من سلالة سليمة من ناحية الوراثة ، واسباب تسهّل تبادل الافكار

٧ — في المدن تباين بين طوائف السكان اكثر من التباين الذي نجدهُ بين سكان ريف فسيح ليس في جوارهِ مدن وذلك لان الفرص التي تتاح في المدن لطلاب العمل اكثر تبايناً من الفرص التي تتاح في الريف

٨ — الفروق في المثُل الاجتماعية في مدينة ما او في حيّ من مدينة فروق في الغالب وهي تختلف باختلاف الاقبال على الحيّ ، ووسائل المواصلات التي تربطهُ بالاحياء الاخرى ، وصفات زعمائهِ وهذه الاختلافات تتمُّ بواسطة انتخاب اجتماعي فيقطن ابناء الامة الواحدة في حي واحد او احياءٍ متجاورة

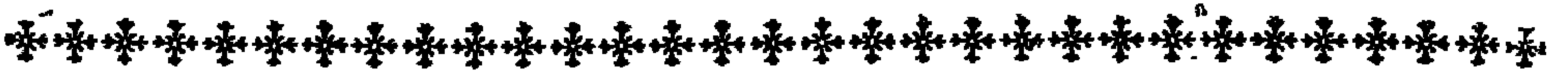
٩ — يقوى الانتخاب الاجتماعي بارتقاءِ اسباب المواصلات . ففي المناطق التي تكثر الهجرة اليها نجد متوسط الحماسة والنشاط الذهني والتفاؤل عالياً جداً . كذلك نجد اصحاب المواهب التجارية المالية متجمعين في مراكز التجارة والمال ، واصحاب المواهب العقلية في جوار الجامعات ومراكز التعليم ، والتشاؤم سائداً في المناطق التي اخذت تفقد سكانها كما في المناطق الزراعية

١٠ — ليس ثمة منطقة كاملة من حيث هي بيئة اجتماعية ومهما تتوافر فيها العناصر اللازمة لا بدّ لها من سدّ ما ينقصها بما يرد اليها من غيرها . وكل وسيلة تمكّن هذا التبادل تفيد فائدة اجتماعية كبيرة . واذاً فضرب الضرائب على اسباب المواصلات المختلفة ضارٌّ من الناحية الاجتماعية

انقضى النهار

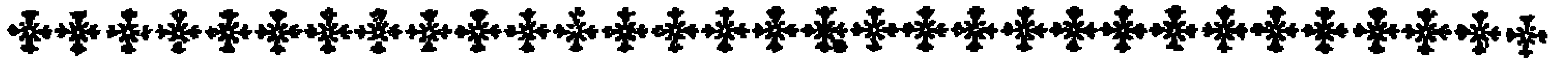
ترجمة قصيدة للشاعر الاميركي لونغفلو

لقد انقضى النهار وأخذ الظلام يهوي من اجنحة الليل
كريشة سقطت من جناح عقاب في اثناء الطيران
ارى انوار القرية تتلألأ من خلال المطر والضباب
فيستولي عليَّ شعور أسى لا تستطيع نفسي أن تصدَّهُ
شعور أسى وتوق لا يمتُّ الى الألم بصلة
ولكنهُ لا يشبهُ الحزن الاَّ كما يشبه الضباب المطر
اقرأي لي قصيدة ، أو أغنية ساذجة صادرة من صميم القلب
تسكّن اضطرابي وتبدّد أفكار النهار
لا تقرأي لي من شعر الفطاحل ، ولا من المنشدين السمويين
الذين يسمع صدى خطواتهم العاتية في اروقة الزمان
لأن أفكارهم العنيفة ، مثل ايقاع الموسيقى الحربية
تبعث في الحياة حب النضال والجهاد ، وأنا الليلة اتوق الى الراحة
اقرأي لي من شاعر متواضعٍ ، تفجَّرت أغانيهِ من قلبهِ
كما تنهمر الشآبيب من غيم الصيف أو الدموع من الاجفان
من شاعر ظلَّ في ايام العمل والكفاح وليالي الاضطراب
يسمع في قرارة نفسهِ موسيقى الالحان العجيبة
أغاني يقَرُّ الى هدوئها نبض العناء الذي لا يستقر
فتجيء كالطمأنينة التي تتبع الصلاة
ثم اقرأي لي من كتاب ثمين الشعر الذي تختارينهُ
وأضيفي الى روعة قوافي الشاعر روعة صوتك الرخيم
اذاً يضبح الليل حافلاً باصداء الموسيقى ، فتطوي متاعبُ النهار
خيَمها ، كما تفعل العرب ، وتتسلل في سكينة الظلام



حفني بك ناصف

تاريخ حياته



هو محمد الحفني ابن الشيخ اسماعيل ابن الشيخ خليل بن ناصف ، كان أبوهُ من أهل العلم وتوفي قبل ولادة ابنه بشهرين أو ثلاثة . ولد المترجم ببركة الحج[1] في ٥ محرم سنة ١٢٧٢ هـ الموافق ١٦ سبتمبر ١٨٥٥ م ، وما ترعرع حتى دفع الى كتاب البلدة فتعلم الخط وحفظ القرآن جميعه

ولما كان فقيه المكتب يفرط في ضرب تلاميذه ، وكان هو منذ نشأته يأبى الضيم وينزع إلى الحرية والعلم — وقد بقي كذلك حتى وفاته — فقد هرب إلى الازهر فمكث فيه عشر سنين متتابعة ، جوّد القرآن في الاولى منها وحفظ المتون المعتاد حفظها ، وتعلم في التسع الباقية فقه الشافعي والصرف والنحو وعلوم البلاغة والعروض والقافية والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث ، وحصل على إجازة برواية الحديث من الشيخ الأشموني . على أنهُ لم يقنع بدراسة هذه العلوم المدرسية ، فأخذ يتعلم خارج الازهر علم الميقات ومبادىء الفلسفة والانشاء والشعر والأدب وغير ذلك ، وسافر في غضون تلك المدة إلى الحجاز والشام للحج وزيارة المشاهد المقدسة

وذاعت شهرته في الازهر بالنحو والشعر ، وأصبح — بطريقة غير رسمية — يعلـم بهِ شرح ابن عقيل على الألفية ، وكان نوابغ الطلبة يسألونهُ في النحو عمّا شاؤوا فلم يعجز عن الجواب مرة واحدة ، اما في الشعر فقد كان لقصائده القدح المعلى في كل الحفلات الأدبية التي كانت تقام في بعض أروقة الازهر فيتبارى فيها شعراؤه من كل صوب ، وكان الازهريون يستكثرون عليهِ تلك القصائد ويظنون أنهُ قد يكون سرقها من الدواوين القديمة ، فاقترح عليهم أشعرهم في ذلك الوقت — فضيلة الشيخ عبد الرحمن قرّاعة — أن يساجله في شعر حدد موضوعه واختار بحره وقافيته فساجله على مشهد من الطلبة حتى صنعا اكثر من مائة بيت في أقل من ساعة ، ومن ذلك الوقت آمن الجميع بشاعريته وأخذ طلاب الشعر من الازهريين يلتفون حوله ويعرضون عليهِ قصائدهم فيزيد فيها أو ينقص

وكان يود أن يقضي حياته في الازهر بين تعلم وتعليم ، ولكن مدرسة دار العلوم كانت قد انشئت في ذلك الوقت ففضل أن ينتظم فيها حتى لا تفوته علومها الحديثة ، وقد كان مستوى التعليم في تلك المدرسة أرقى مما هو الآن ، فامتحن مع مائة وخمسين طالباً من أنبه الازهريين

(١) سميت ببركة الحج لانها كانت محط رحال المحمل قبيل سفره الى الحجاز كل عام ، وربما وقع الاختيار عليها لانها كانت على حدود الجزء المعمور من الدلتا ، وقد أدى عدد كبير من أهلها فريضة الحج ، وأهم مزروعاتها البلح (البركاوي) .

قُبل منهم اربعة عشر كان هو أولهم ، ولم يزل حافظاً لهذه الأولية حتى تخرج من المدرسة بعد سنوات أربع تعلم فيها فقه أبي حنيفة والحساب والهندسة والتاريخ والجغرافية والطبيعة والكيمياء ووظائف الاعضاء والهيئة ومبادىء اللغة الفرنسية ، وذلك زيادة على التوسع في العلوم التي كان يدرسها من قبل

وفي تلك الاثناء كانت الثورة العرابية قد نشبت فقام بنصيبه فيها بالخطابة والدعاية السياسية وانتظم في سلك المتطوعين وبقي شهراً في قشلاق عابدين تدرَّب فيهِ على الرماية وبعض فنون الجندية ، وكان يجيد السباحة والغطس إلى حد غير مألوف بين الازهريين

وأول منصبٍ تولاهُ بعد خروجهِ من المدرسة تعليم الخرس والعميان ، فتيسر لهُ في ثلاث سنين أن جعل الخرس يكتبون كل ما يريدون من المعاني ويفهمون ما يكتبهُ الناس لهم ، فقامت الكتابة عندهم مكان الكلام والسمع وتيسر لهُ تعليم الكبار من العميان الألفية كلها ورسالة الفضالي في التوحيد ومنظومة الشيخ أحمد قاسم في علم الميقات ، وقد نبغ منهم الشيخ مصطفى الفلكي الميقاتي ، وكان المترجم كلما حاول الانتقال من هذه المدرسة وقف في طريقهِ المفتش أنسي بك خوفاً على المدرسة أن تقف حركتها

ثم انتقل كاتباً خصوصيًّا (سكرتيراً) لشفيق بك منصور وكان هذا ميالاً للتأليف والتصنيف ولكنهُ لم يكن يعرف من علوم اللغة العربية ما يمكنهُ من ذلك ، فساعده المترجم من حيث اللغة والمادة ، كما ساعد غيره في وضع عدة كتب وترجمة اخرى

وانتخب مع الشيخ حمزة فتح الله ومحمود بك رشاد للوفود الى مؤتمر المستشرقين في مدينة فينا تحت رآسة ارتين باشا ، وقدم كل من الثلاثة بحثاً علميًّا ، فلم يقبل في محاضر جلسات المؤتمر ولم يطبع في مجموعته سوى رسالته هو (مميزات لغات العرب)

ولما استعفى شفيق بك من عمل النيابة انتقل المترجم إلى مدرسة الحقوق معلماً للانشاء القضائي والانشاء العام والبلاغة والمنطق وآداب المناظرة ، وقد مكث في تلك المدرسة خمس سنوات نبغ على يديه فيها أشهر المنشئين والمترافعين والمترجمين والشعراء [1]

وقد كلفتهُ وزارة المعارف في تلك المدة تأليف كتب سهلة يتعلم التلاميذ فيها قواعد النحو والصرف والبلاغة ، تغنيهم عن تلك المطولات الخالية من التبويب والتي لا تلائم اذهان الطلبة بحال ، فألف كتباً خمسة جرى عليها العمل من ذلك الوقت الى الآن ، وتعلم بها الوف الناشئين في مصر وغيرها. وكانت مصلحة المساحة ترجع اليهِ لتصحيح اسماء البلدان في اطالسها

ثم نقل إلى القضاء الاهلي ومكث فيهِ عشرين سنة كان فيها ضماناً للعدل والانصاف ومثالاً للصبر

(١) نذكر منهم مصطفى كامل وقد أتم دراسته بتولوز ، وطه حسين وعبد الهادي الجندي وأحمد شوقي وأحمد لطفي السيد وأحمد زكي وعبد الخالق ثروت واسماعيل صدقي وتوفيق نسيم وطلعت حرب وأحمد زكي أبو السعود



حفني ناصف رحمه الله

والجلد وعنوانًا للنزاهة والشجاعة ولا يزال أهل البلاد التي تولى القضاء فيها يتحدثون بأنصافه ودقة بحثه

وكان في خلال تلك المدة قد فكر مع غيره في إنقاذ التعليم من التردي في الهوة التي تدفعهُ اليها الاستعمارية البريطانية بقصرها مهمتهُ على تخريج الموظفين دون انشاء ثقافة حقيقية ، وقد رأى هو وزملاؤه ان يبدأوا سعيهم بانشاء الجامعة المصرية واخذوا في الدعوة الى هذا المشروع . وادرك الانجليز خطورة الفكرة فعملوا من ناحيتهم كل ما يستطيعون لمنع انشاء الجامعة ، فأوحوا إلى صنائعهم ان يطبلوا ويزمروا بالدعوة الى نشر التعليم الاولي كي يضيع بين ضجيجهم صوت الداعين الى انشاء الجامعة ، وعين سعد باشا زغلول اذ ذاك وزيراً فاستقال من عضوية مجلس ادارة الجامعة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٦ ونقل المترجم من مصر الى قنا في ابريل سنة ١٩٠٨ ليتخلصوا من نشاطه وكفاءته

ومع ذلك ظل المترجم وزملاؤه (ومنهم علي علوي باشا ومحمد بك فريد ، وقد طلب اليهِ مجلس الادارة ان يتنحى عن العمل في لجنة الجامعة نظراً لتطرف لونه السياسي فقبل ، وعبد العزيز جاويش بك وقاسم امين بك وعبد العزيز فهمي باشا) ينادون بانشاء الجامعة المصرية ويجوبون البلاد ويخطبون في الناس ويجمعون الاموال من نقد وعقار ووقف، وكلل عملهم في النهاية بالنجاح وان يكن نجاحاً محدوداً ، فانشئت الجامعة ولكن الدراسة فيها كانت مقتصرة على الحقوق والآداب . واختير المترجم بعد ذلك لتعليم الادب العربي وتاريخه ، فدرسه سنتين مع اشتغاله بالقضاء ، ووضع خلال تلك المدة ثلاثة اجزاء من كتاب الادب العربي ضمنهُ ابحاثاً لم تكن مطروقة من قبل ، وسافر بعد ذلك الى مؤتمر المستشرقين في اثينا وقدم لهم من المباحث ما فاز بتقديرهم واعجابهم

واصدر وهو وكيل بمحكمة طنطا على محب باشا مدير الغربية اذ ذاك ، حكماً مدنيًّا له حيثيات توجب محاكمة المدير جنائيًّا ، وكان من اثر مثل هذه الاحكام ان بقي في طنطا بضع سنوات بدون ارتقاء في المنصب او ازدياد في المرتب ، وحدث ان احيل الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية الى المعاش ، فاتجهت الانظار الى المترجم وأُلحت عليهِ وزارة المعارف في قبول ذلك المنصب فوافق في النهاية ، على ان صوت الوشاة حال دون ترقيه ، فلم يزدد مرتبه قرشاً واحداً في السنوات الثلاث التي قضاها في المعارف

وكان يوجه اكبر عنايته في تلك المدة الى تنقية اللغة العربية من الالفاظ العامية والدخيلة ووضع اصطلاحات صحيحة للعلوم التي كانت تدرس باللغة الاجنبية ثم تقرر تدريسها بالعربية، وتنقيح مناهج اللغة العربية ووضع كتب جديدة للمطالعة واخرى في مادة اللغة نفسها، ولكن ذلك لم يتيسر له كله فقد رأت الوزارة ان الطواف اليومي في المدارس اهم عمل يقوم بهِ المفتشون

وكان في ادوار حياته كلها يميل الى الاندية الادبية ، فقد كان وكيلاً لجمعية الاعتدال

التي انشأها اصحاب المقتطف في اول وفودهم على مصر لمحاربة الخمر وحث الناس على الاعتصام بالآداب القومية ، وكان لها من الشأن ما لايدركه القارىء الآن نظراً لضئالة شأن اكثر الجمعيات التي تعمل الآن لتحقيق مثل هذا الغرض، وأسس في قنا نادياً يدعو الى الاخلاق الفاضلة كانت تلقى فيه المحاضرات كل اسبوع ، وكان اكبر العاملين في نادي طنطا وقد القى فيه بضع محاضرات قيمة ، وانشأ في القاهرة نادي دار العلوم للمباحث اللغوية والآداب العربية، وقد سار النادي خطوات واسعة في سبيل اصلاح اللغة ولولا الاشاعات التي دارت (قُبيل الحرب) عن سعد زغلول باشا في آخر وزارته واتهام النادي بأنهُ متشيع له لأُخرج هذا النادي كتباً جمة وقواميس مستحدثة . وقد كان المترجم من اوائل الذين فكروا في انشاء مجمع لغوي ، وقد تكوَّن هذا المجمع فعلاً وعقد بضع جلسات في دار الكتب المصرية ، ولكن الاحوال حالت دون استمراره ونموّه . وكان المترجم يعني بتثقيف أولاده وبناته وبوجهٍ خاص كبراهم ملك ، وهي أول سيدة مصرية طالبت برد حقوق المرأة باعتدال .وقد أصبحت بعد زواجها واقامتها بالفيوم توقع قصائدها ومقالاتها في الصحف باسم « باحثة البادية » . ثمَّ ختم اعماله العلمية بذلك العمل الضخم الا وهو تصحيح رسم المصحف العثماني .ولكي يدرك القارىء شيئاً عن قيمة ذلك العمل ومابذل في سبيل اتمامه من الجهد والتضحية أرى ذكر الادوار التي مرَّ عليها:—

كان الخديوي السابق عباس حلمي يلحن في قراءة القرءان . وسأل مرة هل ثمة ما يمنع طبع المصاحف بحسب قواعد الاملاء الحديثة ، فلما آنس بعض كبار علماء الازهر من سموّه رغبة في تنفيذ ذلك الرأي ، سارعوا إلى تحبيذه والافتاء بجوازه وتفضيله ، وانفرد المترجم أول الامر بالمعارضة في ذلك مراعاة لاصول القراءات وخوفاً ان تتعدد المصاحف في شتى البلاد الاسلامية فيجر ذلك إلى تفكيك روابط الالفة التي يوثقها القرءان بين افراد المسلمين على اختلاف شعوبهم ونحلهم . ثم اقتنع بعض الفضلاء بهذا الرأي فناصروه فانتصر

وقد ادى النقاش في درسهم خط المصحف على النمط الذي كتب به اول مرة في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، الى تبين اخطاء في رسم الحروف وقد اخذت تتكرر وتزداد بتوالي الطبع من ذلك العهد حتى ما بعد الحرب ، فوجب العودة الى الصواب . وقد اسند هذا العمل الى اشد المتحمسين له كما هي العادة . وكان المترجم اذ ذاك مفتشاً اولاً للغة العربية بوزارة المعارف ، فكان يقوم به الى جانب عمله الرسمي ، وكان يعاونه الاستاذان احمد الاسكندري ومصطفى العناني ، وكانوا يقطنون ثلاثتهم حلوان فكانوا يجتمعون بمنزلنا هناك

ثم جاءت الحرب العظمى ١٩١٤ بويلاتها فعمدت الحكومة المصرية في ذلك الحين الى الاقتصاد المعكوس فتبرعت للجيش الانكليزي بثلاثة ملايين من الجنيهات وتخلت له عن اجر الانتقال في السكك الحديدية وسنت قانوناً تحيل بمقتضاهُ الى المعاش كل موظف بلغ الستين من عمره ، ولم يطبق

هذا القانون على اصفياء الحكومة حينئذٍ بل طبق على المغضوب عليهم ذوي الشخصيات البارزة الذين لا تلين في الحق قناتهم ولا يطأطئون رؤوسهم للمتظاهرين بالسيادة والسلطان

وصدر القانون المذكور فأصرّ عدلي باشا يكن وزير المعارف على تنفيذه فيما يختص بأحالة المترجم على المعاش رغم معرفة الوزير ان ذلك التنفيذ يهدد مشروع تصحيح رسم المصحف بالقضاء عليه

وما تحرر المترجم من قيود منصبه حتى تفتحت امامه سبل الرزق فعرض عليهِ بعض رؤساء الحكومة ان يعيدوا اصدار جريدة المؤيد ويسندوا اليه رآسة تحريرها مقابل الف جنيه ينقدها سنويًّا — وهو مبلغ غير قليل باعتبار قوة الشراء في ذلك العهد — فرفض هذا العرض نفوراً من التورط في مناصرة سياسة الحكومة وما يحف بها ، ورغبة في التفرغ لاتمام مشروع المصحف (وقد عرضت رآسة التحرير بعد ذلك على المرحوم محمود بك رشاد فرفضها هو الآخر) . وعرض عليه بعض المحامين ان يشترك وإياهم في فتح مكتب للمحاماة فرفض وعرض عليه منصب رئيسي في ادارة التعليم بأحدى الجمعيات الخيرية الكبيرة فرفض ، وبلغ من اكبابه على تصحيح رسم المصحف ان لم يبق له وقت يجمع فيه اشعاره وازجاله ونثره وأبحاثه ورسائله ومقاماته ويرتبها في كتب يشرف على طبعها بنفسه كما يفعل غيره من الادباء والشعراء ، وقد كانت كل هذه الاعمال خليقة بأن تدر عليه بعض المال فضلاً عن قيمتها الادبية

وقلّ دخله بعد احالته على المعاش فأنزل مستوى معيشته كثيراً . وكان يعرف انه لن يعيش اكثر من بضع سنوات أخرى فلم يدفعه ذلك الى العمل لكسب بضعة آلاف من الجنيهات يتركها لاسرتهِ الكبيرة ، بل زادته هذه المعرفة اكباباً على تصحيح رسم المصحف ، وقد نجح في اتمامهِ وأصلح بنفسه آخر مسودات المطبعة ، ثم كأنه شعر ان مهمته قد انتهت فأسلم نفسه للموت بعد أشهر قليلة قضاها في المرض والاحزان

وقد كانت الحكومة سخية . . . في تقدير المكافأة التي صرفتها لورثته على هذ العمل الذي استغرق من وقتهِ ست سنوات (اذ ان العمل فيه بدا قبل احالته على المعاش) والذي تخلى في سبيله عن بضعة آلاف من الجنيهات كان يستطيع ان يكسبها من اشتغاله بشيء آخر . أتدرى بكم قدرت مجهوده ؟ بمائة جنيه أي بمعدل ١٣٠ قرشاً في الشهر . هذا هو الاجر الذي دفعته الحكومة مقابل ذلك العمل الضخم الذي تربح منه مئات الوف من الجنيهات والذي تذيع به دعايتها في طول البلاد الاسلامية وعرضها . هذا ما دفعته الحكومة لمصلح رسم القرءان . وهي التي دفعت بضعة آلاف من الجنيهات لمدرس انجليزي لانه الّف كتاباً صغيراً في الجغرافيا ... ولكنك تفتح المصحف فتجد في آخره ان هذا العمل قد تم في عهد الحكومة وعلى نفقة الحكومة وبناء على رغبة الحكومة . صدق من قال . رُبّ ساعٍ لقاعد

عصام الدين حفني ناصف

صورة قلمية

ملك الخشب

نحن اليوم نعيش في عصر عملي يتطلب النشاط والدأب والعمل على النماء المادي، ويقتضي الاستقلال الصناعي والتجاري، لان حياة الامم أصبحت الآن في الاسواق، وفي ايدي القائمين بها، والتاجر الكبير في هذه الايام درجة من درجات المقياس الذي يعلو أو يهبط بحياة الامة التي هو منها، وقد يستطيع السياسي الآن ان يقلب شأناً من شؤون الحياة الأهلية في شعبه، ولكن التاجر هو الذي يستطيع وحده ان يقف في وجهه ويحول بينهُ وبين مأربهِ، وهم يقولون أن المانيا لم تستطع أن تثير الحرب الكبرى الا بعد ان سبرت غور تجارها وماليها واهل العمل والقوة الصناعية فيها، إذ كان هؤلاء هم جيوب الامة وهم خزائنها، وهم كل ذخائرها واسلحتها، والامة التي تكثر منهم، وتزيد لنفسها في عدادهم، هي الامة التي تتسلح باكبر الأسلحة في معركة الحياة

والناس اليوم يستبشعون الحرب الكبرى ويستنكرون بلاءها، لكثرة الدماء التي سفكت في ميادينها، والثروات العظيمة التي ضاعت في سبيلها، ولكن الحرب كانت قائمة قبل ان تنشب المعركة في الميدان، غير انها لم تكن حرباً يلبس لها الناس الاردية العسكرية ويحشدون لها المدافع والذخائر الحربية، وانما كانت حرباً قائمة في الحوانيت، وفوق المكاتب، وفي بيوتات التجارة والمال، وكان يتدرع اهلها فيها باسلحة أدق من المدفع، وأحذق من القنبلة، فلما سئمت الامم هذه الحرب التجارية الخفية الصامتة، انطلقت تثير حرباً ضاجة غير خافية، وكان التجار وأهل العمل والمال هم الذين يملكون إنهاءها أو إطالة عمرها

وقد كان نابوليون يقول ساخراً من الانجليز انهم شعب من اصحاب الحوانيت، فأكبرها الانجليز منهُ وعدّوها مديحاً لهم، ثم لم يستطع نابوليون المزهوّ العظيم ان يغلق حانوتاً واحداً منها

ونحن شعب أولي في كل ما يتعلق بالعمل، لاننا لا نزال بعد في دور الطفولة الاجتماعية، ولا يزال يعوزنا النشاط العملي الذي نستطيع بهِ ان نكافح القوة التجارية التي يطالعنا بها الاجنبي في الاسواق المالية، ولسنا نملك المواهب التي تجعل التاجر الاوروبي المثل الاعلى في التجارة لاننا لا نستطيع ان نجاريهم في التجارة من ناحيتها النفسية، فالتجارة من الاعمال التي لا غناء لها عن تعرف اسرار النفوس ونزعاتها، ونواحي التأثير فيها واساليب اقناعها وارضائها. ومن هنا أصبح التاجر الوطني الذي ينجح في وسطنا هذا، ويزكو متجره، لا بدَّ ان يكون رجلاً ذا ارادة قوية، ومن اكبر العارفين بعلم النفس لانهُ لم ينهزم في السوق التجارية الممتلئة بجبابرة



اسعد باسيلي

تجار الغرب ودهاته ، وعرف كيف يقاوم العوامل الاهلية العديدة التي تحول دون النجاح

وبعد ، لعلني اذا سوّدتُ هذه الصفحة اديت عملاً جليل الفائدة يعود بالنفع على الناس ولكن هذا النفع الذي يتأتى من عظة بليغة أو درس في الاجتماع اسوقهُ الى الناس لا يكون اعظم اثراً من مشروع للحياة يشترك فيهِ الناس بايديهم وعقولهم واموالهم للاستحواذ على منافذ جديدة يتسع بها نطاق التجارة الوطنية والاقتصاد وتنمو الثروة الاهلية

ان الحياة المادية ذات العواقب الملموسة لا تنتخب في الغالب رجالها من بين رجال التفكير ، لان مهمة نشر المعرفة وتفهم الآراء تخلد اربابها ولكنها مع جليل اثرها في الانسانية لا تستطيع ان تنافس في مضمار الحياة المادية ، تلك المهمة التي يؤديها للعمران اولئك الذين سخروا البحار وسيطروا على الاركان القصية في العالم لغرض التضامن الاقتصادي والمالي . اما المثل الذي نريد ان نسوقهُ إلى الناس فقد شئنا ان نتخيره من بين رجال التجارة العصاميين الذين كانت لهم مواهبهم الفكرية والادبية ومزاياهم الشخصية مصدر استرشاد ونجاح في حياة العمل

كان اسعد باسيلي اول ظهوره في الحياة العملية اديباً سليم التفكير ، وللأدب تأثير قوي في النفس حتى لا يستطيع المشتغل بهِ ان يتخلى عنهُ الى حرفة اخرى ، ولعل اشتغاله بالادب كان نتيجة شعوره القوي بانهُ خلق لرآسة عمل واسع وان من حقهِ ان يعرب عن آرائه وان يرشد وان يتولى توضيح النقاط الغامضة فيما يلحظهُ ويسمعهُ من احوال الناس واحاديثهم ، فلم يكن الادب سبيله الى الحياة وانما كانت ارادته وقوة شخصيته وذكاؤه رأس نجاحه

فانت ترى أن هذا الرجل القدوة بين رجال الاعمال عندما اراد ان يضع اساس مجده المادي كان يعيش بذهنية رجل بحاثة قوي الميل الى الاشتغال بالدراسات الفلسفية العالية . وفي وسع الذين يميلون الى مراجعة الابحاث العلمية التي كانت تنشر في أبان النهضة الاخيرة لهدم القديم ولبثّ الآراء والمبادئ الجديدة وعلى الاخص في مجلة « الجامعة » التي تولى إصدارها الكاتب الاجتماعي الكبير فرح انطون : نقول في وسع هؤلاء ان يطلعوا على نخبة قيمة من الموضوعات الفلسفية التي كان المترجم يعلن فيها وقتئذٍ رأيهُ في « العلم والدين » وما إلى ذلك من الآراء الجريئة التي كان يجاري فيها مذهب الفيلسوف سبنسر ومذاهب غيره من الفلاسفة ويبني على احكامهم

ونعتقد انهُ لو خيّر وقتئذٍ ان يكون ذلك البحاثة المشتغل بالمباحث العالية لما كان اقل توفيقاً . وربما كان نجاحهُ يعود على الجيل بنتائج اجلّ من نجاح الكثيرين من المعاصرين

اذاً لم يسلك اسعد باسيلي سبيل العمل المادي إذ ذاك بعقلية محدودة كسائر المشتغلين بالتجارة . وتخليه عن سبيل العلم والادب انما يرجع إلى مذهبهِ الوضعي وعقيدته التي لا تؤمن الا بالحقائق الملموسة

على ان مذهبه الوضعي باعتباره من رجال الاعمال لم يحل دون تدينه وصدق ايمانه وهو ممن يرون « ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض وان هنالك حقيقة

اساسية قام عليها بنيان الاديان » . ثم انظر اليهِ يقول في ختام فصل ممتع منشور في الجزء الاول من السنة الثالثة من مجلة الجامعة بعنوان « اتجاه العقل إلى ما وراء حدود العلم »

« وهنالك ملاحظة أخرى لا ينبغي ان نضرب عنها صفحاً وهي ان العلم مهما اتسعت دائرة اكتشافاته فهو عاجز عن ان يروي كل الارواء ظمأ العقل البشري إلى المعرفة . فمهما امعنا في الاكتشاف العلمي فانه يبقى لدينا ولدى من يأتي بعدنا مسألة وهي : ماذا يوجد بعد ذلك ؟ ومهما تقدمنا في التعليل عن أصل الكائنات فلا يمكننا ان نجد مناصاً من هذا السؤال : ما الذي يعلل لنا التعليل نفسه ؟ فاذا كان العلم أشبه بدائرة تتسع شيئاً فشيئاً فنموه لا يكون من شأنهِ الاَّ أنهُ يزيد نقط اتصاله بالمجهول الذي يساوره من كل جانب ويلزم عن هذا ان يوجد على الدوام طريقان ينتجهما الفكر البشري وهما العلم والدين

« اذن فالعقل سيشتغل في الاستقبال كما يشتغل في الحال ليس فقط بالبحث عن الحوادث الوضعية وعلائقها بعضها ببعض بل بشيء لا يستطاع اثباته بالادلة الواقعة تحت الحواس ولا بد من افتراض وجوده عند النظر إلى الحوادث واعتبار علائقها بعضها ببعض . وينتج عن هذا انه ما دام العلم وحده لا يستطيع ان يشغل جميع القوى الانسانية وما دام العقل يوجه انتباهه ابداً إلى ما وراء حدود العلم ، فسيبقى محل للدين على الدوام لان الدين يمتاز بكون موضوعه وراء دائرة العلم والاختبار»

هذا نموذج للذهن المبدع الذي سلك بهِ اسعد باسيلي سبيل العمل المادي، ولما تخلى نهائياً عن الاشتغال بالدراسات الادبية والعلمية وأقبل على تجارة الخشب احرز في الزمن القصير مركزاً وثقة واتساعاً في الاعمال لا يتوفر لغيره في الزمن الطويل . وظلَّ يشق طريقهُ بين الصفوف حتى سيطر على سوق الخشب وتراجعت إلى الوراء جميع البيوت التجارية التي كانت تدعي احتكاره ، واستولى نهائيًّا على هذه التجارة كما يستولي القائد المحنك على الميدان الواسع قطعة قطعة، وكان في ذلك موفقاً دائم النجاح فأصبح صاحب الكلمة العليا في سوق الخشب، وربما قامت وارداته منه مقام الضعف من واردات سائر التجار . وحسبنا ان نعترف باننا لا نستطيع الاشارة اليهِ دون ان نلقبه بملك الخشب ، ونستطيع ان نقول ان البيئة تحدد المطامع ؛ فلو ان اسعد باسيلي كان في اميركا لأحرز بحق هذا اللقب وكانت دوائره ومكاتبه تضيق عنها ناطحات السحاب كسائر بيوت التجارة الاميركية التي تتحدث عنها الصحف إلى الجماهير في العالم فيصيب الانسان لشدة ما يعتريه من الدهشة لقراءتها ذهول كالذي يستولي على بعض من تفاجئهم الانباء الخارقة

وبعد، فقد تمتد الطريق وتطول امام الذين يبتغون الوصول إلى الغاية، ولكن الذين لا يكلّون ولا يقفون يخلفون من ورائهم خطاً مستقيماً هو سبيل النجاح في الحياة، هو الخط نفسه الذي يخلفه البطل بين الصفوف دليل جهاده المقرون بالفوز، وهو الخط الذي يتركه في التربة محراث المزارع مبشراً بالانتاج

قلنا ان الطريق تمتد وتطول امام الذين يبتغون الوصول إلى الغاية ، ونضيف إلى ذلك ان

رأس النجاح الاقدام . وفي امثال الاميركيين المعاصرين ان فرضاً على المرء ان يخاطر وان عاقبة هذه المخاطرة محمودة لانها تعلم الجرأة . والتاجر الجريء موفور النجاح لان لا جرأة بلا بصيرة

واسعد باسيلي قد شق طريق المجد باقدامه وشجاعته وهو قدوة صالحة لمن يبغي ان يسلك سبيل التجارة أو الاقتصاد . وهو يجمع إلى مواهبه وصفاته الممتازة حبًّا للخير وللانسانية ، ويرى في الاحسان وسيلة تقوى بها ارادته في العمل. وحياة الضمير في دائرة العمل المادي اقوى منها في سائر الاعمال الاخرى . وانت إذا تصفحت بنظرك شخصية اسعد باسيلي الكبيرة ، ولحظت ميله إلى التفكير ، وكرهه لطرق الاعلان عن نفسهِ وعن اعماله الكثيرة في سبيل الخير ، اقتنعت بان انوار المدينة العظيمة تبدو للساري كالبصيص

وأسعد باسيلي اليوم في حدود الستين ، وقد ولد في مدينة طرابلس الشام من ابوين صالحين ، وكان لوالده مقام كبير بين التجار ومقام ممتاز في طائفتهِ اذ كان رئيساً لجمعيتها الخيرية ، وقد ورث الابن عن والده مواهب الذكاء والنشاط والاستقامة والشرف ، والاستقامة والشرف هما العنصران اللذان لا تنهض الاخلاق الطيبة الاَّ بهما . وهو بعد ذلك قطع الحياة عملاً وصلاحاً وبرًّا يحمل في قلبهِ جميع المبادىء النبيلة فهو ليس تاجراً فحسب لا يحفل الاَّ بالشؤون المالية ولا يعنى الاَّ بمسائل التجارة ومهامها، بل هو لا يألو جهداً في اكتساب قلوب الذين طحنتهم الحياة ، وقتلتهم مناكد العيش

وقد استطاع ان يقف من تجار الأخشاب في الطليعة ، ويشق طريقه الى الذروة ، عاملا بمبادىء النظام والترتيب والادارة الحسنة التي يشرف عليها بنفسهِ ، فارتفعت شهرتهُ وطال اسمهُ حتى عين وكيلاً للغرفة التجارية المصرية لمدينة الاسكندرية ، فما لبث قليلاً حتى احلَّه الاعضاء المحل الاول فيها ، وعرضت عليهِ رآستها فأبى قانعاً بالوكالة لاسباب لا يجهلها كثيرون من القائمين على تدبير الغرفة ، وتستمد الغرفة منهُ انضج آرائها ، وتسلم اليه قيادها في كل الشؤون ، وهو فوق ذلك عضو من الاعضاء المحلفين بمحكمة الاسكندرية التجارية ، وأكبر شخصية محترمة مثقفة في الجمعية الخيرية للسوريين الارثوذكس ، وهو بعد متوقد الذهن ، ثاقب الرأي ، جم الاطلاع لا تفوته من شؤون التجارة والعلم والادب بادرة ، لانهُ درس وطالع كثيراً فهو لذلك يعد بحق من اكبر الشخصيات البارزة في هذا البلد

وأخيراً ، ان اسعد باسيلي عصامي قبل كل شيء ، والعصاميون في هذا البلد قليل ، لان العصر لا يعين على العصامية ، ولا يساعد على انتاجها ، وانما يجتهد في مكافحتها وخذلانها ، والناس جبلوا على ان يكونوا حرباً لكل من يريد ان يسمو عليهم قوة وعملاً ، وارادة واستقلالاً . فاذا رأيت يوماً عصاميًّا بينهم ، فاعلم انهُ استطاع ان يهزم العصر بأسلحة اشد من اسلحته وعرف كيف يتخلص من ضروب الكفاح والعداء التي حشدها الجيل لمقاومته

الاسكندرية نقولا شكري

باب شؤون المرأة وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

ارشادات صحية لربات المنازل

للدكتور محمد زكي شافعي
السكرتير الفني بمصلحة الصحة العمومية

— ٢ —

من المسائل التي وجهت اليها العناية مؤخراً وهي ذات شأنٍ كبير لربة المنزل في هذا الدور من حياتها الزوجية — العناية بالجهاز التناسلي . ومما يؤسف له أنهُ لا يوجد الاَّ القليلات من الزوجات اللاتي لا يرددن الشكوى من هذه الناحية . أما العناية بهذا الجهاز فأمر تدعو اليهِ ضرورة تزويد اول منزل للطفل بكافة الوسائل الصحية ويدعو اليهِ ايضاً ما لهذا الجهاز من التأثير العام في صحة المرأة حتى انهُ يعتبر أهم معيار لحالتها من الصحة او الاعتلال

وتبدأ العناية الجدية بهذا الجهاز من يوم أن يبدأ الطمث في الظهور وما الطمث الاَّ ظاهرة طبيعية اريد بها استدامة المحافظة على الرحم غضّاً نظيفاً ومستعدّاً لقبول الجنين . وهذه الظاهرة هي من أهم حوادث تاريخ حياة الفتاة لانها الحد الفاصل بين الطفولة ومظاهر الانوثة ومن وقتها ينمو جسمها نموّاً سريعاً وتتسع مداركها العقلية ولذلك يقال لها «ادركت» ويكمل نموها بعد هذه الظاهرة بثماني سنوات او عشر سنوات أي في السن ما بين العشرين والخامسة والعشرين . ورأيي أن هذه هي أوفق سن للزواج

ويستمر الطمث بعد البلوغ مدة ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة تقريباً حيث تبلغ المرأة سن اليأس ويجب الابتعاد اثناء الطمث عن الرياضة او الاعمال العنيفة وتجنب شرب المثلجات والاستحمام في البحر والاستحمام بالماء البارد او غسل الاقدام بها — وتمتنع السيدة بتاتاً عن

الاستحمام عند ما يكون الافراز تامًّا ولا بد لها من استشارة الطبيب عن حدوث اي نقص او تغير في حالة الطمث او عند امتناعه او الشعور بأي ألم في خلاله لان الالم قد يكون عرضاً لمرض يمكن تلافيه في اوله ويستعصي متى ازمن. وقد لاحظنا أن الكثير من السيدات يتحملن هذا الالم ويستهنَّ بهِ حتى يمر الدور — شأنهن في كل ما يصادفهن من متاعب الحياة ولكن هذه الخطة ليست من الحكمة في شيءٍ وعليهنَّ ايضاً ان يتجنبنَ البرد او السهر في أثناء هذا الدور

ولا أُوصي بالنظافة العامة او الخاصة لان هذه امرها بديهي والجسم مثل كل شيء آخر يحتاج الى تكرار النظافة لان قطعة الاثاث مثلاً اذا نظفت امكن حفظها من الاتساخ بتغطيتها بينما الجسم لا ينفع معهُ هذا الاحتياط لانهُ دائم الافراز لمادة دهنية من مسام دقيقة حتى ولو لازمنا الفراش. ومن هذه المسام تخرج بعض فضلات الجسم التي تلحق بهِ الضرر لو بقيت فيهِ. واذا لم نتداركه بتنظيف الجلد سدت هذه المسام التي قيل عنها بحق انها منافذ الصحة واذا سدت بالاقذار كانت مصدر خطر على الصحة ويكفي من ضرر سدها ان الجسم لو خدش تسربت اليهِ من الخدش بعض الجراثيم التي تحملها هذه الاقذار وقد تكون سبباً في تسمم الجسم تسمماً عاماً كما ان سدَّ هذه المنافذ يعرض الانسان الى الاصابة بالبرد والنزلات ويؤدى الى ضعف مقاومة الانسان للامراض الاخرى

هذا فيما يتعلق بالنظافة العامة واما النظافة الخاصة فيكفي فيها الغسل في الصباح والمساء بالماء الساخن والصابون والحذر من استعمال المحاقن فقد تكون سبباً لاستيطان بعض الجراثيم في الجهاز التناسلي مما ينشأ عنه الالتهاب المزمن وأجد نفسي مقيداً بحكم التقاليد لعدم الاسترسال في هذا الموضوع وإن كان من المباحث الحيوية التي يجب على الفتاة أن تعلم كل شيء عنها لان كل ما تعانيه معظم السيدات ناشيءٌ عن الجهل بهذه الامور وهذا الجهل ناشيء عن الخجل من السؤال عما يجهلن واعتبار البحث في الشؤون التناسلية خدشاً للآداب. وكنت اودُّ لو أُفضي اليكم بمعلومات جمة تفيد الزوجين وتزيل الكثير من أسباب الشقاء وتدعو إلى ان يرفرف الهناء على بيوتنا ولكن لنترك ذلك لمن يأتون بعدنا فقد يكونون أقدر منا على ذكر الحقائق ومجابهتها مهما كانت — ولا حيلة لجيلنا الحاضر الاَّ أن يردد قوله تعالى «انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون» إلى ان تتيح درجة التطور لحفدتنا ان يتمشوا مع ضرورات التطور العملية

***

ومما يسرُّ له الانسان أن ربات المنازل يتمتعن الآن بنصيبهن من الحرية في الحياة اكثر مما

كانت عليه جداتنا ولكنهن وان كن يعنين وهن فتيات بالالعاب الرياضية الا أنهن — كربات منازل — لا يمارسنها الاّ نادراً . ولا أقصد بهذا القول اننا نخلق أمة رياضية بين طرفة عين وانتباهتها أو ان مثلي سيعيش حتى يرى في كل بيت من بيوت أعيان الريف ملعب «تنس» وفي كل حي من أحياء المدن نادياً لشتى الالعاب تقصده ربات المنازل في أوقات الفراغ للتروض — غير أني أريد ان يتأصل في نفوس السيدات حب الرياضة لذاتها فلا يغفلن عن ممارستها كما نشاهد احياناً من ان بعض الفتيات يولعن قبل الزواج بالعزف على المعزف ثم لا تلمسه أصابعهن بتاتاً بعد الشهر الاول من الزواج . انني أتمنى ان ينشأ جيل قوي من أمهات قويات البنية . أما اقل أنواع الرياضة كلفة وأنفعها فهو المشي ولا سيما في جو بلادنا طوال السنة ولا اقصد بالمشي — أيها السادة — التبختر بل أقصد المشي السريع الذي يسبب اعتدال القامة بما يحدثه من تمديد الصدر واعتدال الظهر وحفظ الكتفين دواماً الى الخلف . مثل هذا المشي يقوي العضلات وينشط الهضم حتى ان من يتعود المشي يمكنه هضم أي غذاء . وهو يلين الامعاء ولذلك فانه أشد فائدة من اي نوع من الحبوب الملينة . المشي يضيء البشرة بأبهج الالوان ويورد الوجنات ويجعل العيون تلمع لمعانها الساحر وهو بالاختصار من أهم الوسائل المؤدية للحصول على الجمال الذي تعتبره كل فتاة أغلى ما تملك . وهو يستعصي عليها بكل الطرق الصناعية ولكنه يأتي اليها طائعاً متى توفرت لديها الصحة هذا ولا يمنعها الحمل من ممارسة المشي باعتدال

ويجب في جميع الاحوال أن تكون الرياضة في الهواء الطلق لان استنشاق الهواء النقي ينقي الدم ويمده بالاوكسجين الضروري للحياة كما ان ضوء الشمس من ألزم الضرورات لحفظ الصحة وجدير بي ان أذكر هنا ان الغرض من المشي الحركة المطردة ولذلك لا يعتبر الوقوف رياضة وكلنا مجربون ان من يقف طويلاً يشعر بالتعب والقلق لان الجسم لم تركب في طبيعته القدرة على الوقوف مدة طويلة ولذلك فان الوقوف الطويل يسبب تمدد الاوردة في الاطراف السفلى وغيرها عند الانسان . ولكن الطيور التي خلقت للوقوف الطويل كالنعامة ومالك الحزين وأبي قردان خلت أرجلها من العضلات والاوعية الدموية ولم تتركب الاّ من العظام والاوتار

ان المشي فضلاً عن تنشيطه للدورة الدموية وتقويته للعضلات يدفىء الجسم شتاءً ويدعو الى افراز الكثير من العضلات فلا تشكو السيدة من آلام المفاصل او العضلات التي كثرت الشكوى منها الآن بسبب سهولة المواصلات للغني والفقير على السواء فلا تجد انساناً يخطو بضع خطوات بل الكل يفضلون المركبات الكهربائية والحافلات مع ان الحركة لازمة لكل كائن حي فالدنيا وكل شيءٍ في الكون في حركة دائمة والجسم كالماء اذا وقف ركد وأسن

ولا علاج للعصبيات وللعصبيين او للمترهلات او للمتبرمات بالحياة احسن او اوفق من المشي بغير افراط ولاسيما للضعيفات

وعلى ذكر العصبيات أذكر انهن انواع . ولكن اكثر الانواع ذيوعاً واتعبها المصابات بالهستيريا فان هذا المرض يظهر لصاحبته انها مصابة بشتى الامراض ومتألمه بأي نوع من الالم كآلام المفاصل والاسنان والاعصاب والعضلات والتهاب الزائدة الدودية وحويصلة المرارة وقرح المعدة والتهاب الامعاء وبالاختصار كل الامراض ولهذا المرض أسباب عديدة اهمها بالنسبة للمتزوجات كثرة الحمل او كثرة الاجهاض والطمث الغزير وكل ما يدعو الى الضعف العام سواء كان بسبب جثماني كالانيميا أو بسبب عقلي أو نفسي او للعقم وهذا السبب الاخير قد يكون اهم الاسباب بعصر . والهستيريا مرض قابل للبرء وعلاجه نفساني

ومن الاسباب الداعية لنهاكة الاعصاب السهر الطويل والمواظبة على السينما التي تعرض فيها الروايات المزعجة والحياة الغير الصحية والمعيشة في دور أو غرف لا تتوافر فيها شروط التهوية

التهوية — ايها السادة — واقصد بذلك تهوية غرف النوم لأن التهوية بصفة عامة أصبح الكثيرون يعرفون ضرورتها للمنازل — يجب على ربة المنزل ان تترك جميع منافذ المنزل مفتوحة طوال الليل صيفاً ولا تغلق نهاراً الا اذا كان الجو حارًّا ومتى خفت الحرارة تفتح المنافذ ثانياً وفي شتاء بلادنا يمكن تعوّد النوم بعيداً عن تيار الهواء مع ترك احدى النوافذ مفتوحة ولكن من لا يطبق ذلك يمكنهُ ان يغلق درف المنافذ الخشبية فقط أو يترك الجزء الاعلى منها مفتوحاً

انهُ من الغفلة ان ينام الانسان في غرفة غير مهواة لانهُ يستنشق طوال الليل سمّاً زعافاً وهو ما تخرجه الرئتان اثناء النوم . ولم يسمع بأن التهوية الصحيحة ادت الى اصابة اي انسان بالبرد وهو نائم . والواقع انهُ لا يمكن للانسان ان ينام نوماً هادئاً في غرفة رديئة التهوية بل يكون نومه مضطرباً لا يفيد الجسم كثيراً من الراحة لانهُ يكون في الحقيقة مخدراً بسم الهواء الفاسد — فالردهة التي نحن فيها الآن لو لم تكن مجهزة بجميع الوسائل الحديثة للتهوية فان أي خطيب مهما بلغ موضوعه من البهجة ومهما كانت مقدرته الخطابية لايقاظ مشاعركم يعجز عن استرعاء سمعكم لانكم كنتم تشعرون بالكسل والتراخي والقلق وثقل الرأس

ايها السادة

ما اسعد الحياة وما اجملها اذا شعر الانسان لدى عودته من متاعب يومه الى منزله — بالغة ما بلغت متاعبه — اذا شعر بانشراح الصدر والسكينة وملأت خياشيمه الرائحة الطبيعية للهواء النقي غير المزيف بأي رائحة صناعية مهما كانت عطرة . وأشرقت عليهِ شمس السعادة من سماء شريكة حياته المتمتعة بالصحة المزدانة بالعقل المدبر والخلق العظيم — ليس من شك في ان هذه هي زينة الحياة الدنيا والنعيم بكل معانيه

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف . ونراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

نقد شوقي

حضرة الفاضل الاستاذ فؤاد صرّوف

تحية واحتراماً . وبعد فقد قال الاديب مصطفى الرافعي في فصل له عن شوقي بالمقتطف الاخير : « دع غلطتهُ في قوله — تميل عني — فان صوابها تمل اذ هي جواب ان الشرطية »

هكذا قال الاديب الرافعي معقباً على بيت شوقي :

ان رأتني تميل عني كأن لم ... تك بيني وبينها اشياء

والذين يعرفون النحو يعلمون ان الخطأ انما هو في تصحيح الرافعي لا في البيت المنتقد لان رفع جواب الشرط المسبوق بفعل ماضٍ صحيح مستحسن كجزم الجواب على السواء لم يخطئهُ أحد قط من علماء اللغة والنحاة . واشار الاديب الرافعي الى البيت الآتي :

عيسى الشعور اذا مشى ... رد الشعوب الى الحياة

وظن ان « الشعور » هنا زائدة من قبيل الامور في البيت الآخر :

ولو زلت غُيّب عمرو الامو ... ر وأخلى المنابر سحبانها

والصواب أن « عيسى الشعور » في البيت السابق من تشبيه الاضافة المعروف في البلاغة وليس ثمة حشو ولا اقحام في تركيب الكلمات ، فالبيت معناه ان الشعور اذا مضى في الشعوب ردها الى الحياة كما كان عيسى يحيي الموتى . ومثل هذا ان يقال : « خمر الريق » في تشبيه الريق بالخمر على الاضافة ، او يقال : « موت الغباء » في تشبيه الغباء بالموت على هذا المعنى . اما ما عدا ذلك من المآخذ في مقال الاديب الرافعي فلا أرى ان اناقشهُ فيهِ

عباس محمود العقاد

الجاحظ في مصر

تفضل المقتطف فكتب كلمة عن كتابنا «ادب الجاحظ» في عدده الصادر في نوفمبر الماضي دل فيها محرره الفاضل على ما انطبع عليهِ من أدب فائق وخلق كريم . وقد أشار إلى قولنا في هذا الكتاب (ص ٧٩) : ووقعت في كتاب على أنه (أي الجاحظ) وفد على مصر وأقام بها زمناً وأجرى بها اختبارات فيما عثر عليه من حيوانها» وقال : وحبذا الحال لو أشار إلى الفقرة

التي نص فيها على ذلك أو يحصل ذلك من معناها . ومن قبل قد أبدى هذه الملاحظة في جريدة البلاغ صديقنا الفاضل الدكتور زكي مبارك ، غير انني إذ ذاك لم أرَ وجها للمناقشة في أمر غير محتمل لها ولا سيما في الصحف السيارة . فلما تفضل حضرة المفضال محرر المقتطف بهذه الاشارة رأيت من الواجب ابانة هذه المسألة وانارة الطريق اليها

كتب كثير من أصحاب الاخبار ان الجاحظ صحب صديقه العظيم الفتح بن خاقان في رحلته إلى الشام وزار بها كثيراً من المدن ، وقد أشار الجاحظ إلى هذه الرحلة في بعض كتبه ولا سيما كتاب الحيوان منها . وكما أشار إلى هذه الرحلة أشار كذلك إلى وفوده على مصر في كتابه الحيوان أيضاً . فقد قال في ص ٥ ج ٤ من كتاب الحيوان « كنت بعجت بطن عقرب إذ إذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو أرزة » (حرره أبو بكر السروكني) وقد كان وجود هذا الاسم بازاء عبارة الجاحظ مثاراً للشك في وفوده على مصر ، أما أنا فلست أرى لهذا الشك من معنى يصل بهِ الى النفي المطلق . وعندي أن أبا بكر السروكني هذا لم يكن الا رجلاً من المشتغلين بنسخ الكتب وقد وقع له كتاب الحيوان منسوخاً بقلم رجلٍ قبله فأخذ في نسخهِ حتى وصل الى هذه الجملة فلعلهُ رأى تحريفاً من الناسخ السابق فأقامه ثم كتب على الهامش وحرّره ابو بكر السروكني ، وقد بحثت عن تعريف لهذا السروكني فلم أقف له على أثر ، ولهذا فأنا أرجح وفود الجاحظ الى مصر كما أرجح أن السروكني لم يكن أكثر من ناسخ للكتاب

حسن السندوبي

ترجمة الشاهنامه

سيدي الفاضل رئيس تحرير المقتطف

اقدم خالص التحية . وبعد فقد اطلعت في مقتطف اكتوبر في باب المراسلة والمناظرة على كلمة العالم الفاضل يوسف غنيمه وزير مالية العراق قبلاً راقني فيها ادب النقد ، وراعتني سعة العلم . واني ابادر الى شكره والاعتراف بفضله في التنبيه الى ما رآه من تحريف او خطإ في بعض الاسماء التي ذكرت في حواشي الترجمة العربية للشاهنامه

بعض هذه المآخذ من سقطات الطباعة مثل «الآثار الأسورية» بالسين لا بالشين . وقد ذكرت في مواضع اخرى من الكتاب بالشين على صوابها . ومثل جعل استرداد هرقل الصليب من الفرس « سنة ٥٢٨ » مكان سنة ٦٢٨ . وبقية المآخذ التي ذكرها الناقد الفاضل جاءت غلطاً مني او اختياراً لصيغة من صيغ مختلفة . واني اعترف بأن رأي الناقد في ترجيح صيغة على اخرى اسدّ من رأيي وسأتبعه حين يعاد طبع الكتاب

ثم اكرر شكري وثنائي لحضرة العالم الفاضل آملاً ان يزيدنا من نقده . وأرجو ان تتفضلوا بقبول احترامي

الجامعة المصرية

عبد الوهاب عزام

مكتبة المقتطف

رسالة باريس — لبشر فارس

كتب في الادب الفرنسي

في الشعر الفاجر

Edition Le Trianon

1. La Poésie priabique

لم يعرض ناقد قط للبحث في الشعر القائم على الفسق . ومما يعجب له أن قاضياً باريسياً رفيع المكان أقبل على هذا البحث فلم يحفل بأقاويل الناس . وقد نبّه القراء في المقدمة انه خلع عذار الحياء راضياً من دون ان يبرز صفحة الوقاحة . فإنْ هو الاّ ناقد جامع للتاريخ والاخلاق وعلم النفس

وليس الشعر الذي يتدبره في هذا الكتاب بالنسيب فالبعد بين النوعين شاسع . فبينما النسيب يقوم على المغازلة والتشبيب بالمعشوقة في عبارات رقيقة واسلوب ظريف اذ ذاك الشعر يقوم على الناحية الجثمانية من الحب ولا يعبأ الاّ بالاحساسات

على ان ذلك الشعر ليس بالغريب عن ادبنا. فدواوين العرب لا تخلو من الفجور وان خطر لك ان تثبت قولي فعليك بالفرزدق وابي نواس وابن الرومي . الا ان هذا الجانب من الشعر العربي يختلف في العرض عن ذلك الشعر من حيث ان اصحاب هذا كانوا يجلّون الفجور فيترنم الناس باشعارهم وينشدونها في المحافل والمواكب وربما اخذتهم العزة بالإثم فجعلوا تلك القصائد صلوات يتقربون بها الى اله يسمونه (فَلّوس) . الاّ ان ذلك لم يكن الاّ في العصور الخوالي ايام اليونان والرومان . واما في العصور المتوسطة فلم ينظم ذلك الشعر الاّ لهواً ودعابة

سيرة أبي

2. La vie de mon pè[illegible]

ان اول من فحص عن دخلات المزارعين الفرنسيين رجل يقال لهُ Restif de la Bretonne ولهذا الرجل الذي عاصر ڤولتير وروسو مائتان وخمسون مجلداً . ومما يؤسف عليه أن جلّها

ليس بشيءٍ . فلم يبق من تآليف الرجل الاَّ بضعة كتب منها الكتاب الذي قرأت عنوانهُ اساعتك على أن صاحبه ذهب فيه الى البحث عن اخلاق القرويين فبسط حياتهم الساذجة وعواطفهم المخلصة واحساساتهم المعدودة وشعورهم النقي وعقيدتهم الخالصة وقناعتهم ووداعتهم وهو في ذلك نافذ العين بعيد النظر . ومن اجل ذاك قيل له الخفـاش . وقد كان يقول ان « سيره ابي » مؤلف سماوي ثم صرح أنه لم يقرأه قط الاَّ بكى . وكان معاصروه يقدمونه . وكان فيمن أعجب به (شيلر) الشاعر الالماني . إلا ان صاحبنا كان متفاوت الاسلوب فله تارةً عبارة بليغة مشرقة المعاني وطوراً غث مختلّ الاداء . وكان فوق ذلك يعتمد على سرعة قلمه فكثيراً ما زلّ

قصة سلامبو

Salambo—Editions Mornay, Paris

إن قصة (سلامبو) لفلوبير الذي حدثتك عنهُ قبلاً تسوق لنا حروب اهل قرطجنة وتستند اليها لتعقد لنا حوادث شتى تدور حول قائد الجيش القرطجني وابنته وحول قواد الجيوش البربرية والليبيين الناصبين الحرب لقرطجنة . وموضوع القصة حادث تاريخي لا يجهله احد إلاَّ ان اسلوبها كأنهُ الوشي الفارسي . ومن اجل ذاك اعرض عن الموضوع لاحدثك عن الاسلوب

إن (فلوبير) عزم ان يبرز قصته في البيئة التي جعلها لها فلم يبلغ ما في نفسهِ الاَّ بعد طول عناء لانه لم يدخر جهداً في الفحص عن ماضي قرطجنة . وعلماء التاريخ والملل والآثار مجمعون على انه لم يترك واردة ولا شاردة الاَّ اثبتها في (سلامبو) . ومما لا ريب فيه ان الرجل دسّ في قصته ضروب الخرافات الاسيوية ونواحي الدين الفنيقي . فأشار الى عزّة الآله بآل وذكر النزاع الذي كان بين العنصر المذكر والعنصر المؤنث وذلك النزاع الذي عليه قامت العقائد حين ذاك . ثم مثل الحب تمثيلاً حقيقاً بالشرف اذ جعله عنيفاً صليباً شهوانيـاً مع لطف ورقة

ثم ان الرجل ذهب في التحليل مذهباً بعيداً فصوّر الشرق القديم مع ما ضمَّ بين جنباته من عجائب فطابق بين الآلهة المجردة والاصنام التي لا يعبدها الاَّ شعب فطري وبين الخرافات المضحكة والعقائد الرفيعة وبين العواطف البربرية والشعور الدقيق وبين صنوف الفسق وضروب التخشن . ثم بسط كيف كان يحارب القوم فوصف آلال الحرب وانواع الحصار والنزال والبراز ثم اشار الى غلاظة اكبادهم وقسوة قلوبهم وخشونة جوانبهم متى شمروا للحرب

ولقد افرغ (فلوبير) هذا التحليل في قالب الفصاحة وبلغ به حدّ الاعجاز اذ ساق الشيء الكثير في جلباب الفن المشرق ..

حج البيت

Le Pélerinage de la Meque—Edition Rieder, Paris

ان صاحب هذا الكتاب المراقب العام لمجلس الصحة البحرية في مصر واسمه دوجيه Duguet . فهو أهل ان يؤلف في شأن الحجاج لطول اختلاطه بهم وخصه عنهم ولا سيما انه يميل اليهم ويعظم عملهم لاخلاصهم في تقوى الله وحبهم له

وقدقسم الرجل الكتاب الى قسمين احدهما موقوف على الناحية الدينية والآخر على الناحية الطبية . اما الاولى فلا حاجة لنا ان نعرض لها ففائدتها منصرفة الى الافرنج لانهم يجهلون في الغالب شعائر الحج الاسلامي وقراء المقتطف لا يجهلونها فيما اظن . واما الناحية الثانية فلا بد ان نقف عليها لاستقامة بحثها وغزارته

يبدأ صاحب الكتاب بالاشارة الى سبب انتشار الكوليرا والحمى وغيرها في الحجاج من حين الى حين . ثم يذكر ان الاوباء قد تفشت فيهم اربعين مرة من سنة ١٨٣١ الى سنة ١٩١٢ على ان وباء سنة ١٨٩٣ كان اثقلها وطأة . ثم يعرض الرجل ماحاولتهُ الامم منذ ذلك الحين في اتقاء الاوباء ودفعها فيذكر الاجتماعات التي عقدتها تارة في البندقية وطوراً في باريس ثم المفاوضات التي جرت بين الدول الاوربية وبين حكومة القسطنطينية فيبرز لنا تركيا في جلبابها البالي اذ يخبرنا كيف كانت تحول بين الدول وبين مساعيها حتى انقادت لهم سنة ١٩٠٠ فشيّد سدّ طور . وأما حديث الرجل عن شؤون الصحة في الحج الحالي فما يبسط الآمال في قلوب الناس . فهذي جدة تنقلب شيئاً فشيئاً الى بلد نظيف وهذي مصالح الصحة تنتشر انتشاراً في مكة وبجانبها رشّ الطرق وبناء خزان عظيم للماء العذب واختطاط ثلاثة سبل الى عرفة . والفضل في ذلك راجع الى عناية الوهابيين بالشؤون الصحية واهتمام الدول الاسلامية امثال مصر والشام والعراق بسلامة رعاياها وتداخل الاوربيين تارةً ليشرفوا على اهل مستعمراتهم وطوراً ليتقوا تفشي الاوباء في انحاء المعمور

بيت لاجداد

La Maison des Aïeules — Edition Floury Paris

حدثتك من زمن عن (لوتي) Loti قصّاصاً وبسطت لك ما كان بين جنبيه من السأم وكيف كان يرغب في اللذات وينقاد الى الشهوات . على انهُ اتفق لي اليوم ان اقرأ قصتين له انكرته فيهما . وهاتان القصتان تقعان في بضع صفحات واظن (لوتي) الفهما لاهياً فلم يكن الغرض الذي قصد اليهِ في تأليفهما مثل الغرض الذي رمى اليهِ في جميع ما صنّف . الاّ انهُ لا يجدر بنا ان ننظر فيهما نظرنا في القصص عامةً لانهما بعيدتان كل البعد عن فنّ القصص وثك ان تفصل في ذلك

إن (لوتي) يحدثنا في القصة الاولى عن منزل تعاقبت السنون عليه أقام بهِ اجداده زماناً ثم باعوه . فلما اثرى (لوتي) سعى في استرداد المنزل حتى اشتراه . ولم يعتم ان رحل اليه في يوم شديد المطر . على ان تلك الرحلة موضوع القصة . ولا تحسبنَّ ان (لوتي) ذهب في وصف الرحلة مذهب مفتنٍ لا مذهب وصّاف فانهُ يحدثنا عنها في سذاجة ويعمد في حديثهِ الى اسلوب داني القطوف لا كلفة فيه ولا تأنق . وكأن ذكرى صباه المتمثلة في جنبات ذلك المنزل أثرت فيه الى حد ذهل عنده صنعة الادب فانطلق يكتب معتمداً على شعوره. والشعور يؤدي المعاني والصور في ديباجة ليس لسهولتها غاية

وفي القصة الثانية يذكر لنا (لوتي) كيف صنعت له وصيفته «عروسة» ايام طفولتهِ وكيف عُلّق العروسة ولزمها حتى ملَّها فأودعها خزانةً كان يجمع فيها لعبه المختلفة . على انك ترى ان القصتين لا شأن لهما . وكأني بك تعتقد عليّ السخر منك والتهاون بك ويشهد الله اني ما سقت اليك هذا الحديث الا لتعلم ان الفرنسيين يعنون بتآليف كتابهم المتفوقين وان لم تكن جليلة وعندي ان هاتين القصتين لا يقبل عليهما الا الاطفال وان قرأها الرجال لا يطمئنوا اليهما ولا يفرحوا بهما الا اذا مثلتا لهما ايام طفولتهم وصباهم وفي مثل هذا التذكار كثير هناء وبعض السلوى

قصص انجليزية منقولة الى الفرنسية

Collection du Paon Blanc -- Édition Redièr, Paris

ان بحثنا هنا عن كاتبين من الانجليز . اما الأول فيقال له (كُنْراد) Conrad وهو بولوني المنشأ . والغريب في أمره انه يعمد أحياناً إلى أسلوب في التعبير يختلف عن الاسلوب الانجليزي قليلاً أو كثيراً . ومن اجل هذا ترى طائفةً من نقاد الادب يأبون ان ينزلوه منزلة الكاتب القدير

على ان كُنْراد أراد ان يجعل قصصه كمثل ملحمةٍ متصلة السلك ولكنه لم يقوَ على ان يحكم نواحيها ويلائم بين أطرافها . فجاء تأليفه مضطرباً مختلاً . الاَّ ان الرجل فطن للأمر فحاول ان يصلح ما فسد في مصنفاته فاعتمد على اساليب فيها من التكلف والاعتساف ما فيها

غير ان (لكنْراد) قصصاً قصيرة لا اختلال فيها ولا اضطراب والسبب في ذلك ان الرجل لا يعمل فكره فيها ليناسب بين فقرٍ وملحمةٍ عديدة النواحي بل يرسل الكلام ارسالاً وفي هذه القصص قصة عنوانها شباب Jeunesse وموضوعها رحلة سفينةٍ تضم بين جوانبها فتى غربيًّا لا يبلغ إلى شواطىء الشرق حتى تتغير طبيعته . ثم إن في هذه القصص قصة عنوانها قلب الظلمات Coeur des Ténebres وليس موضوعها الا النضال الذي بين التقدم الغربي وبين بربرية القبائل المقيمة بآسيا . والقصتان قائمتان على الخبرة اليومية . الاَّ ان الثانية تعتمد على الاخبار لتنطلق في التفكير المجرَّد فتذيع بعض الآراء وتكشف عن دقائق العواطف

وأما الكاتب الثاني فيدعى (موَم) Somerset Maugham وهو من خير كتّاب اليوم في .

انجلترا ومن أبعدهم صيتاً . وما اظن كاتباً مسرحيًّا يقوى على مزاحمته فان رواياته لاتنفكُّ تمثل في انجلترا ويقال انّ مثـلها في الرواج مثل روايات شكسبير والله اعلم

ولسنا نعرض هنا لتأليف (موم) المسرحي فانا نبحث في كتاب له عنوانه الارخبيل ذو النساء الساحرات Lârchipel aux Sirènes . وغرض (موم) من القصص التي جمعها في هذا الكتاب الفحص عن تأثير اقليم جزائر الباسيفيك في الغربيين .وهذه القصص الغاية في البحث النفساني الذي يخلص الى السرائر والخفايا وينقب عن الاسباب البعيدة . على ان (موم) كأنه يبالغ في قصصهِ فكثيراً ما يخيل اليك انه يصف مشاهد لم يقع عليها بصره ويسوق اخباراً لم يظفر بها سمعه والحقيقة ان (موم) يحدثنا عن بديهيات ان نتصوره وعن قوم يشق علينا ان نتعرف طبائعهم

صيادو اللآلئ

Pêcheurs de Perles - Edition Albin Michel Paris

كأني المح الى عقد من اللؤلؤ يزين جيدك فدعيني اسوق اليك يا سيدتي القارئة هذا السؤال : اتعلمين ما ثمن هذا العقد ? اني لأرجو منك ألاّ تجاوبي على سؤالي من فورك بل سماع سماع:

لقد رحل صحافي فرنسي يقال له Albert Landre الى البحرين ارادة ان يشاهد صيد اللؤلؤ فيها وها هو عاد الى باريس واذاع بين الناس مشاهداته فألّف كتاباً لا يقرأه احد الاّ يغتمّ:

ان في البحرين جماعة من العرب والسودان والصوماليين يغوصون في البحر ليصطادوا اللآلئ . وكلما غاصوا عادوا واضلاعهم تريد ان تتقصف والدم ينصبّ من خياشيمهم وآذانهم ولم يلبثوا بعد الغوص الطويل ان يدركهم الصمم ويصيبهم العمى ويخامر قلوبهم داء عياء . ثم ان الشيخوخة تدهمهم وهم ابناء ثلاثين سنة واما صرعة الموت فتنزل بهم والله لم يبلغهم الاربعين وقد ابيت ان ابسط لك كيف تهدد انواع الاسماك الغوّاصين خشية ان يروعك حديثي وحسبك ما اخبرتك بهِ كي تعلمي ما ثمن العقد الذي يزين جيدك .فاذكري اولئك الغواصين من حين الى حين وارثي لهم !

مأساة الدردنيل

La Tragédie des Dardanelles — Edition Grasset, Paris

من ذا الذي نسى مأساة الدردنيل ايام الحرب الكبرى ? فهذا الكتاب يذكرنا اياها :

افلتت درّاعتان المانيتان من الاسطول الفرنسي في شهر اغسطس سنة ١٩١٤ وانطلقتا الى القسطنطينية تحول بين الروسيا وبين الحلفاء . وتباطأت الانجليز في مطاردتهما ولم تقصد اليهما الاّ في شهر مارس سنة ١٩١٥ فلم تهجم الاّ على حائط ممدَّد ثابت . ولما عزم الحلفاء على الشرّ العنيف ارسلوا الى البرّ جيشهم فقتـّل تقتيلاً ثم انهم حاولوا شرّاً آخر فخابوا خيبتهم الأولى وما زالوا يقاومون الاتراك والعطش يجهدهم والحر ينهك قواهم حتى انصرفوا والفشل حليفهم من بعد ما ضحوا بمائة الف جندي .وليس هذا الكتاب موقوفاً على سرد الحوادث الحربية ولكنه يعرض للسياسة ويبحث عما صنع القواد والساسة امثال غورو وتشرتشل ولورد كتشنر

مجلة ابولو

للشعر والنقد الادبي في كل بلاد اصابت قسطاً وافراً من الارتقاء الفكري والفني مجلة أو اكثر تنشر المختار من ثمرات القرائح فتكون الصلة بين جمهور القراء وجمهور الشعراء. وتفتح صفحاتها في باب خاص لنقد الشعر ، فتصقل من ذوق القراء بما يبينهُ النقاد من حسنات الشعر ومساويهِ وما يرسمونهُ من اثر للنزعات الخاصة التي ينفرد بها كل جيل من الادب عن كل جيل سواه . ولسنا في حاجة إلى تعديد هذه المجلات ،انما نكتفي بذكر المجلات الثلاث المعروفة باسم «عطارد» Mercury التي تصدر في نيويورك ولندن وباريس

والشعر العربي الآن في أشد الحاجة الى مثل هذه المجلة . فالمجلات الشهرية تضيق دون نشر كل مختار من ثمرات القرائح ، فتكتفي بالنزر . والصحف اليومية أنشئت لنشر الانباء المحلية والعالمية اولاً وقراؤها يتناولونها في الغالب للاطلاع على هذه الانباء ، وقلما تتاح لهم مطالعتها مطالعة رويّة وأناة،لان العصر عصر سرعة واندفاع ، ولا ينتهي القارىء الواحد من مطالعة صحيفة واحدة في طريقهِ الى المكتب صباحاً ، حتى تصدر الاخرى مساء وفيها انباء جديدة لا بد له من قراءتها اذ شاء الالمام باحوال العالم. فالصحف اليومية بطبيعتها الخاصة لا تصلح لنشر الشعر . وما نشر منهُ في صحفنا العربية متفاوت الطبقات ، اختلط فيهِ احياناً كثيرة نابل الشعر بحابلهِ

لذلك كان لا بدّ للشعر العربي من مجلة خاصة بهِ ، تكون في آنٍ واحدٍ رسول الشعراء الى مريدي الشعر من ابناء العربية في كل الاقطار — وهم كثر — وعيناً واقفة للادباء بالمرصاد، تقول لمن يجيد اجدت وتبين موضع الاجادة والاحسان ، وتقول لمن يشطّ شططت وتشير في رفق واقناع الى مكان الشطط والزلل . فتقوّم بذلك ما التوى في اذهاننا من فهم لمعاني الشعر السامية ، وتصحح من موازين الادب ما اختلّ

واننا نرى ان اشدّ ما نحتاج اليهِ الآن ، في حياتنا الادبية ، النقد المنصف النزيه الصادر عن تمكّن وفهم لاصول الادب واساليبهِ وصلتهِ بالحياة

ونظن ان كل ذلك خطر للدكتور ابو شادي ، قبلما اقدم على اخراج مجلتهِ « ابولو » «للنهوض بالشعر العربي وخدمة رجالهِ والدفاع عن كرامتهم وتوجيه مجهوداتهم توجيهاً فنيـّاً سامياً» وقد صدر من «ابولو» حتى الآن ثلاثة اعداد، والرابع وشيك الظهور، تبينـّا في خلال صفحاتها، رغم ما حوتهُ من غث الشعر وسمينهِ ، انها سائرة في سبيل الغاية التي يجب ان تكون غايتها ، وهي تحبب الشعر إلى الجمهور ، ونشر المختار منهُ بصرف النظر عن اسم الشاعر ولقبهِ ، ونقد اساليب الشعر ومعانيه لتقويم معاييره في اذهان خاصة القراء وعامتهم على السواء

وقد انشأ الدكتور ابو شادي « جمعية ابولو » فضمت طائفة من اكبر الشعراء المعاصرين وكان شوقي رحمهُ الله اول رئيس لها ، فاختير خليل مطران خلفاً لهُ . ومن اعضائها احمد محرم والدكتور ناجي وعلي محمود طه وحسن كامل الصيرفي ومحمود ابو الوفا وغيرهم من كبار الشعراء والكتّاب

امام المجلة سبيلان : الاول ارضاء كل من يبعث بشعر اليها فتنشره فيرضى عنها ويكون داعيةً لها فتروج وتذيع وهو السبيل السهل . واما الآخر فاختيار الجيد من الشعر فقط وصرف النظر عن الباقي ، فتغضب بذلك كثيرين . وهو السبيل الوعر . ولكن المجلة اذا سلكتهُ انصفت الادب الصحيح وتقدمت نحو غرضها السامي

وان ما نعرفهُ عن ايمان منشئها بمكانة الشعر السامية في العمران ، وتقدير رئيس جمعيتها وجميع اعضائها وجرأتهم في الحق يحملنا على الاعتقاد ان مجلة ابولو سالكة السبيل الوعر «ولا بد دون الشهد من ابر النحل »

مشكلات التربية في مصر

تأليف علي حسن الهاكم — طبع بمطبعة خضير بمصر — صفحاته ١٢٩ قطع وسط

مشكلات التربية في مصر هي لبُّ المشكلات القومية . فالتمشي مع تحقيق الآمال السياسية واستثمار خصب الارض بالوسائل الحديثة في الصناعة والزراعة ، وتشغيل العاطلين من المتعلمين ، وتحسين الصحة العامة ، ورفع مستوى المعيشة في الريف ، كل ذلك يرتدُّ الى التربية — وهي اعداد المتعلم للحياة — ما غرض التربية الذي نرمي اليهِ وما الوسائل التي نتوسل بها لتحقيق الغرض؟ ويزيد هذه المشكلات تعقيداً اننا نقيم في بقعة يلتقي عندها الخافقان ، لحضارة الشرق من من ناحية وحضارة الغرب من ناحية ، تمتُّ الى الاولى بصلة الحنين والتاريخ والتقاليد ، وتجتاحنا الثانية بعلومها وفنونها واسلحتها وملاهيها . فهل نرمي في التربية الى تخريج مصري غربيٍّ كابناء الغرب ، او نرمي الى تخريج مصري شرقيّ .... اي هل نقتبس حضارة الغرب كما هي ، او نأخذ بأساليب الحضارة الشرقية معرضين عن الحضارة الغربية

اذا وضح المثل الاعلى للجيل الذي نريد ان ننشئهُ هان الجواب عن هذه المسائل . وقد وضع مؤلف الكتاب في هذا الموضوع فصلاً من ابلغ واحكم ما قرأنا ومما قالهُ :

«حقّـا إن النظرة السطحية لتحكم لأول وهلة بان المدنية الغربية بأنظمتها الاقتصادية والاجتماعية قد كسبت اليوم وربحت الموقعة . فالامم الشرقية ان لم تكن قد حكمت فعلاً بالسلاح فقد حكمت في الواقع بتغلغل كل ما هو غربي في الصميم من الحياة المادية والعقلية والاجتماعية

«لذلك نجد مع الأسف ان سبيل الثقافة الغربية قد طغى على الشرق بقوة لا تدانيها قوة الجيوش والاساطيل والطائرات وأسلحتها الفاتكة . هي غزوة أشد خطراً وفعلاً من الغزوات

الحربية لسلطانها الثابت على الجماعات والافراد وتحويل طابع الحياة من لون الى لون مختلف كل الاختلاف

«فهل يصح ان تقف أمام هذا الانقلاب مستسلمين الى سطوته وسحره؟ وهل تلك غايتنا التي فيها الفائدة والسعادة؟ ان بذلك الاستسلام تفقد كل أمة شرقية صفاتها الخاصة على مر الايام. وسوف يأتي يوم غير بعيد لا نرى فيه الشرق وميزاته إلاَّ لماما في بطون الكتب وآثاراً في المتاحف

«ولكن هنالك ظاهرة أخذت تشق طريقها بهدوء ووقار بين جلبة المدنية الحديثة. تلك هي الفلسفة الشرقية القديمة وروحها الخاص إذ قد أخذت المدنية الغربية تحفر قبرها بيدها وبدأت المدنية الشرقية تتحرر من كابوس نيرها لا على اصوات المدافع وصليل السيوف بل على قيثارة هادئة تناجيها من اعماق الماضي الشرقي البعيد بانغام قديمة كلها حنان ورفق. فأصبحت ترى العظمة الغربية في عواصم اوربا واميركا تكلل بالغار جبين تاغور شاعر الهند وفيلسوفها في جلبابهِ الفياض ووقاره وعظمتها الروحية. اي تمجده في عقر دارها. واصبحت تسمع بالموانئ وهي تزخر، والطرق وهي تفيض بجيوش حافلة اوربية لتحظى بنظرة من غاندي العاري الذي غزا اوربا بعظمة نفسه المطمئنة الوادعة وايمانه الراسخ المتين

ثم قال: ولتشترك ريشتا الثقافتين في صنع صورة مثلنا الاعلى بحيث تظل مشكاة الماضي القديم هادية لنا في طريق الاخذ بكل ما هو غربي ..... واذا تناولنا التربية في ذلك المحيط القومي الامثل فلنجعل مثلها الاعلى خليطاً من العظمتين، ولنرم الى مصري قوي في جسمهِ ناضج كلَّ النضوج في ملكاته. صلب في عزيمته. متين في خلقهِ، مرن في تصرفهِ نفاذ ببصرهِ مؤمن بالله وبالفضيلة نزاع الى الخير والمعروف، ولنتخير من نظام التربية الغربية ما ينهض بنا من غير اصطدام بتقاليدنا وفلسفتنا وادياننا»

ثم يتناول المؤلف بهذه الروح العالية، والبصر النافذ، والاسلوب السهل، شؤون التربية في البيت والمدرسة على اختلافها، وفيها كلها يصوغ من معرفتهِ الدقيقة وخبرتهِ الواسعة آراءً حكيمة تجمع بين صحة النظر وامكان التطبيق فهي جديرة بكل عناية. وعندنا ان هذا الكتاب يجب ان يطلع عليهِ كل مشتغل بالتعليم والتربية في القطر المصري. بل كل مضطلع بالشؤون العامة. وليس وجوب الاطلاع على كتاب وضعهُ مدرّس حطة من مقام الوزير او المدير او غيره من اصحاب المناصب الكبيرة، «فمدرس المستقبل سوف يكون اكبر الموظفين شأناً في الدولة» كما يقول الاستاذ جاكس. ومدرّس اليوم اذا احسن الفهم واخلص القول — كما فعل صاحب هذا الكتاب — خليق بان تسترعي آراؤه كلَّ اهتمام. وقديماً قال ولنغتن القائد البريطاني: كسبت معركة واترلو في باحات ايتن وهارو (وهما مدرستان من اشهر مدارس الانكليز) ومغزى هذا القول لا يحتاج الى زيادة بيان

جريمة سلفستر بونار

تأليف اناتول فرانس — ترجمة نعيمه عازار — نشرتها المطبعة العصرية بمصر — صفحاتها ٣١١ قطع وسط

الذين يحسنون اللغة الفرنسية من غير ابنائها يرون في كتابة اناتول فرانس مثالاً لابدع ما امتازت به تلك اللغة واسلسه. ومن المحتمل انهُ لم يقم منشيءٌ فرنسي من خمسين سنة الى الآن ولقي من الاعجاب بهِ والاهتمام بامرهِ اكثر مما لقي اناتول فرانس. وهذا الاعجاب والاهتمام غير محصورين في فرنسا بل اشتركت فيهما بلدان كثيرة وترجمت مؤلفاتهُ الى غير لغة واحدة

وقد احترمهُ بعضهم احتراماً فائقاً حتى كادوا يعبدونهُ لانهم حسبوهُ ابلغ منشيءٍ في اللغة الفرنسية في العصر الحاضر فقال الناقد جول لمِتر «ان انشاء هذا الرجل عين الكمال في حسن الديباجة وغاية ما وصل اليهِ النبوغ اللاتيني» والاعجاب بانشائهِ عام لسلاستهِ وانسجامهِ وما فيهِ من الظرف والتنوع والدقة والنقد اللاذع الجريء. وانتقصهُ بعضهم حاسباً اياهُ مفسداً لاخلاق الشبان وانهُ من اساتذة الفوضى الذين قاموا في فرنسا بعد رينان واكثرهم تضليلاً

على انهُ مهما تختلف الآراء في مقامهِ كمعلم للنشءِ لا يختلف اثنان في سموّ مقامهِ كاديب ومنشيءٍ ومؤلف روائي

ومن اول الروايات التي نشرها هذه الرواية — سنة ١٨٨١ — ويقول بعضهم انها ابلغ ما كتب فاحلتها الاكادمية الفرنسية في اعلى مقام وتوّجتها. وهي قصة بل قصتان تدوران حول شخص واحد اسمهُ سلفستر بونار وهو فيلسوف من اعضاءِ اكادمية التدوين كان عزباً غريب الاطوار شديد الذكاءِ كثير التهكم يطيل الالقاء في كل الموضوعات بكلام رقيق منسجم غاية في الدقة والظرف واللين فكأنهُ اناتول فرانس نفسهُ كما ودّ ان يكون بعد ثلاثين سنة او كما كان قد صار فعلاً. ويذهب احد النقاد «الى ان كثيراً من كتب اناتول فرانس قد يفقد في الاجيال المقبلة بعض ما له من المعزّة في النفوس ولكن كتاب «سلفستر بونار» يبقى مقروءًا الى ابعد العصور التالية لما فيهِ من التهكم الجميل والعلم الواسع من غير غرور والرقة البسّامة والغرام بكل ما هو سامٍ جميل في الانسان والطبيعة

فنشكر لمترجمهِ عنايتهُ بنقلهِ الى اللغة العربية. ونقول اننا عهدنا الى احد الادباءِ المنزّهين عن الغرض بالمقابلة بين الترجمة والاصل فاشاد بامانة النقل ودقتهِ

وقد وضع الشاعر محمود ابو الوفا مقدمة بليغة للقصة على اثر معاونتهِ الناشر في تهذيبها

فخر ابي فراس وابي الطيب

رسالة وضعها الاديب عبد الغني باجقني وتقدم بها لاجتياز امتحان شهادة الآداب العليا في الجامعة السورية بدمشق الشام. وقد اجاد الكاتب في الموازنة بين الشاعرين في اساليب الفخر وتعليل ذلك تعليلاً يقرّهُ التاريخ ويرتضيه الذوق الادبي. وتطلب الرسالة من مكتبة الشرق بدمشق

مطبوعات جديدة

﴿طبقات الارض﴾ هذا كتاب مدرسي وضعهُ رئيس تحرير هذه المجلة وفقاً للمنهج الذي اقرته وزارة المعارف العمومية للسنة الثالثة الثانوية جاء فيهِ على مبادىء علم الجولوجية فبسط أولاً بناء الكرة الارضية ثم الافعال التي تنتابها خارجية وداخلية فتغيّر من معالم سطحها مثل الرياح والامطار والانهار والامواج والبراكين والزلازل وما إلى ذلك وختمهُ بفصلٍ موجز في الجولوجية التاريخية وعمر الارض والحقب التي توالت على اشكال الحياة على سطحها والانسان في خلال العصور الجليدية. والكتاب في ١٨٠ صفحة تحتوي على رسوم كثيرة وثمنهُ ٥ قروش صاغ

﴿مبادئ علم النبات﴾ وضع الكاتبان العالمان محمود مصطفى الدمياطي والدكتور خربوش كتاباً موجزاً في مبادئ علم النبات يشتمل على مقرر السنة الاولى للمدارس الثانوية طبقاً للمنهج وزارة المعارف. وكلاهما من المشتغلين بهذا العلم نظراً وعملاً وتدريساً، فكتابهما يجب ان يكون عوناً كبيراً للطلاب على تفهم مبادىء هذا العلم الجليل الذي يمتُّ الى الزراعة باقوى صلةٍ. والكتاب موضح بعشرات الرسوم التي تقرب معانيهُ الى القراءِ فليس في صفحاتهِ غامض الاَّ وهو مجلو بهذه الرسوم. ومما يثلج الصدر ان الفاظ هذا العلم كتبت كلها باللغة العربية فلا يستطيع مكاتب التيمس ان يقول بتعذر وضع أي كتاب علمي باللغة العربية كما فعل

﴿التربية بالقصص﴾ عني حامد القصبي المهندس في تنظيم القاهرة باخراج طبعة جديدة من كتابهِ «التربية بالقصص» وهو من خير الكتب التي تعطى للصغار لمطالعتها فيتعلمون الاسلوب العربي الجزل، والفضائل التي تروى عن رجال الشرق والغرب. وغني عن البيان ان «التربية بالقصص» من افضل الوسائل في تثبيت المعاني الادبية المجردة في نفوس الصغار. وهذه الطبعة مضبوطة بالشكل الكامل ومزينة بصور كثيرة ترغّب الصغار في القراءة

﴿الطفل الشاذ﴾ احمد عطية الله، مؤلف هذا الكتاب من شباننا الذين لا يكلّون عن البحث والتأليف والنشر. بل انهُ قامر بماله الخاص في نشر «دائرة معارف التربية» في حين ان كثيرين من اصحاب الاموال لا يهمهم ان يبذلوا في هذا السبيل قرشاً واحداً. وآخر مؤلفاتهِ بحث نفسي في الطفل الشاذ وتربيتهِ. وقد قسمهُ الى اربعة اقسام عامة هي: — معنى الشذوذ. الشذوذ الجسمي. الشذوذ العقلي. الشذوذ الخلقي. وأجمل تحت كل موضوع ما يقال فيهِ من الناحية النفسية النظرية والناحية العملية. فيحسن ان تقتنيه ربات الأسر المتعلمات لأن فيهِ من الحقائق والارشادات ما يمكنهن من الاضطلاع بتربية الصغار على افضل وجهٍ. والكتاب على صغر حجمهِ مفيد كل الفائدة. وثمنهُ قرشان

الجزء الخامس من المجلد الحادي والثمانين

